المذاهب الفكرية المعاصرة

ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها

تأليف

د. غالب بن علي عواجي

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

الجزء الأول

المكتبة العصرية الذهبية

جدة

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - 2006 م

المكتبة العصرية الذهبية
للطباعة والنشر والتسويق
جدة - ت : ٦٧٣٩٥٥٤ - ٦٢٩٣٨٤١
الرياض : ٤٧٦٥٠٠٨ - ٤٧٧٤٨٤٤



المقدمــة

الحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات . الحمد للَّه الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه . والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن المذاهب الفكرية أصبحت اليوم طوفاناً عارماً تتجاذب الناس يميناً ويساراً وتتقاذف بهم أمواجها كأنهم ﴿ **فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)** ﴾ [١] .

إنها الحقيقة الناصعة والنصيحة الخالصة فإنني أتقدم إليك أخي القارئ الكريم أحسن اللَّه ثوابك وأكرمك بأحسن خصال الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن .

---

(١) سورة النور ، آية : ٤٠

أتقدم إليك بهذا العمل المتواضع الذي قطفت لك ثماره من شتى الرياحين التي ازدانت بها بساتين المعرفة عسى أن تجد فيه ما كنت تطلب معرفته عن المذاهب الفكرية فإن الحكمة ضالة المؤمن . وأعيذك أن تظن أنني أبالغ في وصف ما يعيشه الناس اليوم من مذاهب وأفكار لا يعلم مدى خطرها إلا اللَّه تعالى وستلمس ذلك إن شاء اللَّه من خلال ما ستقرؤه في هذا البحث إذا كنت من المهتمين بالاطلاع على مثل هذه الحركات والمذاهب . وتحب أن تتجنب دواماتها العميقة التي جعلت الحليم حيران . ولا تندهش إذا كنت لم تسمع بمثل هذه الأخطار والكَرِّ والفَرِّ بين أهل الخير وأهل الشر من أهل المذاهب الباطلة في مقابل مذهب أهل الحق . لا تندهش فإن الذي لا يعرف البحار لو قيل له عن كثرة ماء البحر وتلاطم أمواجه الهادرة لما صدَّق بذلك وكذلك المذاهب المختلفة وتياراتها الجارفة ذلك أنه لا يرى ولا يحس بمدى خطر تلك المذاهب إلا من تتَّبع أخبارها وعرف ما تنطوي عليه من مصائب تنتظر البشرية لتطحنهم مع أخلاقهم وأديانهم وعاداتهم ومجتمعاتهم ليصبحوا في النهاية ذيولاً ومراكب لقوى الشر خصوصاً اليهودية العالمية الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولاذمَّة .

إنني أبث شجوني لك أيها القارئ الكريم هنا لأنني أعتقد يقيناً أن نصيحتك واجبة عليَّ فإن تذكيرك بما يدور في هذا العالم ينفعك بدون شك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [1] . وأنت ترى بكل

(١) سورة الذاريات ، آية : ٥٥

وضوح ما وصل إليه العالم الإسلامي من تفكك وضياع وإهانات تلو إهانات على أيدي سُرَّاق العقول من الشرق أو الغرب . فقد اختلط الأمر عند الكثير من الناس فلم يفهموا الحضارة الحقيقية المثمرة من غيرها من الحضارات الزائفة حيث تملَّكهم الانبهار بما أجرى اللَّه على أيدي أعداء الإسلام من معرفة ظواهر من الحياة الدنيا قد أخبرنا اللَّه في كتابه الكريم أنه سيُجريها على أيديهم لتقوم الحُجَّة عليهم وعلى من تبعَهم حيث قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾[1] .

فقد كان الناس في الزمن القديم لا يتصوَّرون أن يصل الخبر من السماء إلى الأرض على النبي ﷺ لبُعد المسافة فإذا بالهواتف - التليفونات - تأتي شواهد قوية على إمكان ذلك بكل يسر وسهولة ، وكانوا لا يتصورون أن تسجل الملائكة كل ما يصدر عن الإنسان فإذا بالمسجلات التي هي من صنع البشر توضح ذلك وتصدِّقه ، وكانوا لا يتصورون أن تُقطع المسافات البعيدة في وقت قريب بل كذبت قريش أن يكون الرسول ﷺ أُسريَّ به ومر ببيت المقدس وعاد إلى مكة من ليلته فإذا بهذه المواصلات الهائلة التي ربما تقطع المسافة من بيت المقدس إلى المدينة بما لا يتعدى الدقائق القليلة كما في السفن الفضائية وغير ذلك مما أظهره اللَّه تعالى ليستيقن الذين آمنوا وتتشرح صدورهم ويزدادوا إيماناً ويقيناً بربهم ثم بدينهم ونبيهم ﷺ .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٥٣

لقد عظُمت الدعايات في عصرنا الحاضر وتوفرت طرق وأساليب لم يسلكها السابقون ، بل لم يتصوروا وقوعها جعلت من المذاهب المنحرفة الضالة سفينة نجاة لمن يلوذ بها ، بسبب قوة الإعلام من مرئي ومسموع إذاعات وراديوهات وتليفزيونات وصحف ومجلات وإنترنت وسينما ، وغير ذلك من الوسائل الهائلة التي تُسَخَّر لزعزعة الإيمان باللَّه وبدينه في قلب كل شخص أُشربَ حبَّها وانبهر ببريقها المزخرف حيث نسى الكثير من الناس أن في الإسلام عدالة وارفة الظلال فصاروا لا يتكلمون إلاَّ بلسان تلك المذاهب المنحرفة ولك فيما أغرموا به من الولع وترديد الديمقراطية خير مثال على ذلك ونَسوا في خضم ذلك كثيراً من الأخلاق والسلوك الطيب الذي دعت إليه الشرائع وأذعنت له الفِطر السليمة والعقول المستقيمة . ونسوا أن الحياء والحشمة فطرة في النفوس التي لم تدنسها الأهواء والشبهات فصاروا يتبجَّحون بما وصلت إليه الأفكار المنحرفة فأصبح العُريُ الفاضح تقدماً تحت مسمى الحرية الزائفة . وهكذا سارت الأمور في كل قضية من قضايا الحياة تغيرت المفاهيم فيها وانقلبت الأمور وقد قيل :

يُقضَى على المرء في أيام مِحْنَته * حتى يَرى حَسناً ما ليسَ بالحَسَنِ**

وقد كان من أسباب إقدامي على جمع هذه المادة :

١ ـ إنني كُلفت بتدريسها في مرحلتي الماجستير والدكتوراه منذ فترة طويلة وكنت مدركاً لأهمية هذه الدراسة ومدى المسؤولية العظيمة فيها وكذلك مدى حاجة الدارسين إلى استيعابها واحتساب الصعاب لتذليلها .

وكان لإقبال الطلاب على معرفتها ومناقشاتهم أثناء الدروس نِعم العون لي بعد اللَّه تعالى على تجدد النشاط كلما فترت الهمَّة فتضاعف العزم على جمع شتاتها من مختلف الوسائل كتب ـ إذاعات ـ مجلات ـ صحف ـ مقابلات ـ نشرات أخبار إلى آخر تلك الوسائل الكثيرة التي يجب أن تكون مصادر مهمة لدارسي المذاهب الفكرية وكنت أسجل أي فائدة تمر بي من أي مصدر كان في الوقت الذي كنت أدون فيه ما سألقيه في قاعة الدرس وأعرضه على الدارسين . فاجتمع لي ولله الحمد هذه المادة التي بين يديك معترفاً بأنها جهد المُقِل ولولا أملٌ أجده في نفسي في ثواب اللَّه وما عسى أن يجد القارئ فيها من فائدة هنا أو هناك لما أقدمت على طباعتها ونشرها فقد كتب كثير من الناس تحت أسماء مختلفة كتباً لا تساوي المداد الذي كتبت به إضافة إلى ما فيها من المضرة في الأخلاق والسلوك وغيرهما .

٢ ـ أنني أردت أن أضم صوتي إلى أصوات أولئك الميامين من الغيورين على دينهم وشباب أمتهم ورد ما يتفوَّه به المغرضون الحاقدون ضد الإسلام من تهم باطلة وسخرية ظالمة به وبالمتسكين به علَّ كلمة من هذا وأخرى من ذاك تنفع سامعها لكسر تلك الأفكار العابثة .

٣ ـ رغبة الأحبة من طلاب العلم الذين درَّستهم ومن غيرهم الذين أُكنُّ لهم أصدق المودة وأعمق الحب الذين طلبوا أن تكون هذه الدراسة متداولة بين أيديهم فأجبتهم لحُسن ظني بهم .

واللَّه تعالى أسأل أن يتجاوز عن التقصير ويغفر الأخطاء ويبارك في الجميع فإن كان فيها ما ينفع فالحمد للَّه وإن كان غير ذلك فلا حول ولا قوة إلا باللَّه ، وقد جعلتها على أبواب وفصول ومطالب ومباحث يتدرج القارئ فيها ما بين أدلة سمعية وأخرى عقلية ومناقشات هادفة ونتائج واضحة مسلمة ليرى كل طالب علم ، بل وكل مسلم موقفه الصحيح من تلك التيارات المتصارعة والمتسابقة إلى بسط النفوذ الفكري في العالم ، والخيرَ أردتُ ولكل امرئ ما نَوَى ، وحسبي اللَّه ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلاَّ باللَّه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن .

وفيما يلي بيان تلك الأبواب والفصول .

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

المدينة النبويَّة

١٤٢٦/٣/٢٤هـ

المقـدمة :

الباب الأول

دراسة عند المذاهب الفكرية وآثارها السيئة

ويشتمل على الفصول الآتية :

الفصل الأول : أهمية دراسة مادة المذاهب الفكرية .

الفصل الثاني : التعريف بالمذاهب الفكرية ولماذا سُميت مذاهب فكرية ؟

الفصل الثالث : بيان الأهداف من دراستنا المذاهب الفكرية وفوائدها .

الفصل الرابع : هل أعطيت المذاهب الفكرية حقها من العناية والاهتمام في المدارس الإسلامية ؟

الفصل الخامس : أسباب نشأة المذاهب الفكرية وفيه مبحثين :

المبحث الأول : نشأتها في الغرب .

المبحث الثاني : أسباب انتشارها في ديار العالم الإسلامي .

الفصل السادس : الآثار السيئة للمذاهب الفكرية ، وفيه المباحث الآتية :

تمهيد :

المبحث الأول : عدم تطبيق الشريعة الإسلامية .

المبحث الثاني : انتشار فساد الأخلاق والقيم .

المبحث الثالث : نشر الفساد عن طريق استخدام النساء وفيه المطالب الآتية :

المطلب الأول : قضية المرأة في النظم الجاهلية وفي الإسلام .

الباب الثاني

الحضارة الغربية وموقف المسلمين منها

وتشمل دراستها الفصول الآتية :

الباب الثـالث
أهمية التفكير والبحث العلمي عند المسلمين
وجهـود علماء المسلمين في ذلك

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

الفصل الأول : مناسبة دراسة هذا الموضوع لدراسة المذاهب الفكرية .

الفصل الثـــاني : ثمار الحضارة الإسلامية .

الفصل الثـــالث : التعريف بالتفكير العلمي عند المسلمين .

الفصل الرابـــع : حركة التفكير العلمي وجهود علماء المسلمين في ذلك .

الفصل الخامس : هل يصح نسبة الفكر إلى الإسلام .

الفصل السـادس : معنى القول بأن التفكير العلمي مستحدث في الإسلام والعوامل التي اقتضت رد هذا التفكير المستحدث .

الفصل الســابع : شمول التفكير والبحث العلمي عند المسلمين .

الفصل الثــامن : المراحل التي مرب بها التفكير والبحث العلمي عند المسلمين .

الباب الرابع
الفكر التجريبي عند المسلمين

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

تمهـــــيد :

الفصل الأول : معنى الفكر التجريبي .

الباب الخـامس

التنصـــير

ويشمل الفصول والمباحث الآتية :

تمهــــــيد :

المطلب الأول : التنصير في السنغال .

المطلب الثاني : التنصير في اندونيسيا .

المطلب الثالث : التنصير في تايلاند .

المطلب الرابع : التنصير في السودان .

المطلب الخامس : التنصير في الجزيرة العربية .

المطلب السادس : التنصير في الخليج العربي ويشمل الأماكن الآتية :

١ ـ البحـرين .

٢ ـ الكــويت .

٣ ـ عُمـــان .

٤ ـ قطـــر .

٥ ـ الإمارات .

المبحث الثالث : أسباب انتشار التنصير في البلاد الإسلامية .

المبحث الرابع : الأساليب التي يتبعها أعداء الإسلام في حربهم له واتفاقهم على ذلك وفيه :

المطلب الأول : بيان أنواع الوسائل والطرق إجمالاً .

المطلب الثاني : تخطيط ناجح للتنصير عبر الوسائل الآتية :

١ - عن طريق المؤتمرات التنصيرية .

٢ - عن طريق الجمعيات التنصيرية.

٣ - عن طريق الإعلام .

٤ - عن طريق الدعايات للمسيح ﷺ .

٥ - عن طريق الدعايات لكتابهم الذي يقدسونه .

٦ - عن طريق الدعايات لدينهم .

٧ - عن طريق التعليم .

٨ - عن طريق المعاهد .

٩ - عن طريق الطب .

١٠ - عن طريق الخدمات الإجتماعية المجانية .

١١ - عن طريق استغلال الأماكن التي تقوم فيها الحرب .

١٢ - عن طريق حاجة المسلمين إلى الأيدي العاملة من النصارى .

١٣ - عن طريق استغلال المرأ

١٤ - عن طريق الصناعات .

١٥ - عن طريق التجارة .

١٦ - عن طريق تحديد النسل .

١٧ - عن طريق محاصرة الإسلام .

١٨ - عن طريق تحبيب الصليب إلى الأطفال .

١٩ - عن طريق أعياد الميلاد .

٢٠ ـ عن طريق تأليب الحكام على المصلحين .

٢١ ـ عن طريق السخرية بعلماء الإسلام .

٢٢ ـ عن طريق الهزائم النفسية .

الباب الســـادس

الاســـتشـــراق

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

الفصل الأول : المقصود بالاستشراق .

الفصل الثـــاني : حقيقة أمر المستشرقين .

الفصل الثـــالث : السبب في تغيير الغرب اسم التنصير إلى الاستشراق .

الفصل الرابـــع : العلاقة بين الاستشراق والتنصير وحكومات الدول النصرانية .

الفصل الخامس : متى ظهر الاستشراق .

الفصل السادس : نشاط المستشرقين وبيان أهدافهم وأساليبهم .

الفصل الســـابع : بث الخلافات والفُرقة بين الشعوب الإسلامية .

الفصل الثـــامن : أهداف المستشرقين .

الفصل التاســـع : أساليب المستشرقين .

الفصل العاشـــر : التغريب وموقف المسلمين منه .

تمهـــــــيد :

المبحث الأول : إخبار النبي ﷺ عن وجود مثل هؤلاء في المسلمين .

المبحث الثاني : مهمة دعاة التغريب .

الباب السابع

الماسونية

وتشمل دراسة هذا المذهب الفصول الآتية :

المطلب الثالث : نشاط البناي برث .

المطلب الرابـع : أماكن انتشار البناي برث .

الفصل الثاني والعشرون : أشهر الشخصيات الماسونية .

الفصل الثالث والعشرون : أشهر المحافل الماسونية .

الباب الثـــامن

العقــلانيـة أو العصــرانية

ويشمل الفصول الآتية :

الفصل الأول : التعريف بالعقلانية .

الفصل الثــاني : زعماء عصر التنوير .

الفصل الثــالث : المقصود بعصر التنوير .

الفصل الرابــع : قضية العقل في المفهوم الأوروبي والأدوار التي مر بها .

الفصل الخامس : كيف أفاق الأوروبيون .

الفصل السـادس : حقيقة العقل .

الفصل الســابع : هل وفقت العقلانية إلى الحق بالنسبة لموقفهم من العقل .

الباب التاســع

الرأســـمالية

وفيه الفصــول الآتيــة :

تمهـــــيد :

الفصل الأول : التعريف بالرأسمالية .

الفصل الثـــاني : نشأة الرأسمالية وتطورها .

الفصل الثـــالث : أقسام الرأسمالية .

الفصل الرابـــع : أسباب ظهور الرأسمالية .

الفصل الخامس : هل نجحت الرأسمالية في اسعاد الناس .

الفصل السادس : أهم سمات الرأسمالية .

الفصل الســابع : قوانين الرأسمالية .

الفصل الثـــامن : آثار سيئة للرأسمالية .

الفصل التاســع : أماكن انتشار الرأسمالية .

الفصل العاشـــر : حكم الرأسمالية والفرق بينها وبين نظام الإسلام .

الفصل الحادي عشر : مشاهير دعاة الرأسمالية .

الباب العاشـــر

العلمـــانيـة

ويشمل الفصول الآتية :

تمهـــــيد :

الفصل الأول : حقيقة التسمية .

الفصل الثـــاني : التعريف الصريح للعلمانية .

الفصل الثـــالث : نشأة العلمانية وموقف دعاتها من الدين وبيان الأدوار التي مرت بها .

الفصل الرابـــع : الرد على من زعم أنه لا مقافاة بين العلمانية وبين الدين .

الفصل الخامس : أسباب قيام العلمانية في أوروبا .

الباب الحادي عشر

الديمقراطية

وتشتمل دراسة هذا المذهب على الفصول الآتية :

الفصل التاسع : نظرية السيادة ، وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : ما هي نظرية السيادة ؟

المبحث الثاني : أساس قيام نظرية السيادة .

المبحث الثالث : ما مدى صحة نظرية سيادة الشعب .

المبحث الرابع : المسلمون ونظرية السيادة .

المبحث الخامس : حكم السيادة في الإسلام .

الباب الثاني عشر

الإنسانية أو العالمية أو الأممية

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

تمهيد :

الفصل الأول : المقصود بالإنسانية .

الفصل الثاني : سبب انتشار دعوى الإنسانية .

الفصل الثالث : أماكن انتشار الإنسانية .

الفصل الرابع : هل يحقق مذهب الإنسانية السعادة ؟

الفصل الخامس : هل تحققت دعاوى الإنسانية بالفعل ؟

الفصل السادس : هل تقبل الدعوى الإنسانية التعايش مع الإسلام والمسلمين ؟

الفصل السابع : الإنسانية والمغريات .

الفصل الثامن : الإنسانية والقومية والوطنية .

الفصل التاسع : تناقض دعاة الإنسانية .

الفصل العاشر : زعماء الدعوة الإنسانية .

الفصل الحادي عشر : الإنسانية الحقيقية والرحمة الصادقة هي في الإسلام .

الباب الثالث عشر

الوجودية

وتشتمل على الفصول الآتية :

الفصل الأول : التعريف بالوجودية .

الفصل الثاني : أقسام الوجودية .

الفصل الثالث : ظهور الوجودية وأبرز زعمائها .

الفصل الرابع : من هو سارتر .

الفصل الخامس : الوجودية هي الفوضى .

الفصل السادس : أسباب انتشار الوجودية .

الفصل السابع : الرد على الوجوديين .

الباب الرابع عشر

الروحية

وتشمل دراستها الفصول الآتية :

تمهيد :

الفصل الأول : تعريف الروح .

الفصل الثاني : ظهور الروحية .

الفصل الثالث : انتشار هذا المذهب .

الفصل الرابع : منزلة فكرة تحضير الأرواح .

الفصل الخامس : أدلة دعاة تحضير الأرواح .

الفصل السادس : مجمل عقائد الروحيين .

الفصل السابع : حقيقة الروحية وأبرز زعمائها .

الفصل الثامن : الروحية والملاحدة .

الفصل التاسع : قضية الإلهام .

الباب الخامس عشر

القومية

ويشمل الفصول الآتية :

الفصل الأول : المقصود بالقومية .

الفصل الثاني : دراستنا للقومية .

الفصل الثالث : كيف ظهرت القومية .

الفصل الرابع : متى ظهرت القومية .

الفصل الخامس : كيف تسربت دعوى القومية إلى البلدان العربية والإسلامية .

الفصل السادس : نتيجة ظهور القومية بين المسلمين .

الفصل السابع : ماذا يُراد من وراء دعوى القومية .

الفصل الثامن : هل المسلمون في حاجة إلى التجمع حول القومية ؟

الفصل التاسع : هل تحققت السعادة المزعومة في ظل القومية .

الفصل العاشر : خداع القوميون .

الفصل الحادي عشر : إبطال فكرة القومية .

الفصل الثاني عشر : نقض الأسس التي قامت عليها القومية .

الفصل الثالث عشر : الإسلامي والقومية .

الفصل الرابع عشر : مصادر دعم القومية .

الفصل الخامس عشر : أهم مشاهير دعاة القومية العربية .

خاتمة الدراسة .

الباب السادس عشر

الوطنية

وتشمل دراستها الفصول الآتية :

الفصل الأول : بيان حقيقة الوطنية .

الفصل الثاني : القومية والوطنية .

الفصل الثالث : كيف نشأت دعوى الوطنية .

الفصل الرابع : هل نجحت الوطنية في تأليف القلوب ؟

الفصل الخامس : الإسلام والوطنية .

الفصل السادس : نتائج تقديس الوطنية .

تعقيب على ما سبق .

الباب السابع عشر

المذهب الوضعي

ويشمل الفصول الآتية :

الفصل الأول : حقيقة المذهب الوضعي .

الفصل الثاني : زعماء المذهب الوضعي .

الفصل الثالث : سبب قيام المذهب الوضعي .

الباب الثامن عشر

الإلحاد

ويشمل الفصول الآتية :

تمهيد :

الفصل الأول : المراد بالإلحاد .

الفصل الثاني : كيف تدرجوا في إظهار الإلحاد .

الفصل الثالث : أقسام الإلحاد .

الفصل الرابع : أسباب ظهور الإلحاد .

الفصل الخامس : هل يلتقي الاسلام مع الأنظمة الإلحادية .

الباب التاسع عشر

الإشـــتراكية

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

تمهـــــــيد :

الفصل الأول : معنى الإشتراكية .

الفصل الثـــاني : أقسام الإشتراكية .

الفصل الثـــالث : متى ظهرت الإشتراكية .

الفصل الرابـــع : هل الإشتراكية هي الشيوعية .

الفصل الخامس : مزاعم الإشتراكيين ودعاياتهم .

الفصل السادس : قوانين الإشتراكية .

الفصل الســـابع : خداع الإشتراكيين في زعمهم أن الإشتراكية لا تتعارض مع الإسلام .

الفصل الثـــامن : كيف غزت الإشتراكية بلدان المسلمين .

الفصل التاســـع : دعاة على أبواب جهنم .

الباب العشـــرون

الشـــيوعيـة

وتتكون دراستها من فصلين وتحتهما مباحث :

الفصل الأول : دراسة عن الشيوعية .

الفصل الثـــاني : دراسة عن الأحوال الاقتصادية في الإسلامي وفي المذاهب الوضعية .

أما الفصل الأول فيشمل المباحث الآتية :

تمهيد عام عن الشيوعية :

المبحث الأول : قيام الشيوعية الأولى بقيادة مزدك .

المبحث الثاني : من أكاذيب الشيوعيين .

المبحث الثالث : رد زعم الملاحدة أن البشرية قامت على الشيوعية الأولى .

المبحث الرابع : زعامة الشيوعية الماركسية .

المبحث الخامس : الأسس التي قامت عليها النظرية الشيوعية .

المبحث السادس : التفسير المادي للتاريخ والأطوار المزعومة له والرد عليها .

المبحث السابع : التفسير المادي للإنسان .

المبحث الثامن : التفسير المادي للقيم الانسانية .

المبحث التاسع : حرب الأخلاق والقيم .

المبحث العاشر : القضاء على الأسر .

المبحث الحادي عشر : محاربة الدين .

المبحث الثاني عشر : سبب قيام الحضارة الإلحادية علي العداء للدين .

المبحث الثالث عشر : هل يوجد بين الدين والعلم نزاع ؟

المبحث الرابع عشر : إنكار وجود اللّه تعالى وتقدّس ، وهل البشر في حاجة إلى أدلة لاثبات وجود اللّه تعالى ؟ وبيان شبهاتهم .

المبحث الخامس عشر : روافد أخرى للإلحاد .

الفصل الثاني : الاقتصاد في الإسلام وفي المذاهب الوضعية ، وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : قضية الملكية الفردية والجماعية ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الملكية في الاسلام وفيه أمران :

١ ـ حب التملك الفردي فطرة في الانسان .

٢ ـ الملكية الفردية والجماعية في الإسلام .

المطلب الثاني : الملكية في المذاهب الوضعية وفيه أمران :

١ ـ الملكية في الرأسمالية .

٢ ـ الملكية في الشيوعية الماركسية .

المبحث الثاني : رد مزاعم الملاحدة الشيوعيين وفيه مطلبان :

المطلب الأول : رد مزاعمهم في الملكية الفردية .

المطلب الثاني : رد مزاعمهم في نشأة الصراع الطبقي .

المبحث الثالث : إيضاح بعض الجوانب الاقتصادية وتشمل دراسة هذه الجوانب المطالب الآتية :

المطلب الأول : التعريف بعلم الاقتصاد .

المطلب الثاني : مدى أهمية العامل الاقتصادي في حياة الإنسان .

المطلب الثالث : أهمية دراسة الأحوال الاقتصادية .

المطلب الرابع : الغزو الفكري عن طريق الاقتصاد .

المطلب الخامس : المال في الإسلام .

المطلب السادس : وجود الموارد وندرتها .

المطلب السابع : مدى صحة تعليل أصحاب النظام الوضعي للمشكلة الاقتصادية .

المطلب الثامن : تنظيم الإسلام للشؤون المالية وطريقة معالجته لمشكلة الفقر وفيه المسائل الآتية :

تمهيد :

المسألة الأولى : التكافل الاجتماعي العام في الإسلام .

المسألة الثانية : الإتفاقيات في العمل .

المسألة الثالثة : الكسب المشروع وغير المشروع وفيها :

١ ـ الكسب المشروع .

٢ ـ الكسب غير المشروع

الكسب من وراء السلطة .

المسألة الرابعة : فرض الإسلام إخراج جزء من المال ـ فريضة الزكاة ـ وفيها :

١ ـ مشروعية الزكاة .

٢ ـ آثار الزكاة على النفس والمجتمع .

المسألة الخامسة : الضرب في الأرض وطلب الكسب .

المسألة السادسة : الصدقات .

المسألة السابعة : الوقف .

المسألة الثامنة : الميراث .

المسألة التاسعة : الوصية .

المسألة العاشرة : الحث على الإيثار .

المسألة الحادية عشر : الهدايا والهبات .

المسألة الثانية عشر : التكافل الأسري .

المسألة الثالثة عشر : موارد أخرى متنوعة .

١ ـ زكاة الفطر .

٢ ـ لحوم الأضاحي .

٣ ـ توزيع ما لا يحتاج إليه الموسرون .

٤ ـ إطعام مسكين في كل يوم للكبير والمريض عند العجز عن الصوم .

٥ ـ توزيع الهَدي على الحاج أو المعتمر عند ارتكاب أي محظور .

٦ ـ سائر الكفَّارات .

ـ كفَّارة الأيمان .

ـ كفَّارة الإفطار.

ـ كفَّارة الظهار .

ـ كفَّارة القتل الخطأ .

ـ كفَّارة قتل المحرم للصيد عمداً .

المسألة الرابعة عشر : التكافل عن طريق العارية .

المسألة الخامسة عشر : رعاية العاجزين والضعفاء .

١ ـ الأطفال عموماً .

٢ ـ الأيتام .

٣ ـ اللُّقَطاء .

٤ ـ أصحاب العاهات .

٥ ـ الشواذ والمنحرفين .

٦ ـ المطلقات والأرامل .

٧ ـ الشيوخ والعجزة .

٨ ـ المنكوبين والمكروبين .

٩ ـ الغارمين وأصحاب الديون المعسرين .

المسألة السادسة عشر : تحريم التعامل بالمال في بعض الأمور .

تمهيد :

١ ـ تحريم الاحتكار .

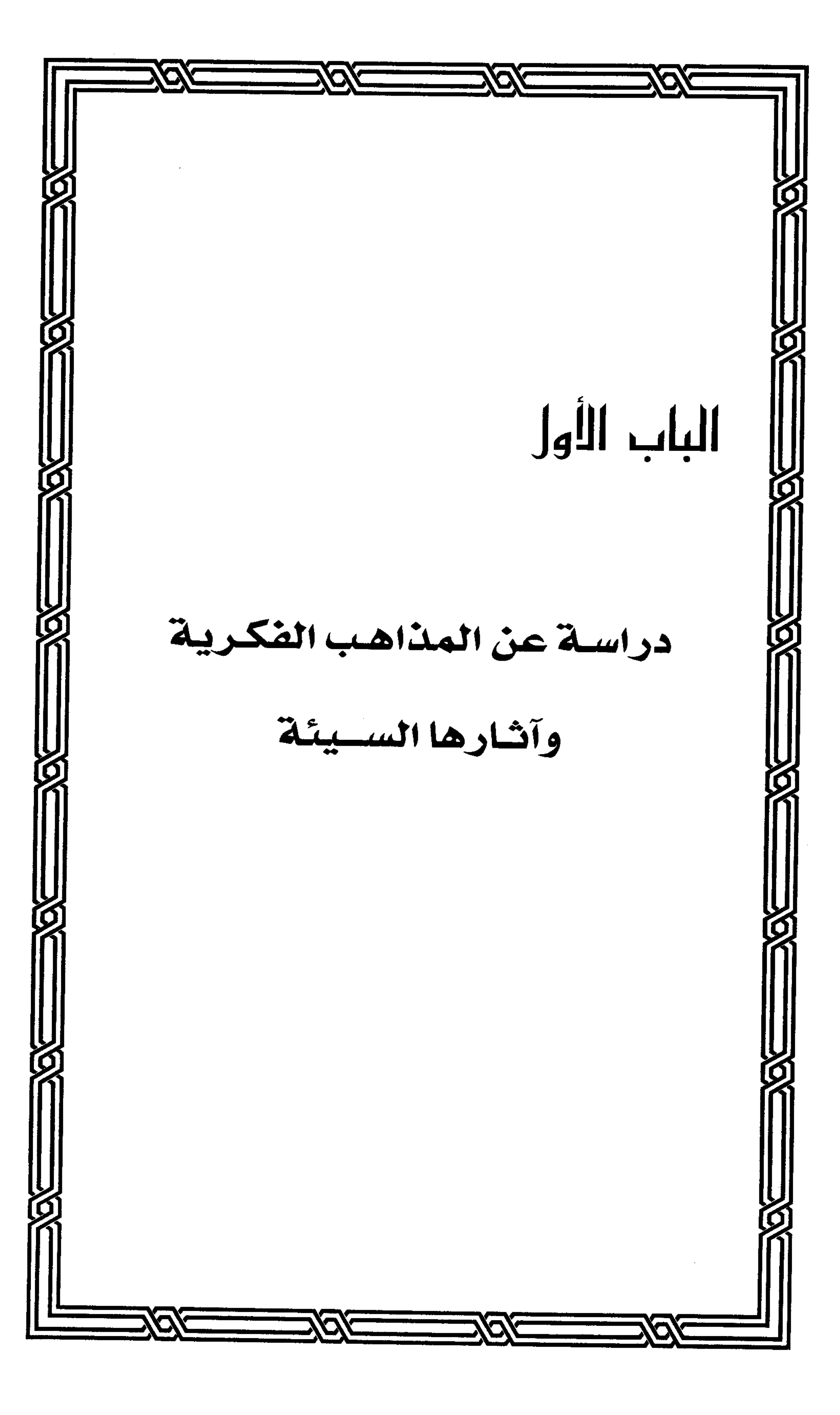
٢ ـ تحريم الغش .

٣ ـ تحريم المكاسب التي تأتي دون مقابل حلال كالقمار .

المبحث الرابع : التكافل في النظم البشرية وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التكافل في الرأسمالية .

المطلب الثاني : التكافل في النظام الشيوعي .



الباب الأول

دراسة عن المذاهب الفكرية

وآثارها السيئة



الباب الأول
دراسة عن المذاهب الفكرية وآثارها السيئة

ويشتمل على الفصول الآتية :

الفصل الأول : أهمية دراسة مادة المذاهب الفكرية .

الفصل الثاني : التعريف بالمذاهب الفكرية ولماذا سُميت مذاهب فكرية ؟

الفصل الثالث : بيان الأهداف من دراستنا المذاهب الفكرية وفوائدها .

الفصل الرابع : هل أعطيت المذاهب الفكرية حقها من العناية والاهتمام في المدارس الإسلامية ؟

الفصل الخامس : أسباب نشأة المذاهب الفكرية وفيه مبحثين :

المبحث الأول : نشأتها في الغرب .

المبحث الثاني : أسباب انتشارها في ديار العالم الإسلامي .

الفصل السادس : الآثار السيئة للمذاهب الفكرية ، وفيه المباحث الآتية :

تمهيد :

المبحث الأول : عدم تطبيق الشريعة الإسلامية .

المبحث الثاني : انتشار فساد الأخلاق والقيم .

المبحث الثالث : نشر الفساد عن طريق استخدام النساء وفيه المطالب الآتية :

المطلب الأول : قضية المرأة في النظم الجاهلية وفي الإسلام .

الفصل الأول

أهمية دراسة مادة المذاهب الفكرية

تمهـــيد :

هذه إحدى المواد المقررة في منهج الدراسات العليا بقسميها الماجستير والدكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية . وهي مادة شيقة في دراستها عظيمة الفوائد في نتائجها .

وقد لمست من طلاب العلم أثناء تدريسي لها بقسمي الماجستير والدكتوراه إقبالاً شديداً وحماساً يبعث النشاط والانشراح في النفس وما ذلك إلا لأن هؤلاء الطلاب قد استشعروا أهميتها وعرفوا ما يواجههم بعد تخرجهم من الجامعة من وقوف أعداء الإسلام ضدَّهم وضد دينهم وجهاً لوجه ، وما سيلقونه عليهم من شبهات كقطع الليل المظلم وأنه لا قدرة لهم على تلك المواجهات المستمرة إلاَّ بعون اللَّه عزَّ وجلَّ ثم بإعداد العدة مبكراً والاهتمام بأخذ الحيطة والحذر وذلك بالتزود لها بدراسة تلك المذاهب والاطلاع الجيد على عوارها ومعرفة كيفية دحضها . وهم يعرفون جيداً أنه لا يكفي لإبطال تلك الشبهات مجرد قولهم لأصحابها : «أنتم على باطل ونحن على حق ، ولذلك فسوف لا نجادلكم» . فإن مجرد إلقاء هذا الكلام هو أول الفشل

في مجادلتهم ، ولذلك لابد من الاستعداد الجيد كالاستعداد الذي ذكره اللّه تعالى بقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [1] فإن الاستعداد الفكري لا يقل أهمية عن الاستعداد الفعلي بل هو مثله أو أشد خصوصاً في هذه العصور التي ظهرت فيها الفتن كقطع الليل المظلم يرقق بعضها بعضاً ولم يعد للسلاح كبير أهمية إزاء الحرب الفكرية الشرسة وانتشارها تحت شعارات براقة وخدع جذابة تستهوي من يسمعها ولا يعرف حقيقتها .

ولهذا أكرر نصيحتي لكل مسلم ـ ولطلاب العلم خصوصاً ـ أن دراستهم لهذه المذاهب الفكرية التي انتشرت في العالم الإسلامي وغيره انتشار النار في جزل الغضى لهي من أهم المهمات بالنسبة لهم ، وأن الجهد الذي يبذلونه في معرفتها مهما كان كثيراً فإنه في محله ولن يندموا عليه ليكونوا في غاية الحزم إزاء مقارعة تلك الأفكار وإلا كانوا ضحية موجاتها الصاخبة التي توالت ضرباتها ولم تمهل أحداً للتروي والتفكير فيها ، وانتشرت في كل مكان وفي كل اتجاه وقَوِي أعداءُ الدين أعداءُ الأخلاق والقيم والحشمة والفضيلة وانجرف معهم كثير من الناس رجالاً ونساءاً كما يجرف السيل في طريقه ما أمامه من الغثاء الهش الخفيف .

ونادى أهل الخير ونادى المصلحون فإذا بتلك النداءات صرخات في واد أو في صحراء مترامية الأطراف وصدق عليهم قول الشاعر :

لقد أسْمَعتَ لَوْ نادَيْتَ حَيّاً *** ولكنْ لا حَياةَ لِمَنْ تُنادِي

(١) سورة الأنفال ، آية : ٦٠

واحتار العقلاء في هذا المد الجارف من التيارات المختلفة المتصارعة فما يدرون كيف يقاومونه وبأي سلاح يتصدون له ذلك أنه يأتي بلا سلاح ولا جيش بل يأتي في صور جميلة وأغلفة براقة ولكنه يفوق الجيوش وأسلحتهم في تدمير الدين والأخلاق والعادات الحميدة وإحياء النزعات الشريرة وقتل الهمم والانكباب على الرذائل وخصوصاً الجنسية منها التي أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الشباب والشابات في غياب الوعي الديني ومراقبة اللَّه عز وجل وذكر الموت واليوم الآخر ، وانفتاح الدنيا لهم بكل شهواتها وفي كل الاتجاهات ومن هنا فإنني أجد لِزاماً عليَّ أن أنبه إلى أمر مهم وأذكره - رغم مرارته - وهو القول بكل صراحة إن كثيراً من طلاب العلم بصفة عامة - فضلاً عن العامة - قد غفلوا عن تدارس أمر هذه المذاهب والتحذير من شرورها وما جلبته من خراب للأخلاق والقيم كلها ومن استهانة بالدين الحنيف الذي ارتضاه اللَّه لعباده حتى أصبح حالنا كأنه يقول إن هذه المذاهب التي يعج بها العالم لا تعنيكم في شيء مع أنها انفجارات هائلة وصلت شظاياها إلى كل مكان وإلى كل بيت وأن ما تجده من الدعم الإعلامي في مختلف الوسائل الغربية والشرقية على حد سواء والدعامات المختلفة يفوق كل ما يتصوره العقل ، وأسأل اللَّه العظيم لك يا أخي طالب العلم أثناء دراستك إن شاء اللَّه تعالى لهذه العُجالة أن تجد ما يلبي أهم حاجاتك .

واستعفيك أن أتجاوز أموراً كثيراً كنت أود أن أبث شجوني بذكرها لولا أن حديثها ذو شجون وقد يطول عليك سماعه وعلى جمعه وكتابته لأن هذه

المعلومات التي أدونها هنا هي لطلاب مرحلتي الماجستير والدكتوراه أثناء تدريسي لهم ولعلك تعلم أنه لا يوجد كتاب مقرر بعينه على الدارسين ولكن توجد فقرات في المنهج المعد للدراسة .

وما أن أُسند إليَّ تدريس هذه المادة إلا وقع في قلبي تزايد الإحساس بعِظَم هذه المسؤولية وعِظَم جدية الأمر فيها لإفادة إخواني طلاب العلم واحتساب ذلك إن شاء اللَّه تعالى قدر المستطاع ولمعرفتي ـ المتواضعة ـ بأن المعلومات عن المذاهب مُشتَّتة في كتب ومقالات ومجلات وأحياناً في وسائل الإعلام من مسموعة ومرئية وغير ذلك من الوسائل الكثيرة وكلها تتطلب الاطلاع عليها فقمت بعمل أرجو ثوابه عند اللَّه من جانب وأرجو أن يسهل لي تدريس هذه المادة أيضاً من جانب آخر حيث قمت بتغطية فقرات المنهج من شتى المصادر وانتفعت بذلك كثيراً وللَّه الحمد فجمعت ما تشتت ونسقت بين المعلومات وأدليت بدلوي المتواضع في المقارنات والحكم والاستدلال والردود وبيان حكم الإسلام على ضوء النصوص في كل قضية لم أدخر في ذلك جهداً ولا وقتاً إلا وحاولت بذله والاستفادة منه سائلاً المولى العظيم أن يرحم ضعفي وتقصيري وأن يتقبل هذا العمل وينفع به .

وآمل آن يكون ما عملته يسد فراغ المستعجل ويقرب شتات المعلومات التي كانت تحتاج إلى وقت وجهد من الطالب هو في أمس الجاجة إلى استغلاله والاستفادة منه فإن الزمن لا ينتظر أحداً والمشاغل كثيرة والملهيات محدقة بنا ولا حول ولا قوة إلا باللَّه .

الفصل الثاني
التعريف بالمذاهب الفكرية
ولماذا سُمِّيت فكريَّة ؟

قبل الخوض في دراسة المذاهب الفكرية والاتجاهات المضطربة لابد من معرفة المقصود بالمذاهب الفكرية وسبب تسميتها بهذا الاسم ولماذا نُسبت إلى الفكر ؟ كما سنفصله فيما يلي :

معنى المذاهب :

المذاهب جمع مذهب وهو ما يذهب إليه الشخص ويعتقده صواباً ويدين به سواء أكان ما يذهب إليه صواباً في نفس الأمر أو كان خطأ ، ومعنى هذا أن المذاهب تختلف باختلاف مصادرها وباختلاف مفاهيم الناس لها من دينية وغير دينية وما يتبع ذلك من اختلاف في فنونها من فقهية أو لغوية أو رياضية أو علوم عقلية تجريبية أو فلسفات أو غير ذلك . ويجب معرفة أنه لا يخلو إنسان أو مجتمع من مذهب يسير بموجبه مهما اختلفت الحضارة أو العقلية للشخص أو المجتمع .

تمشياً مع سنة الحياة ومع ما جُبل عليه الإنسان الذي ميَّزه اللَّه عن بقية الحيوانات بالعقل والتفكير وحب التنظيم والسيطرة على ما حوله وابتكار المناهج التي يسير عليها إلى آخر الغرائز التي امتاز بها الإنسان العاقل المفكر عن غيره من سكان هذه المعمورة [(١)] .

---

(١) قد لا يشارك الإنسان في هذه الصفات من سكان الأرض غير الجن . واللَّه أعلم .

وقيل لها مذاهب فكرية :

نسبة إلى الفكر الذي تميز به الإنسان عن بقية المخلوقات التي تشاركه الوجود في الأرض ، ويُعرِّفه بعضهم بأنه صنعة العقل الإنساني ومسرح نشاطه الذهني وعطاؤه الفكري فيما يعرض له من قضايا الوجود والحياة [٢] سواء أكان صواباً أو خطأً .

وقد نُسبت المذاهب إلى الفكر لأنها جاءت من ذلك المصدر وهو الفكر أي أنها لم تستند في وجودها على الوحي الإلهي أصلاً أو استعانت به وبما توصل إليه الفكر من نتائج جاءته إما عن طريق الوحي أو التجارب أو أقوال من سبق أو أفعالهم ، وقد تكون تلك النتائج صحيحة وقد تكون خاطئة في نفس الأمر .

وأما بالنسبة لاستنادها إلى الوحي فقد لا يكون ذلك بل ربما كانت تلك الأفكار محاربة له فتُنسب إلى مؤسسيها فيقال الفكر الماركسي أو الفكر الفلسفي أو الفكر اليوناني أو الفكر الصوفي أو غير ذلك من الأفكار التي تُنسب إما لشخصيات مؤسسيها أو لبلدانهم أو لاتجاهاتهم وغير ذلك . ومن هنا يتضح أنه إذا أطلق لفظ الفكر فإن المراد به هو ما يصدر عن العقل من شتَّى المفاهيم والمبتكرات الدينية أو الدنيوية .

ومن هنا سُميت مذاهب فكرية نسبةً إلى المذهب الذي تذهب إليه كل طائفة ونسبةً كذلك إلى أفكارها التي تعتنقها مبتكرة لها أو مقلدة ، وقد انتشرت في العالم أفكار عديدة باطلة سندرس إن شاء اللّه أهمها ونبين مفاهيم تلك الأفكار عند أهلها وصفاتها التي قامت عليها والرد عليها وإيضاح الحق في كل ذلك بعون اللّه تعالى مع الإشارة في المقابل إلى الفكر الصحيح عند المسلمين وبيان معينه الفياض .

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ص ١١ .

الفصل الثـــالث

بيان الأهداف من دراستنا المذاهب الفكرية وفوائدها ولماذا سُمِّيت فكريَّة ؟

من الأمور المسلمة أن كل عام لعمل ما لابد وأن يهدف من وراء ذلك العمل إلى تحقيق غاية ينشدها وإلاَّ عُدَّ عابثاً في عُرف العقلاء . وهذه الغاية إما أن تكون لنفع نفسه من جلب خير لها أو دفع شر عنها وهو أمر جُبل عليه بنو آدم وفطرة فطرهم اللّه عليها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ (١) إلا من استثناهم اللّه تعالى في بقية الآيات .

وإما أن تكون تلك الغاية لنفع غيره من إيصال خير إليه أو دفع شر عنه وهي طبيعة الفُضلاء من الناس ، وأحياناً تلك الغاية يُراد بها إيصال الضرر إلى الغير وأحياناً بغير حق وهي طبيعة الأشرار من الناس .

ونحن في الواقع نريد من وراء هذه الدراسة النفع لأنفسنا والنفع لغيرنا أيضاً إن شاء اللّه ، ونهدف كذلك من وراء دراستنا هذه إلى كشف المؤامرات التي تُحاك ضد الإسلام والمسلمين ليلاً ونهاراً والاطلاع عليها وعلى ما عندنا من الخير العميم في الإسلام وهو أمر لا تخفى ضرورة

---

(١) سورة المعارج ، آية : ١٩ .

الحاجة إليه ولن يتمكن الشخص من معرفة ذلك إلا من خلال دراسة هذه المذاهب التي يحتاج لمعرفتها كل مسلم مهما كان مستواه الثقافي إذ من الظلام تُعرف قيمة النور ، وبضدِّها تَتميَّزُ الأشياء .

كما نهدف كذلك من وراء هذه الدراسة أن نتمكَّن من القيام بواجب النصح للَّه تعالى ولرسوله ﷺ ولعامة المسلمين ، بل ولكل شخص ، وتحذير إخواننا المسلمين من الوقوع في شيء من تلك المذاهب الهدَّامة وأن يرجع الشخص الذي وقع فيها إلى الحق وينبذ باطل تلك المذاهب الجاهلية ، قال ﷺ : «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» ، قُلنا : لِمَن يا رسول اللَّه ؟ قال : «**لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأئمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِم**» [1] .

كما أننا لا نريد كذلك لفت أنظار المسلمين إلى ما كان عليه أسلافهم الكرام من العزة والكرامة حينما كانوا بعيدين عن التأثر بتلك التيارات المنحرفة التي غزت المسلمين على حين غفلة منهم ونُذكِّرهم كذلك بالحال الذي وصلوا إليه بعد تأثرهم بمختلف التيارات المنحرفة الضالة ، من شيوعية أو اشتراكية أو ماسونية أو بعثية ... إلى آخر ما هناك ، وبيان هوانهم على الأمم بعد أن نسوا اعتزازهم بدينهم . كما تهدف كذلك إلى الوقوف في وجوه أعداء الإسلام وعدم ترك المجال لهم للَّهجوم على العقيدة الإسلامية والحط من حضارة المسلمين وتراثهم وبالتالي تنفيذ مآربهم الشريرة في ديار المسلمين وفي أفكارهم وتحقيق رغبتهم في إيجاد أجيال تُنسَب إلى الإسلام دون أن تُفرِّق بينه وبين المذاهب المنحرفة ،

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٣٠ . صحيح مسلم ج ١ ص ٧٤ .

ومن هنا فإن الأمر جِدٌّ والحال خطرٌ والغَفلة في مثل هذه الحال من أقوى أسباب الهلاك . وطلاب العلم خصوصاً من كان في مستوى الدراسات العليا يتحتم عليه أكثر من غيرهم أن يكونوا على إلمام واسع بمعرفة المبادئ والمذاهب الضالة ومعرفة بأصحابها وبالأخطار التي تهدد العالم الإسلام وتكيد له ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً مع مقارنة كل ذلك بما أكده ديننا لاحنيف الذي هو سفينة النجاة في خضم هذه التيارات والمذاهب التي قامت على الهوى والبُعد عن منهج اللَّه تعالى .

وعلى هذا فإن فوائد دراسة المذاهب الفكرية أمر واضح الأهمية ، فإذا دقق المسلم طالب العلم النظر في الحركات الفكرية في هذا العالم فإنه سيراها كبحر متلاطم الأمواج ، وسيرى صراعاً هائلاً بين مختلف الأفكار وأنه سيواجهها وجهاً لوجه شاء أم أبى ، وأنه يتحتم عليه أن يكون جندياً حامياً لعقيدته واثقاً مما أخبر اللَّه عزَّ وجلَّ به في كتابه الكريم عن مواقف المخالفين للإسلام بالنسبة للمسلمين وكيف يعاملونهم وما مدى الصلة الروحية بينهم واثقاً في قوله تعالى : ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (١٢٠) ﴾ [(١)] . وفي قوله تعالى : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [(٢)] فيعلم علم اليقين أنه لا وفاق

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٨٢ .

بين المختلقين في العقيدة وإذا حصل وفاق مع اختلاف العقيدة فإنه نفاق وليس بوفاق ، وتقول العامة : «من ليس على دينك فإنه لا يعينك» أما إذا كان الخلاف في غير أمر العقيدة فإنه ينتهي ويزول عاجلاً أو آجلاً وتعقبه المودة والألفة كما هو الواقع ، وإذا جهل المسلم عقيدته فلابد أن يجهل حقيقة تلك المذاهب الضالة ولا يعرف الفوارق بينها وبين الإسلام وتجده ـ على أحسن الأحوال ـ يخبط خبط عشواء .

ونهدف كذلك من وراء هذه الدراسة إلى أن يكون لدارسيها دربة وفراسة يستطيعون من خلالها معرفة اتجاه الشخص من واقع ما يقوله من العبارات وما يردده من الأفكار التي تنطوي عليها تلك المذاهب ، فإن كل إنسان يتصرف حسب ما يمليه عليه تفكيره كما أن فائدة دراسة المذاهب الفكرية بالنسبة للداعية إلى اللّه تعالى ولمن يتصدى لإصلاح الناس أمر واضح لسلامة عقيدته ومعرفته كذلك باتجاهاتهم الفكرية ، فإن المذاهب الفكرية هي التي تسير حياة الناس في الطريق الصحيح أو الطريق الباطل ، بحيث يوليها أهميته واستعداده لمواجهة أهلها وإفهامه أن المفكرين هم قادة الناس الحقيقيين والموجهين لهم في كل زمان وأن الناس يرجعون إليهم حينما تشتد الأمور وتتطلب التفكير الصحيح شاءوا أم أبوا ، وهذه المزية لا يحصل عليها إلا من اهتم بمعرفة هذا الجانب وعرف كيف يعرض فكرته لأن عرض أية فكرة بنجاح قد يؤدي إلى تغيير حياة المجتمع رأساً على عقب حسب اتجاه تلك الفكرة ، فإن نجاح المذاهب الباطلة التي ظهرت في أوروبا وفي غيرها لم يكن سببه إلا النجاح في عرض تلك المذاهب بصورة واضحة مكتملة في باطلها .

كما أننا نهدف من وراء هذه الدراسة إلى تذكير الدارس للمذاهب بأن في دراستها عبر وعظات تزيد المسلم يقيناً وإيماناً بدينه من خلال اطلاعه على مصير الضالين والظالمين ومصير تلك المذاهب وبقاء الإسلام عالياً شامخاً على مر الدهور بحفظ اللّه تعالى له رغم تعرضه لدسائس ومؤامرات لا حد لها ، وكذلك فإن دراسة هذه المذاهب تجعل الشخص يطمئن إلى سلامة تفكيره وسلوكه واعتقاده وتصرفاته لأنه بضدها تتميز الأشياء فإذا عرف المذاهب الباطلة عرف أن الحق في سواها ، بالإضافة إلى أننا حينما نفكر نتمثل أمر اللّه عز وجل بوجوب التفكر في هذا الكون وما فيه من عجائب خلق السماوات والأرض والإنسان والنبات وغيرها من عجائب خلق اللّه تعالى كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)** ﴾ [١] .

فقد اهتدوا بحسن التفكير إلى أن خلق السماوات والأرض إنما هو بيد اللّه تعالى وأنه لم يخلق شيئاً عبثاً دون حكمة وبداهة أن لهذا الكون خالقاً مدبراً وفي بعض الآيات يذكر اللّه عزَّ وجلَّ خلقه لبعض الأمور ويدعو العقل للتفكر في جليل صنعه عزَّ وجلَّ كما قال تعالى عن خلق

(١) سورة آل عمران ، الآيات : ١٩٠ ـ ١٩١.

النحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾[1] .

وفي إنزال القرآن الكريم يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾[2] .

وعن سبب إيراد القصص في القرآن يقول اللَّه تعالى : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾[3] .

وأمر اللَّه بالسير في الأرض والتفكر في عاقبة من سبقنا من الأمم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾[4] .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي ذكرها اللَّه تعالى في القرآن الكريم وأمر الناس بالتفكر فيها وفي دلالتها والوصول إلى النتائج التي تهدف إليها تلك النصوص لتكون نبراساً يَهتدي بها من أراد اللَّه هدايته .

---

(١) سورة النحل ، الآيات : ٦٨ ـ ٦٩ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١ .

وعليك أيها الطالب للعلم بل وعلى كل مسلم أن يعلم أنه سيواجه شبهات لا حصر لها من قبل زعماء المذاهب الباطلة وسيجدهم العقبة الكؤود أمامه ولذا فإنه يحتاج في الجواب عنها إلى اطلاع واسع وتعمق في معرفة الردود عليها قدر استطاعته .

وأن يعلم كذلك أن الحملات المعادية للإسلام قد اشتدت ضراوتها في مختلف الوسائل من إذاعة وصحافة ومجلة وكتاب وأن عليه أن يواجه ذلك كله بصبر وثبات وأن يستعين باللّه على أداء واجبه نحو دينه بكل جد وإخلاص . ويجب أن يستشعر طالب العلم أنه مسؤول أمام اللّه تعالى عن صدق النصيحة وبالتالي أن عليه أن يبين للمسلمين أنهم إن استمروا على ما هم عليه من التفرقة وانتشار المذاهب الباطلة بينهم واحتدام الصراع فيما بينهم وردود بعضهم على بعض وانشغالهم عن ما يبيته لهم أعداء عقيدتهم عليه أن يبين للمسلمين أنهم إن استمروا على هذا الوضع المخزي أنهم سيصبحون لقمة سائغة لأعدائهم وأنهم سيخربون بيوتهم بأيديهم ويفقؤون أعينهم بأصابعهم ويندمون حين لا ينفعهم الندم .

وقد يسأل سائل عن حالة دراسة المذاهب الفكرية في المدارس الإسلامية . وهل أُعطيت حقها من الدراسة أو لا ؟ نجيبه فيما يلي :

الفصل الرابع

هل أعطيت المذاهب الفكرية حقها من العناية والاهتمام في المدارس الإسلامية ؟

والجواب عن هذا السؤال لا يحتاج إلى ترتيب أو اجتهاد لأن أمره واضح تمام الوضوح وهو النفي المطلق - كما هو واقع الحال - حيث أصبح تدريس الدين وما يتصل به في أغلب الدول الإسلامية يعطي قسمة ضيزى وإنه لأمر يدعو إلى الدهشة ، إذ أن مادة مثل هذه التي يحتاج إليها المسلم مهما كان مستواه التعليمي والاجتماعي لا يجد الباحث عنها ما يروي ظمأه ويشفي غليله وينير له الطريق في وسط ظلمات المذاهب الحالكة لهو قصور واضح .

إن دراسة مثل هذه المادة وتكثيفها في المدارس وفي غير المدارس لهو أمر ضروري ، بل إنه من أوجب ما ينبغي أن يهتم به المسلمون إذا أرادوا صلاح ناشئتهم نشأة إسلامية محصَّنين ضد التيارات العاتية التي يموج بها العالم من أدناه إلى أقصاه ، إذ ما من مسلم إلا وهو يواجه - شاء أم أبى - زعماء تلك الأفكار والمذاهب الضالة وسيجدهم العقبة الكؤود في طريق إيصال نور الإسلام لمختلف البقاع ، وسيقف كذلك على أنواع لا حصر لها من الشبهات التي تحتاج للجواب عنها إلى اطلاع ودراسة وإلا

فسيكون المتصدي له في موقف لا يحسد ولا يحمد عليه فإن فاقد الشيء لا يعطيه فنحن في زمن الدعايات وزخرف القول لقد امتلأ الجو بصيحات أصحاب تلك المذاهب وكثر تشدقهم بها ومدحوها بأنواع المدائح المغرية وضللوا كل من لا يوافقهم واشتدت الحملات المتتالية على الإسلام والمسلمين تعضدهم إمكانيات لا تكاد تحصر في الوقت الذي قلَّ المساعد فيه لأهل الخير والإصلاح ونشأ كتَّاب وكاتبات سُفهاء ملأوا الصحف والمجلات بجميع وسائل الإعلام بإلقاء شبهاتهم حتي تخيل من لا معرفة له بحقيقة أمر هؤلاء أنهم على حق والصواب وأن سكوت غيرهم عنهم دلالة واضحة على موافقتهم والرضى بما يسمعونه أو يقرأونه عنهم دون أن يدرك الحقيقة المرة التي وضع فيها المصلحون ولا يهمنا من سكوت غير المسلمين عنهم إلاَّ سكوت بعض أهل الحق الذين لم يأخذوا دورهم كاملاً في التصدي لأولئك بل من المؤسف أنهم شغلوا أنفسهم ـ بالصراع فيما بينهم والردود على بعضهم بعضاً ـ والتفنُّن فيها في الوقت الذي كان يتوجب عليهم توحيد كلمتهم وتنظيم صفوفهم للإسهام ولو بجهد المقل في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وتنقيحها من شبه الضالين وأكاذيب المفترين الذين أوهموا الناس أن التقدم والسعادة والرقي والحياة الكريمة مربوطة في السير في طريقهم والاقتداء بهم حذو القذة بالقذة وقد تم لهم تحقيق الكثير والكثير من مآربهم ودخل الكثير من الناس في طريقهم ووقعوا في شبكاتهم ـ إلا من رحم اللَّه ـ من طلاب العلم وغيرهم ممن كان عندهم شيء من المعرفة بحياة أولئك التعساء الأشقياء إما

بسماع ما قيل عنهم أو بمشاهدة أحوالهم وكيفية معيشتهم والآن لعل القارئ الكريم قد ظهر له أن وراء عدم الاهتمام بدراسة تلك المذاهب ما وراءها وأنه على يقين أن كثيراً من المسؤولين الكبار ومن بأيديهم الحل والعقد في العالم الإسلامي لم يكونوا يجهلون هذا أو تركوه نسياناً لا ولكن الأمر فيه سر وعليه أكثر من علامة استفهام ذلك أن الكثير من أولئك - إلا من هداه اللَّه - هم جنود مجندة لخدمة تلك المذاهب والأفكار الباطلة ولا يحبون أبداً أن يقال عن تلك المذاهب أي قول أو يوجه لها أي انتقاد بل ويحبون تسلط عليهم الأضواء الكاشفة ، أو يكون هؤلاء واقعون تحت ضغوط شديدة من قِبل زعماء تلك المذاهب ومهما كان فإنه تخطيط رهيب عمّ أكثر البلاد الإسلامية كما سيتضح لك عزيزي القارئ من خلال هذه الدراسة إن شاء اللَّه تعالى ، فالماسوني لا يريد أن تُدرس الماسونية وتُنتقَد في بلده ، والعلماني والشيوعي والديمقراطي والاشتراكي وغيرهم كذلك ولك أن تتأمل ترابط أصحاب المذاهب الضالة ووقوفهم صفاً واحداً ضد الإسلام والمسلمين رغم الاختلافات الشنيعة فيما بينهم وبين حال أهل الحق وتفرقهم وسيأتي جواب ذلك إن شاء اللَّه مفصلاً في ثنايا هذه الدراسة ، والذي أحرص على إطّلاعك عليه هو أن تعلم يقيناً أن الأمر جد وأن عليك أن لا تنتظر من يقرر عليك دراسة هذه الأفكار بل لابد أن يكون لك حافز من نفسك واهتمام شخصي بدراستها إن أردت النصح لنفسك ولدينك ولأمتك الإسلامية وفقك اللَّه لكل خير .

الفصل الخامس

أسباب نشأة المذاهب الفكرية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول

نشأتها في الغرب

ليس في المذاهب الفكرية الضالة ما يغري العقلاء باعتناقها إلا أنه كما يقال : «لكل بضاعة سوقاً ولكل صائح صدى» ، وقبل أن نبدأ بذكر الأسباب لابد أن يعلم القارئ أن المذاهب الفكرية منشؤها وموطنها المضياف هو الغرب النصراني الذي تهيئ له ما لم يتهيئ لغيره من الدول من أسباب الاندفاع إلى الثورات العارمة على كل الأوضاع والمعتقدات نتيجة أحوال تعيسة أفرزتها أسباب مجتمعة أدت إلى ظهور مذاهب فكرية عديدة كما يظهر الطفح الجلدي على المريض . ومن تلك الأسباب ما هو ظاهر ومنه ما هو خفي .

أما الأسباب الخفية : فقد تعود إلى أمور سياسية في أكثرها من حب السيطرة والتوسع وانتشار مواضع النفوذ وكذلك الرغبة في الانفلات من كل القيود التي كانت قائمة في ظل حكم رجال الدين النصراني ثم ملأ

الفراغ الذي أحسن به الأوروبيون بعد إقصاء الدين ورجاله والرغبة في إشغال الناس بأي جديد في المعتقدات وخلط الأمور وتقليبها وربما توجد أسباب أخرى هي أهم من هذه الأمور تحتاج إلى بحث وتدقيق ووقت بعد التأكيد على أن أبرزها كان بسبب الرغبة في الانفلات من قبضة رجال الدين النصراني وخرافاتهم ، وكذلك سوء الأحوال في الحياة الأوروبية المتمثلة في الحالة الاجتماعية والثقافية والدينية التي كان يعيش الأوروبيون في عهود سيطرة رجال الكنيسة من عداوات وتنافر ومن انتشار الجهل والخرافات الجاهلية ومن بُعد عن الدين الصحيح ، وكذلك اختلاط المفاهيم الفكرية بالمفاهيم الدينية النصرانية ـ الخرافية أساساً ـ وإظهارها بالمظهر الديني مما كان له الأثر البالغ في تشجيع أصحاب الآراء الثائرة على الدين النصراني على اختراع الآراء المضادة له وإلصاقها بالدين في البداية ، والتي نشأت في أشكال مذاهب ونظريات مختلفة بعد ذلك ، مقتدية بانحراف الديانة النصرانية من الأساس وقيامها علي يد بولس اليهودي الوَثني ، الذي أقام النصرانية على مفاهيم بشرية وقوانين وضعية مملوءة بالتناقضات والخرافات التي كانت محل ازدراء أصحاب العقول الناضجة وتبرمهم منها سواء كانوا في الغرب أو في الشرق بعد أن فقد النصارى إنجيل عيسى عليه السلام بعد رفعه على أنه لم يكن ظهور الخرافات وحدها هي التي أزعجت الأوروبيين بل كان لزوال طغيان رجال الكنيسة الحافز القوي لظهور مختلف الأفكار والمذاهب بعد الإطاحة بطغاة الكنيسة وتخلص

الناس من قبضتهم الفولاذية ، فإن كل شيء له رد فعل ، فإن الأوروبيين وهم في مرحلة جديدة كانوا في حاجة ماسة إلى كل الآراء لسد الفراغ ببديل عن الدين النصراني وتحقق بعد ذلك ما يقال من أن «لكل صائح صدى» فإنه بعد انفلات الناس عن قبضة الكنيسة وتحولهم إلى مارد جبار ما كان أحد يُظهر رأياً إلا ووجد من يستمع له ويأخذ به في البناء الجديد للحياة الأوروبية وأن يكون فيه إسهام في زيادة الابتعاد عن قبضة رجال الكنيسة ، وقد انضاف إلى تلك الأسباب أيضاً ما قام به رجال الكنيسة قبل الإطاحة بهم من الوقوف بحزم وكبرياء أمام كل المفكرين من علماء الغرب والحكم عليهم بأنهم هراطقة يجب قتلهم لردتهم ـ كما يرى الجامدون رجال الكنيسة ـ فأي عالم كان يظهر رأياً جديداً في أي شيء في هذا الكون يخالف عقلية رجال الدين كان يعتبر قوله كفراً وردَّة فقامت المذابح لكل من كان يتصف بأنه حر أو مفكر ، وقتل الآلاف لأتفه الأسباب إلى أن تغلب الثائرون ومرَّغوا أنوف رجال الدين النصراني الخرافي في الوحل وقامت على أنقاضه مفاهيم ومذاهب سنتحدث عنها إن شاء اللَّه من خلال هذه الدراسة .

أما عصر سلطة الكنيسة هذا فسوف يتضح لك بعض حقائقه من خلال ما يلي بعد أن تعرف معنى الهرطقة .

الهَرْطَقَــة[1] :

أساس التسمية في بداية اطلاقها هو بنز أطلقه طغاة الكنيسة على كل مخالف لهم في باطلهم للبطش به . ومعناها عندهم الكذب والفجور والخروج عن الدين والمراد بها الفتك بمن ينسبون إليه هذه التسمية ولاستباحة دمه «فرأي يراه عالم في الكون هرطقة ، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هرطقة ، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة ، ومساعدة واحد من هؤلاء أو الرضا عن اتجاهه هرطقة ... وهكذا» . ولقد كان من ضحايا هذا البنز كثير من المفكرين منهم من أُحرق حياً ومنهم من أُحرقت كتبه ومنهم من سُجن وعُذّب عذاباً شديداً مثل :

١ ـ «ويكلف» الذي نُبش قبره وأُحرقت جثته .

٢ ـ «جون هيس» عميد جامعة براج الذي أُحرق حيّاً .

٣ ـ «لوثر كنج» وقد عانَى الكثير منهم .

٤ ـ «كلفن» .

ثم تتابع المفكرون إلى أن استطاعوا انتزاع سلطة الكنيسة وإخفات أصوات رجالها .

---

(١) اقرأ عن الهرطقة كتاب «الهرطقة في الغرب تأليف د . رمسيس عوض حيث ذكر كثيراً من الحقائق والمفاهيم المختلفة حول هذه التسمية الإغريقية الأصل وكيف استغلها القائمون على الكنيسة أسوأ استغلال في التنكيل بالمخالفين لهم».

أما عصر سلطة الكنيسة :

فهذه السلطة برزت في القرون الوسطى حين كانت أوروبا تعاني من انتشار الجهل وسيطرة الخرافات بسبب سيطرة رجال الكنيسة وشدة قبضتهم على أتباعهم إذ كانوا بمثابة الدولة الطاغية فقرَّروا لأنفسهم صلاحيات لا حدود لها صلاحيات دينية وسياسية فوق ما يتصور العقل ، فلا حقَّ إلاَّ ما قرَّره البابا وأعضاؤه ، ولا باطل إلاَّ ما أبطلوه ، ولا حلال ولاحرام إلاَّ ما جاء عنهم ، والويل كل الويل لمن حاول الخروج عن قبضتهم في أي ناحية دينية كانت أو دنيوية فإنه ينال عقاباً لا هَوادة فيه تحت بنزه بالهَرطقة التي اخترعوها لتبرير جرائمهم بالمخالفين كما عرفت .

ومن الأمثلة على مظاهر ذلك الطغيان وعلى مدى صلاحيات رجال الدين في تلك الحقبة التاريخية ما يلي [١] :

١ – إختراعهم الأسماء التي يستحلون بها دماء مخالفيهم ومنها تسمية الهَرطَقة .

ولقد تسلط رجال الكنيسة على كل من حاول أي نوع من إصلاح مفاهيم الكنيسة الخاطئة ورموه بالهرطقة وكان من أولئك الروَّاد في مجابهة الكنيسة وكل ما يتعلق بها وكانوا ضحية هذا البنز من تقدم ذكر أسمائهم .

---

(١) انظر معالم تاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٩٠٩ نقلاً عن موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ ص ٦٨ .

٢ ـ فرض هيمنة رجال الدين على كل شيء دنيوي أو أُخرَوي فربطوا كل شيء بأيديهم فلا يُنال ما عند اللَّه إلاَّ بإرضائهم وطاعتهم .

٣ ـ فرضوا على الناس احترام وطاعة رجال الدين طاعة عمياء قائمة على الذل والخضوع المطلق والاستسلام وعدم الاعتراض في أي أمر كان .

٤ ـ قرَّروا أنه لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى ملكوت اللَّه إلاَّ عن طريق واسطة وتلك الواسطة هم رجال الدين من البابوات فهم وحدهم الذين فوضهم اللَّه تعالى وعلى لسان المسيح ـ وقد كذبوا على اللَّه عزَّ وجلَّ وعلى المسيح ـ .

٥ ـ لم يُجوِّزوا لأي شخص كان ، مهما كان ذكاؤه وعلمه ، أن يجرؤ على تفسير الكتاب المقدس إذا لم يكن من أعضاء مجلس البابا .

٦ ـ جعلوا من مراسيم العبادة المتقبلة عند اللَّه والطريق إلى قبول التوبة الاعتراف بالخطأ أمام الكاهن الذي بيده مَحو وغفران الذنوب فور سرد المخطئ لأخطائه سرية أو جهرية وهو على كرسي الإعتراف الذي يشبه دائرة المباحث العامة .

٧ ـ أنشأوا فكرة صكوك الغفران وجعلوها من أهم ما ينبغي أن يفكر فيه الشخص لمستقبل حياته الأخروية ، وهي في حقيقتها حيلة

لنهب أموال الناس بالباطل ، ولولا أن الناس قد سُلبوا حتى مجرد التفكير لما قبل أحد منهم هذه المهزلة ، ولكن الذي يَعتقد بوجود ثلاثة آلهة من السهل أن يقبل كل مستحيل ، وقد عرفت أنهم احتكروا كل شيء من الأمور الدينية والدنيوية وجعلوها قصراً عليهم وبالتالي فليس على الإنسان إذا أراد السعادة في الدنيا والآخرة إلا أن يقدم الهدايا العينية والنقدية والأموال المفروضة عليه وغير المفروضة ويشتري صكوك الغفران بأي ثمن يكون ويتحبب إلى رجال الدين ويتودد إليهم وهم يتولون كل ما يهمه لمستقبل حياته في الآخرة أو إرضاء اللّه عنه حسب زعمهم بسبب الصلاحيات الممنوحة له من المسيح عليه عليه السلام وحاشاه من أكاذيبهم .

٨ ـ فرضوا على الناس نظام السُخرة والعشور وذلك بأن يعملوا في الأرض التي تملكها الكنيسة يوماً كل أسبوع بدون أجر وأن يدفعوا عُشر أموالهم هبة لرجال الدين الذين أصبحوا يأكلون ولا يشبعون .

٩ ـ وقف رجال الدين ضد العلم وحقائقه النظرية والتجريبية موقفاً عدائياً لأنه خارج عن نطاق الكتاب المقدس الذي أعطى البابوات صلاحية التدخل في كل أمور الحياة ونشأ عن هذا الموقف العداء المستحكم فيما بعد بين الدين الذي لا يعترف بالاختراعات التجريبية ويعتبرها هرطقة وبين العلم الذي شق طريقه وسط تلك الظلمات ونجح .

١٠ ـ تبنت الكنيسة أفكاراً ونظريات في علوم الجغرافيا والطب والأحياء وغيرها وقدستها ولم تسمح لأحد بمخالفتها وحكمت على من خالفها بالكفر والإلحاد وإباحة دمه .

وكان من نتيجة تلك الصلاحيات والهيمنة الكَهنوتية أن عاش رجال الدين ، البابا وأعضاؤه ، عيشة البذخ والتهتك والفجور فوق ما كان يعيشه الأباطرة والملوك وحينما قوي الفكر الحر لرجال العلم والتجارب كان لهؤلاء حساباً قاسياً مع رجال الدين . وابتلى اللَّه الظالمين بعضهم ببعض سنة اللَّه ولن تجد لنسة اللَّه تحويلاً .

ولقد تبرَّم بعض كبار أتباع الكنائس من طغيان رجال الكنيسة من أصغر رتبهم إلى أكبرها ومدى ما وصلوا إليه من جرائم واستهتار بالقيم والأخلاق وبذخ لا حد له وحتى تكون الشهادة منهم على حد قوله تعالى : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ (١) . فقد قالت عنهم «كاترين السينائية» كما ينقل عنها «ول ديورانت» : «إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القَساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا سواء كانوا صغاراً في السن أو كباراً لم تر إلا شراً ورذيلة تزكم أنفك ورائحة الخطايا الآدمية البشعة أنهم كلهم ضيقوا العقل شرهون .. تخلوا عن رعاية الأرواح .. اتخذوا بطونهم آلهةً لهم يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة حيث يتمرغون في الأقذار ويقضون حياتهم في الفسق والفجور» .

(١) سورة يوسف ، آية : ٢٦ .

كما يصفهم «ماستيشو» بأنهم : «خدم الشيطان منغمسون في الفسق واللواط والشره وبيع الوظائف الدينية والخروج عن الدين ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين» .

وبعد أن ذكر «ديورانت» ما سبق ذكر كذلك أن سجلات الأديرة احتوت على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات» [(١)] .

١١ ـ أنشأوا محاكم التفتيش :

ومحاكم التفتيش أسوأ وصمة عار ارتكبها رجال الدين في حق العلم التجريبي والفكر الحر والناس عموماً ، فلقد كان الجهل والغباء والعناد سمة عقول الباباوات وأعضاء مجالسهم ينظرون إلى كل جديد بعين الريبة والتخوف على مراكزهم الدينية أن تذهب بها فكرة أو حركة أدراج الرياح ليقينهم بأنها قائمة على شَفَا جُرُفٍ هارٍ لذلك طلب الراهب «ثور كماندا» إنشاء محاكم التفتيش لمقاومة العلم والفكر الحر والنظريات العلمية وكل من يخالفهم . فتم ذلك الكابوس فعاش رجال الفكر في خوف شديد ولم يجرؤ الكثير منهم أن يعلن نظرياته واكتشافاته خوفاً من سلطة الكنيسة التي كانت لا ترحم أحداً خالف ما قررته .

---

(١) قصة الحضارة ج ٢١ : ص ٨٤ – ٩٥ انظر : موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

ولقد كانت تلك المحاكم سيفاً مسلطاً على رقاب أصحاب الفكر وعلى المسلمين بعد ذلك بخصوصهم فحكمت في المدة من عام ١٤٨١ ـ ١٤٩٩ أي في حدود ثمانية عشر عاماً على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانية وستين بالشنق فشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنُفذت»[١] .

وكان أبرز العلماء الذين حاكمتهم الكنيسة في العصور الوسطى «جاليليو» الذي قال بدوران الأرض حول الشمس وقال كذلك بأن في السماء أكثر من سبعة كواكب مخالفاً ما جاء في رؤيا يوحنا في سفره الذي اضطره البابا «أريان الثامن» إلى أن يجثو على ركبتيه وهو في السبعين من عمره وأن يعلن عن رجوعه عن آرائه وأنها هرطقة .

وصفة اعترافه هكذا «أنا غليليو في السبعين من عمري سجين جاث على ركبتي وبحضور فخامتك وأمامي الكتاب المقدس الذي ألمسه الآن بيدي أعلن أني لا أشايع بل ألعن وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد أن الأرض تدور»[٢] .

ومثله «بافون» الذي أعلن عن رجوعه عن رأيه في تكوين الأرض مما يخالف ما جاء في قصة موسى . وصفة رجوعه «أعلن إقلاعي عن كل ما جاء في كتابي خاصاً بتكوين الأرض وحمله عن كل ما جاء به مخالفاً لقصة موسى»[٣] .

---

(١) انظر الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ص ٢٦ .

(٢) بين العلم والدين ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(٣) المصدر السابق .

وكذا «جيورد أنو برونو» الذي أحرقته الكنيسة حياً وذرته في الرياح ، و «شيكو داسكولي» الذي كان له شهرة في علم الفلك بجامعة كولونيا الذي أحرقته الكنيسة حياً في فلورنسا ، و «دي رومينس» الذي قال إن قوس قزح ليس ميثاقاً بين اللّه وبين خلقه وليس قوساً حربية بيد اللّه ينتقم بها من عباده إذا شاء كما قرره الكتاب المقدس بل هو من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . فجُلب إلى روما وحُبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه وحُكم عليها وأُلقيت في النار ، وهذه الأهمية لقوس قزح إشارة لما جاء في خرافات الكتاب المقدس من أنه علامة للّه يتذكر به أهل الأرض فلا يجعل المطر عليهم طوفاناً يغرقهم به كما أفادته النصوص الآتية من سفر التكوين .

وكلم اللّه نوحاً وبنيه معه قائلاً : «وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسكلم من بعدكم . ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم . الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض . أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بحياة الطوفان ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض . وقال اللّه هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر . وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب . إني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حيَّة في كل جسد فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي

جسد . فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين اللَّه وبين كل نفس حيَّة في كل جسد على الأرض»[(١)] . وقال اللَّه لنوح : «هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض»[(٢)] .

ومن المفكرين الذين شملهم عقاب رجال الدين «لينيوس» الذي استطاع بتحليله للماء أن يعرف سبب احمراره وأنه يرجع إلى تكاثر نوع من الجينات فيه . ولكن حينما علم بذلك رجال الكنيسة ثاروا عليه وناصبوه العداء لأن التعليل عندهم لذلك هو أن ذلك خارقة من الخوارق الربانية ، تحدث عند غضب اللَّه تعالى وقد اضطر «لينيوس» إلى التراجع خوفاً من رجال الكنيسة[(٣)] .

ومنهم «كوبرنيوكس» الذي كانت له آراء فكرية تخالف ما عليه الجامدون من رجال الكنيسة الذي أفلته الموت من قبضتهم ولكنهم لعنوه وهو في قبره وصادروا كتبه وأحرقوها وحرَّموا قراءتها .

ومنهم «نيوتن» الذي تبنى القول بقانون الجاذبية فقد عوقب من قِبل الكنيسة لأن هذا القول معناه من وجهة نظر الكنيسة انتزاع قوة التأثير من اللَّه عزَّ وجلَّ إلى قوى مادية[(٤)] .

---

(١) سفر التكوين . الاصحاح ٩ .
(٢) سفر التكوين . الاصحاح ٩ .
(٣) موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، ص ١٣٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

ومنهم «بلاج» الذي أظهر رأيه في أن الموت كان موجوداً قبل آدم عليه السلام وقامت لذلك ضوصاء وجلبة وانتهى الأمر بصدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك ولعل السبب في هذا الحكم هو اعتقادهم أن الموت إنما وجد من أجل خطيئة آدم فوجوده قبل آدم يعتبر أمراً لا مبرر له وعبثاً وأن الخطيئة كانت موجودة قبل آدم .

وغير هؤلاء كثيرون لقوا مصارعهم قتلاً وحرقاً وشنقاً وسجناً مؤبداً إلى الموت بسبب ما كانوا يعلنونه من اكتشافات أو آراء علمية قابلة للتجربة والبحث يستحق صاحبها المكافأة إن كانت صادقة أو عدم الاهتمام بها إذا كانت غير صحيحة لكن حكم الكنيسة يختلف .

ولهذا فقد شُلَّت الحركة الفكرية في أوروبا زمناً طويلاً إلي أن جاء القرن الخامس عشر وبدأ المفكرون ينفضون عن الناس غبار جاهلية البابوات وطغيانهم فنادى «مارتن لوثر» بحركته لإصلاح الكنيسة سنة ١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م بالتحرر من سلطان الكنيسة وتعاليمها التي سمَّاها «تعاليم الشيطان» واعتبر صكوك الغفران من وسائل الذل والعبودية التي يجب أن تنتهي ، ثم جاء بعده كالفن سنة ١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م على نفس الاتجاه ، ورغم أن حركة لوثر ومن سار على طريقته غيّرت كثيراً من المفاهيم الخاطئة واعتبرت العقل مصدراً من مصادر الفهم أيضاً إلا أنه يلاحظ أن تلك الحركات لم تتحرر من تعاليم الكتاب المقدس بل جعلته مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان وله الكلمة الأخيرة ولو خرجوا عن هذا لكانوا على جانب من الإصلاح والتحرر من الخرافات .

ومن أسباب قيام المذاهب الفكرية في الغرب ما أحسَّ به الأوروبيون من التخلف الذي كانوا يعيشونه والغبن الفاحش الذي كانوا يُعامَلون به . وقد كان من الأسباب التي أيقظتهم على هذا الواقع المؤلم هو اتصال الغربيين عن طريق طلب العلم في البلدان الإسلامية واحتكاكهم كذلك بالمسلمين عن طريق التجارة أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم يطَّلعون على الأوضاع تحت ظل الإسلام والأوضاع التي يعيشونها في ظل حكامهم ورجال دينهم .

ومنها ما قام به مفكروا الغرب من نبش الحضارات القديمة وإحياء الفلسفات اليونانية والاستفادة منها لقيام نظريات ومفاهيم سموها جديدة لاغراء الناس بها كالديمقراطية والعلمانية والرأسمالية وغيرها من الأفكار التي أرادوا أن يسدُّوا بها فراغ بعدهم عن الكنيسة .

ومنها مكائد اليهود وحبكهم المؤامرات لإثارة الفتن في عامة العالم الغربي لتغيير كل المفاهيم السائدة في ذلك الوقت وتحطيم كل ما كان معادياً لليهود والانتصاف من كل من أسهم بأي نوع من الأذى لليهود حتى تم لهم ما كانوا يخططون له فقامت الثورات التي تسفك فيها الدماء والثورات التي يُداس فيها الدين وتُداس الأخلاق وجميع النظم المخالفة لليهود .

وواقع الغرب اليوم أقوى شاهد على هذا ، وإذا كان ما تقدم يدل على أسباب انتشار المذاهب الفكرية في أوروبا فما هي أسباب انتشارها في العالم الإسلامي .

المبحث الثاني

أسباب انتشار المذاهب الفكرية في العالم الإسلامي

عرفت مما سبق أنه إذا كان للغرب من وجهة نظرهم ما يبرر قيامهم بالثورات على الدين ـ والمقصود به الدين النصراني الوثني الخرافي بطبيعة الحال ـ ولهم ما يبرر قيامهم بالثورات على رجال ذلك الدين ولهم كذلك ما يبرر نشوء مختلف المذاهب الفكرية بينهم إذا كان لأولئك مبررات في كل ذلك سواء أكانت مبررات مقبولة أو غير مقبولة ، فما هو المبرر لقيام تلك الأفكار والمذاهب في بلدان مَنْ أغناهم اللّه بالإسلام وأعزهم به في الدنيا والآخرة وشهد له إعلام الغرب من الموافقين ومن الحاقدين بأنه خير دين ينظم الحياة كلها وأن تعاليمه ونظمه فيها السعادة وحل كل المشكلات بطرق لن يهتدي إلى مثل عدالتها أحد من البشر ؟!!

إنه لأمر غريب أن يتطفل أحد من المسلمين على موائد الغرب الآسنة ليبحث فيها عن النجاة والسعادة في الوقت الذي يرى بأم عينيه ما يعانيه الغرب من الشقاء والحرمات والحياة اليائسة .

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ [(١)]

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [(٢)] .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٥٠ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٣٩ .

نعم إنه لا مبرر لقيام تلك المذاهب في ديار المسلمين ، ولكن قد حصل ذلك شئنا أم أبينا ، فما هي أسباب ذلك ؟ إنك تُدرك يا أخي القارئ أن أعظم أسباب تأثر بعض المسلمين بما عند أعداء الإسلام إنما يعود إلى :

١ ـ جهل هؤلاء بدينهم وما يحويه من مفاخر وخير وما يحويه من شمولية كاملة حيث شهد اللَّه تعالى له بهذا في كتابه الكريم بقوله : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾[١] ، فمن رد هذه الشهادة فلا شك في جهله وكفره وخروجه عن ربقة الإسلام وجماعة المسلمين . وأن تعلم أن هذا الجهل من هؤلاء يعود إلى أسباب كثيرة ، إما لتفريطهم وإهمالهم وإما لتربيتهم وإما لاختلاطهم بغيرهم وإما لغير ذلك من الأسباب الكثيرة .

٢ ـ جهلهم بحقيقة ما تحمله تلك المذاهب الضالة من بؤس وشقاء وأنهم تأثروا بها دون معرفة لحقيقتها المخزية وما تحمله من دمار أخلاقي واقتصادي واجتماعي وديني وكل شيء يمت إلى الطريق الحق والصراط المستقيم فأصبح حالهم تنطبق عليه هذه المقالة «حُبُّك الشيء يُعمي ويصم»، ولا يمنع أن يكون هؤلاء عملاء مأجورين أيضاً ما أكثر أولئك الذين باعوا دينهم وضمائرهم .

٣ ـ من الأسباب أيضاً رغبة هؤلاء في الانفلات والتحلل من كل القيم والأخلاق والعادات الحسنة والفضائل ورغبتهم في العيش على

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٣ .

الطريقة الغربية يعيشون كما تعيش البهائم ويأكلون كما تأكل الأنعام دون أن يقف في طريقهم أي مانع شرعي أو عرفي .

٤ ـ نشاط أعداء الإسلام وقوة عزمهم على إفساد عقائد المسلمين وإخراجهم من دينهم بأنواع الدعايات والمغريات .

٥ ـ بذل المساعدات المالية وتحبيب الحياة الغربية إلى قلوب المسلمين وتنفيرهم من حياتهم الإسلامية ، وبث الدعايات ضد الإسلام وحكام المسلمين وعلماء الإسلام قاطبة ، فقد صوروا لهم الإسلام أنه هو الواقف حجر عثرة في طريق تقدم المسلمين ونهوضهم ووصولهم إلى صنع الطائرات والصواريخ و ... الخ. وصوروا لهم حكام المسلمين أنهم متخلفين وجائرين ، وصوروا لهم علماء الإسلام أنهم متخلفين وجامدين إلى غير ذلك من أنواع الدعايات الخبيثة التي سرت في عروق كثير من جُهَّال المسلمين .

٦ ـ تأخر بعض بلدان المسلمين في مناهجهم التعليمية حيث أُقصيت كل الدراسات ـ إلا القليل ـ التي تبصر المسلم بما يبيّته له الغرب على أيدي عملائه من المنصّرين والمستشرقين ومن وافقهم ممن يدعي العروبة أو الإسلام .

٧ ـ الضعف النفسي الذي أصاب المسلمين وانبهارهم ببريق الحضارة الغربية ورغبة المغلوب في تقليد الغالب ومحاكاته لجبر ما يحسُّ به من ضعف الشخصية أمامه .

٨ ـ الضغوط الشديدة التي يتعرض لها ضَعَفة المسلمين باستمرار في أكثر من بلد إسلامي وإملاء الكفار لأفكارهم على تلك الشعوب لتقبلها راغبة أو راهبة ، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة التي تضافرت لتهز من كان في قلبه مرض هزاً عنيفاً . ولكننا على يقين أن الحق سيبقى وأتباعه سيبقون إلى نهاية هذا الكون باخبار الصادق المصدوق ﷺ بذلك .

الفصل السادس

الآثار السيئة للمذاهب الفكرية

وفيه المباحث الآتية :-

تمهيد :

من الأمور التي يجب التسليم بها أن المذاهب الفكرية كان لها آثار سيئة تمثلت تلك الآثار في جوانب عديدة منها ما يتعلق بالدين ومنها ما يتعلق بالحكم ومنها ما يتعلق بالأخلاق والسلوك وجوانب أخرى في حاية الناس وأوضاعهم ، والآثار السيئة للمذاهب الفكرية تكمن في عدة أمور من أولها أنها مذاهب فكرية ، أي قائمة على آراء أصحابها واستحساناتهم التي تمليها عليهم مختلف الأهواء دون أن يتقيدوا بشرع اللّه عزَّ وجلَّ ، كما أن أولئك الذين وضعوا تلك المذاهب لم يكونوا ممن شهد لهم الناس بالخير والسلوك الحسن ، بل على الضد من ذلك فقد عُرفوا بالشذوذ في أفكارهم والسوء في سلوكهم من حبهم للشهوات والسير وراء المغريات والتفلُّت من كل القيم .

ومما زاد الأمر سوءاً أيضاً أن كانت أصابع اليهود ومؤامراتهم وراء أكثر تلك المذاهب ـ إن لم تكن كلها ـ بعد أن استولت الماسونية العالمية على مفاهيم تلك المذاهب المنحرفة وسيّرتها في ركابها ، وإذا كانت تلك المذاهب قد تأذى منها الأقوام الذين نشأت فيهم ، وثاروا على

اتجاهاتها في مظاهرات واحتجاجات دائماً تثور من مكان إلى مكان فإن غرضنا هنا سيكون في بيان الآثار السيئة للمذاهب الفكرية في العالم الإسلامي .

وقبل الشروع في تفصيل تلك الجوانب أؤكد لك أخي القارئ الكريم أنه من الأمور المسلمة أن أي عمل أو فكر مخالف لشرع اللَّه عزَّ وجلَّ ولم يقم على هديه أنه لا خير فيه ولا سعادة من ورائه مهما زخرف صاحبه القول فيه أو أجاد الدعاية له .

فإن من المعروف بداهة أن الإنسان محل النقص ومحل الخطأ في الأمور الممكنة له ، فما هو الظن به في الأمور التي لا يمكنه الوصول إلى معرفتها على وجه الدقة والصواب ، خصوصاً الأمور الغيبية التي استأثر اللَّه بعلمها إلا لمن ارتضى من رسله وأنبيائه الكرام ، فما زعموه من وجود سعادة البشر في مذاهبهم هو تخرص منهم ومن أكبر الأدلة على جهل الإنسان اقتحامه ما لا سبيل له إليه وما هو فوق عقله لأن اللَّه تعالى جعل للعقل حداً ينتهي إليه ، فإذا وقف عند حده كان دليلاً على انتفاعه بعقله ، فإذا تجاوز حده كان دليلاً على حمقه وتهوره ، ولك في تجاوز المشَبِّهَة لعقولهم أقوى برهان ، حيث تجاوزوا حدود عقولهم فأخذوا يبحثون في كيفيات الصفات ، بل وفي ذات اللَّه تبارك وتعالى ، فجاؤا بالمضحكات المبكيات ، وظنوا أنهم وصلوا إلى علم غزير وبحوث دقيقة ، بينما هم وصلوا إلى الأدلة الدامغة التي تدل على جهلهم وحمقهم وقصر أفكارهم وانحطاطها .

ولك فيمن يُسمُّون أنفسهم بالـمُشَرِّعين وتخبطاتهم أيضاً برهان واضح على جهل الإنسان حينما يتجاوز حد معرفته ويترك هدى اللّه تعالى ، انظر كيف يضعون التشريع ـ القانون ـ ثم يبطلونه ويأتون بآخر ثم ينقضونه في حركة دائبة ، يُحرِّمون اليوم ما أحلُّوه بالأمس ، ويُوجبون اليوم ما حظَروه بالأمس تبعاً لاستحساناتهم ومصالحهم ، بينما التشريع الإلهي لا يمكن أن يحتمل النقص ، فما كان حراماً سيبقى حراماً إلى الأبد كالقتل بغير حق والزنا والسرقة ... إلخ ، وما كان حلالاً سيبقى حلالاً إلى الأبد كالبيع والشراء وأكل الطيبات والعشرة الزوجية ... إلخ .

ولك في الاستدلال كذلك على نقص الإنسان وجهله بما ادّعاه بعضهم من النُّبوّة بل والألوهيّة مثال من عدّة أمثلة على مدى ما يصل إليه الإنسان من الجهل والحمق حين يتجاوز حدّه ، كدعوى فرعون ونمروذ وحسين علي المازندراني وغيرهم من أئمة الكفر حيث طغت أفكارهم الضالة على عقولهم السخيفة فانقلبت الموازين والحقائق تماماً وأصبحوا في تيه عظيم .

وكذلك دعاة المذاهب الضالة إذ لم يقفوا عند حد معرفة العقل بل تجاوزوا حدوده فجاؤا بمذاهب أضلت البشر وجعلتهم يعيشون في شقاء من حيث يزعمون أنهم يحسنون صُنعا .

وكل إنسان يعيش حسب تفكيره ، وقد يكون تفكيراً صائباً يؤدي إلى السعادة ، وقد يكون تفكيراً خاطئاً يؤدي إلى التعاسة ، والشيطان دائماً يقف إلى جانب كل فكر خاطئ يضر الإنسان .

وما تفرقت البشرية وتعادت فيما بينها وما سُفكت الدماء وما اختلفت العقائد والاتجاهات إلاَّ نتيجة لاختلاف الأفكار ، ويجب أن نهتم لأمر واضح تمام الوضوح وأن نعيه ، وهو أن كل الأفكار التي يعيشها البشر ويتدينون بها بعيدين عن هدي اللَّه تعالى فيها إنما أفكار جاهلية باطلة ، لأن أمر الدين يجب أن يؤخذ عن مصدره الحقيقي وهو اللَّه عزَّ وجلَّ ، إذ لو كان الدين يُعرف بالتفكير والتجارب لما أرسل اللَّه الرُّسل وأنزل الكتب . وهذا بخلاف التفكير المطلوب من البشر الذي أمر اللَّه به وهو التفكير فيما ينتفع به الإنسان لمعاشه أو لتقوية إيمانه بربه ، كالتفكُّر في قدرة اللَّه تعالى من خلال ما يراه الإنسان من وجود هذه المخلوقات وما فيها من العجائب التي يخضع لها العقل إجلالاً وتعظيماً ولخالقها بالحب والانقياد ، ونحو هذا من التفكير المثمر ، أمّا إذا لم يكن للتفكير ثمرة جيدة فإنه لا يعتبر تفكيراً محموداً ، بل هو تفكير مذموم .

لقد جنت المذاهب الفكرية على العالم كلّه جناية عظيمة من حيث يزعم أصحابها أنهم يريدون بها إسعاد البشرية .

ولقد صدق ربيعة شيخ الإمام مالك رحمهما اللَّه تعالى حين سمّى أصحاب الأفكار الضالة بالسُّرَّاق ، فقد أخذ يبكي حينما سمع بجهَّال يُفتون في الدين بغير علم ، فقيلَ له ما يُبكيكَ ؟ أمصيبَةٌ نزلت ؟ قال : لا ، ثم أخبرهم بأن بعض الجهَّال يُفتون بغير علم ، ثم قال : «ولَبَعضُ مَن هنا أحقُّ بالسجن من السُّرَّاق» ، ولقد صدق في حكمه على سُرَّاق

الأفكار بأنهم أحق بالسجن من سُرَّاق الأموال ، فإن ضرر سُرَّاق الأفكار أشد من ضرر سُرَّاق الأموال .

وحينما سرت الأفكار الضالة في جميع أنحاء العالم عاشت البشرية هذا الشقاء الواقع الملموس جزاءاً وفاقاً ، قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [1] ، ومن أقبح القبائح وأشد الأمور مقتاً تأثر العالم الإسلامي بأفكار ملاحدة وزنادقة الشرق والغرب بعد أن أغناهم اللَّه عن كل فكر ضال وحكم طاغ ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾ [2] ، فلا يوجد أي مبرر للمسلمين أن يتطفلوا على موائد الشرق أو الغرب الوخيمة ، ولا أن يشربوا من مواردهم الآسنة ، ولا أن ينبهروا بزخارف أقوال الضالين ودعاياتهم الكاذبة وصناعاتهم المؤقتة ، وقد حذَّر اللَّه المسلمين من الركون إلى أعداء دينهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣)** ﴾ [3]

لقد تزعم بعض المسلمين قادةً هم للكفر أقرب منهم للإيمان فأوردوا شعوبهم موارد الشقاء من أوسع الأبواب ، منهم من تأثر بالاشتراكية الماركسية فأفلس أمته وأمَّم مصالحهم فحل بهم الجوع والشقاء ولم يجدوا للسعادة طعماً .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

(٣) سورة هود ، الآية : ١١٣

ومنهم من تأثر بالرأسمالية ، فعاشت أمته على القاعدة الجاهلية «مَنْ عزَّ بَزَّ ومَنْ غَلبَ استّلب» ، ولم يجدوا السعادة التي يريدونها .

ومنهم من تأثر بالعلمانية ، فإذا به يقود أمته إلى شبكة وحوش البشر وجلاديهم ، وحكَّم في أمته أعداء دينهم وثقافتهم ، وحجب عنهم نور الإسلام وعدله الوارف الظلال ، وحارب حضارته الإسلامية وأحلَّ محلها حضارة الجاهلية الغربية .

ومنهم من تأثر بالماسونية فعاش في الظلام عبداً ذليلاً لطغاة اليهود .

ومنهم من تأثر بالديمقراطية فعاش في خيال فارغ يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

ومنهم من تأثر بالدعوى البعثية الجاهلية فأجهد نفسه لإرجاع الناس إلى جاهليتهم الأولى ، وحارب الدين وكل ما يمت إليه بصلة ، وحارب الثقافة الإسلامية وينابيعها الغزيرة .

وأفكار أخرى كثيرة تأثر بها بعض قياديِّ المسلمين وغيرهم ، فكانوا مصداق ما جاء في الحديث الشريف ﴿**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَطَاعَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا**﴾ (١) ، هذا يدعو لإعلاء القومية ، وذلك يدعو لإعلاء الوطنية ، وهذا يدعو لشرف آبائه وأجداده ، وذاك يدعو للعودة

(١) انظر السنن الواردة في الفتن ، جـ ٢ ، ص ٥٠٤

إلى الماضي الجاهلي ، وكل هذه الدعوات تتم مع دعوى الوصول إلى السعادة ، وصار حالهم كما قال أحد الشُّعَراء :

تفاخرتم بأوجهكم * ووجه اللَّه لم يُذْكَر**

أو كما قال الشيخ حافظ رحمه اللَّه

فأنت تهدمُ ما تبني على عجل * معامل الزور ترمي باصطدامات**

فإذا أراد العالم الإسلامي العودة إلى ماضي مجدهم وعزتهم فليرجعوا إلى اللَّه تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ . (١)

والآن وقد اتضح لك مدى تأثر العالم الإسلامي بشتى المذاهب المنحرفة ومدى النتائج الخطيرة التي يعيشها كثير من المسلمين إزاء هذا الاتجاه الضالّ أحب أن نقف قليلاً عند الجوانب الآتية نتبين بها حال العالم الإسلامي عن كثب بعد أن تأثروا بشتى المذاهب الفكرية والاتجاهات الخاطئة .

وفيما يلي تفصيل أهم جوانب تلك الآثار السيئة من خلال المباحث الآتية :

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١

المبحث الأول : عدم تطبيق الشريعة الإسلامية .

المبحث الثاني : انتشار فساد الأخلاق والقيم .

المبحث الثالث : نشر الفساد عن طريق استخدام النساء وفيه المطالب الآتية :

المطلب الأول : قضية المرأة في النظم الجاهلية وفي الإسلام .

المطلب الثاني : قضية الفوارق في الإسلام .

المطلب الثالث : الخصوصيات بين البشر .

المطلب الرابع : موانع دعوى التساوي بين الرجال والنساء .

المبحث الرابع : التفكك الاجتماعي الحاصل في أوضاع المسلمين وأسباب ذلك .

المبحــث الأول

عدم تطبيق الشريعة الإسلامية :

إن أكبر رزيّة حلّت ببعض المجتمعات الإسلامية وبغيرها هو إقصاء الشريعة الإسلامية ، أو التهاون في تطبيقها ، أو الاحتيال لتمييع أحكامها عمداً أو تحت مبررات شخصية كثيرة ، سواء أكانت صادقة أم كاذبة .

إن العالم الإسلامي يعاني في هذا الزمن من ظاهرة الانبهار بما عند أعداء الإسلام ، ويعاني من ظاهرة التخلف المفروض عليهم لأن أراضي المسلمين مشهورة بخصوبتها حتى قيل إن السودان سلة العالم ، يعني لو استغل استغلالاً حقيقياً سليماً ، كما يعاني من تكالب أعداء الإسلام عليه كما يعاني من جهل أبنائه وكيد أعدائه وحلول الكوارث والانهزامات على أيدي اليهود والنصارى والمجوس والملاحدة ، تداعت عليه الأمم كما تداعى الأكلة على القصعة ، كما أخبر النبي ﷺ بذلك ، وصارت كثرة المسلمين لا تُفرِح كثيراً بعد أن أصبحوا غُثاءاً كغثاء السيل حين صاروا يتكففون الشرق والغرب يستمدون منهم قوانين معيشتهم ويطبقون أفكارهم الضالة ويُحكِّمون دساتيرهم الوضعية فصار حالهم كحال العيس التي أخبر عنها الشاعر بقوله :

كالعيسُ في البَيْداء يقتلُها الظَّما * والماءُ فوقَ ظُهورِها مَحمولُ**

أو كالغراب الذي أراد أن يقلد مشية الحمامة فلم يفلح في تقليدها ولا في البقاء على مشيته .

فكثير من المسلمين لا هم بقوا على دينهم يعتزون به ويفتخرون بالانتماء إليه ، ولا هم وصلوا إلى ما وصل إليه أعداؤهم من التقدم المادي ، فكانت النتيجة أنهم خسروا دينهم ودنياهم فعادوا باللائمة على الشريعة الإسلامية وهي حجة الكاذب المنقطع .

ومن العجيب أنهم يحكمون على الإسلام وهم لا يُحكِّمونَه ، ويتهجَّمون عليه وهم لا يعرفونه ولم يجرِّبوه في حياتهم اليومية ، إنهم متحَيِّرون ضاقت صدورهم به من جرَّاء الضغوط المختلفة عليهم خارجياً وداخلياً ، المسلمون الحقيقيون يطالبونهم بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأعداء الإسلام يطالبونهم بإقصائه وإحلال مذاهبهم المختلفة محلّه ، هذا في الوقت الذي اضمحلّت فيه شخصياتهم التي كاذت أن تنصهر في بوتقة الحضارات الجاهلية الشرقية والغربية .

لقد توالت صيحات أعداء الإسلام يصدّق بعضهم بعضاً أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو التأخر والرجعية والجمود ، وأن في نبذها التقدم والتطور ، وصدّق المغفَّلون هذا الهراء ، فإذا بهم يصيحون إلى جانب سفّاكي دمائهم بمثل صيحاتهم يتبعونهم كما تتبع الشاة الذئب من الرعب ، ولم يبخل عليهم أعداء الإسلام بإطلاق الألقاب الفخمة والعبارات الرنّانة ليُتمُّوا استعبادهم لهم من ناحية وليستجلبوا بهم غيرهم ممّن لم يقع تحت

تأثير شبهاتهم كاستدراج الفيل المدرب العميل لبقية الفيلة ليدخلوا الحظيرة كما أوصى بذلك «زويمر» .

يجب أن يعرف كل من لا يطبق الإسلام أن الشريعة الإسلامية كاملة لا ينقصها شيء ، وقد شهد رب الكون وخالقه بأنها كاملة ، قال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (١) ، وقال النبيُّ ﷺ : «**لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إلاَّ هَالِكٌ**» (٢) .

أكمل اللّه بالإسلام الدين وأتم به النعمة ورضيه لعباده ، فماذا بعد هذا كله ؟!!

هدي الإسلام في العقيدة واضح تمام الوضوح ، وهديه في الأحكام والعقوبات واضح تمام الوضوح ورادع ، خير رادع ، وهكذا في كل شأن من شئون الحياة ، فلماذا لم يجربه الهاربون عنه ليتفيئوا ظلاله ، وليعيشوا الحياة السعيدة الخالية من الشقاء والحرمان والأحقاد والذل والتبعية لمن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ألم يعلم المنهزمون من المسلمين أن أهل الحضارات القديمة العريقة قد تركوا حضاراتهم حينما عرفوا الحضارة الإسلامية وسُموّها العجيب ، وأن أهل الديانات قد تركوا دياناتهم عن طواعية ورغبة في الإسلام حينما علموا شأنه العظيم ،

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣

(٢) انظر اعتقاد أهل السنة ، جـ (١) ، ص (٢٢) ، (٧٤)
وانظر أحاديث في ذم الكلام وأهله ، جـ (١) ، ص (٨) ، و جـ (٤) ، ص (٢٩)

وصاروا جنوداً بواسل لحمايته والدفاع عنه لا تأخذهم في اللّه لومة لائم ، ألم يعلموا أن اللّه أعزّ أسلافهم بالدين حينما حكّموه . لقد انحصر الحكم الإسلامي لشعوب العالم بعد خروج العرب الفاتحين ، ولكن العقيدة الإسلامية ظلت حيّة في قلوبهم لم تنحصر ولم تضعف ، وظل حنينهم إلى الإسلام وأحكامه العادلة خفّاقاً في قلوبهم رغم ما يحيط بهم من جبروت حكام ضالين محاربين للإسلام وأهله ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً .

وعلى الذين يدّعون الإسلام أو يحكمون باسم الإسلام وهم يستحيون أن يعبروا به ، عليهم أن يفيقوا وأن يعلموا أن عزّهم ومجدهم ودوام حكمهم هو في تطبيق الشريعة الإسلامية لو كانوا يعقلون ، وأن يعلموا أن في قتل القاتل حياة لبقية الناس ، وفي قطع يد السارق أمان للأموال لتبقى محفوظة لأهلها دون تعدٍّ عليها ، وأن في تحريم الربا والغش مفخرة للإسلام ، وكله مفاخر ، وفي تحريمه الخمر حفظ للعقول ، وفي رجم الزاني المحصن حفظ للأعراض وصيانة للأنساب وبعد عن الأمراض .. وهكذا فإن في كل أحكام الشريعة الخير والسعادة والعيش الهنيء الذي يزعمون أنهم يريدونه لشعوبهم وأوطانهم وهم يصدون عن الإسلام . فلماذا لم يردوا هذا المنهل العذب . أي إلى الحكم بالشريعة الإسلامية لمن يبيح في دستوره التعامل بالربا علناً أو تحليل المحرمات كالخمر والزنا وإقامة بيوت الدعارة وحمايتها ومحاربة دعاة الإسلام وتلفيق التهم ضدهم للتنفير عنهم واختراع ما يبيح قتلهم ومحاربة التعليم الإسلامي ومدارسه وإهمال المساجد أو

تخريبها والاستهزاء بها وإباحة أنواع المجون من رقص النساء أمام أولئك الحكام الجهلة بالإسلام في حفلات صاخبة وسمر فاضح . إن كثيراً من أبناء المسلمين هم حرب لا هوادة فيها ضد الإسلام وتطبيق شريعته ، خلفوا الاستعمار وصاروا أشدَّ وطأة على شعوبهم وأكثر فُحشاً من أيام الاستعمار لأنهم ماجنون بطبعهم وزيادة على ذلك يحبون التزلف إلى سلفهم رؤساء الاستعمار الملحدين . وشجعوا بذلك قادة الكفر والإلحاد فتبجحوا بأن ما هم عليه هو الصحيح والصواب ، وما عليه المسلمون هو الضلال بدليل أن المسلمين رموا دينهم خلف ظهروهم وتلطفوا لهم لإعطائهم دساتيرهم التقدمية ـ الجاهلية ـ بدل التشريع الإسلامي .

ومن الغريب أن يدَّعي القاضي المسلم أنه يحكم بالإسلام وبين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله دساتير أولئك الملاحدة ، هذا في الوقت الذي جمد عليه علماء الفقه الإسلامي على ما هم عليه من تعصبات مذهبية وأقوال خيالية قد لا تدع الحاجة إلى أكثرها ، ولم ينهضوا ـ أو لم يُسمح لهم ـ بإعطاء فقه كامل شامل موحد قائم على الشريعة الإسلامية ، مما أعطى صورة سيئة لدى من لم يعرف الإسلام وتسامحه ودعوته المسلمين إلى أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضهم بعضاً .

وقد سمعت ـ إن صحَّ الكلام ـ أن دولة كافرة أراد حاكمها أن يدخل في الإسلام فسأل بعض الفقهاء ضيِّقي الأفق عن كيفية الدخول في

الإسلام فوقع النزاع بينهم واشتدَّ الخصام على أي مذهب يتم الدخول في الإسلام ، وكلٌّ فضَّل مذهبه وذمَّ مذهب الآخرين حتى ضاق صدر الحاكم فأخرجهم جميعاً وامتنع عن الإسلام ، واستدلَّ بأن خلافهم دليل على بطلان الإسلام ظنّاً منه أن أولئك الجهّال على صواب أو على علم ومعرفة ، ولا شك أن وراء هذا التفكير الضيق من يغذيه لحاجة في نفسه .

ومن الملاحظ أن وسائل أعداء الإسلام الإعلامية المقروءة والمسموعة والمشاهدة كلها تتكتل في صف واحد ـ رغم ما بينهم من الخلافات ـ لمواجهة أي حركة إسلامية أو أي نشاط للدعوة إلى الإسلام ، وترمي القائمين بذلك عن سهم واحد ، وواقعنا المعاصر أقوى شاهد ، خصوصاً بعد ما يسمونه الإرهاب على مدينتي نيويورك وواشنطن ، واستغلالهم لهذا الحادث استغلالاً فاحشاً ، وأقصيت الشريعة الإسلامية وتطبيقها في معظم ديار المسلمين ، وحرم على الخطباء والوعاظ ورجال الفكر طرق الجوانب التي تمس معالجة الإسلام للقوانين المدنية والتي استوردتها الحكومات الموالية للشرق أو الغرب ، أو تبين خطورة المذاهب الفكرية الضالة ، وحددت فيها العقوبات الصارمة بحجة أن طرقها يفضي إلى التدخل في السياسة العامة للدولة ، أو هو خروج عليها ، ومن خرج على الدولة فقد أخلَّ بالأمن وناصب الشعب العداء فتصدر القرارات العاجلة باسم الشعب بمعاقبة كل من يجرؤ على مخالفة النظام العام للدولة . فأين حرية الكلمة التي يتشدقون بأنها مضمونة لكل فرد ، بل

هي حيل وتضليل ، والشعب برئ من تلك الحيل الإجرامية لعملاء أعداء الإسلام من العلمانيين وغيرهم ، بل إن كلامهم باسم الشعوب يشبه كلام الجني من داخل الإنسان بعد أن يصرعه ، ولا أعتقد أن شخصاً يشك في أن العالم اليوم يعيش في فراغ حقيقي ، فالنصرانية أفلست فهي تقدم ديناً غير معقول وخرافات سخيفة ، واليهودية دينهم المادة والعنصرية ، والشيوعية ماتت في عقر دارها ، والمذاهب الفكرية تتطاحن فيما بينها للاستعلاء في الأرض ، ولم يبق من منقذ سليم وحيد للبشرية غير الإسلام الذي ارتضاه اللّٰه تعالى وتكفّل بحفظه ورد كيد أعدائه إلى نحورهم على مر الزمن ، وصلح به أمر البشر قديماً ، وسيصلحهم حديثاً حينما يجربون تطبيقه ويوفقون للإلتزام به ، وللناس عظة واضحة في الحياة السعيدة التي تنعم به الدولة التي تطبق الشريعة الغراء .

المبحث الثاني

انتشار فساد الأخلاق والقيم :

لقد رزء العالم الغربي والشرقي ومن تبعهم في أعز ما يجب الحفاظ عليه في السلوك وهي القيم والأخلاق الطيبة التي ميّز اللّه بها الإنسان عن الحيوانات ، لقد كانت البشرية ـ فيما عرف من تاريخهم ـ في غاية الحفاظ على التمسك بالأخلاق والحشمة والحياء بل منذ أن طفق آدم وحواء عليهما السلام يخصفان عليهما من ورق الجنة والتمسك بالأخلاق الحسنة والبعد عن سيئها فطرة في النفوس حتى إذا اجتالت الشياطين من اجتالته من حثالة البشر فإذا بالأمر ينعكس تماماً بعد أن انتكست أخلاقهم وفسدت فطرهم وتردوا في مهاوي الضلال وتنكروا للفضيلة بل رأوها عاراً وتخلفاً ورأوا الثياب التي هن زينة للإنسان كالريش للطائر ، رأوها تأخراً ، فنبذوها في مجامع عامة تسمى نوادي العُراة حيث وصلوا فيها إلى ما لا تصل إليه الحيوانات ، وصدق قول اللّه تعالى عليهم : ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [(1)]

لقد تمالأ الشرق والغرب كلهم بقيادة اليهودية العالمية على إفساد أخلاق المسلمين ونشر الرذائل بينهم بكل وسيلة ، وما أكثر تلك الوسائل التي دخلت كل بيت ـ إلا من رحم اللّه ـ امتلأت بها البيوت والأسواق والواجهات ، فلا ترى أمامك ولا عن يمينك ولا عن يسارك إلا دعوة

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩

فاجرة وصورة ماجنة وفحشاً ورذائل في تخطيط دقيق ودعايات براقة وزخرف من القول ، ولك أن تعجب حينما تقرأ في أساطير الملاحدة أن الإنسان كان في بداية حياته عارياً لا يعرف اللباس ولا ستر العورة ، ثم ترقّى قليلاً قليلاً إلى أن عرف اللباس ، وبعد فترة ـ ولحاجة في نفس يعقوب ـ عادوا ونادوا بأن ترك المرأة لباس الحشمة وخروجها شبه عارية أو عارية هو التقدم بعينه والرقي الحضاري ، هكذا ودون إبداء أي تعليل لهذه النقلة الغريبة ، وأصبحت المرأة سلعة رخيصة للرجل يقضي منها حاجته متى أراد ، وأصبحت هي عارية والرجل يلبس الثياب الفضفاضة وهي تعاني الحرَّ والبرد في سائر جسمها ـ اللَّهم إلا ما تستر به السبيلين ـ والرجل يلبس لكل حالة لبوسها في دعة وسكون .

وانتشرت محلات الخمور التي تزكم الأنوف تحت حماية القوانين الوضعية ـ وما دامت الخمر أم الخبائث فماذا تتوقع من وجود الخبائث التي شبَّ عليها الصغير وشاب عليها الكبير ، ولك أن تسأل عن عدد المجرمين وعدد المجانين والمعتوهين ، وكم عددهم في المستشفيات وفي السجون ، إنها أعداد تبعث الرعب والأسى على مستقبل هذه البشرية .

وانتشر الزنا بصورة تتنزه عنها الحيوانات ، وظهر عالم من الأولاد غير الشرعيين ، وبُنيت بيوت الدعارة علناً وتحت حماية القانون ، بل وصارت بعض الحكومات السافلة تطلب من الزانيات زكاة مال فروجهن من البغاء ، ولم يسمعوا قول الشاعر :

ومُطعِمَةُ الأيْتَـام من كَسْبِ فَرْجِها * لَكِ الوَيْلُ لا تَزْنِي ولا تَتَصَدَّقِي**

ووجدت في بعض مطارات الدول الإسلامية العربية بطاقات لدعوة السياح إلى كيفية معاشرة الزانيات ، ووجوب التأكد من صلاحية بطاقاتهن الشخصية خوفاً من مرض الإيدز ؟!!! ، وقد جاء في الحديث الشريف ما معناه أنه ما انتشر الزنا في قوم إلاَّ سلّط اللَّه عليهم عقاباً لم يكن في أسلافهم ، وقد عرفنا هذا العقاب في زماننا إنه مرض نقص المناعة «الإيدز» الذي جعلهم يجرون جثث موتاهم إلى المقابر كل يوم دون أن يجدوا له الدواء المضاد ، ولن يجدوا إن شاء اللَّه إلى أن تتطهر الأرض من رجسهم رغم تبجحهم بأنهم وصلوا في القوة إلى حد أنهم يخلقون الخلق عن طريق التناسخ وإلى حد أنهم يستطيعون إجبار السحاب على إنزال ما به من المطر في المكان الذي يريدون .. إلى آخر غرورهم .

وانتشر الربا وعاد الناس إلى تطبيق العقيدة الجاهلية الأولى فيه حيث كانوا يقولون إنما البيع مثل الربا ، فقامت البنوك الربوية الشاهقة البناء ونشطت الشركات في ابتلاع أموال الناس تحت مسميات مختلفة خادعة ودعايات براقة وصار من بقي فيه عرق ينبض ببقية خافتة من الخوف أو الحياء يسميه فائدة ليتحاشى تسميته ربا ، مع أن هذه الحيلة قد أخبرنا الرسول ﷺ عنها مبكراً حيث ذكر أنه سيأتي أقوام يستحلون الخمر والحرير والمعازف ويسمونها بغير اسمها [(١)] ، وهذا هو الحاصل في زماننا ، دخل إباحة الزنا تحت تسمية «الحرية الشخصية» ، ودخل إباحة

(١) انظر الإصابة ، جـ (٧) ، ص (٤٠٤)
وانظر أحاديث في ذم الكلام وأهله ، جـ (٣) ، ص (١٦٢)
والخصائص الكبرى ، جـ (٢) ، ص (٦٢)

الربا تحت تسمية «الفائدة» ، ودخل قتل كبار السن ومن لا يريدونه تحت تسمية «الموت الرحيم» ، ودخل رفض الدين وتركه تحت تسمية «حرية الأديان» أو «حرية التدين» ، ودخلت قلة الحياء ونبذ الحشمة تحت تسمية «التقدم» وترك الماضي ، ودخلت أشياء وأشياء كثيرة لا تحصى تحت تسميات كاذبة وعناوين خادعة ، ويا ويل البشرية من شر أشرارهم .

وانتشرت ظاهرة المساحيق والماكياچات التي أثقلت ظهور كثير من الرجال والنساء لتذهب فائدة قيمتها إلى بنوك اليهود ، وغيروا خلق اللَّه وغرَّروا ودلَّسوا واختفت حقائق كثيرة وظهرت أمور غريبة تنذر بشر مستطير ومصير مظلم لا يدري عاقبته إلاَّ اللَّه تعالى .

كما انتشرت ظواهر سيئة في جميع نواحي الحياة من غش وكذب وجشع لا حد له واستغلال القوي للضعيف ، وماتت ـ أو في طريقها ـ أخلاق وفضائل كانت عند الناس في قمة أولوياتهم ، كفضيلة الكرم ، والإيثار ، والتواضع ، والشهامة ... وأخلاق كثيرة لم يعد لها وجود في أذهان كثير ممن مسخت فطرهم المذاهب الفكرية الضالة من اشتراكية ورأسمالية وعلمانية وغيرها من المذاهب المادية التي جنت على القائمين بها قبل غيرهم حينما جعلتهم يعيشون في فوضى وقلق واضطراب يصل إلى حد الجنون ، لا يحسون بهدوء ولا راحة نفسية ولا عاطفة حب نحو الآخرين ـ غير المجاملات العابرة ـ وجوههم مقطبة ، وأفكارهم شاردة ، ولم يعد للرحمة تلك المكانة التي تبوأتها قبل ظهور قرن الشيطان فوق

المذاهب الفكرية ، ولم يعد للعدل والإنصاف أيّ مكان يحط رحاله فيه - إلا القليل - وذهب حتى ذكر أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وجاء الجيل الذي لا يأكل الوالد في مطعم ولده أو الولد في مطعم أبيه إلا بدفع القيمة نتيجة حتمية لإعراضهم عن هَدي اللَّه عزَّ وجلَّ واتباعهم لأّواء الضالين وقراصنة المال الذين لا يتكلمون إلا في المال ، ولا يضحكون إلا للمال ولا يعملون إلا للمال ، ولا يعطون شيئاً إلا ليأخذوا ما هو أثمن منه ، وحق للضعفاء والفقراء أن ينشدوا مع الشاعر قوله :

ذَهَبَ الذين إذا رَأوْنِي مُقْبِلاً * هَشُّوا إليَّ ورَحّبوا بالـمُقْبلِ**

ويَقيتُ في خلفٍ كأنَّ حَديثَهم * وَلغ الكلابِ تهارَشَت في المَنْزلِ**

إن من المؤسف والداعي للرثاء حال الذين يتهجمون على النظام الإسلامي في الأخلاق والسلوك العام والخاص ، إننا نرثى لحال أولئك الذين لا يعرفون عن الإسلام شيئاً وهم يناصبونه العداء ، نرثى لجهلهم ونرحم حالهم وشقاءهم .

ونكون أشد حزناً لحال من يدَّعي الإسلام وهو يحاربه ويتهجم على نظامه الاجتماعي عن جهل أو عن معرفة ، فحينما نسمع من يدَّعي الإسلام ثم يقول عن قتل القاتل إنه وحشية ، وعن قطع يد السارق إنه همجية ، وعن عقوبة الزنا بقسميها أنه تدخل في الحرية الشخصية ، وعن الحجاب أنه ظلم للمرأة وطمس لها ، وعن الحشمة والعفة والوقار

أنه من مخلفات الماضي البغيض المتخلف ، وعن أشياء أخرى كثيرة حثَّ الإسلام على التمسك بها أو الانتهاء عنها يقول عنها أنها غير صالحة في زماننا ، أو أنها كانت لقوم مضوا وانتهوا وانتهت معهم تلك المفاهيم .

إن حال هذا المتحذلق يدعو للرثاء ولاحزن عليه ، لأنه يعيش في دوامة مطبقة من الجهل ، إنه بحق كما يقول المناطقة «حيوان ناطق» إنه يقلد ما يقوله أعداء الإسلام حرفياً كما تقلد الببغاء الأصوات التي تسمعها ، وفوق ذلك يرى نفسه أنه متحضر ومتطور ، وأنه بلغ السماء طولاً والجبال ارتفاعاً ، ولا يدري أنه قزم حقير ضئيل على حد قول الشاعر :

مَثَلُ المعجب في إعْجابِه * مثلُ الواقفِ في رأسِ الجَبَلْ**
يَنْظُرُ النَّاسَ صِغاراً وهو في * أعْيُنِهِم صَغيراً لَمْ يَزَلْ**

وحينما ينبري بعض الكتاب السفهاء أو بعض الكاتبات السفيهات ليتباكوا على النظام الأخلاقي الذي أرشد إليه الإسلام بأنه غير حضاري ، إنما هم أدوات في أيدي أعدائهم وأعداء دينهم ، باعوا ضمائرهم بل ودينهم بثمن بخس وليس لهم عند اللَّه - إن لم يتوبوا - من خلاق .

والذين يجتهدون في نشر الخلاعة والمجون في وسائط الإعلام المختلفة إنما هم عبيد لليهود وخدم لهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وحينما يدعون إلى تأخر الزواج بين الشباب والشابات إلى ما بعد فتور فوران الشهوة فيهم ، وبالتالي يقدمون لهم كل وسائل الإغراء لاقتحام الشهوات

الجنسية ، إنما هم يطبقون جزءاً من المخطط المرسوم لمحو الفضائل وإشاعة الفواحش ، لأن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، لأن فطرهم انعكست وصار العالي سافلاً والسافل عالياً في نظرهم .

والذين يدعون إلى تحديد النسل لئلا يحصل الانفجار السكاني بزعمهم ، وبالتالي فلا يجدون لقمة العيش [1] أو يدعون إلى الحد من الإنجاب محافظة على رشاقة المرأة وتألقها إنما هم مخادعون كاذبون ينفذون جزءاً من المخطط اليهودي ، إذ أن اليهود والنصارى يشجعون تكاثر النسل بينهم ، وقد سمعت من إذاعة إسرائيل أنهم احتفوا واحتفلوا بامرأة أنجبت ثمانية أولاد وكرَّموها وأعطوها عدة جوائز .

ومثلهم دعاة منع الحمل بدون ضرورة أو الإجهاض بلا سبب أو الدعوة إلى خروج المرأة للعمل سافرة متبرجة مبدية زينتها لكل من هبَّ ودبَّ وتضحك مع هذا وتميل إلى هذا ، وهذا يمدحها وهذا يضرب على كتفيها استحساناً لها أو لعملها وهي تمشي العنجهية مشية العسكري في طابور التدريب عارية أو شبه عارية .

وكذلك احتقار الحياة الأسرية والعيش مع الأولاد وتهوين الخيانات الزوجية ، وما إلى ذلك من الرزايا التي وصل إليها دعاة الأفكار المنحطة التي غزت كل بيت في ديار المسلمين إن أخطأته واحدة أصابته الأخرى ولا بد .

---

(١) انظر القضية الاقتصادية في هذه الدراسة .

ومن الظلم الصارخ والغش المبين تشويههم لصورة الإسلام الناصعة ، فقد ربطوا كل صورة من صور التأخر والتخلف الحضاري والمدني بالتمسك بالإسلام أو ترك مذاهبهم التي هي حبل النجاة بزعمهم ، فربطوا كل صورة من صور التقدم والنهوض والعيش الرغيد بالتمسك بمذاهبهم وأفكارهم ، وقد رأيت في بعض الاحتفالات ببعض الذكريات الخرافية أنهم يأتون بكلام عن الحضارة الغربية وتفوقها ، ثم تأتي طائرات تهزُّ الأرض ثم يخلفها رجل عربي يركب حماراً ، وأحياناً يركب جملاً وعليه أغراضه ، ثم تتكرر مناظر كثيرة كأنها تقول انظروا إلى ما عندنا أيها المسلمون وانظروا إلى ما عندكم ، وإذا جاز لنا أن نعذرهم لأنهم لم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [1] ، وقول الرسول ﷺ : «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ مِن المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**» [2] ، وغير ذلك من النصوص التي يجهلونها ، إذا جاز لنا أن نعذرهم ، فبأي وجه نعذر من يدَّعي الإسلام ويقرأ تلك النصوص ثم يرجع باللائمة على الإسلام وتعاليمه وكأنه يقول لم يمنعنا من صناعة هذه الطائرات إلا أن نتخلى عن ديننا لنصبح أمة صناعية ؟!! ، أو نتخلى عن عاداتنا الشرقية - كما يسميها الغرب - أي نتخلى عن ديننا ونظامه في السلوك لنصبح في قمة التطور .. إنها أماني بلا برهان ، وحجة العاجز الذليل ، فهل الإسلام منعهم وأقام السدود والحواجز بينهم وبين أي مصدر فيه قوة المسلم أياً كان ، أليس الإسلام قد دعا إلى القوة

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب القدر ، ج ٤ ، ص ٢٠٥٢ ، رقم ٢٦٦٤

واعتزاز المسلم بدينه وبعمل يده واستغنائه عن غيره من المسلمين فضلاً عن أعداء الإسلام ؟

لقد انصبَّ اهتمام أعداء الإسلام ، أعداء الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن على نشر فساد الأخلاق وضياع القيم ، فلماذا ؟!!!

يأتي الجواب تلقائياً لأنهم يعرفون أن في فساد الأخلاق وضياع القيم تفتيت للروابط الاجتماعية كلها فتنتشر الرذائل التي تعجل بهدم كيان ذلك المجتمع الذي تنتشر فيه ، حيث ينتشر الكذب والغش وقطع صلة الأرحام والعداوة والبغضاء والتهاجر وعدم الثقة بين الناس واختفاء الأمانة وانتشار الدعارة والفجور ... ومساوئ كثيرة هي أشبه ما تكون بالمسامير في النعش .

وتنتشر الرشوة بكل مظهارها سراً وجهراً بين أصحاب النفوس الضعيفة فتضيع الحقوق وتختل موازين العدل بين الناس ، ولهذا فسدت ضمائر كثير من الموظفين ، فتجد المظلوم يصبح ظالماً وصاحب الحق يصبح معتدياً وباذل الرشوة يصبح صادقاً محقاً ناهيك عن اختلاس الأموال العامة بمجرد الحصول عليها بأي سبيل إذ لا رادع يردعه عن ذلك .

كما ينشأ عن فساد الأخلاق الاحتكارات المحرمة شرعاً والإثراء عن طريقها وكذا تهريب المخدرات للحصول على المال من جهة ، ولإفساد حياة المسلمين من جهة أخرى ، لأن فساد الأخلاق هو فساد الفضائل ، قال شوقي :

وإنَّما الأُمَمُ الأخْلاقُ ما بَقِيَتْ * فإنْ همُ ذَهبَت أخْلاقُهم ذَهَبوا**

المبحث الثالث

نشر الفساد عن طريق استخدام النساء :

هذا الموضوع الحديث عنه ذو شجون ، والحاجة إلى معرفته ملحّة ، وقد قيل «مالا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه» ، وبالإيجاز فقد انطلق أعداء الإسلام إلى هدم الإسلام عن طرق كثيرة ، من أبرزها حربه عن طريق النساء مستخدمين وسائل لا تكاد تُحصَر ومن أهمها :

١ - إغراء الشباب والاستيلاء على ولائهم عن طريق غرائزهم الجنسية عن طريق العاهرات المتصنعات اللاتي لا يرددن يد لامس ، حيث يوصلونهن إليهم عن طرق ماكرة كثيرة ودعايات مغرية ، وفي هذه الأيام يردد الإعلام الغربي ما يسمونه بمحاربة فساد الاتجار بالبشر ، أي عن طريق نشر البغايا ، ويذكرون أن القائمين على هذه التجارة يكسبون ملايين الدولارات .

٢ - قتل الاحتشام عن طريق إغراء الفتيات بشتى الأزياء الفاجرة تحت الدعايات الباطلة بأنهن سيحُزن على إعجاب الرجال وعلى الجمال وعلى الدلالة على أنهن متقدمات متحضرات ، ثم عن طريق موضة أنواع الماكياجات التي ستعود أثمانها كلها إلى البنوك اليهودية الربوية .

٣ ـ بادر أعداء الإسلام إلى تعليم المرأة وفتح الباب لها على مصراعيه وفق خطة مدروسة لإخراج الفتاة المسلمة عن دينها ، وتم لهم ذلك ، حيث تتخرج الدارسة وهي على وفق ما جاء في المخطط المبيت لها وليس على وفق ما أراده الإسلام لها في حثّه على تعليمها . قال زويمر : «تعليم المرأة بؤبؤ عيني» ، والإسلام يوجب على المرأة أن تتعلم ، ولكنه التعليم الذي ينفعها في دينها ودنياها .

٤ ـ التأثير على المرأة المسلملة في مجال الفنون الجميلة وزينة المرأة وكيفية وصولها إلى إغراء الرجل ، لأنها تأثرت بما استخدمه الغزاة من وسائل الإعلام القوية (سينما ـ مسرح ـ قصص هادفة ـ صحف ـ مجلات ـ إذاعة ـ تلفزيون) وغير ذلك كلها تضافرت وصدق بعضها بعضاً للتأثير ، فأغرمت بالرسم والنحت والأزياء والموسيقى والتمثيل والتصوير ، وشراء أدوات تلك الفنون بباهظ الأثمان

٥ ـ التركيز الجاد من قبل أعداء الإسلام على انتشار الاختلاط بين الجنسين وسفور المرأة ، وتم لهم هذا ، وكانت له نتائج وخيمة ، الأمر الذي أدى إلى هدم الأخلاق والآداب الإسلامية بسبب ضعف الوازع الدين ، والدعاية القوية العارمة لتهوين أمر الفاحشة ونبذ الحجاب ، فالتهبت الغرائز الجنسية وعرضت الصور الماجنة في كل وسيلة إعلامية يصدق بعضها بعضاً .

وسبب هذا التكالب منهم على هذا المسلك هو معرفتهم التامة بأن الاختلاط والسفور هما من أقوى الأسباب لانهيار المجتمعات وتمييعها وقتل هممها .

ولقد تكاثرت الضباء على خراش ، وبلغ السيل الزُّبَى وانفلت الأمر من أيدي ولاة الأمر من الآباء والحكام في ثورة عارمة معلنة أو غير معلنة ، وقد جعل المخدوعون من المسلمين نصب أعينهم هذه المقالة الحمقاء «متى نلحق بركب الدول المتقدمة» ظانين أن هذه القبائح هي التي تنقصهم .

وكان من جرّاء قوة تلك الموجة العارمة أن نسي الرجل المسلم والمرأة المسلمة أن وراءهم حساباً وعقاباً أخروياً لاستحلالهم ما حرّمه اللّه عليهم فاتجهوا لإشباع شهواتهم الحيوانية ، ولم يعد التماسك الاجتماعي بينهم قوياً ، بل تآكل ، ثم حدث أن تفاخر كل من الرجل والمرأة في اقتناء أجمل الثياب وسائر المظاهر ، ثم اتجهوا إلى أدوات التجميل التي تصنعها المصانع اليهودية والنصرانية فاشتروها بلهفة لترجع قيمتها إلى البنوك اليهودية والنصرانية ، وانتشرت الفتن والخيانات وفقدت الحشمة والحياء بين الجنسين ، وقد انتشرت خديعة كبرى يرددها كثير من الناس دون أن يعرفوا مصدرها الخبيث ، وهي خديعة أن النساء المحجبات هن الداعرات والداعيات إلى الفواحش ، وحيلة أخرى وهي أنهن يردن إخفاء قبحهن ، بينما السافرات لا يتعرضن لأي أذى سائرات لا يلتفتن لأحد ولا يلتفت

إليهن أحد ، واثقات من أنفسهن ، وتمت هذه الحيلة على كثير من النساء المسلمات فنبذن الحجاب خوفاً من هذه الدعاية الكاذبة الضالة المضلة .

وقد اخترع أعداء الفضيلة لتقوية هذه الحيلة طرقاً شيطانية منها :

١ ـ توجيه بعض العاهرات الفاجرات أن يتسترن بمثل الألبسة التي تتستر بها المؤمنات العفيفات الشريفات وأن يسرن في الأسواق العامة ويتعرضن للفُسّاق ، وهن في هذه الألبسة الساترة المزورة ، فيظن من لا يعرف سر هذه المكيدة أن الأمر على حقيقته . ويراد من وراء هذه المكيدة إعطاء الأدلة على أن المحجبات فاسقات ، وكذلك لمضايقة المحجبات أيضاً من ناحية أخرى .

٢ ـ توجيه فريق من الفُسَّاق المأجورين أن يتعرضوا للمتسترات العفيفات في الطرقات العامة ويؤذونهن في عفافهن بفسق من القول أو الغمز أو اللمز أو اللمس ... إلخ [(١)] .

ويراد من هذه المكائد مضايقة المحجبات كي ينبذن الحجاب ، ومن المتوقع أن المرأة المسلملة إذا لم تكن عندها حصانة كافية من المعرفة بالإسلام ومعرفة بثواب الصابرين من المتوقع لها أن تنهار أمام تلك الضغوط كلها ، وهو ما حصل بالفعل حتى أصبحت بعض النساء تستحي أن تلبس ثياب الحشمة وكاد أن يتحقق ما توقعه الفاجر «فرويد» من أنه لا بد من التركيز على ذم الحشمة عند النساء حتى تصبح عيباً في نظرهن .

---

(١) انظر أجنحة المكر الثلاثة ، ص ٤١٤

المطلب الأول

قضية المرأة في النظم الجاهلية وفي الإسلام :

لم تكن المرأة في يوم من الأيام في عصر خير القرون تمثل مشكلة تتطاحن حولها الآراء ، بل كانت جوهرة مكنونة لها احترامها كأم أو أخت أو زوجة أو بنت ، ولها حقوق وعليها واجبات معروفة في غاية البساطة ، وعاش الرجال والنساء على غاية من المودة والتفاهم يكمل بعضهم بعضاً دون أن يقف أحدهم في طريق الآخر ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [(١)] وتعاليم الإسلام تظلل الجميع وتبين لكل منهم منهجه وطريقه إلى أن ظهر قرن الشيطان في أوربا ، فإذا بالمرأة تصبح نهباً مشاعاً بين الرجال وإذا بها تمثل مشكلة مفتعلة شغلتها وجلبت لها الشقاء وجعلتها تواجه الرجل وتقف في طريقه ، بل وتشتبك معه في جوانب كانت في غنى عنها ، وخدعها القائمون على إلقائها في معترك الحياة أيما خديعة ، ولم يتركوا لها الفرصة للتفكير والتروي ، بل صاحوا بها على عجل لترمي بنفسها في هذا الخضم ، وليكن ما يكون ، واستعجلت ونفذت ما خططوه لها وبدأت حياة الشقاء والكَر والفَر مع الرجل في دوامة لا نهاية لها ، فلا هي تستطيع أن تخرج منها ، ولا هي قادرة على إكمال ما رسم لها ، ولا زالت تكابد الهموم والغموم في ظلام دامس ، وكثر الحديث عن المرأة وتضاربت فيها الآراء بين جاد وهازل ومخادع ، حتى كادت حقوق المرأة أن تضيع بين هؤلاء المتعاركين ، وكثرت فيها المؤلفات

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٢

وأصبحت مادة دسمة لكل متحذلق ومتزلف ، واحتارت المرأة كثيراً أمام هذا الضجيج من حولها ـ ولا بد لها أن تحتار ـ فهي لا تدري إلى أي ناعق تسمع ، ولا إلى أي جانب تميل ، كل يصيح بها إليَّ إليَّ النجاة عندي .

وتفنن الكتاب والممثلون والمغنون والرسامون والصحفيون والمذيعون ، تفنن هؤلاء وغيرهم في وسائل إغرائها وجذبها ، ولقد ارتابت كثير من العاقلات في أمر هؤلاء ، هل هذا كله ناتج عن حب وعطف عليها ؟ أم أنه ناشيء عن مؤامرات لا يعلم مداها إلا اللَّه ؟ ، وعلى أي حال فلا نجاة للمرأة ولا مفر من أن تسقط في أي فخ عاجلاً أم آجلاً إن لم تتداركها رحمة اللَّه تعالى فتعود إلى رشدها .

ولم تكن هذه الحيرة عامة ـ وللَّه الحمد ـ لجميع النساء ، بل هناك قسم نجاهن اللَّه من تلك الحيرة وشعرن بالسعادة تغمرهن ، وأخذن يندبن حظ من لم تدخل تلك السعادة الغامرة ، فأين هي تلك السعادة التي تبدد كل تلك الشكوك والقلق ، وأين هي السعادة التي تسكت أفواه أولئك الذين ينوحون عليها من كل جانب ويذرفون دموع التماسيح ؟ إن تلك السعادة بدون ريب وجدنها في الإسلام ، وجدنها بكل هدوء وأناة وقناعة تامة ، ولعل القارئ يدرك معي أن الحديث حول المرأة ذو شجون ، وأنه يحتاج إلى مجلدات ، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله ، كما تقدم ، وإليك أخي القارئ نبذة موجزة نافعة إن شاء اللَّه لبيان ما وقع عن أحوال المرأة قديماً وحديثاً .

المرأة في النظُم الجاهليَّة مظلومة ظلماً فاحشاً

لم تجد المرأة ـ ولن تجد ـ في جميع النظم من الإنصاف ما وجدته في الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة من الواقع ومما دُوِّن حول قضية المرأة في النظم الجاهلية ، ومن تلك الأدلة :

١ ـ جاء في أقدم النظم الجاهلية وهي شريعة حمورابي الذي يرجع إلى سنة ٢٣ قبل الميلاد ، جاء فيها :

(أ) «أن من حق رب الأسرة بيع أفراد الأسرة أو هبتهم إلى الغير مدة من الزمن» .

(ب) وفيه « أن الزوج إذا طلّق زوجته فإنها تُلقَى في النهر ، وإذا أراد عدم قتلها نزع ثوبها عن جسمها وطردها من منزله نصف عارية إعلاناً منه بأنها أصبحت شيئاً مباحاً لكل إنسان» ، فلتسمع الجاهلات المعاصرات .

(ج) وفيها «أن المرأة إذا أهملت زوجها أو تسببت في خراب بيتها تُلقَى في الماء» .

(د) ونص قانونه على أن «الزوجة التي تُرمَى بالزِّنا بدون دليل عليها وتناولتها ألسنة الناس تُلقَى في النهر وتُغطَّس في الماء ، فإن عامت على وجه الماء كانت بريئة ، وإن غطست أُعتُبِرَت آثمة» ، أي أن المتهم مُدان إلى أن تثبت براءته حسب هذه المفاهيم الجاهلية ، وهذا الحكم في المقذوفة ـ بدون دليل ـ أنها تُرمَى في

النهر أمر عجيب ، وأعجب منه الحكم لها بالبراءة إذا طفت على الماء ميتة !! .. هكذا حكم الجاهلية ، وأين هو من حكم اللّه تعالى ، وما الذي ستستفيد منه إذا طفت ميتة بريئة .

٢ ـ كانت المرأة لا قيمة لها في القانون الصيني الذي قرر أنه : «ليس في العالم شيء أقل قيمة من المرأة» .

٣ ـ وفي القانون اليوناني كانت القاعدة أن المرأة تدخل ضمن ممتلكات ولي أمرها قبل الزواج ، وتدخل ضن ممتلكات زوجها بعد الزواج .

وكانت قيمة المرأة عندهم كما سجلها «ديموستين» هي قوله : «إننا نتخذ العاهرات للذَّة ، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليكون لنا أبناء شرعيون» .

٤ ـ وفي بعض بلدان إيطاليا كانت الزوجة تُعَد خادمة في المنزل ، وعليها أن تجلس على الأرض بينما يجلس الرجل على المقاعد ، وخارج البيت إذا ركب زوجها الحصان ، فلا بد أن تسير على قدميها خلفه مهما كان بُعد المسافة» .

٥ ـ وفي القانون الهندي عدَّة قوانين منها :

(أ) «لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها حتى ولو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها» .

(ب) «المرأة في مراحل طفولتها تتبع والدها ، وفي مراحل شبابها تتبع زوجها ، فإذا مات تنتقل الولاية إلى أبنائه أو رجال عشيرته الأقربين ، فإن لم يكن له أقرباء تنتقل الولاية إلى عمومتها ، فإذا لم يوجد لها أعمام تنتقل إلى الحاكم» .

(ج) وكانت شرائعهم تقضي أيضاً بأن تحرق الزوجة نفسها مع زوجها إذا مات ، وقيل إنهن في الهند كن يفعلن هذا حتى إن الزوجة تتحايل وتتظاهر بالموت لتُحرَق مع زوجها ، إلى أن منعتهن بريطانيا من ذلك زمن احتلالها للَّهند .

وسبب هذه الإهانة للمرأة في القوانين الهندية بيَّنه قانون «مانو» بقوله : «إن مانو عندما خلق النساء فرض عليهن حب الفراش والشهوات الدنسة والتجرد من الشرف وسوء السلوك» فالنساء دنسات ، وهذه قاعدة ثابتة عندهم .

٦ ـ وفي القانون الروماني كما في الألواح الإثني عشر أن المرأة لا أهلية لها ، لأن أسباب انعدام الأهلية عندهم هي : (صغر السن ـ الجنون ـ الأنوثة) ، وفيه أن رب الأسرة يحق له أن يبيع زوجته وابنه وابنته كما يحق له أيضاً النفي والتعذيب ، بل والقتل إذا شاء ، أي كما تذبح واحدة من غنمك أو تبيعها .

٧ ـ وفي القانون اليهودي : عند بعض فرقهم البنت بمنزلة الخادم ولأبيها أن يبيعها ، ولا إرث للزوجة ولا للبنت .

وفي قانون الأحوال الشخصية في إسرائيل :

«إذا تُوفِّي الزوج ولا ذكور له من زوجته فإنها تصبح زوجة لشقيق زوجها أو لأخيه من أبيه ، ولا تحل لغيره إلا إذا تبرَّأ منها» كما نصَّت عليه التوراة ، وعندهم الحائض نجسة لا تَلمَس ولا تُلمَس إلى أن تطهر وتضع خرقة حمراء على فراشها .

٨ ـ وعند النصارى ليس في الإنجيل أي نص ينظم الحياة الاجتماعية ، ولذا يعتمد أتباعه على ما جاء في التوراة ، ويخالفون اليهود في طهارة الحائض .

٩ ـ لا يزال حق المرأة مهضوماً في الدول الغربية رغم مناداتهم الكاذبة بإنصاف المرأة فهي مظلومة في احترامها ، ومهضومة في تكليفها بالعمل والاكتساب ، وكانت المادة (٢١٣) من القانون الفرنسي تقضي بإلزام المرأة طاعة زوجها وأن تسكن معه حيث يسكن ، كما يقضي هذا القانون بإلزام الزوجة بعدم التصرف في أموالها إلا بإذن كتابي من زوجها .

وآخر تعديل للقانون سنة ١٩٤٢م هو الإذن الضمني بأن تثبت أن الأموال التي تتصرف فيها ليست ملك لزوجها ، ولا هي من الأموال المقدمة منها للمساهمة في نفقات الأسرة ، ولا هي من الأموال المختلطة بين الزوجين .

وقال «هربرت سبنسر» في كتابه علم الاجتماع : «إن أوربا حتى القرن الحادي عشر الميلادي كانت تعطي الزوج الحق في أن يبيع زوجته ، فجعلت حق الزوج قاصراً على الإعارة والإجارة وما دونها» .

وفي إنجلترا يسمح القانون ببيع الزوجة حتى سنة ١٨٠٥م ، وكان الثمن محدداً بست بنسات آنذاك ، وقد حدث أن باع إنجليزي زوجته سنة ١٩٣١م بخمسمائة جنيه ، وفي مرافعات المحكمة قالوا له إن قانون بيع الزوجات قد ألغي سنة ١٨٠٥م ، وأخيراً حكمت عليه المحكمة بالحبس عشرة أشهر .

وفي القرن الخامس انعقد مجمَع ماكون المسيحي المقدس للنظر في حقيقة المرأة هل هي جسم بلا روح ، أم لها روح كالرجل ، وكان قرارهم أن المرأة لها روح شريرة غير ناجية من العذاب ، عدا أم المسيح .

وصرّح بعض علمائهم بأن أجسام النساء خطيئة ومن عمل الشيطان وأنه يجب لعنهن !!

وفي سنة ٥٨٦م انعقد مؤتمر في فرنسا للبحث هل المرأة من البشر أم لا ؟ وخرج القرار أنها إنسان خلق لخدمة الرجال فقط .

كما أنه في الدول الغربية تفقد المرأة إسمها وحريتها ونسبتها إلى أبيها بمجرد الزواج إذ تنتسب إلى زوجها .[١]

---

(١) بتصرف عن كتاب «مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية» ـ سالم البهنساوي .

وفي عصور أوربا المتأخرة أصبحت المرأة مشكلة كبرى تتطلب حلولاً وقام الخادعون لها بالدعوة إلى حرية المرأة ، ومساواتها بالرجل .. فهل نالت الحرية فعلاً ؟!! وهل حصلت على المساواة ؟!!

أمّا الحرية التي يمنّون بها على المرأة فهي حرية زائفة عبّر عنها المتظاهرون في الصين حينما كانوا يصيحون «لا حرّية عندنا إلا في الجنس» ، فقد فتحوا لها باب الحرية الجنسية على مصراعيه تعاشر من تريد وتترك من تريد ، وأعطوها حرية التبرج والرقص لتكون في متناول أيديهم ، وأعمالاً أخرى دون طموح كثير من النساء الشريفات ، كما أعطوها حرية العمل لكي تكدح وتتعب مثل ما يكدح الرجل ، وحمّلوها بأعمال هي من طبيعة الرجال ، ولم يرحموا نعومتها وتكوينها الجسدي ، ولهذا كثرت شكاوَى النساء في مجتمعاتهم من قَساوَة الرجال وغلظ طباعهم ، كما شكين من إرهاقهن بالعمل المضني ، وشكين من اختفاء العاطفة الأسرية ومجابهة الشدائد كل واحدة بمفردها وجهاً لوجه ، وما أكثر المنتحرات احتجاجاً على سوء أوضاعهن ، وتبين لهن أن المناداة برفع مستوى المرأة والعناية بها والتملق لها إنما هو موجه إلى من كان عليها مسحة من ملاحة ، وأما اللواتي لم يحظين بالجمال والرشاقة والحيوية فالويل لهن ، وعليهن أن يندبن حظهن .

تقول إحدى الموظفات في أحد مطارات أوبا [1] إني لأعجب من الإسلام كيف جعل أتباعه يهتمون بالمرأة إلى حد أن الأخ يؤثر أخته ويدافع عنها ولو أدّى إلى موته ، ثم قالت وأنا لي أخ لا يراني أحياناً إلاَّ في السنة مرّة ، وقد يسلم بيده من بعيد ويمضي .

وستجد مزيداً من الأمثلة من خلال هذه الدراسة إن شاء اللَّه تعالى .

أما زعمهم المساواة بين الرجل والمرأة ، فلها قصة قديمة ، وذلك أن المرأة كانت تعمل إلى جانب الرجل ، ولكنها كانت تأخذ أجر أقل منه لضعفها عن الجهد الذي يبذله الرجل ، واستمر الحال إلى أن نُبِّهَت ـ أو تَنبَّهَت ـ المرأة إلى هذا الغبن فطالبت بمساواتها بالرجل في الأجرة واستمر الطلب وقوي مع مرور الوقت ، ومن هنا نشأ طلب المساواة بين الرجل والمرأة .

ثم تنوسي أساس الطلب وتطلعت المرأة إلى أبعد من ذلك ، فإذا بها تُدفَع إلى ما لا يتفق وفطرتها وطبيعتها وشمخت بأنفها وأخذ الغرور منها كل مأخذ وظنت أنها مثل الرجل تماماً فقلّدته ومسخت أنوثتها ،

---

(١) سمعت هذا الكلام ، وقد رواه أحد الدُّعاة في الراديو ، وقد حصل له هذا الموقف شخصياً حينما أعطته تلك الموظفة تذكرة سفر له ولزوجته وأخرّت أخته لعدم وجود مقعد ، فامتنع عن السفر ، فسألته في دهشة ولماذا ترفض إلا السفر بأختك ؟ فقال لها هكذا يأمرنا ديننا ، فاستفسرت عن هذا الدين ، فشرح لها الداعية المسلم الدين ونظرته إلى الأسرة ، فتأثرت جداً وقالت له : لا أريد أن أؤخركم عن السفر ، وأعطتهم جميعاً تذاكر ، وطلبت منه أن يرسل لها كتباً إسلامية .

حلقت رأسها وأبعدت عنها الحُلي ، الذي أخبرنا اللّه تعالى أن المرأة تنشأ فيه ، وقلّدته في الصوت والمشية والحركات فكانت هي الخاسرة من حيث لا تشعر إذ نظر إليها الرجل على أنها لحم على ظهر وضم ، فأعرض عنها واستهان بها فأخذت هي التي تبادله بالمغازلة ومراودته عن نفسه ، ولم يبقَ لها عرق واحد ينبض بالحياء ، وذلك عند الكثيرات في ظل هذا التيار الجارف .

إلى أن اكتشفت بعض العاقلات الحالة على حقيقتها ، فهالها الغبن الفاحش الذي وصلت إليه المرأة على أيدي ثعالبة البشر ، وأن الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل في كل شيء إن هي إلا مهزلة ونفاق وخدع لا حد لها ، وأنه يستحيل أن تتساوى المرأة والرجل الذي لا يحس بما تحس به المرأة في الحمل والولادة ، وضعف القُوَى في المرأة وما تتعرض له من تقلبات نفسية ومواقف وشدائد فوق ما تتحمله من أعمال كلفها بها الرجل تنوء بكاهلها وتعجل لها الهرَم والشيخوخة أبعدتها عن الزوج المؤنس والأولاد الذين يجلبون لها السرور والهدوء والراحة في بيتها وأخرجتها إلى عالم الصخب والضجيج وهدير الآلات والمشاكسات التي تحصل عادة بين أرباب العمل .

وإذا كان ما قدمنا عن حال المرأة في أوربا والدول التي تدَّعي التقدمية والحضارات غير العربية السابقة ، فماذا عن المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده ؟

الواقع يدل على أنها في الجاهلية لم تكن شيئاً يُذكَر ، وإن كان حالها أحسن حالاً من المرأة عند الأمم الأخرى ، لأن تقاليد العرب في المروءة والشهامة كانت تحتم حماية المرأة والذود عنها ، ومع ذلك فقد هضمت في جوانب عديدة سنذكرها فيما يلي مقارنة بحاله في الإسلام :-

•• مقارنة بين حال المرأة في الجاهلية وحالها في الإسلام :

تبين لنا مما تقدم أن المرأة في الإسلام لم تكن تشكل قضية تتطلب الحلول أو احتدام الخلاف حولها ، وذلك لوضوح أمرها ، فلها مكانتها ولها حقوق وعليها حقوق واجبات وأمور أخرى ستراها أخي القارئ من خلال عرض حالها فيما يلي :-

١ ــ ولادة البنت في الجاهلية وفي الإسلام : يعرف القارئ الكريم أن الجاهليين كانوا يكرهون ولادة البنات ويتبرمون منها ويَسْوَد وجه أحدهم من الغيظ ويختفي عن مقابلة الناس حياءً من ولادة البنت ، ثم يأخذ في التفكير العميق هل يبقيها حيَّة تتجرَّع أنواع الإهانة حتى تموت أم يعاجلها بالعقوبة فيدفنها في التراب حيّة دون أدنى مبالاة ، وقد وصف اللّه هذا الحال بقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ** ﴾ ، وبعد هذا قال اللّه تعالى في الحكم عليهم : ﴿ **أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)** ﴾ [(١)] ، إنها إساءة إلى اللّه تعالى ، وإلى

(١) سورة النحل ، الآيتين : ٥٨ ، ٥٩

أم المسكينة ، وإلى تلك المسكينة التي وجدت من دون اختيارها ، وإلى المجتمع كله .

وقال تعالى عن دسِّها في التراب ـ أي دفنها حيّة ـ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [(١)] ، وهو تهديد شديد ، ويعود سبب تلك الكراهية لها إلى أن حياة الجاهلية كانت قائمة على الغارات والسلب والنهب ، والبنت لا تستطيع ذلك فكرهوا ولادتها وتعللوا بخوف العار .

٢ ـ كان حكم الجاهلية يقضي بأن المرأة لا إرث لها من مال والديها ولا أحداً من أقاربها ، بل الذي يختص بالمال كله هو الرجل فقط ، ولكن حكم اللّه تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) ﴾ [(٢)] فجعل المرأة ترث من المال مهما كان قليلاً أو كثيراً بقدر نصيبها الذي بيّنته السُّنَّة أتمَّ بيان .

٣ ـ كانت المرأة تُورَث كالمتاع أو كالحيوانات التي يتركها الميّت لورثته ، هكذا حكم الجاهلية ، ولكن حكم الإسلام يختلف تماماً إذ حكم بأن هذا لا يحل ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ [(٣)]

---

(١) سورة التكوير ، الآيتين : ٨ ، ٩

(٢) سورة النساء ، الآية : ٧

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٩

٤ ـ كانت المرأة تُعامَل كقطعة من جماد لا اهتمام بها ولا نظر لمشاعرها ، فقد كان الرجل يجمع بين الأختين في الزواج دون أي اعتبار لما تحس به كل منهما من الغيرة والتعذيب النفسي ، ولكن اللَّه في القرآن الكريم جعل هذا العمل من المحرمات المؤبدَّة في حياة كل منهما تحت رجل واحد ، حيث قال اللَّه تعالى : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ . . .** ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ **. . . وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (٢٣)** ﴾ [(١)]

٥ ـ كانت المرأة لا تملك الانفصال عن زوجها ولو طلّقها مائة مرّة ، فجعلها الإسلام طلقتين فقط ، وفي الثالثة تنتهي عشرتها مع زوجها .

٦ ـ كان الرجل يعدد الزوجات حسب ما يريد ، فجعلها الإسلام أربعاً فقط مع أمن الجور والاستطاعة الكاملة .

٧ ـ كانت المرأة لا رأي لها في اختيار الزوج الذي تريد ، بل تُزوَّج مُكرَهة .

٨ ـ كانت المرأة إذا مات عنها زوجها ينكحها ولده من غيرها دون أي اعتبار لما كانت تتمع به في حياة زوجها من منزلة ودون اعتبار لزوجة الأب التي هي بمنزلة الأم ، فأبطل اللَّه هذه الفعلة القبيحة وحرَّمها بقول تعالى : ﴿ **وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢)** ﴾ [(١)] ، ثلاث صفات قبيحة لهذا السلوك البهيمي .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٢٣

(٢) سورة النساء ، الآية : ٢٢

٩ ـ كانت المرأة التي تقع أمَة لشخص بأي سبب تُقهَر وتُهدَر كرامتها ، بل تصبح سلعة رخيصة معروضة إذ كان سيدها يُكرهُها على البغاء ليَثرى على حساب عفتها ، فأبطل اللّه ذلك فقال تعالى : ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾ [١] فحرَّم اللّه ذلك السبيل الجائر إلى الأبد .

كما أنه لم يكن للمرأة أي حق أو دور مع الرجل في الأمور المهمة ، فلا يُسمَع لها رأي ، ولا يُقام لها وزن ، وإنما هي لمتعة الرجل فقط ، فجاء الإسلام الذي أعطى المرأة حقوقاً لم تنلها في حياتها لا من قبل ولا من بعد في غير الإسلام ، فقد بيّن اللّه في كتابه الكريم وفي سنة نبيه أن المرأة هي بخلاف ما كانت تتصوره الجاهلية ، فهي تماماً مثل الرجل في أشياء كثيرة تأملها فيما يلي :-

أولاً : أصل الخلق : تحدث اللّه في القرآن الكريم عن الأصل الذي تكاثر منه الإنسان وجعل المرأة شريكة الرجل في تكوين ذلك الأصل وجعله نعمة توجب على الإنسان التقوى والمراقبة ، قال اللّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [٢] ، وأن الذكر والأنثى خُلقا من نفس واحدة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [٣]

---

(١) سورة النور ، الآية : ٣٣

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣

(٣) سورة النساء ، الآية : ١

ثانياً : أن كلاً من الرجل والمرأة سواء في اعتبار كل منهما هبة ومنحة من الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾[1] .

ثالثاً : سوّى الله في القرآن الكريم كذلك بين الرجل والمرأة في الاستقلال في المسئولية الشخصية ، وهذا يتمثل في الأمور الآتية :-

١ - تحميل المرأة مسئولية تصرفها في الدنيا كالرجل سواء بسواء ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾[2]

٢ - ترتيب الجزاء في الآخرة على العمل الفردي من الرجل والمرأة طاعة كان أو معصية ، قال تعالى عن الطاعة : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾[3] .

وبالنسبة للمعصية قال تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾[4] .

---

(١) سورة الشورى ، الآيتين : ٤٩ ، ٥٠

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٨

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٥

(٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٣

٣ ـ سوَّى بينهما في إباحة كسب المال بالطرق المشروعة رغم اختلاف طبيعتيهما وأرشد كلاً منهما إلى تحري الفضل والخير من الأموال بالعمل دون التمني والتشهي ، وأنه ليس للرجل أن يسلب المرأة مالها ولا العمل الذي يتناسب مع طبيعتها ، كما أنه ليس للمرأة أن تطمع فيما وراء مؤهلاتها الطبيعية ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)** ﴾ [١]

ومعنى ما فضل اللّه به بعضكم على بعض : أي تمني النساء أن يكن رجالاً أو تمني بعضكم أموال البعض الآخر .

٤ ـ سوَّى بينهما في استحقاق الإرث بحكم الصلة التي تربط كلاً منهما بالمُوَرِّث ، فقال تعالى : ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)** ﴾ . [٢]

وبهذا أبطل ما كان متعارفاً عليه قبل الإسلام من حرمان المرأة والصغير من الميراث ، وإن كان نصيب الرجل أكثر من المرأة في الميراث ، فذلك لما كلّفه به الإسلام من النفقة عليها والقيام بشؤونها ، وعلى هذا فإن نصيب المرأة وإن كان يبدو قليلاً لكنه كثير ، إذ أن ما تأخذه سيكون

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٢

(٢) سورة النساء ، الآية : ٧

باقياً لها بخلاف الرجل فإن ما يأخذه سيذهب في الإنفاق على النساء وعلى كل من يعول الرجل ، فقليلٌ يبقى خيرٌ من كثير يزول .

٥ ـ وسوَّى بينهما في توجيه الخطاب عندما تحدث عن الآداب العامة ووجوب مراعاتها مثل غض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم إبداء المرأة لزينتها ، فقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...(٣١) ﴾ [١]

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ . [٢]

٦ ـ وسوَّى بينهما في التكافل الاجتماعي ، فاعتبر المرأة طرفاً مساوياً للرجل ، ولها نفس التأثير وعليها نفس التبعة ، يقول تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ . [٣]

---

(١) سورة النور ، الآيتان : ٣٠ ، ٣١

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١١

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧١

٧ - وسوّى بينهما عندما هدد من يعمل على إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ .[1]

٨ - وسوّى بينهما في طلب الاستغفار من الرسول ﷺ لكل منهما ، قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾ .[2]

ومن تكريم اللّه للمرأة ولطفه بها أن أوجب الإسلام على المرجل أن يقوم بالإنفاق على وليته ، والزوج على زوجته ، فهو مسئول عن مسكنها وكسوتها ومطعمها ومشربها على قدر طاقته ، قال تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾[3] ، وهذا بخلاف البهائم فإن الإنثى هي التي تقوم بالإنفاق على نفسها وعلى أولادها .

ومن تكريم اللّه للمرأة أن جعل الرجل قيّماً عليها ومسئولاً عنها ، فهو الذي يقوم بكل ما تحتاج إليه مما لا تقدر عليه ، وقد جعل اللّه للرجل درجة عليها ليقوم بالتوجيه والإرشاد ، قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[4] ، ولم يقل

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٨
(٢) سورة محمد ، الآية : ١٩
(٣) سورة الطلاق ، الآية : ٧
(٤) سورة النساء ، الآية : ٣٤

سبحانه «بما فضَّلَهم عليهِنَّ» ، ولعل ذلك إشارة إلى أن هذا التفضيل ليس إلا كتفضيل بعض أعضاء الجسم على بعضها الآخر دون أن يكون ذلك احتقاراً للمفضول كتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى مثلاً ، أو كتفضيل العقل على البصر ، ونحو ذلك مما اقتضته الحكمة الإلهية .[1]

ومن تكريم اللَّه للمرأة في الإسلام كذلك أن جعلها راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، ومنحها كل الحقوق التي تليق بطبيعتها وبما يقوم به صلاحها ، ولقد شهد الكثير من الكفار أن الإسلام أعطى المرأة فوق ما كانت تحلم به ، وأنها سعيدة جداً في ظل حضارته الوارفة .

هذا هو الوضع السليم للمرأة في الإسلام ، وظلت على هذا الخير إلى أن جاءت الحضارة الغربية الجارفة فإذا بالمرءة تُخدَع عن هذا الخير وتنزل إلى الحضيض دون أن تشعر حيث نفخوا في رَوعها أن الحشمة والعفة والحجاب وبيت الزوجية والاقتصار على تربية الأولاد فقط في داخل بيتها وعدم مشاركتها الرجل في العمل جنباً إلى جنب نفخوا في رَوعها أن كل هذا وما يشبهه من مظاهر عدم انفلات المرأة ، أنه تأخُّر ورجعية إلى الوراء ، وأن اقتحام المرأة كل ميدان هو التقدم ، فالرقص والاختلاط ، وكشف العورة ، ونبذ الحياء ، كله أدلة قوية على السير في الطريق العلماني السليم بزعمهم ، طريق تقدم المرأة وحريتها في ظل الحضارة اللادينية .

---

(١) بتصرف واقتباس عن كتاب «نعم اللَّه في خلق الإنسان كما يصوره القرآن» ، ص ١١٠ ـ ١١٧ .

وما نسمعه اليوم من المناداة الملحة في أكثر البلدان الإسلامية إلى تقديم المرأة وإلى دخولها في الحكم أقوى دليل على أن النيَّة مُبيّتَة ، بل إن البلدان الإسلامية أصبح الحكم عليها بالتقدم أو التأخر عند الغرب يُقاس بمدى استهتار المرأة بكل القيم الفاضلة ونبذ الحجاب والانفلات عن الدين .

وانهالت على المرأة المدائح تلو المدائح لجُرأتهن على اقتحام الميادين التي كانت للرجال ، وأخذ الكُتَّاب والمفكِّرون في الصحف والإذاعة والتلفزيون وكل وسائل الإعلام يطالبونهن بالمزيد من هذه الجرأة التي لا حدَّ لها عندهم حتى تصورت أنها علت فوق منزلة الرجل وظنت أنها وصلت إلى خير ، بينما هي في الواقع مظلومة ظلماً فاحشاً في ظل هذه الحضارة اللادينية ، فأصبحت تعاني من الهموم والمتاعب وإرهاق العمل مثل ما يعانيه الرجل ، رغم طبيعتها الضعيفة ، وقد أدركت كثير من النساء زيف تلك الدعايات الكاذبة التي بهرجها دعاة تحرير المرأة ، وجأرت كثير من نساء الغرب المثقفات بالشكوى من وضعهن ، وتمنين لو أنهن يعشن عيشة النساء المسلمات كما صرّحن بذلك .

وعن الحياة التعيسة التي تعيشها المرأة الأوربية بعد أن زجَّ بها أدعياء الحضارة والتقدم من العلمانيين اللادينيين في كل معترك الحياة ، وبعد أن أصبحت سلعة معروضة بأرخص الأسعار ، لا همَّ لها إلاَّ استرضاء الرجل ، وهو أيضاً لا همَّ له إلاَّ الاستمتاع بها إن كانت ذات جمال وكمال ، والويل لها إن لم تكن كذلك .

عن تلك الحياة التعيسة تقول الكاتبة الإنجليزية «آني رود» : «إذا اشتغلت بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل ، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد . أيا ليت بلادنا كبلاد المسلمين حيث فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء الخادمة والرقيق الذين يتنعمان بأرغد عيش ، ويُعاملان معاملة أولاد رب البيت ، فلا يمس عرضهما بسوء . نعم إنه عار على بلادنا الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطتهن للرجال ، فما بالنا لانسعى وراء ما يجعل البنت تعمل ما يوافق فطرتها الطبيعية كما قضت بذلك الديانة السماوية وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها» . (١)

وتقول الكاتبة «اللادي كوك» : «إن الاختلاط يألفه الرجال ، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها ، وعلى قدر الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا ، ولا يخفى ما في هذا من البلاء العظيم على المرأة . فيا أيها الآباء لا يغرنَّكم بعض دريهمات تكسبها بناتكم باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا ، فعلموهن الابتعاد عن الرجال إذ دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من الزنا يعظم ويتفاقم ، حيث يكثر الاختلاط بين الرجال والنساء ، ألم تروا أن أكثر أولاد الزنا أمهاتهن من المشتغلات في المعامل ومن الخادمات في البيوت ، ومن أكثر السيدات المعرضات للأنظار ،

---

(١) «الإسلام روح المدنية» ـ مصطفى الغلاييني ـ ص ٢١١ . نقلاً عن «العلمانية» د. سفر ص ٤١٩

ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للإسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن ، ولقد أدت بنا الحال إلى حد من الدناءة لم يكن تصوُّره في الإمكان حتى أصبح رجال مقاطعات من بلادنا لا يقبلون البنت ما لم تكن مجربة ، أعني عندها أولاد من الزنا فينتفع بشغلهم ، وهذا غاية الهبوط في المدنية ، فكم قاست هذه المرأة من مرارة الحياة حتى قدرت على كفالتهم ، والذي اتخذته زوجاً لها لا ينظر لهؤلاء الأطفال ولا يتعهدهم بشيء يكون ويلاه من هذه الحالة التعيسة نرى من كان معيناً لهافي الوحم ودواره والحمل وأثقاله والفصال ومرارته» .[1]

وتقول «أجاثا كريستي» أشهر كاتبة إنجليزية للمؤلفات البوليسية : «إن المرأة الحديثة مغفلة ، لأن مركزها في المجتمع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، فنحن النساء نتصرف تصرفاً أحمقاً لأننا بذلنا الجهد الكبير في السنين الماضية للحصول على حق العمل والمساواة في العمل مع الرجال ، والرجال ليسوا أغبياء ، فقد شجعونا على ذلك معلنين أنه لا مانع مطلقاً من أن تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج ، ومن المحزن أن نجد بعد أن أثبتنا نحن النساء أننا الجنس اللطيف ، أننا نعود اليوم لنتساوى في الجهد والعرق الذي كان من نصيب الرجل وحده»[2]

وفي استفتاء لمعهد غالوب في أمريكا تقول النتيجة : «إن المرأة متعبة الآن ، ويفضل ٦٥٪ من نساء أمريكا العدوة إلى منازلهن ، كانت المرأة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٠ . نقلاً عن الإسلام روح المدنية

(٢) مجلة الاعتصام ـ العدد ٣ ـ السنة ٤١ / ١٣٩٨هـ ـ عن العلمانية ص ٤٣٥ .

تتوهم أنها بلغت أمنيتها في العمل ، أمّا اليوم وقد أدمت عثرات الطريق قدمها ، واستنزفت الجهود قواها فإنها تود الرجوع إلى عشها لاحتضان أفراخها .(١)

بل وصل الحال بدعاة العلمانية الغربية إلى أن يعتبروا الفضائل رذائل ، والعفة مشكلة فقد «انزعجت السلطات التعليمية في اسكوتلانده بسبب موجة الزواج التي تعصف بالمدرسات ، فقد تبين أنه خلال عام ١٩٦٠م عُينَت ١٥٦٣ مدرسة في اسكوتلانده ، وفي نهاية العام تركت ألف منهن الوظيفة للزواج ، وقالت السلطات إن الزواج يهدد النظام المدرسي»(٢)

وهؤلاء الذين ينزعجون من تزويج النساء يشابهون انزعاج قوم لوط حينما دعاهم عليه السلام إلى الطهارة والعفة ، فاعتبروا دعوته جريمة ، كما قال تعالى مُخبراً عن ذلك ﴿ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** (٥٦) ﴾ .(٣)

وكان لوقوف دعاة الشر في وجه فطرة المرأة آثاره السلبية ، فقد ارتفعت نسبة الانتحار بين النساء في تلك المجتمعات ، وارتفعت نسبة الطلاق بينهن ، بل وارتفعت نسبة السرقات بين النساء دون أن يكن في حاجة إلى المال ، وإنما إلى الانتقام من المجتمع الذي أوصلهن إلى تلك الحالة التعيسة .

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ٢٥٩ ـ عن العلمانية ص ٤٣٥

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

(٣) سورة النمل ، الآية : ٥٦

أقدمت الممثلة الشهيرة «مارلين مونرو» على الانتحار رغم بهرجة الحياة التي كانت تُرى عليها ، وقد كتبت قبل أن تنتحر هذه النصيحة لبنات جنسها تقول فيها : «إحذري المجد ... إحذري من كل من يخدعك بالأضواء ، إني أتعس إمرأة على هذه الأرض ، لم أستطع أن أكون أمّاً ، إني امرأة أفضِّل البيت والحياة العائلية الشريفة على كل شيء .. إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة ، بل إن هذه الحياة العائلية لهي رمز سعادة المرأة ، بل الإنسانية .....» ، وتقول في النهاية : «لقد ظلمني كل الناس ، وإن العمل في السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة تافهة مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة» [١] .

وقد كتب بعض الأطباء في «ڤيينا» تقريراً عن نسبة محاولات الانتحار بين الفتيان والفتيات قال فيه : «وقد لوحظ أن النساء أكثر محاولة من الرجال ، ففي عام ١٩٤٨م كان عدد المحاولات من النساء ٣٨١ ، وهذا يوافق ٥٨,٦١٪ من المجموع ، وفي عام ١٩٥٦م كان العدد ٥٩٠ أي بنسبة ٥٦,٧٣٪ ، وفي عام ١٩٥٩م كانت النسبة ٥٥,٩٢٪ ، كما لوحظ أن نسبة المحاولات من الفتيان والفتيات الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ عاماً ، و ٢٠ عاماً ترتفع باستمرار ، فعند الفتيان كانت النسبة في عام ١٩٤٨م ٦,٥٪ ، وفي عام ١٩٥٦م كانت ٦,٥٣٪ ، وفي عام ١٩٥٩م كانت ٦,٨١٪ . وأما عند الفتيات فالتصاعد مخيف ، ففي عام ١٩٤٨م حاولت ٥٠ فتاة الانتحار ، وهذا يشكل نسبة ٧,٦٩٪ من مجموع محاولات الانتحار في

(١) المرأة بين الفقه والقانون

ذلك العام ، وفي عام ١٩٥٦م حاولت ٨٩ فتاة الانتحار ، وهذا يشكل نسبة ٨,٥٥٪ ، وفي عام ١٩٥٩م حاولت ١٥٠ فتاة الانتحار ، وهذا يعني نسبة ١٤,٢٠٪ ، وهذا يعني أن كل تسعة أيام توجد ست محاولات إنتحار ، أربع منها من جانب الفتيات ، واثنتان من جانب الفتيان» [١] .

وقالت إحدى الكاتبات الألمانيات : «أتمنى أن أعيش مع رجل ناجح حتى ولو كانت له عشر زوجات» لأنها لا تعرف أن للرجل أن يجمع بين أربع زوجات فقط في الإسلام عند حاجته لذلك .

ومع كل ما سبق فإنه من المؤسف ما تلاحظه ـ أخي القارئ ـ من استشراء ذلك الداء العضال الذي أصيب به الغرب في أخلاقهم وفي سلوكهم الاجتماعي ، من المؤسف أن ينتقل ذلك لكه إلى ديار المسلمين الذين أصبحوا أشبه ما يكونون بتلك القرية التي ضربها اللّه مثلاً بقوله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)** ﴾ [٢] .

ومما يجدر التنبيه إليه قضية الفوارق بين الناس وما هو الصحيح في النظرة إليها .

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤

(٢) سورة النحل ، الآية : ١١٢

المطلب الثاني

قضية الفَوارق في الإسلام

الإسلام لا ينكر الفوارق بين الناس لأنها أمر واقع ، ولكنه ينظمها ويجعلها فوارق طبيعية تتماشى مع الفطرة والواقع ، وينأى بها بعيداً عن الكبرياء والفخر والعصبيات البغيضة ، ذلك أن الأساس في الإسلام لجميع البشر التساوي بينهم في الأصل والنشأة ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [(١)] .

وقال النبي ﷺ : «**كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُرابٍ ، وَلَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ بآبائِهِمْ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلى اللَّهِ تَعالَى مِنَ الجُعْلانِ**» [(٢)] .

إن الإسلام يعترف بوجود فوارق حقيقية بين الناس في نواحٍ مختلفة ؛ كالفقر والغِنى ، والقوة والضعف ، والبلادة والذّكاء . ولكن الإسلام لا يُجيز أن تكون تلك الفوارق مصدر استعلاء الناس بعضهم على بعض ، وإنما هي دلالات على وجود مختلف الصفات فيهم ووصولهم إلى ما قُدِّر لهم ، وليست هي من قبيل نظام الطبقات الجاهلي في شيء ، وإنما هي أمور ملموسة ليس للإنسان دخل فيها ، وقد جعل اللّه كل البشر يفتقرون إليها ثم قدَّرها

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١

(٢) تفسير ابن كثير ، الجزء الرابع ، ص ٢١٨ ، وعزاه إلى البزّار في مسنده .

وفق إرادته وحكمته ، فالعاقل لا يجد مبرراً للإفتخار بها على غيره ممّن لم تتوفر فيه لأنها هبة من غيره وتفضُّل من اللَّه تعالى ، للرجل نصيب من صفات النقص والكمال ، وللمرأة كذلك لها نصيب من تلك الصفات ، وعلى العاقل أن يرضى بما قُسم له ، ولهذا نهى اللَّهُ عزَّ وجلَّ أ يتمنى الشخص ما لم يكن له حق فيه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [1] .

وما من إنسان إلا وهو يؤمن في قرارة نفسه بوجود فوارق شتى بين البشر شاءوا أم أبوا ، سواء أكان الشخص مؤمناً أوْ ملحداً ، والذين يدَّعون أنهم سيُذيبون الفوارق بين البشر إنما يتكلمون كلاماً فارغاً ويطلبون أيجاد مستحيل ، وسنّة اللَّه تعلى لا تغيير فيها ولا تبديل .

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٢

المطلب الثالث

الخُصوصيَّات بين البشَر

وإذا كان وجود الفوارق بين الناس أمراً بدهياً وواقعاً ملموساً ، فنحن على يقين من وجود خصوصيات متفاوتة بين البشر ، مع معرفتنا بأن اللَّه تعالى قد ساوى بين الرجال والنساء في أصل الخلقة فجعل سبحانه للرجل خصوصيات وللمرأة خصوصيات أيضاً كل واحد حسب ما يليق به .

١ ـ فقد خصَّ اللَّه الرجل بالقوامة على المرأة وانتساب الأولاد إليه ، وخصَّ المرأة بالأمومة والعطف والحنان .

٢ ـ خص اللَّه الرجل في الميراث بأنه له مثل حظِّ الأنثيين ، وخصَّ النساء بنصيب منه مختلف .

٣ ـ خصَّ اللَّه الرجل بالشهادة بمفرده ، بينما شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد ، ولذلك أسبابه الكثيرة التي ذكرها العلماء وسنذكرها فيما بعد ، ولا يصحُّ أن يُقال هنا أن الرجال أهليّتهم ناقصة في الشهادة ، حيث لا يُقبل في بعض القضايا إلا شهادة رجلين فأكثر ، وفي بعضها أربعة رجال فأكثر كجريمة الزنا مثلاً .. فما سبب وجود تلك الخصوصيات ؟

والجـــواب : أمّا القَوامة بالنسبة للرجل فسببه الذكورة ، وأمّا الأمومة بالنسبة للنساء فسببها الأنوثة ، كما أنه لا تستقيم الأمور إذا كانت القوامة للجميع ، أمّا الميراث فليست المرأة في الميراث على الأقل دائماً ، فقد ساوى الإسلام بين الأب والأم في الميراث من ولدهما المتوفَّى عن بنت وأم وأب ، وجعل نصيب البنت أضعاف نصيب الرجل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ** ﴾ [(١)] .

وأمّا كون الرجل له حظ الأنثيين فإنما هو لقيامه بالأعباء المالية التي كلف اللّه بها الرجل ، حيث يذهب ماله بسرعة ، فلو أعطيت المرأة دائماً مثل حظ الرجل لتراكم المال بيد النساء فلا توجد صفة العدل في التوزيع ، وإذا قيل بأن المرأة قد تحتاج إلى المال مثل حاجة الرجل تماماً فذلك يدل على اختلال في السلوك ، أمَّا مع بقاء قوامة الرجال فإنها لا تكون مثله وتصل إلى درجة حاجته مع وجود الميراث بيدها .

٤ ـ وأمّا بالنسبة لشهادة المرأتين بشهادة رجل فإنما هو في صور بعيدة عن حياة النساء في الغالب ، وهو ما يتعلق بالديون والمعاملات التجارية ، فخشية أن تنسى المرأة الواحدة لا بد أن تُعزَّز بأخرى كما قال تعالى : ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى** ﴾ [(٢)] ،

(١) سورة النساء ، الآية : ١١

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢

فالسبب هو خوف النسيان ، لأن المعاملات التجارية ومسائل الديون أمور لا تتخصص فيها المرأة غالباً فيسرع النسيان إليها ، كما أن مدارك المرأة في الغالب وفهمها في أمور الحياة أقل من مدارك الرجل وفهمه لكون الرجل يعيش الحياة من أوسع الأبواب بخلاف المرأة التي قد لا تصادف تلك المعاملات إلا قليلاً ، وأما إذا خرجت المرأة عن أنوثتها ونزلت إلى الشارع وعاشت الحياة بصخبها وضجيجها ومشاكلها فقد يكون لها شأن آخر من المدارك لكنه خارج عن طبيعتها الحقيقية .

وأما اشتراط أربعة شهود في جريمة الزنا فليس سببه نقص أهلية الرجل ، وإنما سببه الحفاظ على كرامة المرأة من أن تكون عرضة للكيد والشبهات ، ومنعاً وردعاً للتساهل في هذا الأمر الخطير ، وصوناً للأعراض .

٥ - وأمّا قول النبي ﷺ في النساء : «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**» .[(١)] ، فالقرائن تبين الغرض من الحديث ، أما نقصهن للُبِّ الرجل الحازم فقد كان الحديث في يوم عيد أي يوم فرح وسرور وزينة ، فليس المراد به ذم النساء ، وإنما يراد به تقرير ذكاء النساء حيث يذهبن بلُب الرجل الحازم بزينتهن وتَصنُّعهن ، لأن كيدهن في هذا الباب عظيم ، فهو إخبار من الرسول ﷺ وليس ذَمّاً لهن .

(١) تفسير ابن كثير ، الجزء الأول ـ ص ٣٣٦
وانظر زاد المعاد ، الجزء الخامس ، ص ٢٩٣

وأما نقص الدين فهو بسبب الحيض الذي يحول دون الصلاة والصوم وغيرهما من بعض العبادات ، وليس معناه الذم للنساء ، إذ لا مَذمّة عليهن في الحيض ، بل هو أمر أراده اللّه فبدونه تنعدم وظيفة الأمومة وتنقرض البشرية .

وأمّا نقص العقل فليس المراد به أن كل امرأة ناقصة العقل ، ولكن المراد به نقص عقلها في الشهادة لما سبق تعليله ، كما أن العقل والذكاء من الأمور النسبية بين الرجال والنساء وهو أمر مُشاهَد .

وظهور الخصوصيات في هذه الأمور واضحة ، ولا يصح إقحام دعوى التساوي بين الرجال والنساء في جميع الجوانب ، فهناك موانع يجب أن ندركها .

المطلـب الرابـع

موانع دعوى التساوي بين الرجال والنساء :

أما المناداة بالتساوي :

١ ـ فقد خدعت به المرأة ، لأنه لا يمكن التساوي بين الناس في كل شيء ، وإلا لكان الطبيب والممرض والصيدلي في درجة واحدة ، والموظفون كلهم رؤساء ، ولا فرق بين الرئيس وفرّاشه أو سائقه .

٢ ـ والذين ينادون بالمساواة بين الرجل والمرأة اندفعوا بدون رَويّة وتأمُّل ينعقون بما لا يدركون .

٣ ـ وعلى هؤلاء على حد مناداتهم بالمساواة أن يساووا بين الرجل والمرأة في الحمل والولادة والحضانة ، أو في حمل السلاح وخوض المعارك ، وفي العواطف ، وأن يساووا بين المُجد والكَسول ، وغير ذلك من موانع المساواة الواضحة والتي لا يمكن أن تتم إلا في خيال غير العُقلاء .

٤ ـ إن هناك فوارق واضحة جلية بين الرجال والنساء ، لا يستطيع أحد إنكارها ، فمثلاً :

ـ **حالة الحيض :** تتأثر بها المرأة في قواها الذهنية وتعتبر حالة مرضية عند المرأة ، وقد ذكر الدكتور «جب هارد» والدكتور «فيشر» أن المرأة في حالة الحيض تتأثر قواها الذهنية ، وفي حالة الحمل يُصاب مزاجها بالتلون وعقلها بالشرود ، فتختل فيها ملكات التفكير والتأمل .

وحين وضع الكونجرس الأمريكي مشروعاً لتعديل الدستور بما يكفل للمرأة المساواة الكاملة مع الرجل قامت بعض المنظمات النسائية بالاعتراض على هذا مُعلِّلين ذلك بالآتي :

- أن مساواة المرأة بالرجل يُلزم المرأة بالعمل ، فلا تستطيع التفرغ للبيت إن شاءت .
- أن مساواة المرأة بالرجل تُلغي وجوب النفقة على الرجل ، بل تجعل له حقّاً في النفقة في مالها .
- أن مساواة المرأة بالرجل تُلغي امتيازات المرأة في السجون .
- أن مساواة المرأة بالرجل تستلزم وجوب تجنيد المرأة في الجيش .

ثم لم توافق أغلب الولايات على قانون الكونجرس فتوقف التعديل .

ومن العجيب أنه بعد الاعتراضات النسائية

١ - قضت المحكمة العليا أن من حق الولايات افتتاح معاهد خاصة بالبنات .

٢ - قضت المحكمة العليا أن من حق ولاية ميتشجان منع النساء من العمل ساقيات في الحانات .

٣ - في المجر استقلت البنات عن الأسرة والأطفال بسبب استقلال المرأة في حياتها لعملها واكتفائها بالعلاقات غير الشريفة ، فاضطرت

الحكومة لمنح أجازة حضانة بمرتب كامل للراغبات في البقاء في البيت [1] .

وهذا يدل على مدى التخبط الذي يعيشه الخارجون عن منهج اللّه تعالى ، ومدى ما هم عليه من الأفراط والتفريط ، إذ لم يوفقوا إلى السلوك الوسط الذي أراده اللّه تعالى للحياة البشرية .

ومن العجائب ـ والعجائب جمّة ـ أن النساء اللاتي لم يجربن الحياة المعيشية والأخلاقية في عالم الإلحاد ينزعن برغبة جامحة إلى نبذ الحياة الإسلامية والدخول في خضم تلك الحياة العاهرة ، بينما النساء اللاتي اصطلين بنار الحضارة الإلحادية وجربنها ينزعن بشوق إلى الدخول في الحياة الإسلامية بعد أن سمعن ـ وإن كان سماعاً مُشوَّشاً ـ عن عدل الإسلام وحفاظه على المرأة ، أو قرأن قراءة عابرة عن الإسلام ومعاملته الكريمة للمرأة .

استطلعت شبكة «سي إن إن» الأمريكية المشهورة بالتعاون مع صحيفة «يو إس توداي» رأي النساء والرجال في بقاء المرأة في المنزل والرجل خارج المنزل ، فأكدت ٤٨٪ من النساء بقاء المرأة في المنزل وعمل الرجل خارجه ، بينما أكد ٦٠٪ من الرجال خروج المرأة للعمل ، وهذا دليل على خداع الرجال للمرأة وعدم الرحمة بها ، وأنهم يرغبون في أن تَكدَّ وتشقى وتعاني الحياة التعيسة ومصاعبها كما يعانيها هم تماماً .

---

(١) بتصرف عن كتاب «مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية» ، ص ٢٢٧

وقد جاء أن مطلَّقة بريطانية اسمها «ماينس چاكسون» عرضت ابنها الوحيد للبيع بمبلغ ألف جنيه ، والمبلغ يشمل الطفل وألعابه ، وقد قالت إنها ستبيع إبنها لأنها لا تستطيع الإنفاق عليه ، وليس لديها دخل لإعاشته ، فأين الذين يتهمون الإسلام كذباً وزوراً أنه لم يعطها حقها ، وهل تصل امرأة في الإسلام وتكافله الاجتماعي إلى حد بيع ابنها ؟!!

وحين تفاقمت الجرائم الجنسية والاغتصاب والحمل العشوائي بالآلاف بين فتيات بعضهن دون الرابعة عشرة يتسافدون كما تتسافد البهائم ، أصدرت شرطة مانشستر دعوة إلى النساء بأن يتحجبن ويخفين مفاتنهن لئلا يثرن الشباب الصعاليك والمهووسين جنسياً ، وإلا فإنهن سيتحملن ما يصادفنه من المضايقات الجنسية والاغتصابات المنتشرة .

وفي بدايات عام ١٩٩٠م تم لقاء مع رئيسة وزراء بريطانيا التي أطلق عليها «المرأة الحديدية» بيّنت فيه أنه تضاعف عدد الرجال والنساء المرتبطين بعلاقات غير شرعية ثلاث مرات في الفترة من ١٩٧٩م حتى ١٩٨٧م ، والمحصلة ٤٠٠,٠٠٠ طفل غير شرعي ، وقالت إن المرأة هي الخاسرة وهي تتحمل العبء الثقيل لهذا الإنفلات .[(١)]

ومن العجيب جداً أن تتلهَّف المرأة التي أعزَّها اللَّه بالإسلام ونظامه الرحيم إلى دخول تلك الحياة التعيسة للمرأة في الغرب ، وصدق من قال : «العاقل مَن اتَّعظَ بغيره» ، ولكن الأحمق يريد أن يكون هو العِظة .

(١) انظر «أساليب العلمانيين في تغريب المرأة المسلمة» ، للدكتور بشير بن فهد البشير - بتصرف ، ص ٧٣ ، تحت عنوان «ملحق» .

المبحث الرابع

التَّفكُّك الاجْتماعي الحاصل في أوضاع المسلمين وأسباب ذلك

مرت على المسلمين أحداث ومؤامرات وفتن بعضها تلو البعض الآخر فرّقت بينهم وجعلتهم أحزاباً بتخطيط بارع من قبل أعدائهم ، ولم يعد لقول اللّه تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) مدلولاً خاصاً في نفوسهم ، أو رادعاً قوياً عن التفرُّق والتحزُّب ، واستحكم الهوى في النفوس ، وأُعجب كل ذي رأيٍ برأيه ، واختلفت الولاءات ، فبدلاً أن تكون الموالاة بين المؤمنين ضد أعدائهم أصبح كل فريق من المسلمين يوالي جهة من أعداء الإسلام ، ويستعين بعضهم على بعض بأعداء دينهم ، وأصبح بأسهم بينهم شديداً ، وقلوبهم شتّى ، وتمكّن أعدؤهم منهم فضربوا بعضهم ببعض وأحكموا بينهم الخلافات ، وكانوا هم الحكم بين المسلمين على بعضهم بعضاً ، وهم الممولون للجميع بالسلاح ليضربوا عصفورين بحجر واحد ، يجربون أسلحتهم عليهم ويبيعونها منهم ، وهذا الواقع المرير الذي تيعشه الأمة الإسلامية اليوم من الذل والهَوان والتمزُّق والانكسار أمام أعداء الإسلام ما هو إلا نتيجة للتفكك المقيت الذي حلَّ بالمسلمين نتيجة عدم قبضهم على دينهم بجد وإخلاص ، وليس هذا فحسب بل قد ظهر هذا التفكك في جوانب مختلفة في حياة المسلمين ، وهي كثيرة يصعب حصرها هنا ، من اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وسنشير فيما يأتي إلى أهم الأسباب التي تظهر أنها مؤثرة جداً على مجرى الحياة العامة بين المسلمين .

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٠٣

١ ـ أمّا بالنسبة للضعف العام في المسلمين :

فإنه أمر مُشاهَد لا يحتاج إلى عبقري يبيّنه ، والأدلة على ذلك تتوارد من كل جانب ، ذلك أن المسلمين كلمتهم غير مسموعة ، وآراؤهم غير منفَّذة ، وأعداؤهم قائمون على رؤوسهم ، وأصبحوا لا يملكون إلا الشكوى للأمم المتحدة ـ اليهودية المنشأ والهدف ـ ولراعيَيّ السلام ، وللدول الأوربية ... إلخ

وقد قيل إن من أكبر المصائب على الشخص ألا يجد من يحتكم إليه إلا عدوه .

ولك فيما يفعله اليهود في فلسطين ، وما يفعله الشيوعيون في الشيشان ، وفي بورما ، وما يفعله الهندوس في كشمير ، والهند ، وما يفعله النصارى في الفلبين ، وأندونيسيا ، والبوسنة والهرسك ، وبلاد أخرى كثيرة . لك فيها أقوى دليل على ضعف الأمة الإسلامية وتكالب أعدائها عليهم ، وحينما أخبر الرسول ﷺ عن أمته بأنه سيتكالب الأعداء عليهم ويتداعون عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قال له الصحابة رضوان اللّه عليهم : «أَمِنْ قِلَّةٍ بنَا يا رَسولَ اللَّه ؟ قال : «**لا ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُم المَهَابَةَ مِنْكُم ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ**» قيل : وما الوَهَنُ يا رَسولَ اللّه ؟ قال : «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**» [١]

---

(١) «الخصائص الكبرى» ، الجزء الثاني ، ٢٦٠

وذلك أن تقارن بين مفهوم هذا الحديث وبين ما يتشدَّق به بعض المسلمين من أهم بالملايين ، وأنهم من المحيط إلى الخليج ، وقولهم بأننا أمة لن تُقهَر ، وأننا نستطيع ونستطيع ... في جعجعة لا ترى فيها طحناً ، وغرور كاذب سواء كان على مستوى الزعماء أو الأفراد .

فلا كثير من زعماء المسلمين فيهم نخوة المعتصم ، ولا الأفراد فيهم حماس أسلافهم ولا بأيديهم من أسباب القوة التي يمتلكها أعداء الإسلام في الشرق أو في الغرب ما يخيفون به أعداءهم ، بل ليس له إلا ما جادت به نفوس الأعداء من أسلحة متأخرة وشروط مجحفة كما قال أحد الشعراء :

وعُدَّةُ الخَصْم صاروخٌ وطائرةٌ * ونَحْنُ عُدَّتُنا الكُبْرى قَراراتُ**

ومع ذلك نجد الكثير من الزعماء من يشمخ بأنفه إلى عنان السماء ويتحدى الشرق والغرب ويصول ويجول ، وهو في مكانه يلهب المشاعر بالخطب الرنَّانة والتهديدات الجَوفاء .

فَلَيْت لي بهم قَوماً إذا رَكِبوا * شَنُّوا الإغَارَةَ فرساناً وركبانا**

٢ ـ تراخي قبضة المسلمين على دينهم :

وهذا هو السبب الأكبر ـ في اعتقادي ـ الذي أدّى بالمسلمين إلى الضعف العام وهوان المسلمين ، ذلك أن المسلمين من ناحية العَدد كثير ، ومن ناحية العُدّة فإنهم يملكون عُدّة كثيرة جداً بغض النظر عن مساواتها

بما عند أعدائهم ، ولو قارنت عَدد المسلمين وعُدّتهم اليوم ، وعَددهم وعُدّتهم في صدر الإسلام وزمن الفتوحات لتحيّرت أشد الحيرة ، ولتساءلت كما تساءل الكثير ممن لم يلتفت إلى هذا الجانب الهام من حياة المسلمين ، فإنه ما دام العَدد موجود والعُدّة موجودة ، فما الذي ينقصنا إذاً ، أليس أعداء الإسلام يألمون مثلما نألم ، ونرجو منو اللّه ما لا يرجون ؟ وهو فارق كبير جداً .

ولكن يأتي الجواب الصحيح الذي غاب عن أذهان كثير من المسلمين أن السبب في ضعف المسلمين وهزائمهم هو تراخيهم في قبضتهم على دينهم ، وليس العُدَّة ولا العَتاد .

٣ ـ هو غفلتهم عن السر في سبب النصر على الأعداء ، وغفلتهم عن معنى قول اللّه تعالى ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [(١)] .

٤ ـ هو تحاكمهم إلى أعداء الإسلام وتوجههم إليهم لأخذ القوانين الجاهلية بدلاً عن الشريعة الإسلامية .

٥ ـ هو تلك التيارات الجارفة والبحور المتلاطم أمواجها وسباحتهم فيها من اشتراكية وشيوعية وشيعية ورأسمالية وعلمانية و... إلى آخر تلك المذاهب التي مسخت شخصيات المسلمين .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٤٩

٦ ـ هو الذل الذي أصاب المسلمين والذي أعاد للأذهان حال المسلمين وذلهم أمام هولاكو وجنوده .

٧ ـ هو هذا العري والتبجح بالمعاصي وانتشار الرذائل دون نكير كافٍ .

هو أشياء كثيرة تجمعها عبارة «تراخي المسلمين في قبضتهم على دينهم ، وحبهم العافية ، وجمع الأموال الربوية ، والتفاخر في البنيان ... وغيرها ، وعدم تمثلهم هذا البيت من الشعر الذي تمثل به الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه حينما سمع جماعة كل واحد منهم يفتخر بحسبه ونسبه ، فقال :

أبي الإسلام لا أبَ لي سِواهُ * إذا افْتَخَروا بِقَيْسٍ أوْ تَميمِ**

وأيُّ عزٍّ ونصر سيكون لشخص حكمه بغير ما أنزل اللَّه ، وعمله خبط عشواء دون الاهتداء بالكتاب والسنة ، وليس في قرارة نفسه أن النصر هو من عند اللَّه تعالى .

وقف أحد الصحابة الكرام يوم فُتحت إحدى القلاع الحصينة للكفار ، وقف يبكي فسُئلَ عن ذلك وأنه يوم فرح وسرور فما الذي يُبكيه ، فأخبرهم رضي الله عنه بأن الذي جعل المسلمين يصلون إلى هذا الخير والنصر إنما هو تمسُّكُهم بدينهم ، فلو تركوه لتركهم اللَّه تعالى كما ترك أولئك الكفار ، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يأمن مكرَ اللَّه تعالى .

٨ ـ وهو كذلك عدم إعتزاز كثير من المسلمين بدينهم .

وتذكر أخي القارئ الكريم ما أجاب به الخليفة المؤمن هارون الرشيد ملك الروم حين كتب إليه ملك الروم يتهدده ويقول له إن الملكة «إيرني» التي كانت قبلي كانت امرأة ضعيفة ، فإذا جاءك كتابي فادفع الجزية ، فاستشاط الخليفةُ غضباً وكتب إليه فوراً على ظهر الكتاب : «من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم «نقفور» ، الجواب «ما ترى لا ما تسمع» ، ثم نادى في المسلمين لجهاد الروم ، فخرجوا كالجراد المنتشر حتى مرّغوا أنوف الروم في الوحل واستعد «نقفور» بدفع الجزية للمسلمين بكل إخلاص لقاء أن يرفعوا عنه وعن بلاده سيوفهم .

وتذكر كذلك حينما كان يُصاب أحد المسلمين في القتال بسهم أو رمح قاتل فيقول : «فُزْتُ وربِّ الكعبة» ، كيف جعل القتل فوزاً .

وتذكر حينما رمى عمرو بن الجموح التمرات التي كانت في يده وقال : «لئن بقيتُ حتى أُتمَّهُن إنه لعمر طويل» ، ثم خاض المعركة حتى قُتل .

وتذكر حينما كتب أحد المسلمين إلى زعيم كافر يقول له : «سآتيك بقوم يُحبُّون الموتَ كما تُحبُّونَ الحياة» .

وتذكر حينما كان أولئك النُّجباء من صبيان الصحابة كيف يتطاولون أمام النبيِّ ﷺ ليُثبِتوا له أنهم كبار ليسمح لهم بدخول المعركة وهو يمنعهم لصغر سنّهم .

وتذكر ابنَيْ عفراء الصغيرين وقد دخلا المعركة وانقضّا على أبي جهل ومزّقاه بسَيفَيهما .

وتذكر أحوالاً ومشاهدَ ومواقفَ لا تكاد تُحصر «تكاد لحُسنها تتكلّم» ، تذكر تلك الأمور ثم انظر حال شباب المسلمين اليوم وقد غرقوا في الموضات وفي تقليد أعداء الإسلام في كل شيئ من مأكل وملبس ونعومة وتكسُّر ومُيوعَة ، وانظر كيف يتزاحمون بالمناكب على محلات الحلاقين لعمل موضة وقصات «الأسد» وغيرها وحاشا الأسد منها .

وانظر إلى ابن العشرين اليوم وهو يتدلّل كما يتدلَّل ابن الخمس سنوات ، قديماً ، انظر لحركته وملبسه وشخصيته ، هل تجده كفؤاً لقيادة الجيش الذي قاده محمد بن القاسم وعمره سبعة عشر عاماً لفتح السند والهند .

قادَ الجيُوشَ لسَبْعِ عَشْرَة حجّة * يا قُربَ ذلكَ سُؤْدُداً من مَوْلِدِ**

واستمع للصحابي الذي قال لرُستُم ، وقد تواقف الجيشان : «ليس لكم عندنا إلاَّ ثلاث ؛ إمّا الإسلام ، وإمّا أن تدفعوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، وإمّا القتال» .

واستمع لبعض زعماء اليوم حينما يزور الكفار ـ الذين سفكوا دماء المسلمين ـ كيف يثني عليهم ويتودَّد إليهم ، ثم يضع الزهور على تمثال الجندي المجهول ـ أي الجندي الذي قتل المسلمين ولم يُعرَف اسمه .

واقرأ ما يكتبه كثير من السُّفَهاء والسَّفيهات في الاستهزاء بالدين وبتعاليمه ، خصوصاً في قضية الحجاب والعقوبات في الجنايات ، واقرأ مدحَهم وإعجابَهم بما عند الكفار من أنظمة جاهلية يُسمُّونها متطورة ، اقرأ واسمع وتذكر ما سبق ذكره وغيره حتى ترى بنفسك مدى تمسُّك كثير من المسلمين بدينهم في هذه العصور ـ عصور الفتن والشرور ـ واسألهم ما بال القومية والوطنية والشعوبية والقبلية وغيرها من النعرات الجاهلية قد أحلُّوها محل العقيدة الإسلامية وأُخوَّة الدين .

وما الذي يحملهم على تقديس المجرم الذي قال :

بلادُك قدِّسْها على كُلِّ ملَّةٍ * ومن أجْلِها افْطر ومن أجلِها صُمْ**
سلامٌ على كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَينَنا * وأهْلاً وسَهْلاً بعدَه بجَهَنَّمْ**

وكيف طبقوا هذا الكلام الفاجر بحيث قدَّس كل أهل بلد بلدَهم وسَمَّوه بلدة كذا وكذا المقدَّسَة . من أين لهم هذا التقديس ؟ وما هو دليلُهم على أنها مقدَّسَة ؟!!!

ثم اسألهم أيُّ كفر سيُوحِّدُ بينهم ؟ أليسَ الكفرُ هو الذي يُفرِّقُ الناس ويطغى بعضهم على بعض ؟

وكيف جاز لهذا المجرم أن يستهين بجَهنَّم إلى هذا الحد فيرحب بها في تحدٍّ صارخ وعنجهية حمقاء ؟!!!!

أخي القارئ .. أليس كل ما تقدم ينذر بشر مستطير وتَفلُّت تام ؟ أليس هو تراخي عن العقيدة التي أعزَّ اللَّه بها أسلافنا ، ولن تقوم لنا قائمةٌ إلاَّ بالتمسُّك بها ؟

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ .(١)

واللَّهُ تعالى لا يغيِّرُ ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفُسهم .

٩ ـ هو عدم الوحدة والتفكُّك السياسي :

لا أحد يذكر أوضاع المسلمين اليوم إلا ويتبارد إلى ذهنه هذه الأبيات إن كان قد سمع بها لشاعر أندلسي يرثي الأندلس وأهلها ويمقت ما هم فيه من كثرة الممالك والزعماء وأنها شر وغرور فارغ .

ممّا يُزَهِّدُني في أرْضِ أنْدَلُسِ * أسْماءَ مُعْتَضدٍ فيها ومُعْتَمد**
ألقاب مملكة في غير مَوضعها * كالـمُهْر يَحْكي انْتفاخاً صَوْلَة الأسَد**

وحينما كانت الدولة الإسلامية دولة واحدة كانت قوية يُحسَبُ لها ألف حساب ، ولكن حينما أصبحت دولاً وزعماء كثيرون جاءها الأفرنج فإذا هي كهشيم المحتضر ، وعرفوا أن التفرق خُذلان ، ولكن ولات حين ندم .

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٥

لقد كان المسلمون دولة واحدة وتحت حاكم واحد قلوبهم كقلب رجل واحد ، هدفهم واحد ، وكلمتهم واحدة ، أشرقت بهم وبعدلهم الأرض ، وقوي المسلمون وانتشر نور الإسلام في بقاع الأرض ودخل الناس في دين اللَّه أفواجاً ، ولا زالت آثارهم شاهدة بأمجادهم إلى يومنا الحاضر .

ثم خلف من بعدهم خلف نجح فيهم تخطيط أعدائهم وتمت المؤامرات عليهم بدقة ، وزاد الطين بلة حينما وطئت أقدام المستعمرين بلادهم حيث كانت الوطأة شديدة عليهم فقسَّموا بلاد المسلمين وجعلوهم دويلات يحكمونهم مباشرة أو بواسطة عملاء من أهل كل بلد هم أشدُّ على قومهم من المستعمرين ، وظل المسلمون قروناً وهم تحت جبروت وطغيان الإفرنج .

حتى إذا تنبَّهت الشعوب للغبن الواقع عليهم من استعمار أعدائهم لهم وتحكمهم في كل مواردهم وحربهم لدينهم واقصاء الحكم بالشريعة الإسلامية وطمس اللغة العربية وإثارة الفتن والعداوة بين المسلمين على طريقة «فَرِّقْ تَسُد» .

حينما تنبَّهت الشعوب هبَّت لمحاربة المستعمرين وإخراجهم من أراضيهم بالقوة وسالت الدماء وانتهكت الأعراض وتم في ظاهر الأمر النصر لهم ، فهل خرج المستعمرون فعلاً من ديار المسلمين وانتهت آثارهم النجسة ؟

الواقع أن المستعمرين كانوا في غاية الذكاء والترتيب والمكر :

١ ـ قسَّموا البلاد تقسيماً تعسُّفياً ظالماً بحيث يبقى أهل البلاد في حزازات وشجار دائم على الحدود ، وهو ما عانته الدول الإسلامية إلى اليوم إذ أصبحت كل دولة تطالب بجزء من أراضيها تحت الدولة الأخرى المجاورة ، وكثيراً ما تقوم الحروب بينهم ليحتكموا في النهاية إلى ذلك العدو الذي سبب هذا الحال .

٢ ـ قبل أن يخرجوا رتبوا لهم عملاء هم أشد على أبناء جنسهم من أولئك المستعمرين ، فضمنوا بقاءهم في صورة أخرى هي أشد من الأولى ، ولا زالت مفاهيمهم ومناهجهم سارية على أغلب تلك الشعوب التي تدَّعي التحرُّر وتتشدَّق به في الوقت الذي كانوا فيه عالة على المستعمر في كل شؤون الحياة ـ حتى في التشريع والتعليم .

وما دام الحال هكذا فلا بد أن تأتي النتيجة الحتمية التي أرادها المستعمرون أثناء حكمهم لدويلات المسلمين وهو وجود التفكك السياسي وما يتبعه من العداوة والصراعات المشتعلة ، ونسوا أنه :

تأبَى الرِّماحُ إذا اجْتمَعْنَ تَكَسُّرا * وإذا افْتَرقْن تَكَسَّرَت آحادا**

وحال المسلمين اليوم من إحدى العجائب إذ يتمنون الوحدة الإسلامية والجرائد تكتب والإذاعات تصيح والزعماء يُصرِّحون ويُلمِّحون ، ولكن هذا الوضع شيء والواقع شيء آخر ، وكأنما طلب الوحدة واللَّهفة لتحقيقها معناه العكس تماماً ، وكأنها معلقة بالثريّا .

يدخل الزعماء مؤتمراتهم وشعارهم قول اللّه تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [1] ثم يخرجون وهم على حبال شتى وأفكار متباعدة ، لأن كل طائفة تعتقد أن هذا الحبل الذي ذكره اللّه تعالى المقصود به ما عليه تلك الطائفة لا غيرها من الحاضرين .

بل لم تتوحد كلمة المسلمين حتى في القضايا التي يُسمُّونها مصيرية ، ومن المعروف أن الذي يريد أن يحترمه الناس عليه أن يحترم نفسه أولاً ، فهناك قضايا كثيرة أمام مجلس الأمن وغيره لم يستطع أحد البتّ فيها ما دام أصحاب القضية لم يبتُّوا فيها بشيء خصوصاً ما يتعلق بمواقف الدول الإسلامية من قضية فلسطين وقضية مواقفهم الاقتصادية مع الغرب ، وغير ذلك

١٠ - هو التعصُّبات المَذهَبيَّة :

كان للخلاف المذهبي دور ظاهر في تفكك المسلمين وتأجُّج الخلافات فيما بينهم بسبب ضيق أفق بعضهم من المتأخرين وجهلهم بأسباب قيام تلك المذاهب ولجمودهم على ما وجدوه مُدوَّناً عمَّن تعصَّبوا له من المتقدمين .

ويجب أن نعلم مسبقاً أن الخلاف بين الناس أمر حتمي لا يمكن دفعه بحال بسبب اختلاف المفاهيم وقابلية المسائل الخلافية لذلك ، ولا يجب أن نعتب على المخالف في تلك المسائل إلى حد التكفير أو النفور التام لأن

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣

كل الخلافات في غير الأمور المعلومة من الدين بالضرورة تحليلاً أو تحريماً لا غبار عليها ما لم تؤدِ إلى مخالفة الشرع أو إثارة الفتن .

وممَّا يُبشِّر بالخير أن الخلافات بين فُقهاء المسلمين إنما هي في مسائل فرعية ، أي ليست في أصول الدين المعلومة من الدين بالضرورة ، وإذا رجعنا إلى أسباب نشأة الخلافات الفقهية المذهبية فسنجد أن الإئمة الأربعة وغيرهم كانوا في رتبة الاجتهاد ، فكانوا يختلفون في فهم النصوص والاجتهاد فيها ، أو يقع الخلاف لأن بعضهم لم يبلغه النص القاطع للخلاف ، ولم يكن منهم أي تعصب لآرائهم ، بل كانوا يُصرِّحون بأنه إذا خالفت أقوالهم النص من كتاب اللّه تعالى أو سُنَّة نبيه ﷺ فليضربوا بقولهم عرض الحائط ، وكانوا يذمون الجمود على الرأي المخالف ويحذرون منه إلى أن انقضت أزمانهم المجيدة ، ثم خلفهم أقوام تبلدت أفهامهم وجمدوا على ما وجدوه عن أولئك الأئمَّة الكرام ، وتعصَّب كلُّ فريق لإمام منهم تعصُّباً مذموماً ، إذ أخذ كل صاحب مذهب يُشنِّع على الآخرين ويذمهم ويمدح مذهبه ، ويعتقد أنه هو الحق وحده وما عداه هو الباطل دون أن يعير أدنى اهتمام لما يخالف إمامه الذي يتعصب له ، بل حتى لو وجد النص الصحيح يخالف إمامه لضرب به عرض الحائط وأخذ بقول إمامه ، ووصلوا إلى حد أنه لا يصلي بعضهم خلف بعض ، بل وصلوا إلى أمور تدل على مدى حمقهم وتعصبهم الأعمى ، وكأنهم اتخذوا أئمتهم أرباباً من دون اللّه في التشريع ، وهو أمر كان يغضب أولئك الأعلام ويذمون أهله أشد الذم ، ولو تراخت قبضة المسلمين على هذا التعصب وضيق الأفق لكانوا على خير .

١١ ـ ومن الأسباب الحروب :

فقد توالت على المسلمين حروب وفتن كثيرة ومؤامرات شرسة منذ بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا الحاضر .

بدأت تلك الحروب والمؤامرات والرسول ﷺ حيٌّ ، وتمثلت في مواجهات عسكرية بين المسلمين وأعدائهم من قريش ومن سائر العرب عُبَّاد الأصنام ، نصر اللَّه فيها نبيَّه وأتباعه نصراً مؤزراً .

والحقيقة أن تلك المواجهات لم تكن سببا في فرقة المسلمين ، بل كانت سبباً قوياً في تلاحمهم وتعاضدهم ، حيث كانوا كالجسد الواحد ، لم يستطع أحد من أعدائهم أن يقف في طريق مدهم الذي كان ينساب انسياب النور في الظلام بإذن ربهم .

ولم يمتْ النبيُّ ﷺ حتى أقرَّ اللَّه عينه بدخول الناس في دين اللَّه أفواجاً ، ثم خلفه خيرة أتباعه فتولى أبو بكْر ، ثم عُمر ، ثم عُثمان ، ثم عَليّ ، رضي اللَّه عنهم جميعاً ، فكان الإسلام فيها في أوَج قوته وإشراقه رغم ما كانت تظهر هنا وهناك من منغصات لا تمثل أي تهديد حقيقي للمسلمين ، اللَّهم إلا ما حصل في عهد عليٍّ رضي الله عنه حيث انفتحت أبواب الفتن ، وبدأ التفرُّق وظهور المتربصون بالإسلام ، وكانت أقوى الفتن تلك الثورة العارمة الهوجاء التي قام بها الخوارج في وجه الخليفة الراشد عليّ رضي الله عنه .

ثم جاءت الدولة الأموية ، فإذا بالمسلمين يستعيدون قوتهم الميمونة ، وإذا بهم تعلو كلمتهم ويتابعون نشر نور الإسلام في معارك تم النصر فيها للمسلمين تباعاً شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وفي آخر الدولة الأموية أصاب المسلمين الوَهن ، فإذا بالفتن تثور كالليل المظلم في أكثر من مكان من بلدان المسلمين .

فتسلَّمت الراية الدولة العباسيَّة ، وكان خلفاؤها الأوائل أصحاب نفوذ وكلمة وقوة إلى أن دخلها الضعف فهان المسلمون وتفرَّقت كلمتهم وهَوَوا من سيء إلى أسوأ ، وتوالت المؤامرات المختلفة على الإسلام والمسلمين .

وكان أخطر الحروب التي مرَّت بالمسلمين تتمثل فيما يلي :-

- الحروب الصليبيَّة .
- الحرب مع التَّتَــار .
- مؤامرات اليهــود .

أمَّا الحروب الصليبية :

فقد بدأت منذ فجر الإسلام بين النصارى على مختلف طوائفهم وبين المسلمين ، واستمرت الحرب على أشدِّها بين مدٍّ وجزر إلى أن جاءت الحروب الصليبية التي استفحل أمرها وطمَّت العالم الإسلامي إلا من شاء اللَّه أن يسلم منهم .

ولقد كانت هذه الحروب هي المعول الهدَّام لحضارة المسلمين ، واشتغالهم بها ـ ولا زالت ـ إلا أنها وبعد أن عرف النصارى كيف يدخلون على المسلمين بطريقة ماكرة تحولت هذه الحروب من المواجهات المسلحة والجيوش النظامية إلى حرب لا تقل شراسة عن المعارك النظامية ، إلا أنها لا تُثير ضَجيجاً ولا تكلِّف أموالاً ولا تهدر سلاحاً ، بل تسري في النفوس سريان النوم ، فكم لها من ضحايا رزءتهم في دينهم وحوّلتهم عنه ، بل وأصبحوا أعداء له ، فما هذه المعارك ؟ إنها معارك فكرية وغزواً فكرياً أجادوا التخطيط له ، وعرفوا أنه أشدُّ تأثيراً من المواجهة الحربية الفعلية ، فاكتفوا به ، فإذا بكثير من شباب المسلمين وكبارهم بل وصغارهم ينضمون إلى صفوفهم بكل سهولة عن طريق تأثرهم بالدعايات ونشر الأفكار المضللة عن طريق وسائل الإعلام التي أجادوا الاستفادة منها في التلفزيون وفي الإذاعة وفي المجلة وفي الكتاب وفي المعاملات وفي الفن ـ كما يسمونه ـ وفي الرياضة وفي السياحة وفي كل مرفق من مرافق الحياة ، فأغرقوا أذهان المسلمين في خضم تيارات جارفة لا عهد لأسلافهم بها ، فافتتن الكثير من المسلمين بهم وبحضارتهم وبكل ما عندهم من زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، وابتلي العالم الإسلامي كله ربما ابتلاءً قد لا يقل عن ابتلائهم بالدجَّال .

ولا أعتقد أن القارئ يخفى عليه مدى تغلغل الأفكار النصرانية حتى في وسط الأطفال ، وقد لا يخفى عليك الكثير من المعلومات عن التنصير وخطره ووسائله وانتشاره في ديار المسلمين .

أمَّا الحـرب مع التَّتَـار :

فحديثها ذو شجون ، وأهوالها قد تفوق الخيال ، كانت نكبة بمعنى الكلمة على العالم الإسلامي ، وارجع إذا أردت الوقوف على الفظائع التي جلبتها تلك الحرب المشؤومة على المسلمين إلى كتب التاريخ وسترى ما لا يخطر لك على بال ، كيف فرَّقت تلك الحرب المسلمين وجعلتهم أشتاتاً لا يلوي بعضهم على بعض ، إلى أن رفعها اللَّه تعالى بعد تمحيص يهد الجبال لو أحسَّت به .

وإذا كانت تلك الحرب تُذكر في أخبار تفرُّق المسلمين وتشتتهم فإنها كانت أيضاً درساً من اللَّه للمسلمين ليعودوا إلى الوحدة التي أمرهم اللَّه بها ، وحينما فطن زعماء الإسلام في ذلك الوقت لحالهم المخزية اجتمعت كلمتهم وتوجَّهوا إلى اللَّه مخلصين له الدين متضرعين إليه لإنزال نصره عليهم وهزيمة أعدائهم ، فاستجاب اللَّه لهم وأنزل عليهم نصره ابتداءً بمعركة عين جالوت وما بعدها ، وتنفس من بقي حيّاً من المسلمين الصعداء بعد أن أيقنوا بأنه لا بقاء للإسلام ولا للمسلمين في هذه الأرض إلاَّ بنصر اللَّه والرجوع إليه ، واللَّه عزَّ وجلَّ لا يُغيِّرُ ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

وأمَّا مؤامرات اليَهُـود :

فهي معروفة وواضحة منذ أن بزغ نور الإسلام وهم غاصُّون بريقهم منه يتحينون كل فرصة للقضاء عليه ، ولكن اللَّه يخيب آمالهم ويرد كيدهم إلى نحورهم .

لقد اشتهر اليهود بالجبن وحب الحياة والمؤامرات الخفية التي يجيدون حبكها والاستفادة من وقوع الأحداث وجني ثمرة نتيجتها .

والذي يبدو من تاريخهم أنهم لم يخوضوا المعارك مع المخالفين لهم وجهاً لوجه مثلما فعل النصارى في حروبهم الشهيرة ، وذلك للخوف والجبن المضروب عليهم ، حيث لا يقاتلون إلاَّ في قُريً محصَّنة أو من وراء جُدر ، كما أخبر اللَّه عنهم ، ولما جُبلوا عليه من الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ، ولما جُبلوا عليه من جعل بأسهم بينهم شديداً وقلوبهم شَتى .

لقد بدأت مؤامراتهم على النبي ﷺ في حياته ، فكم ألَّبوا عليه المخالفين له ، وكم جمعوا له من جموع باءت كلُّها بالفشل الذريع ، واستمرت إلى يومنا الحاضر ، ونسأل اللَّه أن يرد كيدهم إلى نحورهم ويكفي المسلمين شرورهم .

ولا يرد على ما وصفهم اللَّه به من الخوف والجبن وحب الحياة ما هو واقعهم اليوم ، وقد علَوا عُلواً كبيراً ، وصاروا يتحدّون الشرق والغرب ، ولا يرون العرب إلا كالحشرات الطائرة ، فلربما هذا العُتو منهم على العرب والمسلمين جزاءاً من اللَّه تعالى للمسلمين لتركهم العمل بشرعه ولميلهم إلى الكفار ، وللعداوة والتشتُّت الحاصل في صفوفهم ، وسبب آخر وهو الوهن الذي أصاب المسلمين ولا يدري إلا اللَّه تعالى متى يفيق العرب والمسلمون من سباتهم العميق فيرجعون إلى اللَّه تعالى ويحكمون شرعه ويستنصرونه على أعداء دينهم بدلاً من قتل بعضهم بعضاً وبغي بعضهم على بعض حتى أصبح الكثير يقولون : إذا كان اليهود جبناء فإن المسلمين ـ وفي أولهم العرب ـ هم أجبن من اليهود وأشد حباً للحياة منهم .

وهؤلاء نسوا أن أسلافنا المسلمين إنما كانوا ينتصرون بحبهم لربهم وتحكيمهم لدينه والعمل بأوامر الإسلام والانتهاء عن نواهيه ، وأنهم كانوا على قلب رجل واحد ، هدفهم واحد وتفكيرهم واحد ، فنصرهم اللّه تعالى جزاءاً لإخلاصهم وتوجُّههم إليه عزَّ وجلَّ .

وأمَّا اليوم فقد توزعت أهواء المسلمين وجعلتهم عالة على أعداء الدين ، فهذا شيوعي ، وهذا بعثي ، وهذا اشتراكي وذاك ديمقراطي وهذا تقدُّمي وذاك رجعي ... إلى آخر هذه الترهات الحمقاء التي ذل المسلمون وتأخروا بسبب تمسكهم بها واعتزازهم بغير دينهم وشرع نبيهم .

والحاصل أنه لا بد أن يحصل التفكك الاجتماعي في أوضاع المسلمين وذلك :

١ ـ في غياب الوعي الإسلامي لا بد وأن يحصل التفكك الممقوت بين المسلمين شاءوا أم أبوا .

٢ ـ حين صار بأسهم بينهم فكل طائفة تحارب الأخرى وتبالغ في شراء الأسلحة التي تذهب أثمانها لأيدي الكفار تجار السلاح ، وصار حال المسلمين اليوم أقبح من حال الجاهليين في الزمن القديم ، فإن الجاهليين كانوا لا يحاربون إلا الأعداء ، ولا يحاربون إخوانهم إلا إذا لم يجدوا العدو الذي يحاربونه على حد قول شاعرهم :

وأحيـاناً على بَكْرٍ أخِينا * إذا مـا لم نجـدْ إلاَّ أخـانا**

بخلاف اليوم فإنهم تركوا العدو واتجهوا لحرب بعضهم بعضاً والكيد لبعضهم بعضاً ، وصاروا محل تجارب أعداء الإسلام لأسلحتهم ، وصاروا عكس ما أخبر اللَّه به عن أسلافهم الذين قال اللَّه فيهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١)

إذ يُحتَرم الكافر عند كثر من المسلمين أكثر من احترام المسلم أخاه المسلم ، فصار بعضهم أشداء على المسلمين رُحماء ضُعَفاء جُبناء أمام الكفار لانبهارهم بما عند الكفار من زخرف الحياة الدنيا ، ولجهلهم بدينهم الذي أعز اللَّه به أسلافهم ورفع شأنهم في الدنيا والآخرة .

٣ - حين نشأت الأحزاب المتعارضة - كل حزب بما لديهم فرحون - وكثر الكذب في الانتخابات المزعومة ، وكثرت الحيل ، وارتفعت الثقة عنهم ، وصارت لأعداء الإسلام اليد الطولى في توجيه كل تلك الأحزاب التي يضربون بعضها ببعض إن أرادوا ، أو يغلبون الحزب الذي يعرفون أنه عميلهم وعدو لدينه ولوطنه فيغلبون جانبه .

بعد أن تفرَّق المسلمون في الولاء السياسي فيممت كل طائفة وجوهها لدولة من دول الكفر ، وفقدوا الولاء والبراء الحقيقيين الذين جعلهما اللَّه علامة بين المؤمنين في ولايتهم للَّه ولرسوله والمؤمنين .

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٩

٤ ـ حين نشأت العصبيات البغيضة التي أماتها الإسلام وأحيتها الجاهلية حيث دان المسلمون بالقومية والوطنية والعنصرية وغيرها من الجاهليات المنتشرة التي غزتهم عن طريق أوربا .

٥ ـ حينما فُصلت السياسة عن الدين فأصبح الحاكم بذلك يجب أن لا يكون دينياً لكي يعم عدله جميع الشعب وإلا كان متعصباً لجهة بزعمهم ، ونسوا أنه سيكون متعصباً ضد الدين إذا لم يتعصب له كما هو الواقع .

٦ ـ حين ظهرت الحركات البدعية وقوي زعماؤها وفرضوا بدعهم بكل سبيل .

٧ ـ حين انعدمت الثقة والأخوة الإسلامية بين الشعوب ولم يعودوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعَى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى ، ولم يحققوا قول النبي ﷺ : **«لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ لا يأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه»** [١] ، أو قوله ﷺ : **«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»** [٢] .

٨ ـ حين تدهورت الأخلاق والفضائل وارتفع شأن الرذائل من الغش والكذب والدعارة وشرب المسكرات .

---

(١) الفائق ـ الجزء الأول ـ ص ١٣٢

(٢) صفوة الصفوة ـ الجزء الأول ـ ص ١١٢

٩ - حين عمَّ التكالب على الدنيا وطلب الشهرة والعلو في الأرض بأي ثمن كان .

١٠ - حين أصبح بعض المائعين ممَّن جَرفَتهم الحضارة الغربية - يستحي أن ينتسب إلى الإسلام لئلا يُقال له رجعي متخلف .

وإذا كان الحال كما ذُكر سابقاً وأشد أيضاً ، فما هي طريق العودة التي تعيد للمسلمين عزَّتهم ؟

طَــــريقُ العَــودَة

لن تعود للمسلمين عزتهم ومَنَعتهم إلا إذا عادوا إلى دينهم وتمسَّكوا بكتاب ربهم وسُنَّة نبيِّهم ﷺ ، فإنه لن يَصلُح آخرُ هذه الأمَّة إلا بما صَلُح به أوَّلُها .

١ ـ إعتزاز المسلمين بدينهم وترك السير في المؤخرة وراء العالم الغربي المتدهور وترك الاعتزاز بالقوميات والوطنيات بعيداً عن الدين الحنيف .

٢ ـ أن يكونوا قُدوَة العالم في جميع المعاملات والسلوك وسائر الأخلاق الحميدة .

٣ ـ أن يتم تحاكمهم إلى الإسلام في جميع شؤونهم ، وأن يرفضوا التحاكم إلى غيره من الأنظمة أو الجمعيات أو الدساتير الجاهلية .

٤ ـ الاهتمام التام بتربية النشئ على الأسس الإسلامية الصحيحة وعلى أيدي مدربين ومدرسين أكفَّاء في العقيدة ليصبح هذا النشئ هم رجال الغد في حركة مستقلة في التعليم عن التعليم الغربي في جميع مرافق التعليم دينياً ودنيوياً .

٥ ـ الجد في القضاء على كل أنواع الجاهليات عن طريق تعميق العقيدة وليس عن طريق قرارات أو عقوبات ، بل كما فعل النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام .

٦ - رفع راية الجهاد بكل أنواعه في الوقت الذي يسمح بذلك من نصرة المسلمين المجاهدين ودعمهم بالسلاح والرجال وترك الخوف من إطلاق كلمة الجهاد التي أعزَّ اللَّه بها المسلمين في عصورهم الأولى حين تَدعُ الضرورة لذلك .

٧ - بذل الاجتهاد في نشر التوعية الإسلامية العامة من قِبل كافة المسلمين لما فيه رفعة الإسلام وعزَّة المسلمين ، العلماء في مجالهم ، والتجار في مجالهم ... إلخ .

٨ - أن يُسند حكم المسلمين إلى رجال أكفَّاء لهم معرفة بالعقيدة الصحيحة في كل بلد - واليوم نجد أكثرية الشعب مسلمين والحاكم نصراني أو شيوعي أو بعثي أو اشتراكي ... إلخ .

٩ - لا بد أن يستقل العالم الإسلامي في كل شؤونه عن العالم الغربي في الصناعة ، وفي التجارة ، وفي وسائل التعليم كلها ، وفي كل الجوانب .

وما على الشخص منهم إلا أن يُخلِصَ نيَّته ثم يبدأ العمل ويستعين باللَّه تعالى ويستشعر عظمته وقدرته ، واللَّه تعالى لا يُضيعُ عملَ عامل من ذكر أو أنثى ما دام ذلك العمل يُقصَد به وجه اللَّه ومصلحة المسلمين عامة ، وما دام على وفق ما شرعه اللَّه تعالى ورسوله ﷺ .

تعقـــيب

بَيَـان عَلاقة تلك الأمور السابقة بدراسة المذاهب الفكرية :

ربما يستشكل البعض إيراد تلك المسائل السابقة في بدء دراسة المذاهب الفكرية لهذه المرحلة ، فيقول : وما علاقة المذاهب الفكرية بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية ؟ ، أو بفساد الأخلاق والقيم في العالم ـ وخصوصاً العالم الإسلامي ؟ ، أو نشر الفساد عن طريق استخدام النساء ؟ ، أو ما هو حاصل من التفكك الاجتماعي بين أفراد المسلمين وجماعاتهم وحكامهم ؟ ، أو غير هذه الأمور ـ وهي كثيرة ـ قد لا يظهر اتصالها بالمذاهب الفكرية إلا للمتخصص المدقق النظر الذي لا تحجبه تلك الأقنعة عن النظر إلى الحقيقة .

ومن الأجوبة على تلك التساؤلات أن نقول في أولها أنه لا بد من التسليم بحقيقة مُرَّة ومؤلمة ، وأيُّ ألم ، وهي أنه كان للمذاهب الباطلة الدور الأول في قيامها وحقيقة أخرى وهي أن العالم الإسلامي على امتداده لم يعد ـ إلا من رحم اللَّه ـ يقدم حكم الشريعة الإسلامية في كل قضية كما كان الحال في سابق عهود المسلمين متعلِّلين بأعذار متكلَّفَة تنم عن سوء نيّة ونفاق دفين زعموا أنها هي التي تحول بينهم وبين تطبيق الشريعة الإسلامية في هذا العصر ، ولا شك أن المانع لهم إنما هو التأثر بتلك المذاهب والتيارات الجارفة والدعايات الكاذبة في أن الشريعة الإسلامية لا تصلح لأهل هذا الزمان ، وأنه يصعب تطبيقها في عصر الحريات والديمقراطيات والقوانين التي انتجتها عقليات رجال التشريع وسهرهم على ما يحقق العدالة والرفاهية لجميع الشعوب بزعمهم .

وقد خلص هؤلاء المشرِّعون من دون اللَّه تعالى أو رجال القانون ـ كما يُسمُّون أنفسهم ـ إلى أن ما يحول بين الناس وبين دخولهم منتهى السعادة واتِّصافهم بالتحضُّر وروح العصر إلا نبذ أحكام الإسلام وأخذ البديل الجديد ، قالوها بكل وقاحة ظانّين أن أحكام الإسلام لا تخرج عن كونها مذهب مثل سائر المذاهب التي ظهرت على امتداد تاريخ البشرية ثم اختفت ، وصدَّقهم كثير ممن بأيديهم الأمر والنهي ، وإذا بالبديل يقدم لهم في خرقة من حرير وتحت هالة من التعظيم .

ولكن هذا البديل ما أشدَّ هوله ، وما أعظم أخطاره ، وما أفدح الخسارة به ، إنه ظاهر بكل وضوح ولكنه لا يراه إلا من ألهمه اللَّه رشده ووفقَّه .

هذا البديل هو الدساتير المختلفة التي وضعها طغاة البشر قدمت على أنها بديل عن كتاب اللَّه تعالى وسُنَّة نبيِّه ﷺ ، وهو الكفر والزندقة والإلحاد قُدِّم إليهم على أنها حرية ، وهي العري الفاضح ، وانتشار الجريمة الأخلاقية والتكالب على جمع المال وحرمان الفقراء وجعله في يد فئات خاصة من الناس ، إنه النظام الرأسمالي الذي يحقق التنافس وانتعاش الاقتصاد بزعمهم ، قدمت كلها في أطباق شهيّة ومن ورائها دعايات قوية تسلب العقول اتزانها وتفكيرها تعلوها عبارات التفلُّت والانحلال .

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ هَمًّا *** وفازَ باللذَّةِ الجَسُورُ

إنه لأمر عجيب أن الغرب والشرق وكل المجتمعات التي لا تطبق الشريعة الإسلامية يئنون كلهم ويندبون حياتهم ويذرفون دموعهم على الحال التي وصلوا إليها من انتشار جرائم القتل وسفك الدماء ليلاً ونهاراً ، في السرِّ وفي العلن ، ومن انتشار السرقات حيث لا يأمن الشخص أن يظهر نقوده أمام الناس ، ومن انتشار الفواحش حيث أصبحوا في عداد البهائم ، بل هم أضل .

ومن انتشار قطيعة الأرحام وتفكك الأسر واندثار طبائع حسن الخلق والكرم والإيثار والنخوة والشهامة والحفاظ على الأعراض والمواساة ، بل وسائر الأخلاق التي كانت تميز الإنسان عن غيره من حيوانات الأرض ، وانتشار الظلم والاستبداد وعبادة الناس بعضهم بعضاً وجعل الفقراء عبيداً للأغنياء في ذل تأنف منه الكلاب .

إضافة إلى ما ابتلي اللَّه به تلك المجتمعات من الحيرة والقلق والاضطراب حيث امتلئت بهم المستشفيات والسجون لمن لم يبادر منهم إلى الانتحار الذي أصبح شبه مألوف في تلك المجتمعات التي لا تؤمن بيوم الحساب ولا بما أعدَّه اللَّه من الثواب لأوليائه وما أعدَّه من العقاب لأعدائه ، قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)** ﴾ [1] .

(١) سورة طه ، الآيات : ١٢٤ ـ ١٢٧

من العجيب حقاً أن تلك المجتمعات كلهم يعرفون أنهم أتوا من حيث هزالة أنظمتهم الاجتماعية وخوائهم الروحي واتباعهم سلوك الحيوانات البهيمية ، ثم لا يرتدعون ولا هم يذَّكرون ، وهم في نفس الوقت يعرفون في قرارة أنفسهم أن الحل الصحيح والنظام المريح يكمن في تطبيق الشريعة الإسلامية ـ كما اعترف بذلك مثقفوهم وكبار كُتّابهم .

وإذا كان حالهم يدعو إلى العجب ، فإن الأعجب منه حال أولئك القطعان ممّن ينتسبون إلى الإسلام الذين يلهثون إلى الدخول تحت تلك الأنظمة الجاهلية والمذاهب الفكرية الآسنة .

وإذا كان الناس يقولون : «العاقل مَن اتَّعظَ بغيره» فهؤلاء لا شك أنهم بلا عقول راجحة ، بل هي عقول حيوانات غافلة لا تفقه ولا تتَّعظ ، وقد أخبر النبيُّ ﷺ عن حال مثل هؤلاء بأنه مثل حال الفراش الذي رآه ﷺ وهو يقع في النار ، وذكر أن حاله مع أمَّته كحال ذلك الفراش فقال ﷺ : «... **أنا آخِذٌ بِحزكُم عَنْ النَّار فتغلبون وتَقَتْحمون فيها**» [(١)] .

وهكذا يتضح بجلاء أن أسباب هذا الانهيار في العالم الإسلامي دينيّاً وخُلقياً واقتصادياً واجتماعياً إنما سببه تلك المذاهب الشريرة حينما غطّت عقول الغافلين من المسلمين عن قول اللّه تعالى : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ [(٢)] ، لأن المذاهب الفكرية

---

(١) تفسير ابن كثير ـ الجزء الثالث ـ ص ٣٠٨ ، وعزاه إلى الصحيحين .

(٢) سورة هود ، الآية : ١١٣

كلها ليس فيها ما يرغب فيما عند اللَّه تعالى ولا ما يُذكِّر الإنسان بما أمره اللَّه به أو نهاه عنه ، وليس فيها دعوة إلى الخير وإلى الأخلاق الطيبة ولا التذكير بجنة أو نار أو رحمة أو وجوب الإذعان لخالق السماوات والأرض أو التحاكم إليه أؤ النهي عن الشهوات والاكتفاء بما أحلَّه اللَّه تعالى وهو كثير لا يكاد يُحصَر .

بل هي على العكس من ذلك فيها ما يُبعد عن اللَّه تعالى ويُقسِّي القلوب ، وفيها الدعوة إلى الخروج عن منهج اللَّه والتشجيع على الانحراف بشتى صوره والتعالي والاستكبار والاعتزاز بالجاهليات ونظُمها والدعوة إلى القوميات والوطنيات الذميمة المنتنة ، كما أخبر بذلك النبيُّ ﷺ حينما قال : **«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَة»** [١] ، وقوله ﷺ : **«أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُم بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللَّهُ لِلإِسْلَامِ»** [٢]

وإذا كان حال تلك المذاهب ما نراه وغيره ، فلا تستبعد حصول تلك الرزايا التي ابتُلي بها العالم كله ، ولا تستبعد حصول ذلك النفور عن منهج اللَّه وشريعته ، وعن السلوك الطيب الذي أرشد أليه خير الأديان ، وبيَّنَه خير الأنبياء والمرسلين ﷺ .

ولا تستبعد حينما ترى رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً يلهثون وراء الشهوات والتبجح بالرذائل لأن هؤلاء فسدت فطرتهم ، ومن المعروف أن

---

(١) الرَّوضُ الأُنف ـ الجزء الأول ـ ص ٢٤٧ .
(٢) السيرة النبويّة ـ الجزء الثالث ـ ص ٩٤ .

الإنسان إذا فسدت فطرته تكون كل الأمور عنده معكوسة فيرى ذلك المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، ويرى الفضائل رذائل والرذائل فضائل ، ودليل ذلك ما أخبر اللّه تعالى به عن قوم لوط حينما حكموا على نبي اللّه لوط عليه السلام ومن معه بإخراجهم من بين مجتمعهم بسبب أنهم أناسٌ يتطهرون ، فقد انقلبت الأمور عندهم فأصبحت الطهارة التي هي فطرة في الإنسان ومحبته إليه أصبحت عند أولئك الشواذ جريمة يجب عقاب أصحابها .

وكما انقلب الحال عند كفار قريش حينما قالوا فيما أخبر اللّه عنهم : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [(١)] إذ الأولى والمعقول أن يقولوا : «اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه واشرح صدورنا لنقبله» أو نحو ذلك .

ولكن الإنسان إذا ضل يكون أبعد في الضلال من الأنعام ـ كما قال اللّه تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ . [(٢)]

وما يُدرينا فلعلَّ آخر مسمار في نعش أهل الأرض هو ظهور هذه الفضائيات وملكات الجمال ومحاربة أهل الدين تحت تسمية الإرهابيين [(٣)] ،

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٢

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩

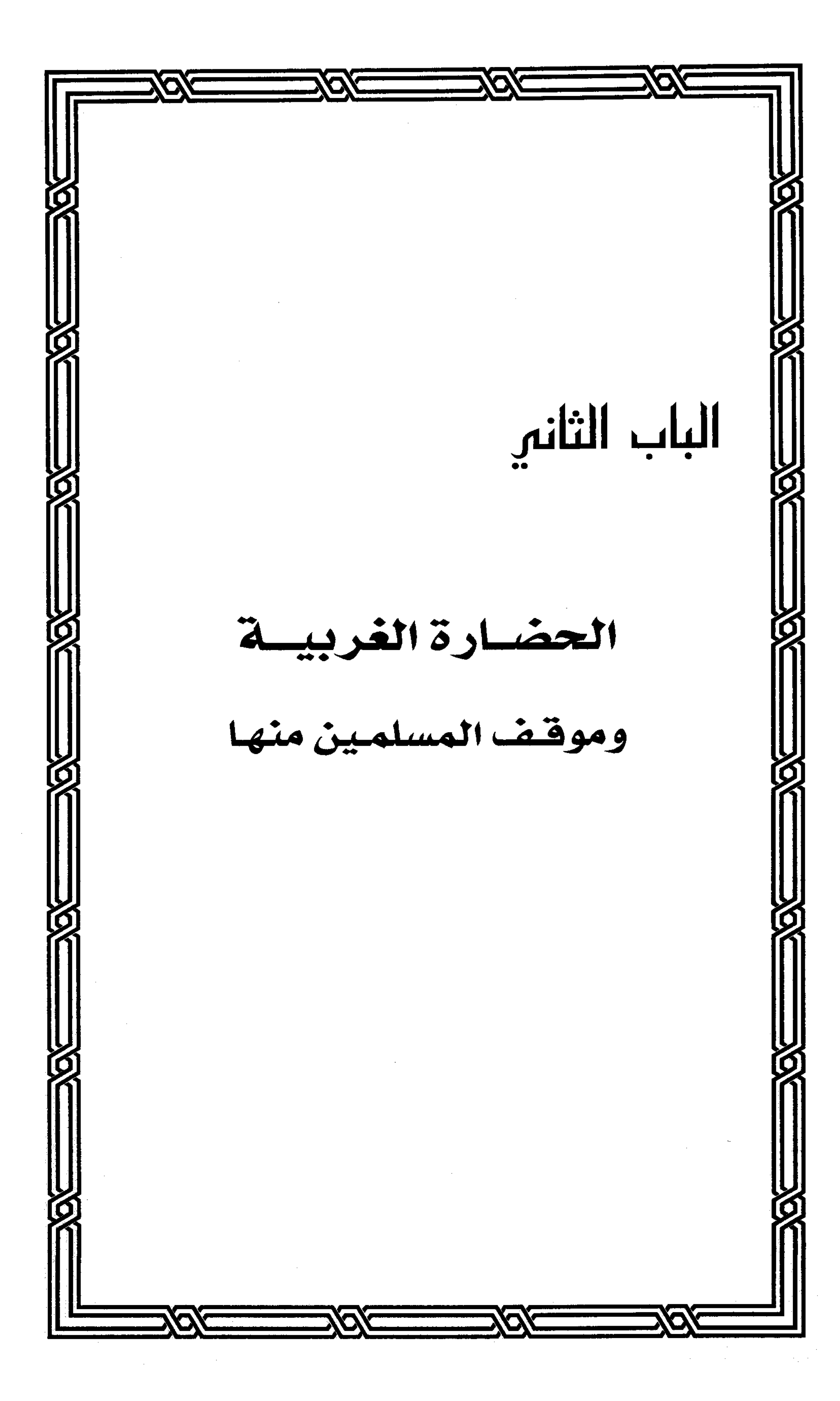
(٣) لا يشك أحد في وجود الإرهاب والإرهابيين ، ولكن أن يوصف المسلم البرئ به فهو مرفوض .

وغير ذلك من أنواع الشرور والمعاصي التي ظهرت في هذه الأمة مما لم يكن في أسلافهم من انتشار الأمور الجنسية على أغرب الصور ، وقيام البنوك الربوية وتسمية المحرمات بأسماء أخرى تحبيباً لها إلى النفوس وزيادة في خداع من بقي في قلبه حنين إلى الدين والتمسُّك به .

وتباهى كثير من المسلمين بالتزَلُّف إلى أعداء الإسلام وطلب مرضاتهم وإعلان الرضى بأحكامهم والتشبه بهم في كل صغيرة وكبيرة واعتمادهم عليهم وتقديم موالاة بعضهم بعضاً إلا قليلٌ منهم فأصبحوا إمَّعَة مع من غلب من أعداء الإسلام ، والدليل على ذلك ما كنت تسمعه في أيام قوة الشيوعية من الدعوة إلى القضاء على الرجعية واللحاق بركب التقدم والتقدميين ـ أي الملاحدة الماركسيين ـ وما تسمعه اليوم من الدعوة إلى تحقيق الديمقراطية في كل شيء واللحاق بركب الديمقراطيين ـ أي طغاة الغرب .

وكأن المسلمين لم تكن لهم حضارة ولا ماضي عريق يبدد الظلم والظلمات .

كأنْ لَمْ يَكُنْ بَينَ الحُجُونِ إلى الصَّفا ⁂ أَنيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بمَكَّةَ سَامِرٌ



الباب الثاني

الحضارة الغربية ومـوقف المسلمين منها



الباب الثاني

الحضارة الغربية وموقف المسلمين منها

وتشمل دراستها الفصول الآتية :

الفصل الأول : كيف دخلت الحضارة الغربية بأفكارها بلدان المسلمين .

الفصل الثاني : قصور خطير .

الفصل الثالث : الدعوة إلى خلط الفكر الإسلامي بالفكر الغربي بدعوى تقارب الحضارتين والسير معاً لخدمة الإنسانية .

الفصل الرابع : نتيجة خطرة .

الفصل الخامس : مفهوم الحضارة الغربية وموقف الناس منها .

الفصل السادس : مدى التأثر عند بعض المسلمين بالحضارة الغربية .

الفصل السابع : كيف نقف من الحضارة الغربية وأفكارها .

الفصل الثامن : سبب قيام الحضارة الغربية على العداء للدين .

الفصل التاسع : اعتراض وجوابه .

الحضـارة الغـربيـة وموقف المسـلمين منها

تمهـــــيد:

نسمع كثيراً خصوصاً ـ هذه الأيام ـ عن ما يسمونه (صراع الحضارات) وأحياناً نسمع المطالبة بدمج الحضارات وأحياناً نسمع المفاضلة بين الحضارات إلى آخر هذه العبارات .

ولا تسأل عن كثرة اختلافات الناس في مفهوم الحضارة سواء ما مضى منها أو ما هو آت ولا تسأل عن تشعب الأفكار وظهورها متصارعة كثيراً ومسالمة أحياناً قليلة في مد وجزر شديدين ، وإذا كان مفهوم الحضارة والمراد بها وما يتبع ذلك من أحكام حديث طويل ومتشعب فنحن هنا لا يهمنا من ذلك إلا المفهوم البسيط السطحي الذي يدركه كل شخص المتمثل في مظاهر الحياة الغربية وما تعج به من خير وشر وتقدم أو تأخر وما تعج به مصانع الغرب من أنواع المنتجات والاستكشافات العلمية التي بهرت النفوس وهزتها هزاً عنيفاً وخضعت لها رقاب كثير من البشر مستسلمة خاضعة ، وفي خضم هذه التيارات الجارفة لابد أن يكون للمسلم موقفاً واضحاً فما هو دور المسلمين إزاءها وإزاء ما تحمله من أفكار إيجابية أو سلبية فالأمر في غاية الأهمية والجدية .

وبالدخول مباشرة في الجواب عن هذا التساؤل علينا أن نعترف أولاً بأن الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي من طرق ومنافذ كثيرة كان من أهمها المادة بأنواعها المختلفة والمتنوعة رمتهم بأفكارها ودعاياتها

البراقة الغربية المتشعبة التي انهالت على الناس كالمطر إن لم يصب منها فكر أصاب الآخر ولا بد .

وهي في هذا الغزو الجديد لا تحمل معها جيوشاً نظامية ولا أسلحة تقليدية ولا متقدمة ولو كانت تحملها لكانت أرحم من غزوها بدونها فقد جرَّب المسلمون على امتداد تاريخهم تلك المقابلات في ساحة الوغى فإذا بالنصر يجعله اللَّهُ معهم ويُخسرُ أعدائهم المبطلون فاستيقظ أعداؤهم لهذه العناية الإلهية بالمسلمين فعدلوا بعدها عن المواجهة العسكرية ليستعملوا المواجهة الفكرية أو إرسال الأفكار فانتفعوا بذلك كثيراً وتيقنوا أنها هي السلاح الذي يمكن أن يثخن في المسلمين والذي هو بمثابة السم البطيء الذي يوهن الجسم إلى أن يقضي عليه بخلاف ما لو ثم ذلك بالغزو العسكري ، فإنه حتى ولو كان في حالة الانتصار فهو أقرب إلى حالة الاحتضار فإن المغلوبين يتحفَّزون في كل وقت وحين للانقضاض والخروج وقد يتم لهم ذلك في لحظات أو في ساعات معدودات وينتهي الأمر لأن هذا الخروج كان كامناً في عقولهم وتفكيرهم كمون النار في عود الكبريت ، ولكن حينما تسكن الهزيمة من أول وهلة في العقل وفي الفكر فإن الشخص لا يعتبرها هزيمة بل قد يعتبرها فوزاً يجب أن يتحقق مهما كان الحال وهذا هو حال المسلمين اليوم مع الحضارة الغربية العاتية ـ إلاَّ من رحمه اللَّه ـ استدرجتهم شيئاً فشيئاً بزخارفها ومنتجات مصانعها الهائلة المغرية إلى أن طوقت كثيراً منهم حتى أصبح العالم الإسلامي عالة على تلك المنتجات شاؤا أم أبوا فدخلت معها الأسماء الغربية والعادات والتقاليد الأخرى والعقائد المختلفة .

الفصل الأول

كيف دخلت الحضارة الغربية بأفكارها بلدان المسلمين

لقد كان أساس دخول الحضارة الغربية إلى البلاد الإسلامية وانتشار أفكارها المختلفة هو شعور حكام المسلمين بتفوق الغرب عليهم في شتى المجالات التنظيمية والاقتصادية وخصوصاً ما يتعلق بالنواحي العسكرية والنظم التي تسير بها الجيوش والحاجة إلى السلاح الذي كان بيد الغرب حينما صنعه الغرب النصراني والمسلمون في سُبات عميق ، ومن هنا برز الشعور القوي لدى هؤلاء الحكام بضرورة مد اليد إلى الغرب لشراء الأسلحة التي تزخر بها المصانع الغربية وتم ذلك فنشأت حاجة أخرى وهي طلب من يقوم بالتدريب عليها وكذلك طلب من يقوم بصيانتها ولا بديل عن الغرب الأوربي في ذلك بطبيعة الحال فاستقدموا المدربين والمهندسين والمستشارين من شتى دول الغرب ثم برزت حاجة أخرى وهي توفير الكتب والمدرسين والمدارس للنشىء الجديد في الدول الإسلامية الذين أريد منهم أن يكونوا دائماً عُدَّة للجهاد وتم ذلك ولكن لا يخفى عليك أخي القارىء من هم الذين سيقومون بتلك المهام كلها للنشىء الجديد فالدول الإسلامية في بداية الصحوة من نومها ولا تملك شيئاً من ذلك فكان آخر الأمر أن ارتموا أمام خبراء الغرب الذين أتوا بكل ما أمكنهم لتغريب العالم الإسلامي ـ وفي أولهم الجيوش ـ ومن هنا بدأت عجلة التغريب تعمل عملها في العالم الإسلامي وبدأ الكثير من حكام المسلمين يتبعون سنن الغربيين في كل شيء وبدءوا

ينظرون إلى التعاليم الإسلامية وإلى القيم الإسلامية نظرة ضعيفة فيها نوع من تفضيل للحياة الغربية عليها وكانت تركيا هي المثال القوي المخزي على هذا السلوك في آخر الدولة العثمانية إلى أن تسلمها العلماني الملحد مصطفى كمال أتاتورك الذي سلخها من كل شيء يمتُّ إلى الإسلام بصلة ـ كما هو معروف من تاريخه الشنيع ـ ثم ابتعث كثير من المسلمين أبناءهم للدراسة في الدول الغربية ليتعلموا شتى الفنون التي كانت تنقصهم كضرورة محلة جديدة بزعمهم ولكن بعد أن رجع هؤلاء إلى بلدانهم لم يقف في وجوههم أي حاجز لرفع علم الحضارة الغربية في بلدانهم والمناداة ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً بالانضمام التام إلى الحياة الغربية واللحاق بركبها الذي كانوا يرونه سفينة النجاة ومصدر فخرهم وإعجابهم ، وبدأ هؤلاء ينفخون في أذهان المسلمين المبادىء الغربية والعادات الاجتماعية عندهم ـ متخذين من بعض القضايا ذريعة ـ لتوصيل الحضارة الغربية إلى الأذهان ، مثل زعمهم أن حجاب المرأة ظلم لها وأن المسلمين ينقصهم الدعوة إلى الحريات ، حرية الكلمة ، وحرية العقيدة ، والدعوة إلى منع الطلاق ، وتعدد الزوجات ، ووجوب تعليم المرأة ومشاركتها الرجل جنباً إلى جنب في ميادين العمل ، وكذا الدعوة إلى العودة إلى الحضارات القديمة التي كانت قائمة قبل الإسلام ، وإلى القضاء على الجهل والتخلف بزعمهم ورفض عادات الرجل الشرقي ـ أي السلوك الإسلامي ـ وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي نفذوا من خلالها إلى انتقاد التعاليم الإسلامية في مكر وخديعة ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾[1] .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠

ولقد افتتن بعض المسلمين بالحضارة الغربية وبريقها اللامع لأسباب حملتهم على ذلك تمنوها في مجتمعاتهم فلم يجدوها كحال الحرية التي رأوها في العالم الغربي في الظاهر فتمنوها دون روية ، ولا نظرة ثاقبة في حقيقتها ومآل أمرها ، ولعل الأوضاع التي يعيشها المسلمون في بعض الأماكن تحت بعض الأنظمة التي تتظاهر بالإسلام من عدم الاهتمام بحرية الفرد ولا المجتمع وسوقهم إلى ما يراد بهم طوعاً أو كرهاً دون مراعاة كرامة أحد والتعسف المقيت في معاملتهم لعل هذه الأوضاع أيضاً كانت من الأمور التي شجعت أولئك الذين فتنوا بالحضارة الغربية بكل ما فيها من حَسَن وقبيح إلى المناداة بها ، ومعلوم أن هذا الوضع ليس مبرراً لترك الدين وما يأمر به أو ينهي عنه لا من قريب ولا من بعيد فإنه يمكن معالجة هذه الأوضاع السيئة حين توجد بطرق كثيرة غير الحضارة الغربية والحرية الشخصية التي أصبحت يراد بها العري والخناء وعدم الحياء في ظل تلك الحضارة المادية الزائفة فإن الإسلام لم يهمل حلول أي مشكلة تتعلق بحياة الناس ، دينية أو دنيوية ، حكاماً أو محكومين وتاريخه يتحدث بذلك في صوره المشرقة ففي الإسلام ليس للحاكم إلاَّ تنفيذ الشرع الإلهي على الجميع وإذا خرج عن الدين ونادى بالكفر البواح فلا طاعة له أيضاً ، وإذا ظلم رعيته فإن اللَّه تعالى له بالمرصاد ويحاسب كذلك عن تصرفاته في أموال المسلمين ، ولا يستبد برأيه ولا يكتم حريات الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ولا يحكم لنفسه بحكم ينتفع به بظلم الناس إلى غير ذلك

من الأمور المعروفة في الإسلام أي أن الحاكم ليس له مطلق الاستبداد كما يتصور الجاهلون بالإسلام قياساً منهم على ما اخترعه رجال الكنيسة باسم الدين النصراني فإن الإسلام يوجد في قلب الحاكم الملتزم به الشفقة والرحمة والتواضع ويؤكد عليه أنه سيسأله اللّه يوم القيامة عن كل تصرفاته وبذلك يكبح جماحه ويهذبه .

ويتضح مما تقدم أن الغرب النصراني لم يعد يهتم بمقارعة المسلمين وجهاً لوجه مناظرات ومجادلات حول الأسس الإسلامية التي قام عليها بناء الإسلام في قلوب أتباعه ,لم يعد الغرب يهتم بذلك :

١ ـ لأنهم يئسوا من زحزحة المسلمين عنها بالكلية عن طريق النضال الفعلي أو الفكري .

٢ ـ لأنهم اكتشفوا طرقاً جديدة تختصر لهم المسافة الفارقة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية وكان لهذا الاكتشاف وزنه وفائدته بالنسبة للغرب ومن هذه الطرق متابعة الأفكار الغربية التي قبلها المسلمون وتنميتها في صدورهم وإطرائها بالمديح وأنها خطوات جادة للوصول إلى ركب الحضارة الغربية وتقدمها المادي وزيَّنوا لهم أن البداية والنهاية تمكن في تقبل المسلمين للتطور والتجديد في جميع النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية .... إلخ

وأصبح مثل الغربيين ودعائهم بالنسبة لبث تلك الأفكار في العالم الإسلامي ، أصبح مثلهم أشبه ما يكون بالمزارع الذي يتعاهد ما بذره كل يوم في الوقت الذي فتحوا فيه شهية المسلمين للوصول إلى كل المغريات التي تزخر بها الحضارة الغربية الجديدة . ولم يقف الغرب عند حد الوصول إلى تحقيق هذا الهدف بطريقة منفصلة لدى المسلمين ، بل عملوا جهودهم على أن يصبح هذا الهدف هو الاتجاه العام لدى كل المسلمين ، وبالتالي تكون النتيجة من وراء تحقيقه هو إقامة علاقات مشتركة على قدم المساواة بين الغرب وبين العالم الإسلامي بعد توحد الأفكار والأهداف ومن ثم تذويب العالم الإسلامي في بوتقة الحضارة الغربية إلى الأبد فإن المغلوب دائماً ينظر إلى الغالب بعين الإجلال والهَيبة ويحب محاكاته في كل تصرفاته سيئة كانت أو حسنة وطبيعة صاحب الهزيمة النفسية أنه لا يفرق بين الغَث والسمين في تعامله مع المنتصر .

الفصـــل الثـــاني

قصـــور خطـــير

ظهرت النتائج لدى العالم الإسلامي في صورة شنيعة يمثلها قصور المفكرين والعلماء المسلمين في الإحجام عن دراسة العالم الغربي بجد وبيان أفكاره والأخطار التي ستحل بالأمة الإسلامية إن لم يضعوا حداً لذلك الغزو . لم يحصل هذا مع شدَّة حاجة أبناء المسلمين إلى تفهمه والحذر منه ، بل إن الذي حصل هو ضد هذا وهو اشتغال بعض المفكرين دارسي الإنجليزية من المسلمين بترجمة كتب أولئك في ميادين القصص الغرامية العابثة والأخبار التافهة وفي مغامرات بعض أقطاب الغرب وسيرهم التي تمجد أقطابهم وتوحي للقارئ بعظمة أولئك في شتى الميادين ، أو ما كان منها يوحي بإحياء العصبية والوطنية والقومية والتعالي على الآخرين والعودة إلى الافتخار بما عفى عليه الزمن من حضارات قديمة عريقة بزعمهم وأنه يجب العودة لها تحت أشكال متعددة ، وساعدهم أصحاب الأموال الغربية بكل ما يحتاجونه لتحقيق ذلك ، ولعل القارئ قد سمع في الإذاعات الغربية خصوصاً لندن ، مونت كارلو ، وواشنطن ، لعله سمع ما حصل من الاحتفال المهيب في أول هذه السنة ١٤١٩هـ ، بترميم تمثال «أبي الهول» ، وأنه بلغت تكلفة ترميمه عشرة ملايين دولار ، وإن العمل استمر في ذلك قرابة عشر سنوات ، وكان الاحتفال بالانتهاء منه يوماً

مشهوداً حضره رئيس الدولة وعدد غفير من الوجهاء والأعيان وسفراء بعض الدول العربية وسفراء الدول الغربية وتبرع «روكفلر» المليونير اليهودي بمبالغ هائلة ـ غير مشكور عليها ـ للبحث عن الآثار الفرعونية ، وبنى معهداً لأجل ذلك على نفقته لسد الحاجة إلى الفنيين لنبش الآثار الفرعونية في الوقت الذي كان الشعب المصري في أمس الحاجة إلى المساعدة المالية لسد ما دمَّرته البراكين التي ثارت فيه وأصبح كثير من السكان بدون مأوى ولا غذاء إلاَّ من بعض المساعدات التي كانت تذكر إذاعة القاهرة أنها لا تكفي لإعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية ، وليس هذا فقط ، فقد أتخموا العالم الإسلامي بالدعوة إلى إحياء ما يسمونه الفن بجميع أشكاله وإيجاد كل ما يتطلبه الأمر من بناء مساكن ومدارس وإيجاد مدربين ... إلخ ، وقد تحقق الكثير من إحياء هذا الفن الذي كان أكثره موجه لتدمير الأخلاق الإسلامية والعفة ونزع الحياء من وجوه الفتيان والفتيات الناشئين ، وانتعشت حركة الفن هذه حتى أصبحت ذات رسالة ـ كما يعبرون عنها ـ وأصبح تحقيقها يعتبر ـ على حد زعمهم ـ رسالة ومفخرة وطنية يجب تمجيدها وتقديسها ، وحينما تتم المقابلة بين أحد هؤلاء الفنانين في الإذاعة يقول له المذيع : ماذا تتمنَّى ، فيقول : أتمنى على اللَّه أن يوفقني لإكمال الرسالة !؟

والقارئ يدرك السبب من وراء هذا الاهتمام من قبل الغرب بجوانب الفن المزعوم والتمثيل والمسارح والإنفاق السخي على نبش الآثار لأنهم عرفوا أن هذه الأمور هي مقصد الكثير من الناس للتسلية ، وأنها ذات

أثر جذاب على كل الناس مهما كان التفاوت بينهم في المعرفة والأعمار أيضاً . ومن الغريب أن تسمع كثيراً من وسائل الإعلام عند المسلمين يأتي مصدر البرامج فيها إما تمثيلية غربية أو ترجمة لكاتب غربي أو خدمة لكتاب غربي كذلك حتى ليخيل للسامع العادي أن الحضارة الإسلامية لا شأن لها إلا بالمساجد وإقامة الصلاة فيها فقط وأنها لا بديل فيها عن تلك البرامج الغربية ، وهذا الظلم للحضارة الإسلامية سببه جهل أبناء الإسلام وكيد أعدائه فأصبح الإسلام بين أمرين أحلاهما مر بين جهل أبنائه وكيد أعدائه .

الفصــل الثــالث

الدعوة إلى خلط الفكر الإسلامي بالفكر الغربي بدعوى تقارب الحضارتين والسير معاً لخدمة الإنسانية

قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [1] ، وإذا كان الخلطاء يبغي بعضهم على بعض وينتج عن ذلك شر وظلم في الأمور الدنيوية فما بالك إذا كان ذلك في الأمور الدينية حين يراد خلط الحق بالباطل فما الذي سيحصل من ذلك ؟

أنه يحصل نتاج مشوه ومشؤوم لا خير فيه ، وظلم صارخ لا عدل فيه ، وتقارب الحضارتين هو وجه آخر لدعوَى تقارب الأديان ، فكيف يتجاهل هؤلاء الدعاة الغربيون ومن سار على طريقتهم من أتباعهم في العالم الإسلامي من دعاة التغريب ، كيف يتجاهل هؤلاء الفرق الهائل بين الدين الحق والدين الوضعي وهو فرق يمثل الفرق بين الحق والباطل والعلم والجهل فأنَّى يجتمعان ؟

إن التقارب الذي يدعو إليه أصحاب الفكر الغربي إنما يراد به جر المسلمين إلى الغرب وذوبان الشخصية العزيزة للمسلم في خضم التيار الغربي بما يملكه الغرب من وسائل الإغراء التي لا حد لها ، ولعل هذه الدعوة نبعت من جراء تراخي قبضة المسلمين على دينهم والإسفين الذي دقَّته الحضارة الغربية الحديثة ، وقوة التغريب المتنامي في العالم الإسلامي على أيدي المنصرين والمستشرقين وأتباعهم من المحسوبين

(١) سورة ص ، الآية : ٢٤

على العالم العربي أو الإسلامي ، ثم إحساس هؤلاء بهذه الفجوات في المسلمين ، ومن هنا وقر في أذهان أولئك الكتاب وجميع القائمين على حركة التغريب أنه يجب توجيه كافة الإمكانيات والجهود وتجييش الكل لخدمة تلك البذور النامية في أذهان المسلمين نحو حب الحضارة الغربية وأنها هي السبيل الوحيد للمسلمين إذا أرادوا التقدم والعيش الكريم بزعمهم وأقطاب الغرب والتغريب كلهم يشترطون ـ بالقول أحياناً وبالفعل أحياناً أخرى ـ لهذا التواصل والاندماج أن يتم بعيداً عن حقيقة الإسلام التي سار عليها في عهوده السابقة وأن يتم على فلسفة عصرية جديدة حسب مقتضى الأحوال الجديدة بزعمهم وهي خدعة ظاهرة يراد من ورائها عدم الاهتداء بتعاليم الإسلام الثابتة .

ومن المعلوم مسبقاً أنه لو صار تقارب الحضارتين على هذا الأساس لكان الخاسر فيها هم المسلمون بدون شك حتى ولو كان التقارب أيضاً على دعوى النعرات الجاهلية من قومية ووطنية أو تسامح ديني وما إلى ذلك ، فالنتيجة واحدة على حد قول الشاعر :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ *** تَعدَّدَت الأَسْبابُ والمَوْتُ وَاحِدُ

فإن الهدف الأخير للغرب هو استعمار بلدان المسلمين وعودة جنودهم إلى ثكناتهم السابقة ومحو الشخصية الإسلامية من القلوب ، ولقد تفوق الغرب على غيره بحسن الترتيب وأحكام الخطط بمكر ودهاء ، وهو أمر واقع وظاهر ، وما حصل الآن من استعمار الغرب للعراق العربي المسلم ممَّا يندَى له الجبين ويثير في النفوس الأسَى والحزن والإحباط الشديد .

الفصل الرابع

نتيجة خطيرة

الذي يبدو ـ واللَّه أعلم ـ أن الحضارة الغربية ستلتف على العالم الإسلامي نهائياً ما دامت أوضاع المسلمين بهذا الحال من الفقر والتقهقر وعدم الاستفادة من العقول ومما أودعه اللَّه في داخل الأرض من الخيرات العظيمة وما داموا بهذا التفرق الشنيع ، وما دام اسمها «الدول النامية» فلن يمكنها الوقوف أمام الحضارة الغربية العاتية التي استحوذت على كل ما يتطلع إليه البشر من التفوق في سائر الفنون من اقتصاد وصناعة وتجارة وطب وغير ذلك من الأمور التي ستُرضِخ المسلمين لهم طوعاً أو كرهاً للحصول على أجزاء منها ـ وليس كلها ـ فإن من احتاج إلى شيء خضع له والإنسان أسير من أحسن إليه واعتقد أن ما يتبجَّح به بعض الناس من أن العالم الإسلامي بخير ولا ينقصهم أي شيء ، أعتقد أن قائله إما أن يكون جاهلاً لا يعرف حقيقة سير الأمور وإما أن يكون مخادعاً ممالئاً للغرب يريد تثبيط المسلمين وإلهائهم عن النظر إلى واقعهم الضحل كما اعتقد أن ثالثة الأثافي على المسلمين هي هذه الثغرة الهائلة التي فتحها نظام العراق البعثي الصليبي الذي أعطى الغرب المتربص الضوء الأخضر والفرصة السانحة لتغلغل أفكارهم وانتشار حضارتهم ونصرانيتهم بكل صلف وكبرياء وقد أصبح العراق في عهد طواغيته اليوم المثل الثاني ـ بعد فلسطين ـ على إذلال المسلمين وانكسار شوكتهم .

ومما يلاحظه القارئ الكريم أن الدعوة إلى تقارب الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية أحياناً تأتي هذه الدعوة في شكل طلب صداقة ـ صداقة الذئب والحمل ـ أوعلاقات حميمة بين الإسلام والمسيحية في مقابل وقفة الجميع ضد التيار الشيوعي الذي يتهدد جميع أصحاب الديانات بالويل والثبور وعظائم الأمور وأنه يجب أن توجَّه كل الجهود ضده فهو العدو المشترك ، وقد انكشفت هذه الخدعة بسقوط الشيوعية وأحياناً تأتي بدافع حب تطوير الشعوب الإسلامية النائمة أو النامية كما يسمونهم على أنه لا بأس بالدعوة إلى التقارب ومدارسة الجوانب والأمور التي يجب أن يقفها الجميع ضد الإلحاد ما لم يكن ذلك التقارب على حساب الإسلام أو هضم حقوق المسلمين ، إلا أنه تبين أن العالم الغربي وجد هذه الدعاية فرصة ثمينة لخداع المسلمين وجرهم إلى صفوف العالم الغربي وضمن نفوذه السياسي والاقتصادي ليس إلا ، والأدلة على هذا كثيرة من أقواها وقوف الغرب إلى جانب الشيوعية عندما يحاط بها وعداؤهم السافر للإسلام والمسلمين وتصريحاتهم الواضحة بأن أعدى أعداء الغرب النصراني هم المسلمون وخصوصاً في هذه الأيام من هذه السنة ١٤٢٢هـ بعد فتنة التفجيرات التي وقعت في أمريكا في نيويورك وواشنطن حيث أخرجت أضغانهم على الإسلام والمسلمين ، فصرَّحوا بكل وقاحة بأن عدو حضارة الغرب هم المسلمون والإسلام المتخلف بزعمهم ولأن الكفر ملة واحدة فإنك تجد أن أعداء الإسلام دائماً يقفون إلى جانب بعضهم بعضاً في محاربة انتشار الإسلام وحصاره ورميهم له بأنه غير متطور ويجب تطويره كشرط

أساس لمسايرته الحضارة الغربية ، ولا تسأل بعد ذلك عن هذا التطور الذي يدعون إليه ولا عن نتائجه الوخيمة وعن الشر الكامن في مبادئه ومُثله ولا عن قيمة المجتمعات الإسلامية في ظل هذا التطور المزعوم فأين إذاً الدعوة إلى تلاحم النصرانية والمسيحية ضد الإلحاد ما داموا لا ينظرون إلى الإسلام إلا بهذه النظرة الظالمة .

ومن هنا وقع الكثير من الكتاب المسلمين ـ بحسن نية ـ في بعضهم وبمكر ودها في أكثرهم من دعوى مسايرة أحكام الشريعة الإسلامية للأحكام الوضعية الغربية لكي يتم بناء هذا التمثال الهزيل ، ثم ركبوا كل صعب وذلول لتحقيق هذا الادعاء الباطل المستحيل فما من قضية غربية إلا ووجد لها من بعض كتَّاب المسلمين من يقول أن الإسلام أيضاً قد اشتمل على بيانها فلا ينبغي أن يعاب وأصبح الإسلام كأنه مذنب يحتاج إلى المحامين عنه لامتصاص أخطائه وذنوبه أمام الحضارة الغربية حسب دفاع هؤلاء ولا شك أن دعوى مثل هذا التطور هو قتل للإسلام على تؤدة وأنه لن يتم إلا إذا تخلى المسلمون عن دينهم نهائياً .

وهذا الصنف من المحامين خدعوا في أنفسهم وخدعوا غيرهم فقد أوقفوا أنفسهم للاعتذار عن الإسلام أمام كل قضية يخالف فيها الإسلام ما نادت به الحضارة الغربية العصرية فحينما ظهرت الاشتراكية قالوا والإسلام أيضاً فيه اشتراكية [1] بل وافتروا أن مؤسس الاشتراكية

(١) سموها لجهلهم ومكرهم الاشتراكية الإسلامية .

الإسلامية هو الصحابي الجليل أبو ذر رضي اللّه عنه وحاشاه من إفكهم ، وحينما ظهرت الديمقراطية قالوا والإسلام أيضاً ديمقراطي [1] وحينما وجد تعدد الأحزاب قالوا والإسلام لا يمنع هذا ، وحينما ظهر دعاة تحرير المرأة وأن لها حق الانتخاب والوصول إلى الحكم قالوا والإسلام أيضاً قرر لها هذا الحق [2] وتكلم هؤلاء عن الإسلام بما لم يحيطوا بعلمه منهم الماكر المخادع ومنهم من كان عن حسن قصد كي يدفع عن الإسلام تهمة عدم التطور وصفة الرجعية التي وصفوا بها الإسلام كذباً وزوراً وهو دفاع المتقهقر غير الواثق بدينه ونصاعته ، لا دفاع المتيقن الثابت .

---

(١) يستدلون بآية الشورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ على أنها هي نفس الديمقراطية الغربية .

(٢) يستدلون بقول اللّه تعالى في سورة الممتحنة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ وهو فهم سخيف للآية إذ الآية واردة في بيعة الطاعة للّه ولرسوله في الدين وليس في حق الانتخاب للمرأة .

الفصل الخامس

مفهوم الحضارة الغربية

وبعد ذكر ما تقدم عن الحضارة الغربية وتحذير المسلمين ـ نصيحة لعامة المسلمين ـ من الانزلاق إليها بدون روية فإنه يجدر التنبيه إلى أمر مهم جداً وهو أنه قد اختلط الأمر عند كثير من المفكرين ـ فضلاً عن العامة ـ في مفهوم الحضارة ـ خصوصاً الحضارة الغربية ـ ما هي ؟

هل هي ما يتعلق بالجوانب المادية ؟ أم هي ما يتعلق بالجوانب الروحية أم هي ذلك السلوك الذي يتعامل به أهل الغرب ؟ وقد ذهب بعض المفكرين من الغربيين ومن الشرقيين أيضاً إلى تفسير الحضارة الغربية بما يلوح في ظاهرها من التقدم الصناعي في شتى الميادين ، فقالوا إن الحضارة الغربية هي المعامل وهي البحث العلمي ، وهي الجامعات وهي العقل ، بل هي الطائرات التي تستخدمها والأدوية التي تستعملها ومستحضرات التجميل التي تزخر بها المصانع اليهودية لاستلاب أموال الجوييم عن طريق النساء .

موقف هؤلاء من هذه الحضارة

وعلى حسب هذا المفهوم فإنه يجب الأخذ بالحضارة الغربية بكل حذافيرها خصوصاً وأن الغرب يشترط أخذ حضارته كاملة ، فما هو الصواب ؟

الواقع أن الصواب هو القول بأنه ينبغي أن ندرك أن التقدم في مختلف العلوم والفنون والصناعات يمثل جانباً هاماً من جوانب الحضارة ولكن هذه كلها ليست كُنه الحضارة ولا كل ما يُقصد بالحضارة لأن الحضارة تتكون من ناحيتين هما : الناحية الروحية الأخلاقية ، والناحية العلمية (١) .

أما الناحية الأولى فهي التي عليها مدار تكوين الأمة وقيام شخصيتها وبلوغها احترام الآخرين وتقديرهم ، وبها يقاس ارتفاع الأمة أو انحطاطها فإن أية أمة لا تملك رصيداً من القيم الروحية والأخلاقية الفاضلة لا تعتبر أمة تملك حضارة أو تستحق أن توصف بها .

فَإنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ * فَإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا**

وأما الناحية المادية فهي التي عليها مدار تكوين اقتصاد الأمة ورفاهيتها الدنيوية والصورة الظاهرة للغرب أنهم يملكون الاقتصاد القوي على الرغم ، من الحاجة الشديدة والفقر المدقع الموجود عند أكثر العامَّة منهم على أن الناحية المادية فقط لا توصل أية أمة من الأمم إلى الحضارة الحقيقية النافعة ؟

والسعادة الكاملة والرقي الحقيقي ما لم يكن إلى جانبها الدين القويم والسلوك الطيب الصحيح والأخلاق الرفيعة التي جاء بها الدين الإلهي وإلا كان عيش أهل تلك الناحية عيش البهائم يأكلون كما تأكل ويشربون

---

(١) انظر الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص ٨

كما تشرب بل ويفوقونها بأكل المحرَّمات وبشربها حيث يصبحون كالأنعام بل هم أضل ، فإذا كان المقصود بأخذ الحضارة الغربية ما يتعلق بالأمور الدنيوية المذكورة فلا شك أنها حضارة زائفة زائلة ، وأما إذا كان المقصود بالحضارة الغربية ما يتعلق منها بالأمور العلمية التي عرفوها فلا حرج على المسلم من الاستفادة منها دون أن ينجذب إلى عبادتها كما فعل الغرب ، وأما إذا كان المقصود بالحضارة الغربية هي المادية والصناعة وما إليها فلا شك أنها حضارة قاصرة مؤقَّتة وليست هي الحضارة الصحيحة على أن ما يقال من أنَّ الحضارة الغربية هي الجوانب الروحية .

فليت شعري أيُّ جانب روحي أو أخلاقي في الحضارة الغربية ؟ التي أصبحت مَرتعا للرذيلة بكل معانيها والتي أصبحت أيضاً مثالاً للجشع الرأسمالي وعبادة المادة وتمجيدها بكل شراهة فقد طغت على الجانب الروحي فيها تلك النظرة الشرهة المتعطشة للمال ولهذا يقول الصحفي «جون جنتر» عن الإنجليز : «إن الإنجليز إنما يعيدون (بنك إنجلترا) ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»[(١)] .

لقد خلا الجانب الديني والأخلاقي من قاموس الحضارة الغربية مما جعل الكثير من علمائهم ومفكريهم يؤكدون على أن تلك الحضارة أصبحت في طريقها إلى الزوال لأنها تحمل في طياتها عوامل هدمها بوضوح تام .

---

(١) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ، ص ١٨٥

ويصف الأستاذ البريطاني «جود» مدى ما وصلوا إليه من الحضارة التي أوصلتهم إلى قوة الآلهة حسب زعمه ومدى جهلهم في استعمالها بقوله : «إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديدة بالآلهة ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش» .

ولأحد علماء أمريكا في خطاب وجهَّه إلى الشيخ عبدالمجيد سليم في عام ١٩٤٨م قال فيه : «إن الغرب الآن في حالة روحية مضطربة متأرجحة» .

وقال الفيلسوف الألماني «شفيتسر» في كتابه «فلسفة الحضارة» : «نحن نعيش انهيار الحضارة» ، وقال إيضاً : «إننا نعيش في خليط خطير من الحضارة والبربرية» . وعن إنجازاتهم المادية يقول : «فالإنجازات المادية إذاً ليست حضارة ولكنها لا تصبح حضارة إلا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتمدنة أن توجهها وجهة كمال الفرد والجماعة» .

ونشر الفيلسوف الألماني «شبنجلر» مؤلفاً أحدث في أوربا دَوياً قوياً في أوائل السنوات العشرينية وكان عنوانه «إنهيار الغرب» .

وقد وصل الغرب في تدني الأخلاق إلى أحط الصور كما تلاحظ في مفهوم الخبر الآتي :

«حكم أحد القضاة بوضع «دافيد بنيت» ـ وعمره ٢٥ سنة ـ تحت المراقبة ٣ سنوات لأنه طعن «روبرت سمارت» عندما اكتشف أنه على علاقة بزوجته ،

ولكن القاضي لام الزوج قائلاً : «يجب أن تعتاد هذه الأفكار العصرية ، إن مشكلتك هي أنك عتيق الفكر لم يعجبك أن زوجتك ضبطت متلبسة بالزنا مع واحد من أفضل أصدقائك ، إنك تعيش في عام ١٩٦٩م»[(١)] .

والحقيقة أن الأمثلة لا تكاد تحصر على سفالة الأوربيين سواء ما كتب منها وما يذيعونه في وسائل إعلامهم وما تراه أمامك في كل اتجاه في مجتمعاتهم المنحلة بعد أن تركوا التدين وراءهم ظهرياً ، وإلى جانب هذا الاضطراب الأخلاقي والروحي سلوك مشين لا يشعر بالحضارة لا من قريب ولا من بعيد من عدم الأمن في الغرب وانتشار السرقات والكذب والغش والحسد وانتزاع الرحمة من قلوبهم والتعامل بالربا الفاحش واستغلال الفقراء للعمل بأجور زهيدة إلى جانب انتشار الخلاعة والمجون والعرى الفاضح وغير ذلك مما يزخر به المجتمع الغربي كله وهي دلالات على أن الحياة الغربية اليوم لا تحمل أي جانب حضاري عند التأمل وفحص الأمور وبهذا يتضح أن السلوك الذي يتعامل به الغرب لا يوحي بأي حضارة جديرة بأن تكون قدوة للغير لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

---

(١) نقلت تلك النصوص عن الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص ١٢ ـ ١٥

الفصل السادس

مدى التأثر عند بعض المسلمين بالحضارة الغربية

تتغلغل الأفكار وتنتشر ويتقبلها الكثيرون دون تُؤدة وتمحيص ويكونون في الغالب ممن لا معرفة لهم بها فيقعون ضحية أفكار خاطئة باطلة ظانِّين أنها صحيحة ، وبالتالي يصبحون من المتحمسين لها والمدافعين عنها فيصبح ردهم إلى الحق من الصعوبة بمكان لأن خالي الذهن عن الشيء يكون فريسة الصائد الأول .

وربما يسمع القارئ دائماً بما ينعق به كثير من البُله المحسوبين على المجتمع الإسلامي من تأثرهم بتلك الأفكار الغربية المسمومة والتي كانت نتيجة طبيعية لانحراف النصرانية ومقاومتها للعلم ولرجال الفكر في الدول الغربية غير مدركين أن الإسلام دين اللَّه عز وجل فيه كل الخير وأنه ليس مثل النصرانية التي تحولت إلى الوثنية ثم إلى كابوس طغيان رجال الدين ثم إلى الخرافات والأساطير والجمود الفكري الشنيع مما سبب بعد ذلك انفجار المجتمع الغربي بأسره وخروجهم ثائرين كالبراكين في وجوه ألئك البُله الذين يسمون أنفسهم برجال الدين أو كهنة اللَّه أو نُوَّاب المسيح في الأرض ، وأطاحوا بهم فقامت الحضارة الغربية على أنقاض النصرانية المندثرة وصارت كل الأوضاع تتفق في غاية واحدة في الأساس كلها موجهة ضد رجال الدين المسيحي وتطور الحال بهم وأصبح طوفاناً على العقل والدين ورجال الدين وجميع الأمور المغيبة في رد فعل عارم .

ومن تلك الأوضاع التي قامت عليها الحضارة الغربية:

فصل الدين عن الدولة[(١)] : واعتبار الدين مسألة شخصية لا شأن له بالسياسة أو الاقتصاد أو التوجيه العام وأنه فقط محصور في داخل أماكن العبادة . وقد تأثر بهذا الفكر كثير من الكتاب وأصحاب الفكر من المسلمين ومن غيرهم .

وهذا الاتجاه أمر وارد بكل بساطة تجاه ما لقيه المفكرون من طغيان القائمين على الدين النصراني الوضعي ، ثم لوروده صراحة في الكتاب المقدس فيما ينسبونه إلى نبي اللَّه عيسى عليه السلام من أنه قال : «أعط ما للَّه للَّه وأعط ما لقيصر لقيصر»[(٢)] .

ولكن هذا الاتجاه لا مكانة له في الشريعة الإسلامية لأمور من أهمها :

١ ـ أنه ليس في المجتمع الإسلامي رجال دين ورجال دنيا فالكل مسلمون وحماة للإسلام على حد سواء لا تختص بالدين طبقة عن طبقة أو رجال عن رجال وإنما فيه علماء في الفنون وفي العقائد وفي الحديث وفي الطب . . . إلخ .

وهؤلاء العلماء ليس لهم مزية إلاَّ بعلمهم إذا عملوا به وفق أمر اللَّه وشرعه فإن حادوا عن ذلك فلا قيمة لهم ولا لعلمهم ، فإذا زعم أحد

(١) سيأتي بيان هذه المسألة في دراسة العلمانية .

(٢) هكذا جاء في كتابهم المسمى (العهد الجديد) .

أن الإسلام يفصل بين الدين والدولة أو يجعل المسلمين طبقات رجال دين ورجال دنيا فقد كذب على الإسلام وقفي ما ليس له بحق . وتاريخ المسلمين على امتداد القرون السابقة منذ عهد الرسول ﷺ إلى عصرنا الحاضر خير شاهد على ذلك .

فقد كان الخليفة من المسلمين يجلس في مجلس حكمه بين الناس ثم يخرج ليصلي بالجماعة وفي الاستسقاء والكسوف ويخطب بهم في يوم الجمعة ويشرف على الحسبة بنفسه ويجهز الجيش بمعرفته ويجلس ليفتي الناس في أمور دينهم دون أن يفكر في فصل مصالح المسلمين بعضها عن بعض . فمتى يعود المنخدعون من هؤلاء إلى رشدهم ؟

٢ ـ ما يردده بعض السذَّج من أن الدين لا يتوافق مع العلم ومع ما وصل إليه الغربيون من اختراعات حديثة ويرد سبب ذلك إلى ترك الغرب للدين حتى أصبح لسان الحال ـ بل وأحياناً بلسان المقال ـ يقول هؤلاء : إنه لا يفصل بيننا وبين الغرب المتقدم إلا أن نترك الدين الذي عاقنا عن التقدم بزعمهم . والمنافقون منهم يقولون : إلا أن نترك العادات الشرقية ويريدون بذلك ترك الدين إلا أنهم يخافون التصريح به . وقد سمعت ، ولعل القارئ سمع أكثر مني ، حينما زعم الشرق والغرب أنهم وصلوا إلى سطح القمر ووضعوا عليه أعلامهم وذكروا بعض أسماء الأماكن والأودية فيه حسب زعمهم . سمعنا كيف أخذ بعض الحمقى يقول هذه العبارة البغيضة الكاذبة : «الناس وصلوا إلى سطح القمر وأنتم همكم المساجد» .

وهذا العقوق والردَّة من أشد ما يكون في الأرض ولو سألت هؤلاء عن السبب الحقيقي الذي جعلهم عاجزين عن صنع الطائرات والسيارات وصواريخ الفضاء لتلعثموا في الجواب لأنهم فعلاً لا يدرون عن السبب في ذلك ,ولو سألتهم ما هو موقف الإسلام من صنع تلك الأدوات من الإبرة إلى الصاروخ لقالوا بسبب جهلهم لا ندري وهؤلاء الناعقون بما لا يعرفون مثلهم مثل إخوانهم في الضلال الذين يتهجَّمون على الشريعة الإسلامية وأنها لم تعد صالحة للتطبيق وهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً حتى صفة الوضوء لجهلهم المطبق به .

ومثل هؤلاء مثل قول الشاعر :

ألقَاه في اليَمِّ مَكْتُوفاً وقَالَ له * إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَبتَلَّ بالْمَاءِ**

ولو قلت لأحدهم سُبَّ فلاناً الذي لم يولد بعد لقال كيف أسبه وأنا لا أعرفه . ولكنهم جريئون على الإسلام ، أليس الإسلام هو الذي دعا المسلمين إلى أن يأخذوا بكل أسباب القوة حين قال لهم ربهم عزَّ وجلَّ : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [1] .

وقال رسول الإسلام ﷺ : «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**» [2] وغير ذلك من النصوص الكثيرة في القرآن

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠

(٢) أخرجه مسلم جـ٤ ص ٢٠٥٢ صحيح ابن حبان جـ١٣ ص ٢٩ .

الكريم وفي السنة النبوية وفي أقوال علماء الإسلام. فكيف يكون الإسلام هو السبب في تأخر المسلمين ؟ إن الذي يقول هذا عن الإسلام إما أن يكون جاهلاً بالإسلام جهلاً مطبقاً لا يملك إلا التقليد واتباع الإشاعات ، وإما أن يكون في قلبه مرض وحقد على الإسلام فهو يريد أن يشفي غيظه منه في نشر تلك الأباطيل ولكنه يصبح كما يقول أحد الشعراء :

كَناطح صَخْرةً يَوْماً لِيُوهِنَها * فَلَمْ يَضُرَّها وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ**

الفصل السابع

كيف نقف من الحضارة الغربية وأفكارها ؟

لقد جاءت الحضارة الغربية كالسيل المزبد تريد أن تجتث كل شيء في طريقها صالحاً أو غير صالح دون تمييز ، جاءت وهي تحمل مزيجاً هائلاً من العقائد والأفكار والفلسفات والنظم السياسية والاقتصادية وعلوم الطبيعة والعمران والاجتماع والتجارب المختلفة في شتى الاتجاهات والفنون ، إنها خليط يحيِّر العقل حين يقف أمامها متسائلاً هل أرفض تلك الحضارة برمتها ، أم آخذ بها كاملة ، أم لا بد أن يكون لي موقف خاص منها يجمع بين الأخذ منها والترك لها ؟ ذلك أن أخذها يعني الاستسلام لها بكل ما فيها من خير أو شر صالح أو طالح وأن مصير الأمة الإسلامية سيكون هو نفسه مصير الغرب في تعامله وفي جاهليته وأن يتحمل تلك الأخطار التي تهدد المجتمعات الغربية في أخلاقها وفي كل سلوكها ، كما أن تركها يعني تفويت منافع ومصالح نحن في أمس الحاجة إليها إذاً فما هو الحل الذي ينبغي أن يسلكه الشخص الذي يريد الحفاظ على دينه وقيمه الإسلامية والاستفادة كذلك من الحضارة الغربية ؟!!

والجواب فيما يلي بالإيجاز [1] :

---

(١) انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٨ .

الخيار الأول : أي رفض الحضارة الغربية برمتها :

هذا الموقف غير سليم ولا يؤيده العقل ولا الواقع لأنه يؤدي إلى انعزال العالم الإسلامي وانطوائه وبعده عن الأسباب التي تقويه اقتصادياً وحربياً أيضاً وذلك لما أودعه اللّه في العالم الغربي من أسباب القوة المادية المشاهدة التي لا يجهلها أحد في الوقت الذي تأخر فيه العالم الإسلامي ولم يحققوا ما أراده اللّه منهم من التقدم المادي وأسباب القوة كما في قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [1] بعد أن دعاهم إلى استعمال عقولهم وشحذ أفكارهم للاستفادة من كل شيء لا يصطدم مع دينهم الذي ارتضاه لهم وأخبرهم في أكثر من آية أنه سخر لهم كل ما في هذا الكون وجعله هبة لهم ، كما أرشدهم إلى بعض أدوات القوة كرباط الخيل الذي يساوي الآن الطائرات والسفن الحربية وإلى الحديد الذي هو قوام الصناعات الحربية وغيرها قديماً وحديثاً وغير ذلك من أنواع القوة المادية ، كما أن لنا في رسول اللّه ﷺ وأصحابه رضي اللّه عنهم أسوة حسنة ، فقد كانوا يبادرون إلى الاستفادة من أي خبرة فيها نفع لهم وقوة للإسلام كحفرهم الخندق بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وأمر رسول اللّه ﷺ لأُبَيّ أن يتعلم لغة اليهود ، واشتراطه ﷺ على بعض الأسرى أن يعلم أولاد المسلمين الكتابة ، وغير ذلك مما فيه نفع المسلمين وزيادة قوتهم ، ولن تجد قُطراً من الأقطار منطوياً على نفسه غير مستفيد من خبرات الآخرين في شتى

---

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠

المجالات التي لا تتعارض مع دينه إلا وجدت ذلك القطر متخلفاً في كل شؤونه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ووجدت الجهل والخرافات قد طغت على أهله كما تطغى الفيضانات على ما حولها بل ووجدت ذلك القطر يتنفس الصعداء بين فترة وأخرى في شكل عصيان مدني وتمرد عسكري وشغب بصور مختلفة لما يحسه أهله من الغبن في عيشتهم المتخلفة والقلق الذي يساورهم على مستقبلهم ومستقبل أولادهم من بعدهم ، إلا أن هذا لا يعني أن يفتح العالم الإسلامي ذراعيه للحضارة الغربية بكل ما فيها من سلبيات لا تُقرُّها الشريعة الإسلامية كما فعل الكثير من المسلمين ، سواء أكان ذلك في شكل أفراد أو جماعات أو دول ، فلقد لهثوا للِّحاق بركب الحضارة كما يسمونه دون تَرَوٍّ وتَأنٍّ ، فكانت العاقبة ما يراه كل مسلم من تفشي الأوضاع الفاسدة وانتشار الرذائل الغربية بشكل واضح في أكثر الأقطار الإسلامية إلا من رحم اللّه تعالى وهم قليل بالنسبة لغيرهم فأُقصيَ الحجاب للمرأة وخرجت سافرة بل ولا يسترها إلا القليل من الثياب التي تجعلهن كاسيات عاريات ، وأحياناً شبه عاريات ، ولم يعد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كثير من ديار المسلمين أي مكان فيهم لابتلاع ما يسمونه بالحرية الشخصية له وانتشار الجريمة بشكل رهيب ، وقس على ذلك شؤون الحياة المختلفة التي يسبح فيها العالم المادي ومن تأثر به على طريقة عيشة البهائم . ولا أظن القارئ في حاجة إلى ذكر أسماء تلك البلدان الإسلامية التي غمرتها الحياة الغربية بكل ما فيها من عُهر وسخافة ومُجون تحت أسماء برَّاقة خادعة كالتطور والإنسان

العصري والتقدمي وما إلى ذلك ، فكانت النتيجة أن أدخلوا رؤوسهم في الحياة الغربية على رجل واحدة لأن الهدم أسهل من البناء فهدموا دون بناء فقد حقَّقوا سيئات الغرب ورذائله ولم يتمكنوا من تحقيق الجانب الآخر المشرق المتمثل في تلك النهضة الجبارة في ميدان الصناعة التي تزخر بها بلاد الغرب .

أما الخيار الثاني :

وهو أخذ الحضارة الغربية على علاتها ما طاب منها وما خبث يعُبُّها كلهفة الظامئ المتلهف إلى الماء العذب دون التفكير في الفوارق الطبيعية بين تلك الحضارة وحضارة الإسلام في السياسة والتفكير والنظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وسائر السلوك كما حصل في تركيا بعد أن تأخر خلفاؤها في القوة المادية والقوة الدينية وتمالأ عليها الأعداء من كل جانب حيث سقطت فريسة الحضارة الغربية على يد زعماء افتتنوا بما عند الغرب من التقدم المادي والإلحاد الذي لا حدَّ لجماحه .

لقد واجهت تركيا الضعيفة طوفان الحضارة الغربية القوية دون تبصر ووعي وبعقلية غير متفهمة للأوضاع الجديدة ، بل توَّاقة إلى العلمانية الملحدة خصوصاً وقد برز شباب كانت ثقافتهم غربية تماماً ينظرون إلى الإسلام وإلى تعاليمه على أنه عقبة كأداء في سبيل رقيهم وتقدمهم وأن على الحضارة الغربية أن تقوم على أنقاضه راضية مطمئنة كما شاء لها أولئك الثائرون أمثال «أتاتورك» وأتباعه الذين نادوا بإلحاق تركيا بالحضارة

الغربية وكتبوا في ذلك ما وسعهم من الدعاية لهذا الاتجاه وقلبوا ظهر المجن لكل حضارة يمتُّ إليها الأتراك بصلة وخصوصاً الحضارة الإسلامية وأتاتورك هو الشخصية الهامة التي كان عليها وزر تحويل تركيا إلى ركاب الحضارة الغربية وهو أعدى أعداء الإسلام في وقته ، عاقبه اللّه بما يستحق .

ووجد كذلك مفكرون متحمسون للحضارة الغربية ونشرها بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات مثل «سيد أحمد خان» الهندي ، و «قاسم أمين» المصري صاحب كتاب «تحرير المرأة» وكتاب «المرأة الجديدة» ، و «طه حسين» الذي كان من كبار المتعصبين للحضارة الغربية ومن كبار المفاخرين بها وكان يَوَد لو أن العالم الإسلامي كله وخصوصاً مصر تنسلخ من كل ماضيها وتتقدم باحترام لتتقمص الحضارة الغربية بكل ما فيها [(١)] .

وعلى مستوى أولى الأمر من الرؤساء مثل «الحبيب بورقيبة» الذي ظهر إلحادُه وعداؤه للدين الإسلامي ولنبيه العظيم في تصريحاته التي كان يلقيها في المناسبات مثل تهجمه على القرآن الكريم ووصفه له بالتناقض وتهجمه على الرسول ﷺ وأنه بدَويٌّ يَجوبُ الصحراء ويؤمن بالخُرافات وغير ذلك من كفرياته ، وقد طلب إليه كثير من العلماء منهم الشيخ ابن باز ـ رحمه اللّه ـ أن يتوب ويرجع إلى الإسلام .

---

(١) انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية الخيار الثاني ، ص ٣٥

والحاصل أن هذا المسلك مرفوض ولا ينبغي للمسلمين أن يقعوا فيه فإن طريق الحضارة الغربية مملوء بالمخاطر الأخلاقية والدينية والعاقل من اتعظ بغيره وقد أسفر الصبح لذي عينين .

أما الخيار الثالث :

وهو الأخذ من تلك الحضارة بحذر وترو دون اندفاع فلا ينظر إليها على أنها هي المثل الأعلى للحياة أو المورد العذب وإنما ينظر إليها على أنها متاع الحياة الدنيا وأنه سيفارقها أو تفارقه فهي عرض زائل مهما بدت في المظهر الأنيق والصور الخادعة البراقة .

فيعتقد المؤمن اعتقاداً جازماً ما أن الحياة السعيدة إنما هي الحياة الآخر التي جعلها اللّه ثواباً لأوليائه وأن ما وجد على ظهر الأرض من أنواع المتع المباحة فإنما هي عون له من اللّه على الاستعداد لتلك الحياة يتمثل قول اللّه تعالى : ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [1] ، فيجمع بين الدنيا والآخرة أو يجعل الدنيا في يده لا في قلبه فلا يفتتن بها افتتان من يسمون أنفسهم أصحاب التجديد الذين لا هم لهم إلا الحياة المادية وزخرفها ، أو جماعة التغريب الذين ينظرون بكل تقديس واحترام إلى الحضارة الغربية على أنها هي كل شيء في هذا الوجود .

لا حرج على المسلم أن يستفيد من أي أمر لا يتعارض مع دينه ، لا

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٧

حرج عليه من أن يستفيد من مصانع الغرب وآلاته المختلفة ما دام ذلك لم يصل إلى أن يكون على حساب دينه وقيمه أو تقليداً أعمى لا يفرق فيه بين المفاهيم الغربية والمفاهيم الإسلامية كما هو حال كثير من الأقطار الإسلامية مع الأسف ولذلك لا يحتاج الشخص إلى تفكير عميق أو دقة ملاحظة كي تتبين له تلك الأوضاع التي ترددت فيها تلك الأقطار عن وعي أو عن غير وعي حيث كانوا كحاطب ليل أو كتلميذ صغير أمام أستاذه ينظرون إلى الغرب بكل انبهار ونسوا أنهم يملكون ما لا يملكه الغرب من القيم والمبادئ الإلهية التي لا يوجد لها مثيل في تنظيم الحياة البشرية من جميع الجوانب ونسوا كذلك أنه يجب أن يكونوا هم القدوة للغرب المتحيِّر في سلوكه المتخبط في جهله وأن تقدمهم إنما هو ظاهر من الحياة الدنيا وأن السعادة كلها في أيدي المسلمين لو أرادوا تحقيقها حينما يعتزون بدينهم ويوصلوه إلى تلك القلوب الخاوية والأفكار البالية في العالم الجاهلي فيرتوون من مَعينه الفيَّاض ويخرجون من حياة الفسق والفجور والظلم والطغيان إلى عدل الإسلام ونوره المشرق دائماً .

الفصل الثامن

سبب قيام الحضارة الغربية على العداء للدين

أفاق الغرب من سباتهم العميق فإذا بهم يواجهون طغياناً عارماً على أيدي رجال يزعمون أنهم نُوَّاب المسيح وأن اللَّه فوَّض إليهم الأمر يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم فأذلوا الناس واستعبدوهم وحاربوا كل فكر جديد إلى أن أذن اللَّه في سقوطهم بعد نضال شديد خاضته جماهير أوربا بكل عزم وعنف وخرج الناس عن قبضتهم الحديدية ثائرين عليهم وعلى الدين بل وعلى الرب الذي منحهم تلك الصلاحيات الجهنمية كما كانوا يعتقدون ولم يطيقوا أن يسمعوا كلمة دين ظانين أن الأديان كلها هي تلك النصرانية السخيفة وتلك الخرافات الشائنة والأفكار الضحلة ، فاستبدلوا بالدين نظرياتهم الجديدة واحلوها محل الإله وعبدوها ، وكان عليهم أن يتحققوا من حقيقة الدين الذي هربوا منه أهو دين صحيح أم هو خرافة ولو فعلوا ذلك لما ظلموا كلمة الدين ذلك الظلم الصارخ ولعثروا على الدين الصحيح المتمثل في الإسلام وحينئذ سيجدون ضالتهم المفقودة ، وعلى كل حال فقد وقع ما وقع وقامت الحضارة الغربية على ما هي عليه اليوم معتمدة في غيِّها على أمور كثيرة جعلتها أدلَّة على صحة ما هم عليه وعلى بطلان الدين ومن ذلك :-

١ ـ ما وجدوه في الدين النصراني من الخرافات والتناقضات التي اخترعها لهم بولس ورهبانهم والتي ظهر بطلانها جلياً أمام البحث والواقع .

٢ ـ ما زعموه من أن الاكتشافات الحديثة تؤيد ما ذهبوا إليه من نظرياتهم الحديثة :

ـ من أن مادة العالم أزلية وجدت بنفسها في الأزل دون خالق .

ـ نشأة الكون تعود في البداية إلى تجمع المادة في الفضاء الفسيح بفعل التجاذب بين أجزائها ، ثم نشأت فيها حرارة شديدة وصلت إلى بلايين الدرجات ثم انفجرت تلك المادة انفجاراً هائلاً مشتَّتة في الفضاء ثم أخذت تبرد قليلاً قليلاً فإذا بالسماء في مكانها والأرض في مكانها والشمس والنجوم والقمر كل في مكانه بهذا الترتيب التي هي عليه ثم بدأت الكائنات تظهر في تطور متتابع فوُجد الإنسان وسائر المخلوقات التي تشاطره سكنى هذه الأرض إلى آخر ما تخيلوه .

الرد عليهم :

١ ـ أما بالنسبة لما وجدوه من الخرافات في الديانة النصرانية فهذا صحيح ولكن الدين الحق لا علاقة له بتلك الخرافات ولا يؤيدها ومن الافتراء تحميله ما وضعه البشر بأهوائهم .

٢ ـ أما بالنسبة لتعليلهم لنشأة الكون فهو أمر مضحك يدل على سخافة وجهل مركب . فمن أين لهم تلك المعلومات الدقيقة وتلك الأجهزة التي قاسوا بها حرارة المادة قبل انفجارها ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [١] كيف وجدت تلك المادة ومَن أوجدها وكيف نشأ هذا النظام البديع عن طريق ذلك الانفجار العشوائي وكيف لم ينفجر بالضغط من أول تجمعه من الذي حبسه مَشحوناً بقوته إلى أن اكتمل ثم انفجر فجأةً عن هذا الكون العجيب ، وكيف تجمعت المادة من طبيعة واحدة متجانسة ثم تميز بعض أجزائها عن البعض الآخر في صورة وصلت إلى حد التناقض بينها مع غاية الإحكام والاتقان .

كذلك افتراضهم أن الشمس وسائر الكواكب انفصلت بنفسها بهذه البساطة فما الذي منعها أن تعود وترتطم مرة أخرى ببعضها البعض . وإذا كانت الأجرام السماوية الهائلة كلها انفصلت بنفسها فكيف صارت تعرف المسارات التي تجعل كل مجموعة تسير بانتظام لا تصطدم مع الأخرى ، فلماذا هذا الهرب كله عن القول بأن الذي فعل ذلك كله هو الإله الخالق القادر المستحق للعبادة والخضوع ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) ﴾ [١] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩

(٢) سورة الأعلى ، الآيات : ٢ ـ ٥

الفصل التاسع

اعتراض وجوابه

وهناك اعتراض مفاده أن أوربا ليست هي التي نشأ عنها المذهب المادي ، بل إنه كان سائداً في غيرها فلماذا يوجَّه اللوم إلى أوربا وكأنها هي التي سبقت إلى عبادة المادة ؟

والجواب : أن هذا الاعتراض ربما يكون صحيح فقد كانت عبادة المادة منتشرة في أكثر من مكان في العالم . فقد أخبر اللَّه عن الدهريين الماديين منكري البعث بقوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤)** ﴾ [(١)] .

وأخبر عن الماديين الذين يرون أن المتعة كلها تتم في هذه الدنيا ولا مكان للآخرة عندهم بقوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)** ﴾ [(٢)] .

وأخبر عن الماديين في شبه الجزيرة العربية وما طلبوه في تعنتهم من الأمور المادية التي يزعمون أنهم سيؤمنون إذا تحققت .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤

(٢) سورة سبأ ، الآية : ٣٥

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾ [(١)] .

والماديين في كل زمن مذهبهم واحد هو الإيمان بالمحسوسات فقط سواء كانوا في أوربا أو في غيرها .

ومع القول بوجود عبادة المادة في كل زمان وفي كل مكان إلا أن تلك المادية كانت سطحية بدائية ولكنها في أوربا امتازت بأنها فصلت وقننت هذا الاتجاه المادي ونظمته وأحلته محل الدين ومحل الآلهة بطريقة سافرة ومدروسة فصارت رائدةً في عبادة المادة والدفاع عنها في صورة لم توجد في من سبقهم [(٢)] من الوثنيين والدهريين .

(١) سورة الإسراءالآيات : ٩٠ ـ ٩٣

(٢) ستأتي إن شاء اللّه إيضاحات أكثر في دراسة الشيوعية .





الباب الثالث

أهمية التفكير والبحث العلمي

عند المسلمين

وجهود علماء المسلمين في ذلك



الباب الثـــالث

أهمية التفكير والبحث العلمي عند المسلمين
وجهـود علماء المسلمين في ذلك

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

الفصل الأول : مناسبة دراسة هذا الموضوع لدراسة المذاهب الفكرية .

الفصل الثـــاني : ثمار الحضارة الإسلامية .

الفصل الثـــالث : التعريف بالتفكير العلمي عند المسلمين .

الفصل الرابـــع : حركة التفكير العلمي وجهود علماء المسلمين في ذلك .

الفصل الخامس : هل يصح نسبة الفكر إلى الإسلام .

الفصل السادس : معنى القول بأن التفكير العلمي مستحدث في الإسلام والعوامل التي اقتضت رد هذا التفكير المستحدث .

الفصل الســـابع : شمول التفكير والبحث العلمي عند المسلمين .

الفصل الثـــامن : المراحل التي مرَّ بها التفكير والبحث العلمي عند المسلمين .

الفصــل الأول

مناسبة دراسة هذا الموضوع لدراسة المذاهب الفكرية

دراسة التفكير العلمي عند المسلمين وبيان جهود علماء المسلمين في إثراء هذا الجانب لا اعتقد أنها خافية على طلاب العلم الذين عرفوا مدى العلم الغزير الذي تميز به المسلمون على مدار تاريخهم المشرق منذ بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا الحاضر فقد اتضح الأمر بأن صفاء التفكير لدى علماء الإسلام إنما كان بسبب اعتمادهم على دراسة كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه ﷺ وهما مَعينان لا ينضبان وجديدان لا يبليان في الإرشاد إلى الحقائق مباشرة أو الإشارة وضرب الأمثال والمقارنة بين الأمور المتفقة أو المختلفة وتتويج كل ذلك بتلك النصوص العظيمة التي تحث المسلم على التفكير وتعقل الأمور والاستفادة من كل ما حوله والاستفادة من نعمة العقل وشكر اللَّه عزَّ وجلَّ ، ومن الواجب بيان الإنتاج العلمي ومدى الجهد الذي بذله علماء الإسلام في شتى ميادين المعرفة والدعاء لهم والترحم عليهم وتلمس الأعذار لما أخطأوا فيه والاهتداء بآرائهم فيما وُفقوا فيه ، واللَّه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

الفصـل الثـــاني

ثمار الحضارة الإسلامية

لقد جاء الإسلام بنوره الوضَّاح فأفاق العرب بخصوصهم وسائر الأمم عموماً من سبات عميق طالما تخبطوا في دياجير ظلماته فأخرجهم اللّه به من الظلمات إلى النور ، وبيَّن اللَّهُ لهم فيه كل ما يحتاجونه لسعادتهم في دينهم ودنياهم وفتح اللّه به قلوباً غُلفاً ، وأعْيناً عُمياً ، وآذاناً صُمَّاً ، وكرَّم اللّه به العرب بخصوصهم ، والبشرية بأسرها .

وجدوا فيه المعين الذي لا ينضب ، والنور الذي لا ينطفئ ، والعلم الغزير ، والأحكام الإلهية التي هي مصدر الرحمة والعدل . قرأ المسلمون كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ فإذا الكون وما فيه غير الكون الذي كانوا ينظرون إليه قبل الإسلام ، وإذا هو يتفتح عن خبايا ومكتشفات لم تطرق قبله ، وارتوت العقول ، وصفت النفوس ، وغاص كل شخص في المعين الذي هيئ له . فمن عالم بكتاب اللّه تعالى ، ومن عالم بسنة محمد ﷺ ، ومن عالم في الجغرافيا ، وآخر في الرياضيات ، وغيره في الطب . وظهر علم الفلك ، وعلم الاجتماع ، وسائر العلوم مما كان للمسلمين فضل عظيم على العالم في اكتشافه والاستفادة منه والسبق إليه .

وصار العالم كله عالة على المسلمين واكتشافاتهم في كل ميدان وهزت هذه النهضة المباركة أوربا وسائر بلدان العالم فأقبلوا على المدارس الإسلامية

وعلى علماء المسلمين يتتلمذون عليهم ويستفيدون من حضارتهم الوارفة الظلال ومن علومهم التجريبية كما أقرَّ بذلك كثير من منصفي الشرق والغرب إضافة إلى إخراجهم الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن سيطرة الجاهليات إلى عدل الإسلام ، ومن العادات القبيحة إلى السلوك الطيب والأخلاق الفاضلة في كل شيء .

ولإيضاح ما تقدم نشير إلى ما يلي:-

الفصل الثالث

التعريف بالتفكير العلمي عند المسلمين [(١)]

الفكر بحد ذاته نعمة من نعم اللّه تعالى على الإنسان حيث ميَّزه اللّه بالتفكير والتدبر وأمره اللّه تعالى في القرآن الكريم أن يسير في الأرض وأن ينظر ويقارن ويستنتج كي يزداد فكره ويستفيد من كل ما حوله بواسطة هذه النعمة الجليلة الخاصة به فإن البهائم إذا شبعت نثرت الأكل الباقي يميناً وشمالاً وعبثت به وإذا شربت وارتوت أكفأت الإناء وعبثت به دون أن تفكر أنها ربما تحتاج إليه مرة أخرى بينما الإنسان تجده يفكر في الأمر المستقبل كأنه قد وقع فيه ويقدر بفكره الأمور ويقبلها كأنها مكتوبة أمامه .

المقصود بالتفكير العلمي عند المسلمين :

إن المقصود بالتفكير العلمي هنا هو النتاج والابتكار الذي اهتدت إليه عقول علماء المسلمين في جميع نواحي الحياة باجتهاداتهم واستفادتهم مما أنتجته عقولهم وعقول غيرهم من أفكار على ضوء الشريعة الإسلامية

---

(١) من أهم المصادر التي أعجبت بها في دراسة هذا الموضوع ما كتبه د. «جمعة الخولي» وفقه اللّه في كتابه المفيد «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» وقد حرصت على تقريب ما فيه إلى القارئ بصورة أكثر وضوحاً ، ولم أوافقه في إطلاق بعض التعبيرات والآراء التي كانت محل خلاف أو فيها إيهام كما يتضح لك ذلك وليس ذلك لقصور علمه وإنما هي وجهات نظر . وفَّق اللّه الجميع .

الغرَّاء في بيان وشرح كل ما يقبل الاجتهاد وإعمال العقل في النواحي الدينية والدنيوية من الأمور التي برعوا فيها سواء أكان ذلك في العبادات أو المعاملات أو الأمور التاريخية والحديث والتفسير والعقائد أو مسائل الفقه والأصول أو ما يوردونه أيضاً في العصر الحديث في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وفي كل التجارب العلمية التي برع فيها المسلمون قديماً وحديثاً في الطب وغيره ، حيث كان الأوربيون عالة عليها في نهضتهم الحديثة كما يحدثنا التاريخ .

الفصـــل الرابـع

حركة التفكير العلمي وجهود علماء المسلمين في ذلك

لقد مرَّت حركة التفكير العلمي بفترات متعاقبة أشبه ما تكون بحركة المد والجزر بعد أن هجمت مفاهيم الحضارة اليونانية الفلسفية على عقول المسلمين فتأثر من تأثر بها ونجَى من نجا ، إلا أنها دقَّت إسفينا عميقاً في تفكير المسلمين حيث اختلطت المفاهيم الإسلامية بالمفاهيم الفلسفية عند بعض الناس .

وقبل ذكر أهم تلك المراحل يجب معرفة أنه ليس كل من كتب أو تكلم عن الإسلام يعتبر كلامه من جملة كلام المسلمين ، بل قد تكون تلك الكتابة أو الكلام معادية للإسلام ، كما هو الحال في كتابة المنصِّرين والمستشرقين والملاحدة وغيرهم ممن كتب الكتابات الكثيرة عن الإسلام ، وبالأمس القريب إثر أحداث أمريكا خطب بوش الثاني رئيس أمريكا وقال إن الإسلام لا يقرُّ الإرهاب وأنه دين التسامح ولا يصح أن تُنسَب الأعمال الإرهابية إلى الإسلام ، وعلى هذا فإنه لا يحتسب على الإسلام إلاَّ ما كان في الدفاع عنه ضد أعدائه أو إضافة شيء يتعلق بشرحه في جميع القضايا التي تشتمل على بيان بعض الجوانب الغامضة لدى بعض الناس حيال ما سطَّره علماء المسلمين في جهودهم الفكرية في شتى الفنون وأثروا المكتبات بالمؤلَّفات ويجب أن نعرف أن جهود علماء المسلمين لم تقتصر فقط على بيان الوقوف على النصوص في الأمور الدينية في العبادات أو المعاملات كما يظن البعض بل شملت

جهودهم العلمية ناحية أخرى لا تقل أهمية عن جهودهم الموفقة السابقة ألاَّ وهي ناحية الدفاع عن الإسلام وتفنيد مزاعم أعدائه وإبطال افتراءاتهم الفكرية بأدلة فكرية مضادة ، حيث قابلهم علماء الإسلام بنفس السلاح الذي وجه ضدهم وهو الحرب الفكرية وهدم الرأي بالرأي والفكرة بالفكرة ، خصوصاً في الحالات التي يتطلب الدفاع عنها سلوك تلك الطرق الفكرية مع الاستناد إلى مضمون المفاهيم التي جاءت في كتاب اللَّه تعالى وفي سنة نبيه ﷺ ، ولقد أفاد المسلمون من تسهيل هذه السبيل قوة وعظمة ، وازداد انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً عن اقتناع تام ورغبة خالصة ومن المؤكد أن المسلمين في حاجة إلى المزيد من الدراسة حول هذه المزية المفيدة التي أكدت فائدتها في قمع المتطاولين في خصومة الإسلام والمتحدين لعلمائه في ميادين المناظرات والجدال وقد مثل قديماً (أن الحديد بالحديد يفلح) لكن يجب التنبيه هنا إلى أنه يجب أن تبقى المفاهيم الإسلامية بعيدة عن خلطها بالمفاهيم الباطلة التي روَّجها أعداء الإسلام وأدخلوا فيها السم بالعسل فما أكثر النظريات الباطلة وما أكثر الكلمات التي تتردد على ألسنة بعض المسلمين وهي باطلة [1] في الإذاعات وفي الصحف وفي المجلات بوعي أو بدون وعي في انسياق عجيب ثم يحتسب كل ذلك أنه من الإسلام أو أنه لا يتعارض مع الإسلام .

(١) مثل دعوى شرعية الديمقراطية ومثل قولهم : «إن المرأة نصف المجتمع ويجب أن تشارك الرجل وتعمل إلى جانب أخيها الرجل» . أو قولهم : «لا يجوز أن تبقى خاملة أو حبيسة الجدران» فهي دعوى لسلخها من دينها ولكنهم لم يصرحوا بذلك بل اكتفوا بتلك العبارات .

الفصل الخامس

هل يصح نسبة الفكر إلى الإسلام فيقال الفكر الإسلامي ؟

يبدو أن هذه المسألة التبس أمرها على بعض طلاب العلم فمنهم من منع هذا على الإطلاق ، ومنهم من لم يرَ به بأساً ، والذي يبدو والله أعلم أنه يجب معرفة أمر مهم ، وهو التفريق بين إطلاق كلمة (الفكر الإسلامي) مراداً به التشريع الإسلامي ذاته وأنه ناتج عن فكر ، وبين الحديث عن ما أنتجته عقول علماء الإسلام في شتى ميادين العلوم ، ذلك أن إطلاق كلمة الفكر الإسلامي على الإسلام ومبادئه الإلهية إطلاق غير دقيق ، بل ليس بصحيح ، فإن الإسلام ليس فكراً ناتجاً عن اجتهاد أحد وإنما هو تشريع الهي أنزله الله على نبيه ﷺ .

أما إذا أريد بالفكر الإسلامي ما كان ناتجاً عن اجتهاد وذكاء عقول المسلمين وإنجازاتهم في الأمور القابلة لذلك فلا حرج في إطلاقه إن شاء الله تعالى ، ومن هنا فلا يصح أن يفهم أن عبارة الفكر الإسلامي المقصود بها الإسلام ومبادئه الأساسية ، أو أن يكون بهذا المفهوم قابلاً للمقارنة بينه وبين الأفكار الوضعية الفكرية كأن يقال مثلاً المقارنة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي أو الشرقي أو أي فكر كان وبين الفكر الإسلامي في قضية كذا فإذا أريد بحث قضية ما بين الإسلام وبين غيره فلا يجوز أن نبحثها على ضوء الإسلام على أنه يمكن التوافق

بينهما أو التقارب بل على أن الإسلام يقول فيها حكمه الحق والعدل كما أمر اللّه تعالى سواء وافق الأفكار الأخرى أو خالفها دون أن نتكلف في الجواب أو نتملق أحداً لتقريب الفكر البشري الوضعي إلى حقيقة الإسلام ومبادئه تحت تسمية شمول الفكر الإسلامي ونحو ذلك من العبارات التي قد ينخدع بها المسلم من حيث لا يشعر فينجر إلى تمييع الحكم الإسلامي وإضاعته ربما بحسن نية . فإذا جاءت الكتابة عن المفاهيم الإسلامية المبتكرة تنادي بإنارة العقل وحل المشكلات وزيادة ثقافة المسلم وتوسيع مداركه وإشعاره بالجد في العمل وتحذيره من الغفلة أو اتباع الخرافات أو التحذير مما يقوله أعداء الإسلام من شبهات باطلة ودس كاذب على اللّه تعالى أو على رسوله ﷺ أو على كتاب اللّه تعالى أو سنة نبيه ﷺ فيجب أن تكون الكتابة صارمة والفكرة صحيحة غير متأثرة بأي اتجاه بشري فإذا جاءت الكتابة كذلك فإنها حينئذ تكون قد مثلت جانباً من جوانب التفكير العلمي الممدوح وقدمت صفة من صفاته المتعددة وخدمة مشكورة في بناء وإثراء الفكر لدى المسلمين عامة في شتى المجالات الدينية والدنيوية .

أما إذا كانت الكتابة بغير علم ولا هدى أو يُراد بها التملق أو الخداع أو تقريب الأفكار الباطلة إلى الإسلام فإنها لا يحق لها الانتساب إلى فكر علماء الإسلام وجهودهم كما فعله الكثير ممن كتب في هذا المجال عن تطور الإسلام ومرونته أو تقاربه مع الأديان الأخرى بزعمهم ، أو

كانت في شؤون سياسية بعيدة عن منهج الإسلام ويحاول كاتبها أن يلوي أعناق نصوص الإسلام لتنسجم مع رغبته في تقرير فكرته تلك فإنها عمل شخصي وليس هو المطلوب لإثراء العمل الإسلامي ، فهناك من يحاول أن يقدم الإسلام على أنه مرن جداً بحيث تتوافق نصوصه مع كل ما هب ودب من الأفكار ولا شك أن هذا خطأ فاحش ، وهناك من يقدمه على أنه سياسة أو اقتصاد ، وهناك من يقدمه على أنه ثقافة اجتماعية ، أو أنه حركات ثورية صاخبة ، أو أنه زهد وعبادة وانزواء عن الناس ... إلى غير ذلك من الأمور التي وقع فيها الكثير عن قصد وعن غير قصد ، وهذه التجزئة لمفهوم الإسلام قاصرة وغير مفيدة ولا تمثل حقيقة الإسلام الشاملة ومزاياه العديدة التي طرقت كل جوانب الحياة تحت عموميَّات شاملة وقواعد عامة يسبح في ظلها الفكر الإنساني في شتى مجالات قدرته على أنه - فيما يظهر - لا مَحذور أن نقتصر على إشباع جزئية ما وتقديمها على أنها من صميم الإسلام إذا كانت كذلك في مقابل الرد على من يزعم أن الإسلام لم يتطرق إليها أو أن المسلمين لا يعرفونها ولكن مع بيان أن الإسلام شامل وكامل في بيان جميع القضايا وأن تلك الجزئية إنما هي نقطة في محيط الإسلام مع ربطها ربطاً وثيقاً بالنصوص المؤيدة أو المانعة وذلك لئلا نُستدرَج في التوسع فنتقول على الإسلام ونتكلف التدليل ليتوافق مع الأفكار البشرية الوضعية ، ولا ريب أن الإسلام قد تطرق إلى كل ما يهم البشر في حياتهم ، ولا ريب كذلك

أن المسلمين كانت لهم جهود في خدمته قدموها ابتغاء مرضاة اللّٰه ونفع البشر من خلال اطلاعهم على مزايا الإسلام وخصائصه العظيمة التي كانت قابلة لكل ما يستجد في أذهانهم من علوم دينية أو دنيوية مستحدثة بحكم أن الإسلام هو آخر الديانات والمهيمن على الدين كله . وفي النهاية أعتقد أن ترك التعبير بكلمة الْمُفكِّر الإسلامي أو الفِكْر الإسلامي واستبدالها بكلمة التفكير عند المسلمين هو الأفضل .

الفصـــل الســـادس

معنى القول بأن التفكير العلمي في الإسلام مستحدث

وصف هذا الجانب من التفكير الذي اهتدى إليه علماء الإسلام بأنه مُستحدَث لا حرج في إطلاقه لأنه من نتاج جهود المسلمين العقلية واجتهاداتهم الفكرية على ضوء النصوص القابلة للاجتهاد فيها وإعمال الفكر ، وبالتالي تنوعت واختلفت مفاهيم العلماء فيها ومن المعلوم أنه لا قيمة في الإسلام لأي رأي لا يدور حول فهم كتاب اللَّه أو سنة نبيه ﷺ ، فقد انحرف كثير من الكتَّاب وجاءوا بأفكار وزعموا أنها إسلامية بينما هي بعيدة عنه كل البعد ، فلا يجوز أن تُحسَب تلك الأفكار على أنها تمثل الإسلام الذي أراده اللَّه في كتابه الكريم أو في سنة نبيه ﷺ ، وعلى حسب ما تقدم فليس المقصود بوصف الفكر الإسلامي أنه مُستحدَث وأنه قائم على هَوَى مَنْ أحدثه . وإنما المستحدث منه تلك الاجتهادات والاستنباطات التي تخدم تأصيل قضايا الإسلام وتقريب فهمها .

أما العوامل التي اقتضت وجود هذا التفكير المستحدث :

فقد وُجدت عوامل جديدة بالانتباه والملاحظة أسهمت في نشأة التفكير العلمي عند المسلمين وعلى ذلك النهج المميز ندركها من خلال ما يلي :

١ ـ حث اللّه في كتابه الكريم العقل وأثار فيه الرغبة الجامحة في التفكُّر في هذا الكون وما فيه من العجائب التي تدل على عظمة اللّه تعالى وعلى أن هذا العالم المحكم لا يمكن أن يوجد عن طريق نفسه أو الصدفة العارضة . وإضافة إلى هذا الجانب فإن حب الاستطلاع والبحث والنظر في الأمور واستنباط ما دقَّ فهمُه من النصوص كان هو الآخر حافزاً قوياً لإيجاد نواة التفكير لاستخراج البحوث العلمية وتنميتها على ضوء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [1]

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾ [2]

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [3]

ومما يتوجب لفت النظر إليه أن الإسلام مع إلحاحه على وجوب التفكر وإعمال العقل وتدوين ما يتوصل إليه في تَفهُّم كل شيء ومَدْح من يفعل ذلك ، فإنه لا يحث على ذلك لذاته ، وإنما يحث عليه لكي يتحصل الشخص على الثمرة المطلوبة وهي العمل وزيادة الإيمان باللّه

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٠
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥
(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٢

تعالى والاستدلال بالتفكُّر على كثرة آلائه على عباده . أما مجرد التفكير واستطلاع النتائج دون العمل الذي هو ثمرة التفكير السليم فإنه يُعتبر عَبثاً لا قيمة له مثله مثل مجرد النظر العابر إلى الأشياء .

٢ - انتشار الإسلام :

فقد كان لانتشار الإسلام السريع في بقاع الأرض حافزاً قوياً لعلماء المسلمين على الاهتمام بدراسة الكتاب والسنة وبيان ما فيهما من حكم وأسرار وأحكام واستنباطات فكرية لكل ما يستجد مع دقة المقارنة ليقف الداخلون في الإسلام على كل ذلك ، وقد أفاد المسلمون في هذا المجال وأثروا العلوم الإسلامية والمكتبات الإسلامية بذخائر أفكارهم التي تشهد لهم بالتفوق الفكري في خدمة الدين الحنيف وكان لعلومهم الثمرة المباركة في نشر الإسلام وتحبيبه إلى نفوس الناس وعرضه عرضاً جميلاً مهذباً .

٣ - احتكاك المسلمين بأصحاب العقائد المخالفة :

واطلاعهم على ما عندهم من أفكار أنتج الحاجة لدى علماء الإسلام إلى دراسة تلك الأفكار لليهود والنصارى أو غيرهم من أهل الأديان ورد الحُجَّة بالحُجَّة والرأي بالرأي مستخدمين ما أمكنهم من وسائل الإقناع والجدل القوي المعتمد على النقل والعقل والمقارنة الواضحة والتفكير السليم .

٤ ـ الحلول لما يستجد من الأقضية والحوادث :

خصوصاً في الأمور التي لا توجد عليها نصوص تبين أحكامها ومن هنا وجد علماء الإسلام أنفسهم في حاجة إلى الاستنباط والقياس السليم لإعطاء الحكم الشرعي في كل تلك الأمور المستجدة وكان لهذا الحال مردوده الإيجابي في إثراء الفكر عند علماء المسلمين وعرض أمور الدين بطريقة مثمرة .

٥ ـ ظهور الفرق :

كان لظهور الفرق التي تنتسب إلى الإسلام وما يقع بينها من اختلافات وخصومات وتعصب كل فرقة لرأيها واستغناء كل طائفة وفرحها بما لديها على حد ما أخبر به اللَّه تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [(١)] ، وما تلقيه كل طائفة من عرض أدلتها وشبهاتها كان لكل ذلك أثره المباشر على تفكير علماء المسلمين وتنوع مفاهيمهم لمواجهة كل الاختلافات والشبهات وتدوين العلوم لعرضها على الناس والاستفادة منها ، إذ كان كل فريق يدلي بأقصى ما لديه من حجج وأفكار على صحة اتجاهه ، وكل فريق يتمثل ما كان مشهوراً في خصومات الفقهاء من قول بعضهم (رأيُنا صواب يَحتملُ الخَطأ ورَأيُ غيرنا خَطأ يَحتملُ الصَّواب) ولا شك أن هذه التيارات كان لها تأثيرها على التفكير عند المسلمين وتنميته وصقله والرغبة في تدوين كل ذلك .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٣

الفصـــل الســـابع

شمول التفكير والبحث العلمي عند المسلمين لجميع أنواع العلوم والفنون

التفكير العلمي عند المسلمين ينبوع يمتاز بشموله فلم يقف عند جانب واحد من جوانب الفكر أو ناحية واحدة من نواحي العلم والمعرفة ، بل خاض بنجاح في جميع أنواع العلوم والفنون سواء أكانت علوماً نقلية أساسها الوحي ، كعلوم العقيدة والتفسير والقراءات والحديث والفقه ، أو كانت علوماً عقلية كالرياضيات والطب والكيمياء والأحياء والفلك ، أو كانت إنسانية كعلم النفس والاجتماع ، بل لقد كان لعلماء الإسلام اليد الطولي فيما يتعلق بالنواحي العلمية المحضة التي قد يظن البعض أن العلم الحديث المبني على المشاهدة والتجربة والاستنباط هو من ابتكارات الغرب فقط وليس من نتاج المفكرين المسلمين بينما خطأ هذا التصور ظاهر البطلان .

فإننا إذا تتبعنا الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية وجدنا فيها ما يملأ النفس إعجاباً وإكباراً لهؤلاء العلماء الذين كانوا مثلاً أعلى للنشاط العلمي بجميع معانية ، ومن يطلع على كتب الفهارس ، كطبقات الأطباء لابن أصيبعة ، وتاريخ الحكماء للقفطي ، والفهرست لابن النديم ، وكشف

الظنون في أسامي الكتب والفنون ، وكشاف التهانوي يقف على نشاط المسلمين العلمي وعبقريتهم الواسعة في مجال علوم الطبيعة والرياضيات وسبقهم إلى الاختراع والابتكار في شئون الجبر والهندسة والطب والفيزياء وغير ذلك مما كان له أثر واضح في اليقظة الأوربية [١] .

---

(١) الاتجاهات الفكرية العاصرة ، ص ١٦

الفصـــل الثـامن

المراحل التي مر بها التفكير والبحث العلمي عند المسلمين

مرّ التفكير العلمي بمراحل متعددة من تاريخ المسلمين كما يفيده التقسيم الآتي [(١)] :

المرحلة الأولى : وهي مرحلة البناء والصعود .

المرحلة الثانية : وهي مرحلة الركود والجمود .

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة التجديد والامتداد .

المرحلة الرابعة : وهي مرحلة الانحسار والتوقف .

أما المرحلة الأولى : وهي مرحلة البناء والصعود :

والمقصود بها تلك الفترة التي ازدهر فيها التفكير وأبدع فيها المفكرون من علماء الإسلام في جميع العلوم الشرعية منها واللغوية والأدبية وفي الرياضيات والعلوم ، ونبغ علماء كانت لهم آثار شاهدة بفضلهم إلى اليوم متمشين مع نصوص الكتاب والسنة متوخين خدمة الدين الإسلامي الحنيف بصدق وإخلاص وخدمة أمتهم بما قدموه لهم من شتى المعارف الدينية والدنيوية .

---

(١) الاتجاهات الفكرية ، ص ٢٤

وكان القرن الرابع الهجري هو خير مثال لقوة تلك الحركة الفكرية البناءة ، وعلماء هذه المرحلة كثيرون من أشهرهم :

في التفسير : محمد بن جرير الطبري .

في الحديث : الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما .

وفي الفقـه : الأئمة الأربعة وكبار أتباعهم .

في الأدب واللغـة : أبو إسحاق الزجاج ، وأبو منصور الأزهري ، وأحمد بن فارس ، وبديع الزمان الهمذاني ، وابن خالويه ، والخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، وابن السكِّيت . وغيرهم الكثير من العلماء الأعلام .

وقد ظلت حركة التفكير وظل الإنتاج العلمي صافياً قوياً إلى أن غزته الفلسفة اليونانية فكدَّرت صفاءَه وعدَّدت مساربه وأخذت تميل به يمنة ويسرة .

وقد بدأ ذلك الغزو مع بداية حركة الترجمة لكتب اليونان التي بدأت في منتصف القرن الثاني في عهد الخليفة العباس المنصور سنة ١٣٦هـ ، إلاَّ أنها ظلت ضعيفة إلى أن قوَّاها المأمون الخليفة العباس الذي احتضن حركة الترجمة وقواها .

وقد ذكر العلماء قصة في ذلك فقيل : إن المأمون طلب من ملوك الروم كتب حكماء اليونان فأرسلوا إليه مؤلفات أفلاطون وأرسطو وسقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس كهدية فأمر المأمون بترجمتها في غاية

الاهتمام وحثَّ الناس على دراستها ، فأفسد بها مفاهيم المسلمين وعقائدهم من حيث كان يتصور أن فيها نفعاً ، واللَّه أعلم به ، وقد استمرت حركة الترجمة بعد وفاة المأمون حتى أصبحت الدولة العباسية منافسة للدولة الرومية في هذه العلوم وخصوصاً كتب أرسطو التي انتشرت بقوة في الدولة الإسلامية أكثر من غيرها .

وهنا يأتي سؤال ملح وهو : ما هو موقف علماء الإسلام من تلك العلوم ؟

والجــواب : أن علماء المسلمين قد اختلفت أنظارهم أمام تيار الفلسفة اليونانية بين معجب بها ورافض لها ومتحير تجاهها .

١ - أما الفريق المعجب بها فقد اعتنق منهجها الفلسفي ونظامها الفكري وذهب يحاول التوفيق بين المفاهيم الإسلامية وبين الفكر اليوناني ، كالفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم .

٢ - وأما الفريق الثاني : فقد وقف رجاله في وجه تلك الفلسفة اليونانية ورأوها شراً مستطيراً ، وخصوصاً في النواحي العقدية فتناولوها بالنقد والردود ، ومن هؤلاء الغزالي [(١)] الذي ألَّف في الرد عليها كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» الذي جعل ابن رشد يرد عليه في كتابه «تهافت التهافت» ، ومنهم أبو البركات البغدادي الذي ألَّف

---

(١) لعل الغزالي كره نوعاً من تلك الفلسفات وإلا فهو فيلسوف صوفي .

كتابه «المعتبر» حيث بطل فيه كثير من أفكار أرسطو ، إلى أن جاء الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية فأجهز على أباطيل تلك الفلسفة بالأدلة والبراهين القوية وكان له الباع الطويل في ذلك .

٣ ـ أما الفريق الثالث وهم : الذين وقفوا بين بين فلم يؤيدوها ولم يرفضوها وإنما كان لهم موقفهم الخاص تجاهها فهم رفضوا المحتوى الفكري لهذه الفلسفة بصفة عامة ولكنهم أخذوا منهجها المنطقي واستخدموه كوسيلة للاستدلال على صحة العقائد الإسلامية ، وهؤلاء هم علماء الكلام ، وقد أُخِذَ عليهم توغلهم في التأثر بتلك الفلسفة حتى أصبحوا يتبعون نفس أساليب الفلاسفة في البحث والاستدلال في المسائل العقدية الغيبية فتعقَّدت المفاهيم فيها خصوصاً في مسائل الصفات واستخدام أساليبها ومقدماتها ومصطلحاتها الناقصة لإحقاق الحقائق الغيبية فعقَّدوا السهل وجعلوا الواضح السهل في العقائد التي جاء بها الإسلام في غاية الوضوح جعلوها في غاية الغموض لتأثُّرهم بطرق الفلسفة اليونانية في طريقة الاستدلال الذي يفتح الثغرات ولا يجد لها مسدًّا صحيحاً .

هذه خلاصة ما يتعلق بالمرحلة الأولى من المراحل التي مر بها التفكير والبحث العلمي في تطوراته وما أحدثته الفلسفة في مساره من اصطلاحات ومفاهيم كان في غنى عنها .

المرحلة الثانية : وهي مرحلة الركود والجمود:

وبعد أن بلغ التفكير والبحث العلمي أوَجَّ قوته في القرن الرابع إذا به في القرن الخامس الهجري يمر بفترة ركود وجُمود ، فكانت أبرز خصائص التفكير والبحث العلمي في هذه المرحلة كما يلي :

١ ـ لم يعد الإسلام هو المصدر الوحيد لبعض الباحثين المسلمين ، ذلك أن الفلسفة اليونانية قد طغت على عقول المفكرين وتأثروا بما فيها من آراء في الذات الإلهية والسلوك فأصبحت مصدراً جديداً مع أن هذه الأمور ليست من شأن الفلسفة بل اقتحمت البحث فيها اقتحاماً باطلاً وخرجت عن طورها الذي كان قاصراً على الرياضيات والطبيعيات فقط إلى البحث في الأمور الغيبية التي لا تدرَك إلاَّ بالوحي ، وإذا بهم يقعون في متاهات الضلال ولهذا عرف بين المفكرين في هذه المرحلة خروج الفكر عن طريقه السليم ليدخل متاهات خرافية وتفكيراً باطلاً ، كالتصوف ومعرفة السحر والطلسمات وفنون الخرافات وأسرار الحروف ، وما تبع ذلك من القول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد والتعلق بالأولياء لدفع الشدائد وجلب المنافع مكتفين بالرجوع إلى تلك الفلسفة الممقوتة عن الاهتداء بكتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ وأنَّى لها أن تعطيهم ما لا تملكه ؟

٢ ـ ولما جاء القرن السابع وكانت الأفهام قد تبلدت وعلوم الكتاب والسنة قد تُركَت للتبرُّك فقط بدأ مبدأ الاجتهاد والاستنباط يتلاشي قليلاً قليلاً إلى أن وصل إلى الانسداد التام ، حيث صرح أولئك بعدم جواز

الاجتهاد والاستنباط ووجوب التمسك بما قرَّره أصحاب المذاهب الفقهية في القرون السابقة فتعصَّب كلُّ فريق لإمام من أئمة المذاهب الأربعة وغيرها ، وظهر الخلاف وبعدت الثقة بين آراء المسلمين ، ولقد كان الاجتهاد في أوج قوة نشأة المسلمين العلمية هو الدافع القوي والنبع الفيَّاض لحركة العلوم الفقهية وإثرائها بمختلف الحلول الفقهية على ضوء الكتاب والسنة .

٣ ـ كان للفكر الأجنبي الغير إسلامي وعلوم المنطق والفلسفة ثقل كبير على مفاهيم المسلمين الفكرية ومن هنا أخذت تلتوي به المسارب وتتعدد به الاتجاهات . وبرز علم الكلام المذموم كشاهد قوي على مدَى تأثر المسلمين بتلك العلوم المترجمة فتحوَّل علم الكلام إلى مجموعة من الأقيسة المنطقية والدراسات العقلية المعقَّدة الجامدة فوصل علم الكلام ـ لجهل أهله ـ إلى بحث أمور لم تكن تُبحَث في عصر السلف الأول لظهور أمرها ، بل كانوا يعدُّون الخوض فيها من وساوس الشيطان ، كبحث كيفيَّات الصِّفات ، وهل إثبات الصفة يستلزم التعدُّد والتركيب ، وهل يجوز على اللَّه التجزُّؤ والتبَعُّض ، وحينما نُسبَت الصفات له تعالى ، وهل لصفة عين الموصوف أو غيره ، وهل الاسم هو عين المسمى أو غيره ، وغير ذلك مما جاء به علم الكلام الذي أفضى بكثير من معتنقيه إلى الزندقة والإلحاد ومحاربة العقائد الإسلامية الصحيحة وإحلال خُزَعبلات تلك الأفكار المترجمة الآسنة محله .

ولولا أن اللَّه قيَّض علماء في مقابل أولئك أناروا الطريق للمسلمين وبيَّنوا خطر وضلال دعاة علم الكلام لكان حال المسلمين من جرَّاء ذلك أتعس حال .

٤ ـ من المؤثرات القوية في تفكير المسلمين وتلوين بحوثهم دخول كثير من أهل الديانات القديمة في الإسلام ، كاليهود والنصارى والمجوس والوثنيين وغيرهم ، ويتضح أن هؤلاء لم يكونوا على طريقة واحدة ، فبعضهم دخل في الإسلام عن رغبة ولكنهم لم يتخلصوا من موروثاتهم القديمة عن دياناتهم السابقة فأثاروا كثيراً من معتقداتهم ومزجوها بحقائق الإسلام فاختلطت آراؤهم ومفاهيمهم بآراء المسلمين ووصل الأمر إلى دخول تلك المفاهيم في شروح القرآن الكريم وفي عرض القصص وسرد الإسرائيليات وإلى كثير من الآراء المختلفة .

والمثال على ذلك ما تجده في كتب التفسير من الاعتماد على الإسرائيليات خصوصاً ما نُقلَ عن وَهْبِ بن مُنَبِّه الذي كان يهودياً وأسلم فتساهل بعض المسلمين بالأخذ عنه وعن غيره فنقلوها في تفاسيرهم وتواريخهم كما رَواها لهم هؤلاء الذين أسهموا في ركود البحوث العلمية والتفكير الصحيح بقصد أو بغير قصد .

وفريق آخر دخل في الإسلام ظاهراً ولكنهم كانوا يبطنون له العَداوَة ويُبيِّتون له نيَّة السوء ليُفسدوا على المسلمين دينهم وعلى رأس هؤلاء عدو اللَّه ابن سبأ اليهودي وما خلَّفه من أفكار فاسدة أنتجت الفكر الرافضي .

المرحلة الثالثة : مرحلة التجديد والامتداد :

والمراد بها تلك المرحلة التي عادت بها حركة التفكير والبحوث العلمية قوية نشطة بعد ذلك الجمود والركود الذي مرَّ بها ، وقد قامت هذه الصحوة الجديدة الجديَّة على أكتاف علماء مخلصين في القرنين السابع والثامن الهجريين وشملت تلك الحركة مختلف الفنون .

وممن اشتهر فيها من العلماء ، وهم كثيرون :

ابن الصَّلاح ، والنَّوَوي ، والذَّهَبي ، والشَّاطِبي ، والعِزُّ بن عبد السَّلام ، وابن دَقيق العيد ، والْمُزِّي ، والسُّبْكي ، وابن خَلدون ، وأبو حيَّان .

وقد كان لهم أثر بارز في إثراء البحوث الإسلامية بمؤلَّفاتهم ولقد كانت هناك شخصية بارزة كان لها الدور المميز في ذلك ، إنها شخصية صاحب المنهج السليم والفكر المستقيم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه الذي كان لجهوده ونشاطه الدائب في خدمة الإسلام الأثر الواضح إلى يوم القيامة إن شاء اللَّه تعالى .

وتتمثل جهوده الفكرية رحمه اللَّه فيما يلي :

١ ـ العودة بالفكر وبالبحوث العلمية إلى ينابيعها الأولى ومصادرها الصافية من الكتاب والسنة ودعوة المسلمين للأخذ بهما باعتبارهما المصدرين الأصليين للإسلام .

٢ ـ مهاجمة الفكر الفلسفي الوارد والرد على أقوال اليونان ومذاهبهم الفكرية رداً علمياً والتحذير من سلوك تلك الطرق في البحوث العلمية .

٣ ـ فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدامة كالباطنية وفروعها المختلفة من إسماعيلية ودرزية ونصيرية وصوفية .

٤ ـ محاربة أهل البدع والأهواء والدعوة إلى الدين الخالص والتوحيد النقي .

٥ ـ محاربة الجمود والتبعية اللذَين كانا قد تسربا إلى تفكير المسلمين في ذلك العصر ، والمناداة بفتح باب الاجتهاد للملائمة بين ظروف الحياة وروح الشريعة .

وقد اعتبر العلماء الحركة الفكرية التي انتعشت في القرن الثامن الهجري ثمرة جهود شيخ الإسلام بمؤلفاته التي أثرت التفكير الصحيح الأصيل في جميع المجالات .

وخير مثال على ذلك ما تجده في مؤلفاته الواسعة مثل :

١ ـ ما جمعه العلماء من فتاويه التي بلغت خمسة وثلاثين مجلداً .

٢ ـ كتابه «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» .

٣ ـ كتابه «منهاج السنة» .

٤ ـ كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» .

٥ ـ كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» .

٦ ـ كتابه «الرد على المنطقيين» .

وغير ذلك من مؤلَّفاته التي أغنت المسلمين في شتى المجالات والفنون وأصبح من جاء بعده عالة عليه وشتى العلوم والفنون .

المرحلة الرابعة :

مرحلة الانحسار والتوقف بعد ذلك النشاط الذي وجد في المرحلة الثالثة بدأ الجمود والركود يعود إلى مفاهيم المسلمين مرة أخرى في القرنين التاسع والعاشر الهجريَّين .

وقد بدت مظاهر هذا الجمود والانحسار كما يلي :

١ ـ بدأ الجمود في الحركة الفقهية التي ازدهرت في عصر الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب والموسوعات الفقهية الغنية بالاجتهاد والاستنباط في حل المشكلات الفقهية على ضوء الكتاب والسنة والفهم الصحيح ، حيث خلفهم أقوام قصرت أفهامهم عن مواصلة ذلك النهج فإذا بهم يقتصرون على ما يجدونه من المدَوَّنات السابقة ، وليس هذا فقط ، بل وتعصَّبوا لما وَجدوه أو لما فهموه منها دون أن يبذلوا الجهد في عرض ما فهموه على الدليل أو مقارنة فهمهم

بمفاهيم العلماء الآخرين الذين لم يتعصبوا لهم ، فتعطلت ملَكة الاجتهاد والإبداع ، ولم تعد المفاهيم الجديدة قادرة على حل المشكلات الفقهية الطارئة فهماً صحيحاً مقارناً .

٢ ـ انكمشت الأبحاث العلمية المتعلقة بالكون وسننه فأُهملت دراسة العلوم الرياضية التي ابتدعها علماء الإسلام ، كالجبر والمثلثات وغيرها ، وأُهملت أبحاث الكيمياء والفيزياء كعلم البصريات وغيره من العلوم التي اشتهر فيها أعلام عالميون كالبَيْروني وابن سينا والخوارزمي ، وكذلك علوم الطب والفلك وعلوم تقويم البلدان ، وغير ذلك من أنواع العلوم التي عجز عن فهمها والاستفادة منها المسلمون بعد أن سرى فيهم الضعف الفكري .

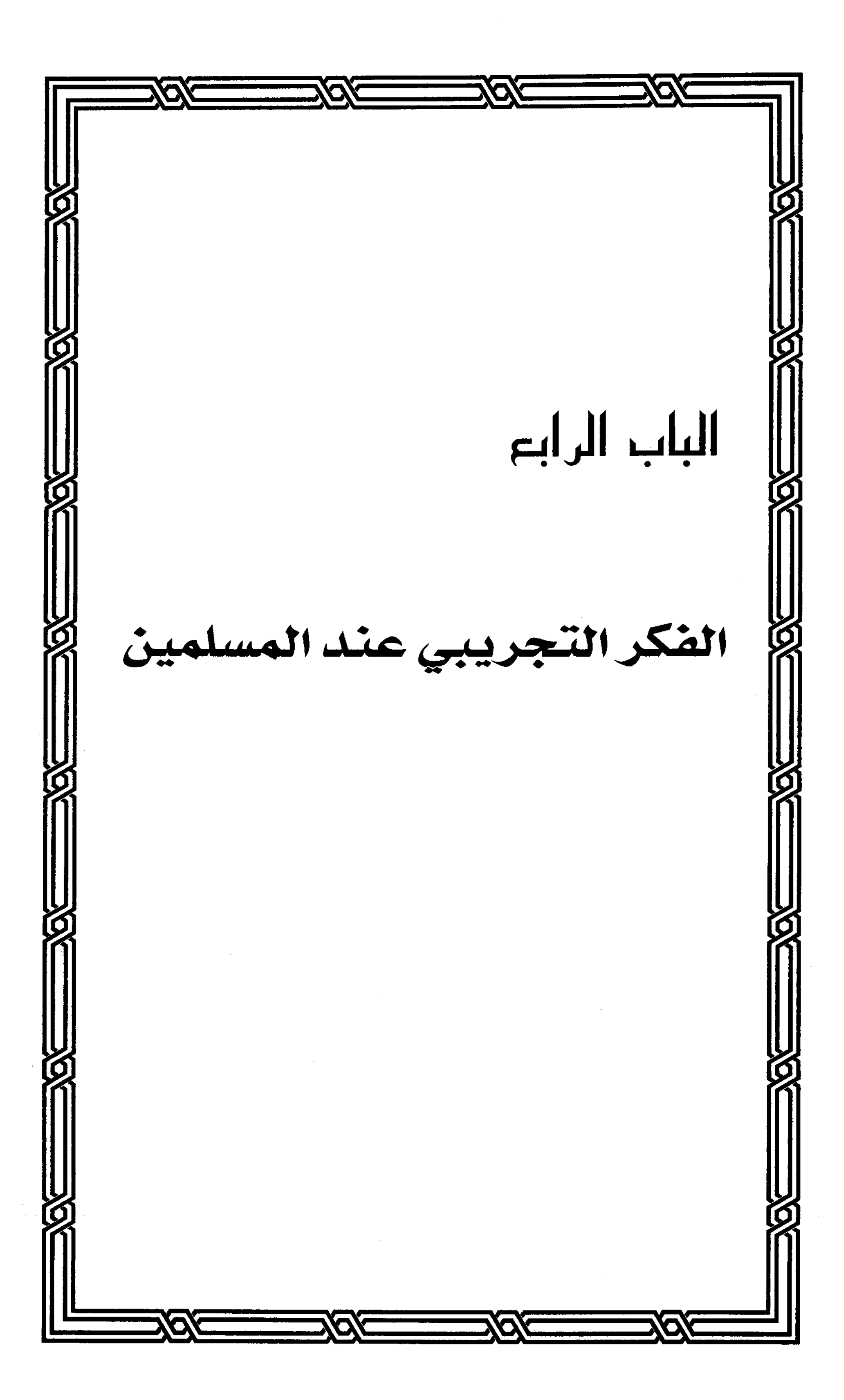
٣ ـ انحسرت الحركة الأدبية وانحط الذوق الأدبي فلم تعد العصور الأخيرة تخرج أعلاماً في الأدب ، كابن المقفَّع وابن قتيبة والجاحظ وأبو حيان التوحيدي وأمثالهم من رواد الفكر الأدبي وظهرت ثقافة هزيلة في الأدب قريبة إلى العامِّية .

٤ ـ انحسرت العلوم الإنسانية ، كعلم العُمران ومعرفة الأقوام التي سبق فيها المَسعودي والبَيْروني وابن خَلدون .

٥ ـ سادت بين المسلمين أفكار منحرفة أبعدتهم عن المشاركة الجادة في الحياة الاجتماعية وجعلتهم أسرَى الانعزالية والتفكُّك العقدي

والاجتماعي وحلَّت الأفكار السلبية في كل شؤون الحياة محل العمل المثمر وحلَّ الكسل والخُمول محل النشاط وحلَّ التواكُل والخُمول محل التوكُّل والعزم وصارَ الزُّهّد فِراراً وكَسلاً والوِلايَة غدت كرامات خارقة وادِّعاءات فارغة جَوفاء .

والقضاء والقدر تحول من قوة دافعة إلى استسلام وتعلُّل سافر للأخطاء والخطايا ، وكانت النتيجة أن انسحب المسلمون من مجالات الريادة والقيادة في الحياة وتركوها لغيرهم وصاروا هم ذَيلاً للأمم إلاَّ من رحم اللَّه منهم .



الباب الرابع

الفكر التجريبي عند المسلمين

البـــاب الــرابـــع

الفكر التجريبي عند المسلمين

وتشمل دراسته الفصول الآتية :

تمهـــــــيد :

الفصل الأول : معنى الفكر التجريبي .

الفصل الثـــاني : موقف الإسلام والمسلمين من الفكر التجريبي .

الفصل الثـــالث : الاستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية من العلوم التجريبية والمكتشفات .

١ ـ من القرآن الكريم

٢ ـ من السُّنَّة النَّبويَّة

الفصل الرابـــع : موقف أهل أوروبا من العلم التجريبي .

الفصل الخامس : موقف المستشرقين من دور المسلمين في العلم التجريبي .

الفصل السادس : جهود علماء المسلمين في المجالات التجريبية .

الفكر التجريبي

تمهـــيد :

كان الفكر التجريبي أحد سمات مظهر الرقي وجودة الملاحظات عند المسلمين في الوقت الذي كان غيرهم لا يعبئون به ولا يستفيدون منه فكان لعلماء المسلمين فضل السبق في هذا الميدان ، وكان لهذا الفكر أثره الواضح في زيادة الإيمان باللَّه تعالى والاعتراف بنعمه عزَّ وجلَّ لاتفاقه مع ما تدعو إليه النصوص من كتاب اللَّه تعالى ومن سنة نبيه ﷺ ، إذ لا توجد أدنى معارضة بين المكتشفات التجريبية وبين الإيمان باللَّه تعالى فإن العلم يدعو إلى الإيمان ويقوي بعضهما بعضاً في ترابط وانسجام تامَّين ، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل لوضوحها في الواقع وتوافقها مع العقل ، ولم يكن يدور في خلد أي مسلم أن الاكتشافات تدلل على إنكار وجود اللَّه تعالى ، أو إنكار الأديان أو تكذيب الأنبياء إلا عند من فسدت فطرُهم وانحلَّت أخلاقُهم وشذَّت أفكارُهم من حُثالة الناس وسُفهائهم من الملاحدة الفجَّار الذين قلبوا الحقائق وعاندوا الواقع وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه .

الفصــل الأول

معنى الفكر التجريبي

يقصد بالفكر التجريبي الوصول إلى معرفة الأمور عن طريق التجارب والملاحظات الدقيقة والفكر الصائب الناشئ عن العقل السليم الذي يطور الأمور من جديد إلى جديد ، وهكذا .

ولا أدلَّ على هذا مما تراه من الصناعات العملاقة التي قامت في البداية على تجارب بسيطة شيئاً فشيئاً إلى أن اكتملت ، ولا يزال المفكرون أصحاب العقول يأملون أن يصلوا إلى رقي المستويات بما يقدمونه من تجارب نافعة ودراسات شاملة يغذي ذلك عوامل كثيرة من حب السيطرة ، أو جمع الأموال ، أو تقديم خدمات للبشر ، أو للظهور ، أو لغير تلك الأمور .

ولقد وصل الغرب النصراني والشرق الشيوعي إلى أبعد الحدود في الانتفاع بتلك التجارب وتقديم خدمات للبشر تفوق التصور في الوقت الذي انكمشت فيه تلك المظاهر في بلدان العالم الإسلامي الذين أصبحوا عالة على من سواهم يتبجَّحون بعزَّة النفس والأَنَفَة وهم أبعد ما يكون عنهما ، والواقع خير شاهد ، والأمل في اللّه تعالى قوي أن يستعيد المسلمون مجدهم وحضارتهم .

ومما سبق يتضح لك الفرق الدقيق بين المقصود بالبحوث العلمية وبين الأفكار التجريبية ، وكلاهما ينبعان من المصدر الكبير لهما وهو العقل ودقة الملاحظات والعمل الدؤوب ، إلا أن الأول يبحث عن مستويات جهود علماء المسلمين ومدى ما وصلوا إليه في بيان كل الأمور التي تتعلق بالدين وشروح ما فيه من حكم وأحكام وكذا الدفاع عنه وما دوَّنوه في ذلك ، بينما الثاني يبحث عن مدى ما وصل إليه العقل في معرفة الأمور التي تقوم على التجارب ودقة الملاحظات والاستنباطات ومعرفة الفوارق بين أجزاء المسألة الواحدة أو دَمجها مع الأجزاء الأخرى واستظهار النتائج ، وقد عرفت أن نشأة هذا العلم كان على أيدي المسلمين حيث نبغ منهم أفذاذ كثيرون كانت لهم الباع الطويلة في هذا الميدان يشهد بهذا ما خلَّفوه من مؤلَّفات وفيرة كانت هي السبب الأول في نشأة التقدم الصناعي في العالم الغربي حينما أكبُّوا على دراسة هذا الجانب عن المسلمين وطبَّقوه عملياً ، بالإضافة إلى ما استفادوه كذلك من شتى الحضارات الأخرى .

الفصـل الثـاني

موقف الإسلام والمسلمين من الفكر التجريبي

أولاً : الأدلة من القرآن الكريم

لقد أمر اللّه الإنسان بالتفكير في أكثر من آية في كتابه الكريم وحث على المعرفة النافعة والعلم المفيد وقد امتن اللّه على الإنسان بأنه علّمه البيان - القراءة والكتابة - وجعلهما من صفات الإنسان الخاصة به من بين سائر المخلوقات التي تشاركه السكنى في هذه الأرض فقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ (٢)

وأمر الإنسان أن يفكر في كل شيء في هذا الكون ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ (٣)

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات : ١ ـ ٤

(٢) سورة العلق ، الآيات : ١ ـ ٥

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾[١]

وقد ذمَّ سبحانه وتعالى الجهل والجهال فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾[٢]

وذمَّ الغفلة في آيات كثيرة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) ﴾[٣]

وقال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) ﴾[٤]

وذمَّ الذين يتبعون أهواءهم أو يقلدون غيرهم من الناس دون أن يسألوا عن الحق أو يفكروا في طلبه فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾[٧] .

(١) سورة يونس ، الآية : ٢٤
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٩
(٣) سورة يونس ، الآية : ٧
(٤) سورة النحل ، الآية : ١٠٨
(٥) سورة القصص ، الآية : ٥٠
(٦) سورة الروم ، الآية : ٢٩
(٧) سورة البقرة ، الآية : ١٧٠

وسبب هذا الذم أن اللَّه تعالى أعطاهم العقول التي يجب أن يستفيدوا منها في معرفة الحق وفي معايشهم والطرق المؤدية إليها ، وأن عليهم أن يسخِّروا حَواسَّهم كلها لمعرفة ذلك وأن يجنِّبوها الطرق الضالة لأن وراءها مسئولية كما قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا (٣٦)** ﴾[1] .

واللَّه تعالى في القرآن الكريم يحث على الاستفادة من سائر العلوم التجريبية ويجعل لها أهمية ، وأنها تسير إلى جانب العلوم العقدية جنباً إلى جنب ، فإن العلم يدعو إلى الإيمان ، وكل المكتشفات لا محظور فيها ما دامت مرتبطة بالإيمان باللَّه وبإرجاعها إلى قدرة اللَّه تعالى وشكره عليها ـ كما قيل ـ وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ، وهذا هو الذي كان عليه العلماء السابقون من المسلمين حيث لم يصرح أحد منهم بأن المكتشفات العلمية التجريبية تتعارض مع الإسلام ، بل كان الأمر بالعكس فإن المكتشفات كانت تزيدهم إيماناً بربهم وبقدرته وعظمته .

وظل الأمر كذلك حتى تأخَّر المسلمون ونبغ الملاحدة فزعموا أن تلك المكتشفات كلها تدل على نبذ الدين الذي تمثل في طغيان رجال دين النصارى والهوى والجهل الذي أصابهم والغرور الذي ملأ نفوسهم إثر تلك الاكتشافات التي هي من ظواهر الحياة الدنيا .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦

ولقد اكتشف علماء الإسلام كثيراً من المعلومات التي لم تكن معروفة في السابق أشار لها في القرآن الكريم إشارةً لم يهتدِ إليها العلماء ، وقد جعل اللَّه الاكتشافات التجريبية حُجَّة على كل شخص ، كما أجرى الكثير منها على أيدي غير المسلمين وقد أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك فقال في كتابه الكريم : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)** ﴾ (١) ، وللَّه الحُجَّة البالغة .

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣

الفصل الثالث

الاستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية في العلوم التجريبية والمكتشفات

لا محظور من الاستفادة من الآيات القرآنية على الدلالة على المكتشفات التجريبية بل هو أمرٌ مطلوب ومرغَّبٌ فيه ، وإنما المحظور الذي لا ينبغي السير فيه أن يتعسف الشخص معاني الآيات ويقحمها للتدليل بها على أي اكتشاف كان ، والجزم بأن الآيات تدلُّ على ذلك الشيء بعينه لئلا يؤدي ذلك على التفسير بالرأي والهوَى ، فإن الاكتشافات كلها تجريبية بشرية وقد دلَّ كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه ﷺ على أشياء كثيرة منها ولكن القول بأن القرآن الكريم أو السنة النبوية قد دَلاَّ على أن أي مكتشف بعينه يهتدي إليه الناس قد ورد فيهما ولا بد ، هو تكلف واضح حيث يجعل اكتشافات الناس كأنها هي الأصل والوحيين مجرد شاهدين على صحة المكتشفات أمر فيه نظر وربما يهدف هؤلاء الذين يربطون كل مكتشف بأنه وارد في القرآن الكريم ، لعلهم يهدفون إلى التدليل على معجزات القرآن الكريم ، ولكن يُقال لهم إن القرآ الكريم بذاته معجزة كبرى سواء اتفق مع المكتشفات أم لا .

وهذه النظرة خطأ لا ينبغي أن يقع فيه المسلم وهو أن بعضهم إذا سمع من الكفار ما قد دل عليه القرآن الكريم أو السنة النبوية يكاد يطير فرحاً ويقول وهذا دليل على أن القرآن حق والنبي ﷺ حق ، وكأننا في شك من أمر ديننا ، فلهذا يجب أن نفخر عليهم ونقول لهم أن ما اكتشفتموه اليوم

قد دلَّ عليه كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ قبل مئات السنين ، ونقول لهم إنا نصدقكم لأن هذا أمر قد علمناه من كتاب ربنا أو من سنة نبينا ﷺ أو اهتدى إليه علماؤنا من قبل ، فلا نجعلهم أساتذتنا في كل ما يقولونه أو يكتشفونه وأنه لا علم لنا إلا ما علَّمونا بل نفتخر عليهم بما علمناه من ديننا في الأمور التجريبية والعلمية مثل اكتشافهم جراثيم العَدوَى ، وما في الذُّباب من داء ودواء ، وأن الصعود إلى العلو فيه إرهاق للنَّفَس لانعدام الجاذبية ، وغير ذلك مما سبق إليه الإسلام .

إن الإسلام يحث على التعلم ويحث على التعليم أيضاً ويحث على التفكير بكافة قضاياه دينياً ودنيوياً ولا فرق في الإسلام بين وجوب المعرفة للأمور الدينية أو الدنيوية في حدود أهمية كل منهما ، فنجد في القرآن الكريم طريقة فريدة في خطابه للإنسان إذ يجعله هو نفسه وما يحيط به في هذا الكون مظهراً من مظاهر العظمة ، ونقطة الانطلاق لمخاطبة الفكر الإنساني وقيادته إلى التأمل في هذا الكون بجميع مظاهره العلوية والسفلية ، وأن يستخدم الإنسان كل قواه الفكرية وحواسه لمعرفة ما في هذا الكون من حقائق وسنن ، فتارةً يشير له إلى النظر والتأمل في عجائب خلق السماوات والأرض ، قال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)** ﴾ [1] .

(١) سورة يونس ، الآية : ١٠١

وتارة يشير له إلى التأمل في مصدر رزقه وكيف يقع ، قال تعالى : ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)** ﴾[1] .

وتارة يشير له إلى وجوب التفكر في حقيقة الإنسان نفسه مع مقارنته بخلق ما هو أعظم منه ، قال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)** ﴾[3] .

وغير ذلك من الصور المختلفة التي وردت في القرآن الكريم في تقريب كل ما يشاهده الإنسان في هذا الكون إلى فكره وتفسيره بأبسط الصور الواضحة مع إفهام اللّه تعالى في القرآن الكريم للفكر البشري أن كل ما يُلاحظه الفكر لهذا الوجود إنما وجد بعناية وحكمة ودقة في الصنع ، وإلا كان الوجود عبثاً والفكر السليم لا يقبل العبث بحال ، بل أن كل

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ ـ ٣١
(٢) سورة الروم ، الآية : ٨
(٣) سورة غافر ، الآية : ٥٧

شيء مقدر وموزون بعناية واضحة ، كحال الشمس والقمر ، ووضع النجوم ، وتسيير السحاب والرياح المختلفة ، وتناوب الليل والنهار ، والحياة والموت ، وتقلب الأحوال بالمخلوقات على اختلافها . كلها آيات تدعو الفكر إلى التأمل والتجربة المباشرة لإحساس هذه المعاني بكل قوى الإنسان المعنوية والمادية ، فلا حجر في القرآن على العقل ما دام يسير في طريقه السليم .

ثانياً : الأدلة من السنة النبوية

١ ـ جاءت السنة النبوية متوافقة مع ما بيّنه اللّه في القرآن الكريم من الدعوة إلى التفكير التجريبي القائم على العلم ودقة النظر واستبعاد كل تفكير خاطئ .

٢ ـ وحثت السنة على تفهم كل أسباب بقاء الحياة ومعرفة أسرارها والاستفادة من التجارب فيها وقد قال الرسول ﷺ للصحابة حينما أشار لهم إلى ترك التأبير للنخل فتركوا التأبير فلم يثمر النخل إلا بلحاً رديئاً قال لهم حينما علم ذلك : «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُم**»[1] ، أي فما جرَّبتموه ونجحتم فيه ، فلا حرج عليكم في فعله ما دام قد ثبت بالتجارب أنه مفيد وناجح وليس فيه محذور ولا مخالفة شرعية ، وهذه بلا شك دعوة واضحة للمسلمين إلى التفكير التجريبي .

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ١٨٣٦ .

٣ ـ كما حثَّ المصطفى ﷺ على إعمال الفكر فقال تشجيعاً له : «**إذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**» (١) .

وكان الرسول ﷺ يرفض أيّ فهم أو فكر خاطئ لا يقوم على الحقيقة والصدق بل يرده ويبينه فور وقوعه ، كما حصل حين انكساف الشمس يوم وفاة ابن الرسول ﷺ إبراهيم ـ قَدَراً ـ فعلَّلوا ذلك بفكرهم أنها كُسفت لموت ابن الرسول فقام ﷺ خطيباً وقال لهم مُصحِّحاً هذا الخطأ الفكري : «**إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُرِيهِمَا عِبَادَه**» (٢) .

كما نجد في السنة النبوية حرباً لا هوادة فيها على الأوهام الفكرية الخاطئة التي تدعو إلى الباطل وطمس الحق ، كالخرافات والشعوذات السحرية ، قال ﷺ : «**مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» (٣) .

وعن الرُّقَى والتَّمائم يقول ﷺ : «**إنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتوله شِرْكٌ**» (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري جـ ٦ ص ٢٦٧٦ ومسلم جـ ٣ ص ١٣٤٢ وغيرهما .

(٢) أخرجه البخاري جـ ١ ص ٣٦٠ ومسلم جـ ٢ ص ٦٢٠ بلفظ (يخوف اللَّه بهما عباده) .

(٣) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ١٧٥١ .

(٤) أي الرقى الشركية لا الشرعية. والحديث أخرجه البيهقي جـ ٩ ص ٣٥٠ وأبو داود جـ ٤ ص ٦ وغيرهما .

وكذلك نهيه ﷺ عن التطير [(١)] ، والعيافة [(٢)] ، والطرق [(٣)] .

وهكذا تجد أن الإسلام يحرر الفكر من كل الشوائب التي تضره وتضله ولا توصله إلى نتيجة تنفعه وتنفع غيره ، ويحثُّ على سمو الفكر والغوص في معرفة العلوم الصحيحة أياً كانت ، بل ووعد بالأجر والثواب على سلوك هذا النهج حين أخبر أن للمجتهد المصيب أجران وللمجتهد المخطئ أجر واحد [(٤)] ، مما كان له الأثر البالغ في توجُّه علماء الإسلام إلى الابتكار والاختراع في مجال العلوم الطبيعية والكونية والرياضية وغيرها .

ومن هنا وجد أولئك العلماء التشجيع المعنوي والفكري الذي لا ينضب في مواجهة كل الأفكار ، وعرضها على الفكر الإسلامي ، وبالتالي تخطئتها أو تصحيحها وتصفيتها ، ولم تقتصر جهودهم التصحيحية على دين دون دين أو علم دون علم ، بل بيَّنوا كلَّ ذلك أكمل بيان وأصدقه ، وبالتالي وجد علماء الأديان الأخرى الحرية التامة في انطلاقتهم من قيود أديانهم المنحرفة وحجرها على الفكر ، كما هو حال اليهودية والنصرانية وسائر طوائف الضلال ، أفسح الإسلام المجال في أعمال الفكر والاستفادة من كل ما يهتدي إليه .

---

(١) أي التشاؤم بالطير وأصواتها .
(٢) أي الاستدلال بطيران الطائر على الخير والشر .
(٣) الضرب بالحصى لمعرفة الغيب .
(٤) سبق تخريجه .

أما بالنسبة للعالم الغربي فلقد تأثرت أوربا [(١)] بالفكر التجريبي عند علماء المسلمين ـ كما تقدم ـ واستفادوا من علومهم في شتى المجالات من العلوم الرياضية والطبيعية ، ويذكر أن أشهر من تأثر بالفكر التجريبي عند المسلمين من علماء الغرب «جاليليو» الإيطالي الذي تأثَّر بـ «ابن الهَيْثم» في آرائه عن الضوء وعلم البصريات الذي قرَّره ابن الهيثم ، كما تأثر بهم «فرنسيس بيكون» في علمه التجريبي ، و «ديكارت» ومبدأه في الشك عن «الغزالي» ، ونقل الغربيون علم الجبر والمثلثات والعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة وعلم مقارنة الأديان عن المسلمين [(٢)] .

---

(١) وينبغي أن تدرك أنه (ليس المقصود بأوربا حدودها الجغرافية إنما المقصود الغرب كله بامتداده الأمريكي والروسي على السواء . انظر «مذاهب فكرية معاصرة» ، ص ٥

(٢) انظر «الإسلام والفكر التجريبي العلمي» ، ص٢٩ ـ ٣٣٠

الفصـل الرابـع

موقف أهل أوربا من العلم التجريبي

سبقت الإشارة إلى أن للعلم التجريبي مكانته المرموقة عند علماء الإسلام واستفادتهم منه وإفادة غيرهم في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش على هامش الحياة وتحذير سلطة الكنيسة لهم ومنع رجالها لكل تفكير جديد يخالف ما كان عليه رجال الكنيسة بسبب ضيق أفقهم ورغبتهم في تجهيل العامة لكي تبقى لهم وحدهم الزعامة والقيادة المطلقة لشعوبهم ، ولذلك بادر هؤلاء المتسلطون إلى تحقير العقل وازدرائه أمام سلطة الكتاب المقدس الذي كان حجراً محجوراً عليهم وحدهم تعليمه وتفسيره الذي منحهم تلك الرتبة الهائلة التي لم يصل إليها حتى الأباطرة بل ولا الأنبياء ، وأصبح من الصعوبة بمكان ، بل من المستحيل أن ينشأ أي تفكير يخالف تفكيرهم أو اكتشاف أي شيء يخالف ما عرفوه وآمنوا به ، ونتيجة لذلك خفت صوت العقل واختفى معه كل مظهر للتفكير التجريبي وغيره إلى أن أطيح بأولئك الذي وقفوا حجر عثرة في طريق هذا المعين الفيَّاض ، فإذا بالعقل يأخذ مكانه المرموق كما كان في عهد الإغريق وإذا بالتجارب والاكتشافات تتواصل على أيدي النابهين منهم . وهذا الدور للعقل هو النقلة الرابعة للفكر الأوربي في عودته إلى تقديس العقل .

فقد مر العقل في المفهوم الأوربي بخمس مراحل ـ كما يظهر من الاستقراء :

١ ـ مرحلة تقديس العقل وتأليهه ـ المرحلة الإغريقية .

٢ ـ كبت العقل والحجر عليه ـ المرحلة التي سادت فيها طغاة الكنيسة وزعمهم أن العقل لا قيمة له في جانب الوحي الذي جاءهم بزعمهم لأن الدين النصراني لا يقوم إلا حيث يختفي العقل .

٣ ـ عودة قداسته على أيدي رجال الفكر العقلانيين .

٤ ـ المرحلة الرابعة : وهي ربطه بالتجارب الحسية وعدم اعتباره دليلاً مستقلاً في المذهب التجريبي ، وهو طور جديد للفكر الأوربي الثائر على الدين وسائر المغيبات .

وستأتي المرحلة الخامسة التي يُقصَى فيها العقل نهائياً كمصدر للمعرفة عند الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات ، نعم لقد اقتبس الأوربيون من المسلمين العلم التجريبي الذي يصاحبه الإيمان باللَّه وما أبدعه اللَّه في هذا الكون ولكنهم ـ كما سبق بيانه ـ اقتصروا فقط على الجانب النظري التجريبي ونفروا من أي شيء يتصل بالدين الذي ذاقوا مرارته وإذلاله لهم على أيدي رجال الكنيسة باسم الدين ، وحينما أخذ الأوربيون هذا العلم أخذوه بلهفة وحب يصل إلى حد العبادة له ، فتفوَّقوا فيه تفوُّقاً ظاهراً ، واللَّه تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، وبعد ذلك المنع لأهل أوربا عن الخوض في أي فكر جديد ، وبعد نجاح الأوربيون في الانفلات عن الكنيسة أصبحت أوربا تباهي بعلومها التجريبية وتزهوا بها غروراً وفخراً .

الفصـــل الخـامـس

موقف المستشرقين من دور المسلمين في العلم التجريبي

انقسم هؤلاء إلى فريقين :

فريق منهم مُلئت قلوبهم حقداً وحسداً على الإسلام والمسلمين ، وهؤلاء لا يحبون أن يتصف المسلمون بأية مزية فاضلة ، فأرجعوا كل العلوم التي اكتشفها المسلمون وكان لهم فيها فضل السبق أرجعوها إلى أنهم تأثروا فيها بحضارات الأمم السابقة ولم يكن دورهم فيها إلا التطوير والمحاكاة دون أن يكون لهم شيء يُذكر ابتكروه من تلقاء أنفسهم بزعمهم ، وفي هذا الإجحاف والظلم الصارخ يذكر «برتراند رسل» أن علم الطب مُستمَد من «جالينوس» ، وعلم الرياضة والفلك هما من مصادر يونانية وهندية ، ولم يعترف للمسلمين إلا بأصالة الابتكار في الكيمياء ولكنه زعم أنها جاءت عرضية ، لأنهم عاجزين عقلياً في النشاط الضروري للإبتكار ولهذا فهم بارعون في النقل فقط [(١)] حسب زعمه ، ومن المتحاملين على الحضارة الإسلامية في عصرنا الحاضر رئيس وزراء إيطاليا «سلبيو برلسكوني» الذي هاجم الحضارة الإسلامية علناً وفضَّل عليها الحضارة الغربية ، وقد رد عليه زعماء المسلمين رداً عنيفاً وقيل إنه اعتذر ومثله بروفسور غربي سمعته من إذاعة لندن يقول أن الحرب اليوم ـ بعد التفجيرات في أمريكا ـ قائمة بين الإسلام المتخلف وبين الحضارة الغربية المتقدمة .

---

(١) «تاريخ الفلسفة الغربية ترجمة» ، د. زكي محمود جـ٢ ص١٩٦ عن (موقف الإسلام والكنيسة من العلم) ، ص ٦٩

وفريق آخر منهم نطقوا بالحقيقة وأثنوا على العلماء المسلمين وتجاربهم وتبحرهم في العلوم وبيان الصحيح منها وبيان الخطأ ـ مع نوع من الدس في تعابيرهم ـ ومن أولئك «زيغريد هونكه» التي أثبتت أن العرب لم يأخذوا العلوم التي استفادوها عن طريق الاقتباس دون أن يكون لهم فيها مجال بل أنهم كانوا يأخذونها عن طريق المناقشة والتحقيق فما كان صواباً أخذوا به وما كان خطأ تركوه وبينوه وعدَّلوه ، وذكرت كذلك أن العرب في الواقع هم الذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التجربة الذي يتدرج من الجزئيات إلى الكليَّات بصبر لا يعرف الملل [١] .

ولا يهمنا من هذا الكلام إلا إثبات أن العرب كانت لهم جهودهم العلمية وتجاربهم الشخصية التي أثبتت نجاحها بجدارة ، وأما الجانب الذي تشير إليه وهو أن دور المسلمين كان تطوير أو تصويب أو تخطئة ما كان موجوداً لدى الحضارات الأخرى فهو قول غير صحيح أيضاً على إطلاقه ، بل كانت لهم تجاربهم الخاصة ، ولا يمنع أنهم كانوا يستفيدون من الآخرين . وقولها إن العرب اكتشفوا طريقة البحث العلمي فهو حقيقة ، وأما القول بأن العرب كانوا ناقلين فقط للعلوم الأخرى فهو زعم باطل لا دليل عليه ، بل الأدلة المتضافرة تدل على أن علماء المسلمين هم الذين اخترعوا كثيراً من العلوم التجريبية التي ما كانت تعرفها أوربا قبلهم ومنهم أيضاً

---

(١) انظر «شمس العرب تسطع على الغرب» ، نقلاً عن موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، ص ٧٠ ـ ٧١

«كاربنسكي» حيث قال : إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وأن البحوث الحديثة قد دلت على عظم دَيْننا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوربا غارقة في ظلمات القرون الوسطى ، وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق بل زادوا عليها وقاموا بإضافات هامة في ميادين مختلفة [(١)] .

وقد نقل الدكتور عبدالحليم منتصر كثيراً من النصوص التي تدل على ثناء المنصفين من الغرب للروَّاد العرب القُدامَى الذين كان لهم الباع الطويل والابتكار الأول لسائر الفنون [(٢)] وخصص مساحات واسعة لتراجم بعض رواد العرب المشاهير في هذا الميدان ، انظرها إن شئت في كتابه «تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه» .

(١) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، ص ٥٦

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ ـ ٩٣

الفصل السادس

جهود علماء المسلمين في المجالات التجريبية

لقد كان للمسلمين جهودهم الرائعة في مختلف المجالات العلمية من صناعية وزراعية وطبية .

أما الصناعية : فقد برع علماء الإسلام في صناعات كثيرة أهمها صناعة النسيج المختلف ، وصناعة الورق الذي كان من أجود أنواع الورق ، وكذا صناعة المعادن والحديد ، والخزف الجيد ، وصناعة الجلود ودباغتها بمختلف الأصباغ ، كما عرف عنهم صناعة الساعة الدقاقة ، كما برعوا في صناعة بعض الأسلحة الموجودة في تلك العصور من سيوف وخناجر وغيرهما .

ويحدثنا التاريخ أن المسلمين حينما أهدوا الساعة الدقاقة للإفرنج فزعوا منها وها لهم أمرها ، كما يحدثنا التاريخ أن أول محاولة للطيران كانت من قبل «عباس بن فرناس» الذي صنع له جناحين ورمى بنفسه من شاهق ، وهذه وإن كانت طريقة بدائية لكنها إشارة أولية إلى هواية الطيران .

الزراعة : لم يقف تفوق علماء الإسلام في القديم على الصناعة ، فقد وجهوا اهتماماتهم أيضاً إلى الجوانب الزراعية ، فقد عرفوا إتقان السدود وطرق الري وكيفية معالجة الأرض لتكون تربة صالحة

للزراعة ، كما عرفوا أوقات زراعة كل نوع من أنواع المزروعات وكيفية الاعتناء بزراعة الفواكه والحبوب الجيدة سواء أكان ذلك من تجاربهم ودقة ملاحظاتهم أو مما كان موجوداً ومتعارفاً عليه من قبل بعد تطويره واستبعاد ما لا يصلح منه ، وقد كانت لهم من ذلك وسائل رزق مدراراً استفادوا هم أولاً وأفادوا غيرهم ممن اقتبس علومهم من النصارى وغيرهم ممن اتصل بهم في تلك الحقبة التي كان الغرب النصراني فيها في منتهى الخمول والجهل .

الطب : ولقد كان للمفكرين من علماء الإسلام اليد الطولي في مجال الطب في الوقت الذي كان الجهل يخيم على العالم الغربي والشرقي خصوصاً في هذا الجانب فقد وصل المسلمون في معرفته إلى حد يدهش العقول ويشهد لهم بصفاء الذهن ودقة الملاحظة .

وقد ألفوا فيه المؤلفات العديدة التي قامت عليها الحضارة الغربية حينما كان الغرب عالة عليها إلى أن قوي عودهم فتنكروا لها ونسبوا الفضل إلى علمائهم ومفكريهم كذباً وزوراً .

وكان لعلماء المسلمين طرق عديدة لمعرفة المرض عن طريق النبض وعن طريق البول والغائط والدم وجميع الحواس الظاهرة والباطنة ويذكر العلماء عنهم أمثلة كثيرة على هذا ، ومن ذلك ما ذكره رئيس الأطباء في عصره «علي بن رضوان» المتوفَّى سنة ٤٥٣هـ حول معرفة المرض وعلاماته بقوله :

تعرف العيوب وهو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة وتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة ، مثل أن تنادي به من مكان بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه ، وأن تعتبر بصره ينظر الأشياء البعيدة والقريبة ، ولسانه بجودة الكلام ، وقوته بشيل الثقيل والمسك والضبط والمشي وأنحاء ذلك مثل أن تنظر مشيه مقبلاً ومدبراً ، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما وتعتبر بذلك حال أحشائه ، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض ومزاج كبده بالبول وحال الاختلاط ، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء ، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء وأخلاقه إلى ما تميل بأن تعتبر كل أحد منها بما يحركه أويسكنه . أما فيما يمكن ظهوره للحس فلا تقع فيه حتى تشاهده بالحس ، وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة ، وأما فيما يتعرف بالمسألة فأبحث عنه بالمسألة حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان متوقعاً أم الحال حال صحة وسلامة [(١)] .

وهذا الكلام يدل على عمق فهم واستنباط صحيح ولهذا علق عليه الشيخ عبد اللّه المشوخي بقوله :

والمتأمل في وصف ابن رضوان يخيل إليه بأنه يقرأ لأحد أساتذة الطب في العصر الحديث حيث تتأول في وصفه جميع أعضاء الجسم وسجل ملاحظاته والطرق المتبعة في فحص كل عضو سواء كان ظاهرياً أم باطنياً [(٢)] .

---

(١) موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص ٧٤ بنقلة عن (عيون الأبناء) لابن أبي أصيبعة ، ص ٥٦٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٦٥

وذكر الشيخ عبداللّه المشوخي أن علماء المسلمين لم يقتصر نشاطهم على معرفة الطب فقط ، بل كان لهم معرفة ثاقبة في فن الجراحة ، وذكر عن الطبيب الأندلسي الجراح الكبير «أبو القاسم الزهراوي» ـ خلف بن عباس الزهراوي المتوفَّى سنة ٤٢٧هـ ـ أنه تفوَّق في فن الجراحة وكان يجري تجاربه أولاً على الحيوان فإذا نجحت تجربته واصل عمله كما هو حال هذا العصر الذي يدَّعي بعضهم أن هذا التفكير لم يكن إلا وليد هذا العصر وخلف الزهراوي كانت له إلى جانب ذلك مؤلفات مفيدة في فن الجراحة تصف للطبيب كيف يستعمل المشرط ونوع الآلات في أثناء العمليات الجراحية .

كما أن لابن سينا تجاربه الكثيرة التي جعلته يحكم على بعض الأطباء المشاهير بأخطاء ويدلل على صحة قوله وفي كتابه «القانون في الطب» فوائد كثيرة حول بيان بعض الأمراض وكيفية علاجها وكيفية إجراء العمليات لها بصور دقيقة ، فابن سينا بعد أن وصف أعراض مرض ظفرة العين قال في علاجها : «أفضل علاجه الكشط بالحديد وخصوصاً لما لان منه وأما الصلب فإن كاشطه إذا لم يرفق أدى إلى ضرر ويجب أن يُشال بالصنارات فإن تعلق سهل قرضه وإن امتنع سلخ بشفرة أو بريشم ينفذ تحته بإبرة أو بأصل ريشة لطيفة ، وإنما يحتاج إلى ذلك في موضع أو موضعين فإن لم يغن أحتيج إلى سلخ لطيف بحديد غير حاد ويجب أن تُستأصل ما أمكن من غير تعرض للحمة الموق فيعرض الدمعة واللون

يفرق بينهما وإذا قطعت الظفرة قطر في العين كمون ممضوغ بملح يتلافى لذعه بصفرة البيض ودهن الورد والبنفسج»[١] .

ويقول الطبيب «ابن الحظمية» عن انتقال العدوى من المريض إلى السليم : «إن نتائج تجاربي الطويلة تشير إلى أن من خالط أحد المصابين بمرض سار أو لبس من ثيابه ابتُلي مباشرة بالداء ووقع فريسة عوارضة نفسها وإذا ما بصق العليل الأول دماً بصق الثاني أيضاً»[٢] .

ويقول الطبيب «الرازي» في معرفة خصائص الأعضاء وعلاقة بعضها ببعض : «ورجل آخر سقط عن دابته فذهب حس الخنصر والبنصر ونصف الوسطى من يديه فلما علمت أنه سقط على أخر فقار الرقبة علمت أن مخرج العصب الذي بعد الفقارة السابعة أصابها ورم في أول مخرجها لأني كنت اعلم من التشريح أن الجزء الأسفل من أجزاء العصبة الأخيرة من العصب الثابت من العنق يصير إلى الأصبعين الخنصر والبنصر ويتفرق في الجلد المحيط بهما وفي النصف من جلد الوسطى»[٣] .

وإذا دققت النظر في هذه التجارب وتصورت وقت وقوعها في ذلك الزمن أيقنت بسمو ما وصل إليه المسلمون من صفاء الذهن ودقة الملاحظة .

---

(١) انظر «القانون في الطب» جـ ٢ ص ١٢٧ عن موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، ص ٧٦

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٧٦ عن المصدر السابق ص ٧٦

(٣) الحاوي في الطب ج١ ص ٥ ـ ٦ عن موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص ٧٦

ومن أشهر أولئك العلماء التجريبيين أيضاً :

١ ـ **أبو الريحان البيروني** : الذي صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس ، ثم اخترع قانون الطفو وهو رسوب الأجسام وطفوها على سطح الماء ، وقد اشتهرت نسبة هذه التجربة إلى «أرشميدس» وكان «البيروني» عقلية نادرة المثال ، «ومن عجب أن يتميز البيروني في فنون مختلفة غاية الاختلاف ، فهو في الفلك فلكي ممتاز بشهادة علماء الفلك من الفرنجة والعرب ، وهو في الجيلوجيا جيولوجي ممتاز بشهادة الجيولوجيين المعاصرين ، وهو في التاريخ مؤرخ مدقق واسع الإطلاع شامل المعرفة» (١) .

٢ ـ **أبو الثناء الأصفهاني** : تحدث عن فكرة كشف الأرض الجديدة قبل رحلة كولمبس بنحو قرن ونصف القرن من الزمن .

٣ ـ **الفزاري** : الذي يعد أول فلكي في الإسلام .

٤ ـ **ابن الهيثم** : وقد نيفت كتبه على المائتين ، منها ثلاثة وأربعون في العلوم الفلسفية والطبيعية ، وفي العلوم الرياضية والتعليمية خمسة وعشرون كتاباً ، فضلاً عن كتاب في الطب يقع في ثلاثين جزءًا (٢) .

---

(١) تاريخ العلم ص ٥٧

(٢) انظر تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، ص ٥٥

وقد أخذ عنه «كبلر» معلوماته عن الضوء ، ولا سيما انكساره في الجو ، وعلى كتب ابن الهيثم وكان معول الأوربيين جميعاً في علم البصريات كما برع في حساب قياس المسافات وتحديد المساحات . ومن أقواله : «فأما الكرة فإن الطريق إلى مساحتها هو أن تمسح أعظم دائرة تقع فيها ثم تضرب مساحة الدائرة في ثلثي قطر الدائرة الذي هو قطر الكرة فما يحصل من ذلك فهو مساحة الكرة» [(١)] .

٥ ـ **ابن خلدون** : مؤسس علم الاجتماع والاقتصاد السياسي .

٦ ـ **ابن سينا** : وكتابه «القانون في الطب» معروف تُرجم إلى عدة لغات ، بحث فيه العقاقير والأدوية وعلاج القرحة والتهاب الرئة والجنب والدماغ ، وظلت أبحاثه أساساً للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون ، «وقد ترك مؤلفات تزيد على المائتين والسبعين» [(٢)] ، وقد مدحه علماء الغرب بسعة الخبرة والإطلاع الواسع .

٧ ـ **الرازي** : له كتاب «الحاوي» أكبر من كتاب القانون لابن سينا وأوسع منه في المادة والموضوع ، تُرجم ١٢٧٩هـ .

---

(١) موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، ص ٧٨

(٢) تاريخ العلم ، ص ٥٥

٨ ـ **أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي** : له كتاب «التعريف لمن عجز عن التصريف» ، طُبع باللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر ، وكان قبل طبعه دروساً متداولة بين أعمال الصناعة يعتمدون عليها في الأعمال الجراحية ، ولاسيما فتح المثانة وإخراج الحصاة ، وقال العالم الطبيعي «هاللر» في رواية «جوستاف لوبون» : «إن كتب أبي القاسم كانت تُعتبر مرجع الجراحين جميعاً بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، وقد ترك كتيباً صغيراً عن الآلات الجراحية التي تستخدم في العمليات على اختلافها مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام ، وقد برز في الطب العام وطب الأسنان وموسوعته في الطب التي سماها التعريف ، تُرجم أجزاء منها إلى اللاتينية ، وظل عدة قرون الكتاب الوحيد المعوَّل عليه في فن الجراحة بأوربا .

٩ ـ **جابر بن حيان** : أول باحث في علم الكيمياء وقد برع فيها وأول من استحضر حامض الكبريتيك بعد تقطيره من الشَّبَّه ، واستحضر أيضاً حامض النتريك ، وأول من كشف الصودا الكاوية ، واستحضر ماء الذهب . بلغت مؤلفاته نيفاً وثمانين كتاباً» [(١)] .

١٠ ـ **الخوارزمي ، محمد بن موسى** : أول من وَضع علم الجَبر والحساب بشكل مستقل اتخذته أوربا أساساً لتدريس الجبر في

(١) تاريخ العلم ، ص ٥٦

عصر النهضة ، كذلك كان الخوارزمي رئيساً لعلماء الفلك في بلاط المأمون ، ومن مؤلفاته في هذا الباب كتاب «الجمع والتفريق» في الطرح ، وكتاب «حساب الجبر والمقابلة» ، وغيرها من الكتب القيمة والتي وضع فيها أصولاً تحليليةً وهندسةً للمعادلات» [(١)] .

قال ديورانت عن الخوارزمي : «وظلت مؤلفاته قروناً كثيرة هي المعمول بها في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان في الصين وهو الذي وضع أقدم الجداول المعروفة في حساب المثلثات» [(٢)] .

وقد برع العلماء المسلمون التجريبيون في فن الفلك فدرسوا النجوم ومساراتها ، والثابت منها وغير الثابت ، ودرسوا الشمس والقمر وعرفوا الكسوف والخسوف ، كما برعوا أيضاً في علم الجغرافيا ، وعرفوا الجاذبية وغيرها من العلوم» [(٣)] .

١١ ـ **الشريف الإدريسي** : برز في الجغرافيا والأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات ، له كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» .

١٢ ـ **الكندي** : صاحب المؤلفات في البصريات ، والكيمياء ، وعلم الضوء ، وعلم وظائف الأعضاء .

---

(١) موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص ٧٧ , وانظر تاريخ العلم ، ص ٦٤

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ عن قصة الحضارة ج ١٣ ، ص ١٩١

(٣) انظر تاريخ العلم ، ص ٧٣

١٣ ـ **ابن البيطار الدمشقي** : صاحب كتاب «الأدوية المفردة» أساس علم العقاقير ، وكان سبباً في تكوين أول صيدلية إنجليزية في عهد «جيمس الأول» .

١٤ ـ **على البغدادي** : خدم أمراض العيون واعتمدت جامعات أوربا على مؤلفاته حتى منتصف القرن الثاني عشر .

١٥ ـ **الاصطخري** : اشتهر في تخصيص الجغرافيا ، ونشر مؤلفه عن جغرافية البلاد الإسلامية في منتصف القرن العاشر .

١٦ ـ **الطاشي** : واضع أسس الكسر العشري .

١٧ ـ **يعقوب ابن أخي حزام** : نبغ في الطب البيطري ، وكان بيطار بلاط الخليفة «المعتضد» ، كتب كتاب «الفروسية وصفات الخيل» حوى مبادئ في البيطرة [(١)] .

---

(١) مراجع هذه الدراسة :

١ ـ حضارة العرب ، چوستاف لوبون .
٢ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، سيجريد هونكه .
٣ ـ مجالي الإسلام ، حيدر باماث .
٤ ـ الإسلام والعرب ، درابر .
٥ ـ حاضر العالم الإسلامي ، لوثروب ستوارد .
٦ ـ الإسلام والفكر العلمي ، محمد المبارك .
٧ ـ أضواء على الفكر العربي ، أنور الحيدري .
٨ ـ الفكر الإسلامي ، سيراف ، ترجمه أحمد شلبي .
٩ ـ أثر العرب في الحضارة الأوربية ، العقاد .



الباب الخامس

التنصـــــير



البــاب الخــامس

التنصــــير

قضية التنصير من القضايا الهامة جداً في حياة الناس وتقلباتهم العقدية على امتداد التاريخ الإسلامي إلى يومنا الحاضر ، وتشمل دراسة التنصير الفصول والمباحث الآتية :-

تمهـــــــيد : الحرب الفكرية ضد المسلمين من قِبل الغرب النصراني .

الفصل الأول : اتفاق أعداء الإسلام في مواجهته رغم الاختلافات بينهم .

الفصل الثـــاني : دراسة شاملة عن غزو العالم الإسلامي عن طريق الارساليات (التنصير ، الاستشراق) وفيه المباحث الآتية :

تمهـــــيد :

المبحث الأول : الغزو عن طريق التنصير .

وفيه المطالب الآتية :

المطلب الأول : التعريف بالتنصير .

المطلب الثاني : أهمية التنصير لدى الدول الاستعمارية .

المطلب الثالث : هل جاء المسيح بديانة عالمية .

المبحث الثاني : النشاط التنصيري في ديار الإسلام

ويشمل الأماكن الآتية :

المطلب الأول : التنصير في السنغال .

المطلب الثاني : التنصير في اندونيسيا .

المطلب الثالث : التنصير في تايلاند .

المطلب الرابع : التنصير في السودان .

المطلب الخامس : التنصير في الجزيرة العربية .

المطلب السادس : التنصير في الخليج العربي .

ويشمل الأماكن الآتية :

التنصير في البحرين .

التنصير في الكويت .

التنصير في عُمان .

التنصير في قطر .

التنصير في الإمارات .

المبحث الثالث : أسباب انتشار التنصير في البلاد الإسلامية .

المبحث الرابع : الأساليب التي يتبعها أعداء الإسلام في حربهم له واتفاقهم على ذلك وفيه :

المطلب الأول : بيان أنواع الوسائل والطرق إجمالاً .

المطلب الثاني : تخطيط ناجح للتنصير عبر الوسائل الآتية :

١ ـ التَّنْصير والمؤتمرات .

٢ ـ التَّنْصير والجَمعيَّات .

٣ ـ التَّنْصير والإعْـلام .

٤ ـ التَّنْصير والدَّعايات للمَسيح عليه السلام .

٥ ـ التَّنْصير والدَّعايات لكتابهم الذي يُقدِّسونه .

٦ ـ التَّنْصير والدَّعايات لدينهم .

٧ ـ التَّنْصير والتعْليم .

٨ ـ التَّنْصير والمعاهد .

٩ ـ التَّنْصير والطِّب .

١٠ ـ التَّنْصير والخدمات الاجتماعية المجانية .

١١ ـ التَّنْصير واستغلال الأماكن التي تقـوم فيها الحرب .

١٢ ـ التَّنْصير وحاجة المسلمين إلى الأيدي العاملة من النَّصارَى .

١٣ ـ التَّنْصير واستغلال المرأة .

١٤ ـ التَّنْصير والصِّناعات .

١٥ ـ التَّنْصير والتِّجارَة .

١٦ ـ التَّنْصير وتَحْديد النَّسْـل .

١٧ ـ التَّنْصير ومُحاصَرة الإسلام .

١٨ ـ التَّنْصير وتَحْبيب الصَّليب إلى الأطْفال .

١٩ ـ التَّنْصير وأعْياد الميلاد .

٢٠ ـ التَّنْصير وتأليب الحُكَّام على المُصْلحين .

٢١ ـ التَّنْصير والسُّخْرية بعُلمَاء المسلمين .

٢٢ ـ التَّنْصير والهَزائم النفسيَّة .

تمهـــيد :

«الحرب الفكرية ضد المسلمين من قِبَل الغرب النَّصْراني :

لقد استعمل أعداء الإسلام كل وسيلة لمواجهة المد الإسلامي ، ومن تلك الوسائل الكثيرة وسيلة المواجهات الحربية ، فحشدوا الجيوش تلو الجيوش ووقعت معارك طاحنة سُفكت فيها الدماء ، وتقطعت الأجسام أشلاءً ، فكانت النتيجة بالنسبة لهم تفوق مرارتها الوصف ، حيث خسروا أرواحهم وبلدانهم ، وبطلت عقائدهم ، واستحوذ الخوف على قلوبهم ، وخرج المسلمون في أشد الفرح بنصر اللَّه تعالى لهم ، فأطفأوا نار المجوسية ، وكسروا صلبان النصارى ، ولازَمَ اليهودَ الذُّلُّ والصَّغارُ جزاءً من اللَّه تعالى مُعجلاً لهم في الدنيا .

وقد أسقط في أيدي جميع أعداء الإسلام وتيقنوا بأنه لا حيلة لهم في مواجهة من يطلب الموت ويراه بشارة عاجلة برضوان اللَّه ونعيمه في الدارين ، أولئك الذين يحاربون لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السُّفْلى ، لا يحفزهم للحرب قوميّة ولا وطنيّة ولا عُنصريّة ولا عزة جاهليّة ، صدقوا اللَّه فصدقَهم اللَّه ، ورضي عنهم ورضوا عنه .

ومن هنا غير أعداء الإسلام طريقتهم في مواجهة المسلمين ، وسلكوا طريقة ناجحة بدون كلفة لا تُلفت الأنظار ، ولا يُسمَع لها ضجيج ، فما هي تلك الطريقة التي حققت ما لم تحققه جحافل الجيوش الجرَّارة ولا الأسلحة الفتَّاكة . والجواب أنها الحرب الفكرية التي تدخل العقل والفكر

بدون استئذان ، ليست في معارك ميدانية ، ولا مواجهة بالأسلحة المادية ، ومع ذلك فهي أعمق وأخطر ونجاحها آكد من خوض المعارك المكشوفة التي أصبحت عتيقة عديمة الجدوى ، بينما الدخول عن طريق الفكر يجعل صاحبه ينقاد طائعاً مختاراً .

وليس هذا فحسب ، بل ويتحول إلى مُدافع مُستميت دون الفكر الذي تشبَّع به واقتنع بصحته ، والإنسان كما هو معروف إنما يعيش حسب ما يُمليه عليه تفكيره سواء كان ذلك التفكير صحيحاً أم خطأً ، فهو كالمقود بالنسبة للسيّارة حيث يُسيُّرها صاحبها وفق ما يوافق تفكيره وهواه .

فقد يكون الشخص هادئاً مُسالماً ليّن الطباع سليم الفطرة ، وقد يكون ثائر النفس حاد المزاج مضطرب الأحاسيس شرس الطباع ، كل ذلك يحصل حسب ما يدور بذهنه من أفكار وآراء ، ولقد استفاد أعداء الإسلام من هذا الجانب ضمن أساليب كثيرة ملتوية يستخدمونها بحذق وإتقان فنجحوا في كثير مما كانوا يؤملون ، لعلمهم أنك لا تكسب الشخص يقيناً إلا إذا كسبت فكره أولاً ، ثم انتهت الحرب النظامية بين المسلمين وأعداء الإسلام بانتهاء زوال المستعمرين عن بلدان المسلمين في ظاهر الأمر . إذ لم يرفع أحد شعار الصليب في مقابل الهلال تحت بارقة السيوف أو المدافع أو الدبابات أو الطائرات [1] ، ولكن أخذت الحرب ذلك الجانب الأخطر والأنكى والأشد من وقع تلك الحروب القديمة التي كان ينقصها الذكاء والدهاء الذي عُرف فيما بعد على أيدي الدول التي تتلهّف لاستعمار بلدان المسلمين ونهب خيراتهم من جديد .

---

(١) كتبت هذا الكلام قبل ما يُسمى بأحداث الحادي عشر من سبتمبر ، أي الغارات على نيويورك وواشنطن ، حيث أعلن بعدها رئيس أمريكا أنه يجب أن تُشن الحرب الصليبية من جديد ، والآن وقعت في العراق وفي أفغانستان .

لقد دخل المعركة ضد الإسلام أولئك الجيوش الذين يتظاهرون بالرحمة وهم عين العذاب ، الذين لا يملكون المدافع والطائرات بأيديهم ، ولا يلبسون لباس الجنود في المعارك ، ولهم مطلق الحرية في أن يجوبوا بلدان المسلمين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً دون أن يتعرض لهم أحد ، لأنهم لا يحملون أي سلاح غير الأقلام والأوراق والأفكار التي يحملونها لكي يكونوا طلائع أوليّة للجيوش النظاميّة لبلدانهم في كرتهم الجديدة على العالم الإسلامي . إنهم أصحاب الغزو الفكري الذين جاءوا خلفاً لأصحاب الغزو العسكري بعد أن تأكد جميعهم من أن هؤلاء سينجحون أكثر من أولئك وكلفتهم أقل من أولئك ، وسيطرتهم الفعلية أشد من سيطرة أولئك ، لأن سيطرة الجيش النظامي تكون على الأرض ، وسيطرة هؤلاء تكون على العقول والأفكار ، ومعلوم أنك لو ملكت عقل الشخص وفكره فإنه سيصبح تابعاً لك .

لقد أدرك أعداء الإسلام أن الحرب السلميّة الهادئة ستقضي على الإسلام بهدوء في شكل كتاب ، أو مسلسل تلفزيوني ، أو تمثيليّات هادئة ، أو مناقشة علميّة ، أو قصص جذَّابة مُلفتَة للنظر والفكر ... إلى آخر أساليبهم ، كما أنهم أدركوا أنه يتحتم عليهم في محاربتهم للإسلام عن طريق المستشرقين والمنصِّرين أن يوجدوا لهم قواعد في قلب الأمة الإسلامية ، فوقع اختيارهم على فلسطين لتكون شوكة لليهود ضد المسلمين ، وعلى لبنان لتكون شوكة أخرى ونقطة انطلاق للنصارى ، كما تم متابعة إنشاء مراكز وقواعد انطلاق في كثير من بلدان العالم الإسلامي تحت مبررات لا حدَّ لها .

الفصـل الأول

إتفاق أعداء الإسلام في مواجهته رغم الاختلافات بينهم

من الأمور الواضحة أن أعداء الإسلام بينهم من الاختلافات ما اللّه بها عليم ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [1] ، وكيف يمكن أن يتفق المبطلون الذين يعبدون أهواءهم ، وليس لهم أساس ثابت ينطلقون منه يؤلف بينهم ويجمع كلمتهم لأن طبيعة الإنسان النفرة عن غيره ، إلا إذا وُجد السبب الذي يجعله يألف غيره .

وقد تَندهش حين تقف على الخلافات الشديدة بينهم ثم تقف على اجتماعهم على حرب الإسلام والمسلمين في صف واحد .

فلماذا اجتمعوا ؟ وكيف تناسوا ما بينهم من الاختلافات ؟ !! ، والجواب واضح .. إنه الخوف من الإسلام والحقد الشديد على أهله ، ولمعرفتهم أن الإسلام لا يقبل الخداع ولا المداهَنة لأهل الباطل والظلمة ، وليس فيه تفضيل بعض البشر على البعض الآخر ، فلا يسمح للناس أن يتخد بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللّه ، إذ يقول لزعماء الكفر الذين يمثلون أنفسهم أرباباً للناس من دون اللّه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [2] ،

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٤
(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣

«أَنْتُم بَنُوا آدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُرابٍ» [(١)] ، وكيف يرضى المتجبرون بأن يَتَساووا أمام شرع اللَّه عزَّ وجلَّ ؟ ، وكيف يرضى عُبَّاد أهوائهم أن يَعبُدوا اللَّه وحدَه لا شَريك له ، وأنْ يلتزموا بأوامره ونواهيه ، ويُحكِّموا شرعَه الذي يتعارض مع سلوكهم وقد أشربت قلوبهم حب الشَّهَوات وسائر الملاذّ ، وهل يرضى الشَّيْطانُ أن يَنْفَكُّوا عن حزبه وطرقه المظلمة ليواجهوا بأبصارهم الضعيفة نور الإسلام الوَهَّاج ، لقد ضاقوا به ذَرْعاً فتوَحَدُّوا ضدَّه ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ [(٢)] ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [(٣)]

إن الصراعات الفكرية في هذا العالم بحر متلاطم الأمواج عليها يلتقي الناس ، وعليها يفترقون .. سُنَّة اللَّه في خلقه .

وأنت على حق حينما تتخيل أن الصراع كله أصبح يتمثل بين جبهتين قويتين ، هما جبهة الكفر وما يمثله من مختلف الأشكال والأفكار ، وجبهة واحدة ضده هي الإسلام وما يمثله من مبادئ وقيم أثبت التاريخ صلاحيتها لقيادة البشرية إلى أن تنتهي بهم الحياة الدنيا .

وإذا كنت يا أخي المسلم مُندهشاً من كثرة التيارات المنحرفة التي مليء بها هذا العصر ، واتحادهم على عَداء المسلمين ، فما عليك إلا أن تضرب

---

(١) أخرجه أبو داود ، ج ٤ ، ص ٣٣١ ، رقم ٥١١٦
والترمذي ، ج ٥ ، ص ٧٣٤ ، رقم ٧٣٤
(٢) سورة ص ، الآية : ٦
(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧

صفحاً عن كثرتها وتتوجه إلى تحقيق فهم دينك الناصع الوضوح لتكن بذلك حجر عثرة في طريق كل الأفكار الباطلة المناوئة له ، وبهذا تضمن الإمساك بزمام الأمر في أي موقف كنت ، لأنك تملك حينئذ من القوة في مجابهة الخصوم ودحض الشبهات ما لا يملكه أصحاب التيارات الفكرية المنحرفة القائمة على شفا جُرفٍ هارٍ ، المبنية على أساس الجهل السخيف والتناقضات الكثيرة .

ومن هنا أسدي إليك أخي طالب العلم النصيحة التي أريد بها إن شاء اللّه وجه اللّه وثوابه ؛ أن تحرص كل الحرص على دراسة دينك أولاً ، ثم دراسة كل ما تراه من التيارات المنحرفة إذا أردت أن تكون جندياً في سبيل نصرة الإسلام ورفع رايته خفّاقة ، ولا تَستهول الباطل ، فإن للباطل صولة ثم يضمحل ، ولا أشك في قناعتك بهذا . وفق اللّه الجميع لما يحبه ويرضاه ، وستجد إن شاء اللّه ما يساعدك على دراسة تلك الأمور سواء ما يتعلق منها بالجانب الإسلامي أو بالجوانب المنحرفة أثناء دراستك هذه العجالة ، مؤكداً لك على أنها مساعدة لا تصل إلى إشباع همّتك ، وإنما هي توجيه وتقريب للبعيد ، ولك فيما كتبه سلفك خير مورد وفي ما سطروه ما يفي بكل ما تصبو إليه نفسك وتتوق إلى الوصول إليه آمالك ، فإن السلف ـ رحمهم اللّه ورضي عنهم ـ لم يدعوا ثغرة لأعداء الإسلام إلا وسدّوها ، ولا شُبهَة إلاَّ وأبطلوها ، فلتطمئن نفسك إلى أنك أنت المنصور إن شاء اللّه ، لأنك من جند اللّه ، ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)** ﴾[(١)] ، فمهما تكالب أعداء

(١) سورة الصَّافَّات ، الآية : ١٧٣

الإسلام ، ومهما تآمروا فإن النتيجة ستكون في صالحك وفي صالح دعوتك إلى الحق .

ولا شك أنك تدرك أن الصراع اليوم بين الإسلام وبين جحافل الكفر على أشد ما يكون ، ولقد قوي أمر أعداء الإسلام في الغرب بانهزام الشيوعية في عقر دارها ، فاشتد كلب العالم النصراني على الإسلام والمسلمين ، وحاربوه بأنواع من الأسلحة ، ومن أهمها سلاح الاقتصاد ، وسلاح نشر الأفكار ، فغمروا كل الأقطار الإسلامية بمنتجاتهم المادية ومعها منتجاتهم الفكرية ، فاندفع كثير من المسلمين إلى استقبالها والفرح بها دون تؤدة ، نجَّاك اللَّه منها .

وأعيد وأُأكِّد التنبيه إلى أمر مهم ، وهو : أن كل دارس للمذاهب الفكرية المعاصرة يجب ألا يغيب عن ذهنه الحروب الصليبية التي لا تزال مرارتها وحرارتها إلى اليوم في أذهان أعداء الإسلام من اليهود والنصارى الذين يبذلون كل غالٍ ورخيص للنيل من الإسلام والكيد للمسلمين ، وإن من النصيحة للَّه ولكتابه ولرسله ولعامّة المسلمين أن لا نركن إلى ما يُشاع ويُذاع من أن النظام الجديد ـ هيمنة أمريكا النصرانية ـ سيؤلف بين القلوب ، وستحل الإنسانية محل الدين ، وستصبح الشعوب أخوة على العلمانية ، وما إليها من المذاهب الجاهلية ، فإن الشعارات والكلام شيء والفعل والواقع شيء آخر ، وما تراه اليوم من استبداد الدول الكافرة القوية بالناس الضعفاء والشعوب المستضعفين لهو أقوى دليل على هذا ، فإن أفعالهم في فلسطين وتآمر الشرق والغرب على إذلال المسلمين خصوصاً

في أفغانستان والأقطار العربية لا يحتاج إلى تفكير ، وأفعالهم في البوسنة والهرسك ، والشيشان ، وفي كشمير ، وفي الفلبين .. وفي غير هذه البلدان ، بل وفي افتعال العداء الشرس بين الشعوب الإسلامية وضرب بعضهم ببعض ، وبث النفرة والبغضاء لهو دليل واضح أيضاً - وما أكثر الأدلة التي تزخر بها الأحداث في العالم الإسلامي بخصوصه ، فإن جراحه لا تندمل ، وأعداؤه لا يهنأ لهم عيش إلا بالنيل منه ، بخلاف الجراحات التي تحصل في الشعوب غير الإسلامية إذ سرعان ما ينتهي الخلاف وتندمل الجروح وتسود الألفة ، لأنهم لا يسمحون باستمرارها ، وقد أراد أعداء الإسلام أصحاب المذاهب الفكرية أن يكون حال المسلمين على هذا الواقع لإذلالهم من ناحية ، ولكي يفقد المسلمون ثقتهم بحكامهم وبدينهم أيضاً من ناحية أخرى ، حتى صار عند عامَّة الناس اليقين التام أن أرخص الدماء المسفوكة هي دماء المسلمين ، ففي كل يوم تقدم عشرات القرابين من دمائهم إرضاءاً للنزوات الشيطانية وأساطين الكفر والإلحاد على مرأى ومسمع العالم كله دون رحمة ، وخصوصاً بعد صفاء الجو للأحقاد النصرانية ، وبعد انتهاء العدو الذي كان يتنمر لكل الأديان حينما كان النصارى يطلبون وُدَّ المسلمين في ما يُسمُّونه بوحدة الأديان في مقابل اللادينية الماركسية .

نعم لقد كان للمسلمين منفذاً حينما كان الصراع قوياً بين الغرب والشرق في أوربا ، حينما كان الغرب المادي على أشد ما يكون أهله من التناقض الفكري والاضطراب العقدي في الوقت الذي كان الدبُّ الروسي ينتظر سقوط فريسته الرأسمالية لينقضَّ عليها ، لا يَرقُب فيها إلاً ولا ذِمَّة .

أما الآن وقد انتهى عهد ما يُسمَّى بالحرب الباردة بين الشرق والغرب ، فقد احتشد الغرب في أوربا على امتدادها ضد المسلمين ، وقامت الحرب المعلنة أحياناً والمستترة أحياناً أخرى ، والآن يتواقف الإسلام وحضارة الغرب النصراني المادي في الميدان وجهاً لوجه بعد أن أسفرت الأحداث الجسام التي توالت في أوربا الشرقية وفي ديار المسلمين أيضاً عن تطاول قرن الغرب ، وعن التلويح بالعصى الغليظة لكل٠ الأقطار الإسلامية المستضعفة إن لم تَسِرْ في ركابهم طوعاً أإو كرها .

وقد سمع جميع المسلمين ما صرَّح به «جورج بوش» الثاني رئيس أمريكا بعد حوادث التفجير في نيويورك وواشنطن من أنه سيقيمها حرباً صليبيَّة ، وأن مَنْ لم يكن معهم فهو إرهابي ، وستحل عليه نقمتهم وعقابهم ، وعن معركة المسلمين والحضارة الغربية يقول الندوي : «إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركة فكرية في عبارة أصح في جميع الأقطار الإسلامية في هذا الوقت نحن نستطيع أن نُسمِّيها صراعاً ومعركة بين الأفكار والقيم الإسلامية والأفكار والقيم الغربية ، وهي المعركة الحامية الحاسمة الحقيقية التي يخوضها العالم الإسلامي اليوم ، وهي التي ستقرر مصيره ، وهي معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التي يغالي في تصويرها أو تهويلها الكُتَّاب والمؤلفون» (١) ، مُعَلِّلاً ذلك بأن أي معركة غير هذه المعركة الكبيرة إما أن تكون معارك محلية أو معارك فرعية أو معارك وهمية ، ثم ذكر أن

(١) انظر : «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» ، ص ٣

كل الدول الإسلامية تعاني طغيان الحضارة الغربية ، وأن الدول الإسلامية تُصَهَر في تؤدة وأناة وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربية الجارفة .

أيُّها المسلم تَنبَّه لما يُحاك ضدّك وضدَّ دينك من قبل أعداء الإسلام ، يجب أن تدرك مدى استبداد الدول الكافرة والقوية بالمستضعفين من المسلمين في أكثر من بلد ، وأن أكثر الحروب إنما تقوم في بلدان المسلمين ، وأولئك الطُّغاة يمدون كلاً من المتخاصمين بالسلاح بعد أن يجربوه على رؤوسهم حتى أصبحت بلدان المسلمين محلاً لتجارب الأسلحة على رؤوس المسلمين ومصدر إثراء لأصحاب تلك الأسلحة .

يجب أن تُدرك أثر انهيار الشيوعية على الإسلام والمسلمين وعلى النصرانية التي بدأت تتحفز للانقضاض على المسلمين وإرجاعهم إلى الذل لها بعد أن صفا الجو لها باضمحلال الشيوعية الملعونة .

الفصــل الثـاني

دراسة شاملة عن غزو العالم الإسلامي عن طريق الإرساليات (التنصير ، الاستشراق)

وفيه المباحث الآتية :-

●● تمهـــيد :

المقصود بالإرساليات ما دأب غُزاة الأفكار على القيام به وتمويل أعضائه من المنصِّرين والمستشرقين وبثهم في العالم الإسلامي لإدخال المسلمين ضمن نفوذ الصليبيين .

يقول المستشرق المسيو «لُ شاتليه» رئيس تحرير مجلة «العالم الإسلامي» التي كانت تصدرها جمعية «الإرسالية العلمية المغربية» ، قال بعد مقدمة بيّن فيها أن من واجب فرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ، حيث قال : «ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة وتُدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية من حيث أنها تبث الأفكار الأوربية إلا أن لإرساليات التبشير مطامع أخرى كما يتبين من الجملة الآتية التي استخرجتها من رسالة أرسلها إليَّ من جزيرة البحرين في ٢ آب أغسطس سنة ١٩١١م ، حضرة القسيس المحترم «صموئيل زويمر» مُنشيء مجلة «العالم الإسلامي» الإنجليزية ، وهو يبني فيها صروح آمال شامخة على أعمال المبشرين البروتستانت قال : «إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ، ومزية هدم ، أو بالأحرى مزية تحليل وتركيب» [(١)] ، ويقصد بهذا الكلام الغزو الثقافي والمد السياسي .

(١) انظر : «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ٥٩ ـ ٦٠

وهذه شهادة صارخة على ما يُبيِّتونه للإسلام والمسلمين ، وقد أتبع الغُزاة أقوالهم بالأفعال ، فأسَّسُوا مئات الجمعيات التبشيرية ومئات المعاهد والجمعيات في مختلف بقاع الأرض من آسيا وأفريقيا وبقية قارات العالم وبلدانه ، وأقاموا مئات المؤتمرات لبحث كيفية انتشار التنصير وأنجح الوسائل التي يجب أن يستخدموها في ذلك ، وأنشأوا أعداداً غفيرة من المدارس والمستشفيات ودور الحضانة وبيوت الشباب .

وفي سباق حثيث أنشأوا مئات الكنائس في ديار المسلمين وفي غيرها ، ولم يألوا جهداً في افتتاح مئات الإذاعات التنصيرية التي تبث إلى العالم بمختلف اللغات في برامج منظمة مُعدَّة إعداداً مُتقَناً لتجد لها طريقاً إلى قلوب السامعين ، ثم أغرقوا المكتبات بتوزيع كتب التنصير وعلى رأسها ما يُسمَّى بـ «الكتاب المقدس» إما توزيعاً بالمجَّان وإما بثمن رمزي ، وذلك عن طريق تأسيس جمعيات لاحصر لها بعضها ظاهر وبعضها خَفي يعمل من وراء ستار أما الطب أو التدريس أو الفن أو غير ذلك ، بل حتى مصادقة أصحاب الحرف المختلفة وتجار الأسواق الكبيرة ، واجتذاب كل من يرون فيه النَّباهَة أو يتردد إليه الناس حتى وإن كان ثرثاراً يحسن اجتذاب الناس إليه ، المهم عندهم لفت أنظار المسلمين إلى النصرانية تحت أي مستند كان ، على طريقتهم المشهورة «الغاية تُبرِّر الوسيلة» .

ومما لا ريب فيه أن المنصِّرين والمستشرقين كلهم من المصائب والفتن التي ابتُلى بها العالم الإسلامي ، وفيما يلي بيان الغزو عن طريق التنصير .

المبحث الأول

الغَزو عن طريق التَّنْصير

وفيه المطالب الآتية :-

المطلب الأول

التعريف بالتنصير

هو دعوة جادة لتنصير المسلمين وغيرهم وإدخالهم في عداد الأمم النصرانية وضمن نفوذهم السياسي ، بل والجغرافي .

●● **أســماؤه** : أطلقت على هذا النوع من النشاط التسميات الآتية : التنصير ، التبشير (كما يُسمُّونه كذباً وزوراً) ، الاستشراق ، التكريز .

وقد جاء في الكتاب الذي يُقدِّسُه النصاري إطلاق تسمية عملهم بالتكريز وبالبشارة .

●● **شــعارهم** : يتظاهر المنصرون بالدعوة إلى إنقاذ الأمم من الهلاك والشقاء على يد المسيح الفادي عليه السلام ، ومع أن الديانة التي جاء به

نبي اللّه عيس ﷺ لم تكن عالمية كما سيأتي إيضاحه ، إلا أن المنتسبين إلى المسيح ، وخصوصاً ذلك العدو اللّدود للمسيحية الحقّة وهو بولس ، ومن سار على طريقته ، خالفوا هذا المبدأ ونادوا بها عالمية ، ويقصدون بذلك السيطرة على العالم وإعلاء الوثنية ، وحين أخفقوا في تحقيق ما كانوا يحلمون به من السيطرة على العالم ـ وخصوصاً العالم الإسلامي ـ عن طريق القوة لجأوا إلى التبشير الذي يُراد به في الظاهر إنقاذ البشر والخلاص على يد المسيح كما يزعمون ، ولكن يُراد به في الباطن تحقيق ما عجزوا عنه بالوسائل الحربية ، فاهتموا بالتبشير اهتماماً بالغاً وأنشأوا المدارس على اختلافها لتخريج جحافل التنصير في مختلف بلدان العالم ، وأتبعوا ذلك بطباعة كتبهم المملوءة بالدَّسِّ والغزو ، كما اهتموا بالمساعدات المادية تدعمهم في كل جهودهم الدول الطامعة مثل أمريكا وفرنسا وبريطانيا وغيرهم من دول الغرب ، وقد وجَّهوا جُلَّ اهتمامهم إلى الدول الإسلامية ذات الكثافة السكانية ، مثل مصر وأندونيسيا وغيرها من البلدان التي توجد بها أعداد من النصارى كانوا قلَّة فأصبحوا كثرة يشكلون رأس الحربة ضد المسلمين ، والعيون الساهرة لتدعيم قواعد النصرانية وبثها بين عَوام المسلمين تحت عدة أقنعة .

ومما يُذكر أن أول من اخترع فكرة التنصير هو الملك لويس التاسع ، الذي اعتُقل في مدينة المنصورة أثناء هزيمته في الحملة الصليبية

السابقة ، وخلوته هذه في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ، وقد انتهى به التفكير إلى تلك الآراء والمآخذ التي أفضى بها إلى إخوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكًّا مُقلعاً إليها من دمياط [1] ، وقد نجحت هذه الخطة ، ولم يفطن إليها المسلمون إلا متأخرين ، ولم يعد غرض المنصرين أو المبشرين ومن يقف وراءهم من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية خافياً على أحد ، فلقد أصبح الغزو الفكري لبلاد المسلمين موضع مؤتمرات غربية علنية وسرية ، ومحل مفاوضات يدرسون أقرب الآراء إلى إنجاح الحملات التنصيرية ويخططون لاقتحام البلدان التي يريدونها مسرحاً لنشر نشاطهم ونوفوذهم دون أي خوف من جهة المسلمين ، وقد أعلنها الغرب صراحة في مئات النصوص .

---

(١) انظر : «أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي» ، ص ١٧١

المطلب الثـاني

أهمية التنصير لدى الدول الاستعمارية

ومما لا ريب فيه أن المنصرين هم طلائع المستعمرين ، ومن هنا نجد مدى الترابط القوي بين الفريقين ، «وقد كان المبشرون الذي يفدون إلى البلاد الإسلامية يأتون أول الأمر مستترين بأسماء مختلفة ، فإذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير على مقدار وسعهم ، فإذا وجدوا من الدول الإسلامية مراقبة لهم وتذمراً من أعمالهم وملاحقة لتصرفاتهم لجأوا إلى قناصلهم طالبين حمايتهم ، وكان المسؤلون في القنصليات الأجنبية يدافعون عنهم ويحمونهم بوصفهم من رعاياهم ، وكلما ضعفت الدول الإسلامية أمام نفوذ الدول الأجنبية زادت هذه الدول في دعم المنصرين داخل البلاد الإسلامية وفي حمايتهم وتأييدهم»[(١)] .

ويقول المنصرون عن غبطتهم باستعمار الغرب لسوريا ولبنان بعد أن كانوا يلجؤن إلى حماية فرنسا لهم من قبل : «أجل لقد كنا نعتمد على مساعدة فرنسا الظافرة ، والآن ها هي فرنسا هنا»[(٢)] .

وقد صرَّح بتلك الحقيقة القسيس «زويمر» بقوله للمبشرين : «وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية» .

---

(١) انظر : «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ١٠٩

(٢) انظر : «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ١٠٩

وجاء في خطاب ألقاه الأستاذ «باكر» أحد أعضاء المؤتمر الاستعماري الألماني : «إن السياسة التي ينبغي الجري عليها في معاملة المسلمين تحتم علينا وضع خطة جديدة في مجرى سياسة حكومتنا والمبشرون هم الذين اختصوا وحدهم بالاهتمام بأمر الإسلام والبحث في شؤونه في كل مستعمراتنا الألمانية إلى هذه الأيام الأخيرة ... وأنا لا أرى أن تظل الحالة على ما هي عليه ، بل من رأيي أن تنتقل أزمة السياسة منذ الآن وبعد الآن إلى يد الحكومة في مستعمراتنا ، ويجب على حكومتنا في هذه الخطة الجديدة التي أشير إليها أن تستعين بالوجهة الوطنية لا بالوجهة الدينية ، كيما تتوصل إلى مقاصدها»[1]

والغرض واحد ، هو الاستعمار ، ولكن «باكر» يريد أن يلون الحالة ويجدد النشاط بمختلف الوسائل ، فبعد ثنائه على المنصرين أراد أن يكون إلى جانبهم في دعوتهم الدينية دعوة أخرى هي الوطنية لكي تتعدد الأسباب والموت واحد .

(١) نقلاً عن : «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ١١٤

المطلب الثالث

هل جاء المسيح بديانة عالمية ؟

إن نشاط الغرب النصراني ودعم المنصرين بسخاء لنشر دين المسيح بزعمهم أمر لا مبرر له ولا يستند على حق ، فهل جاء المسيح بديانة عالمية ؟

الجواب بداهةً بالنفي ، فلم يأتِ المسيح بديانة عالمية ، وإنما أرسله اللّه إلى بني إسرائيل بخصوصهم ، ولم يرسل اللّه قبل نبيِّنا محمد ﷺ بديانة عالمية أيَّ رسول ، قال ﷺ من حديث : «... **وكَانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[1] ، أما بالنسبة للمسيح عليه السلام فقد صرَّح في أكثر من نص في الأناجيل بأنه جاء لهداية خراف بني إسرائيل الضالَّة ليس إلا ، وهذا هو ما تفيده نصوص الأناجيل (العهد الجديد) فقد جاء فيه قول المسيح لتلاميذه الإثنى عشر الذين أرسلهم للدعوة قائلاً لهم : «إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالَّة»[2] .

بل هناك ما هو أوضح من هذا النص في تحديد رسالته إلى بني إسرائيل حيث جاءت امرأة كنعانية تصيح به أن يشفي ابنتها ، فامتنع

---

(١) أخرجه البخاري ، ج ١ ، ص ١٢٨ ، ١٦٨ ، ومسلم ج ١ ، ص ٣٧٠

(٢) إنجيل مَتّى ، الإصحاح العاشر ، رقم ٥ ـ ٧

بحجة أنه لم يُرسَل إلا إلى بني إسرائيل ، ولكن بعد أن ألحَّت عليه وحاجَّته لبَّى طلبَها كما في النص الآتي : «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا ، وإذا امرأةٌ كنعانيَّة خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلةً : ارحمني يا سيِّدي يا ابن داوُد إبنَتي مجنونة جداً ، فلم يُجبْها بكلمة ، فتقدَّم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أُرسَلْ إلاَّ إلى خِراف بيت إسرائيل الضالَّة ، فأتت وسَجدَت له قائلةً : يا سيِّد أعِنِّي ، فأجاب وقال : ليس حَسناً أن يؤخذ خُبزُ البَنين ويُطرَحُ للكلاب ، فقالت : نعم يا سيِّد ، والكلابُ أيضاً تأكلُ من الفُتات الذي يسقط من مائدة أربابها ، حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانُك ، ليكُنْ لك كما تُريدين ، فشُفيت ابنتُها من تلك الساعة» [(١)] .

•• تعقـــيب :

تلك النصوص وغيرها مما جاء في معناها في كتابهم الذي يُقدِّسونه واضحة الدلالة على أن المسيحية التي جاء بها المسيح ليست ديانة عالمية ، وإنما هي خاصة باليهود ، لم تتعدَّ ديارَهم طول فترة وجود المسيح بينهم باعتراف الأناجيل التي يدَّعون قَداستها ، فإما أن يؤمنوا بكل ما دُوِّنَ في الأناجيل فيعترفون بأن ديانة المسيح ليست ديانة عامَّة ، وإما أن يُكذِّبوا

(١) إنجيل مَتّى ، الإصحاح الخامس عشر ، رقم ٢١ ـ ٢٨

أناجيلهم في تقريرها ، ولهم أن يدَّعوا مايشاؤون ، أما أن يجمعوا بين المتناقضات فهو مرفوض في بدائه العقول ، وهذا الجواب يُوجَّه للمنصرين والمستشرقين الذين يجوبون الأرض للدعوة إلى نصرانيتهم المحرفة الوثنية البولسيَّة باسم المسيح ، والمسيح عليه السلام براء منهم ومن اعتقاداتهم الوثنية التي أنشأها بولس لتحويل النصرانية إلى الوثنية ثم تغطية الوثنية بالنصرانية التي انتشرت باسم المسيح عليه السلام ، فاتضح أن الديانة التي تحوَّلت إلى عالمية ليست هي النصرانية التي يزعمون انتسابها إلى المسيح ، وإنما هي الوثنية التي قررها بولس والحكام الوثنيون في وقته ومن بعده إلى اليوم لميل كثير من الناس إلى عبادة الأوثان .

المبحث الثـاني

النشـاط التنصيري في ديار الإسـلام

ويشمل الأماكن الآتية :-

●● تمهـــيد :

يتداخل النشـاط النصراني عند المنصرين والمستشرقين ـ كما سيأتي بيانه ـ تداخلاً قوياً وتتعد أوجه النشاطات عندهم وتتعدد الوسائل والأساليب والغرض الحقيقي واحد ، فالكل مصرون على إدخال الناس ضمن النفوذ النصراني وابتلاع الأراضي كما عبَّر عن ذلك المثل الروديسي الذي أفاد بأن الرجل الأبيض جاء إليهم وليس في يده إلا الكتاب المقدَّس وكانت الأرض بأيديهم ، ثم أصبح الكتاب المقدَّس بأيديهم والأرض بيد الرجل الأبيض !!

وهذا هو التفسير الصحيح والحقيقي لتكالب الغرب النصراني وتسابقهم إلى الناس وليس كما يزعمون حبَّاً في خلاصهم وإنما هو الحب في استعمار بلادهم والتحكم في خيراتهم وموارد رزقهم سواء كان هؤلاء من المسلمين أو من غيرهم ، فالطليعة هم المنصرون والمستشرقون الذين يمدون أيديهم إلى الناس بأنواع المساعدات والإغراءات ويخفون وراءهم الأيدي التي تحمل السلاح وتخضع الناس به في تناسق عجيب وتخطيط بارع .

ويجب أن نلقي نظرة عابرة هنا أولاً عن كيفية التنصير في بلاد المسلمين بخصوصهم .

ولا شك أن كل مسلم يشعر بالمرارة بمجرد سماع مثل هذا الكلام ، ولكنه أمر لا بد من بيانه نصحاً للَّه ولعامَّة المسلمين عسى أن يفيقوا من سباتهم العميق ، فلقد نشط المنصرون نشاطاً واضحاً في كل مكان من الأرض في أشكال مختلفة ، وعلى خطط محكمة ـ نشاطات سياسية وإجتماعية وخدمات مختلفة ووسائل إعلام قوية .

ولقد تغلغلوا في ديار المسلمين بصورة تدعو إلى القلق وإلى الرثاء لكثير من الديار الإسلامية التي أصبحت الكنائس منتشرة فيها تدق أجراسها في كل وقت وحين جنباً إلى جنب مع المآذن وصوت المؤذنين بعد أن أغنى اللَّه المسلمين بخير الأديان وأكملها على الإطلاق ، وأصبح شعارهم الصليب البغيض الذي تشمئز النفس من رؤيته يعلو كنائسهم المرتفعة وأماكن تواجدهم في تحدٍّ سافر لمشاعر المسلمين . في الوقت الذي ضعفت فيه مقاومة هذا التيار الجارف ، وإنه لمن الخزي أن توجد تلك الكنائس في ديار أعزَّها اللَّه بالإسلام ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (٥٠) ﴾ [(١)] ، ووجودها في جزيرة العرب أشد خزياً وأخزى من ذلك كله أن يترك المسلمون دينهم الذي أعزَّهم اللَّه به إلى دين بشري يهودي حاقد على كل البشر وكل الديانات ، مملوء بالتناقضات والخرافات التي تشمئز النفس منها ويرفضها العقل .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

لقد توجهت جحافل النصرانية كلها للتنصير ، وكان جل اهتمامهم يتمثل في الرغبة الشديدة في تنصير المسلمين تنصيراً تاماً أو على الأقل تشكيكهم في دينهم وهدم المساجد ، وإقامة الكنائس على أنقاضها ، ولا شأن لهم بعد ذلك على أي حال يكون عليه المسلمون الخارجون من إسلامهم . ولقد غزا هؤلاء الأشرار ، الممتلئة نفوسهم حقداً على الإسلام والمسلمين ، غزوا كل مكان تمكنوا من الوصول إليه ، ووصلت كنائسهم إلى أكثر بلدان المسلمين والدول العربية إلا من رحم اللَّه .

وفي أماكن المسلمين البعيدة تجد أن النصارى قد عزموا على أن يضعوا أمام كل مسجد كنيسة في سباق حثيث ، ولقد شاهدت أثناء وجودي في دورة تدريبية في أندونيسيا منظراً يفتخر به كل مسلم رغم مرارة الحامل عليه .

فقد رأينا أنا وزملائي أثناء زيارتنا لريف هناك جماعة من أهل البادية في الجبال وقد انتشروا كلهم ، منهم من يحفر الأرض ويُسوِّيها ويُزيل الأحجار والأشجار منها ، ومنهم من يأتي بأحجار البناء ، ومنهم من يقطع الأخشاب ويأتي بها ، وحينما سألناهم : ما الذي تريدون بهذا العمل ؟ قالوا : نريد أن نبني مسجداً هنا لأن النصارى قرَّروا أن يُقيموا كنيسة أمام هذا المكان وبين أظهرنا ، ولا حول ولا قوّة لنا بمنعهم ، فشاركناهم العمل قليلاً ونحن في غاية الأسى والحزن أن يصل نشاط أعداء اللَّه من الضالين إلى أن يتتبعوا البوادي وفي رؤوس الجبال الوعرة المسالك والتي يصلونها بالطائرات الهليوكبتر لإقامة كنائس فخمة بين ظهراني المسلمين وفي

ديارهم ، ولقد تحوَّل جُلّ اهتمام دُعاة التنصير إلى الأماكن الفقيرة أو التي تغلب عليها الأميّة والجهل ، وإلى ضعاف الإيمان فأغرقوهم بالمساعدات المختلفة ـ لا حُبًّاً في خلاصهم من الخطايا كما يزعمون ، وإنما رغبة في نشر النفوذ السياسي وإضعاف أمر الإسلام كما ذكرنا سابقاً ، ولقدصرَّح طُغاة النصرانية بهذا المسلك ، بل وطوَّروه بعد ذلك بخُبث ودهاء فاق ما قام به أوائلهم .

واقرأ ما كتبه الشيخ / عبد الرزَّاق ديار بكرلي في كتابه «تنصير المسلمين» ، تحت عنوان «الدعوة إلى التنصير الجماعي» ، ذكر فيه أن النصرانية المعاصرة بدأت في طريقة جديدة لعرض بضاعتها الزائفة ، وهي طريقة جدُّ خطيرة ، أقرَّها أخطر مؤتمر للنصارى في «كولورادو» الذي حضره مائة وخمسون رجلاً ، هم أبرز قادة النصراتية في العالم يجمعهم هدف واحد هو كيف السبيل لتنصير المسلمين أينما كانوا» ، وقد خرج المؤتمرون بقرارات خطيرة كانت في غاية السِّرِّية .

وقد انتقد أصحاب المؤتمر الطرق القديمة للمنصرين ، واقترحوا بدلاً عنها طرقاً جديدة ، وأساليب غاية في المكر ، بل صرَّحوا بانتقاد القس الشهير في النصرانية ، وهو «زويمر» ، حيث صرَّح بكلام صدر من فرط حقده على المسلمين والإسلام رأي فيه المنافقون الجدد من النصارى خطراً على تقبل المسلمين لديانتهم الوثنية بسبب صراحته السافرة بمقاصد المنصِّرين الحاقدين .

فقد قال «زويمر» في المؤتمر الذي انعقد في القدس عام ١٩٣٥م ، مُخاطباً المنصرين حينما شكوا إليه عدم رواج بضاعتهم الكاسدة في أوساط المسلمين على القدر الذي يتمنونه ويتلهفون للوصول إليه من أقرب الطرق ، حيث قال مُهدِّئاً لهم ، ومُبيِّناً الغرض الحقيقي الذي ينبغي أن يكون نصب أعينهم ، فقال : «إني أقركم على أن الذين أُدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين ، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة : إمَّا صغير لم يكن له من أهله من يُعرِّفه ما هو الإسلام ، وإمَّا رجل مُستخِف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته ، وقد اشتد به الفقر وعزَّت عليه لقمة العيش ، وإمَّا آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية . ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد الإسلامية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له باللَّه ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام» ... إلى أن قال : «إنكم أعددتم نشأً لا يعرف الصلة باللَّه ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تُدخلوه في المسيحية ، وبالتالي فقد جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار ، لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، فإذا تعلم فللشَّهوات ، وإذا جمع المال فللشَّهوات ، وإن تبوأ أسْمَى المراكز ففي سبيل الشَّهوات يجود بكل شيء ، وقد انتهيتم إلى خير النتائج ،

وباركتكم المسيحية ، ورضي عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات اللّه»[(١)] .

لقد أنطقه اللّه بالحقيقة ، ولقد بيَّن أنه لا فرق بين عمل الشيطان وعمل المنصرين ، فهم أداة إغواء عن اللّه وعن الصلة به ومعرفته ، وماذا بقي للشيطان ، لقد أوضح «زويمر» الحقيقة أيّما إيضاح ، ومن هنا جاء انتقاد أولئك المؤتمرون في «كلورادو» رغم تقديسهم لـ «زويمر» ، لأن هؤلاء يريدون أن يعملوا في الخفاء ودون أن يظهر منهم ما تُكنُّه صدورهم من التصميم على تعميم النصرانية في كل أصقاع الأرض ، والغرض هنا إنما هو بيان ضحايا هذه النصرانية الوثنية التي استشرى خطرها وعمَّ أكثر البلاد الإسلامية في جميع القارات ، في الوقت الذي ضعف فيه اهتمام علماء المسلمين بمجابهتهم بنفس القوة التي يهاجم بها المنصرون وبنفس الأساليب ، وقد نجح المنصرون نجاحاً ظاهراً في أكثر من مكان من بلاد المسلمين ، ومن الأمثلة على هذا كذلك ما ستقرأه في التقرير الذي سلَّمني إيّاه أحد الأخوة من طلاب العلم في «داكار» في إحدى الدورات التدريبية التي كانت في هذا البلد الإفريقي الذين كانوا على الإسلام ، وعلى الفطرة والبساطة العفوية رغم ما عندهم من الجهل ، ففزتهم النصرانية التي لا ترحم ، فإذا بهم يحولونهم إلى الوثنية النصرانية ، أو على الأصح يخرجونهم من دينهم الإسلامي ليبقوا أمَّةً ممسوخة على أي دين يشاءون غير الإسلام ، فهذا هو المحظور عليهم تماماً ، كما رأيت في خطاب «زويمر» السابق الذي

---

(١) انظر : «جذور البلاء» ، عبد اللّه التَّل ، ص ٢٥٧ ، عن تنصير المسلمين ص ٢٠

تبجَّح فيه بأنه لا ينبغي الاهتمام بالمسلمين إلى حد إدخالهم في النصرانية ، لأن هذا شرف لهم ـ حسب زعمه ـ وبئس الشرف .

وإليك أخي القارئ صورة ذلك التقرير كما هو دون أي تغيير مع إسهام أولئك الشباب في بيان كيفية مقاومة التنصير من وجهة نظرهم .

المطلـــب الأول

التنصير في السنغال

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ،،،

عرض حركة التنصير في قبيلتي «سيرير ، وجولا» على كل مسلم غيور على دينه :

فإن من أخطر القضايا الحالية في قبيلتي «سيرير ، وجولا» قضية التنصير التي يتألم منها كثير من الناس لشدة خطورتها وتجاوزها الحدَّ في المجتمع الإسلامي «السيريري ، والجولاوي» .

وإن الجمعية ليسوؤها تحول بعض المسلمين من الحنيفية إلى المسيحية ، وخصوصاً من قبيلة «سيرير ، وجولا» بسبب لعبة عملية التنصير ، التي تخطف كثيراً من ضعفاء الإيمان إلى الأديان المعاصرة والمسيحية ، والجمعية إذ تعلن هذه اللعبة والعمليات السيئة ، حرصاً على بقاء هؤلاء الناس في الإسلام ، ترجو من حماة الدين وكبار المسئولين ، وكل مسلم غيور ، ومن كافة الدعاة إلى المنهج الإلهي أن يلفتوا أنظارهم وانتباههم إلى الحركات المعادية ، رغم أن الإسلام يبقى مدى الأزل قوياً ومنتشراً مهما بدَّل وغيَّر بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين .

•• النتائج التي وصلوا إليها بسبب التبشير والتنصير :

فإنهم حقاً وصلوا إلى حدٍّ بعيد يقدر بحوالي ٢٠٪ ، حيث كانت نسبة المسلمين في القبيلتين تقدر بـ ٦٠٪ ، والحالة تدعو إلى التذكير بما يلي :-

- كسر السور المبني باللبنات والأحجار المحيط بالمسجد الجامع بـ «جوفيور» .
- حرق المدرسة الإسلامية بقرية «ساخور» منطقة فاتيك .
- نقل مستوصافتهم الصحية إلى حيث الأغلبية التنصيرية .
- إغلاق المدارس العربية الإسلامية بـ «لول سيسين ـ بافاي» ..
- بناء الكنائس في كل مكان ضد المساجد في كل مكان .

•• الكنائس التي بنتها المسيحية ضد المساجد :

من بينها كنيسة «جوفيور» ، وكنيسة «جيلاس» ومستوصفها ، وكنيسة «مار لوج» ، وكنيسة «جورب ـ فاييل» ... وكل هذه في منطقة واحد ، رغم أن نسبة المسلمين هناك كانت تقدر بحوالي ٩٠٪ .

•• وسائل التنصير الملموسة :

- الكنائس المنتشرة في كل مكان ، وخصوصاً في البيئات السيريرية والجولاوية .

- الدعاية وتوزيع الهدايا المعنوية والمادية في كل بيئة بصورة مستمرة .
- حفر آبار جوفية في الريف للرعاة والمزارعين ونحوهم مجاناً .
- نقل المرضى من البادية إلى المستشفيات في المدن بأقل تكلفة أو مجاناً .
- بناء المستوصفات الصحية وتوزيع الأدوية للعلاج مجاناً .
- كثرة دعاتهم وتوفر إمكانياتهم كوسائل النقل وما إلى ذلك .

●● مسئولون لتطبيق هذه الوسائل :

- الكنيسة هي أكبر مسئول لتطبيق هذه الوسائل .
- الهيئات التنصيرية الداخلية .
- بعثات التبشير والتنصير من الداخل والخارج .
- اللجنة المكلفة بتوزيع الأدوية والمعونات المادية والمعنوية .
- الرهبان والراهبات والمندوبين الذين هم من نفس القبائل .

●● مصدر الوسائل :

الكنيسة هي أبرز مصدر من المصادر الداخلية ، وأما المصادر الأساسية الملحوظة فمن الخارج كفرنسا وأمريكا وإيطاليا وألمانيا وبريطانيا .

وإننا عندما نقول بالحقيقة حسب المعلومات الصحيحة ، وحسب الحقائق التي لا غبار عليه يمكن أن نقول أنها كلها من الخارج ، إذ قلَّما تمتلكها الكنائس الداخلية ، فمن الكنائس الخارجية بوجه صحيح ، وهذا هو الحق الصحيح الذي لا يمتري فيه اثنان .

●● كيفية مقاومة حركة التنصير :

مقاومة حركة التنصير تتركز على مجموعة من الأسس ، يمكن تلخيصها في النقاط التالية :-

- رفع مستوى نشر اللغة القرآنية في البلاد على وجه إسلامي صحيح بشكل معاصر مرغوب فيه .
- رفع مستوى التثقيف الإسلامي للأفراد في البلاد ..
- رفع عدد الدعاة المعينين رسمياً من الدول العربية ، وهم من أبناء البلاد ، لأن ذلك أكثر فعالية .
- إنشاء العديد من المؤسسات التعليمية الإسلامية في البلاد .
- توزيع الكتب الدينية والمدرسية للمسلمين وللمؤسسات التعليمية كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين .
- إنشاء المستوصفات الصحية في البلاد كما هو الحال للمسيحيين في البلاد .

- إعطاء العديد من المنح الدراسية للشباب المسلم لأنهم مضطرون إليها ، وإذا لم يجدوها فسوف يضطرون إلى اللجوء للجهات الأجنبية كالمسيحية والماسونية ونحوها [1] .

- توزيع المصاحف الشريفة والمرتلة في الأشرطة مجاناً ، ما إلى ذلك من الصحف والمجلات الإسلامية .

- العناية بالترجمة المعنوية للكتب الدينية باللهجات المحلية الشهيرة في البلاد .

- ابتعاث الكوادر من الخارج المتسلحين بالثقافة الإسلامية السليمة لإجراء الدورات التدريبية سنوياً .

- توزيع المعونات والمساعدات المالية للمضطرين إليها من المسلمين قبل لجوئهم إلى غيرهم [2] .

- توفير مشروعات إسلامية لمساعدة المسلمين ولتذليل الصعوبات التي يجابهونها تجاه إخوانهم المسيحيين [3] .

- توفير المشاريع الإسلامية والإنسانية كما هو الحال في المشروعات الإسلامية في الدول العربية .

(١ ، ٢) ومَنْ يتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل له مَخْرَجًا ، ولا يجوز له الرجوع إلى من ذكرهم صاحب المقال .

(٣) أيُّ أخوة يقصد ؟!!

هذا ، ومن الحلول الإيجابية التي لا حلَّ فوقها إن لم يكن الحلَّ الوحيد ، تزويد مدارس المنظمات الإسلامية بالكتب الدينية والمدرسية ، التي هي الطريق الوحيد للوصول إلى الأهداف الهادفة من التعليم الإسلامي .

وبهذا التقرير الوجيز من المعلومات الصحيحة ، نأتي إلى ختام هذه العريضة من الجمعية إلى حُماة الدين وكبار المسئولين ، وكل مسلم غيور ، سائلين العلي القدير أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، وموافقاً لمرضاته ،، إنه جواد كريم .

رئيس الجمعية
وعضو هيئة التوعية الإسلامية
في الإذاعة الوطنية والمرئية
الحاج / محمد الأمين سنقور

المطلب الثاني

التنصير في إندونيسيا

وقد نقل «بكرلي» عن «ديفيد أ. فريزر» قوله : «وتوضح الدراسة التي قام بها «إيفري ديليس» عن إندونيسيا أهمية فهم العوامل الخلقية والاجتماعية والثقافية لتفسير أسباب تحول كثير من مسلمي هذا البلد إلى النصرانية بين عامي ١٩٦٥ ـ ١٩٧١م»[(١)] ، ولقد أصبحت إندونيسيا مأوى لكثير من الطامعين في محاربة الإسلام الصحيح فيها .

فبالنسبة للتنصير فيها يقول «دون م ماكري» عن انتشارها في هذا البلد : «وفي إندونيسيا حيث انتشر الكتاب المقدس فعلاً من خلال هذه الوحدات الثقافية نجد أن مجتمعات بأكملها قد تنصرت في وقت واحد ، ويُقال إنه في أحد الأماكن تم تحويل (٢٥) مسجداً إلى كنائس»[(٢)] ، وقد وصل عدد الكنائس في إندونيسيا (٨٩١٩) كنيسة للبروتستانت ، و (٣٨٩٧) قسيساً ، و (٨٥٠٤) مبشراً متفرغاً ، و (٧٢٥٠) كنيسة كاثوليكية ، و (٢٦٣٠) قسيساً ، و (٥٣٩٣) مبشراً متفرغاً ، وغير ذلك من أوجه نشاطهم ، حيث سيتم تنصيرها كلها في عام ٢٠٠٠م[(٣)] بزعمهم ، ومثلها كينيا .

---

(١) «تنصير المسلمين» ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٣) «الموسوعة الميسرة» ، ج ١ ، ص ٦٨٥

ولن يتم لهم إن شاء تنصير إندونيسيا كلها لا في هذا العام ولا في غيره ، وإن كانوا قد اقتطعوا جزءاً من هذا البلد وهو ما نأسف له .

المطلب الثالث

التنصير في تايلاند

وفي تايلاند» يذكر مجموعة من المنصرين في مقال لهم بعنوان «مقارنة بين وضع النصرانية والإسلام في جنوب شرق آسيا» قولهم : «خلال الخمس سنوات الأخيرة تم تعميد ٢٨ مسلماً تايلاندياً ، ومن هؤلاء رجع اثنان منهم إلى الإسلام ... ومن الملاحظ أن المسلمين الذين أبدوا استجابة أكثر كانوا أكثر من الذين تم الاتصال بهم من خلال العيادات الطبية لمعالجة الجذام» (١)

لأنه كما قال الشاعر

يُقضَى على المَرْءِ في أيّام مِحْنَتِه ⁕⁕⁕ حتى يرى حَسَناً ما لَيسَ بالحَسَنِ

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨

يقصد أن الذين دخلوا النصرانية كان أكثرهم عن طريق معالجتهم من الجذام ، نسأل اللّه العفو والعافية لجميع المسلمين ، ومعلوم أن كل الأدوية إنما تُقدَّم باسم التنصير .

المطلب الرابع

التنصير في السُّودان

قال الدكتور / علي إبراهيم النملة : «وفي عاصمة عربية إسلامية تُعد بوابة المسلمين إلى إفريقيا هي الخرطوم يجد الواصل إليها عن طريق الجو أول ما يصادفه نادٍ تنصيري ، ثم تليه على الطريق إلى المدينة مقبرة للنصارى ، ثم تليها كنيسة نصرانية ، فيُحسُّ المرء أنه في مدينة نصرانية ، أو غالبية أهلها من النصارى ، وستقوم كنيسة على مدخل المطار في البحري مساحة أرضها مئة ألف» [(١)] .

ولهذا ينقل عن «جون قرنق» المتمرد الصليبي في جنوب السودان قوله : «السودان هو بوابة الإسلام والعروبة إلى إفريقيا ، فلتكن مهمتنا الاحتفاظ بمفتاح هذا الباب حتى لا تقوم للإسلام والعروبة قائمة في جنوب الصحراء الكبرى» [(٢)] .

ومما يُذكر أن الإرساليات النصرانية في إفريقيا تبلغ (١١١,٠٠٠) إرسالية بعضها تملك طائرات للتنقل وسفناً لتوزيع الكتب المسيحية ، وتذكر بعض الإحصائيات أنه وصل عدد المبشرين ما يزيد عن (٢٢٠) ألف مبشر ، منهم (١٣٨,٠٠٠) كاثوليكي ، والباقي (٨٢,٠٠٠) بروتستانتي

---

(١) «التنصير» ، ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٧

وبلغ عددهم في إفريقيا وحدها (١١٩,٠٠٠) مبشراً ومبشرة ينفقون بليوني دولار سنوياً .[١]

وفي أماكن من أفريقيا تجد المبشرات يجُبْنَ المسافات الطويلة في نشر التنصير على دراجات نارية للوصول إلى الأمكنة التي لا تصل إليها السيارات كما سمعت ذلك من طلاب العلم هناك .

---

(١) «الموسوعة الميسرة» ، ج ١ ، ص ٦٨٥

المطلب الخامس

التنصير في الجزيرة العربية

لقد بذلت الحملات التنصيرية جهوداً جبارة لنشر النصرانية في الجزيرة العربية قديماً وحديثاً ، وما أشدَّ تلهُّفهم على ذلك ، وكم بذلوا من المحاولات التي باءت بالفشل إلى أن تمكنوا فعلاً من تشييد بعض الكنائس في الخليج العربي ، وكانت لهم طرقهم وأساليبهم الماكرة في التوصل إلى أغراضهم عن طريق الخدمات الاجتماعية ، وخصوصاً النواحي الطبية التي هيئت لهم الوصول إلى قلوب الناس ، وما يتبع ذلك من وصول الخدم والخادمات التي امتلئت بهم البيوت الإسلامية عن حاجة وعن غير حاجة أيضاً لإشباع نعرة التفاخر عند كثير من الناس .

وإذا أراد القارئ أن يقف على تفاصيل ذلك ، فعليه بقراءة الكتب والنشرات التي اهتمت بهذه الناحية ، مثل كتاب «أصول التنصير في الخليج العربي» تأليف «هـ كوتوي زيقلر» ، ترجمة «مازن صلاح مطبقاني» ، وكتاب «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» تأليف «أحمد فون دنقر» ، وكتاب «المربيات الأجنبيات في البيت العربي الخليجي» تأليف الدكتور «إبراهيم خليفة» .. وغيرها من المؤلفات والنشرات ، وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، وقد سمعت أن للنصارى نشاطاً محموماً في جنوب الجزيرة العربية (عدن) .

المطلـب السـادس

التنصير في الخلـيج العـربي

ويشـمل الأماكن الآتية :-

●● تمهـــيد :

إن بناء الكنائس في ديار الإسلام جريمة شنعاء ، وعاراً مخزياً أن يكون للوثنية موقع قدم في ديار أعزَّها اللّه بالإسلام ، ورفع عنها الجاهلية رحمة منه ، وأقامةً للحُجَّة على عباده ، فما الذي سيجنيه العالم الإسلامي من وجود هذه الكنائس بين ظهرانيهم ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾ [١] ، وأكرر أنه إذا كان وجود الكنائس في ديار المسلمين أمراً مخزياً فإن وجودها في جزيرة العرب يُعتَبَر أشدُّ خزياً ، بل ومن أشد المنكرات التي يجب إزالتها والأخذ على أيدي المنتسبين إليها ، فقد حرَّم الإسلام تحريماً مؤبَّداً أن يجتمع فيها دينان إلى يوم القيامة . قال ﷺ فيما يرويه عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «**لأُخْرِجَنَّ اليَهُودَ والنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ حَتَّى لا أَدَعَ فِيهَا إلاَّ مُسْلِمَاً**» [٢] ، وقد جاء في معناه أحاديث كثيرة كلها تُحرِّم أن يجتمع بجزيرة العرب دينان ، فأين المسلمون من تصميم النصارى على غَزو بلاد العرب وإقامة الكنائس لو تيسر لهم ـ لا سمح اللّه ـ على إنقاض المساجد ، وإعادة

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

(٢) رواه مسلم ، ج ٣ ، ص ١٣٨٨

السيطرة الصليبية على كل أراضي العرب في الجزيرة ليكون مصيرهم مصير إخوانهم من المسلمين في إفريقيا وفي شرق آسيا .. وغيرها من البلدان التي وطئتها أقدام المنصرين النجسة ، يغمرهم الحقد على الإسلام وعلى نبيِّه العظيم ، وعلى كل مسلم غيور على دينه ، ولقد تجرأ النصارى على المسلمين فصاروا يهاجمون الإسلام وأهله علانيةً غير مكترثين بمشاعر المسلمين ولا بمشاعر أهل البلد الذي آواهم وسمح لهم بإظهار كفرهم رعاية لمصالح المواطنين بزعمهم .

لقد أصبح الخليج العربي بين فكَّي الكماشة ، التنصير من جانب ، والنفوذ الرافضي من جانب آخر ، وكل هذا يُرادُ به حصار الإسلام والعقيدة السلفية والقضاء عليها ، كان اللَّه في عون هذا البلد ، إنها محنٌ قاسية ولا شك يمر بها المسلمون هناك لا يعلم مداها إلاَّ اللَّه وحده .

وهذه الأوضاع المشار إليها كانت قبل أحداث برج التجارة العالمي ، وقبل توجُّه جحافل النصارى لاستعمار أفغانستان ، واليوم لاستعمار العراق ، ولا أحد يدري إلاَّ اللَّه تعالى ما ستظهره الأيام المقبلة ، فإننا نعيش اليوم تهديدات أمريكا وبريطانيا وحلفاؤهم لضرب المنطقة العربية بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل كما يزعمون ، وهو حقيقة لأخذ منابع البترول كما يُصرِّح بذلك كثير من المسئولين حتى في الدول الأوربية .[1]

---

(١) كتبت هذا الكلام قبل غزو أمريكا للعراق ، وانتهى أمر العراق وأصبح اليوم بأيديهم يحكمه أمريكي ، وأما قضية الأسلحة الشاملة فقد تبين للجميع أنها كانت حيلة ذكية ومؤامرة محكمة لاستعمار العراق ، إذ لم يعثروا في العراق بعد استعمارهم له على أي سلاح شامل .

وقد جاءت نصوص مستفيضة عن الصحابة على منع بناء الكنائس في ديار المسلمين ، وفي كتب الحديث ما يشفي ويكفي ، وكذلك من جاء بعد الصحابة كلهم على تحريم بناء الكنائس ، وفي كتب الفقه في بيان حقوق أهل الذِّمَّة وأهل المِلَلْ الأخرى ما لا يُحْصَى من الأقوال عن علماء المسلمين في تحريم بناء الكنائس بين ظهراني المسلمين ، وأن مَن فعل ذلك فإنه يُعزَّر وتُهدَم الكنيسة خصوصاً بناء الكنائس المستحدثة ، ولم يتوانى المسلمون في هدم كنائس الكفَّار إلاَّ ما كان قبل قدوم المسلمين أراضيهم ودخول أولئك الكفار في الذِّمَّة بالصُّلح فلهم ذلك ، ما لم ينقضوا عهدهم ، فإذا نقضوه فللمسلمين حينئذ هدم كل كنائسهم وعلى المنخدعين بزخارف القول بتقارب الأديان السماوية ، أو رعاية المصالح الوطنية ، أو ترديد شعار المؤاخاة بين الإسلام واليهودية والنصرانية ، عليهم إن كانوا غيورين على دينهم أن يراجعوا كلام علماء الإسلام وفقهائهم ليتأكدوا من حقيقة موقف الإسلام من التعاليم الباطلة الجاهلية ، ومن موقفه من رفع الكنائس وسائر الشعائر النصرانية في ديار المسلمين ، فما أحرى بالمسلمين أن يُروا اللَّهَ خيراً من أنفسهم وأن يمنعوا - حُكاماً ومحكومين - كل ما يُضادّ الإسلام ويرفع شأن الديانات الباطلة في ديارهم ، فإنه ما غُزي قومٌ في عُقر دارهم إلاَّ ذَلُّوا كما قال ﷺ : **«مَا وُطِئَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِم إلاَّ ذَلُّوا»** [1] .

وعسى أن يأتي اليوم الذي يستفيق فيه المسلمون قريباً ويكون شعارهم «لا دينان في جزيرة العرب» ، بل ولا في أي بلد إسلامي ، وأن يُطهِّروا

(١) تفسير القرطبي ، ج ٨ ، ص ٢٩٢

بلدانهم عن نجس النصرانية البولُسية الوثنية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾ (١) ، عسى أن يأتي ذلك اليوم ، وليس ذلك على اللَّه بعزيز ، ونقول لمن لم يُفِقْ منهم ما يُروَى عن مجنون ليلى حين عاتَبَ نفسه بقوله :

أفِقْ قد أفاقَ العاشِقونَ وإنَّما * تَماديكَ في لَيلى ضَلالٌ مُضَلَّل**

وعلى من انخدع بزخارف دعايات النصرانية أن يرجع إلى دينه الحنيف الذي جاء به محمد بن عبد اللَّه ﷺ الذي لا يقبل اللَّه ديناً سواه .

وعلى كل من بيده شيء من أمور المسلمين أن يتقي اللَّه فلا يسمح ببناء الكنائس بين ظهراني المسلمين بحجة رعاية مصالح المواطنين ، أو عدم التعصب الديني ... وما إلى ذلك من الحُجَج التي لا تنفع صاحبها يوم يقف بين يدي اللَّه تعالى ، وعليهم أن يتقوا اللَّه فلا يكذبوا على الإسلام أنَّه يُجيز بناء الكنائس ويحترمها ، وأنه يحترم جميع الأديان - كما يزعمون - أو أنه مَرنٌ يتماشى مع جميع الأفكار ويتطور مع كل عصر بغرض تمييع أحكامه ، عليهم أن يتقوا اللَّه فيما يقولون ويكتبون ، وأن يتقوه فلا يغرِّروا بأمَّتهم ويقدمونها هدية لبُولس اليهودي .

وفيما يلي أشير بتصرف واختصار إلى حركة التنصير في الخليج من كتاب «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨

•• التنصير في البحرين :

فقد ذكر مؤلف الكتاب أن أول ما بدأ التنصير في الخليج كان من البحرين حين زار «زويمر» هذا البلد عام ١٨٩٠م ، وجاءته الأموال من الكنيسة الإصلاحية الأمريكية ، وقد دخل المنصرون عن طريق الأعمال الطبية حيث أنشأوا مستشفى البعثة الأمريكية الذي أُسِّس عام ١٩٠٢م ، ثم بُنيَت مدرستين ، إحداهما للبنين ، والأخرى للبنات في هذا البلد ، ووصل عدد الطلاب إلى (٥٠٠) طالب ، بالإضافة إلى المكتبة المسيحية هناك التي تُسمَّى مكتبة العائلة لبيع كتب التنصير ، وعلى رأسها الأناجيل ، ويبلغ عدد أتباع الكنائس العالمية في دولة البحرين من الجنسيات المختلفة كما يلي :-

١ - أتباع الكنيسة السورية الأرثوذوكسية في «مالابار» ، ويتبعها حوالي (٢٠٠) عضو ، معظمهم من الهنود .

٢ - أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ويتبعها حوالي (٢٧٠٠) عضو ، معظمهم من الهنود ، وتُقام الصَّلوات لديهم بالإنكليزية .

٣ - أتباع الكنيسة الإنكليكانية ، وعدد أعضائها (٥٠٠) عضو .

٤ - أتباع الكنيسة الوطنية الإنجيلية ، وهي الكنيسة الوحيدة في البحرين التي تضم عدداً أكثر من المواطنين بين أعضائها (١٥٠) عضواً ، بينهم ٦٠ بحرانياً .

٥ ـ كما أن هناك طائفة إنجيلية تتحدث بالإنجليزية ، وتضم (١٨٠) عضواً تقريباً ، وأتباعها من الهنود والباكستانيين .

٦ ـ أتباع كنيسة الرب ، وتضم هذه الطائفة الآن حوالي (٤٠) عضواً نظامياً ، ويشرف عليها قسيس من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكل أعضائها من المهاجرين .

«والمبشرون يشعرون أن السلطات في البحرين تود أن تكون الكنائس للأجانب ، ولا تسمح بالتبشير بين المسلمين ، كما تمنع في نفس الوقت اضطهاد المسيحيين»[(١)] .

ويُلاحظ في هذه الأعداد كثرة المتنصرين من الهنود والباكستانيين ، وقد بلغ أتباع تلك الكنائس أكثر من (٣٧٧٠) شخصاً ، وهو عبارة عن عدد كبير في دولة صغيرة هي البحرين .

كما أن هذا التقرير قد كتب في وقت متقدم ، قبل أن تطأ أقدام النصارى للخليج في غزوهم الفعلي له .

(١) بتصرف عن «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» ، ص ١٦ ـ ١٩

•• التنصير في الكويت :

الكاثوليك يُشكلون حوالي (٥٠٪) من المسيحيين ، ويُقدَّر عدد المسيحيين هناك بـ (١٩ ٥٠٠) شخصاً ، معظمهم من الهنود والأرمن والسوريين والأقباط ، كما توجد في الكويت سبع طوائف بروتستانتية أكبرها أتباع كنيسة «مارتوما» الهندية .

ويوجد أيضاً أكثر من (٢٥٠٠٠) مسيحي تابعين للمذهب الأرثوذوكسي لطوائف مختلفة من الأرمن والأقباط والمالابار السوريُّون ، «ولا توجد في الكويت كنائس وطنية ، والكويت هي البلد الوحيد في الخليج الذي أسس فيه المسيحيون «المؤتمر الكنسي الكويتي» كمركز للتشاور والتنسيق»[(١)] .

ويُلاحظ أن القول بعدم وجود كنائس في الكويت غير مُسلَّم به ، ولعل الذي يذكر هذا كان صحيحاً في وقته ، أما وجود الكنائس في الكويت فهي موجودة ، وقد سمعت بأُذُنيَّ أجراس الكنائس أثناء مروري بالكويت في رحلتي العلمية لشراء كتب تتعلق ببحثي عن الخوارج ، وحينما سمعت الأجراس وهي تُدَوّي سألت عنها ، فقيل لي أنها أجراس كنيسة ، ولم أتمكن من مشاهدتها لضيق الوقت .

---

(١) «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» ، ص ٢١ ـ ٢٢

•• التنصير في عُمان :

وأما التنصير في عُمان فقد بدأ منذ وصول القس «زويمر» وزميله «جيمس» ، وحصلوا على المساعدات الضخمة من الكنيسة الإصلاحية الأمريكية ، وتوجد بعُمان مكتبة مسيحية لبيع الكتب التنصيرية .

أمَّا أتباع الكنائس العالمية في عُمان فهي :-

١ ـ الكنيسة الإصلاحية الأمريكية ، وقد بدأت في عام ١٨٩٠م ، ويوجد الآن لها ثلاث كنائس ذات بنايات ضخمة ، ويوجد منهم حوالي (٥٠٠) شخص بروتستانتي .

٢ ـ الكنيسة الكاثوليكية ، أُنشئت في عُمان عام ١٩٧١م ، ويوجد منهم حوالي (٧٠٠) من الكاثوليك .

٣ ـ الكنيسية الأرثوذوكسية ، ومعظم أتباعها من الهنود .

ويُلاحظ أن تلك الكنائس هي لأجانب من طوائف وبُلدان شتّى في العالم ، وأكثر الإمدادات المالية تأتيهم من الكنيسة الإصلاحية الأمريكية .(١)

---

(١) «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» ، ص ٢٣ ـ ٢٥

•• التنصير في قطر :

أما قطر ، فإنها لا تختلف عن غيرها من دول الخليج في انتهاز الكنيسة الإصلاحية الأمريكية للتصير فيه .

وأتباع الكنائس في قطر :-

١ ـ الكنيسة الكاثوليكية وأتباعها حوالي (٢٥٠٠) عضو مختلفي الأجناس ، معظمهم هنود ، والبقية أوربيُّون ، وقد رفضت الحكومة فيها إقتراحاً للجالية الكاثوليكية ببناء كنيسة ، وتُقام طقوسهم في منازل وأبنية خاصة لشركات النفط .

٢ ـ الكنيسة البروتستانتية ، ومعظم أتباعها من الأوربيِّين .

٣ ـ الكنيسة الأرثوذكسية ، وأتباعها قليلون ، ومعظمهم من الهنود الملاباريون .[١]

---

(١) «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» ، ص ٢٥ ـ ٢٧

•• التنصير في الإمارات :

وأمَّا الإمارات العربية المتحدة فيها خمسون ألف مسيحي ، ويبدو أن التنصير فيها أنشط منه في سائر دول الخليج ، وقد دعمت الحكومة بناء الكنائس والمستشفيات والمدارس لهم ، ويتمثل النشاط التنصيري في «البعثة المتحدة الإنجيلية» التي أقامت مستشفى يتسع لأربعين سريراً في «العين» بتعاون مع «أبو ظبي» في تكوين مركز للنشاطات التبشيرية وتُوزِّع هذه المستشفيات المطبوعات التبشيرية للمرضى الخارجيين ، وللمرضى المقيمين ، وللمنصِّرين هناك مكتبات وقاعات إجتماعات ومستوصفات تُدار من قبل المنصرين في «الفُجَيرة» وفي «الشارقة» - وقد أُغْلِق - وفي «البريمي» ، ومدرسة «أبو ظبي» .

ولديهم حالياً أكثر من (٨٠٠) طالب يتعلمون العربية والإنجليزية ، منهم حوالي (٣٠) قدموا من الهند وباكستان ، وفي «أبو ظبي» مكتبة مسيحية وغير ذلك من النشاطات .

أمَّا أتباع الكنائس في الإمارات العربية المتحدة ، فهي :-

١ ـ كنيستان بروتستانتيان ، إحداهما في «أبو ظبي» ، والثانية في «دُبي» ، ولهم مجموعات متفرقة تُدار من قبل بعض القساوسة ، وقد تنصَّر بعض المسلمين هناك فيما قيل .

٢ ـ ثلاث كنائس حديثة البناء تابعة للكنائس الكاثوليكية ، وعدد أتباعها يبلغ (١٦٠٠٠) تقريباً .

٣ ـ طائفتان من أتباع الكنيسة السورية الأرثوذوكسية ، كنيسة كُبرى في «أبو ظبي» ، وصُغْرى في «دُبي» . [١]

ومن تلك الأعداد الضخمة للكنائس وأتباعها يتبين مدى النشاط الذي يبذله المنصِّرون في ديار الإسلام مع التنبه إلى عدد السكان في الخليج ، ويبدو لي أن تلك النسب السابقة كانت في فترة متقدمة على الأقل قبل حرب الخليج ، وأمَّا بعد حرب الخليج فلا تسأل عن تكالب المنصِّرين وتسابقهم إلى سد كل ثغرة في دول الخليج لملئها بدعاياتهم وتبشيرهم البغيض إلى المذاهب الغربية الضالة ، وإقبال بعض الفتيان والفتيات للعمل معهم ، وقد فرح النصارى بهم ليجعلوا منهم دعاية مغرية لغيرهم .

---

(١) «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» ، ص ٢٧ ـ ٣٠

المبحث الثالث

أسْباب انْتشار التنْصير في البلاد الإسلامية

لانتشار التنصير في البلاد الإسلامية أسباب كثيرة ، بعضها واضح ، وبعضها خفيّ ، يسير خلف خطط مدروسة وعلى كواهل كثير ممَّن لا يُشار إليهم بالبنان ، كالمُبشِّرة التي تُسمَّى «الأم تريزا» حيث لم يسمع عنها أحد إلا في رثائها من إذاعات التنصير حين ماتت السنة الماضية ، بأنها نصَّرت عدداً كثيراً في الهند ، وخصوصاً الأطفال .

والذي يتضح لي من الأسباب الظاهرة لانتشار التنصير في بلدان المسلمين أنه يرجع إلى أمور كثيرة ، لعل من أهمها :-

١ ـ جهل المسلمين بدينهم .

٢ ـ جهلهم بحقيقة التنصير .

٣ ـ نشاط المنصِّرين في مختلف المجالات ..

٤ ـ فقر بعض البلدان الإسلامية ، حيث يدخلون عليهم عن طريق مختلف المساعدات المادية من بناء مدارس ومستشفيات ودور حضانة وبيوت للشباب وحفر آبار وبناء مراكز تثقيفية ـ كما يُسمُّونها ـ والإسهام في كثير من المشاريع الأهلية والحكومية والقروض المالية ... إلخ .

٥ ـ قوة نفوذ الدول الغربية الصليبية في الأصل ، مثل أمريكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وهولندا ، وغيرها ، وقوة تغلغلهم في بلدان المسلمين للحاجة إليهم وعدم استطاعة كثير من الدول الإسلامية ـ بل كلها ـ الاستغناء عنهم ، خصوصاً فيما يتصل بالحياة العصرية واكتشافاتها المختلفة ، وصيانة أجهزتها الحديثة .

٦ ـ إنبهار المسلمين ببريق الحضارة الغربية التي ربطها المنصِّرون باتِّباعهم تعاليم المسيح كما يفترون .

٧ ـ الذل الذي أصاب القائمين على مصالح الشعوب الإسلامية من أصحاب السلطة والكلمة والجاه وتَودُّدهم إلى النصارى خوفاً وطمعاً ، وتيسير أمر المنصِّرين للوصول إلى أماكن المسلمين القريبة والنائية تحت ضغط أو تشجيع الدول النصرانية الحاقدة .

٨ ـ وصول بعض الشخصيات النصرانية إلى موقع التأثير في المسلمين ، إمّا ظاهراً وإمّا في الخفاء ، وقد منع أمير المؤمنين عُمر رضي الله عنه من الاستعانة بغير المسلمين .

ومن العجائب أن يكون الشعب مسلماً والحاكم نصرانيّاً ، أو يكون الحاكم مسلماً ونائبه أو وزيره نصرانياً كما هو الحاصل .

٩ ـ الدعوة إلى تقارب الأديان ، وهي حيلة لجَر المسلمين للخروج من دينهم ، إذ أنه بعد بعثة محمد ﷺ لا يوجد إلاَّ دين واحد فقط ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (١) .

١٠ ـ إختلاط الأقليات الإسلامية بالنصارى مع عدم وجود التوعية اللازمة للمسلمين فتأثروا بهم .

هذه هي الأسباب التي ظهرت لي في انتشار التنصير في بلاد المسلمين ، وربما توجد أسباب أخرى أشد منها ، والغرض إنما هو التنبيه والتحذير ، وتأثير تلك الأسباب لا أعتقد أنه يخفَى على طلاب العلم .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩

المبحث الرابع

الأساليب التي يتبعها أعداء الإسلام في حربهم له واتفاقهم على ذلك

لقد سلك أعداء الإسلام في مقاومة انتشاره وفي محاربة المسلمين طرقاً كثيرة نابعة عن حقد دفين وإصرار قوي على التصدِّي والمواجهة منطلقين عن تخطيط ومؤامرات مدروسة بدقة وعناية أثمرت نتائج واضحة .

المطلب الأول

بيان أنواع الوسائل والطرق إجمالاً

إن الوسائل والأساليب كثيرة ومختلفة ، ولكنها تصب في النهاية في مصب واحد ، ومن تلك الأساليب الكثيرة التي سلكها المنصِّرون ومَن جاء بعدهم من المستشرقين :-

١ - التنصير عن طريق الإرساليات .

٢ - عن طريق إخضاع المسلمين بالقوة في زمن الاستعمار .

٣ - عن طريق إيجاد قواعد إنطلاق للفكر الغربي في ديار المسلمين كفلسطين ولبنان وغيرهما من بلاد المسلمين .

٤ ـ عن طريق دعوى تقارب الأديان .

٥ ـ عن طريق إذكاء النعرات الجاهلية من عصبيات وخلافات مذهبية وتضخيم ذلك ثم إيجاد الحلول لها على طريقتهم .

٦ ـ عن طريق محاربة الإسلام ومنع انتشاره ومحاصرته .

٧ ـ عن طريق تنفير الناس عن علماء المسلمين ورميهم بشتى التهم الباطلة .

٨ ـ عن طريق إثارة الحكام ضد علماء الإسلام وتخويفهم منهم لإيقاف نشاطهم .

٩ ـ عن طريق تتابع المؤتمرات لرسم الخطط وتنفيذ المؤامرات .

١٠ ـ عن طريق إنشاء الجمعيات .

١١ ـ عن طريق التشكيك في القرآن .

١٢ ـ عن طريق التشكيك في السُّنَّة .

١٣ ـ عن طريق التشكيك في صحة نُبوَّة محمد ﷺ .

١٤ ـ عن طريق التشكيك في اللُّغَة العربية ومدى صلاحيتها للعصر .

١٥ ـ عن طريق التشكيك في صلاحية تعاليم الإسلام في عصرنا الحاضر بزعمهم .

١٦ ـ عن طريق أنواع المساعدات المادية والمعنوية باسم المسيح أحياناً ، وباسم الكنيسة أحياناً أخرى أو باسم قداسة البابا .

١٧ ـ عن طريق استغلال المرأة .

١٨ ـ عن طريق تشويههم للإسلام بأنه :

- ظلم المرأة .
- أنه دين السيف .
- أنه يبغض البشر كلهم إلاَّ أتباعه .
- أن أحكامه جامدة .
- أنه أخَّر المسلمين في العلوم والمخترعات .

١٩ ـ عن طريق التعليم :

- المعاهد التنصيرية .
- الطب .

٢٠ ـ عن طريق دعوى رعاية حقوق الإنسان .

٢١ ـ عن طريق تقديم مختلف الخدمات : (مساكن ، بيوت شباب ، وسائل ترفيه ، ملاجئ للفقراء ، نزهات)

٢٢ ـ عن طريق استغلال الأماكن التي تقوم فيها الحروب ، حيث يبادرون بأخذ أطفال المسلمين كي يجنبونهم ويلات الحروب ـ كما يزعمون ـ فيُنشِّئونهم تَنشِئةً صليبية .

٢٣ ـ عن طريق تربية الأجيال الإسلامية في مدارسهم المجانية .

٢٤ ـ عن طريق تحبيب الصليب إلى الأطفال .

٢٥ ـ عن طريق الصناعات .

٢٦ ـ عن طريق التجارة .

٢٧ ـ عن طريق تحديد النسل .

٢٨ ـ عن طريق المناداة بتطبيق المذاهب الفكرية الجديدة (العلمانية ، الديمقراطية ، الشيوعية .... إلخ) .

٢٩ ـ عن طريق وسائل الإعلام من مرئية ومسموعة (راديو ، تلفزيون ، مجلات ... إلخ) .

٣٠ ـ عن طريق تضخيم أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية الجديدة والتفاؤل بها وتبادل التهاني والذكريات .

وقد اتفق المبطلون كلهم على حرب الإسلام بكل تلك الطرق رغم الاختلافات فيما بينهم كما تقدم ، مما يحتم على المسلمين أن يكونوا

صفاً واحداً لمواجهة ذلك المد العارم ، ويجب أن يعرف كل مسلم أن لكُتّاب الغرب أساليبهم الماكرة وفنونهم العديدة في حربهم للمسلمين وللمصلحين منهم بخصوصهم بعد أن تعمق أولئك الكُتّاب في دراسة العالم الإسلامي ومعرفة علمائه الذين يشكلون في نظر الغرب الخطر الحقيقي على نفوذ حضارتهم وهيمنة أفكارهم على ديار المسلمين ، ومن هنا اشتد تكالبهم ، واشتدت وطأتهم على كل شيء يرون فيه مظهراً لعودة الإسلام إلى قلوب أبنائه بتلك الطراوة التي عهدوها في أسلافهم الذين كانوا جنوداً ميامين في نشر الإسلام وإشاعة العدالة والعيش الرغيد وبناء كرامة الإنسان التي منحه اللّه إيّاها وأكّدها بقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)** ﴾ [(١)] ، في الوقت الذي كانت فيه حضارة الغرب وسائر الحضارات الجاهلية تجيز بيع الأرض للأغنياء بما عليها من العمال والعاملات ومختلف النباتات ، واستمر الحال إلى أن تنبه الغرب لإصلاح أحوالهم ، بينما انحدر المسلمون إلى حالة الضعف والتَردي في فترة الجمود والركود ، فبدأت قوة الزحف الأوربي لتغريب العالم الإسلامي تشتد بمختلف الاتجاهات عسكرياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في مقابل ذلك الضعف العام في الشرق الإسلامي والانحطاط القائم في كل الميادين ، فساد في الحكم والإدارة والسياسة ، وفي التوجيه والتربية والتشريع ، فكان لهذا الضعف العام في بلاد المسلمين أثره الإيجابي بالنسبة لجحافل الغرب .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠

ثم اتجه الأوربيون إلى طريقة تضمن لهم السيادة في نهاية الأمر ، فكانت هذه الطريقة تعتمد على تربية الجيل الذي سيقود بمناهجه وفلسفته المجتمعات الإسلامية في المستقبل معتمداً على الفكر الغربي وثقافته ، فكان لهذا السلوك أثره الناجح في استلاب كثير من رجالات المسلمين وإدخالهم في حظيرة أعداء الإسلام ، وبالتالي أصبح هؤلاء هم أيضاً من خصوم الإسلام ومن منفذي خطة التغريب في ديار المسلمين ، فواجه الإسلام تحديات ـ لولا لُطفُ اللَّه وحفظه لدينه لانتهى أمره منذ زمن بعيد ، كما انتهت الحضارات المختلفة ، ولكن اللَّه غالب على أمره ، فكانت تُحاك ضده الخطط المحكمة ، فإذا بها تنتهي إلى الفشل الذريع ، يأتي الغُزاة الطامعون في هدمه فإذا بكثير منهم يتحولون إلى أنصار له مدافعين عن حماه لما يلمسونه من صلاحيته وكفاءته في قيادة البشرية وإسعادها ، لأنه دين الحق والصدق المنزَّل من رب العالمين .

ولك في الغُزاة المغول ـ التتار ـ أقوى مثال على ذلك ، فلقد جاء هؤلاء الغُزاة ، وانتصروا على الدولة الإسلامية وأخضعوها بقوة السلاح ، وظنَّ الشامتون أن الإسلام سينتهي ويتلاشى أمره بين عَشيّة وضحاها إزاء هذا الهجوم العنيف ، فلم يفاجئهم إلا دخول هؤلاء الغُزاة في الإسلام أفواجاً ، وكانوا هم حُماتُه ، وخدموه وخدموا المسلمين بجهود لا يزال التاريخ يذكرها لهم .

ولا تزال الحرب سجالاً بين الإسلام والكفر في كَرٍّ وفَرٍّ على مر الجَديدين ، ولكن ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)** ﴾ [(١)] ، ولا يخفى على طالب العلم أن أكبر أعداء الإسلام وأشدهم شراسة في حربه على مر التاريخ قديماً وحديثاً هم الغرب الصليبي الحاقد ، والذي بدأ فكره المسموم يستشري في العالم الإسلامي مع بداية احتلال بريطانيا للهند في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وما أكثر النكبات التي ابتُلي بها العالم الإسلامي من بريطانيا النصرانية ، فقد أزال الإنجليز إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي ، وهي دولة المغول في الهند ، أو الدولة التيمورية الإسلامية في آسيا الوسطى ، وكذا استيلاء الفرنسيين على الجزائر في تلك السنة ، ثم احتلال هولندا لجزر الهند الشرقية في أندونيسيا في بداية القرن السابع عشر الميلادي ، وقوي الاستعمار الغربي حتى تم له الاستيلاء على بلاد المسلمين في وسط آسيا وشرقها إضافة إلى نقطة ارتكازه في إفريقيا ، وبذلك أحكم الطوق على العالم الإسلامي من الشرق ومن الغرب ، وأحكم خطته للقضاء على كل التجمعات الإسلامية ، فانحلَّت تجمعات المسلمين الواحدة تِلْو الأخرى تحت نفوذ المستعمرين الغربيين ، ولم تأت الحرب العالمية الأولى إلا وقد أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر . [(٢)]

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦٤

(٢) انظر : «الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي» ، د. محمد البَهي ، ص ٢٨٠

وخلا لهم الجو فعاثوا في إفساد أفكار المسلمين كما يشاءون بكامل ثقلهم السياسي والاجتماعي ، مستهدفين إخراج المسلمين من دينهم نهائياً أو على الأقل تشكيكهم فيه ، مستخدمين وسائل وأساليب شتى غاية في المكر والدهاء ـ كما علمت مما سبق ـ من إثارة الخلافات بين المسلمين وانتهاب خيرات البلدان الإسلامية وإفقار أهلها وتجهيلهم تماماً ، وجعل الثقافة الغربية الآسنة هي منبع الفكر الثقافي في البلاد الإسلامية ، وجَدَّ المستشرقون بكامل الدعم لتثبيت هذا الاتجاه وتعميقه في نفوس المغلوبين أهل البلاد الإسلامية ، كما قَوَّى هؤلاء المستعمرون شتى الإنحرافات التي تخدمهم في إزلة الإسلام ـ حسب ما يتمنون ـ فقَوُّوا الأفكار العقلانية والماركسية والعلمانية التي لا يزال لها أتباعها في العالم الإسلامي إلى اليوم ، إضافة إلى نشر الخلاعة والمجون ، فأصيب المسلمون بهزّة عنيفة وضعف شديد ، إضافة إلى حالتهم الدينية الهزيلة التي عمَّت فيها الخرافات وساد الجهل وبرز في العالم الإسلامي رجال كان لهم نشاط قوي في تأييد الأفكار الغربية المعارضة للإسلام ، وانتشاره ، ومنهم «أحمد خان» في الهند ، و«لطفي السيد» الملقَّب بأستاذ الجيل ، و «طه حسين» في مصر ، و «ساطع الحصري» ، وغيرهم ممن أغراهم واستفزَّهم بريق الحضارة الغربية المخادع ، فذهبوا في تأييدها بأساليب مختلفة تحت تسمية التجديد والتطور ، أو إحياء النعرات الجاهلية من قوميّة ووطنية وغير ذلك .

وإذا كان الإسـلام في نظرهم يُوصَف بأنه لا يُسـاير ركب التطور بزعمهم ، فإنَّ علماءه أيضاً أشـدُّ ، وخطرهم أقوى وأنكى ، ومن هنا أطلقوا عليهم أنواع التهم التي تنفر الناس عنهم ، فوصفوهم بالإرهابيين والأصوليين والمتطرفين والمتشددين والمتزمتين والرجعيين ، وكل ما أنتجته قرائحهم العدوانية بغير حق .

وهو نفس الطريق الذي كان يسلكه المشركون المستكبرون مع الأنبياء ، إذ يصفونهم بالجنون والكهانة والسحر والشعر والشعوذة ، وغير ذلك ، وهو أيضاً ما فعلته الفرق المخالفة للسلف حين وصفوهم بأنهم حشوية ونابته وغثاء ومجسمة .

ولا تعجب لهذا التوافق الحاصل من قبل الجاهلين والحاقدين على الإسلام ، فإن المُربِّي واحد ، وهو إبليس ، ومن المؤسف حقاً أن تلك الصفات الجائرة التي يطلقونها على علماء الإسلام ويجعلونها صفات ذم وتشنيع ، لا نسمع شيئاً منها يُطلق على علماء الغرب ورجاله المفكرين منهم ، بل نسمع أن كل ما يفعلونه من الجرائم والفواحش هو أقوى شاهد على التحضُّر والانطلاق ، فإرهابهم رحمة ، وحقدهم تسامح ، وقتلهم لعشرات المسلمين بِراً وإنْسانيةً ، ودعوتهم إلى اعتناق النصرانية المحرَّفة حضارة وتمدُّناً ، وخلاعتهم ومجونهم حرية شخصية ، وقد قيل قديماً إن كل صفة مدح للغني هي صفة ذَم للفقير .

ولقد أدرك أولئك العلماء من الغرب أن إثارة حكام المسلمين وتخويفهم من خطر الدعوات الإسلامة هو أضمن وسيلة لإسكات الدعاة إلى اللّه تعالى ، ومن هنا أخذوا على عاتقهم محاربة الحركات الإسلامية في كل بلد عن طريق تأليب الحكام ضدهم وتخويفهم منهم ، وأنه لا نجاة إلا في إيصال ثقافتهم وحضارتهم بكل ما فيها من الفُحش والفجور إلى كل دار ومحاربة المد الإسلامي بكل ثقلهم ومخططاتهم ، ومن أشكال محاربتهم للإسلام وأهله ما يسمونه «حقوق الإنسان» ، ولقد أذلوا شعوباً وأسقطوا أنظمة بمثل هذه الدعوة التي لا يؤمنون بها كما يفيده ظاهرها ، فإن حقوق الإنسان ليس لها أي مكانة إذا عارضت مصالحهم ، فكأن حقوق الإنسان لا تُحتَرم إلا إذا صارت إنسانية على طريقتهم ، منفذَّة لأوامرهم ، محقِّقة لأهدافهم ، متخلِّقة بأخلاقهم ، وهل يجد البشر من يحفظ حقوقهم بكل عدل غير الإسلام الذي حرَّم سفك الدماء ، وانتهاك الأعراض ، وأذيّة الناس بأي نوع من الإيذاء ، وأعلن للمسلمين أنه يجب أن يكون مجتمعهم كالبُنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً ، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تَداعَى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى .

فأي حقوق تلك التي ينادي بها أعداء الإنسانية الذين يخترعون له في كل يوم أنواع الدمار بقيادة اليهود الذين استطاعوا السيطرة على العالم الغربي والشرقي أيضاً ، والذين أصبحوا «حكومة العالم الخفيّة» من وراء الكواليس ، الذين أفسدوا الشباب والشيبان على حد سواء بما

اختـرعوه من أنواع الآلات وأنواع المخدرات ، وبما نشـروه من الانحـلال الخُلُقي الذي تفنن فيه إعلام الغرب بزعامة اليهود ليكسبوا أمرين في وقت واحد ، ابتزاز الأموال وإفساد الأخلاق تحت حماية الطغيان المادي وسيطرة الزعامات الحاقدة ومَن شايعهم في مختلف البلدان الإسلامية وغيرها ممن جهلوا دينهم وباعوا ضمائرهم ، ولقد درس علماء الغرب كل الحركات الإسلامية في الدول الإسلامية دراسة عميقة بُذلت فيها الأموال الطائلة من قبل المؤسسات اليهودية في أمريكا وفي غيرها ، وتضافرت الجهود من قبل المباحث العامة والاستخبارات ورجال الفكر أيضاً ، فالباحث منهم يكتب والصحافة تؤيده والإذاعة تنوِّه بجهوده ، والتلفزيون يوضح ، والتقارير تتوالى لك يوم عن كل حركة إسلامية من قبل أجهزة المخابرات وإخوانهم في الغي يمدُّونهم ثم لا يُقصِرون ممن يشايعهم ممن أُشربَت قلوبهم حبّ الغرب والإعجاب به والنظر إلى دياره الإسلامية بعين الحقد والكراهية .[(١)]

(١) أخي القارئ إذا أردت أن تعرف تفاصيل ما يدبره الغرب الأمريكي للمسلمين عموماً ولعلماء الإسلام خصوصاً ولإحلال المسيحية محل الإسلام في كل البلدان الإسلامية فاقرأ كتاب «الغرب في مواجهة الإسلام» للشيخ / مازن المطبقاني . اقرأ الكتاب والملاحق التي أثبتها المؤلف لمزيد الفائدة .

المطلب الثاني

تخطيط ناجح عن طريق الوسائل الآتية :-

إن أعداء الإسلام يسيرون وفق خطط ناجحة مدروسة بجد وعناية ، نجد ذلك في مؤتمراتهم الكثيرة وجمعياتهم المتعددة وبحوثهم المستفيضة عن أنجح الوسائل التي يتواصون بتطبيقها للوصول إلى غايتهم وأهدافهم ، والواقع أنها وسائل ناجحة وتحقق لهم الكثير مما يهدفون إليها ، وقد اشتملت تلك الوسائل على أمور شتى وعالجت مختلف القضايا التي تمس حاجة المجتمع والفرد ، فوضعوا أيديهم على مكامن الألم ، ودَسُّوا السُّمَّ في العسل ، لعلمهم أنه :

يُقضَى على المَرْءِ في أيّامِ مِحْنَتِهِ * حَتّى يَرَى حَسَناً مَا لَيسَ بالحَسَنِ**

فاستغلُّوا كل شيء يقربهم إلى قلوب الناس ، وبذلوا في ذلك المساعدات المختلفة من معنوية ومادية ، بل وأظهروا أنفسهم في صورة المنقذ الغيور على الإنسان ـ بزعمهم ـ ونسوا أن ما يفعلونه بالبشر لا تفعله الوحوش الضارية في الغابات .

وبالإضافة إلى ما سبق بيانه ، فإننا نجد أن المنصِّرين والمستشرقين قد أولوا بعض الجوانب أهمية خاصة نفذوا منها إلى تنصير المسلمين ، تتمثل فيما يلي :-

١ ـ عن طريق المؤتمرات التَّنْصيرية :

وقد تلاحظ أخي القارئ مدى النشاط الذي يبذله المنصِّرون من خلال إطلاعك على كثرة المؤتمرات والمنظمات التي يعقدها هؤلاء المنصِّرون بين وقت وآخر ، وفيما يلي أحب أن تطلع على أهم المؤتمرات التي يعقدها هؤلاء لبناء عقيدتهم النصرانية التي لم تقم أساساً إلاَّ على كواهل المؤتمرين خلف الكواليس قديماً وحديثاً [١] لأنهم لم يجدوا المستند الصحيح ـ إنجيل المسيح ـ لبناء ديانتهم ، بل وجدوا أفكار «بولس» هي الدين الجديد لهم ، وصدق المثل القائل : «إن الغَريقَ بكل حبل يُمسِكُ» ، وقول الشاعر :

يُقضَى على المَرْءِ في أيّامِ مِحْنَتِهِ * حَتّى يَرَى حَسَناً مَا لَيسَ بالحَسَنِ**

فقد مرت على النصارى أوقات عصيبة يَنهَدُّ لها الصخر ، وما إن تظاهر «بولس» باعتناق النصرانية حتى هلَّلوا وكبَّروا دون تمحيص لصدقه أو كذبه ، فوجدها فرصة سانحة لتغيير الديانة النصرانية ، وتم له ذلك وبمساعدة الإمبراطور الوثني «قسطنطين» الذي تظاهر بالدخول في النصرانية لمارآه من توافقها مع وثنيته ، ولم يُعمَّد هذا الإمبراطور بالنصرانية إلاَّ وهو على فراش الموت كما يُذكَر من تاريخه .

●● مؤتمراتهم :

لقد كان لهم ـ وما يزال ـ الكثير من المؤتمرات الإقليمية والعالمية ، ومن ذلك :

---

(١) انظر : «الموسوعة الميسرة» ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤

- مؤتمر القاهرة عام (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) وقد دعا إليه «زويمر» بهدف عقد مؤتمر يجمع الإرساليات التبشيرية البروتستانتية للتفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين ، وقد بلغ عدد المؤتمرين (٦٢) شخصاً بين رجال ونساء ، وكان «زويمر» رئيساً لهم .

- المؤتمر التبشيري العالمي في «أدنبره» باسكوتلند عام (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، وقد حضره مندوبون عن ١٥٩ جمعية تبشيرية في العالم .

- مؤتمر التبشير في «لكنو» بالهند عام (١٣٣٩هـ / ١٩١١م) حضره «صموئيل زويمر» ، وبعد انقضاء المؤتمر وُزِّعت على الأعضاء رقع مكتوب على أحد وجهيها (تذكار لكنو سنة ١٩١١م) وعلى الوجه الآخر (اللَّهم يا مَنْ يسجد له العالم الإسلامي خمس مرات في اليوم بخشوع انظر بشفقة إلى الشعوب الإسلامية وألهمها الخلاص بيسوع المسيح) ....!!!

- مؤتمر «بيروت» عام (١٩١١م) .

- مؤتمرات التبشير في القدس :

  - في عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م .
  - في عام ١٩٢٨م ، مؤتمر تبشيري دولي .
  - في عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م ، وقد كان يضم ١٢٠٠ مندوب .
  - في عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

- مؤتمر الكنائس البروتستانتبية عام ١٩٧٤م في «لوزان» بسويسرا .

- وأخطر المؤتمرات ، مؤتمر «كلورادو» في ١٥ أكتوبر ١٩٧٨م تحت إسم (مؤتمر أمريكا الشمالية لتتصير المسلمين) حضره ١٥٠ مشتركاً كانوا يمثلون أنشط العناصر التتصيرية في العالم ، استمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق وانتهى بوضع استراتيجية بقيت سرِّية لخطورتها مع وضع ميزانية لهذه الخطة مقدارها ألف مليون دولار ، وقد جمع هذا المبلغ فعلاً ، وتم إيداعه في أحد البنوك الأمريكية الكبرى .

- المؤتمر العالمي للتنصير الذي عُقد في «السويد» في شهر أكتوبر ١٩٨١م تحت إشراف المجلس الفيدرالي اللوثراني الذي نوقشت فيه نتائج مؤتمري «لوزان» و «كلورادو» وخرج بدراسة مستفيضة عن التنصير لما وراء البحار بهدف التركيز على دول العالم الثالث .

ومن مؤتمراتهم كذلك :

- مؤتمر استانبول .
- مؤتمر حلوان بمصر .
- مؤتمر لبنان التبشيري .
- مؤتمر بغداد التبشيري .
- مؤتمر قسطنطينة التبشيري في الجزائر ، وذلك قبل الاستقلال .

- مؤتمر شيكاغو .

- مؤتمر مدراس التبشيري في بلاد الهند ، وكان ينعقد هذا المؤتمر كل عشر سنوات .

- مؤتمر بلتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٢م ، وهو مؤتمر خطير جداً ، وقد حضره من اليهود «بن جوريون» .

بعد الحرب العالمية الثانية اتخذت النصرانية نظاماً جديداً إذ ينعقد مؤتمر للكنائس مرة كل ست أو سبع سنوات متنقلاً من بلد إلى آخر .

- مؤتمر أمستردام ١٩٤٨م ـ هولندا .

- مؤتمر إيفانستون ١٩٥٤م ـ أمريكا .

- مؤتمر نيودلهي ١٩٦١م ـ الهند .

- مؤتمر أوفتالا ١٩٦٧م ـ أوفتالا بأوربا .

- مؤتمر جاكرتا ١٩٧٥ ـ أندونيسيا ، وقد اشترك فيه ٣٠٠٠ مبشر نصراني .

وكل تلك المؤتمرات وغيرها تهدف إلى تحقيق مآرب كثيرة ، تُدارس كيفية نشر الديانة النصرانية ، خصوصاً بين المسلمين ، كما صرحوا بذلك في مؤتمر كلورادو ، وإلى ترسيخ الزعم بأنها تمثل ديانة المسيح التي فيها الخلاص من الخطايا ـ كما يزعمون ـ كما تهدف كذلك إلى تشجيع

أصحاب الكنائس على أداء مهامهم المنوطة بهم في تنصير المسلمين وتهدف كذلك إلى دراسة كيفية الوصول إلى قلوب الناس واستمالتهم ، وقد كان لدراسة كيفية دعوة العرب في الجزيرة والخليج إلى النصرانية حظ الأسد في كل مؤتمراتهم .

كما كانت المؤتمرات التنصيرية محل دراسة ومراجعة شاملة مستمرة لإقرار أو تغيير الخطط والبرامج التي يسيرون على ضوئها حسب ما يستجد من الأوضاع .

وإذا كنت قد اقشعر جلدك لهذا الحشد الهائل من المؤتمرات التنصيرية ، فاعلم أن هذا إنما هو جزء واحد من أجزاء النشاط الكنسي لتنصير العالم ، ولا يعلم مدى نشاطهم إلاَّ اللَّه تعالى وحده من مؤتمرات وجمعيات وغيرها ، حيث تختلف الأسماء وتتفق في الأهداف والغايات ، ثم اقرأ عن الجميعات التنصيرية ما يلي :

٢ ـ الجَمعيَّات التَّنْصيرية :-

أما الجمعيات التنصيرية فحدِّث عن كثرتها هي الأخرى ولا حرج ، وإليك بياناً موجزاً بأهم تلك الجمعيات التنصيرية والتي تمثل نشاطاً آخر من أنشطتهم لخدمة وثنيتهم ، وكل جمعية أُسند إليها تنصير جهة من الجهات في العالم أو خدمة أي هدف من أهداف التنصير ، ومن تلك الجمعيات :-

١ ـ جمعية لندن التنصيرية ، وتأسست سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ، وهي موجهة إلى إفريقيا .

٢ ـ جمعيات بعثات التنصير الكنسية ، وتأسست في لندن سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م ، وهي موجهة إلى الهند ومنطقة الخليج العربي .

٣ ـ جمعية تبشير الكنيسة الإنجليكانية البريطانية ، وتأسست سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م ، وتُدعم من الأسرة المالكة في بريطانيا .

٤ ـ جمعية طبع الإنجيل البريطانية ، وتأسست سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م ، وتهتم بالطبع والترجمة والتوزيع .

٥ ـ جمعية طبع الإنجيل الأمريكية ، وتأسست سنة ١٢٣١هـ / ١٨٦١م ، ولها مطابع ومكتبات تجارية في البلاد العربية ؛ كمطبعة النيل ، ومكتبة الخرطوم .

٦ ـ مجلس الكنيسة المشيخية الأمريكية ، ونشأت سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٨٣م ، وهي موجهة إلى العالم العربي .

٧ ـ جمعية الكنيسة التنصيرية ، ونشأت سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م ، وتركز على التعليم والخدمات العلاجية ، ويُسهم الألمان فيها بجهود .

٨ ـ جمعية الشبان النصارى ، ونشأت سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٥م .

٩ ـ جمعية الشبان القوطيين للتنصير في البلاد الأجنبية .

١٠ ـ الكنيسة الإصلاحية الأمريكية ، وتأسست سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م ، وهي موجهة إلى منطقة الخليج العربي .

١١ ـ جمعية الروح القدس في «زنجبار» ، وتأسست سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م ، وهي كاثوليكية ، وتهتم بالعلاج والتعليم الصناعي .

١٢ ـ أنشأ البابا «ليو الثالث عشر» سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م أُسقُفيَّتين لمباشرة التنصير الكاثوليكي في شرق أفريقيا ، واحدة منها في منطقة بحيرة فكتوريا ، والأخرى في منطقة بحيرة تنجانيقا .

١٣ ـ إتحاد البعثة التنصيرية الإنجيلية ، وتأسست سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م ، في الولايات المتحدة الأمريكية .

١٤ ـ الإرساليات العربية الأمريكية ، ونشأت سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٤م ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتهتم بمنطقة الخليج العربي .

١٥ ـ جمعية إتحاد الطلبة النصارى ، وتأسست سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م .

١٦ ـ حملة التنصير العالمية ، وتأسست سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتهتم بالطب والتعليم والأدب والترجمة .

١٧ ـ زمالة الإيمان مع المسلمين ، وأُنشئت سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م في بريطانيا وكندا ، وتهتم بالمطبوعات .

١٨ ـ عمودية التعبئة ، وتأسست سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م ، وهي موزعة ، وتُعني بتدريب الشباب على التنصير .

١٩ ـ جمعية تنصير الشباب ، ونشأت سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .

٢٠ ـ الامتداد النصراني في الشرق الأوسط ، ونشأ سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، وهو موزع ، ويهتم بالمطبوعات .

٢١ ـ الإرسالية الجامعية لوسط إفريقيا ، وقد قامت تلبية لنداءات المكتشفين الجغرافيين الإنجليز في الجامعات والجمعيات البريطانية .

٢٢ ـ إرسالية الكنيسة الحرة الاسكتلندية ، وتهتم بالصناعات اليدوية .

٢٣ ـ جمعية التنصير في أرض التوراة العثمانية .

٢٤ ـ جمعية تنصير شمال إفريقيا .

٢٥ ـ لجنة التنصير الأمريكية .

٢٦ ـ إرسالية كنيسة اسكوتلنده الرسمية ، وقامت تلبية لنداء المستكشف الإنجليزي «ليفينجستون» .

٢٧ ـ هذا بالإضافة إلى الجمعيات المحلية في العواصم والمدن الإسلامية .[١]

---

(١) انظر ، «التنصير» ، للنملة ، ص ٤٢ ، ٤٣

وأنت ترى أخي القارئ أن كل الجمعيات قد ركزت على أماكن متفرقة من العـالم ، وكان للخليج العربي منهـا النصيب الأوفى في محاولات مستميتة لتنصيرهم ، وبالتالي لإطفاء نور الإسلام في العالم العربي ، ويأبى اللّه إلاَّ أن يُتِمَّ نورَه ولو كره الكافرون .

٣ ـ التَّنْصير والإعْلام .

وأحبُّ أن تطلع أيضاً على جزء آخر من ذلك النشاط الواسع لتنصير العالم ، وخصوصاً المسلمين منهم ، وهذا الجزء يتمثل في البث الإعلامي على اختلافه من مرئي ومسموع ، وحيلهم في جذب المستمعين إليهم وعرضهم لعقيدتهم في صورة سهلة مُحبَّبة مع التشجيع السخي بالهدايا والجوائز المختلفة لكل من يطلب التعامل معهم ، وقد أصبح الإعلام وسيلة مؤثرة جداً ، وسهلة لسرعة وصوله إلى آذان الناس ، والتغلغل إلى نفوسهم ، فهو طارق لا يَسْتأذن أحداً ، ويصل إلى الشخص وهو على مكتبه ، أو وهو يسوق سيارته ، أو وهو مضطجعاً على فراشه بمفرده ، أو بين أهله ليلاً ونهاراً .

ولهذا فقد ركَّز المنصرون على سهولة وصول البث الإذاعي بصورة واضحة إلى مناطق العالم الإسلامي .

ولا أعتقد أن أحداً يجهل مدى تعلق الناس بإذاعات التنصير في وقتنا الحاضر ، لندن ، باريس ، مونت كارلو ، واشنطن ... وغيرها من عواصم

التنصير لوضوح تلك الإذاعات ولمعايشتهم الأحداث عن كثب ، وتغطيتهم لكل الأحداث في العالم عن طريق مراسليهم ، وبعثاتهم النشطة ، بينما لا تجد بين المستمعين من يهتم بالإذاعات الإسلامية مثل اهتمامه بتلك ، ولعل ذلك يعود إلى أمور كثيرة ، منها قصور الإذاعات الإسلامية عن تغطية الأحداث بصورة مرضية ، والواقع يشهد بذلك ، فإن الإذاعات الإسلامية أكثرها يستقي أخباره عن تلك الإذاعات التي تَدُسّ السُّمَّ في العسل ، بل من المؤسف والمُخْزي أيضاً أن تجد الإذاعات الإسلامية تستقي أخبار المسلمين الحربية عن أولئك الذين يرسلونها من مواقع الأحداث مباشرة ، والتي تخدم أهدافهم وتوجهاتهم ، ثم ترسلها الإذاعات الإسلامية بنفس التسمية ، إلاَّ القليل منها ، مثل وصف المجاهدين بالمتمردين والإرهابيين ... إلخ .

وإذا أردت تفاصيل النشاط التنصيري بواسطة الإذاعات فاقرأ ما كتبه الدكتور «كرم شلبي» في كتاب «الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب» لترى تلك الجهود الجبارة التي يبذلها المنصرون من خلال موجات الأثير التي كادت أن تغطي الأفق كله .

ولكي تقف على حقيقة كثرة الإذاعات التنصيرية في العالم ونشاطهم القوي في تلك الإذاعات والفائدة الكبيرة التي يحصلون عليها من وراء ذلك البث الهائل ، أحب أن تقف على الأمور الآتية :-

١ ـ الرابطة الكاثوليكية للراديو والتلفزيون ، ومقرها سويسرا ، وتضم مائة محطة إذاعية كاثوليكية .

٢ ـ الرابطة العالمية للإذاعة المسيحية ، ومقرها جنيف .

٣ ـ الاتحاد العالمي للاتصالات المسيحية ، أنشئ في لندن سنة ١٩٦٨م .

٤ ـ الرابطة الدولية للإذاعيين المسيحيين ، ومقرها الولايات المتحدة الأمريكية .

٥ ـ جمعية التنصير العالمية بالراديو ، ومقرها نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية ، وتتبعها إذاعة حول العالم من إذاعة مونت كارلو .

٦ ـ الهيئة التنصيرية العالمية في هونج كونج .

٧ ـ الاتحاد الفلبيني للإذاعيين الكاثوليك ، ومقره تايلند .

وقد بلغ عدد الإذاعات التنصيرية في عام ١٩٨٠م أكثر من ٣٥ هيئة ومؤسسة إذاعية دولية ، وقد بلغ عدد المحطات التي تمتلكها أو تستأجرها الطائفة المعمدانية وحدها أكثر من ١٠٠ محطة تنصيرية في أكثر من ٨٠ بلداً ، وقد عقدت عدة مؤتمرات لبحث أفضل الوسائل وأنجحها لكيفية إيصال الإذاعات التنصيرية إلى كل المستمعين في العالم ، فعقدوا مؤتمراً في زامبيا سنة ١٩٦١م حضره مندوبون من أمريكا وأوربا وأفريقيا ، وخرجوا بقرارات بهذا الشأن .

ثم عقدوا مؤتمراً في روما عام ١٩٦٥م .

ثم عقدوا مؤتمراً في سويزلندا عام ١٩٨٠م .

ثم عقدوا مؤتمراً في تنزانيا (٩٩٩٩) عام ١٩٨١م ، وكل تلك المؤتمرات تهدف إلى بحث أنجح الوسائل في البث الإذاعي وتطوير برامجه واستحواذها على المستمعين ، وتعمل الآن عدة محطات إذاعية ، من أمثلتها :-

١ ـ إذاعة راديو الفاتيكان ، وهي إذاعة دولية مسيحية تمتلك أقوى أجهزة بث على مستوى العالم ، تأسست عام ١٩٣١م ، تذيع بأكثر من ٤٧ لغة من بينها اللغة العربية ، تهتم بأخبار العالم المسيحي ، وأخبار البابا والأمور الدينية بصفة خاصة ، وهم يدسُّون في نشراتهم بالعربية الوعظ والمصطلحات المسيحية دون أن يشعر المستمع بتعمدهم ذلك .

٢ ـ إذاعة حول العالم «موناكو» ، تهتم بالتنصير وتقدم برامجها بخمسة وسبعين لغة ، لم ترتبط بأية طائفة دينية مسيحية ، بل فضلت أن تعمل تحت إسم الهيئة التي تنتمي إليها ، وقد اشتملت على برامج متنوعة لجذب المستمع ، وفيها دَسٌّ على الإسلام وتعريض بتعاليمه ومدح للنصرانية والمنصرين ، وتحبيبهم إلى المستمع .

٣ ـ إذاعة «صوت الأمل» .

٤ ـ إذاعة «صوت الغفران» .

٥ ـ إذاعة «صوت الشبيبة» .

٦ ـ إذاعة «صوت المحبة والوفاء» .

٧ ـ إذاعة «المركز المعمداني» .

٨ ـ إذاعة «مقدم الحق» .

٩ ـ إذاعة «مركز النهضة» .

١٠ ـ إذاعة «صوت الإصلاح» .

١١ ـ إذاعة «نور على نور» مرسيليا .

١٢ ـ «إذاعة المدرسة الإنجيلية» .

١٣ ـ إذاعة «صوت كلمة الحياة» إسبانيا .

١٤ ـ إذاعة «نداء الرجاء» .

١٥ ـ إذاعة «دار الهداية» سويسرا .

١٦ ـ إذاعة «ميجانوسا» إندونيسيا .

١٧ ـ إذاعة «إدفنت» إندونيسيا .

١٨ ـ إذاعة «بكما» إندونيسيا .

١٩ ـ «الإذاعة الإنجيلية» إندونيسيا .

٢٠ ـ إذاعة «زيون» إندونيسيا .

٢١ ـ إذاعة «سنجاريرتي» إندونيسيا .

٢٢ ـ إذاعة «تليستار» زائير .

٢٣ ـ إذاعة «صوت الإنجيل» إثيوبيا .

٢٤ ـ إذاعة «صوت الحق» لبنان .

وهناك إذاعات كثيرة تحت أسماء مختلفة ، ولا يزالون يعملون بجد في إنشاء الإذاعات في كل منطقة يصطادونها في سباق حثيث [١] .

وقد ركزت الإذاعات التنصيرية على ذكر صفات للمسيح عليه السلام وصفات أخرى للكتاب المقدس ، وصفات أيضاً للمسيحية بقصد تحبيب الجميع إلى نفوس المستمعين على النحو الآتي :-

٤ ـ التَّنْصير والدَّعايات للمَسيح عليه السلام .

المسيح عليه السلام غنيٌّ عن دعايات الوثنيين النصارى ، ويكفيه رفعةً اختيار اللَّه له بأن يكون عبداً رسولاً ، وتلك الإذاعات تصفه بأوصاف لا يمكن أن يرضى عنها المسيح ، لأنها تمثل الكفر والشرك بأجلى مظاهره ، ومن ذلك قولهم :-

١ ـ المسيح هو الرب .

(١) عن الإذاعات التنصيرية ، ص ٦٢ ـ ٦٧

٢ ـ المسيح هو اللّه والإنسان معاً .

٣ ـ المسيح هو المُخلِّص المبارك .

٤ ـ المسيح هو مخلِّص الإنسانية من خطاياها .

٥ ـ المسيح هو الذي صُلب من أجلنا .

٦ ـ المسيح هو الذي صُلب من أجل سعادتنا .

٧ ـ المسيح هو الذي رُفض وصُلب من قبل اليهود .

٨ ـ المسيح هو الذي تألَّم ليحمل خطايا البشر جميعاً في جسده عندما مات على الصليب .

٩ ـ المسيح هو الذي قدَّم جسده ذبيحة على الصليب .

١٠ ـ المسيح هو سيِّدُ العذاب والألم .

١١ ـ المسيح هو الذي قدَّم جسده ضحية وفداءً على خشبة الصليب .

١٢ ـ المسيح هو الذي اختار أن يموت بديلاً عنَّا آخذاً عقاب دينونة ذنوبنا .

١٣ ـ المسيح هو الذي مات طوعاً واختياراً لكي يدفع عقاب خطاياك .

١٤ ـ المسيح هو آدم الثاني .

١٥ ـ المسيح هو القادر أن يغير نظرتك وفكرك .

١٦ ـ المسيح هو الذي يضمن لك الحاضر والمستقبل .

١٧ ـ المسيح هو الذي ينقلك من الفكر الجسدي الشهواني إلى الفكر الروحي .

١٨ ـ المسيح هو السلام .

١٩ ـ المسيح هو مفتاح بيت الفرج .

٢٠ ـ المسيح هو حامل بشارة السلام .

٢١ ـ المسيح هو زهرة الفرح والحرية للبشرية كلها .

٢٢ ـ المسيح هو الذي تحمَّل الآلام والعار والعذاب والاحتقار من أجل أن يعطينا سلامتنا مع اللَّه الأب في السماء .

٢٣ ـ المسيح هو الوحيد الذي يمكن أن تعتمد عليه وتثق به .

٢٤ ـ المسيح هو الوحيد الذي تسلم له الحياة .

٢٥ ـ المسيح هو الطريق الوحيد إلى اللَّه .

٢٦ ـ المسيح هو الذي مات من أجل أن نجد الطريق إلى اللَّه .

٢٧ ـ المسيح هو محبة ، والمحبة هي صليب المسيح الذي عُلِّق فوقه .

٢٨ ـ المسيح هو الطريق إلى الحياة الروحية .

٢٩ ـ المسيح هو الذي فتح أبواب الحياة على مصراعيها .

٣٠ ـ المسيح هو الحياة الأبدية ، وبدونه يكون الموت والعذاب الأبدي .

٣١ ـ قيامة المسيح هي قهر الموت عدو الإنسان اللَّدود .

٣٢ ـ الإيمان بالمسيح هو الذي ييسِّر مشاكل الحياة .

٣٣ ـ الإيمان بالمسيح هو الخط الفاصل بين السماء وبين الجحيم .

٣٤ ـ الإيمان بالمسيح هو حلٌّ لكافة المشاكل .

٣٥ ـ الإيمان بالمسيح هو الطريق الوحيد لتحقيق السعادة .

٣٦ ـ الإيمان بالمسيح وعمله الكامل على الصليب هو طريق الحياة الأبدية كما رسمه اللَّه .

هذا ما يتعلق بالنعوت التي تطلقها الإذاعات التنصيرية على المسيح عليه السلام كما تتبعها الدكتور «كرم شلبي» ، وللقارئ أن يقارن بين هذه النعوت التي أطلقوها عليه ، وبين ما جاء به الدين الإسلامي الحنيف في نظرته إلى الأنبياء ، بل ويقارن بين منزلة الأنبياء عموماً في القرآ الكريم ، وبين منزلتهم في كتابهم الذي يقدِّسونه ليرى الحق والباطل وجهاً لوجه ، ومما لا شكَّ فيه أن هذه الأوصاف لو سمعها المسيح عليه السلام في حياته لكان له موقفاً غليظاً ممن يطلقها عليه .

وأعتقد أن الاطلاع على هذه الأوصاف يفيد القارئ فائدتين :

الأولى : حتى لا يقع في إطلاق واحدة منها ، ولو بحُسن نيَّة .

والثانية : حتى يمكنه التحذير ودعوة غيره إلى الخوف من الغُلو الذي كان من أهم أسباب الوقوع في الشرك قديماً وحديثاً .

٥ ـ التَّنْصير والدَّعايات لكتابهم الذي يُقدِّسونه .

وحينما أحسَّ النصارى بضعف كتابهم الذي يطلقون عليه «الكتاب المقدَّس» اخترعوا له أيضاً أوصافاً ليكملوا ما شعروا به من النقص ، وقد أحببت أن تطلع عليها أخي القارئ فيما يلي :-

١ ـ الإنجيل هو الكتاب الذي رسم اللَّه فيه طريق الحياة الأبدية .

٢ ـ الإنجيل هو الإيمان .

٣ ـ الإنجيل هو كلمة اللَّه [(١)] .

٤ ـ الإنجيل هو الطريق الوحيد للحصول على راحة وسلام القلب وصحة النفس .

٥ ـ الإنجيل من أسهل وأوضح الكتب .

٦ ـ الإنجيل كتاب نحبُّه .

---

(١) يعترفون بضياع إنجيل عيسى ، ويعترفون أن الأناجيل ليست هي كلام اللَّه .

٧ ـ الذين لا يؤمنون بالإنجيل هم أصحاب القلوب والعقول المظلمة [١] .

٨ ـ الإنحراف والفساد والرشوة والانحلال الأخلاقي تأتي بسبب ترك الإنجيل .

وللقارئ أن يقارن ويعجب من هذه الشهادات الزور وبين ما في الأناجيل حقيقة ـ والأناجيل موجودة وظاهرة ـ فأيُّ طريق رسمه اللَّه في الأناجيل للحياة الأبدية ، أحينما خلا من ذكر الجنة والنار وعذاب القبر والبعث والنشور والحساب والميزان وموقف الناس في المحشر وتطاير الصحف ، ثم التأبيد في الجنة أو في النار ، وغير ذلك من أخبار اليوم الآخر .

فأيُّ حياة أبدية يقصدونها ؟!!! أهي الحياة الدنيا ؟!!! ، فإنها ليست أبدية ، إنما هي كظل زائل ، أم يقصدون ذلك التهويل تحت إسم دخول ملكوت اللَّه تعالى ؟ فما ملكوت اللَّه تعالى ؟ إنه وصف يصدق على كل شيئ في هذا الكون ، فهل هذا هو المراد بالحياة الأبدية ؟ إنه من الحمق أن يعتقدوا هذا لو أرادوه .

وأمّا وصف الأناجيل بأنها الإيمان ، فنعم إنه الإيمان الوثني بثلاثة آلهة ، التي أشكل معرفتها على كل العقول بما فيها عقول الذين وضعوا هذه العقيدة ، فكيف يصفون أناجيلهم بأنها من أوضح الكتب ، فهل يحفظونها ؟ ، كلاَّ ، لأنه كلام ركيك ومعقد لا يستسيغ العقل حفظه والاهتمام به ، يجمع بين المتناقضات والتكرار الممل ، ولنا أن نسأل أي

(١) ولكنهم لا يُطبِّقونه هم أيضاً .

نصراني : هل تطبِّقون تعاليم الأناجيل ؟ من المستحيل أن يجيب النصراني بنعم ، لأن الذين وضعوها بنوها على أساسات خيالية لا يمكن أن يقبل الشخص تطبيقها على نفسه ، كما عرفت أمثلة كثيرة في دراستك للأديان .

وفوق ذلك نقول لهم إنكم تمدحون تلك الأناجيل مع أنكم تجزمون بأنها ليست من وحي اللَّه مباشرة على نبيِّه المسيح عليه السلام ، بل كُتبت بعده بإلهام - كما يدَّعون - فأين إنجيل المسيح الحقيقي المنزَّل من اللَّه تعالى إن كنتم صادقين ؟!! ، لا يمكن لأي نصراني أن يزعم بأن إنجيل المسيح موجود بأيديهم ، فأيُّ تناقُض يرتكبونه ؟!! ، وأيُّ تضليل وتغرير يوردون البشر عليه ؟!! .

٦ - التَّنْصير ومدحهم لدينهم :

وصدق مَن قال : «القِرْدُ في عَينِ أُمِّهِ غَزالٌ» ، إن النصارى يدركون أكثر من غيرهم خواء عقيدتهم وهُزالها ، فذهبوا يمتدحونها ويعظمون من قدرها ، لعلَّها ترتفع في أعين الناس ، ومن ذلك قولهم :-

١ - المسيحية هي طريق القداسة والمحبة والإيمان العميق .

٢ - المسيحية هي الكمال الأخلاقي والكمال الأدبي والتطابق بين المعرفة العقلية والتطبيق الحياتي .

٣ - المسيحية هي لقب الحياة كاملة وليست لقباً لدولة أو مجموعة دول .

٤ ـ المسيحي هو الذي يعيش حسب قدوة المسيح ومثله .[1]

وهذه الأوصاف كلها كذب ، وواقع النصارى ومعاملاتهم بعضهم بعضاً ، أو معاملاتهم لغيرهم ـ خصوصاً المسلمين ـ أقوى شاهد على كذب تمدحهم هذا إذ لا أخلاق ولا كمال أدبي ولا تطابق بين المعرفة العقلية والتطبيق الحياتي فيها ، ذلك أنهم يعلمون أن ديانتهم اشتملت على ما لا يقبله العقل ولا المنطق ، وما أكثر الأمثلة على هذا ، مثل : العشاء الرباني ، عقيدة الصلب ، الفداء ، التثليث ... إلخ .

وإن تلك المدائح ما هي إلا تغطية لهذه العورات ، وإلاَّ فأيٌّ تطابق بين العقل وبين قبول تلك الخُزعبلات ، وأين التعاليم التي جاء بها المسيح من واقعهم اليوم ، فلقد كان المسيح حسب الأناجيل يدعو إلى المحبة والتسامح والعفو عن الآخرين والصبر ، إلى غير ذلك من الأخلاق ، بينما معاملة النصارى للمسلمين المستضعفين في البوسنة والهرسك ، وحتى في المستشفيات والإغاثات ونصرة المظلومين لا تمت إلى تعاليم المسيح بأدنى صلة ، فإمَّا أن يعترفوا بخروجهم عن تعاليم المسيح ويكفروا بما في الأناجيل ، وإما أن يطبقوها كما هي فيصبح إدِّعاؤهم انتسابهم إلى الأناجيل كذباً ، ولا يجوز الجمع بين المتناقضات .

وفي ختام هذا العرض ألفت نظر القارئ إلى مدى استفادة أعداء الإسلام من وسائل التعليم المرئية والمسموعة ، ومدى استفادة الكثير

---

(١) انظر «الإذاعات التنصيرية» ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠

من المسلمين منها حيث يرون أنها يجب أن تكون مصدر تسلية للجماهير وتلميعاً لأعمال المسئولين وسبيلاً للمفاخرات ومنبراً لها .

ومن أساليبهم التدخل في شؤون التعليم والهيمنة عليه ، وقد نجحوا في هذا الجانب نجاحاً كبيراً كما ستراه فيما يلي :-

٧ ـ التَّنْصير والتعْليم :

لا يجهل أحد دور العلم والتعليم والمعلِّم في توجيه الفرد والمجتمع ، ولا يوجد دين أو ملَّة تحثُّ على العلم وتَعلُّمه مثل دين الإسلام ، كما لا يوجد دين يحث على احترام المعلِّم وتقديره مثل الإسلام الذي أوجب احترامه وتقديره رغبةً في الثواب عند اللَّه تعالى ، وأخبره بما له من الجزاء العظيم إذا أخلص في تعليم الناس واحتسب الأجر عند اللَّه قبل أي نفع يصل إليه .

هذا أمر واضح ومُقرَّر في الإسلام ، ولسنا بصدد شرح هذه المزايا بالتفصيل ، وإنما الغرض هو بيان استغلال أعداء الإسلام لهذا الجانب الهام وتحويله إلى أداة تخريب للقيم والأخلاق والدين على أيدي أُناس لا يخافون اللَّه ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمَّة ، يُرضون المسلمين بأفواههم وتأبى قلوبُهم .

ولقد جاءت جحافل أعداء الإسلام من الصليبيين وأتباعهم ممَّن

باعوا أنفسهم لهم ليُطفئوا نور اللَّه بـأفواههم ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ .[1]

وأعتقد أنه من نافلة القول الجزم بأنه من واجب كل دولة إسلامية أن تضع المناهج التعليمية بالاستناد إلى ما يتوافق والدين الإسلامي ، وأن تكون المناهج مستمدَّة من واقع الاعتقاد السليم وعلى المنهج المستقيم الذي تركنا عليه أسلافنا ، وأن لا تُدخل أي مادة في أي مستوى كان إلاَّ بعد معرفتها معرفة دقيقة ، وبعد التأكد أيضاً من فائدتها للإسلام والمسلمين .

كذلك أيضاً يجب أن يُختار المعلِّم المستقيم خُلُقاً وعقيدة ومعرفة بمادته التي ائتمنَه الناس عليها لفائدتهم وفائدة أبنائهم ليكون فيها قدوة محببة إلى نفوس تلاميذه ، فيحبونها لحبهم له ، ويحبونه هم كذلك لحبه لمادته ، فيحصل الانسجام التام والفائدة المرجوة ، ولا يمكن أن يكون المعلم كذلك إلا إذا كان يحرص كل الحرص أن لا يسمع منه تلاميذُه إلاَّ ما كان صحيحاً صواباً أيَّاً كان مصدره ، من كتاب اللَّه تعالى أو من سُنَّة نبيِّه ﷺ ، أو أقوال علماء الإسلام ، أو كان من اجتهاداته أو اجتهادات غيره في الأمور التي تقبل الاجتهاد والتفكير والتي تتوافق مع العقيدة الإسلامية الصحيحة ، كالعلوم التجريبية التي برع فيها المسلمون في القديم ، فإن الإسلام يحثُّ على كل ما من شأنه النفع في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الصف ، الآية : ٨

لقد اشتدت ضراوة المعارك بين الإسلام وأعدائه عن طريق التعليم في حروب سافرة لم يعد الإخبار عنها سراً مكتوماً في نفوس المخططين لها ، بل ذهبوا يتبجَّحون علناً بذلك .

١ ـ **يقول نفرٌ من المبشِّرين** : «إن أهداف المدارس والكليَّات التي تشرف عليه الإرساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة ، إن المدارس والكليّات كانت تُعتبَر في الدرجة الأولى وسيلة لتحقيق أهداف التبشير حتى إن الموضوعات العلمية البحتة التي تُعلَّم من كتب غربية وعلى أيدي مدرسين غربيين تحمل معها الآراء التبشيرية» .

٢ ـ **ويقول المبَشِّر «هنري هريس جسب»** : «إن التعليم في الإرساليات التبشيرية إنما هو وسيلة إلى غاية فقط ، هذه الغاية هي قيادة الناس وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحين وشعوباً مسيحية» .

٣ ـ **ويقول أيضاً** : «إن المدراس شرط أساسي لنجاح التبشير ، وهي بعد هذا وسيلة إلى غاية ، لا غاية في نفسها ، لقد كانت المدارس تُسمَّى بالإضافة إلى التبشير «دق الإسفين» ، وكانت على الحقيقة كذلك في إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر» .

٤ ـ **ويقول بعض المبَشِّرين»** : «إن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير

يستمـر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون في يوم ما قادة في أوطانهم» .

٥ ـ **ويقول المبَشِّر «هـ دانبي»** : عن دور المعلِّم المسيحي والمعلم المسلم ، وعن مدى نجاحهما في إيصال التلاميذ إلى التمسُّك بالنصرانية ، وعن الشك الذي يحصل من وراء إسناد التدريس إلى المعلم المسلم الغير جاد في تعليم النصرانية ـ أي يُشكِّك التلاميذ في أهمية التعاليم النصرانية ـ ، يقول : «ثم يتسع الشكُّ على كل حال حينما نأتي إلى استخدام معلم غير مسيحي لتعليم موضوعات لا نجد لتعليمها معلِّماً مسيحياً ، أجل إن البراعة في التعليم لا صلة لها بدين المعلم ، ومما لا ريب فيه أن معلماً مسلماً ذا خبرة بمهنته وذا كفاءة يمكن أن يكون له من الجاذب الشخصي وقوة الخلق والشعور بالواجب ما يجعل منه معلماً يبعث الحياة في طلابه ، أو مربياً صالحاً ، ثم هو يمكن أن يؤثر في طلابه أكثر من المعلم المسيحي المجرد من الصفات التي يتصف بها ذلك المعلم المسلم ، ولكن إذا كانت الغاية من التعليم في المدارس التبشيرية ـ كما يجب أن تكون ـ إنما هو تزويد الطلاب باستشراق مسيحي للحياة ، وتمريناً لهم على ممارسة المبادئ المسيحية وتقريبهم من اختبار شخصي للإيمان المسيحي ، فكيف للمسلم الأمين أن يعاوننا على بلوغ هذه الغاية ، ثم إذا كان هو يعتقد بهذه الغاية ولكنه لا يخطو خطوة ليصبح فيها مسيحياً ، أفلا يكون له حينئذ على تلاميذه تأثير سلبي فيستنتجون من سلوكه أن الدين ليس موضوعاً ذا أهمية حاسمة» .

٦ ـ **ويقول المبَشِّر «تكلى»** : «يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني ، لأن كثيراً من المسلمين قد رعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلَّموا اللغات الأجنبية» .

٧ ـ **ويقول «صموئيل زويمر»** : «ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، فلا بد أن ننشيء لهم المدارس العلمانية ونسهِّل إلتحاقهم بها ، هذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب» .

فبم يجيب العلمانيون عن هذا المخطط الواضح ؟!! ، وهل تنفعهم المراوغة والاحتيال لصرف الناس عن التصديق به ؟!!

٨ ـ **ويقول «جسب»** : «لقد فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محددة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه ، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه ، لكن نجاح هذا التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي ، وعلى الشباب منهم خاصةً ، كل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمي والثقافي العلماني» .

٩ ـ **وتقول المبَشِّرة «آنا ميلي غان»** : «لقد استطعنا أن نجمع في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات ، ولا

يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هـذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي ، وبالتالي ليس هناك من طريق آقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة» .

١٠ ـ **ويقول المبَشِّر «چون موط»** : «يجب أن يؤكد في جميع ميادين التبشير جانب العمل بين الصغار وبين ما يبدو مثل هذا العمل وكأنه غيرية ترانا مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية ، إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً من أجل ذلك يجب أن يُحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية ، إن اختبار الإرساليات في الجزائر فيما يتعلق بهذا الأمر وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمال إفريقيا إختبار جديد ومقنع ، وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أقوى الوسائل للوصول إلى المسلمين» .

١١ ـ **ويقول المبَشِّر «بزوز»** : الذي جاء عام ١٩٤٨م ليتسلم زمام الرئاسة في جامعة بيروت الأمريكية : «لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان ، ومن أجل ذلك تقرر أن يختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية [١] من مبشري الإرسالية السورية» [٢]

(١) وهي الجامعة الأمريكية اليوم .

(٢) نقلاً عن كتاب «غزو في الصميم» ، ص ٢٥ ـ ٢٩

هكذا ينظر الغربيون إلى قضية التعليم في البلاد الإسلامية ، إما أن يُدخلوا تلك المناهج التعليمية في ديار المسلمين عن طريق الاحتيال ومغافلة المسلمين ، وإما أن يُدخلوها بالقوة والإكراه ، كما كان الحال حينما كانت الدول الإسلامية مستعمرة لهم ، على أن كثيراً من الدول الإسلامية اليوم التي تحتفل بعيد الاستقلال في كل سنة ، وهي لا تملك حتى الحرية في وضع مناهجها التعليمية لأبنائها دون تدخل النفوذ الغربي النصراني علانيةً ، أو من وراء حجاب ، لهي مهازل مؤسفة .

ولقد أدى ذلك الاهتمام بنشر التعاليم النصرانية عن طريق التعليم ثماره بين المسلمين ، فإذا بكثير منهم يتنكرون لدينهم الإسلامي ولقيمه ويتمنون بجدع الأنف لو طبقت مناهج التعليم الغربية بحذافيرها في جميع البلدان الإسلامية ، وبعض هؤلاء وصلوا إلى سدة الحكم ومواقع التأثير ، فإذا بهم يلغون التعليم الإسلامي ويمنعون فتح المدارس الإسلامية ، وأن يكون البديل هو التعليم العلماني والمدارس العلمانية ، وهذا ماحصل بالفعل في كثير من البلدان الإسلامية وعلى رأسها تركيا ومصر وسوريا ولبان والعراق وغيرها من البلدان التي تأثرت بسموم الحضارة الغربية .

وقد أصبح التعليم كله على مختلف فنونه يهدف إلى تحقيق غاية واحدة ، هي إعلاء الفكر المضاد للإسلام ، الفن والشعر والعلوم والتاريخ والرياضة والتمثيليات والمسرحيات والرحلات الطلابية والمسابقات الثقافية ، وسائر الفنون الأخرى كلها لا بد فيها من تحقيق الطموح الغربي والتنفيس عن الحقد الصليبي ، وأن تشتمل كلها على تحقيق هذا الهدف .

وهناك حيل أخرى يستعملها المفكرون الغربيون ضد المدارس التي لم يتوصلوا إلى التدخل المباشر فيها :-

١ ـ وذلك بإشاعة أن السنة الدراسية وحضور الطالب فيها يكفي لنجاحه إلى السنة التي تليها بغض النظر عن مستواه التعليمي لكي ينتشر التعليم بسرعة ويقضي على الأميَّة إلى غير ذلك من المبررات التي أقنعوا بها المسئولين ، وكانت نتيجة هذه المكيدة أن تدنَّى مستوى التعليم فيها إلى حد الحضيض رغم الشهادات التي يحملها أمثال هؤلاء الذين نالوا الشهادة دون مقابل من التعليم يستحقه ، والغرض الخفي وراء هذه المكيدة تَدنِّي المعرفة في العالم الإسلامي وتخريج متعلمين جُهَّالاً لا يثقون بأنفسهم ولا تثق بهم مجتمعاتهم ، وبالتالي إيجاد الحيرة والاضطراب في الجميع .

٢ ـ وهناك حيلة أخرى أيضاً تؤدي إلى نفس الغرض السابق وإن كان يبدو أنها تشدد على المتخرجين حيث يوهمون المسئولين بأنه يكفي لنجاح الطالب أن يشترط عليه الحصول على نسبة مئوية تؤهله للنجاح والانتقال في المراحل التعليمية ، ولتكن تلك النسبة متدنية إلى حد ما إذ المطلوب تسهيل نجاح الطالب ومتابعته الدراسية ، وتم هذا ولكن النتيجة لم تختلف عن الطريقة السابقة .

٣ ـ ثم اخترع الغُزاة للأفكار حيلة أخرى هي دمج المواد المتشابهة وإعطائها درجة واحدة ، مع أن كل مادة تستحق أن تفرد بالدراسة الكاملة وبالدرجة المستقلة ، وكان غرضهم من هذا أن يجد الطالب الكسول

الفرصة الملائمة له لدراسة أي جزء تميل إليه نفسه ليأخذ الدرجة كاملة عن كل المواد ، الأخرى الورادة تحت تلك التسمية فتتدنى المعرفة ويزداد الكسل والخمول والأمية .

مثلاً «مادة الدين» تشمل العقيدة الإسلامية ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والمصطلح ، وعلوم القرآن ، والتجويد ، والسيرة النبوية ، والتاريخ ... إلى غير ذلك مما تيعلق بمواد الدين . هذه كلها أصبحت مادة واحدة ، ودرجتها واحدة ، فأي نفع سيحصل عليه الطالب من هذا الوضع ؟

وكذلك مواد اللغة العربية من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وأدب ، وإملاء ، وخط ، وقراءة ، وتعبير ، ونصوص ، وعَروض ... هي مادة واحدة كذلك !!

٤ ـ وهناك حيلة رابعة تُسمى بنظام الساعات ، حيث يتم فيها تجزئة المادة العلمية إلى وحدات دراسية صغيرة تنتهي دراستها في مدة وجيزة يتركها الدارس متى نجح فيها ليأخذ بعدها وحدة أخرى ، وهكذا إلى أن تنتهي المراحل الدراسية كلها ، والعيب في هذه الطريقة أن الدارس يأخذ المعلومات على عجل ، ثم يتركها على عجل كذلك ، فلا تثبت المعلومات في ذهنه ، بل ينساها تباعاً ، أو لا يحصل له فيها إهتمام بالقدر الذي يجب [١] ، وهي دسائس لا بد أن تؤثر سلباً على الدارس عاجلاً أم آجلاً .

(١) بتصرف عن كتاب «غزو في الصميم» ، ص ٩٠ ـ ٩٨

ومن أخطر أنواع الغزو الفكري عن طريق التعليم ، ما يُسمَّى بوسائل التفريغ والملء ، وهي وسائل خبيثة يُراد من ورائها أن يبقى المسلمون بعيدين عن أي اتصال بدينهم بسبب ما يضعونه أمامهم من العراقيل ، والمفاهيم والشبهات الباطلة ، فتفسد بذلك مفاهيمهم عن الإسلام ويتمثل هذا السلوك في أمور كثيرة ، من أهمها :-

١ ـ فصل العلوم الدينية عن العلوم الدنيوية ، وبالتالي الفصل بين من يريد تعلُّم الأمور الدينية وبين من يريد العلوم الدنيوية ، وهي خطة غاية في المكر يُرادُ من ورائها :

١ ـ فتح فجوة وهوة سحيقة بين العلمين حتى لا يكتشف الجميع أنهم على طريقة واحدة يكمل بعضهم بعضاً بالمعارف والعلوم ، وأنه لا مُنافاة بينهم في هذين المجالين في حقيقة الأمر .

٢ ـ إثارة العصبية البغيضة بين أتباع كل علم ، بحيث يتعصب صاحب كل علم لمبدئه فتحصل الفرقة والتباغض بينهم وهو المراد من تلك الخطة .

٣ ـ إقصاء أصحاب العلوم الدينية كي يضطروا إذا أرادوا أن يكون لهم ذكر في المجتمع أو تأثير أو أن يعيشوا عيشة كريمة كي يضطروا إلى نبذ دراساتهم الدينية والالتحاق بدراسة تلك العلوم الدنيوية التي يزعمون أنها لا تتوافق مع التعاليم الدينية .

٤ ـ تشجيع كل صاحب هدف مّا على أن يلفق عن الرسلام مفاهيم كاذبة ومبتدعات باطلة وقصص مفتراة تحط من تعاليم الإسلام ومن نبيه العظيم ومن سلف أمّة الإسلام ، لكي ينشأ جيل يعتقدها صحيحة فيفضلها ويقدمها على أنها هي التعاليم الإسلامية ، جهلاً بحقيقتها ، وتكون نتيجة تلك المفتريات بُغض الإسلام الصحيح وبُغض عُلمائه السلفيين .

ومن جهة أخرى يستفيد أعداء الإسلام منها الحيلولة دون معرفة حقيقة تلك الأغاليط والأكاذيب المفتراة لضمان عدم رجوع من سلك سبيلهم عنها .

٥ ـ ومنها كذلك إبعاد أي شخص يدرك حيل أعداء الإسلام ويعمل على إحباط مخططاتهم ، فيعملون على إبعاده عن مركز المسئولية والنفوذ ليأمنوا جانبه .

٦ ـ ومنها اضطهادهم طلاب العلوم الدينية ودعاته وإثارة بعضهم على بعض وغمزهم بكل النقائص وإدخال عناصر بينهم للتجسس عليهم ولتفريق كلمتهم .

٧ ـ الهجوم على الإسلام وإثارة الشبهات والشكوك حول صلاحيته وأنه مصدر تخلف المسلمين ، بينما الحضارة الغربية بزعمهم كانت هي مصدر التقدم الأوربي حينما تركت تعاليم الكنيسة ، وهؤلاء قد

يكونون مغالطين متعمدين مع اقتناعهم بصلاحية تعاليم الكنيسة وتعصبهم لها ويقولون ذلك من باب تشجيع المسلمين على ترك دينهم نفاقاً لهم ، وإما أن يكونوا جادّين في ذلك بسبب ما رأوه في تعاليم الكنيسة من اضطهاد للعلم والعلماء ، وهم يقولون ذلك لتشجيع الإلحاد ونبذ الأديان كلها سواء ما كان وضعياً كالنصرانية أو إلهياً صحيحاً كالإسلام دون أن يلتفتوا إلى الفوارق الهائلة بين الدين الإلهي والدين الوضعي البشري .

٨ ـ السخرية والتهكم بعلماء الإسلام وبالأحكام الإسلامية والعبادات في الإسلام ووصفهم بكل صفات النقص وتشويه صورهم الناصعة إلى حد أن جعل بعض ضعاف النفوس يستحي أو يخاف أن ينسب نفسه إلى الإسلام في بعض الأماكن والبلدان لئلا يكون محل سخرية وتهكم من المحيطين به من شياطين الإنس .

وإذا كانت تلك الوسائل كلها المقصود بها تفريغ عقل المسلم من دينه ، فهناك أيضاً وسائل أخرى متممة لها يستعملها الغزاة لملئ ذلك الفراغ الذي تُحدثه الوسائل السابقة ، ويتم هذا عن طريق هيمنتهم على التعليم والمناهج الدراسية وعلى طريقتهم .

٢ ـ الغض من جدوى التعليم الإسلامي .

٣ ـ التشجيع المادي والمعنوي لكل من انضم إليهم من المسلمين وإغداق الأموال والهدايا عليهم وتمكينهم من الوصول إلى مواقع السيطرة

والنفوذ في بلدانهم وتهيئة الرأي العام لهم إذا كانوا يصلحون للقيادة ليملؤا بهم الفراغ الذي رتبوه .

٤ ـ إهمال مدرسي الدين الإسلامي وازدرائهم وإحلال مدرسي المواد الأخرى في حال أحسن من حال أولئك .

٥ ـ تسخير كل شيئ لصالح الغزاة من المواد الدراسية إلى لعبة كرة القدم ، فالمسارح والسينما والتمثيليات والنزهات والاختلاط ووسائل ما يُسمُّونه بالفن والكتب والمجلات والصحف والإذاعة والتلفزيون ... إلى آخر تلك الأمور التي لا تُحصر إلاَّ بالكلفة ، كلها تهدف في النهاية إلى خدمة الغزاة بملىء الفراغ في كل مكان يتطلبه الأمر أو يخرج منه الإسلام ، والأنكى في كل ذلك أن يقوم بعض من ينتسب إلى الإسلام في الأساس ممَّن باعوا دينهم وضمائرهم وعقولهم لغزاة الأفكار ، أن يقوم هؤلاء بتنفيذ ما يريده الغزاة بكل دقة وجُرأة تامة دون أي اكتراث بالمصير المشئوم الذي يتهدد أمتهم الإسلامية .

بل إن هؤلاء أصبحوا أعتى وأشد على المسلمين من عدوهم الخارجي ، وقد ورد في حق هذا الصنف من الناس قول الرسول ﷺ في إخباره حُذَيفَة رضي الله عنه بالشرِّ الذي يتهدد المسلمين ، وأن من ذلك الشرِّ ظهور «**قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»[(١)] ، وهو الغزو الفكري بالتعبير الحديث ، فهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، ولكن ما أبعد الفرق بينهم وبين من ينتسبون إليهم في الظاهر من المسلمين[(٢)] .

---

(١) أخرجه البخاري ، ج ٣ ، ص ١٣١٩ ، ومسلم ، ج ٣ ، ص ١٤٧٥

(٢) انظر : «غَزو في الصميم» ، ص ٢٠٧ ـ ٢١٤

لقد أفاق المستشرقون من غزوهم لمصادر التعليم فوائد لا يمكن أن تتحقق في أشد المعارك مهما طالت ، ولكنها تحققت عن طريق الغزو الفكري وبسرعة أيضاً ، ويكفي أن نتصور مقدار نجاحهم في وصولهم إلى حد إقناع المسلمين بأن يتجهوا إلى الدول الغربية لاستكمال دراساتهم العالية أو التخصص في شتى الفنون ليرجع الشخص بعد نهاية دراسته عندهم إلى بلده يُشارُ إليه بالبَنان ، وتقدم له الوظائف ليختار منها ما يريد ويترك ما لا يريد ، ثم يُحاط بهالة من المدح والتوقير ، في الوقت الذي يشعر في قرارة نفسه أن وجوده بين أفراد قومه الذين فارقهم للدراسة في الغرب ورجع إليهم يجد نفسه وكأنه غريب عنهم تماماً ، وأن الأقدار ساقته ليعيش معهم مرة أخرى رغم أنفه ، إلا القليل ، ويتمنى بجدع الأنف لو أن مجتمعه المسلم تحول بمساكنه ومساجده وسلوكه ، بل وترابه إلى قطعة من الغرب المتطور في نظره .

وقد صرَّح الكثير منهم بانزعاجهم من حياة الشرقيين ـ الحياة الإسلامية ـ وأنهم متخلفون في كل شيء ينقصهم الفهم والإدارك والسلوك الجميل ـ الحياة الغربية .

ولا أعتقد أن القارئ في حاجة إلى كثرة الأدلة فإنه بإمكانه أن يدرك ذلك بمجرد أن يفكر ما الذي درسه هذا الخريج من كتب العلم الغربية ومَن الذي درَّسه في تلك الجامعات .

وسيأتيه الجواب فوراً أن العلم الذي درسه هناك هو كتب المستشرقين وما فيها من الدَّسِّ والتشويه لصورة الإسلام والمسلمين ، والمدرسون هم

أعداء الإسلام من كبار غُزاة الأفكار الذي برعوا في الهجوم على الإسلام والمسلمين .

إنه لأمر يدعو إلى العجب ، ويُذيب القلب كمداً وحسرةً أن يذهب الشخص من ديار الإسلام إلى ديار أعداء الإسلام ليدرس عليهم مختلف المواد من آداب وسلوك وإجتماعيات وثقافات مختلفة وتاريخ وأديان ولغات شرقية وغربية .. وغير ذلك ليُمنح أرقى الشهادات إذا أدى ما تعلمه من العلوم الغربية التي تُحبِّب إليه كل سلوك غربي وتُكرِّه إليه كل سلوك إسلامي تحت تسمية ـ السلوك الشرقي ـ فإن أدى ذلك كما يريد أساتذته فليبشر بالنجاح ، وإلا فلا كيل له عندهم ولا يقربهم ، وهذا أمر بدهي ، فالدار دارهم ، والمناهج مناهجهم والمدرسون منهم والشهادة في ملكهم وتحت أيديهم ، وقد جاءتهم الفرصة الثمينة التي طالما ما تمنوها وأكدوا عليها في كل مؤتمر من مؤتمراتهم التي يوصون فيها باقتناص أي مسلم ينضم إليهم .

ولا ينبغي أن يُفهم هذا الكلام على أنه عام في كل من يذهب للدراسة في الغرب ، فإن بعضهم يهيء اللّه له وسطاً طيباً فيعيش بعيداً عن التأثر نوعاً ما ، وبعضهم يذهب وعنده معرفة طيبة في أمور دينه ، لكنه كما جاء في الحديث «كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ»[1] ، فإنه يخاف على هؤلاء القلة أيضاً أن يتأثروا ولو من طرف خفي .

---

(١) أخرجه مسلم ، ج ٣ ، ص ١٢١٩

٨ ـ التَّنْصير عن طريق المعاهد التَّنْصيرية :

أما معاهد الدراسة ومراكز البحوث فقد اهتم المنصرون بإنشاء معاهد للدراسة النصرانية في مختلف البقاع ، ومنها :-

١ ـ معهد «بونتيفيكو» للدراســات العربية ، ومقــره روما في إيطـاليا ، تشرف عليه الكنيسة الكاثوليكية .

٢ ـ معهد الآداب العربية ، ومقره تونس ، وتشرف عليه أيضاً الكنيسة الكاثوليكية .

٣ ـ المركز النصـراني لدراسات شمال إفريقيا ، كان مقره في الجزائر ، وقد أغلقته الحكومة الجزائرية عام ١٩٦٩م .

٤ ـ مركز دراســات العالم العربي الحديث ، ومقــره بيروت ، وتشــرف عليه الكنيسة الكاثوليكية والجمعية اليسوعية .

٥ ـ معهد الشــرق الأدنى للاهــوت ، ومقــره بيروت في لبنـــان أيضاً ، وتشرف عليه طوائف نصرانية .

٦ ـ مركز دراســات الإســلام في إفريقيا ، ومقره نيروبي في كينيا ، وتشرف عليه عدة طوائف نصرانية .

٧ ـ المركز النصراني للدراسات ، ومقره راولبندي في باكستان ، وتشرف عليه طوائف مسيحية .

٨ ـ معهد هنري مارتن للدراسات الإسلامية ، ومقره حيدر آباد في الهند ، وتشرف عليه عدة طوائف نصرانية .

٩ ـ مركز أبحاث دانسلان ، ومقره مدينة أليجان في الفلبين ، وتشرف عليه كلية دانسلان التابعة لكنيسة المسيح الموحَّدة .

١٠ ـ مركز دانكان ماكدونالد لدراسة الإسلام والعلاقات النصرانية الإسلامية ، وتشرف عليه مؤسسة هارتفورد النصرانية في الولايات المتحدة الأمريكية .

١١ ـ معهد زويمر للدراسات الإسلامية ، ومقره ولاية كاليفورنيا بأمريكا .

١٢ ـ الوكالات الدينية التنصيرية ، وتوجد عدة وكالات في أمريكا وكندا وأستراليا على غرار معهد زويمر [١] .

وقد نجح هؤلاء الشياطين في استجلاب كثير من المسلمين إلى صفوفهم في إفريقيا ، وفي آسيا ، ويزعمون أنهم سيحتفلون في عام ٢٠٠٠م بتنصير إندونيسيا كاملة [٢] ، واللَّه غالب على أمره ، ولن يمكنهم اللّه تعالى إن شاء اللَّه .

أنظر أخي القارئ إلى هذا التركيز في معاهدهم على دراسة العربية

(١) باختصار وتصرف عن «الإذاعات التنصيرية» ، ص ٢٥ ـ ٣٠

(٢) وقد بدت بوادر صحة ما توقعوه ، وذلك بانفصال تيمور الشرقية على أيدي النصارى وقيام المشكلات العنيفة في أماكن أخرى أيضاً من هذا البلد تحقيقاً للمخطط المرسوم لأندونيسيا .

والآداب الإسلامية ، ثم تذكر أي عربية يدرِّسونها ، وأي آداب إسلامية يعلِّمونها ؟!! ، إنه دَسُّ السُّم في العسل ، ذلك أنهم أعدى أعداء العربية والآداب الإسلامية .

٩ ـ التَّنْصير عن طريق الطِّب :

في بناء المستشفيات التي ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب ، وقد لجأوا إلى نشر النصرانية عن طريق الطب بعد أن فشلوا في نشرها بالوعظ والدعوة المباشرة ، وقد استغلوا حاجة المرضى أسوأ استغلال وبطرق شيطانية ماكرة يطول شرحها ، إذ يقدمون للمريض ـ كما يُذكر عنهم ـ الدواء الفاسد باسم محمد ﷺ ، ثم يقدمون له الدواء الجيد باسم المسيح عليه السلام ، ثم يسألون المريض عن المقارنة بين الحالتين ، مُذكِّرين المريض بأن شفاء المرضى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ... وغير ذلك كان جزءاً من قدرة المسيح عليه السلام على الشفاء ، وغير ذلك من الأساليب والخدع الماكرة ، ومن أقوال كبارهم .

قال «بول هاريسون» في كتابه «الطب في بلاد العرب» : «لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى» .

وتقول المبشِّرة «إيد هاريس» : «يجب على الطبيب أن ينتهز الفرصة ليصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم» .(١)

(١) انظر : «الموسوعة الميسَّرة» ، ج ١ ، ص ٦٨٣

وغير ذلك من أقوالهم في الحث على نشر التنصير عن طريق الطب والأطباء .

١٠ ـ التَّنْصير عن طريق الخدمات الاجتماعية المجانية :

كما نشروا نصرانيتهم عن طريق توفير الخدمات الاجتماعية بالمجان ، أو بأجور رمزية ، والغرض هو جذب المحتاجين إليها ، فقد قاموا ببناء مساكن مختلفة المنافع ، بيوت شباب ، ملاجئ للفقراء ، أماكن للترفيه والتسلية ، فتح مكتبات مزوَّدَة بكل أنواع الراحة للقُرَّاء ، جمع الطلاب من بنين وبنات في سيارات على حسابهم للنزهة أو القيام ببعض الأعمال أو زيارات للمستشفيات لإشعار المريض وأهله بشدة اهتمامهم بالمريض لفرط رحمتهم به ـ بزعمهم .

ثم أنشأوا دور التعليم من روضة أطفال إلى الكلية ، وشجَّعوا أبناء المسلمين على الالتحاق بها بأجور رمزية ، وفي أكثر الأحيان بدون مقابل ، لأن المقابل الذي يهدفون إليه هو الإنسان نفسه الذي يتقدم إليهم .

١١ ـ التَّنْصير عن طريق استغلال الأماكن التي تقوم فيها الحروب :

وهي من وسائلهم الهامة أيضاً ، حيث يستغلون الأماكن التي تقوم فيها الحروب بين المسلمين وتشجيعهم على قيامها بغرض إضعاف المسلمين ، ثم لبيع السلاح لهم ، ثم يظهرون بمظهر المنقذ المصلح ـ مع أنهم هم الذين

يقدمون الأسلحة لكل المتقاتلين ـ ثم يلجؤون إلى طُرق تُدمي القلب ، وهي أخذ أولاد المسلمين الأطفال وترحيلهم عن بلدهم وذويهم إلى حيث ينشأون تنشئة نصرانية حاقدة كما فعلوا في كثير من البلدان الإسلامية ، حيث ترسوا البواخر العملاقة في البحر لنقل هؤلاء الأطفال كما نسمعه من إذاعاتهم المختلفة ، وعلى مرأى ومسمع من المسلمين حكاماً ومحكومين ، ومن العجيب أن هذا العمل لم أسمع أي دولة إسلامية تتبناه ، وهو إحجام مُخزٍ ، وكما تسمع في النشرات فإن البوسنيين لا يزالون يسألون عن مصير أطفالهم الذين أخذتهم تلك الجمعيات لتجنبهم ـ كما زعموا ـ ويلات الحرب إلى اليوم لا يدرون عن مصيرهم ولا أماكن وجودهم ، فما معنى تلك الرحمة لتلك الجمعيات .

١٢ ـ التَّنْصير عن طريق حاجة المسلمين إلى الأيدي العاملة من النَّصارَى :

كذلك استغلوا حاجة المسلمين إلى الأيدي العاملة من النصارى في المجالات التي تأخَّر فيها المسلمون من التقنيات الحديثة في مجال النقل ، كالطيران . أو الاقتصاد ، كالبترول .. وغير ذلك .

١٣ ـ التَّنْصير عن طريق استغلال المرأة :

حيث استغلوا المرأة أقبح استغلال بالتركيز على أنها مظلومة جاهلة ، ويجب أن تتحرر من استعباد الرجل الشرقي ، وأن النصرانية توفر لها كل شيء .

١٤ ـ التَّنْصير عن طريق الصِّناعات :

حيث وصلوا إلى أبعد حد ممكن ، حتى حُلي النساء ، فتجد بعضه يُصنع على شكل الصليب ، وكذا بقية الأدوات من لباس وفرش وغير ذلك من أنواع الأثاث .

١٥ ـ التَّنْصير عن طريق التِّجارَة :

حيث يفعلون ذلك عن طريق مبادلة المنافع والسلع بزعمهم ، حيث يحتوي ذلك على كثير من الدس التنصيري في الاتفاقيات والصيغ التي تُكتب بها .

١٦ ـ التَّنْصير عن طريق المناداة بوجوب تَحْديد النَّسْل :

وذلك بتشجيعه بين المسلمين وكذلك الدعوة إلى الزواج المتأخر ، وفي المقابل الدعوة الجادة للمسيحيين بالإكثار من النسل والزواج المبكر وتشجيعهم على ذلك بعدة وسائل ومغريات .

وهناك أوجه كثيرة ووسائل متعددة يستخدمها المنصرون للتأثير على البُسطاء من المسلمين يستجلبونهم بها من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

فقد ملؤا الدنيا ضجيجاً بأن أصحاب الديانات كلهم على خط واحد في محاربة الشيوعية ، وبالتالي فوحدة الأديان هي المطلب المشترك في

مجابهة الإلحاد [1] ، وقد أثرت هذه الدعاية في الكثير من المسلمين ظانين أنه كلام صحيح واتجاه سليم ، ولم يعلموا أنه فكر باطل لا يجوز أن ينخدع به المسلم ، ذلك أن كل ما سوى الإسلام من الديانات فهي باطلة منسوخة ، سواء كانت اليهودية أو النصرانية أو الشيوعية ... أو غير ذلك ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [2] .

بل ويبدو لي حسب تصوري أن الشيوعية أقل ضرراً من النصرانية ، فهي منبوذة بطبيعة الحال ، وليس لها تلك الأوجه التي للنصرانية من الحيل والمسالك المقنعة بالدعوة إلى الله تعالى وإلى الرجوع إليه والرغبة فيما عنده ، ونحو ذلك من الطرق المشبعة بالنفاق والمكر .

وكذلك خطر الوثنية ، فإنه لا يصل إلى الخطر الكامن في التنصير ، إذ الوثنية أمرها معلوم ، وكفرها واضح ، وليس فيها كذلك تلك الأوجه المتعددة للنصرانية من استعمال الكلمات المألوفة مثل (غفران الذنوب ، التوجه إلى الله ، البعد عن الخطايا ...) ونحو ذلك من الكلمات التي لا وجود لها في الوثنية و الشيوعية .

١٧ ـ التَّنْصير عن طريق مُحاصَرة الإسلام :

لقد عمل المنصرون كل ما في وسعهم وطاقتهم على محاصرة الإسلام وعدم وصول نوره إلى النصارى من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى غير

---

(١) هذا الكلام كان قبل أن تسقط الشيوعية ، وأما اليوم فالمجابهة على أشدها بين الإسلام والنصرانية علانية .

(٢) سورة ال عمران ، الآية : ١٩

النصارى من أصحاب الديانات الباطلة ، بل المنصرون يتمنون أن تبقى الشعوب على أي عقيدة كانت إلا العقيدة الإسلامية ، وأن يبقوا على جهلهم ليحوزوا السبق إليهم قبل أن يصلهم الإسلام الذي هو العدو الأول لهم ، والذي تتمثل محاربتهم له في مجالات كثيرة منها :-

١ ـ الحفاظ على من دخل النصرانية كي لا يتركها بحيث لا يتركون له المجال للتفكير أو الاتصال بالمسلمين .

٢ ـ إخراج المسلمين عن دينهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

٣ ـ التشكيك في التعاليم الإسلامية وصلاحيتها لإسعاد البشرية بزعمهم الكاذب .

٤ ـ إرغام المسلمين على النطق بألفاظ التنصير في المعاملات وفي أسماء صناعاتهم ، وفي التحايا بينهم ، مثل (أوكى ، مرسي ، والرب معكم ...) إلخ .

٥ ـ نشر الدعايات الكاذبة أن النصرانية هي التي أوصلت الأوربيين إلى ما وصلوا إليه من التقدم ، وأن الإسلام هو الذي جعل أتباعه بهذه المنزلة من التخلف والضعف .

١٨ ـ التَّنْصير عن طريق تَحْبيب النصرانية والصَّليب إلى الأطْفال :

وبالتالي تبغيض الإسلام إليهم ، وأذكر للقارئ الكريم ما سمعته من إحدى إذاعات الخليج العربي في برنامج يسمونه «مع المستمعين» ، إتصل

أحد الأشخاص من تلك الدول بالإذاعة يقول لهم : عندي خبر طريف ، وذلك أني رأيت إبني الصغير حينما رأى صورة الصليب في الأرض رفعه وقبَّله ، فلما نَهيتُه قال لي : وأنت لا تُقبِّله ، فقلتُ له : لا ، فقال لي : إنه شيءٌ مقدَّس ، فقلتُ له : مَنْ أخبرك ، فقال : الخادمة .

وقد أخبرني أحد الأصدقاء أن عنده خادمة لم يرَ مثلها في الخدمة والطاعة ، ثم قال وهي مع ذلك مثقفة ومدرِّسَة ، وقد رأيتُ لها صورة وأمامها جمع من الطلاب تدرسهم في مدرج بلدها ، فقلت له : وكم تعطيها من الأجرة ، فذكر مبلغاً قليلاً ، فقلت له : لو أعطيتها ربع هذا المبلغ ربما ترضى به ، فاندهش وقال : لماذا ، فقلتُ له : لأن لها مهمة هي في نظرها أجلُّ من خدمتكم ، وربما تتقاضى راتباً أضعاف ما تعطيها أنت في مقابل وصولها إلى أحد أهداف التنصير ، ولهذا جاءت جحافل من الخدم والخادمات والسائقين والعمَّال لا يُبالون بتفاوتهم في الأجور ، ولا أقول كلهم دعاة تنصير ، ولكن منهم فئات لا ينبغي الاستهانة بأمرهم يشكلون خطراً فادحاً على أولاد المسلمين بنين وبنات ، وعلى ضعاف الإيمان أيضاً والجهلة .(١)

---

(١) انظر ما كتبه بعض الباحثين عن هذه الأوضاع ، مثل كتاب «التبشير المسيحي في منطقة الخليج» ، وكتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» ، وكتاب «خطر المربيات غير المسلمات على الطفل المسلم» ، وكتاب «موقف الإسلام من بناء الكنائس» ، وكتاب «المربيات الأجنبيات في البيت العربي الخليجي» ، وكتاب «التبشير في منطقة الخليج» ... وغيرها من الكتب الكثيرة التي اهتمت ببيان هذه الجوانب الخطيرة .

١٩ ـ التَّنْصير عن طريق أعْياد الميلاد :

ومن أشد وسائل التنصير شيوعاً هو الاحتفال بأعياد الميلاد المسيحية ، وتبادل التهاني بينهم وبين غيرهم من المسلمين !!

وحتى الكثير من جُهَّال المسلمين يهتمون لهذه المناسبات ، بل ويحتفلون بها ويتبادلون كلمات الترحيب والدعاء «كل عام وأنتم بخير» ، «عام جديد وخير مديد» ، وتفاؤل لا حدَّ له مملوء بالتلهُّف على أن تكون السنة الميلادية الجديدة سنة خير وبركة وسلام كما يرددونه .

ومن المفارقات العجيبة أن تسمع الإذاعات التنصيرية وهي تلتحم مع جماهير الناس في كل الشعوب بتبادل التهاني وتهييج المشاعر وإرسال الهدايا المتلاحقة إلى كل من يطلبها منهم ، بينما تمر السنة الهجرية في صمت مطبق ـ ونعم العمل ـ لأن الاحتفال بكل الأعياد بدع وخرافات غير ما جاء به الشرع من عيد الفطر وعيد الأضحى ، وفي حدود الشرع ، فلا صخب ولا ضجيج حتى لا نُشابه بذلك أهل الأعياد الجاهلية ، نعم تمر السنة الهجرية دون أن تلقى ذلك الترحيب ، وقد سمعت من إذاعة لندن بعد مرور أربعة أيام على بداية السنة الهجرية الجديدة ، سمعت المذيع وهو يقول : «أعزائي المستعين أهنئكم ببداية السنة الهجرية الجديدة ، وإن كنا تأخرنا في التهنئة نسياناً» ، وكنت قد سمعت نفس هذه الإذاعة وهي تمجد الاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية بشتى التفخيم والتهويل حتى ليُخيَّلُ للسامع أن حدثاً جديداً وقع في هذا الكون ، وعلينا أن نترقب آثاره ، وقد فهمت أن المذيع حينما هنَّأ السامعين بعد أربعة أيام ، أن ذلك

كان أمراً مقصوداً للإيحاء بأن السنة الهجرية لا قيمة لها ، ولتهوين أمر الإسلام في نفوس السامعين من النصارى ومن غيرهم ، وليس هذا الكلام دعوة إلى الاحتفال برأس السنة الهجرية ولا الميلادية ، وإنما هو من باب الإخبار وأخذ العبرة في ذلك .

إن كل من يحتفل بعيد النصارى أو يظهر فيه أي نوع من السرور ، إما أن يكون جاهلاً فينبغي أن يُعلَّم ويُؤدَّب إن لم يتُبْ ، وإما أن يكون غير جاهل ولكن في قلبه مرض ، فيجب إظهار الإنكار له والزجر له وبيان الحق ، ولعلماء الإسلام في بيان هذه الأمور وتحذيرهم من فعلها وإسداء النصح ما ينير الطريق لكل ممن أراد الخير لنفسه ولدينه ولإخوانه المسلمين .

٢٠ - التَّنْصير وتأليب الحُكَّام على المُصْلحين :

لقد توجه اهتمام المبشرين إلى الإيعاز للحكام أن يستولوا على كل وسيلة كسب لعلماء المسلمين كي لا يعتزُّوا بأنفسهم عن الذل لغيرهم ، وخصوصاً الأوقاف التي كانت في الزمن القديم من الصدقات الجارية للمؤسسات الخيرية ، فسُلبت تلك الأوقاف وجعلت من أملاك الدولة في بعض بلدان المسلمين نكاية بالمسلمين وبدينهم الحنيف .

٢١ - التَّنْصير والسُّخْرية بعُلمَاء المسلمين :

ثم وجهوا اهتمامهم إلى السخرية بعلماء الإسلام وتصويرهم بصور شتى لكي يسقطوا من أعين الناس ، وبالتالي فلا يلتفتون إلى تعاليمهم ولا يقدرونهم حق قدرهم .

وبالتالي ينفذون إلى التشكيك في الإسلام وزعزته من قلوب أتباعه ، وبل وإلى ما هو أبعد من ذلك وهو تفريق كلمة المسلمين وإثارة العصبيات والبغي بينهم وتعالي بعضهم على بعض ، وقد صوَّرت إحدى الصحف في دولة عربية إسلامية الرسول ﷺ وزوجاته في صورة تدل على استهزائهم بهذا النبي الكريم ﷺ وبتعاليمه وبصورة لا يمكن أن تصدر عن مسلم .

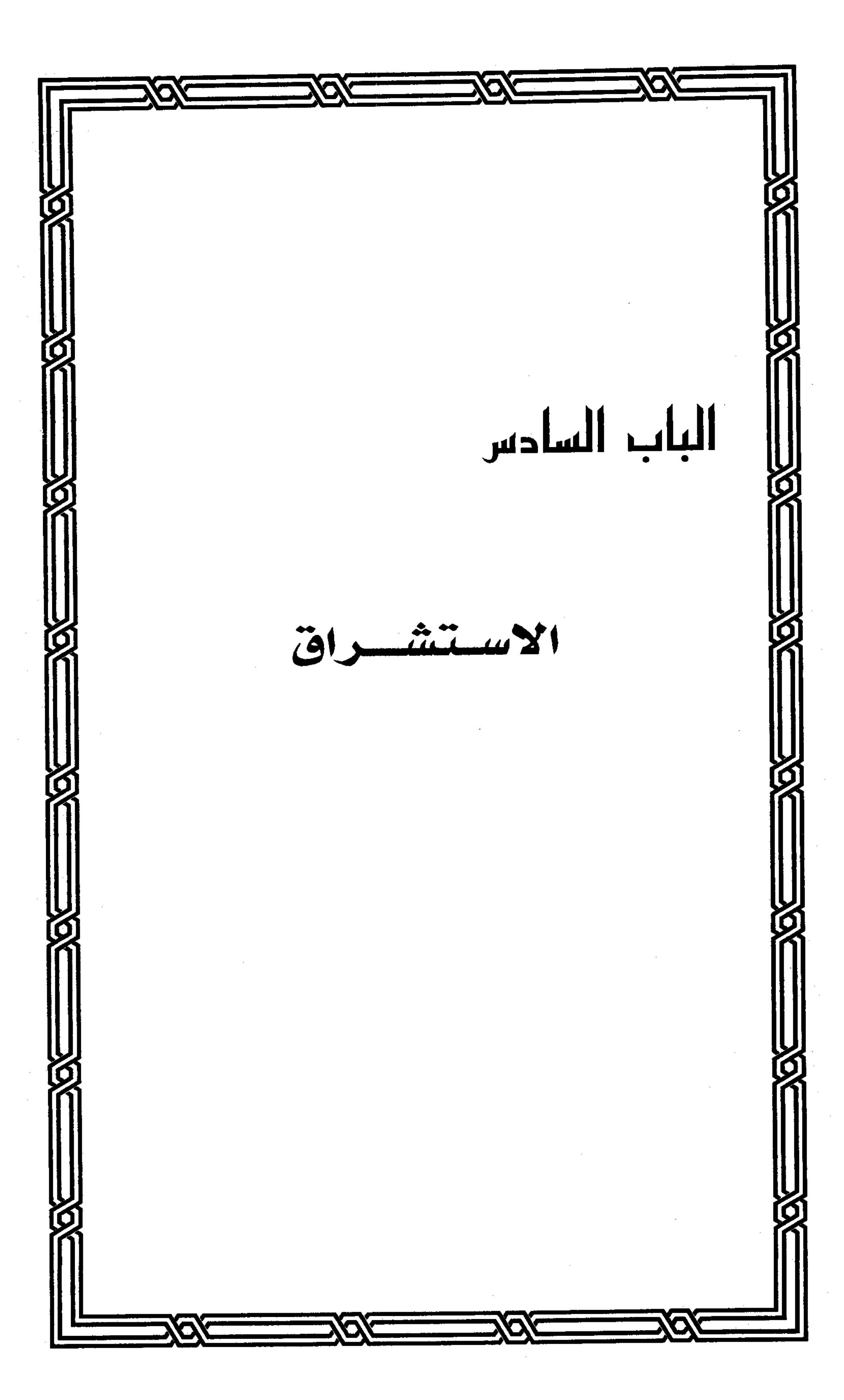
٢٢ ـ التَّنْصير عن طريق إثارة الهَزائم النفسيَّة :

كما أنهم لم يألوا جهداً في إلحاق الهزائم النفسية وإثارة الشعور بالخوف والقلق وإيجاد عدم الثقة في قلوب المسلمين بدينهم ولا بقوتهم ولا بأرضهم ، حيث تصبح الأرض في نهاية التبشير ملكاً لهم تحت غطاء الخلاص في الكتاب المقدَّس .

وهناك مثلٌ شائع بين أهل «روديسيا» يقول : «عندما جاء الرجل الأبيض إلى بلادنا لم يكن معه إلاَّ الكتاب المقدَّس وكانت معنا الأرض ، أما الآن فإن الأمر بالعكس من ذلك ، لقد أصبحت الأرض لدى الرجل الأبيض ، ولم يبقَ لدينا غير الكتاب المقدَّس» .[١]

---

(١) انظر : «احذروا الأساليب الحديثة» ، ص ٦٣ ، نقلاً عن الجبهان ، ص ١٠١



الباب السادس

الاستشراق

الباب السادس

الاسْتِشْراق

هذا هو الخطر الجديد بعد التنصير ، ويواجه العالم الإسلامي كمّاً هائلاً من المؤامرات الاستشراقية التي تعمل ظاهرة ومستترة ، وتشمل دراسة هذا الباب الفصول الآتية :-

الفصل الأول : المقصود بالاستشراق .

الفصل الثاني : حقيقة أمر المستشرقين .

الفصل الثالث : السبب في تغيير الغرب اسم التنصير إلى الاستشراق .

الفصل الرابع : العلاقة بين الاستشراق والتنصير وحكومات الدول النصرانية .

الفصل الخامس : متى ظهر الاستشراق .

الفصل السادس : نشاط المستشرقين .

الفصل السابع : بث الخلافات والفُرقة بين الشعوب الإسلامية .

الفصل الثامن : أهداف المستشرقين .

الفصل التاسع : أساليب المستشرقين .

الفصل العاشر : التغريب وموقف المسلمين منه .

تمهيد :

المبحث الأول : إخبار النبي ﷺ عن وجود مثل هؤلاء في المسلمين .

المبحث الثاني : مهمة دعاة التغريب .

المبحث الثالث : أسباب قيام حركة التغريب في البلدان الإسلامية .

المبحث الرابع : أبرز دعاة التغريب في البلدان الإسلامية .

المبحث الخامس : أهداف دعاة التغريب وأساليبهم .

المبحث السادس : أهم أراء دعاة التغريب وفيه مطلبان :

المطلب الأول : موقفهم من القرآن الكريم .

المطلب الثاني : موقفهم من السنة النبوية .

تعقيب : على ما سبق .

الفصل الأول

المقصود بالاستشراق

الاستشراق هو الوجه الآخر لعملة التنصير ، تنوعَّت الأسماء والهدف واحد ، كما أن التنصير ظاهر ، والاستشراق نفاق ، أو هو النار تحت الرماد .

والمقصود به في الظاهر حسب زعم علماء الغرب : دراسة كل ما يتعلق بشئون الشرق من جميع الجوانب الدينية والثقافية والاجتماعية وغير ذلك ، نسبوا أنفسهم إلى الشرق الإسلامي وزعموا أن كل اهتمامهم ينصب على معرفة شتى الاتجاهات الإسلامية والشرقية ودراستها بدقة ليفيدوا بها أممهم إذا رجعوا إليهم ، مع تظاهرهم بأنهم على الحياد في دراستهم وأنهم يريدون الوصول إلى الحقائق دون أي إعتبار آخر .

وسيتضح لك من خلال هذه الدراسة أن هذا المفهوم للاستشراق كذب ، فإنهم يريدون على الحقيقة دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين وضرب الحركات التصحيحية الصحيحة بصفة خاصة خدمةً لدينهم ولحكوماتهم المتطلعة إلى استعمار بلدان العالم الإسلامي ، وهم عون للمنصِّرين في دعوتهم ، وجواسيس أُمناء للمستعمرين ، وطليعة لهم كما ظهر ذلك واضحاً للمسلمين بعد فوات الأوان في كثير من البلدان .

الفصل الثاني

حقيقة أمر المستشرقين

لقد خدع ثعالب المستشرقين جواسيس الغرب كثيراً من الناس فظنوا أن مهمة المستشرقين تنحصر فعلاً في تلك الأهداف النبيلة والمجالات النافعة ، وأنهم ليسوا جواسيس الغرب أو طلائع الاستعمار ومقدماته في ديار المسلمين ، ولكن حينما نظرت الشعوب الإسلامية إلى الأفعال الحقيقية التي تصدر تباعاً على أيدي المستشرقين علموا يقيناً أن المهمة التي يخوض المستشرقون غمارها لم تكن طلب الحق والمعرفة والحياد في ذلك ، وإنما هم حقيقة جواسيس لشعوبهم وحكامهم ، وأن مهمتهم هي الاطلاع على كل أحوال المسلمين ودراستها دراسة شاملة ومعرفة مدى قوة المسلمين وأماكن ضعفهم والإسهام في تفريق كلمتهم وبذر أسباب النزاع وإيقاع الفتن بينهم وملاحقة كل حركة إصلاحية وتوجيه الدعايات السيئة ضدها وإحياء البدع والخرافات بين المسلمين وإعادة طبع الكتب التي تشتمل عليها والإشادة بها ، مثل كتب الصوفية الخرافية وكتب ابن عربي والحلاج وغيرهما من دعاة الضلال ، كما تتمثل مهمتهم في إحياء النعرات الجاهلية والقوميات ، وسائر التراث الجاهلي والحضارات الجاهلية ، وحبك الخطط والمؤامرات ، فلا ينبغي الالتفات إلى زخارف أقوالهم ودعاياتهم الباطلة أنهم على الحياد ، أو أنهم طلاب معرفة وبحوث علمية عن الشرق الإسلامي .

وللإنصاف نذكر أن بعض المستشرقين كان هدفه فعلاً الاطلاع والدراسة دون أن يكون مدفوعاً من قبل التبشير ، ولهذا نجد في كلام كثير منهم ذكر الحقائق بإنصاف ، وبعضهم دخل في الإسلام ، وكانت لهم جهود واضحة في خدمته ، وهم قلة قليلة جداً .

وحينما تنتهي مهمة المستشرق غير المسلم في البلد الذي يكون فيه يرجع إلى قومه وبلده في الغرب ليُسهم في شتى المجالات لخدمة النصرانية وكيفية استعمار شعبه للشعوب الإسلامية المستضعفة ، فإن منهم القائد ومنهم الموجه ومنهم المدرس والمرشد والسفير ، وغير ذلك من المهن الخطيرة التي يتقلدونها في بلدانهم بعد رجوعهم من المهام التي قاموا بها في خارج شعوبهم ، أي في شعوب الشرق الإسلامي المتخلف في نظرهم .

الفصل الثالث

السبب في تغيير الغرب إسم التنصير إلى الاستشراق

بعد أن عرف المسلمون أهداف التنصير وبدأوا يحذرون منها غيَّر الغرب التسمية من التبشير إلى الاستشراق ، مع بقاء الهدف كما هو ، والغرب يجيدون التلاعب بالمسميات والأفكار ، ومن واقع دراستهم المتلاحقة للعالم الإسلامي عرفوا كيف يتعاملون مع الأحداث التي تطرأ على المسلمين فيتعاملون معها حسب ما يلائمها ويتلوّنون كما تتلوّن الحرباء ، على أنه لم يكن التغيير فقط في المجالين السابقين ، بل هناك عدة مجالات كثيرة يعرفون وجوه الاحتيال فيها ويخترعون لها تسميات ظاهرها فيه الرحمة واللِّين ، وحقيقتها المكر المبين ، وهذا يكثر في إرسالهم الجمعيات المختلفة إلى العالم الإسلامي تحت أي غرض من الأغراض الإنسانية ، كما يسمونها .

ولأنه قد لحقت بالمنصِّرين مساوئ كثيرة نفَّرت الناس عنهم ، فاخترعوا لهم تسمية المستشرقين من باب التجديد والتمويه .

الفصل الرابع

العلاقة بين الاستشراق والتنصير وحكومات الدول النصرانية

العلاقة بين الاستشراق والتنصير علاقة وثيقة وفي غاية المتانة ، ذلك أن الاستشراق هو الرافد الآخر للتنصير ، وكلاهما ينبعثان من الكنيسة ، فهم قساوسة جميعاً ، ويخدمون الكنيسة على حد سواء ، وتتركز مهمة الجميع في هدم الإسلام ، أو تشكيك أهله فيه ، وتشويه تاريخ الأمة الإسلامية ونبيِّها العظيم ، وجعل العالم الإسلامي مناطق نفوذ للغرب ، ولهذا يلقى المستشرقون الدعم بسخاء من كافة الدول الكبرى التي تتطلع إلى العودة لاستعمار الدول الإسلامية من جديد ، وقد أقيمت لهم مختلف الجامعات لدراسة كيفية التنصير والاستشراق للتغلغل إلى ديار المسلمين وإلى قلوبهم ، وإلى استعمار بلدانهم وإيجاد المبررات لذلك ، ومن هنا فإنه يجب التنبه لمغالطتهم في زعمهم أن الاستشراق هو غير التنصير ، وأن الاستشراق يخدم الثقافة بعيداً عن التأثر بأي معتقد ، وقد عرفت أن الغرض الحقيقي لدعاة التنصير هو الرغبة في إدخال الناس النصرانية ، فلا ريب أن من صدَّق هذا فقد جانب الحقيقة .

نعم قد تختلف الوسائل بين المنصِّرين والمستشرقين ، ولكنها في النهاية تصب في مكان واحد ، وعن الفرق بين المستشرقين والمنصِّرين في الوسائل

يقول محمد البَهيّ : «إن الاستشراق أخذ صورة البحث العلمي ، وادَّعى لبحثه الطابع العلمي الأكاديمي ، أمَّا دعوة التنصير فقد بقيت في حدود مظاهر العقلية العامة ، أي العقلية الشعبية ، وبينما استخدم الاستشراق الكتاب والمقال في المجلات العلمية وكرَّس التدريس في الجامعة والمناقشة في المؤتمرات العلمية العامة ، سلك التنصير طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ودور الأطفال والمراحل الإبتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء ، كما سلك سبيل العمل الخيري الظاهري في المستشفيات ودور الضيافة والملاجئ للكبار ودور اليتامى واللُّقطاء» .[1]

أي أن مهمة المنصِّر تحبيب الناس في الكتاب المقدس ، ثم يأتي المستشرق لشرحه لهم كقضية مطروحة للدرس أو الحوار العلمي والثقافي كما يذكرونه دائماً ، وكلهم يعملون للهدف المشترك بينهم يكمل بعضهم عمل البعض الآخر في سير حثيث ، وهم لا يدخرون جهداً في تحقيق ذلك ، وأعتقد أنه لولا أن اللَّه تعالى لم يبارك لهم تلك الجهود لكانوا قد انتهوا من تنصير البشر منذ زمن بعيد ، ولكن اللَّه لا يُصلح عمل المفسدين .

ومن أقوى الأدلة على مدى الترابط بين الفريقين ما يُلاحظ من اجتماعهم في المؤتمرات التي يعقدها المنصِّرون والمستشرقون معاً لدراسة القضايا التي تهمهم واتخاذ القرارات تجاهها والعمل على أنجح الوسائل لتسهيل

(١) «الفكر الإسلامي الحديث» ، ص ٤٥٩ ، نقلاً عن «الاستشراق» ، ص ٧٦
وانظر ما كتبه القسيس «إبراهيم خليل أحمد» في بيانه لأهداف المنصرين والمستشرقين بعد أن هداه اللَّه إلى الإسلام في كتابه «المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي» .

غزو بلدانهم لبلدان المسلمين ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً عند الضرورة ، وقد كوّنوا حلقات متماسكة أدت إلى استعمار دول الغرب لبلدان المسلمين بالقهر ردحاً من الزمن ، وقد اشتُهر منهم «رايموند لول» ، و «صمويل زويمر» ، وغيرهما ممّن كان له الباع الطويل في الجمع بين التنصير والاستشراق ونشر النصرانية والثقافة الغربية في الأوساط الإسلامية بخصوصها .

ومن الطريف أن تجد الدول الاستعمارية أمريكا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وغيرها من الدول التي لم تعد تهتم بالدين النصراني بعد تحولها إلى العلمانية من الطريف أن تولي هذه الدول ظهورهم للدين النصراني في بلدانهم ، ثم يبذلون بسخاء الأموال الكثيرة للمستشرقين والمنصرين في الدول الإسلامية لتحويل المسلمين إلى نصارى .

ولكن يزول الاستغراب إذا عُرف السبب ، وهو أن المستشرقين والمنصرين ـ كما عرفت ـ هم طلائع الاستعمار للجيوش النظامية فيما بعد ، والممهدين لهم الطريق ، وقد أفاد قوّاد الجيوش الزاحفة من هؤلاء على بلدان المسلمين من المستشرقين والمنصرين فوائد لا حدود لها في تسهيل وصول الجيوش وتسهيل تقبل الناس لهم طائعين أو كارهين تحت عناية الحكومات الغربية التي أولت عناية خاصة لكبار المستشرقين وأسندت إليهم وظائف مهمة خصوصاً فيما يتعلق بسياساتها الخارجية تجاه العالم الإسلامي على امتداد مختلف الدول الغربية ، وخصوصاً العدو اللَّدود للمسلمين قديماً

وحديثاً دولة بريطانيا التي جنت على العالم الإسلامي وجرت عليه الويلات تلو الويلات والتي لا يزال يئن منها إلى اليوم في مختلف البقاع الإسلامية كذلك ، ولم يقتصر الأمر على الفوائد السابقة من وراء تقوية الدول الغربية للمنصرين والمستشرقين بل هناك هدف آخر لا يقل أهمية عن سابقيه في الفائدة لهم ، وهو ضمان فرقة المسلمين وعدم تفكيرهم في الاتحاد والسير على ما سار عليه أسلافهم الذين دوّخوا أوربا وسائر بلاد العالم حينما كانوا يداً واحدة فعهد الغرب إلى هؤلاء العملاء بإشعال الدسائس الخبيثة بين المسلمين وتفريق كلمتهم على طريقتهم «فرِّق تَسُد» ، وفي هذا يقول «لورانس براون» : «إذا اتَّحد المسلمون في دولة إسلامية موَحدَّة أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أمَّا إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير» .[1]

وهذه حقيقة وشهادة من رجل مجرب للأمور ، وهذا هو تفسير ما تراه أيُّها القارئ الكريم من الحشود التي لا حصر لها في بلاد المسلمين من المستشرقين والمنصرين في نشاط لا يعرف الملل ، ومؤسسات لا تبخل عليهم بالمال ، ومشاريع لا تكاد تُعدُّ ولا تُحصى في مختلف بلدان المسلمين متقنعين بأشكال مختلفة وتحت دعايات كاذبة عن رغبتهم بزعمهم في إيصال الخير والحياة الرغيدة إلى الشعوب الفقيرة ، ومن نشر العلم ، ومداواة المرضى ، وإرشاد من يريد إلى معرفة أنواع المكتشفات ... إلخ .

---

(١) «التبشير والاستعمار» ، ص ٣٧ ، نقلاً عن «الاستشراق» ، ص ٨٦

بينما هم في حقيقتهم عملاء وأداة تفريق للمجتمعات التي يعيشون فيها وبؤرة للدَّس والوقيعة بين المسلمين بعضهم بعضاً ، وأكبر شاهد على ذلك ما هو حاصل في كثير من البلدان الإسلامية التي ابتُليت بالتغلغل الصليبي إليها سواء كانوا في البلدان العربية أو بلدان المسلمين الأخرى .

وكان القسيس «إبراهيم خليل أحمد» ممَّن هداه اللَّه إلى الإسلام ، وكتب بعد ذلك في بيان مكر المستشرقين في كتابه «المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي» ، حيث بيَّن فيه أهداف المستشرقين وما يبيِّتونه للعالم الإسلامي من ويلات لإخراجهم عن دينهم الحنيف إلى مناطق نفوذ للنصرانية الوثنية ، ولا شكَّ أن شهادته لها وزنها بحكم خبرته السابقة عن هؤلاء ، لأنه كان واحداً منهم بيَّن في ذلك الكتاب :

١ ـ أن التبشير والاستشراق دعامتان من دعائم قيام الاستعمار في البلاد التي يغزونها ويمهدونها لاستقبال المستعمرين .

٢ ـ الاستشراق والتبشير والاستعمار كلهم يسيرون حسب خطة مرسومة ، الاستشراق مهمته اجتذاب الناس عن طريق العلم والتعليم ، والتبشير مهمته اجتذاب الناس عن طريق الدعوة المباشرة ، وتجيب النصرانية إلى القلوب بكل وسيلة يستطيعونها .

٣ ـ استطاع المبشرون الأمريكيون بحكم امتيازاتهم أن يتغلغلوا إلى كل مكان يريدونه في آسيا وأفريقيا .

٤ ـ استخدم المبشرون عملاءهم في كل دولة للقيام بمهمتهم دون أن يثيروا أي مشكلة بحكم انتماء أولئك العملاء الوطني .

٥ ـ استعان التبشير بالقوى العسكرية الاستعمارية لحمايته كي يعملوا على هدوء واستقرار .[١]

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ .[٢]

(١) «أجنجة المكر الثلاثة» ، ص ١٥٧ ـ ١٦٢ ، نقلاً عن كتاب «المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي» تأليف الأستاذ «إبراهيم خليل أحمد» .
(٢) سورة ق ، الآية : ٣٧

الفصل الخامس

متى ظهر الاستشراق ؟

اختلف الباحثون في بداية وقت ظهور الاستشراق ، وتعود صعوبة تحديد الوقت إلى أن الأفكار تسري متغلغلة دون أن تحدد بزمن دقيق ، إذ لا يمكن التحديد إلاَّ بأمرين ، أحدهما أن يصرح به صاحب الفكرة الأساسي ، وثانيهما أن يتم التحديد في وقت ظهور الفكرة عند انتشارها ، ومما قيل عن تحديد نشأة الاستشراق [(١)] :

قيل إنه ظهر في أيام الدولة الإسلامية في الأندلس ، حينما وفد إليها كثير من فرنسا وغيرها للتعلُّم ، أنظر إلى الفرق بين هذا التحديد والتحديد للتنصير ، وقيل إنه ظهر في أيام الصليبيين وحروبهم مع المسلمين في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، بداية الاستعمار ، وقيل إنه ظهر في القرن الثاني الهجري ، وأنه نشط في بلاد الشام في بدايته .

وإذا لاحظنا أن الاستشراق هو امتداد للتنصير ، فلا يمنع أن يحدد ظهوره بالعصور الأولى للدولة الإسلامية ، ولهذا أرجعه بعضهم إلى القرن الأول الهجري ، إلاَّ أنه كان على صورة غير نظامية ، فإنه بدأ يكتمل بوجهه الجديد في القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث أنشئت المدارس النظامية ، وعقدت المؤتمرات ، وفتحت المراكز والبعثات والجمعيات

---

(١) «الموسوعة الميسرة» ، ج ١ ، ص ٦٩٧ . وانظر : «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ١٢٠ .

والمعاهد ، وكان هذا بعد انتهاء الحروب الصليبية ، ولا جدال في أن النصارى وقفوا ضد الإسلام من أول ظهوره ، وكل رجال الكنيسة من البابوات وزعماء الدول الغربية ينظرون بحقد شديد إلى انتشار الإسلام وقوة المسلمين ، حيث رأوا أخيراً أنه لا يمكن وقف المد الإسلامي إلاَّ بغزوه فكرياً مع إبداء الصداقة للعرب وغيرهم من المسلمين في الوقت الذي يبذلون فيه غاية جهودهم لمقاومة الإسلام والتصدي للمسلمين لإطفاء نور الإسلام ، وقد ظل هذا التوجه للنصارى قائماً في شكل صراع محتدم على طول تاريخ الغرب النصراني ، وفي الشرق الشيوعي على حد سواء ، حيث أدى ذلك إلى اختلاف العلماء في تحديد ظهور الاستشراق أول مرة ، ولكنه بالتأكيد كان بعد قيام الحرب الصليبية والهزائم التي ألحقت بالنصارى .

الفصل السادس

نشاط المستشرقين ، وبيان أهدافهم وأساليبهم

تداخلت أهداف وأساليب المستشرقين والمنصرين ، إذ الغرض والهدف واحد ، وقد تقدم بيان أساليب المنصرين ومجمل نشاطاتهم ، وأما المستشرقون فهم لا يختلفون عن المنصرين ، إلا أنهم أوْلوا بعض الجوانب أهمية وعناية خاصة يموهون بها على من لا يعرف أهداف المنصرين والمستشرقين المشتركة بينهم التي يتواصون بالعمل بها في كل مؤتمراتهم وتجمعاتهم .

لقد كثرت الأنشطة التي قام بها المستشرقون في مختلف الجوانب ، وهي في مجملها تهدف إلى كيفية السيطرة على العالم الإسلامي وربطه بعجلة الحياة الغربية وإذابته فيها ونشر الإلحاد الغربي أو الشرقي الشيوعي ، وكلاهما من المكاسب التي يعملون لتحقيقها ، فاهتموا بدراسة الجوانب التجريبية عند المسلمين في الطب والاقتصاد وغيرهما مما تمس حاجة الشعوب إليه في الوقت الذي كان الغرب فيه لا يزال يعيش في حالة من الجهل والتخلف ، حيث تقبل الغرب تلك العلوم عن المسلمين ، بنهم إلى أن اشتدت سواعدهم فبدأوا ينظرون إلى المسلمين عموماً ، وإلى علومهم نظرة ازدراء واستكبار غمطاً للحق وتعالياً عليه ، خصوصاً في الوقت الذي صار فيه المسلمون يستجدون

العالم الغربي الأوربي في كل شيء يمس حياتهم المعيشية ، والتنظيمية ، والحضارية بكل ما تحمله من غث وسمين ، وصار حالهم :

كالعِيسُ في البَيْدَاءِ يَقْتُلُها الظَّمَا * والمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ**

فلا هم استفادوا من الغرب الفائدة المطلوبة ، ولا هم بقوا على دينهم ، إلاَّ مَن رحم اللَّه تعالى منهم ، وصار الغرب هم قادة الفكر وهم الموجهون والصانعون وأصحاب الحضارة ، وانبهر المسلمون الذين استفاقوا على نتاج الحضارة الغربية وهدير آلاتها فإذا هم يجدون أنهم لا يملكون شيئاً يُصدِّرونه إلى الغرب كما يُصدِّر لهم الغرب أنواع الصناعات ، فأحسَّ المسلمون بالإحباط التام والاستخذاء المشين ، وفي غمرة هذه الواقعة غاب عن أذهان المسلمين أنهم يملكون أثمن مما قدمه الغرب أضعافاً مضاعفة ، وأن الغرب أيضاً في حاجة إليه ، بل في أمس الحاجة إليه ، ألا وهو الإسلام الذي أعزَّ اللَّه به مَن اتبعه وأذلَّ به مَن خالفه ، ولو صدَّروه لتصاغر الغرب أمام عزَّة الإسلام واعتزاز أتباعه به ، ولكن بدلاً عن هذا فقد نظر بعضهم إلى الإسلام في غمرة تلك الواقعة أيضاً على أنه تركة ثقيلة قديمة ينبغي ستره ، وهؤلاء الحمقى السخفاء كانوا كالشاة الضائعة ، فلا هم رفعوا رؤوسهم بالإسلام ، ولا هم استفادوا من الحضارة الغربية ما يتجملون به .

وفي المقابل نشط المستشرقون في تحطيم كبرياء المسلمين بإسلامهم ، ووصفوهم بالمتخلفين ، وصاحوا عليهم بتجديد عقولهم وأفكارهم والسير

في ركب أصحاب العقول الفولاذية ـ الغرب بزعمهم ـ وحتى هذه الدعوة المزعومة فإن الغرب لم يكونوا مخلين فيها ، إذ لم يمكنوا العالم الإسلامي من معرفة أي شيء له قيمة في نفع بلدانهم ، وصار حالهم كحال من وصفه أحد الشعراء بقوله :

أَلْقَاهُ في اليَمِّ مَكْتُوفاً وقالَ له ⁂ إيَّاكَ .. إيَّاك أنْ تَبْــتَلَّ بالماءِ

وتصدوا كذلك لأي عقل نابه وتآمروا عليه حتى لا يجد له مكاناً يستريح إليه إلا في إحدى دول أوربا ، فإن أطاعهم وذهب إليهم فبها ، وإلا فإنه سيلاقي تصفية حسابه إما على أيديهم وإما على أيدي عملائهم من أبناء جلدته وممَّن يتكلم بلسانه ، وإلا فهل يُعقل أن العالم العربي والإسلامي كله لا يوجد فيه من يملك الموهبة والعقل الفياض المفكر ، وهل قصر اللَّه تلك الصفات فقط على الأوربي دون غيره من البشر ؟ حاشا ذلك أن يكون .

ومن الأمور التي توجب على المسلمين اليقظة أن يتظاهر أعداء الإسلام على حربه برغم الخلافات الحادة بينهم ، فقد تناسوها في وقفتهم ضد الإسلام والمسلمين ، كما تقدم ، وصاروا هم والمسلمون على حد ما قيل في المثل : «إذا سقط الثور كثرت عليه السكاكين» ، فإن من أشد الأمور على المسلمين أن تتحد قوى الشر كلها على محاربتهم ونهب الأراضي الإسلامية وإدخالها ضمن نفوذهم ، فالنصارى متفقون على حربه سواء أكانوا كاثوليك أو بروتستانت ، بالرغم من الخلافات والعداوة المستحكمة بينهم ، وإلى جانبهم اليهود ، حيث أسهموا بأكبر قسط في غزو المسلمين

تحت عدّة أقنعة متمالئين مع النصارى المخدوعين بصداقتهم مع اليهود ، وحتى الملاحدة سواء كانوا في الغرب أم في الشرق ، فقد عمل كل فريق من جهته على تحطيم الإسلام والكيد لأهله مع إظهار حسن النيَّة والصداقة بينهم وبين المسلمين ، بل كانوا في بعض الفترات يتمَسْكَنون حتى يتمَكَّنون .

وقد تمثلت مظاهر تلك الهجمات المنظمة على الإسلام والمسلمين في أمور كثيرة ، لعل من أبرزها :-

١ ـ الرغبة العارمة في رفع راية النصرانية على كل موقع للمسلمين والانتصاف من ماضي المسلمين العريق ، وهذا الاتجاه قد تولاه المبشرون والمستشرقون من النصارى بقصد تحويل المسلمين عن دينهم وإخراجهم منه إلى أي ملَّة تكون ، كما أوصاهم «زويمر» .

٢ ـ الرغبة في إستعمار بلاد المسلمين عسكرياً بتمهيد المبشرين والمستشرقين لهم ، وبالقضاء على أي حركة تفكر بالعودة إلى الإسلام أو تحن إلى شعائره وأحكامه ليطول بقاؤهم تحت سيطرة المستعمرين ، وقد تم لهم الكثير في هذا الجانب .

٣ ـ إضعاف المسلمين إقتصادياً من خلال سيطرتهم على كل موارد الرزق (الأسواق التجارية ، نهب خيرات الأرض ، منافسة الصناعات المحلية بصناعات أوربية أرقى منها ، رفع قيمة أجور الأيدي العاملة منهم في بلاد المسلمين ، احتكار معرفة سر الصناعات فلا يمكنون المسلمين منها ... إلخ) .

الفصل السابع

بث الخلافات والفرقة بين الشعوب الإسلامية

هذه أهم المظاهر التي صارت قاسماً مشتركاً بين جميع ملل الكفر في مواجهة الإسلام والمسلمين ، ولقد تمكنوا من إلهاء المسلمين عن مشاهدة واقعهم المرير بما يختلقونه لهم من مشكلات مفتعلة وخلافات هامشية تصل في النهاية إلى النزاع المسلح ، رغم تفاهتها ، خصوصاً بعد أن ركن كثير من المسلمين إليهم وتركوا تحذير اللّه لهم بقوله تعالى : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [١] ، وعاد كثير من المسلمين إلى تمثيل الحياة الجاهلية التي عبّر عنها شاعرهم بقوله :

وأحياناً على بَكْرٍ أخينا *** إذا ما لمْ نَجِدْ إلاَّ أخانا

وهذا في حين أن علماء الغرب من النصارى يصورون المسلمين على أنهم همج رعاع ، دعاة حرب ، همهم السلب والنهب وامتلاك الأرض المسيحية وإدخالها في الإسلام وتحطيم حضاراتهم واقتصادهم وقتل المسيحيين ـ بزعمهم ـ ويثيرون بذلك أحقاد جحافل النصارى على الإسلام والمسلمين .

ولا تزال آثار الحروب الصليبية الشرسة أقوى شاهد على ذلك العداء

---

(١) سورة هود ، الآية : ١١٣

الدفين الذي يكنه الغرب النصراني ـ الوثني ـ للإسلام وأهله ، لقد أكل الحقد قلوبهم بعد تلك الانتصارات الساحقة التي حققها المسلمون في إدخال الناس في دين اللّه أفواجا ، ثم إتحاد البلدان الإسلامية في وجوه الصلبيين بصورة حيَّرتهم وجعلتهم يراجعون حساباتهم في كل خطوة يتخذونها ضد العالم الإسلامي ـ في ذلك الزمن ـ ولم يجدوا وسيلة للتنفيس عن أحقادهم بسبب إنتصارات المسلمين إلا الدس والتشويه لصورة الإسلام والمسلمين ، وبالتالي رفع العرق الأوربي عموماً وجعله في أول الأمم المتميزة ذات الحضارة والعقول الذكية والجنس الممتاز وعكسهم بقية الأمم ـ خصوصاً العرب ـ حيث قسَّموا الناس إلى أعراق ؛ أبيض وأصفر وأسود ، وجعلوا هذه الألوان دليلاً على مدى حضارة أهلها ، وزعموا أن بقية الأجناس لا حضارة لهم ، وأن ما يوجد عندهم من بحوث فكرية فإنما هي نتيجة للصراعات بين المتحررين منهم والجامدين ـ حسب زعمهم .

وقد أدت أفكار الغرب المتغطرسة ونظرتهم واحتقار العرب إلى غرز إسرائيل في قلب الأمة العربية لتكون الدليل الملموس على إذلال العرب والمسلمين جميعاً من قبل الدول الأوربية وأمريكا التي تأخذ مصالحها لإقامة مصانعها من آبار البترول العربية لتَرُدَّه إلى المنصِّرين وإسرائيل في شكل هبات سخية وأسلحة فتاكة كما نسمع ذلك من كل إتفاق يباركه الحقد النصراني الذي ظهر واضحاً في هذا الوقت في حرب الصرب للمسلمين في البوسنة والهرسك والشيشان وغيرها من بلدان المسلمين .

كما نتج أيضاً عن تلك الأفكار الغربية الشريرة ما يسمونه بالنظام الجديد للعالم الذي يعني السيطرة الكاملة للدول الأوربية على مصالح العالم كله من الشئون العسكرية إلى وضع المقررات الدراسية لطلاب المدارس الإسلامية ، ومطاردة الإسلام وعلمائه والقضاء عليهم تماماً لأنهم أكبر عائق في سبيل مد الحضارة الغربية ، وإرغام المسلمين على ترك دينهم والذوبان في الحياة الغربية الكافرة طوعاً أو كرهاً ، ولن يتم لهم ذلك إن شاء اللَّه أبداً .[1]

(١) أنظر : «الاستشراق» ، للدكتور / السيد أحمد فرج ، ص ٤٤

الفصل الثـامن

أهداف المستشرقين

أما أهداف المستشرقين فيجب أن نعلم أن للمستشرقين أهدافاً خفية ، وقد أشرنا فيما مضى إلى أن أهدافهم في الظاهر هي خدمة العلم والبحث العلمي المجرد حسب مزاعمهم .

ولكن أهدافهم الحقيقية ليست كذلك ، فقد تبين أن أهدافهم تشتمل على : أهداف دنيوية ، وأهداف دينية ، وأهداف سياسية .

أما الأهداف الدنيوية : فمن أهمها كما عرفت تنبيه حكوماتهم إلى نهب خيرات البلدان الإسلامية خصوصاً البترول والمعادن الأخرى والمخطوطات الإسلامية ، وكذلك الوصول إلى مكاسب تجارية من وراء بيعهم لمذكراتهم التي يكتبونها عن الشرق الإسلامي وبيع أفلامهم التي يصورونها عن الحياة الشرقية كما يسمونها في دعاياتهم ، وكذا بيع جميع أجهزتهم وبيع ما لا يحتاجون إليه منها وهم دائماً يتسابقون إلى خدمة أي دولة إسلامية خصوصاً في المجالات التجارية التي تبرمها شركاتهم مع العالم الإسلامي بغرض بسط نفوذهم التجاري وفرض هيمنتهم على إقتصاد تلك الدول الفقيرة التي ستصبح عالة على تلك الشركات العملاقة والمندسين فيها من دعاة الاستشراق .

أما الأهداف السياسية : فقد أصبحت واضحة مهما حاول البعض تجاهلها ، فقد تابع المستشرقون تجسسهم على جميع النشاطات الإسلامية ورصدها بدقة وأرسلو أخبارها مهما دقت إلى حكوماتهم الغربية ، فكانوا العون الحقيقي الخفي لجيوش المستعمرين التي ضربت العالم الإسلامي وأتت على الأخضر واليابس ، وجهلوا المسلمين بدينهم ونهبوا تراثهم وأرسلوه إلى مكتباتهم في الغرب ، ومهَّدوا المسلمين للإتجاه إلى الغرب واعتمادهم عليهم حتى في الشئون السياسية التي تهم مصالح المسلمين ، وقسَّموهم إلى ولاءات مختلفة الاتجاهات ، وقد شمل نشاط المستشرقين مختلف القضايا ، إلا أنهم أولوا بعض الجوانب مزيد عناية واهتمام .

أما الأهداف الدينية : فتظهر بوضوح في خدمة عقائدهم النصرانية أو اليهودية أو الشيوعية ، إذ الغرض الرئيسي هو إخراج المسلمين عن دينهم وليذهبوا على أي ملة ، وقد اتضحت جهودهم في خدمة اليهودية في قيام دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي ، فإنهم هم أول من أشار بقيام دولة يهودية في فلسطين في مؤتمر لندن سنة ١٩٠٧م ، كما أن من أهدافهم تشويه الإسلام ، وهذا هو الأساس الذي تم عليه الاستشراق ، فقد دأبوا على الافتراء بأن الإسلام إنما هو مأخوذ عن الديانات السابقة ومستمد منها ، وأن الأصل إنما هو ما جاء في الكتاب المقدس ، وأن الخَلاص كله في إتباع الطرق الغربية في كل المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وفي جميع المظاهر الحضارية التي وصل إليها الغرب وتخلف عنها

المسلمون بسبب دينهم ـ كما يفترون ـ ومن المؤسف أن تسمع مختلف الصيحات من الإذاعات العربية المنتمية إلى الإسلام بالمناداة باللحاق بالحياة الأوربية المتطورة أو اللحاق بركب التقدم ، وأننا نحتاج إلى سنين عديدة للوصول إلى ما وصل إليه الغرب من الحضارة العصرية ، وغير ذلك من الأقوال التي تدل على انبهار هؤلاء بالحياة الغربية ، وتفضيلهم لها على ما جاء به الإسلام ، وفيها الغمز الخفي في الإسلام ونبيِّه ﷺ وجميع تعاليم الإسلام الحنيف ، بل قد تصل أقوالهم إلى الردَّة الصريحة حينما يصدقون دعاة النصرانية في أن تأخر المسلمين يكمن في تمسكهم بالإسلام .

وقد تركز اهتمام المستشرقين بالجوانب الثقافية وأولوها مزيد العناية والاهتمام ، عن طريق الآتي :

١ ـ الوصول إلى وسائل التعليم والتدريس .

٢ ـ تحقيق بعض الكتب والنشر والترجمة والاهتمام بالمخطوطات العربية .

٣ ـ الوصول إلى المجامع العربية اللغوية والعلمية بهدف الدس في اللغة العربية والحط من قيمة الفكر الإسلامي واللغة العربية وأنها عاجزة عن متابعة ما تزخر به الحضارة الغربية من وسائل الصناعات .

٤ ـ تأليف الكتب التي تطعن في الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وعظماء المسلمين بطريقة صريحة أو بطرق غامضة لا يفطن لها إلا الدارس المتخصص ، وهي مملوءة بالدس وتشويه حقائق الإسلام وإعطاء معلومات غير صحيحة .

وانتشرت بعض هذه الكتب في المكتبات الإسلامية بصورة خطيرة ، مثل كتاب «دائرة المعارف الإسلامية» ، و «الموسوعة العربية الميسرة» ، وكتاب «يقظة العرب» ، وكتاب «المنجد» ، وغير هذه الكتب التي قلما تخلو منها مكتبة في ديار المسلمين .[1]

(١) أنظر : «سموم الاستشراق» ، أنور الجندي ، ص ١٦ ـ ١٧

الفصل التاسع

أساليب المستشرقين

ومن أساليب المستشرقين في غزوهم الفكري للمسلمين كذلك بعث الخلافات القديمة وإحياء الشُبَه المدفونة ، ويظهر هذا بوضوح في نبشهم لخلافات حدثت بين المسلمين وانتهى الأمر فيها ، ولم تعد بحاجة إلى إعادة الخلاف فيها ، سواء كانت مسائل عقدية أو فقهية أو غير ذلك ، فإذا بأولئك يبعثون الشُّبَه حولها ويقترحون الحلول لها ويعقدون المقارنات بينها ، واستغلوا مشكلة الخوارج ، كما استغلوا قضية الخلاف بين السنة والشيعة نقطة انطلاق ، وما وقع بين عليٍّ ومعاوية رضي اللَّه عنهما منطلقاً ، وما وقع بين الدولة الأموية والعباسية من أمور سياسة وجفاء أمثلة لوحشية المسلمين ، بزعمهم .

ومن الأساليب أيضاً صرف همم المسلمين إلى الاتجاهات الأدبية والنظرية وتحويل أنظارهم عن الاتجاه إلى العلوم التجريبية حتى يظل العالم الإسلامي بعيداً عن أسباب التقدم العلمي ، ويظهر هذا التوجه بوضوح في أكثر الكتابات والترجمات التي تصدر في البلاد الإسلامية حتى صارت الكتب الساقطة هي التي تتصدر بعض المكتبات ، وهي التي تُطبع عدة مرات وتُجلَّد بالتجليد الفاخر ، وهي لا تساوي المداد الذي كُتبت به .

ومن أساليبهم الدعوة إلى تحريم الجهاد ، حتى أصبحت كلمة الجهاد كأنها وصمة عار في تاريخ المسلمين بحجة أن الجهاد تخلف ووحشية ومخالف للتمدن ، وقام أذيالهم في البلاد الإسلامية بترديد نفس هذه الفكرة الباطلة ، بينما قتلهم للمسلمين بالقنابل السامة والمدافع والصواريخ والرشاشات التي تأكل الأخضر واليابس تعتبر رحمة وتمدُّناً ، في حين أن الإسلام لا يجيز قتل أحد إلاَّ أن يكون مستحقاً للقتل ، إما لأنه طاغية يقف في وجه المسلمين ويمنع انتشار الإسلام ويحمل السلاح كذلك ويأبى عن الإسلام أو الجزية أو غير ذلك من الأمور التي توجب قتله ، فحينئذ يبيح إزالته ورفع أذاه ، ولم يضعف المسلمون ويلاقوا ألوان الإهانات إلا حين تركوا الجهاد .

ومن أساليبهم إثارة وإحياء النعرات الجاهلية تتميماً لما بذله المنصرون ، فقد اهتم المنصرون والمستشرقون كما تقدم بإثارة وإحياء النعرات الجاهلية التي قضى عليها الإسلام واعتبرها داء يجب علاجه من الدعوة إلى القومية والعرقية والوطنية والشعوبية ، ومحاولتهم إلهاء المسلمين بها وهم يتظاهرون بأن تحقيق القومية هو الذي يوحد الشعوب ويؤلف القلوب ، ولقد صدَّقهم الكثير من مرضى القلوب من المنتسبين إلى الإسلام وكأن هؤلاء الجُهَّال لا يرون ماذا يحدث عند قيام الحروب الأهلية من فظاعة بين أبناء الوطن الواحد ذوي القومية الواحدة [١] .

---

(١) سنبحث قضية القومية بالتفصيل إن شاء اللّه تعالى .

واهتم المستشرقون ببعث القومية العربية والوطنية التي مزقت الأمة الإسلامية وجعلتهم دولاً مختلفة وأهواء متباينة ، مع أنهم أحلوها محل الدين ، بل وأقدس منه عند البعض حينما كانت في عهد جمال عبد الناصر قوية شرسة ، وأين الإسلام ؟ وأين القومية والوطنية ؟ وهل يجتمع الليل والنهار في وقت واحد ؟!! ، وما حكم القائل :

بلادك قَدِّسْها على كُلِّ مِلَّةٍ * ومِنْ أجْلِها أَفْطِرْ ومِنْ أجْلِها صُمْ**

ومن أساليبهم إثارة الفتن الطائفية بين المسلمين ، وقد كان من توصيات رؤساء الدول الغربية ومفكريهم الاهتمام بإثارة الفتن الطائفية واستغلالها لإشغال المسلمين عن التوجه لخدمة دينهم وبلدانهم ، ولكي يجدوا مجالاً للتدخل وعلى رأس الفتن الطائفية استغلال النصارى في أي بلد إسلامي لإثارة القلاقل والفتن فيه ، واستغلال الحروب وقيام المعارك التي تحصل بين المسلمين والنصارى لإمداد النصارى بالأموال والأسلحة والمفكرين لترجيح كفة النصارى وتسليمهم فيما بعد زمام السلطة وإضعاف المسلمين وإقصائهم عن مراكز الحكم الهامة ، كما فعلوا في لبنان والحبشة وإريتريا وغيرها من بلدان المسلمين تنفيذاً لوصية «جولدمان» في مؤتمر المثقفين اليهود بقوله : «إذا أردنا لإسرائيل البقاء والاستمرار في الشرق الأوسط فعلينا أن نفسخ الشعوب المحيطة بها إلى أقليات متنافرة تلعب إسرائيل من خلالها دوراً طليعياً ، وذلك بتشجيع قيام دولة علوية في سوريا ، ودويلة مارونية في لبنان ، ودويلة صليبية في الأردن ، ودويلة كردية في العراق ، ودويلة قبطية في مصر» .

والواقع أن أقوى شاهد على تنفيذ هذا المخطط ببطء وأناة ، ففي سوريا دولة علوية ، وفي لبنان الأمر واضح ، وفي الأردن تُنفَّذ الخطة بهدوء ، وفي العراق لا يخفى الآن وضع الأكراد ، وفي مصر يعملون حثيثاً لذلك .[1]

ومن أساليبهم التدخل في أنظمة الحكم في العالم الإسلامي ، ولا ريب أن القارئ الكريم يعرف أنه مرت فترات بالمسلمين كان الغربيون هم المسيطرون على أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية ، ولكن المسلمين استيقظوا وأشعلوا مقاومة عنيفة لإخراجهم بالقوة حتى تم لهم ذلك ، إلا أن الغربيين عادوا من وراء الستار حتى لا يثيروا مشاعر الشعوب مرة أخرى ، فإن التدخل في هذه المرة كان عن طريق من اختاروهم من أهل البلدان أنفسهم ممن تمت تربيتهم على الحياة الغربية وتربوا في مدارسهم ، فقد عاد هؤلاء وهم ينظرون إلى الحياة الإسلامية باشمئزاز تام ويريدون تغيير الحال ولو بجدع الأنف ، فكان هؤلاء أشد على شعوبهم من أولئك بعد أن تركوا دينهم وباعوا ضمائرهم ، ولا يخفي الغرب هذا الأسلوب بل يفتخرون علناً ويتمدحون بأنهم هم الذين ربوا حكومات أكثر الدول الإسلامية .[2]

ومن أساليبهم التدخل في مناهج التعليم في العالم الإسلامي على منوال ما كان يفعله المنصرون ، وقد تحقق لهم :-

(١) أنظر كتاب «احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام» ، ص ١٥٤ ـ ١٦٢
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

١ ـ إبعاد دراسة الدين الإسلامي ما أمكن وإحلال دراسة بعض الشبهات حول الإسلام محله .

٢ ـ إحلال دراسة الحياة الغربية وتاريخها محل الإسلام .

٣ ـ الاهتمام بالرياضة وألعاب القوى والرسم وغيرها من الأشغال البدنية .

٤ ـ إبعاد اللغة العربية إلا للضرورة ، وإحلال اللغة الإنجليزية والفرنسية محلها وإعتبارهما اللغة الرسمية في الدراسة وفي سائر المعاملات .

٥ ـ إبعاد التاريخ الإسلامي والاكتفاء ببعض الفقرات التي تعطي انطباعاً بعدم كفاءة التاريخ الإسلامي .

وتدخل أقطاب النصرانية في البلدان الإسلامية أمر واضح إلى هذا الوقت ـ إلا من رحم اللَّه ـ ولا ينكره إلا جاهل أو متجاهل ، ويجب على المسؤلين في العالم الإسلامي أن يراجعوا جميع المناهج الدراسية إذا أرادوا لشعوبهم الخير والاستقلال الصحيح ، واللَّه لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم .

ومن أساليبهم إبعاد الإسلام عن مجال الحياة ، أو فصل الدين عن الدولة : والهدف من هذا الأسلوب هو عزل الإسلام ورفع تشريعاته وإحلال الأنظمة الجاهلية وقوانينها محله في التحاكم ، مدَّعين أنهم اكتشفوا البديل عنه ، وكذبوا على العلم فسموا ذلك الاكتشاف للقوانين

الجاهلية «علمانية» نسبة إلى العلم ، وهو خداع مثل خدعة الديمقراطية التي زعموا فيها أن الناس سيصبحون فيها كلهم حكاماً يحكمون أنفسهم بأنفسهم دون الحاجة إلى الشرطة والجنود والسجون والمعتقلات ، كما نجد أن الشيوعية كذلك ربطت الوصول إلى هذه الوعود الكاذبة الخادعة بتطبيق الشيوعية الجهنمية ، بينما ربطتها النصرانية الاستشراقية بتطبيق الحضارة الغربية ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ ﴾[1] .

ومن الظلم الصريح أن ينادوا بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية لأنها لا تصلح لهذا العصر ، بينما هم من أجهل الناس بها ، ليس لهم بها أي صلة ، كما يُقال الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

ومن أساليبهم أيضاً القضاء على الترابط بين الأسر المسلمة : ولقد بنى الإسلام الأسرة على أحسن ما يمكن ، لم يترك شيئاً فيه صلاح وكمال للأسرة إلا وبيَّنه خير بيان ، ولم يترك شيئاً مما يهدم الأسرة إلا وحذَّر منه . بناها على العفة فأمر بالزواج الشرعي ونهى عن الفاحشة والأسباب التي توصل إليها ، فأوجب على الرجل والمرأة غضَّ البصر وحرَّم على المرأة إظهار مفاتنها والتعرض لإغواء الرجال ، وحرَّم الاختلاط ، وأوجب النفقة على الرجل وأمره بصلة الأرحام ، وأحل الطلاق عند الضرورة وأوجب التوارث بين الأقارب وحرَّم الزواج بذوات المحارم ... إلى غير ذلك مما هو معروف في الشريعة الإسلامية ، فجاء دعاة الشر من المنصرين والمستشرقين بتشجيع

(١) سورة المنافقون ، الآية : ١

المجتمعات الإسلامية على التفسخ والاستهتار بالقيم الدينية ونبذ الحياء مستعينين بكل ما عندهم من وسائل الإغواء حتى أصبحت بعض الشعوب الإسلامية مرتعاً وخيماً للجريمة ، ومن الطريف أن يبدأ الغرب الآن في تجربة فصل البنات عن البنين في الدراسة في بعض المدارس ، كما سمعته من إذاعة أمريكا ، وأفاد المذيع أن التجربة نجحت جداً وأن الطالبات ارتقى مستواهن في الرياضيات والعلوم أكثر من المدارس المختلطة ، وربما يأتي اليوم الذي يستحسنون فيه أن تتحجب المرأة وسيسمونه تطوراً فريداً في الوقت الذي يوحون فيه إلى المرأة الشرقية بأنها متخلفة ومتحجرة لعدم رغبتها في الاختلاط بالرجل والعمل جنباً إلى جنب مع أخيها الرجل كما يريدون .

وقد سمعت في إذاعة ألمانيا أن الصحف تجأر بالشكوى من الاغتصاب الجنسي للأطفال ، وأن العقاب المدون في الدستور غير كاف ولا يردع المجرمين ، ويطالبون الحكومة أن تشدد العقاب على أولئك المجرمين رحمة بالأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة أمام الكبار .

وذكر المذيع أنه تقع في السنة الواحدة أكثر من ثلاثة آلاف جريمة اغتصاب ، وعلى أولى الألباب أن يتفكروا ، وعلى السذَّج من المسلمين الذين يصدقون الدعايات الغربية ضد الفضيلة أن يفيقوا ويراجعوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، وفي النظم الجاهلية الغربية لا يجوز الزواج بأكثر من واحدة ، بينما يجوز له أن يتخذ من الخدينات ما يشاء ، وقد أوصى رئيس فرنسا المجرم «جورج» أن يحضر جنازته زوجته وابنته

وعشيقته ، وأذيع هذا الكلام الفاضح في كل الإذاعات الغربية والمستغربة ، كما أن النظم الجاهلية النصرانية تحرم الطلاق مهما كان الحال بين الزوجين ومهما كان فيه من الشقاء والهموم ، ولكنها لا تحرم أن تذهب الزوجة إلى بيت عشيقها ويذهب الزوج إلى بيت عشيقته ، ثم يجتمعان خلسة في البيت لأخذ ملابس العمل صباحاً ، فأيُّ أسرة هذه ؟!! وأين هي من السعادة ؟!!

ومن أساليبهم مسخ المرأة المسلمة التي لا يمكن أن تجد مكانتها الحقيقية إلا في ظل الإسلام ، فأظهروا الاهتمام الكاذب بها في ظاهر دعاياتهم ، فنادوا بتحريرها ومساواتها بالرجل وتفننوا في الدعايات فخدعوها عن عفتها حتى صارت لحماً على وضم ، وخدعوها عن بيت زوجها فخرجت نافرة عنه ، وخدعوها عن أولادها فسلمتهم للمربية الجاهلة بهم ، وخرجت هي للكدح والعمل بعد أن نزعوا كل عرق ينبض بالحياء فيها تصديقاً لنظرية إبليسهم اللعين «فرويد» الذي عزم على أن يجعل الحياء عند المرأة هو العيب ، وتم لهم ذلك ، فخرجت المرأة كاسية عارية ، بل عارية في أكثر الأوقات ، وأوهموها أنه لا فرق بينها وبين الوصول إلى التقدم والحضارة إلا أن تجعل فستانها إلى نصف الفخذين ، وشعرها كما يُقال «شوشة منفوشة» ، فخرجت مثل المجنونة على أساس أنها امرأة راقية ، والمخجل والمحزن أن المرأة العربية التي كانت تستحي من نظر الرجال إليها وهي محتشمة أصبحت تباهي بمفاتنها العارية ، ومن العجيب أن هؤلاء الذين ينادون المرأة إلى ترك الحشمة والحجاب وإلى العري الفاضح كانوا يقولون

أن الإنسان في بداية نشأته كان أصله حشرة من حشرات البحر ، فعاش فيه مدة ثم بدأ يخرج إلى البر قليلاً ثم يعود إلى الماء ، وشيئاً فشيئاً ألف حياة البر فعاش فيه ، ويسمونه في المرحلة الأولى الإنسان المائى ، وفي الثانية الإنسان البرمائي ، وفي الثالثة الإنسان البري ، وبعد أن سكن البر بزعمهم بدأ حياة الرقي فسكن الكهوف وعرف كيف يطبخ أكله بالنار وكيف يذبح بالحجر وكان يلبس على عورته أوراق الأشجار ، ثم عرف كيف ينسج له ثياباً من شعر الحيوانات أو يلبس من جلودها ، وظل يتطور إلى أن عرف كيف يلبس الثياب الجميلة والغزل والنسيج .

وهذا التحليل الخرافي السخيف يدل على أن الإنسان كان عارياً ثم تطور فلبس الثياب ، فكيف الآن يسمون العري تطوراً ، أليس هذا تناقضاً منهم ودعوة للإنسان إلى الرجوع إلى أيامه الأولى حسب زعمهم ؟

فانخدعت الكثيرات من النساء وظنن أنهن بمجرد أن يخرجن كاسيات عاريات ، أوعاريات فقد وصلن إلى أرقى التقدم ، وكلما أوغلن في الوقاحة وقلة الحياء كلما ازددن تقدماً ، وكلما أوغلن في شراء أدوات الزينة التي مصدرها اليهود والنصارى كلما كنَّ أنيقات ، وإذا استعملن مختلف البودرات والماكياجات وأنواع العطورات وأنواع الموضات التي ترجع نقودها إلى وكر الفساد في هوليود وغيرها من بقاع الشيطان فقد اهتدين إلى التقدم والحضارة .

لمثْلِ هذا يَذوبُ القَلبُ مِن كَمَدٍ * إنْ كان في القَلبِ إيمانٌ وإحْسانُ**

وحقيقة الأمر فإن كثيراً من أهل الحياة الغربية بدأوا يعافون تلك الحياة العاهرة ، وبدأ العقلاء منهم ينصحون في كل محفل بالعودة إلى الحياء وإلى الإقلال من العشرة الجنسية الغير مشروعة ، خصوصاً بعد أن داهمهم ذلك المرض المخيف «الإيدز» مصداقاً لما أخبر به مَنْ لا ينطق عن الهوى من أنه ما انتشر الزنا في قوم إلاَّ سلَّط اللَّه عليهم بلاءً لم يكن في أسلافهم [1] ووقف صناع الصواريخ عابرة القارات مندهشين من هذا المرض الشرير الذي لا يرحم أحداً ، ولم يعرفوا كيف يفلتون من بين أنيابه إلى الآن ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [2] .

ومع هذا فلا يزال خُبثاء البشر ينادون المرأة المسلمة إلى الدخول في تلك الأوحال كلها .

ومن أساليبهم الدعوة إلى تحديد النسل : ولقد بيَّن اللَّه هذه القضية في كتابه الكريم ، وبيَّنها الرسول ﷺ بأوضح بيان ، وفصَّل علماء الإسلام كل ما يدور حولها وأصبح أمرها واضحاً تماماً .

أما تحديد النسل على الطريقة التي نادى بها الغرب فهي مع كونها جريمة بشعة وظلم صارخ ، إلا أنه قد أنفقت مئات الملايين للدعاية لتحديد النسل ، واخترعوا المبررات الكاذبة وتكهنوا بمجاعات خيالية ، وسموا زيادة عدد النسل «إنفجاراً سكانياً» تخويفاً وترويعاً لضعاف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٦ ، ص ٤٣ .

(٢) سورة الفجر ، الآية : ١٤

القلوب وقليلي الإيمان ، ولقد أفاق كثير من المخدوعين من المسلمين إلى أن تحديد النسل إنما هو ضربة جديدة توجه إلى العالم الإسلامي خاصة .

ففي الوقت الذي توجه التحذيرات من زيادة عدد النسل بين الأوساط الإسلامية توجه النصائح وأنواع التشجيع إلى الغرب النصراني أن يزيدوا من النسل ، ورتبوا جوائز مالية لمن عنده أكثر من طفلين ، بل ويحتفلون به ـ كما في إسرائيل ـ وقد سمعته من إذاعتهم حينما احتفلوا بامرأة أنجبت ثمانية أولاد ، ولقد دل الواقع على أن عدد النسل هم الثروة الحقيقية ، وهم الذين سيحرثون الأرض ، وهم الذي سيبنونها ، وعلى أكتافهم ستُستَغل خيرات الأرض التي أودعها اللّه في ظاهرها وفي باطنها بغير حساب ، ولقد علم الكل أن نسبة السكان إلى سعة الأرض لا تساوي شيئاً ، فما من بلد إلا ومساحة الأرض فيها تكفي لأضعاف عدد السكان الموجودين به ، وعلم كذلك أنه ما من بلد يزداد سكانه إلا وهم في ثروة إقتصادية كافية إلا إذا كان القائمون عليه غير أكفَّاء لتوزيع العمل فإن كثرة السكان ينتج عنه حتماً البحث الجاد عن مكامن الرزق في الأرض واستخراجه للانتفاع به ، وما من بلد يقل عدد سكانه إلا وتجد أهله في حاجة إلى من يقف إلى جانبهم في مدهم باليد العاملة لاستخراج خيرات الأرض وللوقوف إلى جانبهم عندما يهجم عليهم أعداؤهم .

وفوق كل ما تقدم فإن الإسلام حثَّ على كثرة النسل وأن رازق الجميع هو اللَّه تعالى ، والنصوص لا تخفى كثرتها طلاب العلم ، ونرجو من اللَّه تعالى أن يوفق من انخدع بترهات الغرب في تحديد النسل أو ما يسمونه خداعاً تنظيم الأسرة أن يفيقوا وأن يعودوا إلى رشدهم واثقين في ربهم الرزاق ذو القوة المتين .

ومن أساليبهم أيضاً القضاء على الحركات الإسلامية الصحيحة وتشجيع الحركات الفاسدة إكمالاً لما بدأه المنصرون :

لقد مرت على المسلمين فترات من الضياع وتسلط أعدائهم عليهم في كل شئونهم ، ولولا لطف اللَّه عزَّ وجلَّ لانتهى أمر الإسلام منذ أزمان بعيدة ، وذلك اللُّطف هو تحقيق ظاهر لحفظ اللَّه له إلى أن ينتهي أمر هذا الكون إن شاء اللَّه ، وأن أعداءه هم الخاسرون ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** (٦٤) ﴾ .[(١)]

وقد قيض اللَّه سبحانه وتعالى لحفظ الدين رجالاً يحفظونه ويدافعون عنه ويردون كيد المعتدين ويدحضون شُبه المبطلين كلما انتهت زمرة تبعتها زمرة أخرى ، تجدد أمره في طول البلاد الإسلامية ولقد شهد التاريخ لرجال كانوا بحق مجددين لم يخافوا في إظهاره أحداً إلا اللَّه رغم ما كان يلاقيه بعضهم من المحن والشدائد التي أراد اللَّه لهم بها رفعة في

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦٤

الحياة الآخرة وأراد منهم أن يكونوا أمثلة ناصعة لمن وراءهم في هذه الدنيا ، سواء أكان أولئك في شكل أفراد أو في شكل جماعات ، ومنهم من كتبت له الشهادة ومنهم من مات على فراشه قرير العين بما يسَّره اللَّه على يديه من زيادة رفعة الإسلام وأهله ومحاربة أعداء الإسلام من المشركين والمستشرقين والمنصرين بالدعوة إلى اللَّه بالقلم والكتاب والصحافة وسائر أنواع المعرفة والعلمل على مقاومة أعداء الإسلام بكل وسيلة قولاً وفعلاً ، ولتلك الأسباب تكالب أعداء الإسلام على كل الحركات الإصلاحية وبذلوا كل ما أمكنهم لإيقافها بالقوة مستعملين ضدهم أنواع الدعايات الكاذبة للتنفير منهم وتأليب الحكام ضدهم ومخترعين لهم ألقاباً ظالمة كاذبة ، وبالتالي نشط دعاة العلمانية والشيوعية والصهيونية ضدهم .

ولكن بقيت الحركات الطيبة المثمرة في تجدد تدعو إلى اللَّه بالتي هي أحسن صادقين مع اللَّه ومع أنفسهم ومع مجتمعاتهم لا يريدون إلاَّ رضاء اللَّه وبيان الحق غير عابئين بنباح تلك الكلاب التي تصادف طريقهم .

ومن أساليبهم إنشاء الفرق الهدامة الضالة ورعاية زعمائها مادياً ومعنوياً واستعملوا في ذلك وسائل لا حصر لها ، كان من ضمن تلك الوسائل تشجيع كل الحركات والأفكار الهدامة وتقويتها وإمدادها بالمال والمفكرين ، بل وأحياناً بالسلاح ، فأنشأوا القاديانية في الهند وباكستان ، وأنشأوا البابية

في إيران ، وأنشأوا البهائية في فلسطين ، وما من طائفة تدعوا إلى محاربة الإسلام إلا وتجد لها المساعدة المادية والمعنوية عند أعداء الإسلام ، والسبب واضح ، إذ يريدون من وراء قيام هذه الفرق الضالة النيل من الإسلام وتفتيت وحدة المسلمين ونشر الرذائل وإشغال المسلمين بمخاصمة هذه الفرق والرد عليها ، ومن هنا تجد أن تلك الفرق كلها تتفق في عقيدتها على أصول ومبادىء ثابتة لا يختلفون في العرض ، مما يدل على أنها قائمة على خطة مدبرة مدروسة ومن منبع واحد ، وأوّل تلك الأصول هو إسقاط أمر الجهاد وتحريم المناداة به ، وأن الإسلام ليس هو آخر الديانات ، ولا نبيَّه محمداً ﷺ هو آخر الأنبياء ، ولا أنه لا بد من قيام مجدِّدين للإسلام لأنه لم يعد صالحاً في هذه العصور كما كان في العصور الماضيات بعد عصر الرسول ﷺ والصحابة ، بل ونادوا بوجوب إلغاء بعض التكاليف وإسقاط كثير من المفاهيم التي لم تعد صالحة في عصرنا الحاضر - بزعمهم - والأخذ بالبديل عنها من وجوب الأخوة والتقارب بين سائر الشعوب ، لا فرق بين المسلم وبين غيره ، لا يجمعهم إلا الأخوة الشعوبية والإنسانية والوطنية ، وغير ذلك من أكاذيبهم ، وكذا إبطال كل ما أخبر به الإسلام من المغيبات من أمور الآخرة أو ما لا يقع عليها الحسُّ في الدنيا والتشكيك في كل ذلك إلا أن يتوافق مع تصديق خبراء وأطباء الغرب ، فلا بأس بقبوله لشهادة هؤلاء له ، وكل هذه الأمور يجب أن تعتبرها أدلة دامغة على مدى عمالة تلك الفرق للنصارى وولائهم لهم ومحاربتهم للإسلام علناً .

ومن الأساليب الهامة ما يتعلق بالمنح والقروض للدول الإسلامية الفقيرة ، فإنه من البلاهة والبلادة أن يتصور أي بلد مسلم أن ما يقدمه له أعداء الإسلام من نصائح أو قروض إستثمارية أو منح أو هبات أن ذلك لأجل سواد عيون أهله أو تشجيعاً لهم على الحفاظ على إسلامهم ، وإنما وراء ذلك مطامع سياسية وإقتصادية وإجتماعية وثقافية لا حدَّ لها ولا حصر ، وقد تبيَّن ذلك واضحاً من خلال إذلال الشعوب المقترضة أو المتقبلة للهبات ، ولقد صدق من قال : «ما أدخلتُ يدي في قَصْعَة أحد إلاَّ ذَللتُ له» .

لقد أودع اللَّه في العالم الإسلامي خيرات عظيمة ، وفي المسلمين عقولاً مفكرة ، ولكنهم تأخروا في نفع أنفسهم بها ، بل استغلها المستعمرون ، وصار المسلمون عالة على الغرب ، فلماذا ؟!!

إن السبب في غاية الوضوح ، وهو تلك الفترة التي خيم فيها المستعمرون على بلدان المسلمين وخربوا كل ما أمكنهم تخريبه ، واستبدلوا الأماكن الخيرة بأماكن اللهو الدعارة طوال عهد حكم الغرب الجشع ، وحينما استيقظ المسلمون وجدوا أنفسهم في العراء ، وإذا هم في وادٍ والحياة السعيدة الغنية في وادٍ آخر ، فتلقفهم الغرب مرة أخرى لعودتهم إليه ، ولكن عن طريق المنح والقرض السخي الربوي الذي يُراد من ورائه الإجهاز على تلك الصحوة أو الأنفة التي طرأت على المسلمين فأعادوهم مرة أخرى بإعطاء البلد المقترض ما يشاء من الدَّيْن ، ثم يسددهم بدل المليون ملايين عن طريق الربا ، وبسبب عجز الدولة عن سداد ذلك المليون فيتضاعف

بعد ذلك ما يسمونه كذباً وزوراً بسعر الفائدة ، وأنَّى لبلد يستورد حاجاته منهم من الإبرة إلى الصاروخ أن يستغني عنهم بعد ذلك ، وفي الوقت الذي يستقبل فيه العالم الإسلامي ما يجود عليه به الغرب النصراني إذا بالغرب يفتتحون المؤسسات والمراكز الكبيرة والبنوك الربوية لإغراق كل من يهرب من الفقر الطارىء ليدخل في الفقر المنظَّم الدائم على أيديهم .

ولقد وجدت الدول بعد أن نفضوا الغبار عنهم أنهم في غاية التخلف عن ركب الحضارة الغربية التي ينظرون إليها على أنها هي المثل الأعلى للحياة السعيدة بعد أن تفتحت شهيتهم لها في الوقت الذي قامت فيه الحضارة الغربية على الكماليات والتكلفات المفرطة في كل شيء ، وكان هذا يكلف مبالغ باهظة أرادت تلك الدول أن تلحق بالركب فإذا بها تحتاج إلى المال الوفير ، وذلك المال هو بأيدي أصحاب البنوك الغربية ، وهنا لا بد من أدخال رؤوسهم في الشبكة طائعين أو مكرهين مرة أخرى ، وتحولت تلك الأموال التي ينفقها المسلمون على الأزياء الغربية إلى جيوب أعدائهم ، إضافة إلى ما يزخر به الغرب من أنواع الأسلحة التي تحتاجها الدول الإسلامية أو النامية لتدافع به عن نفسها ضد الدول الأخرى الإسلامية التي تدفع هي الأخرى لشراء الأسلحة للغرض نفسه ، والمستفيد الوحيد هم تجار الأسلحة في المصانع الغربية ، وبذلك تتحمل الدول الإسلامية أعباءاً ثقيلة ، فهي تريد التنمية على اختلافها من صناعية وزراعية ، وهي تريد شراء الأسلحة ، وتريد كذلك مجاراة الشعوب الأخرى في التقدم الحضاري المزخرف .

وهنا اختلط عليهم الليل بالنهار فذهبوا ينتهبون كل ما تيسر لهم من الغرب دون تمييز بين النافع والضار ، أو الذي هم مضطرون إليه والذي يمكنهم الاستغناء عنه .

ومن الطريف أن تجد أحياناً بعض الدول التي تطلب القرض يشترط عليها لتلبيته أن يكون ذلك المال إما لإقامة معاهد موسيقية ، وإما لتنظيم الأسرة في شراء أدوية تحديد النسل وما يتعلق به من أمور ووظائف ، وإما لإحياء الأمجاد الزائفة قبل الإسلام في شكل النبش عن الآثار القديمة ، وإما لتنشيط السياحة ، وغير ذلك مما يزيد البلد فقراً على فقر دون أن يحقق رغبته في الانتعاش ودون أن يجد المقترض مصدراً آخر غير هؤلاء الجزارين الذين يرمون عصفورين بحجر ، كما يُقال في المثل ، بل إنهم حقيقة يرمون أكثر من عصفورين ، فمن ناحية يقرضون البلد لإذلاله السياسي دائماً ، ومن ناحية أخرى يضمنون أن تعود لهم أموالهم ولو على المدى البعيد أضعافاً مضاعفة ، ومن ناحية ثالثة يحققون ما يطمحون إليه من أغراض عقدية ومصالح إقتصادية وسياسية تعود بالفائدة على المقرض أكثر من الفائدة للمقترض في العاجل والآجل .

تلك هي أهم الأساليب التي تبدو واضحة لكل طالب علم تضافرت عليها جهود المنصرين والمستشرقين وكل طامع في بلدان المسلمين ، ولن يغيِّر اللّه ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، وللّه الحُجَّة البالغة [(١)] .

---

(١) توسع الدكتور سعد الدين السيد صالح في بيان كثير من الحقائق الخطيرة عن أساليب المبشرين والمستشرقين في كتابه الطيب «احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام» فارجع إليه لمزيد التوسع إن شئت .

المبحث الأول

الغزو عن طريق التشكيك في القرآن الكريم

تتمثل الحرب الشرسة التي يقودها هؤلاء المستشرقون في عدة اتجاهات خطيرة ، كان من أبرزها تلك المزاعم الكثيرة التي لفقوها ضد كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ ، وضد نبيِّه العظيم ﷺ وسُنَّته الكريمة ، وضد لُغَة القرآن الخالدة ، وهي مزاعم تعبر عن حقد دفين وجرأة على الكذب وعدم مبالاة باختلاقه في مقابل تحقيق أهدافهم في الكيد للإسلام وأهله ، وبالأخص القرآن الكريم .

مزاعمهم ضد كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ :

لقد بذل المستشرقون أقصى جهودهم للتشكيك في القرآن الكريم ولإقصائه لينفذوا إلى تفريق كلمة المسلمين وإضعافهم ، ومن أهم المزاعم التي لفَّقوها ضد كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ ما يلي :-

١ ـ زعموا أن القرآن الكريم ليس من عند اللَّه تعالى ، وإنما هو من تأليف الرسول محمد ﷺ بينما ذلك الكلام الملفَّق في ما يُسمُّونه بالكتاب المقدس هو كلام اللَّه !! ، وأين الثَّرى من الثُّريّا ، إن القرآن هو كلام اللَّه نزل به الرُّوح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عَربيٍّ مبين ، وإن اللَّه تعالى تكفَّل بحفظه إلى أن يرث اللَّه الأرض

ومن عليها ، فمن يتصدَّى للغمز فيه فذلك دليل واضح على سخافة عقله ، وهو كما قال الشاعر :

كَناطحٍ صَخْرَةٍ يَوْماً ليُوهِنَهَا * فَلَمْ يَضُرَّهَا وأَوْهَى قَرنَهُ الوَعْلُ**

ولقد تتابع المستشرقون على هذه النظرة الخبيثة بالنسبة إلى القرآن الكريم من أنه قول البشر ، قاله رجلٌ ، هو محمّدٌ ﷺ ، وأنه لا معجزة فيه إذ بإمكان أي شخص أن يأتي بمثل القرآن ، بل وبإمكان أي شخص أن يأتي بأقوى من القرآن ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1] والجاهل عدوٌّ نفسه ، ولقد وصل التبجُّح بالراهب «ريموند مارتيني» أن يزعم أنه سيأتي بقرآن من تلفيقه ، ويكون أقوى من القرآن الذي جاء به محمدٌ ﷺ ، حسب حمقه وجرأته ، وفعلاً أخذ يهرف بما لا يعرف ، فأقدم على الإتيان بكلام فجٍّ سخيف ليتحدَّى به المسلمين ، وقد اقتبس الطريقة التي أنزل بها اللّٰه القرآن الكريم في الوقف على آخر الآيات ، فقال باللُّغَة العربية بعد أن أجادَ معرفَتَها وتعلَّمَها : «أعارض قرآن من آخر اسمه الدال وأوله الميم[2] بلسان فصيح عربي مبين ، لا يمنعني منه سيف ولا سكين[3] ، إذ قال لي بلسان الإلهام سيد المرسلين[4] ، قل المعجزة لا شريك فيها لرب العالمين[5] ،

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢١

(٢) يعني به محمداً ﷺ .

(٣) هذه الجملة دالة على سخافته ، فإن الذي لا يرده السيف لا يرده السكين ، فذكر السكين بلاهة .

(٤) الإلهام إنما هو من اللّٰه وحده .

(٥) هذه الجملة خطأ ، فإن اللّٰه يجريها على من يشاء .

وفي الفصاحة يشترك كثيرين ، يغلب فيها أحياناً الصالح الطالح والكافر المؤمنين [١] ، فليست الفصاحة ولو في النهاية آية ولا معجزة اللَّهم إلا عند الذين أوطارهم عشرة معلم مجنون [٢] ، حتى قالوا عنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، مع أنه بإقراره في سورة الأحقاف لم يدر قط ما يُفعل به ولا بأتباعه أجمعين أكتعين [٣] ، فقل يا من اسمه ريند ولقبه مرتين إن كنتم في شك مما ألهمنا إليه [٤] عبدنا يا معاشر المسلمين فأتوا بحل هذه الحجة وبمثل هذه السورة وادعوا لذلك إخوانكم من الجن إن كنتم مهتدين [٥] ، فإن لم تقدروا ولن تقدروا [٦] فقد زهق الباطل واستقام اليقين ، والحمد والشكر للَّه آمين .. آمين» [٧] .

فانظر إلى هذه السخافات والسرقات المفضوحة التي تحدى بها المسلمين كلهم ومعهم الجن أن يأتوا بمثلها ، وأحمد اللَّه على نعمة العقل التي فقدها مثل هذا وأشكاله الضالين ، ومن هنا نجد أن المستشرقين لهم ولع شديد بتعلُّم اللغة العربية ، سواء أكان على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدول ، فقد فتحت عدة مدارس في أوربا لتعلم العربية حيث اتفق

(١) أسلوب ركيك .
(٢) يعني بهم المسلمين والنبي ﷺ .
(٣) وهذا هو الحق ، فإن الرسول ﷺ بشر .
(٤) تناقض واضح مع ما سبق .
(٥) أسلوب ركيك ، وحجة تافهة ، وسورة باطلة .
(٦) وقد تحدّى المازندراني قبله أن يأتي الجن والإنس بحرف من مثل كلامه !!
(٧) «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» ، ص ٩ ، نقلاً عن «الاستشراق» لسيد أحمد فرج .

المنصرون كلهم على أن محاربة الإسلام لا تنجح إلا بتعلم العربية ومعرفة مصادر الإسلام ومحاربتها بنفس السلاح ، بل وليتمكنوا من معارضة القرآن كما فعل السيخف «ريموند» ، ونقول ما أكثر من ألّف من العلماء ، وما أكثر من كتب ، وما أكثر الرسائل العلمية من ماجستير ودكتوراه ، فأي كتاب من تلك المؤلفات قد وصل إلى منزلة القرآن الكريم ؟ في جميع أقطار الأرض أو قاربه .

٢ ـ وحينما رأوا ضعف قولهم بأن القرآن من كلام الرسول ﷺ ، اخترعوا مقالة أخرى ليجتثوا الفضائل كلها ، فزعموا أن القرآن كله مقتبس من التوراة والإنجيل ومن الوثنيات الأخرى ، وأعماهم الحقد عن ما يعرفونه هم من تناقض التوراة والأناجيل ، والتي فُقدت عدّة مرات ، وكتبها من لا يُعرف حاله ممّن ظهر الإلحاد والدعوة إلى الفسق والفاحشة علناً في كلامه في التوراة والأناجيل ، وهل يمكن لأحد أن يقتبس من الكلام الباطل حقاً ، وما الذي اقتبسه الرسول ﷺ ـ إن كان القرآن كلامه ـ من التوراة والأناجيل ؟ أحين دعا الناس إلى توحيد خالقهم ؟ أليست تلك النصوص في التوراة والأناجيل تزخر بالشرك والوثنية والدعوة إلى التثليث الذي أخذوه عن الوثنيات القديمة ، كما عرفت في كتاب الأديان ، وما الذي اقتبسه الرسول ﷺ حين دعا إلى العفة ؟ في الوقت الذي عَرضت فيه كتب اليهود والنصارى المقدسة الرذائل كأنها رأي العين عن أنبيائهم فيما يكذبون

عليهم ، وعن غير أنبيائهم ، وما الذي اقتبسه منها حين دعا إلى مساواة الناس أمام رب العالمين ؟ في الوقت الذي امتلأت فيه التوراة بالدعوة إلى تفضيل جنس بني إسرائيل على سائر البشر تفضيلاً أبدياً ، وأن ربهم أيضاً خاص بهم ، وهو أحسن من آلهة الآخرين من الشعوب كلها حسب خرافات التوراة ، وما الذي اقتبسه من الكتاب المقدس حين دعا إلى احترام الأنبياء كلهم في الوقت الذي دنَّس فيه الكتاب المقدس عرض الأنبياء وصوَّرهم على أنهم زُناة شاربي خمر وتُجَّار ماهرين وأصحاب طمع في جمع المال ، ولو ببيع فروج نسائهم - وحاشاهم ، صلوات اللَّه عليهم أجمعين .

وما الذي اقتبسه الرسول ﷺ من كتب النصارى واليهود حين دعا إلى العدل بين الأولاد في الوقت الذي يُنكر فيه الكتاب المقدس بكرية إسماعيل ، وفي الوقت الذي تحايل فيه يعقوب لأخذ البكورية عن عيسو بطريقة خيانية مزرية [١] حسب كذب التوراة ، وقس على ذلك كل ما في الكتاب المقدس من شنائع ، حاشا للرسول ﷺ أن يقتبسها ، ولو أن كاتباً الآن يكتب على منوال ما في تلك الكتب لعُدَّ ماجناً وعاقاً يستحق التأديب ، وإذا كان طالباً يستحق أن يرسب في درس الإنشاء والبلاغة لو قدمه للإختبار .

---

(١) راجع كتاب «الأديان» فقد ذكرت أمثلة كاملة لهذه الأمور ، وفي هذه الأيام سمعت من راديو إحدى إذاعات التنصير تُشنِّع على يعقوب عمله هذا ، ووصفته بأنه عمل غير إنساني ولا أخلاقي ؟!!

وإذا كان اليهود والنصارى باعترافهم أنهم قد فقدوا مصادرهم الأساسية ، وهي التوراة التي أنزلها اللَّه على موسى ، والإنجيل الذي أنزله اللَّه على عيسى ، على نبيِّنا وعليهما الصلاة والسلام ، فما أحراهم بالاستخذاء والسكوت عن الغمز في القرآن الكريم .

ولقد صدق من قال : «إذا كان بيتك من زجاج ، فلا تراجم الناس» ، ويظهر أن الذي جرَّأهم على مهاجمة القرآن هو اعتقادهم الخاطئ أن شأن القرآن هو شأن كتبهم التي حُرِّفت وبُدِّلت وبقيت مقدَّسة في نظرهم ، ولم يفطنوا إلى أننا نقرأ القرآن اليوم كما كان يقرأه النبي محمد ﷺ والصحابة في عصره إذ لم يغب عن عقول المسلمين ولو لحظة ، بل هو محفوظ في الصدور ومُدوَّن في السطور ، ولم يقل أحد أنه مرت بالمسلمين فترات اختفى فيها القرآن تماماً عن التداول ، لأنه لم يحصل هذا ـ وللَّه الحمد ـ ولكن المستشرقين لا يكادون يفقهون حديثاً .

•• افتراء للمتظاهرين بالإنصاف منهم :

ولقد زعم بعض من يتظاهر من المستشرقين بالإنصاف والبحث العلمي المجرد أن القرآن هو مصدر إصلاحي ، وليس بدين سماوي ، لإجماعهم على أنه ليس كلام اللَّه تعالى لكي ينفذوا من خلال هذا التشكيك إلى إبعاد المسلمين عنه ، كما يتمثل افتراؤهم في اهتمامهم بترجمة القرآن الكريم ، فلقد اهتم هؤلاء المستشرقون والمنصرون بدراسة القرآن الكريم وترجمته إلى لغات عدّة ، ولكنهم يريدون من وراء هذه الترجمات هدم القرآن الكريم

وتشويهه في أذهان المسلمين ـ ولن يتم لهم هذا ـ وحينما يكملون ترجمته يكتبون على ظهر الغلاف «قرآن محمد» [(١)] ، وكل تلك الترجمات على كثرتها مملوءة بالكذب على اللّه وتزوير الحقائق والحذف والإضافة المتعمدَّة لتتوافق مع معتقداتهم .

وقد وجد من المستشرقين من تجرَّد عن التعصب وقال الحقيقة ، فقد قال المستشرق «بلاشير» عن تلك الترجمات : «إنها لم تكن ترجمة أمينة أو كاملة للنص بوجه من الوجوه» [(٢)] ، ويقول «آربري» : بالرغم من امتلاء هذه الترجمة بالأكاذيب وسوء الفهم ، فإنها كانت الأساس الذي قامت عليه الترجمات الأوربية المبكرة في الأسلوب الذي استخدمته» [(٣)] ، وقد ذكر كثير من المنصفين منهم أنه ليس باستطاعة أي شخص مهما كان ذكاؤه أن يأتي بأسلوبين في وقت واحد في كلامه وبينهما من التغاير مثل ما بين القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية من الجزالة والبلاغة» .

---

(١) انظر «الاستشراق» ، ص ١٢١

(٢) نقلاً عن مقالة للدكتور «محمد أبو فراج» بعنوان «تراجم القرآن الأجنبية في الميزان» ، مجلة أصول الدين ، ص ٤٦ ـ جامعة الإمام ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ هـ

(٣) نفس المصدر السابق .

المبحث الثاني

الغزو عن طريق مزاعمهم ضد السُّنَّة النبويَّة

لقد جرؤ المستشرقون على الإقدام على ما لم يحيطوا بعلمه ، فقد أعقبوا أكاذيبهم وتخرصاتهم الباطلة على القرآن الكريم بأكاذيب على السنة النبوية ، وبذلوا أقصى جهودهم للتشكيك فيها .

١ ـ زعموا أن السُّنَّة النبوية إنما هي أحاديث وُضعت بعد موت الرسول ﷺ لأن المسلمين استجدت بهم أحداث لم توجد في زمن نزول القرآن الكريم ، فاضطروا إلى إعطائها وجهة دينية بانتحالهم تلك الأحاديث ، وعزوها إلى النبي محمد ﷺ ليتقبلها المسلمون باحترام ويعملون بها .

ولذلك ذهبوا يلصقون التهم بكبار علماء الحديث كالزُّهْريّ رحمه اللَّه ، حيث افترى عليه «جولد زيهر» بأنه كان يضع الأحاديث .

ومن الواضح أن هجوم أعداء الإسلام على السُّنَّة النبوية اتخذ أشكالاً عديدة ، فمنهم من يزعم بأنه يجب ردّها تماماً والاكتفاء بما في القرآن الكريم ، ومنهم من يطعن في صحة الأحاديث ، ومنهم من يطعن في الأسانيد ، ومنهم من يطعن في المتن .

وكل هذه الطرق تؤدي إلى نتيجة واحدة هي إلغاء السُّنَّة النبوية ليتسنى لهم بعد ذلك إلغاء القرآن الكريم ، ولن يمكنهم اللَّه ، ولقد عقدت مؤتمرات

عديدة في أكثر من بلد ليتدارسوا كيفية إلهاء المسلمين عن سُنَّة نبيِّهم ﷺ لعلمهم أنها مع القرآن الكريم تشكل مصدراً للتشريع الإسلامي فهي الوحي الثاني ، وهي من كلام من لا ينطق عن الهوى ، وهي المبيِّنة لما في القرآن الكريم والموضِّحة له ، ولا يتم إيمان المرء ولا يدخل في دين الإسلام إذا لم يقبلها ويتحاكم إليها راضياً مطمئناً .

ومن غرائب أمر المستشرقين والمنصرين أنهم يتتبعون بالدراسة الأحاديث الموضوعة والمكذوبة على رسول اللَّه ﷺ ويهتمون بها ويعارضون بها الأحاديث الصحيحة الثابتة وينقدونها بكلام الوضَّاعين والكذَّابين المفترين بقصد ضرب الأحاديث بعضها ببعض .

ومنهم من افترى ووجَّه نقده إلى أهل الحديث وأنهم اهتموا بذكر رجال السند وحكمهم ولم يهتموا بدراسة نقد متن الحديث ـ بزعمهم ـ وهذه حيلة يُجرِّؤن بها مَن لا علم عنده بالحديث للخوض في نقد الأحاديث الصحيحة الثابتة التي تلقَّاها المسلمون بالقبول ودرسوا رواتها وعرفوا فضائلهم وبيَّنوا درجاتهم في التوثيق وغربلوها ، فما الذي يحوج المسلم إلى نقد الحديث بعد أن اطمأنَّ إلى صحته ، فإنَّ الحديث الصحيح لن يجد أحدٌ مدخلاً للطعن في صحة دلالته مهما أوتي من الذكاء إلا أن يُحرِّفَ معناه ويخلط في دلالته ، وقد صحَّ لدى كل العقلاء أن متن الحديث إن كان قد جاء في بيان أمور يمكن للعقل معرفتها ومشاهدتها ، فقد اتضح مصداقها تماماً ، وإن كان في أمور أخروية غيبية لا ندري عن وقت وقوعها فإن المسلم بعد أن شهد الشهادتين وآمن بأن محمداً نبي اللَّه ﷺ لا يَشكُّ في وقوع تلك الأمور الغيبية وفق ما أخبر به المصطفى ﷺ .

فما الذي يحوج المسلم بعد ذلك إلى الشك أو رد الحديث بعد أن اتضح صحة سنده إلى النبي ﷺ ، فلو جاز لكل إنسان أن يشك أو يتردَّد في كل شيء يجهله لما بقي اعتماد على أي معتقد ، مع أن المستشرقين والمنصرين يجيزون هذا الهجوم على السُّنَّة النبوية ولا يجيزونه بالنسبة للأخبار التي لفَّقها علماؤهم عن المسيح عليه السلام وبرَّأه اللَّه منهم ، فكيف جوَّزوا الطعن في متن الحديث النبوي المروي عن الثِّقات إلى النبيِّ ﷺ ولم يجيزوا أي شك فيما ينسبونه من وضعهم إلى المسيح عليه السلام دون سند معروف ، ومعلوم أن الذي حملهم على هذا هو التعصب والحقد الشديد على الإسلام والمسلمين ، وقبل ذلك حقدهم على النبيِّ ﷺ .

ومَن يجهل ما قام به علماء المسلمين من النقد والرد لكثير من المتون التي رُويت عن غير طريق صحيح ، حيث ضربوا بها عرض الحائط ، فهل يجهل المستشرقون هذا الجانب ؟!!! هذا إحتمالٌ بعيد ، ولكن غرضهم هو القول بأن الأحاديث كلها غير صحيحة ، وأن ما صحَّ منها إلى النبي ﷺ فإنه غير موثوق به ، وتجريد علماء المسلمين من منقبة اجتهادهم في خدمة سُنَّة نبيِّهم ﷺ وذكائهم في ردِّ كل قول يخالف السُّنَّة المطهَّرة .

ومن تلفيهاتهم ضد السُّنَّة أنهم زعموا أن كثيراً من الأحاديث والتشريعات الإسلامية إنما جاءت بعد عصر الرسول ﷺ حين واجهت المسلمين أحداثاً اقتضت حلولاً لها ، وأن تلك الحلول التي وُجدت لها كانت هي الأحاديث التي نُسبَت بعد ذلك إلى النبيِّ ﷺ ، هكذا يزعمون ، وهم بهذا يتجاهلون أن النبيَّ ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد بيَّن كل ما يحتاج إليه

المسلم ، ولعلهم يقصدون بكلامهم المفترى بحث المسائل الفقهية التي كانت تحصل بين الصحابة وبين الصحابة ومَن جاء بعدهم ، وهذا جهل منهم بحقيقة الأمر ، ذلك أن تلك الاجتهادات الفقهية لم تقم على الهَوى ، وإنما قامت على ضوء أحاديث المصطفى ﷺ ، وعلى ضوء ما جاء في كتاب اللّه تعالى دون أن يكون لهم فيها إلاَّ استخراج المعنى والمراد الذي تهدف إليه النصوص ، لا يخافون في اللّه لومة لائم ، ولا يجرؤن على إصدار أي حكم إلاَّ بعد الحصول على دليل له من كتاب اللّه تعالى أو من سُنَّة نبيِّه ﷺ عملاً منهم بأمر اللّه عزَّ وجلَّ في التفكُّر في الدين واستخراج أحكامه التي تقبل الاجتهاد وإعمال الفكر والمقارنات بين النصوص في كل شيء للعقل مجال فيه ، وهي مَنقَبة عظيمة وليست مَذمَّة .

ومن الطريف أن ينفي المستشرقون كل الأحايث عن النبيِّ ﷺ ويزعمون أنها مفتعلة من قبل علماء الإسلام ، بينما هم في ناحية أخرى يطالبون المسلمين بالتصدي لنقد كلام النبيِّ ﷺ ، وهذا تناقض منهم ، فإن الأمر يقتضي إمَّا أن ينفوا كل الأحاديث ويزعمون أنها موضوعة من قبل علماء الإسلام على لسان النبيِّ ﷺ ، فيكون النبيُّ ﷺ لم يتكلَّم بأي حديث ـ حسب هذا الفهم ـ وبالتالي فلا حاجة إلى الاهتمام بردها ونقدها على أساس أنها مرفوعة .

وإمَّا أن يؤمنوا بأن الرسول ﷺ تكلَّم بأحاديث صَحَّت نسبتها إليه وأحاديث كانت فعلاً من اختلاق بعض الرُّواة ، ثم يبيِّنون للأمانة العلمية موقف علماء

الإسلام من مثل هذه الأحاديث إذا كانوا فعلاً يبحثون لأجل بيان الحق متجردين عن أي مؤثر كما يزعمون .

وأمَّا أن يجمعوا بين المتناقضات حينما يوجِّهون النقد إلى علماء الإسلام أنهم لم يهتموا ببحث متن الحديث ، ثم يوجِّهون نقدهم كذلك إلى الأحاديث وأنها مُختَلَقَة ، أو حينما يوجِّهون النقد إلى علماء الإسلام ورُواة الأحاديث بأنهم لم يكونوا ثقات ، فهذا كله اضطراب ناشيء عن حقدهم على الإسلام وعلى علمائه .

وكان أكبر من تولَّى كبر هذه الفرية على المسلمين هو المستشرق «جولد زيهر» الحَقود المتعصِّب ، فقد استباح لنفسه الكذب على اللَّه وعلى نبيِّه وعلى علماء المسلمين بزعمه أن الأحاديث كانت من وضع علماء الإسلام في مقابل احتواء المستجدات في امتداد الفتح الإسلامي .

ولقد نسي أو تناسى هذا المتعصِّب إستحالة أن يتمالأ المسلمون جميعاً على افتراء أحاديث ونسبتها إلى النبيِّ ﷺ مع أن مضمون تلك الأحاديث كانت تُطبَّق على المسلمين جميعاً سواء الراضي بها أو غير الراضي بها ، كما كانت تُطبَّق أيضاً على غيرهم على حدٍّ سواء - سواء كان موالياً أو معادياً - وهذا النقد منهم يدل على جهلهم وقلة حيائهم ، وقد أخبر الرسولُ ﷺ أن مَن لا يستحي فإنه يقول ما يشاء ، فقد روى «جولد زيهر» رواية تقشعر لها الجلود ، وتأنف من سماعها الآذان ، وهي : أن عبد الملك ابن مروان منع الناس من الحج أيام ابن الزبير ، وبنى قبة الصخرة في المسجد

الأقصى ليَحُجَّ الناس إليها بعقيدة دينية ، فوجد الزهريَّ ـ وهو ذائع الصيت في الأمَّة الإسلامية ـ مُستعداً لأن يضع له أحاديث في ذلك»[1]

فبأي عقل يصدق مثل هذا الكلام الفارغ ، وهل حكم الحج لبيت اللَّه الحرام يجهله المسلمون ليضع لهم العالم الجليل الذي كذب عليه «زيهر» الأحاديث لصداقته مع عبد الملك بن مروان ، ولخوفهم أن يبايع أهل الشام ابن الزبير ، فحاولوا صرفهم للحج إلى الشام بدلاً عن الحج إلى الكعبة بمكة المكرمة التي كان بها ابن الزبير ، وهل وصل المسلمون في زمن ابن الزبير وزمن عبد الملك بن مروان إلى هذا الحد من الجهل ؟!! .

وهذه الجرأة على الكذب إنما كان سببها تعصبه الأعمى ضد الإسلام والمسلمين ، وهذه كذبة من مئات الكذبات على أفاضل المسلمين حكاماً ومحكومين ، وإلاَّ فأي مسلم يتمنى صرف الناس عن الكعبة إلى أي مكان في الأرض ليصلُّون إليه ويحُجُّون إليه ، وهو مع ذلك يقرأ القرآن الكريم ويشهد الشهادتين ؟!! .

(١) انظر : «الاستشراق» ، ص ١٤٥

المبحث الثالث

الغزو عن طريق مزاعمهم ضد النبيِّ ﷺ

وإذا كان ما تقدَّم هو لبيان موقفهم من السُّنَّة النبوية ، فما هو موقفهم من نبيٍّ هذه السُّنَّة المطهَّرة ؟! ما هو موقفهم من نبي الإسلام محمد ﷺ ؟ وما هي شخصيته ﷺ في نظرهم ؟ وهل ما تفَوَّه به بعضهم من مدح الرسول ﷺ هو من باب الإنصاف ؟ أم هو من باب الإجحاف والخداع والمكر المقصود ؟ أو من باب ذَرِّ الرَّماد في العيون كما يقول الناس ؟

لقد جاءت في كتابات بعض المستشرقين وصف الرسول ﷺ بالبطل الشجاع وبالمفكر الذي لا مثيل له في العرب ، والعبقري النادر وزعموا أنه كان يمارس تعلم الفصاحة حتى برع وفاق أقرانه ، كما زعم المستشرق «مايور» [(١)] ... إلخ ما وصفوه به ـ وهو حقاً كذلك وفوق ذلك ـ ولكن ما هو هدفهم من هذا الثناء ؟

إنه ثناء الموتور ، ثناء من غمه الحقد وأعيته الحيلة للنيل من خصمه ، ذلك أن وصفهم للرسول ﷺ بأنه بطل شجاع إنما جاء ضمن أبطال ذكروهم في الوثنية ، وأبطال في إشعال الحروب ، وأبطال في قول الشعر والمجون ، وأبطال في دعوى النبوَّة أو التديُّن ، فمن نجح من أولئك فهو بطل ، وبطولته لا لشيء إلاَّ لأنه صاحب عزم نافذ استطاع أن يتغلب على قهر نفسه

---

(١) «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ١٤٥

وترويضها ، وقهر غيره وترويضه ، ومحمد ﷺ كان كذلك فاستحق لقب «بطل» على حد قول الشاعر :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَاً * وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإحْجَامَا**

ومعلوم عند كل المسلمين أن الرسول ﷺ بطل الأبطال ، ولكنهم لا ينظرون إلى تلك البطولة مجرَّدة عن عناية اللَّه به واختياره نبيّاً ، ولا أنها نابعة من صدق يقينه وقوة عزمه ، بل ينظرون إليها على أنها نابعة من إيمانه بربه ، ونصره له وتأييده وإنزال السكينة عليه ، وغير ذلك من اللوازم التي ينفيها عنه المستشرقون حين يصفونه بأنه من الأبطال ، شأنه شأن غيره من الأبطال الذين ذكروهم المجازفين في قومهم للوصول إلى إعجابهم بهم واعتبارهم في المجتمع .

كما يعيد المستشرقون صدق الرسول وانتشار دينه أيضاً إلى إخلاصه في الدعوة إلى ذلك وأنه صاحب فكر وجدية عرف كيف يساير الطبيعة وينشر أفكاره بغاية الحماس الذي يدل على صدقه مع نفسه ومع أفكاره ، ولكن هذا ليس فيه أي إنصاف للرسول ﷺ كما يدَّعي المتحذلقون الماكرون منهم .

فإن غاية هذا الوصف أنه رجل عظيم ينبغي أن يُصدَّق لأنه لم يكن متظاهراً بما دَعى إليه ، بل كان مؤمناً به موقناً في قرارة نفسه بصحة ما يدعو إليه من قيم وأخلاق .

أي أن الرسول ﷺ لم يكن له أي موجه إلا تفكيره وعقله ، شأنه شأن غيره من الموهوبين الأذكياء ، وهذا نفي للنبوَّة عنه تماماً وإلحاقه بسائر الأبطال المحترفين .

وزعموا أن ما اتَّصف به الرسول ﷺ من الصفات الطيبة كالكرم وحب الإنصاف والشهامة وحب التديُّن ، وغير ذلك من الصفات فلأنه ورثها عن قومه في ذلك الوقت ، وهذا نفي لقول اللَّه تعالى فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1] ، فكان على حسب مفهوم المستشرقين يجب أن يكون الخطاب «وإنَّكُم» ، فلا يخص الرسول ﷺ بذلك الوصف من بين سائر قومه ، ثم كيف يتفق هذا القول مع حكمهم على العرب بأنه أجلاف وبَدو رُحَّل . هذا تناقض واضح ، وأيضاً فقد زعم المستشرقون أن حب الرسول ﷺ للدين إنما كان بسبب تأثره بقومه الذين كانوا يتديَّنون بعبادة الأحجار والأشجار وسائر معبوداتهم ، إلا أنه اتجه تفكيره إلى مخالفتهم في تلك العبادة وحصرها في عبادة اللَّه تعالى وحده ، أي أن هداية اللَّه لنبيِّه ﷺ ودعوته إلى التوحيد إنما كان نابعاً من تفكيره وعبقريته الفذَّة لا من اختيار اللَّه له .

ثم كيف يتفق هذا الزعم مع مزاعمهم الأخرى بأن النبيَّ ﷺ قد تأثر بقومه في كل ما اتَّصف به من الأخلاق والتدين مع وصفهم الشائن للعرب بأنهم أجلاف لا دين لهم ، هذا تناقض منهم حاصله أن الرسول ﷺ تأثر بقومه ولم يتأثر ، وجمع النقيضين مستحيل في حق البشر .

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤

وقد ذهب بض المستشرقين إلى الزعم بأن النبيَّ ﷺ إنما جاءته تلك الأفكار والعقائد أثر مقابلته للراهب «سرجياس» حينما ذهب الرسول ﷺ وعمُّه إلى الشام .

وهذا زعم باهت باطل ، فقد كان الرسول ﷺ في ذلك الوقت لم يقرأ ولم يكتب ، بل ولم يطل مقامه عند الراهب إلاَّ لحظات ، فكيف تعلَّم منه هذه العلوم التي هي بحر لا ساحل له ، ثم ما هو مدى علم ذلك الراهب المغمور ؟ أليس هو كسائر الرهبان قام دينهم على خرافات وخُزعبلات محرِّفي التوراة والإنجيل أصحاب ثالوث لا توحيد فيه ، وغُلو مذموم لا اعتدال محمود فيه ، وإذا كان الراهب هو سبب العقائد التي جاء بها محمد ﷺ فلماذا لم يقر الرسول ﷺ عقيدة التثليث التي لا يؤمن الشخص عند النصارى حتى يعتقدها ؟!! ولماذا خالف العقائد النصرانية في الأخلاق والمعاملات والتشريع ؟ إذاً فما الذي تعلمه الرسول ﷺ منه على حد زعم المستشرقين ؟ ولقد قيل في المثل «إنك لا تجني من الشوك العنب» ، ثم لماذا لا نقول لهم ما دام ديننا مأخوذ عن رهبانكم ، فلماذا تعارضوننا وتتمنون محو ديننا ؟

وأما زعمهم أن الرسول ﷺ كان يمارس تعلُّم الفصاحة حتى برع فيها فهي فرية حمقاء ، ويُقال لهم في أي جامعة تعلَّم من جامعات شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت ؟!! ومن هم أساتذته الذين كانوا يعلِّمونه ؟ لقد أخرجهم الحقد إلى الهذيان والجهل الشنيع مع إعتقادهم أن العرب كانوا في منتهى الجهل والانحطاط والهمجيَّة .

المبحث الرابع

الغزو عن طريق مزاعمهم ضد اللُّغة العربية

لا يشك عاقل في أهمية اللُّغات التي جعلها اللَّه مزية للبشر ، بها يتفاهمون وبها يُعبِّرون عن كل ما يريدون ، واللُّغات واللَّهَجات أكثر من أن تُحصَر ، ولكن اللُّغَة العربية هي اللُّغَة التي اختارها اللَّه لأن تكون مشرَّفة بنزول القرآن الكريم بها ، وهي ملك لكل مسلم لأنها لغة دينه ، ولهذا فلا نجد مسلماً في أي قطر عربي أو أعجمي إلا وهو يعتزُّ ويفتخر بها ويحترمها لا لشيء إلاَّ لأنها لغة دينه ونبيِّه ، بها يفهم كتاب ربِّه وسُنَّة نبيِّه ﷺ .

وقد عرف أعداء الإسلام أنه ما دامت اللُّغَة العربية حيَّة في نفوس الناس فإنهم لا يزالون قادرين على فهم الإسلام ، ومن هنا نجد أن أعداء الإسلام حاولوا بكل ما أوتوا من الحيل والخداع للغض من شأنها والتشجيع على تركها بالكليَّة ، فهي تقضُّ مضاجعهم ، ومن العجيب أن يُسمِّيها المستعمرون الفرنسيون والبريطانيون في مستعمراتهم في إفريقيا بأنها لغة المستعمر ، فأي بلد الآن في الدنيا يستعمره العرب ، ولكن كما قيل في المثل «رمتني بدائها وانسلت» ومن المؤسف أن يتنكر بعض المسلمين عرباً أو عجماً لهذه اللُّغَة الكريمة ويحاربونها متأثرين بشُبهات أعدائهم من المنصرين واليهود ، واللُّغَة العربية وإن كانت تقلق أعداء الإسلام في الدول الشرقية والغربية على حد سواء ، ولكنهم مع عداوتهم لها يهتمُّون بها اهتماماً عظيماً ، فهم

يقبلون على تعلُّمها بنهم شديد بغرض التصدِّي للإسلام وأهله ولمحاربتهم بنفس لغتهم وأساليبهم ، وبذلوا في ذلك جهوداً جبارة حتى صار منهم عباقرة في اللُّغَة العربية نثراً ونظماً وألَّفوا المعاجم المطوَّلة فيها وفتحوا مدارس عديدة لتعليمها ممَّن يقع عليه إختيارهم من النابهين منهم وأتموها بجامعات ودراسات عليا لتخريج المستشرقين والمنصرين ومن تبعهم لبثهم في العالم الإسلامي مُزوَّدين بشبهات أملتها يد الحقد على الإسلام ، ومخاصمين المسلمين بلغتهم التي يفهمونها لكي يكسر الشجرة أحد أغصانها كما أوصاهم «زويمر» .

ولم يقتصروا في اهتمامهم باللُّغَة العربية تعليماً فقط ، بل أنشأوا مطابع بالحروف العربية لتتم دراستهم لها ، وليتمكنوا بعد ذلك من بث سمومهم ضدها ، وهم على يقين من أن لكل صائح صدى ، كما أنهم تعلَّموا العربية ليزيدوا من استعلائهم على العرب المسلمين حين يتم استعمارهم لهم الاستعمار الذي خططوا له ونفذوه بالقوة والقهر سنين عدداً .

وقد ابتكروا وسائل كثيرة لإبعاد اللُّغَة العربية عن الصدارة ، ومن هنا منعوها من دخول المدارس العامة في الشكل الذي تدخل به لغة المستعمرين التي أصبحت هي اللُّغَة الرسمية في المدارس وفي الدوائر الحكومية ، والتي توصف لطلاب العلم بأنها هي لغة الرقي والتطور والسبيل إلى نيل الشهادات العالية والوظائف المحترمة لدى الدول .

بينما يُشار إلى اللُّغَة العربية بأنها لغة التخلُّف والمتخلفين ويكيلون لها التهم وألوان الاستهزاء بها وبأهلها وأنها لغة يجب أن تموت لتحل محلها لغة التطور والصناعات المختلفة ، في الوقت الذي شجَّعوا فيه اللَّهَجات العامية المحلية ـ أي التي لا ضرر فيها على المستعمرين ولا على المستشرقين ، ولا تقف دون تحقيق أهدافهم كما هو حال اللُّغَة الفُصحَى التي تقف حجر عثرة في طريق مواصلتهم لحرب الإسلام والمسلمين والتلاعب بكتاب اللَّه وسُنَّة نبيِّه ﷺ .

وقد ذكر الدكتور «عبد الرحمن حسن» عدداً من المستشرقين وعدداً آخر ممَّن تأثر بهم من العرب الذين اهتموا بحرب العربية الفُصحَى وأرادوا إحلال العامية محلها [1] ، وذكر أن أكثر العرب تقبلاً لإقصاء الفُصحَى هم النصارى ، والسبب غير خافٍ وهو يوضح السر وراء اهتمام المستشرقين وأعداء الإسلام كلهم باللُّغات العامية المحلية الدارجة حيث أنشأوا لذلك الغرض مدارس عديدة مثل :-

١ ـ مدرسة نابولي للدروس الشرقية ، أنشئت عام ١٧٢٧م .

٢ ـ مدرسة لغات الشرق بالنمسا ١٧٥٤م .

٣ ـ مدرسة باريس للغات الشرقية الحية .

٤ ـ مدرسة لازارف للغات الشرقية في موسكو ١٨١٤م .

٥ ـ الكلية الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية ١٨٩١م .

---

(١) «أجنحة المكر الثلاثة» ، ص ٣٥٣ ـ ٣٦٤

٦ ـ جامعة لندن ـ فرع العامية .[١]

وكل هذ المدارس كانت مهمتها دراسة اللُّغات العامية المحلية ، ولقد تخرَّج من هذه المدارس عدد كثير منهم كان اهتمامهم في مؤلفاتهم بحث اللُّغات العربية المحلية الدارجة ، وتوسَّعوا فيها كثيراً وتفنَّنوا في زخرف القول عن فوائدها ومسايرتها للتطور بزعمهم وأنها سهلة لا تكلُّف فيها يستطيع أن يُبدع الشخص فيها كما يحلو له ، بل وصل مكرهم بالقرآن الكريم إلى أنهم ترجموه على أنه شعر عربي عامّي وباللَّهجة العامية لتقريبه إلى الأفهام حسب مكرهم ، وهم يريدون من وراء هذا الصنيع إبعاد المسلمين عن لغتهم العربية الفُصحَى وإحلال العامية محلها وما يتبع ذلك من تفرق كلمة العرب وعدم اجتماعهم على سياج يوحدهم ، ومرجع واحد يجمع بينهم ، ولكي يصبح القرآن الكريم للتبرُّك به فقط ، وقد انهال المستشرقون والمنصرون بالمديح على الذين ينادون بالعامية ، وأنهم طلائع ثورة أدبية على اللُّغَة ـ بل هم ثورة على اللُّغَة العربية ـ التي لم تستطع بزعمهم أن تساير الحضارات الأوربية في استيعاب الجديد وفي استيعاب أسماء الصناعات التي يزخر بها الغرب حسب افترائهم ، فكان حال العربية يقول :

رَمَوْني بعُقْم في الشَّبابِ ولَيْتَني * عَقمتُ فلَمْ أجْزَعْ لقَولِ عُداتي**

بينما هي كما يُترجم عنها حافظ إبراهيم أيضاً تقول :

أنا البَحْرُ في أحْشائه الدُّرُّ كَامنٌ * فَهَل ساءلوا الغَوَّاص عن صَدَفاتي**

---

(١) «الاستشراق» ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣

ولقد أوعز المستشرقون إلى عملائهم من العرب أن بعتبروا اللُّغَة العربية هي السبب في تخلف الشعوب العربية لأنها معقدة وليس فيها سلاسة العامية وسهولتها التي يجيدها عرب اليوم .

وكان للشعر النبطي والأزجال العامية حظ الأسد في مقارعة المستشرقين للُّغَة العربية ، فهم يوصون دائما بتجديد اللُّغَة ، أي إدخال اللَّهَجات المحلية والتخاطب بها محل العربية وقيامها على العامية شعراً ونظماً ، وتوَّجت تلك الدعوات لإقصاء العربية بما أحدثه الحداثيون من تعابير ملتوية ودسائس لا يدركها إلاَّ المتخصصون في دراستها من أمثالهم حيث يتفاهمون بها كما تتفاهم البهائم فيما بينها .

والمستشرقون لا يخفون فخرهم في إحلالهم العامية محل العربية بأنه يعود إلى تأثير الحضارة الأوربية وأُدبائها ، وأن الفضل في هذه الحركة في البلاد العربية إنما يعود للمفكرين الأوربيين .

ومن وجهة نظري ، أنه فخر لهم بالفعل ، حيث استطاعوا أن يبعدوا أولئك القطعان عن لغتهم التي هي محل فخرهم ولغة دينهم حيث شرَّفهم اللَّه بنزول القرآن بها وجعلها مهوى أفئدة المسلمين ، ثم يأتي ملاحدة الغرب فينجحون في صرف المسلم عن هذا الخير العظيم .

وعلى كل حال فإن المستشرقين ومن تبعهم هم أقل وأذل من أن يقصوا العربية ويُحلُّوا العامية محلها بصفة عامة ، فهذا لا يمكن إن شاء اللَّه إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها ، وإن كان عملهم يبقى كأنه بثور تشوِّه وجه اللُّغَة العربية المشرق

الفصل العاشر

التغريب وموقف المسلمين منه

تمهيد :

دعاة التغريب في البلاد الإسلامية ودورهم المتمم لدور المنصرين والمستشرقين وذكر نماذج منهم :

وإذا كان ما تقدم ذكره عن المنصرين والمستشرقين وهم من غير المسلمين ولا من جلدتهم ولا يتكلمون بلسانهم في الأغلب ، فقد ظهر قوم من جلدة المسلمين ويتكلمون بلغتهم ، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم ، مَنْ أطاعهم قذفوه فيها .

وهؤلاء هم دعاة التغريب الوريث المشئوم للمنصرين والمستشرقين في البلاد الإسلامية ، هم وأفراخهم زعماء الفرق الضالّة .

المبحث الأول

إخبار الرسول ﷺ عن وجود مثل هؤلاء في المسلمين

أخبر الصادق المصدوق ﷺ عن هذا الصنف من الناس بأنهم سيتبعون أعداء الإسلام ويقلدونهم في كل شيء ، فوقع كما أخبر به ﷺ في قوله : «**لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القَذَّةِ بِالقَذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»[(١)] ، وفي رواية : «**شِبْرَاً بِشِبْرٍ وَذِرَاعَاً بِذِرَاعٍ**»[(٢)] ، وفي روايَة : «**حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلانِيَةً لَكَانَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**»[(٣)] ، وحينما قال الصَّحابة رضوان اللَّه عليهم مُستفهمين : «اليَهُودُ والنَّصَارَى» قال ﷺ : «**فَمَنْ ؟**»[(٤)]

---

(١) أخرجه أحمد ١٢٥/٤ ، وصحّحه الحاكم في مستدركه ٣٤٢/٢

(٢) أخرجه البخاري ١٢٧٤/٣ رقم ٣٢٦٩ ، ومسلم ٢٠٥٤/٤ رقم ٢٦٦٩

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦/٥ رقم ٢٦٤١ واستغربه ، وصحَّحه الحاكم ٢١٨/١ رقم ٤٤٤

(٤) البخاري ١٢٧٤/٣ رقم ٣٢٦٩ ، ومسلم ٢٠٥٤ رقم ٢٦٦٩

المبحث الثاني

مهمة دعاة التغريب

ظهرت في بلاد المسلمين هذه الثمرة الخبيثة على أيدي دعاة التغريب الذين حملوا على عواتقهم مهمة إكمال ما وقف عنده المستشرقون ، وأغلبهم من الذين تربوا في الجامعات الغربية ومدارسها الحاقدة على الإسلام والمسلمين ، فكانوا خلفاً مخلصاً لأسلافهم من المنصرين والمستشرقين إثر اندحار الحملات الصليبية أمام الجيوش الإسلامية الفاتحة ، وإثر انكشاف مؤامرات الغزو الفكري في العالم الإسلامي ودُعاة التغريب هم الذين يعملون ويتمنون أن يتحول العالم الإسلامي كله بين عشية وضحاها إلى الحياة الغربية بكل ما فيها ، وهم يدعون ليلاً ونهاراً وسراً وجَهرا إلى التعلق بأذيال الغرب النصراني واللحاق بهم ونبذ العادات الطيبة والدين الإلهي تحت تسمية نبذ عادات وتقاليد الرجل الشرقي المتخلف ، ونبذ كل ذلك والتوجه إلى كل جديد في الحضارة الغربية وسلوك المسالك التي مر بها الأوربيون كلها سواء ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية وما لا تحتاج إليه .

وهم يريدون بالتركيز على ذم عادات الرجل الشرقي النفاذ إلى مهاجمة تعاليم الإسلام والاستهزاء بها خصوصاً ما يتعلق بحجاب المرأة والاختلاط ومحاربة اللغة العربية وآدابها ، وهذا وجه من أوجه المكر التي يستخدمونها ضد الإسلام .

المبحث الثالث

أسباب قيام حركة التغريب في البلدان الإسلامية

لقيام التغريب في البلاد الإسلامية أسباب كثيرة ، من أهمها :

١ ـ انخداع بعض المسلمين وتأثرهم بالمنصرين والمستشرقين .

٢ ـ إستعانة بعض المسؤلين والمؤسسات من المسلمين بعلماء غربيين في شتى المجالات ، وبعضهم في مجال التوجيه والمسئولية ، وهذا بخلاف هدي المسلمين ، فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أحد عماله حين طلب إليه أن يستعين بنصراني ماهر ، فكتب إليه : «هَبْهُ مات» .

٣ ـ عدم مراقبة تحركات النصارى في بعض البلدان الإسلامية ، وإطلاق الحبل على الغارب لهم يقيمون إحتفالاتهم وأعيادهم ودعاياتهم ودعواتهم ، بل ويحضرها بعض المسئولين المسلمين لمباركتها بحجة التلاحم الشعبي والتسامح الديني .

٤ ـ ابتعاث بعض الدارسين إلى الغرب ليتعلَّموا شتّى العلوم ، ومن الغريب ـ حسب ما يُقال ـ أن بعضهم يذهب لدراسة بعض العلوم الإسلامية واللغوية والتاريخية .

٥ ـ قيام بعض المسئولين من المسلمين بإلزام جيوشهم وخدمهم بلباس الغرب افتخاراً به ، خصوصاً في المجالات الرسمية .

٦ ـ إنشاء مكاتب ومدارس وجمعيات تدعو إلى التغريب .

٧ ـ ترجمة الكثير من الكتب الغربية إعجاباً بأشخاصها وتوزيعها في كل بلد للكبار والصغار .

٨ ـ وقوف النصارى في كل بلد إلى جانب الغرب وإظهار إعجابهم بهم وتحبيبهم إلى نفوس الناس ، وهم بمثابة العيون للغرب .

٩ ـ قيام بعض عملاء الغرب بإصدار مجلات ودعايات وتمثيليات وأشرطة تسجيل وقصص للكبار والصغار ، تدعو إلى الإعجاب بالحضارة الغربية وتحقير الحضارة الإسلامية والتقليل من أهميتها .

١٠ ـ إثارة بعض القضايا ومهاجمة الإسلام من خلالها ، كقضية جواز الزواج بأكثر من واحدة ، وحق الطلاق للرجل ، والحجاب ، ومنع الاختلاط ، وحقوق المرأة ... وغير ذلك ، وتضخيمها والرد على الإسلام من خلالها بتلفيق الأكاذيب والشبهات الباطلة حولها .

المبحث الرابع

أبرز دعاة التغريب في البلدان الإسلامية

اهتم المستشرقون بغزو أفكار المسلمين لتحويلهم إلى دُمَى تُقلِّد الغرب وتعمل على إحياء حضارته وتقديمها على الحضارة الإسلامية ، فنشأ دعاة التغريب من داخل صفوف المسلمين يكملون ما بدأه المستشرقون والمنصرون ، وتكاثر هؤلاء ، ونجحت الخطة التي وضعها «زويمر» بقوله : «إن الشجرة ينبغي أن يقطعها أحد أغصانها» ، وقوله : «إن خبرة الصيادين تعرف أن الفيلة لا يقودها إلى سجن الصياد الماكر إلاَّ فيل عميل أُتقن تدريبه ليتسلل بين القطيع فيألفه القطيع لأن جلده مثل جلدهم ويسمعون له لأن صوته يشبه صوتهم فيتمكن من التغرير بهم وسوقهم إلى حظيرة الصياد» [1] .

وقد برز من بين تلك الصفوف كثير من المتأثرين بالغرب ، منهم، «جورجي زيدان» ، «فرح أنطوان» ، «شيلي شميل» ، «يعقوب صروف» ، «علي عبد الرازق» ، «طه حسين» ، «أحمد أمين» ، «قاسم أمين» ، «توفيق الحكيم» ، «أمين الخولي» ، «زكي نجيب محمود» ، «محمود عاطف العراقي» ، «زكي مبارك» ، لويس عوض» ، «سلامة موسى» ، «حسين فوزي» ، «محمد التابعي» [2] .

---

(١) انظر : «ظلام من الغرب» لـ «محمد الغزالي» ، ص ٣ ، نقلاً عن «احذروا الأساليب الحديثة» ، ص ١١١ .

(٢) انظر: «الإسلام والحضارة الغربية» لـ «محمد محمد حسين» ، ص ٤٨ ، نقلاً عن «احذروا الأساليب الحديثة» ، ص ١١١

وكانت الخطة تقتضي لإعداد هؤلاء وغيرهم أن يهتم المربون لهم في الغرب بمؤازرتهم ، وأن تُسلَّط عليهم أضواء الدعايات بمختلف الأشكال ، وأن يُكال لهم المديح والألقاب بغير حساب لتضخيم شأنهم في نفوس الناس ليسهل تقبل أفكارهم وتعظم الثقة بهم ، وهي طريقة غربية ماكرة للتغرير بالمسلمين وإدخالهم إلى حظيرة التغريب ، وقد نال هؤلاء دعاة التغريب مختلف المناصب والرتب والألقاب بمؤازرة المربين لهم في الغرب .

ومن أبرز الأشخاص في هذا المجال ، وأبرز الأعمال التي قام بها أولئك الدعاة ما يلي :-

●● **طَـه حُسَـين :** في كتابه «الشعر الجاهلي» ، حيث ادَّعَى أن الإسلام دين محلي لا دين عالمي ، وأنه من وضع محمد ﷺ وضعه متأثراً ببيئته ، وكذا كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الذي حاول فيه أن يفصل العالم الإسلامي عن الإسلام ، وأن يطبعه بالثقافة الغربية .[1] ، وهو ما دعى المستشرقة اليهودية «آيلز» أن تكيل له المديح والثناء .

●● **عَلي عبد الرَّازق :** في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» ، حيث زعم أن الجهاد كان خاصّاً بوقت زعامة الرسول ﷺ ، وأما بعد وفاته فلا ، وزعم أن الإسلام «دين لا دولة» ، وهو تقليد للمستشرقين حذو القذَّة بالقذَّة .

---

(١) «الإسلام والعصر الحديث» للمستشرقة «آيلز» ، نقلاً عن «احذروا الأساليب الحديثة» ، ص ١١٢

●● **زَكي مُبارَك** : في كتابه «النثر الفني» ، حيث زعم أن القرآن من وضع الرسول ﷺ ، وأنه ليس مَصوناً كالأنجيل والتوراة [(١)] .

فانظر إلى الاختلال الشائن والتبعية العمياء ، وأين الصيانة للتوراة والإنجيل ؟!!! ، وكأنه لم يطلع على ما قرَّره بعض المستشرقين من أنه يستحيل أن يمثل القرآن الكريم أحد .

●● **أمين الخُولي** : زعم أن القصص القرآني لا يتفق مع الواقع التاريخي ، وأنه يدل على جهل الرسول ﷺ بالتاريخ تماماً كما كان يردد المستشرقون [(٢)] .

وهذا منتهى الجهل والسخافة ولا يصدر هذا إلا ممن سفه نفسه ، إضافة إلى أن هذا القول فيه تكذيب للّه تعالى فيما قصَّه في كتابه الكريم .

●● **سَلامَه موسَى** : في كتابه «البلاغة العصرية واللُّغَة العربية» دعا إلى إلغاء الفُصْحَى واستبدال العامية بها وإلغاء قواعد الإعراب وقواعد النحو .

●● **زَكي نَجيب مَحْمود** : في كتابه «خرافة الميتافيزيقيا» ، حيث دعا إلى إلتزام المنهج العلماني الذي يرفض الدين ، ودعا إلى العاميَّة في أكثر كتبه .

---

(١) الاستعمار أحقاد وأطماع» ، لـ «محمد الغزالي» ، ص ٢٨

(٢) انظر : «ذيل الملل والنِّحل» لـ «محمد سعيد الكيلاني» ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

●● **تَوفيق الحَكيم** : حاول أن يُردِّد منهج النصارى في الفصل بين الدين والعقل ، في حين ردَّد أفكار الماسونية العالمية في تمييع الأديان وعدم الإعتداد بالإسلام كدين وحيد للنجاة .[١]

●● **عَاطف العِراقي** : ينفي الأصالة الفكرية عن فلاسفة الإسلام ويدعو إلى تقليد الغرب في الفصل بين الدين والدولة .

●● **د. حَسَن حَنفي** : يريد أن يفسر الإسلام بكل أبعاده تفسيراً علمانياً شيوعياً[٢] .

في الوقت الذي يردد فيه هؤلاء الأذيال شعارات المستشرقين ، يراهم المستشرقون ببغاوات وكلاب نابحة يرددون ما يسمعون ، أو يقولون في أنفسهم هذه بضاعتُنا رُدَّت إلينا .[٣]

كما ظهر في آخر الدولة العثمانية بعض سلاطينهم مثل محمود الثاني الذي فرض الزي العسكري الأوربي على جنوده ، والسلطان عبد المجيد الذي سمح بالتحاق غير المسلمين بالخدمة العسكرية ، والسلطان سليم الثالث الذي استقدم العمال الغربيين لإنشاء المدارس الحربية والبحرية ، ومنهم محمد علي والي مصر الذي بنى جيشه على النظام الأوربي وأرسل البعثات إلى أوربا للدراسة .

(١) انظر «التعادلية» لـ «توفيق الحكيم» ، نقلاً عن «احذروا الأساليب الحديثة» ، ص ١١٣

(٢) انظر كتابه «من العقيدة إلى الثورة» ، نقلاً عن «احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام» ، ص ١١٤

(٣) انظر «احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام» ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

•• تيارات التغريب :

وقد ذكر الشيخ محمد حامد الناصر أن مجمل تيارات التغريب تكمن في ثلاثة :

١ ـ تيارات مدرسة الاستعمار ، وهو من أدوات المستعمر لتنفيذ سياسته في إدارة شئون البلاد ، ومن هؤلاء «سعد زغلول» ، و «أحمد لطفي السيد» .

٢ ـ التيار الثاني ، تيار تطوير الإسلام ، وأهل هذا التيار ينصب اهتمامهم في زعمهم تطوير الدين وإعادة تفسيره وفق الحضارة الغربية ، ومن هؤلاء «رفاعة الطهطاوي» ، و «خير الدين التونسي» . ثم أصبحت على يد «محمد عبده» ومدرسته .

٣ ـ التيار الثالث : ويمثله نصارى العرب ، وقد وجهوا جُلَّ اهتمامهم إلى تأسيس الصحف اليومية ، كصحيفة الأهرام ، والمقطم ، وتحملان الأنباء العالمية والمذاهب السياسية ، وبعضها كان يحمل طابعاً أدبياً علمياً مثل صحيفة المقتطف ، وصحيفة الهلال .

وقد ذكرت شخصيات كثيرة تنادي بهذا التغريب مثل «أديب إسحاق» ، و «سليم نقاش» ، و «بطرس البستاني» ، وهو من أنشط العرب في نقل الحضارة الغربية .[١]

---

(١) انظر : «العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب» ، ص ١٢٩ .

المبحث الخامس

أهداف دعاة التغريب وأساليبهم

أهدافهم تتمثل في رغبتهم الشديدة في أن يحولوا العالم الإسلامي إلى مقلدين للغرب في كل شيء وأن يكونوا تبعاً لهم ، وأمَّا أساليبُهم فهي كثيرة ومتنوعة ، ومن أهمها :-

١ ـ إحياء ما يُسمُّونه بالحضارات القديمة في العالم الإسلامي ، ومنها النفاذ إلى قيام الحضارات الغربية المتمثلة في الاستخفاف بالقديم ، في النهاية ونبذه ، وقد استعد «روكفلر» اليهودي المتعصب بمبلغ عشرة ملايين دولار تبرعاً لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر وملحق به معهد أيضاً ، وقد فعل الكثير منهم ذلك . والغرض من هذا هو النفاذ إلى تفريق كلمة المسلمين وبتديدهم من خلال إرجاع كل قطر إلى جاهليته القديمة قبل الإسلام والالتفاف حولها .

٢ ـ التركيز على المناداة بالقضاء على التفرقة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي حتى لا تبقى للمسلم شخصية متميزة ، ويسمُّون ذلك تطوراً في الفكر والثقافة على غرار عصر التنوير عند الأوربيين .

٣ ـ إحياء الدعوة إلى تقديس الوطنية والقومية وغيرها من النعرات الجاهلية والاعتزاز بها لتكون بديلاً عن الاعتزاز بالدين وقيمه ، والإشادة بما حققته الوطنية الغربية وإظهار الإعجاب بها ، وذلك

لضمان عدم عودة المسلمين إلى الألفة العامة بينهم وعدم اتحادهم في كتلة واحدة ليسهل على الغرب وأتباعهم التأثير على كل قطر بمفرده .

٤ ـ الدعوة إلى الالتفاف حول ما يسمونه الإنسانية لكي يجتمع الجميع تحتها فتزول الفوارق والخلافات الدينية فيحل السلام وتصبح الأرض وطناً للجميع ـ بزعمهم ـ وهي دعوة يهودية ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، لأنها في حقيقتها سراب .

ولهذا تجد أنه قد وقف المستعمرون والمنصرون والمستشرقون والشيوعيون والماسون والصهيونية ودعاة وحدة الأديان ، وقفوا صفاً واحداً في دعم حركة التغريب لتذويب العالم الإسلامي في الحضارة الغربية والشرقية .

كما وقف أعداء الإسلام كذلك متآزرين لتقوية كل الدعوات الهدامة ونشرها في العالم الإسلامي كالداروينية ، والشيوعية ، والتطورية ، والوجودية ، والعلمانية ، والتحررية ، والصوفية ، والقومية ، والوطنية ، والإقليمية ، والفصل بين الدين والمجتمع ، وتشجيع المرتدين والإشادة بهم ، ومهاجمة القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية ، وتشويه التاريخ الإسلامي وأنه لا يصلح لهذا العصر ، وأنه السبب في تأخر العالم الإسلامي ، والعمل على تقوية فكرة أن النبي محمد ﷺ كان شخصية فذَّة وعبقريّاً عظيماً لينفذوا من ورائه إلى إنكار نبوَّته وموهبة اللَّه تعالى له تلك الصفات لأجل اختيار اللَّه له .

وعقدوا مؤتمرات عديدة لدراسة أنجح الوسائل لتغريب العالم الإسلامي ، ولقد نجح الغرب في التغلغل إلى ديار المسلمين ، وحازوا على إعجابهم بهم أكثر من الحملات الصليبية ، فما من بلد مسلم إلا وتجد ملامح الحضارة الغربية ظاهرة فيه على تفاوت ملحوظ ، وقد لا يدوم هذا التفاوت ، بل يضمحل ويذوب الجميع في تيار الغرب الجارف إن لم يتنبه المسلمون لذلك ويعودوا إلى رشدهم قبل أن ينجرفوا إلى الحضارة الغربية تماماً .

وقد لا يستثنى من الدول العربية كلها إلا النزر اليسير على ما بها من التأثر النسبي في بعض الجوانب .

والمصيبة التي تؤلم ضمير كل مسلم أدرك خطر التغريب أن المقاومة ضد هذا التيار تكاد أن تكون مفقودة ، إلا عند القليل ، بل تكاد أن تكون المقاومة ضد هذا التيار الجارف لا تساوي شيئاً أمام زحف التغريب بكل الوسائل من إذاعة وتلفزيون ونشرات وتمثيليات وكتب وقصص وإتصالات ، وللإنترنت نصيب الأسد في تسهيل ذلك كله ، وغير ذلك مما هو ملموس بوضوح لمن تتبع أمر التغريب ونشاط أهله الغربيين وأذيالهم في بلاد المسلمين ممن جرفهم تيار التغريب العاتي .(١)

(١) أنظر : «احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام» ، ص ١١٢ ـ ١٢١ .

المبحث السادس

أهم آراء دعاة التغريب

إن من الطبيعي جداً أن تأتي كتابات دعاة التغريب على نفس المنهج الغربي بحكم تأثرهم بهم وتلمذتهم عليهم ، فجاءت كتاباتهم تنضح جهلاً بأدنى الأمور المعروفة في الإسلام ، يتبين ذلك من خلال المطلبين الآتيين :-

المطلب الأول

موقفهم من القرآن الكريم

ردد بعض دعاة التغريب ما قرره أعداء الإسلام من المنصرين والمستشرقين من شبهات باطلة حول كلام اللّه عزَّ وجلَّ - القرآن الكريم - وما كان أجدر بهم أن ينأوا بأنفسهم عن ضلالات الحاقدين على الإسلام والمسلمين ما داموا يشهدون الشهادتين ، ولكن تلمذتهم على أولئك هي التي أنتجت هذا الخلط الشنيع في مفاهيمهم من أن القرآن الكريم صدر عن الرسول ﷺ ، وأنه سجع على طريقة السجع الذي كان معروفاً في الجاهلية - بزعمهم - وغير ذلك من أقوالهم ، ولا ريب أن من اعتقد هذا يكون قد خلع ربقة الإسلام من عنقه وارتدَّ عن الشريعة السمحاء واختار طريق الضلال ، ومن الأمثلة على هذا :

١ - ما جاء في كتاب «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» حيث قال مؤلفه الدكتور «زكي مبارك» : «والقرآن نثر جاهلي ، والسجع فيه

يجري على طريقة الجاهلية حين يخاطب القلب والوجدان ، ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف الخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود الوثنيين» .(١)

وتبلغ المصيبة منتهاها في مثل هذا الكلام الذي يخاطب به المؤلف المذكور رسول الله ﷺ بقوله : «وأين الرجل الذي يدين نفسه بنفسه كما صنعت أنت حين رويت القرآن ، أو حين أنشأت القرآن ؟» !! .(٢)

وهذه الفكرة الخبيثة يبدو عليها أثر النصرانية واضحاً ، وهي ردَّة لا شكَّ فيها ممن يعتقدها إن لم يتب .

٢ - ومنهم «محمد أحمد خلف» حيث ذكر في رسالته للدكتوراة «الفن القصصي في القرآن الكريم» بإشراف «أمين الخولي» أن : القرآن الكريم يتقوَّل على اليهود ويتقوَّل أموراً لن تحدث ، ويقرر أمراً خُرافياً أو أسطورياً ثم يعود فيقرر نقيضه ويزيد وينقص بحكم الحرية الفنية» .(٣)

«ويرى أن القصة القرآنية هي من باب التمثيل وهو ضرب من فنون البيان العربي يعتمد على الواقع وعلى العرف والخيال ، فلا يلزم في

(١) عن كتاب «العصرانيون» ، ص ١٥٨ ، نقلاً عن مجلة «منار الإسلام» ، ص ٨٠ ، من مقال للأستاذ «محمد أحمد الغمراوي» .

(٢) «العصرانيون» ، ص ١٥٨ ، عن مجلة «الرسالة» ، ج ٧ ، ص ٥٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، نقلاً عن مجلة «منار الإسلام» ، ص ٧٥ ، سنة ١٤٠٤هـ .

الأشخاص أن يكونوا وُجدوا ، ولا في الحوار أن يكون قد صدر ، وإنما يكفي ... بالفرض والخيال» .[1]

ولعل القارئ لا ينسى من لقّبه الغرب بعميد الأدب العربي «طه حسين» مكافأة له على تهجمه على القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية ، ومحاباته لليهود ، الذي كان يقول : «تفكيري فرنسي وكتابتي بالعربية» .

هذا الرجل قال كلاماً بذيئاً في غاية الوقاحة ينم عن حقد دفين للإسلام ونبيِّه العظيم ، حيث قال : «إن في القرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، أحدهما جاف ، وهو مستمد من البيئة المكيَّة ، ففي هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر وعنف وقسوة وغضب وسباب ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾[2] ، وغير ذلك من الآيات التي تمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة !!! ... فلمَّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً ، فقد كان في المدينة طوائف من اليهود وبينهم التوراة فأصبح ذلك الأسلوب ليِّناً وَديعاً مُسالماً تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة» .[3]

ومما لا ريب فيه أن هذا الكلام لا يصدر إلا عن حقد دفين على حد قول الله تعالى ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾[4] .

---

(١) «الفن القصصي في القرآن» ، ص ١٥٣ .
«العصرانيون» ، ص ١٥٨ .
(٢) سورة المسد ، الآية : ١
(٣) عن كتاب «العصرانيون» ص ١٥٩ ، عن صحيفة «الفتح» ، ج ٦ ، ص ٦٤٦ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١١٨

وهذا التقسيم الباطل لكلام اللَّه تعالى هو ما افتراه كتاب الغرب ، ونسبة كلام اللَّه تعالى إلى الأوسطا المنحطة ردَّة صريحة ، ونسبة عزوه إلى أسلوب ـ هكذا ـ الآيات المدنية إلى اللين بسبب ما درسه الرسول ﷺ في التوراة ـ بزعمه ـ وأنه تثقَّف بها واستنار ، يهودية صريحة وافتراء من أعداء الإسلام النصارى ردَّدها ذلك المفتون بهم تودُّداً إلى اليهود ـ قبَّحهم اللَّه تعالى ـ وربما كان مقتنعاً بها أيضاً حين أدار ظهره لنور الإسلام .

وقد كان طه حسين عميلاً وفيّاً للغرب ، محارباً للَّه ولرسوله ولدين الإسلام ، مفضلاً الغرب وحضارته على الإسلام ونوره ، فهو مرَّة يهاجم اللُّغَة العربية ويفضل عليها اللاتينية واليونانية ، ومرة يدعو إلى التجديد ، وهو السير سير الأوربيين في كل شيء ، ومرة يهاجم الفتح الإسلامي ويعتبره غزواً واحتلالاً لمصر التي لم تسترد حريتها إلا حين رجعت إلى حضارتها الفرعونية ـ بزعمه ـ وقد سمَّاه الرافعي «المبشر طه حسين» ، و «المستر طه حسين» بدلاً عن لقبه الأوربي «عميد الأدب العربي» .

ومما يذكر أن طه حسين لم يُصلِّ على النبيِّ ﷺ ولو مرة واحدة في كتابه «في الشعر الجاهلي» ، وكرَّر في كتبه أن القرآن الكريم من الأساطير .

وأما كتابه «في الشعر الجاهلي» فقد كان حادّاً جادّاً في السخرية بالقرآن الكريم والإشادة بالإلحاد الغربي والزندقة ، وقد حاكمه مجلس البرلمان في مصر ، وصدر الحكم بتكفيره ، وإتلاف كتابه وفصله من الجامعة ، ولكن

القوى التي كانت تدفعه إلى هذا تدخلت لحمايته ، فأُعيد إلى عمله ورُفِّع ليكون مديراً للجامعة ، ثم وزيراً للمعارف ليكمل مهمته من مظلة السلطة .

وكانت لطه حسين صلات حميمة بكثير من مشاهير أعداء الإسلام مثل «كازانوفا» ، و «مرجليوث» ، و «ماسينون» ، و «بلاشير» ، وغيرهم من أصدقائه الذي يفتخر بصداقتهم ، وقد استورد كثيراً من المستشرقين والمنصرين الحاقدين ، استوردهم للتدريس بالجامعة ـ بحكم وظيفته ـ وقرَّب اليهود والنصارى واتخذهم بطانة له .

وأخيراً يذكر الشيخ «محمد حامد الناصر» حقيقة طه حسين بعد وفاته حسب ما ذكره عنه كاتبه «فريد شحاته» النصراني الذي كان موضع أسرار طه حسين عشرات السنين ، كتب هذا النصراني «فريد شحاته» مقالاً جاء فيه : «إن طه حسين قد تعمد لاعتناق النصرانية في شبابه عند زواجه من زوجته الفرنسية ، وكان ذلك في كنيسة إحدى القرى الفرنسية» [1] .

ومهما كانت صحة هذا الخبر فإن طه حسين يعتبر من أعداء الإسلام حسب ما أملته يداه في كتبه .

---

(١) أنظر : «العصرانيون» ، ص ١٧١ ، نقلاً عن «مجلة الثقافة» ، العدد ٧٤ ، سنة ١٩٧٩م ، ص ٤ ، من مقال لـ «أحمد حسين» .

المطلب الثاني

موقفهم من السُّنَّة النبويَّة

وإذا كان دعاة التغريب قد جرؤا على محاربة كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ ، وانتقدوه وشكَّكوا فيه إتباعاً لمشائخهم من المنصرين والمستشرقين ، فما الظن بهم بالنسبة للسُّنَّة النبوية الشريفة ، على صاحبها أزكى الصلاة والسلام ، تلك السُّنَّة الغرَّاء التي أقلقت أعداء الإسلام وضاقوا بها ذرعاً وخطَّطوا الخطط المتلاحقة والمؤتمرات المتتابعة للتشاور في أمرها وكيفية القضاء عليها ، ومع تلك المحاولات المستميتة إلا أن السُّنَّة النبوية ظلت على صفائها ونقائها ولمعان نورها الذي يكاد يخطف أبصار الذين كفروا ، وإذا كان أعداء الإسلام قد وقفوا ذلك الموقف فإنه لا يحزننا كثيراً لأنه أمر لا بد وأن يقع ، ولكن المؤسف والمحزن حين يصدر الظلم من ذوي القربى الذي عبَّر عنه الشاعر بقوله :

وظُلْمُ ذَوي القُرْبَى أشَدُّ مَضاضَةً *** عَلى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

حين يأتي الظلم للسُّنَّة النبوية ولصاحبها من أناس محسوبين على الإسلام وعلى العروبة أيضاً ، لأن أسماءهم عربية وديانتهم الإسلام ، فكيف يُتصوَّر بعد ذلك أن يطعنوا السُّنَّة من الخلف غَدراً وعقوقاً وتفضيلاً لأفكار شياطين الإنس من وثنيي النصارى .

وقد ذكر الشيخ «محمد حامد الناصر» في كتابه «العصرانيون بين

مزاعم التجديد وميادين التغريب»[1] بعض دعاة التغريب ، وذكر منهم من اشتهر أمره بالانحياز للغرب والحضارة الغربية ، مثل «أحمد أمين» ، و «محمود أبو ريّة» ، و «محمد توفيق صدقي» ، و «إسماعيل أدهم» ، والشاعر «أحمد زكي أبو شادي» ، و «صالح أبو بكر» .

أما أحمد أمين فقد هاجم السُّنَّة النبوية من خلال تأثره بالمعتزلة ، حيث اعتبرهم من أكبر المدافعين عن الإسلام ، لأن منهجهم كان منهجاً متيناً دقيقاً يبعث على الابتكار الفكري ، وأخذ يتباكى عليهم ويذم المحدِّثين الذين حولوا العلم - بزعمه - إلى رواية ، فقلَّ الابتكار وأصيب بالعقم ، وكثر الكذَّابون على رسول اللَّه ﷺ ، مع ذلك فإن الحديث لم يُدوَّن في عهد الرسول ﷺ - بزعمه - وأن البخاري اختار من تلك الأحاديث الكثيرة الشائعة ، وهي ستمائة ألف حديث ، اختار منها أربعة آلاف ، هي ما في صحيحه ، غير المكرر ، ثم نفذ إلى ماردَّده المستشرقون من أن علماء الحديث لم يعنوا بنقد المتن كما اعتنوا بنقد السند .

وما ردَّدوه كذلك من حقدهم على أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه وأن رواياته مشكوك فيها ، بل لم يقتصر أحمد أمين في التشكيك في أبي هُريْرة رضي الله عنه فقط ، بل نفذ إلى التشكيك في بقية الصحابة رضوان اللَّه عليهم من أنهم يجب أن يكونوا محل نقد المحدِّثين كغيرهم من سائر الناس ، ولم يرضَ طريقة المحدِّثين في إثباتهم عدالة الصحابة كلهم ، إذ لم يتعرضوا لأحد منهم بسوء ، ولم ينسبوا لأحد منهم كذباً - كما رغب في ذلك - ثم تعرَّض أحمد أمين

(١) من ص ١٣٣ إلى ص ١٣٧

لـ «عبد اللّه بن المبارك» رحمه اللّه ، فانتقده بأنه يأخذ عمَّن أقبل وأدبر ، معرضاً عن كل ما ذكر في سيرته العطرة من زُهْده وعبادته وتَقواه .

وقد ردَّ الشيخ «محمد حامد الناصر» على بعض تلك المزاعم بإيجاز ، ثم نقل بعض الردود للدكتور «مصطفى السباعي» رحمه اللّه من كتابه «السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» .

والواقع أن تأثر أحمد أمين بالمعتزلة هو دليل على إنحرافه ، كما أنه تأثر كذلك بمدح المستشرقين لهم ولغيرهم من سائر المنحرفين كالخوارج ومن شابههم فيما قرَّره «جولد زيهر» وأمثاله من المستشرقين ، ثم ماذا قدَّم المعتزلة للإسلام حتى يصفهم بأنهم من أكبر المدافعين عنه ؟!! ، بل إنهم قدَّموا شراً مستطيراً وشُبهات شتَّتت المسلمين وفرَّقت كلمتهم وسفكت دماءهم ، وكانوا روَّاد علم الكلام المذموم والآراء الباطلة ، وأقربها فتنتهم في القول بخلق القرآن الكريم ، بل إن كلامهم أصبح مادة دسمة للمستشرقين .

وأما ما وصف به علماء الحديث من أنهم أعقموا الفكر الإسلامي ، فهذا من أقبح الافتراءات ، فإن علماء الحديث هم الذين أخصبوا الفكر الإسلامي بما ملؤا به المكتبات الإسلامية من بحوث واستنباطات أثرت الفكر الإسلامي ورفعته عالياً ، وأما زعمه أن الأحاديث المكذوبة على الرسول ﷺ كثيرة وأنها أكثر من الصحيح ، فهو قول باطل يدل على عدم الخبرة في هذا الفن ، فإن الأحاديث الصحيحة كثيرة جداً ، وما وجد منها مكذوباً فقد غربله علماء الحديث كما يغربل الدقيق ، وعرفت تلك الأحاديث كلها عند علماء الحديث .

وأمَّا البخاري رحمه اللَّه فقد اقتصر على ما أراد ذكره من الأحاديث دون أن يدَّعي بأنه جمع كل الأحاديث الصحيحة في كتابه المشهور ، ولم يقل - بإجماع جميع العلماء - أن ما ترك ذكره من الأحاديث فهو باطل ، لم يقل بذلك أحد ، وبهذا يبطل ما ذكره أحمد أمين من أن البخاري لم يصف عنده من الأحاديث إلاَّ أربعة آلاف فقد هي الصحيحة المنسوبة إلى النبي ﷺ .

قال ابنُ الصلاح في مقدمته في علوم الحديث : «روينا عن البخاري أنه قال ما أدخلت في كتابي الجامع إلاَّ ما صحَّ وتركت من الصحاح الملال الطوال»[(١)] ، وفي بعض الروايات «لحال الطول» ، وقال عن الإمام مسلم : «وروينا عن مسلم أنه قال : «ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ها هنا - يعني في كتابه الصحيح - إنما وضعت ها هنا ما أجمعوا عليه»[(٢)] .

أما نقده لعلماء الحديث بأنهم لم يعتنوا بنقد المتن كما اعتنوا بنقد السند ، فهذا قول جهلة المستشرقين ردَّده أحمد أمين عنهم ، وهو وصف ظالم لأهل الحديث الذين لم يقفوا جامدين - كما وصفهم - بل كانت لهم وقفاتهم عند كل ما يُروَى عن النبي ﷺ متناً وسنداً ، ثم ما الذي يريده أحمد أمين من رجال الحديث أن يقولوه في متن الحديث بعد أن يصح سنده إلى النبي ﷺ ؟!! غير القبول به والاستفادة منه ، فإن الدين قائم على ذلك ، ووجوب العمل به .

---

(١) «علوم الحديث» لـ «ابن الصلاح» ، ص ١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق .

أما نقده لأبي هُرَيْرَة رضي الله عنه وافتراؤه عليه تبعاً للمستشرقين والمنصرين فلقد أكثر علماء السلف في دفع ونقد هذا الافتراء وردُّوه بالأدلة القاطعة ، كما ردُّوا على اليهودي «جولد زيهر» الذي تولَّى كبر هذه المقالة الفاسدة التي لا تعلق بقلب مؤمن عرف دراسة الحديث وأحوال الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، ومما لا شكَّ فيه أن كل من تعرَّض لأبي هُرَيْرَة رضي الله عنه بالذم فإن في قلبه مرض ونفاق وسلك غير سبيل المؤمنين .

وأما رغبة أحمد أمين في تجريح الصحابة رضوان اللَّه عليهم فإنه يُردِّد بهذا القول ما افتراه أعداء الصحابة من الحاقدين عليهم قديماً وحديثاً ، أما أهل السُّنَّة فقد اتفقت كلمتهم على عدالة الصحابة كلهم ، قال ابنُ كثير رحمه اللَّه : «والصحابة كلهم عدول عند أهل السُّنَّة والجماعة» .(١)

أما اعتقاد المعتزلة بأن «الصحابة عدول إلاَّ مَن قاتل عليّاً» ، فهو قول باطل مردود بإجماع من يُعتَد بقوله من المسلمين ، وكذا قول الخوارج في مَن ذمُّوه من الصحابة بسبب حنقهم عليه ، فإنه قول باطل .

وأما ما يدين به الرافضة بالنسبة للصحابة فإنه خلاف معتقد المسلمين قاطبة ، فلا حُجَّة لأحد يستدل على بُغض الصحابة بقول أهل الأهواء المخالفين سبيل المؤمنين ، ومَنْ ردَّ عدالة الصحابة كلهم فقد قال بعدالة المستشرقين وضُلاَّل الرافضة وخالف الحق والعقل .

وأما ما قاله أحمد أمين في «ابن المبارك» رحمه اللَّه فإنه قول باطل

(١) عن «العصرانيون» ، ص ١٣٦ .

مخالف لما أجمع عليه أئمة العلم من علماء الجرح والتعديل وغيرهم ، فقد كان محل احترام الجميع وإجماعهم على توثيقه وإمامته ، قال عنه الحاكم : «هو إمام عصره في الآفاق وأولاهم بذلك علماً وزُهْداً وشجاعةً وسخاءاً» .(١)

وقال النَّسائيُّ : «لا نعلم في عصر ابن المبارك أجلَّ من ابن المبارك ، ولا أعلم منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه» .(٢)

ثم قال محمد حامد عن أحمد أمين ساخراً من جُرأته على موافقة المستشرقين والمنصرين : «إلا أن علاَّمة القرن العشرين لا يقتنع بكل هذه الشهادات لابن المبارك ، فهو يأخذ عمَّن أقبل وأدبر دون تفكر لما يأخذ» .(٣)

أما أبو رَيَّة وموقفه من السُّنَّة النبوية :

فقد زعم(٤) أن الأحاديث كلها رُويت بالمعنى ، وأن الأحاديث كلها سواء الصحيح أو الحسن لم يرد منها أي حديث بلفظ الرسول ﷺ .

ثم طعن في تدوين السُّنَّة وأنها أُهملت تماماً حتى لم يبقَ منها حديث صحيح بلفظ الرسول ﷺ ، ولو أنها ـ حسب زعمه ـ دُوِّنت كما دُوِّنَ القرآن

---

(١) أنظر ترجمته الوافية في «تهذيب التهذيب» ج ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) «العصرانيون» ، ص ١٣٧ .

(٤) أنظر كتابه «أضواء على السُّنَّة المحمدية» ص ٧ ، عن «العصرانيون» ، ص ١٣٧ .

الكريم لكانت كلها متواترة فلا يُقال في بعضها صحيح أو حسن أو ضعيف أو موضوع ، وهذا جهل منه بواقع الأمور التي جرت بالنسبة للسُّنَّة .

وأما موقفه من الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، خصوصاً من الصحابي الجليل أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه فقد قال عنه السباعي رحمه اللَّه : «وأشهد أن أبا ريَّة كان أفحش وأسوأ أدباً من كل من تكلَّم في حق أبي هُرَيْرَة من المعتزلة والرافضة والمستشرقين قديماً وحديثاً ، مما يدل على سوء عقيدة وخبث طوية ، وسيجزيه اللَّه بما افترى وازدرى وحرَّف وشوَّه من الحقائق» .[1]

ثم ذكر السباعي رحمه اللَّه كلام العلاَّمة «ابن خُزيمة» رحمه اللَّه في دفاعه عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه بقوله : «وإنما يتكلَّم في أبي هُرَيْرَة لدفع أخباره من قد أعمَى اللَّه قلوبهم فلا يفهمون معان الأخبار :

إمَّا مُعطِّل جَهْميٌّ يسمع أخباره التي يرونها خلاف مذهبهم ـ الذي هو كفر ـ فيشتمون أبا هُرَيْرَة ويرمونه بما اللَّه تعالى قد نزَّهه عنه تمويهاً على الرعاع والسفل ، وأن أخباره لا تثبت بها الحُجَّة .

وإمَّا خارجيٌّ يرى السيف على أُمَّة محمّد ﷺ إذا سمع أخبار أبي هُرَيْرَة عن النبيِّ ﷺ خلاف مذهبهم الذي هو ضلال ، ولم يجد حيلة في دفع أخباره بحُجَّة وبرهان ، كان مفزعه الوقيعة في أبي هُرَيْرَة .

أو قَدَريٌّ اعتزل الإسلام وأهله إذا نظر إلى أخبار أبي هُرَيْرَة التي رواها

(١) «السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ، ص ٣٢٠ ، عن «العصرانيون» ، ص ١٣٩ .

في إثبات القَدَر ، لم يجد حُجَّة تؤيِّد صحة مقالته التي هي كفر وشرك ، كانت حُجَّته عند نفسه أن أخبار أبي هُرَيْرَة لا يجوز الاحتجاج بها .

أو جاهلٌ يتعاطى الفقه ويطلبه من غير مظانِّه وتكلَّم في أبي هُرَيْرَة ودفع أخباره التي تخالف مذهبه ويحتج بأخباره على مخالفيه إذا كانت موافقة لمذهبه» (١) .

والواقع أن ما ذكره أبو ريَّة من أن الأحاديث كلها رُويت بالمعنى فقط دون لفظ الرسول ﷺ هو قول سخيف ، ولا يملك عليه حُجَّة أو أدنى برهان ، وهو تكلُّف منه ليوافق ما قرَّره عُتاة التنصير ، وهو بكلامه هذا ينكر ذلك الذكاء الذي اتَّصف به الرعيل الأول ، ويحجر عليهم ما منحهم اللَّه من قوة الحافظة وصفاء الذهن ، والصدق في القول وإسنادهم كل قول لقائله ، وحرصهم الشديد على ذكر ألفاظ الحديث كما وردت عن النبي ﷺ .

ثم بماذا كان يخاطبهم الرسول ﷺ ؟!! أليس بلغتهم وبالأساليب التي يعرفونها ؟ ولا بد أنه هو نفسه قد حفظ كثيراً من الكلام بنصِّه ، فهل يزعم أنه أذكى من الرعيل الأول الذين كانوا لا يستطيعون حفظ أي حديث إلاَّ بالمعنى ، فإنه بهذا التصور السخيف يوحي بأن الصحابة ومن تبعهم ما كانوا يعرفون الحديث إلاَّ بالترجمة عن معناه كما يُترجَم الكلام من لغة إلى أخرى ، وأن كلام الرسول ﷺ كان غير مفهوم بالنسبة لهم فيُعبِّرون عنه بفهمهم ـ كما يزعم .

---

(١) «العصرانيون» ، ص ١٤٠ ، نقلاً عن «السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ، ص ٣٦٢ .

أما طعنه في السُّنَّة وأنها أُهملت ولم تُدوَّن فهذا يدلُّ على جهله أو تجاهله وعناده وجحده لجهود علماء الإسلام خلفاً عن سلف بما تكاد تشهد به الجمادات لو نطقت ، أليست السُّنَّة هي الوحي الثاني ؟!!

وأما المزيه الجميلة التي تشهد بإتقان علماء المسلمين لسُنَّة نبيِّهم ﷺ حيث قسَّموا ما رُوي عنه ﷺ إلى تلك الأقسام المعروفة عند المحدِّثين من الصحيح والحسن ... إلخ . فهذه المزيه التي هي فخر لكل مسلم رفضها هذا الرجل ليتزلَّف إلى جُهَّال النصارى ومن تبعهم وقلب الأمر رأساً على عقب دون أي إكتراث بمشاعر المسلمين على طول أجيالهم .

قال «محمد حامد الناصر» في كتابه «العَصرانيون» [(١)] : «وقد كثر غربان القوم وازداد نعيق البوم من بينهم في الطعن بالأحاديث النبوية ، فأنكر الطبيب «محمد توفيق صدقي» حجية السُّنَّة في مقال بعنوان «الإسلام هو القرآن وحده» حيث زعم الكاتب صدقي أن اللَّه الذي تكفَّل بحفظ القرآن وحده دون السُّنَّة ، ولو كانت دليلاً وحُجَّة كالقرآن لتكفَّل اللَّه بحفظها»

ولا شكَّ أن هذا الكلام يدل على جهله بمكانة السُّنَّة النبوية عند المسلمين ، وأنهم يعتبرونها مصدراً من مصادر الدين الإسلامي ، دون تفريق بينها وبين القرآن الكريم في وجوب الأخذ بها ، وأنها محفوظة بحفظ اللَّه تعالى لكتابه الكريم ، فهي المُفسِّرَة له والمُبيِّنَة لما أُجْملَ فيه ، وهذا هو اعتقاد كل مسلم

---

(١) ص ١٤٠ .

فيها ، وكفالة اللَّه بحفظها أمر لا يخفى إلا على المتعصبين الحاقدين ، فلا زال كلام الرسول ﷺ يُروَى غَضاً طرياً منذ أن قاله إلى اليوم ، وأخرج اللَّه لها رجالاً خدموها خدمة لا مزيد فوقها ، فكيف يقول هذا الرجل أنها غير محفوظة ؟!!!

ألا يعلم أنها لو كانت غير محفوظة لكان مصيرها الاندثار والنسيان الذي حصل لكلام كثير من المشاهير وأساطين الفصاحة ؟

وأما «إسماعيل أدهم» الذي نشر رسالة زعم فيها أن الأحاديث التي تضمنتها الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم ، بل هي مشكوك فيها ويغلب عليها صفة الوضع» .[1]

فهذا الكلام ينضح جهلاً وخُبثاً ، فمن أين له أن الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم ؟!! ، وما هو مصدره وحجته في هذا الحكم العجيب ؟!! ، ومن أخبره أنها مشكوك فيها ؟!! ، ومن الذي تشكَّك فيها ممّن يُعتَبر بكلامه ؟!! ، ومن أين له هذا الحكم العام أنه يغلب عليها كلها صفة الوضع ؟!!

إن هذه الشبهات ليست هي من بنات أفكاره ، وإنما هو مُردِّد لما زعمه المنصرون والمستشرقون الحاقدون ، فهم مصدره في كل تلك الخرافات التي سجلها في رسالته التي لقيت الإهانة والمصادرة لها على أيدي الغيورين على السُّنَّة ، ونعم ما فعلوا .

---

(١) «العصرانيون» ، ص ١٤١ ، عن مجلة «المنار» العددين ١٩ ، ٢٠ سنة ١٩٠٦م

وأما الشاعر المصري «أحمد زكي أبو شادي» الذي عاش في إنجلترا عشر سنين ودرس فيها الطب ، فقد عبَّر عن تشبُّعه بتعاليم الغرب النصرانية في كتابه «ثورة الإسلام» الذي مزج فيه الحق بالباطل ، واستهزأ فيه بالسُّنَّة وجامعيها ، وزعم أن الأحاديث كلها مختلقة .[1]

فمن أقواله : «وهذه سُنَّة ابن ماجه والبخاري وجميع كتب الحديث والسُّنَّة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبل صحتها العقل ، ولا نرضى نسبتها إلى رسول اللَّه ﷺ وأغلبها يدعو إلى السخرية بالإسلام وبالمسلمين وبالنبيِّ الأعظم ﷺ»[2]

ثم غلب الطبع التطبُّع فإذا به يصرِّح بتبعيته للغرب وتأثره بالمنصِّرين وبأفكارهم ، حيث قال : «إن مبادئ الإسلام نظرياً وعملياً هي أقرب ما تكون لمبادئ الحضارة الأمريكية والحياة الأمريكية تفكيراً وسلوكاً ، فهل يتنبَّه المسلمون إلى هذه الحقيقة الراسخة فيفلحوا ؟!!» .[3]

وهذه الأقوال والحكم الأخرق على أحاديث المصطفى ﷺ تنضح جهلاً وحقداً وتبعية فاضحة للمنصرين والمستشرقين .

لقد عمد إلى أصح الكتب بعد كتاب اللَّه تعالى ـ صحيح البخاري ـ وسخر منه ، وهي جرأة خبيثة ، والعقل الذي تكلم عنه أنه لا يمكن أن يقبل بها إنما هو عقله هو ، العقل النصراني الحاقد على الإسلام ونبيِّه العظيم ﷺ .

---

(١) «العصرانيون» ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ ، نقلاً عن «ثورة الإسلام» لأبي شادي ، ص ٢٥ .

(٣) «ثورة الإسلام» ، ص ٥٧ .

أما العقول الأخرى فإنها تنجذب إلى التصديق بها طواعية وتقديراً لجلالتها والنور الكامن فيها .

وقوله أنه لا يرضى نسبتها إلى رسول اللّه ﷺ تطفُّل منه ، فمن الذي جعله وكيلاً عن المصطفى ﷺ ومُدافعاً عنه ؟!! ، ومن الذي يهتم برضاه أو بسخطه في شيء لا يعنيه ولا يؤتمن عليه ، بل ولا يؤمن به ؟!!

ومن الذي يصدق أن أغلب أحاديث صحيح البخاري وابن ماجه تدعو إلى السخرية بالإسلام وبالرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من فمه إن يقول إلاَّ كذباً .

وكيف ساغ له أن يأتي بهذا الاستنتاج الذي لم يعرفه جميع البشر منذ تدوين تلك الأحاديث إلى اليوم ، وكأن لسان حاله يقول :

وإنِّي وإنْ كُنتُ الأخيرَ زَمانُهُ * لآتٍ بما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأوائلُ**

ولا شكَّ أن هذا الحكم منه ينم عن سخافة ورعونة ومتابعة لأساتذته المنصرين والمستشرقين الحاقدين ، والدليل على هذا كلامه الآخر وزعمه بأن مبادئ الإسلام نظرياً وعملياً قاربت أن تصل إلى رتبة الحضارة الأمريكية والحياة الأمريكية تفكيراً وسلوكاً ، لقد تباكى على حضارة الإسلام وأعلن أنه يؤسفه أنها لم تصل إلى رتبة الحضارة الأمريكية تماماً ، ولا يفرحه قصورها عنها .

فهل يقدم إنسان سليم الفطرة يدَّعي الإسلام ديناً على مثل هذا الهراء وعلى مقارنة الدين الذي ارتضاه اللّه وأكمله بحضارة بشرية خطؤها أكثر من صوابها ، وشرُّها أكثر من خيرها .

وأما النصيحة التي قدمها للمسلمين أن يتنبهوا لها ، وهي التمسُّك بأذيال الغرب لعلَّهم يفلحون ، فإن نصيحته مردودةً خَلِقَةً عليه ، ويُقال له كفى ما وصلت إليه أنت من الفلاح الذي تبشر به المسلمين عامة أن يتركوا دينهم وحضارتهم إلى دين وحضارة من لا دين لهم ولا خلق ، خيَّب اللَّه من اعتقد ذلك .

تعقيب على ما سبق :

لعل القارئ الكريم قد أدرك مما سبق إيراده أن المستشرقين لم يكونوا أمناء ولا أصحاب بحوث عليمية مجرَّدة عن التعصُّب ـ كما زعموا ـ بل إنهم غُزاة العقول ومعاول الهدم ، ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ [(١)] .

وقد عرف المسلمون كثيراً من حيلهم وأساليبهم الماكرة ، وعرفوا منهجهم في كتاباتهم عن الإسلام والمسلمين ، وأنها كانت تنفث حقداً وعصبية ، وأنهم جواسيس لشعوبهم الغربية ولدياناتهم المحرَّفة ، وأن ما تظاهروا به من وُدٍّ وموضوعية ونزاهة فيما يكتبون إنما هو تغرير يُقصَد به ذر الرماد في العيون ، ولا أدلَّ على هذا من أنهم لا يستدلون على ما يوردونه عن الإسلام والمسلمين إلاَّ ما يوافق أهواءهم ، ولا من الأحاديث إلاَّ السَّاقط منها المُفتَرى على النبيِّ ﷺ ، ثم يعارضون بها جادين الأحاديث الصحيحة ، بل والآيات الكريمة من كتاب اللَّه تعالى

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٨

ويجعلون ذلك من التناقض الموجود في الشريعة المحمدية ـ بزعمهم ـ مع أنهم يعرفون تماماً أن ما يستدلون به لتشويه الإسلام هو واهٍ كبيت العنكبوت ، ولكن لا حيلة لهم إلاَّ ذلك .

فإذا وجدوا أدنى شبهة تشبثوا بها وضخَّموها وصدَّق بعضُهم بعضاً في إيرادها على التفسير الذي يرتضونه ، ولا ينظرون فيها نظرة الفاحص الطالب للحقيقة ، ولهذا تجد ـ أخي القارئ ـ تفسيرات باطلة ومُحرِّفة لنصوص كثيرة سواء كانت في تفسير كتاب اللَّه أو سُنَّة نبيِّه ﷺ أو في التاريخ الإسلامي أو الفقه أو غير ذلك ، ثم يقدمونه للناس على أنه بيان للإسلام وتعاليمه .

ولم يقف الأمر عند تفسير النصوص ، ولكن جاءوا بما هو أدهى من ذلك إذ أنهم يضعون القضية التي يريدون إلقاءها ، يصنعونها من تلقاء أنفسهم على أنها محسوبة على الإسلام والمسلمين ، ثم بعد ذلك يتصيَّدون لها الأدلة والشبهات والأقوال ويصولون ويجولون حولها حتى يقتنع من لا خبرة له بمكرهم أنهم على شيء وأنهم فطاحل بحث وتحقيق ونزاهة ، وأن ما قالوه عن الإسلام صحيح لا مرية فيه .

وانظر إذا أردت المثال على ذلك تفسيرهم لفتوحات المسلمين التي كانت لوجه اللَّه تعالى ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وانظر كيف قلبوا الحق فيها وزعموا أن تلك الفتوحات إنما كانت من أجل نهب الأموال وامتلاك الأراضي الخصبة والسيطرة ، وهذا الزعم قد جعلوه

ديدنهم في كل مناسبة ، مع أنه زعم تافه يرده الواقع كما ردَّه المنصفون منهم بكل بساطة ، إذ كانوا يعلمون أن المسلمين في فتوحاتهم الأولى كانوا يتجاوزون الأراضي الخصبة والخيرات والنعيم لا يلتفتون إليه ويمضون في فتوحاتهم على ما بهم من المشقَّة والجهد والتعب ، فكم مرُّوا في طريقهم بجنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كان الكفَّار فيها فاكهين ، تجاوزوها ولم يلتفتوا إليها ، وحينما احتلوا أملاك كسرى وقيصر لم يلتفتوا لها ، وكان من ضمن ما أرسلوه إلى عمر رضي الله عنه في فتوحاتهم رأس بقرة من ذهب وسواري كسرى ، فلمَّا نظر إليها عمرُ رضي الله عنه قال : «إنَّ قَوْماً أَدُّوا مثل هذا لأُمَناء» .

وغير ذلك من الأمثلة التي لا تُحصَى التي يتضح بها سخافة وحماقة ، بل وعداوة الغرب النصراني والشرق الشيوعي للإسلام والمسلمين وتلفيقهم الأكاذيب ضد أولئك اليامين ، وفي تاريخ المسلمين أمثلة أخرى كثيرة تدلُّ على سماحة المسلمين ولين جانبهم مع الناس ، وأن المسلمين كانوا إذا غادروا بلداً يبكي أهلُه عليهم لما وجدوه فيهم من الرحمة والعدل والصدق ، مما يدل على كذب ما زعمه أعداء الإسلام غُزاة الأفكار من أن المسلمين كانوا متعطشين لسفك الدماء ونهب الأموال ، وأن الإسلام دين انتشر بالسيف والبطش .



الباب السابع

الماسونية



الباب السابع

المَاسُونيَّة

الماسونية هي مذهب قديم ، من أخبث المذاهب ، أسَّسه طغاة اليهود الحاقدون على البشرية جمعاء ، وخصوصاً النصارى ، وبعدهم سائر أصحاب الملل والأديان . أحكم اليهود خطط مؤامراتهم في سرِّية لا تكاد تُصدَّق إلى أن أذن اللَّه تعالى في إظهار سرِّها بعد عدّة سنوات من إقامتها .

وتشمل دراسة هذا المذهب الفصول الآتية :

تمهيد :

تمهـيد :

الماسونية مذهب فكري هدَّام ، وحركة من أخطر الحركات التي أفرزتها عقلية اليهود الحاقدة لإحكام قبضتها على العالم وحكمه وفق إرادة اليهود ، ووفق مخططاتهم الرهيبة للقضاء على أديان وأخلاق الجوييم - كما يسمونهم - سواء أكانوا من المسلمين أو من النصارى أو من غيرهم - مع التركيز الخاص على المسلمين بالذات بعد أن سيطروا على النصارى - وممّا لا يجوز الجهل به أن الماسونيين الآن هم المسيطرون على كثير من بقاع الأرض ، بعضهم ظاهرين ، وأكثرهم مستترين ، غزوا عدة جوانب وخصوصاً الجوانب الثقافية ذات الأثر الفعال في توجيه الشعوب ، فكم لها من ضحايا خُدعوا بها ، وبعضهم دخلها ليسبر عورها ، لكنه لم يستطع الخروج منها ، ولا يخفى على القارىء الكريم أن الماسونية قد هتك سترها كثير من العلماء وبيَّنوا زيفها وضلالها بعد ذلك الخفاء الطويل ، ومع ذلك فهي لا زالت في حكم المجهول لدقة سرِّيتها وتنظيماتها المحكمة الغائصة في طيِّ الكتمان والسرِّية .

وقد رغبت أن أشير هنا إلى مخاطرها وأُدلي بدَلْوي المتواضع عَلَّ كثرة الأصوات تثيرها فتخرج من مَكْمَنها فيراها الناس على حقيقتها البشعة ووجهها الكالح ، أو عَلَّ سهما يصيب منها مقتلاً ، فإن في تكاتف الجهود ضدها ينشر الوعي بين كافة المجتمعات فتتم النصيحة لهم والذكرى ،

قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾[1] وقال النبيُّ ﷺ : «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[2]

ومن المثير للعجب حقاً أنها لم تجد من التشهير بها ما يوازي خطرها أو يقاربه ، وهو دليل قوي على نجاح دُهاتها في تحويل الأنظار عنهم في حين يفضلون العمل في الخفاء إلى أن يأتي اليوم الذي يتوجون فيه ملك اليهود على العالم كله ملكاً عاماً لا يُنازعه أحد ، حسب ما أوصى به حُكماؤهم في بروتوكولاتهم .

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٥

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ، ج ٢ ، ٦٢٠ ، وغيره

الفصل الأول

أسماء الماسونية ومعانيها

أطلقت على الماسونية الأسماء الآتية :

١ ـ ماسونية ، أو مسونية ، أو مصونية .

٢ ـ القوة الخفية .

٣ ـ الفرمسون .

٤ ـ المنورين .

٥ ـ الفحامين .

•• معاني تلك الأسماء :

الماسونية أو المسونية : هي نسبة إلى جمعية تألفت بعد مجيء اليهود من بابل في أسرهم المشهور ، وهذه الجمعية تنتسب إلى اليهود الذين بنوا هيكل سليمان الذين لقبَّتهم هذه الجمعية بـ «البنَّائين الأحرار» .

وأمّا المصونية : فهو إطلاق لبعض الكتاب ، قيل إنه أخذ من صيانتهم للأسرار .

وأمّا القوة الخفية : فهو الإسم القديم للماسونية عند نشأتها .

وأمّا الفرمسون : فهي كلمة فرنسية مكوَّنة من كلمتيّ «فري» ، و «مسون» ، أي العامل أو البنّاء ، وفري أي الحُرّ الجيد الصادق .

وأمّا المنورين : فهي تسمية الماسونيين في ألمانيا .

وأمّا الفحامين : فهي تسمية الماسونيين في إيطاليا .(١)

وقد أشار الدكتور «صابر طعيمة» إلى تعليل التسمية بالماسونية ، وهو أن تسمية الماسونية أُخذت من اسم موسى عليه السلام ـ برأه اللَّه من هؤلاء الملاحدة ـ وأن دُهاة الماسونية قد صاغوا هذا الإسم ليكون سهلاً جارياً على الألسنة وليتذكروا به نبيَّهم كلما سمعوها ، قال الدكتور طعيمة : «فإذا نظرنا إلى اللفظة ذاتها ـ وإن لم تكن قد عُرفت اللُّغة التي جاءت منها ، ولا الأصل الذي اشتُقَّت منه ـ وجدنا أن معظم حروفها مشكلة من كلمة «موس» عليه السلام نبي اللَّه المُرسَل إلى بني إسرائيل بالتوراة التي هي شريعتهم محرَّفة إلى اليوم ، فالميم في الماسونية هي الميم في موسى ، والألف هي الواو منقلبة ألفاً ، والسين هي السين ، والواو هي الواو ، والنون هي النون التي تلحق بياء النسب مثل النون في «ربّاني» نسبة إلى الرب . هذا في رأينا هو أصل هذه الكلمة قد صاغها اليهود تلك الصياغة الخبيثة لتكون جارية على الألسنة في كل لغة ولتحتفظ بهذه الصورة التي يعرفها كل يهودي في العالم ، فحين ظهر لها وجود في أي جهة عرف اليهود في تلك الجهة أنها دعوتهم وأنهم أهلها وحملة رايتها» .(٢)

---

(١) أنظر : «الماسونية تحت الأضواء» ، ص ١٠

(٢) «أخطار الغزو الفكري» ، ص ٢٨٧ .

هذا ما ذكره الدكتور «صابر طعيمة» وهو تعليل باجتهاده ، ومع احترام رأيه فقد يُقال إنهم لو أرادوا النسبة إلى «موسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ لقالوا موسيه ، أو موسوية . واللَّه أعلم بحقيقة الأمر .

ويُلاحظ أن هذه التسمية الجديدة «البنَّاؤن الأحرار» هي البديل الجديد للتسمية القديمة «القوة الخفية» التي اخترعها «أحيرام» ، و «مؤاب لافي» ، والملك «هيرودس» عند بداية نشأة الماسونية بمشورة مستشار الملك «أحيرام» .

وقد ظهر الإسم الجديد «البنّاؤن الأحرار» أو «الرفاق البنَّاؤن» في عام ١٧١٧م على يد «جوزيف لافي» وولده «ابراهام» ، و «أبراهام أبيود» و «ديجون كوزالييه» ورفيقه «جورج» عندما عقدوا مؤتمرهم في لندن ، وسبب إطلاقهم هذه الإسم «البنَّاؤن الإحرار» على حركتهم بدلاً عن الإسم القديم «القوة الخفية» هو أنه كانت في إنجلترا في القرن الثامن عشر الميلادي جمعيات كثيرة يُطلق عليها «البناؤن الأحرار» أو «الرفاق البناؤن» لا غاية لها إلاَّ الاستفادة من كل جديد يطرأ على فن البناء ، فاستغل دعاة الماسونية هذا الاسم لبناء حركتهم وليكون شبكة لاصطياد الأعضاء الجدد بحجة أن تحت هذا الإسم يحصل العضو على فضل البناء المادي والبناء الأدبي والثقافي ، وسيق الكثير من الدهماء الذين لا يعرفون ما أُريد لهم إلى التصديق به ، فإذا بهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون لا يخدمون في النهاية إلاَّ القوة اليهودية الحاقدة لا غيرها «القوة الخفية» التي أنشأها

«أحيرام» اليهودي والباقون معه الذين أقاموا فكرة الماسونية في اجتماع كان خاصاً بهم ـ كما سيأتي .

ومما يجدر التنبيه إليه : أن الماسونيين ـ وهم في غاية اليقظة ـ في الحفاظ عليها تجدهم يتلون في أسمائهم وفي أشكال شعاراتهم وفي أسماء الماسونية حسب الجو الذي يعيشونه ، فمن السهل عندهم تغيير أسماء الماسونية كلما رأوا ضرورة لذلك ، وقد انبثق عنها جمعيات تحمل الأسماء الآتية : «بناي برث» ، «شهود يهوه» ، «الروتاري» ، «الليونز» ـ كما سيأتي ـ وهي كلها في خدمة الماسونية ولإعادة الهيكل المزعوم وإقامة مملكة إسرائيل حين يتم تطويق العالم وتخريب أديانهم وسلوكهم على أيدي اليهود .

الفصل الثاني

التعريف بالماسونية

اجتمعت كلمة كل من كتب عن الماسونية أنها حركة سرية قام بها بعض زعماء اليهود بعد الأسر البابلي ، ظهرت في بعض الدول الغربية تحارب جميع الأديان وبالأخص النصرانية والإسلام ، والهدف منها استعباد العالم والانتقام من كل الجوييم ، وهي تهدف في النهاية إلى تأسيس نظام عالمي يحكمون العالم من خلاله وراء أستار كثيفة كان آخرها الديمقراطية والإنسانية وغيرها من الشعارات الكثيرة التي جعلوها ستاراً خادعاً لتنفيذ مخططاتهم ، ولعل ما تنادي به الزعامات الأمريكية في عصرنا الحاضر من إقامة نظام عالمي هو الغاية التي كانت تدعو إليها الماسونية خلال عشرات السنين منذ إنشائها إلى اليوم ، وفي هذا العصر الذي بلغ فيه اليهود أوج قوتهم وعلوا فيه علواً كبيراً ، وأصبحت الأرض كلها الآن لا يقال فيها إلا الدولة العظمى أمريكا والتي يخاف منها العالم كله ويتودَّدون إلى إرضائها بالحق وبالباطل في هذا العصر لا يدري العالم ما هي النهاية بعد أن أحكمت اليهودية قبضتها على الشرق والغرب ، وبدأوا يصرِّحون للعالم الإسلامي بوجوب تغيير مناهجهم الدراسية فيما يتعلق بالدين ، وإلا سوف تعتبرهم إرهابيين حسب كبريائهم ، وإذا حكمت عليهم بأنهم إرهابيين «فما يوم حليمة بسر» ، وهذا هو الإسم الذي كانت الكنيسة تسميه هرطقة وتقتل بموجبه دون حساب أو عقاب ، استبدل الآن بالتسمية الجديدة «إرهاب» كان اللّه في عون ضعفاء هذا العالم من سطوة طغاتهم ، ويا ويل الإنسان الضعيف من الإنسان القوي .

الفصل الثالث

الماسونية والأديان

لقد قامت الماسونية في الأساس على محاربة الديانة النصرانية كما تقدم ، وأعدام أهلها بكل الطرق والوسائل دون أدنى رحمة ، وحينما جاء الإسلام أبى الحقد اليهودي والكبرياء التي اتَّصَف بها اليهود أن يقبلوه ، فناصبوه العداء من أول يوم ظهر فيه ، وقصصهم ومواقفهم منه في التاريخ الإسلامي أشهر من أن تُذكَر هنا .. مؤامرات واغتيالات وإيذاء وتأليب الأعداء عليه ، وغير ذلك مما سطره التاريخ عليهم .

ولأن اليهود قوم بُهت ، فقد افتروا على اللَّه عزَّ وجلَّ ، وعلى نبيِّه محمد ﷺ ، وعلى القرآن الكريم ، وعلى الصحابة الكرام ، وعلى فقهاء الإسلام ، وعلى سائر الملل ، بل وعلى أنبياء اللَّه ورسله الكرام ، افتروا أكاذيب كثيرة كما هي طريقتهم في الكذب ، وخصُّوا محمداً ﷺ ، وهو خير البشر ، بافتراءات للتنفيس عن أحقادهم .

فزعم عُتاة الماسونية أن النبيَّ محمداً ﷺ ليسَ نبيَّاً مُرْسَلاً من اللَّه تعالى ، وأنه لا نبيَّ بعد موسَى ، وأن محمَّداً ﷺ كان زعيماً لشرذمة من أعداء الإيمان والبشرية ، وأن القرآن الكريم ليس من اللَّه تعالى وإنما هو كلام استقى محمدٌ ﷺ مفهومه من التوراة والإنجيل ، وقد وصل بهم الإفراط في الكذب إلى حد أنهم زعموا أن الإسلام جمعية

ماسونية وإشارة التعارف فيه بين أتباعه هي : «السلام عليكم» . كما زعم الماسوني الكبير «مرجليوث» أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد .[1]

وقال الدكتور الزعبي : «وأشهد أني سمعت بعض خطباء المحافل في بيروت يقول : إن القرآن من حسنات الماسون ، إذ أملاه الأستاذ الأعظم بحيرا الراهب على محمَّد ﷺ» .[2]

وللماسونيين النصارى تفسيرات للقرآن الكريم باطلة ملفَّقة تتوافق مع كل ما جاء في الأناجيل من صلب المسيح وتجسده وقيامه من الموت وأنه ثالث ثلاثة وأن المسيح ابنه وأنه إله وأن الدين عند اللَّه هو النصرانية ، وأن الرسالة المحمدية مسيحية بحتة وأسرار القرآن لا يعرفها حقيقة إلا الماسون ... وغير ذلك من الأكاذيب المظلمة الضالة التي صدرت عنهم من فرط غيظ في قلوبهم .

ولقد نكل اليهود بالنصارى أشد تنكيل في وقائع لا تكاد لهولها تُصدَّق ، وكان اليهود يعتقدون أن قتل النصراني هو أكبر القربات إلى اللَّه تعالى وأن إتلاف الإنجيل هو من أوجب الواجبات وأفضل الأعمال ، وظل اليهود زمناً طويلاً وهم متسلطون على النصارى قد عزموا على إفنائهم تماماً من

(١) نقلاً عن «الماسونية» ، لـ «أميني وأبو حبيب» ، ص ١٢٠

(٢) «الماسونية في العراء» ، لـ «الزعبي» ، ص ٢٠ .
وانظر حقيقة الماسونية» للزعبي ، ص ٣٠ .

الأرض ، ثم دخلت المؤامرات اليهودية لإفساد النصرانية عن طريق الاحتيال والخداع ودخول عملاء يهود في صفوف النصرانية ، وبعضهم وصل إلى سُدَّة الحكم ، بل والبابوية إلى حد أن أصدر أحد البابوات بياناً يُبرِّيء فيه اليهود من دم المسيح ، فذاب كثير من النصارى تحت التعاليم اليهودية من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، ولك في الصداقة الموجودة اليوم بين النصارى واليهود أقوى الأدلة على ذلك النفوذ اليهودي .

الفصل الرابع

الماسونية ونظام الجمهوريات والأحزاب

لقد تحقق قول الشاعر : «تعدَّدت الأسباب والموت واحد» ، تحقق في الماسونية التي جاءت لأسباب كثيرة جداً ، آخرها إقامة دولة اليهود العالمية التي يحلمون بها وتنصيب ملكهم العام .

فنادوا بإقامة الجمهوريات على أساس تحقيق الديموقراطية دون إنحياز إلى دين أو مجتمع كما يزعمون ، وبالتالي وجوب إلغاء الملَكية ، والسر في هذا أن الجمهوريات تقوم على تعدد الأحزاب ، وقيام الأحزاب في حاجة إلى الدعم المالي والدعاية ، واليهود يملكون هاتين الوسيلتين ، ومعلوم أنهم لا يساندون إلا الحزب الذي يختارونه بعنايتهم وسيكون هذا الحزب بدون تردد حزباً إلحادياً لا دينيّاً كما اقتضت خططهم في نشر الفساد وإقصاء الدين أي الدين الإسلامي والنصراني لأن بقية الأديان لا قيمة لها في نظرهم لتفاهتها وسهولة انقياد أهلها وقد أوصى دُهاة الماسونية بإشاعة الانحلال الخُلقي على أوسع الأبواب ، ولا أدلَّ على هذا من قيام نوادي العُراة دون حياء بتشجيع من الماسونيين الذين آلوا على أنفسهم أن يجعلوا الحياء والحشمة والفضيلة هي العيوب التي يجب اجتنابها والحياء منها ، والمرأة الغربية التي نبذت الحجاب أقوى شاهد على ذلك ، فإنها تستحي أن تلبس الثياب المحتشمة وتخرج إلى خارج البيت ، وهو أمر معكوس

أوجده «فرويد» اليهودي حين أكد أنه لا بد من محاربة الحياء والحشمة في المرأة حتى ترى أن الحياء والحشمة هو العيب .

والماسونية الحاقدة التي قامت على أكتاف اليهود ومن تبعهم من عميان الجوييم ـ كما يسمونهم ـ وقيام تلك المؤامرات إنما تهدف كلها إلى مسخ الجوييم ثم إقامة دولة إسرائيل الكبرى بعد أن يمهدوا لها بالقضاء على أديان الجوييم وأخلاقهم وكافة سلوكياتهم وإهانة زعمائهم ثم القضاء عليهم .

الفصل الخامس

السرِّيَّة في الماسونية

أما السرية في الماسونية فقد فاقت كل ما يتخيله العقل من القدرة على السرية والتكتم الشديد زمناً طويلاً ، فهي لم تقم من أول يوم على يد «أحيرام أبيود» ، و «مؤاب لافي» ، و «الملك هيرودس» ، والستة الذين تم انتخابهم بعد ذلك ، لم تقم على أيدي هؤلاء إلا في غاية السرية وفي الأقبية المحكمة ، يتوارث السر فيها كما تتوارث المجوهرات الثمينة والأموال الفاخرة .

وعلى كل من دخلها من اليهود أو من العميان ـ غير اليهود ـ كما يسمونهم أن يؤدي طقوساً وأيماناً مغلَّظة في أول درجة من درجاتها وبين كل درجة وأخرى أيمان وتهديد شديد بقطع يَديّ الداخل فيها وإحراق شفتيه بالنار وجزِّ عُنقه وتقطيعه إرباً إرباً وإ حراق جثته ووضع رمادها في مهب الريح إن إفشى سراً من أسرارها لا بلسانه ولا بقلمه ولا بإشارته ولا بالحفر أو الطباعة أو غير ذلك ، وإن أفشى شيئاً من ذلك فإنه يقرر على نفسه الجزاء الصارم ليكون عبرة لغيره من طلاب الدخول فيها ـ كما سيتضح لك أخي القارى من خلال هذه الدراسة إن شاء اللَّه تعالى .

●● تعقيب :

ولا أعتقد أن هناك حاجة إلى التعليق على سبب هذه السرية ، فإن الباطل لا يعيش إلاَّ في الظلام ، وصاحب الباطل يخاف من إظهاره ، لعلمه بأن الناس سيكونون ضده وسينكرون عليه باطله ، فإن الإثم ما حاك في النفس وكره صاحبه أن يطلع عليه الناس ، ولعل أقوى الأمثلة الظاهرة المعروفة لكل أحد من الناس أن الحق لا يخاف صاحبه من إظهاره ، بل يحب إظهاره ويفرح كذلك بمن يظهره ، وهذه الدعوة المحمدية وأتباعها المثل الأول في ذلك إذ لا يُعرف في الشريعة الإسلامية أي مبدأ لا يتم إلاَّ في السرية وتحت القسم أو التهديد بالقتل إن أفشاه صاحبه ، والسبب واضح ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ .[1]

ومما يحير العقل أن الماسونيين يتمدحون بأنهم بناة أحرار ، ومع ذلك فهم لا يقومون بالبناء الذي أخذت منه التسمية ، لا بناء حقيقي ولا أدبي ولا أخلاقي ، فضلاً عن الدين ، وإنما يقومون بخراب العقول والمفاهيم ، وهذا ليس بناءاً ، بل هو تدمير ، ومشكلة أخرى أيضاً وهي أن يُقال إذا كان الماسون يحبون أن يطلق عليهم تسمية البناؤن الأحرار وأنهم يريدون الخير للبشرية والتعايش السليم دون حروب أو بغضاء ، فلماذا يتكتَّمون على مذهبهم هذا التكتُّم الشديد ؟!! ولماذا يهدِّدون كل من أشار إلى تعاليمهم بإنزال الويل والثبور به ؟!! إن كان حقاً هو منقذ البشرية من الشقاء والقائد إلى الحياة السعيدة ؟!!

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٩

الفصل السادس

متى ظهرت الماسونية ؟ وكيف نشأت ؟

اختلف الباحثون عن الحركة الماسونية في بدء ظهورها كغيرها من الفرق الخفية ، وقد أطلق بعض الباحثين في تجديدها ، وبعضهم قيده بزمن محدَّد ، وربما كان الماسون هم وراء هذا الاضطراب في تحديد نشأتهم ، وحاصل الخلاف يرجع إلى ما يأتي :-

١ ـ ظهرت بعد القرن الثامن عشر الميلادي ، وحجة أهل هذا القول أنه لم يكن في بريطانيا في القرن الثامن عشر أية جمعية تحمل إسم البنَّائين الأحرار .

٢ ـ أنها ظهرت حين كان موسى عليه السلام مع قومه في التيه ، وأعتقد أن هذا القول بعيد وكاذب لوجود موسى عليه السلام ، وللحال التي هم فيها .

٣ ـ أنها تأسست عام ١٦١٦م ، حيث انبثقت عن جمعية تُسمَّى جمعية الصليب الوردي .

٤ ـ أنها نشأت في القرن الرابع عشر الميلادي .

٥ ـ أنها ظهرت إثر الحروب الصليبية .

٦ ـ ظهرت في أيام حكم اليونان القدماء في القرن الثامن بعد الميلاد .

٧ ـ ظهرت بعد بناء هيكل سليمان .

٨ ـ أنها ترجع في نشأتها إلى الكهانة المصرية والهندية وغيرهما .

٩ ـ وقول آخر هو أبعد الأقوال وأحطها ، وهو أن الماسونية نشأت في الجنة على يد أبينا آدم عليه السلام ، وأن الجنة كانت هي أول المحافل الماسونية ، وكان ميكائيل هو الأستاذ الأعظم فيها .

ويرى بعض العلماء أن الراجح من تلك الأقوال أن الماسونية ظهرت في بداية القرن الأول الميلادي عندما كان اليهود يبشرون بظهور نبي جديد يعيد لهم الملك والمنعة [١] ، وبالتالي كانوا يخططون للقضاء على النصرانية التي أخذت تنتشر بقوة عالية .

والذي يظهر أنه القول الراجح هو أن الماسونية قد ظهرت في عهد الملك اليهودي «هيرودس الثاني» حيث بدأ التفكير في إقامة الماسونية في عهد هذا الملك (٣٧ ـ ٤٤م) الحاقد على العالم بأسره ، وعلى الله أيضاً لعدم إنهائه النصرانية ، وحكم غير اليهود ، وكان من أشد أعداء النصرانية على الإطلاق .

لقد رأى «هيرودس» أن المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام هي المعول الهدام ضد إقامة مملكة اليهود العالمية ، ولهذا كانت تعلوه الكآبة والحزن كلما سمع عن الداخلين من الوثنيين في المسيحية ، كان للملك «هيرودس» مستشارين هما : «أحيرام أبيود» ، و «مؤاب لافي» ، وهما لا يقلان عن الملك كراهيةً وحقداً للمسحيين ، فشاهد «أحيرام أبيود» ملكهم «هيرودس» وقد علاه الحزن والغم من انتشار المسيحية وعدم القضاء عليها سريعاً ، فأشار

(١) أنظر : «الماسونية تحت الأضواء» ، ص ١٤ .

عليه «أحيرام» بتأسيس جمعية خفية تُسمَّى «القوة الخفية» مهمتها قتل المسيحيين والحد من انتشارهم بكل الوسائل ، وتحقَّق «هيرودس» من فائدة هذا الاقتراح فعلت وجهه البشاشة والفرح وعرف أن هذا الاقتراح له ما وراءه فشكر «أحيرام» ، فعرضا الأمر على «مؤاب» ـ المستشار الثاني ـ فوجداه أشد غيرة وحنقاً على المسيحيين وتداولوا الأسماء التي يمكن أن تشاطرهم تنفيذ هذه المهمة الخطيرة ، فتم الاتفاق على ستة أشخاص [(١)] وتمت دعوتهم للجلسة وحضروا كلهم ، وفي نهاية الجلسة وقَّع المؤسسون محضر هذه الجلسة والجلسة التي قبلها ـ الثلاثية ـ واحتفظ كل عضو بصورة من الجلستين .

اجتمع المؤسسون في أحد أقبية قصر الملك ، وسمّوا مكان اجتماعهم هيكلاً تخليداً لهيكل سليمان الذي يزعمه اليهود ، وكانت مهمتهم في هذه الجلسة هو تدارس اليمين التي يجب أن يؤديها كل عضو يدخل في جمعيتهم ، والطريقة التي يتم بها إدخال الشخص معهم ، وبعض الرموز كالبيكار والميزان والصور الفلكية كرسم الشمس والقمر والنجوم لإيهام الداخل بأن جمعيتهم قديمة كقدم هذه الأفلاك ، ثم وُزِّعَت المهام على الأعضاء وانتشروا لاستجلاب الناس إلى الدخول في هذه القوة الخفية ، وتأسيس الهياكل الماسونية ، ودعوة الأثرياء للبذل والمساعدة في بناء هذه القوة الخفية ، فسجلوا في ظرف أربعة أشهر خمسة وأربعين هيكلاً تضم نحواً من ألفي عضو خفي .

---

(١) وقد أصبح مجموعهم تسعة ، وهم : الملك هيرودس ، وأحيرام أبيود ، ومؤاب لافي ، وأدونيرام ، وجوهانان ، وأبدون ، وأنتبيبا ، وأبرون ، وآبيا فكانوا «تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون»

وحينما أحسَّ الملك هيرودس بدنو أجله في عام ٤٤م أودع سـر هذه الجمعية لابنه «أغريبا» وشدَّد عليه في كتمان سرها والعمل الحثيث لإنهاء المسيحيين .

وحينما آلت رئاسـة الجمعية إلى «أحيرام أبيود» المخترع الأول لجمعية «القوة الخفية» سمَّى هيكل القدس المركزي «كوكب الشرق الأعظم» تحدياً وتكذيباً للكوكب الذي هدى المجوس لمكان ولادة المسيح ـ كما جاء في إنجيل متى ـ ثم أصدروا أمراً مُشدَّداً يقضي بالإجهاز على كل أتباع المسيح ، ثم غادر القدس ليشهد بنفسه مجازر المسيحيين وقتلهم ، فانقطعت أخباره أياماً ، ثم شُوهد إلى جانب شجرة أكاسيا جيفة تتنازعها الكواسر والجوارح ، وما دلَّ على شخصه إلاَّ المطرقة المنقوشة على خاتمه ، إذ على كل خَفيّ ـ عضو ـ أن يصطحب من رموز جمعية «القوة الخفية» ما يدلُّ عليه .

وقبل موته كان قد أفضى بالسِّرِّ إلى ابن أخيه «طوبا لقيان» فأصبح رئيساً بعده ، فاقترح أموراً وافقوا عليها قائلاً : «إن أحيرام [1] مؤسسة

---

(١) لقد أصبح «أحيرام» من المقدسين في الحركة الماسونية ، ولئلا ينكشف تقديسهم لـ «أحيرام» اليهودي ، اخترع اليهود دهاة الماسونية قصة موّهوا بها على الأعضاء الجدد الداخلين في الماسونية إسم «أحيرام» بأنه كان رجلاً مهندساً قتله العمال بسبب عدم إفشاءه سر الهندسة في عهد سليمان ، وقد بحث عنه سليمان فوجده مقتولاً مدفوناً في مكان سري ، ففرح سليمان باكتشافه على أيدي الذين قتلوه ، ومن هنا جاء تقديس إسم «أحيرام» ، ولكن هذه المغالطة أصبحت مكشوفة ، وأن التقديس المطلوب إنما هو لـ «أحيرام» المهندس اليهودي مستشار الملك «هيرودس» الذي أشار بإنشاء تلك الحركة ، وليس هو لـ «أحيرام» مهندس سليمان ، فإذا بلغ الداخل مرتبة في الماسونية صرَّحوا له بإسم «أحيرام» اليهودي .

الجمعية الخفية وشهيد الجهد والإخلاص ، فلنطلق عليه لقب «معلم» [١] تحدياً للقب المسيح ، ولنطلق على الجمعية الخفية اسم «الأرملة» تخليداً لـ «أحيرام» إذ هو ابن أرملة ، ولنضع حول جثمانه ثلاثة مصابيح احتقاراً لمسامير المسيح الثلاثة ، ولنقم حفلات تذكارية تمثل بها موت «أحيرام» كلما نال طالب خَفيّ الدرجة الثالثة ، إذ هي من الدرجة التي تخلد اسمه ، وحيث قتلته اليد الخفية المسيحية [٢] يجب على كل خَفيّ مناجزتها ومناجزة مطلق أية جمعية يتزعمها العميان ، ولنضع للخَفيّين الفرعيّين رموزاً يتعارفون بها ليدوم لنا استخدامهم» .

فوافق الجميع على هذه المقترحات وشرعوا في تنفيذها .

وقد قويت الماسونية واستشرى خطرها ، خصوصاً في عام ١٧١٧م ، فانتشرت الهياكل الخفية في الغرب وفي فارس بعضها كان مرتبطاً بكوكب الشرق الأعظم بفلسطين ، وبعضها بهيكل رومية ، وحينما جاء الإسلام كان دور الخفيين في محاولة الحد من انتشاره مخيفاً ، ووقعت الحرب اليهودية النفعية التي سُمِّيَت صليبية ، وتأسست فرقة البروتستانت بيد اليهود ، وخططهم ، ولا يزالون يواصلون جهودهم لتنفيذ آخر رغباتهم ، ونسأل اللّٰه أن لا يمكّنهم ، وأن يحول بينهم وبين ما يشتهون كما فُعل بأشياعهم من قبل .

أما بالنسبة للقول بأنها تأسست بعد القرن الثامن عشر الميلادي فهو قول بالتخمين .

---

(١) في الأناجيل يطلقون عليه لقب «معلم» .
(٢) لا يوجد دليل على اغتيال المسيحيين لـ «أحيرام» كما ذكره الباحثون .

وأما بالنسبة للقول بأنها تأسست في عهد موسى عليه السلام في التيه ، فأعتقد أن هذا القول باطل لوجود نبي اللّه موسى عليه السلام ، ولأن بقاءهم في التيه لا يسمح لهم بطرق مثل هذه المؤامرات والآراء الخطيرة .

وأما انبثاقها عن جمعية الصليب الوردي ، فمتى كان اليهود يرضون عن الصليب ؟!!! .

والقول بأنها تأسست إثر الحروب الصليبية يرده أنها كانت موجودة قبل قيام تلك الحروب بزمن قديم جداً .

وأما القول بأنها ظهرت بعد بناء الهيكل ، فهو قول كذلك عن طريق التخمين ، وإذا كان المقصود به أن نبي اللّه سُليمان عليه السلام هو الذي أقامها ، فلا شك في كذب هذا القول .

وأكذب منه القول برجوع نشأتها إلى الكهانة المصرية والهندية القديمة .

وأما القول بأنها نشأت في الجنة .. إلخ ، فهو قول سخيف وباطل .

وأما القول بأنها نشأت في بداية القرن الأول ، والقول بأنها ظهرت في عهد الملك «هيرودس» في القرن الأول (٣٧ ـ ٤٤م) فهما أقوى الأقوال فيما يظهر ، ولا يبعد عن الصحة .

الفصل السابع

سبب الخلاف في وقت ظهور الماسونية

إن السبب الذي يدركه كل شخص أن الأفكار الباطلة والمذاهب الضالة لم تقم إلا في الزوايا المظلمة وتحت غطاء السرية التامة ، لأن زعماءها يعلمون تماماً أن المجتمع لا يرضى بقيام الضلالة وما يضر البشرية ، وقد صدق عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه حين قال : «إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم عن العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة» ، والمتتبع لنشأة كل الأفكار الهدامة سيجد مصداق هذا الكلام واضحاً .

ونشأة الماسونية أقوى مثال على ذلك ، فهي في غاية من السرية ، ومع ذلك فقد أظهرها اللّه تعالى وعرفها الكثير من الناس ، وعرفوا ما تبيته للبشرية من الدمار للأديان وللأخلاق والحريات ، على أن السرية التامة التي أحيطت بها الماسونية هي من العوامل التي سببت الخلافات بين العلماء ، ويذهب صاحبا كتاب «الماسونية» [(١)] إلى أن السبب في عدم معرفة وقت ظهور الماسونية بالتحديد الدقيق يرجع إلى أن الباحثين في تاريخ الماسونية قد انصبَّت جهودهم الفكرية في زاوية واحدة من زوايا البحث أنهم كانوا يبحثون عن جمعية باسم «البنَّائين الأحرار» ، متى وُلدت في التاريخ ؟ إن المنطق العلمي يوجب علينا في مثل هذه الدراسات المتعلقة بالجمعيات السرية أن ندرس المبادىء لا أن نقف تحت ظلال الأسماء وننعم بالراحة» [(٢)]

(١) تأليف «محمد صفوت السقا أمين» ، و «سعدي أبو حبيب» .

(٢) ص ١٦ .

ومن الجدير بالملاحظة أن كل الطوائف الضالة لا تنشأ فجأة ، وإنما تنشأ في البدايات أفكار تتسرب من هذا إلى هذا حتى إذا قويت الفكرة وانضم إليها عدد يأنسون من أنفسهم القوة أظهروها في الصورة التي توافق حالتهم .

ومن هنا نجد أن من الصعوبة تحديد وقت بعينه لظهور أية فكرة ، وهذا يحتم علينا أن نوجه الاهتمام لدراسة الآراء والمعتقدات القائمة ، حيث أصبحت أمراً واقعاً بغض النظر عن معرفة وقت الظهور أو تحديد الأسماء أيضاً فقد عرف عن الماسونية وغيرها من فرق الضلال أنهم يتخذون عدة أقنعة ، وعدة أسماء يختفون وراءها على حد قول الشاعر :

إلبس لكل حالة لبوسها * إما نعيمها وإما بؤسها**

فما أكثر ما يحصل من تغيير الأسماء تمويها على الناس ، بينما أساس الفكرة وأهدافها لا تزال كما هي .

الفصل الثامن

حقيقة الماسونية وصلتها باليهود

لم يعد خافياً على أحد تتبع أهداف الماسونية أو عرف شيئاً عنها مدى عمق نشأتها اليهودية ، وأنها إحدى معاول الهدم التي يستعملها اليهود لإعادة تأسيس مملكة إسرائيل من ناحية ، ولإفساد الجوييم وجعلهم حميراً طائعة لهم من ناحية أخرى ، وهناك نصوص كثيرة تثبت هذه النشأة اليهودية للماسونية وردت في كُتيِّب «الماسونية أو كنيس الشيطان أداة خطرة لتهويد العالم» [(١)] ، منقولة عن مصادر اليهود والماسون في كتبهم وصحافتهم ونشراتهم بما يوضح العلاقة بين اليهودية العالمية وبين الماسونية التي تُسمِّي اللَّه عزَّ وجلَّ «المهندس الأعظم» ، وسأكتفي بإيراد بعض النصوص للتدليل على نشأة الماسونية اليهودية كما وردت في الكُتيِّب المذكور ، جاء في صحيفة «لا مارينا إسرائيليت» [(٢)] : «إن روح الحركة الماسونية هي الروح اليهودية في أعمق معتقداتها الأساسية ، إنها أفكارها ولغتها وتسيرفي الغالب على نفس تنظيماتها ، وأن الآمال التي تنير طريق الماسونية وتسند حركتها هي نفسها الآمال التي تساعد وتنير طريق إسرائيل وتتويج نضالها سيكون عند الظفر بذلك المصلى الرائع الذي ستكون أورشليم رمزه وقلبه النابض» .

---

(١) ترجمة السيد «جمعة حماد» ، وتقديم وتعليق «محمد إبراهيم الشيباني» ، والتسمية «كنيس الشيطان» جاءت من البابوات ، وتعني كلمة «كُنيس» معبد اليهود ، ويظهر أن هذه التسمية جاءت من قبل أن تسقط الكنيسة والبابوات تحت أقدام اليهود .

(٢) ص ٧٤ ، العدد ٥ سنة ١٨٦١م .

وجاء في صحيفة «لاتوميا» الألمانية الماسونية في ١٩٢٨/٧/٧م من أقوال «رودلف كلين» : «إن طقوسنا يهودية من بدايتها إلى نهايتها ، ولا بد أن يستنتج الجمهور من هذا أن لنا صلات فعلية باليهودية» .

ويقول الحاخام الدكتور «إسحاق وايز» في كتابه «إسرائيليوا أمريكا» ١٨٦٦/٨/٣م : «إن الماسونية مؤسسة يهودية ، فتاريخها ودرجاتها وأهدافها ورموزها السرية ومصطلحاتها يهودية من أولها إلى آخرها» .

وفي كتاب «التطورات التاريخية للمجتمع اليهودي» ، المجلد الثاني ، ص ١٥٦ : «إن شعار المحفل الماسوني البريطاني الأعظم مكون كله من الرموز اليهودية» .

وجاء في «موسوعة الحركة الماسونية» طبعة فيلادلفيا سنة ١٩٠٦م : «إن كل محفل هو في الحقيقة والواجب رمز للهيكل اليهودي ، وكل رئيس يعتلي على كرسيه يمثل ملكاً من ملوك اليهود ، وفي كل ماسوني تتمثل شخصية العامل اليهودي» .

ومن مجلة «ذي جويش تريبيون» نيويورك في ٢٨ أكتوبر ١٩٢٧م : «إن الماسونية قائمة على اليهودية ، فإذا أستأصلت اليهودية من شعائر الماسونية ومصطلحاتها فما الذي يبقى بعد ذلك» .

وورد في مجلة «لا توميا» الألمانية الماسونية ، مجلد ١٢ تموز ١٨٤٩م في بيان صلة الماسونية باليهودية العالمية وبالماركسية أيضاً : «لا يسعنا إلا أن نحيي الإشتراكية الماركسية كزميلة ممتازة للماسونية في سبيل

رفع قدر الإنسانية ... إن الإشتراكية والماسونية ومعهما الشيوعية تنبع كلها من مصدر واحد» .

وعن نفوذ المجلس اليهودي «السنهدرين» يقول «أ. ب غورد» في كتابه «يد يهوذا الخفية» ١٩٣٦م : «إن نفوذ السنهدرين اليوم أقوى منه في أي وقت مضى بفعل الماسونية» .

وعن نشاط الماسونية في استجلاب الأتباع إليها يقول «بيكو لو تيجر» اليهودي وزعيم إحدى الجميعات السرية المتصلة بالماسونية : «إن الجمعية ترغب أن تقدم بوسيلة أو بأخرى ما يمكن تقديمه من الأمراء الأغنياء إلى المحافل الماسونية ... وسيخدم هؤلاء الأمراء المساكين قضيتنا وهم يحسبون أنهم يخدمون مصالحهم» .

وعن دور جمعية «بناي بريث» اقتبست مجلة «بناي بريث» عن الحاخام الماسوني «ماغنين» : «ليست البناي بريث إلا بديلاً مؤقتاً ، وحيثما تستطيع الحركة الماسونية أن تعترف بأنها يهودية في طبيعتها وأهدافها تكون المحافل العادية كافية للقيام بالواجب» .

و «بناي بريث» جمعية يهودية لها محفل ماسوني لا يُباح لغير اليهودي الدخول فيه .

وجاء في «الموسوعة اليهودية» : «إن المصطلحات والرموز والطقوس التي يستعملها الماسوني زاخرة بالأفكار والتعبيرات اليهودية» . [١]

---

(١) أنظر لتلك النصوص «الماسونية أو كنيس الشيطان أداة خطرة لتهويد العالم» ترجمة «السيد جمعة حمّاد» ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت . وانظر «بروتوكولات حكماء صهيون» . وانظر كتاب «تبديد الظلام» لـ «عوفي الخوري» .

وذكر «عوض الخوري» عن رئيس أول جلسة لمؤسسي هذه الجمعية المخرِّبة أنه قال : «إن الغاية من جمعيتنا هي إرجاع العالم إلى اليهودية وسحق تعاليم يسوع» .

وقد ظهر لك الأمر أخي القارىء من خلال تلك النصوص ونصوص أخرى كثيرة لم يتسع المقام لإيرادها ، ظهر لك حقيقة منشأ هذا المبدأ الهدَّام ، أحد معاول اليهودية الحاقدة التي تتحفَّز للإنقضاض على كل ديانات وأخلاق الجوييم كي يصبحوا خدماً وحميراً لليهود الذين يزعمون أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه وأنهم شعبه المختار وأولياؤه المقرَّبون ، وهم أخبث البشر وأحطهم أخلاقاً وأجشعهم في حب المال وأحرصهم على الاستيلاء عليه بكل وسيلة مهما كانت منحطة ومهما كانت منافية للإنسانية أو الرحمة أو الضمير الحيّ ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .[1]

إنه من المدهش حقاً أنه بعد هذه النصوص كلها ، وبعد ما ظهر للعيان طغيان اليهود ومؤامراتهم لزرع الفتنة والبغضاء وإشاعة الخوف والتحريش بين الناس من المدهش أنه بعد وضوح هذه الأمور وغيرها مما لا يُحصَى أن الناس لم يتنبَّهوا لهم ، ولم يضعوا لاستهتارهم حدَّاً ، بل إنه يسارع الكثير إلى محاباتهم واسترضائهم في غفلة مخيفة ، ولا يعلم إلاَّ اللَّه متى يُفيق هؤلاء الذين يطلق عليهم اليهود إسم الجوييم احتقاراً لهم ، متى يفيقون ؟!!

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠

الفصل التاسع

الدخول في الماسونية

لا بد أن يمر الداخل في المسونية بطقوس وتدريبات هائلة قد يفقد اتزان عقله ، وقد دخلها كثير من الناس مثقفين وغيرمثقفين يحدوهم حب الاطلاع ، ولكنهم لم يتمكنوا بعدها من الخروج لما تجمعه لهم من الترغيبات والترهيبات التي لم يكن يتصورونها ، كما أن للماسونية درجات متفاوتة تبدأ من الدرجة الأولى وتنتهي بالدرجة (٣٣) يترقى فيها الداخل شيئاً فشيئاً سواء كان من اليهود أو من غيرهم ، ويسمون الداخلين فيها من غير اليهود بـ «العميان» وهؤلاء العميان ينقسمون إلى عميان صغار وعميان كبار ، حسب مراتبهم ، ولا ينتقل الشخص من درجة إلى أخرى إلا بعد أن يقدم خدمات ضد المسيحية وضد الإسلام ، أو نفع عام أو خاص لليهود ، ولكل درجة طقوس وترتيبات وقَسم يؤديه الشخص يختلف باختلاف الدرجات ، ولأهل كل درجة إشارات وأوسمة ولباس وعلامات تختلف تبعاً لكل درجة .

وهذا الاختلاف يُراد من ورائه تشويق الداخل للوصول إلى أعلى الدرجات ومعرفة الأسرار الخفية ومتابعتهم بجد ونشاط ، وهي خدع ماكرة يسلبون بها عقل الشخص وولاءه وكل شيء فيه ليبقى خالصاً لهم أو حجراً جامداً لا يعرف إلا خدمة الماسونية اليهودية والتفاني للوصول إلى أعلى الدرجات ، وعندما يبدأ الشخص في الدخول في الماسونية يمر بأهوال مخيفة وطقوس

عجيبة لكي يحس بأنه أمام شيء غريب حقاً ، وأن له ما وراءه ، وما عليه إلا أن يصبر ويستعد لإكمال ما بدأه معهم ، فيمر في بدايته بأمور لا يمكن أن ينساها طوال حياته مملوءة بالرعب والتخويف .

وأول البدء يأتي الداخل إلى باب الهيكل أو المحفل الماسوني ومعه المرشد له فيقف أمام الباب خاضعاً ذليلاً منكسر النفس يقف طويلاً حتى يكاد أن يسأم ، فإذا بنافذة صغيرة تُفتَح في أعلى الباب ، وإذا برجل وراءها صامت لا يتكلَّم ، ثم يفتح الباب ثم يُدخلونه غرفة مظلمة ـ غرفة التأمل ـ فيُجرَّد من ثيابه وما معه من المعادن حتى الساعة والخاتم ، ويكشف ذراعه الأيمن والجانب الأيسر من صدره وركبته اليمنى ، وفي الغرفة نور ضعيف ، فيرى أمامه هياكل بشرية وجماجم منثورة هنا وهناك وأعضاء مبتورة وجثث بالية وأخرى قريبة من البلي ولوحة أمامه مكتوب عليها : «إن كنت فضولياً خائناً فاخرج من هنا» ، ثم يسأله صاحب السُدَّة : هل لا تزال مُصرّاً على طلب النور الماسوني ؟ فإن أصرَّ وقال نعم ، تُعصَب عينيه بقطعة سوداء ، ثم يُربَط في عنقه حبلٌ ثم يُقاد [1] إلى باب الهيكل المغلق فيطرق المرشد الباب طرقاً مزعجاً ، فيقول الحارس الداخلي : مَنْ الطارق ؟ فيجيبه المرشد : طالب فقير في حالة الظلام ، وسبق طلب انتسابه ودخوله الماسونية مختاراً ، وهو الآن آتٍ ليكتسب النور من هذا المحفل الموقَّر ، فيقول الحارس الداخلي : بِمَ يأمل هذا ؟ فيجيب المرشد : بطيب السيرة وحرية النسب ، فينقل الحارس

(١) عصب العينين وشد العُنق بالحبل وغسيل اليد وتجريعه العلقم وإصلات السيوف على عنقه ، كلها سخرية بآلام المسيح وماء معموديته ، ويحتمل أن تكون تهويلاً له وتذكيراً بما حصل بزعمهم للمسيح ، أنظر : «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ٥٢ .

هذا الكلام للرئيس المتربع على السُّدَّة ـ سُدَّة سُليمان ـ فيأمر بإدخال الطالب قاعة المحفل يقوداه المرشدان ويطوفان به سالكين طرقاً ملتوية وهومعصوب العينين ، وكلما تعثَّر أقالا عثرته ، ولا يمر بصَفٍّ إلا ويسألون : مَنْ هذا ؟ وبِمَ يأمل أن يرى النور ؟ فيجيب المرشد : بطيب السيرة وحرية النسب ، فيقولون : مُرّ يا حُرَّ النَّسَب .[1]

ثم يوقف الداخل بين العمودين للسُّدَّة لسماع أسئلة الرئيس الموجهة له ، ثم يقول له الرئيس : أنت قادم على إمتحان شديد وستقسم على الكتاب المقدَّس بشرفك وذمَّتك وتوقع بمداد من دمك ، فهل لا تزال مُصرًّاً ؟ إن معك وقتاً كافياً للتفكير ، ولك حق الانسحاب قبل القسم ، فإذا بقي مُصرًّاً سقاه الرئيس كأساً من الماء العذب ، ثم كأساً من الماء المر ، ويفهمه بعدها أن الإنسان مُعرَّض أيضاً للمرارة في حياته ، وعليه أن يصبر ويرضى ليكون سعيداً .

ثم يأمر الرئيس بمسح يد الداخل بالتراب ، وأن يركع على ركبته اليسرى مُتخذاً من يده اليمنى زاوية قائمة ثم يستعد للقسم واضعاً يده على كتابه الذي يقدِّسُه (العهد القديم ، الإنجيل ، القرآن) وهو موضوع على منضدة يعلوه الزاوية والبيكار .

ثم يقول له الرئيس : لقد طال مكوثك في الظلام ، والجمعية التي تحاول الانتساب إليها ، قد تكلفك آخر نقطة من دمك ، فهل لا تزال مُصِراً على

(١) حُرّ النسيب وطيب السيرة : لقب يُطلق على الداخل ، وفيه غمز لبقية البشر بأنهم خلاف ذلك .

الانتساب ؟ فإذا أجاب بنعم ، قيل له : ماذا تتمنَّى الآن ؟ فيقول : النور ، فيأمر الرئيس بإعطائه النور .

ولكن قبل أن تُزال هذه العصابة تُوجَّه إليه السيوف مُصلَّتَة حادة إلى رقبته وقلبه ، ثم يسأله الرئيس المباشر أمامه : ماذا يُحسُّ ؟ فيجيب : أنه يُحسُّ بسيف أو سكين حادة قريبة منه ، ثم تُرفَع عنه العصابة وتُضاء أنوار عالية ، فيرى أمامه مجموعة من الرُّؤساء وقد سلُّوا سيوفَهم وهم يهدِّدونه وينذرونه إن أفشى سراً من أسرارهم بالقتل والإحراق ، ويقولون له : «إن هذه السيوف للدفاع عنك عند الحاجة ، وللفتك بك إن خنت عهودك ومواثيقك ، والحبل الذي في رقبتك هو لخنقك إن بدا منك حركة أو إشارة تدل على النكث بالأقسام قبل لحظات كنت أجنبياً عن عشيرتنا ، وكنا نخاطبك بـ «أيها الطالب» ، أما الآن فقد أصبحت أخاً ماسونياً لك ما لجميع الإخوان ، وعليك ما عليهم» ، ثم يقوم الرئيس ويخلع عليه مئزر الدرجة الأولى قائلاً له : «هذا أرفع وسام عليك أن تحافظ عليه كما تحافظ على نفسك ، ولا يسوغ لك أن ترتديه إلا إذا كنت تحمل السلام والأخوة لجميع الحاضرين» .

وبعد هذا يفهمونه أن هذا اليوم ـ يوم التكريس ـ يعتبر المولد الحقيقي للإنسان ، والأيام التي مرَّت قبله فهي هباء ، ولهذا قد يُسأل الماسوني عن عمره فيجيب بأنه ثلاث سنوات أو أربع أو غير ذلك حسب درجته في الماسونية ، وهذا هو غسيل المخ حقيقة والعقوق للماضي حقيقة ، وسبل شيطانية .

الفصل العاشر

هل توجد شروط على الداخل في الماسونية

هل هناك شروط يجب أن تتوفر على الداخل في الماسونية أم لا ؟ الذي يظهر من كلام الباحثين في الماسونية أن الماسونية لا تشترط أي شرط غير أن يبيع العضو الداخل نفسه لمحافل الماسونية ، وأن يكون وقوداً ضمن حطبها .

فالماسون همهم أن يستفيدوا من كل داخل معهم ويوجهونه حسب ثقافته ومقدرته العقلية ، ولا عبرة بما يهيلونه عليه من ألقاب المديح ، فإنها للاستهلاك ولإشباع غرور الداخل وملىء الفراغ الذي يحس به في مجتمعه ، وعلى هذا فإني محتار من كلام الدكتور «أحمد شلبي» حين قال عن شروط الماسون للداخل معهم ، حيث قال : «ولا تفتح الماسونية أبوابها لكل الناس ، إنما تختار صفوتهم فتشترط لمن يريد الدخول فيها أن يكون رشيداً له مهنة شريفة ، وثقافة لا بأس بها ، حرّ النسب ، مستقيم الخلق ، لم يعرف بالطيش أو الخلاعة» [١]

هذا هو كلامه ، والماسونيون هم أحقر من أن يشترطوا هذه الشروط الجميلة الجيدة ، فإن المعروف عن الماسونيين أنهم يفتحون أبوابهم لكل ساقط ، وأي صفوة يشترطون ؟!!! والرشد عندهم إنما هو في قدرة العضو على تنفيذ ما يُطلب منه من اغتيال أو بث دعاية أو نحو ذلك ، وحرية النسب إنما هي دعاية يلقيها رئيس المحفل على الطالب عند أول دخوله

(١) انظر «اليهودية» ، أحمد شلبي ، ص ٣٢٦

المحفل حتى وإن كان نسبه إلى الشيطان أقرب ، واستقامة الخلق بمعنى اعوجاجه عند الحقيقة الماسونية ، وكونه لم يُعرف بخلاعة شرط عجيب ، إذ أن من أساسيات قيام الماسونية أن يكون أصحابها في منتهى الخلاعة التي تصل إلى نبذ الحياء تماماً والتعرِّي في نوادي العُراة .

ومن المسلَّم به أن يهتم دهاة الماسونية للشخص الذي يكون له تأثير في المجتمع أكثر من غيره ؛ كالمثقفين وأصحاب السلطة ، يستجلبونهم بالمال والنساء وشتى الإغراءات في الوقت الذي يحتفظون فيه بجميع ما يحصل منهم من فضائح وقبائح لتكون سلاحاً بأيدي دهاة الماسونية ليهدِّدوا بها العضو في أية لحظة يجدون منه تذمُّراً وخروجاً عنهم فيهدِّدونه بإفشاء تلك الفضائح وبالقتل أيضاً ، وما أكثر ضحاياهم من هذا القبيل ، وليست الفضائح التي نشروها للرئيس الحالي للولايات المتحدة الأمريكية ـ بيل كلينتون ـ ببعيد ، حينما خافوا منه أن يضغط على إسرائيل لإتمام صفقة المفاوضات بينها وبين العرب ، فقد أخرجوا له ملفاً هائلاً من الخيانات الزوجية ومعاشرة بعض الفتيات ممَّن يخدمن في البيت الأبيض ـ مثل مونيكا لوينسكي وغيرها ـ وقد صارعهم وصارعوه طويلاً وبذل أموالاً كثيرة لإسكات تلك الفضائح التي أثاروها الواحدة تلو الأخرى ، ونكَّسوا رأسه في الأرض وملؤا قلبه همَّاً ورُعباً في تهديدات من يهود الكونجرس وصلت إلى حد أنه يجب إقصاؤه من رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية لخيانته الزوجية ولحلفه اليمين كاذباً قبل أن يُدينوه بالصور والمكالمات التي قصمت ظهره .

الفصل الحادي عشر

القَسَم الماسوني

وبعد أن تتم تلك الطقوس الغريبة للداخل لا بد بعد ذلك أن يؤدي قَسماً خطيراً يقسم فيه بإله إسرائيل ، ثم عُدِّل بعد تطوير الماسونية إلى القسم بمهندس الكون وصيغته : «إني إقسم بمهندس العالم الأعظم أني لا أفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها ولا ملامساتها ولا أقوالها ولا تعاليمها ولا عاداتها وإني أصونها مكنونة في صدري إلى الأبد ثم إني أعد وأقسم باسم مهندس الكون الأعظم بأني لا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات ، وإني لا أكتب شيئاً منها ، ولا أنشره بالطبع أو الحفر أو التصوير ، وأرضى أن حنثت بعهدي أن تُحرَق شفتاي بحديد محمي ، وأن تُقطَّع يدي ، ويُجزَّ عُنقي ، وتُعلَّق جثتي في محفل ماسوني ليراه طالب آخر ويتعظ بمثلي ، ثم تُحرَق هذه الجثة ويُذَرُّ رَمادها في الهواء لئلا يبقى أثر من خيانتي» .

وهذا القسم الرهيب كما تراه إنما هو لاجتثاث ما لعلَّه بقي في نفس الداخل في الماسونية من تعظيم اللَّه تعالى والحنين إلى دينه أو إلى أُمَّته ، وإلا فإن الماسونية إلحادية محاربة للَّه تعالى ولجميع الأديان ، وهم يعرفون تماماً أن الداخل إذا استمر معهم فسيأتي عليه وقت لا يؤمن باحترام قسم ولا عهد ولا ميثاق بعد أن يموت قلبه وبعد أن يطبع اللَّه عليه ، فلا يُحل حَلالاً ولا يُحرِّم حَراماً ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ .[1]

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩

كما أن هذا القسم كما يذكر الدكتور «أحمد شلبي» ينمُّ عن أشياء يتبيَّن منها حقيقة الماسونية وخداعها للناس ، وذلك أن من وصايا الماسونية للداخل في البداية أن يلتزم العمل الصالح وحب الناس وتطهير النفس والصدق ومؤازرة إخوانه وتجنب المشاجرات مع الناس وأن يحترم الكل ، ولكن هذا القسم ليس فيه شيء من ذلك ، وهو دليل على استهانتهم بالحث على تلك الأخلاق التي يوصون بها لإيهام الداخل أنهم على شيء من الخير والصلاح ، كما أن هذا القسم يدلُّ على أن الداخل مُقبل على أشياء خطيرة مضرَّة بالغير ، وإلاَّ لما أحاطوها بهذا القسم المريب والتهديد الرهيب .[1]

وهذا القَسَم يقوله المبتدىء في الماسونية ، فإذا قطع شوطاً فيها ، فإنه يؤدي قَسَماً آخر ؛ هو : «أقسِم على أن أقطع كل الروابط التي تربطني بمطلق إنسان ؛ كالأب والأم والإخوة والأخوات والزوج والأقارب والأصدقاء والملك والرؤساء وكل من حلفت له بالأمانة والطاعة وعاهدته على الشكر والخدمة» .

ومعنى هذا القسم أن يتبرأ الشخص من أي صلة تربطه بمجتمعه بحيث لا يرى ولا يسمع إلا من خلال الماسونية اليهودية ، وبحيث يصبح أداة خطرة على أمته أو جسماً غريباً عنهم .

وهنا يجب معرفة المراد بمهندس الكون الأعظم من هو ؟ لقد سلكت الماسونية طرقاً خبيثة ملتوية لتحقيق أغراضها الإلحادية ، فإن القسم

---

(١) بتصرف عن «اليهودية» ، لأحمد شلبي ، ص ٣٢٧

بمهندس الكون الأعظم قد يتبادر إلى الذي يؤمن باللَّه أنه اللَّه ، وإلى الذي يعبد غيره أنه ذلك المعبود ، ولكن الواقع أن هذا كله غير صحيح ، فإنهم يريدون بمهندس الكون القوة الخفية الرامزة إلى هيكل سليمان ، وأرادوا بالمهندس الأعظم «أدونيرام» الرئيس الرابع لتلك القوة .[1]

ومن الخداع الذي يمر به الداخل في الماسونية سماع الوصايا العامة للماسونية التي يظهرون فيها ما لا تحبه نفوسهم نفاقاً للداخل معهم واستدراجاً منهم له حتى يأنس بهم ويركن إليهم ، كقولهم له : «فرض على الأخ حب اللَّه والكنيسة المقدَّسة وسيده الذي يصحبه وليحفظ المبادئ الثلاثة كما يحفظ حياته ، ولا يخطو خطوة دن رأي سيده الذي يجب أن يتبعه في المقاصد النبيلة ولا يكشف أمره ولا يبيح لأحد سره ولا يحيد قيد شعرة عمّا يأمره به المحفل في جميع الأحوال ، ومهما كان الأمر وحيثما ذهب» .[2]

هذه هي الطاعة العمياء التي لا يجوز أن تكون إلاَّ للخالق سبحانه وتعالى ، لا يرضون من الداخل في عبوديتهم إلاَّ أن يكون أداة طائعة لهم ويتفانى في خدمتهم بكل ما يستطيعه ، وهكذا جزاء كل من لم يرضى أن يكون عبداً للَّه تعالى فإنه سيكون عبداً لغيره ، وسيجد من المشقَّة والعَنَت ما هو أضعاف ما طلبه اللَّه منه لو قدَّم طاعته ورضاه على طاعة المخلوقين ورضاهم وقال : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» .

---

(١) انظر : «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ٤٠

(٢) انظر : «الماسونية» ، أحمد عطار ، ص ٢٣

الفصل الثاني عشر

الدرجات في الماسونية

أما بالنسبة للدرجات فقد كانت في بداية تأسيس الماسونية ثلاث درجات ، يفوز بها كل من قدَّم خدمات ضد البشرية ، وبالأخص ضد المسيحية وأتباعها .

وفي الدرجة الثالثة يكون لاداخل في غاية البغض والشدة على قاتلي «أحيرام» مدبِّر الماسونية الأول .

ولكن في عام ١٧١٧/١٧٤٤/١٨١٠م اخترع الماسون الجدد ورثة سر القوة الخفية «الماسونية» درجات أخرى أوصلوها إلى (٣٣) درجة ، ولكل صاحب درجة ألقاب فخمة غاية في التبجيل والإكرام لإشباع رغبة العميان في التعالي الفارغ ، مثل : (منبه أعظم ، كاتب سر أعظم ، خبير أعظم ، أخ مفخَّم ، قطب أعظم ، نبيل مبجَّل ، عظيم الاحترام ، كلي القدرة ... إلخ) وهي كما قال الشَّاعر :

ألْقَابٌ مُمَلَّكَةٌ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا * كالهِرِّ يَحْكي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأسَدِ**

ولكل درجة قَسَمٌ خاص بها ، واسم خاص بها ؛ مثل درجة الفارس القدوش للدرجة (٣٠) ، والفارس الأعلى للدرجة (٣١) ، ودرجة فارس الفرسان للدرجة (٣٢) ، ودرجة الأستاذ الأعظم للدرجة (٣٣) ، ومنها درجة «الرفيع» فهي أرفع كل الدرجات ولا يوجد أرفع منها إلاَّ درجة «الملك المنتظر» .

وقد ميَّزوا أصحاب كل درجة بلباس خاص لا يرتدونه إلاَّ في المناسبات الرسمية وأوسمة يزيِّنون بها صدورهم في تلك المناسبات ، ولتُعرف كذلك درجة كل عضو منهم .

وإذا وصل الداخل في الماسونية إلى الدرجة (٣٣) يبعد عنه الإنجيل والقرآن ثم عليه أن يجيب على الأسئلة بالجواب الآتي أيضاً :

س : على أي شيء أقسمت ؟

ج : على التوراة .

س : هل علمت بكتاب سواه ؟

ج : نعم هناك إنجيل وقرآن ، وهما لشرذمة خارجة عن الإيمان والبشرية آمنت بمحمد وبالمسيح العدوين اللَّدودَين لعقيدتنا .

س : هل تؤمن بهما ؟

ج : كلا أومن بالتوراة فقط الكتاب الصحيح الذي أنزل على موسى .

س : ما رأيك بالدينين الإسلامي والمسيحي ؟

ج : المسيحي أخذ تعاليمه من التوراة ، والإسلامي أخذ تعاليمه من التوراة والإنجيل .

س : هل الأصل أفضل أم الفرع ؟

ج : لا شك الأصل أفضل .

وفي الهيكل لهذه الدرجة تمثالان لـ «موسى» و «هارون» عليهما السلام ، ثم يُسأل الداخل :

س : من هذا ؟

ج : هذا موسى .

س : من هذا ؟

ج : هذا هارون .

س : هل تؤمن بسواهما ؟

ج : كلا .

س : إذن عليك أن تلعن سواهما وهما الذين جاءا بعد موسى .

ج : نعم ألعنهُما وأمقُتهُما وأكرِّر اللَّعَنات وأقَبِّل قَدمَيْ موسى وهارون .

س : من ربُّك ؟

ج : رب إسرائيل والمؤيد لإسرائيل .

ثم يقوم الطالب بتقبيل العهد القديم أربع مرّات ، ثم يرفع عصاب عينيه مع تلاوة المقطع الأول من سفر التكوين وينزل قبواً مظلماً حبواً على ركبتيه ليخرج حاملاً العهد القديم تالياً مقاطع معلومة من أسفار الأمثال والعدد وزكريا» [(١)] .

---

(١) انظر : «الماسونية» ص ٩٨ ، يعزوه لـ «حقيقة الماسونية» ، ص ٤٢ ـ ٤٥

الفصل الثالث عشر

الرموز الماسونية وأسرارها

للماسونية رموز كثيرة ، تكرِّس العمق اليهودي بطرق مختلفة كما اعترف بذلك كثير من أكابر اليهود ، ومن تلك الرموز :

- **المحفل الماسوني** : ويشيرون به إلى خيمة موسى عليه السلام في البرِّية التي ذكرت في التوراة - ضمن الكتاب المقدَّس .

- **النـور** : يقصدون به النور الذي تجلَّى لموسى عليه السلام فوق الجبل ، أو النور الذي كان يمشي أمامهم في مسير موسى عليه السلام وقومه إلى فلسطين حسب زعم التوراة أنه كان يمشي أمامهم في النهار دخان أسود وفي اللَّيل عمود نور يدلهم على الطريق لفلسطين .

وهذا النور ينقسم إلى ثلاثة أقسام ؛ الكتاب ، والزاوية ، والبرجل .

فالكتاب رمز لأحكام إيماننا ، والزاوية لتنظيم أعمالنا ، والبرجل لتحديد ارتباطنا مع الناس .

- **صورة الهيكل** : ويشيرون بها إلى هيكل سليمان عليه السلام بالقدس سواء سمُّوه هيكل سليمان أو هيكل الحكمة أو هيكل الإنسانية ، أو الكنيسة الكبرى فإنهم لا يقصدون إلاَّ هيكل القوة الخفية ، أي المكان الذي عقد المؤسسون الأول جلساتهم في إحدى أقبيته .[١]

---

(١) انظر : «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ٤٩

- **العشـــيرة** : أي الجمعيات الماسونية ، ويشيرون بها إلى عشائر بني إسرائيل المفصلة أسماؤهم في التوراة .

- **العقد الملوكي** : أو القوس الملكي ، وتمثله قلادة نُقش عليها أسماء أسباط بني إسرائيل ، وهو في حقيقته تذكار للمكان الذي كان المؤسسون الأوائل يعقدن فيه جلساتهم .

— ووردت أيضاً رموز تمثل أسماء بعض شخصيات بني إسرائيل ، مثل :

- **بوعـــز** : أي الأخ .

- **وجاكي** : أي الأستاذ .

وقد ذكر د. الزعبي أن بوعز فلاح مثالي وجاكي إسم يطلق على كاهن زعموا أن سليمان نقش اسميهما علي عمودين في هيكله ، وهو ما تفعله المحافل الماسونية من نقش هذين الاسمين في عمودين في كل محفل ، وقيل إن بوعز أحد أجداد سليمان ، وجاكي أو جيكين هو حفيد يعقوب من ولد شمعون .

- **يهوذا أو جاهوفا** : أي الأستاذ الأعظم .

كما أن نفس درجات الماسونية الملوكية تقابل أسماء أبطال السبي البابلي ؛ مثل : زور بابل ، نحميا ، عمذا ، يشوع .[1]

---

(١) انظر : «الماسونية تحت الأضواء» ، ص ٢٢

ـ **الزاوية ∆ والفرجار ∆** : يمثلان شعاران من شعارات الماسونية ، قال الأب يوسف شيخوا اليسوعي :

إن للبرجل معنى يا فتى * تصبح الأفكار فيها حائرة**

سوف ينشئ للورى دائرة * ويصير الكل ضمن الدائرة**

ـ **النجمة السداسية** : شعار رئيسي من شعارات الماسونية ، وهي تمثل نجمة داود التي تتكون من تقابل الزاوية والفرجار ووضع أحداهما على الأخرى .

ـ **السيوف المسلولة** : يفهمون الداخل أنها مسلولة للدفاع عن الداخل ما دام ماسونياً حقيقياً ، وهي للعقاب إذا خانهم .

ـ **الملعقة ، والميزان ، والشاقوف ، والنجوم ، والشمس ، والقمر** : والقصد من الرموز الفلكية هو الإيحاء بأن الماسونية قديمة بقدم هذه الأفلاك ، بزعمهم .

ـ **فارس السيف** : ويسمى فارس السيف ، فارس القلم ، فارس الشرق ، والصليب الوردي .

وفي هذه الدرجة يلقن فيها الداخل مقدمات السر الخفي ، ويصبح متخماً بالعداوة للنظام الملكي [١] .

ـ **فارس الهيكل** : فارس الهيكل أو فارس المعبد لا تعنيان إلا اليهود الذين حاولوا تجديد الهيكل بعد عودتهم من السبي .

---

(١) انظر : «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ٤٥

- **اللـون الأزرق** : في أي مكان يريدون به تخليد راية إسرائيل الزرقاء التي تحمل نجمة داود .

- **الطـرقـات** : سواء كانت ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، يُراد بها تذكار احتقار آلام المسيح .

- **قطع رأس من العظم أو الكاوتشوك** : ويرمزون بذلك إلى شجاعة داود حين خان عهد الفلسطينيين وغدر بهم ، وإلى شجاعة شمشون بطل إسرائيل الخرافي الذي قتل خمسة آلاف فلسطيني بعصاه التي يسوق بها البقر حسب زعمهم .

- **الحَيَّة النحاسية المثلثة الرأس** : يرمزون بها إلى هدم الرئاسة الدينية والمدنية والعسكرية لسائر الجوييم .

ومن أكاذيب التوراة أن هارون هو الذي صنعها ليعبدها بنو إسرائيل ، وتُسمى في التوراة «نحشتان» .

- **الشمعدان** : هو تذكار لشمعدان فقد من الهيكل يوم كارثة تيطس ، وهو شعار إسرائيل اليوم .

- **السلسلة** : هي سلسلة يرى في أحد جانبيها مفتاحاً تمثل رمز سخرية بطرس تلميذ المسيح ، وتشير إلى أن المفتاح الحقيقي ليس بيده بل بيد مؤسسي الماسونية وورثتهم .

ـ **السلم** : تذكار للمنام [1] الذي رآه إسرائيل حين شاهد نفسه يصارع الذي خلق العالم ويرغمه على انتزاع أرض كنعان وتسليمها لعبده يعقوب الذي أصبح اسمه من حينذاك «آسرائيل» أي آسر اللَّه [2] .

ـ **المطرقة والشاكوش والقدوم** : إشارة للذي شارف نهاية الدرجات أن يتخذها رمزاً لتهديم الإنسانية وبناء هيكل سليمان .

ـ **صور بعض الحيوانات** : كالثيران الذهبية ، والبجعة التي تشاهَد في درجة الصليب الوردي كأنها تسقي أفراخها من دمها ، وتعليق الذهب في أعناق رؤساء الشروق العظام تذكاراً لعجل الذهب الذي سبكه هارون [3] من أموال المصريين وحُليِّهم المسروقة وتقديس أيضاً للذهب لأنه رب أول .

ـ **المآزر** : زعم الوضَّاعون أن سليمان سار في جنازة حيرام يرتدي هو وجنوده القفاقيز ، وأن المازر تذكار لتلك القفاقيز [4] ، وهي مصنوعة من جلد الغنم ثم من جلد الخنزير لأن الخنزير مجده الورثة تحدِّياً للمسيح الذي وصف اليهود بأنهم خنازير ، أو لعله تذكار ببني إسرائيل

---

(١) الذي يظهر من الكتاب المقدس ـ التوراة ـ أنه كان صراعاً حقيقياً وليس مناماً كما ذكر د/ الزغبي .

(٢) وردت تسمية إسرائيل على أنها بمعنى «عبد اللَّه» ، وهنا فسرها الزغبي بأنها «آسر اللّه» .

(٣) لم يسبك هارون عليه السلام شيئاً ، ولعل الدكتور الزغبي ذكر هذا حسبما يعتقده اليهود .

(٤) أو لعله حسبما تشير إليه التوراة من لبس الإسرائيليين مآزرهم على أحقائهم في سرعة خروجهم مع موسى عليه السلام ليلة خروجهم من مصر .

حينما خرجوا من مصر هاربين من فرعون وقومه ، حيث شدُّوا مآزرهم على أحقائهم ، وأخذوا عصيَّهم في أيديهم وخرجوا هاربين كما في التوراة .

•• ملاحظات عن أسرار الماسونية :

والسر في الماسونية على شقين [١] :

الأول : الأسرار المشتملة على الرموز والاصطلاحات ووسائل التعارف وتفاسير سطحية ـ كما تقدم .

الثاني : الأسرار المشتملة على الأهداف البعيدة ، وكان الماسونيون في سنة ١٧١٧م قد عقدوا مؤتمراً في لندن تباحثوا فيه إسقاط بعض المصطلحات الغريبة والرموز القديمة وابتكار أسماء جديدة لها مع البقاء على نفس المنهج فابتكروا من الأسماء البرَّاقة : الحريَّة ، المساواة ، الإخاء ، التعاون ، الإنسانية ... إلخ .

وتغيير إسم الهيكل إلى محفل ، وتغيير اسم «القوة الخفية» إلى إسم «فرنما سونري» أي البنائين الأحرار بدلاً عن الإسم الذي اخترعه «أحيرام» ومن معه لتسمية الماسونية في بداية نشأتها بـ «القوة الخفية» .

والرموز الماسونية لها تفسيرات غاية في الاختلاف والتناقض يتصرف فيها دهاة الماسونية ويوحون بها إلى الابتدائيين والمتوسطين من الداخلين في

---

(١) انظر : «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ٢٩

الماسونية في الوقت الذي يظن كبار العميان أن هذه الحال هي لصالحهم وصالح العشيرة الماسونية .

وقد اخترع الماسونيون لغة خاصة بهم يتفاهمون بها فيما بينهم وحروفاً مختلفة عن الحروف التي يعرفها الناس ورموزاً مختلفة وعبارات خاصة بهم مملوءة بالغموض التام ، واخترعوا أرقاماً كثيرة يضاعفونها كما يشاءون ، وجعلوا لكل حرف رقماً يدل عليه ، وقد يستغنون عن كتابة الكلمة التي يريدونها بكتابة أرقام تدل عليها ، وأحياناً يستعملون بعض الأدوات يرمزون بها إلى مرادهم كالبيكار والمنجل والمطرقة ... إلخ ، ومهما تنوعت أفعالهم فإن المقصود بها كلها أن تصب في المورد اليهودي الآسن لتحقيق حلم قيام مملكة إسرائيل الكبرى .

الفصل الرابع عشر

كيف فُضح سر الماسونية

لا يتصور أحد من البشر أن يظهر سر الماسونية في يوم من الأيام ، اللَّهم إلا اليوم الذي يكمل فيه اليهود سيطرتهم على العالم وتدميرهم له ، وذلك بسبب شدة السريَّة التي أحيطت بها الماسونية .

ولكن اللَّه تعالى بقدرته هيأ من يفضح سرَّها بعد تسعة عشر قرناً من الزمان ، فكيف افتضح هذا السر المكنون ، وماذا حصل من الخوارق لينفتح هذا القفل العنيد الذي طالما استعصى على البشر طوال تسعة عشر قرناً ؟ والذي حطَّم المقولة المشهورة «كل سر جاوز الاثنين شاع» ؟ والجواب ينبني على ما عرفته أخي القارئ من أن زعماء القوة الخفية التي تكونت من أحيرام أبيود و «مؤاب لافي» و «الملك هيرودس» والستة الآخرين الذين دعوا إلى الاجتماع لتأسيس هذه القوة الخفية كان من أهم تعاليمهم إسدال السرية الكثيفة على كل أعمال وأفكار هذه القوة الناشئة - القوة الخفية - وأن لا يخرج السر عن هؤلاء التسعة إلا عن طريق الوراثة بحيث يوصي كل واحد منهم إلى الأرشد من عصبته عندما يحس بدنو أجله وظل الأمر على ذلك إلى أن توفِّي أحد الورثة «ناتان لافي» عام ١٨١٠م ، وارث نسخة المؤسس الأول «مؤاب لافي» ، ولم يكن له وارث غير ابنته «استير» التي سلَّمت هي الأخرى السر إلى زوجها «لوران» ، ثم ولده «جوناس» ، فتزوج جوناس من فتاة مسيحية تُسمَّى «جانيت» ، فحاول

ورثة السر استلام النسخة ، ولكنه قُتل مدافعاً عنها ، فأصبحت النسخة بعد موته بيد زوجته «جانيت» ، وحينما اطلعت على ما في هذه النسخة هالها الأمر ، وأخذ منها كل مأخذ ، وعرفت ما ذا يبيته اليهود لجميع العالم من خراب وتدمير ، فأخذت تربي ولدها صموئيل تربية مسيحية وتحضه على نشر تلك الخطط الجهنمية ، ثم توفيت «جانيت» مؤكدة على ولدها «صمويل» نشر السر ، ثم اخترمت المنية «صمويل» ، فورث النسخة والعزيمة ولده «لوران الثاني» ، فتعرف «لوران» على رئيس جمهورية البرازيل ، وكاتم سره إذ ذاك السيد «عوض الخوري» البيروتي ، وما إن عرف الرئيس شيئاً عن السر حتى قدم «عوضاً» لـ «لوران» وحضهما عام ١٨٩٧م على ترجمة السر ونشره بما يستطيعان من لغات ، ولكن حالت الأحداث العالمية دون نشر السر وإخراجه حتى عام ١٩٢٩م ، فأخرجه السيد «عوض الخوري» كتاباً عربياً مؤلفاً من أربعة عشر وثلاثمائة صفحة ، هو المرجع الوحيد الذي يكشف فضيحة السر الماسوني ، إلاَّ أن السؤال المحيِّر هو : أين يوجد هذا الكتاب ، ومن هو وراء خفائه عن تداوله بين الناس ؟ ومما لا ريب فيه أن أيدي اليهود وراء كل ذلك .

الفصل الخامس عشر

فِرَق الماسونية

انقسمت الماسونية إلى فرق ودرجات منظمة بإتقان ، يتدرج العضو فيها إلى أن يصل إلى أعلى درجاتها المقيتة يضمنون من خلالها استعباد العضو الداخل في مسالكها المظلمة استبعاداً تاماً ، وزيادة في إيغالها في السرية والانتشار انقسم الماسون إلى فرق :

الفرقة الأولى :

الماسونية الرمزية ، ويقال لها العامة ، ودرجاتها ٣٣ درجة ، والذي يحوز على الدرجة ٣٣ يسمى «الأستاذ الأعظم» ، والذي يبدأ بالدخول فيها يسمى «الأخ» ، وهي الدرجة الأولى ، درجة التلميذ ، أو «بوعز» بالعبرية ، ثم يستمر في الدرجات وألقابها التي سيأتي ذكرها إلى نهاية الدرجة ٣٣

وسبب تسميتها بالرمزية ، لاستخدام الرموز في جميع طقوسها ، وسبب تسميتها بالعامَّة ، لأنه يقبل الشخص فيها على اختلاف وطنه ودينه ، فهي عامة لجميع من أراد الدخول فيها سواء أكان يهودياً أو من الذي يسمونهم العميان ـ غير اليهود

الفرقة الثانية :

الماسونية الملوكية ، أو العهد الملوكي ، وهذه الرتبة مخصصة للحاصلين على درجة ٣٣ الرمزية ، ويُقال أنها خاصة باليهود ، وتكون لمن أدى خدمات واضحة لليهود ، ويُلقَّب العضو فيها بـ «الرفيق» ، وهو نفس الشعار الشيوعي لزعمائهم ، وهذه الدرجة يمنحها ثلاثة رؤساء يرمز لهم بـ «ز ، ي ، ح» أي «زوربابل» ، «يشوع» ، «حجي» ، ويُدعى أولهم «الحليم الأعظم» ، ولا يصل إليها من غير اليهود إلاَّ من قد باع دينه وقومه ووطنه لليهود ، بحيث ينصب هدفه كله على إعادة هيكل سليمان وإقامة المملكة اليهودية العالمية .

الفرقة الثالثة :

الماسونية الكونية ، وأصحاب هذه الماسونية هم رؤساء المحافل الماسونية الملوكية ، وهذه الماسونية غاية في السرية حتى إنهم لا يعرف لهم مكان ، ولا مقر ، ولا يعرف نظام طقوسهم ، وهم الذين يتولون أمر كل المحافل الماسونية في العالم ، وأعضاؤها كلهم من اليهود الخُلَّص ، وهم العقل المدبِّر للمحافل الماسونية الأخرى ، ولكل ما يجري من التدابير الماسونية .

الفصل السادس عشر

مراحل ظهور الماسونية

قسَّم الدكتور محمد علي الزعبي فروع الماسونية حسب استقرائه لحوادث التاريخ اليهودي إلى ثلاث مراحل :

- **قبل المسيح .**
- **بعد المسيح وقبل الإسلام .**
- **بعد الإسلام .**

أما قبل المسيح ، فإن الجمعيات الهدامة تمثلت في جمعية تسمى «جمعية نوح» ، وهي جمعية زعم وضَّاعوا اليهود فيها أن اللَّه أعطى نبيَّه نوحاً عليه السلام الإسم الأعظم ، وجعلوا لحامله من الصلاحيات والخوارق ما لا يمكن تصور حصوله لأي بشر ، وهو كذب صراح وافتراء يهودي ، ثم زعموا أن هذا الإسم تسلسل بالوراثة إلى سليمان ، ومنه ورثه أعضاء جمعية نوح .

وأما بعد المسيح وقبل الإسلام ، فإن أشهر الجمعيات الهدامة هي «القوة الخفية» الماسونية التي استمرت منذ ذلك الزمن إلى وقتنا الحاضر تحت الأسماء التي عرفتها فيما سبق .

وأما بعد الإسلام ، فقد اتخذت الماسونية أشكالاً عديدة من الأسماء والشعارات والاتجاهات المختلفة والآراء المتشعبة ، كان أبرز فرقها «القرامطة»

و «الديصانية» أتباع جمعية «ميمون بن ديصان» اليهودي ، وهؤلاء هم طوائف الشرق ، بل إن الباطنية بجيمع فروعها نبتة ماسونية ، إلاَّ أن الرمز الباطني هو أن النصوص كلها لها ظاهر غير مراد ، وباطن هو المراد ، وهم يتفقون في هذا المعتقد مع المعتقد العام لليهود في التوراة حين زعموا بأن لها ظاهر معروف وباطن لا يعرفه إلاَّ كبار الكهنة .

أما في الغرب فقد نشطت الحركات الماسونية نشاطاً كبيراً ، وأقيمت المحافل المختلفة وتعددت أسماؤها كذلك .

وقد ركز الزعبي في أكثر من مكان من كتابه «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» على أن الطائفة البروتستانتية ومن جاء بعدها من الفرق ؛ مثل «شهود يهوه» و «قديسي الأيام الأخيرة» هم يهود الاتجاه والمعتقد ، وأن تأسيسهم إنما كان بأيد يهودية للكيد للنصرانية ، وقد أصبح ولاءهم للماسونية اليهودية مكشوفاً .

ويجزم مؤلفا كتاب «الماسونية» أن حركة «مارتن لوثر» الذي انشق عن الكنيسة الكاثوليكية وأسس المذهب البروتستانتي كان بسبب دخول مارتن في الماسونية ، بدليل : أن الكنيسة كانت تحرم على أتباعها قراءة التوراة وما ألحق بها من أسفار عبر القرون ، فلما جاء لوثر أعاد للعهد القديم اعتباره عند المسيحيين ، وأصبح لا يذكر ولا يطبع إلاَّ مقروناً بالعهد الجديد ـ أي الإنجيل ـ مما أدَّى إلى انتشاره ودخوله كل بيت وكنيسة ، وكان لهذا العمل آثاره الضارة على النصارى ، واستخذائهم أمام اليهود فيما بعد ، فقد انتصرت

الماسونية في النهاية على الكنيسة ومزَّقتها وهاجمتها علناً دون أن ترد الكنيسة بشيء يذكر .

ولقد تغلغلت الماسونية داخل أوساط الكنيسة ، وتآمرت على كل شيء يقف ضد اليهود ، وتوالت الصفعات والصيحات على البابوات من المسيحيين وأسكتوهم نهائياً .

بل وصل الأمر إلى ما هو أخطر وقعاً وأشد أثراً ألا وهو وصول بعض اليهود إلى اعتلاء العرش البابوي المسيحي في غفلة تامة من المسيحيين مثل البابا «بيوس الحادي عشر» اليهودي الأصل ، الذي أصبح الحبر الأعظم لسبعمائة مليون مسيحي كاثوليكي ، وكان يحب اليهود ويدافع عنهم ويبطل كل قرار حكومي يصدر ضدهم في روما .

وقد أوصى بعرش البابوية إلى الكاردينال «باسلي» لأنه من أنصار اليهود ، وقد تم ذلك وصار يُسمَّى «قداسة البابا بيوس الثاني عشر» ، وكذا البابا «بولس السادس» الذي خطى خطوات خطيرة جداً ، فقد تم إعلان تبرئة اليهود من دم المسيح ، كما تم إعطاء قرار للكهنة بشمول صلاحيتهم لإلغاء كل قرار كنسي سابق له يتضمن حرمان المسيحي الماسوني .

وهذا يعطي رداً فعلياً أن البابوات كلهم على امتداد تاريخهم ، وكذا الأناجيل ، كانوا كاذبين في أن اليهود هم الذين قتلوا المسيح ، ولم يكن أمام المسيحيين إلاَّ التسليم والرضى بشرعية دخول أي مسيحي في الحركة الماسونية .[١]

(١) بتصرف عن «الماسونية» ، ص ١١٤ ـ ١١٩

الفصل السابع عشر

وسائل انتشار الماسونية

للماسونية الهدامة وسائل كثيرة خدَّاعة لها بريق في ظاهرها يستجلب أصحاب الأهواء والمطامع الدنيوية بما تحمله من شعارات الإخاء ، والحرية ، والمساواة ، وإقامة العدل ، والتعايش بسلام ، والالتفاف التام حول توفير الغذاء وبقية حاجات البشر بعيدين عن النزاعات والحروب المدمرة ... ومغريات أخرى كثيرة تستهوي الداخل مثل إطلاق الألقاب الفخمة على العضو ، والإغراء بالمال وبالوظائف وبالنساء ، وبالحصول على الآمار العراض التي يمنون بها الداخل في حركتهم الشيطانية .

ومن أهم وسائل انتشارها :-

١ ـ ضعف الوازع الديني عند بعض من ينتسب إلى الإسلام ، فكثير من المسلمين يجهلون دينهم ، وأما غير المسلمين فحدِّث ولا حرج إذ كلهم لا دين لهم ، فوجدت الماسونية الجو صالحاً لانتشارها .

٢ ـ كذلك من الوسائل أيضاً جهل كثير ممن دخلوها بحقيقة ما تبيته الماسونية للبشرية من خراب ودمار وإقامة الحكومة اليهودية العالمية على أنقاض خراب البشرية تحت تأثير دعايات جذابة مثل الإخاء والحرية والمساواة والتكافل وترك الحروب ... إلخ .

٣ ـ ما كانت تنادي به من إسقاط الحكومات القائمة كلها تحت مبررات ودعايات كاذبة من أن الحكام جائرين وغير صالحين للحكم ، وتهم كثيرة لفّقوها ضدهم حتى تم لهم ذلك بإسقاط الخلافة العثمانية عن طريق يهود سلانيك الماسونيين وعلى رأسهم «جمال باشا» و «أنور باشا» و «مصطفى أتاتورك» حيث انتقم اليهود الماسون من السلطان «عبد الحميد» رحمه اللّه تعالى لرفضه إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وكذلك إسقاطهم الحكومة الإنجليزية عام ١٩١٥م .

٤ ـ محاربة الأخلاق عن طريق إشاعة الفواحش الجنسية عن طريق النساء والخمور والحفلات الماجنة ونشر الإلحاد في كافة مستويات التعليم والثقافة .

٥ ـ كان للمرأة دور واضح في الدعاية الماجنة للانحلال من الدين والفضيلة .

قال «بوكاسا» الماسوني : «تأكدوا تماماً أننا لسنا منتصرين على الدين إلاَّ يوم تشاركنا المرأة فتمشي في صفوفنا» .

وقال أصحاب مؤتمر بولونيا : «يجب علينا أن نكسب المرأة فأي يوم تمد إلينا يدها نفوز بالمرام ونبدد جيوش المنتصرين للدين» .

وقال «دورفويل» أحد شيوخ الماسون : «ليس الزنا بإثم في الشريعة الطبيعية ولو بقي البشر على سذاجة طبيعتهم لكانت النساء مشتركات» .

وقال «براغون» في كتابه رسوم إدخال النساء في الماسونية : «الفضيلة المطلقة مرذولة عند الماسونيين والمسونيات لأنها ضد اتجاه الطبيعة» .

وجاء في نشرة سرية ماسونية : «ليس من بأس بأن نضحي بالفتيات في سبيل الوطن القومي ، وماذا عسى أن نفعل مع قوم يؤثرون البنات ويتهافتون عليهن وينقادون لهن» .

ويجب أن تفهم أخي القارئ أن الماسونية لا تبيح أن تصل المرأة إلى أن تكون عضواً في المحافل ، فقد جاء في معجم الماسونية والماسونيين قوله : «وحتى يومنا هذا فإن المرأة في فرنسا لم تحصل على المساواة بالرجل في الماسونية» وعلل ذلك بأن المرأة في تكوينها لا تصلح أن تفوز بعضوية المحفل ، ولعل ما يظهرونه من الاحتفاء بها إنما هو لتكون قريبة للمتمتعين بها لا أن تكون عضواً أو ربما يكون منعها من العضوية إنما هو في بعض المحافل دون بعض .

وقد اتسمت محاربتهم للأخلاق في عدة إتجاهات منها : الدعوة إلى الانغماس في الرذيلة وقضاء الرغبات الجنسية وتهوين أمر الأخلاق والعفة والاستهزاء بها وبسائر الفضائل والسخرية منها ومن سائر الأديان والدعوات الأخلاقية والسخرية أيضاً من الروابط الزوجية والأسرة ، والترغيب في تحديد النسل وعدم الحمل وإشاعة الجنس كان متمثلاً في الأفلام الفاجرة والمجلات الخليعة

٦ ـ ومن وسائل انتشار الماسونية أن القائمين عليها من دهاة اليهود قد

أوصوا أتباعهم وكبار دعاتهم أن ينسبوا قيام الماسونية إلى ما تميل إليه قلوب المدعوين ، فمثلاً إذا كان الشخص مصرياً زعم له أن الماسونية من تأسيس قدماء المصريين الفراعنة ، وعنهم أخذها موسى ثم هارون ، ثم تسلسلت في اللاويين إلى داود ثم إلى سليمان .

وإذا كان المدعو مجوسياً زعم أنها من وضع أقطاب المجوسية وعلى رأسهم «زرادشت» .

وأن كان رومياً زعم أنها من تأسيس بناة الحضارة الرومية وأن «غورفروابوبون» هو الذي أسسها بفلسطين ليضمن بها التعارف بين المسيحيين .

وإن كان المدعو من أتباع الحركة اللوثرية زعم أنها من نتاج عقل «كوزالييه» .

وإن كان من المسلمين زعم أنها مأخوذة عن القرآن الكريم ، أو من المسيحيين زعم أنها مأخوذة عن الإنجيل ، أو البوذيين أو البراهمة زعم أنها مأخوذة عن والفيندا والزندافستا والأمايانا .

وإن كان الداعية أمام مجلس مختلط زعم أنها دين عالمي ، وهكذا يتسلل الدعاة الماسون إلى قلوب الناس وأفكارهم [1] ، وهم فيما بينهم يرون أن هذا السلوك من الأسرار التي امتازت بها الماسونية

---

(١) وهذا هو سلوك الفرق الباطنية كلها .

٧ ـ ومن الوسائل التي تسلكها الماسونية استخدام العروش وذلك حسبما يذكر د. الزغبي أن الماسونيين يحاولون الوصول إلى الملوك وإدخالهم في حبائلهم بحيث يستهويهم وسائل استخدامها والتوكؤ على عميانها ـ من غير اليهود ـ لتنفيذ مصالحهم ، وبالتالي يحيطون الداخل منهم بهالة من التعظيم حتى يخرج عن صوابه فتغريه بمساوئ الأخلاق والخيانة العظمى في الوقت الذي يبذلون فيه كل المحاولات لتسجيل ما يقع فيه من أخطاء وفضائح لتكون بمثابة تهديد له بفضحه ونشر مساوئه إن لم يسر في تنفيذ كل مخططاتهم ، فإذا كان صاحب العرش ذكياً حذراً لم يقع في حبائلهم فإنهم يسلكون تجاهه طرقاً عديدة من المؤامرات لتقويض سلطته بواسطة جواسيسهم وعميانهم الكبار والصغار . أما صاحب العرش الذي يمشي معهم كيفما أرادوا فإنهم يحيطونه بهالة من الدعايات الرنَّانة بواسطة عميانهم ، ويمكن تصور بغض اليهود الشديد لكل صاحب عرش غير يهودي أو من غير دينهم في تعبيرهم عن ذلك بهذه الوصية : «اشنقوا آخر ملك بمصران آخر كاهن» .

٨ ـ ومن الوسائل أيضاً إقامة الأنظمة الجمهوية وتعدد الأحزاب القائمة على الانتخابات التي يحتاج كل مرشح فيها إلى الأصوات المؤيدة ، وهنا يتسنى للماسونية اليهودية مساعدة من تريد ، وقد تساعد الأحزاب المتعارضة المتطاحنة على حد سواء لتستصفي الناجح ، ولا يمكن ذلك إلا بعد بيع الشخص دينه وضميره ومروءته لأقطاب الحكومة الخفية للماسونية .

ومن هنا نجد ذلك النشاط المحموم للمناداة بفصل الدين عن الدولة ليسهل عليهم تقطيع أوصال الدولة كيفما يريدون .

عقد مؤتمر ماسوني كبير عام ١٨٨٩م في ذكرى الثورة الفرنسية جاء فيه : «إن هدف الماسونية هو تكوين حكومات لا تؤمن بالله» .[١]

وقرر مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠م : «إن هدف الماسونية هو تكوين جمهوية لا دينية عالمية» .[٢]

وقد كانوا في البداية يتظاهرون بالعبارة : «الدين لله والوطن للجميع» ، وقد وجدوا أن العلمانية هي خير من يمكن الاستعانة بها على ذلك .

٩ ـ ومن الوسائل الأخرى لانتشارها دقة التنظيم وتكاتفهم مع بعضهم بعضاً ، وهو ما يتمثل في الأخوة التي ارتبطوا بها والوصايا الأخرى في نفع بعضهم بعضاً ولو أدى ذلك إلى الكذب وشهادة الزور وظلم الآخرين ، فكل شيء جائز في شرع الماسونية وبينهم علامات يتعارفون بها ، وكل واحد يعضد الآخر ويقف إلى جانبه بكل استطاعته ، وقد سمع كل عضو عند دخوله هذا الكلام «هذه السيوف الموجهة إلى صدرك ووجهك هي للدفاع عنك عند الحاجة» ، ومن هنا يشعرون بنوع من القوة والتآزر والتعالي أيضاً مع مختلف المديح الذي يكيله لهم رؤساء المحافل من أنهم عظماء وعباقرة وأناس متميزون ... إلى

---

(١) انظر : «الماسونية» ص ٧٦

(٢) نفس المصدر السابق .

آخر أكاذيبهم ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [(١)] .

١٠ ـ ومن وسائل الماسونية التي قد لا يتصورها الشخص استخدام الأمم المتحدة في تنفيذ مآرب اليهودية الماسونية ، وقد تم ذلك حينما قررت الأمم المتحدة انتداب بريطانيا لحكم فلسطين ولعبة تقسيمها في البداية بين العرب واليهود ، ثم إدالة كفة اليهود في الصراع لتبقى فلسطين لإسرائيل كاملة ، ولعل معرفة هذه الدسائس الماكرة تلقى بكثير من ظلال الشكوك على ما يتم بين القوة الفلسطينية والزعامات اليهودية حول التسوية التي طال الكلام عنها حتى أصبح سماعها من الأمور التي تبعث الغثيان والاشمئزاز لدى كل قلب لتفاهتها ، وإن الأمم المتحدة لا زالت تحت سيطرة الماسونية هي ورؤساء الدول الكبرى ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

١١ ـ ومن وسائل انتشار الماسونية حيلهم لإدراج بعض أسماء المشاهير ضمن جمعياتهم بحيث يتوددون إليه لأن يسمح لهم فقط بتسجيل اسمه ضمن قائمة أسماء رجال المحافل ، فإذا قبل مجاملة لهم فرحوا وأشاعوا وأداعوا بأن البطل فلان أو البحاثة فلان هو من أبناء المحافل الماسونية ، فيتخذون ذلك ذريعة لإغواء من لم يعرف الحقيقة والخدع الماسونية .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٢

١٢ ـ ومن وسائل انتشارها مناداتهم بالشعارات البرّاقة التي تجذب السامع إليها ، مثل دعوة تحقيق الحرية والإخاء والمساواة ، بحيث يتصور الجاهل أنهم يريدون من ورائها تحقيق مصالح الناس وإنقاذهم من العبودية وإشاعة الأخوة والمحبة بين أفراد كل المجتمعات وإشاعة المساواة العادلة بين الجميع ليعيش الكل في أمن وسعادة ، هكذا ظاهر تلك الشعارات .

لكن حقيقتها خلاف ذلك تماماً ، فهي أشبه ما تكون بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

أما الحرية : فحقيقتها عند الماسونيين طاعة وتنفيذ أوامر المحافل بدقة ، والعبودية لهم وتصور أن كل ما يخالف ذلك عبودية ممقوتة يجب التحرر منها ، وقد استفاد منها اليهود في حربهم للأديان غير اليهودية ، كذلك حرية الانفلات من كل قيود الدين والحياء والحشمة والأخلاق .

وأما المساواة : فهي كذبة بشهادة قوانين الماسونية ودرجاتها ورموزها وملابسها المختلفة حسب الدرجات ، بل والأقسام التي تختلف أيضاً حسب الدرجات ، أين المساواة في مذهب يفرِّق بين الناس حسب ألوانهم التي خلقها اللّه لهم مختلفة حكمة منه تعالى ، فقد جاء في دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٤م تحت كلمة ماسونية : «إن المحافل الأمريكية تأبى قبول شرعية عضوية السود في الماسونية» (١) .

---

(١) انظر : «الماسونية» ، ص ٧٨

وأما الإخاء : فليس له مكان إلا بين الماسونيين أنفسهم يتعارفون به ، أما الأخوة بمعناها المعروف عند البشر فلا مكان لها في الماسونية ، بل يقابلها العداء الشديد للجوييم قاتلي أحيرام ومغتصبي ملك إسرائيل التليد ؟!!! وكيف يتم الإخاء بين الماسوني وبين غيره ، وقد أقسم الماسوني أنه يقطع صلته بكل المجتمعات من قريب أو بعيد كما في قسمهم المعروف ، وقد استفاد اليهود من المناداة بهذا الشعار للحد من كراهية الناس لهم والتغلغل إلى أي مكان يريدونه ومخاطبة كل مجتمع يطرقونه .

١٣ ـ ومن وسائل انتشارها : القوة والنفوذ ودخول رجالها إلى مراكز الحكم وصنع القرارات التي مكنتهم من الانتشار والعلو في الأرض دون منازع أو رادع فعال ، ومن أشهر هؤلاء «شاؤل» الذي حوَّل النصرانية إلى وثنية ممسوخة فكثرت المحافل الماسونية وانتشرت في شتى بقاع العالم .

١٤ ـ ومن وسائلهم الاهتمام بالشباب واستدراجهم إلى صفوفهم بمختلف المغريات مما كان له الأثر البارز في انتشارها بينهم عن طريق المال والوظائف والجنس والفن ـ كما يسمونه ـ والرياضات وغيرها من وسائل الترفيه ، ثم حشر من يتمكن منهم في الدخول إلى الأحزاب السياسية والانغماس فيها .

وعلى كل حال فقد انتشرت الماسونية وعمَّ شرها وأخذت في طريقها ضحايا كثيرين .

وقد اتضح مما سبق أن ضحايا الماسونية لم يكونوا على درجة واحدة في الثقافة أو التدين ، فدخل بعضهم وخرج منها فور علمه بكفرها وأهدافها الشريرة ، ودخل بعضهم ولم يتمكَّن من الخروج منها ، ومن العلماء الذين دخلوها بحجة الاطلاع على ما فيها عن كتب «الشيخ محمد أبي زهرة» - رحمه اللَّه - ولكنه تركها فور علمه بكفرها ، ومن الذين بقوا فيها «الشيخ جمال الدين الأفغاني»[1] فيما يذكره من كتب عنه .

وتحت عنوان «الجنود المجهولون» يذكر د/ محمد علي الزغبي في كتابه «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، وهو من الذين منَّ اللَّه عليهم بالخروج من الماسونية : «إن هناك رجالاً دخلوا الماسونية وسبروا غورها وعرفوا خبثها ودهاء زعمائها ، فعاملوهم بنفس الأسلوب من الدهاء والمكر ، فعرفوها وعرَّفوها إخوانهم المسلمين خدمة للدين ونُصحاً للأمة» ثم ذكر أن تقسيم الماسونيين للداخل فيها إلى عميان صغار وعميان كبار إن هي إلا خدعة ماكرة .[2]

وبعد أن قويت الماسونية بانضمام أفراد كان لهم ذكاء خارق وقوة حادة على التخطيط في أمريكا وأوربا ، قرر أولئك الماسون أن تكون الماسونية مؤسسة عالمية تقبل كل الأفكار وخصوصاً الإلحاد ومحاربة الأديان والدعوة إلى أن يعيش العالم بسلام ، وأن يكون الاهتمام كله وشعارهم التعايش السلمي ورفاهية الشعوب ونبذ الحروب بكل أشكالها ... إلى آخر خدعهم .

---

(١) انظر : «الماسونية تحت الأضواء» ، ص ١٨

(٢) انظر : ص ١٢

وهذه النداءات كانوا يوجهونها في الوقت الذي خططوا فيه لإشعال فتن الحروب في كل مكان ، وخصوصاً بين الدول الكبيرة إلى أن استطاعوا أن يقيموا الحرب الضروس العالمية الأولى .

وبتكليف منهم أمروا «كارل ماركس» بوضع خطته الشيوعية للقضاء على كل الديانات والأخلاق الأممية ، وساعده في ذلك صديقه «إنجلز» ، وفي نفس الوقت فكر أولئك الأشرار بوضع خطة معاكسة لنظرية ماركس مفادها أن العرق الآري هو أفضل الأعراق وباستطاعته أن يكون سيد العالم كله ، ومنه ظهرت فلسفة الحزب النازي ، وهي خطة مدبرة لضرب العالم بعضه بالبعض الآخر لإضعاف الكل ، ومما يجدر بالذكر أن اليهود لم يكونوا هم العقل المدبر لكل أحداث العالم ، فهم أقل من ذلك ، ولكنهم يستطيعون استغلال الأحداث وتوجيهها الوجهة التي يريدونها ، بل إنهم يقطفون ثمار كل فتنة تقوم في العالم .

الفصل الثامن عشر

أماكن انتشار الماسونية

لقد انتشرت الحركة الماسونية سراً وجهراً في عقول كثير من الناس يهوداً وعمياناً ، كما انتشرت في بلدان كثيرة بعضها عرف وبعضها لم يعرف ، بل لقد أصبح الماسون هم أباطرة العالم ، ولكن من وراء ستار ، قد يكون رقيقاً عند البعض ـ وهم قلة ـ وقد يكون كثيفاً عند البعض الآخر ـ وهم كُثر .

ولقد تحدَّث المطلِّعون على أوكار الماسونية ومحافلها الشريرة وحذَّروا منها تبرءة لذممهم ، ووفاءً بما عاهدوا اللَّه عليه من بيان الحق والحث عليه وبيان الباطل والتحذير منه .

أما أماكن انتشار الماسونية من بلدان العالم فهو كما يلي :-

●● فلسطين :

وقد تضافرت جهود الذين وضعوا التوراة والماسون الذين جاءوا بعد ذلك على التركيز على أن فلسطين هي أرض الميعاد ، وأن على كل يهودي أن يكون نصب عينيه إعادة بناء هيكل سليمان بالقدس .

ولا يزال اليهود إلى اليوم يتمسكون بالقدس وأنها عاصمتهم الأبدية وأنه لا تفريط فيها مهما كان الأمر ، بل ولا يجوز أن تشملها المفاوضات الهزيلة المضحكة المبكية لا مع ياسر عرفات ولا مع غيره من العرب .

وفي التوراة وفي التلمود عشرات النصوص التي تؤكد أن القدس يهودية بزعمهم ـ كما سبق في دراستنا لذلك في مادة الأديان ، ومن النصوص الماسونية ـ وهي كثيرة :

قال «دوزي» في تعريفه للماسونية : «إنها جمهور كبير من مذاهب مختلفة يعملون لغاية واحدة هي إعادة بناء الهيكل إذ هو رمز دولة إسرائيل» .

وعند افتتاح جلسات المحافل الشرقية يقرأون ما يلي :

«نؤمن بإله واحد ، رب موسى وهارون ، مُنزل التوراة ، خالق الشعب المفضل المختار ، خالق الشعوب الأخرى لخدمة المفضل الجليل ، وطننا فلسطين ، الدم الذي يجري في عروقنا دم إسرائيل ، عقيدتنا خلافة اللّه على الأرض ، بارك جلستنا هذه يا رب إسرائيل ، يار رب موسى وهارون»[1] .

وقد أدخل دعاة ماكري الماسونية التصميم على امتلاك فلسطين والقسم على إعادة بناء هيكل سليمان في كل مناسباتهم وفي أقسام الدرجات المختلفة مما يطول إيراده هنا .

وقد اكتشفت عدة محافل للماسونية في مصر وفي الأردن على مستويات الجماعة والأفراد وتبينوا ما فيها من الدعوات الحثيثة لامتلاك فلسطين وبيت المقدس وإقامة الهيكل وتدمير العالم ودياناته تدميراً كاملاً ، وصدرت تقارير وتحذيرات كثيرة من الوقوع في هذه الأخطار المحدقة .

(١) انظر : «الماسونية» ، ص ١٢٧ ، ١٢٨

فرنسا :

كانت الماسونية تشتعل حماساً وحنقاً على فرنسا المسيحية فبدؤا يخططون لضربها بفتن داخلية عارمة تتوجت أخيراً بقيام فتنة الثورة الفرنسية الشهيرة التي أنتجت كل الشرور والثورات المتلاحقة على الدين المسيحي وعلى الأخلاق وعلى كل المجتمعات وقيام العلمانية والآراء الفكرية المتصارعة .

ولهذا كانت فرنسا سبَّاقة إلى كل الحركات الفكرية الضالة التي نشأت في أوربا .

بريطانيا :

لقد نشطت الماسونية في بريطانيا نشاطاً قوياً جداً ، وكانت المرتع الخصب لتكاثر الماسونيين في لندن ، فقد وصل أحد أعضاء الماسونية إلى عضوية مجلس العموم عام ١٣٧٦هـ ، وأنشئ أول محفل علني فيها كذلك عام ١٧١٧م ، وكان الملك «چورچ الأول» زعيم الماسونية فيها ، ولايزال أمر الماسونية في بريطانيا قوياً إلى الوقت الحاضر ، وتمكَّن اليهود من الحكم المباشر في بريطانيا تحت عدَّة أقنعة ، ولم يأت وعد «بلفور» إلاَّ لتشبُّعه بالماسونية وإصراره على إظهار خدمته لليهودية العالمية حسب ما عاهدهم عليه عند دخوله فيها .

●● روســيا :

إتجهت الماسونية إلى افتراس روسيا وإلقائها تحت مخالب اليهود ، فاصطنعوا «كارل ماركس» اليهودي الماسوني لاختراع مذهبه الإلحادي الشيوعي بتكليف من دهاة الماسونية لإسقاط الحكم القيصري ومعه كل الديانات في روسيا ، وبدأ التآمر الماسوني على الحكم القيصري ، وتوالت الدعوات إلى الثورة والتمرُّد والاحتجاجات العلنية ، وحبك المؤامرات تلو المؤامرات ، فقامت الثورات حسب المخطط الماسوني الحاقد ، وسفكت من الدماء ما لا يعلم قدره إلاَّ اللَّه على يدي «لينين» و «تروتسكي» وغيرهما ، وقامت بعد ذلك الصداقات القوية بين إسرائيل وزعماء الماسونية الجدد في روسيا ، ولا تزال على ذلك رغم ما يتظاهر به حكامهم الشيوعيون من صداقة للعرب حينما وجدوا لهم آذاناً صاغية من المغفلين منهم أمثال «جمال عبد الناصر» في وقته ، وغيره ممن وقع في حبائلهم .

●● أمريكا :

لقد كان المجتمع الأمريكي قابلاً لكل أدواء العالم ، وكان التسابق إلى اقتناصه على أشده ، وكان للماسونية نصيب الأسد من عقول الأمريكيين ، مثقفين وغير مثقفين ، حكاماً ومحكومين ، وكان للماسوني الأمريكي «وايزهاوبت» نشاطه العارم في تقوية الماسونية ، فعقد المؤتمرات ، وأعدَّ الخطط والتعليمات لتحطيم كل ما ليس بيهودي .

وقد أسس محفلاً ماسونياً باسم «محفل الشرق الأكبر» وسمى الداخلين فيه بـ «النوارنيين» أي حملة النور ، وأصبح له الحكم والصدارة على جميع المحافل العالمية ، ثم خلفه «مازيني» الإيطالي ، و «جيفرسون» ، و «بايك» وغيرهم من أقطاب الماسونية الكبار الذين كان عليهم وزر تقوية الماسونية في أمريكا وفي العالم كله .[١]

وقد تضافرت المصادر أن كثيراً من رؤساء أمريكا وكثيراً من زعماء العرب واقعون تحت تأثير الماسونية وأنهم يقومون برعايتها والاحتفاء بها ومباركة أنديتها وأن بعض زعماء العرب هم في الدرجة ٣٣ في الماسونية .

وقد قويت الماسونية ونواديها في عهد رئيس أمريكا السابق «ريجان» وفي عهد «جورج بوش»[٢] ما لم تقواه في أي وقت مضى واليوم خلفه ابنه بوش الابن ويظهر أنه على نفس الخط وقد أظهر عداءه للإسلام والمسلمين في أكثر من مناسبة وقد توَّج غزوه للعالم الإسلامي باحتلال العراق يوم الأربعاء ١٤٢٤/٢/٤هـ ، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ باللَّه تعالى .

●● مصــر :

لقد كانت عيون الماسونية شديد التركيز على مصر لعوامل كثيرة ، من أهمها وقوعها تحت يد الاستعمار الغربي ، ثم لكثرة سكانها ، ثم لوجود طوائف دينية كثيرة بها ، ولأمور أخرى اللَّه يعلمها .

---

(١) انظر : «الماسونية» ، ص ١٦ ـ ٢٣ (أميني وأبو حبيب)

(٢) انظر : «انظر الماسونية في المنطقة ٢٤٥» ، ص ١٤٢

أنشأ نابليون في القاهرة سنة ١٨٠٠م محفلاً ماسونياً اسمه محفل «إيزيس» كان بمثابة عين على أي نشاط إسلامي في المنطقة ، ثم انتشرت المحافل الماسونية بعد ذلك ، فأنشأ الإنجليز محفل «يوحنا» سنة ١٨٨٢م .

ولعلَّ خير ما أقدمه للقارئ إذا أراد تفاصيل وجود الماسونية في مصر ممثلة في منظمة الروتاري أن أدله على الكتب الآتية التي تخصَّصت في دراستها :

- «الماسونية في المنطقة ٢٤٥» .
- «الروتاري في قفص الاتهام» .
- «شرخ في جدار الروتاري» .

ومؤلف هذه الكتب هو : أبو إسلام أحمد عبد اللَّه ، وهو على دراية عجيبة بكل تفاصيل هذه المنظمات الخبيثة ، عاش أحداثها واطَّلع عليها عن كثب .

•• الشَّــــام :

حينما وقعت يد المستعمرين الصليبيين على الشام أنشأوا في دمشق محفلاً كبيراً للماسونية على يد القائد الفرنسي المحتل الجنرال «غورو» ، ثم انتشرت الماسونية بقوة الاستعمار الصليبي للبلدان الإسلامية ، وقامت محافلها في : «الجزائر» ، «نيجيريا» ، «ماليزيا» ، «تايلاند» ،

«أندونيسيا» ... ، وغيرها من البلدان التي غزتها الماسونية وانتشرت فيها كانتشار الأوبئة جنباً إلى جنب مع المستعمرين الصليبيين الماسونيين الحاقدين على الإسلام والمسلمين .

وحدِّث عن يهود الدونمة [1] ولا حرج ، ومؤامراتهم على الخلافة العثمانية وإدخال تركيا المسلمة تحت حكم طغاة الماسون وعلى رأسهم «مصطفى كمال أتاتورك» الذي كان أشد الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، ولا يزال الحكام في تركيا إلى وقتنا الحاضر من عبيد الماسونية وخُدَّامها الأوفياء ، وأصبح الشعب التركي تحت حكم هؤلاء الطغاة العسكريين الماسونيين الملاحدة يحاربون الإسلام وتشريعاته بكل ما يستطيعون ، نسأل اللَّه أن ينقذ المسلمين من شرورهم .

---

(١) الدونمة : جماعة من يهود الأندلس هاجروا إلى تركيا بعد زوال حكم المسلمين ، اعتنق بعضهم الإسلام ظاهراً للكيد للمسلمين والإسلام .
ومعنى الدونمة باللغة التركية أي المرتد ، الملحد ، الزنديق ، الكافر ، الكاذب فيما يزعم اعتقاده . بتصرف عن «الماسونية» ، ص ١٥٧

الفصل التاسع عشر

التعارف فيما بين الماسونيين

عرف دهاة الماسونية كيف يستميلون أتباعهم إليهم بشتى الطرق والأساليب للتواصل والتعارف فيما بينهم بطرق سرية ، ولئن كان الماسون لا رابطة بينهم تجمعهم في الظاهر ، إلاَّ أنهم قد حصلوا على الحظ الوافر من وسائل التعارف فيما بينهم ، والتي هي جزء من خدمة مصالح اليهود ، واستمع لهذا النداء للتعارف :

أيها الماسوني إن لك إخوانا كثيرين مستعدين لخدمتك وترديد صوتك ، فعليك التعرف بهم سالكاً إحدى الوسائل الآتية:

- اجعل توقيعك مسبوقاً بثلاث نقط .
- اطرق باب من تريد طرقتين يعقبها فترة قصيرة ثم استأنف الطرقة الثالثة .
- إذا سُئلت عن عمرك أجب ثلاث سنوات إن كنت مبتدئاً ، أو خمسة إن كنت في الدرجة الثانية ، أو سبعة إن كنت في الدرجة الثالثة .
- وإن سُئلت عن اسمك وأردت الاختصار في الجواب فقل «ابن الأرملة» .[1]
- وإن حزبك الدهر وعضك الزمن وأحاط بك العدو فقف واضعاً يديك على رأسك مفرقاً بين قدميك مميلاً جسمك إلى الشمال .

---

(١) أي نسبة إلى «أحيرام» الذي يُقال له ابن الأرملة ، «أحيرام» منشئ الماسونية .

- وإن ألقاك الزمان في إحدى السجون أو المعتقلات ، أو أصبحت رهن التحقيق واستطعت الوقوع على جهاز الهاتف ، فاتصل بأحد العميان الكبار [١] وأسمعه كلمة الاستغاثة المعلومة لديك : «أنقذوني يا أبناء الأرملة» وهو مسوق بسيفها لإغاثتك مما أنت فيه [٢] .

- وقد غلبت تسمية بعضهم بعضاً «أخاً» التي أصبحت رمزاً للترابط بينهم إذ كل شخص يسمي قرينه في الجمعية «أخاً» .

ومن وسائل التعارف فيما بينهم أيضاً بعض الأشياء الظاهرة مثل الخاتم في اليد الذي له شكل يميزه ، أو الضغط بإبهام المصافِح على مفصل السبابة لمن يصافحه [٣] .

---

(١) تعبير عن الأعضاء الداخلين في الماسونية من غير اليهود ، وهم قسمين : عميان صغار ، وعميان كبار حسب مراتبهم كما سبق بيانه .

(٢) انظر : «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ٤٢

(٣) انظر : «الماسونية تحت المجهر» ، ص ٢٦

الفصل العشرون

عقائد الماسونية

أول ما يلاحظه المتتبع لعقائد الماسونية قيامها على النفاق والكذب والخداع ، وقد تمدَّح بوجود هذه الصفات فيهم كثير من كتابهم تحدياً وبتجحاً ، وهو دستور قيام الماسونية إذ لا يمكن أن تنطلق بدون قيامها على هذه الصفات وغيرها من صفات الرذائل .

وتحت عنوان : «أركان الدين الماسوني» قال د. الزعبي :

●● الركن الأول : إنكار وجود اللَّه

١ ـ لا إله إلاَّ الإنسان ، ولا سيِّد ولا خالق ولا معبود إلاَّ الإنسان إذ هو سيِّد الوجود المتصرف بنواميسه .

٢ ـ ليس علينا أن نذل أعناقنا لنير ديانات مختلفة ، بل علينا أن نترفع فوق كل إيمان بأي إله كان .

٣ ـ علينا أن نسحق القبيح الفظيع ، وهو ما يدعونه اللَّه .

٤ ـ إن الاعتقاد بوجود إله والسجود له حماقة .

●● الركن الثاني : مناهضة الأديان

١ ـ علينا أن نخرب الآلة التي يتذرَّع بها رجال الدين ، وأعني بهذه الآلة الأديان نفسها .

٢ ـ إن تدريس الدين المسيحي أعظم حاجز لصد الأحداث عن النمو والترقي .

٣ ـ أما غايتنا القصوى فملاشاة الكثلكة ، بل كل روح مسيحي .

٤ ـ لنستغل بأيد خفية نشيطة ولننسج الأكفان التي سوف تدفن جميع الأديان فيها .

•• الركن الثالث : محاربة رجال الدين

- لنكسر نفوذ الفقهاء والكهنة ونوجد الانتقادات ونستعين بفشنو وأذرعه المئة ، ونجعل كل ذراع برأي ، وهنا ظهرت التعاليم المجوسية في الماسونية .

•• الركن الرابع : الإباحية والفساد

١ ـ لننشر الرذيلة بين الشعوب .

٢ ـ إن الفساد إمنيتنا .

•• الركن الخامس : كره الوطن

- أما الوطن فإنا نرذله ـ اليهود يرذلون أوطان العالم كلها ـ ولعل ذلك يعود إلى شعورهم بأنهم بلا وطن وأنهم أمة منبوذة بين الشعوب .

•• الركن السادس : هدم البشرية

١ ـ كل شيىء يجوز لنا لاستئصال شأفة من ينكر مبادئنا .

٢ ـ كل أمة تختلف على نفسها تقع في حوزتنا .[1]

ولعل ما ذكره الزعبي يشير إلى النتيجة التي يصل إليه الداخل في الماسونية بعد تعمقه فيها ، وإلاَّ فإن الداخل في البداية يجد الحث الشديد على التمسُّك بالأديان والأخلاق الفاضلة وعدم التدخل في الشئون السياسية والتعمُّق في الإيمان باللَّه تعالى والدعوة إلى البرِّ والإحسان إلى المحتاجين .

وهذه المبادئ هي الوجبات الأولى التي يسمعها الداخل في الماسونية ، ولهم وصايا على ذلك كثيرة تردد على مسامعه .[2]

●● عبادة الشيطان في الماسونية :

ولكن الداخل سيصل إلى الوجبات الأخرى فإذا بها تحثُّه على الكفر باللَّه وعبادة الشيطان الذي سمُّوه «لوسيفر» .

وفي كلمة فخر للأستاذ الأكبر لمحفل «ليسنج» الماسوني جاءت العبارة التالية : «نحن الماسونيين ننتسب إلى أسرة كبير الأبالسة «لوسيفر» فصليبنا هو المثلث وهيكلنا هو المحفل» .

وفي رسالة الجنرال «ألبرت بايك» إلى رؤساء المجالس العليا التي نظمها قال : «يجب أن نقول للجماهير أننا نؤمن باللَّه ونعبده ، ولكن الإله الذي نعبده لا تفصلنا عنه الأوهام والخرافات ، ويجب علينا نحن الذين وصلنا إلى مراتب الاطلاع العليا أن نحتفظ بنقاء العقيدة الشيطانية .

---

(١) «الماسونية منشئة ملك إسرائيل» ، ص ١١٤ ، ١١٥

(٢) انظر تفاصيلها في كتاب «الماسونية» للسقا وأبو حبيب ، ص ٦٢ ـ ٦٨

وقد سمّوا اللّه تعالى «أدوناي» ، وسمّوا الشيطان «لوسيفر» وفي ذلك يقولون أيضاً :

أما الديانة الحقيقة والفلسفة الصافية فهي الإيمان بالشيطان كإله مساوٍ لـ «أدوناي» ، ولكن الشيطان وهو إله النور وإله الخير يكافح ضد «أدوناي» إله الظلام والشر .

ويقول الماسوني «عبد الحليم إلياس الخوري» : «لم يبقَ أحد يؤمن باللّه وخلود النفس إلاَّ البُلهاء الحمقى ... إلخ» .

ومن هنا فإنهم لم يستطيعوا كتمان عدائهم الشديد للدين وبغضهم له ، فقد أظهر الماسونيون عداءهم السافر وحربهم المكشوفة لكل الأديان ، وهناك نصوص كثيرة في إثبات هذا ، منها :

جاء في «الشرق الأعظم» في فرنسا نشرة فيها : «نحن الماسون لا يمكننا التوقف عن الحرب بيننا وبين الأديان ، ولا مناص من ظفرنا أو ظفرها ، ولن نرتاح إلاَّ بعد أن نغلق المعابد جميعها» .

وجاء في المؤتمر الماسوني العالمي المنعقد في بلجراد سنة ١٩٠٠م قولهم : «إننا لا نكتفي بالانتصار على المتدينين ومعابدهم ، إنما غايتنا الأساسية إبادتهم من الوجود .[(١)]

(١) انظر لتلك النصوص «الماسونية» للسقا وأبو حبيب ، ص ٦٩ ـ ٧٥

الفصل الحادي والعشرون

المنظمات الماسونية ونواديها

أنشأت الماسونية منظمات عديدة بعضها ظاهر وبعضها خفي وتحت أسماء حقيقية وغير حقيقية ، وكلها تجتمع على هدف واحد هو خدمة اليهودية العالمية تحت أقنعة مختلفة .

ومن هذه المنظمات والنوادي :

- نادي الروتاري .
- نادي الليونز ـ أي الأسود .
- نادي بناي برث أو أبناء العهد .
- منظمة شهود يهوه .

وغير ذلك من المنظمات والنوادي الماسونية المنتشرة في أكثر بلدان العالم والمتسترة تحت أسماء وألقاب خادعة ، وفيما يلي بيان تلك المنظمات بإيجاز .

المبحث الأول

نادي الرُّوتـاري

ويشـمل المطـالب الآتية :

تمهـــيد :

لم يتوانَ اليهود عن استغلال أي فرصة تسنح لهم للانقضاض على الأمميين ومحو ديانتهم وتشويه تاريخهم ، ولقد تفنَّنوا في ابتكار مسالك عديدة للوصول إلى تلك الأهداف بواسطة جمعيات ومؤسسات أنشئت لهذا الغرض ، مهمتها جذب الشباب والعاطلين عن العمل ، بل والأذكياء والمهتمين بالعمل ، جذبهم إلى حظيرة تلك الجمعيات بإغراءات مختلفة من المال وسائر أنواع المتع في نوادي ليلية وسهرات صاخبة وتعارف يتم بالدور ، وقد لا يفطن الداخل فيه لما يراد منه إلاَّ بعد فوات الأوان ، أي بعد أن يدخلوه في شبكاتهم بحيث لا يمكنه الخروج عنهم بعد أن يأخذوا عليه العهود ويوثِّقونها بالصور المشينة له وتهديده بأنه إن خرج عنهم كانت تلك الصور أقل ما يظهرونها له ، فيظل المسكين عبداً ذليلاً لهذه المنظمة الماسونية الأهداف ، والتي أطلق عليها هذا الإسم تمويهاً وخداعاً لمن عسى أن يكون قد اطَّلع على خطر الماسونية فحذر وحذَّر منها الذين يزعمون أنهم يعملون في ظاهر الأمر لخدمة البشرية جمعاء تحت إسم الأخوة والتقارب بين الشعوب والأديان والإنسانية ، حيث اتسم نشاطهم في الظاهر بالدعوة

إلى الإنسانية ، وهي خدعة بارعة يحاربون بها كل الأديان ، لأن لها بريقها في ظاهر الأمر ، بينما هي في باطن الأمر ونهايته تصب في بيدر اليهودية العالمية الماسونية الماكرة ، والأدلة على هذا كثيرة لا تحتمل هذه الدراسة إيرادها .

قال أحد رؤساء الروتاري في مصر في خطاب له : «ساهموا مع الروتاري ، عزِّزوا صفوفه لخدمة الإنسانية التي لا تعرف جنساً ولا لوناً ولا عرقاً ولا ديناً» (١) .

وهذا التعاون الذي يطلبه هذا الماسوني يفسره الأستاذ الأعظم في درجة الماسونية الذي هداه اللّه إلى الرشد وهو «يوسف الحاج» ، فقد قال عن خلايا الماسونية كلها وعن التعاون معهم :

«إن تعاون الأمم مع هؤلاء القوم يشبه تعاون صاحب البيت مع اللص ، فهو خنجر ذو رأسين موجَّه إلى سويداء قلب الشعوب ، لا سيّما الإسلامية ، ولا سيّما ذات العلاقة المباشرة بفلسطين» (٢) .

ويقول روتاري آخر : «ليس هناك فارق بين أصفر وأبيض وأسمر ، أو بين مسلم ومسيحي ويهودي ، نعم يهودي ، كلهم سواء من نسل آدم عليه السلام» (٣) .

---

(١) انظر : «الروتاري في قفص الاتهام» ، ص ٣٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٢

المطلب الأول

نشأة الرُّوتاري

تأسس أول نادٍ من نوادي الروتاري في مدينة شيكاغو الأمريكية على يد رجل اسمه «بول هاريس» سنة ١٩٠٥م الذي أصبح اسمه مقدَّساً عند أصحاب الروتاري وداخلاً في درجات الروتاري .(١)

ثم انتشرت بعد ذلك النوادي الروتارية انتشار الأوبئة ، ودخلت معظم بلدان العالم الغربي منها والشرقي ، وانخدع بها المثقفون وأصحاب السلطة وعَوام الناس والتجار وكل من له ميل إلى الزعامة والمناصب ، وكل هؤلاء يُسيَّرون من وراء ستار حتى وإن كان رؤساء الأندية ظاهرين ، لكن هؤلاء الرؤساء أيضاً هم منفِّذون للسلطة الماسونية العليا المجهولة ، أو الحكومة المجهولة .

وقد تنبَّه كثير من النصارى ومن غيرهم إلى خطر هذا النادي وما يشكله من هدم للأديان والأخلاق والفضائل فحاربوه ، ولكن المكر اليهودي الماسوني استطاع أن يفلت من كل ما أحيط به بسبب تغلغله بين أوساط من بأيديهم الحل والعقد .

---

(١) لم يمت حتى اكتمل في عهده سبعة آلاف نادٍ روتاري ، انظر : «الروتاري في قفص الاتهام» ، ص ٧٨

المطلب الثاني

الأدلة على أن الرُّوتـاري جمعية ماسونية

ذكر الدكتور «أحمد شلبي» بعض الأدلة التي يحتج بها على أن نادي الروتاري ماسوني النشأة والهدف ، ومن تلك الأدلة [(١)] :

١ ـ احتج بكلام البروفسور «ماردن» في كتابه عن الروتاري بقوله : «إن المجموعة الأولى التي حملت عبء تأسيس الروتاري والليونز كانت أعضاءاً في محافل ماسونية ، وكان ذلك في شيكاغو ، وقد بدأ نشاط الروتاري سنة ١٩٠٥م ونشاط الليونز سنة ١٩١٧م ، وكان بعض المحامين من الذين كسدت سوقهم واتجهوا للربح بأي وسيلة هم الذين أسَّسوا هذه الأندية» .

٢ ـ الدليل الآخر أن «بول هاريس» مؤسس الروتاري هو ماسوني عميق الصلة بالماسونية .

٣ ـ أن وزير الداخلية المصري سابقاً «عبد العظيم فهمي» قال في احتفال عام كنت حاضراً فيه مع كثير من الصحفيين ورجال الإعلام : «لقد كان اليهود أول جماعة أنشأت نادياً للروتاري بمصر ، وكانت تحوم حوله الشبهات كثيراً ، ولذلك أقفلت أندية الروتاري مرتين وأنا وزير للداخلية» ، ولما سُئل : «ولماذا تحضر الآن اجتماعات هذه الأندية ؟»

---

(١) بتصرف عن كتابه : «اليهودية»

أجاب : «علشان أعرف ماذا تفعلون» ، وأضاف : «أنا الآن بالمعاش وأحاول أن أضيع الوقت» .

٤ ـ إن رمز الروتاري هو نفسه رمز الماسونية ، وهو المثلثان المتقاطعان اللذان يكونان نجمة سداسية «نجمة داود» .

٥ ـ حينما أغلقت دمشق أندية الروتاري قالت في بيان صدر لها في هذا الشأن : «إن هذه النوادي تعد روافد للماسونية» .[١]

وهذا هو الواقع ، فإن الروتاريين بمثابة عيون للماسونية اليهودية في كل بلد يحلون به ، ويتصيد هؤلاء بدعوتهم كل من يرون وراءه نفعاً لهم بجاهه أو ماله أو سلطته ليستفيدوا منهم مادياً ومعنوياً ، وبقية الدهماء يستفيدون منهم أقل الأمور في نشر الشائعات والدعايات والأخبار التي تخدم مصلحة اليهود بطريق مباشر أو غير مباشر .

وأكثر ما يتم التركيز عليه بالنسبة للداخلين هو إفهامهم بأن رابطة الأخوة ينبغي أن تكون فوق رابطة الدين أو الوطن ، وهذه الأخوة يُراد بها في النهاية صهر المجتمعات وتذويبها داخل الكيان اليهودي لكي ينتهي العداء المستحكم عند الشعوب بالنسبة لليهود ، ذلك العداء الذي سبَّبه حقد اليهود وجشعهم واستعلائهم على سائر الناس ، وازدرائهم الجوييم على امتداد تاريخهم ، وعدم انصهارهم في أي مجتمع يعيشون فيه .

---

(١) انظر : «اليهودية» ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣

المطلب الثالث

التحذير من أندية الرُّوتاري

حذَّر الناصحون من خطر أندية الروتاري ، فأصدورا نشرات وقرارات هامة متلاحقة نصحاً وتوجيهاً وتحذيراً لمن لم يقع في شباك تلك الأندية بالابتعاد عنها ومقاطعتها ، ونداءات لمن وقع فيها أن يتدارك نفسه فيتوب ويخرج عنها دون تأخير إذا كان يريد الخير لنفسه ولغيره من البشر .

ومن الجدير بالذكر أنه قد اجتمعت كلمة أصحاب الديانتين الإسلام والنصرانية على محاربة كل نوادي الروتاري ، بل ومن غير المتدينين أيضاً ممن فيهم غيرة على الإنسانية أو الوطنية أو الرحمة بالناس غير اليهود .

ومما يذكر هنا أنه عقد في مكة المكرمة مؤتمر إسلامي تحت رعاية الملك فيصل ـ رحمه اللَّه ـ سنة ١٣٩٤هـ ، وقد اشترك في هذا المؤتمر أربعة عشر وفداً إسلامياً جاء فيه عن الماسونية وأندية الروتاري قولهم : «الماسونية جمعية سرية هدَّامة لها صلة وثيقة بالصهيونية العالمية التي تحركها وتدفعها لخدمة أغراضها ، وتتستر تحت شعارات خدَّاعة كالحرية والإخاء والمساواة ... وما إلى ذلك مما أوقع في شباكها كثيراً من المسلمين ، وعلى قادة البلاد وأهل الفكر وعلى الهيئات الإسلامية أن يكون موقفها من هذه الجمعيات السرية على النحو التالي :

١ ـ على كل مسلم أن يخرج منها فوراً .

٢ ـ تحريم انتخاب أي مسلم ينتسب لها لأي عمل إسلامي .

٣ ـ على الدول الإسلامية أن تمنع نشاطها داخل بلادها وأن تغلق محافلها وأوكارها .

٤ ـ عدم توظيف أي شخص ينتسب لها ومقاطعته مقاطعة كلية .

٥ ـ فضحها بكتيبات ونشرات تُباع بسعر التكلفة .

وتُعامَل كل من النوادي التالية معاملة الماسونية : نادي الروتاري ، نادي الليونز ، حركات التسلح الخلقي ، أخوان الحرية» .[1]

وقد أصبح عدد أندية الروتاري (١٨٦١٩) ثمانية عشر ألفاً وستمائة وتسعة عشر نادياً تضم (٨٦٤١٢) عضواً في (١٥٣) دولة .

وقد اجتمع الروتاريون في مدينة شيكاغو بأمريكا في حفلة من الثالث من مايو إلى العاشر من يونيو عدد هائل بلغ (١٨,٧٤٠) قدموا من (١٢) دولة من القارات الست ، فملؤا رحاب فنادق المدينة رغم كثرتها ورغم ضخامة بعضها الذي يتسع لثلاثة آلاف ضيف ، وازدحمت بهم المتاجر والشوارع والمطاعم والمسارح على كثرتها ، كما ازدانت شوارعها بالأتوبيسات الخاصة التي تحمل على مقدمتها شارة الروتاري ورقماً خاصاً بكل أتوبيس .

ومن هنا يحق للدكتور شلبي أن يتساءل ويجيب : «من الذي أنفق على هذه التجمعات الهائلة بدءاً من تذاكر السفر إلى الإقامة أكثر من عشرة أيام ،

---

(١) انظر : «اليهودية» ، ص ٣٤٤

إن المال اليهودي وحده هو الذي يستطيع أن يتحمل هذه النفقات ويحجز أماكن لهؤلاء الآلاف بأضخم الفنادق ، لقد باع هؤلاء بلادهم ومبادئهم وأديانهم بثمن رخيص هو متعة رخيصة مدتها عشرة أيام» .[1]

وقد حذَّر كثير من البابوات أتباعهم المسيحيين من الدخول في الماسونية عموماً ، كما حذروهم أشد تحذير من الدخول في النوادي المشبوهة كالروتاري وغيره من النوادي التي اتضح لكثير من مفكري العالم خطرها على الأديان والأخلاق والأوطان أيضاً .

وقد نادى الكرادلة بإجماع مجلسهم الأعلى في ٢٠ سبتمبر ١٩٥٠م بما يلي : «دفاعاً عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بنادي الروتاري وعدم الاشتراك في اجتماعها ، وأن غير رجال الدين مطالبون بمراعاة المرسوم رقم ٨٦٤ الخاص بالجميعات السرية والمشتبه فيها» .[2]

وهناك مواقف عربية ضد هذه المنظمة الروتارية :

- فقد أصدرت حكومة العراق في سنة ١٩٥٩م قراراً بإغلاق كل أندية الروتاري ، فقد وصل إلى القاهرة «كليف راندل» رئيس أندية الروتاري الدولي وقال بأن حكومة العراق قد أمرت بإغلاق أندية الروتاري التي أنشئت هناك منذ عام ١٩٥٦م .

(١) انظر : «اليهودية» ، ص ٣٤٦
(٢) انظر : «اليهودية» ، ص ٣٣٥

- وهو ما حصل أيضاً في سوريا عام ١٩٦٥م حيث صدر القرار بمنع نشاط أندية الروتاري وهدَّدوا أعضاءه بالمحاكمة العسكرية إذا لم يمتنعوا .

- وكذلك أيضاً في دبي ، حيث أصدر الشيخ أحمد بن راشد وزير المالية والصناعة بدولة الإمارات العربية المتحدة ورئيس بلدية دبي قراراً في سنة ١٩٨٧م بوقف نشاط جمعية الروتاري وسحب أي ترخيص يكون قد مُنح لها .[١]

ومن الجدير بالتنويه أن الشيخ أبو إسلام أورد في كتابه «الروتاري في قفص الاتهام» أدلة كثيرة تؤيد ماسونية الروتاري ، فقد ذكر في صفحتي ١٥٩ ، ١٦٠ واحداً وعشرين دليلاً على أن الروتاري منظمة ماسونية ، ثم استمر في عرض أدلة ومناقشات مع رجال الروتاري في مصر يطول ذكرها ، فارجع إليها إن شئت ، فهي شيقة وبأسلوب جذَّاب وواضح .

وأحيل القارئ الكريم إذا رغب الاطلاع على الشخصيات الروتارية بتوسع تام أن يقرأ كتاب «الماسونية في المنطقة ٢٤٥»[٢] ، وكتاب «شرخ في جدار الروتاري» ، وكتاب «الروتاري في قفص الاتهام» ، وكلها لمؤلفها «أبو إسلام أحمد عبد اللّه» ، وكذا كتاب «روتاري الصهيونية» لمؤلفه «حمدي طنطاوي» ، وقد جاء في هذه الكتب تفاصيل وخفايا وخبايا

(١) بتصرف عن «الروتاري في قفص الاتهام» ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) يقصد بالمنطقة (٢٤٥) مصر والسودان والأردن ولبنان والبحرين وقبرص ، حسب التقسيمات الجغرافية الخاصة بمؤسسة الروتاري الدولية بأمريكا .

هائلة لا يتسع المقام لذكرها في هذه الدراسة المختصرة ، أوردتها ومعها ما يثبتها بالصور والنصوص التي لا مجال للشك فيها ، والمؤلفين على اطلاع واسع بمذهب هذه الفئة الروتارية الضالة .

وقد قال أبو إسلام عن كتابه «الماسونية في المنطقة ٢٤٥» : «إن الكتاب ضمن أكثر من (٦٠٠) إسم لشخصيات قيادية بينهم عدد كبير من الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الإدارات الحاليين والمشاهير من العلماء والمتخصصين في المراكز التنفيذية المختلفة ، وقد أقمنا عليهم الحجة الكافية وكلهم أحياء يرزقون ، وعرضنا بجلاء دلائل علاقة النسب الحرام بين هذه الأندية وبين الماسونية العالمية . [(١)]

وهنا أحب أن أنقل للقارئ الكريم كلاماً نشرته جريدة «الشرق الأوسط» [(٢)] تحت عنوان «السلام والتفاهم الدولي في مؤتمر لأندية الروتاري بالإسكندرية» جاء فيه :

يشارك مئات الأعضاء من أندية الروتاري ينتمون لست دول عربية هي مصر والسودان ولبنان والأردن والإمارات العربية المتحدة والبحرين بالإضافة إلى قبرص في المؤتمر الدولي رقم (٦٧) [(٣)] للمنطقة الروتارية ، وينعقد المؤتمر هذا العام في الإسكندرية تحت شعار «السلام والتفاهم الدولي» تحت رعاية عقيلة الرئيس المصري «سوزان مبارك» [(٤)] ، وذلك في الفترة

---

(١) انظر : «الروتاري في قفص الاتهام» ، ص ١٨

(٢) جريدة الشرق الأوسط في ١٢ / ٣ / ١٤٢٤هـ

(٣) انظر كثرة هذه المؤتمرات !!!

(٤) انظر إلى رئيسة المؤتمر «سوزان» ولاحظ التركيز على إدخال العنصر النسائي فيه .

من ١٤ إلى ١٧ مايو الجاري ، كما يحضر مؤتمر هذا العام «عمرو موسى» الأمين العام لجامعة الدول العربية [١] ، و «جان قرداحي» وزير المعلومات اللبناني [٢] ، وتشمل المؤتمر ثماني جلسات يتم التركيز فيها على تنمية الإنسان إجتماعياً وإقتصادياً [٣] ، كما يتم استعراض تجارب أندية الروتاري البالغ عددها ١١٣ نادياً في الدول السبع المشاركة في المؤتمر في تنمية الإنسان بهذه الدول [٤] .

وتستعرض المشاركة المشاريع المستقبلية للأندية الروتارية ، ويقام على هامش المؤتمر ثلاث معارض هي : معرض للاستثمار العقاري ، ومعرض لفناني الروتاري في الدول المشاركة في المؤتمر ، ومعرض للأعمال الفولكورية لهذه البلاد إلى جانب إقامة عدد من الحفلات الغنائية التي تقام لصالح العمل الخيري [٥] .

---

(١) ماذا قدم لها هذا الأمين ، وماذا قدمت للعرب هذه الجامعة الهزيلة ؟!!

(٢) لأنهم لا يفرقون بين الأديان حسب ظاهر دعوتهم

(٣) ماذا فهمت من تنمية الإنسان هذه ؟!!!

(٤) ١١٣ نادياً !!!

(٥) والمعرضين الأخيرين لفناني الروتاري وإقامة عدد من الحفلات الغنائية هي بيت القصيد من هذا الاجتماع ، وقد أهدوا ثوابها لصالح العمل الخيري ، فماذا يقصدون بالعمل الخيري والصدقة عليه ؟!!!

المطلب الرابع

شِعار الرُّوتاري

شعار الروتاريين عجلة مسننة على شكل ترس وسطها ثقب فيه ستة قضبان يعلوها أربعة وعشرون سناً باللونين الذهبي والأزرق الأرجواني ، وداخل محيط هذه العجلة المسننة تتحد ست نقاط وهمية بتوصيلها تظهر صورة النجمة السداسية تحتضنها كلمتي «روتاتري» و «عالمي» مكتوبتين بخط واضح داخل سمك المحيط .

كما أن الروتاريين يستخدمون شعارات أخرى كالسنبلة والكفين المتصافحين والعين الواحدة والأذن الواحدة والناقوس والمطرقة والفانوس المقطوع بالسيف .[1]

(١) انظر : «الماسونية في قفص الاتهام» ، ص ٧٦

المطلب الخامس

طريقة انتشار الفكر الرُّوتاري وطريقة دخول العضو الجديد فيه

للروتاريين طريقتهم في إدخال العضو الجديد في ناديهم ، ولعل أحسن من يعبر عن تلك الطريقة الصحفي «أنيس منصور» فقد دخل معهم وعرفهم عن كثب وبيَّن ذلك بعد أن تركهم وتاب عن دخوله ، وحديثه شيِّق وطويل[1] ولكن سأقتصر على إيراد بعض الفقرات منه ثم أبيِّن رأيي فيما قاله عن الروتاريين وما هم فيه . قال أنيس : «تلقيت التهاني من كثير من الأصدقاء لأنني أصبحت عضواً في نادي الروتاري ، وكل واحد كان يضغط عليَّ بطريقة معينة ، وبعضهم لم يكتفِ بالضغط على اليد ، وإنما كان يضربني على كتفي أو يقرصني كما تفعل الفتيات عند زفاف زميلة لهن حسداً ... ومن الطبيعي جداً أن أتظاهر بالسعادة كالعروس أو كالعريس ... ولذلك كنت أرد التحية بأحسن منها ، وأضغط على اليد وأضرب على الكتف وأهز رأسي بمعنى خاص كأنني أقول إن شاء اللَّه أشوفكم جميعاً أعضاء في الروتاري ، ونحن السابقون وأنتم اللاحقون ... ونسيت أن أقول إن انعقاد الروتاري كان في فندق هيلتون ، وقد أخبر سابقاً أن الأسعار في هذا الفندق من نار ، وكانت الجلسة الواحدة أحياناً تستغرق ثلاث ساعات أكل وشرب وضحك ولهو فقط ... إلى أن قال : «لا أعرف ما الذي يمكن أن يراه أو يعرفه أو يستفيده إنسان من بقائه ثلاث ساعات جالساً آكلاً شارباً قاعداً مبحلقاً مبتسماً مكشِّراً محشوراً مزنوقاً

---

(١) انظره مطوَّلاً في كتاب «الروتاري في قفص الاتهام» ، ص ١٧٥ ـ ١٨٤

محبوساً كالثور الأسباني لا يكاد يرى العلم الصغير في يد رئيس النادي حتى يهبَّ واقفاً مصفقاً دون سبب ودون مناسبة .

وبعد مواقف شخصية ساخرة حصلت من النادي أخبر أنيس عن استقبال هذه النوادي لأعضائها من هنا وهناك على الموائد الفاخرة وفي الفنادق الفاخرة دون أن يرى لهم أي عمل قدَّموه أو خدمة ذكروها غير هذا الحضور المتكرر ، وما أكثر ما تُرمَى الشُوك والسَّكاكين أثناء الأكل حينما يُذكَر أن السيد «كوكو موكو» وصل من اليابان ، وأنه ينقل إلى الحاضرين تحيات الأصدقاء الزملاء هناك ، وبعد قليل يعلو التصفيق لحضو السيد «راشناد شناكيرا» الآتي من الهند ، وبعد قليل يعلو التصفيق أيضاً لحضور المستر «جورج دانكوتر» ... وهكذا تستمر الجلسة أكل وشرب واستقبالات وتصفيق ولهو ، وأخيراً ضاق ذَرعاً بهذه الحال بعد أن طال تساؤله لنفسه : ما الذي استفدته من هذا النادي غير اللَّهو والأكل والشرب والتصفيق ؟!! إنه لم يرَ أي نشاط للنادي أو القيام بأعمال نحوه أو تدارس قضايا ، فقرَّر أن حضوره إنما هو مَضيَعة للوقت ولا فائدة تُرجَى من ورائه ، فتركهم وشأنهم ... إلى آخر ما حصل له .

وقد تبيَّن من كلامه أن نوادي الروتاري إنما هي للهو ومضيعة للوقت ، وأنها ليست على شيء بل هزل وليس بجد .

وهنا أرجو من القارئ الكريم أن يمنحني فرصة لإبداء وجهة نظري في هذا المقام حسب ما يظهر لي في هذه القضية التي تُبذَل فيها أموال

لا حصر لها ، وفي أماكن من أرقى الأماكن ، وحشود من مختلف طبقات الناس ، ولقاءات متكررة على أفخم الولائم ، فهل يُعقَل أن القائمين على الروتاري لا فائدة لهم غير تقديم هذه الخدمات المجانية لأصحاب تلك النوادي ؟!!

وهل اليهود ـ عُبَّاد المال ـ يقدمون هذه التكاليف دون هدف ؟!!!

الذي يظهر لي أن القضية تلك لها ظاهر وباطن . والظاهر هو ما بيَّنه أنيس منصور في كلامه السابق ، وأما الباطن فحديثه ذو شجون ، وأقل ما أقوله هنا أن لليهودية الماسونية مكاسب في تلك الجلسات على موائد الطعام وفي أفخم القصور لهم فوائد لا تُقدَّر بثمن ، فأقل تلك المكاسب :

١ ـ ضمان ولاء الأعضاء لهم ، فقد قال أحد السلف : «ما وضعت يدي في قصعة أحد إلاَّ وشعرت بالذل له» ، والأعضاء الروتاريون في الأغلب من الطبقات المشهورة ومن أصحاب السلطة والجاه .

٢ ـ تأكد الماسونية من انسلاخ أعضاء الروتاري من دينهم وأوطانهم وحيائهم ، بل وإغراقهم في اللهو والعبث ، ومن وصل إلى هذا الحد فلا يُرتَجى منه تحرير أرض دنَّسها اليهود ، وليس عنده أدنى أسف على ذهاب القدس أو حتى الإسلام برمَّته .

٣ ـ إقامة الدعاية على أكتاف الأعضاء لكل ما تريده الماسونية اليهودية

من أفكار وآراء ، فإن وجود التاجر والصحفي والمدرس والموظف ضمن نفوذهم مكسب كبير ، وأي مكسب .

ومن أمنت جانبه هان عليك الاحتراس منه ، وحينما يصرح العضو الروتاري بملء فيه لا دين ولا وطن ولا تفرقة بين الشعوب ، وأن هذا الدين الجديد هو القيم الرووتارية ، وهو الإنسانية ـ التي تفسرها كما يحلو لمريدها ـ أليس هو مكسب الوصول إليه كأنه فوق الثريّا للمستفيد منه .

ولا ننسى قصة الرجلين الذين طلب منهما المشركون تقديم أي شيء لأصنامهم ، فأبى أحدهم أن يقرِّبَ ولو ذُباباً ، فقتلوه ، ورضي الآخر وقرَّب ذُباباً فأثنوا عليه وتركوه ينطلق مُعزَّزاً مُكرَّماً من قبلهم . لماذا ؟ لأنهم ينظرون إلى كسب ولاء الشخص وخضوعه لهم ورضاه بعملهم أكثر مما ينظرون إلى المكاسب الأخرى المادية .

وهكذا الحال بالنسبة للقائمين على تلك النوادي الذين يكسبون تصفيق أولئك الفئات وترديد أفكارهم والوقوف إلى جانبهم في كل القضايا ، وأهمها قضية عدم إيذاء اليهود بأدنى أذىً ، وضم أصواتهم إليهم ، فضلاً عن المكاسب الأخرى ذات الأثر الفعَّال في سلوك الأعضاء وولاءاتهم .

المبحث الثاني

نادي اللّيــونز

وفيه المطالب الســتة الآتيـة :

المطلب الأول

المقصود باللّيـونز

الليونز بمعنى الأسُود ، وحاشا الأسُود منهم ، ومعنى التسمية وصف أصحاب هذه المنظمة بأنهم أشداء مثل الأسُود الكاشرة ، وهو نادٍ ماسوني لم يتغير فيه إلاَّ الإسم وبعض المظاهر السطحية ، شعارهم الحرية والإخاء والمساواة ، وقد ادَّعوا أن عدد أعضاء الليونز سنة (١٩٦٨م) بلغ (٩٣٤٠٠٠) عضواً موزعين على (١٤٦) بلداً ، فكيف بهم اليوم ؟!!!

المطلب الثاني

هدف اللّيونز

هدف الليونز هو نفس الهدف من نوادي الروتاري ، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب .

ظاهره القيام بشتى الخدمات الاجتماعية ويشتمل على ما اشتمل عليه المبدأ الروتاري من تعدد جلسات الأكل والشرب واللهو في أفخم الفنادق ، وقد توسع الشيخ أبو إسلام أحمد عبد اللّه في بيان أغراض الليونز ودستورهم وأورد عدَّة صفات كلها حميدة في ظاهرها وتهدف إلى خير البشرية ، ولا أرى ضرورة التطويل بسردها [(١)] لعدم حقيقتها .

المطلب الثالث

حقيقة اللّيونز

إن مبادئ نادي الليونز هي نفسها المبادئ الماسونية كما تقدَّم ، تعددت الأسماء من باب الاختلاف اللفظي ليكون مخرجاً للماسونية إذا أحيط بجانب منها نجا جانب كبيت اليربوع المتعدد الأبواب .

---

(١) انظر : «الروتاري في قفص الاتهام» ، ص ١٦٥ ، ١٦٦

المطلب الرابع

نشأة اللّيونز

كان «ملفن جونز» الأمريكي يعمل في شركات التأمين في مدينة شيكاغو ، عمل على إيجاد وحد واحدة لعدة أندية كانت تسهم في بعض الخدمات الاجتماعية ، وتم له ذلك سنة ١٩١٥م ، وظهر أول نادٍ له في مدينة «سانت أنطونيو» وعقد أول اجتماع لهم في شيكاغو .

ثم توسعت أندية الليونز في كثير من البلدان ابتداءً من عام ١٩١٧م ١٩٢٠م ووصلت إلى الدول العربية ، وفي طليعتها مصر عام ١٩٥٥م ، ومنها أخذ أتباع هذا المذهب الهدام في الانتشار .

المطلب الخامس

نشـاط الليّـونز

تلتقي أندية الليونز مرتين كل شهر في أحد الفنادق أو الأندية الرياضية أو الاجتماعية الكبرى مع أحد العلماء أو الخبراء البارزين في مختلف التخصصات ليحاضر في مجاله ، وبعد المحاضرة يدور الحوار بينه وبين الحاضرين .[1]

وقد التحق به جماعات لهم وزنهم في المجتمعات على مختلف التخصصات ما بين منتفع ، ومغرَّر به ، ومحب للاستطلاع ، والكل يخدم الماسونية اليهودية سواء من يشعر بذلك أو من لا يشعر .

ولعل الماسون قصدوا من فكرة كثرة الأسماء المتشعبة عن الماسونية - ومنها الليونز - إيقاع الحيرة والاضطراب في مفاهيم الناس أو التمويه عليهم لئلا يفطنوا إلى الخطط الماسونية التي عرفها الكثير من المفكرين وحذَّروا منها الكثير ممن أنقذهم اللَّه من براثنها ، فأنشأت تلك النوادي أو المنافذ لتكون أبواب طوارئ خلفية .

ولم يخرج نادي الليونز عن المخطط العام للماسونية ، شأنه شأن نادي الروتاري في محاربة الأديان والأوطان ، وإرادة تذويب المجتمعات كلها وصهرها في بوتقة اليهودية العالمية على طريقة الخطوة خطوة ، إذ أن الليونز يتصيدون

---

(١) انظر : «الروتاري في قفص الاتهام» ، ص ١٦٦

أعضاءهم بدقة وعناية ودراسة مستفيضة للعضو من حيث لا يعلم ، فإذا وقع اختيارهم عليه جاءوا من كل مكان وبشتى الأساليب وبالواسطات التي يثق العضو بصداقتهم له إلى أن يدخلوه في شباكهم ثم يتولون أمر تربيته بعد ذلك بأنفسهم .

وهذا الاختيار بطبيعة الحال لا يمكن أن يتم على شخص يعرفون عنه حماسه لدينه أو لوطنه ، لأن مهمتهم لا تتفق مع شخص يتمثل فيه هذا السلوك ، لم يقتصر دعاة الليونز على الرجال فحسب ، بل هناك نوادٍ للنساء أيضاً ، ولزوجات أصحاب الجاه الذين دخلوا حظيرة نادي الليونز ليصبح الجميع أسوداً وأسدات .

ولعل السر في اهتمامهم بزوجات أولئك حتى يضمنوا اشتغالهن عن انتقاد أزواجهن ، وبالتالي يضمنون استمرار العضو وخضوعه أيضاً لهم ما دامت زوجته قد أصبحت عضواً أيضاً في هذا النادي ، وهو مكر يهودي عميق .

المطلب السادس

أماكن انتشار اللّيونز

انتشرت أندية الليونز انتشاراً واسعاً في كثير من بلدان العالم عربية وغير عربية .

أما البلدان العربية الإسلامية فقد انتشرت في عدة دول منها - وهي وصمة عار شائنة - انتشرت في مصر والأردن وسوريا ولبنان والبحرين والمغرب وتونس والعراق .

وكأن هؤلاء الذين أغراهم بريق الدعاية اليهودية الماسونية لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، لقد اجتالتهم شياطين الماسونية وخدعوهم عن دينهم وعن الوفاء لأوطانهم وحوَّلوهم إلى ببغاوات لا تنطق إلا بما تعلمهم به الماسونية الحاقدة ، ومن الملفت للنظر حقاً أن لا تجد من الكتاب أو الدعاة أو الإعلاميين موقفاً جاداً متضافراً يعادل خطر مثل هذه الأندية مما يجعل الكثير ممن لا يعرفون حقيقتها يقعون فريسة لها .

•• تعقيب :

إن تظاهر أهل نادي الليونز بأن عملهم وهدفهم خير ، هذا أمر طبيعي ، إذ أن المخططات الشريرة لا بد وأن تتظاهر بالخير لكي تُقبَل عند الناس ويفسحوا لها الطريق للانتشار ، ولكن ألا يخطر سؤال في ذهن أي شخص ، إذا كان هدف الليونز خيري وفي مصلحة البشرية ، فما الداعي للتكتم الشديد ؟ ولماذا كل هذه الأسرار والأغلال التي توضع في عنق الداخل ؟ فإن المعروف عن الدعوات الخيرية أنها تكون في وضح النهار يعرفها كل داخل فيها ، وليس لها أسرار ولا مراتب خفية ولا درجات ولا دهاليز ولا طقوس أيضاً تؤدَى بطرق مريبة ، ولا إنفاق مريب ، لماذا كل هذه السرية في دعوة خيرية تخدم مصلحة كل شخص ؟ وأي إنسان سيمانع إذا قيل له إننا نعمل لمصلحتك ويجب أن تشاركنا السراء والضراء وأن تبذل إذا كنت غنياً أو يُبذل لك بقدر حاجتك إذا كنت فقيراً ؟!!

وليس هذا فقط ، بل يرد سؤال ملح أيضاً وهو : لماذا تهتم هذه النوادي بالأغنياء وأصحاب الجاه ؟ أليس الفقراء هم أحوج الناس إلى بذل المعروف لهم والأخذ بأيديهم وإشعارهم بالأخوة ؟ ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [(١)] فلماذا الأخوة في الليونز وغيره من سائر المذاهب الماسونية لا تتم إلاَّ بين أعضاء النوادي فقط ؟!!

ولماذا يقررون لهم إن أخاك الماسوني بعد أن تعرفه يجب عليك أن تخدمه وأن تشهد له زوراً وأن تحكم له حتى وإن كان ظالماً ، فاجعله أمام الناس مظلوماً وقوِّ حُجَّته على خصمه ؟!!

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٠

أليس الخصم هذا هو في عداد من تعمل لمصلحته الماسونية بزعمهم وزعم نواديها ؟!! إنه تناقض عجيب !!!

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ .[١]

وفوق كل ذلك فإن هذه النوادي هي احتكارية لخيرات البلد الذي تجثم فوقه ، إذ أن أعضاءها هم من طبقة الأثرياء في الغالب ، وكلهم يمشون على خط واحد مغاير لمصلحة فقراء ذلك البلد تماماً ، بل يمتصون خيرات الفقراء ويرهقونهم باحتكار قيم السلع لتغطية ما هم فيه من البذخ والاجتماعات الدورية في أفخم الفنادق وتقديم أروع المأكولات وما يذهب كذلك يميناً ويساراً للأصدقاء والصديقات وضرائب الانتساب أيضاً ، وإقامة الحفلات الساهرة الداعرة في أفخم الأماكن والمنتزهات لقتل الأخلاق الشريفة ، ثم ما الذي يستفيده البلد الذي تجثم عليه تلك النوادي من تحبيب إسرائيل إليهم والمناداة بأن اليهود بشر ويجب أن تشملهم الإنسانية ، وأنه لا خير في معاداتهم ، فإن الأرض تكفي الجميع ؟ ما الذي يستفيده البلد في الوقت الذي يخطط اليهود لذلك البلد ليكون مسكيناً ذا متربة ؟ إما بالتلاعب بعملته وتسليط الدولار عليها وإما برفع أيدي الشركات التي تغطي حاجة البلد ، وإما بفتح فتنة بينه وبين جيرانه أو غيرهم ، أو حتى بين بعض أهل ذلك البلد ، لتأتي بعد ذلك المساعدات الحربية للفريقين من مخازن هؤلاء اليهود الذين تصرخ النوادي بأن أُخوَّتهم غنيمة لا تُعوَّض ؟!!

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢

المبحث الثالث

منظمة شُهود يَهْوَه

المطلب الأول

معنى يَهْوَه

هو الإسم الجديد للَّه تعالى الذي أوحاه إلى موسى عليه السلام كما ذكره واضعو التوراة ، وقد سبق الكلام عنه في دراستنا للديانة اليهودية ، وما دام يهوه هو إله إسرائيل الخاص بهم كما صوَّرته التوراة ، فلا يحتاج الأمر إلى اجتهاد لاستجلاء حقيقة هذه المنظمة فهي يهودية أصيلة .

المطلب الثاني

أسماء منظمة شُهود يَهْوَه

١ ـ أطلق عليه في البداية مذهب الراسلية أو الراسليين ، نسبة لزعيمهم «تشارلز راسل» .

٢ ـ الدارسون الجدد للإنجيل .

٣ ـ برج المراقبة [١] والتوراة والكراريس .

٤ ـ جمعية العالم الجديد .

٥ ـ وأخيراً استقرت تسيمتهم بـ «شهود يهوه» ، وتتابع على رئاستها زعماء اشتهروا بنشاطهم وتفانيهم في خدمتها .

---

(١) كان الإسم : برج مراقبة صهيون ، ثم عدلوها وأخفوا كلمة صهيون .

المطلب الثالث

عقيدتهم

من غريب أمر هذه المنظمة أنها قد فاقت كل المخادعين والمحتالين ، لأن المعروف أن اليهود يبغضون المسيح والمسيحيين بغضاً لا مزيد عليه ، ومنهم شهود يهوه ، ولكن هؤلاء تظاهروا بحب المسيح والمسيحية ليهدموا البيت من داخله في تجربتهم الجديدة التي يهدفون منها في النهاية إلى إقامة دولة اليهود الكبرى .

ولقد ركن كثير من النصارى إلى هؤلاء الثعالب ظنّاً منهم أنهم على ولاء لهم ، ولم يعلموا أنهم المسمار الثاني - بعد «شاؤول» - في نعش المسيحية المحرَّفَة أيضاً ، أي أنهم يريدون إزالة تحريف التحريف ليبقى الولاء كله لليهودية الماكرة .

وما علمته أخي القارئ عن سرية الماسونية وطريقة استجلابها للناس ، وما علمته عن الروتاري ومبادئه ، فهي نفس الحال في شهود يهوه ، ظاهرها الخير وباطنها الشر المستطير .

فهي تتظاهر بأنها حركة خدمة عالمية لا تحدُّها الفوراق بين الناس ، لا الدين ولا الوطن ولا الجنس ، الكل سواء لا فرق بين كل البشر ، ومن ضمنهم اليهود ، وهي تخدم تعاليم التلمود في حقيقتها وليس الأناجيل كما يتخيل النصارى المغرَّر بهم .

المطلب الرابع

تأسيس المنظَّمة

تأسست منظمة شهود يهوه في أمريكا ـ البلد المضياف لأفكار اليهود ـ في ولاية بنسلفانيا سنة ١٨٨٤م ، مستفيدة من خبرة أعضاء الروتاري ، تأسست في سرية تامة كغيرها من المنظمات الماسونية ، حيث تختلف الأسماء وتتفق المبادئ والغايات .

المطلب الخامس

حقيـقة المنظَّمة

وضوح الجانب اليهودي منها أمر غير خافٍ ، وقد عرفت مما سبق أن هذه المنظمة يهودية حتى وإن كانوا قد تواروا خلف التظاهر بالمسيحية ، مما يدل عى ذلك ما ذكره الباحثون عنهم في الأمور الآتية :-

١ ـ استعمالهم الرموز الماسونية اليهودية ، ويتضح ذلك في الشمعدان السباعي رمز الماسونية ، مثل النجمة السداسية (نجمة داود) .

٢ ـ انتسابهم إلى يهوه كما في إطلاق التوراة لهذا الإسم عى اللّه تعالى .

٣ ـ أن رؤساؤهم كلهم يهود .

٤ ـ أنهم يعادون الأديان كلها إلاَّ اليهودية .

٥ ـ ألغوا عطلة يوم الأحد تبعاً لسائر اليهود .

٦ ـ تحريضهم على إقامة الدولة اليهودية الكبرى في فلسطين .

٧ ـ المناداة بوحدة البشر وإذابة الفوارق بينهم تمهيداً لإدخال اليهود وإفرادهم بعد ذلك .

٨ ـ عقائد هذه المنظمة عقائد يهودية في الباطن كما ذكره الباحثون عنهم .

المطلب السادس

كيف انتشرت عقائد هذه المنظَّمة

انتشرت عقائد هذه الفئة الضالة بشتى الطرق المتناقضة :

١ ـ إشباع رغبات الداخلين وشهواتهم من التحلل الخلقي والاختلاط والسهرات الداعرة .

٢ ـ محاولتهم تصيد الشباب وبما يقدمونه لهم من المساعدات المختلفة التي يرون أن الشخص بحاجة إليها ليصبح أسيراً لهم متكلاً عليهم ، إما بتقديم سكن ، أو بإغراء جنسي بإرسال فتيات لمقابلة بعض الشباب وسؤاله عن حاله وما يحتاج إليه في أموره الدراسية والمعيشية ، ويعرفون الشباب من خلال أعوانهم المنتشرين في أماكن تجمع الشباب .

٣ ـ إصدار نشرات يدعون فيها كل شاب يريد كذا وكذا أن يتصل بهم على عناوين يوضحونها له .

٤ ـ القيام بحفلات ورحلات لا يطلب من الشخص إلا حضوره الشخصي .

٥ ـ يتظاهرون بأنهم يدعون إلى المحبة بين أفراد البشر ، وأن يرفرف السلام على الجميع ، وأن تنبذ الحروب ، وأن يكون العالم كله دولة واحدة لا فوارق ولا فواصل بينهم ، الكل في منزلة واحدة ، وأن نوادي الماسونية هي الكفيلة بتحقيق كل تلك السعادة عندما ينضم الجميع لها ويكونون جواسيس لحمايتها وحماية أقطابها !!

٦ ـ التركيز على أن الإنسان ينبغي أن يعيش حياته كلها في هذه الدنيا بكامل حريته دون قيود ولا مراقبة ، وهم يهدفون من وراء ذلك ـ قبل أن يصرحوا له ـ إلى إنكار الأديان وقيمها وأخبار الآخرة كلها .

٧ـ ما يقومون به من مخادعة النصارى والمسلمين من تفسير بعض فقرات من الأناجيل وبعض الآيات التي يصرفون معانيها إلى ما يوافق مبادئهم بالوسائل التي يملكونها من مدارس وصحف وكتب ونشرات .

لأجل هذه المؤامرات وغيرها تواترت تحذيرات علماء الإسلام من الدخول في هذه المنظمات الماسونية وصدرت عدة فتاوى تدل على تحريم الانضمام إليها وأن على كل مسلم يحب تقديم الخير للبشر أن يتم ذلك عن طريق الجمعيات الإسلامية ، ففيها الكفاية عن كل تلك الجمعيات المشبوهة .

فأي خير من تلك الجمعيات التي يقول فيها الماسوني «لاف أرج» مفتخراً بالإلحاد ومحاربة الأديان :

«يجب على الإنسان أن يتغلب على الإله وأن يعلن الحرب عليه وأن يخرق السماوات ويمزقها كالأوراق ... إن الإلحاد من عناوين المفاخر ، فليعش أولئك الأبطال الذين يناضلون في الصفوف الأولى وهم منهمكون في إصلاح الدنيا ... نحن الماسونيين أعداء للأديان وعلينا ألاَّ ندخر جهداً في القضاء على مظاهرها ... سنعلنها حرباً شعواء على العدو الحقيقي للبشرية الذي هو الدين ، وسننتصر على العقائد الباطلة وعلى أنصارها ، ولكننا نتخذ الإنسانية غاية لنا من دون اللَّـه» .[1]

---

(١) انظر : «اليهودية» ، ص ٣٥٤

وإذا كان هذا هو معتقد أقطاب الماسونية ، فأي خير سيقدمونه للبشرية ، ومن أي وجه ستأتي الرحمة إلى قلوبهم ، إنهم قُساة القلوب لا يؤمنون بثواب ولا بعقاب أخروي ، جنتهم ما يصلون إليه من الشهوات الرخيصة ، يأخذون من الذي يسدون إليه معروفاً أكثر مما يعطونه لاصطياده وتسخيره لخدمتهم بفكره أو بقلمه أو بلسانه أو حتى بيديه للتصفيق بهما لما يقولونه ويهدفون إليه .

المطلب السابع

أماكن انتشار شهود يهوه

انتشرت هذه الحركة في أكثر من بلد من بلدان العالم ، منبعثة من أمريكا ، وقلَّما يخلو منهم بلد ، بل حتى البلاد التي تنبهت لخطرهم فمنعتهم لا يزالون فيها بطرقهم السرية تحت شعار إعادة إحترام الأديان والعودة بالناس إلى الفضائل ونشر المودة بينهم بزعمهم .

ولقد كان لفلسطين النصيب الأوفى من خدمة هذه الجمعية .

المبحث الرابع

جمعية بناي برث أو أبناء العهد

وفيه المطالب الآتية :

المطلب الأول

التعريف بها

يطلق عليها جمعية «بناي برث» أو «أبناء العهد» ، وهي جمعية قديمة من فصيلة الجمعيات الماسونية السرية .

مهمتها الأساسية التجسس لحساب اليهود ودراسة الظروف التي تحيط بهم ومعرفة ما يدور من أفكار ضدهم والتغلغل إلى مواقع التأثير والسلطة بإنشاء جمعيات مختلفة الأسماء للدفاع عن اليهود .

ولهم تأثير قوي جداً في أمريكا اجتماعياً وثقافياً ، وانظر إلى تفاني أمريكا في خدمة إسرائيل ضاربة بمصالحها مع العرب والمسلمين عرض الحائط .

إن «بناي برث» جمعية يهودية خالصة خاصة باليهود ، تهدف إلى امتلاك فلسطين ، وقد أسسوا فيها في البداية قرية قريبة من القدس ، وظلوا

يعملون بجد ونشاط لامتلاك فلسطين على ضوء ما أفادهم به واضعوا التلمود والتوراة المحرَّفَة حول أحقيَّتهم بفلسطين وركوبهم العالم كله لأنهم شعب اللَّه المختار .

وعن صلة «بناي برث» بالماسونية يقول الحاخام الماسوني : «ليست البناي برث إلاَّ بديلاً مؤقتاً ، وحينما تستطيع الحركة الماسونية أن تعترف بأنها يهودية في طبيعتها وأهدافها تكون المحافل العادية كافية للقيام بالواجب» .(١)

(١) انظر : «الماسونية أو كنيس الشيطان» ، ص ٢٣

المطلب الثاني

نشأة البناي برث

تأسست هذه الجمعية سنة ١٨٤٣م في أمريكا في مدينة نيويورك على يد مجموعة من اليهود الألمان برئاسة «هنري جونز» الذي هاجر إلى أمريكا واستوطنها ومنها نشر تعاليم هذه الجمعية .

وقد أنشأوا لهم فرعاً كبيراً في فلسطين أسهم في بناء المستعمرات على أيدي أبرز الشخصيات اليهودية :

- ناحوم سوكولوف .
- زنكوف حاييم نخمان .
- دافيد بلين مائير برلين .
- حاييم وايزمان .
- وجاد فرامكين .[١]

ولعل قادة إسرائيل اليوم ، وعلى رأسهم في وقتنا الحاضر رئيس وزراء إسرائيل «شارون» هم الممثلون لكافة الجمعيات الماسونية .

---

(١) انظر : «الماسونية في المنطقة ٢٤٥»

المطلب الثالث

نشاط البناي برث

يتظاهر هؤلاء - كغيرهم من نوادي الماسونية الأخرى - بحب الخير للبشر وخدمة الضعفاء والمحتاجين من تقديم العون المادي لهم وتفقد أحوالهم وإقامة بعض الأعمال لهم .

ويتميزون بالدعوة الجادة إلى العطف على اليهود واحترامهم وأن الدعوة الإنسانية تشملهم كغيرهم من بني آدم دون النظر إلى الدين أو الجنس .

وتغلغل هؤلاء إلى أن وصلوا إلى سدَّة الحكم في أمريكا مثل «أيزنهاور» الذي عين اليهودي «فيليب كلوزنيك» رئيساً للوفد الأمريكي في جمعية الأمم المتحدة التي تحدب هي بدورها على مصالح اليهود ومباركة توسعهم على حساب ديار المسلمين الفلسطينيين .

وقد شمل نشاطهم كل مختلف المرافق في الدول الغربية في جميع النواحي السياسية ، حيث أصبح منهم حكاماً وسفراء ومديرين ، وتخصصوا في الدراسات الثقافية ، حيث دخلوا الجامعات ، فصار منهم المدير والمربي والمحاضر ، وكذلك تخصصوا في الدراسات الاجتماعية حيث أقاموا الرحلات والتعارف والزيارات الودية - كما يسمونها - بينهم وبين مختلف الفئات .

المطلب الرابع

أماكن انتشار البناي برث

انتشرت أفكار جمعية بناي برث بعد الولايات المتحدة الأمريكية في بريطانيا وألمانيا وفرنسا واستراليا وأفريقيا ، ولها نوادٍ في بعض الدول العربية مثل الأردن وسوريا ولبنان والبحرين والمغرب وتونس والعراق ومصر والسودان .

وقد تنبَّه كثيرمن المصلحين فحذَّروا من دخول هذه الجمعية المريبة ، وبيَّنوا أنه يجب على فاعل الخير أن يختار أهل الخير حقيقة من الجمعيات الإسلامية ، ولا يزال الكثير ولا يزال أتباعها ينتشرون ويزدادون بفعل الدعاية الماسونية ، وما تتظاهر به جمعية بناي برث من الدعوة إلى الإصلاح وإلى خدمة البشر ، وما يجده بعض الداخلين فيها من المساعدات بالفعل ، لأن هذه الجمعية تعتبر أن تلك المساعدات لا تساوي بيع العضو نفسه لهم .

ويذكر العلماء المصريون أن لهذه الجمعية ناديين بمصر ، يسمى الأول «محفل ماغين دافيد» ، والثاني «محفل ميمونت»[(١)] .

ومما يجب معرفته أن مصر تحفل بعدة نوادٍ ماسونية ، وعليها أناس يقومون بنشرها والدعاية لها على طبقات مختلفة وثقافات متعددة ، وفي أكثر من مدينة مصرية تأتي في أولها مدينة القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن المصرية وبمباركة كبار المسئولين كما عرفت مما تقدم بيانه .

---

(١) انظر : «خطر اليهودية العالمية» ، ص ١٥٢

الفصل الثاني والعشرون

أشهر الشخصيات الماسونية

ونختم الكلام عن الماسونية بذكر أشهر رجالها ، وأشهر المحافل التي عرفت ، فقد وجدت الماسونية مرتعاً خصباً في رؤوس كثير من المنحرفين فخدموها خدمات جادة في مختلف أفكارها ، وأسهموا في بنائها والتخطيط لإنجاحها ، وهم كثيرون جداً عبر تاريخ الماسونية الطويل ، ومن أشهر أولئك الخدام للماسونية :-

ـ التسعة الذين قامت على أكتافهم بذرة الماسونية الأولى ، التسعة المفسدون في الأرض .

ثم تتابع ظهور رجال كانت لهم أدوارهم المشهورة ، ومن أشهرهم :

١ ـ «**آدم وايزهاويت**» : وقد أصبح له دور خطير في بناء الماسونية ، ومن غريب أمر هذا الرجل أنه كان مسيحياً ، بل من رجالات المسيحية في مسقط رأسه ألمانيا ـ ولد عام ١٧٤٨م ـ درس العقيدة النصرانية دراسة وافية ، ثم انقلب عن دينه النصراني ، فإذا به ملحداً طاغية محارب لجميع الأديان ، وقد سمع بانحرافه دهاة الماسونية فتلقّفوه وحبَّبوا إليه الإلحاد تحت زعامة الماسونية إلى أن أصبح من كبار رجالاتها ومفكريها ، حاقداً على جميع الحكومات والأديان القائمة في وقته ، وقد عكف على قراءة كتب اليهود وقرأ البروتوكولات ، واستخرج على محتواها عدة تعليمات خطيرة ، وأنشأ محفلاً ماسونياً سمّاه «محفل الشرق الأكبر» ، والذي أصبح له دور بارز إذ أصبح صاحب السلطة على جميع المحافل في العالم .

وقد تظاهر بأنه يدعو إلى إقامة حكومة عالمية مكونة من رجال الفكر ، فانخدع به كثير من المفكرين البارزين فدخلوا دعوته التي كانت حقيقتها رغبته في تدمير حكومات العالم وأديانهم ، وقد سلك هذا الرجل طرقاً من المكر والاحتيال المعروفة لدى دهاة الماسونية ، فأنشأ فرقاً من العملاء سالكاً الأمور الآتية التي ذكرها «وليام غاي كار» :

١ ـ استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة على مختلف المستويات ، ويصاحب ذلك الابتزاز السياسي ، أو التهديد بالخراب المالي ، أو يجعلون الشخص ضحية فضيحة عامة كبرى ، أو بالإيذاء الجسدي ، أو حتى بالموت هو ومن يحبهم غدراً .

٢ ـ التركيز التام على اجتذاب الطلاب المتفوقين عقلياً أو المنتمين إلى الأسر المحترمة وتدريسهم فكرة إقامة حكومة عالمية واحدة للعالم ، وأن هذا هو الطريق للحياة السعيدة وإبعاد شبح الحروب ، وقد أنشأوا المدارس لهذا الغرض .

٣ ـ جعل مهمة أولئك الأذكياء ممن وقع في شباكهم أن يصبحوا عملاء لهم بعد إحلالهم في المراكز الحساسة ومواقع المسئولية .

٤ ـ العمل للوصول إلى السيطرة على الصحافة وكل أجهزة الإعلام ليتم التأثير على سائر الجوييم وخصوصاً بريطانيا وفرنسا ، أكبر قوتين في العالم ـ في زمان «وايزهاوبت» وقد طبق هاوبت هذه الطرق بدقة وأفاد منها كثيراً وظل على هذا الحال إلى أن هلك «هاوبت» في عام ١٨٣٠م .

وفي عام ١٨٣٤م أختير بدلاً عنه الزعيم الثوري الإيطالي «جيوسيبي مازيني» ، وانضم إليه الجنرال «ألبرت بايك» الأمريكي الذي وقع تحت تأثير مازيني ونفوذه ، وقد أصبح بايك من رؤساء الماسونية الذي أشعل الفتن المختلفة والثورات في كل مكان بواسطة عملائه النورانيين .

وقد ركز أولئك الأشرار خططهم على خراب الأديان وتدمير كل الحكومات بإثارة الشعوب بعضها على بعض لتتطاحن فيما بينها ، ويتم ذلك بإمداد بعضهم ضد البعض الآخر بالسلاح والدعايات التي تفرق بينهم وتمزقهم وتزيل الثقة فيما بينهم لكي يجهز بعضهم على بعض ، ليمهدوا الطريق لحكم دولة اليهود العالمية دون أن يشعروا بذلك إلاَّ في النهاية بعد فوات الأوان . (١)

وقد كان لـ «توماس جيفرسون» الذي أصبح فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ، وهو تلميذ «وايزهاوبت» نشاطه المحموم المتمم للمؤامرة الماسونية الشيطانية التي خاض غمارها «هاوبت» و «مازيني» من قبل .

وما يحصل في وقتنا الحاضر من حدب رؤساء أمريكا على إسرائيل وانحيازهم التام إلى جانبها بكل قوة وحزم إلاَّ من الأدلة الواضحة على مدى تأثير تلك المنظمات الماسونية التي تنخر أمريكا من داخلها كما ينخر السوس الخشب .

---

(١) بتصرف عن كتاب «أحجار على رقعة الشطرنج» لـ «وليام غاي كار» ، تحت عنوان «المؤامرة العالمية» ، ص ٧ ـ ٢٨

ومن شخصيات الماسونية أيضاً «جورجي زيدان» الذي زعم أن مدينة بغداد ، وقصر غرناطة ، وجامع أحمد بن طولون في القاهرة . قامت ببناء كل ذلك أيدٍ ماسونية !!!

وقال عن البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي - رحمه اللَّه - أنه كان ماسونياً [(١)] !! وأين صلاح الدين من الماسونية ؟

ولا شك أنه ما دامت النوادي الماسونية تتكاثر ، فلا شك أن وراء تلك النوادي أشخاصاً سخَّروا أنفسهم لخدمتها ، سواء أكان ذلك في الغرب أم في الشرق ، وقد خصص الكثيرمنها لدخول رؤساء الدول وكبار مفكريها تحت تسميات مختلفة وأغراض شتى ، ودعايات خلاَّبة تخفي وراءها أموراً كثيرة مجهولة ، تطبق بحذق ودهاء دون أن تعرف الشعوب ما وراء تلك المساعدات والاتفاقيات التي تتم بين فئة من أصحاب السلطة وبين تلك النوادي والاجتماعات ، وكلها تتم باسم الشعوب ورضاها الكامل بزعمهم .

بينما لا ترى الشعوب من تلك المساعدات الضخمة إلاَّ ما يسد الرمق من جانب ، ومن جانب آخر لا تسمع إلاَّ بالديون الفادحة التي جثمت عليهم دون أن يروا لها مقابلاً مكافئاً .

وهل يمكن أن تقدم النوادي والمحافل اليهودية الماسونية للجوييم ما يعينهم على الاستغناء عنهم ؟!

---

(١) انظر : «الماسونية» ، ص ١٥٢

الفصل الثالث والعشرون

أشهر المحافل الماسونية

للماسونية محافل عديدة منتشرة في أنحاء العالم ، تعمل عملاً حثيثاً بصمت وسرية ، اختطفت أعداداً من الناس وجعلتهم مطايا لتحقيق مطامع اليهود في السيطرة على العالم وإقامة مملكة اليهود العامة التي يحلمون بإنشائها على أنقاض حضارات وديانات الجوييم .

ومن أشهر تلك المحافل «محفل إنجلترا الأعظم» :

هذا المحفل هو محفل لندن المركزي ، كان في البداية قد أطلقوا عليه إسم «محفل أورشليم» ، ولكن بعض الأذكياء رأى أن في إطلاق هذه التسمية إشارة واضحة إلى الأصابع اليهودية الطامعة في القدس ، فاقترحوا أن تغيَّر هذه التسمية بعد ثلاثة أشهر ليصبح الإسم الجديد «محفل إنجلترا الأعظم» .

ثم انتشرت بعد ذلك المحافل إلى البلدان الأخرى في باريس ، وألمانيا ، وهولندا ، والدانمارك ، والهند ، وجبل طارق ، والبرتغال ، وسويسرا ، وإيطاليا ، وبلجيكا ، وروسيا ، والسويد ، ثم انتقلت إلى أمريكا مع مجيء الاستعمار البريطاني ، ووجدت الماسونية مرتعاً خصباً في أمريكا ، إذ أصبحت أكثر الدول في عدد المحافل وفي عدد الأعضاء ، بل لم تعد الماسونية في أمريكا سرية بل أصبحت حقيقة واضحة للعيان [1] كما عرفت مما سبق .

(١) انظر : «الماسونية» لـ «أحمد عطار» ، ص ٦٣

مراجع الماسونية :

من لطف اللّه بالناس أن هيَّأ للاطلاع على خبايا الماسونية كثيراً من العلماء حيث توفرت معلومات كافية لمعرفة أسرار هذه الطائفة ظهرت هذه المؤلفات سواء كانت تُكتب لتأييدها أو لمحاربتها ، فهي مكسب لمعرفة خبايا الماسونية وأفكارها الشريرة ، وستجد بُغيتك لمعرفة هذا الداء في ثنايا هذه المراجع الآتية :

- «الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية» ، تأليف «شاهين مكاريوس» .
- «أسرار الماسونية» ، تأليف «الجنرال / جواد رفعت أتلخان» .
- «أصل الماسونية» ، تأليف «لويس شيخو اليسوعي» .
- «البناية الحرة وروح الماسونية» ، تأليف «أحمد زكي أبو شادي» .
- «تاريخ الماسونية العام» ، تأليف «جورجي زيدان» .
- «حقيقة الماسونية» ، تأليف «د. محمد علي الزعبي» .
- «الخلاصة الماسونية» ، تأليف «إيليا الحاج» .
- «دائرة المعارف الماسونية المصوَّرة» ، تأليف «حنا أبي راشد» .
- «السر المصون في شيعة الفرمسون» ، تأليف «لويس شيخو اليسوعي» .
- «شيعة الماسونية» ، تأليف «الآباء اليسوعيين» .
- «فضائل الماسونية» ، تأليف «شاهين مكاريوس» .

- «كشف الظنـون عن حـال الفرمسـون» ، تأليف «الحاج محمد علي الشامي» .

- «الماسونية» ، تأليف «أحمد عبد الغفور عطار» .

- «الماسونية بلا قناع» ، تأليف «لويس شيخو اليسوعي» .

- «الماسونية بين الشيوعية والصهيونية» ، تأليف «عفيفي إبراهيم حسن» .

- «الماسونية ذلك العالم المجهول» ، تأليف «د. صابر طعيمة» .

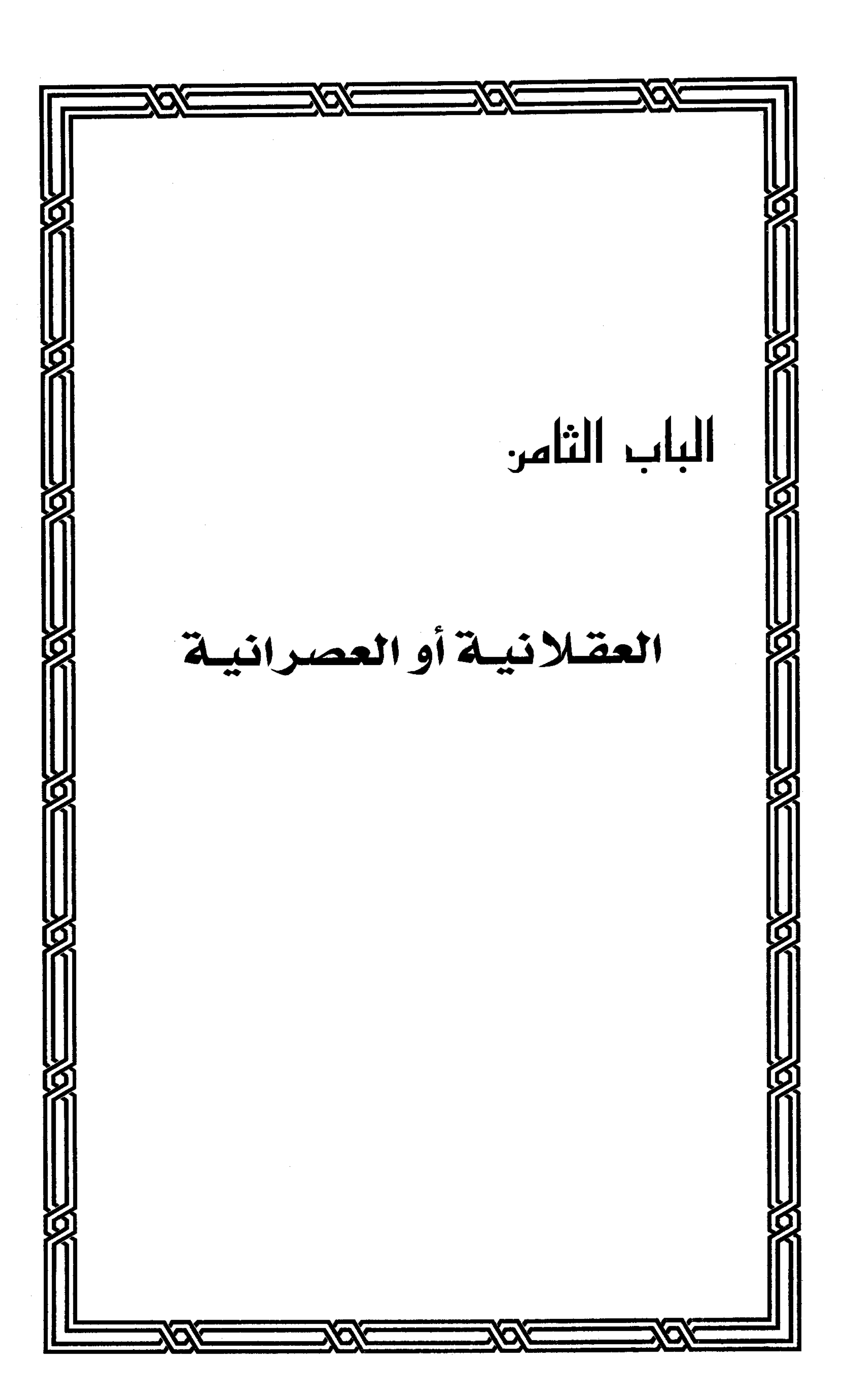
- «الماسونية في العراء» ، تأليف «د. محمد علي الزعبي» .

- «ماسون لوك في ماسون» (بالتركية) ، تأليف «عزت نوري قلقلر» .

- «الموسوعة الماسونية» ، تأليف «حنا أبي راشد» .

- «هذه هي الماسونية» ، تأليف «فورسينيه» ، ترجمة «بهيج شعبان» . (١)

(١) انظر : «الماسونية تحت الأضواء» ، تأليف عبد الجبار الزيدي ، ص ٤٣



الباب الثامن

العقلانية أو العصرانية



البــاب الثــامن

العَقْلانيَّة أو العَصْرانيَّة

ويشمل الفصول الآتية :-

الفصــل الأول

التعريف بالعقلانية

العقلانية نسبة إلى العقل كما هو الواضح من التسمية ، ولقد كان للعقل في المفاهيم الأوربية دينية ـ أي نصرانية ـ وغير دينية مواقف غاية في التناقض والاختلاف .

وكان للعقل في مفاهيمهم أطواراً مختلفة قوة وضعفاً ، كما ستجد ذلك من خلال دراسة هذا المذهب .

ويعرف القارئ تماماً أن أكثر المبادئ الفكرية إنما جاءت من البلاد المضيافة لمختلف الأفكار ، وهي أوربا وأمريكا ، بسبب تلك الظروف القاسية التي أنتجتها حماقات رجال الدين النصراني وما نشأ عنها من أفكار شتى مختلفة الأسماء والاتجاهات والمبادئ ، ثم تلقفتها اليهودية العالمية ممثلة في الصهيونية والماسونية الحاقدة فشبَّت وترعرعت على أيديهم وحدبهم وعنايتهم بها حتى أتت ثمارها في إقصاء الأديان وتمزيق وحدة الشعوب وإثارة النعرات الجاهلية وضرب الناس بعضهم بالبعض الآخر ، وأفسدت الأخلاق وسائر القيم .

لترجع المكاسب كلها في النهاية إلى اليهود لتحقيق مخططهم في استحمار العالم (الجوييم) مكتسحة في طريقها تعاليم الكنيسة وأفكارها الباطلة المنحرفة التي ادَّعت أنها من عند اللَّه تعالى ، ثم فرضتها بالقوة رغم رفض العقل لها ، وإنزال العقاب الشديد بمن يتجرأ على ردِّها أو حتى طلب مناقشتها بالعقل بسبب عدم ثقة القائمين عليها بما فيها من آراء فاسدة لا تقبل النقاش .

الفصل الثاني

زعماء عصر التنوير

برز مجموعة من الفلاسفة الذين كان لهم دوراً بارزاً في رفع معنويات الناس وجرأتهم على هدم الدين النصراني ورجاله .

وكان من أبرز رجالات عصر التنوير : ولف ، ولسنج ، فيتشه في ألمانيا ، وفولتير ، وبيلي ، ولامتري في فرنسا .[1]

وكانت ونيوتن وهويز وآدم سميث وغيرهم ممن سار على طريقتهم .

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ص ٤٣

الفصل الثالث

المقصود بعصر التنوير

المقصود بعصر التنوير هو ما نجم عن خضم العراك بين الدين النصراني ورجال الفكر ، حيث ظهرت مذاهب عديدة للإجهاز على سلطة الدين النصراني ورجاله ، فنشأ ما يسمى بعصر التنوير ، وهي الفترة التي أقصي فيها الدين النصراني وحلَّ محله العقل في كل شيء وصار له الحكم على الدين وعلى سلوك الناس بداية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، الذي عُرف فيما بعد ذلك بعصر التنوير ، أي سيادة العقل وحده دون منازع في رد فعل عارم لكبت الكنيسة له والإتيان بخرافات وخزعبلات لا يقرها العقل بحال .

ولشدة هربهم من ظلم الكنيسة فقد اعتبروا تقديم العقل على الدين هو بداية النور ، مع أنهم بعد فترة أداروا ظهورهم لهذا الإله ـ العقل عندهم ـ وتفلتوا منه كذلك كما سيأتي بيانه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** (٨٢) ﴾ [١] خصوصاً وأن الذين أقاموا هذا المذهب ودعوا إليه كانوا يريدون هذا الخلاف ويؤججون ناره لحاجات في أنفسهم .

وحين غزت حركة التنوير العالم الغربي اتجهت بقوة إلى الفكر والآداب

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢

في دعوة جادة إلى نبذ الدين وسائر القيم والدينية وكل السلوك القائم في استكبار وعتو شديد عن الدين ـ أي دين ـ حيث حل محله العقل الذي حكَّموه في كل شيء سواء كان أهلاً لذلك أو ليس أهلاً له ، فهو الحاكم في المحسوسات والمغيبات أيضاً ، حيث علَّلوا لكل ظواهر هذا الكون وما يقع فيه بتعليلات أكثرها خرافية مستندين إلى تأييد العقل لهم بزعمهم .

وفي النهاية إنما يكون الحكم أولاً وأخيراً للأهواء والمصالح المختلفة ، وأنى للفلسفة أن تفلح في بيان الحقائق الإلهية والعقائد الربانية أو سعادة البشر وهي لا تملك هذا الجانب ، وقد قيل «فاقد الشيء لا يعطيه» ، ولهذا فإن تدخل الفلاسفة في بيان الجوانب العقدية إنما هو تطفل عليها وتطاول قبيح لا يقدم للنفس غذاءها الذي تحيا به وتسير بموجبه راضية ممطئنة ، وإنما يقدم للعقل نظريات وافتراضات ليلهو بها إلى حين .

وما ذكرناه من أن خروج أهل أوربا بتلك الأفكار إنما كان بسبب الدين النصراني ، فإنما هو وصف لما وقع وليس بعذر مُنجٍ لهم عند اللَّه تعالى لعدم بحثهم عن الدين الصحيح الذي سيجدون فيه السعادة والعدل لو أنهم طلبوه بعد أن أقام اللَّه الحُجَّة على جميع البشر .

الفصـل الرابـع

قضية العقل في المفهوم الأوربي والأدوار التي مرَّ بها

أصبحت العقلانية التي نتحدث عنها مذهباً فكرياً فلسفياً ، وقد عرفت مما تقدم منها أنها نسبة إلى العقل بإرجاع الحكم إليه في كل شيء بغض النظر عن الوحي أو التجارب ، وأن العقل يعرف بمفرده طبيعة الكون والوجود كله ، وأن كل المعلومات قد سبقها العقل .

وكان أساس هذه الفكرة هي الفلسفة الإغريقية القديمة على يد «سقراط» ، و «أرسطو» ، و «رينيه ديكارت» ، و «سينوزا» ، وغيرهم ، وقد تأثرت به المعتزلة وقدموه على مفاهيم النصوص فيما بعد .

●● الأدوار التي مرت بها قضية العقل :

عاش العقل في المفهوم الأوربي أدواراً متناقضة بين مد وجزر ، علواً وهبوطاً ، تقديماً وتأخيراً ، ففي المرحلة الأولى تم فيها تقديس العقل في أوربا فكان هو المعيار لكل شيء ، وظل هكذا إلى أن جاءت النصرانية فإذا بها تصطدم به ويصطدم بها بعنف شديد ، إذ لا يمكن للعقل أن يتقبلها ، فكان لا بد من الإطاحة به ، وهو ما وقع بالفعل حينما كان رجال الكنيسة قوة جبارة فخفت صوت العقل والعقلانيين إلى حين .

ثم ثار من جديد ، وثورته الجديدة هذه كانت هي إحدى الأفكار التي

قامت كرافد جديد من الروافد التي تضافرت للوقوف في وجه الكنيسة ودينها ورجالها ، وللانفلات من تلك القيود التي أثقلت كواهلهم ، بحيث يستغني عنها بالرجوع إلى العقل واعتباره مصدراً للمعرفة ومصدراً للتشريع تحليلاً وتحريماً ، صحة وبطلاناً على حسب ما كان ينادي به سقراط وأرسطو سابقاً ، وأن العقائد الدينية يجب أن تُختبر بالمعيار العقلي ، فما وافق العقل قُبل ، وما خالفه رُدَّ ، وهو رد صريح لما كان يتمتع به رجال الكنيسة من نفوذ ديني لا حدَّ له ولا يقبل النقاش ولا يجيز أدنى الشك في طقوسه وتعاليمه ، لأنه يمثل تعاليم الرب المسيح ، بزعمهم ، ولأن اللَّه لا يرضى إلا به ، وأن رضاه تبعاً لرضى رجالاته ، وغضبه تبعاً لغضبهم ، فمن أرضاهم نجا وفاز ، ومن خالفهم وقع في السخط والعقاب الأبدي ، وأنها ديانة عظيمة وفوق مستوى العقول ، فليس للعقل أن يعترض عليها ، بل يجب عليه أن يصدق ولو بالمستحيلات ما دامت صادرة عن البابا ، فنصدق أن الثلاثة واحد ، وأن الإله وُلدَ من امرأة ، وأن عيسى عليه السلام هو ابنه الوحيد ... إلى آخر ما يقرره قداسة البابا .

ومن هنا كان رد الفعل عارماً تحت قيادة العقلانيين الذين آلوا على أنفسهم أن يكتسحوا في مدهم كل فكر ديني أو غيره يخالف وحي العقل ، ظانين أن ما أتت به الكنيسة من تلك الأفكار الضالة تحت مسمى الدين هو الدين فعلاً بخرافاته وانحيازه للظالمين من البابوات والأباطرة ، ولكنهم في شدة الاندفاع لتقديم العقل حملوه ما لا طاقة له به ، ولا سبيل له إلى ما أرادوه منه ، خصوصاً في قضية الإيمان باللَّه عزَّ وجلَّ وألوهيته وعبادته

التي تقصر عنها العقول وتخضع لها الرقاب ، ولا تتم الهداية إلى الخير إلا عن طريق الخضوع التام لها والانقياد والسير في طريقها كما بيَّنته الرسل عن اللَّه عزَّ وجلَّ ، وهذا هو الذي يؤيده العقل السليم ويوافق قدراته ويرفض الاستنكاف عنه .(١)

ولهذا كان تخبط الفلاسفة حينما ابتعدوا عن منهج اللَّه تعالى أمراً طبيعياً ، لأن الرجوع إلى العقل وحده لا يمكن أن يكون وراءه إلاَّ الاختلاف والتناقض ، وذلك لأن واهب العقول سبحانه لم يجعلها على درجة واحدة ، وبهذا يتبين أن العقلانية التي قدمها فلاسفة الإغريق القدامى مثل سقراط وأرسطو لم تكن هي الأخرى إلا نظاماً جاهلياً من صنع البشر ، وأنى له أن يحقق السعادة للبشر ، سواء كان ذلك هو العقلانية أو تعاليم الكنيسة الطاغية أو غيرها من أنظمة البشر القاصرة ، وقد يلتمس الشخص للعقلانيين العذر في خروجهم على مسمى الدين ونفورهم منه إذا تصور مدى الخرافات التي جاء بها رجال الدين النصراني الذي قام على أكتاف كواهل المجامع المحلية والمسكونية ، وما تميز به من ألغاز محيرة في قضية الألوهية ، ودور عيسى عليه السلام فيها إذ أنه مرة يُصوَّر على أنه إله ، ومرة أخرى أنه ابن إله ، ومرة صُلب وهو يستغيث ويصيح ، وأخرى أنه قدَّم نفسه فداءً للبشرية إلى

---

(١) «وصف أرسطو الإله بأنه ذات أزلية مقدسة ، لكنه سبحانه لا عمل له ، فلا يخلق ولا يتجدد له أي عمل ، وليس له إرادة واختيار لأنه لا يليق به أن يفعل شيئاً بنفسه . ثم علَّل لوجود المخلوقات بأنها توجد من قبيل فيض الإله عليها حب الشوق إليه والرغبة في لقائه لا أنه هو الذي يخلق بنفسه وإرادته» بتصرف عن مذاهب فكرية ، ص ٥٠٣

آخر ما عرفت من أقاويل النصارى الكثيرة فيه ، وهنا اصطدمت تلك التعاليم بالعقل ، إذ لا يمكن أن يقبلها إلاَّ في حال غيابه وإخضاعه بالقوة ، بل إن النصارى أنفسهم الذين أسَّسوا تلك المفاهيم لم يكونوا على اقتناع تام بصحتها ، وأقوى دليل على ذلك أن البابوات فرضوا قبولها بقوة السلاح وشدة البطش ، أقل ما في الأمر حتى يحافظوا على جاههم ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولو كانت تلك التعاليم منسجمة مع العقل يقبلها وتقبله لما كانت هناك حاجة إلى تلك المعاملة القاسية من رجال الكنيسة لغيرهم ممن لا حول لهم ولا قوة ، فإن العقل لا يتقبل أن يُقال له إن ربك الذي خلق هذا الكون كله وما فيه كان واحداً أحداً فرداً صمداً ، ثم احتاج إلى الصاحبة والولد والشريك له أيضاً ، وأنه صار أباً حنوناً على ولده الذي تبناه بعد أزمان طويلة من خلق آدم ثم فوَّض له أمور العباد وما في هذا الكون إليه يتصرف فيه كما يشاء . إن شخصية هذا الإله لا يمكن أن يحترمها العقل ، لأنها شخصية شخص كان وحيداً مقهوراً ثم تزوج وأنجب ولداً واحداً أطلق يده على كل ما كان له من أمر ونهي ، تعالى اللَّه عن كل ذلك .

فمتى يقتنع العقل بأن هذا هو الإله الخالق الرازق القاهر فوق عباده الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾[1] ، ومتى يقبل العقل أن تفرض مجموعة من الناس العقائد والتحليل والتحريم دون أي مستند لهم إلا عقولهم ، ثم يرضى بها العقل بعد ذلك ويقبلها راضياً

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٤

مطمئناً بصحتها وهو يعلم أن مصدرها ليس هو رب العالمين ، وإنما هي عن حفنة من الشرهين عباد المناصب المتحجرين ، ومتى يقبل العقل ويسلم بأن اللّه خلق الأرض كلها وأهلها في حالة نقص دائم وإثم وخطيئة وأنه لا يدخل ملكوت اللّه من عمَّر الدنيا أو ملك مالاً ، وأن الحياة الحقيقية هي في ترك الدنيا وعدم التفكير فيها ، وأن لا صلاح للإنسان إلا حينما يستغرق في الرهبانية ويترك كل تفكير في حياته وما تحتاجه من الضروريات ، فتعطل التفكير في الديانة النصرانية ، بل وحورب بكل ضراوة .

ومن هنا بدأ الفكر في أوربا يضيق ذرعاً بخرافات الكنيسة وما أتت به من مفاهيم اخترعها رجال كانوا يطمحون إلى أن يحلوا أنفسهم محل الإله والنيابة عنه على البشر ، فانقضَّ أنصار التحاكم إلى العقل على تلك الخرافات مثل المارد الجبار ، إلا أنهم في اندفاعهم نحو تقديس العقل وغرامهم به رفعوه فوق مقامه ، وقلَّدوه الأمر والنهي في كل قضية ، وأعادوه إلى تكرار مكانته عند الإغريق ، إلا أنه في هذه العودة فاق وضعه الإغريقي بعدائه للدين كنتيجة طبيعية لما لحقه من الذل والصغار على أيدي رجال الكنيسة حينما تغلبوا عليه وحاربوه وحاربوا مبتكراته ومكتشفاته ، وحكموا عليه بالهرطقة وعلى رجاله بالموت .

فظل العقل هو السيد المطاع ردحاً من الزمن ، ثم أدركه الهرم ، فإذا بهم يكتشفون أخيراً أنه لم يحقق لهم المكاسب التي كانوا يحلمون بها في ظل سلطته ، وإذا بهم يكتشفون أن العلم وسائر المكتشفات توحي لهم بأن

الفضل في كل ما وصلوا إليه من تقدم مادي لم يكن للعقل ، وإنما كان وراءه شيءٌ آخر أقوى منه يجب أن يكون هو السيد الجديد ، وهي الطبيعة التي كان لها الفضل في تنبيه العقل للاستفادة مما في هذا الكون حسب الاكتشاف الجديد لهم ، فلا العقل ولا الدين هما مصدر المعرفة في المفهوم الجديد ، إذ كلاهما عاجزان عن ذلك بخلاف الطبيعة التي تجعلك أمام أمور محسوسة تنتج عن تجارب ودقة ملاحظة ، ومن هنا بدأت عبادة الطبيعة في دوامة تخبطات العقلية الأوربية التي تبحث عن منقذ ، وأخيراً فإنه يمكن القول بأن العقل مَرَّ في حياته الاجتماعية في أوربا حسب ما تقدم من الاستقراء بأدوار ومراحل هي في الحقيقة تخبطات الهارب من الغرق .

●● الدور الأول :

وتمثل في تقديس العقل واحترامه وتقديمه فوق كل اعتبار ، فصار هو الإله [(١)] ، وهو الدين ، وأخذ رتبة فوق ما يستحق ، وهو انحراف لا يقبله العقل ولا يرضى به .

●● الدور الثاني :

احتقار العقل وتنويمه بالقوة ، وهو دور تسلط رجال الكنيسة ، وهذا ظلم لحق العقل مدة من الزمن .

---

(١) كلام الفلاسفة يؤمن بوجود إله ولكنهم هم كافرون به ، فإنهم يصفونه بصفات العدم تماماً .

●● الدور الثالث :

إعادة تقديس العقل من جدد وقد برز هذا الدور مع قيام غلبة المفكرين في القرن الثامن عشر حيث رجعوا في تقديس العقل إلى ما كان موجوداً في الجاهلية الإغريقية ، وأسموا هذه الرجعة «عصر التنوير» بسبب تغلب سيادة العقل واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة دون غيره في تعصب عارم للعقل أصاب أم أخطأ ضد الخصم الوحيد للعقل والمعرفة الفكرية ، وهو الدين ، وبالطبع وجود اللَّه تعالى ورسله .

والقارئ يعرف يقيناً أن هذا الوضع للعقل ليس تنويراً له حقيقة ، بل كان ظلاماً جديداً بسبب إقصاء الدين واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللَّه وارتجال الأحكام والقوانين حسب أمزجة الغالبين القاهرين الذين استطاعوا أن يخدعوا العامة منهم بأن الدين هو رمز للتخلف والجمود والخرافة . ظانين أن تلك النصرانية البولسية هي حقيقة الدين عند اللَّه تعالى ، ولم يعلموا أنها كانت مزيجاً فاسداً مُشوَّهاً أخذ من الوثنية ومن سائر خرافات العالم التي سموها ديناً يجب اتباعه والسير خلف البابا الذي يمثل اللَّه تعالى في أرضه حسب زعمهم ، وظلموا الدين تحت هذا الوضع الذي لا يمت إلى الدين بصلة .

●● الدور الرابع :

وضع نهاية لتقديسه بإشراكه مع التجربة والحس .

•• الدور الخامس :

إقصاؤه نهائياً في القرن التاسع عشر الميلادي على أنقاض عصر التنوير ، فأصبح لا عبرة به ولا بالدين كمصدرين للمعرفة ، بل العبرة بالتجربة الحسية والمادة فقط ، وعليها قامت الماركسية .

وحلت الطبيعة محل العقل ومحل الإله أيضاً ، وصار شعارهم لا إله والحياة مادة ، كما سيتبين ذلك من خلال دراسة الشيوعية .

وامتدت قضية العقلانية إلى اليوم في أوربا ، وقامت حضارات وصناعات الدول الغربية عليها على نفس الفكرة التي تصورها رجال التنوير ورجال المادية في إقصاء الدين لأنه لا يتفق مع العلم والمكتشفات ، وهي كذبة وقول زور لا تصدق إلا على الدين الكنسي الذي كان يقرر أن دخول الجمل سم الخياط أقرب من دخول الغني ملكوت اللّه بسبب ما عنده من المال ، أما الدين الصحيح الذي يقول : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ (١) ، والذي يقول : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (٢) ، ويقول : «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى**» (٣) ، ويقول : «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**» (٤)

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٧

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠

(٣) أخرجه البخاري ، ج ٢ ، ص ٥١٨ . ومسلم ج ٢ ، ص ٧١٧

(٤) أخرجه مسلم ، ج ٤ ، ص ٢٠٥٢ . وأحمد ج ٢ ، ص ٣٦٦ ، ٣٧٠

الدين الذي يقرر هذه المفاهيم الجميلة لا يمكن أن يصادم العلم بأي وجه من الوجوه ، بل كان العلم والدين كجسم واحد يكمل بعضه بعضاً ، وأما الخصام بينهما فإنه من تصور الوشاة والحاقدين ، وما ذنب الإسلام أن كان الدين النصراني حارب العلم والعلماء حفاظاً على بقاء سلطة الكنيسة التي لا تتم ولا تكتمل إلا بتجهيل الناس ؟!!

الفصـل الخـامس

●● كيف أفاق الأوربيون ؟

لقد كانت النهضة الأوربية بعد إقصاء سلطة الكنيسة مدينة بالشكر والتقدير للنهضة الإسلامية التي أيقظت أهل أوربا من ظلام جهل الكنيسة ورجالها الذين أبعدوهم عن النور مدداً متطاولة من الزمن حتى قيَّض اللّه تعالى لأهل أوربا اتصالهم بالمسلمين ، سواء أكان ذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية أو ميادين الحرب أو الدراسة في مدارس المسلمين في الأندلس ، حيث اطلعوا على ما في الإسلام من حرية وسعة حال وسمو تفكير وتعليل صحيح لكل ما في هذا الكون من ظواهر يرتاح إليها العقل وتطمئن إليها النفس ، فبدأوا ينفضون غبار الجهل عن عقولهم فتعلمو اللغة العربية وغيرها من العلوم الأخرى ، وفتحوا أعينهم على ما في الكنيسة من تعاليم خرافية جاهلية لا تسمن ولا تغني من جوع فجعلوها وراء ظهورهم وأقبلوا على ما عند المسلمين ، لكنهم لم يوفَّق الكثير منهم إلى الدخول في الإسلام ، بل أخذوا منه ما يوافق نهضتهم الحضارية في الأمور الدنيوية معتمدين على السلوك الإغريقي الجاهلي في تقديس العقل ، وبالتالي الهرب من الدين ، أي دين كان ، إذ صارت القسمة عندهم هكذا : إما متديِّن جامد الفكر ، وإمَّا حرٌّ غير ملتزم بالدين وذهنه يتوقَّد في كل شؤون الحياة وكل المجالات مفتوحة له دون حسيب أو رقيب أو بطش ، يفكر في الكون وما فيه ويختار التعليل الذي وصل إليه اجتهاده وعقله كما يفكر في معيشته والطرق التي يضمن بها نمو تلك المعيشة بعيداً عن تلك العقلية البائدة في ظل سيطرة

البابوات الذين يعتبرون البحث والتعليل لأمور هذا الكون هرطقة وإلحاداً ، ما لم يكن ذلك التعليل من قبلهم هم فقط في الوقت الذي كان علماء الإسلام يسطرون أروع الأمثلة في فهم هذا الكون وجميع الظواهر وأنشأوا مدارس لتعليم الطب والفلك والحكمة والفلسفة وجميع ميادين الحياة ، مستندين إلى كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه ﷺ وتفكير علماء الإسلام الناضج ، فأخذ علماء النهضة الأوربية كل علوم المسلمين ، لكنهم لم يأخذوا معها الإيمان باللَّه تعالى ، فأغرتهم المخترعات التي تمت على أيديهم بأن يفسروها بطريقة إلحادية وبفضل تركهم الدين أيضاً ، بينما كان علماء المسلمين يفسرون مخترعاتهم بأنها من فضل اللَّه تعالى وهدايته لهم ، فكانت تزيدهم إيماناً كلما اكتشفوا منا شيئاً بالقدر الذي كانت تزيد علماء أوربا طغياناً وضلالاً .

ومما لا ريب فيه أن اللَّه تعالى قد أجرى على أيدي الأوربيين مكتشفات عديدة أرغمت الناس على احترامهم وتقديرهم ، وقد أخبرنا اللَّه تعالى في كتابه الكريم عن سر هذا الوضع فقال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)** ﴾ [١] .

ومعلوم أن اللَّه تعالى لا يضيع عمل عامل ، ولا يقصر فضله حتى عن أعدائه ، ولهذا فإن اللَّه أعطى الغرب الصناعات المختلفة وعرَّفهم طرق العيش الرغيد لما قدره لهم ، ولما قاموا به أيضاً من جد واجتهاد لا يعرف الكسل والملل .

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣

الفصـل السـادس

حقيقة العقل

لا يعلم حقيقة العقل وماهيته ومكانه إلاَّ الذي خلقه وحده ، ومهما قيل في شأنه من استنتاجات فإنما هي في الحقيقة تخرُّصات لا قيمة لها .

وهو أكبر النعم التي أنعم اللَّه بها على الإنسان وسائر المخلوقات التي ركَّبه فيها .

وهو الحد الفاصل بين الإنسان وبين البهيمة ، وبين تصرفات العقلاء وتصرفات المجانين ، وبين تصرفات الجادين وتصرفات العابثين .

•• ثناء اللَّه تعالى على العقل :

وردت آيات كثيرة في كتاب اللَّه تعالى تمدح العقل والتعقل وتذم الجهل والحمق وتوجب على أصحاب العقول أن يشكروا اللَّه تعالى على هذه النعمة ، كما توجب عليهم أن يستفيدوا منه لينير لهم الطريق ، فقد جعله اللَّه هادياً ومُرشداً أميناً ومساعداً لصاحبه في هذه الحياة المعقَّدة ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم على نواحٍ مختلفة .

١ ـ فبعض الآيات ورد فيها ذم من يُقدِم على ما لا يليق مُهْملاً عقله ، مُقدِّماً هواه .

قال تعالى في ذم أهل الكتاب حينما يأمرون الناس بالبرِّ ولا يفعلونه : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ .[١]

وهذا الاستفهام الإنكاري تجده في آيات كثيرة يخبر سبحانه وتعالى بالأمر ثم يقول : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ مما يدل على أهمية العقل ، وأنه لو حُكِّمَ في ذلك الشيء لكان حكمه مغايراً لحكم الهوى والجهل .

٢ ـ وبعض الآيات ورد فيها التعليل لما يفعله اللّه تعالى حسب مشيئته لكي يزداد العقل الإنساني معرفة وعلماً .

فقال تعالى في بيان نعمته على عباده ببيان الآيات وجعلها واضحة مفهومة المعنى لكي تعم بها الفائدة : ﴿ ... قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾ .[٢]

وغيرها من الآيات التي تدل على مثل هذا السياق .

٣ ـ وبعض الآيات فيها مدح الذين يعقلون ويفهمون ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [٣]

٤ ـ وبعض الآيات فيها الإخبار بأن الذين لا يستفيدون من العقل ويعرضون عنه ويتبعون الهوى كأنهم في حكم المجانين فاقدي العقل .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٤

(٢) سورة الحديد ، الآية : ١٧

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٣

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .[1]

وورد مثل هذا الذم في حق المنافقين ، والذين يكذبون على اللّه والذين دخلوا جهنم حين قالوا فيما أخبر اللّه عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ .[2]

وذم الأصنام والآلهة التي تُعبَد من دون اللّه ... إلى غير ذلك من الآيات التي وردت على نواحٍ مختلفة في قضية العقل ، ووردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة أيضاً تدل على منزلة العقل والعقلاء .

والخلاصة أن العقل من أكبر النعم التي ميَّز اللّه بها الإنسان ، وأننا لا نعرف حقيقته ، ولكن بإمكاننا الاستفادة منه والاهتداء به حينما نعرف حدود قدرته ، وحينما نربطه بالاستفادة من كتاب اللّه تعالى وسنة نبيه ﷺ .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٨

(٢) سورة الملك ، الآية : ١٠

الفصـــل الســـابع

هل وُفِّقَت العَقلانيَّة إلى الحق بالنسبة لموقفهم من العقـل ؟

وإذا كانت العقلانية فكرة قامت على دعوى احترام العقل والاستفادة منه ، فهل وُفِّقَت فعلاً إلى احترامه الاحترام الذي يليق به ؟ وهل استفادت منه الفائدة الصحيحة ، والجواب عن هذا السؤال يتطلب أولاً معرفة مدى قدرة العقل في بيان الأمور وإيضاحها ، وقد علمت أن العقل مرَّ بمراحل في مفاهيم الناس في أوربا :

- فمنهم من غَلا في تقديسه .
- ومنهم من غَلا في احتقاره .
- ومنهم من اعتمده لكن بشرط أن يقترن بشهادة التجربة له .
- ومنهم من استبعده تماماً .

وإنها كلها تخبطات جاهلية ، وأن اللَّـه تعالى وفَّق المؤمنين إلى الحق في تقديره وفي الاستفادة منه .

أما الذين غلوا في تقديسه فقد ارتكبوا خطئاً فاحشاً إذ تصوروا أنه لا حدود لمعرفته ، فذهبوا يبنون عليه كل ما يريدون ويحملونه ما لا يحتمل ، ومن هؤلاء الغُـــلاة العَقــلانيّـــون الذين أحلوه محل الإله في

القداسة ، وهو صاحب التشريع عندهم إليه يتحاكمون وإليه يفوضون ، وقد عرف عن فرقة المعتزلة تأثرهم بهذا الاتجاه ، فهو عندهم مقدَّم على النصوص في حال الخلاف لدلالات مرفوضة لا لزوم لذكرها ، وتقديسه إلى هذا الحد لا شك أنها مكابرة خاطئة ، إذ المعلوم أن العقل له حدٌّ إذا تجاوزه انقلب إلى الجهل .

ـ وأما الذين غلوا في احتقاره ، وزعموا أنه لا قيمة له في المعرفة ، بل يجب اتهامه ، ولا يعول عليه ، فقد عرفت أن على رأس هؤلاء طغاة رجال الدين النصراني ، فحينما تغلَّبوا على العَقلانيّين ساموهم سوء العذاب لوقوفهم إلى جانب العقل في معرفة الأمور وعدم رجوعهم إلى تعليلات الكتاب المقدَّس ، والسبب غير خاف على القارئ ، فإن الدين النصراني ـ بعد أن حرَّفه بولس ـ أصبح في غاية التناقض والاضطراب . بل إن فهمه استعصى على كبار علمائه ، فإن العقل لم ، ولن يدرك أن الثلاثة واحداً ، وأن شرب الخمر وأكل الخبز هو شرب لدم المسيح وأكل للحمه ، وأن المسيح صُلب ليُكَفِّر عن خطايا البشر ، مَنْ سبق ولادتَه ومن جاء بعدها ، وخرافة صكوك الغفران ، وغير ذلك من الآراء السخيفة الغامضة التي قام عليها الدين النصراني .

ومن هنا قرَّر رجال الدين بالقوة أن يضحوا بالعقل لتقوية خُزعبلات بولس ، فكانوا كلما أشكل عليهم فهم قضية في دينهم ، وأبى العقل قبولها سارعوا إلى مقالتهم المشهورة ـ اتَّهِم عقلَك ـ وكان لزاماً أن يحتقروه في مقابل بقاء دينهم ، وهو ما تم بالفعل ، ولم ينقذه من هذا الاحتقار إلاَّ قيام صحوة العَقلانيّة في أوربا مرّة أخرى حينما ضعف سلطان الكنيسة ، إلا أن

هذه الصحوة كانت هوجاء لا تلوي على شيء ، فهي ردٌّ عَنيف لكبت العقل ، وجاءت كالمارد الجبار ، حرب لا هوادة فيها على الظلم الذي وقع على العقل ، وعلى الدين الذي اتهمته أنه كان المشجِّع القوي على إقصاء دور العقل ، وهو المزلق الخطير الذي سار فيه الهاربون من الدين «الكَنَسي» .

ـ وأما الذين اعتمدوه لكن بشرط أن تشهد له التجربة ، فهي نقلة من النقل التي مر بها العقل في المفهوم الأوربي ، وكأن هؤلاء أرادوا أن يتوسطوا بين رفض العقل أو اعتماده فاعترفوا بفائدة العقل ، لكنهم لم يثقوا به تماماً فقرنوه بشهادة التجربة له ، وظهرت هذه النقلة حين بدأ العلماء التجريبيون في استظهار هذا العلم وتطويره .

ولا يخفى ما في هذا المسلك من الغموض ، إذ العلم التجريبي لا يمكن أن يقوم أو يؤتي ثماره إلا على أساس العقل ، فهو المدبر والمستنتج ، وعليه يقوم التفكير ، وبدونه لا يمكن لأي تجربة أو عمل أن تتم على الوجه الصحيح ، فكيف ساغ لهم هذا الوقوف في منتصف الطريق ؟

وبالنسبة للعلم التجريبي فقد ثبت بما لا ريب فيه أن المسلمين هم الذين اخترعوه وسبقوا إليه وأفادوا ، واستفادت أوربا منه الأساس لحضارتها الحالية كلها ، ثم تنكّرت له ، شأن التلميذ العاق ـ كما تقدم .

وقد عرفت أن العلم التجريبي كان باعثاً للمسلمين على زيادة الإيمان باللَّه تعالى ، فما أن يكتشفوا شيئاً إلا وطأطأوا رؤوسهم إجلالاً للَّه وشكراً له ، وزادهم إيماناً وتسليماً .

أما الحضارة الأوربية الهاربة من الدين والإله فقد زادهم العلم التجريبي واكتشافاته بُعداً وطغياناً وكفراً ، واعتقدوا أنهم أصبحوا في غنى عن كل شيء يتصل بالإله والدين ، وفسَّروا كل ما مكَّنهم اللَّه من اكتشافات على أنه يؤيد كفرهم واستغناءهم عن اللَّه تعالى .

ـ وأما الذين هداهم اللَّه إلى الحق فهم طائفة أهل السنة والجماعة الذين تأتي أحكامهم دائماً بهدوء وتعقل ومقارنة ، وهؤلاء لم يغلوا في تقديس العقل ، ولم يغلوا في احتقاره ، بل العقل عندهم من أكبر النعم الإلهية ، وعليه قيام المعرفة ، ويجب الاستفادة منه كما أمر اللَّه بذلك في كتابه الكريم وفي سنة نبيه العظيم ﷺ .

لكنهم لا يختلفون أن العقل له دور في المعرفة والهداية محدداً ، إذا تجاوزه انقلب إلى الحمق والجهل ، وإذا وقف عند حدِّه كان دلالة على جودته وصفائه ، والأمثلة على هذا كثيرة جداً ، ومن أقربها ما وقع بين الفرق الإسلامية من اختلاف في الواجب على المسلم تجاه الإيمان بصفات اللَّه تعالى ، فمنهم من تجاوز حدود العقل في طلب المعرفة فنفى أسماء اللَّه تعالى وصفاته وعطَّلها عن معانيها ومدلولاتها ، وظنَّ أنه وصل إلى علم غزير وتنزيه للَّه عظيم ، ومنهم من أثبتها وأثبت مدلولاتها ، وأنها لا تختلف عن أسماء وصفات المخلوقين ، فوقع في حمئة التشبيه البغيض ، وظنَّ أنه وصل إلى علم غزير ، وكان الجميع على باطل وجهل وحمق بسبب تجاوزهم حدَّ معرفة العقل ، وهدى اللَّه أهل السنة والجماعة إلى المعتقد الصحيح الذي يوفق بين النصوص ، فأثبتوا للَّه ما أثبته لنفسه ، ونفوا عنه

ما نفاه عن نفسه دون تعطيل ولا تشبيه ، وقالوا معرفة الصفات فرع عن معرفة الذات ، فكما أننا لا نعرف ذاته فكذلك لا نكيِّف صفاته مع معرفتنا بمعانيها ، ولكن المجهول عنها هو تلك الكيفيات لسمع اللَّه وبصره ونزوله ورحمته ... إلى آخر الصفات الإلاهية ، وهذا هو الحق الذي يجمع بين النصوص كلها ، والعقل أيضاً يؤيد هذا الموقف ويرتاح إليه .

فلو سأل اللَّه الشخص : لماذا أثبتَّ لي السمع والبصر والكلام ... إلخ ؟ ، وأجابه بأنك أنت الذي أثبتَّها ، لكان جواباً حقاً .

ولو قال له لماذا لم تثبتها كصفات المخلوقين ؟ وقال له لم أجد نصاً يفيد ذلك ، مع معرفتي بالفرق الهائل بين المخلوق والخالق لكان جواباً مُوفَّقاً .

وكذلك لو قال اللَّه له : لماذا لم تنفِ عنِّي مدلولات تلك الصفات ؟ فأجابه بنفس الجواب السابق لكان جواباً موفَّقاً .

وكذلك لو قال اللَّه له : لماذا نفيت أسمائي وصفاتي وقد أثبتُّها في كتابي ؟ فقال : خوف التشبيه ، لكان جواباً أحمقاً .

ومن هنا يتضح أن الإسلام لا يحتقر العقل ولا يرفعه فوق منزلته ، وهذا هو الحق والصواب ، بخلاف ما وقفه العقلانيون منه ، فإنه باطل وقاصر عن الحق ، وتعدٍّ عليه سواء الذين احترموه أو الذين احتقروه ، لأن هذا الموقف منهم لم يُبنَ على هدى من اللَّه تعالى ، وإنما بُني على الأمزجة والهوى ، وهما من أكبر مصادر الجهل .

ومن هنا تزول الغرابة حينما تجد ذلك الاختلاف والتباين في الآراء والأهواء عند دعاة العقلانية ، فإن اللّه عزَّ وجلَّ لم يجعل الناس كلهم على مستوى واحد في العقل ، فكانت النتيجة ذلك الاختلاف المرير بينهم ، سواء أكان فيما يتعلَّق بالعقل أو العلم أو بالإنسان نفسه ، واحتار المفكرون وأصحاب الأقلام كلهم في أمر هذه الحقائق المشاهدة في خلق هذا الكون ، لأن الحيرة لا بد وأن تقع ، لأنه لا يملك التعليل الصحيح لهذا الوجود كله إلا الذي خلقه ، وما عدا ذلك فهي تخرُّصات وتخمينات قابلة للتخبط ، ولن يصل الإنسان إلى النتيجة التي تريح عقله وتطمئن إليها نفسه إلا بعد أن يسلم للّه تعالى أمره ويسير بحسب ما جاء في كلام رب العالمين ويؤمن به إيماناً جازماً دون تردد أو شك ، ويتحرر من كلام أصحاب الفلسفة والمنطق والكلام وتعليلاتهم السخيفة .

ومن جميع الآراء التي قامت على الهوى وتصنُّع العلم ورد في الحديث القدسي الشريف : «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُم**»[1]

اللَّهُمَّ اهْدنا إلى الحقِّ ووَفِّقْنا للعمل به ، وارضَ عنَّا يا سَميعُ يا مُجيب ، وعن جميع المسلمين آمين .

---

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» ج ١ ، ص ٢٢١ .
الترغيب والترهيب» ، ج ٢ ، ٣١٢



الباب التاسع

الرأسمالية



البــاب التاســع

الرأســمالية

الرأسمالية من الأنظمة السيئة الجاهلية التي لا تعرف الرحمة بالفقراء ولا حد لجشع أهلها وحبهم للمال وجمعه بأي طريق كان ، الحلال ما تمكنوا منه والحرام ما حُرموا منه ، ابتُليت بها الدول الغربية في غياب الدين والغفلة التامة عن اللّه تعالى وظهور المغريات البرّاقة التي أنتجتها الحضارة الغربية التي قامت على عبادة رأس المال والاحتكار البغيض والاستيلاء على وسائل الإنتاج وأدوات الإنتاج وتحقيق الأرباح بكل سبيل ، وبالرغم مما أبدته بعض الدول الغربية من أنظمة وقوانين لإصلاح هذا النظام إلا أنه لم يتحقق كما يلزم إلا قليلاً .

ويشمل البحث الفصول الآتية :-

تمهـــــيد :

الفصل الأول : التعريف بالرأسمالية .

الفصل الثــاني : نشأة الرأسمالية وتطورها .

الفصل الثــالث : أقسام الرأسمالية .

الفصل الرابــع : أسباب ظهور الرأسمالية .

الفصل الخامس : هل نجحت الرأسمالية في اسعاد الناس .

الفصل السادس : أهم سمات الرأسمالية .

الفصل السـابع : قوانين الرأسمالية .

الفصل الثـامن : آثار سيئة للرأسمالية .

الفصل التاسـع : أماكن انتشار الرأسمالية .

الفصل العاشـر : حكم الرأسمالية والفرق بينها وبين نظام الإسلام .

الفصل الحادي عشر : مشاهير دعاة الرأسمالية .

الفصل الأول

التعريف بالرأسمالية

يظهر أن المقصود بالرأسمالية أنها نسبة إلى رأس المال وامتلاكه ، إذ هو أبرز سمات هذا المذهب ، وقد قيل في التعريف بها أقوال كثيرة يمكن أن نوجزها في أنها ذلك النظام المنحصر أبرز مظاهره في الأمور الاقتصادية من حيث التملك والبيع والشراء والإنتاج والتصدير للأفراد أو الجماعات دون تدخل من الدولة في شؤونهم أو الحد من نشاطهم في اقتناص كل وسيلة للحصول على الثراء من شتى الطرق في حرية تامة .

وعن حقيقة الرأسمالية يقول فتحي يكن : «لا تُعتبر الرأسمالية مذهباً تعتمده الحكومات ، بل هي نظام اقتصادي يقوم على أساس تملك الأفراد والشركات لكل وسائل الإنتاج» .[1]

فالرأسمالية نظام اقتصادي في أساسه ، ولكنه قائم على فصل الدين عن الحياة الاقتصادية تماماً لئلا تتقيد به ، بل تنفلت منه كما تريد ، وهذا الإيضاح للرأسمالية هو الحاصل من عدة تعريفات ذكرها الباحثون حول حقيقة الرأسمالية ومعانيها ، وكلها تدور كما سبق حول ملكية الفرد أو الأفردا لأدوات الإنتاج وتحقيق الأرباح في منافسة حرة .

---

(١) حركات ومذاهب في ميزان الإسلام ، ص ٤١

وبعض العلماء يعرفها بأنها تخزين ـ أو احتكار على الأصح ـ أصحاب الأموال لمنافعهم وبيعها وقت غلاء الأسعار .

وقيل أنها تحكم فئة أو فئات لوسائل الإنتاج التي هي (الأرض ، ورأس المال ، والعمل) بعيداً عن تدخل الدولة قبل تطويرها في آخر الأمر .

وكل تلك التعريفات متقاربة في المفهوم للرأسمالية الجشعة التي تسحق الفقراء وتثرى الأغنياء على حد ما جاء في مفهوم التوراة «الغني يزاد له والفقير يؤخذ منه» بل يظهر لي أنها ليست تعريفات وإنما هي وجهات نظر غير القول بأنها فصل الدين عن الحياة .

الفصل الثاني

نشأة الرأسمالية وتطورها

وصف الدكتور نظام محمود بركات الرأسمالية بأنها مذهب ناتج عن ظهور المدرسة الطبيعية التي سادت أفكارها فرنسا في القرن الثامن عشر الميلادي ، وهي تقديس حقوق الإنسان وتركه يعمل كما يحب تحت شعار «دعه يعمل .. دعه يمر» [1] ، أي أن الإنسان حرٌّ في كل تصرفاته الاقتصادية ، ينطلق كما يشاء بعيداً عن تعاليم الدين أو الحكام ، وربما يقصد بالمدرسة الطبيعية الإلحاد الذي كان قبل ظهور شيوعية «كارل ماركس» .

وأشهر من دعا إلى هذا المذهب هو «جون ستيوارت مل» الذي نشط في الدعوة إلى قيام الأفكار الفردية خصوصاً في الجوانب السياسية ، و «هربرت سبنسر» الذي دعا إلى إتاحة الحرية الفردية للشخص دون أي تدخل من الدولة غير الحماية العامة ، وغيرهما ممن جاء بعدهما .

وهذا يدل على أن الرأسمالية في بدايتها كانت نظاماً سيئاً غاية في الجشع وعدم مراعاة مصالح الغير ، ثم تطورت ، يقول الخطيب : «وقد أدخلت على النظام الرأسمالي بعض الإجراءات للتقليل من مساوئه

---

(١) انظر كتاب «الفكر السياسي» ـ ص ١٧٣

كالتأمينات الاجتماعية والنقابات ... إلخ ، والتي لا تعتبر من صميم هذا النظام» [1] ، وحتى هذه التعديلات لم تكن على المستوى المطلوب للحد من جشع الرأسمالية العاتية ، وقد خطت بريطانيا أول الخطوات في تطوير الرأسمالية ، ثم تلتها أمريكا ثم بقية الدول الأوربية ، فتدخلت في شؤون المواصلات والتعليم ورعاية حقوق المواطنين وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعية ، كالضمان الاجتماعي ورعاية الشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحية وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة» [2] ، ويجب أن يدرك القارئ أنه مع كل هذه التطورات لازالت الرأسمالية شراً مستطيراً وأنها بخلاف ما جاء به الإسلام نحو المال والتعامل به .

---

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام - ص ٤٢

(٢) انظر الموسوعة الميسرة - الجزء الثاني - ص ٩٢٥

الفصـل الثـالث

أقسام الرأسمالية

قسم الباحثون الرأسمالية إلى أنواع مختلفة في الظاهر ، والذي يبدو لي أنها في النهاية تصب كلها في مصب واحد ، هو الوصول إلى رأس المال واقتناصه بكل طريقة يتمكنون بها .

١ - فقسم منها يسمى الرأسمالية التجارية :

وفيها يظهر دور التاجر وطريقة وصوله إلى المال بعد اندحار نظام الإقطاع المتسلط الذي يجعل الكل للإقطاعي الشره ، فبعد زواله أصبح بإمكان التاجر أن يشتري السلع ويبيعها أينما أراد ، ويتمكن من الحصول على الربح ، وهو أمر لا غبار عليه ، إلا أن هذه الرأسمالية أدركها عرق السوء فإذا بها بعد أن ازدهرت تحولت إلى نظام احتكاري بفعل كبار الأثرياء وتواطئهم مع السلطات ، فأصبح التاجر الصغير لا يملك القوة في تسويق منتجاته أينما يريد بل لا بد أن يبيعها إلى شخص مراد ومكان مراد وبسعر مراد ، شعر التاجر أم لم يشعر ، إذ لم يعد له مطلق الحرية في منتجاته وفي بيعها كما تدّعي الرأسمالية .

٢ - الرأسمالية الصناعية :

وهذه الرأسمالية تتعلق بأمور الصناعات والآلات التي حلت محل

العمال وصار لها الثقل الأكبر والتميز الواضح عن الأعمال اليدوية لما تنتجه من وفرة ، ولئن كان نفع هذه الآلات لا يُنكَر إلا أنها أصبحت كياناً قائماً بذاته قسيماً للعمال تُدار من قبل الملاك أصحاب الثروة الكبيرة وبالأجر الذي يحبونه ، بخلاف الحال قبل ظهور هذه الآلات فقد كان العامل يملك آلته بيده ، فأصبحت الآلة الصناعية منافسة قوية للعامل الذي لم يستطع أن ينافسها في إنجاز الأعمال وسرعتها ، مما اضطر العمال للخضوع لها ، وبالتالي تحكم أصحابها في تشغيل العمال أو تركهم وبالأجر الذي يحلو لهم .

٣ ـ نظام الكارتل :

وهو نظام احتكاري ، والكارتل كلمة ألمانية الأصل ، وهو نظام جائر يقوم على تمالأ الشركات الكبيرة على اقتسام السوق العالمية فيما بينها ليصبح منطقة نفوذ لهم ، وبالتالي يتحكمون في تحديد الأسعار واحتكار ما فيه ، وعن هذا النظام تقول الموسوعة الميسرة : «كرتل اتفاق بين منتجي سلعة معينة على تحديد أسعارها أو توزيع الأسواق بينهم أو تحديد الكمية التي ينتجها كل منهم ، وقد تقتصر على المنتجين في بلد معين ، وقد تكون دولية في نطاقها بحيث تتناول كبار المنتجين في البلاد المختلفة ، وتعتبر ألمانيا موطن هذا النوع من الاتفاقات ، ولكنها موجودة صراحة أو ضمناً في أكثر بلاد العالم .

والاقتصاديون لا ينظرون بعين الارتياح لهذا التنظيم لأنه يضعف روح

المنافسة ويقوي السلطة الاحتكارية ويحمي المنتج عديم الكفاءة ويقيد المنتج الذي يتمتع بكفاءة عالية ، وفي ذلك إضرار بالمستهلك ومساس بالتقدم الاقتصادي ، غير أن الظروف الاقتصادية التي تمر بها بعض الصناعات قد تجعل من المصلحة قيام هذا النوع من الاتفاقات في الأمور المشروعة» [١]

وقال عنه د. محمود الخطيب : «الكارتل تكتل بين مؤسسات ، ولكن تحتفظ كل مؤسسة باستقلالها ، وفي هذا التكتل تُحدد الأسعار وحصة كل منتج من الإنتاج وتُقسم الأسواق فيما بينها» [٢]

٤ ـ نظام الترست :

ويقصد به تمكين إحدى الشركات من التفوق في المنافسة بتغلبها على ما سواها من الشركات الأخرى بغرض تحطيم أي منافس لها فتستحوذ على سائر السلع وتتحكم في القيمة ، فلا يبقى أمام المستهلك إلا الرضوخ والرضى بالأمر الواقع .

قال الدكتور محمود إبراهيم الخطيب عن نظام الترست : «الترست تكتل بين مؤسسات ، ولكن بعكس الكارتل حيث تندمج عدة مؤسسات في مؤسسة واحدة وتتحكم بالتالي في السوق» [٣]

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ـ الجزء الثاني ـ ص ١٤٥٠
(٢) النظام الاقتصادي في الإسلام ـ ص ١٣٢
(٣) النظام الاقتصادي في الإسلام ـ ص ١٣٢

الفصـل الرابـع

أسـبـاب ظهـور الـرأسـمـالـيـة

عرفت مما سبق مدى الإحباط والبؤس الذي عانته أوربا في عصورها الوسطى وسيادة نظام الطبقات البغيض الذي جعل الناس سادة وعبيداً ، وأغنياء وفقراء ، قسم يعيش في الثُّريا وآخر في الثرَى بمباركة الكنيسة وطغاتها الجبارين المتواطئين مع الحكام والأباطرة وغيرهم في تخدير الشعوب الأوربية النصرانية على الرضا بكل تلك الأحوال المخزية كي يحصلوا على النعيم الأبدي أو دخول ملكوت اللَّه ـ كما هو تعبيرهم ـ لأتباعهم المغلوبين على أمرهم ، واستمر الحال فترة من الزمن كانوا يشعرون فيها بهذا الغبن الفاحش ، ولكنهم لا يدرون كيف يخرجون منه ولا كيف يكسرون هذا الغل الغليظ ، وكما هو الحال فإن سُنَّة اللَّه تعالى ألا يدوم الشر أو الخير دائماً ، فبدأت تباشير الخروج تلوح في الأفق إثر ظهور هذه الدعوات المختلفة على طريقة بعض الشر أهون من بعض .

فحينما بلغ السيل الزُّبَى وجاوز الحزام الطبيين بدأت تظهر هنا وهناك وبين آونة وأخرى حركة تمرد ناشئة تطمح إلى إزالة ذلك الكابوس البغيض فقام الكتاب والمفكرون والفلاسفة بشحذ أذهان الناس وإنهم في وضع يجب الخروج منه بأي ثمن كان لنيل الحريات وأهمها الحرية الفردية في التملك وإبداء الرأي والكلمة ، وتضافرت تلك الجهود يقوي بعضها بعضاً إلى أن خرج الكتكوت من البيضة فإذا هم في نظام جديد أو معبود جديد يسمى المال الذي نقلهم نقلة قوية وحوَّلهم من النظام الإقطاعي والرقيق في تدرج حثيث إلى النظام الرأسمالي .

وقد ذكر الأستاذ الخطيب أن الذي ساعد النظام الرأسمالي على الظهور عدة عوامل كانت الرياح التي تجري فيها بما تشتهي السفن ـ أذكرها هنا بإيضاح وتصرف ـ وهي :-

١ ـ ظهور الدعوات القومية في غرب أوربا التي كانت دافعاً قوياً في البداية للتجمع والاتحاد ، ثم تجاوزها الأوربيون بعد أن عاشوا مفاسدها فترة من الزمن إذ أصبح التنافس على المال والتكالب عليه بين كل قومية وأخرى على أشده ، فتركوها وسموها رجعية ، فتلقفها المتطفلون من المسلمين ونصارى العرب ليدخلوا بها ذلك النفق الضيق الذي خرج منه أهل أوربا .

٢ ـ زيادة عدد السكان ، ولا سيّما سكان المدن بسبب هجرة الناس من الأرياف والقرى إلى المدن طلباً للرزق والتنعم بحياة العيش في المدن ، فكثرت الأيدي العاملة وبالتالي البطالة فتطلع الناس إلى أي نظام ينقذهم ، وقد أصبحت هذه الهجرة الجماعية مصدر قلق لأهل المدن وسبباً لانتشار البطالة فيما بعد .

٣ ـ هروب رقيق الأرض إلى المدن ، وكان هؤلاء يُباعون من الأثرياء تبعاً للأرض التي هم عليها حيث تُباع الأرض بما عليها من تراب ونباتات ومزارع وعمال ، وقد مكنهم هروبهم إلى المدن الكبيرة من الاختفاء بها والتكسُّب تحت مظلة الحرية الفردية في جمع المال وتوفيره والتنافس عليه ، فنشطت الرأسمالية .

٤ ـ مطالبة أهل المدن باستقلالهم عن نفوذ سادة الإقطاع بعد أن اعتمدوا على ما أظهرته الحركة الصناعية من آلات وأدوات أفادتهم في تطور

الاقتصاد عن طريق البر الزراعي والبحر بثروته السمكية الهائلة الممنوحة من اللّه تعالى للجميع ، فاشتد التنافس بين الجميع .

٥ ـ ظهرو النهضة العلمية والفكرية وحركة الإصلاح للدين النصراني المنهار تحت وطأة العلم التجريبي وعلماء الاكتشافات ، حيث جعلت الناس كلهم يتسابقون ويتنافسون في جمع الأموال .

٦ ـ انضمام الملوك القوميون إلى مساندة التجار وإعطائهم الحرية التامة في التملك الفردي أو الجماعي حسب قاعدتهم «دعه يعمل ... دعه يمر»(١)

ويمكن أن يُضاف إلى ذلك استشراف الناس للخروج عما هم فيه من الغبن الفاحش والتطلع إلى الجديد لعله يساعدهم على الحياة التي يتطلعون إليها .

ولا تنسَ ـ أخي القارئ ـ دور اليهود في قيام الرأسمالية ، فإن اليهود وراء كل جريمة ووراء كل مصيبة ، بل ووراء كل البنوك الربوية ، هم الذين يتحكمون فيها هبوطاً وارتفاعاً ، وهم الذين رتبوا لسيادة أصحاب رؤوس الأموال لبناء النظام الاقتصادي الربوي الجشع .

وإذا أردت مصداق هذا الكلام فاقرأ ما سجلوه على أنفسهم في قراراتهم الجهنمية «بروتوكولات حكماء صهيون»(٢)

---

(١) بتصرف عن «النظام الاقتصادي في الإسلام» ـ ص ٤٤

(٢) في أكثر من بروتوكول .

حيث أكدوا على إلتزامهم بدعم أي نظام فيه مضرة للجوييم ، واشتغالهم بأوضاعهم التي عزم اليهود على زعزعتها على مر الزمن انتقاماً واحتقاراً للجوييم لعدم خضوعهم لشعب اللّه المختار ، وقد عُرف عن اليهود تفوقهم في استغلال الأحداث على أتم الوجوه وقد أكد الأستاذ محمد قطب أن اليهود لم يكونوا هم مصدر كل الأحداث كما يتصور البعض ، ولكنهم يعرفون كيف يستفيدون منها وكيف يوجهونها لمصالحهم وتحقيق أهدافهم لا أنهم هم أصحاب الاختراعات الفكرية كلها .

وهناك عامل آخر أسهم أيضاً في ظهور الرأسمالية لا يقل ـ في نظري ـ عن أهمية العوامل السابقة وهو دور السادة زعماء الإقطاع وكبار الملاك الذين أرادوا الالتفاف مرة أخرى للسيطرة على الطبقات الفقيرة من حيث يشعر هؤلاء أو لا يشعرون .

فكان دورهم الجديد هو تمويل مشروعات النظام الجديد مقابل أرباح محددة يقطفون ثمارها دون عناء أو تعب بتشغيلهم الفقراء ، ويظهر أن هؤلاء هم الذين كانوا وراء قيام البنوك الربوية والتي حلت أخيراً محل سادة الإقطاع في الزمن القديم ، حيث لم يختلف الأمر إلا في التسميات فقط .

لأنه لم يظهر أي مبدأ نبيل يسمو بأخلاق الإقطاعيين ويوجد في قلوبهم العطف الحقيقي والقناعة النفسية أو مراقبة اللّه تعالى والرغبة في ثوابه والخوف من عقابه لأن التغييرات السياسية والثورات الحاقدة لا تعطي شيئاً من تلك الأخلاق الحميدة ، بل هي أوضاع تزيد في القلب السقيم سقماً ،

وهكذا فقد كان لأصحاب رؤوس الأموال الصولات والجولات في الميدان حيث أصبحوا فيما بعد هم الطبقة العليا والمسيطرون الحقيقيون على الطبقات الدنيا ، وانتقل أهل أوربا من حكم الإقطاعيات القديم وطبقة النبلاء إلى حكم الإقطاعيات الجديدة والنبلاء الجدد ، فكان الخلاف لفظياً بين الحالين إذ لم يستطع الفقراء أن يدخلوا المنافسة في الرأسمالية لعدم تمكنهم من وجود رؤوس الأموال لإقامة المشاريع الضخمة التي تتطلب أموالاً كثيرة فازداد الأغنياء غنىً وثروة وازداد الفقراء فقراً وحاجةً ، وتضاعف البلاء على الفقراء لعدم وجود أي وازع من الدين أو الفضيلة لدى الرأسماليين الذين لا حدَّ لجشعهم ورغبتهم في امتلاك أكبر قدر من المال بأي طريق كان من الربا والاحتكار والغش والحيل واستعباد المحتاجين ، فنشأت العداوات الشديدة بين الفريقين إذ كان الفقراء ينظرون إلى أصحاب رؤوس الأموال بأنهم ظالمين جائرين لا رحمة لديهم ، بينما كان الأغنياء ينظرون إلى الفقراء على أنهم حاسدين لهم ومنازعين لهم ما في أيديهم شأن كل الأنظمة الجاهلية والأخلاق التي لا تقوم عى هدي كتاب اللَّه تعالى وسُنَّة نبيه ﷺ التي تجعل الشخص يؤثر على نفسه غيره ولو كان به حاجة وفاقة ، كما قال اللَّه تعالى في ثنائه على الأنصار في إيثارهم المهاجرين إليهم : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [1]

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩

الفصل الخامس

هل نجحت الرأسمالية في إسعاد الناس ؟

لا يمكن لأي نظام جاهلي أن يسعد أتباعه لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وأول ما افتقدته الرأسمالية وجود الرحمة والعطف على المحتاجين والفقراء ، فقد حملتهم تبعة فقرهم تحت مبرر خادع وهو أنهم لم يعملوا ولو يعرفوا طرق الوصول إلى المال لبلادتهم وجهلهم ، فهم كما حكى اللّٰه عن قارون أنه قال : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [1]

ولم ينظروا إلى أنفسهم وإلى عمالهم ، حيث أن أصحاب رؤس الأموال لا يعملون نصف ما يعمله ويكده عمالهم لسد حاجاتهم الضرورية ، بينما أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يبالون بجمع المال تحت أي سبب ، سواء أكان مشروعاً أو غير مشروع عن طريق الربا أو عن طريق المخدرات أو عن طريق بيع الأعراض إو الاحتيالات ، وما إلى ذلك نجد هؤلاء يعيشون في منتهى البذخ والإسراف كما قيل في المثل «الكلب يشبع والنمور جياع»

لقد وقعت الرأسمالية في مساوئ كثيرة ـ شأن كل نظام جاهلي ـ فالحرية الاقتصادية التي تمنحها لأتباعها ـ وتتبجح بها ـ لم تكن صافية ، فالعامل تحت وطأة الحاجة يجب أن يعمل العمل الذي يريده صاحب رأس المال إذ لا خيار أمامه إلا القبول ، وأيضاً لا خيار في مقدار الأجرة التي يفرضها

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٨

صاحب رأس المال لأنه إذا أبى ذلك فإن ما وصلت إليه البطالة والعاطلين عن العمل كفيلان بأن يوجدا له من يقبل تلك الأجرة في الوقت الذي يشتد فيه جشع المحتكرين وسيطرتهم على الأسواق والموارد الوافدة إليه .

وكنتيجة طبيعية إزاء هذه الأوضاع تفاقمت الهوة بين الأثرياء والفقراء واختل التوازن السليم في الاستفادة من الثروات كما لاحظ هذا فيما يلي من دراسة الرأسمالية .

الفصل السادس

أهم سمات الرأسمالية

تميزت الرأسمالية بخصائص حول نظام الملكية الفردية للأفراد والجماعات ودور الحكومة تجاه المنتجين والمستهلكين كما يلي :-

١ ـ لكل فرد الحرية المطلقة في التملك والتصرف لعناصر الإنتاج التي بيده بعكس ما قامت عليه الاشتراكية الشيوعية تماماً .

٢ ـ لكل فرد الحرية في ممارسة أي نشاط إقتصادي يستطيعه إنتاجاً واستهلاكاً وتصديراً دون أي قيد .

٣ ـ أوجد النظام الرأسمالي حافزاً قوياً للأفراد والجماعات على الإقبال على العمل و المنافسة فيه والتسابق إلى تسويق ما يملكونه ، والذي ينتج عنه أحياناً هبوط الأسعار لكثرة الموارد ، مما أدى بأمريكا وغيرها من كبار المنتجين إلى أن يتلفوا كثيراً من المحاصيل الزراعية خوفاً من هبوط الأسعار ، بل أحياناً يعطون المزارع مبلغاً من المال في مقابل تركه لزراعة بعض المحاصيل ، حسب ما ذكره د. غازي القصيبي .[١]

٤ ـ إن الحكومة لا دخل لها في شيء مما يفعله المنتجون والمستهلكون بأموالهم ، وقد كان هذا المفهوم معمولاً به في بداية قيام الرأسمالية ، ولكنه وبمرور الزمن تبين أنه مفهوم خاطئ لكثرة ضحاياه من الفقراء

(١) سمعت هذا الكلام من إذاعة الرياض في مقابلة مع د. غازي القصيبي .

وما نتج عنه كذلك من ا لتفاوت بين الناس في معيشتهم بطريقة غير عادلة فتطور الأمر إلى أن رفاهية المواطنين وعيشتهم عيشة كريمة أمر لا يتم بإلقاء الحبل على الغارب فشعرت الحكومات أن عليها واجباً نحو الجميع ، وأن عليهم أن يوجدوا سبيلاً للتقارب بين الجميع في المعيشة ، فالتزمت الحكومات بما يلي :-

١ ـ إصدار التشريعات اللازمة لحماية العمال .

٢ ـ فرض الضرائب لإعادة توزيع الدخل والثروة .

٣ ـ القيام ببعض المشاريع التي يحجم عنها الأفراد مثل خدمات التعليم والصحة وغيرها مما تعود مصلحته على الجماعة ويتطلب ذلك رأس مال كثير .

٤ ـ إصدار التشريعات بمنع الاحتكارات ، وقد تلجأ الدولة إلى التأميم لبعض المرافق والمصالح ، كالكهرباء والمناجم .

٥ ـ أخذت الدول الرأسمالية بأسلوب التخطيط بغية تحقيق أهداف التنمية ، ولا سيما بعد الأزمات الاقتصادية التي مني بها العالم .(١)

وهكذا يتضح أن تلك المزايا كانت إيجابية ومفيدة ، فإطلاق الحافز الفردي أدى إلى تجدد النشاط في العمل والإنتاج ، وإتاحة المنافسة بين الأفراد أدت إلى وفرة الموارد ، وإتاحة الحرية الاقتصادية أدت إلى الإخلاص في العمل .(٢)

---

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام ـ ص ٤٦ ، نقلاً عن «الإسلام والاقتصاد» لعبد الهادي النجار ـ ص ٥٧

(٢) أنظر : كواشف زيوف ـ ص ٦٤٧

لكن هذه المزايا المفيدة لم تتحقق كما يلزم إلا قليلاً من حيث أنها شجعت فعلاً الحوافز الفردية والجماعية لكنها لم تجعل لها ضوابط وقيوداً تمنع الغلو في الجشع أو الظلم على الآخرين أو التذكير باللّه تعالى وثوابه وعقابه أو الرحمة بالفقراء وسلبهم واستعبادهم .

بل وصلت الرأسمالية إلى حد أنها «تنعدم فيها حتى الفضائل القليلة التي عرفها مجتمع الإقطاع كالنخوة والشهامة والفروسية ... أما أم الفضائل ومنبعها في ظل النظام الرأسمالي فهي الربح بأي وسيلة وسبب» [1] ، فانعدم فيها الجانب الروحي الذي ينبع عنه الخلق الكريم والإيثار وحب الآخرين والرغبة في ثواب اللّه تعالى .

وفي الموسوعة الميسرة يقول الكاتب تحت إسم الرأسمالية في بيانه لبعض أحوالها : «وقد تطور النظام الرأسمالي تطوراً بعيد المدى ، واقترن بسياسة الحرية وابتعاد الدولة عن التدخل في الحياة الاقتصادية ، ويُعرف ذلك بسياسة «دع الأمور تجري في أعنتها» التي بلغت أوجها منتصف القرن التاسع عشر ، وكان من نتيجتها انخفاض الأجور وسوء ظروف العمل وتشغيل النساء والأطفال دون رقابة وتكدس الثروات وسوء توزيع الدخل وسيطرة المشروعات الكبيرة التي تتمتع بسلطة احتكارية أو شبه احتكارية وتغيرت هذه الأوضاع تدريجياً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فتدخلت الدولة لحماية الطبقة العاملة بتشريعات خاصة واعترفت بالنقابات العمالية وحق العمال في الإضراب لتحسين ظروف العمل وأقرت حداً أدنى

---

(١) انظر «حركات ومذاهب في ميزان الإسلام» ـ ص ٤٢

للأجور وأقامت نظماً للضمان الاجتماعي ضد البطالة والعجز والشيخوخة وعملت على حسن توزيع الدخل وأخضعت المشروعات الكبيرة لنوع من الرقابة كما عملت بعض الدول على اتباع سياسة التخطيط بغية زيادة الإنتاج الكلي والحد من مساوئ الرأسمالية» [١]

على أنه ينبغي أن تدرك أن هذه التطورات أو الإصلاحات كما يسميها بعضهم لم تأت بدافع الرحمة من الدول الرأسمالية على شعوبها ، وإنما جاءت نتيجة لتفاقم الأوضاع وتدهور الحياة من سيء إلى أسوأ ، وظهر التململ والقلق من جانب الفقراء وهم الأكثرية في المجتمعات ، إضافة إلى أن ظهور دعوى الديمقراطية وحق الانتخابات كان من الحوافز لهذا التطور على أساس المنافسة في تقديم الخدمات من قبل المرشحين أنفسهم لاعتلاء المراكز وكسب أصوات الناخبين ، خصوصاً وقد أدرك السياسيون الرأسماليون أن المد الشيوعي الجارف وما يتظاهر به من دعوى إنصاف الفقراء والوقوف إلى جانبهم حتم عليهم التدخل في الحياة وعدم المراقبة من البرج العالي كالمتفرج ، بل أحست الحكومات أن قانون السيادة لا يتلاءم مع ترك الأوضاع كما هي دون أن يكون للدولة تدخل ما .

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة - الجزء الأول - ص ٨٥٣

الفصل السابع

قوانين الرأسمالية

للرأسماليين قوانين يسيرون بموجبها ويطبقونها بكل صرامة وقد أجملها الأستاذ فتحي يكن في الأمور الآتية :-

١ ـ قانون البحث عن الربح .

٢ ـ قانون المزاحمة والمنافسة .

٣ ـ قانون التمركز والقدرة على الإنتاج وحصره .

٤ ـ قانون السعر المنخفض .[(١)]

وهذه القوانين كما ترى كلها تلهث وتتلهف على اقتناص الأموال وجمعها وحصرها في نهاية الأمر بيد الأثرياء أصحاب رؤوس الأموال ، فإن الذي يهمه فقط كيف يصل إلى الربح ، لا يهمه أن يظلم العامل وأن يقلل أجرة عمله إلى الحد الأدنى وأن يعتبر خدعه الناس وسلبهم أموالهم تحت أي مبرر ذكاءاً وفطنة يستحق عليه المدح ؟!

وهذا القانون كان هو السبب لوجود قانون المزاحمة والتنافس بين الرأسماليين الجشعين إذ صار بعضهم يأكل بعضاً كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .

(١) حركات ومذاهب في تاريخ الإسلام ـ ص ٤٣

وما قيام المصانع والتسابق إلى الإنتاج وكذا قيام الشركات العملاقة ومحاولة كل شركة أو مصنع التغلب على منافسيه إلا لطلب الربح والاستحواذ عليه والاستئثار بالمستهلكين ، لا همَّ للرأسماليين إلا ذلك ، ولو أدى الحال إلى إقامة الحروب فيما بينهم أو فيما بين بقية الناس بعضهم مع البعض الآخر ، ويهدفون إلى بيع ما يحتاج إليه المتحاربون للحرب من سلاح وغيره من مصانع ومخازن كبار الملاك .

وما أشبه حال كبار الملاك الرأسماليين مع بعضهم بعضاً ، ومع غيرهم أيضاً ، ما أشبه حالهم بحال السمك في البحر حيث يأكل السمك الكبار من دونه من السمك الصغار .

وقد أسهمت الآلات الصناعية في ازدياد أرباح الملاك في الوقت الذي انخفضت فيه أجور العمال وطرد بعضهم لحلول الآلات الصناعية محل اليد العاملة وتفوقها في وفرة الإنتاج وزيادة عوائده ، ولا تسأل بعد ذلك عن ارتفاع نسبة العاطلين عن العمل وما ينتج عن ذلك من سرقات وسطو وغش ، إذ الحاجة موجودة والرقيب مفقود .

الفصـل الثـامن

آثار سيئة للرأسمالية

وقد كان لتلك القوانين الرأسمالية آثارها السيئة على حياة الناس وسلوكهم تجاه بعضهم بعضاً ، ولا بد أن توجد لها آثار سيئة شأن الباطل دائماً وشأن الأنظمة الوضعية ، وتنقسم الآثار السيئة للرأسمالية إلى قسمين (حسب تقسيم الدكتور علي جريشة) [١]

(أ) **الآثار النفسية والاجتماعية :** فقد ظهرت في ضعف الوازع الديني وقوة الوازع الدنيوي المادي واستغراق حياة الناس في السعي على الرزق والمكاسب والأرباح ، ففُقد الإحساس بالآخرين ونشأت قوة الدواعي إلى التعالي والكبرياء والأحقاد والحسد وإلى ظهور البطالة كما هو الحال في الدول الرأسمالية الصناعية حيث أسهمت الآلات الحديثة في إدارة الأعمال بدلاً عن العمال فأصبح كثير من العمال عاطلاً دون عمل .

(ب) **الآثار السياسية :** فقد ظهرت واضحة في سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على الحكم لتمكنهم من شراء الأصوات لصالحهم وتوزيع الرشاوي على حساب المتنافسين على السلطة كما ظهرت أيضاً على الناخبين لنفس السبب السابق ، فآلت السلطة في النهاية إلى يد أصحاب رؤوس الأموال بغض النظر عن وجود الكفاءات أو عدمها فيهم ، فإن العامة لا يهتمون بوجود الكفاءة في الشخص بقدر ما يسديه إليهم من المنافع ، فابتعد الفقراء عن السلطة تماماً .

---

(١) انظر «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» ـ ص ١٤٢

الفصل التاسع

أماكن انتشار الرأسمالية

انتشرت الرأسمالية وقويت في العالم الغربي والدول الصناعية بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان وأمريكا ، وتتزعمها اليوم في العالم كله أمريكا التي تسمي نفسها الدولة العُظمى الوحيدة في العالم ، أو القطب الواحد والمتحكم في الأسواق الصغيرة والكبيرة .

وقد تبعت أمريكا كثير من الدول الغربية وسارت على خطاها وعلى خطاياها أيضاً حذ القذة بالقذة .

وأما دول العالم الإسلامي فهي متأرجحة ما بين الالتفات إلى الشرق الاشتراكي والالتفات إلى الغرب الرأسمالي ، وبعضها رفض تطبيقها رسمياً وإن كان قد أخذ ببعض مبادئها ، وهم ما بين مستقل ومستكثر منها بحكم قوة الروابط وضعفها مع الغرب إلا من رحم اللَّه .

وإنه لمن العار أن تتطفل بعض الأنظمة التي تنتسب إلى الإسلام على فتات موائد الشرق والغرب الآسنة ويتركون النبع الصافي السلسبيل العذب ، وهو النظام الإسلامي الذي سعدت به البشرية قروناً طويلة من قبل أن يظهر النظام الوضعي الرأسمالي والاشتراكي الجاهليان بصورة شرهة وتخبطهما في شتى الاتجاهات .

الفصل العاشر

حكم الرأسمالية والفرق بينها وبين نظام الإسلام

الرأسمالية تنظيم جاهلي اقتضته الظروف المعيشية التي مرت بها أوربا في عصورها المظلمة ، دعا إليه بعض الساسة والمفكرين والكتاب للخروج من أغلال رجال الكنيسة وعن الأوضاع الاقتصادية المتردية ، وقد يبدو أن لهم مبررات كثيرة في تلك الثورات الهائجة ، إلا أنه يؤخذ عليهم أنهم لم يطرقوا باب الإسلام ولم يطلعوا على ما فيه من حلول تسعد بها البشرية لو طبقوها على امتداد تاريخ وجودهم ، بل كان اهتمامهم كله يتركز على محاربة الدين وأنظمته كلها واستبدال كل ذلك بقوانين الرأسمالية .

ولقد أتت الرأسمالية بحلول كثيرة بعضها تتوافق مع الإسلام وأكثرها تخالفه ، ومع ذلك فإن في الإسلام حكماً واحداً تجاه كل من يخالفه ويشرِّع من دون اللّه تعالى أحكاماً وضعية ، قال تعالى : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (٥٠) ﴾ (١)

فالإسلام لا يقرُّ أي تنظيم أو تشريع للبشر بعضهم للبعض الآخر ، بل ويعتبره حكماً جاهلياً وتطاولاً على حق الخالق العظيم .

ويفترق النظام الرأسمالي عن التشريع الإسلامي في جوانب كثيرة

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

جداً ، لأن الإسلام يمقت الشح والتكالب على المال والحرص عليه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ (١)

بينما النظام الرأسمالي قائم على هذه الصفة الذميمة ، كذلك فإن الإسلام يدعو إلى الرحمة والعطف والتكافل الاجتماعي بصورة منظمة تكفل لكل ذي حق حقه ، وقد خلت الرأسمالية من ذلك ، كما أنه ينظم حياة الناس وتعايشهم فيما بينهم ، فلا يجعل الحلال ما حل في يد الشخص والحرام ما حرم منه ، ولا يقر أن يعيش الناس تحت طبقات متفاوتة لا يلوي بعضهم على الآخر ، ينسحق فيها الفقراء ويلاقون مصاعب الحياة دون أن تمتد يد المساعدة إليهم ، لأن الإسلام يأبى هذه الأوضاع ويُشنِّع على أصحابها ، بينما الرأسمالية قامت على هذا الأساس كضرورة لا مفر منها للانتعاش الاقتصادي كما يزعمون .

وإذا كان الإسلام قد حرَّم الشُّحَ وذمَّه ، فإنه حرَّم الاحتكار الذي يضر بالمصلحة العامة ، وأكدَّ أنه لا ضرر ولا ضِرار ، والاحتكار من مزايا الرأسمالية ، كما أكد تحريم الربا بل اعتبره حربا سافرة ضد الانسانية وضد التشريع الإلهي ، بينما تجد هذه الجوانب من مقومات الرأسمالية ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) فأي نظام رأسمالي حرَّم الرِّبا ؟ بل إن النظم الجاهلية كما يعرف القارئ

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩

(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ٢٧٨ ـ ٢٧٩

الكريم تسمي الربا فائدة ، أما الإسلام فإنه يعتبر النظرة إلى المادة وحدها دون ضوابط ولا رجوع إلى السمو الروحي والأخلاق الفاضلة والتسامح ولين المعاملة يعتبرها الإسلام حياة بهيمية غير لائقة بالبشر ، يأكل أصحابها كما تأكل الأنعام ، لأن الإسلام يوازن بين حياة الجسم وحياة الروح التي أغفلتها الرأسمالية واهتمت فقط بالحياة الجسمية والوصول إلى إشباع النداء الجسماني بكل وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة .

كما أن الإسلام يعتبر الحرية التي ليس لها ضوابط وحدود تقف عندها ، يعتبرها فوضى لا استقرار فيها ولا سعادة من ورائها ، بينما الرأسمالية تقدس الحرية التي هي الانفلات التام عن أي قيد ، وتسميها التنافس الحر ، وهو تنافس أشبه ما يكون بتنافس الكلاب على الجثة الميتة ، فإن أصحاب رؤوس الأموال يتهارشون أحياناً فيما بينهم على الاستحواذ على مصادر الموارد وإزاحة المنافس كما تفعل السباع بفريستها ، وهذا دأبهم دائماً .

قيل إن بعض هؤلاء الرأسماليين الجشعين ، قيل له عند موته ماذا تتمنى ؟ فذكر أنه يتمنى لو أنه يملك من المال كذا وكذا ، ويتمنى لو أن شفايف النساء كلهن تجتمع له في شفة فيقبلها ، لأن غرضه في هذه الحياة هو الوصول إلى مآربه والاستمتاع بكل ما يراه دون ضوابط أو ضمير .

ومما سبق يتضح أن نظام الرأسمالية غير نظام الإسلام حتى وإن وجد بعض التوافق بينهما ، فقد تبين لك :-

١ - أن الرأسمالية نظام بشري جاهلي اقتضته الظروف المعيشية في الغرب لمبررات عديدة ، بينما الإسلام نظام إلهي ، فالفرق كبير .

٢ - كما أن الإسلام نسبة إلى الاستسلام لرب العالمين ، والرأسمالية نسبة إلى الاستسلام للمال وكيفية جمعه وادخاره .

٣ - تضمن الرأسمالية للفرد حرية التملك دون أي قيد ، أما الإسلام فإنه وإن أباح حرية التملك لكنها حرية منظمة محكومة بالقاعدة المشهورة في الإسلام «لا ضَرر ولا ضِرار» .

٤ - لا تعارض الرأسمالية قيام جمع المال بالوسائل التي يحرمها الإسلام ويحذر منها كالربا والغش والاحتيال والاحتكار ، بينما الإسلام يحرم كل ذلك .

٥ - الرأسمالية تشجع على المنافسة والمزاحمة في العمل وإيجاده وإنجازه دون حدود ، والإسلام يشجع ذلك لكنه ينظم تلك المنافسة فلا يجعلها على شريعة «من عزَّ بزَّ ومن غلب استلب» دون مراعاة الفقراء أو تحطيمهم اقتصادياً .

٦ - ليس في الرأسمالية نظام التكافل الاجتماعي كالزكاة ودورها في سد حاجات الفقراء دن مَنٍّ ولا أذى ، حيث يأخذ الفقير حقه دون أي شعور بالذلة لأحد ، بينما يوجد في الرأسمالية نظام عائدات الضرائب التي يُعطى الشخص بمقدار ما يسمح به رصيده .

٧ ـ الرأسمالية تعطي للفرد الحق في مطلق التصرف في ماله دون أي إعتبار حتى ولو أنفقه في العبث والإسراف وأنواع المحرمات ، بينما الإسلام يعطيه الحرية ويحدد له مسار الإنفاق المشروع وغير المشروع ، فحرَّم إنفاقه في أشياء كثيرة كالخمر والقمار والميسر وأنواع اللهو .

٨ ـ لا يوجد في الرأسمالية بعض قضايا التكافل الاجتماعي المفيد كالأرث مثلاً ، فإن الرأسمالية لا ترى بأساً أن يجعل الشخص أمواله بعد موته في أي محرَّم ، ولو كان ذلك المال يُصرف على كلب المالك أو خنزيره .

أما الإسلام فإنه يعترف بالحفاظ على الانتفاع بالمال في كل طريق شرعي ومنه الإرث ، فإن الإسلام اعتبر الوارث مالكاً شرعياً للمال ، وكذلك ما جاء عن غير الإرث مثل : (الوصية ، الهِبات ، الصَّدقات ...) ونحو ذلك مما رغَّب فيه الإسلام .

٩ ـ الإسلام يجعل الشخص حسيب نفسه ، فيثير فيه المراقبة الذاتية للَّه تعالى في الخوف من عقاب اللَّه والطمع في ثوابه ، فلا يسمح أن تكون النظرة موجهة فقط للربح ، وهذا الجانب لا يوجد في الرأسمالية ، فكل واحد حبله على غاربه فيها .

وقد حاول النظام الرأسمالي إيجاد البديل كدعوى الإنسانية وبعض قوانين العقاب المالي أو البدني ، لكنها لم تثمر الثمرة المرجوة أؤ الموجودة في مراقبة اللَّه وحده .

١٠ ـ قانون المنافسة والمزاحمة في العمل أدى إلى ظهور الرغبة الجامحة لدى المالكين إلى البحث عن السعر المنخفض ، وتخفيض أجور العمال ، بل والتحايل لإسقاطها ، بينما الإسلام ينهى عن كل ذلك فلا يبيح الغبن لا في البيع ولا في الشراء ولا في الأجرة ، فهو يعطي الأجير أجرته قبل أن يجف عرقه ، وفيه الخيارات في البيع التي حددها الفقهاء ، كما يحرِّم الإسلام كل وسيلة تؤدي إلى الخصام والعداوة والاختلاف .

١١ ـ الحريات في الرأسمالية لا تقف عند حد ، فإن حرية الكلمة يدخل فيها حرية التبجُّح بالفجور والإلحاد ، والحرية الشخصية يدخل فيها استحلال جميع الفواحش ، وحرية الأديان يدخل فيها إباحة الإلحاد إضافة إلى ما فيها من الغبن الفاحش وظلم الفقراء ، أما الحرية في الإسلام فهي مصونة بضوابطها الشرعية في مراعاة الحقوق كلها ، حق النفس وحق الغير .

١٢ ـ يعيش الرأسمالي في قلق دائم بعد أن افتقد اليقين بأن اللَّه هو الرزَّاق لجميع خلقه ، وقد ظهر قلقهم في ما يُسمونه الانفجار السكاني ، أو نُدرة الموارد وزيادة الحاجات ، وما إلى ذلك مما يجعل الناس يعيشون في قنوط وتخوُّف متناسين ما تأخذه الأمراض والحروب والحوادث من نفوس في كل ساعة لا يعلم عددهم إلا اللَّه تعالى .

وسيأتي مزيد من الإيضاح للقضايا الاقتصادية في دراستنا للشيوعية .

١٣ ـ ينعدم في الرأسمالية العطف والتراحم والمحبة بسبب قيام المجتمع الرأسمالي على النظام الطبقي ، طبقة الأثرياء الرأسماليين وطبقة الفقراء العمال ، فالطبقة الأولى لا يهمهم إلاَّ جمع المال وتوفير المكاسب بأي وجه يكون ، ومما يدل على الجفاء في النظام الرأسمالي هو حرق المنتجين لبعض منتجاتهم حفاظاً على ارتفاع الأسعار رغم أنين الجياع في أكثر من مكان من الأرض ، أما الإسلام فإنه يجعل من أوليّات العلاقة بين الناس العطف والإنصاف والإيثار وحسن المعاملة بأن يحب الشخص لأخيه كما يحب لنفسه ، ورتَّب على نبذ الشُّح الفلاح كما قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٩) ﴾ [1]

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩

الفصل الحادي عشر

مشاهير دُعاة الرأسمالية

قام كثير من الكتاب بالدعوة إلى الرأسمالية وتحبيبها إلى الناس وبيان نظرياتهم في الأسس التي يجب أن تقوم عليها المناداة بالرأسمالية ، ومن أولئك المشاهير :-

١ - **آدم سميث** : وقد تركزت دعوته على الحث على زيادة الإنتاج ورعاية المنافسة بين المنتجين وأخذ الفوائد الربوية في الديون ، وأنه ينبغي مراعاة الحجم الكلي للعمل وعدد السكان إذا أُريد تحقيق رفاهية للفرد .

٢ - **مالتس** : الذي اهتم بما سماه الانفجار السكاني ، وقد حصر حاجات الإنسان في الغذاء والجنس ، ودعا إلى تحديد النسل وتأخير الزواج .

٣ - **دافيد ريكاردو** : اهتم بكيفية توزيع الثروة وتوزيع الأجور على العاملين وأنها تكون بحسب ارتفاع ثمن الحاصلات هبوطاً وارتفاعاً .

٤ - **فرانسو كينزي** : اهتم بدرارسة النظريات الاقتصادية ودعا الحكومات إلى التدخل لتخفيف البطالة وتحقيق الرفاهية .(١)

٥ - **جون ستيوارت** : الذي اهتم بالدعوة إلى حرية الأفراد وعدم تدخل الدولة في تصرفات الشعوب .

---

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة - د. علي جريشه - ص ١٣٨ - ١٤٠

٦ ـ **هربرت سبنسر :** وقد اهتم بالدعوة إلى تحقيق الحرية الكاملة لأفراد الشعوب في قضاياهم الاقتصادية بعيدين عن تدخل الدولة إلا فيما يتعلق بحماية رأس المال والعقود التي ترتبت عليه .[١]

ومنهم : جون لوك ، وثورجو ، وميرابو ، وجان باتست ساي ، وباستيا ... وغير هؤلاء ، إلا أنه يُلاحظ أن الدعوة إلى إبعاد الدولة عن التدخل في الشؤن الاقتصادية للشعوب لم تكن دعوة صحيحة ، فقد أفاق الناس على الغبن الفاحش في المذهب الرأسمالي واستدعى الحال ضرورة تدخل الدولة في بعض المرافق وبعض الأحكام لحماية المنتج والمستهلك ، وهذا أمر بدهي إذ لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .

---

(١) انظر «مقدمة في الفكر السياس» ـ د . نظام محمود بركات ـ ص ١٧٤ ، ١٧٥
وانظر «النظام الاقتصادي في الإسلام» ـ ص ٤٣ ـ ٤٦

المذاهب الفكرية المعاصرة

ودورها في المجتمعات
وموقف المسلم منها

تأليف

د. غالب بن علي عواجي

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

الجزء الثاني

المكتبة العصرية الذهبية

جدة

الطبعة الأولى

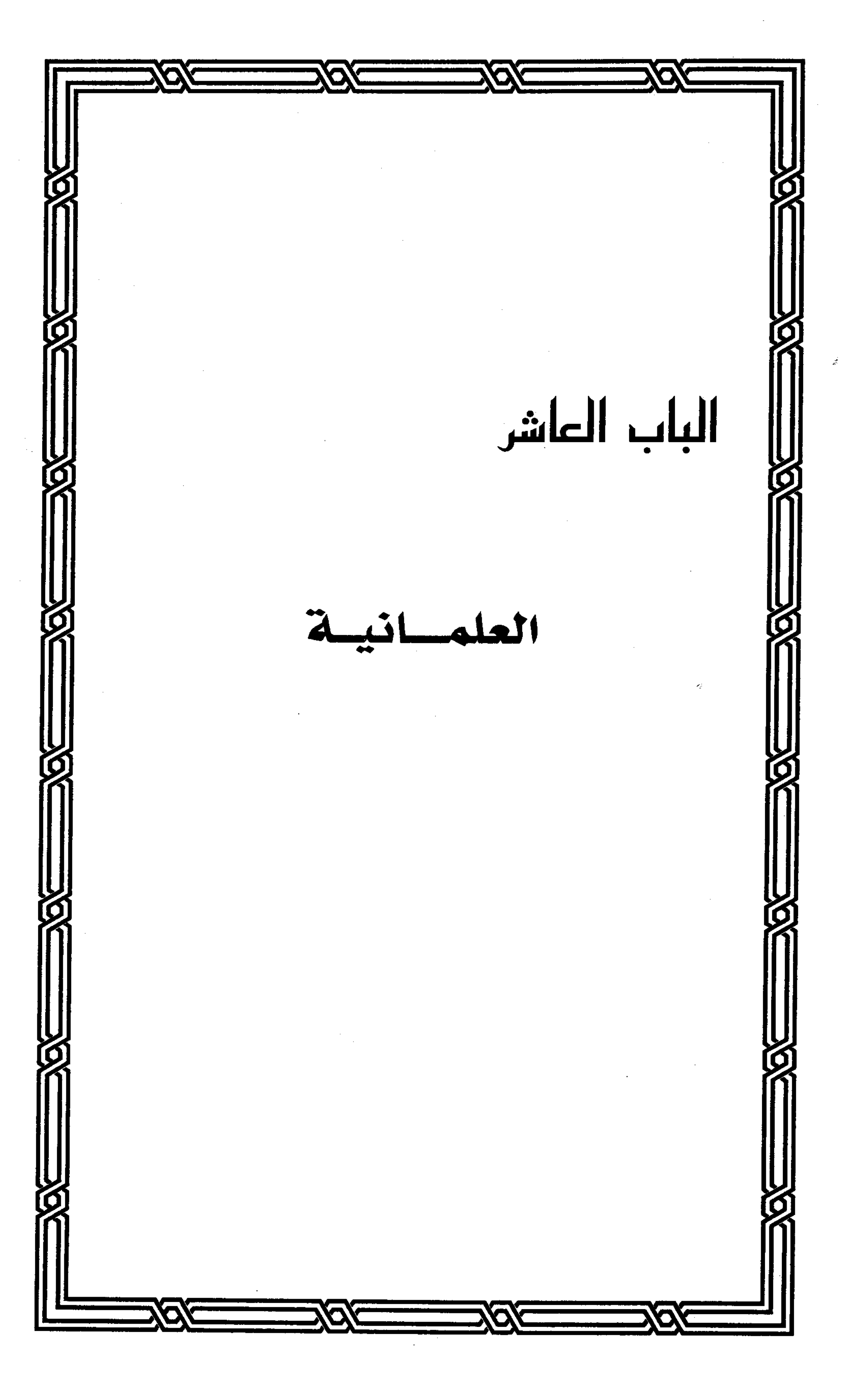
١٤٢٧ هـ - 2006 م

المكتبة العصرية الذهبية

للطباعة والنشر والتسويق

جدة - ت: ٦٧٣٩٥٥٤ - ٦٢٩٣٨٤١

الرياض: ٤٧٦٥٠٠٨ - ٤٧٧٤٨٤٤



الباب العاشر

العلمـــانيـة

البــاب العاشـر

العلمَـانيـَّة

تمهــيد :

لم تقم العلمانية في أساسها على كتاب اللَّـه تعالى ولا على سُنَّة رسوله ﷺ ولا على حب الدين ، وهذا أمر مُسلَّم به ، فماذا ننتظر منها بعد ذلك ؟

إنها مذهب هدَّام من الذاهب السيئة التي أنتجتها العقلية الأوربية في مقابل الأديان ، ولا يزال أتباعها يصولون ويجولون ويقدمونها في أثواب برَّاقة مغرية ، وفي حقيقتها السُّم في العسل ، وقد اجتذبت كثيراً من شباب المسلمين ، خصوصاً من كانت له صلة مباشرة بالعالم الغربي ومَن قلَّت معرفته بدينه الإسلامي أو قلَّت معرفته بحقيقة هذا المذهب العلماني الهدَّام وما يُبيته من مؤامرات على العقيدة والأخلاق وسائر جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية ، بل والسياسية ، وغيرها ، وستشمل دراسة هذا المذهب الفصول الآتية :-

تمهــــــيد :

الفصل الأول :حقيقة التسمية .

الفصل الثـــاني :التعريف الصريح للعلمانية .

الفصل الثـــالث :نشأة العلمانية وموقف دعاتها من الدين وبيان الأدوار التي مرت بها .

الفصل الأول

حقيـقة التسـمية

يجب البدء أولاً ببيان حقيقة التسمية ، وبيان صحة نسبتها إلى العلم ، فهل هي كذلك ؟ لقد انخدع الناس بتسمية العلمانية بهذا الإسم ، ولا يزال أنصارها يتبجَّحون بها ويتطاولون بتعاليمها مغترين بها حيث وجدت لها سوقاً رائجةً لدى فئات ممَّن قلَّت معرفتهم أو كانت لهم أهدافاً شريرة ضد الدين لعزله عن قيادة البشر أو التحاكم إليه لإحلال تعاليم عَبدَة الأوثان وأصحاب الأحقاد محله .

وحين أطلقت هذه التسمية في أوربا كان يُقصَد بها عندهم حسب ترجمتها الصحيحة فصل الدين عن السياسة ، أو الفصل الكامل بينه وبين الحياة الاجتماعية ، على أساس أنه لا يجتمع العلم مع الدين بزعمهم ، وقد كذبوا في ذلك وقلبوا الحقيقة ، فإن الدين والعلم حميمان يكمل أحدهما الآخر ويقويه ، أما نسبتهم مذهبهم إلى العلم فإن الحقيقة تدل على أنه لا علاقة بين العلم وبين هذه الفكرة الضالة ، بل إن تسميتها علمانية إنما هو بسبب سوء الترجمة من معناها الغربي الذي هو الابتعاد عن الدين ، أو من باب الخداع والتضليل إذ كان الأولى أن تكون ترجمتها وتسميتها أيضاً هي «اللادينية» لأن مفهومها الأصلي هو هذا وليس نسبة إلى العلم .

وما أقوى التشابه بين تسميتهم العلمانية بهذا الإسم نسبة إلى العلم ،

وبين تسميتهم الاشتراكية العلمية بهذا الإسم كذلك ، كلاهما تمسُّح بالعلم وهو بريء منهما ، وكلاهما خداع للناس وتضليل .

وبعض الباحثين ذهب إلى أن «عِلْمانية» بكسر العين وسكون اللام معناها العلم الذي هو ضد الجهل ، وأما «عَلْمانية» بفتح العين وسكون اللام فمعناها العالم أو الدنيا في مقابل الآخرة ، وتأتي علمانية أيضاً بمعنى دهري وهو تفسير لكلمة «لائيك» الفرنسية وهو تعبير نشره اليهود في فرنسا فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر الميلاديين .[1]

(١) انظر «نشأة العلمانية ودخولها المجتمع الإسلامي» ، ص ٢٣

الفصل الثاني

التعـريف الصـريح للعلمانيـة

الواقع أن دارس العلمانية سيلاحظ تعريفات كثيرة ، إلا أن أصدق تلك التعريفات وأقربها إلى حقيقة العلمانية هو أن العمانية مذهب هدَّام يُراد به فصل الدين عن الحياة كلها وإبعاده عنها ، أو هي إقامة الحياة على غير دين إما بإبعاده قهراً ومحاربته علناً كالشيوعية ، وإما بالسماح به وبضده من الإلحاد كما هو الحال في الدول الغربية التي تسمي هذا الصنيع حرية وديمقراطية أو تدين شخصي ، بينما هو حرب للتدين ، ذلك أن حصر الدين في نطاق فردي بعيداً عن حكم المجتمع وإصلاح شؤونه هو مجتمع لا ديني لأنه أقام حياته الاجتماعية والثقافية وسائر معاملاته على إقصاء الدين (١) ، وهو حال الحضارة الغربية الجديدة ونظامها ، وهذا هو الواقع الصحيح ، ولا عبرة بمراوغتهم في زعمهم أنهم يرعون التدين ، فإنها مجرد خداع للمتدينين ، فإن تسميتهم لهذا الإلحاد علماً هو من باب فرحهم بمعرفتهم ظاهراً من الحياة الدنيا ، وأين هو من العلم الحقيقي الذي يوصل صاحبه إلى معرفة ربه ودينه وإلى السعادة في الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر العلمانية ـ محمد قطب ـ ص ٥
وانظر العلمانية ـ سفر الحوالي ـ ص ٢١

الفصل الثالث

نَشـأة العلمانية وموقف دُعاتها من الدين
وبيان الأدوار التي مرت بها

لقد قامت العلمانية اللادينية على الإلحاد وإنكار وجود اللَّه تعالى وإنكار الأديان ، وهي ردَّة في حق من يعتنقها من المسلمين مهما كان تعليله لها ، وكانت العلمانية عند قيامها في مرحلتها الأولى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، تنظر إلى الدين على أنه ينبغي أن يكون أمراً شخصياً لا شأن للدولة به إلا ما يتعلق بجباية الضرائب للكنيسة ، ولعل هذا كان خداعاً لأهل الدين ، ثم اشتدت المواجهة للدين على النحو الذي تطورت إليه بعد ذلك ، وكان الخلاف محتدماً ما بين رجال الدين ورجال العلمانية على السلطة ، مما جعلهم ينادون بفصل الدين عن الدولة ليستقل كل فريق بسلطته .

حتى إذا جاء القرن التاسع عشر ، وهي المرحلة الثالثة ، إذ بالعلمانيين يتجهون اتجاهاً منافياً لكل مظاهر الدين والتديُّن ، وأحلوا الجانب المادي محل الدين ، وبدأ الصراع يشتد بين العلمانيين اليساريين الناشئين وبين رجال الدين الكنسي المتقهقر ، إلى أن أُقصِيَ الدين تماماً ، ولم يعد للإيمان بالغيب أي مكانة في النفوس ، إذ حل محله الإيمان بالمادي المجرد المحسوس .[١]

---

(١) انظر «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» ـ ص ٩٢ ، ٩٣

ورغم وضوح الإلحاد في المذهب العلماني فقد ظهر من يزعم زوراً وكذباً أنه لا منافاة بين العلمانية وبين الدين ، وأخذ بعض الجاهلين والمتجاهلين يرددون هذا الفكر المغالط كالاشتراكيين تماماً ، على أنه لا ينبغي أن يغيب عن ذهن القارئ أن حرب الغرب للدين وأهله إنما جاءهم من دين مُحرَّف معادٍ لكل مفهوم للحياة الجديدة ، لأن النصرانية التي جاء بها المسيح عليه السلام قد اندثرت وحُرِّفت وضاع إنجيله بعد رفعه بفترة قصيرة ، فتزعم الديانة بولس اليهودي الحاقد ، فجاءت خرافية مصادمة للعقل والمنطق والواقع ، ومن هنا وجد أقطاب العلمانية أن الدين ـ وهو تعميم خاطئ ـ لا يمكن أن يساير حضارتهم الناشئة ، وأن رجال دينهم طغاة الكنيسة لا يمكن أن يتركوهم وشأنهم ـ وهو ما حدث بالفعل ـ وعلى إثر ذلك قامت المعركة بين الدين وأقطاب العلمانية ، ونشط العلمانيون في بسط نفوذهم ، وساعدتهم على ذلك عامة الشعوب الأوربية التي أذاقتها الكنيسة الذل والهوان والالتزام بدين لا يقبله عقل أو منطق ، فوجدوا في الالتجاء إلى رجال الفكر العلمانيين خير وسيلة للخروج عن أوضاعهم .

وإذا كان القارئ يرى أن للغرب حجتهم في رفض ذلك الدين البولسي الجاهلي ، فإنه سيرى حتماً أن انتشار العلمانية في بلاد المسلمين أمر لا مبرر له بأي حال ، ولا سبب له إلا قوة الدعاية العلمانية وجهل كثير من المسلمين بدينهم وجهلهم كذلك بما تبيته العلمانية للدين وأهله واتباعاً للدعايات البرَّاقة .

•• الأدوار التي مرت بها العلمانية في نشأتها :

وقد ذكر الدكتور العرماني أن العلمانية قد مرت في تطورها بأدوار هي كما يلي :-

الدور الأول : وقد كان دور الصراع الدموي مع الكنيسة ، وسُمي هذا الدور بعصر التنوير أو بداية عصر النهضة الأوربية ، ويعود سببه إلى تأثر الأوربيين بالمسلمين أثر اختلاطهم بهم عن طريق طلب العلم في الجامعات الإسلامية ، وقد ذاق علماء الغرب في هذا الدور ألواناً من العذاب على أيدي رجال الكنيسة أثر ظهور الاكتشافات العلمية هناك ووقوف رجال الكنيسة ضد تلك الاكتشافات وجهاً لوجه .

الدور الثاني : ظهور العلمانية الهادئة وتغلب رجالها على المخالفين من رجال الكنيسة ، وفيه تم عزل الدين عن الدولة وانحصرت مفاهيم الكنيسة في الطقوس الدينية فقط بعيدة عن الحياة الاجتماعية كلها .

الدور الثالث : وفيه اكتملت قوة العلمانية ورجالها ، وحلَّ الإلحاد المادي محل الدين تماماً .[1]

ثم برزت الرأسمالية وغيرها من الروافد المقوية للإلحاد العلماني ، فاكتمل تطويق الدين ورجاله واعتبر الدين عدواً للحضارة ، وصار محل سخرية الجميع في رد فعل عارم يريد أن يكتسح كل شيء أمامه مما كان موجوداً ليفسح الطريق أمام الوضع الجديد المتمرد على كل الأوضاع التي قبله .

---

(١) بتصرف عن «نشأة العلمانية ودخولها المجتمع الإسلامي» ـ ص ٤٢

الفصل الرابع

الرد على من زعم أنه لا مُنافاة بين العلمانية وبين الدين

ما أكثر المغالطات التي توجه إلى خلط المفاهيم إما عن جهل بالحقائق وإما عن معرفة وطوية مبيتة شريرة .

ومن العجيب حقاً أن يتبجح مُنشئوا العلمانية بأنها حرب على الأديان وتذويب للمجتمعات في بوتقة اللادينية ، ثم يأتي بعد ذلك من يحاول تغطية هذا المفهوم الواضح فيدَّعي التوافق بينهما بحجة أن العلمانية والدين يجتمعان في الحث على نبذ التأخر - حسب مفهومهم - وعلى الحث على العلم والاكتشافات والتجارب ، والدعوة إلى الحرية ، أو أن العلمانية تخدم جوانب إنسانية بينما الدين يخدم جوانب إلهية ... إلخ تُرهاتهم ، ولنا أن نقول للمغالطين أن العلمانية لم تظهر في الأساس إلا بسبب الخلافات الشديدة بين دينهم وبين علمانيتهم ، وإلا فما الذي أذكى الخصومة بين الدين والعلمانية عندهم ؟

نعم إن الدين الصحيح يدعو إلى نبذ التأخر والأخذ بالعلم ومعرفة الاكتشافات والبحث والتجارب ويدعو إلى الحرية ، لكنه لا يجعل تلك الأمور بديلاً عن الخضوع للتعاليم الربانية أو الاستغناء عنها وإحلال المخترعات محل الإله عزَّ وجلَّ ، بل يحكم على كل من يعتقد ذلك بالإلحاد ومحاربة الدين علناً ، وهو ما سلكته العلمانية بالنسبة لنبذها للدين .

والدين الصحيح لا يفصل بين السياسة والحكم بما أنزل اللَّه تعالى ، ولا يجعل قضية التدين قضية شخصية مزاجية ، ولا يبيح الاختلاط ولا السفور وإعلان الحرب على القيم والأخلاق ، بينما العلمانية لم تقم في الأساس إلا على تكريس البعد عن الدين ـ النصراني ـ وإباحة الشهوات بكل أشكالها . فأي وفاق بينهما ؟!!

كذلك فإن الدين لا يبيح لأي شخص أن يُشرِّع للناس من دون اللَّه تعالى ، ولا أن يتحاكموا إلى غير شرع اللَّه تعالى ، وهذا بخلاف العلمانية ، كما أن التوافق بين شيئين في بعض الجوانب لا يجعلهما متماثلين حتماً .

•• أما هل يوجد وفاق بين الإسلام بخصوصياته وبين العلمانية ؟

فإنها إذا كانت العلمانية لا تتوافق مع بعض المذاهب الوضعية الجاهلية وتقف ضد نفوذها ، أفيمكن أن تتوافق مع الإسلام بخصوصه ، إن الذين يتصورون ذلك لا يحترمون عقولهم ولا مشاعر الآخرين ، أليس الإسلام هو العدو اللدود لجميع الجاهليات مهما اختلفت أسماؤها في حزم وصرامة دون أي تحفظ لا يختلف في ذلك مسلمان ؟

وكيف تتفق العلمانية القائمة على الشرك باللَّه عزَّ وجلَّ والكفر به ورفض التحاكم إلى شرعه ، عزَّ وجلَّ ، وبين الإسلام القائم على عبادة اللَّه وحده لا شريك له ذلاً وخضوعاً وحكماً في كل شيء .

لقد قامت العلمانية من أول يوم على محاربة الدين وعدم التحاكم إليه ، وعلى الخضوع لغير اللّه تعالى أما الطبيعة وإما في عبادة بعضهم بعضاً بعد أن ابتعدوا عن الدين وعن الخضوع لرب العالمين وأشركوا معه سبحانه فئة من البشر يسمونهم بالمشرعين أو القانونيين ، ويقدمون كل ما يقرره هؤلاء وينفرون عن ذكر الشريعة الإلهية والرسل والرسالات لأنها بزعمهم لا تقدم الحلول الناجحة كالتي اخترعوها ، متناسين هذه الفوضى الفكرية والأخلاقية والاقتصادية ... إلخ ، الفوضى التي تعيشها المجتمعات العلمانية ونقضها اليوم ما أثبتته بالأمس ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** (٨٢) ﴾[(١)]

ولعل الذي حمل بعض القائلين بأن العلمانية لا تحارب الدين ما يرونه من عدم تعرض العلمانيين لسائر أهل العبادات بخلاف النظام الشيوعي ، ولكن يجب أن تعرف أن أساس العلمانية لا ديني ، ولعل تركهم لأهل العبادات إنما هي خطة أو فترة مؤقتة .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢

الفصل الخامس

أسباب قيام العلمانية في أوربا [(١)]

لقد نشأت العلمانية في أوربا البلد المضياف لشتى الانحرافات والمذاهب الفكرية الضالة لأسباب عديدة ، نذكر منها بعض الأسباب فيما يلي :

١ - السبب الأول هو الظروف القاسية التي عاشتها أوربا قروناً طويلة تحت سيطرة طغاة الحكام وطغاة رجال الدين الكنسي الذين وصلوا في الطغيان وضروب الخرافات إلى ما لا يتصوره العقل من التجبر والتناقض والظلم الفادح واستعباد الناس وإذلالهم والفقر المدقع ومحاربة كل فكر يخالف ما هم عليه .

٢ - لقد أفاق العلمانيون الجدد على دين لا يقبله العقل ولا يقره المنطق ، وعلى جرائم خلقية من جنس وبذخ ودعارة لا حدود لها بين رجال الكنيسة أنفسهم - رهبانها وراهباتها - وقد ذكر ول دبورانت : «إن سجلات الأديرة احتوت على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين رجال الكنيسة وراهباتها» ، واستمع للمزيد من إذاعة لندن في بيانها لمثل هذه الأمور بين فترة وأخرى تسمع العجب .

٣ - ظهور أشنع الخرافات الهابطة مثل صكوك الغفران والعشاء الرباني والتثليث وغير ذلك مما تحدثنا عنه في دراسة النصرانية في مادة الأديان .

---

(١) وبالأخص في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا .

٤ ـ إتصال بعض الأوربيين بالمسلمين ومخالطتهم لهم في الجامعات الإسلامية بالأندلس واطلاعهم على حال المسلمين من حرية وعدالة اجتماعية ، فتنبهوا لواقعهم .

٥ ـ ما كان يمارسه رجال الدين الكنسي من سوء المعاملة لمن خالفهم في قول أو فعل وما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة وتسخير مشين للناس التابعين لهم تحت تسمية نظام السخرة ، وما كان يتمتع به رجال الكنيسة من امتيازات لا حدود لها وحياة الترف والبذخ التي كانوا يعيشونها على حساب الفقراء والمعدمين .

وعن فساد رجال الكنيسة تقول القديسة ـ كما يسمونها ـ «كاترين السينائية» : «إنك أينما وليت وجهك ـ سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا سواء أكانوا صغاراً في السن أو كباراً لم ترَ إلا شراً ورذيلة تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة ، إنهم كلهم ضيقوا العقل شرهون اتخذوا بطونهم إلهاً لهم يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة حيث يتمرغون في الأقذار ويقضون حياتهم في الفسق والفجور»[(١)] .

ومن الأدلة على ضيق أفق رجال الدين النصراني موقفهم المشين من العلم ، وقد وصف «نورليان» ذلك فقال : «إن أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة ، فالكتاب المقدس يحتوي على العرفان

---

(١) قصة الحضارة ـ ٢١ ، ٨٤ ، ٨٥ ـ عن الاتجاهات المعاصرة ـ ص ٩٤

على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه ، فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وتاريخ الأمم مما يجب أن نعتقد تسليمه مهما عارض العقل أو خالف شاهد الحس ، فعلى الناس أن يؤمنوا به أولاً ثم يجتهدوا ثانياً في حمل أنفسهم على فهمه ، أي على تسليمه أيضاً» .[1]

لقد أفاق المفكرون على هذا الغبن الفاحش والفساد العريض والظلم الذي لا يردعه رادع باسم الدين والتقرب إلى اللّه تعالى بطاعة الرهبان والخضوع لهم .

فإذا بهم يطلقون الصرخات الحارة والنداءات المخلصة للشعوب أن يفيقوا من تنويم الدين النصراني لهم وأن ينفضوا عنهم غبار الجهل المتراكم بسببه .

فانفجرالناس وكأنهم البراكين الثائرة وأخذوا ينادون بإقصاء الدين ومن يمثله عن طريقهم وخرجوا وكأنهم طلاب ثأر موتورين ، وحصل بعد ذلك ماحصل من الحروب الخفية والظاهرة بين رجال الكنيسة وبين المفكرين ومن تبعهم ، وإذا بالأرواح تزهق والضحايا تتوالى وتزداد ، وحلَّ كابوس مخيف على أوربا وليل داج أسفر بعد ذلك كله عن انتصار المارد الجديد ودحض الكنيسة وترهتها وتمريغ أنوف رجال الدين في الوحل ، وابتلى اللّه الظالمين بالظالمين ، وتنفست أوربا الصعداء ، وإذا العداء بين الفريقين ملتهباً لا يقر له قرار ، ومن هنا أدار رجال الفكر ظهورهم للدين

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ـ ص ٢٧ ، ٢٨ ـ عن الاتجاهات المعاصرة ـ ص ٩٤

ورجاله ، واتجهوا إلى عقولهم ، وإلى نبش شتى الفلسفات القديمة لبناء مذهبهم اللاديني الجديد ، وتبنوا كل فكر إلاَّ فكراً يتصل بالدين وأهله .

وإذا طلبت كلمة الإنصاف ، فإن الجواب أن كل ما فعله المفكرون من محاربة الدين ومن يمثله قد يكون أمراً منطقياً تماماً ، ولهم حجتهم فيما فعلوه تجاه الدين القائم على رؤوسهم لأنه دين باطل ، ومن يمثلونه كانوا يمثلون الطغيان بكل معانيه ، ولكنهم أقاموا باطلاً على أنقاض باطل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنهم لا يخرجون عن المسؤلية تماماً لأنه كان يجب عليهم أن يبحثوا عن الدين السليم الذي يتفق مع فطرهم وعقولهم ، وسيجدونه في متناول أيديهم ، وسيجدون أنه الدين الذي يريحهم من ظلم وخرافات النصرانية البولسية المحرَّفة وطغاتها ، ويتفق مع العقول ، ويحثهم على إكما مخترعاتهم ويبارك جهودهم .

إنه الدين الإسلامي الذي يحارب الظلم والخرافات ، وينير الطريق لأتباعه ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ويحثهم على العلم والتعلم واحترام العلماء وتجاربهم ، ولو اتجه العلمانيون إليه لكانوا في راحة وسعادة بدلاً عن الشقاء الجديد الذي انتقلوا إليه ، والذي تمثل في ظلم وطغيان الشيوعية والرأسمالية وخدع الديمقراطية والعنصريات القومية والوطنية وغيرها من المذاهب التي تخبط العلمانيون في ظلماتها ، ولا يزالون ، لبعدهم عن الطريق الصحيح الذي كان يجب عليهم أن يسلكوه إذ أن الظلم لا يرتفع بالظلم ، والجهل لا يرتفع بالجهل ، فكان انفلاتهم من قبضة رجال الدين

النصراني وإطلاق سيقانهم للريح هرباً منهم دون أن يلووا على شيء ، أشبه ما يكون بهرب عبد آبق من سيده الظالم ليقع في يد آخر أظلم منه وأطغى .

وما تعيشه شعوب العلمانية اليوم من فوضى أخلاقية وظلم اجتماعي واستعلاء بعضهم على البعض الآخر ، إنما هو دليل واضح على فساد تلك النقلة العجلة على أيدي المفكرين الغربيين ، وهذا ما شهد به عقلاء الغرب والشرق على حد سواء في انتقاداتهم لأوضاعهم الاجتماعية وحضارتهم القائمة على تأليه المادة وعبادتها .

٦ - وإذا كان طغيان رجال الكنيسة وحماقاتهم هو السبب الأكبر في نشأة العلمانية ، فإن هذا لم يكن هو السبب الوحيد ، بل انضافت إليه أسباب أخرى لا تقل أهمية عن كل ما تقدم ، وتمثل ذلك كما عرفت في تلك المواقف المخزية لرجال الدين الجامدين القساة ضد أصحاب العلم التجريبي وما وصلوا إليه من اكتشافات جديرة بالاحترام والقبول لولا أن هؤلاء قابلوهم بأنواع الاضطهاد والتعذيب ، وكان لرجال الكنيسة صولات وجولات مع كل المفكرين ، حيث أذاقوهم من التعذيب ما لا يعلمه إلا اللّه وحده بعد أن نصبت لهم محاكم التفتيش التي استعملت من أنواع التعذيب بالمخالفين الذين أطلق عليهم رجال الدين لقب «الهراطقة» ما لا يتصوره العقل ، حيث «كانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض بها غرف خاصة للتعذيب وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري ، وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً حتى يهشم الجسم

كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم ، وكان لدى المحكمة آلات تعذيبية أخرى منها آلة على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة ، يلقون الضحية في التابوت ثم يطبقونه عليه فيمزقه إرباً إرباً ، وآلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد فتقطعه قطعة قطعة ، وتغرز في أثداء النساء حتى تتقطع كذلك ، وصور أخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها» [(١)] .

وهكذا ظل رجال الدين يطاردون العلم والعلماء خوفاً على مناصبهم أن تذهب بها فكرة أدراج الرياح .

ولم يكن لأولئك الرجال من سعة الأفق ما يحملهم على تفهم اكتشافات وآراء المفكرين ومقابلة الرأي بالرأي ، والحُجَّة بالحُجَّة ، بل قابلوا ذلك بالعنف الذي تحوَّل لصالح المفكرين ونظرياتهم وألهب قلوب الجماهير النصرانية في كل مكان .

٧ ـ الثورة الهائجة التي قامت في فرنسا على تعاليم الكنيسة الظالمة بعد أن ذاق الفرنسيون ألوان الحرمان والجوع والشقاء ، وبعد أن تبين لهم أن كل أسباب تلك المصائب هم طبقة النبلاء الأشراف وطبقة رجال الدين ، فخاضوا ثورتهم المشهورة التي أسفرت عن انتصار الشعب وسحق رجال الدين وكل ما يتصل بالدين انتقاماً لما أسلفه رجال الدين نحوهم ، وكانت سبباً من الأسباب القوية التي

---

(١) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ـ ص ١٣٢ ، نقلاً عن «التعصب والتسامح» لمحمد الغزالي ـ ص ٣١١ ـ ٣١٨

أدت إلى قيام العلمانية ، حيث تعتبر تلك الثورة هي الفاتحة والمشجع الأول لقيام العلمانية وإخفات أصوات طغاة الكنيسة ، وكذا المناداة بإقامة الحكم على اللادينية وعلى القوانين التي يصنعونها بدلاً عن قوانين الكنيسة وفلسفتها ، وذاق رجال الكنيسة وبال أمرهم على أيدي زعماء هذه الثورة الذين كانوا من أعدى أعداء الدين والقيم والأخلاق وكل ما يتصل بالدين وباللَّه عزَّ وجلَّ .

ولقد استفاد زعماء الثورة العلمانية من مواقف رجال الدين الذين حاولوا عبثاً تخويف الجماهير الغاضبة وكبح جماحهم وإرجاعهم إلى حظيرة الكنيسة ، ولكن كان غليان قلوب الجماهير فوق تصورات البابوات ، فقد شب الشعب عن الطوق وأبصروا بأم أعينهم الغبن الفاحش الذي حلَّ بهم على أيدي البابوات .

٨ ـ وانضاف إلى تلك الأسباب سبب آخر تمثل في الكيد اليهودي المندس ضمن الجماهير الهائجة في الميدان ، فقد اخترعوا مخططات لضرب الناس بعضهم بالبعض الآخر وإشاعة الفوضى العارمة التي تسفك فيها الدماء بدون رقابة ولا تحقيق إذا كانوا ينظرون إلى المسيحيين وإلى الدين المسيحي على أنه هو العدو الحقيقي الذي يحول بينهم وبين وصولهم إلى قمة العزة والكرامة وملك اليهود العالم ، كما أكدته الماسونية اليهودية .

لذلك كانوا هم المحرك الفعّال والداعم لهيجان الجماهير على رجال

الدين ، ثم حوَّلوهم إلى الهيجان على الدين المسيحي نفسه ، وقد أسفرت المعركة عن سحق رجال الدين الكنسي وعن مطاردة الدين وعدم السماح له بالاستقرار في أي مكان من أجهزة الدولة الناشئة .

٩ ـ ثم جاء الإلحاد في ثورته العارمة ليضيف سبباً جديداً لقيام العلمانية في أوربا ، فساعد على زيادة النار اشتعالاً ، والطين بلة في موجة إلحادية قوية تمالأ عليها الملاحدة في شكل نظريات تبرهن على عدم وجود اللَّه أصلاً وأن الأشياء إنما وُجدت بطبيعتها ، وأن التدين إنما هو من صنع الإنسان وخيالاته وليس من قوة إلهية خارجة عن البشر ، وقد شكلت هذه الظاهرة مع ظاهرة الغضب الجماهيري كماشة قوية على أعناق رجال الدين وعلى الدين نفسه ، مما أتاح فرصة سانحة لقيام العلمانية وسائر المذاهب في أوربا بقسميها الشرقي والغربي .

وأودُّ هنا أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أن دراسة حال أوربا قبل مجيء رواد الفكر والحرية وبيان ما وصل إليه طغاة الكنيسة في الانحراف والخروج بالدين النصراني إلى الوثنيات على يد بولس وأتباعه قد تمت دراسة كل ذلك في مادة الأديان ، فارجع إليه إن شئت ، وإنما الغرض هنا هو التنبيه إلى بيان السبب وراء ظهور العلمانية بإيجاز ، ثم دراسة هذا المذهب بعد أن أصبح ديناً للقائمين عليه .

الفصل السادس

هل العالم الإسلامي في حاجة إلى العلمانية ؟ وأسباب ذلك ؟

مما لا يصح أن يختلف فيه اثنان أن العالم الإسلامي ليس بحاجة إلى العلمانية بجميع صورها وأشكالها ، وذلك لأمور كثيرة ، من أهمها :-

١ - **كمال الدين الإسلامي** : وقد شهد بذلك أصدق القائلين ورب العالمين ، عالم الغيب والشهادة ، فقد قال في كتابه الكريم ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [1] ، وقال النبيُّ ﷺ : «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إلاَّ هَالِكٌ**» [2]

فالإسلام دين كامل ونعمة تامة رضيه اللّه لأمة محمد ﷺ ، وقد اتضح بما لا شك فيه حتى عند أعداء الإسلام أن هذا الدين هو الدين الصحيح والمنهج السليم لسعادة البشرية وتحقيق آمالهم في الحياة السعيدة والأمن والأمان ، قال الفيلسوف «برناردشو» : «إني أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلَّم زمام الحكم المطلق في العالم أجمع لتم له النجاح في حكمه ولقاده إلى الخير ولحلَّ مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة» [3]

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣

(٢) المستدرك على الصحيحين - الجزء الأول - ص ١٧٥

(٣) انظر : «الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب» - ص ١٣١

وقد جرَّبه المسلمون حينما كانوا يطبقونه قولاً وفعلاً ، فكانوا سادة العالم والمنقذين للبشرية من الجهل والخرافات والظلم والتوجه الحق لعبادة فاطر السماوات والأرض ونبذ عبادة من عداه ، ولهذا ولغيره فإنه لا يوجد أدنى مبرر لأي مسلم أنْ يُعرض عنه ويتخذ العلمانية اللادينية الجاهلية عقيدة ومنهجاً له إلا مَن سفه نفسه ، ومن المؤسف أن يتكاثر السفهاء ممّن ينتمون إلى الإسلام للتهافت على موائد العلمانية القذرة وأن يزجوا بأنفسهم في الظلمات بعد أن وصلوا إلى النور وأن ينحدروا إلى الهاوية بعد أن وصلوا إلى قمة الأمان ، وكأنهم لم يسمعوا بأنين أصحاب الحضارات الجاهلية والظلم الفادح الذي يتجرعون غصصه والخوف الشديد الذي يعيشونه ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، وكأنهم لم ينتفعوا بما جرَّبه غيرهم من طلب العز بغير الإسلام وما وصلوا إليه من الذل والحقارة .

ومن كمال الإسلام أنه لم يدع أي أمر يحتاج الناس إليه إلا وبيَّنه أتم بيان وأوضح حكم سواء أكان ذلك في الاعتقادات أو في المعاملات ، ويطول الكلام لو أردنا أن نستقصي أمثلة ذلك ، بل يحتاج إلى دراسة خاصة ، كما يلاحظ القارئ الكريم من خلال جهود علماء المسلمين قديماً وحديثاً في بيانهم لكل ذلك على هدى من كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ تجد ذلك الشمول في الإسلام لجميع جوانب الحياة عقيدة وسلوكاً في كل ما يتعلق بحياة الناس الدينية والدنيوية ، وعلى سبيل المثال انظر بيانه للشرك وأقسامه ، والتوحيد وأقسامه ، وتثبيت المراقبة الذاتية في قلب كل مسلم ، والحث على الإخلاص

في كل شأن وحسن المعاملة وتثبيت الفضائل والتنفير عن الرذائل والإحكام الصالحة لكل زمان ومكان ، والتكافل الاجتماعي الحقيقي والمساواة بين الناس .

فلم يخلُ أي جانب من جوانب الأعمال القلبية والحسية من وقوف الإسلام عنده وبيانه بصورة واضحة ترغيباً وترهيباً .

تجد فيه التنفير عن الرياء والغلظة والحسد والنفاق والكبر وسوء الظن والكذب والبهتان والغيبة والنميمة وشهادة الزور والغش وقذف المحصنات الغافلات وظلم النفس وظلم الآخرين وعدم الرفق بالإنسان أو الحيوان وتحريم غمط الناس وإخلاف الوعد ... إلى آخر الصفات فتنشأ في النفس المراقبة الذاتية للّه تعالى التي ينتج عنها الإخلاص الذي هو مصدر كل خير وينتج عنها الخوف من اللّه تعالى ، بينما هذه الصفات مفقودة في العلمانية ، وفاقد الشيئ لا يعطيه .

ولهذا نجد أن الجرائم في العالم العلماني منتشرة بشكل مخيف دون أن تجد لها الأحكام الرادعة في غياب الخوف من اللّه تعالى وعدم مراقبته ، فلا تجد فيها الدعوة إلى التواصل والتراحم والعطف على الضعفاء والمساكين وصلة الرحم وحسن الجوار والمعاملة بالتي هي أحسن ، كما يظهر فيها النقص الواضح في قضايا المعاملات سواء كانت في البيوع أو النواحي الاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية وسائر المعاملات ، فلا يوجد ذلك الإحساس الطيب بين الفرد ونفسه وبينه وبين قرابته ، وبينه وبين سائر المجتمع ، وعلى هذا

فإننا نقول وبكل تأكيد واطمئنان أنه لا توجد أي حاجة أو مبرر للالتفات إلى الجاهلية العلمانية وقوانينها البشرية القائمة على التناقض والاضطراب ، بل ليس فيها ما يغري بها عند أصحاب العقول والهمم الرفيعة طلاب الحق والمعرفة .

٢ ـ لأنها لا تتفق مع الإسلام ، وقد سبق الرد على من زعم وجود التوافق بينهما .

٣ ـ ولأنها لا تصل إلى بلد إلا وأنتجت من الشقاء والفوضى في الحكم والأخلاق والقيم وسائر السلوك ما لا يعلمه إلا اللَّه تعالى .

٤ ـ ولقد ثبت فشلها في إسعاد المجتمعات التي ابتُليت بها ، فلماذا يجربها من ليس في حاجة إلى شيء من تعاليمها ، ولماذا يدخل نفسه في شقاء لا مبرر له ، والعاقل من اتَّعظ بغيره .

٥ ـ ولأن المسلم لا يجوز له الشك في صحة تعاليم الإسلام الحنيف ، ولا أن يفضل القوانين الوضعية على الشريعة الإسلامية .

٦ ـ ولأن وجودها في أوربا وفي سائر المجتمعات الجاهلية كان له ما يبرره لفساد الحال فيها كما تقدم ، بخلاف الأوطان الإسلامية التي أشرقت تعاليم الإسلام بها .

٧ ـ ولأن عقيدة الإسلام واضحة تمام الوضوح في بيان أمر الألوهية والنبوات وكل ما يتعلق بأمر البشر والتشريع ، فاللَّه تعالى واحد لا شريك له

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [(١)] والأنبياء بشر أرسلهم اللَّه ليسوا بأبناء اللَّه تعالى ولا شركاء له ، والبشر كلهم عبيد للَّه تعالى ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [(٢)] والتشريع كله للَّه تعالى الذي لام محاباة فيه ولا مجاملة لأحد على حساب أحد كما هو حال القوانين الوضعية .

٨ - ليس في الإسلام حجر على أي شخص أن يتصل بربه مباشرة وبلا واسطة ، إذ الكل عبيد له سبحانه ، أقربهم إليه أتقاهم له ، بخلاف ما كانت عليه الكنيسة إذ لا وصول فيها إلى اللَّه تعالى إلا من خلال رجال الدين الرهبان والقُسس الذين هم نواب عن المسيح الرب ويمثلونه - بزعمهم - مما أثار ثائرة المفكرين الغيورين على مستقبل حياتهم وحياة أبنائهم .

٩ - ليس في الإسلام رجال دين ورجال دنيا ، أو رجال تشريع وقانون ، أو رجال طبقات مسخرة ، وغير ذلك من أوضاع الجاهلية ، فالناس في الإسلام كلهم في درجة واحدة في الأصل والتكليف لا يتفاضلون إلا بعلمهم وعملهم الصالح ، فلا مزية بينهم إلا في هذا الميدان ، وبالتالي فلا يوجد فيه ما يبرر وجود تلك العداوات والعنصريات التي توجد في النظم الجاهلية العنصرية .

(١) سورة الإخلاص ، الآيتان : ٣ ، ٤

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٧٢

١٠ ـ الإسـلام يحترم العلم ويحث على طلبه بكل الوسائل كما يحترم العلماء ويثني عليهم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [(١)] ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٩ ﴾ [(٢)] ، وميدان العلم في الإسلام فسيح يشمل كل جوانب المعرفة ، سواء ما يتعلق منها بالدين ومعرفته أو بالأمور الدنيوية ومعرفتها من طب وزراعة وتجارة وصناعة وغير ذلك ، بينما في الديانة النصرانية لا علم إلا ما أشار إليه الكتاب المقدس ، ولا حق إلا ما تفوَّه به رجال الدين مهما كان الأمر ، ومن هنا كان العلم عند المسلمين يدعو إلى الإيمان ، بخلاف ما عند النصارى ورجال العلمانية المحاربين للدين باسم العلم .

ومن الغريب أن تجد في العالم الغربي اللاديني أن الذين ينادون بالعلمانية اللادينية هم أنفسهم الذين يساعدون الاتجاه الديني عند النصارى في دعم التنصير والاستشراق ، وهم الذين يمدون الكنائس بالأموال السخية في سبيل نشر الفكر الغربي ، بينما العلمانية في البلاد الإسلامية أُريد لها أن تقوم على قطع كل صلة للمسلم بدينه ، إذ كانت القسمة هكذا إما أن تكون شخصاً علمانياً مثقفاً متطوراً ، وإما أن تكون دينياً جامداً متخلفاً ، ومن هنا نشأ بُغضُ الدين الإسلامي في قلوب الحمقى ممن ركن إلى هذه الخدع الإجرامية الغربية النصرانية ، فلماذا لم يظهر هذا التمايز اليوم بصراحة في الغرب

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٢٨

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٩

النصراني الذي تسلل إلى زعامته كبار المنصرين ، والذي اتخذ من التنصير والاستشراق ستاراً كثيفاً بسط نفوذه في العالم الإسلامي .

لماذا أصبح المندهشون من الحضارة الغربية وهم ينتسبون إلى الإسلام يستحي أحدهم أن يقول أنا متطور ومثقف ومسلم في آن واحد ، وديني هو الدين الذي دعا إلى العلم وعزَّز القائمين عليه وأكرمهم غاية الإكرام .

وفي كل ما تقدم وغيره عظة لكل عاقل ، إذ يزداد المؤمن إيماناً بدينه وبنبيه ﷺ ، ويعرف أهداف العلمانية وما تسعى إليه من حرب الإسلام والمسلمين وسائر السلوك الحسن .

الفصل السابع

انتشار العلمانية في ديار المسلمين وبيان أسباب ذلك

عرفت مما سبق أن المسلمين ليس بهم حاجة إلى العلمانية ، ومع ذلك فقد انتشرت العلمانية في ديار المسلمين انتشاراً قوياً ، وأوجد لها أعداء الإسلام عملاء من أهل كل بلد ينوبون عنهم في نشرها بالحيل أحياناً وبالقوة أحياناً أخرى ، وكان هؤلاء النواب أشد من ملاحدة الغرب شراسة وإلحاداً ، وأشد جرأة وتعسفاً لأبناء جنسهم في إرغامهم على قبول اللادينية وربوا عليها أجيالهم ، وأصبحت في كثير من البلدان أمراً مسلماً به ، وحلت محل الإسلام في كل ناحية مع التظاهر عند البعض بالتزام الإسلام .

والأمثلة لا تخفى على القارئ ، فقد أصبحت تركيا دولة علمانية لا دينية على يد المجرم «أتاتورك» ، الذي قطع كل صلة لتركيا بالإسلام والمسلمين ، والذي كان على يديه إسقاط آخر خليفة مسلم في الدولة العثمانية ، وإسقاط الدستور الإسلامي واستبداله بالقانون المدني السويسري ، وقانون الجزاء الإيطالي ، والقانون التجاري الألماني ، وغيرها من القوانين الوضعية الجاهلية ، وتعهد بإخماد كل حركة إسلامية ، وربط تركيا مباشرة بالدول الغربية ، وكان من نتائج ذلك أن تمزق المسلمون ولم تعد لهم جامعة تجمعهم ولا رابطة تربطهم ، وهو ما تحقق لأعداء المسلمين من المستعمرين ، ولا يزال حكام تركيا يتزلفون إلى الغرب ، ولم تكن تركيا وحدها هي الضحية ، بل كانت كل الدول الإسلامية التي كانت خاضعة للاستعمار الإنجليزي أو

الفرنسي ، أو غيرهما ، دخلتها العلمانية من أوسع الأبواب ، وأدخلت تلك الدول كلها في ظلمات العلمانية ، وأقصي عنها التشريع الإسلامي بالقوة مثل ما حصل في الهند على يد البريطانيين ، وفي تونس على يد الفرنسيين ، وقويت العلمانية كذلك في مصر وأصبح لها كتاب يدافعون عنها ، بعضهم كان ينتسب إلى الأزهر مثل «علي عبد الرازق» ، و «خالد محمد خالد» الذي يُقال إنه رجع عن ذلك .

ولا تزال الدول الإسلامية في مد وجزر في تقبل العلمانية أو ردها ، وإن كانت الأكثرية قد انخدعت ببريق العلمانية ومنجزاتها الحضارية المزعومة ، بل لقد أصبح الكثير من الزعماء يراهن على بقائه في الزعامة في تزلفه لأقطاب العلمانية اللادينية في الشرق أو في الغرب ، وبما يقدمه من خدمات في استيراد العلمانية ومحاربة الشريعة الإسلامية وممثليها ، ولا يكتفون بهذا الإجرام ، بل يضيفون إليه أن الشعوب هي التي تطلب ذلك ، والساسة يذبحون الشعوب بأيدي الشعوب ، ويتم كل ذلك دون أن تعلم الشعوب شيئاً عما يجري في الخفاء وراء الكواليس في الشرق أو في الغرب ، مع أن كل عمل إنما ينفذ باسم الشعب ، وأين الشعب وأين ما يجري وراء الكواليس .

الأسباب التي أدت إلى انتشار العلمانية في بعض ديار المسلمين :

مما لاشك فيه أن انتشار العلمانية اللادينية أو غيرها من المذاهب الباطلة إنما تنتشر في غفلة العقل وخواء النفس عن التمسك بالمعتقد

الصحيح ، وفي الوقت الذي يرى فيه الإنسان حسناً ما ليس بالحسن من جرَّاء الدعايات البراقة أو الضغوط الشديدة .

وفيما يلي نبين بعض تلك الأسباب التي أدت إلى انتشار العلمانية في ديار المسلمين ، ويمكن أن يكون من أول الأسباب كلها :-

جهل المسلمين بدينهم : فلقد مرت بالمسلمين فترات ساد فيها الجهل وتغلبت الخرافات وقل فيها الإقبال على العلم والتعلم حتى وصل الحال إلى إمكان عَدّ الذي يقرأون ويكتبون في البلد الواحد ، وحتى الكثير من هؤلاء القرَّاء والكتاب قد لا يقرأ أحدهم إلا القرآن الكريم من المصحف دون فهم ولا تدبر ، وأقفل باب الاجتهاد حين غلب الجهل وقلَّ العلماء المجددون وجمدوا على التعصب للآراء وتشعبوا إلى مذاهب فكرية وطوائف متعارضة يحتدم بينها التنافس المنحرف لا لشيء إلا لأجل بسط النفوذ واكتساب الأتباع ، وهذا الانحراف مثلته الصوفية بأجلى مظاهره حيث نام الناس على ترديد أوراد جوفاء في معظمها للتبرك وزهد كاذب عن الدنيا وملذاتها .

والناس في نظر أقطاب الصوفية أصبحوا مذنبين مقصرين في جنب اللَّه ، وحصل عند بعض المتصوفة المسلمين ما حصل للنصارى في نشوء طغيان رجال الكنيسة في تجريمهم للناس وتحطيم معنوياتهم والضغط عليهم للتمسك برجال الدين أصحاب الجاه العريض عند اللَّه ، فبهم وحدهم أزمَّة الأمور وبرضاهم يرضى اللَّه وبسخطهم يسخط .

واخترع الصوفية في مقابل هذا الغلو النصراني مقالتهم المشهورة «من لم يكن له شيخ ، فشيخه الشيطان» ، واخترعوا أشد من صكوك الغفران عند النصارى ، وهو ضمان القطب الصوفي الجنة لمن يريد ، ووصل الهوس باتباع التصوف إلى الكسل التام والخمول المخزي بحجة التوكل على اللّه وترك حطام الدنيا إلى غير ذلك من مسالك الصوفية ، مما سبق بيانه في دراستنا للتصوف[1] .

وعلى كل حال فإن تلك الأوضاع الشائنة التي كان فيها المسلمون مضافاً إليها سرعة انتشار الجهل ، مضافاً إليها النهضة العلمية التجريبية التي شهدتها أوربا ، كل ذلك وغيره قد أثر تأثيراً قوياً في لي أعناق كثير من المسلمين إلى التأثر بالحضارة الغربية ، فذهبوا يحاولون جاهدين تقريب تلك الحضارة الغربية إلى الحضارة الإسلامية على حساب الحضارة الإسلامية بحجة الانفتاح والاستفادة مما وصل إليه الغرب الذي تطور إلى أن وصل إلى الحال الذي يُنظر إليه بعين الإكبار عند المغترين بزخرف الحياة الدنيا ، وقد اقتبس الكثير من المسلمين كثيراً من المفاهيم الأوربية وقدموها للمسلمين على أنها حلولاً لمشكلاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وأنها تتماشى مع الإسلام ، وانخدع بذلك الكثير من المثقفين ومن غير المثقفين ، وكأننا نسير إلى تحقيق ما أخبر عنه النبي ﷺ من اتباع المسلمين سنن من كان قبلهم من اليهود والنصارى في كل شيء ، حتى لو دخل أحدهم جحر ضب لدخله المسلم محاكاةً وتقليداً دون وعي وتبصُّر .

---

(١) انظر : «فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها» ـ دراسة الصوفية .

ولقد زاد انبهار المسلمين بما عند الغرب ، فقد أصبح التغريب من الأدلة القوية على التمدن والتحضر ، وأن تلك العلمانية الملحدة هي التي أوصلت أوربا إلى صنع الطائرة والصاروخ ، وغير ذلك من الدعايات التي أجاد حبكها العلمانيون وأفراخهم في البلدان الإسلامية الذين يصورون العالم الإسلامي وكأن السبل قد انسدت عليهم والطرق قد انقطعت بهم ولم يبقَ لهم إلا منفذ واحد يتنفسون منه وهو منخر الحضارة الغربية العلمانية العاتية .

ومن المعروف أن الحقد الصليبي ، وخصوصاً نصارى العرب جمرة مشتعلة لا تنطفئ إلا أن يشاء اللَّه تعالى ، ولقد أخبرنا اللَّه عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم أن اليهود والنصارى لا يمكن أن يرضوا عن المسلم حتى يتبع ملتهم ويتخلى عن دينه الإسلامي ، فقال عزَّ وجلَّ عن ذلك ومؤكداً عليه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [(١)] ، ولقد وقف النصارى ضد الإسلام منذ بزوغ فجره وإلى اليوم وكان بين النصارى وبين أتباع الإسلام من الحروب وسفك الدماء ما لا يعلمه إلا اللَّه ، ولا يقف عدوٌّ للإسلام إلا وقف النصارى إلى جانبه مؤيدين له ، ولا يجهل طلاب العلم شراسة الحروب الصليبية التي خاض غمارها جحافل الصليب يؤجج نارها طغاة الكنيسة الذي كانوا يضمنون الجنة لكل من حمل صليبه وسيفه لحرب المسلمين التي كانوا يسمونها جهاداً في سبيل اللَّه وحرباً مقدسة .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٠

وقد استمرت عدواة العالم الغربي النصراني للإسلام والمسملين راسخاً في قلوب النصارى حتى بعد أن أدار العالم الغربي ظهره للنصرانية إذ لم تمنعهم عداوتهم للدين النصراني من شدة تعصبهم لما وقع في أسلافهم تحت السيوف المسلمة ، فقد أصبحت عداوتهم للإسلام أمراً موروثاً بالفطرة ، واستحكمت العداوة إلى الحد الذي أصبح من المستحيل أن يبقى أدنى عطف في قلوب النصارى على أي مسلم ، ولكنهم ينافقون المسلمين بأنواع النفاق كلها تحت مسميّات عديدة ، واشتد العداء للإسلام بسبب وقوفه ضد مطامعهم وضد طغيانهم الجديد الذي أعقب طغيان رجال الكنيسة ، وبسبب دعوة الإسلام إلى التحرر من كل الخرافات والأوهام وإلى تحريمه الذل للكفار والاستكانة لهم ، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة الظاهرة والخفية .

ولقد اتخذت عداوة النصارى للإسلام ومحاربتهم له أشكالاً مختلفة ومظاهر عدة ، ابتداءً بحمل السلاح وتجييش الجيوش النظامية إلى الالتجاء للخداع والمكر المتمثل في غزوهم الفكري للعالم الإسلامي تحت عدة أقنعة من التنصير إلى الاستشراق إلى استجلاب أبناء المسلمين وتنصيرهم بطرقهم المختلفة من بناء المدارس لهم والمستشفيات وإنشاء شتى المرافق التي قدمنا ذكرها ، ونشطوا في ذلك نشاطاً عالياً أثمر فيما بعد استيلاءهم على العالم الإسلامي حسِّياً ومعنوياً ، وعلت حضارتهم المادية التي يفاخرون بها على حضارة الإسلام ، علت في قلوب مريضة أصيبت بالانبهار بما عند الغرب من صناعة وفكر ونظام ، سهل بعد ذلك تسرب العلمانية إلى عقول وجهاء وأصحاب نفوذ صاروا ربائب لأكابر وجهاء العلمانية .

وقد توالت الهزائم على العالم الإسلامي فلا يخرجون من هزيمة إلا إلى أخرى ، وأصاب المسلمين الوهن والاستخذاء أمام العبقرية الأوربية ، ونجح الجزء الأكبر من المخططات اللادينية ، وتضافرت الجهود وأشغلوا المسلمين بأحداث هامشية فيما بينهم لا تخدم أي شكل من أشكال المصالح العامة .

وكانت أكبر الخطط الناجحة هي تلك التي اتفق عليها زعماء الغرب من ضرب المسلمين بعضهم ببعض والاتجاه بالحرب وجهة أخرى ليس فيها جيوش ولا آلات حربية ، وإنما هي حرب الإسلام ذاته عن طريق الغزو الفكري بدون إثارة المسلمين والتفنن في إطلاق الشعارات البراقة على أعمال العلمانيين والمنصرين في البلاد الإسلامية في أشكال مساعدات إنسانية وثقافية واجتماعية واقتصادية ، وما إلى ذلك من الأسماء التي ظاهرها الرحمة وباطنها دمار الإسلام والمسلمين[١] .

أما الاحتلال الشيوعي الماركسي : ففي الشرق الإسلامي قامت الشيوعية الماركسية باحتلال أراضي المسلمين هناك وقتلت أهلها قتلاً ذريعاً ، وقامت الصين بنفس العمل أيضاً حينما احتلت أجزاء من الأراضي الإسلامية ، وكان الجميع يتباهون بقتل وتشريد المسلمين ونشر الرعب

---

(١) كتبت هذا الكلام قبل الأحداث الأخيرة في أمريكا ، وأما اليوم فإننا كما نسمعهم في الإذاعات تهدد أمريكا علناً باحتلال العراق وأن يتولى حكمه جنرال أمريكي ، ولا أحد يدري عن مصير المسلمين إلا اللَّه تعالى . وبعد هذا الكلام والترقب وقع المكروه ، والآن أمريكا تحتل العراق وتذيق أهله ألواناً من الذل والتنكيل ، ولا حَول ولا قوَّة إلاَّ باللَّه تعالَى .

والفساد ، فتوالت على المسلمين النكبات من كل جانب ، ولولا لطف اللَّه تعالى وتكفله بحفظ دينه وكتابه لكان العالم الإسلامي في مهب الريح ، فلقد فعل الشيوعيون بالمسلمين وبممتلكاتهم أفعالاً يندى لها الجبين ، فكانوا يهدمون المساجد والبيوت على من فيها في حقد لا نظير له ، والحمد للَّه الذي أقر أعين المسلمين بموت الشيوعية واندحارها في عقر دارها ، سنة اللَّه في الباطل الذي يكون له صولة ثم يضمحل ـ كما سيأتي الحديث عن هذا المذهب الهدَّام وأتباعه الأبالسة .

أما بالنسبة للإحتلال اليهودي لأراضي المسلمين : فلقد كان له تأثير واضح نجح رويداً رويداً من وراء ستار كما هو شأن اليهود الذين يجيدون المؤامرات السرية ضد كل المخالفين لهم ، وهم وإن لم يكن لهم مستعمرات كثيرة واضحة ، فإن لهم مستعمرات هي أشد خطراً من المستعمرات الظاهرة ، فلم يكن السبب في انتشار العلمانية في البلاد الإسلامية هو ما تقدم من الأسباب فقط ، وإنما انضاف إليها هذا التيار الخطير الهدام والمتمثل في دور اليهود الحاقدين الذين أخبر اللَّه في كتابه الكريم عن شدة عداوتهم للإسلام والمسلمين ، وأنهم لا يزالون على عداوتهم إلى الأبد ، قال تعالى : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [1] ، وجاءت السنة النبوية لتؤكد ذلك ، فقد أخبر الرسول ﷺ عن خبث اليهود ومكرهم بالمسلمين في عدة أحاديث ، منها «**مَا خَلَى يَهُودِيٌّ بِمُسْلِمٍ إلاَّ وَهَمَّ بِقَتْلِهِ**» [2]

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨٢

(٢) انظر : «مُصنَّف عبد الرزَّاق» ـ الجزء العاشر ـ ص ٣٦٢

وجاءت أفعال اليهود تجاه المسلمين ـ قديماً وحديثاً ـ لتؤكد مصداق كل ما ورد من أوصافهم العدائية في الكتاب والسنة وأقوال الناس عنهم ، وجاءت كذلك أقوال عقلاء الناس من مسلمين وغير مسلمين لتؤكد على خطر اليهود على البشرية كلها ، واطلع الناس على ما جاء في «التلمود» من تعاليم ضد الجوييم أو الأمميين ، واطلعوا على «بروتوكولات حكماء صهيون» الجهنمية فهالهم الأمر ، واتضح لكل ذي بصيرة أن اليهود من أشد الناس عداوة للبشرية ، ومن أشدهم مكراً ، ولقد استعمر اليهود كثيراً من البشر عن طريق منظماتهم ونواديهم ، ومنها الماسونية ، والشيوعية ، وسائر تلك الأفكار ، ويكفي في تصور شدة مكر اليهود استحواذهم على النصارى وإدخالهم في حظيرتهم إلى الحد الذي جعل النصارى يتنكرون لما هو من صميم عقائدهم الأساسية وهو قتل اليهود للمسيح عليه السلام ـ كما تزعمه مصادرهم ـ فقد أصدر زعماء النصارى بياناً بتبرئة اليهود من هذا القتل ، وما ذاك إلا للضغط اليهودي ، كما أنهم أصمُّوهم وأعموهم عما دونه أحبار اليهود ضد النصارى من عداء شديد إلى حد استحلال دمائهم وأكلها في عيد فصحهم كما فعلوا بالأب «توما» وخادمه «عمَّار» في القضية المشهورة التي حدثت ببلاد الشام القرن الماضي .

والذي يهمنا من هذا إنما هو الإشارة إلى تأثير اليهود في نشر العلمانية اللادينية في البلاد الإسلامية ، وسيتضح للقارئ مدى هذا التأثير بمجرد قراءته لـ «بروتوكولات حكماء صهيون» وما جاء في «التلمود» وفي تعاليمهم السرية التي يتواصون فيها بالقضاء على كل الأديان ـ ما عدا دينهم ـ وأن

ذلك سيتم بتشجيعهم لكل حركة معادية للدين ولكل فكرة تحارب الفضيلة ، فنشروا الفساد الأخلاقي بكل أشكاله تحت مسمى الحرية ، وحاربوا الأديان تحت مسميات مختلفة .

وما إن ظهرت اللادينية إلا وتلقفها اليهود ونشروها بكل وسائلهم الكثيرة ودعاياتهم المؤثرة ، حتى ركن كثير ممن ينتسب إلى الإسلام إلى تلك الدعايات وتحولوا إلى جنود لخدمة اليهود من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وقد حذَّرنا اللَّه تعالى من الركون إلى أعداء ديننا بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [(١)] ، وقد وضحت هذه النار في الشعوب الإسلامية الذين تنكروا لدينهم وتقبلوا العلمانية ، وضحت في معيشتهم وفي أمنهم وفي تكاتفهم ، بل وفي كل شؤون حياتهم ، فكانت أمراً مخزياً ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [(٢)]

ولا يزال اليهود أداة تخذيل وإغواء لكل الأمم ـ وخصوصاً الأمة الإسلامية ـ التي تمثل عدوهم اللدود الأبدي ، ذلك العدو الذي تآمروا عليه منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، ولكن ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [(٣)] ، وما تمجيدهم

---

(١) سورة هود ، الآية : ١١٣

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٦٢

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٦٤

للعلمانية ولأقطابها وذمهم للإسلام ولتعاليمه إلا جزءاً من عداوتهم له ، وجزءاً من مخططاتهم للقضاء عليه . ولن يتم اللَّه لهم ذلك إن شاء اللَّه إلى الأبد ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (١)

ومن تلك الأسباب لانتشار العمانية أيضاً هذه البعثات لأبناء المسلمين التي تُرسل إلى الغرب للدراسة - إلا من رحم اللَّه منهم - ذلك أن الطالب يذهب باعتباره تلميذاً مستفيداً لا مُناظراً مُدافعاً ، فيُشبَّع من هناك بما قد أُعِدَّ له وفق مخطط محكم ، وحينما يتم دراسته ويرجع إلى بلده الإسلامي لا شك أنه يرجع بغير الفكر الذي ذهب به ، إذ لا بد وأن يتأثر ولو باتجاه واحد على الأقل أو شبهة لا يستطيع دفعها عن نفسه مهما حاول التماسك والتوفيق بيد اللَّه تعالى .

بل إن كثيراً من الذين ذهبوا للدراسة في الدول الكافرة العلمانية يرجعون بقلوب غير التي ذهبوا بها معهم فيتمنون لو أن مجتمعهم الإسلامي يتحول في لحظة إلى صورة طبق الأصل عن تلك المجتمعات الكافرة التي ألفوها وأُشربوا حبها ، وقد صرَّح كثير منهم بإعجابه بالحضارة الأوربية ، واعتقدوا أن لا مخرج للمسلمين إلى السعادة وامتلاك القوة إلا بتقليد الغرب في كل صغيرة وكبيرة ، كالطهطاوي وأحمد خان ، وعلي عبد الرازق ، وطه حسين .

فرجع كثير من طلاب العلم من المسلمين الذين ذهبوا إلى الدول الأوربية للدراسة وهم متضلعون من تعاليم العلمانية ومقتنعون بها ، وإذا رجع الفكر

---

(١) سورة الصف ، الآية : ٨

إلى تاريخ المسلمين الأوائل فإن صاحبه يشعر بالحزن والأسى ، لأن ماضي المسلمين كان هو النور المشرق ، وكان العلم وأهله وكتبه كلها عند المسلمين وفي جامعاتهم ، في الوقت الذي كانت فيه أوربا في حمئة الجهل ، فانقلب الحال رأساً على عقب حينما زهد كثير من المسلمين عن تعاليم دينهم ورغبوا في الحضارة الغربية وزخرفها ، فأصبح بعض المسلمين ينظر إلى العلوم الغربية بنفس الإكبار الذي كان ينظر به الغرب إلى العلوم الإسلامية .

ومن الأسباب أيضاً استغلال العلمانيون قيام النعرات الجاهلية من قومية ووطنية ودعوى نبذ التخلف ، وما إلى ذلك ، وقد استجاب لهم الكثير ، البعض بحسن نيَّة ، والأكثرون بخبث نيَّة وتخطيط بارع للكيد للإسلام والمسلمين .

وصار حال المسلمين على حد ما قاله أحد الشعراء :

يقضي على المرء في أيام محنته * حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن**

وما إن سرت نخوة الجاهلية في عروق القوميين والوطنيين والتقدميين إلا وسرى معها التعالي والرجوع إلى الأمجاد الجاهلية المزعومة التي كانت العلمانية تصفق لها وتصف أهلها بشتى نعوت المدائح والعبقريات الفذَّة .

كما أن أولئك الثائرون قد أتوا على الأخضر واليابس ورأوا أن بناء مجدهم يتطلب إقصاء تعاليم الدين والسير خلف ركب الحضارة الأوربية الذي تولد من قيام العلمانية الجديدة والسير في طرقاتها حذو القذَّة بالقذَّة .

ومنها الترابط بين العلمانيين في الغرب وأتباعهم في ديار المسلمين ، ومساندة بعضهم بعضاً وإمدادهم بأسباب القوة التي تمكنهم من اعتلاء المناصب في بلدانهم بعد أن باعوا ضمائرهم وأصبحوا عملاء لهم ، فضلاً عن الضغط الذي تتعرض له الحكومات الإسلامية لإفساح المجال واسعاً أمام طلائع العلمانيين ، بل وتشغيلهم بحكم ما يحملون من شهادات أوربية - يجب أن تكون محل الاهتمام والتقدير لأنها صادرة عن موطن التقدم والرقي كما يصورونها في أذهان عامة المسلمين المنهزمين في أنفسهم .

وقد ظهر ذلك واضحاً في معاملة هؤلاء المستغربون ، فإن لهم الأولوية في الوظائف وزيادة الرواتب ، كما نسمع من أخبارهم .

وإذا أبى إلا التحدُّث بالأنجليزية فهو نور على نور ودلالة على تقدمه ومعرفته ، ولقد نشر هؤلاء مبادئ العلمانية الشريرة بكل وسيلة وكان لهم أكبر الأثر في الدعاية للعلمانية ومبادئها بين عامة المسلمين ، وقد ظهر ذلك التأثير في سلوك العالم الإسلامي في المظاهر الآتية :

الفصل الثامن

مظاهر العلمانية في بلاد المسلمين

تمهـــيد :

كانت العلمانية في بداية ظهورها تهدف إلى تحقيق غرض هو من أهم الأغراض التي أشغلت أذهان القائمين عليها ، ألا وهو فصل الدين عن السياسة والحكم على طريقة ما ينسبه الكتاب المقدس إلى نبي اللَّه عيسى عليه السلام «أعطِ ما للَّه للَّه ، وما لقَيصَر لقيصر» ، وبغض النظر عن صحة هذه المقولة عن عيسى عليه السلام فإن العلمانيين وهم في محاولتهم الأولى لتصديع الدين المسيحي وجدوا أن هذا النص من الأمور المساعدة لهم ، وقد جدُّوا وناضلوا حتى تم لهم ما يهدفون إليه من فصل الدين عن الدولة ، وبالأحرى عزل رجال الكنيسة عن الدولة ، ولم يعد دينهم صالحاً للحكم بين الناس في شؤون حياتهم ، بل تولاه التشريع الجديد المسمَّى العلمانية في قوانينها الوضعية .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعدَّاه إلى طور آخر وهو عدم السماح بالدين في كل مظاهر الحياة ، ولم تعد مقولة «أعط ما للَّه للَّه وما لقيصر لقيصر» قائمة في أذهان زعماء العلمانية الجامحة ، فحورب الدين حرباً شعواء تحت الكراهية الشديدة لطغاة الكنيسة الذين يمثلونه ـ حسب مفهوم أقطاب العلمانية ـ هذا ما حصل في العالم النصراني

ومبرراته ، وهو ما يمثله دعاة العلمانية في البلدان الإسلامية التي تم لهم الحكم فيها .

وما دام الأمر قد وصل إلى محاربة الدين وإقصائه نهائياً ، فلا بد أن يوجد البديل له في كل مظاهر الحياة ، وهو ما وقع بالفعل ، فطُوِّرت العلمانية لتشمل بعد ذلك الحكم ، والاقتصاد ، والعلم ، والتاريخ ، والحياة الاجتماعية ، ومظاهر السلوك والأخلاق ، وصور الآداب والفنون .. أي أنها أصبحت ديناً قائماً بذاته ملأ الفراغ الذي خلفه إقصاء الدين النصراني عن المجتمعات .

ولم يعد الناس بحاجة إلى الدين في أي قضية من القضايا التي تصادفهم ، لأن المارد الجديد قد سد كل الحاجات ولبَّى كل المطالب التي تواجه الفرد في حياته اليومية كلها ، في الحكم وفي سائر متطلبات الحياة الاجتماعية الجديدة ، وأصبح دعاة العلمانية كلهم على خط واحد وهدف واحد مع اختلافهم في الوسائل من بلد إلى آخر ، وفيما يلي بيان ذلك في المسائل الآتية :

المسألة الأولى : العلمانية في الحكم

أما العلمانية في الحكم فمن الطبيعي أن لا يجد الحاكم العلماني أدنى ضرورة تدعوه إلى الاستعانة بحكم الدين في أية قضية ، وذلك أولاً لجهله بالدين وعدم معرفته به ، وثانياً للعداء الشديد المستحكم الحلقات بين الدين وبين آراء المفكرين العلمانيين الذين يتصورون أنه لا تتم السعادة الحقيقية

للشعوب إلا إذا أُقصي الدين تماماً عنهم وحكموا أنفسهم بأنفسهم بعيدين عن التأثر بأحكام الدين التي لا ترحم الفقير ولا تجبر الكسير ، بل تحابي وتمالئ الظالمين من أصحاب المناصب والجاه ، كما ظهر ذلك جلياً مما رأوه من ترابط المصالح بين رجال الدين وأصحاب الجاه والحكم ، لتآمر الجميع على إخضاع الناس واستنزاف خيراتهم ـ وهو ما حصل بالفعل حين اشتد طغيان رجال الكنيسة ـ وساعدهم ـ خوفاً منهم ـ أباطرة الحكم الذين استفادوا هم بدورهم من رجال الكنيسة في إقناع العامة بأن الحكام هم من اختيار اللَّه وأنهم يمثلون اللَّه في الأرض ، وطاعتهم هي عينها طاعة اللَّه تعالى ، وعصيانهم عصيان له ، وأن السعادة كلها في يد البابا الممثل المباشر للرب المسيح !!!

وكانت النتيجة أن الثائرين نظروا إلى رجال الدين على أنهم مخادعين متآمرين هم والحكام على استعباد الناس وإذلالهم ـ وهو صحيح ـ فتم وضع القوانين والتشريعات الجاهلية بدلاً عن كل الشرائع الإلهية التي تمثلها الكنيسة الظالمة والبابا المتغطرس ، فجاءت الأحكام العلمانية خليطاً مشوَّهاً من شتى الأفكار والحضارات الجاهلية وظنُّوا أنهم وجدوا الحل المناسب لحياتهم الاجتماعية ، وأنهم وجدوا السعادة التي ينشدونها والأحكام العادلة التي يتمنونها في ظل العلمانية الوضعية التي تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس .

وقصر بهم العزم أن يبحثوا عن مصدر العدل الحقيقي والأحكام المتناسقة التي يسبق العقل إلى تصديقها قبل الواقع ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [1] ، ولقد وجدوا في علمانيتهم اختلافاً كثيراً وتناقضاً فاحشاً في الأحكام ، ولكن طبع على قلوبهم وصار حالهم كما عبَّر عنه الشاعر :

لَفحُ الهَجير نَعيمٌ إنْ رَضيتَ به ＊＊＊ وناعمُ الظلِّ إنْ أنكرْتَ رَمْضاءُ

وفيما يلي نشير إلى الحكم في الإسلام لكي يقارن العاقل بين حكم الجاهلية وقوانينها وبين عدل هذا النور لأنه كما قيل «وبضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ» وليرى القارئ الكريم أكذوبة من زعم أن الإسلام يفرق بين الدين والسياسة في الحكم ، سواء كان هؤلاء يتظاهرون بالإسلام أم لا .

المسألة الثانية : هل يوجد فرق في الإسلام بين الدين والسياسة

لا يمكن لأي شخص عرف الإسلام ـ مهما قلَّت معرفته به أن يقول أن الإسلام يفرق بين الدين والحكم ، بحيث يكون الدين للَّه والحكم للشعب أو القانون أو مجلس التشريع أو الحزب أو غير ذلك من الإطلاقات العلمانية الباطلة ، لأن الإسلام يعبتر جميع البشر عبيداً لخالقهم ، ولا مزية لأحد على آخر إلا بالتقوى ، ويُحرِّم أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللَّه ، وأن مَن رضي بالتحاكم إلى غير اللَّه فهو طاغوت خارج عن الفطرة محارب للَّه ظالم لنفسه ، مُتعَدٍّ لما ليس له ، وسيحاسبه اللَّه تعالى عن ذلك .

وفي الإسلام البيان التام الشامل لكل جوانب الحياة سياسية ، أو إقتصادية ، أو إجتماعية ... إلخ ، بيَّنها اللَّه تعالى في قواعد شاملة

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢

وأحكاماً جامعة وأمر الناس بفهمها واستخراج كل ما يصادفهم من أحكام وتشريع على ضوئها من كتاب اللَّه تعالى أو من سنة نبيه ﷺ ، فالمشرِّع في الإسلام هو اللَّه وحده ، وما نطق به رسوله والمنفذ للأحكام الشرعية هم الحكام الذين تختارهم الأمة ويرضون بحكمهم لتنفيذ الشرع الشريف ، وهؤلاء الحكام ليسوا طبقة فوق البشر ، أو لهم صفات إلهية ـ كما كان يتصور الجاهلون قديماً ـ وإنما هم منفذون فقط ، وأن كل مسلم مطالب بأن يعرف الأحكام الشرعية وأمور العبادات والاقتصاد وغير ذلك من أمور الحياة ، وبمعنى آخر يطلب الإسلام من كل أتباعه أن يكونوا صالحين لتنفيذ أحكام اللَّه في كل قضية تعرض للشخص ، ومعنى هذا أنه لا يوجد في الإسلام تلك الدعوى النصرانية التي بنى عليها اللادينيون فكرهم ، وهي «اعط ما للَّه للَّه وما لقيصر لقيصر» فهذه الإزدواجية لا مكان لها في الإسلام ، وإنما الذي فيه هو تساوي الناس في التكليف أمام اللَّه ومطالبتهم جميعاً بتنفيذ أحكام الشريعة وطاعة ولاة أمورهم في غير معصية اللَّه ورد ما يختلفون فيه إلى كتاب اللَّه وإلى سنة نبيه ﷺ ، وبهذا تصلح الحياة وتستقيم الأمور ويحصل التنافس في فعل الخير ، قال تعالى في شأن الذين يفضلون الأحكام الوضعية على الأحكام الإلهية : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)** ﴾[٢] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

(٢) سورة النساء ، الآية : ٥٨

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [(١)] .

ومعلوم أن الرسول ﷺ كانت مهمتة هي بيان الدين ، ومع ذلك أمره اللّه أن يحكم بين الناس بالعدل ، لأن معرفة الدين هي الطريق الصحيح إلى الحكم بالعدل ، ولم يقتصر الأمر على الرسول ﷺ ، بل شمل غيره من أمته ، فقد أمرهم اللّه أن يحكموا بالعدل حينما يرتضيهم الناس للتحاكم إليهم ، وعلى هذا فلا فرق بين الدين والحكم أو السياسة ، ومن فرَّق بينهما فلجهله أو لميله إلى العلمانية اللادينية .

ولقد كان خلفاء المسلمين هم العُبَّاد ، والزُّهَّاد ، والقُوَّاد ، والخُطباء ، والقُضاة بين الناس . بل نجد الإسلام يجعل الحكم أوسع مما يتصوره العلمانيون إذ يوجب على جماعة المسلمين مهما كانت قلتهم أن يختاروا لهم أميراً منهم يرجعون إليه عند الاختلاف . قال رسول اللّه ﷺ : «**إذَا خَرَجَ ثَلاثَةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُم**» [(٢)] .

ومعلوم أن هذا الأمير متدين ملتزم للحكم بما أنزل اللّه ، وعلى طريقة العلمانية لا بد أن يكون هذا الأمير غير متدين مستهتر بأحكام الشرع يتم انتخابه بأي طريقة كانت ، ولا تسأل بعد ذلك عن الفضل الذي يتميز به

---

(١) سورة النساء : الآية : ٦٥

(١) أخرجه أبو داود ـ الجزء الثالث ـ ص ٣٦
والبيهقي في «السنن الكبرى» ـ الجزء الخامس ـ ص ٢٥٧
والمستدرك على الصحيحين ـ الجزء الأول ـ ص ٦١١
وصحيح ابن خُزيمة ـ الجزء الرابع ـ ص ١٤١

عليهم ليكون أميراً لهم إذا لم يكن ملتزماً لمنهج اللَّه في حكمه ، مراقباً لربه ، مخلصاً في أداء عمله بالعدل الإلهي .

إنه لا يوجد في الشريعة الإسلامية نص واحد يثبت التفرقة بين الدين والحكم ، لا في القرآن الكريم ، ولا في السنة النبوية ، ولا في أقوال علماء الإسلام ، بل نجد أنه لا شرعية لحاكم لا يتخذ الدين منهجاً له .

ولا يوجد كذلك نص واحد يثبت أن أحداً من خلفاء المسلمين من الصحابة أصدر حكماً على طريقة الفصل بين الدين والحكم ، أو اعتذر عن أي حكم أصدره بأن سياسة الحكم اقتضته ، حتى وإن كان مخالفاً للدين ، بل كانت طريقتهم أن كل حكم يخالف الدين يعتبّر حكماً جاهلياً باطلاً ، وذلك للتلازم التام بين الدين والحكم ، واستمر الأمر على ذلك حتى نبغت فتنة دعاة العلمانية الغربية وإذا بضعفاء الإيمان والمخدوعين من المسلمين يتأثرون بتلك الدعايات ويطالبون مجتمعاتهم بالسير في أثر أولئك في الوقت الذي جهلوا فيه ـ أو تجاهلوا ـ أن للغرب أسبابه الظاهرة في مناداتهم بالعلمانية وإقصاء الدين الذي مثله طغاة الكنيسة ردحاً من الزمن ، وكان على الشعوب الغربية كالكابوس الثقيل ، وتغافل هؤلاء عن أن الإسلام ليس فيه شيء من ذلك ، بل فيه العدل والنور ، وإنه صلح عليه حال مَنْ قبلنا ، وسيصلح به حالنا لو حكّمناه واكتفينا به عن الأنظمة الجاهلية البشرية التي هي محل النقص دائماً .

المسألة الثالثة : العلمانية والاقتصاد

أما العلمانية والاقتصاد والدين ، فلقد كان الاقتصاد هو العصى السحرية [1] التي أسهمت في قيام المذهب العلماني ، فقد كانت الحالة الاقتصادية في أوربا في أتعس وضع وأبأس حال بسبب الوضع الاجتماعي المتخلف الذي أنتجته الديانة النصرانية وحكامها ممثلة في البابوات وأصحاب الجاه والسلطان الذين كانوا لا يهمهم إلا ضمان استرقاق الشعوب النصرانية وإذلالها لطواغيت رجال الدين وأباطرة الدولة ، ولتكن حالتهم بعد ذلك إلى النار ، فالدولة ليست مسؤولة عن الفقراء والبائسين .

فنشط النظام الإقطاعي واستبداد الطبقة العليا بمن دونها حسب النظام الجاهلي ، وكان النظام الإقتصادي مكبلاً بتعاليم الكنيسة تحليلاً وتحريماً ، وكان قائماً على ظلم الكادحين وشره رجال الكنيسة الذين احتووا جُلَّ مصادر الاقتصاد مضافاً إلى ذلك صنوف الضرائب المفروضة على الفلاحين وغيرهم الذين كانوا يُسخَّرون كلهم كما يُسخَّر العبيد .

وعاش المجتمع النصراني إقتصاداً ظالماً متناقضاً غاية التناقض منهم نخبة - الحكام والرهبان - في الثُّريَّا ، ومنهم قسم - بقية الشعوب - في الثرَى لا يملكون إلا ما يسد رمقهم في أحسن الظروف ، وفشا النظام الإقطاعي بأجلى صوره وأصبح فيه الأرقاء لا يزيد أحدهم عن كونه إحدى القطع أو إحدى البهائم التي يملكها صاحب الإقطاعية من طبقة النبلاء ،

---

(١) هذا الأسلوب يستعمله بعض الكتاب ، ويرى البعض المنع من ذلك بحجة أن عصا موسى لم تكن سحرية ، ولا شك في صواب المنع إذا أريد هذا المفهوم .

وأوضاع أخرى بشعة وظلم واستبداد لا نظير له ، ولا ينكر شيء منها ، وبطالة وكساداً في كل نواحي الحياة ، والملاحظ أن شياطين العلمانية قد فسروا كل تلك الأوضاع على أنها إحدى نتائج التدين ، وأن الدين هو وراء هذه الأوضاع السيئة كلها بمباركته لرجال الكنيسة هذ التسلط والجبروت ، فإذا بالنظريات الإلحادية تقوم على محاربة وجود اللَّه تعالى ومحاربة رجال الدين وأن الاقتصاد ينبغي أن يتحرر عن كل أغلال الكنيسة وأن يتجه صوب الأفكار التحررية التي يجود بها زعماء التحررية بعيداً عن الدين ، وفي الوقت نفسه لم يكن لدى رجال الدين الكنسي ما يسعفهم بالدفاع عن دينهم إزاء هذه المسامير التي تُدقُّ في نعشه .

وتكاثرت السكاكين على هذا الثور الميت وارتفعت الأصوات من كل مكان تندد بالدين وبطرقه الاقتصادية الجائرة ، وتدعو إلى سرعة الانفلات عن تعاليمه التي أصبحت بالية ولم تعد صالحة في عصر التطور وظهور النور ، وبالتالي فلا سلطة للَّه تعالى ولا لرجال الكنيسة على المارد الجديد الذي هبَّ ليدفع الظلم الذي رضيه اللَّه ـ حسب زعم أقطاب العلمانية ـ لرجال الكنيسة ، وبخبث حول هؤلاء الأقطاب العداء لرجال الدين وللأوضاع السيئة إلى العداء للدين نفسه ، وتحميله كل تلك المآسي دون أن يكلفوا أنفسهم البحث عن حقيقة هذا الدين الذي اتسع لقبول تلك المآسي كلها ، وهل هو دين صحيح أم هو باطل وضلال وتلفيق من كبار المخادعين النصارى ، فلم يهتموا بالالتفات لذلك لحاجة في أنفسهم لكي يحملوا الدين تلك الأوضاع الاقتصادية المتردية .

والواقع أنه حينما أقصى العلمانيون الدين عن أي مجال من مجالات الحياة الاقتصادية على أساس أنه لا يحقق الخير لأتباعه ولا يرفع الظلم عنهم ، لم يأتوا هم أيضاً ببديل يرفع ذلك الكابوس ، بل تخبطوا في حلقات مفرغة وعاشوا أوضاعاً غاية في الفساد لم يكن الرابح فيها غير المرابين والمحتكرين وتجار الرقيق وأصحاب الشره المادي الذين لا يبالون بأحد ولا توجد فيهم أدنى عاطفة على الفقراء والضعفاء الذين لم يصلوا إلى معرفة حذق المرابين وعُبَّاد المال أو لم يكن لهم من المال ما يوصلهم إلى تلك المسالك الثعلبية .

وعاش عامة الناس في تعاسة رغم تزاحم النظريات الاقتصادية ـ سنة اللَّه في الخارجين عن شرعه ـ ولم تنقذهم من تلك الحال لا الرأسمالية بنظامها الشره الذي أطلق للناس الحبل على الغارب على طريقة «مَن عزَّ بَزَّ ومن غلب استلب» ولا الشيوعية الماركسية التي كبلت الناس وجعلتهم عبيداً يكدحون للدولة في مقابل ما تعطيهم لسد حاجة الجوع ، ولا العلمانية التي لا يلوي فيها أحد على أحد .

مع أنهم ملؤا الدنيا صراخاً وعويلاً على العمل لإخراج الفقراء من فقرهم وإيجاد إقتصاد حر مزدهر يوازي الجنة التي وعد بها الرسل أتباعهم بزعمهم ، ورغبوا الناس في عبادة الإله الجديد في الإلحاد ، وهو المادة ورؤس الأموال ، ولكن اتضح لكل ذي عينين أن المناداة شيء والواقع شيء آخر .

وإذا بتلك الأنظمة المعادية للدين لم تقدم حقيقة للناس إلا آمالاً خيالية وإلا الإلحاد والإفلاس والغبن الفاحش وانتزاع احترام الدين والتدين من قلوب أتباعه وإحلال ضلالاتهم بدلاً عن ضلالات الدين النصراني البولسي ، وصحَّ عليهم المثل القائل : «إنك لا تجني من الشوك العنب» ، وظهر سوء الاقتصاد وسوء التوزيع للثروات وسوء التكافل الاجتماعي جلياً في العلمانية ، ولكنهم لا يعرفون بديلاً منقذاً في حال استكبارهم عن طريقة الإسلام في نظامه الاقتصادي .

المسألة الرابعة : العلمانية والعلم والتعليم والاكتشافات والدين

وكما أوجد دعاة اللادينية تلك النقلة المباينة بين الإقتصاد والدين وأحكموا العدواة بينهما ، أوجدوا كذلك عداوة أخرى بين الدين وبين العلم وجعلوهما نقيضان لا يمكن أن يجتمع أحدهما مع الآخر في أي مجال فإما الدين بخرافاته وتخلفه وجوره الكنسي وإما العلم بنوره واكتشافاته التي أثبت الواقع صدقها وكذب رجال الكنيسة .

وهكذا وجد علماء اللادينية في اكتشافاتهم العلملية التي كانت تدحض المعتقدات الخرافية لرجال دين النصرانية خير دليل وأقوى حجة على بطلان الدين - النصراني - خصوصاً وأن رجال الكنيسة كانوا قد جمدوا على معتقدات في الكون وطبيعة الحياة لا يقرها عقل ولا منطق ، جمدوا عليها وحكموا على كل من يتشكك فيها بالإحراق والشنق والسجن الطويل .

وجاءت الحركة العلمية التجريبية فإذا بها تظهر حمق وبطلان تلك المعتقدات الدينية النصرانية بما لا يجوز الشك فيه وزادت النار اشتعالاً بين المفكرين وسدنة الكنائس ، واتسع الخرق على الراقع ، ووقع الفأس في الرأس ، وهوت خرافات رجال الكنيسة ومعتقداتها إلى الحضيض ، وارتفعت رايات العلم والعلماء الملاحدة على أنقاض التدين ، وأي شيء له علاقة بالدين ، وكانت الحرب كلها موجهة إلى رجال الدين بالدرجة الأولى ، ثم توجهت إلى الدين الذي يحميهم ويحمونه أيضاً ، إلى أن تم للادينيين إقصاء الدين تماماً وإبعاد العلم عنه ، بل وأصبح انتساب رجال العلم إلى الدين عيباً ونقصاً في حقهم وتقصيراً في اتجاههم للإله الجديد - العلم ومكتشفاته - الذي سيجدون في ظله ازدهار الاقتصاد وتمام الحرية وغير ذلك مما وعد به هذا الإله البديل غير إله الكنيسة الذي صورته الديانة اليهودية والنصرانية بصورة رجل متردد في أموره يتوجس خيفة من تمرد الإنسان عليه ، وبالتالي فهو يعامله معاملة ليست نقية وليس فيها مودة ثم اتخذ ابناً له ليساعده في أموره ، ولو رجع القارئ إلى التوراة بعهديها لرأى أوصاف اللّٰه تعالى فيهما وأعماله وأوامره وتسرعه في الحكم وندمه عليه وحزنه وبكائه وعدم علمه بالغيب ومراجعة موسى عليه السلام له وثنيه عن كثير ما كان يهم بفعله فيرجع اللّٰه عنه ويندم ، لو رجع القارئ إلى ذلك وإلى غيره من الخرافات المدونة في كتابهم المقدس لرأى ثورة رجال الفكر عليه أمراً طبيعياً ومنطقياً - خصوصاً محاباته لرجال الدين وتشجيعه لظلمهم وتدليله لشعبه بني إسرائيل كما لاحظه أولئك المفكرون من خلال ما وجدوه في الكتاب المقدس وما لمسوه من تصرفات رجال الدين من تطاول وعنجهية ، وجاءت

الاكتشافات لتبرهن هي الأخرى على بطلان تلك المفاهيم ، سواء ما يتعلق منها بحق اللّه تعالى أو بقوانين الحياة والتعليل لوجودها .

ولا شك أن القارئ يدرك كما ذكرنا سابقاً أن كل ذلك الهرب عن الدين ومطالبة الناس بإقصائه عن حياتهم وعن كل شؤنهم لا شك أن ذلك كان وراءه ما يبرره في الدين النصراني المحرَّف الذي قام على أكتاف ملاحدة من المجوس وغلاة اليهود وعباقرة الوثنية وفلسفات كبار أذكياء الحضارة اليونانية على يد بولس وغيره ممن جاء بعده ، وكذلك لم يوجد في مقابل هذا السيل الجارف ما يرده أو يقلل من حدته ، وأقصد بهذا المقابل أنه لم يوجد ـ كما أتصور ـ من علماء المسلمين ولا من علماء النصارى من نشط في وقته لإنقاذ الأمم النصرانية من هذا المصير المظلم والهوة السحيقة التي ترددوا فيها بسبب تراكم الجهل وعدم إيصال نور الإسلام إليهم بطريقة واضحة صحيحة ، وكذلك لوجود الإفلاس التام عند علماء النصارى ، كما أن علمهم الذي أخبر اللّه عنه أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، حيث مكنهم اللّه من معرفته كان هو الآخر من معاول الهدم في أوربا بما سببه من كبرياء وغرور في أوربا أبعدهم عن الرجوع إلى أي حق ، فأصمهم وأعمى أبصارهم ، وما أنين الشرق والغرب من الأسلحة الفتاكة التي نشأت على كاهل العلم إلا دليل على أن علمهم لم يأتِ بإسعاد البشرية كما كانوا يتوقعون ، وهكذا قامت معارك طاحنة بين العلمانية والتعليم الديني ، فقد وقفت العلمانية ضده أحياناً مجابهة ، وأحياناً أخرى بالاحتيال والخداع بحيث يكون الدين مؤيداً للعلمانية تماماً وذلك بدراسة الدين عند التلاميذ وربطه بالفكر العلماني في مختلف المراحل الدراسية ، وذلك عن طريق

استغلال أي نص يمكن أن يتوافق مع فكر العلمانية وشرحه بإسهاب ، وعن طريق تحريف معاني النصوص وجعلها تتوافق مع الفكر العلماني ، واستبعاد كل نص يهاجم الفكر العلماني بصورة واضحة في الوقت الذي لا يعطي لتدريس الدين إلا زمناً قصيراً لا يكفي لفهم نصوصه فهماً صحيحاً ، مع اختيار مدرس الدين اختياراً خاصاً ، كأن يكون جاهلاً به حقيقة أو يكون شخصاً مستهتراً لا يعبأ به ولا بشرحه واستبعاد أي مدرس كفء ناجح في تدريسه لئلا يضع النقاط على الحروف فيفضح الفكر العلماني ويبطل شبهاته ، وبحيث يكون نصيب تعليم الدين اختيارياً للطلاب وتزهيدهم عنه وعدم ترتيب أي رسوب على عدم معرفته في الاختبارات بالإضافة إلى اختيار مدرس الدين ممن يوحي ظاهره بالتنفير عنه وممن يوحي شكله ومظهره برثاثة الدين وتخلفه .

ومن الخطط التي أحكموها :-

١ ـ تمييع الفوارق بين الدين ومختلف الاتجاهات ، فلا فرق بين أن يكون الشخص متديناً أو غير متدين ، مسلماً أو غير مسلم ، واخترعوا رباطاً يشمل جميع أفراد الشعب ودياناتهم المتعارضة ، وهو رباط الوطنية الذي أحلُّوه محل رباط الإيمان والتقوى وعبادة اللّه وحده .

٢ ـ ومنها الاستهزاء بالدين وتعاليمه والقائمين عليه وتشجيع التحرر من كل فضيلة أو خلق أو عفة ، واعتبار التمسك بأوامر الشرع ونواهيه تخلفاً وجموداً وعدم مسايرة تطور الحياة .

٣ ـ اشتغال المسلمين بقضايا هامشية بعد أن ضخموا أمرها وأضرموا الخلافات فيها ليتلهى بها الناس فيما بينهم لكي تبعدهم عن النظر إلى واقعهم وما يُبيت لهم من غزو فكري قبل الغزو الفعلي .

٤ ـ ومنها صرامتهم في مراجعة كل حركة تؤدي إلى إحياء الدين في نفوس الناس ، سواء كانت عن طريق الكلام أو الكتابة أو الصحافة ، واعتبار كل من له اهتمام بالدين والدعوة إليه متخلفاً أو عدواً للشعب وغير ذلك من إلصاق شتى التهم بأهل الخير والإصلاح والتدين .

٥ ـ تضخيم كل ما يتوصلون إليه عن طريق العلم وإطرائه بشتى المدائح وربطه بالتمسك بالعلمانية والتحرر من كل قيود الدين المتخلف .

ولكن كان يجب عليهم البحث عن الدين الذي لا يقر الخرافات ولا أهلها ، فما بالهم يحملونه ما لم يقر به ؟

وقد خلص المستشار على جريشه علمنة التعليم فيما يلي :-

أولاً : القضاء على التعليم الديني :

(أ) التطويق من الخارج :

١ ـ الازدراء بالتعليم الديني

٢ ـ ازدراء معلمه وطلابه .

٣ ـ قفل الوظائف اللامعة في وجوه خريجيه .

٤ ـ خفض رواتبهم .

(ب) التطويق من الداخل :

١ ـ تقليص التعليم الديني .

٢ ـ ازدياد التعليم العلماني .

ثانياً : نشر التعليم العلماني :

١ ـ اهتمام الدولة به .

٢ ـ الابتعاث .

٣ ـ المدارس الأجنبية .

٦ ـ الاختلاط .[1]

(هـ) العلمانية في السلوك .

لقد نادت الكنيسة بسلوك غريب يصعب على النفس السوية أن تتقبله أو ترتاح إليه ، فهو يدعو إلى الفقر والكسل وإلى الذل للطغاة الجبابرة ، ثم إلى محاربة الغرائز النفسية التي أودعها اللَّه في الإنسان من حب المال وثورة الغضب والحفاظ على النسل ، وغير ذلك من الغرائز التي يتطلبها الجسم ضرورة ، بل وبقاء الحياة ، فقد اقتضت حكمة اللَّه تعالى أن الرجل والمرأة لا يستغني أحدهما عن الآخر في إشباع حب النسل ، واقتضت حكمته أن يثور الشخص غضباً عندما يتعرض للذل أو للقهر والظلم حفاظاً على حياته ، واقتضت حكمته أن الإنسان يحب المال حفاظاً على مصالحه ،

(١) انظر «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» ـ ص ١١١

فجاءت الكنيسة لتغير هذه المفاهيم وغيرها رأساً على عقب ، ونظرت إلى كل ذلك على أنه قصور معيب في الإنسان السَّوي ، في الوقت الذي كان رجال الدين النصراني يعبون في الشهوات عباً وحب المال وغير ذلك من الغرائز المودعة في الإنسان ، ولقد سمعت هذه الأيام من إذاعة لندن ما تشمئز منه النفوس من جرائم الزنا واللواط لدى البابوات .

فكان ما يقوله الدين النصراني على أيدي رجاله يخالفه ما يفعله القائمون عليه مخالفة صارخة ـ ولا بد أن تأتي هذه المخالفة شاءوا أم أبوا ـ سنة اللَّه في خلقه ، فكان أقل ما يوصف به رجال دينهم هو النفاق والخداع واستغفال الشعوب ونهب الخيرات بحيلة التدين مضافاً إليه سطوة الحكم الذي لا رحمة فيه على من يخالف أو يعترض ، ووجد اللادينيون أن إزاحة القشرة عن أعين الشعوب ليروا ما هم فيه من الغبن لا يحتاج إلى كبير جهد .

وقد حمل هؤلاء اللادينيون كل تلك الأوضاع على الدين ، وبالتالي على اللَّه تعالى الذي يُنسب إليه هذا الدين الذي يكبت الحريات ويقيد تصرفات الناس حسب رغباتهم ، وعلى هذا الأساس قامت المجتمعات الأوربية حرب للفضائل كلها ، وللقيم التي دعت إليها الأديان إذ أن الحياة الجديدة لا يمكن أن تقوم ما دامت المبادئ الدينية قائمة تكبل الحريات وتحلل وتحرم بعيداً عن العقل وعمَّا تقتضيه ضرورة الحياة المنفلتة الصاعدة المستقلة عن إله الكنيسة وعن رجال الدين الذين كانوا يقولون ما لا يفعلون وينافقون ويتصنعون الزهد والعفة والرحمة بينما تكشف أفعالهم

زيف صدقهم في ذلك ، إضافة إلى ضيق أفق رجال الدين وجمودهم على ما توارثوه خلفاً عن سلف دون قبول للمعارضة أو المناقشة مهما كان خطأ ما أتوا به من آراء وأحكام كانت موجهة أولاً لمصالحهم الشخصية بغض النظر عن فائدتها للشعوب النصرانية في سلوكها الاجتماعي .

وهكذا أقامت العقلية الفكرية اللادينية نظاماً بعيداً عن كل ما يتصل بالدين ، وأشاعت الحرية الأخلاقية التي كان يُقصد بها في المقام الأول الإباحية والدعارة وهدم كل الأخلاق والقيم بطرق يهودية حاقدة وفي غاية القذارة على يد «فرويد» ومن سلك طريقه .

الفصل التاسع

آثار العلمانية في سلوك بعض المسلمين

سلوك غير المسلمين نحو العلمانية أو غيرها من المذاهب الفكرية لا ينطوي على جديد ملفت للنظر ، لأن هذا هو السلوك الحتمي لمن ليس له دين ، إذ هو دائم التنقل حسب هواه ـ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ـ ومن هنا فإن العتب واللوم ومعهما غاية الدهشة إنما توجه لمن انتسب إلى الإسلام وعرفه ، أو شيئاً منه ، ثم فضل جهل العلمانية .

لقد ظهرت العلمانية في البلاد الإسلامية بصورة مخيفة تدعو إلى القلق على مصير المسلمين في دينهم وفي دنياهم وفي تعاملهم وأخلاقهم ، وسائر أمورهم الثقافية والتربوية وسائر ما يتصل بسلوكهم الاجتماعي ، واشتمل هذا السلوك المنحرف على جوانب مختلفة منها :-

التأثر العام عند المسلمين بالعلمانية

١ ـ العمل بأحكام الشرع :

لقد قام سلوك المسلمين في أزهى عصورهم في مجال الحكم على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، لم يخرج عنهما أحد ، واستغنوا بهما فأغناهم الله عن كل ما عداهما ، وعاشوا أحسن نظام وأعدل حكم عرفته البشرية ، واغتُبطوا بذلك ، مما زاد في عداوة أعدائهم لهم

ومحاولاتهم التي لا نهاية لها لسلبهم هذا الخير العظيم والنعمة التامة ، وظل المسلمون على هذا الحال إلى أن غيروا ما بأنفسهم فلحقهم ما لحق غيرهم من الخذلان والتردي .

٢ ـ ظهور الولاءات المختلفة :

جثمت على صدر العالم الإسلامي فترة عمَّ فيها الجهل بحقيقة الدين بفعل تأثيرات داخلية وخارجية كثيرة هيئتهم لمختلف الولاءات والانحيازات ، ولم يعد ذلك النور الوهاج ينبعث من صدورهم ، وانشغلوا بأوضاعهم التي ساقهم إليها أعداؤهم بوعي أو دون وعي منهم ، وركنوا إلى الكسل والخمول وترديد بعض الأوراد الجوفاء صباحاً ومساءاً ، وناموا على دعوى الزهد والعلم اللَّدُني ، وأقفلوا باب الاجتهاد وتعصبوا لما ألفوه عن الآباء والأجداد دون النظر في موافقته للشرع أو مخالفته له .

٣ ـ ظهور أفكار العلمانية كحلول حتمية :

وفي هذا الجو الخانق وجد العلمانيون فرصتهم التي طالما تمنوها لتسريب أفكارهم إلى المسلمين الذين أفاقوا هم أيضاً على ذلك الركام من الجهل بالإسلام والخزعبلات الشائنة ليجدوا أنفسهم في أحضان قادة الفكر العلماني الغربي شاءوا أم أبوا لكي يوصلوهم بزعمهم إلى التقدم والتطور الملموس في الغرب ـ مع أنهم حقيقة لم يمكنوهم من معرفة سر تلك الصناعات ، بل مكنوهم من معرفة شيء واحد هو كيف يتعلمون

طرق العلمانية وكيف يوصلونها إلى قلوب الناس ، وشربوا من هذا المستنقع الآسن حتى الثمالة بحجة أن أوضاع المسلمين المتخلفة لم يكن لها من سبب إلا إعراضهم عمَّا وصل إليه الغرب من حياة وتفكير ناضج وإصلاح حر ـ كما يسمونه ـ لكل طرق حياتهم ، فوجدت العلمانية مرتعاً خصباً كما حصل في تركيا التي غرقت في أوحال العلمانية ولم تخرج عنها إلى يومنا الحاضر ، وقد حصل في أنظمة كثير من بلدان المسلمين تحولات نحو العلمانية الغربية ، إذ كان لا وزن لزعماء هذه البلدان ولا قيمة لهم إلا من خلال شهرتهم بخدمة أعداء الدين والتزلف إليهم بعلمنة بلادهم ومحاربة دينهم واستجداء ما عندهم في الحكم والتشريع .

ونشط الاستعماريون من الدول الغربية في مهاجمة الإسلام بكل الحيل وأنواع الخداع ، بالترغيب تارة وبالترهيب تارة ، وانتشر دعاة العلمانية في البلدان الإسلامية في الوقت الذي كانت تلك البلدان كماشية بلا راعٍ ، فنشروا سمومهم في كل مجالات الحياة ، وخصوصاً التعليم والمحاكم الشرعية التي أُقصي الحكم بالشرع الشريف فيها ليحل محله القوانين البشرية العلمانية الشرقية والغربية .

٤ ـ الاختلاف في الدراسة والشهادة :

وظهر في البلدان الإسلامية دراسة دينية ودراسة حديثة ، وبينهما من الفوارق بوناً شاسعاً ، فوارق في كل شيئ تشمل أماكن الدراسة وهيئة الطلاب ووسائلهم للتعلم وهيئة المدرسين وتقبل شهادات كل من

الفريقين ، وكان كل شيء يوحي بامتهان الدراسة الدينية وأهلها في كل مظهر من مظاهرها ، بينما يوحي مظهر المدارس الحديثة العلمانية بالزهو والترفع وكامل التقدير ، ولم يكن هذا الصنيع عفوياً ، بل كان وراءه خطط مدروسة ونيّات مبيَّتة ، فطلاب الدراسة الحديثة كل شيئ مهيئ لهم في أجمل صورة ، وأبواب الابتعاث إلى أوربا لإكمال الدراسة أمر ضروري ومرغب فيه ، واستساغ الكثير تذوق كل ما هو غربي حتى في الحركات ، واتجهوا إلى المحاكاة والتقليد بفعل تأثرهم وحبك الخطط لتوجيه الناس إلى هذا الصنيع والمبالغات في مدحه والدعاية له مما جعل المتأثرين ينظرون إلى الماضي بعين الاحتقار بفعل تلك المدارس التي جاء بها الغرب في كل ناحية من بلدان المسلمين لتعليم قوانينهم ، تلك المدارس التي كان يُنظر إليها على أنها هي المستقبل الزاهر لخريجيها ، بل جعلوا الفرق واضحاً حتى في رواتب المدرسين ، إذ كان راتب المدرس الديني زهيداً ضئيلاً ، بينما راتب المدرس الحديث يفوقه بالضعف أو أكثر ، فكان مدرس الدين يبني - على تواضع ما عنده - والمدرس الحديث يهدم بقوة ، ويدعو ويشجع المواد الحديثة التي تصرح أحياناً وتلمح أخرى بذم الإسلام وتعاليمه وتقديس العلمانية الأوربية وتشريعاتها ، وتحقق قول الشاعر :

متى يبلغُ البنيان تَمامَه * إذا كنت تَبنيه وغيرك يهدمُ ؟!!**

وكانت الدول التي استعمرت البلدان الإسلامية كبريطانيا وفرنسا وهولندا وإسبانيا وغيرها من الدول الغربية التي تسابقت إلى استعمار الأقطار الإسلامية كلها كانت تلقي بثقلها لمحاربة الإسلام والقضاء على

أحكامه وعلى حضارته واقتلاعها من صدور المتمسكين بها ، وابتُلي المسلمون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، ولولا أن اللّه حافظ لدينه لما بقي من يشير إلى الإسلام بكلمة ، ومن الجدير بالذكر أن الذين اتجهوا للغرب لارتشاف رحيق حضارته أصبحوا أمة ممسوخة ، فلا هم بقوا على إسلامهم ، ولا هم دخلوا أعماق التقدم الغربي ، بل كان جُلَّ ما وصلوا إليه هو الإباحية الحيوانية الغربية بكل مساوئها وهضموا ما عندهم من الأدب اللاأخلاقي في الحب والغرام والقصص الخيالية والإيحاء إلى الأمة الإسلامية أنه لا نهوض لها ولا تقدم بل ولا بقاء إلا بالتمسك بأذيال الغرب واتباع سننهم والاستفادة من خبراتهم في محاربة التدين باسم نبذ التعصب الديني وباسم الانفتاح وباسم الحرية ، وبأسماء كثيرة تصب في النهاية في مستنقع العلمانية اللادينية الغربية وتشريعاتها الجاهلية .

٥ ـ ظهور التأثر في الأسماء :

كان لدعوى التطور والتطوير نصيب الأسد في إدخال العلمانية إلى العقلية المسلمة شملت الدعوة إلى التطوير في كل شيء ، ولو استطاعوا لدعوا إلى تطوير الإنسان نفسه بنزع جلده والإتيان بغيره ليلحق ركب التطور ، وعليه أن يسرع الخُطى للخروج من مجتمعه المسلم الذي أصبح في نظره مجتمعاً متخلفاً رجعياً انعزالياً متطرفاً ... إلى آخر الأسماء التي لقنها زعماء العلمانية لأذنابهم من المنتسبين إلى الإسلام .

٦ ـ الهجوم على اللغة العربية :

وكان هذا التطور والتجديد شاملاً لكل ما يمت إلى الدين بصلة حتى وإن كانت اللغة العربية ، فضلاً عن الحكم الشرعي ، والتي واجهت هجمات شرسة من دعاة العلمانية الذين تفننوا في الاستهزاء بها وأنها قديمة وعقيمة لا تساير الحضارة الجديدة .

وأنه على العربي الناضج أن يترك الفصحى ويتجه إلى لغته العاميّة ولهجته المحلية ففيها ما يغنيه عن اللغة العربية المعقدة بزعمهم ، وعليه كذلك أن ينسى تماماً أنها اللغة التي أنزل اللّه بها القرآن الكريم الذي أجمع المستعمرون كلهم على أنه لا بقاء للاستعمار في بلاد المسلمين ما دام القرآن موجوداً في صدورهم وبأيديهم .

ولم يكن الهدف من الدعوة إلى القضاء على اللغة العربية هو المقصود لذاته ، بل كان يُراد من وراء ذلك النفوذ إلى ما يوصلهم إلى غرضهم الحقيقي وهو أن يكون المسلم عالة في كل شيء على الحضارة الغربية سواء كان ذلك في اللغة أو في غيرها ، وأن يبتعد عن العربية ويهجرها فضلاً عن هجر الأحكام الشرعية .

ولقد اهتم المنصرون ومن وراءهم حكوماتهم التي تتطلع إلى استعمار بلدان العالم الإسلامي ، اهتم هؤلاء بفتح دور التعليم على اختلاف المستويات وركزوا فيها على أن تفي المناهج المقررة فيها بإخفات أصوات المدارس الإسلامية الأهلية ، وأن تفي بإقامة صرح العلمانية اللادينية ، وأن يكون التعليم فيها

مشاعاً لكل شخص بغض النظر عن دينه واتجاهاته ـ وكان هذا في أول الأمر ـ وأن يكون التعليم مختلطاً ذكوراً وإناثاً ، وذلك بعد نجاحهم في حرب العفة والحجاب ، وأن يشتمل على دراسة الفنون الجميلة ـ كما يطلقون عليها ـ وهي التمثيل والموسيقى والتصوير وغيرها من العلوم التي تساعد على إفساد الأخلاق ، إضافة إلى دراسة جميع النظريات الإلحادية التي نبتت في أوربا في صراعها مع الدين .

٧ ـ التأثر في التعليلات :

كما اشتملت المناهج على التفسير لكل مظاهر الكون تفسيراً إلحادياً على أنها من فعل الطبيعة ، عوامل طبيعية ، ظواهر طبيعية ... ويوجدون لها الأسباب التي تتفق وإلحادهم ، ولهذا انتشر بين الناس التعليل للزلازل والعواصف والكسوف والخسوف والمطر وغير ذلك على أنها عوامل طبيعية ، لم يقل أحد منهم أنها من فعل اللّه تعالى بسبب ظهور المعاصي وبعدهم عن اللّه تعالى ، كما ملؤا أذهان الدارسين بالتعليلات الخاطئة ، كقولهم : الغزو العربي ، أو الاستعمار الإسلامي ، وأن خروج المسلمين للجهاد في سبيل اللّه إنما كان لضيق عيشتهم في الجزيرة .

والحث على حب الوطن فقط ، والقومية العربية ، والافتخار بالأمجاد الجاهلية ، وغير ذلك من صنوف الغزو الفكري المنظم الذي أخذ دعاته على عواتقهم صرف المسلمين عن التحاكم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، وأن من تمسك بهذا فهو جاهل متخلف معادٍ للحضارة والتقدم .

وركزوا كثيراً على حكم القتل والزنا وشرب المسكرات وقطع يد السارق ، وأنها أحكام جائرة ولا تليق بهذا العصر أو الإنسان المتقدم ، مع يقينهم أن ما أتو به من أحكام لم تكن رادعة ولا كانت هي الحل الأمثل ، وما أكثر ما نسمع في إذاعاتهم ونقرأ في صحفهم من انتقادات لاذعة لسلوكهم من بعض مثقفيهم لقوانينهم التي لم يعبأ بها المجرمون ولم يرفعوا بها رأساً .

٨ ـ التأثر في الأخلاق :

لقد جاء الإسلام بتهذيب الأخلاق والدعوة إلى المكارم وإلى حسن الخلق وكل معالي الأمور ، وحذَّر من كل خلق رديء ، وكان المسلمون في أزهى عصورهم يمثلون في العموم تلك الأخلاق الفاضلة ، ثم خلفت خلوف زاغوا عن ذلك النهج الواضح والصراط المستقيم ، وأخذوا ينحرفون رويداً رويداً وينزلقون إلى الهاوية باتِّباع الهوى والانحرافات العلمانية ، وكلما أحدثوا انحرافاً جعلوا له واجهة إسلامية ليقاوموا كل من يحاول أن يثنيهم عن أهدافهم المنحرفة للوصول إلى تطبيق الأخلاق العلمانية تماماً ، ثم زاد الطين بلة إطلاعهم على الانحرافات الغربية التي يسميها أهلها حضارة وتقدماً ، فانغمسوا معهم ، ونسوا ما عندهم من الفضائل التي دعا إليها الإسلام ، فإذا بهم يواجهون الغرب برؤوس منكسة وكأنهم ـ بعد نسيانهم حضارتهم الإسلامية العريقة ـ يواجهون عباقرة ينبغي أن تُحنى لهم الجباه فتركبت عقدة النقص في نفوسهم بقدر ما ارتفعت أنوف الملاحدة اللادينيون الذين صرخوا فيهم بأن تأخركم إنما يكمن في تمسككم بالإسلام وسلوكه

الذي حجر عليكم الانطلاق إلى كل الاتجاهات ، ومنها المتع والملذات بشتى أشكالها ، حراماً كانت أم حلالاً ، باذلين الجهد الجهيد في الاستحواذ على عقل المرأة وإخراجها من عفتها وحشمتها مكرهين إليها بيت الزوجية وتربية الأولاد بحجة أنها لا بد أن تتطور وتكون مثقفة مع أن هذه الدعوة معناها أن تكون شبيهة بالبهيمة المنطلقة ، وهو عين التأخر والرجوع إلى البدائية .

وطالبوها بأن تنزع ثياب الحشمة الظاهرة ـ بعد أن رفعتها عن قلبها ـ فإذا بها ترى أن العري المتمثل في إظهار نصف الفخذين والكتفين ونزع غطاء الرأس ومشاركة الرجل جنباً إلى جنب في العمل وتقليده في حلق شعر الرأس ولبس الثياب الضيقة وفي المشية وغير ذلك إذا بها ترى أن كل هذا السلوك هو السلوك اللائق بها ، وحل بها الشقاء ولحقها الخذلان والإهانات من حيث تشعر أو لا تشعر .

بل وأصبح الكثير رجالاً ونساءاً لا يرون مقياس التقدم في البلد إلا بهذا السلوك المخزي للمرأة ، ولم يبخلوا على المرأة التي تسلك مسالكهم بإطلاق المدح لها على جُرأتها ، وأنها يجب أن تظهر شخصيتها وترمي بكل الأخلاق الفاضلة وراء ظهرها ، أجادوا خداعها والتفنن في إغرائها فانجذبت إليهم الكثيرات ، وبقيت قلة محتارات في وسط الطريق لايدرين أين يتجهن ، وقليل منهن أدركن ماذا يُراد لهن ومدى خطر التخطيط المبيت وراء التزلف إليهن ومطالبتهن بالخروج على كل شيء فكتبن يحذرن بنات جنسهن من شر تلك المزالق الوخيمة وأن المقصود بها في النهاية أن تكون المرأة متعة رخيصة بيد الرجل لمن عليهن مسحة من ملاحة فقط .

وأخذت العاقلات منهن يندبن حظهن حين جرفهن تيار العلمانية ، لقد تمنت كاتبة ألمانية أن تعيش مع رجل ناجح ولو كان عنده عشر زوجات ، وتمنت امرأة انجليزية عجوز حينما اطلعت على وضع المرأة والأولاد في الإسلام ومعاملة الزوج لزوجته وأولاده في الإسلام تمنت لو أنها قضت حياتها من أولها مع رجل مسلم .

إن فطرة المرأة السليمة كانت تحتم عليها أن تكون مطلوبة للرجل لا أن تكون طالبة له ، ولكن بسلوك العلمانية ودعاة تحرير المرأة اضطرت المرأة هناك أن تبدأ هي بمغازلة الرجل واسترضائه بعد أن عرف الرجل كيف يجرها إلى هذا المصير بدهاء شيطاني وصار حالها كما قال الشاعر :

أمرتهموا أمري بمنعرج اللوى ⁂ فلم يستجيبوا النصح إلاَّ ضحى الغد

وعسى أن تستبينه النساء اليوم قبل غد ، وعسى أن يضعن حداً رادعاً للمستهترين بهن المتاجرين بأعراضهن .

فالمرأة الأوربية لو نظرت إلى حالها بعين الإنصاف لهالها الأمر ورجف قلبها خيفة إذ أصبحت مثل الدابة التي تقوم بكفالة أولادها الغير شرعيين ، وأصبحت بمفردها تعاني آلام الحمل والولادة وطلب المعيشة وتربية أطفالها في الوقت الذي ترى فيه تكالب الناس على المادة واقتناصها دون أدنى رحمة بالفقراء والمحتاجين .

فلا تستبعد حينما تسمع الإقدام على الانتحار بين الناس في الغرب

مذهلة رغم بهرجة الحياة هناك ، إنه احتجاج صارخ على سوء أوضاعهن وعلى المجتمع الذي يعشن فيه .

أفلا تتعظ المسلمات بما وصلت إليه المرأة الغربية في ظل حضارة مادية زائفة ، أفلا تتعظ بذلك وتبقى ملكة في بيتها ومسؤولة عن رعيتها في هدوء واستقرار كما أراد لها الإسلام ؟ وتحافظ على حشمتها وكرامتها أن تُداس وتُهان في غفلة منها .

وعن التضجر والشكوى من انفلات المرأة واستهتارها الواضح اقرأ ما جاء في جريدة الشرق الأوسط تحت هذا العنوان «حظر التنورات القصيرة في إقليم روسي» : «موسكو رويترز ، طالبت حكومة أحد أقاليم روسيا موظفاتها بالتوقف عن ارتداء التنورات القصيرة وتخفيف مساحيق التجميل على وجوههن على أساس أنهن يثرن بذلك غرائز حيوانية لدى زملائهن الذكور» ، وهذا طلب وجيه نابع عن بقية حياة في الفطرة ، ولكن انظر بماذا قوبل هذا الطلب حسب ما جاء في هذه الجريدة : «وأثار الأمر الذي أصدره «أوليج شليك» نائب رئيس بلدية كالييننجراد على ساحل البلطيق بروسيا حالة سخط بين كثيرين في الإقليم بما فيهم الرجال ، وقال «شيليك» لشبكة تلفزيون «إن تي ڤي» : «بالطبع يتعين على المرأة لفت نظر الرجل ، لكن ليس لدرجة كبيرة تتجاوز العرف وتثير أموراً لا علاقة لها بالعمل ، بل غرائز حيوانية فقط» . وقال معلق «إن تي ڤي» : « إن أمر شليك يعني أن النساء في مقار إدارة كالييننجراد ستيعين عليهن التخلي عن ارتداء تنورات قصيرة وتفصيل بدلات عملية عليهن ، والابتعاد عن ارتداء مجوهرات غير مألوفة ووضع مساحيق تجميل بسيطة» . وقال «يوري ماتوشكين»

النائب في البرلمان الإقليمي بسخط : «إن الأمر يلحق الخزي بشيك نفسه» ، وأوضح ماتوشكين : «إذا كان هذا يحول انتباهه فقد اختار إذن وظيفة خطأ ، وإذا لم يكن بمقدوره السيطرة على نفسه لتوجيه طاقته بشكل صحيح فإنه يتعين عليه تغيير وظيفته» .[1]

وتوجد عشرات الأمثلة للشكوى من حال انفلات النساء وقلة الحياء لديهن ممن تربين تلك التربية ، وما أكثرهن .

٩ ـ العلمانية والآداب :

لم يكن أمام أصحاب الفن والآداب ـ كما سموا أنفسهم ـ وهم هاربون من كل ما يتصل بالكنيسة من خيار لإشباع هذا الجانب إلا أن يعودوا لنبش الماضي الذي يتفق مع ميولهم التحررية من كل ماضي الكنيسة وسيطرتها .

ولم يكن أمامهم ـ بسبب إعراضهم عن طلب الدين الصحيح ـ إلا الحضارات السابقة والتي تتمثل في الوثنيات اللادينية بذوقها الهابط وإباحيتها واستهتارها بكل الفضائل التي دعت إليها الأديان ، فقام الفن والأدب على العلمانية اللادينية التي ليس فيها دعوة إلى الحشمة أو الفضائل أو مراقبة اللَّه أو الحياة بعد الموت وما يحصل للإنسان هناك من عقاب أو ثواب .

لأن الإله الجديد الذي هو الطبيعة أو الإنسان نفسه لم يعد في حاجة إلى تلك الفضائل الدينية بعد أن انطلق من أغلال الكنيسة ودخل عصر

(١) جريدة الشرق الأوسط ـ العدد : ٩٣٢٢ ـ تاريخ : ١٤٢٥/٤/١٨هـ

التنوير وعصر العقلانية وعبادة الإنسانية التي داستها الكنيسة حيناً من الدهر بحجة الترفع والتقرب إلى رضى اللّه تعالى ، فلم يعد تدنيس الأعراض في إباحية جامحة عاراً ، بل هو الطريق السليم ، لأن الذي يترك هذه المتع واللذائذ الدنيوية التي يعيشها خوفاً من عقاب أخروي هو شخص خيالي وغير متقدم ، والذي يطرق برأسه حياءً من سماع الأغاني الفاجرة أو الشعر الماجن أو القصص الغرامية أو الجنس هو شخص ليس له ذوق ومتأخر عن الركب الناشئ ، والذي لا يستطيع مشاهدة العري الفاضح سواء كان في الأجهزة أو على الطبيعة هو شخص متخلف .

وعلى المتحرر أن يستلهم الإبداع الجمالي والحب والعاطفة الجياشة من الطبيعة التي أبدعت كل ما في هذا الكون من صور الجمال من جامدة ومتحركة ، ولا شك أن هذا الانحراف الشائن سببه الأول انحراف الكنيسة ، ولم يهتدِ هؤلاء الهاربون من طاغوت رجال الكنيسة إلى سلم النجاة الحقيقي ، بل هربوا من طاغوت إلى طاغوت ، وبدلاً من توجه هؤلاء الأدباء إلى نقد رجال الدين فقط ، تمادوا فنفذوا إلى نقد الدين ، وحملوه تبعة كل أفعال رجال الكنيسة وخرافاتهم التي لا يقبلها العقل ولا الفطرة ، وتفننوا في حربهم له شعراً ونثراً وقصصاً وفكاهات ، وفي المقابل نشطت الدعوات الهدامة التي تبحث في أصل الإنسان والكون والإله ، وتدلل على أن الإنسان أوجدته الطبيعة ، وأن عقله هو إلهه ، وتبين أن كثيراً من أسرار هذا الوجود التي لا ترجع إلى إيجاد إله خاص لها ، وبالتالي فلا دين ولا أخلاق ولا شيء يجب أن يحجب الإنسان عن التمتع بكل ما يستطيع

الوصول إليه من متع الدنيا وشهواتها التي لا نهاية لها ، ولهذا نشط الأدباء والفنانون والكتاب في إخراج القصص الغرامية والعري الفاضح وتلقفها المتلهفون على الاطلاع على كل جديد وسموا تلك القذارات كلها أدباً وفناً ، وصارت الوقاحة والعهر فناً يجب الاطلاع على خباياه وخفايا أساليبه ، وبيوت الدعارة والسهرات المريبة ووصف ما فيها وما يجري فيها كله يجب أن يكون داخلاً تحت الأدب الحر والفن الذي يُراد به متعة القارئين والسامعين ، فأصبح الشاعر منهم والمغني والممثل وكثير من الكتاب يقدمون كلاماً ماجناً بكل وقاحة دون أن يجدوا في أنفسهم أدنى وازع من ضمير أو حياء بعد أن طبع اللَّه على قلوبهم فشابهوا البهائم ، بل أصبحوا أضل منها ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ (١)

١٠ ـ عَلمَنةُ الإعْــلام :

أما عن علمنة الإعلام فحدِّث ولا حرج ، لقد أمسك دعاة العلمانية بزمام معظم وسائل الإعلام ، وعاثوا فيها فساداً ، مثل التلفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والسينما والڤيديو ، وقد ظهرت أضرار تلك الوسائل في تحطيم الأخلاق والسلوك الطيب ، واستمع إلى ما قاله أعضاء المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدُّعاة المنعقد في المدينة المنورة سنة ١٣٩٦هـ ، فقد قالوا في مناشدتهم المسلمين جميعاً : «ويندد المؤتمر بالهوة السحيقة

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩

التي تردى إليها إعلامنا ولا يزال إلى اليوم يتردى ، فبدلاً من أن يكون منبر دعوة إلى الحق ومنار إشعاع للخير ، صار صوت إفساد وسوط عذاب ، وخفت صوت الدعوة وسط ضجيج الإعلام الفاسد ، وسكت القادة فأقروا بسكوتهم أو جاوزوا ذلك فشجعوا وحملوا وزلزل الناس في إيمانهم وقيمهم ومُثُلهم ... ولم يعد الأمر يُحتمَل السكوت عليه من الدعاة إلى الحق» (١)

فما أحرى بالمسلمين أن يستمعوا لهذه النصيحة الصادقة الشجاعة ويرجعوا إلى الحق ، فإنه خير من التمادي في الباطل .

---

(١) انظر : «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» ـ ص ١١٣

•• تعقـيب على ما سبق :

لقد خرجت أوربا عن الدين واعتبرته العدو اللدود للحكم والاقتصاد وللعلم وللحياة الاجتماعية بأسرها ، وللأخلاق وللآداب والفنون ، بل في كل مجالات الحياة .

وتضافرت جهود علماء اللادينية وتعالت أصواتهم يصدق بعضها بعضاً في حملتهم على الدين والتدين والقائمين عليه ، يصفونهم بالجهل والغباء والتزمُّت والتطرُّف ومعاداة الحياة السعيدة ... إلى آخر ما جادت به قرائحهم من فنون السباب للدين وأهله وللمتمسكين بالحشمة والحياء .

ثم ظهر نفاق جديد لدعاة اللادينية مفاده أن التمتع بالحرية كاملة يستوجب حرية التدين أو تركه ، ويتظاهر هؤلاء أنهم حتى وإن كانوا ينادون باللادينية ، إلا أنهم ليسوا ضد الدين ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فهذا هو شرع التمدن الجديد الذي لا حجر فيه على أي معتقد ، فمن شاء أن يذهب إلى الكنيسة فليذهب ثم ليخرج إلى حوانيت الخمارة وأماكن الدعارة ويمارس الفواحش كيفما يحلو له ، كل هذا يتفق مع تماماً مع التطور الجديد ، وعلى أصحاب العقول أن يغطوا نور عقولهم ويصدقوا بإمكان وقوع هذا كله ، أي أن يكون الإنسان دينياً وهو في نفس الوقت لا دين له ، بل ومعادٍ للدين ، ولا يكون تناقضاً !!

وهذا من غرائب ما اهتدى إليه اللادينيون بعقولهم التي انفلتت عن الأديان ، بل عن اللَّه عزَّ وجلَّ ، وأحلَّت محل اللَّه شركاءهم ، فجعلوهم محل التقديس والإكبار تحت مسمى إنسانية الإنسان والطبيعة والصدفة

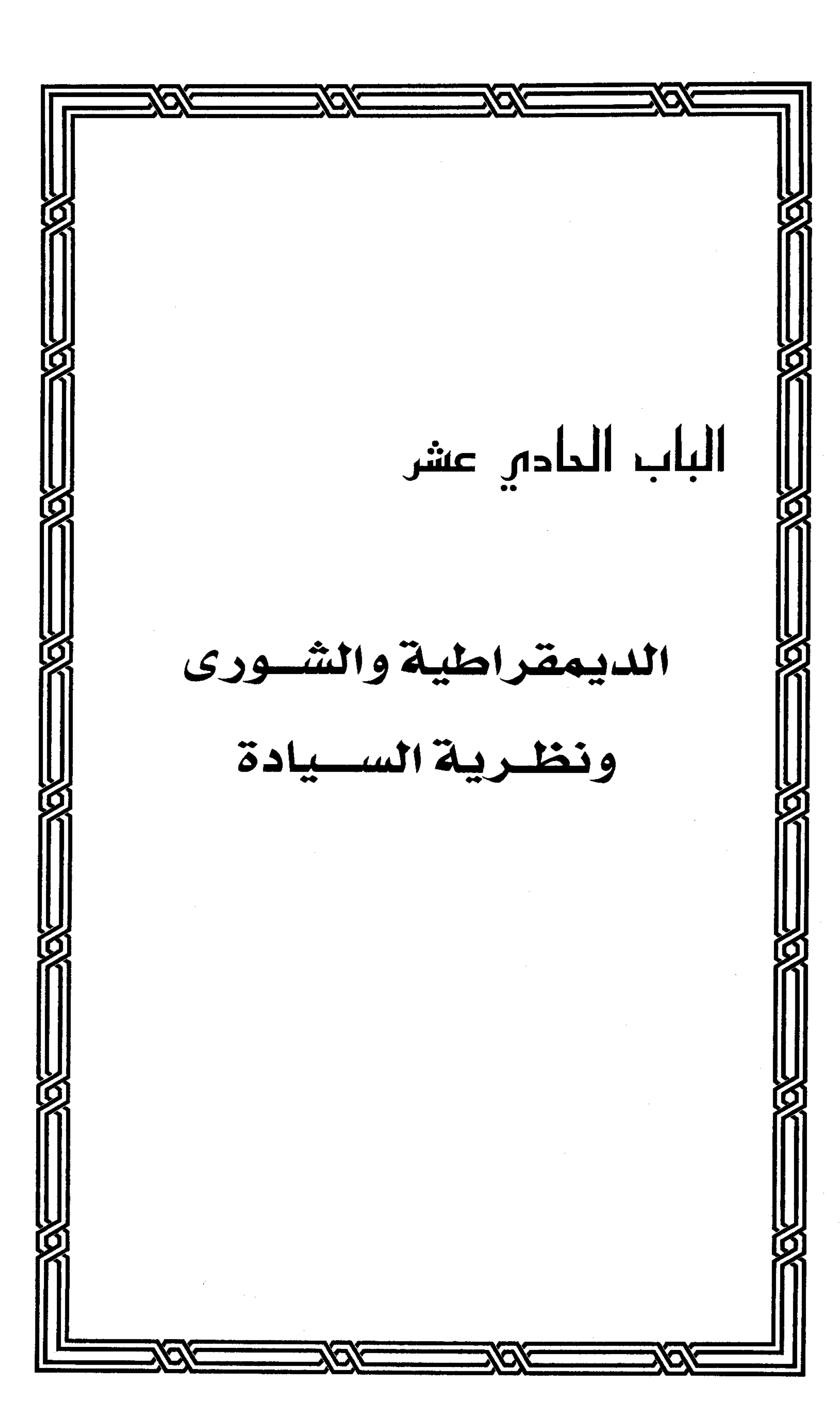
والقوانين الأخرى التي اكتشفوها وأحلُّوها محل اللَّه عزَّ وجلَّ ، وغير ذلك من الشركاء الذين جادوا بإيجاد هذا الكون وما فيه حسب تصوراتهم السقيمة .

ولقد ساعد هرب هؤلاء عن الدين ما يمارسه رجال الكهنوت في الكنائس الذين أصبح كلامهم ووعظهم حملاً ثقيلاً على كواهل الحاضرين الذين لم يجدوا في تلك التراتيل الدينية ما يحرك أدنى عاطفة نحو الخوف من اللَّه والرغبة في التديُّن ، وكيف يوجده أولئك الوعَّاظ في قلوب الناس مع أنه مفقود تماماً من قلوبهم أولاً ، ولذلك فإن فاقد الشيء لا يعطيه .

مواعظ الواعظ لن تُقبلا * حتى يعيَها قلبُهُ أوّلا**

وما الذي سيجده طالب الدين من كنيسة تبارك فيها الرقص والاختلاط والقبلات والخلوة في الزوايا المظلمة والدعوة إلى الاستمتاع علناً وبصورة فاضحة لا تختلف كثيراً عن دور الدعارة ، ومن هنا فضَّل بعضُهم البقاء في بيته على الذهاب إلى الكنيسة التي تزيد قلبه قساوة باسم الدين ، فأيُّ دين هذا ، وأيُّ مصير كالح ينتظر هؤلاء ، وأيُّ مبرر يدعو الشخص إلى حب الدين ما دام هذا حال الدين والقائمين عليه ؟!!

هذا إلى جانب ضجيج دعاة الحرية والفن والانطلاق ، وبعد أن كان الشر منثوراً بين الناس أصبح منظماً وله قوانين ودعايات وكتاب ملؤا الدنيا ضجيجاً بواسطة هذه الأجهزة التي أصبحت مصدر خطر ، وأيما خطر على كل الفضائل ، لأنهم أساءوا استعمالها واستبدلوا فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وشبَّت أجيال على هذا الانحراف ولا يدري إلا اللَّهُ تعالى أين سيقف دعاة العلمانية بالبشرية .



الباب الحادي عشر

الديمقراطية والشورى ونظرية السيادة

الباب الحادي عشر

الديمقراطية والشورى ونظرية السيادة

تمهـــــيد :

الديمقراطية مذهب من المذاهب الضالة الخداعة التي أنتجتها العقلية الأوربية في التفافها على الكنيسة وديانتها الزائفة والديمقراطية اسم جذاب ـ إذ يقصدون به العدالة والحرية في الظاهر مما جعل كثيراً من المسلمين ومن غيرهم يتأثرون بدعاية المذهب ظانين أنها تحمل تحت هذا الاسم ما يوحي بظاهره ـ ولم يعلموا أنها تسمية سراب ـ وأن المستفيدين منها هم الطبقات العليا طبقة الحكام والأثرياء الذين هم نسخة عن الإقطاعيين في الزمن القديم ، أو من لهم غرض في محاربة الأديان وخصوصاً الإسلام ، وستشمل دراستنا لهذا المذاهب الفصول الآتية :-

تمهـــــيد :

الفصل الأول : منزلة الديمقراطية في الحضارة الغربية .

الفصل الثـــاني : معنى الديمقراطية ونشأتها .

الفصل الثـــالث : الوصول إلى الغاية .

تعـــــقيب :

الفصل الرابـــع : هل حقق الأوروبيون مطالبهم في الديمقراطية حقيقة ؟

تعـــــقيب :

الفصل الخامس : الحكم على الديمقراطية .

الفصل السادس : هل المسلمون في حاجة إلى الديمقراطية الغربية ؟

الفصل السابع : الديمقراطية والشورى .

الفصل الثامن : حكم من يتمسك بالديمقراطية الغربية .

الفصل التاسع : نظرية السيادة ، وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : ما هي نظرية السيادة ؟

المبحث الثاني : أساس قيام نظرية السيادة .

المبحث الثالث : ما مدى صحة نظرية سيادة الشعب .

المبحث الرابع : المسلمون ونظرية السيادة .

المبحث الخامس : حكم السيادة في الإسلام .

تمهـــيد:

قبل البدأ بتفاصيل دراسة الديمقراطية أحب أن أذكر القارئ بشيء مهم عن طريقة من كتب عن الديمقراطية إذ أنه سيجد نفسه أمام أقوال وآراء متضاربة إذ أخذ كل من يكتب عنها إنما يعبر عن موقف منها فبعضهم تجده يدرسها من جانب تحسينها وتحبيبها إلى الناس وبيان المزايا التي اشتملت عليها الديمقراطية ، وبعضهم تجده يكتب عنها من جانب تقبيحها وتنفير الناس عنها ببيان ما تنطوي عليه في النهاية من أخطار فكانوا على حد قول الشاعر :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ⁎⁎⁎ ولكن عين السخط تبدي المساويا

والذي يتوجب في البداية هو دراستها دراسة محايدة وأقصد بهذه المحايدة أن يبين دارسها الإيجابيات التي فيها والتي أفادت منها الشعوب الأوربية في تحطيم الأغلال التي كانت عليهم من قبل البابوات والإقطاعيين والوجهاء الأثرياء ثم دراسة ذلك على ضوء الإسلام وهل تلك الإيجابيات موجودة في الإسلام أو غير موجودة فيه بالأدلة الواضحة فيه ثم يبين أيضاً السلبيات التي فيها والخدع المعروفة التي وصفت بها ومدى استفادت الشعوب منها حقيقة أو وهماً ثم مقارنتها بالتعاليم الإسلامية فبضدها تتميز الأشياء وأن يكون القصد في كل ذلك هو الوصول إلى ثمرة يستفيد منها القارئ دون انفعالات ودون مجرد دفاع أو هجوم فإن القضية جد وتحتاج إلى رزانة في الحكم ورؤية واضحة يبين من خلالها هذه القضية الهامة فقد أخذ كثير من

الناس يتكلم عنها بمعرفة أو بغير معرفة وإنه من اليقين الذي لا مرية فيه ولا جدال أن الديمقراطية مذهب بشري وأن تعاليمها وضعية ومع ذلك فقد وجد فيها أهل أوربا عزاءاً ما لما حل بهم على أيدي رجال دينهم الوضعي كذلك ومع ذلك فإن هذا العزاء لم يكن على ما يريدونه ـ كما سيأتي تفصيله بالنسبة لأهل أوربا ـ ولكن هل المسلمون في حاجة إلى تلك التعاليم ؟ وهل بهم كذلك حاجة إلى أن يرددوا مثل هذه الكلمات الجوفاء ومنها كلمة ـ الديمقراطية ـ وغيرها من الألفاظ التي غزت مفاهيم المسلمين وتأثروا بها ورددوها عن نية حسنة في بعضهم وعن نية باطلة في آخرين حتى أصبحت كأنها لفظة شرعية وتسمية محببة لكثرة ورودها على الألسنة من غير المسلمين ومن بعض المسلمين .

وهذا الوضع هو ما ستجد الجواب عنه ـ أخي القارئ ـ أثناء دراسة هذه الظاهرة في هذه العجالة إن شاء اللّٰه تعالى .

الفصل الأول

منزلة الديمقراطية في الحضارة الغربية

لقد علا نجم الدعوة إلى الديمقراطية في الغرب وأصبحت هي كل الشغل الشاغل لهم هي السياسة وهي الدين وهي النظام الاجتماعي بأكمله وهي التقدم بحذافيره بل جعلوها هي الممثلة للحضارة الغربية وتقدمها الصناعي بكل ثقله ولم يكتفوا بوقوعهم تحت تأثير هذا النظام الذي ألهوه بل أنهم يحاولون أن يعمموه على جميع سكان الأرض على زعم أنه هو البديل عن الظلم وطغيان الطغاة وأن الحياة السعيدة لا تتم للشعوب إلا بتطبيقه كما تراه أمريكا وأوربا ـ بل وأقنعوا كثيراً من الناس أن من لم يحكم بالديمقراطية فهو ظالم مهما كان حكمه دون أي اعتبار آخر وفي الجانب المقابل تجد كثيراً ممن انتهزوا الفرص للاستيلاء على الحكم ممن لم تكن لهم قدم راسخة في ذلك ولا خيرة كافية تجدهم يصيحون ليلاً ونهاراً بأن الديمقراطية هي شعارنا ، هي قدرنا ، هي سبيلنا إلى الرقي ... إلخ . لكي يكسبوا عطف رعاة الديمقراطية من جاب ومن جانب آخر يريدون التشدق أمام شعوبهم بترديدهم لهذا الاسم الذي لا يعرف ما وراءه إلا القليل جداً منهم بل أن كثيراً من طلاب العلم يجهلون حقيقة الديمقراطية فما هو الحال بغيرهم من العوام ؟ وقد اتضحت الحقيقة تماماً أن الغرب ـ أمريكا ـ يريدون أن تحل الديمقراطية التي اخترعوها محل الإسلام في كل مجال وهم لهذا يعملون بكل جد ونشاط

وقد انحرف من المسلمين من انحرف ووقف من وقف وتحيَّر من تحيَّر ولا أحد يدري إلاَّ اللَّه ماذا ستكون النهاية وعلى أي منقلب ينقلبون إلا أن بوادر هزيمة المسلمين ممثلة في عمالة الحكم البعثي الخبيث في العراق قد أتت ثمارها المشؤومة على المسلمين والجيدة بالنسبة للغرب لتصدير ديمقراطيتهم .

الفصل الثاني

معنى الديمقراطية ونشأتها

الديمقراطية كلمة يونانية [1] في أصلها ومعناها سلطة الشعب والمقصود بها بزعمهم حكم الشعب نفسه بنفسه عن طريق اختيار الشعب لحكامه وهي الكذبة التي كان يرددها النظام الشيوعي .

ويذكر الباحثون أن أول من مارس هذه النظرية هم الإغريق في مدينتي أثينا وأسبرطة ولكنها ارتبطت في الغرب بالنظام السياسي والاقتصادي بخلاف نشأتها عند الإغريق وكانت طريقتهم تتمثل في أنهم كانوا يشكلون حكومة من جميع رجال المدينة وأطلقوا عليها اسم (حكومة المدينة) حيث يجتمع رجال المدينة لبحث كل أمورهم ينتخبون لهم حاكماً ويصدرون القوانين في كل قضية تعرض عليهم ويتخذون لها حلاً يكون حاسماً ويشرفون جميعهم على تنفيذه بكل دقة وحزم واستمروا على هذه الصورة الفريدة إلى أن انتهت حكومة المدينة في كل من أثينا وأسبرطة حينما غلبهم المدّ النصراني وبرز رجال الكنيسة وقد بقيت تلك الحكومة في ذاكرة الناس . ثم كان لطغيان رجال الكنيسة فيما بعد الأثر الحافز على الرغبة في العودة إلى تلك الحكومة الغابرة وظل أهل أوربا يتوقون إلى الخلاص من قبضة رجال

(١) وقد سمعت خطاباً لأحد رؤساء الدول العربية يقول فيه أن الديمقراطية لفظه عربية وأن نطقها في الأساس «ديموكراسي» وهذا الزعم هو أحد تخريفات ذلك الرئيس «معمر القذافي» .

الكنيسة تحت أي تيار يسوقهم علهم يجدون متنفساً من أوضاعهم المخزية تحت سلطة الإقطاع والنبلاء والأشراف من البابوات وكبار الملاك الظالمون لجميع طبقات الشعوب. ونجم عن كثرة الشغط الانفجار الذي تمثل في الثورة الفرنسية حيث أخذ زعماؤها في التفتيش عن مصدر يحل محل ذلك الحكم البغيض ولم يكن أيام حكم المدينة غائباً عن أذهانهم خصوصاً وقد اتصل كثير من الأوربيين بالمسلمين وتفهموا كثيراً من تصورات المسلمين ونظامهم الإلهي العادل الذي منعهم من الانقياد له حقدهم الشديد على الدين والمتدينين ثم رغبتهم في الانفلات من كل قيد وغير ذلك فوقع اختيارهم على ذلك الماضي الجاهلي الإغريقي ونادوا بتجديده والسير على نهجه كي يبعدهم عن شبح البابوات والأباطرة والإقطاعيين ومن جاء بعدهم من الجعشين الرأسماليين فاتخذوه شعاراً ـ بغض النظر عن تحقيقه ـ يحاربون تحته ومع طموح الشعوب إلى تحقيق هذا الحلم فقد وجد الدعاة له من المشقة والتنكيل والسجن على أيدي أصحاب السلطة المستأثرين بها وعلى أيدي البابوات والوجهاء الأثرياء في ذلك الوقت ما لا يوصف وهو أمر بدهي إلا أن دعاة تلك الديمقراطية لم يضعف عزمهم ولم تخنهم شجاعتهم فكانوا كما قيل :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ✻✻✻ ومدمن القرع للأبواب أن يلج

وتم لهم بعد الكفاح المرير الوصول إلى كراسي السلطة وإخضاع أمراء الإقطاع والمستأثرين بالسلطة إلى الرضوخ للأمر الواقع وزحزحت البساط

من تحت أقدام البابوات أصحاب الحق الإلهي المقدس بزعمهم ومن تحت أمراء الإقطاع الذين كانوا لا يُسألون عما فعلوا والناس يُسألون ، وصدق اللَّه تعالى حينما قال : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [1] وابتلى اللَّه الظالمين بعضهم ببعض ولا يزال بأسهم بينهم شديداً وقلوبهم شتى .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠

الفصل الثالث

الوصول إلى الغاية

وبعد أن تمت الغلبة لرجال الديمقراطية وهيجان الشعوب من ورائهم للإفلات التام من الماضي البغيض المتمثل في الإقطاعيين والرأسماليين والبابوات والدين الذي أحلهم تلك المنازل حسب تصورهم التام عن الدين ، واصل الأوربيون مسيراتهم القوية فما إن يتحقق لهم مكسب إلا وتطلعوا إلى ما وراءه في خطوات متتابعة لم تمهل طبقات السيادة أن يلتقطوا أنفاسهم وبدأ الأمر في ظاهره أن دعاة الديمقراطية قد حققوا كل شيء وأن الشعوب قد نالت كل ما تتمناه وأن مجموع تلك المكاسب قد أصبحت تشكل مذهباً متكاملاً لا ينقصه إلا التطبيق والتصدير اسمه (الديمقراطية) .

فما هي المكاسب التي تحققت لهم ؟ ، وهل هي كذلك مكاسب حقيقية أبعدت الشعوب عن شبح ذلك الطغيان القديم حقيقة ؟ وأنهم وصلوا إلى تلك الأحلام السعيدة التي كانت تراودهم في أنفسهم ؟ أم لم يتحقق ذلك ؟ سوف تتضح إن شاء اللَّه أهم الجوانب لتلك الأمور فيما يلي :-

•• المكاسب التي حققها دعاة الديمقراطية في أوربا :

لقد تحقق لدعاة الديمقراطية في أوربا مكاسب ثمينة جداً وكانت بالنسبة لهم أفضل مما كانوا عليه فيما سبق ووجدوا فيها عزاء ما تبدو للناظر السطحي ، ومن أهم تلك المكاسب التي ظهرت إثر تلك الصراعات المريرة للشعوب ضد زعمائهم ووجهائهم الأمور الآتية :-

١ ـ تم لهم الهرب بعيداً عن قبضة طغاة الكنيسة وجبروتهم وإخضاعهم لسطلة وضعية ليس لها علاقة بالقداسة الإلهية التي كان يمارس باسمها رجال الكنيسة كل ما يريدونه من أنواع الظلم والعلو وتم الأمر بقيام سلطة وضعية لا تدعي القداسة الإلهية بل ولا تعترف بها أيضاً .

٢ ـ حصلوا على حق إخضاع تصرفات الحكومة لرقابة المجالس النيابية عليهم إذ لم يعد من حق الحكومة الاستئثار بالسلطة دون منازع أو رقيب كما كان الحال سابقاً .

٣ ـ تحقق لهم الأمن من إصدار السلطات العليا أوامر الضرائب دون مبرر حقيقي وهو ما كان يعاني منه الفقراء وسائر طبقات المجتمع الويلات لعدم إحساس السلطات والبابوات بالرحمة نحو شعوبهم ثم تمكنت الشعوب في أوربا من إبطاله إذ لم يعد ذلك حقاً تملكه السلطة دون موافقة ممثلي الشعب بعد قيام الديمقراطية التي طالبوا بها فحصل التخفيف عن الفقراء قدر الإمكان وبالتالي إيقاعها على الأغنياء الذين كانوا في زمن الإقطاع على النقيض من ذلك حيث كانوا يسيرون حسبما أفاده كتابهم المقدس عندهم «الغني يزاد له والفقير يؤخذ منه» .

٤ ـ تراخي قبضة السلطة العليا على المواطنين إذ توزعت تلك السلطة بين السلطة العليا وبين ممثلي الشعب في المجالس النيابية والبرلمانية

الذين يحاولون جاهدين إرضاء منتخبيهم عنهم بما يبذلون من الدفاع عن أي ضرر يلحقهم أو بناحيتهم وما يقومون به من المطالبة بتحسين أوضاعهم المادية والمعنوية .

٥ ـ تحقق لهم الإشراف المباشر على مصارف موارد الدولة ومعرفة ميزانيتها وكيفية إنفاقها في المرافق العامة وبمعرفة ممثلي الشعب بعد أن كانت تلك الموارد من اختصاص الدولة تنفقها حيث تشاء في رغباتها وشهواتها المختلفة دون أي سؤال لهم من أي شخص في حين غاب الخوف من اللّه تعالى في قلوب أصحاب السلطة وغاب أيضاً الخوف من الشعب. فلما ثارت الشعوب وتمكن أصحابها من الوصول إلى محاسبة الدولة أصبحت تلك الموارد تصرف على النفع العام والمشروعات التي تعود فائدتها على الشعب مما يسمى البنية الأساسية والمرافق العامة كبناء المدارس والمستشفيات وسفلتة الطرق وغير ذلك ، إلا أنه احتدم الخلاف بين مجالس النواب هل يجب أن يكون التعليم حقاً لكل أفراد الشعب أم لا وعلى القول بتعميمه نتجت مشكلة أخرى وهي من الذي سيقوم بالأعمال في المصانع والخدمة في البيوت والمزارع بعد أن يصبح الجميع متعلمين وبالتالي مستكبرين عن مزاولة تلك الأعمال التي سيترفعون عنها حتماً بعد شمول التعليم وحمل الشهادات ولكن الوجهاء لم ينجحوا في إيقاف ذلك رغم هذا الاحتجاج وغلبتهم العامة .

٦ ـ تحقق لهم الحصول على الضمانات التي تجعل كل أفراد الشعب

متساوين أمام القانون لا امتياز للغنى على الفقير بينما كان الأغنياء والوجهاء طبقة عالية لا يصل إليها الفقراء وقد تحقق هذا العامل أثر صراعات وشغب مرير ضد السلطة صاحبة الامتياز الأول [1] .

٧ ـ كما شملت تلك الحقوق جوانب عدة مثل حق كل فرد من أفراد الشعب في التنقل أين يشاء داخل الوطن السياسي وكان هذا ممنوعاً في ظل الإقطاع فلا يستطيع العامل أن يتنقل إلا برخصة من سيده الإقطاعي وإلا كان محل تهمة يجب القبض عليه حتى يأتي بالمبرر الكافي .

٨ ـ ومثل حق كل فرد في أن يعمل أين يشاء في حين أنه لم يكن مقرراً من قبل في عصر الإقطاع الذي كان يعتبر الأرض ومن عليها ملكاً للإقطاعي سار الآباء على ذلك ونشأ الأولاد عليه إذ لا مفر لهم من أن يعملوا إذا أرادوا الحفاظ على حياتهم من الموت جوعاً وكان يعين صاحب الأرض للفلاح القدر الذي يريده قل أو كثر وما على العامل إلا الرضي به ، وما أن تحطم الإقطاع وأفلت المغلوبون على أمرهم إلا وكان نصب أعينهم البحث عن العمل أينما وجد في المدينة أو في الريف بحريته وبموافقته الشخصية في نوع العمل وفي مقدار الأجرة إلا أن مشكلة الحاجة والفقر بقيت دون حل جذري لها فالدولة

---

(١) وفي الإسلام : «الناس كلهم لآدم وآدم من تراب» . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وقال ﷺ : «كلكم لآدم وآدم من تراب» ، وقال خليفة المسلمين الأول رضي الله عنه : «القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له» .

لم تكن قد اهتمت بهذا الجانب لأنه ليس من لوازمها حسب ما كان معروفاً ولا شأن لها بالعاطلين عن العمل إذ أن ذلك مسئوليتهم عن أنفسهم ولا تسأل بعد ذلك عما كان يحل بهم من الفقر والحاجة والبطالة في الوقت الذي لم يجدوا فيه من يعطف عليهم لا الحكومة ولا الأغنياء ولا أصحاب المصانع الأثرياء فوقعوا مرة أخرى تحت سيطرة أصحاب المال من أهل الجاه والمال فاضطر أولئك البؤساء إلى أن يعملوا شيئاً ما للفت النظر إلى حالهم التعيس فاهتدوا إلى القيام بين فترة وأخرى بالمظاهرات والشغب واستمر حالهم بين مد وجزر إلى أن وجدوا خيوط أمل النجاة تقع في أيديهم فاضطر أصحاب التجارة والمصانع والأثرياء وأيقنوا أن عليهم الرضوخ لمطالب أولئك البؤساء ، واستمر الحال ينمو تدريجياً وببطء شديد الضغط من جانب العاطلين وأصحاب الأجور البسيطة والتنازل رويداً رويداً من جانب الأثرياء والوجهاء إلى أن وصل أولئك الفقراء إلى تحقيق أنه يجب أن تُدفع الأجرة لكل عامل من قبل صاحب العمل حسب الاتفاق .

٩ ـ ثم بدأ الجميع يعملون رجالاً ونساءاً إلا أن المرأة كانت تعطى نصف أجرة الرجل ومع مرور الوقت تنبهت المرأة لهذا الغبن ووجدت من يصيح إلى جانبها بمنع هذا الظلم والجور ومن هنا نشأت الدعوى لمساواة المرأة بالرجل ومعنى هذا أن هذه الدعوى للمساواة لم تنشأ عن رحمة أو ضمير حيّ وإنما نشأت عن ظلم ظاهر واقع على المرأة

يستلزم رفعه عنها ولم يهدأ طلب العمال للمزيد من الديمقراطية في حق تشغيلهم من قبل الدولة إلى أن حصلوا على مطلبهم في حده الأدنى وهو إحساس الدولة بمسئوليتها عن حق العمل لكل مواطن .

وبعد أن حقق العمال الفقراء ذلك الحد الأدنى من إيجاد الاهتمام من قبل الدولة بشئونهم التفتوا إلى جانب من أهم الجوانب ومن أكثرها حرماناً لهم منه إلا وهو حق التعليم إذ كان هذا الجانب كغيره من الجوانب الأخرى نسياً منسياً في أذهان الحكومات ومن هنا فقد حرم الفقراء وأبناؤهم من التعليم في ظل سيطرة الإقطاعيين الذين كانوا ينظرون إلى من دونهم كأدوات استهلاكية للقيام بخدمتهم والقيام على مصالحهم فكان أولاد الأثرياء هم الذين ينالون حظوظهم من التعليم وكان لهذا الحرمان أثره القوي في دفع أولئك المحرومين إلى الثورة في وجوه الطبقات الحاكمة والأثرياء وكان لقيام الثورة الفرنسية أيضاً متنفساً لهم والتفاتة منهم إلى الحكومات فتعالت الصيحات والاحتجاجات لإجبار الحكومة على فتح باب التعليم للجميع [١] ، ولم يجد هؤلاء الثائرون الطريق مفروشاً بالورود أمامهم بل عانوا مشقات ومصاعب جمة كان في أولها وقوف طبقة الأثرياء والوجهاء في طريقهم كما أشرنا إلى ذلك إذ كان هؤلاء هم المستفيدون من تجهيل الشعب كي يخدموهم ويقوموا بمصالحهم فلو انضموا إلى المتعلمين لبقي فراغ كبير بالنسبة لهم ومن هنا وضعوا العراقيل المختلفة في طريق دعاة تعميم التعليم متذرعين بالتكاليف المالية الباهظة واستمر هؤلاء وهؤلاء بين مد وجزر إلى أن تمت الغلبة للفقراء بجعل التعليم عاماً وعلى نفقة الدولة أيضاً .

---

(١) أما الإسلام فإنه يوجب التعلم قبل العمل ويفرضه على كل مسلم ومسلمة دون تمييز .

وتطلع الفقراء بعد ذلك إلى ما هو أبعد وهو حقهم في المشاركة في الحكم فانفتح للعمل والفقراء نفقاً ضيقاً فألغى اشتراط الثراء لدخول الانتخابات ثم خرجوا من ذلك النفق منتصرين في النهاية ليجدوا طلبهم مشاركة أي شخص في الانتخابات من عامة أفراد الشعب حقاً مكفولاً إذا بلغ السن القانونية وأن من حق الشعوب أن تصل إليه بواسطة البرلمانات والانتخابات المباشرة - ولكن يجب أن تعرف كيف يتم هذا الحق - ثم استطاعت الشعوب في أوربا أن تصل أيضاً إلى اعتراف الحكومات بحق حرية التعبير عن الرأي تأييداً أو معارضة عن طريق وسائل الإعلام وغيرها ولا تسأل بعد ذلك عما أنتجه تحقيق هذا المبدأ من شتات المفاهيم ثم تحقق لهم كذلك حق المعارضة والاحتجاج بأية وسيلة بالإضراب عن العمل أو بالمظاهرات وهذه المظاهرات إما أن تتم بالإذن المسبق لها أو تتم بدون إذن وبالتالي تتصرف الحكومة حسبما تراه لقمع تلك المظاهرات وتفريق المتظاهرين أو تركهم بما لا يصل إلى تجريد السلاح والتنكيل. كما ضمن لهم القانون - بفعل جهادهم ويقظتهم - حرية الاجتماعات الجماعية في مقار أحزابهم أو في غيرها بعد أخذ الإذن من الحكومة إذا كانت الاجتماعات في غير مقار الأحزاب .

ومعنى هذا أن الأوضاع قد تغيرت في أوربا بعد أن أفاقت الشعوب على الظلم الواقع والفقر المدقع الجاثم عليها واستطاعت بعده أن تحصل على ما تريد رويداً رويداً وتغيرت الأحوال تماماً فلم يعد بوسع الوجهاء والأثرياء أن يكبتوا تلك الطبقات التي كانت لا قيمة لها ولا وزن بل ولا

حرج في إلقاء القبض على الشخص منهم دون إبداء المبرر الكافي خصوصاً في حق الفقراء الذين كانت تلهب ظهورهم من قبل الطبقات العليا بسبب أو بغير سبب لكي يضمنوا ولاءهم واحترامهم لهم دائماً .

أما مواجهة الحكومة بأدنى ما يغضبهم فقد كانت جريمة لا تغتفر ولا بد من العقاب الرادع ليبقى تفكير الفقراء في النيل منهم بعيداً عن مجرد تفكيرهم ولكن بعد إفاقة الشعوب المظلومة تغير الحال جذرياً وبدأ عامة الشعب يرفعون رؤوسهم ويصيحون بأعلى أصواتهم ضد كل الظلمة ووضعت القوانين لحماية المتهم فأصبح بريئاً حتى تثبت إدانته ولا يحق سجنه إلا بتهمة ظاهرة واضحة وفوق هذا فمن حقه أن يطلب محامياً عنه وأن لا يتعرض لأي إكراه أثناء التحقيق معه وأن يكون محاميه إلى جانبه متنبهاً لأي مزلق قد يصادفه المتهم من قبل المحقق فينبهه إليه وقد يشير عليه بعدم إجابة المحقق إذا كان السؤال فيه حيف أو استثارة أو استدراج كما أن من حق المتهم أن يستدعي الشهود الذين يظن أن شهادتهم تنفعه وحق المحامي في تأجيل الجلسة لمزيد من التحريات ومشاورة المتهم كما وجد حق المتهم في استئناف الحكم إذا تصور أن فيه جوراً عليه كما وجدت الضمانات التي تنظم إيقاع العقوبة على المتهم دون زيادة أو نقص مع وجود الضمانات الكافية لحسن معاملة السجين في فترة وجوده في السجن فلا يهان ولا يعاقب جسدياً إلا إذا أخل بنظام السجن وأصبح من حقه أن توفر له الرعاية الطبية إذا مرض ومن حقه أن يشكو إدارة السجن وأن يطلب مقابلة محاميه في السجن وأن يزوره أهله في السجن

بل ووصل الحال في بعض السجون أن يُعطى السجين الحق في زيارة أهله في بيته في فترة محددة تحت الحراسة ثم يعود إلى السجن إلى أن تنتهي قضيته [1] .

●● تعقــيب :

علمت مما سبق كيف ظهرت الديمقراطية في العصر الحاضر وكيف طالب العمال والفقراء بكل حقوقهم طلباً متواصلاً وبشتى الأساليب فما أن يحصلوا على شيء إلا وتطلعوا إلى ما بعده تحت راية تجديد الديمقراطية التي نمت بفعل تلك المطالبات المستمرة لدخول عامة المجتمع في المشاركة الفعلية في الحكم وتم لهم ذلك بفعل المناداة بحق الانتخابات إذ لم تكن الشعوب قبل إقامة الديمقراطية تحلم بأن لهم سبيلاً إلى الوصول إلى الحكام البابوات أو التأثير عليهم فضلاً عن مشاركتهم في يوم ما فقد كانت الطبقات الحاكمة كلهم من ذوي الثراء وليس للفقراء حتى مجرد التفكير في مزاحمتهم ولكن وبفعل الإصرار والصبر استطاع الفقراء تحت المناداة للعدالة والحرية والمساواة وبناء الديمقراطية أن يصلوا فلم يتم كل ذلك من مبدأ الديمقراطية

---

(١) بتصرف عن عدة مراجع .

ولا ريب أن القارئ يدرك ما وصلت إليه أوربا وأمريكا بخصوصها في هذه الأيام العصيبة ـ بعد أن ضربت واشنطن ونيويورك ـ كيف ضربوا بتلك التعاليم الديمقراطية جانباً ، وكيف تحول الأمر عندهم إلى غاية الجور والتعسف والشدة على العرب والمسلمين بخصوصهم حيث يعاملونهم أسوأ المعاملة وأشد التجبر وملؤا السجون بكل من يريدونه دون أن يسمحوا لهم بالدفاع عن أنفسهم فضلاً عن السماح بالمحامين لهم وهي فتنة عظيمة نسأل الله تعالى أن تنتهي بخير وأن يلطف بالمسلمين إنه سميعٌ مجيبٌ .

تلقائياً بل انتزعت الشعوب من الإقطاعيين والوجهاء البابوات انتزاعاً حتى أصبح في أوربا أمراً مألوفاً أن يوجه الشخص الانتقاد للمسئولين علناً بلسانه أو بقلمه عن طريقه هو أو عن طريق الصحافة ولقد تم ذلك أثر صراع مرير وصبر طويل جعل الحكومات في أوربا ترضخ للأمر الواقع نتيجة للظلم الذي وقع على الطبقات الفقيرة في سالف عصورهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] .

وهكذا فقد وصل الفقراء والعمال المتدنية أجورهم بسبب مطالبتهم المستمرة وتصديهم بكل بسالة لما من شأنه تحسين أوضاعهم والشغب المتواصل للنظر في أمورهم لا أن مذهب الديمقراطية هو الذي أوجد هذه الحال ولم تقم الديمقراطية بدافع الرحمة أو بقيام منهج أو دراسة وإنما قامت أثر صراعات متواصلة بين أفراد الشعوب وبين أصحاب الجاه والأثرياء والسلطات وعلى الذين يتصورونها وكأنها وحيٌ أن يعلموا ذلك إذ لا رحمة من داخل القلب في النظم البشرية الوضعية وربما يصدق عليهم قول الشاعر :

ومـا نيل المطالب بالتـمني * ولكن تؤخـذ الدنيـا غـلابا**

(١) سورة فصلت ، الآية : ٤٦ .

الفصل الرابع

هل حقق الأوربيون مطالبهم في الديمقراطية حقيقةً ؟

لا شك أن ما سبق ذكره يعتبر مكاسب هائلة وفي غاية الروعة - لو طبقت كما قيل عنها - ولكن الواقع أن المتسلطين من الجبابرة لم يكونوا ليسمحوا بتحقيق كل ذلك طواعية وعطفاً لو لم توجد الصحوة الأوربية على استبداد مظالم جبابرة الإقطاع والبابوات التي هزتهم هزاً عنيفاً على أنهم في الواقع وصلوا إلى خير مما كانوا عليه مع أنهم لم يصلوا إلى المدى الذي كان يجب أن يقفوا عنده فلا زالت المظالم ولا زال للجاه حكمه لأن هذا الأمر لا بد من وقوعه حينما يعتقد المسيطرون القوة الذاتية التي تراقب اللَّه تعالى وتعلم أنها ستحاسب أمامه عز وجل عن كل ما يصدر عنها من قول أو فعل إذ أن قوة القانون لا تصل إلى الضمير ولا تحد من الطغيان إلا قليلاً ظاهراً وحسب المصالح ووجود القوة الرادعة فإن طبيعة الإنسان - لو لم تهذب بالدين - دائماً تجنح إلى الاستعلاء وجمع المال وإحاطة النفس بأقصى الحماية حتى ولو تم ذلك على حساب الغير وهو ما وقع فعلاً في الديمقراطية الغربية رغم تلك المظاهر السابقة كلها أن الديمقراطية لم تستطع محاسبة الجشعين المنتفعين بالأموال الربوية على حساب الكادحين ولم تستطع أن تجعل من الرأسمالي محسناً كريماً يبذل ما يبذله لوجه اللَّه لا يريد جزاءاً ولا شكوراً وهؤلاء المرابون يمثلون الإقطاعيين بكل المقاييس فلا فرق بينهم إلا في التسمية والأشخاص .

كذلك لم تستطع الديمقراطية أن توجد نظاماً اقتصادياً يتكافل فيه جميع أفراد الشعب فلا يبقى فيه حاسداً أو محسوداً ، وأن توجد عدلاً وإحساناً لذاتهما لا لأجل المنافع كما في الديمقراطية الغربية ولا أن توجد نظاماً يكفل للأخلاق بقاءها وللطهارة رونقها وللنفوس سعادتها الاقتصادية والنفسية .

كما أن الشعب وهو الذي أوجد الديمقراطية في الظاهر وألغى نظام الإقطاع والسيادة الإلهية التي مثلها البابوات إلا أنه من جانب آخر إنما ثم له ما يشبه عملية الاستبدال فقط فقد أصبحت الشعوب تحكم بإقطاعيين جدد ليسوا هم طبقة الإقطاعيين ولا البابوات الذين كانوا في العصر السابق وإنما هم جماعة أصحاب ثراء يمثلون الشعب في مجالسهم لم يختلف أكثرهم عن الإقطاعيين والبابوات إلا في التسمية الجديدة المغرية أما في السيطرة وفي حفظ مصالحهم الاقتصادية وثراءهم المتنامي دائماً فلم يكن بوسع الشعب الوصول إليه لأن هؤلاء ـ كما صوروا أنفسهم ـ هم حماة الشعب وحماة حريته واقتصاده ، لهذا فلا يجوز أن تتطرق إليهم الشبهة لأن زمن الإقطاعيين والبابوات قد ولّى وجاء حكم الشعب نفسه بنفسه بواسطة هؤلاء الجدد المنتخبين بكل نزاهة وحرية . الساهرين على مصالحه دائماً !!؟

ومن خدع الرأسمالية وأصحاب الجاه والسلطة في السيطرة على الشعوب باسم الديمقراطية وباسم الحرية التي منحتها لهم الديمقراطية في ظاهر الأمر أنهم يوحون إلى شعوبهم ، أن الشعوب هم الذين يختارون ما يريدون ويتركون ما يريدون ويصوتوا لمن يريدون ويسقطون من يريدون دون أي تدخل من السلطة العليا التي بيدها الحكم النهائي .

هكذا صوروا الأمور لشعوبهم ولكن يبقى السؤال الذي غاب جوابه وخفي على عامة شعوبهم وهو من أين تأتي هذه الأصوات ومن أين تأتي هذه التوجيهات الفكرية التي تتلقفها الشعوب فتثور أو تهدأ بفعل تأثيرها لقد غاب عن الكثيرين أن الذين يوجهون الشعوب هم السلطة العليا التي تتظاهر ببعدها عن التدخل في إرادة الشعب واختياره . نعم هم الذين يوجهونهم كما يوجه السائق سيارته إلى الجهة التي يريدها ، وهذا التوجيه يتم عبر الوسائل الكثيرة التي تملكها السلطة العليا من صحافة وإذاعة مرئية ومسموعة ومن مفكرين يعملون لحسابها ومن دعايات تصنع وتنشر بمعرفتها ومعلوم أن تلك الوسائل كلها تقع تحت إشراف السلطة العليا إما بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر فإذا كان القائمون على تلك الوسائل من موظفي الدولة فالأمر واضح وإذا كانوا مستقلين فإنهم لا يستطيعون الاستقلال التام بها إلا بمساعدة الدولة لهم وحمايتها لهم ، ومن السهل بعد هذا أن تتحكم الدولة في اتجاهاتهم فإذا أرادت الدولة أن تنفذ أمراً من الأمور مهدت له تلك الوسائل بعدة طرق رويداً رويداً حتى يتم لفت نظر الشعوب لذلك ثم يأخذ في متابعة الأمر حتى يتخيل الشعب أنهم هم أصحاب تلك الفكرة وأن على الدولة أن تستجيب لهم وتحقق رغبتهم فقط وقد لا يعلم إلا النزر اليسير من الناس أنهم إنما يحققون رغبة أصحاب السلطة أو النفوذ ولا يعلمون أن مصدر تلك الفكرة وذلك الهياج الشعبي إنما كان ممن بأيديهم الفكر والتوجيه ، كما أن لوسائل الإعلام من الحيل والخداع ما لا يدركه الشخص العادي فإنهم لا يأتون إلى ما

يريدونه وينتزعونه من قلوب الناس انتزاعاً أو يثبتونه فوراً وإنما يمهدون له بطرق كثيرة وفي خطط مدروسة مبيَّتة إلى أن تتبناه الجماهير من الناس حتى أصبح وكأنه أمر فطري مسلم لا يجوز رده أو الشك فيه [(١)] .

ومن العجيب أن تتوج تلك المكائد كلها بأنها نابعة عن إرادة الشعب واختياره بينما يكون عامة الشعب ـ إلا النزر اليسير ـ في بعد تام عن حقيقة ما يجري وأنى لرجل يفكر بلقمة العيش فقط فلا يجدها إلا بصعوبة بالغة أو لرجل يفكر في ما حوله من الملهيات المتناثرة أمامه في كل اتجاه أنى له أن يدرك الغايات البعيدة لأصحاب الخطط البارعة .

نعم أنى لمثل هؤلاء أن يفكروا بعمق ليصلوا إلى معرفة حقائق الأمور ومعرفة من الذي يسير هذه الجماهير الصاخبة ومعرفة ما هي المكاسب التي ستعود عليهم من جراء ذلك وما هو دور أصحاب التوجيه من خلف الستار في تلك القضايا إنهم بطبيعة الحال لا يجدون الوقت الكافي للتفكير حتى من كان منهم أهلاً لذلك وذلك بسبب ملأ فراغ وقت الجميع في آن واحد من كان مشتغلاً بالكد والجد ومن كان مشتغلاً باللَّهو والفجور فكل شخص يمشي مكباً على وجهه لا يفكر إلا في نفسه وبالتالي يجد أصحاب الكواليس الفرص الكثيرة للتأثير في الشعوب وفي اتجاهاتهم وسهولة قيادتهم وما دام هؤلاء المنتفعون قد فقدوا الرحمة والإحساس بالآخرين ولا توجد مخافة اللَّه ومراقبته الكافية فيهم فأي مكاسب سيحصل عليها الغوغاء وأي تفكير

---

(١) وقد ضرب الأستاذ محمد قطب أمثلة بتوسع تبين ذلك في كتابه «مذاهب فكرية معاصرة» ، ص ٢٠٦ .

سيستقلون به وبتنفيذه اللَّهم إلا بقدر ما يسد رمقهم ويلهيهم عن طغيان السلطات المتقنعة بالديمقراطية التي تتظاهر بأن الشعب هو الذي يحكم نفسه بنفسه دون تدخل من أحد وهو بالأصح يحكم من أصحاب النفوذ والجاه في كل صغيرة وكبيرة تحت ذلك الغطاء السميك الشرعية الشعبية المزعومة .

أما بالنسبة للبرلمانات المنتخبة عن طريق شعار الديمقراطية فلا تسأل عن الحيل والخدع التي تجري سراً وجهراً في أماكن الانتخابات فمن المعروف أن الناس لا يذهبون إلا إلى من عنده ذهب كما قال أحد الشعراء :

رأيت الناس قد ذهبوا * إلى من عنده ذهبُ**

ومن لا عنده ذهبُ * فعنه الناس قد ذهبوا**

إذ يحتاج العضو الذي ينتخب إلى مال يتودَّد به إلى ناخبيه وإلى إظهار بعض الإصلاحات التي سيفعلها في حال فوزه ومتى لم يكن عنده مال انقشع الناس عنه وتناسوه لأن العامة لا تنظر إلى الكفاءة الحقيقية من المعرفة والجرأة والنصح والإخلاص لأنها غير منظورة وإنما ينظرون إلى الإنجاز المادي المشاهد فكم من شخص عنده من الكفاءة ولم ينتخب بما لا يقارن به الكثير ممن تم انتخابهم .

وإذا كان المنتخبون من ذوي الجاه والثراء فما الذي يشغل قلوبهم على عامة الشعب الفقراء والمساكين وقد فقدوا مراقبة اللَّه تعالى أولاً وأحسوا

أنهم أصحاب سلطة وتوجيه يجب على الشعب السمع والطاعة لهم وإلا كانوا عصاة يجب تأديبهم وزجرهم عن التفكير في الوصول إلى مصالح السلطات الحقيقية أو الامتيازات الممنوحة لهم بفضل القوانين التي دونوها هم أيضاً كما أنه على افتراض أنه وجد شخص مخلص لشعبه وجرئ في محاجه أصحاب السلطة والجاه فليس أمامه غير خيارين إما أن يمشي مع المجموعة العامة للنواب في الصحيح وفي الغلط وإما أن يعتزل ويذهب بنفسه أو هم يذهبون به تحت أي مبرر من المبررات الكثيرة التي يجيدون طبخها في الظلام .

أما الحرية التي كفلتها الديمقراطية فإنها تظهر أكثر وضوحاً في حرية الإلحاد وإظهار الفجور وحرية معارضة ما لا يتفق ورغبات أصحاب التوجيه وبحيث لا يمس مصالحهم أبداً ولا تسأل بعد ذلك عن حرية الجنس وما ضمنته قوانين الديمقراطية الجديدة خليفة الإقطاع والبابوات بعد الإطاحة بهم ظاهراً وقد عبر المتظاهرون في الصين ضد الحكم الشيوعي الملعون بلافتات كتبوا عليها (ليس عندنا من الحرية إلا حرية الجنس) كما سمعته من إذاعة لندن ، لأن إغراق العامة في متاهاته وفي انتشار الخمور والمخدرات والملهيات بجميع أنواعها هو أقوى ضمان لبقاء أصحاب الجاه والتوجيه المنحرف في الحكم واستبعاد الشعوب التي لا تملك حولاً ولا قوة إزاء تلك الأوضاع البائسة .

•• تعقيب :

بغض النظر عن الدعاية الرنانة للديمقراطية نقول نعم بكل وضوح أن الديمقراطية لم تحقق العدالة الاجتماعية ولم تحقق كذلك الحيلولة دون استعباد الأغنياء للفقراء ولم تلحقهم بالطبقة العليا أصحاب الجاه والنفوذ بل أنها أصبحت الوجه الآخر للدكتاتورية القديمة ولكنها تحت ثوب ناعم أو كالنار تحت الرماد .

كما أن طريقتهم للانتخابات تدل على أن الفقراء والضعفاء لا يزالون كما كانوا في عهود الإقطاع فهم لا يستطيعون بذل تلك الأموال الضخمة للدعاية الانتخابات وشراء الضمائر بسبب فقرهم فيبقى المحال مفتوحاً للأغنياء وأصحاب الجاه والمال وحدهم وليس للفقير إلا السير في ركاب رؤساء الحزب الذي يؤيده وقد يغلب هذا الحزب أو ذاك لمجرد الهوى أو الأغراض النبيلة أو الفاسقة فالكل قابل لذلك فيعود نظام الاحتكار والإقطاع في داخل الحزب الواحد ولكنه لا يسمى بتلك التسمية في عهد فن الدعاية .

وإذا كان البرلمان وهو ممثل الشعب فإنه يمكن الالتفاف عليه بكل بساطة ثم انتخاب الشعب لبرلمان آخر وبعد العناء المضني فإنه من السهل حله من قبل رئيس الدولة بأي سبب كان حقاً أو باطلاً وأحياناً يتم حله إذا كان أعضاؤه من ذوي الطموح والرغبة في خدمة الشعب دون النظر إلى خزينة الدولة أو توفير المال فيحصل النزاع القوي بين وجهاء الدولة ومؤسساتها وبين طموح البرلمان وبين وزارة الاقتصاد والمال أو بين البرلمان والبلديات أو بين البرلمان وأية مؤسسة ولو كان دعاية بل وأحياناً يكون القصد من الخلاف

التهريج وذر الرماد في العيون وفق خطط مدرسة سلفاً فتعود السلطة في النهاية إلى حكم الفرد الإقطاعي الجديد وهو رئيس الدولة أو البابا في الزمن القديم ، وتحت عنوان (حصاد الديمقراطية) في مقالة للشيخ «خالد بن فوزي» آل حمزة ، في كتيبة «الديمقراطية في العراء» يذكر أنه في عام ١٧٠٠م كانت النسبة بين الدول الفقيرة والدول الغنية هي (١ : ٣) وهذه النتيجة كانت قبل أن يعرف الناس الديمقراطية ذات النفاق والخداع المشروع في وسائل الوجهاء والساسة ، ولكنها بعد مجيء الديمقراطية كانت النسبة هي (١ : ١٠٠) بفضل الديمقراطية فيما ذكره أحد مفكري الغرب وهو لستر براون [١] .

وذكرت مجلة غربية عن ضابط شرطة في أمريكا اسمه فريد نيكسون في لوس أنجلوس إحصائية الجرائم لعشرة أشهر في عام ١٩٩٠م وحتى أكتوبر منه فإذا هي ٨٠٥ جريمة قتل ١٦٣٣ جريمة اغتصاب بلغ عنها والعادة أن أكثر النساء لا يبلغن عنها ٢٨١١٥ إعتداء مسلح ٣٦٠٦٥ إعتداء إشارة ٢٥٩٨٨٣ سرقة سيارات وسرقات عامة ومخدرات ، أي أنها بمعدل ٣٠ جريمة كل ساعة وبمعدل ٧٢٠ جريمة يومياً في مدينة واحدة أمريكية والفضل للديمقراطية ؟! بل وأصبح التخويف من اللصوص وقطاع الطرق أمراً معترفاً به رسمياً حيث أصبح من المألوف مشاهدة لوحات يكتب عليها في أول الطريق هذا التحذير (ننصحك ألا تبتعد في هذا الطريق لئلا تعرض نفسك للخطر) [٢] أضف إلى هذا ما يئن منه المجتمع الغربي الديمقراطي من

(١) انظر الديمقراطية في العراء ، ص ١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢ ـ ١٣ .

ظهور الناس على طبقات تسودها الأحقاد ومبادئ «مَنْ عَزَّ بَزَّ ، ومَنْ غلب استلب» لخواء ضمائرهم من مراقبة اللَّه عز وجل فأين المكاسب في هذا كما أن الحرية التي كفلتها الديمقراطية إنما تظهر بوضوح كما تقدم في إشاعة الجنس والانحراف والخمور وكل ما من شأنه عدم المساس بالمصالح الحقيقية لأصحاب السلطة والتوجيه المنحرفين كما اتضح أن الحرية التي يتباهى بها دعاة الديمقراطية ,ليست هي الحرية ذات الاتجاه السليم التي ليس فيها ضرر ولا ضرار لأن الحرية الحقيقية هي التي تضمن للإنسان كرامته وسعادته وتجعل عمله كله صالحاً نافعاً وهي الحرية التي فطر اللَّه الناس عليها من الحياء والعفة والرحمة والعدل فلا ضرر فيها ولا ضرار يسلم فيها الإنسان من ظلم غيره سواء أكان ظلماً باللسان فلا غيبة ولا نميمة ولا شهادة زور ولا قذف .

أو كان ظلماً باليد فلا بطش بها بغير حق واضح ولا كتابة فيها بظلم الآخرين وهي الحرية التي تضمن لنفسك حقها عليك وتضمن لأهلك حقوقهم عليك وتضمن حقوق الجميع وصيانة أعراضهم وأنسابهم ونفوسهم وعقولهم وأموالهم وليعلم كل من له عقل أن تلك الحرية لا وجود لها إلا في ظل الإسلام وأما تلك الحرية التي تمنحها الديمقراطية فهي حرية البهائم الجامحة لا حرية لإنسان الذي كرمه اللَّه وشرفه على جميع موجودات الأرض .

الفصل الخامس

الحكم على الديمقراطية

الحكم على الديمقراطية ـ حسب ما ظهر من خلال دراستها ـ أنها اشتملت على جوانب مختلفة وبالتالي فإن الحكم سيختلف تبعاً لتلك الجوانب وسنذكر الحكم عليها من الناحية الإسلامية ومن الناحية الاجتماعية لأوربا .

أما منزلتها في الإسلام : فقد ظهر أن بعض المنخدعين بها قد تصور أنه لا فرق بين الديمقراطية وبين الإسلام بل ويزعم أن مبادئ الديمقراطية هي نفس المبادئ التي دعا إليها الإسلام ولا شك أن من قرأ ما كتبه علماء المسلمين عن الديمقراطية سيلمس الفرق واضحاً لا خفاء فيه والقائل بعدم الفرق أما أن يكون جاهلاً أو مخادعاً أو ملحداً مغالطاً ومن الفوارق الواضحة أن أهداف الديمقراطية وحلولها للمشكلات كلها سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذلك هي غير الأهداف وغير الحلول التي جاء بها الإسلام ، ولا بد أن يحصل الاختلاف بكل بساطة ووضوح حلول الإسلام دائمة وعامة وحلول الديمقراطية مؤقتة ولمصالح . كما أن تعاليم الإسلام جاءت من رب العالمين عالم الغيب والشهادة بينما تعاليم الديمقراطية لم تقم إلا بتجارب البشر وبالاحتجاجات ضد طغيان السلطات الرأسمالية وقبلها الإقطاع وبالمظاهرات الصاخبة والاضطرابات المتوالية إلى أن ترقوا بمفهوم الديمقراطية إلى ما وصلوا إليه في ظاهر الأمر بينما الأمر في الإسلام يختلف تماماً ذلك أن المسلمين ليسوا في حاجة إلى سلوك مثل تلك المهامة

ولا يحتاجون إلا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ليجدوا أنفسهم في غاية السعادة وفي غاية التكافل الاجتماعي بمعناه الحقيقي وفي أتم ما يكون من الأحكام العادلة الرحيمة التي يطبقها المسلم على نفسه قبل أن يطالب بها غيره ومن تصور هذا الفرق هان عليه معرفة الفرق بين الإسلام وبين الديمقراطية كما أن تعاليم الإسلام تجعل المرء يشعر ويحس بمسئوليته أمام اللَّه تعالى وتوجد في داخل نفسه المراقبة الذاتية للَّه تعالى التي لا تصل إليها أي قوة غير قوة مراقبة اللَّه تعالى التي يتغير بموجبها سلوك الإنسان نحو معاملته لربه ومعاملته لإخوانه المسلمين بل ومع غير المسلمين في تنظيم بديع لن يصل إليه بل ولن يقاربه أي تنظيم بشري هو عرضة للنقض والتغيير بين كل فترة وأخرى وفرق بين سلوك ينتج عن مراقبة اللَّه وخوفه وسلوك ينتج عن غيره فما من شخص يزعم أن الديمقراطية هي التي تحقق السعادة للشعوب أو أنها أرحم من التعاليم الربانية ما من شخص يزعم ذلك إلا وتجده إما جاهلاً جهلاً مركباً وإما ملحداً لا يعرف عن حقيقة الإسلام شيئاً أو مخدوعاً بشعارات الديمقراطية البراقة لم يتعظ بما يشاهده من حال بلدان دعاة الديمقراطية ,كما نجد كذلك أن تعاليم الإسلام لا تجيز الفصل بين الدين والدولة بل الدين الإسلامي هو الشامل والمهيمن على كل أمور الحياة وما لم تصدر عنه فإنها تعتبر من الضلال ومن اتخاذ البشر بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللَّه تعالى بينما تعاليم الديمقراطية قائمة على الفصل بينهما فرجال الدين مهمتهم تنحصر في أماكن العبادة والمواعظ الدينية ونحو ذلك ورجال الدنيا لا حد لمهماتهم فهم المشرعون والمنفذون ومعنى هذا أن الإسلام والديمقراطية الغربية ضدان هنا فإين التوافق الذي يدعيه المغالطون .

كما أن الديمقراطية لا تعتمد الحكم بما أنزل اللَّه وتنفر منه لأنها في الغرب قامت من أول يوم على محاربة الأديان وكل شيء فيها يتصل بها وأن الحكم فيها يجب أن يتم على تشريع الشعوب والبرلمانات ورؤساء الدول وقوانينهم مقدمة على الحكم بما أنزل اللَّه تعالى بينما الإسلام يعتبر هذا خروجاً عن الدين وكفراً ومحادة للَّه ورداً لشرعه خصوصاً ممن بعلم هذا الحق ولكنه يرفضه ويفضل حكم الجاهلية عليه كما أن في الديمقراطية الوصول إلى الحكم مشاع لكل أحد ومن حق المرأة أن تصل إلى القضاء والتمثل الدبلوماس والجندية والرئاسة وغير ذلك بينما الإسلام يجعل الشخص المناسب في المكان المناسب فجعل للرجال مجالات وجعل للنساء مجالات أخرى تتناسبها ولهذا فإننا نجده لم يجز للمرأة أن تتولى الإمامة العظمى لأمور كثيرة تذكر في كتب العلم ولا يجوز لها مزاحمة الرجال في حق الانتخابات .

- في الديمقراطية لا حرج في أن يتولى الحكم أفسق الفاسقين وأكفر الناس لا حرج أن يتولى الحكم على المسلمين وغيرهم ما دام قد فاز ـ كما يصفون ـ في الانتخابات بينما الإسلام لا يبيح للكافر أن يحكم المسلم أو يشاركه في الحكم ولا يجيز كذلك للمسلمين أن يولوا ابتداءاً شخصاً معروفاً بالفسق والفجور بل عليهم أن يختاروا أصلح الموجودين وأن يجتهدوا في ذلك ما أمكن .

- في الديمقراطية الشورى تتم عن مشاورة عامة الشعب دون تخصيص أهل الرأي والعلم فتحصل فوضى وتدخلات الأهواء ويصبح الحق ما نادت به الأكثرين خيراً كان أم شراً ، بينما الشورى في الإسلام تعتمد على مجموعة هم أفاضل الناس وفقهائهم ـ كما سيأتي تفصيل هذا .

- في الديمقراطية لا حدود أخلاقية الحرية الفرد والجماعة ولا مكان للفضيلة ولا حاجز عن الفواحش وسوء المعاملات والكفر الصريح في الديمقراطية تحت مسميات عديدة حرية الكلمة الحرية الشخصية ، حرية الفكر ، حرية التملك ، حرية التدين ... إلخ .

بينما الإسلام يجعل للحرية طريقاً واضحاً يحقق مصلحة الفرد والمجتمع في أن واحد بحيث لا تختلط الحريات الفوضوية الظالمة بالحرية الحقيقية التي تحقق مصلحة الجميع وتؤلف بين القلوب .

- في الديمقراطية الحث على تفرق الناي وقيام الأحزاب المختلفة ومعارضة بعضهم بعضاً ونشوب المكائد بعد ذلك واحتقار وسب بعضهم بعضاً وصار مثلهم كمثل اليهود والنصارى فيما أخبر اللَّه عنهم : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ [1] .

فإن كل حزب يهون شأن الحزب الآخر ولا يهتم كل حزب إلا بكيف يكسب أصوات الناخبين ومن هنا تكثر الوعود الكاذبة والتنجيح بكثرة الإنجازات التي ستتم حينما يتولى الحكم فلان . بينما الإسلام لا يأمر بذلك بل ينهى عن التفرق والكذب والخداع ويأمر بالحب في اللَّه والبغض فيه والعمل لمصلحة الإنسان لنفسه وبغيره واحتساب الأجر عند اللَّه في تحمل المسئولية وفي أدائها وهذا ما تفتقده الديمقراطية الغربية .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١١٣

الفصل السادس

هل المسلمون في حاجة إلى الديمقراطية الغربية ؟

إن الجواب عن هذا السؤال لا يحتاج إلى تفكير من قبل أي مسلم لم تدنس فطرته الشبهات . لقد قامت الحياة في الدول الغربية على المناداة بالديمقراطية سلوكاً ومنهجاً في كل شؤون حياتهم وصار كل سياسي يتباهى بتطبيقها والرغبة في تصديرها والواقع أنه قد يكون للغرب ما يبرر كل هذا السلوك لأنهم ليسوا على شيء فلم يعرفوا من النظم إلا هذا النظام الذي اكتشفوه وفرحوا به لعدم معرفتهم بما هو أفضل منه وهو الشرع الحنيف الذي أكمله اللّه ورضيه لنفسه ولعباده ديناً وسلوكاً ,وإذا كان للغرب والنظم الجاهلية ما يبرر هذا السلوك فإنه لا مبرر لانسياق الكثير من النظم الإسلامية ومن بعض المفكرين من المسلمين إلى اتباع أولئك بعد أن من اللّه عليهم بأفضل دين وأكمله وأفضل نظام اجتماعي وأعد له ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (٥٠) ﴾ [(١)] ، وإحكامه غاية العدل ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٦٥) ﴾ [(٢)] . يتركون هذا المعنى الفياض ثم ينساقون إلى نظام ثبت فشله ويتركون نظاماً صالحاً إلى يوم القيامة مضى عليه سلفهم فكانوا مصابيح الدجى ومشارق الأنوار .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٥

إن الشرع الإسلامي يستهوي بعدله ورحمته وشموله حتى أعداء الإسلام فإذا بهم ينساقون إليه مذعنين بل ويصبحون من جنوده البواسل حينما قارنوا بين ما جاء في الإسلام وبين النظم الجاهلية التي تقود البشر من شقاء إلى شقاء لأنها من صنع البشر الذين قصرت أفهامهم والتبست عليهم الأمور وهؤلاء حجة على أولئك الهاربين إلى الديمقراطية دون أن يعلموا شيئاً عن الإسلام وعن تعاليمه الشاملة لقد انبهر الكثير من المسلمين ببريق الحضارة الغربية وصناعاتها المادية فظنوا أن ذلك إنما هو بسبب ما عندهم من الأنظمة ولم يفطنوا إلى أن سبب ذلك إنما يعود إلى نشاط الغرب و شحذ هممهم وإصرارهم على اكتشاف خيرات الأرض والإستفادة منها وطرقهم لآلاف التجارب دون كلل أو ملل مهما واجهتهم من المصاعب كلما فشلوا في تجربة صناعية زادهم ذلك إصراراً على إعادة الكرة واللَّه عز وجل لا يضيع عمل عامل من ذكرٍ أو أنثى فأعطاهم اللَّه من الدنيا على قدر عزمهم بينما المنتظرون من المسلمين للحضارة الغربية يغطون في سباتهم ، فلما أفاقوا على هدير مصانع الغرب وإنتاجهم ألقوا باللائمة على الإسلام ظلماً وزوراً وظنوا أن هذا التبرير يبقى على ماء وجوههم فإذا بهم لا ظهراً أبقوا ولا أرضاً قطعوا فلا هم بقوا على إسلامهم وتلافوا أخطاءهم ، ولا هم لحقوا بالدول الغربية في إنتاجها المادي . وكان يجب عليهم أن يعرفوا أن الإسلام الذي عاش عليه ملايين البشر في القرون الغابرة على أحسن حال وأعدل نظام لا يزال كذلك على مر الدهور عاش عليه البشر قبل أن يظهر قرن الديمقراطية التي يريدون إحلالها محله والتي قامت من أول أمرها على محاربة الدين وخداع الجماهير للوصول إلى الحكم بأي ثمن يكون واعتبار ذلك فوزاً أو مغنماً بينما الإسلام لا

يجيز الخداع ولا النفاق ولا يجيز الاحتيال على الناس وابتزازهم لا في دينهم ولا في دنياهم بل يعتبر الوصول إلى سدة الحكم أمانة عظيمة حملها ثقيل ومزالقها خطيرة ولا يعتبر الوصول إليه فوزاً كما نسمعه في تطالب الديمقراطيين للوصول إلى الحكم فتذكر أخي القارئ ما قاله أبوبكر رضي الله عنه حينما ولى الخلافة : «لقد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن اعوججت فقوموني» ، وكان عمر دائم التأوه من حمل ثقل الخلافة وكان أسلافنا من أعلام الإسلام يفر أحدهم من أخذ الحكم كما يفر أحدنا من الأسد أو أشد لا جهلاً به ولا خوفاً من مشقته إنما هو الخوف من اللَّه عز وجل أن يقع فيما لا يوافق الحق فإذا تم انتخاب الخليفة أسدوا إليه النصيحة وآزروه راضين مطمئنين بحكمه لا يجوزون عصيانه ولا الخروج عليه ولا تشكيل حزب معارض له ما دام يشهد الشهادتين ويطبق أحكام الإسلام حتى وإن كانت له معاصي وكبائر فهو محل طاعتهم وأمره إلى اللَّه مع محاولتهم بيان الحق وإسداء النصيحة له .

حتى إذا جاءت الديمقراطية فإذا بأقطابها يتهارشون عليها ويخادعون الناس وينافقون ويعدون بما لا يفعلون ـ وإذا بالناس غير الناس والقلوب غير القلوب ـ وكأن حال الإسلام والمسلمين يقول :

ذهب الذين إذا رأوني مقبلاً * هشوا إليّ ورحبوا بالمقبل**

وبقيت في خلف كأن حديثهم * ولغ الكلاب تهارشت في المنزل**

إن الحاكم في الإسلام مؤتمن مصالح المسلمين وليس له أكثر من كونه منفذاً لا مشرعاً لأن التشريع إنما هو للَّه عز وجل وبذا يضمن الحاكم

والمحكوم على حد سواء الخوف من الوقوع في الجور أو انتشار الفساد وتفكك المجتمع والفرقة التي تنشأ في الغالب من البعد عن هدي اللّه عز وجل وهدي نبيه الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه وهذا بخلاف الديمقراطية التي يكون الحاكم فيها مشرعاً من دون اللّه تعالى ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)** ﴾ [(١)] .

﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾ [(٢)] .

﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)** ﴾ [(٣)] .

فإذا طبق الشعب والحاكم هذه المفاهيم كانوا صخرة قوية تتحطم عليها كل آمال الحاقدين وأعداء الملة وعاشوا في سعادة ووئام كأنهم أسرة واحدة .

والحاصل أن ظهور الديمقراطية في الغرب كان أمراً حتمياً في مواجهة نظام الإقطاع وصرامة رجال الكنيسة واستعبادهم للشعوب وإذ لا لهم لكرامة الإنسان إذا كانت الطبقة الغنية تستبعد الطبقة الفقيرة بل كانوا يعتبرون الفقراء جزءاً من أملاكهم وحينما جاءت الأنظمة الاشتراكية والشيوعية ازداد الأمر سوءاً وازداد استعباد الطبقات المسيطرة على المستضعفين

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٤٠

(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٥

(٣) سورة النساء ، الآية : ٥٩

فلما جاءت الديمقراطية الغربية نظرت إليها الشعوب المستعبدة على أنها هي الأمل لخلاصهم مما هم فيه من الشدة ورأوا أن الالتفاف حول النظام الديمقراطي خير من القبضة الحديدية في النظام الإقطاعي أو البابوي الجبار أو الشيوعي البغيض ولهم عذرهم تجاه ذلك فإن تلك الأنظمة كانت شراً محضاً لا خير فيها وكان استبدالها أمراً يفرض نفسه ومبرراته واضحة إلا أنهم لم يهتدوا إلى الحق وإلى النظام الصحيح الذي ينقذهم مما هم فيه من الشقاء .

•• أثرها على الأوربيين والحكم عليها :

يتبين الحكم عليها من خلال جانبين هما :-

١ ـ الجانب الإيجابي على الأوربيين .

٢ ـ الجانب السلبي عليهم .

أما الجانب الإيجابي : فقد عرفت حال أهل أوربا حينما كان رجال الدين وزعماء الإقطاع هم المسيطرون ، ومدى ما قاسته الشعوب على أيديهم من أنواع الظلم الفادح والغبن الفاحش . وأن أولئك الطغاة لم يستيقظوا إلا على هدير الجماهير الصاخبة المطالبة برفع تلك الأغلال والأثقال بعد أن أفاق أولئك البؤساء ورأوا أوضاعهم المتردية وأحوالهم المعيشية المخزية فثاروا على تلك الأوضاع ـ وهم على صواب في ذلك ـ غير ما أخذ عليهم من أنهم لم يتوجهوا الوجهة الصحيحة التي تضمن لهم الخروج النهائي عن حكم البشر بعضهم لبعض واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللّه تعالى كما

تبين من خلال الدراسة السابقة وقد عرفت أنهم أخذوا ينبشون عن أمجادهم السابقة علهم يجدون الخلاص فكان ذلك الخلاص هو العودة إلى الديمقراطية القديمة التي أماتها رجال الدين النصراني حينما كانت الغلبة لهم فكان أن استبدلوا بجاهليتهم القديمة جاهليتهم الحاضرة وتحت هذه الدعوى الخيالية ـ حكم الشعب نفسه بنفسه ـ بدءوا يرتبون لترقيتها وتطويرها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم بل واجتذبت إلى صفوفها أعداداً غفيرة بعضهم ما كان في حاجة إلى السير في ركابها كما كان الأوربيون في حاجة إليها حقيقة. وأن الأوربيين بدءوا في تنظيم حياتهم من نقطة الصفر كلما حققوا مكسباً تطلعوا إلى غيره ولا يأخذونه إلا بعد جهاد مرير وتلك المكاسب استخرجوها بقوتهم لم تمنحهم إياها الديمقراطية ابتداءاً كما يتصور البعض أن الديمقراطية مذهب نشأ في صورته الحالية وأنه لا ينقصه إلا التطبيق ومهما كان الأمر فإن ما وصلت إليه الشعوب الأوربية رغم نقصه يعتبر نصراً مؤزراً لهم وفاتحة طيبة للخلاص من حكم الإقطاع والبابوات الظالمين وبعض الشر أهون من بعض كما تقدم ذكره وما تقدم يمكن أن يعتبر جانباً إيجابياً في الديمقراطية بالنسبة للغرب رغم ما فيه من سلبيات .

أما بالنسبة للجانب السلبي منها : فقد تبين من خلال الدراسة السابقة أن الديمقراطية تحمل في ظاهرها بريقاً خلاباً ولكن في حقيقتها هي عكس ذلك .

١ ـ أما بالنسبة لموقف السلطة وأصحاب الجاه والثراء فقد اتضح أن هؤلاء

عرفوا كيف يحتالون على الشعوب ويوجهونهم لمصالحهم الخاصة قبل مصالح الشعوب الحقيقية بحيث يوهمون الشعوب أنهم حصلوا على كل ما كانوا يطالبون به وكان الرابح الحقيقي هم السلطة .

٢ ـ أما ما تحقق في ظل الديمقراطية من التشجيع على الفساد الأخلاقي تحت تسمية الحرية الشخصية وما تحقق لهم من الدعوة إلى الإلحاد تحت تسمية حرية الكلمة أو حرية الأديان فإنه لا يعتبر مكسباً حقيقياً بل الصحيح أنه خسارة فادحة وأن سموة مكسباً وهذا باعتراف عقلائهم .

٣ ـ ما تحقق من الابتعاد التام عن الالتزام بالدين أو التحاكم إليه إنما هو رجوع إلى الجاهلية التي يزعمون أن الإنسان البدائي كان يعيشها في حقبة ما قبل التاريخ كما يسمونها ، فأي مكسب للشعب في رجوعه إلى تلك الحال .

٤ ـ ما تحقق كذلك من نسيان اليوم الآخر وما أخبر اللّه به من الثواب والعقاب وما حل محله من التكالب على المتع الرخيصة والسير بلهفة للوصول إلى الشهوات والزخارف الجذابة التي تنتجها مصانع الشرق والغرب إن هو إلا ضلال وعبادة للدنيا وإرجاع للإنسان إلى الحيوانية البهيمية .

٥ ـ ما تنادي به الديمقراطية من المبادئ البراقة ينقضه أنها لم تحقق للناس الألفة والمحبة والتراحم الذي جاءت به الشريعة الإسلامية فلا يزال السلب والنهب والاغتصاب وكثرة الجرائم هي السمة

الظاهرة في الأنظمة التي تحكم بالديمقراطية فأين المكاسب في مثل هذه الأعمال ، وأي أمن سيحصل في نظام من أبرز أسسه التي قام عليها تشريع البشر للبشر المتمثل في مجلس النواب وغيرهم من المشرعين من دون اللَّه بقوانينهم التي تقوم على الهوى ومحادة اللَّه فإن الديمقراطية قد كفلت لهم هذا الحق الذي أخذوه بغير حق والذي يعتبر من اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللَّه فأي مكسب للإنسان المكرم في ظل هذه الاتجاهات الباطلة وأي مكسب سيجنيه الشخص من قانون الحرية الشخصية التي أتاحت كل الفواحش وأنواع الإجرام تحت دعوى حرية الشعب ، ومن الغريب أن تضمن الديمقراطية الحرية في كل شيء إلا حرية التمسك بالدين الإسلامي ولقد صدق المتظاهرون في بريطانيا حين خرجوا يصيحون في الشوارع «لا حرية عندنا إلا في الجنس» ذلك لأن السفور والزنا واللواط وشرب الخمور والتبجح بالكفر كلها أمور ضمنها قانون حرية الديمقراطية التي يتبجح بها الغرب والمعجبون بهم من الدول التي يسمونها (الدول النامية) أو على الأصح (النايمة) تظن أن تلك الجرائم مكاسب .

٦ ـ لم يتحقق في الديمقراطية تكريم الإنسان التكريم اللائق به وإنما تكريمه يتم حسب الأمزجة ومن خلال اعتبارات كثيرة بينما الإسلام يكرمه في كل أحواله سواء أكان فقيراً أم غنياً قبيحاً أم جميلاً وهذا هو المكسب الحقيقي الذي يجب أن يعض الإنسان عليه بالنواجذ فإن

الإسلام يكرم الإنسان حياً وميتاً يكرمه في حياته فلا يجوز الاعتداء عليه لا في ماله ولا في نفسه ولا في عرضه إلا بشروط ولا يجوز تعييره بذنب تاب منه ويكرمه وهو ميت فلا يجوز أخذ شيء منه ولا الاستهانة بقبره بل ولا يجوز مجرد الجلوس على قبره ولا أن يذكر بشرٍ إلا لمصلحة راجحة ولا يجوز إخضاعه واستعباده إلا لربه سبحانه ولا أن ينفذ تشريع أحد من البشر لم يرد به تشريع من عند خالق البشر ، بينما الديمقراطية قائمة على تشريع الناس بعضهم لبعض متمثلة في مجموعة من الناس يسمون شرعيين أو مجلس النواب أو البرلمان ثم يسمون ذلك لجهلهم مكاسب ديمقراطية .

٧ ـ ما تمدح به دعاة الديمقراطية من أنهم ضمنوا للشعوب حق التعبير عن الرأي مهما كان فإنه قد اتضح من التاريخ الأوربي أن هذا الاتجاه لم يتحقق بطريقة صحيحة إذ أنه لا يزال لأصحاب الجاه والحكم والثراء سيطرتهم المباشرة أو غير المباشرة على كل رأي تتخذه الجماهير ، فلم يصفو المشرب لهذا المكسب كما يجب له أو كما يتصور البعض بدليل عدم جواز وصول المعارضة إلى المساس الحقيقي بمصالح السلطة الحاكمة كذلك فإن حق التعبير عن الرأي هل ينفذ للجماهير ؟ ما أكثر ما يعبرون عن أراء ويتظاهرون من أجلها ويضربون عن العمل لتنفيذها ولكنها لا تنفذ لهم وهو ما نسمعه في كل يوم من إذاعاتهم وما نقرأه في صحفهم وهذا الأمر ليس بسر إضافة إلى أن حق التعبير إنما كان بتخطيط ما سوني لضرب عقائد من يسمونهم بالجوييم .

الفصل السابع

الديمقراطية والشورى

المقصود بهذا العنوان هو تفصيل الأمر في قضية العلاقة بين النظام الديمقراطي وبين نظام الشورى في الإسلام . هل هما بمنزلة واحدة أم أنهما يختلفان اختلافاً بعيداً أو قريباً ؟ سنرى ذلك من خلال ما يلي :

أما الديمقراطية فقد تقدمت دراستها وتفصيل أمرها ، وأما بالنسبة للشورى فإليك بيان أهم ما يتعلق بها ليتضح لك من خلاله معرفة الفرق بينهما .

معنى الشورى : تتلخص معاني الشورى في أنها محاولة إجماع الآراء حول القضايا المهمة ومعرفة الصحيح منها من مجموع تلك الآراء وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في أكثر من موضع ولجوانب مختلفة فيها الثناء والامتنان والإرشاد .

- ففي بعض الآيات الثناء من اللّه تعالى على المؤمنين حينما تتآلف القلوب وتتحد الأهداف ويمثل الجميع جسماً واحداً .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (٣٨) ﴾ [(١)] ، أي لا ينفرد أحد برأي أو يستبد به دون الآخرين ، قال ابن كثير رحمه اللّه : «أي لا يُبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم» [(٢)] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٣٨

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١١٨

- وفي بعضها أمر من اللّه تعالى لنبيه ﷺ بأن يشاور أصحابه وأن هذه المشاورة منهم له هي رحمة من اللّه تعالى عليه واصطفائه بالأخلاق الفاضلة قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾[(١)] .

- وفي بعضها أمر وإرشاد للمؤمنين في حال الخصومة بينهم أن يلجأوا إلى التشاور فيما بينهم للوصول إلى الأمر الذي يصلح به كلا الفريقين فقال تعالى في شأن النزاع بين الزوج وزوجته : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾[(٢)] .

وكان الرسول ﷺ دائماً يشاور أصحابه امتثالاً لأمر اللّه تعالى له وكان يأخذ بالرأي السديد من أي شخص كان إذ أن طالب المشورة إنما يبحث عن الرأي الذي يبدو أنه يحقق المصلحة فقد شاور الرسول ﷺ أصحابه في غزوة الخندق ، وفي غزوة بدر ، وفي أسارى بدر ، وفي غزوة أحد ، وفي غيرها من المواقف الكثيرة .

والسؤال الوارد هنا هو هل هذا المفهوم للشورى في القرآن الكريم وفي السنة النبوية هو نفسه المفهوم الذي تحمله الديمقراطية؟ وما هو الدافع لكثير من المسلمين القول بأن الشورى في الإسلام هي نفس مفهوم الديمقراطية ؟

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٣

والواقع أنه انخدع كثير من المسلمين بنظام الديمقراطية خصوصاً جانب الانتخابات منها حين زعموا أن ذلك النظام هو مما دعى إليه الإسلام بل وفرضه على المسلمين ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولا تنسَ كذبة الاشتراكية الإسلامية حينما افتروا وادَّعوا أن لها صلة بالإسلام وكذا الديمقراطية وسبب وقوعهم في هذا الخطأ هو ظنهم أنه لا فرق بين ذلك الانتخاب الغربي وبين مسألة الشورى التي دعى إليها الإسلام في قول اللَّه عز وجل : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وهذا يدل على :

١ ـ جهلهم بحقائق الإسلام .

٢ ـ جهلهم بما تحمله الديمقراطية من أخطار على الدين وأهله .

٣ ـ وما تحمله كذلك من مساوئ في طريقة الديمقراطية في الانتخابات .

فإن نظام الانتخاب الديمقراطي هو أقرب ما يكون إلى الفوضى إذ هو قائم على صياح الجماهير لمن يختارونه بينما الشورى في الإسلام قائمة على اختيار أهل الحل والعقد من المسلمين لأفضل وأكفأ الموجودين في وقت أخذ البيعة كما أن النظام الديمقراطي قائم على الدعاية والوعود الخلابة من قبل المرشح لنفسه وما إلى ذلك دون أن يكون لبعضهم سابقة خير أو شهرة بالعلم والتقوى في كثير منهم بل يتكل على العامة. والعامة ـ كما يقال ـ لهم عقل واحد يتتابعون لترشيح الشخص بفعل تأثر بعضهم ببعض وبما يقدمه من الرشاوى .

أما نظام الشورى في الإسلام فهو خال من ذلك كله فلا صياح للجماهير ولا دعايات كاذبة ولا رشاوى لاختيار المرشح وإنما يكتفي فيه بموافقة أهل الرأي والصلاح لاختيار أفضل الموجودين للحكم والبقية يكونون سنداً للحاكم ومستشارين أمناء وليس له ولا لهم هدف في تقوية حزب على حزب ولا آراء على آراء ولا انحياز لفئة دون أخرى وإنما همهم كله متوجه لجلب مصلحة الجميع ودفع الضرر عن الجميع في حدود الشرع الشريف ، بل وقد ورد في السنة النبوية ما يفيد أن طالب الولاية لا يُعطاها وأن من طلبها وُكلَ إليها ومن لم يطلبها وأعطيت له أُعينَ عليها ، فكيف يُقال بعد ذلك بأنه لا فرق بين الديمقراطية وبين نظام الشورى في الإسلام ؟! ألا يوجد فرق بين نظام يعتبر الوصول إلى السلطة مغنماً وفوزاً وبين نظام يعتبر الوصول إلى السلطة همّاً ومسئولية كبرى في الدنيا والآخرة وبين نظام يقوم على الرشوة والوعود الخلابة ونظام لا يجيز ذلك بحال ؟

وهنا مسألة أحب أن أنبه إليها لضرورتها وهي هل ما يظهر من التشابه في بعض الأمور بين الديمقراطية وبين بعض المفاهيم في الإسلام يجعلها في درجة واحدة ؟

والجواب أن ما يظهر من التشابه بين النظام الديمقراطي وبين ما جاء به الإسلام في بعض الجوانب ,الواقع أن هذا لا يجيز القول بأنه تشابه حقيقي في كل ناحية ولا يعطي الديمقراطية سبيلاً إلى الاختلاط بمبادئ الإسلام الناصعة بل هو تشابه ظاهري يصح أن نسمي ما جاءت به الديمقراطية قشور بالنسبة لتعاليم الإسلام أو صدى من بعيد له فلا يجوز القول باستواء المكاسب في الديمقراطية وفي الإسلام لبعد حقيقة كل منهما عن الآخر .

ومن العجب أن تمدح التعاليم الديمقراطية لأنها اكتشفت تلك الجوانب ولا يمدح الإسلام ويعترف له بالفضل وهو السابق لها بسنين عدداً أليس الفضل للمتقدم ؟ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [1] .

لقد قل الإنصاف للإسلام حتى عند الكثير ممن ينتسب إليه من العاقين له الذين يحاولون أن يقدموا تعاليم الديمقراطية على تعاليمه ملتمسين أنواع الخدع والاحتيال لتنفيذ ذلك في نفاق تام وأساليب مختلفة في ديار الإسلام وبين ظهراني المسلمين وقد اتضح بصورة جلية أن أكثر ما يجتذب الناس إلى الديمقراطية الغربية إما الهرب من أحكام الدين وتكاليفه الشرعية إلى الفوضى الجماهيرية التي يجدون فيها الحرية الفوضوية بكامل صورها وإما بسبب ما تنادي به الديمقراطية من الرجوع إلى الشعب في الأحكام وهؤلاء يحبون هذا الجانب بحجة الحد من سلطان الحاكم وجبروته وهم جادون في ذلك .

أما القسم الأول فهم الغافلون الفوضويون من الجهال ، وأما القسم الثاني فلعلهم لا يعلمون أن الإسلام لا يجعل الحاكم هو السلطان المطلق دون الرجوع إلى أحد . لا يعلمون أن اللَّه تعالى قد أخبر أنه يجب أن يكون أمر المؤمنين شورى بينهم وكما أسند اللَّه تعالى الحكم في بعض القضايا إلى أهل الرأي والمعرفة كالإصلاح بين الزوجين وما يحكم به الحكمان وكتقدير صيد المحرم وغير ذلك مما سبق فيه الإسلام الديمقراطية الغربية على أنه إذا وجد حاكم مسلم يتصف بالجور والطغيان وعدم الخوف من اللَّه تعالى وعدم استطاعة أحد من الناس مراجعته أو الحد من طغيانه فهذا لا يعني أنه لا حلّ أمامنا إلا إلتزام الديمقراطية الغربية ، بل الحل هو القيام

---

(١) سورة النمل ، الآية : ١٤

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمطالبة بتطبيق الحق جماعةً وأفراداً والوقوف الجماعي ضد أي تسلط بالباطل ببيان الحق وبذل النصح بصدق وإخلاص وسؤال اللَّه له الهداية إلى غير ذلك من الوسائل المتاحة حتى يصل التغيير إلى أحسن أما إذا لم يكن هناك تغيير وإصلاح فإن المناداة بالديمقراطية لا يعطي الحل لهذه المشكلة أو غيرها حتى ولو زعم القائمون على السلطة بالتزامها فإن ذلك لا يجدي شيئاً مع الإصرار على عدم التطبيق سواء تطبيق الإسلام وهو الحل الحقيقي أو تطبيق الديمقراطية وهو الحل الظاهري وكلا الحلين لا يأتيان تلقائياً للناس ما لم يكن هناك قائمون عليه وجادون في تطبيقه كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (١) .

واللَّه تعالى عادل يحب العدل ولا يرضى بالظلم ولا يحب الصبر عليه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** (٤٤) ﴾ (٢) ، فأي لوم يمكن أن يوجهه الخاملون الكسالى إلى الإسلام مع تفريطهم وعدم يقظتهم للتمسك بدينهم الذي يعيشون في ظله آمنين مطمئنين أخوة متحابين «**كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» (١) ، ثم يفضلون عليه الأنظمة الوضعية البشرية التي تفسد أكثر مما تصلح أو يزعمون أنهما في درجة واحدة مع الإسلام فإنه يجب على هؤلاء أن يوجهوا اللوم إلى أنفسهم لا إلى الإسلام .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١

(٢) سورة يونس ، الآية : ٤٤

(٣) صحيح البخاري جـ ٥ ص ٢٢٣٨ ومسلم جـ ٤ ص ١٩٩٩

الفصل الثامن

حكم من يتمسك بالديمقراطية الغربية

أما بالنسبة للحكم على من يتبنى الديمقراطية ويعتقدها صواباً فالذي يظهر أن المعتقدين بها ليسوا على اتجاه واحد فقد اتضح أنهم ينقسمون إلى أقسام :

١ ـ منهم من ينادي بها عن طوية فاسدة ونية مبيتة كراهية للإسلام وتفضيلاً لها عليه وهؤلاء أشرار لا خير فيهم لدينهم الإسلامي ولا لأمتهم المسلمة وإنما هم أعداء مثلهم مثل سائر أعداء الإسلام من المنصرين والمتشرقين .

٢ ـ ومنهم من يدعو لها وينادي بالالتزام بها عن جهل وحسن نية في الأغلب مع اعتقاده أن الإسلام وتعاليمه خير منها وأن فائدتها حسبما يتصور أنها تحط من كبرياء الطبقة العليا وتفسح مجال أمام الطبقات كلها لتنادي بآرائها في الإصلاح دون خوف محاسبة أحد لهم أو غير ذلك وهؤلاء جهال يبين لهم الحق وأخطار هذا المذهب على الإسلام والمسلمين .

٣ ـ وبعضهم ينادي بها لاعتقاده أنها لا تعارض تعاليم الإسلام خصوصاً بعد أن أقنعته الدعايات الغربية بذلك .

٤ ـ وصنف يعتقد أنها تصلح في إنعاش المجتمعات اقتصادياً وثقافياً .

٥ - وصنف يردد ما يسمعه فإذا سمع مدحاً لها نادى بها دون أية معرفة أو إلمام بمفاهيمها وأهدافها .

وكل هؤلاء يبين لهم الحق ثم يحكم عليهم بعد ذلك حسب مواقفهم منه. ومن هنا يدرك القارئ أن الحكم لا بد وأن يختلف فيهم على حسب معرفتهم ومعتقداتهم وكلهم يشملهم اسم الإسلام إلا من أعرض عن شرع اللَّه تعالى وأقيمت عليه الحجة من كتاب اللَّه وسنة نبيه وأقوال علماء الإسلام فعاند وأصرَّ وردَّ النصوص وفضل الأحكام الوضعية على الأحكام الشرعية فهذا غير مسلم على أنه يجب الحذر من التساهل في التكفير فإنه أمر خطير خصوصاً تكفير المعين فإنه للسلف في التكفير تفصيلات لابد من معرفتها ومعرفة تفريقهم بين الكفر العملي والكفر الاعتقادي ففي هديهم واقتفاء طرقهم الخير كله .

الفصل التاسع

نظرية السيادة

وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : ما هي نظرية السيادة ؟

المبحث الثاني : أساس قيام نظرية السيادة .

المبحث الثالث : ما مدى صحة نظرية سيادة الشعب .

المبحث الرابع : المسلمون ونظرية السيادة .

المبحث الخامس : حكم السيادة في الإسلام .

المبحث الأول

ما هي نظرية السيادة

١ ـ هذه هي إحدى النظريات التي نشأت في أوربا للتفلت من حكم الدين ـ النصراني ـ وقبضة القائمين عليه ممن يسمونهم رجال الدين .

٢ ـ وهي ـ حسب تصوري ـ تصلح أن تكون تفسيراً وإيضاحاً للمقصود بالديمقراطية الغربية .

٣ ـ قام أصحاب هذه النظرية يطالبون بالسيادة في الحكم حينما أحسوا ببدء تفكك سلطة البابوات والإقطاعيين وبوجود الفراغ بل والفوضى في قضية السلطة والمرجع النهائي فيها إذ أصبحت الأوضاع في أوربا في تلك الحقبة التي انتفضت فيها لترويج كابوس الكنيسة وغبارها ـ أصبحت كالوضع الذي كان يعيشه الجاهليون قبل الإسلام والذي يعبر عنه بشريعة الغاب أو مَنْ عَزَّ بَزَّ ومَنْ غلب استلب .

٤ ـ قام دعاة السيادة يطالبون بإسناد الحكم والتشريع إليهم بعيداً عن تدخل الدين أو رجاله في ذلك وكانت المطالبة في ظاهر الأمر باسم الشعب وحده وتعاظمت هذه الدعوى إلى الحد الذي جعل من سلطة الشعب إلهاً جديداً يجب الرضوخ له وصار الجريئون منهم يقولون لا حكم إلا للشعب ولا إرادة إلا إرادته ولا شرع إلا ما شرعه بينما يقول المنافقون منهم بنفس العبارات إلا أنهم يضيفون فيها إرادة اللّه من إرادة الشعب وأحياناً العكس .

٥ ـ وشعر الأوربيون أنهم في حاجة شديدة إلى تحقيق هذا النهج الجديد والسير فيه إلى نهاية الخط علَّهم يجدون ضالتهم المنشودة ثم راقت هذه النظرية في عيون غيرهم من الناس بل حتى عند بعض البلهاء من المسلمين الذين يرددون تلك العبارات كما تردد الببغاء صدى الأصوات وجهل هؤلاء أنهم ليسوا في حاجة إلى تلك النظرية لعدم وجود ما يقتضيها في ظل الإسلام الذي يعتبر الناس كلهم عبيداً لخالقهم وبالتالي فلا سيادة لأحد على الحقيقة إذ السيادة كلها لحكم اللَّه تعالى العادل الذي لا تتطرق إليه المحاباة أو المصالح أو الظلم .

٦ ـ لقد أراد دعاة السيادة في أوربا أن يخرجوا عن أوضاعهم المتردية والطغيان القائم عليهم ـ وكانوا على صواب في ذلك وغاية الإنصاف لأنفسهم ـ ولكنهم لم يهتدوا إلى الحل الصحيح الذي يأمنون معه الانتكاسة مرة أخرى ولهذا ما أن تم لهم الوصول إلى تحقيق مطلبهم ـ وهو تنصيب الشعب ـ إلا وكانت أولى ثماره بروز طغيان جديد وطغاة جدد لم تتغير إلا التسمية فقط وهم الوجهاء وأصحاب السلطة الجديدة وهذا أمر بدهي إذ كلا الوضعين الكنسي وتأليه الشعب لم يقوما على أساس صحيح وهو التسليم للَّه عزَّ وجلَّ والتحاكم إليه وحده ولم يكن الخلاف بين الطغاة الجدد والقدامى إلا اختلافاً لفظياً القدامى يقولون اللَّه هو الذي فوضهم والجدد يقولون الشعب هو الذي فوضهم .

٧ ـ وهذا المنصب الذي حصلت عليه الشعوب لم يكن إلا مطيه للركوب إذا أصبحت الشعوب في وادٍ والمسيرون لهم في وادٍ آخر وانكمشت

سلطة الشعوب التي نادت بهذه السيادة إلى أن أصبحت في يدٍ قلة يتحكمون في الشعوب ـ باسمهم ـ في مجالس خاصة بهم تحت تسميات مختلفة ولم يكن للشعوب منها إلا الموافقة التامة وإظهار السرور أيضاً وإلا اعتبروا أعداءً للحرية والتقدم وللشعب أيضاً لأن أحكام تلك السلطة ـ التي نشئت بعيدة عن حكم اللَّه وشرعه ـ زعمت لهم أنها هي التي ستحقق لهم كل ما يريدونه من الكرامة والعيش الرغيد ـ أي في ظل حكم الإنسان للإنسان من خلال تطبيق تلك القوانين التي وضعها طغاة يدعون بلسان حالهم الإلوهية والسيادة التامة بدلاً عن اللَّه عز وجل فهل تحققت تلك الوعود البراقة بسيادة الشعوب في ظل انحصار السيادة في طبقة البرلمانات أو المجالس النيابية وما إلى ذلك .

هذا ما سترى الجواب عنه إن شاء اللَّه من خلال الدراسة لهذه النظرية .

المبحث الثاني

أساس قيام نظرية السيادة

لقد تعددت المسالك للوصول إلى إبعاد الدين ورجاله عن السلطة ومنها مسلك الديمقراطية ونظرية السيادة وحركات أخرى كثيرة تختلف في الأسماء وتتحد في الهدف .

أما بالنسبة للفرق بين نظرية السيادة والديمقراطية فهي في نظر الدكتور صلاح الصاوي (فهما تعبيران عن فكرة واحدة على أساس أن السيادة هي التعبير القانوني ، والديمقراطية هي التعبير السياسي وعلى هذا فنظرية سيادة الأمة هي التعبير القانوني عن الديمقراطية التي تعتبر نظام الحكم في الدول الرأسمالية) [1] . ولكن يلاحظ أن نظرية الديمقراطية لم تقف عند حد التعبير السياسي بل أصبحت تزاحم الدين في كل شؤون الحياة الاجتماعية أما نشأة هذه النظرية فهي كغيرها من النظريات الكثيرة قد نبعت من فرنسا في نهاية العصور الوسطى وكان يراد بها في البداية الدفاع عن سلطة الملوك وغيرها من السلطات الأخرى ثم استعملها البابوات في وجوه خصومهم الملوك الذين كانوا يطمحون إلى النيل من سيادة الكنيسة وإخضاعها لهم ولكن لم يفلح البابوات ورجال الكنيسة فقد تغلبت سلطة الملوك في النهاية على رجال الدين الكنسي وقلبوا الأمر وحاربوهم بنفس سلاحهم ونادوا بإخضاع الجميع لسيادة القانون أو لسيادة الشعب وحده

(١) نظرية السيادة ص ١٥ ، د. صلاح الصاوي .

لا شريك له وكانت السيادة في أول نشأتها محدودة بجهة واحدة ممثلة في شخص رئيس الدولة إلا أنها تطورت بعد ذلك على أيدي الكثير من الفلاسفة والمفكرين لتصبح السيادة هي القوة العليا المهيمنة على الدولة والتي بيدها صلاحية التغيير والتبديل للقوانين على كل الأفراد المقيمين على إقليم الدولة وهي لا تتقيد بقانون بل القانون مصدره السيادة وإرادة أصحابها الذين يتألفون من الدولة بجميع أعضائها الذين لا حد لتصرفاتهم ولا يستطيع أحد أن يحكم عليهم ولا يتقيدون برأي أحد وإلا لانتفت عنهم صفة السيادة المطلقة وهذه صفة ثانية في السيادة فهي تريد أن تكون صاحبة الأمر كله الحائزة على التفوق المطلق دون أن يكون لها معارض أو دون أن تكون لها حاجة إلى الخضوع لأحد إذ لو خضعت لأحد لانتفت هذه السيادة ولو وجد لها مشارك لانتفت أيضاً كأن تكون السيادة مثلاً لجماعة على إقليم أو أكثر فلو وجد على أحد الأقاليم سيادتان أو أكثر لانتفت السيادة ولحصل الفساد وعدم انتظام الأمور فيه إذ لو تعارضت السيادتان على ذلك الأقاليم بحيث تريد أحداهما فعل أمر والأخرى لا تريده أو تريد ضده فحينئذ إما أن تنفذ إرادة السيادتان معاً وهذا محال وإما أن يمتنع أمرهما معاً وهذا فيه إبطال لسيادتهما معاً وإما إنفاذ سيادة أحداهما وترك الأخرى فتكون النافذة هي صاحبة السيادة [١] ، وعلى هذا فالسيادة هي صاحبة الأمر والنهي والقوة والحكم لنافذ وفوق هذا فقد دعوا لها العصمة من الخطأ باعتبار أن إرادة الأمة أو ممثليها من الشعب حكمهم يكون هو الحق والعدل الذي لا ينبغي أن يقف في طريقه أي اعتبار وهذه حيلة كان الجميع يتظاهر بها .

---

(١) انظر نظرية السيادة ص ١٢ ـ ١٣

وهكذا يتلخص مفهوم السيادة في أنها هي السلطة العليا المطلقة التي تتفرد بالأمر والنهي والتكليف والإلغاء وما إلى ذلك أيّاً كانت تلك السلطة دون أن يكون لها منازع في إرادتها أمراً ونهياً أو تكليفاً ممثلة في القانون العام للدولة أو في سلطة الشعب من خلال ممثليه بينما كانت السيادة كلها قبل ظهور هذه النظرية في يد الملك بل هو الدولة كلها كما قال لويس الرابع عشر عبارته المشهورة (أنا الدولة) [(١)] فلما قامت الثورة الفرنسية انتقلت السيادة إلى الأمة وإلى القانون فاعتبرت الأمة بأكملها كأنها شخص واحد يملك السيادة والتي هي في النهاية تتمثل في شخص الحكومة كلها لا في شخص المسئول الأعلى والحكومة هي الأخرى تتكون عن انتخاب عام يشترك فيه جمهور الشعب بصفة عامة حسب إرادة الأمة ثم يعقبه انتخاب السلطة التشريعية والتنفيذية التي تنحصر بعد ذلك كل السيادة فيها والتي هي عبارة عن إرادة الشعب المطلقة كما يزعمون .

---

(١) انظر نظرية السيادة ص ١٧

المبحث الثالث

ما مدى صحة نظرية سيادة الشعب

هل تحققت السيادة للشعوب كما تنادي بها نظرية السيادة أم أنها انحصرت في فئة خاصة هي المجالس النيابية والبرلمانية ورئيس الدولة . الواقع أن القضية صارت ذات جانبين هما :

١ ـ سيادة الأمة :

فبالرغم مما صادف نظرية السيادة من الحماس الشعبي وتطلع الشعوب إليها بشوق واعتقادهم أنها المنقذ الوحيد لهم والمصدر الحتمي لنيل حرياتهم فقد وجهت انتقادات مباشرة إلى هذه النظرية في طور سيادة الأمة وصدق اللّه عز وجل في قوله : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)** ﴾ [(١)] فوصفوها بأنها تتسم بتضييق دائرة الحرية ، إذ لا يجد أفراد الشعب أي مجال لإظهار حريتهم إلا مرة واحدة وهي المرة التي يحق لهم فيها الذهاب إلى صناديق الاقتراع لاختيار مرشحيهم للسيادة وبعدها ينتهي دور حرية الشعب السياسية التي تتعلق بعموم مصالح الشعب كما أن العضو الذي تختاره الجماعة نائباً عنهم يصبح بحكم عدم تجزأه السيادة موظفاً فردياً في المجموعة المنتخبة وبالتالي فلا تستطيع تلك المجموعة التعبير عن كل ما تتطلع إليه أممهم من خلال

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢

مرشحيهم لسيادة الأمة كما أنه لا يبقى في السيادة إلا الأعضاء الذين لا ارتباط لهم بالمصالح الطبقية أو النزاعات أو الأهواء الأخرى وكأن هؤلاء سلطة متميزة عن الشعب تماماً فلا يفكرون في مصالح أممهم ولا يشاركونهم في آلامهم وآمالهم .

ولهذه الانتقادات تطورت فكرة السيادة من سيادة الأمة إلى سيادة الشعب .

٢ ـ سيادة الشعب :

وقد راقت هذه الفكرة لكثير من الناس باعتبار أنها تحقق مشاركة شعبية أكثر تلاحماً من سيادة الأمة التي أدت إلى تضييق دائرة الحرية السياسية وحصرها في صفوة مختارة قد لا تهتم بمصالح الشعب كما يجب عليها فاختاروا سيادة الشعب وذلك من خلال مشاركة الشعب في أخذ رأيه في أي قضية تطرح للاستفتاء على إقرارها أو رفضها بغض النظر عن رأي الصفوة المختارة الممثلة للشعب في سيادة الأمة فهذه السلطة كأنها مشاركة بين الدولة وأفراد شعبها كما أصبح النائب الممثل لدائرته الانتخابية يملك التعبير عن دائرته لتمثيله لذلك الجزء من السيادة الذي يملكه ناخبوه بعد أن كان في ظل سيادة الأمة لا يملكه إلا من خلال إجماع أمة السيادة المختارة كما أتاحت هذه النظرية مشاركة شعبية فعالة عن طريق الاستفتاء الشعبي أو الاعتراض الشعبي أو طلب إعادة الانتخاب أو طلب حل الهيئة النيابية ونحوه ولكن ما مدى صحة هذا الكلام ؟

الواقع أنه قد وجدت الفوضى والأحقاد مرتعاً خصباً في ظل هذه السيادة أيضاً ، كما وجدت لها الدعاة والمشرعين والمنفذين مكتسحة في طريقها كل نظام يخالفها وبالأخص أنظمة الكنيسة وتعاليمها وأخلاقها وآدابها إثر ذلك الصراع المرير مع رجال الكنيسة الذين استأثروا بكل شيء وأذلوا الأمة من خلال فرض طاعتهم المقدسة فتمردوا على تلك الطاعة المقدسة ونسفوا في طريقهم كل شيء يمت بصلة إلى الدين أو القداسة الناشئة عنه واستبدلوا به قداسة نظرياتهم وجعلوها هي السيد المطاع المقدس صاحبة السلطان المطلق المكتسبة لقداستها من ذاتها أولاً وأخيراً ولها حق التشريع في كل أمور الحياة بعيداً عن الدين الذي حل محله القانون أو الأمة أو الشعب وجعلت هذه هي الإله الجديد وقد وصفوا هذه النظريات بكل صفات الإلوهية وقداستها ووضعوا ما يحلو لهم من التشريع تحليلاً وتحريماً وأمراً ونهياً دون الرجوع إلى أي مصدر كان - غير أهوائهم - فتحول التأليه الذي كان يمارسه الرهبان على الناس تحول إلى تأليه عامة الشعب واعتبار ما يوافق عليه الشعب هو الحق المطاع تحليلاً وتحريماً دون معارضة ,وداروا في حلقات مفرغة ونظريات مضطربة متناقضة كلما عن لهم سراب مشوا إليه ورحم اللّه من قال (من تتبع آراء الرجال كثر تنقله) فلم يتحقق الغرض الذي قامت من أجله حركة السيادة الشعبية على الحقيقة إذ لا يستدعي الشعب لبيان آرائهم إلا من خلال خطة مدروسة من قبل السياسيين سلفاً ، فكأن التصويت من قبل الشعب إنما هو لأخذ توقيعاتهم - بعد أن هيأ هم السياسيون لذلك من حيث تشعر الشعوب أو لا تشعر ولا تنسى المقولة المشهورة (رضَى الناس غاية لا تدرك) .

المبحث الرابع

المسلمون ونظرية السيادة

غير خاف على أحد أن العالم الإسلامي كان يحكم بالشريعة الإسلامية في كل قضية ولا يمكن لحاكم أن يخترع حكماً لم يكن لديه عليه دليل من كتاب اللَّه تعالى أو من سنة نبيه ﷺ أو من إجماع العلماء ، وظل الأمر على ذلك حتى إذا بدأ الضعف يدب في نفوس المسلمين وتراخت قبضتهم على دينهم وبدأ كثير من حكامهم ينظرون يميناً وشمالاً للتفلت من تطبيق الشريعة من جراء تأثرهم بمختلف النظريات وإعجابهم بالحضارة الأوربية والأمريكية حينئذ بدأ شغفهم بتطبيق نظرية السيادة الغربية وبدأت هذه النظرية تلعب دورها القوي في محاربة الدين وإقصاء أحكامه على الطريقة الأوربية التي قامت عليها نظرية السيادة في الأساس مختلقين لتنفيذها شتى الدعايات إلى أن تبنتها بعض الحكومات الإسلامية رسمياً وتم بموجبها فصل الدين عن الدولة ونتج عن ذلك التغيير الجذري في التعليم والصحة وكل مرافق الحياة الاجتماعية .

وفوق ذلك في التشريع الرباني الذي أقصى لتحل محله القوانين الوضعية البشرية الباطلة حيث ألزم القضاة في المحاكم الشرعية في بعض البلدان الإسلامية أن لا يخرجوا عن قوانين الديمقراطية حتى ولو كانت مخالفة للأحكام الشرعية صراحة .

٤ ـ فدخلت نظرية السيادة في صميم دساتير كثير من الشعوب الإسلامية وشملت جميع نواحي الحياة اليومية للمواطن فأصبح الشرع ما سنته قوانينها التي حلت محل التشريع الإلهي وأصبح الولاء والتحاكم إليها وحدها باسم القانون أو باسم الشعب أو باسم الأمة مع بقاء كلمة (دين الدولة هو الإسلام) جسماً بلا روح أو كوضع أملته الظروف مؤقتاً فإن اتفقت أحكامه مع القانون فيها وإلا فإن تنفيذ القانون هو المقدم .

وقد نصت دساتير أكثر الدول العربية والإسلامية على أن الحاكم العام هو مصدر التشريع مضافاً إليه مجلس النواب أو مجلس الشورى أو البرلمان أو غيرها من المجالس العليا [(١)] . وفي بعضها أن لرئيس الدولة في بعض الحالات الاستقلال التام بممارسة الوظيفة التشريعية في حال ما إذا تعرض الشعب للخطر من أي نوع إذا تعذر اجتماع البرلمان ثم تعرض على الشعب فإذا وافق عليها صارت تشريعاً ملزماً ولا تحتاج إلى عرضها على البرلمان وهناك أيضاً استثناءات لرئيس السلطة العليا تمنحه هذا الوضع في حالة ما إذا لم يمكن اجتماع المجلس النيابي وكان الأمر يستدعي إصدار تشريع على وجه الضرورة أو في حال ما إذا فوض البرلمان رئيس تلك السلطة حق إصدار التشريع لمدة محددة ، وواقع تلك الحكومات أقوى شاهد .

هذا هو وضع القوانين السيادية فما هو وضع السيادة في الإسلام ؟

---

(١) انظر نظرية السيادة ص ٢٩

المبحث الخامس

حكم السيادة في الإسلام

١ ـ إن من الأمور المسلمة والمعروفة ضرورة أن السيادة في الإسلام ليست من اختصاص البشر بعضهم لبعض بل هم جميعا في درجة واحدة مهما اختلفت أحوالهم أمام سيادة واحدة فيها صلاح جميع البشر وعدم تعالي بعضهم على بعض إنها سيادة الشرع الشريف المنزل من الخلاق العليم ولا عبرة بالسيادات الجاهلية فإنها من اتخاذ البشر بعضهم لبعض أربابا من دون اللّه وهي سيادات أقل وأذل من أن تؤلف بين المجتمعات أو تنظم حقوقهم بصفة عادلة غير متحيزة لأنها من صنع البشر الناقصة عقولهم القاصرة إفهامهم عن إصابة الحق في كل شئونهم على الوجه الصحيح .

وعلى ذلك أجمعت الأمة الإسلامية خلفا عن سلف لم يخالف منهم أحد على أن الشريعة هي حق اللّه تعالى على عباده ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [1] ، أي الاستسلام التام له عز وجل فمن لم يستسلم له ويسلم قيادة نفسه لأمره وعليه فليس على الإسلام ويكون منازعاً للّه تعالى مثل سائر الطواغيت وتعني السيادة للشرع على النفس التحاكم إليه والرضا بما حكم به والانقياد لأمره والانتهاء عن نهيه وتحليل ما أحلّه وتحريم ما حرمه وعدم الالتفات إلى التشريعات البشرية وبغضها وبغض من يلتزم بها

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩

ويدعو إليها ويكون على حد قوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [(١)] ، فمن حكَّم رأيه أو قانونه أو شعبه فإنه ممَّن ينطبق عليه الحكم في الآية لأنه لا طاعة كاملة مستقلة إلا للَّه عز وجل ورسوله ﷺ وكذا ما أجمع عليه علماء الإسلام في المسائل القابلة للاجتهاد على وفق الأدلة الشرعية فقط لا عن العقل الذي هو قاصر عن إدراك الأحكام الشرعية بمفرده فإنه لا مكان لاجتهاد العقل في الشريعة الإسلامية مع وجود النص الصريح لأنه حينئذ يكون مردوداً كما جاء في الحديث الشريف : «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» [(٢)] .

وليس في الإسلام وجوب الطاعة لأي شخص كان ما لم يكن قوله وفق الشرع وطاعة العلماء في الإسلام إنما هي مقيدة بطاعتهم للَّه تعالى وأما إذا خلت عن ذلك فإن طاعتهم لا تجوز إلا فيما أطاع اللَّه تعالى فيه سواء أكان الشخص حاكماً أو محكوماً ذلك أن مصدر السيادة في الإسلام هو اللَّه عز وجل وما شرعه لعباده هو الدين وهو الحق وهو العدل بخلاف السيادة في المذاهب الجاهلية الغربية فمصدرها هناك هم الأمة الذين أحلوا أنفسهم محل الإله في النظريات السيادية الغربية وإذا قارن القارئ بين السيادتين فسيجد تلك الفروق الهائلة وهي حتماً ستقع سيجد أن كل ما قررته السيادة الغربية قابل للنقض والتغيير والتبديل ، تُحرِّم اليوم ما

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٥

(٢) البخاري جـ ٢ ص ٩٥٩ ومسلم جـ ٣ ص ١٣٤٣

أحلَّته بالأمس وتُحرِّم في غدٍ ما أحلَّته اليوم لأنها من صنع البشر بخلاف السيادة الشرعية فهي ثابتة أبداً لا يمكن أن يطرأ عليها قبول التغيير والتبديل لأنها صادرة عن علام الغيوب وقائمة على أساس التدين الذي هو أساس كل المعاملات العادلة بينما هو في منهج الجاهلية الغربية لا وجود له لأنهم استبدلوا به ما أملته أهواءهم ونظرياتهم وما قرروه لأنفسهم بدلاً عن أخذه عن الإله الحق الذي أبعدوا أنفسهم عنه وهم لا يخرجون عن قبضتة وقهره [(١)].

وخلاصة ما سبق عن مذهب السيادة هو الاعتقاد أن مصدر السيادة أو صاحب السيادة في الإسلام هو شرع اللَّه تعالى ، واللَّه تعالى هو الحق وله الأمر وله الحكم لا يشاركه أحد في الخلق والإيجاد فكذلك لا يشاركه أحد في السيادة والحكم والتشريع وأوكل اللَّه إلى العلماء الاجتهاد فيما يقبل الاجتهاد على ضوء الكتاب والسنة لا أنه تشريع جديد ، أما في المفهوم الغربي فإن السيادة ليست للَّه تعالى وإنما هي لأفراد من الناس أو لعامة الشعب ثم أضفوا عليها نفس الصفات التي يقولها المؤمنون عن اللَّه تعالى فصارت في مفاهيمهم بديلاً عن اللَّه تعالى وشرعه وهي أحقر من ذلك كما اتضح لك مما سبق كذلك ما يتعلق بقضية الثبات والتغير فإن الأنظمة الوضعية عموماً قابلة وبسرعة للتغيير والتبديل لأن من يملك الإنشاء يملك التغيير والإلغاء وما هو حاصل في البلاد التي جعلت السيادة لغير

---

(١) انظر كتاب «نظرية السيادة وأثرها على شرعية الأنظمة الوضعية» ، تأليف د. صلاح الصاوي .

اللّه أقوى شاهد بخلاف ما إذا كانت السيادة للّه عز وجل والتشريع من كتابه وسنة نبيه فإنها تكون ثابتة لا تتغير ولا تقبل التغيير لكمالها الذي يمتد إلى يوم القيامة ولك في الحدود الشرعية والثواب والعقاب في الإسلام وفي غيره خير شاهد ، كذلك ما يتعلق بأمر الدين فإنه حينما تكون السيادة للّه عز وجل ولحكمه تجد أن كل قضية من قضايا الحياة مربوطة بحكمها في الدين وبالتالي تجد حلها في الشرع في أكمل صورة ولا يخرج مجتمع إلا فيما فوضه الشرع إلى الاجتهاد والمقارنة وهذا بخلاف السيادة في المجتمعات الغربية التي قامت أساساً على محاربة الدين وإقصائه في كل مجالات الحياة إذ أن السيادة لا تتجزأ فوجب إقصاء الدين كي تتم سيادة الأمة حسب نظرتهم لها كذلك الحق في التشريع فإن التشريع في الإسلام لا يكون إلا للّه عز وجل وحده ولرسله عليهم السلام ولا يملك حق التشريع أحد من البشر كائناً من كان اللّهم إلا الاجتهاد في فهم النصوص فيما يقبل منها الاجتهاد وهذا بخلاف حق التشريع في السيادة فهو بعكس ما قرره الإسلام أي أن التشريع هو من حق البشر تحليلاً أو تحريماً ويتمثل في كبار المسئولين ومحبي الغرب من المسلمين الذين أشربت قلوبهم حب الديمقراطية والسيادة حينما ينصون على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع أو (الفقه الإسلامي) هو المصدر للتشريع ونحو ذلك مما يوحي في ظاهره بالتزام هؤلاء بالشريعة الإسلامية .

●● الواقـــع :

أن هذه العبارات عند المتعمقين في تطبيق السيادة الوضعية البشرية إنما تكتب من باب ذر الرماد في العيون أو لأن أكثرية الشعب مسلمون والدليل على ذلك أنهم لا يجيزون الحكم في أي قضية إلا بما قررته قوانينهم البشرية وأن من خالفها يكون قد ارتكب جرماً وخيانةً ويحاكم في كل قضية لهم فيها قانون وعلى المحاكم التي تُسمَّى (محاكم شرعية) أن تنفذ أحكام القوانين بغض النظر عن موافقتها للشريعة الإلهية أو مخالفتها بزعم أن تلك القوانين هي التي تكفل أمن وحقوق الشعب وسعادته فأين صدق تلك العبارات التي يخدعون بها شعوبهم وأين هم من قول اللّه تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾ (١) .

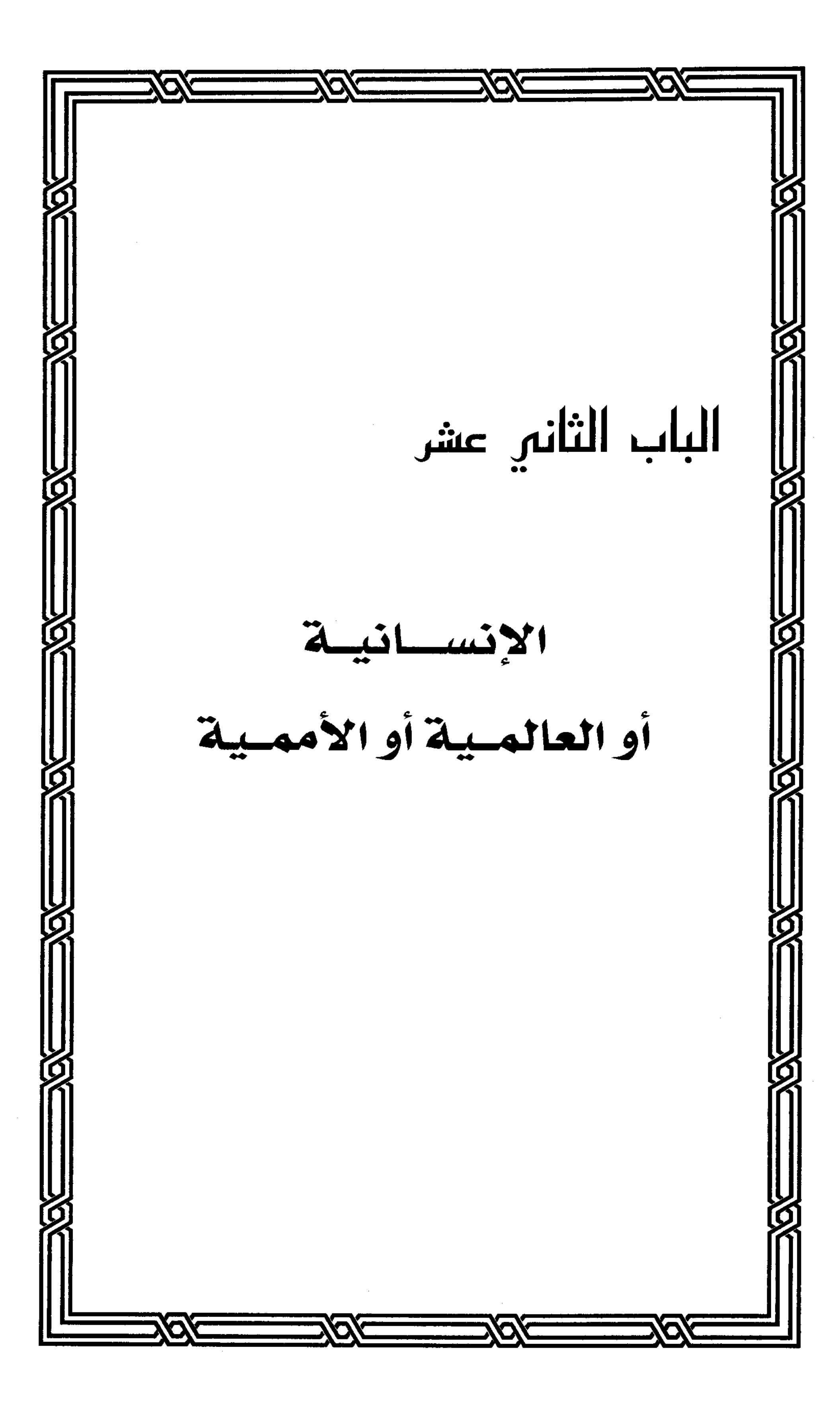
بل لم يقف الأمر عند بعضهم إلى حد العدول عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية واستبدالها بالقوانين الوضعية لم يقف الأمر عند هذا بل أخذوا ينتقدون الأحكام الشرعية إما بلسان الحال أو بلسان المقال مع أنه لم يجربوا تنفيذ أحكام الإسلام بل لم يعرفوها حق المعرفة فصار حال أحكام الإسلام عند هؤلاء كحال الذي قيل فيه :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ⁂ إياك إياك أن تبتل بالمـــاء

وقد قَتلَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك المنافق الذي أبى أن يتحاكم إلى النبي ﷺ

وطلب التحاكم إلى عمر رضي الله عنه أو إلى كعب بن الأشرف [(١)] لأن عمر رضي الله عنه كان يعلم أن من لم يرضى بسيادة الشرع الإسلامي فليس له فيه نصيب ويجب على المسلم أن لا ينخدع بظاهر الكلام وإنما يجب عليه أن ينظر إلى الفعل والتطبيق فإن كان موافقاً للشرع جزمنا أنه شرعي حتى ولو لم ينص عليه في الدستور وإن كان مخالفاً لحكم الشرع عرفنا أنه حكم جاهلي بقوانين بشرية حتى وإن كان النص العام أن الحكم للشريعة الإسلامية وأما تلبيسهم الحق بالباطل وإيجاد المبررات والشبهات حوله فلا يغير من الحقيقة شيئاً فقد سمعنا أنهم أرادوا أن يقربوا الإسلام إلى جميع الجاهليات حينما دعوا إلى وحدة الأديان في مواجهة الإلحاد الشيوعي وإنه لا فارق كبير بين الأديان لأنها كلها أديان سماوية بزعمهم وهو أمر مرفوض لدى كافة الملتزمين بشرع اللّه تعالى وجاءوا إلى كل قضية في الإسلام وزعموا أنها لا تختلف عن القضايا الوضعية وأن السيادة ثابتة للكل على حدٍ سواء حتى أنهم وجدوا للاشتراكية ـ الماركسية أساساً في الشريعة الإسلامية تبناه الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه بزعمهم وحاشاه من أكاذيبهم ولهؤلاء جرأة على الكذب على اللّه تعالى وعلى نبيه الكريم ﷺ وعلى الإسلام بل لقد حصل ما تقشعر لذكره الجلود في بعض البلدان التي تعترف ببيوت الدعارة بل وتتقاضى عليها رسوماً حيث سمعنا أنهم نسبوا بعض الداعرات في بيوت الدعارة إلى الإسلام تمييزاً لها عن الداعرات من بقية الديانات وقد عاقبهم اللّه بما لا يجهله أحد اليوم بين بعضهم بعضاً وبينهم وبين اليهود وللّه حكمة في ذلك .

ونسأل اللّه أن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا .



الباب الثاني عشر

الإنســانيــة
أو العالمـية أو الأممـية



الباب الثاني عشر

الإنســانيَّة
أو العَـالَميَّة ، أو الأُمَميَّـة

تمهـــيد :

الإنسانية هي إحدى الصيحات على الكنيسة ورجالها في الزمن الذي تكاثرت فيه الصيحات للانقضاض على النصرانية المحرفة البولسية ، وقد سلك دعاة الإنسانية فلسفة خاصة بهم مفادها أن الناس يجب أن يجتمعوا كلهم تحت لواء واحد ، هو الأخوة الإنسانية ، القاسم المشترك بينهم ، بعيدين عن الدين وكل ما يَتَّصِلُ بِهِ ، وبعيدين كذلك عن كل التعصبات التي اخترعها الإنسان ، سواء أكانت التعصبات للبلد ، أو القوم ، أو القبيلة ، أو الجنس ، أو اللون ... أو غير ذلك ، يدخلها الشخص متبرئاً من كل علاقة غير علاقة الإنسانية التي تتسع لجميع التناقضات بين الناس ، بزعمهم ، وسنذكر تفاصيل هذا المذهب ونبين صحته وخطئه من خلال دراسة الفصول الآتية :-

تمهـــــيد :

الفصل الأول : المقصود بالإنسانية .

الفصل الثـــاني : سبب انتشار دعوى الإنسانية .

الفصل الثـــالث : أماكن انتشار الإنسانية .

الفصل الرابـــع : هل يحقق مذهب الإنسانية السعادة ؟

الفصل الخامس : هل تحققت دعاوى الإنسانية بالفعل ؟

الفصل السادس : هل تقبل الدعوى الإنسانية التعايش مع الإسلام والمسلمين ؟

الفصل السابع : الإنسانية والمغريات .

الفصل الثامن : الإنسانية والقومية والوطنية .

الفصل التاسع : تناقض دعاة الإنسانية .

الفصل العاشر : زعماء الدعوة الإنسانية .

الفصل الحادي عشر : الإنسانية الحقيقية والرحمة الصادقة هي في الإسلام .

الفصل الأول

بيان المقصود بالإنسانية أو العالمية أو الأممية

الإنسانية مذهب إباحي هدَّام ، ودعوة خادعة من قبل دُهاة أعداء الدين ، وهو مذهب جديد برَّاق من المذاهب الكثيرة التي أنتجتها العقلية الأوربية في الأساس في خضم الصراع مع الكنيسة ، وفي خضم انتشار المذاهب الباطلة في ذلك الوقت ، وقيل لها إنسانية نسبة إلى الإنسان ، وقيل لها عالمية أو أممية لدخول كثير من المفكرين من مختلف البلدان الأوربية وغيرها فيها ، قوي أمرها في نصف القرن الثامن عشر ، عصر التحرر في أوربا ، ظهرت في إيطاليا ، ثم انتشرت إلى البلدان الأخرى ، ونادى أهلها بأن يتفق ويتآلف جميع الناس تحت إسم الإنسانية بسبب اشتراك جميع الناس في أصل الخلق مع اغفال كل الفوارق بينهم مهما كانت تلك الفوارق دينية أو غير دينية ، قومية أو وطنية ، أو غير ذلك من الروابط ، فلا بد أن يكون التجمع على الإنسانية وحدها بدلاً عن الكنيسة وتعاليمها ، وأن الدين أمر شخصي بين اللَّه والإنسان كما كانوا يزعمون في بدء أمرهم ، فالوطن للجميع ، ولا قيمة حقيقية لتجزئة الأرض أو فصل بعضها عن بعض بحجة اختلاف الناس في دينهم وسلوكهم ، فإن هذه الأمور تحث على التعالي وتثير جذوة الخلافات والأحقاد بخلاف ما لو إتفقوا على أن تكون الأرض وطناً للجميع وتجمعهم الإنسانية ، وعلى أن يوجد دين موحَّد للكل تحت راية واحدة بعد أن تسقط جميع الأديان وجميع

القوميات والوطنيات في يوم ما ، حسب تقديراتهم ، فتأتي حينئذ الحياة السعيدة القائمة على المحبة الإنسانية وتتوحد العواطف والأفكار ويعيش الناس كلهم على قلب واحد تعمهم الألفة والمحبة والترفع عن كل شيء يعرقل ظهور الحب بين جميع أفراد البشر حسب خداع الماسونية ، والإنسانيون ينتظرون اليوم الذي يجتمع فيه الناس كلهم على مبادئ الإنسانية ويعيشون في ألفة ومودَّة ؟!!! بعيدين عن أي مؤثر آخر من الوطنية أو القومية أو الدين حين تسمو أفكار المجتمعات البشرية ويتوحدُّون على أساس هذه الأخوة الإنسانية ، وهي آراء جذَّابة ، ولكنها دعوة خدَّاعة وأنَّى لها أن تتحقق ، والواقع يكذبها ليلاً ونهاراً بهذه الحروب الأهلية والدولية والنزاعات المستمرة مما يشكل صفعة في وجوه دعاة الإنسانية والقومية والوطنية وسائر الدعوات الجاهلية ، وإنها خدع وهمية وخيالات فارغة كما سنذكره في الرد عليهم .

الفصل الثاني

سبب انتشار دعوى الإنسانية

لقد تبين أن أكثر ما يجذب الناس إلى قبول الإنسانية جهلهم بدينهم ، ثم جهلهم بما تهدف إليه دعوة الإنسانية ، ثم انخداعهم بذلك الشعار الأجوف الذي ينادي به دعاة الإنسانية ، وهو الاجتماع على الإنسانية بغض النظر عن أي إعتبار من دين أو لون أو وطن ، فالكل تتسع لهم مظلة الحرية والإخاء والمساواة التي يوفرها لهم مذهب الإنسانية .

وإن الذين يعتنقونها سيعيشون عيشة راضية ، فانخدع الكثير بمثل هذه الدعايات البرَّاقة ، وقد عرفت أنها من دعايات الماسونية الماكرة التي تتربص للقضاء على كل الأديان تحت شعارهم «اخلع عقيدتك على الباب كما تخلع نعليك» [1] ، فمن المعلوم أن خلع العقيدة ووضعها على الباب إلى جانب النعال إنما يُراد بها عقيدة من يسمُّونهم بـ «الجوييم» أو «الأمميين» ، أما عقيدتهم هم فهي التي يقوم عليها مذهب الإنسانية وهي التي يجب أن تبقى بعد أن ينسلخ الداخلون في الإنسانية عن عقائدهم ويتنازلون عنها لكي يتم دخولهم في مذهب الإنسانية .

ومنها أن دعاة الإنسانية يزعمون أنه يجب أن يكون الهدف الذي يصل إليه الإنسان ويضحي بفرديته من أجله هو خدمة الآخرين وإخضاع نزعاته الفردية كلها لخدمة النوع الإنساني أجمع تحت شعار «الحياة لأجل الغير» ، وقد صاغه «كونيت» وسمَّاه الموجود الأعظم ، وأحلَّه محل الإله في التقديس ،

---

(١) انظر : «مذاهب فكرية معاصرة» ، ص ٥٨٩

وجعل لمذهبه كهنة وطقوساً تقدم للرجال الذين أسهموا في خدمة الإنسانية في أعياد ، وتخصص لهم تلك الأعياد ليشعرهم بأنهم على شيء .

ويجب التنبيه إلى أن بعض الكتاب يفسرون الإنسانية على أنها هي العطف والرحمة ومساعدة المحتاجين ، والتمسُّك بالأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن ، ويذكرون على كل ذلك أدلّة من القرآ الكريم ومن السُّنَّة النبوية المطهرَّة .

ودراستنا هنا لا تتعلق بهذا المفهوم للإنسانية ، فهو حق مؤكَّد ، ولكننا بصدد بحث الإنسانية التي تخفي وراءها مخططات خطيرة لتدمير تراث الإنسانية ، وبالأخص تراث المسلمين .

شعارات خادعة طالما نادى بها اليهود وخدعوا بها الناس سراً وجهراً مثل الحرية والاخاء والمساواة بين الأفراد والشعوب ووحدة الأسرة البشرية ومجتع الإنسان المتعاون وحق الجميع في الحياة الكريمة إلى آخر تلك الألفاظ البراقة الخادعة التي هي للاستهلاك ولسد فراغ أذهان الفارغين ، وقد قال أحد دعاتها وهو الفرلي :

«حينما يصبح الجميع أحراراً في تفكيرهم لهم من الشجاعة ما يجعلهم يتقبلون ما هو خير وعدل وجميل عندئذ يكون من المحتمل أن يسود العالم دين واحد وإني سأكون سعيداً باتباع دين عالمي موحد تتبع مصادره من حقائق التاريخ وتشمل مبادئه العدالة لاجتماعية وتقوم بفضله مظاهر الحب والاخاء على أنقاض الكراهية والخصومة» [1] .

---

(١) انظر الإسلام والحضارة العربية ص ١٣٢ د. محمد محمد حسين .

ومما سبق يتبين بوضوح أن الدعوة إلى الإنسانية هي شرارة انشطرت عن جمرة الماسونية الحاقدة ودعاياتها الخادعة التي تجيد حبكها المؤامرات اليهودية وأن ما يبدو للبعض من الفارق بين كلتا الدعوتين فإنما هو فارق لفظي أو من باب التفنن في التقديم فالماسونية ظاهرة قوية في الدعوة إلي الإنسلاخ من كل دين أو طاعة إلا دين اليهود وطاعتهم بينما الإنسانية ظاهرها فيه الرحمة والترفع عن التجبر والبغض وأن الدين لا يجب أن يكون حائلاً بين محبة البشر بعضهم البعض وخدمة بعضهم بعضاً لأن الدين أمر شخصي وحسب مزاج الشخص وتوجهه ، إضافة إلى أنه يضيق الدائرة على اتباعه ويمايز بين الناس حينما يلتزمونه وبالتالي فالبديل الأنسب هو الإنسانية التي تعم الجميع دون تمييز أو تفريق بين الجميع .

الفصل الثالث

أماكن انتشارها

شاعت ديانة الإنسانية هذه في الغرب وصار لها في كل بلد كاهن أكبر وجعلوا لها معابد وطقوساً وسدنة وقد برزت عند الأمريكان بوضوح حيث جعلوا الإنسانية ديناً وقد صيغ المذهب الإنساني في أمريكا في ١٩٣٣م في بيان الإنسانيين الذي تضمن إنكار وجود اللَّه تعالى وخلقه لهذا الكون وإنكار النبوة والرسالة والتعليل لنشأة الإنسان وثافته الدينية وما يتعلق بحياة الإنسانية كلها مستندين إلى تعليلات الشيوعية الماركسية .

وفيما يلي بيان الإنسانيين المشهور مع تعليق خفيف يوضح الغرض من كل فقرة منه :

١ ـ «**الكون موجود بذاته وليس مخلوقاً**» ، والإلحاد والكفر باللَّه تعالى ظاهر في هذا وهذا المعتقد كاف في كفر من تمسك به .

٢ ـ «**الإنسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها**» ، وهذا إنكار لوجود اللَّه أيضاً وإنكار لحقيقة وجود الإنسان وإسناد خلقه إلى الطبيعة حسب تعليلهم السخيف ولو سئلوا عن تلك العمليات المستمرة لانقطعوا وأجابوا بما يدل على جهلهم وحمقهم .

٣ ـ «**ثقافة الإنسان الدينية ليست إلاَّ نَتاج التطور التدريجي الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية والوراثة الاجتماعية**» ،

وهذا كفر بالأنبياء والمرسلين وزعم باطل وهضم لنعمة التفكير التي خص اللَّه بها الإنسان ورجم بالغيب .

٤ ـ «**لقد ولَّى الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين وباللَّه**» ، ونقول لهم بل لايزال جديداً على مر الدهور رغم أنوفهم وسيبقى إلى يوم القيامة .

٥ ـ «**يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي**» ، ويقال لهم إذا كان الدين يتركب من تجارب فكيف لم يدعوا النبوة كلهم وكيف قام على أشخاص معدودين تحوطهم عناية اللَّه وتأييده وهل يعرف الدين بالتجارب ؟

٦ ـ «**إن التحقيق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان**» ، نقول نعم ولكنه لا يصل إليه إلا بالتبين الصحيح وبتيسير اللَّه وتوفيقه له .

٧ ـ «**يعبر عن الانفعالات الدينية بالإحساسات الشخصية والجهود الجماعية التي تحقق الرفاهية الاجتماعية**» ، وهذا الكلام محض دعوى لا دليل عليه . مع أنهم ينفون أي دليل صحيح للتدين .

٨ ـ «**لا توجد انفعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة**» ، ونقول لهم إن الفطرة في الإنسان والواقع كليهما شاهدان بهذا الرباط .(١)

---

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ٥٩ ـ ٦٠ .

وقد أمضى هذا البيان جون ديوي وآخرون من كبار دعاة الإنسانية .

وعلى حسب ما تقدم فإن الإنسانية في جوهرها العام هي دعوة للإنسان إلى أن يعيش حياته ابن يومه مهما صادفته من الأمور التي يرضاها والتي لا يرضاها قوي الأمل صامداً في مواجهة الأخطار جاعلاً نصب عينيه أن يعيش حياته المادية بكل ما يجده ضارباً بالقوانين التي تحد من ارتكاب الشهوات جانبا وأن لا ينظر إلى الأمور الروحية الغيبية ولا يتأثر بما يقال له من أنه سيحاسب على كل أعماله الدنيوية أمام اللّه تعالى فليس لك إلا ما تمتعت به قبل موتك فلا بعث ولا حساب ولا جزاء في مفاهيم دعاة الإنسانية وهم حينما يقررون هذا الكلام نقول لهم بكل تأكيداً أنهم يغالطون أنفسهم وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم في فراغ وأن الأمر جد ولا يمكن أن تكون الحياة كذلك قال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** (١٤) ﴾ [(١)] .

وهم متأكدون أن حياتهم هذه لا تختلف عن حياة سائر البهائم ولولا الظلم وحب العلو لرجعوا إلى الحق ولنظروا إلى ما هم فيه بأنه عبث وفوضى لا تقرها العقول ولا الفطرة السليمة ولكنه العناد والاستهتار والبغي .

(١) سورة النمل ، الآية : ١٤

الفصل الرابع

هل يحقق مذهب الإنسانية السعادة ؟

ما أكثر الدعايات الكاذبة وما أكثر الخدع التي يتفنن فيها الناس لخداع بعضهم بعضا . ولن تجد صاحب هوى ينادي باتباعه إلاَّ وهو يضمن للناس أنهم سيعيشون تحت ظله بالسعادة الغامرة والعيش الكريم فيدخل من كتب عليه الشقاء في تلك التجارب المضطربة وفي ظلماتها الحالكة ثم تنجلي عنه الغمة بعد فترة قد تطول وقد تقصر فإذا به يلعن تلك المبادئ ويعض أنامله من الندم على ما ضاع منه في خدمتها .

وهذا أمر بدهي لأن السعادة والوصول إليها من الأمور الغيبية الخاضعة لمشيئة اللَّه عز وجل وقد أخبر اللَّه تعالى أنه لا يهدي القوم الظالمين وأن من أعرض عن ربه فإنه سيعيش هذه الحياة عيشة ضنكاً لا يشعر معها بأي طعم للسعادة ـ كما هو حال أعداء الإسلام ـ حيث تجد الأغنياء في غاية القلق على مستقبل أموالهم وتجد الفقراء في غاية الغيظ على الأغنياء وتجد كل شخص يعيش غاية القلق على نهاية حياته وأين سيكون مصيره بعد موته ، وأمور أخرى تجعله في غاية الحزن والكآبة خصوصا وهو يرى تلك الفوارق الهائلة بين الناس في الدين وفي العيش وفي السلوك وفي الثقافات ، بل وفي كل نواحي الحياة .

فإذا دخل باب الإنسانية وجد أن ما تنادي به من أن الناس سيصبحون

أخوة متحابين لا فوارق بينهم ولا أحقاد إنما هي كذبة صريحة وأمان فارغة يكذبها الواقع بكل وضوح وأنها لم تحقق شيئاً منذ أن نادى أقطاب الإنسانية بالتجمع على مبدئها ليعيشوا الحرية والاخاء والمساواة والحياة الكريمة بأجلى مظاهرها ـ كما يفترون ـ وبان لكل ذي عينين كذبهم في أن العائق الوحيد أمام وصول الناس إلى تلك الرفاهية إنما هو الدين وتعاليم الأنبياء فقط فإذا خرجوا عن ذلك عاشوا حياتهم دون حسيب أو رقيب لا دين ولا خلق ولا أمر ولا نهي أي أن الشخص يمشي مكباً على وجهه لا يبالي بأي سلوك في سبيل أن يعيش متعة حياته كيفما استطاع وتعمق بعضهم في دخول هذه الدعايات فإذا بهم يجدون أنفسهم يعيشون حياة بهيمية منطلقة لا فرق بينهم وبين سائر الحيوانات البهيمية يجمعهم الخروج على الأديان وعلى كل ما تنادي به من الأخلاق الرفعية والسلوك المهذب المؤدب فلا يعرف الحق من الباطل ولا الكفر من الايمان ولا السلوك المحمود من السلوك المذموم .

وأنت ترى من كل أهداف دعاة الإنسانية انهم يسعون لتمييع الفوارق بين الناس ولتخديرهم تماماً ليتسنى بعد ذلك تحميرهم لليهود الذين هم وراء كل جريمة ووراء قيام دعوى الإنسانية وإبعاد الناس عن كل دين غير الدين اليهودي وما قيام كارل ماركس ، ولينين ، وستالين ، وسائر الحركات الشيوعية في العالم إلا بتخطيط حكماء اليهود وبغض النظر عن مزاعم دعاة الإنسانية في اسعادها للناس نقول هل تحققت في يوم من الأيام تلك الأحلام الإنسانية أو يمكن أن تتحقق ؟

الفصل الخامس

هل تحققت دعاوى الإنسانية بالفعل ؟

والجواب عن هذا السؤال هو أن نسأل دعاة الإنسانية هل يمكن أن يحققوا تلك الدعاوى الكاذبة وهل يمكن أن يقبل الناس كلهم تلك الحياة التي يدعون إليها أن من السهولة بمكان أن يتخيل الشخص أشياء كثيرة وتحقيق أماني عديدة فيما يشبه الأحلام السعيدة في عالم الخيال . ولكن من الصعوبة جدا أن يراها مطبقة أمامه حقيقة فإن ما شاء اللَّه أن يجمعه لا يستطيع أحد أن يفرقه وما شاء أن يفرقه فلا أحد يستطيع أن يجمعه ومن المعلوم بداهة أن اللَّه تعالى شاء أن يختلف الناس في لغاتهم وفي سلوكهم بل وفي دينهم وأن يختلفوا في أوطانهم «ولذلك خلقهم» . فكيف يتمكن أولئك الملاحدة أن يغيروا ما أراده اللَّه ؟ هيهات ذلك ومتى سيقبل الناس أفكار دعاة الإنسانية ويتناسون أديانهم وأوطانهم ويوحدون سلوكهم لغاتهم متى ؟ إنها دعوة ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [(١)] .

إن دعوى الإنسانية دعوى ضالة مخدرة لأتباعها أرخت لهم زمام الآمال الفارغة وجمدتهم على ترقب ما تخيلوه على أن ما نادوا به من إماتة الوطنيات والقوميات وسائر الفوارق الخاطئة أمر مستحسن ولكن في حدود الشرع الشريف وليس بحسب ما تصوروه أو تصوره القوميون

(١) سورة النور ، الآية : ٣٩

أو الوطنيون فإن تصوراتهم هي عودة إلى الجاهلية . وتعصب مذموم فإن التعصب حولهما لا ينتج مجتمعاً صحيحاً متماسكاً متحاباً بل ينتج أمة قابلة للتمزق والأحقاد والتعالي بالباطل والواقع أقوى شاهد فما أن تنشب حرب أهلية إلا وتناسى الناس فيها كل الروابط الجاهلية من قومية ووطنية وانسانية وغيرها وراحوا لا يرقب أحدهم في الآخر إلا ولا ذمة لأن هذه الروابط ليس وراءها ما يرغب فيها من جزيل الثواب عند اللّه تعالى ولا الخوف منه عز وجل في يوم الحساب بل فيها ما يثير الأحقاد والتعصبات القبلية واغتنام المصالح ولو على حساب الغير «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر» (١)

وهذه الدعوة الحمقاء لجمع العالم كلهم على فكرة واحدة من وضع البشر قد جربها كثير من الناس آخرهم البهائية ولكنهم كلهم باؤا بالفشل الذريع وظهرت حماقاتهم واضحة للعيان ولم يستطيعوا هم أنفسهم تطبيق هذه الدعوة الفارغة. لأنها غير قابلة للتطبيق العملي فإن أمامها عوائق لا يمكن تخطيها بمثل تلك الأفكار البراقة الضحلة فهي لم تطبق على حقيقتها لا في الأوروبا ولا في أمريكا ولا في بلدان العالم الإسلامي ولا في غيرها ولهذا نجد أن اللّه تعالى لم يأمر الناس أن يتكلموا لغة واحدة ولاأن يتنكروا لشعوبهم وقبائلهم .

---

(١) شطر بيت من قصيدة لأبي فراس الحمداني وأوله :

معللتي بالوصل والموت دونه *** إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

أنظر كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» ص ٢٧٦ .

ومن المدهش حقاً أن يتبارى دعاة الإنسانية في تقديمها في الوقت الذي يتفنون فيه في سفك دماء الانسانية وامتصاص خيراتهم والتخويف والتجويع وافتعال الأزمات ووصف كل من يخالفهم بأنه إرهابي ومتخلف وعدو للحضارة ... إلى آخر أوصافهم وتشجيع كل فريق على الفتك بالآخر في مؤامرات وخطط جهنمية لا تفعلها الوحوش الكاسرة .

ولعل ذلك يعود إلى لطف اللَّه بالبشر ليعودوا إليه عزَّ وجلَّ حينما يرون ما يفعله الجهل بأهله. قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾[١] ، كما أن الشره قد وصل بأولئك إلى حد انتزاع الرحمة من قلوبهم حينما يؤججون نار الفتن لتنشب الحروب ليريحوا من ورائها بيع الأسلحة الفتاكة التي ملئت بها مخازنهم ولتجربتها فوق رؤوس المخالفين لهم وبالتالي فإنهم يرمون عصفورين بحجر وأين غاب دعاة الإنسانية والرحمة بالإنسان في الوقت الذي تُسفك فيه دماء المسلمين وتنتهك أعراضهم وتؤخذ أموالهم في أكثر الأقطار الإسلامية والبوسنة والهرسك وكشمير والفلبين بل وفلسطين والآن العراق أكبر شاهد على كذب دعاة الإنسانية وأين دعوى الإنسانية في الوقت الذي يعامل فيه الغرب الكلب أحسن من معاملة الإنسان وقد سمعت من إذاعة لندن أن كلبا في هندوراس وصل إلى رتبة وزير أمن فاتضح أن دعوى الإنسانية

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤ ـ ١٢٦.

إنما يُراد بها هدم الأديان واستعمار البلدان ونشر الضلال وإعلاء رايات الماسونية وكم في السجون من البائسين المظلومين تتناساهم تقارير دعاة الرحمة والإنسانية كما يسمون أنفسهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء البائسين يتمسكون بدينهم الإسلامي أو لم يباركوا ظلم الطغاة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان الظالمين يصرحون بعزمهم على إذلال المسلمين وتقطيع أوصالهم ويتبعون القول بالعمل دون أن يوجه الإنسانيون كلمة رحمة أو عتاب من أجلهم ، بينما أي حركة يتحركها المسلم ولو دفاعاً عن نفسه فإنه يوصف فوراً بالارهابي والمشاغب والمتشدد وغير ذلك من الألقاب الجاهزة التي يضعونها على من يشاؤن في أية لحظة .

وتحت هذا البنز يقع للإنسان من التعذيب والتخويف ما تتنزه عن فعله الحيوانات المفترسة في الغابات فأين دعاة الإنسانية من النصارى - وهم الأغلبية - وغيرهم من سائر من يتشدق بهذا الاسم ويزعم أنه سيحقق السعادة للبشرية وأن الانسانية في زعمهم ستكون عليهم برداً وسلاماً حينما تقصي الأديان وفي أولها الدين الصحيح الذي لا يقبل اللّه غيره وهو الدين الإسلامي الذي قرر الرحمة في أكمل صورها دعا إليها دون خداع أو نفاق منذ مئات السنين حين دعى إلى المحبة والتعاون ونبذ كل شعارات الجاهلية وخرافاتها وأن يكون البشر كالجسد الواحد عقيدة وحباً وصفاءً ولهذا فإن دعاة الإنسانية إنما هم صدى لتلك التعاليم الإسلامية المشرقة وإن كانوا لا يطبقونها على حقيقتها التي جاء بها الإسلام بل ولا يعترفون له بفضل السبق إليها ساء كان ذلك تجاه

الإنسان أو تجاه الحيوان وهكذا فإن الدعوة إلى الإنسانية قد لا يفطن الكثير من الناس إلى أنها دعوة تقوم على الاحتيال والمغالطة إلا لمن يتتبع نتائجها وبتعمق في معرفة الوصول إلى ضاحايها من المسلمين ويرى مدى الاجحاف في حق الشعوب المسلمة على أيدي دعاة تلك الإنسانية بل وفي غير البلدان التي تحكم بغير الإسلام ومدى ما يفعلونه لمضايقة المسلين في دينهم وفي أعراضهم وفي ثقافتهم والعمل على تفريق كلمتهم بكل ما يستطيعون من الوسائل وما يخترعونه ضدهم من الأسماء الظالمة لضربهم تحت تلك الأسماء كتسميتهم متمردين وعصاة وخارجين عن القانون وما إلى ذلك ثم التنكيل بهم بكل وحشية دون أن يحرك دعاة الإنسانية نحوهم أي التفاتة بل يلقون التأييد والدعم السخي بأنواع الأسلحة والمساعدات المادية والمعنوية وفي مقابل اعتزاز المسلم بدينه حيث يشار إليه بأنه عدو الحضارة متعصب جامد ويجب أن يتنازل عن غيرته على حرمه وأن يتنازل عن كل عاداته التي لا يمكن بسببها أن يذوب في خضم الماسونية الجارف واسرائيل وأمريكا أقوى الأدلة على صحة هذا .

الفصل السادس

هل تقبل الدعوى إلى الإنسانية التعايش مع الإسلام والمسلمين ؟

يجب على كل مسلم أن يتذكر في البداية قول اللّـه تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ [١] ، ثم ينظر مصداقها في الواقع في حال التعايش بين النصارى واليهود من جانب وبين المسلمين من جانب آخر وكيف أن دعاة الإنسانية شمس العداوة لكل مسلم حتى يلين ويرجع إلى أقوالهم ويسايرهم في سلوكهم ثم كيف بعدها يكيلون له المدائح المختلفة ويحكمون عليه الشبكة بأنواع المساعدات المادية والمعنوية ليبقى أسيراً لهم .

لقد أظهر أدعياء الانسانية بغضهم للدين والمقصود به الدين الإسلامي في المقام الأول وهم دائماً يشكون من انتشاره في مجتماعتهم ويتخوفون من عودة المسلمين إلى سابق مجدهم أيام الفتوحات الإسلامية ولهذا فقد رموه بكل سهم من سهامهم المختلفة ومن ضمنها رميه بسهم الإنسانية كي تكثر السهام علّ واحد منها يصيب مقتلاً للرمية. أما أن يرمي المسلمون أعداءهم ولو بخرقة الحرير فإنه يعتبر ارهاباً وهمجية وعودة إلى فكرة

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٠

الجهاد التي أقلقهم اسمها وأرَّق نومهم ذكرها حتى أصبح الكثير من المسلمين مع الأسف الشديد يستحي من ذكر كلمة الجهاد ويعتذر للإسلام عن ورودها فيه حتى يجعله كالمجرم في قفص الاتهام وهي الشبكة التي يريد أعداء الإسلام أن يوقعوا فيها مثل هؤلاء الأغبياء الذين يدعون أنهم يدافعون عن الإسلام ويردون كيد أعدائه عنه فإذا بدفاعهم يجعل الإسلام ظالماً همجياً ومائعاً في نفس الوقت ولاشك أنه لا خير في مثل هؤلاء المدافعين ولا خير في مثل جدالهم الذي يفتقد إلى وجود العزة الإسلامية في النفس أولاً فمتى يستفيق المسلمون لخدع دعاة الإنسانية وأساليبهم الماكرة ومتى يعرفون أنه لا يمكن أن يتوافق دين رضيه الرحمن وطغيان يدعو إليه الشيطان وأنه لا يمكن أن يسير الحق والباطل في طريق واحد .

الفصل السابع

الإنسانية والمغريات

كل المذاهب الباطلة إنما تقوم على الدعايات البراقة والمغريات المختلفة ومن ذلك القول بأن العالم خصوصاً في هذا العصر قد وصلوا في التقدم إلى طور بعيد جداً وصناعات مذهلة وأن الناس بامكانهم أن يعيشوا حرية مطلقة وسعادة لا تحدها حدود ولا تقف دونها عوائق خصوصا إذا التزموا بمذهب الإنسانية ولكن أليس بالامكان أن يقول الناس لهم انه بالرغم مما تزعمونه من التقدم والتطور فإنه لازال - ولن يزال - التأخر والظلم والقهر جاثماً على صدور الناس ؟!! مما يدل على أن دعوة الإنسانية إلى التآلف والمحبة بدون دين دعوى ساذجة لا يمكن أن تتحقق في الواقع بل الذي تحقق إنما هو انتشار الرذائل والفواحش من أوسع الأبواب ، بل لقد انصرف الناس عن ما تدعوا إليه الإنسانية من أحلام سعيدة بعد أن عرفوا ضحالة أفكارها ولكنهم انصرفوا أيضاً إلى سوء آخر وهو التزاحم على جمع الأموال واقتطاع الأراضي وإلى انتشار الأخلاق الرذيلة بكل وسائل الاغراء التي يزخر بها هذا العصر . حيث صارت الرذائل تباع بأرخص الأسعا رفإنه بعد انصرافهم عن الدين لا يمكن أن تتحقق الألفة والاجتماع على عقيدة الإنسانية الخيالية ولا على غيرها اللّهم إلا على الانكباب على الآلات الصناعية الحديثة والاستغناء بها عن النظر إلى الآخرين والاهتمام بهم . ومن هنا تدرك يقيناً أن كل الدعوات الجاهلية لابد أن تفلس .

ذلك أن الاصلاح للنفوس وتهذيبها ان لم ينبع من عقيدة راسخة تؤمن بالله تعالى وثوابه وعقابه وتصديق رسله فإنها لا يمكن أن تؤلف بين القلوب كما قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾ [1] ، فالعقيدة الصحيحة هي التي تؤلف بين القلوب وأما الدعوات الجاهلية فهي فاقدة لدعائم وأسس المحبة ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، وبهذا صارت وعود الإنسانية والسعادة التي تنادي بها لا يمكن أن تكون واقعاً ملموساً يعيشه الناس بل انهم يعيشون في ظل الأنظمة المادية اليوم بما تحلمه من إغراءات لا حد لها تعيش أتعس حال وأمره ، ورابطة الإنسانية أو هي الروابط مثلا مثل رابطة الحيوانية التي تتعايش بها البهائم التي لا تعير الأنظمة والأخلاق أدنى اهتمام عند تحقيق رغباتها وإذا أبى الناس إلا التمسك بالإنسانية هذه فإن الراعي لهم سيكون هم اليهود الحاقدون على البشر وحضاراتهم .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣

الفصل الثامن

الإنسانية والقومية والوطنية

من أساليب دعاة الإنسانية أنهم يقولون في تقديمهم لها أنه يجب محو فكرة اختلاف الأوطان لأن الجميع يعيشون في أرض واحدة وأن الإنسان هو الذي اختلق تجزءتها وجعل لها حدوداً سياسية مصطنعة في حين أن الذين يعيشون فوقها هم أيضاً جنس واحد ومن أصل واحد فلماذا لا نعود إلى الأصل الصحيح وهو أن الأرض وطن الجميع ومن عليها أخوة كلهم في الإنسانية ونضرب صفحاً عن كل الاعتبارات الأخرى من الجنس واللون والدين والعادات، والقوميات والوطنيات التي طرأت على الإنسان في شكلها البدائي ثم أخذت تتوسع ويتوسع الانتماء إلى القومية والوطنية قليلاً قليلاً إلى أن أصبح في وضع أكبر مما كان في البداية ولهذا فإنهم يحبون توسيع الدعوة القومية إلى أن يصل الأمر بالجميع إلى قومية واحدة وإلى وطن واحد ثم يعيش الجميع تحت ظل الإنسانية التي ستظلل الجميع وتتمحي كل الفوارق الأخرى بعد ذلك ومن هنا فإن دعاة الإنسانية قد يتفاءلون بانتشار القومية حين تكون قومية عالمية تسودها الإنسانية حينما يلبي الجميع واجب الدعوة إلى الإنسانية وحدها فلماذا لا نطوي المسافة ونأخذ مبادئ الإنسانية اليوم قبل غد لتحل السعادة وتنتشر الرحمة ويعم الخير .. إلى آخره إنها أحلام سعيدة ودعوة خلابة براقة حينما يسمعها الشخص لأول وهلة ولكن وكما تقدم هل يمكن تحقيق هذه الأحلام وهل يمكن أن يتنازل الناس بأجمعهم عن قومياتهم وأديانهم وأوطانهم ليدخلوا تحت لواء الإنسانية الذي أقل ما سيواجهه معضلة من سيتولى قيادة هذا النهج الجديد ولمن تكون القيادة والأمر والنهي ؟ وما هو الوطن المفضل ؟

الفصل التاسع

تناقض دعاة الإنسانية

ظهر جلياً أن الإنسان دائماً يتنكر لمن يجهله ولا يأنس به إلا بعد وقت ثم يزول هذا الأنس فوراً عندما يحس أن مصالحه مهددة من قبل الآخرين وإلا فأين الإنسانية حينما تحتدم الحرب الأهلية التي تأكل الأخضر واليابس في غياب العقيدة الدينية المشتركة التي تشعر كل شخص بمسؤوليته عن كل تصرفاته أمام اللّه تعالى التي تجعل الناس كلهم عبيداً لخالقهم على الدوام وتجعل محبتهم قائمة على أسس لها أيضاً صفة الدوام إذ لم تقم على المصالح المؤقتة أو تبادل المنافع المادية الناتجة عن المحبة الزائفة العارضة أو الاستئناس بسبب ظروف مختلفة .

إن دعاة الإنسانية اليوم هم الذين يقصفون المسلمين في أفغانستان منذ أكثر من شهر ونصف ليلاً ونهاراً في طلعات جوية تملأ الأفق بطائرات حربية متقدمة وقنابل متنوعة مرة يسمونها قنابل ذكية وأخرى يسمونها قنابل غبية وصواريخ تجرب لأول مرة على رؤوس المسلمين .[1]

فهل يعتبرون المسلمين هناك جماداً لا تشملهم كذبة الإنسانية أليس دعاة الإنسانية هم الذن يقتلون كل يوم وكل ليلة أعداداً من الفلسطينيين دون تمييز ويجرفون مزارعهم ويهدمون بيوتهم بكل كبرياء إليس دعاة

(١) واليوم نعيش هذا الوضع تماماً في العراق في وحشية لا نظير لها من قِبل الغرب الحاقد بزعامة أمريكا وبريطانيا ومن سار على دربهم .

الإنسانية هم الذين يحكمون على الإسلام والمسلمين بأنهم ارهابيين يجوز قتلهم وسجنهم وتشريدهم دون رحمة وأمثلة أخرى في كل العالم تقول أين الإنسانية وأين دعاتها الكاذبون وأين حقوق الإنسان حينما تقدم أمريكا للمساكين في حرب أفغانستان الأكل عن طريق اسقاطه من الجو في مزارع الألغام أو تسقط بعض القنابل التي تشبه في ظاهرها بعض كراتين الأكل زيادة في التمويه واغراء الجائع بحيث لا يستطيع التمييز بين كون هذا أكلاً أم قنبلة فحصدت أرواح كثيرة دون أن يحس أولئك الإنسانيون بزعمهم أدنى تأنيب من ضمير أو خلق .

إن الإنسانية حقيقة سلاح يهودي ونصراني ومجوسي ووثني موجه ضد المسلمين وضد كل المستضعفين في الأرض ويجب على كل مسلم أن يكون مستيقظاً لهذه الأخطار وأن لا يلدغ من جحر مرتين .

وقد اتضح جلياً من خلال بيان الإنسانيين السابق أنها دعوة ماكرة يُراد من ورائها في الدرجة الأولى سيطرة اليهود ومحاربة أديان الجوييم وتذويب الأوطان في ديانتهم الإنسانية القائمة على أهوائهم ومفاهيمهم اليهودية الحاقدة برعاية الماسونية العالمية .

قال أحد الماسون : «إن ما تبغيه الماسونية هو وصول الإنسانية شيئاً فشيئاً إلى النظام الأمثل الذي تتحقق فيه الحرية بأكمل معانيها وتزول فيه الفوارق بين الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجمال والفضيلة» [(١)] .

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ٦٠

فانظر إلى هذه المغالطة بل الصحيح أن هذا المذهب والدعوة إليه كفيل لو نجح دعاته في افساد البشرية وقلب الأمور رأساً على عقب حينما تتغلب ديانة الإنسانية وتتم وفق مفاهيم أقطابها لا قدر اللَّه وينتصر اليهود فتلغي كل الأديان وخصوصاً الإسلام الذي هو الهدف الأكبر في حملتهم لمحوه ومحو أنه الدين الذي نسخ اللَّه به كل الأديان التي قبله كما تهدف كذلك إلى تمييع مفهوم الأديان حتى تشب الأجيال الجدية وهي لا تفرق بين الأديان ولا تعرف الصحيح من المزيف والمستقيم من المعوج منها . فيختلط الكفر بالايمان فلا يعرف بعد ذلك الحق والباطل في خضم هذا التيار الجارف ومن هنا نجد أن هؤلاء الدعاة تتكاتف جهودهم على ذم الأديان وتجهيلها وأنها لم تحقق للإنسان الحرية والعدل والمساواة التي يدعون أنهم يريدون الوصول إليها بحسب آرائهم الخيالية .

وحينما يزعم الإنسانيون أنهم رحماء بالإنسان والحيوان وهم يقاتلون بين الحيوانات حتى يقتل بعضهم بعضاً وهم يتفرجون ويضحكون أين الإنسانية منهم أو الرحمة بالخلق وهل ستجد الإنسانية مثل الإسلام في اعطاء تلك الأمور حقها الذي تصلح به الحياة وتستقيم به الأمور ويأخذ كل ذي حقه حقه ؟ كلا ولكن لجهلهم بالإسلام يظنون أنهم هم الذين سبقوا إلى تلك الدعوى بل وكثير منهم يعرفون ذلك ولكن لحقدهم على الإنسانية ورغبتهم في استعباد البشر والسيطرة عليهم جحدوا بها واستقينتها أنفسهم ظلماً وعلوا .

الفصل العاشر

زعماء الدعوة الإنسانية

أقامت هذه الدعوة على أكتاف مجموعة من الكتاب الفلاسفة من دول أوروبية مختلفة كان من أبرزهم :

- اراسمس المولود في روتردام . والكاتب الفرنسي فرانسيس بوتر والأديب الانجليزي إليوت والفيلسوف الألماني شيلر والفيلسوف الانجليزي جون لوك والفيلسوف الألماني كونت والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت والفيلسوف الهولندي سبينوزا وغيرهم من الفلاسفة .

ويظهر أن هؤلاء الفلاسفة كانت مهمتهم في البداية هي الرغبة في الاطاحة بالكنيسة والخروج عن سلطة رجالاتها تحت أي مبرر ثم تطورت لتشمل بعد ذلك محاربة كل الأديان وفي أولها الدين الإسلامي بالاضافة إلى العدو الدود النصرانية وقد استغلتها اليهودية العالمية كما هو شأنهم في تبني كل الحركات المناؤة لديانة الجوييم كما أفادت منها أيضا النصرانية فيما بعد كأحد أسلحتها الموجهة ضد الإسلام وغيرهم من أصحاب الأهواء .

كما يلاحظ أن أولئك الفلاسفة لم يكونوا كلهم في الأصل على عقيدة واحدة قبل أن تتوجه أنظارهم إلى بناء مذهب الإنسانية وبعد ظهور هذا المذهب كانت نقطة الانطلاق لهم تتبع من الدعوة إليه وتطويره وتجديد مفاهيمه وتقديمها إلى الناس جذابة براقة في ظاهرها . وجهنمية بائسة في باطنها .

الفصل الحادي عشر

الإنسانية الحقيقية والرحمة الصادقة هي في الإسلام

لن يجد العالم دعوة إلى الإنسانية الحقيقية مثل الإسلام إلى يوم القيامة ولا يمكن أن يوجد نظام أرحم بالبشر من نظام الإسلام وهذا معروف بالضرورة والبداهة فهو نظام إلهي صادر عن عالم السر وأخفى دعا إلى الرحمة وإلى الرفق وإلى مكارم الأخلاق وجعل الإنسان أكرم مخلوق وأفضل من على ظهر الأرض إذا أطاع مولاه وأدى ما أمره به وفي القرآن الكريم من الدعوات إلى حسن المعاملة والسلوك الحسن ما لا يجهله أي مسلم فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [(١)] ، وقال لنبيه موسى ﷺ : ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا** ﴾ [(٢)] مع أن فرعون أكفر من عُرف على وجه الأرض ، وقال تعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [(٣)] ، وقال عن صفات المؤمنين : ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ [(٤)] ، وقال عنهم : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [(٥)] ، إلى آخر ما ذكره اللَّه تعالى عن أوصاف المسلمين وسلوكهم الذي يعتبر نقطة مضيئة في ظلمات هذه الأرض وغرة في جبين الدهر .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٨٣

(٢) سورة طه ، الآية : ٤٤

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩

(٤) سورة الفرقان ، الآية : ٧٢

(٥) سورة الحشر ، الآية : ٩

أما بني الإسلام وما جاء به في تحقيق الإنسانية الخيرة فحدث ولا حرج فقد كان هو نفسه ﷺ مثال الإنسان الكامل قولاً وعملاً وسلوكاً لا يكاد التاريخ يعرف له مثيلاً في الرحمة بالإنسانية والعطف على جميع البشر رأى ذات يوم يمامة تحوم على رؤوس أصحابه فقال لهم من فجع هذه بأفراخها فقال رجل منهم أنا وهي معي فقال له أرجع إليها أفراخها ودنا إليه جمل مسن يشكو أهله أنهم يجيعون بطنه ويتعبون ظهره فرق له عليه السلام وأمر صاحبه بحسن معاملته فقال صاحبه هو حر لوجه اللّه تعالى ، وجاءت جارية تشكو إليه أن سيدها لطمها على وجهها فسأل سيدها فأخبره أنه لطمها حين رأى الذئب أخذ شاة من الغنم وأنه بشر يغضب وندم أشد الندم ورأى ذلك الرجل أنه لا يكفر عنه إلا أن يعتقها فتأكد الرسول ﷺ من إسلامها وأمره بعتقها ، وكان ﷺ يفرح لفرح أصحابه ويحزن لحزنهم ولا يبخل بشيء في يده عن أي سائل قال ذات يوم لأصحابه من له مظلمة عندي فليقتصها من الآن فقام رجل وقال يا رسول اللّه انك ضربتني بسوط في بطني وأنت تسوي الصفوف يوم بدر وأريد القصاص فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال اقتص فقام الرجل وأخذ يقبل بطن الرسول ﷺ ويبكي فقال الرسول ﷺ ما شأنك فقال أحببت أن يكون آخر عهدي من الدنيا بجسمك . وكان ﷺ يحنو على الصغير ويحترم الكبير ويستشير أصحابه في كل ما يهمهم إلى آخر تاريخه المشرق الذي تتضاءل أمام جزء من عظمته عباقرة العالم .

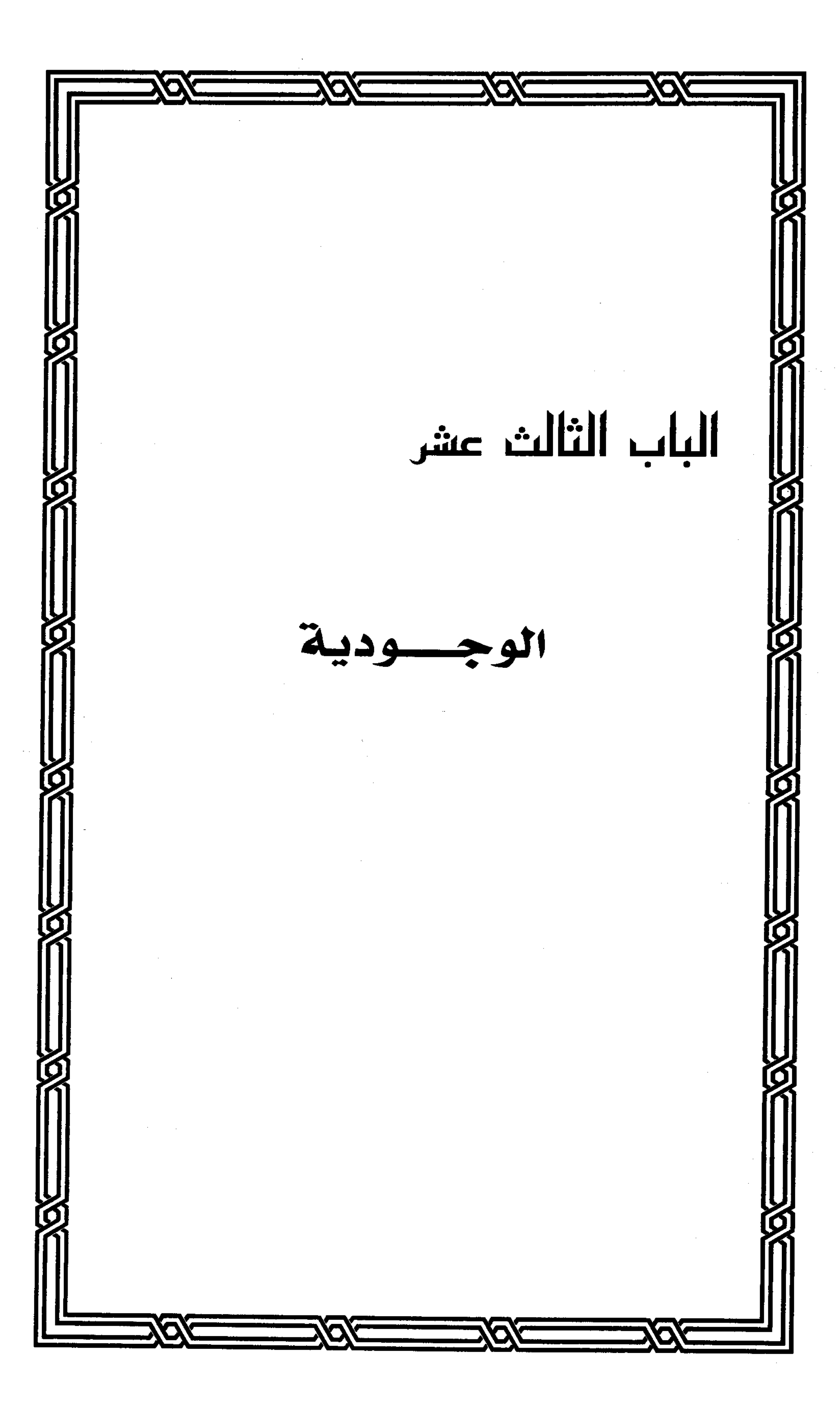
ولقد اقتفى المسلمون أثره وتأسوا به وحققوا الإنسانية الصحيحة خير تحقيق في أنفسهم وفي أموالهم وفي كل تصرفاتهم .

كان أحدهم لا يشبع وجاره جائعاً ولا يشرب وصاحبه ظمآن كانوا كلهم أمناء لا يقربون الغش صادقين لا يتعمدون الكذب رحماء يرجون رحمة اللّه تعالى أوفياء في أقوالهم وفي أفعالهم الضعيف فيهم قوي حتى يأخذ حقه والقوي ضعيف حتى يؤخذ منه الحق والمظلوم كلهم أنصاره حتى ينتصف ممن ظلمه كانوا يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً لا يريدون من أحد جزاءاً ولا شكوراً وإنما يريدون مغفرة اللّه تعالى ورضوانه .

إن دعاة الإنسانية اليوم هم أقل وأذل من أن يوحدوا القلوب ويؤلفوا بينها في سعادة كالتي عاشها المسلمون بل شبه تلك الحياة لأن أولئك كانوا يهتدون بهدى اللّه تعالى وهؤلاء قد اتخذوا الشياطين أولياء لهم أهدافهم خبيثة استعمارية ووسائلهم قذرة قائمة على الاستمتاع بكل أنواع الفجور والاستهتار بكل القيم وجحد برب العالمين الذي تشهد كل ذرة من ذرات هذا الكون بوجوده وخلقه وقهره ومصيرهم إليه في يوم تشخص فيه الأبصار .

وعلى المسلم أن يكون يقظاً مبتعداً عن مضلات الفتن ودعاة جهنم وأن لا يصغي إلى هذه التيارات التي يموج بها العالم فهي ضلالات مدمرة لكل تراث الإسانية في دينهم ودنياهم وآخرتهم .





الباب الثالث عشر

الوجـــودية



الباب الثالث عشر

الوجـــوديَّة

وتشمل دراستها الفصول الآتية :-

الفصل الأول : التعريف بالوجودية .

الفصل الثـــاني : أقسام الوجودية .

الفصل الثـــالث : ظهور الوجودية وأبرز زعمائها .

الفصل الرابـــع : من هو سارتر .

الفصل الخامس : الوجودية هي الفوضى .

الفصل السادس : أسباب انتشار الوجودية .

الفصل الســـابع : الرد على الوجوديين .

الفصل الأول

التعريف بالوجودية

الوجودية مذهب ظهر في أوروبا اثر الصراع مع الكنيسة اتخذ طابعاً مختلفاً في التلفت والعصيان يتلخص في تقديس الانسان لنفسه أولاً وأخيراً وأن يرتع في المعاصي واقتناص الشهوات كما يحلو له دون الخوف من حسيب أو رقيب أو عرف ينطلق صاحبه كما تنطلق البهائم ، ولهذا فقد مثل هذا المذهب الفوضوية في أكمل صورها .

الفصل الثاني

أقسام الوجودية

قبل أن ندخل في تفاصيل الوجودية نتطرق أولاً لما يذكره بعض العلماء حول قضية الوجود والعدم التي هي من الوضوح بحيث لا تخفى على أحد إلا أن عبث الفلاسفة وخيالاتهم التي تسرح هنا وهناك لم تقف بهم عند حد في إيراد الشبهات وهؤلاء يبحثون الواضح حتى يجعلونه غامضاً بما يخترعونه من أفكار متضاربة واستنتاجات بعيدة وافتراضات خيالية ، وحينما كان الناس على فطرتهم السليمة ما كانوا بحاجة إلى من يشرح لهم قضية الوجود والعدم لأنهم كانوا يحكمون على الموجود بأنه موجود وعلى المعدوم بأنه معدوم وأن الموجود هو مقابل المعدوم والمعدوم يقابله ضده الموجود . في بداهة لا تعرف التعقيد . كما أن كلمة «الوجود» لم يذكرها اللّه في القرآن الكريم ولا ذكر كذلك فكرة العدم بالمعنى الذي ذهب إليه الفلاسفة . وبتتبع الموجودات فإنك ستجد أن أول ما يظهر لك أنها تنقسم إلى قسمين :-

١ - موجودات مشاهدة ومحسوسة .

٢ - موجودات غير مشاهدة وإنما هي في الأذهان تسمى الموجودات العقلية أو المنطقية .

وسارتر يرى أن العدم لا معنى له إلا من جهة ما هو نقي شيء أو فقدان

شيء فلا وجود للعدم بذاته وإنما يعود إلى تصور الإنسان له والقصد هو انكار الحياة الأخروية والإسلام يقرر أن فكرة العدم المحض بالنسبة للإنسان غير صحيحة بل إنه سيحيى حياة أخرى بعد نهاية حياته الدنيوية ويؤكد اللّه هذا في كثير من آيات القرآن الكريم ويؤكده نبيه ﷺ في أكثر من نص في السنة النبوية [١] .

وقد يقسم بعض العلماء الفلسفة الوجودية المعاصرة إلى :

١ ـ الوجودية المسيحية ويمثلها «كير كجارد» المسيحي ، ومفادها أن قلق الإنسان يزول بالايمان باللّه تعالى وهذه الوجودية هي احدى المراحل التي مرت بالمفاهيم الأوروبية .

٢ ـ الوجودية الإلحادية ويمثلها «هيدجر» و «سارتر» ، ومفادها أن الانسان له مطلق الحرية في اختيار ما يريده ويوجده مما يترتب عليه قلقه ويأسه [٢] .

٣ ـ الوجودية التي يمثلها «جاك مارتيان» المسيحي والتي أقامها على فلسفة «تومالاكويني» الفيلسوف الإيطالي أشهر ممثلي الفكر الكاثوليكي الذي كان يرى أن الفلسفة تعتمد على العقل وحده أما اللاهوت فهو يعتمد على الوَحي دون أن ينكر العقل وزعم أن الايمان باللّه يحد من الرغبة في الوجود ويحد من الخوف من العدم [٣] .

---

(١) بتصرف عن كتاب «المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها» ص ١٩٩ .
(٢) انظر الموسوعة العربية الميسرة جـ ٢ ص ١٩٤٥ .
(٣) انظر كواشف زيوف للميداني ص ٣٦١ .

وأساس مفهوم الوجودية عند أقطابها وخصوصا سارتر : هو أن يحقق الانسان ذاته ويسبر غور نفه وأن لا يرد نفسه عن أي شيء تشتهيه ليحقق الشخصية التي ينتهي إليها دون رقيب ليشعر بوجوده حراً طليقاً .

ويجب أن نفهم أن الوجوديين بينهم فوارق كبيرة بالنسبة لنظرتهم إلى أنفسهم أو إلى اللّه تعالى أو الدين وأشدهم شراً سارتر الملحد .

الفصل الثالث

ظهور الوجودية وأبرز زعمائها

لقد قامت الوجودية في الغرب في فرنسا كما قام غيرها من المذاهب الفكرية الضالة التي تنادي بالانفلات والتحرر من تلك الأوضاع البائسة التي خيمت على أهل أوروبا بثقلها الثقيل طوال سنوات عديدة وما إن تنفس أهل أوروبا الصعداء ووجدوا نوعاً من الحرية إلا وهاموا في كل واد إذ أصبح الحبل على الغارب وعملت الأفكار أعمالها بعد أن كانت مكبوتة في عهد البابوات والاقطاعيين والسلطات الجبارين إلا أنه ليس هذا هو السبب الوحيد في قيام الوجودية بل كانت هناك أسباب أخرى سيأتي ذكرها وحينما قام مذهب الوجودية جرف في طريقه كل مظاهر الولاء للّه تعالى وللأديان وللأخلاق وجعل الانسان إله نفسه يجب أن يفعل كل ما يروق له بمفرده وباختياره له مطلق الحرية في أن يعيش كما يشاء كما أكده الملحد اليهودي جان بول سارتر زعيم الوجودية الملحدة الذي أشاعها وروج لاعتناقها وإن كان قد سبق إليها الفيلسوف الفرنسي «جبريل مارسيل» المولود سنة ١٨٨٩م وقبله الدانمركي «سورين كير كجورد» سنة ١٨١٣م الذي كان متأثراً بالمسيحية البروتستانتية ومن مشاهير الوجودية «سيمون دي بوفوار» عشيقة «سارتر» التي قضت حياتها معه دون زواج شرعي كما يذكر الباحثون ومن زعمائها قبل «سارتر» الألمانيان «مارتن هيدجر» ١٨٨٩م ، و «كارك يسبرز» ١٨٨٣م [(١)] ولكنهما أقل منه إلحادا .

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٨٩٩ .

ومن المشاهير أيضاً في روسيار «بيردياثيف» و «شستوف» و «سولوفيف» وغيرهم ممن عاش الأحداث المؤلمة والأحزان المتوالية والعقائد الباطلة التي لا تتفق مع العقل ولا الواقع أيضاً التي تزخر بها الديانة النصرانية المحرفة في عصورها المختلفة .

ويذكر الباحثون أن الوجودية قد عرفت منذ زمن بعيد ـ قبل سارتر ـ إلا أنها لم تقم في البداية على الإلحاد أو إنكار وجود اللّه تعالى أو محاربة الأخلاق والفضائل ، بل إن زعمائها من فلاسفة اليونان مثل سقراط ما كانوا يحاربون الدين ـ المسيحي ـ فيما يذكر عنهم إلا أن الوجوديين بعد أولئك قد أوغلوا في بعض الأفكار التي استفادوا من اشاراتها وبنوها على الإلحاد تحقيقاً للتضليل اليهودي بزعامة سارتر الذي أقام وجوديته ـ كما أسلفنا ـ على أن الانسان هو الخالق لحياته وتفكيره بتطوره المستمر حسب إرادته وميوله دون أن يكون له مشارك مدبر خارج ذاته ـ نفي وجود اللّه ـ فهو الذي يخلق الخير والشر والطيب والخبيث باختياره وإرادته ولكن عند التدقيق في النتيجة حول هل يحاسب الانسان بفعله إن خيراً أو شراً ويتحمل مسؤوليته أم لا ؟ نجد سارتر قد تناقض في الجواب إذ زعم أن الانسان قد لا يتمكن من فعل كل ما يريد وقد يفعل أمورا يستحق عليها الجزاء لأنه هو المسؤول عنها وكان الأولى على مذهبه أن لا يقول بمسؤولية الانسان عن أي فعل يفعله أو يتركه وأن لا يقال لأي أمر أنه خير أو شر بحكم ما قرره ساتر من وجوب بحث الانسان عن نفسه دون أي مبالاة أو رقيب ولأن كل فاعل لأي فعل سيفسره على أنه عمل خير حتى وإن كان ذلك الفعل هو ارتكاب أفظع الجرائم ومن هنا فإنه لا تبقى أي حقيقة مسلمة ولا يصح أن يقال هذا حلال وهذا حرام أو هذا خلق فاضل أو غير فاضل فالأمر كله من حق الشخص .

الفصل الرابع

من هو سارتر

ونظراً لشهرة سارتر في الوجودية ولرغبة البعض في معرفة هذه الشخصية فنخصه بالترجمة الآتية :

هذا الشخص هو الفيلسوف «جان بول سارتر» وهو يهودي صهيوني فرنسي ولد سنة ١٩٠٥م في باريس ، ومات بها ١٩٧٩م كانت له عدة أدوار في حياته وله مؤلفات أحرزت نجاحاً جعلته الممثل الأول للوجودية في فرنسا وكان من أنصار اسرائيل ومن أكثر الملحدين ايغالاً في اللامعقول وفي هدم حياة الناس كما هي نزعة سائر اليهود .

كانت الوجودية قبل سارتر مذهب للفلاسفة الذين يؤمنون باللّه تعالى وبعضهم دينون مسيحيون ، ولم يكن هو المؤسس الأول للوجودية بل هو عالة على من سبقه فيها ولكنه نال شهرة فيها بسبب انتشار كتبه وكثرة مواقفه في إيضاحها [(١)] .

وقد كان للفيلسوف «هيدجر» الألماني المولود ١٨٨٩م والفيلسوف اليهودي «جان بول سارتر» أكبر الأثر في تحويل الوجودية إلي الإلحادية وقد أقام سارتر فلسفته الوجودية الالحادية على نوعين :

- **النوع الأول** : ما هو موجود في الخارج بذاته ووجوده حينئذ يكون

---

(١) انظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ٢٢١ .

بالفعل لا بالقوة حسب زعمه فالخشبة مثلاً هي خشبة تامة وكاملة لا يمكن أن تكون باباً أو نافذة حسب زعمه وهذا باطل وإنكار للواقع .

- **والنوع الثاني** : يريد به وجود الأشياء في الذهن وسماها الموجودات لذاتها أي التي تريد أن تحقق ذاتها فقط وليس ثم شيئاً خارجهاً عنها وهو غير مستقر بل دائم التغير وهذا هو السبب في أن حرية الانسان هي صميم وجوده الشعوري المشتمل على مختلف النوازع في الانسان لكي يحقق ذاته بنفسه «لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة» ومن هنا أنكر سارتر وجود اللّه تعالى وأنكر الرسل لأن وجود الإنسان قائم على ذاته فق وليس هناك رقيب عليه أو لا يجب أن يكون عليه أي رقيب إذ هو الخالق لذاته وما يعمله وكذلك لا خير ولا شر في هذا الوجود وإنما مرد ذلك إلى نفس الإنسان ومزاجه في الحكم على الأمور من حيث يعتبرها خيراً أو شراً وليس عليه أية مسؤولية تجاه أحد ولكنه هنا أدرك استحالة هذا الأمر فقرر أن الانسان مسؤول عن عمله وهذا تناقض منه واضح شأن أهل الباطل - كما تقدم - ونظرية سارتر قامت أساساً على عدم الاعتراف بموجد هذا الكون وان وجود ما في هذا الكون هو الوجود ذاته القائم بنفسه دون أي تأثير ومعنى هذا أن كل موجود في الخارج يكون هو الذي أوجد ذاته بنفسه وهو كلام متناقض أشنع التناقض حمله عليه رغبته في تضليل الناس وابعادهم عن الإقرار باللّه تعالى لتكون نظريته رافدا آخر للماركسية قال تعالى ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** (٣٥)﴾[1] .

---

(١) سورة الطور ، الآية رقم : ٣٥

حارب سارتر صفة الإمكان في الموجودات وزعم أن كل موجود لا يمكن أن يصدر عنه وجود آخر على أية صفة فالحجر يبقى حجراً دائما والخشبة تبقى خشبة دائماً وهكذا سائر الأشياء وكابر العقل في هذا وأنكر الواقع فما يكذبه أن الحجر قد يكسر ويبنى به ويعمل منه أشياء كثيرة والخشبة قد تقطع ويمكن أن يستفاد منها في عدة أغراض فتكون عصاً وتكون باباً وتكون غير ذلك حسب ارادة الانسان والحديد يمكن أن يكون باباً أو سلاحاً وقطعة القماش يمكن أن تكون ثوباً أو عمامة وغير ذلك فنفى الامكان في الأمور مكابرة وخيال سخيف منه وزعمه أن لا خالق لهذا الكون وأن الفكر يجب أن يقتصر على النظر إلى الموجودات بحد ذاتها لا على أن لها موجوداً آخر هو زعم كاذب ترده النصوص الإلهية والعقول السليمة لأن الذي يتأمل الموجودات ويفكر فيها لابد وأن يصل إلى نتيجة حتمية وهي أن لكل موجود موجد ولابد وفلسفة سارتر تريد أن يقطع الانسان مثل هذا التفكير لئلا يجره إلى الايمان باللّه تعالى وأنه هو الموجد لهذه الموجودات المختلفة [1] .

(١) بتصرف عن كواشف زيوف ص ٣٧٧ .

الفصل الخامس

الوجودية هي الفوضى

لأنه حينما دعت الوجودية الى التجرد التام من كل القيم والمثل والأخلاق والأعراف فإن معناها يعادل معنى الفوضوية والفراغ بأكمل صوره فهي تتمثل في عبادة الانسان لذاته وذلك بأن يمتعها بكل ما يستطيع الوصول إليه من المتع الدنيوية فلا وجود فيها للإله ولا للدين ولا للأخلاق ولا مكان فيها للحشمة أو العيب لأن هذه الأمور في نظر الوجودية قيود تكبل صاحبها عن انتهاب اللذات في وجوده الذي لا يعود إليه إذا فارق الحياة حسب اعتقاده فالوجودي يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء دون أي اعتبار إلا رغبته هو وبالتالي فلا خير ولا شر ولا وطن ولا زوجة ولا مجتمع كل هذه قيود يجب حذفها عند الوجودي ولهذا وجدت هذه الوجودية القذرة طريقها إلى قلوب الشباب والشابات في أوروبا وأمريكا وغيرها فأنشأت لها نوادي العراة والهيبز والخنافس الذين يهيمون في هذه الحياة لا يدرون إلى أن يسيرون ولا إلى أي مكان ينتهون إليه بل ان الوجوديين يعيبون على أهل الدين أنهم جبناء وانهم يهربون من واقعهم إلى واقع آخر لا وجود له وهي الآخرة وما فيها وأن الشجاع هو الذي لا يلقي بالا لما تذكره الأديان من بعث وحساب وجزاء .

إن الوجودية غزو فكري من أخطر دعوات الهدم والاباحية وقد تلقفها اليهود عن اليهودي سارتر وأشاعوها واذاعوها لما يرون من فائدتها في تحطيم حياة الجويم وانشغالهم بها عن مخططات اليهود لاستعمار العالم كله .

الفصل السادس

أسباب انتشار الوجودية

ولسائل أن يسأل بالحاح فيقول إذا كانت آراء الوجودية بهذه الضحالة والسخافة فكيف انتشرت وكيف تقبلها الناس ؟ والجواب : إنه بالتأكيد أن آراء الوجودية في غاية السخافة والبطلان ولكن لا يغيب عن ذهن السائل أن لكل صائح صدى أو كما قال الشاعر :

لكل ساقطة * في الحي لاقطة**

وبداهة يعلم أن الذين تقبلوها ونشروها إنما يريدون من ورائها ما أراد مؤسسوها الأوائل من إشاعة الإلحاد وهدم الأخلاق والأديان ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [١] .

وأول ما يدل على بطلانها وسخافتها موقف دعاتها من وجود رب العالمين الذي يدل على وجوده جميع ذرات هذا الكون سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيرا لكنه خفي في أذهانهم حين استبعدهم ابليس وجنوده وقد حدثت أمور خطيرة استفاد منها الوجوديون في ترويج أفكارهم وذلك أن بشاعة الحروب العالمية وغيرها وأخطارها وما كانوا ينتظرونه من ظهور الفتن المتتابعة وتسلط الكنيسة وطغيانها وكذا ما تدعو اليه الوجودية من الانطلاق واهبتال الشهوات وتهوين أمر

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٣

الفواحش وأنها المنقذ الوحيد من الشقاء فتلقفها الشباب والشابات والمراهقين والمراهقات على أنها حقيقة يجب أن تطبق فانتشرت الفوضى الجنسية والإباحية التي لا حدود لها ضاربين بكل القيم والمثل الدينية والاجتماعية عرض الحائط . كما أن اليأس الذي كان يعيشه الأوروبيون والبطالة الشديدة والاستغلال الجشع من قبل أصحاب الأموال مع جهل مطبق بالدين الحق كل هذه كانت روافد لتقبل المحرومين والمترفين على حد سواء للأفكار الوجودية .

الفصل السابع

الرد على الوجوديين

لقد أقام سارتر وجوديته على غاية التناقض «فزعم أن الشيء يوجد أولا ثم يصنع الشعور الانساني له ماهية» [١] .

فبأي عقل يتصور الانسان أن الشيء يوجد من غير موجد ويكون أيضاً في غاية الاتقان إن لم يكن هناك خلاق عالم أوجده على الماهية التي يريدها ؟ ومعلوم أن الذي اضطره إلي هذا الزعم هو قيام فلسفته على الالحاد وانكار وجود اللّه تعالى وتصديق الأوهام والأفكار الفارغة .

ولقد هاجم سارتر كل القيم الاجتماعية وفندها وقلب الأمور فيها رأساً على عقب بدافع حقده اليهودي وخلاعته ورغبة اليهود في استحمار العالم كله حينما يصبح العلم مثل الحيوانات لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ولقد ابتكر سارتر أفكاره من محض خياله دون أن يستند على أي دليل لا عقلي ولا نقلي مزخرفاً كلامه بشتى المغالطات والأساليب الفلسفة التي يحسبها الجاهل ماء فإذا هي سراب اضافة إلى ما تلمسه من الفلسفات التي سبقته كما أن دعواه أن الإنسان ليس له إلا هذه الحياة التي يجب على حد زعمه أن يتمتع بكل ما تريده نفسه هي حياة حيوانية لا تليق بالانسان الذي كرمه اللّه تعالى كما أن الحرية التي نادى بها هي حرية فوضوية لا تليق كذلك بالانسان .

---

(١) كواشف زيوف ص ٣٧١

يقول أبو جمعة : «ولقد عارض النظرية الوجودية مفكون غربيون كثيرون وحصروا أخطارها في عدة نقاط أساسية هي :

١ ـ أنها تجعل الانسان في عزلة عن الجماعة .

٢ ـ أنها تستطيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الانسانية وتدعو إلى الانحلال .

٣ ـ أنها تبطل الأوامر الإلهية وتنكر القيم الخالدة .

٤ ـ أنها تدعوا إلى اليأس المطلق والتشاؤم الكلي وتدعوا إلى هدم الحياة .

٥ ـ أنها دعوة إلى التمرد على الواقع والقيم جميعاً وترفض كل ما يتصل بالمغيبات والنفس الانسانية وتقف عند الإيمان باللحم والدم .

٦ ـ أنها تنكر محصول البشرية من القيم والتجارب وتدعوا إلى أن يبدأ الإنسان من جديد .

٧ ـ تحتقر الدين والعلم والأخلاق .

٨ ـ ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم أو بناء الحياة أو العمل من أجل مجتمع أفضل .

٩ ـ هي فلسفة موغلة في الفردية تنكر الحقيقة الموضوعية للواقع الإنساني .

١٠ ـ الأخلاق الوجودية هي أخلاق المرض ، القلق ، القنوط ، التشاؤم ، المرض ، الأنانية المفرطة .

١١ ـ تعمل على تقويض المجتمعات وهدم الأمل والخلق والغيرة ومعارضة الشجاعة والتضحية [١] .

إن الوجودية فوضوية بكل ما تحمله الفوضوية من معان آخذة من دعوى الحرية الشخصية ستاراً مع أن هذه الدعوى تعادل بالتعبير الصحيح الفوضى وليست الحرية التي يفهمها العقلاء وإنما هي حرية حيوانات لا حد لجماحها ونزاوتها حرية انحطاط وتخلف شائن واستعباد للشهوات دون أدنى تمييز أو تفكير فإن من تأمل مذهب الوجودية سيتضح له تماماً انها تدعو إلى الحياة البهيمية وأن يعيش الانسان مكباً على وجهه لا يرتبط بأية فضيلة أو سلوك بعيداً عن تكريم اللّه للإنسان ورفعه فوق كثير من الخلق وهي دعوى إلى عبادة الانسان لنفسه وهواه وقد قال اللّه تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)** ﴾ [٢] .

وفي حديث يرويه حُذَيفَة أن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ لجُلسائه : «أيُّكم سَمعَ قولَ رسول اللّه ﷺ في الفتن التي تموج مَوج البحر . فسكت القوم . وظننت أنه إيَّايَ يريد . قلت : أنا سمعته . قال : أنت سمعته !! قال : أنت للّه أبوك . قال : قلت : «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَنِصْفُ قَلْبٍ**

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ٨٠ ـ ٨١ نقلا عن «الإسلام والدعوات الهدامة لأنور الجندي ص ١٩٤ .

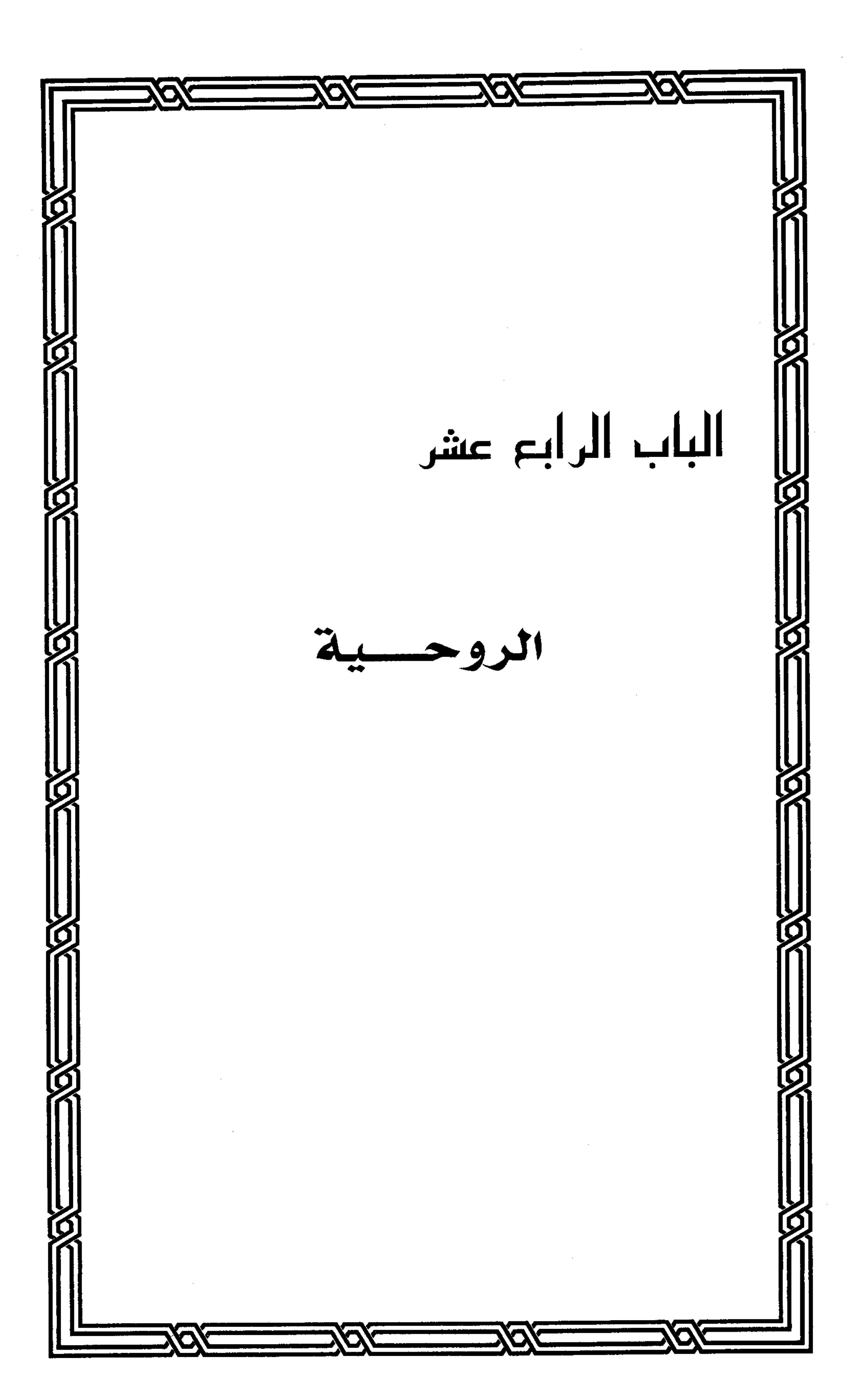
(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣

أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضَ مِثْلُ الصَّفَا لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَدًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا» وآمال كفَّه «لا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلا يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [1] ... الحديث ، وهكذا تفعل الفتن بأصحابها وفي الفتن كما قال الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته * حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن**

---

(١) انظر مسند أبو عوانه جـ ١ ص ٥٦ ومسند البزار جـ ٧ ص ٢٦٣ ومسند أحمد جـ ٥ ص ٣٨٦ ، ص ٤٠٥ .
قال أبو عوانة ـ أحد رواة الحديث ـ وتفسير الكُوز مُجخِّيا قال مَنكوساً مسند أبو عوانة جـ ١ ص ٥٧ .



الباب الرابع عشر

الروحــــية



الباب الرابع عشر

الرُّوحـــيَّة

الروحية مظهر من مظاهر نشأة المذاهب التي تبحث عن التفلت من الدين والوصول إلى الحياة السعيدة حسبما تصوره خيال دعاة الروحية في أوروبا وهي كذلك إحدى المحاولات التي يطلب أصحابها الاطلاع على المغيبات وخصوصاً ما يتعلق بالأرواح وقد وصل القائمون عليها إلى جل ما يهدفون إليه من زعزعة عقائد الناس والسير وراء الأماني الفارغة ومن جانب آخر وصلوا إلى ما يريدونه من جمع الأموال من المغفلين الذين يصدقونهم وكان لهذا المذهب صدى واسعاً لدى كثير من الناس مسلمين وغير مسلمين من العرب أو العجم على حد سواء وسنتناول دراسة هذ المذهب من خلال الفصول الآتية :

تمهـــــــيد :

الفصل الأول : تعريف الروح .

الفصل الثـــاني : ظهور الروحية .

الفصل الثـــالث : انتشار هذا المذهب .

الفصل الرابـــع : منزلة فكرة تحضير الأرواح .

الفصل الخامس : أدلة دعاة تحضير الأرواح .

الفصل السادس : مجمل عقائد الروحيين .

الفصل الســابع : حقيقة الروحية وأبرز زعمائها .

الفصل الثـامن : الروحية والملاحدة .

الفصل التاســع : قضية الإلهام .

●● تمهـــيد :

يعرف كل عاقل أن الإنسان مكون من جسم مُشاهد معروف بتفاصيله وأشكاله وألوانه وقوته وضعفه وغذائه وأن اللّه سخر له جميع أعضائه ليساعد بعضها بعضاً تتألم كلها لألم بعضها رحمة من اللّه تعالى بعباده ليفطن الشخص إلى مكان الألم فيعالجه قبل أن يستفحل الداء به ولولا وجود الألم في تلك الأعضاء لربما تلف العضو دون أن يفطن له الشخص .

أما تكوينه الآخر فهي الروح وهي أهم من الجسد وأشرف ، ببقائها في الجسد يكون الإنسان حياً وبمفارقتها له يكون ميتاً . يتم عليها الثواب والعقاب قال تعالى : ﴿ **الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [(١)]

ولقد كثر الخلاف واشتد بين سائر الطوائف في حقيقة الروح ولكنهم لم ولن يدركوا حقيقتها أبداً هذه الروح جعلها اللّه في غاية الظهور وفي غاية الخفاء . فإن ظهورها يتمثل في بقاء حركات الجسم إذ لولاها لسكن الجسم واضمحل وأما خفاؤها فيتمثل في أنه لا أحد على الاطلاق - غير اللّه تعالى - يعلم مكانها أو يرى حقيقتها فهي غيب مجهول للإنسان وقد بيَّن اللّه تعالى ذلك في كتابه الكريم أثر سؤال وجهه المشركون للنبي ﷺ بتحريض من اليهود قائلين له أين الروح ؟ فأجابهم اللّه تعالى بقوله : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾ [(٢)]

---

(١) سورة الملك آية : ٢

(٢) سورة الاسراء آية : ٨٥

وفي هذا الجواب قطع لكل طامع في معرفة سر الروح وهذا بخلاف ما جاء في التوراة المحرفة التي تذكر أن الروح هي الدم ولهذا يحرم اليهود أكله .[1]

ولكن هذا التفسير باطل ويكذبه الواقع فلو كانت الروح هي الدم لأمكن تلافي الموت بكل بساطة خصوصاً في عصرنا الحاضر الذي أمكن فيه نقل الدم من شخص إلى آخر في أسهل عمل وأتقنه .

وقد استقصى أخبار الروح الإمام العلامة ابن قيم الجوزية ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في كتاب الروح المنسوب إليه فصل فيه تفصيلات كثيرة ليست من أهداف هذه الدراسة هنا فذكر أن الأرواح تعرف زيارة الأحياء لهم وتُسلم على من يسلم عليهم في القبور وتعرف كل ما يجري على الأحياء من أهلها وأن التلقين ينفع الميت وذكر قصصاً منامية كثيرة اللَّه أعلم بصحتها وأكثرها يبدو عليه الضعف وعدم قبول العقل لها وذكر أن أرواح الأموات وأرواح الأحياء تتلاقى بقدرة اللَّه تعالى حينما ينام الحي وأن الأموات قد يرشدون الأحياء إلى أمور يجدونها فعلاً كما أخبرتهم به أرواح الموتى وقد حصل هذا فعلاً لبعض الصحابة والصالحين وهل تموت الروح أم البدن وحده ؟ اختلف العلماء في هذا وقد جمع بين ذلك الاختلاف بقوله : «والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها . فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وأن أريد أنها تنعدم وتفحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار»[2]

---

(١) وقد اشتهر من تعاليم التلمود أن اليهود في عيد الفصح لابد أن يأكلوا أكلاً خاصاً بهذه المناسبة ويكون قد عُجن الأكل بدم أحد المخالفين لليهود من الجوييم كما حصل للأب توما النصراني .

(٢) الروح ص ٤٩ ويظهر أن القول ببقاء الروح من الأمور المتفق عليها بين جميع الملل .

وثبت أن الروح ترجع إلى الميت في قبره عند سؤال الملكين له وأنها ترفع إلى السماء ثم تعاد إلى الميت في قبره في روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران كما جاءت بذلك السنة المطهرة كما ثبت عند أهل الحق أن الروح مخلوقة للَّه تعالى أوجدها بعد أن لم تكن ، وأنه على الصحيح أن الروح توجد بعد تكوين الجسد وأنها تفارقه إذا مات وأنها جسم في داخل جسم الإنسان ومن قال أنها عرض أو غير ذلك فقد أخطأ الحق .

كما أن الروح لا تعود بعد موتها على ما كانت عليه في الحياة الدنيا فقد أخبر اللَّه عز وجل في كتابه الكريم وأخبر نبيه ﷺ أن الميت عليه برزخ إلى يوم القيامة وأنه بعد الموت لا يمكنه أن يعمل فقد انتهى زمن العمل في الدنيا ولم يبق أمامه إلاَّ ما قدَّم في حياته الدنيوية من خير أو شر ولم يقل برجعة الروح إلى جسدها قبل يوم القيامة أحد من المسلمين ولا اعتبار لقول ابن سبأ ومن يتبعه من الرافضة فهو قول خارج عن أقوال المسلمين ومعتقداتهم .

وما زعمه الروحيون من أنها ترجع إلى الدنيا وتحضر وقت طلبهم لها وأنها تتجول بين الأحياء وتشاركهم أعمالهم وأن لها نفعاً ملموساً أو ضرراً ملموساً إن هو إلا افتراء وتكذيب بجميع الأديان التي أنزلها اللَّه على أنبيائه الكرام وهذا هو الثابت الذي يجب اعتقاده وترك أقوال الخرافيين من الصوفية وغيرهم من دعاة الروحية الضالين .

الفصل الأول

تعريف الروح

وقف البشر حائرين في معرفة هذه الروح أو التعريف بها فمنهم من أدلى بدلوه في التعريف بها ومنهم من أمسك مطلقاً عن الخوض فيها مرجعاً الأمر إلى اللّه تعالى وحده حيث أنه سبحانه لم يرد أن يبين للناس شيئاً عنها أكثر من أنها من أمره عز وجل فكيف نعرفها أو نعرف شيئاً عنها فأراحوا واستراحوا ومنهم من ذهب يعرفها بتعريفات اجتهادية كثيرة كلها تحتاج إلى أدلة لإثباتها وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ أقوالاً كثيرة في التعريف بها إلا أنه رجَّح قولاً واحداً وانتصر له وأورد أدلة كثيرة على تصويبه وهذا التعريف هو أحد الأقوال التي أوردها الرازي أيضاً في ذكره لاختلاف الناس في مفهوم الروح فقال : «والسادس أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جنس نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارقت الروح البدن وانفصلت إلى عالم الأرواح» ، قال ابن القيم : «وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة» [1] ، ثم أورد الأدلة على تقويته بلغت أكثر من مائة دليل .

---

(١) الروح ص ٢٤٢ .

وعرفها بعض العلماء بأنها هي الوجود الذي يدرك بالتصور العقلي ولا يدرك بالحواس كالمثل والقيم والمبادئ والعدل والرحمة والتعاون والخير والبر لأن هذه لا تدرك بالحواس وكذا الدين نفسه لأن مصدره الوحي الإلهي وهو لا يدرك بالحواس [١]

وأعتقد أن كل تعريف للروح يحتاج إلى إثباته بنص صحيح والأولى الوقوف على ما ذكره اللّه في كتابه وفي الموسوعة العربية الميسرة وصفوا البحوث الروحية بأنها نسبة إلي علم النفس الغيبي أو الهامشي يطلق على بعض الظواهر السلوكية .

أو الذهنية التي تقع خارج نطاق ما تفسره القوانين الطبيعية وهي ظواهر غريبة وخارقة للعادة» . [٢]

وهذا الوصف لتحضير الأرواح بأنه علم النفس الغيبي يظهر أنه غير صواب فليس هناك علم نفس غيبي إذ الغيب للّه تعالى وحده لا يصل إليه أحد بالتعلم إلا ما أخبر اللّه به أنبياءه ورسله .

ووصفها بأنها خارقة للعادة . ليس كذلك فإن علم تحضير الأرواح ـ كما يسمونه ـ ليس من الأمور الخارقة للعادة بل هو كذب وشعوذة يموهون به على من لا معرفة له بمسالكهم الشيطانية ونسبة المذهب إلى الروح إنما هو للإغراء والدعاية وظلم للروح حينما ينسب الروحيون مذهبهم إلى الروح . وهي منهم ومن آرائهم براء إلا أن تكون النسبة إلى أرواح الشياطين .

---

(١) بتصرف عن التطور والدين ص ٢٣ .

(٢) الموسوعة العربية الميسرة جـ ١ ص ٣٣ وانظر ص ٤١٦ .

الفصل الثاني

ظهور الروحية

ظهرت الروحية على أيدي بعض الكذّابين الذين انتسبوا إلى الروح في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وزخرفوا أقوالهم بالكذب وانجذب إليهم كثير ممن يطمحون إلى العلو في الأرض ونهب أموال الناس بالباطل للاثراء على حساب المغفلين وبالتالي فقد انخدع بهم كثير من الجهلة في أوروبا ثم امتد ذلك إلى البلاد الإسلامية وقد ظهر هذا المذهب في أوروبا كغيره من المذاهب الضالة التي وجهت لحرب طغاة الكنيسة والانفلات منهم ومن سائر التعاليم الإلهية والتطلع إلى استكشاف المجهولات فأصبحت الروحية جماعة خطيرة على الأديان يغذيها الخبث اليهودي والالحادي في تشويه الأديان والعقائد وعدم الاعتداد بما يقال في الدين من العذاب أو النعيم أو الأخلاق والأمور الغيبية .

واهتمت هذه الجماعة بخرافة تحضير أرواح الموتى وقد نشطت هذه الدعوى في بداية أمرها في أمريكا ولم يعرف لها مؤسس على التحديد فيما يذكر الباحثون ثم امتدت إلى العالم الإسلامي وتلقفها المتصوفة الخرافية وغيرهم وأصبح لها علماء مشاهير ومؤلفات ومؤسسات وجمعيات مثل «المعهد الدولي للبحث الروحي بأمريكا» وجمعية «مارلبورن الروحية» بانجلترا .

يزعمون أنهم يستحضرون روح أي شخص متى شاؤا ويتباحثون معها كل مشاكلها وأنها أجساد تحس بطريقتهم الغامضة التي تستند إلى الجن والسحر ويزعمون أنهم يأتون بمثل ما تأتى به الأنبياء وأن معجزات الأنبياء جاءت على طريقتهم ويسخرون من الأنبياء والمتدينيين ويمجدون الملاحدة ويدعون إلى نبذ الأديان والانصهار في دين واحد وغير ذلك من مبادئهم الكثيرة التي تدل على أنها دعوة ملحدة .

الفصل الثالث

إنتشار هذا المذهب

وقد انتشرت هذه الدعوى في عدة أماكن ـ بمساعدة الماسونية واليهودية العالمية ـ انتشرت في أمريكا وأوروبا ثم سرت إلى مصر وبعض الأماكن المتفرقة في العالم الإسلامية والعربي .[١]

ومدعين أن الروح تأتي طوع أمرهم وإرادتهم حينما يتقدمون إليها وفق طقوسهم في ذلك ، وهذا الكذب على الروح لم يكن الوحيد فقد كذبوا عليها كثيراً حتى أنهم أطلقوا على بعض المُسكرات مشروبات روحية من باب الخداع وتجيبها إلى النفوس وقد أخبر الرسول ﷺ عن هذا الصنف من الناس وأنهم في آخر الزمان يشربون الخمر ويسمونها بغير اسمها وهو ما حصل بالفعل وكما أكلوا الربا وسموه فوائد ولا أدري نسبة الخمور إلى الروح هل هي نسبة إلى مذهب الروحية الذي يجيزها أم نسبة إلى الروح التي هي منها براء .

---

(١) انظر الموسوعة الميسرة ص ٢٥١ ـ ٢٥٤ .

الفصل الرابع

منزلة فكرة «تحضير الأرواح»

لقد اجتذبت فكرة تحضير الأرواح الكثير من الناس في الشرق وفي الغرب مثقفين وغير مثقفين فذهبوا في تثبيتها كل مذهب ظانين أن وراءها نفعاً عاجلاً وحلاً جاهزاً لما يدور في رؤسهم من حب الاطلاع على المغيبات فإذا بهم يلهثون وراء سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

ولقد كان لفكرة الكشف والتعلق به أقوى حافز عند بعض جهلة المسلمين إلى الولع بفكرة تحضير الأرواح ثم جاء الدافع القوي وهو القول بوحدة الوجود فزاد الطين بله ورغم أن كثيراً من الكتاب قد أسهموا بإسهام وافر في تثبيت هذه الفكرة من العرب ومن غير العرب .

أما من العرب فمن أمثال د. علي عبدالجليل راضي [(١)] ، ومحمد فريد وجدي ، ود. رؤوف عبيد الذي أصدر مجلة «عالم الروح» ، وأحمد فهمي أبو الخير أمين عام الجمعية المصرية للبحوث الروحية وأما زعماؤها في الغرب فهم «سلفر برش» و «هوايت هوك» ، حيث أقامها هؤلاء على القول بوحدة الوجود رغم ذلك كلة فقد رفضها أهل العقول وسخروا منها ورَووا فيها الفكاهات المضحكة والتناقضات الواضحة في أفعال وأقوال

---

(١) انظر الصوفية معتقدوا مسلكا ص ٢٦٢ وانظر الموسوعة الميسرة ص ٢٥١ ـ ٢٥٤ .

وسلوك زعماء هذه الفكرة الضالة الخرافية وعلموا يقيناً أن الهدف الأكبر من وراء دعوى تحضير الأرواح إنما هو استجلاب الناس إليهم وخصوصاً العوام منهم ليحصلوا على أمور الواحد منها يعتبر مكسباً كبيراً يحوزه هؤلاء أهمها . رفع مكانة أقطاب دعاة الروحية وتعظيم أمرهم في نفوس الناس والحصول على الأموال بدون مشقة واضعاف التدين في النفوس والاسهام في خدمة اليهودية الحاقدة من وراء ستار .

ولذلك فهم يحاولون بشتى الوسائل ونشر أقوى الدعايات لتقوية قضيتهم في تحضير الأرواح زاعمين أن هذه الأمور إنما حصلت لهم على سبيل الكرامة الإلهية لوصولهم إلى حد معرفة الحقائق والاطلاع عليها مباشرة بدون واسطة أحد أو لأنهم عرفوا بزعمهم كيفية الوصول إلى استحضار الأرواح فلم يعد للغيب مكانة خارجة عن إرادتهم .

وحينما لهث الناس إلى معرفة بعض المغيبات ـ وخصوصاً بعد هذه الحركة العلمية والتطور المادي وظهور التنويم المغناطيسي وجمعيات تحضير الأرواح ـ استغل هؤلاء هذه الكشوفات وزعموا أنها أدلة لهم على صحة ما يذهبون إليه ، ومما ينبغي التنبه له أنه قد يحصل لبعض الصالحين ممن صفت نفوسهم نوع من الكشف بمعنى الإلهام والنفث في الرَّوْع . ولكن ليس ذلك صفة مستمرة كما يدَّعي الروحيون في زعمهم أن الروح جسم مادي شفاف يستحضرونه متى أرادوا وأن الموتي بعد الموت مباشرة يكونون في عالمنا هذا ومن حوالينا ثم ينتقلون إلى درجة أرفع في

هذا العالم وأنه يمكن مكالمة الروح بعد خروجها من الجسم ورؤيتها مجسمة بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لذلك عند إرادة تحضير الروح فتستفيد الروح من استعداده فتكلم الناس بلغات يجهلونها وتنبئ عن أمور الحاضرين من أقاربها ولاشك أن هذا كله دجل وكذب وهوس فارغ وتلك اللغات التي تخاطبهم بها تلك الأرواح إنما هي لغات الشياطين لا أرواح الموتى من بني آدم وهذا جزء من مكر إبليس بأتباعه .

الفصل الخامس

أدلة دعاة تحضير الأرواح

من الإفك أن يستدل الذين يؤمنون بتحضير الأرواح من المتصوفة وغيرهم من الروحيين ببعض الآيات القرآنية من مثل قوله تعالى :

١ ـ ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾[1]

أي أن روح الميت حضرت في صورة تلك البقرة وتكلمت .

٢ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾[2]

أي أن إبراهيم عليه السلام استدل بتحضير الأرواح وازداد طمأنينة وإيماناً بحضورهم عنده حينما استحضرهم .

نعم نؤمن ببقاء الأرواح بعد الموت . إذ الموت للجسد فقط لا للروح وهي إما أن تكون في نعيم وإما في عقاب وقولهم إن الأرواح تعمل بعد

(١) سورة البقرة ، الآيتين : ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) البقرة آية : ٢٦٠ .

الموت لترتفع في الدرجات غير مسلم . إذ لا عمل بعد الموت كما قرره الإسلام بل أن الروح إما أن تكون في نعيم أو في عقاب فقط .

أما استدلالهم بالآيات فهو خطأ فاحش وسوء فهم فإن قتيل بني إسرائيل وكذا طيور إبراهيم قامت بأرواحها وأجسادها معاً معجزة من اللّٰه تعالى لنبيه موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وبدون وسيط .

وهؤلاء المشعوذون الكاذبون إنما يحضرون قرين الميت من الجن الذي عاش معه طوال حياته وعرف كل شيء عنه فإن كل إنسان له قرين . فهؤلاء يظنون أنهم يخاطبون تلك الروح التي أرادوا تحضيرها ولا يعلمون أنهم إنما يخاطبون قرينه من الجن هذا إن صدقناهم أنهم يخاطبون أحداً أو يسمعون كلامه .

ومما يدل كذلك على كذبهم ما زعموه من تحضير أرواح بعض الكفار فوجدوهم في نعيم مقيم وهو ما كذبه اللّٰه في القرآن الكريم من دخول الكافرين النار ثم ما يعمل من المنكرات التي تفعل في مجالس التحضير مما يوافق هوى الشياطين ولا يمت إلى الدين بصلة .

وما عرف كذلك من التصرفات الباطلة لتلك الأرواح فإن «منها من يفتري على اللّٰه الكذب وعلى أنبيائه وكتبه وملائكته ورسله . ومنها من يضلل الناس ويحقر الأديان ومنها من يكذب ويأمر بالفجور والشرك والكفر والعصيان وهي أعمال يرفض العقل السلم والدين الحنيف أن تكون صادرة عن أرواح بين يدي اللّٰه» (١)

---

(١) انظر تحضير الأرواح وتسخير الجان بين الحقيقة والخرافة ص ٢٧ .

٣ ـ ومن أدلتهم التي يتناقلها الروحيون ما نقله الشيخ مجدي محمد الشهاوي عن محمد شاهين حمزة أحد دعادة الروحية في كتاب له [١] ، يدافع عن الروحية ويثبت أنها صحية وأن تلك الأرواح ليست أرواح جن أو شياطين وانما هي أرواح حقيقية آدمية طاهرة ـ حسب زعمه ـ وذكر من أدلته على طهارتها ونقائها أنه حضر جلسة روحية حضرت فيها روح الدكتور [٢] ، حندوسة ذات مرة فسألوها سؤالاً طبياً عن حالة أحد الحاضرين فطلبت منهم الانتظار دقيقة واحدة ريثما تجري الكشف عليه ثم أعطتهم تشخيصاً دقيقاً للمرض وأحاله في علاجه إلى طبيب معروف في القاهرة .

ومنها أنه كان في إحدى الجلسات فحضرت روح صديق له ونصحته بالانضمام إلى الطريقة الشاذلية !! [٣]

وحضرت روح محمد فريد وجدي في أسوان ونهتهم عن بعض الأمور الخطيرة كما حضرت مرة روح طنطاوي جوهري ونفت بشدة أن يكون المسيح قد صلب . [٤]

وذكر أنه في إحدى الجلسات تكلمت إحدى الأرواح في حفلة المولد النبوي وذكرت كلاماً لم يعجبه شيء مثله ، [٥]

---

(١) هو كتاب الروحية الحديثة ص ١٢٢ ـ ١٢٥ .
(٢) أي الطبيب .
(٣) وهذا دليل واضح على تلاعب الشياطين بمن قلت معرفته للحق .
(٤) وهذه تبرأة واضحة لليهود وان كانت صحيحة في الأساس لكنهم يريدون بها الدفاع عن اليهود .
(٥) وهل المولد من أمور الدين ؟ كلا .

وفي جلسة أخرى قالت لهم إحدى الأرواح : إننا نحن الأرواح نحتفل في عالمنا بالمولد النبوي الشريف مثلكم وكانت جلسة اشترك فيها بعض أساتذة الجامعات وبعض كبار رجال التربية والتعليم في دار أحدهم بالجيزة وقد عقَّب عليه الشيخ الشهاوي بالرد العام بابطال أن تكون تلك الأرواح أرواحاً طيبة بل إنها أرواح جن .[1]

وأضيف إليه أن أمر تلك الأرواح بالتزام الطريقة الشاذلية البدعية الخرافية وأمرها بالاحتفال بالمولد يكفي دليلاً على تلاعب الشياطين بهؤلاء واجتهادهم في اضلال الناس .

وقد ظهرت وقائع كثيرة من بعض محضري الأرواح اكتشفوا فيها أن الروح المحضرة انما هي قرين الميت من الشياطين أو من غير قرينة إذ أنهم يعترفون بذلك حينما يقرأ عليهم القرآن آية الكرسي وغيرها إما بانصرافهم فور سماع القرآن الكريم وإما باعترافهم أنهم شياطين أتوا إلى المحضرين ليضلوهم وليتلاعبوا بهم .[2]

(١) انظر تحضير الأرواح وتسخير الجان بين الحقيقة والخرافة ص ٣٣ ـ ٣٨ .
(٢) انظر لمزيد من الأمثلة المرجع السابق ص ٣٨ ـ ٤٧ .

الفصل السادس

مجمل عقائد الروحيين

وقد لخص كتَّاب الموسوعة الميسرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الأفكار التي قامت عليها الروحية الحديثة نقلتها بتمامها لما فيها من الفوائد في اطلاع القارئ على كل مزاعم الروحية .. وقد أضفت إلى كل عنصر ليس عليه تعليق في الموسوعة تعليقاً خفيفاً لايضاح محتوى الفكرة ، فقد أعلنت مجلة «سينتفك أمريكان» عن جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية ولكنها لاتزال تنتظر من يفوز بها ، وكذلك الحال بالنسبة للجائزة التي وضعها الساحر الأمريكي «دنكر» لنفس الغرض وهذا من أكبر الأدلة على بطلانها ، إذ لا أحد يستطيع اثبات هذا أبداً . وتتلخص مزاعم الروحيين فيما يلي :

١ ـ يقولون بأنهم يحضرون الأرواح ويستدعون الموتي لاستفتائهم في مشكلات الغيب ومعضلاته والاستعانة بهم في علاج مرضى الأبدان والنفوس والارشاد عن المجرمين والكشف عن الغيب والتنبؤ بالمستقبل ومعلومٌ أن هذه الأمور لا يقدرون عليها وهم أحياء فكيف تُطلب منهم بعد موتهم ؟

٢ ـ يزعمون أن الروح يمكن ادراكها بأنها تتجسد وتُلمس كما يدعون بأن بعض الأرواح تظن أن أصحابها لايزالون أحياء ، وهذا مجرد تخرص منهم لا يستطيعون اثباته بحال .

٣ ـ الأرواح عندهم بمثابة الخدم تستجيب لأي اشارة منهم وهذا كذب وقد تناقضوا فيها فمرة يجعلونها خدماً ومرة يزعمون أنها تعلم الغيوب .

٤ ـ يعتقدون أن هذه الأرواح التي يستحضرونها مرسلة من عند اللّه إلى البشر كما أرسل المرسلون من قبل وأن تعاليمهم أرقى من تعاليم الرسل ، فكيف يتم هذا وهم ينكرون اللّه تعالى ورسله ؟

٥ ـ يزعمون أن هذه الأرواح تساعدهم في كشف الجرائم والدلالة على الآثار القديمة كما يدعون أنهم يعالجن مرضى النفوس من هذه الأرواح كذلك . هذه دعاوي كاذبة لا يستطيعون اثباتها .

٦ ـ يدعون أنهم يستطيعون التقاط صور لهذه الأرواح في الأشعة تحت الحمراء ، فلماذا لا يفعلون ذلك !!؟

٧ ـ يحاولون إضفاء الجانب العلمي على عملهم وهو في الواقع لا يخرج عن كونه شعوذة وخداعاً وتأثيراً مغناطيسياً على الحاضرين ، واتصالاً بالجن .

٨ ـ لا تتوفر في عملهم الشروط الواضحة ولا يمكن اعادته من كل شخص بخلاف التجارب العلمية .

٩ ـ يقومون بهذا التحضير في حجرات خاصة شبه مظلمة وفي ضوء أحمر خافت وكل ما يدعونه من التجسيد للأرواح ومخاطبتها لا يراه الحاضرون وإنما ينقله إليهم الوسيط وهو أهم شخص في العملية ،

وهذا الوسيط هو الخادم الجديد لذلك الشيطان الذي يتمثل بالروح التي يزعمون تحضيرها وتتكلم من أي ناحية من الغرفة .

١٠ ـ الوسيط عندهم يرى غير المنظور ويسمع غير المسموع ويتلقى الكتابة التلقائية وله قدرة على التواصل عن بعد «التلباثي» وهي مزاعم خرافية وشعوذة ظاهرة .

١١ ـ لا يثبتون للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلا هذه الوساطة فقط . لأنهم يدعون أنه لا فرق بينهم وبين الأنبياء .

١٢ ـ يتحكمون في حضور جلسة التحضير من حيث الكم والنوع وإذا وجد نساء يكون الجلوس : رجل ، امرأة ... كما يعزفون الموسيقى أحياناً وكل هذا لصرف أذهان الحضور عن حقيقة ما يجري ، ويزعمون أن لكل جلسة روحاً حارساً يحرسها .

١٣ ـ يعتقدون أن معجزات الأنبياء هي ظواهر روحية كالتي تجري في غرفة تحضير الأرواح ويقولون أن بامكانهم اعادة معجزات الأنبياء . ونقول لهم هيهات تفعلون ذلك أو تستطيعونه .

١٤ ـ يعرضون أفكارهم لكل شخص وفق ما يناسبه ولذلك نجدهم أحياناً يدعمون تلك الدعاوى بنصوص من الكتب السماوية بعد أن يلووا أعناقها كما يريدون ، لأنهم لا يتورعون عن النفاق والكذب على اللّه تعالى .

١٥ ـ يرفضون الوحي ويقولون أنه ليس في الأديان ما يصح الركون إليه ويسخرون من المتدينين وهذه شهادة على كفرهم .

١٦ ـ يقولون بأن إلههم أظهر من إله الرسل وأقل من صفات بشرية وأكثر من صفات إلهية وهذه عقيدة اليهود كما في التوراة .

١٧ ـ يلوحون بشعارات برَّاقة كالإنسانية والإخاء والحرية والمساواة للتمويه على السذج والبسطاء وهذا هو شعار اليهودية العالمية «الماسونية» .

١٨ ـ كل عملهم منصب على زعزعة العقائد الدينية والمعايير الأخلاقية وكلامهم صريح في أن الروحية دين جديد يدعو إلى العالمية وإلى نبذ كل الأديان ، وطقوسه وفرائضه تتحصر في تدريب الناس على تركيز القوة الروحية ، وأنها جاءت بطريقة جديدة للحياة وفكرة جديدة عن اللّه لأنهم ملاحدة ويعملون لصالح الماسونية .

١٩ ـ يدَّعون أن الأرواح التي تخاطبهم تعيش في هناء وسعادة رغم أنها كافرة ليهدموا بذلك عقيدة البعث والجزاء ويقولون إن باب التوبة مفتوح بعد الموت كذلك ، وأن الجنة والنار حالة عقلية يجسمها الفكر ويصنعها الخيال وهذه أقوال كفرية وتناقضات شنيعة وكذب صريح فالكفار في النار وإذا كانوا قد أنكروا الجنة والنار فما فائدة التوبة ولماذا تطالب بها .

٢٠ ـ عندهم نصوص كثيرة تمجِّد الشيوعيين والوثنيين والفراعنة والهنود الحمر ويقولون إنهم أقوى الأرواح لأنَّ المؤسِّسين كلهم من هذه الطوائف .

٢١ ـ يبرِّرُون الجرائم بأن أصحابها مَجْبورون عليها وبالتالي لا يعاقَبون أي في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .

٢٢ ـ يسعون لضمان سيطرة اليهودية على العالم لتقوم دولتهم على أنقاض الخراب الشامل وهذا دليل واضح على انتماء أصحاب هذا المذهب إلى الماسونية اليهودية .

إذا أمعن القارئ النظر في هذه العقائد تبين له بكل وضوح بُعد أصحابها عن الإسلام حتى وإن تظاهروا به فإن أقل ما يجب أن يوصفوا به أنهم من كبار المنافقين .

الفصل السابع

حقيقة الروحية وأشهر زعمائها

ويتضح من كل ما تقدم أن الروحية دعوة هدامة قائمة على القول بوحدة الوجود والتناسخ وانكار الحياة الآخرة وماذكره اللَّه عنها مما يقع فيها وتكذيب الرسل وانكار الدين إلى غير ذلك من عقائدهم الشريرة .

بل هي ديانة جديدة كما صرح بذلك زعماؤهم .

ومن أكبر زعماء الروحية «سلفر برش» ، و «هوايت هوك» فأما «سلفر برش» فله كتاب «الحكمة العالية» أبان فيه تعاليم الروحية واتجاهاتها ومن أقواله : «إن صوتي منبعث من السماء ينادي أهل الأرض أن آمنوا باللَّه ... إني أحمل هداية من السماء أعد خطواتها بدقة عباد مخلصون للَّه تجمعوا في ملكوته الأعلى ... إن دوري هو دور رسول يبلغ الرسالة»[١]

وعن عقيدة وحدة الوجود يقول : «نحن جميعاً جزء من الروح الأعظم وأنتم في مجموعكم مع بقايا الحياة الأخرى تكونون الروح الأعظم ولا وجود للَّه خارج هذه المجموعة ولو أن هذا القول لا يمكنني البرهنة عليه إلا أنه يحسن قبول كلمتي في هذا الصدد»[٢]

وقال أيضاً عن استبشاره باليوم السعيد الذي تنتشر فيه الروحية وبالتالي يلتقي العالم كلهم عليها : «إن اليوم الذي تنتشر فيه التعاليم

---

(١) انظر «ركائز الايمان» للغزالي نقلاً عن كتاب التوحيد والتعديد ص ٤٥ .

(٢) انظر ركائز الايمان للغزالي المصدر السابق ص ٥٢ .

الروحية في عالمكم سيكون فجر اليوم سعيد ... إذ ستزول الفوارق بين الشعوب وتهدم الحواجز بين الأجناس وتذوب الفوارق بين الطبقات وتتلاقى الأديان حول حقيقة واحدة كما نبعت من حقيقة واحدة»[(١)]

وقال أيضاً في مقاومته للأديان وانها سبب في وجود التعصب بين الناس وأن الروحية ستجمعهم في بوتقة واحد بزعمه «إذا كان التعصب للأديان في وهم اقامة المناسك معطلاً عن التلاقي في صعيد واحد وهو معطلاً فعلاً فإن الأديان ليست في المناسك فلتترك البشرية هذا جانباً ولتتلاقى في مقابلة هذا الأمر الجديد من الاتصال الروحي»[(٢)]

ويقول عن الدعوة إلى التناسخ وانكار الآخرة وما فيها ومحرفاً لشرائع الأنبياء والمرسلين وراداً لها : «إن القصص الديني عن آدم ونشأته وزوجه وولده ليس تاريخاً من وجهة النظر العلمي كما يتوهم بعض المتعصبين للأديان إنه تكييف تقريبي للعقل البشري عن النشأة بدءاً من الفرد ذكراً كان أم أنثى عن تكرار هذه النشأة في عوالمها سواء على هذه الأرض ومنها كانت النشأة ابتداءاً ومظهراً أو بالارتداد من عالم الروح بعثاً .. فآدم الحقيقة عليها وآدم الخليفة منها أمران تصويريان للعقول لا يدرك لهما أول ولا يعلم لهما كنه ولا ينقطع لهما فعل أو وجود»[(٣)]

وقد أنكر سلفر برش نبوة محمد ﷺ وزعم كذلك أن عيسى ﷺ وُلد لأبوين يهوديين وأنه صلب فقال معبراً عن هذا الإلحاد «كان عيسى آخر

(١) ركائز الايمان نقلا عن التوحيد والتعديد ص ٥٧ .

(٢) ركائز الايمان نقلا عن التوحيد والتعديد ص ١٨٣ .

(٣) ركائز الايمان نقلا عن التوحيد والتعديد ص ١٠١ .

الأنبياء والمعلمين ذاك الذي ولد من أبوين يهوديين»[1] ، وأنه صلب لأنه بشر بتعاليم تخالف كنيسة عهده .[2]

ويقول في إنكاره للجنة وللنار وللقرآن الكريم ولنبي اللّه ﷺ «لا توجد جنة ذهبية ولا جهنم نارية إنما هو تصور هؤلاء المحدودي النظر . لا تقيدوا أنفسكم بكتاب واحد ولا معلم واحد ولا مرشد واحد فولاؤنا لا لكتاب ولا لعقيدة ولكن للروح الأعظم وحده»

ويقول في هجومه على الأخلاق الفاضلة ورغبته في التحلل والانفلات : «لا يهم إذا كان الرجل مسيحياً أو كافراً المهم هو ما يفعله في حياته أعطى الرجل الذي لا يعتنق أي دين الذي لا يركع لذكر اسم اللّه ولكنه أمين ويحاول أن يخدم ويمد يده للضعيف ويساعد الكلب الأعرج . الرجل المملوء شفقة للمنكوبين والذي يعاون من هم في ضائقة بحرارة ذلكم أكثر تديناً ممن ينتسب إلى أي دين»[3]

وهذا الكلام يريد به محاربة الأخلاق الفاضلة على طريقة اليهود وهو بهذا يصور أهل الدين بأنهم لا أخلاق لهم وقساة القلوب وقد نسي هذا المغفل أن المتدين هو الذي يعمل تلك الأعمال ابتغاء مرضاة اللّه تعالى لا يريد بها جزاءاً ولا شكوراً .

وهل الدين يمنع من فعل تلك الأشياء التي مثل بها ذلك المغفل الذي لا يعرف الدين ولا تعاليمه ولا رأفته بكل المخلوقات انه الحقد اليهودي الذي دفع سارتر إلى هذا الهذيان والتهجم على الأديان وعلى الأنبياء .

(١) ركائز الايمان نقلا عن الحكمة العالمية ص ٥٣ .
(٢) ركائز الايمان نقلاً عن الحكمة العالمية ص ٥٦ .
(٣) ركائز الايمان عن الحكمة العالمية ص ١٠١ .

وأما زعيمهم الآخر «هوايت هوك» فقد صرح بإلحاده بوضوح واعتبر الروحانية ديناً جديداً يجب أن يسود الجميع فقال في مجلتهم «عالم الروح»

«يجب أن نتحد في هذه المعركة في هذا الدين الجديد وأن تسودنا المحبة وأن تكون لنا القدرة على الاحتمال والتفاهم .. رسالتي أن أواسي المحروم وأساعد الإنسان على تحقيقه في نفسه مع اللّه سبحانه .. الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض وهو لن يدرك ما في مقدروه حتى يحسَّ بجزئه الملائكي الإلهي» [١]

وفي هذه المجلة أيضاً :

«إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يضع لنا سكان العالم الروحي طريقة جديدة للحياة ويعطوننا فكرة جديدة عن اللّه ومشيئته وسوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد وبين العقائد والأديان» [٢]

ويقول هوايت عن رغبته في ترك الناس لأديانهم والاجتماع على الروحية

«الروحية تحتضن ولا تستثني أحداً يقول الناس في زمانكم : إن الطقوس والفرائض عديمة النفع . ولكن طقوسي وفرائضي تنحصر في تذويب الناس على تركيز القوة الروحية» [٣]

---

(١) ركائز الايمان نقلاً عن مجلة عالم الروح العدد ١٢٧ .
(٢) ركائز الايمان نقلاً عن مجلة عالم الروح العدد ١٢٧ .
(٣) نفس المصدر السابق .

الفصل الثامن

الروحية والمَلاحِدَة

وإذا كان الروحيون يؤمنون بالروح على الصفة المذكورة فقد قابلهم الملاحدة الماديون فأنكروا أن يكون للروح حياة بعد الموت أو حتى وجود مستقل فضلاً عن الحياة بعد الموت بل وجودها إنما هو تبع لوجود الجسم وهو اعتقاد باطل كانوا فيه على طرفي نقيض مع الروحيين . والحق هو مع الذين هداهم اللّه من المؤمنين الذين يعتقدون أن هذه الحياة الدنيا إنما هي ممر إلى الحياة الآخرة بعد موت الإنسان وخروج روحه من جسده وتوجد عشرات الأدلة النقلية والعقلية على هذا الاعتقاد ولسنا بصدد بحث اثبات اليوم الآخر ولكن المقصود إثبات أن للإنسان روحاً تحل في جسمه فيحيا وتخرج فتنتهي الحياة منه أي انها جسم خارج هذا الجسم المادي وما يزعمه الماديون أن الروح ليست شيئاً خارجياً فهو كلام باطل يدل على قبح معتقداتهم وما استدلوا به من أنه «كما يحدث تأثير معين من تركيب عدة عقاقير في دواء واحد . وكما تخرج موسيقى معينة بضرب الأوتار بترتيب معين . كذلك يوجد بتركيب العناصر على نمط معين مزاج خاص هو السبب في الادراك والتخيل الفكري وهو ما نسميه الروح» [1] ، إن هو إلا استدلال باطل .

وأول ما يدل على بطلانه أمر مسلم وهو أن الجسم تحصل عليه عدة تغييرات من الضعف والهزال أو الصحة والسمن وتغير اللون وغير ذلك

---

(١) الدين في مواجهة العلم ص ٥٢ .

من التغييرات التي نشاهدها تجري على الأجسام ولو كانت الروح هي نفس الجسم ممتزجة بعناصره التي تكون بمجموعها جسم الإنسان لسرت إلى الروح كل الآفات التي تسري على الجسم وهذا ما لم يحدث بل قد يقطع جزء من الشخص ومع ذلك لا يحصل على الروح أي تأثير وهو دليل على أن الروح جسم مستقل لا يعلم كيفيته إلا اللّه تعالى وحده .

وأما قياس وجود الروح في الجسم بوجود صوت الأوتار بالضرب عليها فهو استدلال فاسد لأن الأوتار أو الماكينات تتعطل فور أي خلل في جسم تلك الأوتار أو الماكينات فلو انكسر ترس واحد من الماكينة أو وتر واحد من أوتار الموسيقى التي استدلوا بها على ثباتها مع الجسم لتعطلت تلك الآلة بأكملها وهو خلاف ما يشاهد في الروح والجسم فالروح لا تتأثر لا بالزمان ولا بالمكان عن عملها في الجسم بل تبقى الروح مع قطع بعض أجزاء الجسم كما تقدم ويبقى لها فهمها وادراكها ولو تغير الزمان والمكان .

وهذا ما قرره أيضاً العلم الحديث ولم تقف الروحية عند هذا الحد فقد ظهرت بحوث روحية غاية في إثارة الإعجاب «وهذه البحوث الروحية لا تثبت البقاء المحض للروح فحسب وانما تثبت بقاء عين الشخصيات التي كنا على علم بوجودها قبل موتها»(١)

إن الإنسان له خواص غير عادية وقد قام كثير من العلماء بدراسة هذه الجوانب واقيمت مراكز بحوث للعناية بالدراسة التجريبية لهذه الخواص

---

(١) الدين في مواجهة العلم ص ٥٦ .

«وقد أقيم أول مركز لهذا النوع من الدراسات سنة ١٨٨٢م وقد بدأ عمله سنة ١٨٨٩م بعد اجراء اتصالات واسعة النطاق شملت سبعة عشر ألف شخص من الانجليز وتوجد مراكز مختلفة تتخصص في هذا النوع من الدراسات في مختلف البلدان وقد أثبتت هذه الدراسات أن شخصية الإنسان تظل باقية بعد موت جسمه في صورة من الصور التي يكتنفها الغموض» [(١)]

وهذه الحقيقة هي التي جعلت الكثير من الباحثين من الملاحدة يوقنون بوجود حياة للإنسان بعد موته مع انهم لا يؤمنون بأي دين وإنما آمنوا بهذه الجزئية لاثبات العلم الحديث لها لا لأجل الدين مثل البروفيسور «دوكاس» وغيره من الملاحدة الدين أقروا بوجود هذه الحقيقة في شخص الإنسان بعد دراسات عديدة .

وقد استهوت هذه النتائج كثيراً من الباحثين مسلمين وغير مسلمين من العرب ومن غيرهم [(٢)]

وقولهم ببقاء شخصية الإنسان على صورة ما بعد وفاته لعل الحديث **الذي يفيد أن الإنسان** يفنَى كله إلا عجب الذنب فإنه منه يركب . لعل هذا **الحديث** يستأنس به للنظر فيما قالوه . أما أن أرادوا ببقاء الشخصية غير هذا فإنهم يطالبون بإقامة البراهين المثبتة لذلك . واللّه أعلم .

---

(١) الدين في مواجهة العلم ، ص ٥٧

(٢) انظر أسماء هؤلاء في كتاب الدين في مواجهة العلم ص ٥٨ .

الفصل التاسع

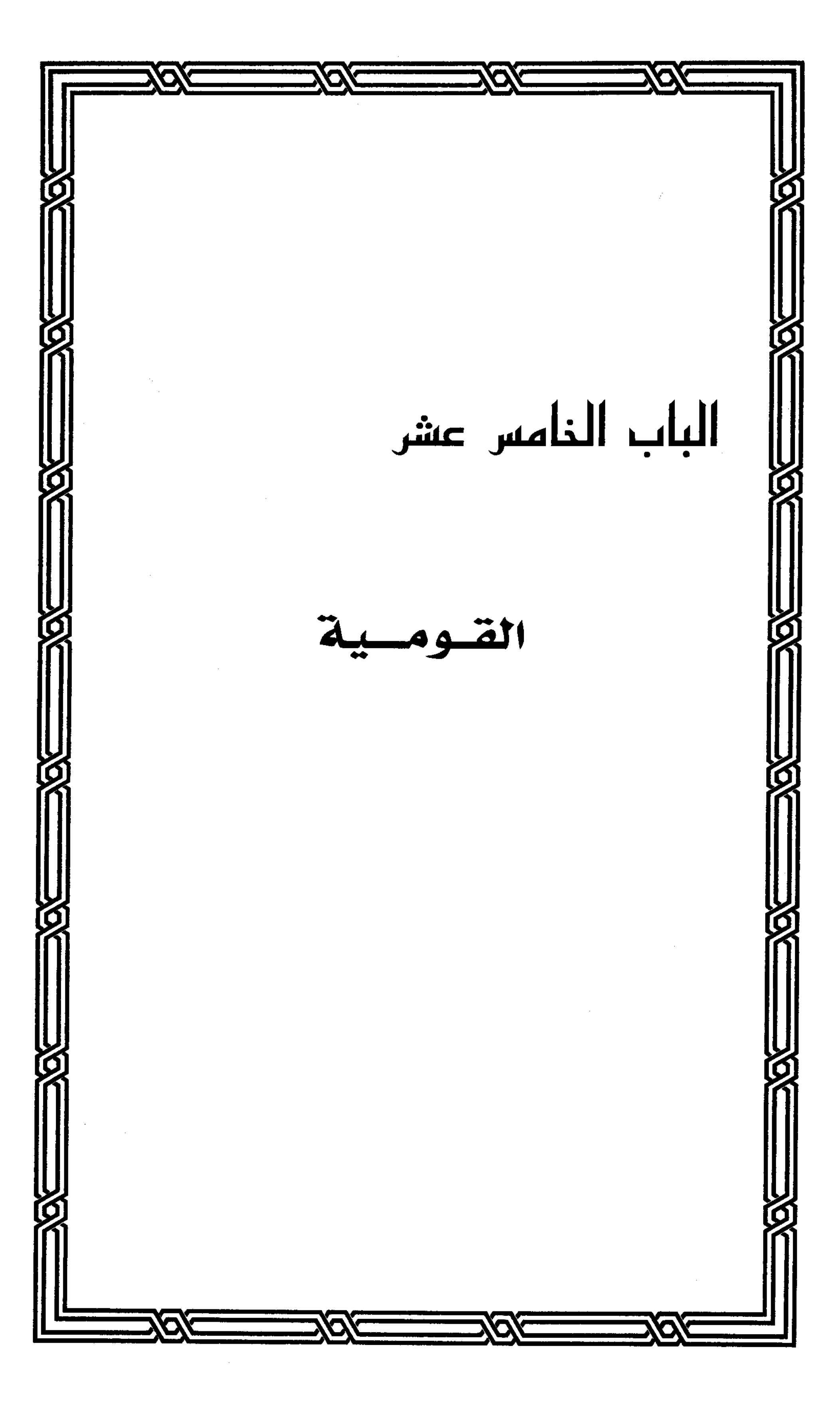
قضية الإلْهَـــام

قد يستشكل بعض الناس الفرق بين الإلهام لمن صفت نفوسهم بطاعة اللّه تعالى وكمل اخلاصهم وبين من يدعي تلك الصفة ممن هو متبع لهواه مصر على المعاصي والفساد والواقع أن الإلهام الحق الذي يؤمن به المؤمنون هو غير الإلهام الذي يأتي عن طريق الشياطين أو الاحتيال فقد أخبر ﷺ أن عمر ربما هو من الملهمين وكذا أوحى اللّه إلى أم موسى . وإلى النحل كله على سبيل الإلهام الإلهي أما ما تزخرفه الشياطين لأوليائها فقد أخبر به عز وجل في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [1]

وهو إلهام باطل وإخبار كاذب والنفث في الروح لا شأن للروح به ، وإنما هو شيء يحصل بقدرة اللّه تعالى وحده دون أن يكون للشخص أي أثر في ايجاده .

(١) سورة الانعام الآية : ١١٢ .





الباب الخامس عشر

القـومــية



الباب الخامس عشر

القَوْمِيَّة

القومية هي إحدى النَّعَرات الجاهلية التي أصيبت بها الإنسانية بإغواء شياطين الإنس والجن ، وهي دعوة تفرق بين الناس وتشتت شملهم وتغير ولاءاتهم وتحيي النخوات الفارغة ويصبح المتمسكون بها قد أخذتهم العزة بالإثم في شموخ أجوف وتطاول مقيت فإنها لم تظهر في الأساس لجمع الكلمة ولا لطلب مرضاة اللَّه تعالى ولا للمحبة فيه عز وجل بل نشأت في أوروبا وتلقفها نصارى العرب لظروف سنتحدث عنها بالتفصيل إن شاء اللَّه تعالى وستشمل دراسة هذا المذهب الهدَّام الفصول الآتية :-

الفصل الأول : المقصود بالقومية .

الفصل الثاني : دراستنا للقومية .

الفصل الثالث : كيف ظهرت القومية ؟

الفصل الرابع : متى ظهرت القومية ؟

الفصل الخامس : كيف تسربت دعوى القومية إلى البلدان العربية والإسلامية ؟

الفصل السادس : نتيجة ظهور القومية بين المسلمين .

الفصل السابع : ماذا يُراد من وراء دعوى القومية ؟

الفصل الثامن : هل المسلمون في حاجة إلى التجمع حول القومية ؟

الفصل التاسع : هل تحققت السعادة المزعومة في ظل القومية ؟

الفصل العاشـــر : خداع القوميون .

الفصل الحادي عشر : إبطال فكرة القومية .

الفصل الثاني عشر : نقض الأسس التي قامت عليها القومية .

(أ) اللغة .

(ب) التاريخ .

(ج) الأرض .

الفصل الثالث عشر : الإسلام والقومية .

الفصل الرابع عشر : مصادر دعم القومية .

(أ) اليهود .

(ب) النصارى .

(جـ) الحرب على الدين .

(د) الحركات والمذاهب الهدامة في أوروبا .

(هـ) العلمانية والعلمانيون .

(و) الاشتراكية والشيوعية .

(ز) قيـــام حزب البعث .

الفصل الخامس عشر : أهم مشاهير دعاة القومية العربية .

خاتمة الدراسة .

مراجع الدراسة

الفصل الأول

المقصود بالقومية

القومية فكرة وضعية نشأت أول ما نشأت في البلاد الأوروبية شأن غيرها من الحركات والأفكار التي تبحث عن التفلت من رابطة الدين ويلاحظ أن دعاتها قد اختلفوا في المفهوم الصحيح لها هل هي بمعنى تجمع أمة من الناس وارتباط بعضهم ببعض هدفاً وسلوكاً وغاية . أما لانتمائهم إلى لغة واحدة ـ كما يرى القوميون الألمان ـ وإما لانضوائهم في عيشة مشتركة ـ كما يرى القوميون الفرنسيون ـ أم أنها لكليهما . أو أنها لغير ذلك من أمور سياسية واقتصادية كالاشتراك في المعيشة الاقتصادية كما يرى الماركسيون أو الاشتراك في التاريخ واللغة في البلد الواحد كما يرى كثير من دعاة القومية العربية ساطع الحصرى ومن سلك سبيله بحيث يحسون أنهم جميعاً كتلة واحدة وأن ما يجرى على البعض من آلام وآمال هو ما يجري على الكل فتقوم قوميتهم على هذا المفهوم .

إنه خلاف مرير بين القوميين على تعريف القومية ولكنهم جميعاً متفقون على أن إبعاد الدين خصوصاً الإسلامي أمر حتمي لانتعاشها .

والقوميون العرب دائماً يصرحون بأن الدعوة إلى القومية ليس معناها الدعوة إلى الدين لأن كل الناس عباد للّه تعالى وكلهم يريدون الحياة السعيدة في الدنيا وما بعد الحياة الدنيا وهذا لا شأن للقومية به بل

بعتبرونه الدعوى إلى الدين دعوى ناقصة عن تحقيق طموحات القوميين بل إنها رجعية في نظرهم ويجب فصله عن الدولة أيضاً . انسياقاً مع مفاهيم الحركات الأوروبية التي قامت في البداية على القومية وحرب الدين بل وصل طمع دعاة القومية أن تكون بديلاً عن النبوات وأن نبوة القومية يجب أن يبذل لها كل غال ورخيص وأن يكون الإيمان بها أقوى من كل الروابط وجعلوها في الكفة الأخرى مع الإيمان باللّه تعالى وأنها يجب أن تكون هي الديانة لكل عربي وأخذوا يتباكون على مصير العرب حينما لا يتم تحقيق هذا الدين الجديد الذي سيخلص العرب من كل سيطرة أجنبية ويرفعون رؤوسهم عالية أمام كل أجنبي ـ ليس بعربي (بزعمهم) ولا ريب أنها دعوات جاهلية ليس وراءها إلا الخراب سواء أكانت الدعوة إلى القومية أو إلى الوطنية . فلا عزة للعرب ولا استرجاع لحقوقهم إلا بالتمسك بالدين الحنيف .

إن القومية والوطنية كلتاهما نعرتان جاهليتان خرجتا من أوروبا الجاهلية وفي هذا يقول فرنارد لويس : «فاللبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشعوبية والاشتراكية كلها أوروبية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط» [1] أحلها القوميون والوطنيون محل الدين ورؤوا أن الاجتماع عليها خير وأنفع من الاجتماع على الدين وذلك للاختلاف الواضح بين الناس في قضية التدين حسب زعمهم بخلاف القومية والوطنية

(١) العرب والشرق الأوسط تعريب د. نبيل صبحي ص ١٧٩ عن فكرة القومية صالح العبود ص ٣٦٥ .

التي تضم كل أفراد القوم وجماعاتهم ليكونوا مجتمعا واحدا لا خلاف فيه لاتحادهم التام في الانتساب إلى القومية أما الوطنية التي تقبل كل تناقضات المذاهب المختلفة وهي في الواقع لا تقبلها كما يدعون بل ترمي بها كلها وتؤخذ بدلا عنها شعار القومية ـ والوطنية ومن هنا قدسوها ورفعوها فوق كل اعتبار واجتمعوا على التفاخر والتباهي بها حتى صار كل قوم يدعون أنهم هم أفضل الجنس البشري وغيرهم في الدرجة الدنيا ولهذا تسمع وتعجب حين يفتخر كل قوم أو كل شعب بأنهم أرقى أمة وأفخرها فما دام قد انحل الوكاء فما الذي يمنع كل جنس أو قوم من الافتخار بل والتعالي على الآخرين راكبين كل صعب وذلول في تقرير ذلك فكثرت تبعا لذلك القداسات المزيفة لهذه الفئات من البشر كما كثرت الأماكن والأراضي المقدسة عندهم كما يقتضيه شرع القومية والوطنية .

الفصل الثاني

دراســتنا للقـومـيـة

أحب أن أبين في بداية دراستنا للقومية أنه لا محذور أن يرتبط الإنسان بقومه أو ببلده لأن هذا الرباط أمر فطري وواقع جُبل عليه البشر ولهذا كان الأنبياء كلهم كل ينادي قومه بقوله : «يا قومي» وقد ذكر اللّه ذلك ولم يعبه . وليس غرضنا بحث هذه الجزئية ولكن الغرض بحث القومية القائمة على الفخر والخيلاء واستبعاد الدين واحلالها محله .

وهذا الجانب نأخذه بايجاز وعلى عجل أيضاً نظراً للزمن المعطى له في هذه السنة الدراسية .

فلا ندرسها دراسة شاملة أو نتعرض لتفاصيلها المتشعبة فإن هذا المسلك طويل جداً ويحتاج دراسته إلى وقت وجهد إذ أن كل قومية تحتاج إلى مؤلف خاص بها كما هو معلوم لطلاب العلم [١] .

وحينما انتشرت القوميات في البلدان الإسلامية وغيرها كان لكل قوم اصطلاحاتهم فيها وما ضمنونها من مفاخرهم وأيامهم نثراً ونظماً مما لا يمكن استقصاء كل ذلك إلا بدراسة خاصة سواء أكانت القوميات العربية أو غير القوميات العربية ولأهل الباطل نصيب من زخرف القول غروراً إلا أنه أصبح من شروط القوميات العامة الإيمان الراسخ فيها سواء أكانت

---

(١) أنظر المصادر آخر هذه الدراسة .

عربية أو غير عربية وهذا الإيمان يهدفون من وراء اشتراطه أن يحل حُب القومية ومبادئها التي دونوها محل الإيمان باللّه تعالى ودينه القويم إذ جعلوها هي الدين الذي يجمعهم بعد توفر وجود اللغة المشتركة أو التاريخ المشترك فمن أخل بعد ذلك بقداسة القومية فإنه يعتبر مجرماً وغير محب لقومه ووطنه حسب دين القومية وأعداء الإسلام من النصارى واليهود يعلمون علم اليقين أن في احلال القومية والوطنية محل الدين الإسلامي هو المنفذ الوحيد لاقصاء الإسلام واخراجه من قلوب أتباعه وبالتالي سيطرتهم على الشعوب الإسلامية .

وعلى هذا فإن هذه الدراسة إنما وجهت إلى دراسة القومية بصفة عامة واعطاء الحكم عليها بصفة عامة أيضاً معتبرين هذا المسلك جزئية من دراسة القومية الواسعة المفاهيم ، والقصد من وراء ذلك هو تعجيل المنفعة للقارئ ببيان ما يجب بيانه حول القوميات وما فيها من مضار أو منافع وما فيها من الخدع التي ألحقت بالمسلمين وبغير المسلمين من أضرار فادحة ومصائب لا حد لها كان في أولها بالنسبة للمسلمين محاربة الدين واحلال القومية محله بكل بساطة واستمع لهذه الأبيات التي تغلي حقداً على الدين وجرأة على جهنم حيث قال شاعر الوطنية :-

بِلادَكَ قدِّسْها على كُلِّ مِلَّةٍ *** ومن أجْلِها أفْطِرْ ومن أجلِها صُمِ
هَبُوني عيداً يَجعلُ العَربَ أُمَّةً *** وسِيروا بجُثْماني على دين بُرْهمِ
سَلامٌ على كُفْرٍ يُوحِّدُ بَيْنَنا *** وأهْلاً وسهلاً بعدَه بجَهنَّمِ

وقول الآخر : -

وهل أنا إلا من غـزيَّة إن غـوَتْ   *   غَوَيتُ وإنْ تَرشُـد غَزيَّة أرْشُـد**

وقد تمت الدعوة إلى القومة وانتشرت انتشـار النار في جزل الغضي وتعددت عوامل التشجيع لانتشارها وأُشرب القوميين حبها ، ووعتها قلوبهم واعجبوا بها فكانت مصيبتهم في دينهم وفي وحدتهم التي يتباكون على تحقيقها وأصموا الأذان بصـراخهم عليها وحينما جاءت القومية والوطنية بالملاحدة حزب البعث العربي المارق قال شاعرهم :

آمَنتُ بالبَعْثِ رَبّاً لا شَريكَ له   *   وبالعُـــروبَةِ دينـــاً مـاله ثانِ**

وهو تعبير صدق فيه القائل مع نفسه وهو كذوب وأبان عن حقيقة القومية وعن حزب البعث ليحق اللّه الحق ويبطل الباطل .

الفصل الثالث

كيف ظهرت القومية ؟

أساس ظهور القومية في شكل مذهب جماعي وله دعاته المتحمسون له كان من البلد المضياف لكثير من الآراء والمذاهب المختلفة - أوروبا - كما عرفت وكان سبب ظهورها هو نفس الأسباب التي أظهرت بقية المذاهب الفكرية فيها متوخية الرغبة الشديدة في هدم سلطة الكنيسة الطاغية التي سامتهم سوء العذاب - كما تقدم - إضافة إلى ما كان يعيشه الأوروبيون من شريعة الغاب والظلم والعدوان وسوء الأخلاق في معاملة بعضهم بعضا وعدم وجود الدين الصحيح الذي ينير لهم الحياة ، فكان ظهور القومية هناك مظهراً مشاركاً لبقية مظاهر الخروج والانفلات عن سلطة الكنيسة وقبضة رجالها وكانت القومية هي إحدى معاول الهدم التي تكاثرت على الكنيسة بعد أن بدأت الكنيسة تترنح للسقوط النهائي إثر إفاقة الشعوب الغربية الأوروبية على واقعهم الشنيع من الذل والخوف والتنكيل والقتل الجماعي والجهل المركب والأحكام الجائرة على أيدي فئة تزعم أنها تمثل الرغبة الإلهية في كل ما تأتي وتذر ، فظهرت القومية كغيرها من الأفكار الأخرى ووقفت من الدين وأهله نفس المواقف للنظريات الإلحادية الأخرى ويظهر أنه لم يكن لديهم أي جامع أو رابط يقدمونه لشعوبهم غير هذا الرابط الجديد الذي داروا حوله بكل جد وقدسوه إلى أن أوصلوه قريب الألوهية علهم يجدون فيه عزاءاً عن الالتجاء إلى الإله الذي كان هو السبب

في إذلالهم على أيدي رجال الكنيسة الذين كانوا يمثلونه في الأرض كما قرره زعماء الكنيسة الرهبان لهم لتحقيق شهواتهم وافتراءاً على اللّه تعالى ، وعلى هذا فإن ظهور القومية في أوروبا وعامة دول العالم المسيحي إنما كان لتلك الأسباب الظاهرة وغيرها وكان لهم ما يبرر ذلك الخروج فيما ظهر من أحوالهم - وإن لم يكن مبرراً حقيقياً - وبعد خروجهم ذلك الهوا كل ما راق لهم ومنها القومية التي قدسوها وزينوا أمرها لكل الشعوب لتكون العزاء والبديل عن الدين النصراني ورجاله يقول الندوي :-

«ولايزال القوميون في داخل البلاد وخارجها يُزيِّنون للشعوب الصغيرة القومية ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها ويمجِّدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانه بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء وتدل بنفسها وتظن أنها مانعتها حصونها وما أعدت للحرب وتنقطع عن العالم وتتحرش أحياناً بالدول الكبيرة غروراً بنفسها أو تهجم عليها الدول فلا تلبث إلا عشية أو ضحاها وتذهب ضحية لقوميتها وانحصارها في دائرة ضيقة ولا يغني أولئك المسؤولون عنها شيئاً ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾» [(١)] .

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٦

وما أصدق ما ذكره الندوي وما أشد انطباقه على كثير من السوقة الذين تبوؤا الحكم في البلدان الإسلامية وما حوادث العراق الدامية إلا نموذج للتدليل على مصير ألئك الذين تركوا هدى الله وطلبوه في غيره ولم يقبلوا على الله وركنوا إلى الذين ظلموا وأسلموا شعوبهم للذل والهوان وخذلوهم في أحلك المواقف .

ومن الجدير بالذكر أن القومية كانت في نشأتها لا يرمي أهلها إلا إلى الخلاص من قبضة رجال الدين وتنفس الصعداء من الأغلال التي كانت علهيم . ولكن ما أن تم لهم ذلك الخلاص المنشود حتى انتقلوا نقلة أخرى فصاروا لا يقنعون بذلك الخلاص وإنما تطلعوا إلى ظلم الآخرين والبغي عليهم واستعمار الضعفاء من الناس واستعبادهم وحصل من وراء ذلك شر عظيم وفتن عريضة وحروب ثم انقلب السحر على الساحر فأصبحوا في دوامة القومية التي لا تعقل ولا ترحم ونبغت قرون الشر في رأس كل فريق من القوميين كل ينوح على ليلاه وكل فتاة بأبيها معجبة فانتعش بينهم فن المفاخرات لضرورة الحاجة إليه في ظل القومية التي لم يقم بناؤها في الأساس إلا على هذا المسلك البغيض في بداية تكوينها في أوروبا .

وبعد أن سار ركب القومية في أوروبا يحطم بعضه بعضا وكثرت الحروب بينهم نتيجة التعصبات القومية الشعوبية الهوجاء عاد الأسد إلى عرينه فقام مفكروهم وقادتهم بالدعوة الجادة إلى نبذ القومية وأنها رجعية وليست تقدمية حضارية ويجب نبذها وانها تمثل أفكار «هتلر» النازي حين قسَّم العالم على أساس عرقي أفضلهم ألمانيا .

ولأن مسلك التقدم والحضارة لا يتماشى مع مسالك القومية الضيقة فلفظتها أوروبا لتقبع في أيدي المخادعين والماكرين من النصارى العرب وغيرهم ليتموا حاجة في نفس يعقوب بعد أن بيتوا النية لحرب الإسلام كما سنذكر ذلك في موضعه .

يقول د. صلاح الدين المنجد : «تنبه العرب إلى فكرة القومية في أوائل هذا القرن بعد أن مضى على موتها في أوروبا فترة طويلة بتأثير الغرب»[1] .

ومما يذكره الباحثون عن القوميات الأوروبية وسبب ظهورها أن البدايات الأولى لظهور القوميات هناك .

كان أثر النزاعات التي احتدمت بين رجال الدين الكنسي والملوك حول الأحقية بالسيطرة والأمر والنهي هل هم الملوك فقط أم رجال الدين فقط وكاد أن يتم الحل بينهم على أن تكون السلطة الأمنية للملوك والسلطة الروحية للبابوات . إلا أن الأمور انحدرت إلى هاوية سحيقة كانت هي ثالثة الأثافي وهو النزاع الشرس الذي نشب بين رجال الدين أنفسهم وما وقع بين الكنائس من عداوات خرجت تباعاً عن الكنيسة الأم في روما وتعصبت كل كنيسة لآرائها ـ كاثوليك ـ بروتوستانت ـ إصلاحيات .... الخ وانفلت الأمر وصار الحبل على الغارب فقام كل فريق بتكوين نفسه ومذهبه فانتشرت المذاهب والأفكار ومنها قيام القوميات[2] على ذلك النحو وأخذ النزاع طابعاً قومياً .

---

(١) تقديم للدكتور المنجد لكتاب «أركان عبادي» محنة القومية العربية» ص ٥ .
أنظر فكرة القومية العربية ص ٢٩٠ والمنجد متأثر بدعوى القومية العربية مع معرفته بها ولكنه حجب كغيره ممن حجب عن التمعن في معرفة الفوارق الهائلة بين الإسلام والقومية .

(٢) انظر كتاب «مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٥٩ بتصرف .

الفصل الرابع

متى ظهرت القـومـيـة ؟

لا يُعرف على وجه الدقة تحديد نشأة الحركات والأفكار في الغالب أما بالنسبة للقومية فإن الباحثين يذكرون أن ظهورها في أوروبا كان في الفترة التي كان رجال الفكر والتحرر ـ كما يسمون أنفسهم ـ يبحثون عن بديل للعقيدة النصرانية الخرافية الجائرة والانفلات من قبضة رجال ذلك الدين الجامد المتخلف وكان ذلك في حدود القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين واشتد عودها في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد أثنى دعاة القومية على الثورة الفرنسية التي كانت هي البداية الأولى لظهور القوميات حيث عرف بعدها ان الحكم يجب أن يكون للشعوب وليس لفئة من الناس هم الحكام وأن الحرية يجب أن تشمل جميع الأمة بالتساوي وشعار الجميع الإخاء وأصبح هذا المبدأ الثلاثي الحرية ، المساواة . الإخاء هو مصدر الهام الجماهير في زعم دعاة القومية وقد زعموا أن القومية العربية إنما أثارها التوجه الأوروبي للقومية حيث نشأ دعاة القومية العربية متأثرين بذلك التيار في أوروبا فأصبحوا يلهثون للحاق بركبهم . والواقع أن الذي أثار القومية العربية وكان لهم اليد الطولى في الدعوة إليها في بلاد المسلمين إنما هم النصارى العرب لادراكهم فائدة التفاف العرب المسلمين على القومية بدلاً عن الدين الذي لا يتوافق مع دمج المسلم وغير المسلم في حظيرة واحدة ، فجاء القوميُّون العرب من

النصارى وغيرهم وأخذوا يكيلون المديح لهذه القومية وأن العرب في حاجة شديدة إلى قيامها إن أرادوا العزة والمنعة واحترام سائر الأمم لهم بزخرف من القول غروراً وظلت تستعر نارها وتشتد تدريجياً من معين الحقد على الدولة العثمانية .

الفصل الخامس

كيف تسربت دعوَى القومية إلى البلدان العربية والإسلامية ؟

البلدان العربية والإسلامية أعزها اللَّه بالإسلام الذي يجعل أتباعه كالجسد الواحد . وقد عاش المسلمون ردحاً من الزمن ما كانوا يعيرون القومية الجاهلية أدنى اهتمام سواءاً كانوا حكاماً أو محكومين . إلى أن بدأ المسلمون في الضعف والتقهقر فنفذ أعداء الإسلام مخططاتهم بتفريقهم على أيدي القوميين وحينئذ مدوا أيديهم إلى فتات الغرب القذر . فإذا بهم أمام القوميات فدخلها الكثير من أوسع أبوابها مصدقين الدعايات الغربية أنها ثقافة وعلم مادي أوصلت الغرب إلى ما هو عليه من التقدم والرقي . بزعمهم ولم يفطن إلا القليل جداً إلى خطر القوميات وأبى الكثير بسبب ما كان عالقاً بأذهانهم من وجوب استعادت الأمجاد السابقة للآباء والأجداد يساعدهم في هذا الاتجاه كل أعداء الإسلام من الصليبيين الذين تكبدوا في حروبهم مع المسلمين أفظع الهزائم التي لم يعرف في التاريخ لها أي مثيل ومستغلين كذلك الحملة ضد الحكم العثماني التركي على أيدي الصليبيين العرب في لبنان وسوريا .

يقول محمد قطب : «وقد كانت دعاوى القومية والوطنية المصدرة عن عمد إلى العالم الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري الذي استخدمه الصليبيون المحدثون في غزو العالم الإسلامي» [(١)] .

(١) مذاهب فكرية ص ٥٧٦

وكان أوسع الأبواب لدخول القومية إلى بلدان المسلمين هو المناداة باقامة الأمجاد والمفاخر ـ الزائفة ـ بالتراث الجاهلي الذي سلبه الأتراك ممثلاً في الدولة العثمانية بزعمهم وكان الذي فتح هذا الباب الواسع هم اليهود الذين هم وراء كل جريمة فقد أشعلوا الخلاف الشديد بين الأتراك الذين ما كانوا يعيرون القومية التركية أدنى اهتمام وبين العرب الذين كان ولاؤهم للإسلام . فجاء دعاة القومية وحرضوا الأتراك على إقامة قوميتهم الطورانية كما حرضوهم على تتريك العرب أيضاً ليتم التصادم بين الجميع وأنه يجب على الجميع احترام القومية الطورانية . ورمز الزئب الأغبر الذي تجتمع عليه قومية الأتراك وتم لجمعيات اليهود أن ينادوا بتمجيد القومية الطورانية بالنسبة للأتراك حيث جعلها عدو اللّه أتاتورك بديلاً عن الدين الإسلامي وعرفوا كيف ينفخون في أذهان العرب بأيجاد أنفة شديدة في نفوسهم من خضوعهم للأتراك وقامت الدعايات والمؤامرات والكتاب وكل وسائل الاعلام المسموعة والمقروءة قامت كل تلك الوسائل كالصاعقة لاحياء تلك النعرات الجاهلية القومية والوطنية عند العرب والأتراك جميعاً وما تبع ذلك من الرغبة الشديدة في اشعال الثورات المتلاحقة للتخلص من الحكم العثماني بفعل دسائس أعداء الإسلام من اليهود والنصارى في رد فعل عارم على القومية الطورانية .

وكان ذلك كله بمرأى ومسمع من دهاة البشر وخبثائهم الدول الغربية المؤيدة لليهودية العالمية إلى أن سقطت الخلافة العثمانية جسماً هامداً وجاء الحكام الجدد الذين لا هم لهم إلا تثبيت كراسيهم في الحكم على مفهوم

القومية والوطنية ثم البعثية وصاروا يرددون كالببغاوات كل ما يسمعونه من مختلف الشعارات البراقة وكان أول بلد نجم عنه قرن القومية لبنان وسوريا بزعامة نصارى هذين البلدين ـ عيون الغرب الصليبي في بلاد المسلمين ـ ومنهما انتشرت الدعوة إلى القومية والوطنية بتأثير الدعايات والدراسات في الغرب وشراء الضمائر .. وما إلى ذلك من الوسائل الكثيرة التي استخدمت لايصال هذه الأفكار واخراجها كأمر واقع لابد منه لايجاد الأمجاد العربية ؟! .

ولقد كان لليهود نصيب الأسد في إحياء القومية الطورانية لحقدهم الشديد على الدولة العثمانية التي أبت أن تمنحهم موضع قدم يمتلكونه في فلسطين وغيرها من بلدان المسلمين فكان من الطبيعي أن يستغل اليهود تلك النعرة الجاهلية ليحققوا من ورائها أهدافهم في الاطاحة بالخلافة الإسلامية ممثلة في السلطان عبدالحميد ـ رحمه اللّه ـ الذي قال : «لن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا وليحتفظ اليهود ببلايينهم» [١] .

ومنها هنا قرر اليهود انشاء جمعية «الاتحاد والترقي» والحقيقة أنها عكس هذا الإسم تماماً ـ وكل أعضائها فيما يذكر الباحثون أنهم غير أتراك وغير مسلمين حقيقة وكانت المساعدات المالية تأتيهم كلها من الدول الغربية النصرانية ومن يهود الدونمة .

---

(١) نشوء القومية العربية تأليف زين نور الدين زين نقلاً عن الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٢٦ .

الفصل السادس

نتيجة ظهور القومية بين المسلمين

تبين من الحوادث التاريخية أن دخول القومية إلى البلاد الإسلامية والعربية بخصوصها إنما كن بدافع الحقد الصليبي واليهودي والرغبة في تمزيق الوحدة الإسلامية والانتماء إلى الإسلام لأن الانتماء إلى العربية سيسهل عليهم مهمة استعمارهم لبلدان المسلمين بعد أن يفرقوا بين العرب وسائل اخوانهم المسلمين على طريقتهم «فرق تسد» وهو ما وقع بالفعل فما أن ضربت القومية بجرانها على بلاد العرب إلا وتفرقوا فرقاً وأحزاباً لا يلوى بعضهم على بعض في عنجهية جاهلية قومية فتمكن المستعمرون أعداء الإسلام منهم حين عرفوا من أين تؤكل الكتف فتخطفوهم وأخرجوهم من دينهم الإسلامي إلا من حفظه اللّه تعالى وأخذوا أطرافاً كثيرة من بلادهم ـ وفلسطين أقوى شاهد ـ على ما وقع فيه المسلمون العرب من ضياع وهزيمة والعراق الذي يعيش اليوم مرارة هزيمته على أيدي الصليبيين ومن قبل ذلك أسبانيا والبرتغال والهند وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن ظهور القوميات لم يستفد منها أحد مثلما استفاد منها اليهود حين نادوا بالتعصب لقوميتهم اليهودية المتمثلة في الصهيونية وذلك لأن اليهود ـ وهو أمر مهم ـ قد مزقهم اللّه تعالى وشتتهم بسبب خبثهم ورعونة أخلاقهم وهذا الشتات يشكل خطراً عليهم أن يذوبوا في المجتمعات التي يعيشون فيها وأقوى ضمان لبقاء تماسكهم هو تعزيز

القومية في نفوسهم لكي يتم ربطهم بها فكانت القومية مفيدة لهم بقدر ما هي ضارة بأمة تربطهم عقيدة واحدة مهما اختلفت قومياتهم وواقع الجميع أقوى شاهد على ذلك [1] على حد ما قاله أحد الشعراء :-

وتَفرَّقُوا شِيَعاً فكُلُّ قَبيلَةٍ * فيها أميرُ المؤمنينَ ومِنْبَرُ**

أما بالنسبة لاستفادة النصارى من وراء قيام القوميات فحدث ولا حرج فلقد غرسوها بين المسلمين وتعهدوها بكل ما تحتاج إليه ومالا تحتاج إليها حتى أتت ثمارها الخبية التي كانوا يتوقعونها وقد ملؤا الدنيا صياحاً ونياحاً على عودة العرب إلى القومية العربية وإلى التراث المجيد ؟! الذي كان للعرب قبل مجيء الإسلام وإلى حضارات الفينيقيين والآشوريين والفراعنة ... الخ . فكم ألَّفوا من الكتب نثراً ونظماً لملأ عقول الناس بتقبل القومية التي ستكون هي المنقذ الوحيد للعرب من الذل وسيطرة غيرهم عليهم والتي أيضاً ستكون هي النبتة الجميلة لبدايات التطور والتقدم ونبذ الماضي البغيض ـ هو الإسلام ـ الذي أخر عجلة تطور الدول الإسلامية .. إلى آخر الدعايات التي أجادوا حبكها والتخطيط لها وتكاتفت جهود الأقليات النصرانية واليهودية المبثوثة بين المسلمين وجهود الدول الاستعمارية الصليبية التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر متمثلة في أمريكا وبريطانيا وأسبانيا والبرتغال وغيرها من دول النصارى صارت كل هذه القوى الهائلة تحت تنظيم دقيق وخطط أُعدت في غاية من الدهاء والخبث لادخال فكرة القومية إلى عقل كل مسلم وأن العرب بخصوصهم لا منقذ لهم غير هذه القومية المباركة التي ستجمعهم

(١) أنظر فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام ص ٨٢ .

وتؤلف بين قلوبهم وتجعلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ؟! .

وكانت دعوة القومية كعملة ذات وجهين الوجه الأول منها هو تلك الصورة الوردية والحلم السعيد والوجه الآخر هو ذلك الباب الذي ظاهره من قبله العذاب والذي صمم لتفريق وتشتيت الداخلين فيه تلقائياً وقد تمثل نشاط النصارى في الإرساليات التبشيرية والاستشراقية وفي اقامة نقاط التواصل القوي والتخطيط المشترك بين النصارى المنبثين في المجتمعات الإسلامية وبين النصارى الخارجين عنهم مستخدمين تلك الأساليب والوسائل التي تقدمت دراستها والنصارى على يقين من أن القومية لو انتصرت فإن انتصارها سيكون نصراً لكل نصراني في بلاد العرب فهي قوة في حقيقتها لهم حيث يكون شأنهم مثل شأن كل المسلمين وكل أصحاب الأديان لأن الرابط الجديد القومية والوطنية تعطيهم هذا الحق الذي لا يمنعه إلا ا لدين إذ لا يجتمع الحق والباطل وقد تأكد لدى كل نصراني أن إحلال القومية محل الدين هو السبيل لاستحمار المسلمين واستعمارهم ومن هنا نجد أن نصارى العرب كانوا الجواسيس الناصحين للنصرانية الغربية ومن أوفى المؤازرين لها ومن أكثر الناس نشاطاً وأكثرهم اجتماعات ومؤامرات ومؤتمرات لدراسة كل الوسائل التي يستفيدون منها لابعاد الإسلام وإحلال القومية محله .

الفصل السابع

ماذا يُراد من وراء دعوى القومـية ؟

من البدَهي أنه لا يُراد من وراء هذه الدعوى وجه اللَّه عز وجل ولا إقامة شرعه ليكون للناس نوراً يمشون به . ولا يُراد بها كذلك إعلاء شأن المسلمين وإقامة مجدهم وعزهم لأن مسلك القومية ونهايتها لا تؤدي إلى هذه النتيجة وعلى الافتراض البعيد نقول لو كان الهدف من وراء نشر القومية هي تلك الأهداف النبيلة بزعمكم لكان في تعاليم الإسلام والتمسك بكتاب اللَّه عز وجل وسنة نبيه ﷺ ما يُغني ويكفي عن تعاليم القومية المخالفة لهما بل المضادة لهما ولو كان الهدف من ورائها إعلاء شأن المسلمين لكان في السير على نهج سلفنا الصالح مالا يحتاج معه الشخص إلى أي شعار جديد يدعو الناس إلى الالتفاف حوله والنضال في سبيله .

وما زعمه القوميون ـ كذباً وزوراً ـ من أن القومية العربية ستكون فجراً جديداً على العرب كافة إن هي إلا منكر من القول وزور بل كانت ظلمة وجهالة وتفريقاً وتمزيقاً لايزال المسلمون يتجرعون غصصها إلى اليوم وكانت على ـ الحقيقة ـ فجراً جديداً وعهداً زاهراً فقط على اليهود والنصاري الذين برزت قرونهم عالية تحت مظلة القومية الجاهلية بحجة أن القومية العربية لا تفرق بين مسلم ويهودي ونصراني أو غيرهم وأن الجميع يشتركون في القومية والوطنية وكلهم من حقهم أن يصلوا إلى الحكم على حد سواء .

وإذا كان الأوروبيون قد نادوا بفصل الدين عن الدولة . للأسباب التي اضطرتهم إلى ذلك فإن الإسلام ليس فيه أي نزاع أو صراع بين الحكام والمحكومين لأنه ليس فيه طبقات كل طبقة تمثل جانباً في الحياة العامة بل انه يعتبر المسلمين كلهم على درجة متساوية في المعاملات والقيام بالتكاليف الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلهم يجب عليهم الخضوع لشرع اللّه تعالى دون أن تستبد فئة بأخرى والحكام في الإسلام ليسوا في طبقة خاصة بل هم مثل سائر أفراد المسلمين لم تكن له مزية إلا تحمل الأمانة وتنفيذ شرع اللّه تعالى وأوجب لهم الإسلام السمع والطاعة في مقابل هذا العمل فأين هذا السلوك الذي تتحقق به سعادة الناس من سلوك الجاهليات الأوروبية وشرائعها القومية وإذا كان بعض المسلمين حكاماً ومحكومين قد خالفوا هذا النهج الواضح فإن تبعة هذا الخلاف عليهم لا على الإسلام إذ الإسلام قد تبرأ من كل الجاهليات الوضعية وأبان حكمه في كل أمر فلا يجوز أن يحمل تبعة أي أمر لم يكن من تعاليمه .

الفصل الثامن

هل المسلمون في حاجة إلى التجمُّع حول القومية ؟

من البدَهي أن يأتي الجواب بالنفي مطلقاً والأمر واضح تمام الوضوح فقد أغنى اللَّه المسلمين عن التجمع حول أي فكر جديد أو شعار أو حزب بل أنه حارب كل تجمع ييقوم على غير هديه القويم معتبراً المسلمين كلهم أخوة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [(١)] «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**» [(٢)] «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» [(٣)] .

ونصوص أخرى كثيرة في كتاب اللَّه عز وجل وسنة نبيه كلها تحث المسلمين على أن يكون تجمعهم وتفرقهم وحربهم وسلمهم ومعاداتهم وموالاتهم كلها قائمة على هدى اللَّه عز وجل لا إلى العرب أو العروبة أو القومية أو الوطنية فهي وغيرها شعارات جاهلية يبغضها الإسلام ويحاربها وكل دعوى لا تلتزم هدى اللَّه فهي دعوى جاهلية يجب الحذر منها ولقد أعلنها المصطفى ﷺ صريحة حيث قال للأنصاري الذي قال يا للانصار وللمهاجري حين قال يا للمهاجرين قال ﷺ : «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**» وفي رواية [(٤)] «**أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ**» .

---

(١) من سورة الحجرات آية : ١٠

(٢) أخرجه البخاري جـ١ ص ١٨٢ ومسلم جـ ٤ ص ١٩٩٩

(٣) أخرجه البخاري جـ ٥ ص ٢٢٣٨ ومسلم جـ ٤ ١٩٩٩

(٤) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ جـ ٤ ص ١٤٦ ـ ١٤٧

وفي بعض الروايات قال لمن افتخر بعروبته «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**»[1] وفي رواية «**فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[2] وفي بعضها «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكُمْ بِأُمٍّ وَلا أَبٍ**»[3] . لأن الإسلام أراد أن تجتث شجرة التعصب الخبيثة من أساسها لأن ثمارها لا خير فيها لأحد بل فيها العداوة والبغضاء والكبرياء والأحقاد وكل المساوئ والرذائل وأنها لا تؤلف القلوب بل تنفرها وتثير فيها كوامن حب التعالي والبغي بغير الحق فلا تفيدهم لا في دينهم ولا في دنياهم .

ولقد جُرِّبَت هذه الفكرة قديماً وحديثاً فكانت فاشلة تافهة ما إن يحصل خلاف وخصام بين أصحابها إلاَّ ورَمَوا بها عرض الحائط وصار بعضهم لا يخاف في الآخر إلاً ولا ذِمَّةً فهو لا يخاف من اختراقها نارا حامية ولا يرجوا من تطبيقها جنة عالية فتكون النتيجة كما قال أبو فراس «إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر»[4] .

وقد وضح لكل عاقل أن القومية لم تقدم أي نفع للناعقين بها بل إنها كانت معول هدم وتخريب وبغي فأي حاجة للمسلمين إلى النعرات الجاهلية بعد أن أعزهم اللّه بالإسلام الذي أكمله اللّه لهم ورضيه لهم إلى يوم القيامة . وجعل أحكامه شاملة كاملة وافية بجميع ما يحتاج اليه البشر لسعادتهم في الدارين ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (٥٠) ﴾[5] .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح جـ ٣ ص ١٢٩٦

(٢) أخرجه البخاري جـ ٤ ص ١٨٦٣

(٣) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ، ج ٤ ص ٢٢٥ ، وقال : هذا حديث مرسل ، وهو مع إرساله غريب .

(٤) من شعر أبي فراس الحمداني .

(٥) سورة المائدة ، الآية : ٥٠

إن الدعوة إلى القومية دعوة إلى الفرقة والفخر والتعالي حيث يدخل التعصب بجميع أشكاله من جميع الأبواب فما الذي يمنع في شرع القومية أن يفتخر العربي بأنه عربي ومن بلد كذا وكذا والعجمي بأنه عجمي ومن بلد كذا وكذا سيفتخر حتماً في شرع القومية العربي بعربيته والفارسي بفارسيته والهندي بهنديته والصيني بصينيته .

وهكذا كل قوم أو بلد سيجدون ما يفتخرون به بالحق وبالباطل فالقومية ستلهمهم جميعاً صواب ما يريدون وستعطي كل حزب أدلته على أنه أفضل عناصر البشر وأن وطنه أفضل الأراضي وأن كل ذرة منه مقدسة ومعلوم أنه لم يحتج المسلمون في تاريخهم الطويل ـ قبل انحرافهم عن الجادة ـ إلى قومية تجمعهم ولا أى رابط يربطهم غير كتاب اللّه تعالى وسنة نبيه ﷺ ومعلوم أنه لا يصلح آخر هذه إلا بما صلح به أولها .

يقول د. جمعه الخولي بعد أن ذكر أن دول أوروبا تحولت إلى شتات من البشر لا رابطة بينهم بعد أن ابعدوا عنهم النصرانية ورجال دينها وانهم لجؤوا إلى القوميات كوسيلة لربط الشعوب كالقومية الألمانية والقومية الفرنسية والنمساوية ... إلخ وانهم لم ينتفعوا بها بل كانت فتنة لهم وسبباً من أسباب الحروب بينهم .

ثم جاء يوم تحاربت فيه على أساس هذه القوميات في الحربين العالميتين الأولى والثانية فلما أحست بلعنة القومية أخذت تتخلى عنها

وعدَّ كثير من مفكريها العودة للدعوة لها دليلاً على الرجعية والتخلف وعنصراً هداماً للانسانية واعتبروها نوعاً من التجارب التي لجأت إليها أوروبا في ظروف خاصة وفي وقت محدود» ثم نقل عن المؤرخ الشهير «أرنولد توينبي» قوله : «القومية لا تستطيع أبداً أن توحد الإنسانية بل إنها توزعها وتشتت شملها ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل وأنها لا تستطيع إلا أن تدفن الانسانية في ركامها وأننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغي أن تحتضن الانسانية كلها من غير استثناء ونتعلم كيف نعيش كأسرة واحدة»[١] .

ثم ألا يعلم القوميون العرب بخصوصهم أن العرب قبل الإسلام كانوا في غاية الأنفة والحمية والفصاحة العجيبة فما الذي أغنت عنهم وهل جنبتهم غضب اللّه أو جنبتهم الذل لغيرهم من سائر الأجناس أليس كان الفرس ينظرون إلى العرب كما ينظرون إلى الحشرات لا يقيمون لهم وزناً ولا قيمة فلماذا لم تدافع عنهم القومية وهل ستدافع عن المسلمين والعرب اليوم لولا ذوابها ؟! وكم دعوا لها وكم لاذوا بها فكانت النتيجة ما نشاهده اليوم من تفرقهم وتشتتهم وذلهم الذي بلغ ذروته مع وصول القومية إلى ذروتها على أيدي ملاحدة البعث ونصارى العرب وغيرهم من مغفلي المسلمين وأصحاب المصالح الذين أذلتهم بطونهم ومطامعهم الذين هم أشبه ما يكونون بالقطط الذين يشبعون والنمور جياع ، ثم أليست شريعة القوميين هي نفسها الشريعة التي كانت في الجاهلية من التعصب القبلي ـ أنصر أخاك ظالماً أو

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١١٩

مظلوماً ـ ومن الدعوة إلى الفجور والفواحش ومن التعالي والبغي على الناس بغير الحق ومن تقديس رؤوس الكفر واحترامهم وعدم وجود العزة والأنفة التي يتميز بها المسلم أمام أعداء الإسلام من اليهود والنصارى حتى أصبح راضياً مطمئناً بأن يتولى عليه من لا يساوي شراك نعله من ضلال اليهود والنصارى وغيرهم من كبار الفساق لأن شريعة القومية توجب ذلك لأن العروبة حين تجمع بين هؤلاء جميعاً لا يبقى أي مزية للمسلم على الآخرين وهذا المفهوم منطقي مع استبدال الدين بالقومية .

ألم يعلم الأشرار دعاة القومية أن المسلمين كانت لهم بالاسلام عزة طأطأ الجبابرة لها جباههم ذلاً وانكساراً وملكوا بها الشرق والغرب ودخل الناس في الإسلام أفواجاً راهبين وراغبين فاغتبطوا به وفازوا في الدنيا والآخرة وأصبح المسلون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وكانوا قلباً واحداً هدفهم واحد وتفكيرهم واحد وعبادتهم واحدة نشروا الإسلام رغبة في الأجر العظيم من اللَّه لا حباً في التملك ولا رغبة في السيطرة حتى أدوا ما أوجبه اللَّه عليهم من نشر دينه وقمع الفساد والمفسدين .

وإذا كنا ننكر الدعوة إلى القوميات عموماً والقومية العربية بخصوصها فما ذاك إلا من شدة الحرص على أن لا تفوت البقية الباقية من عز العرب المسلمين وليس تجاهلاً لفضل العرب والعربية وليس ما نذكره هنا في فضل العرب بمبرر للإفتخار به على طريقة القومية الجاهلية وإنما هو تبيان للحقيقة .

فالعرب هم أول من أبلوا في سبيل اللَّه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأسدوا إلى البشرية عامة ما صلح به أمر دينهم ودنياهم ولا ننسى كذلك أفذاذاً من غير العرب كانوا إلى جانب الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار وقد اختار اللَّه عز وجل نبيَّه من العرب وأرسله رحمة للعالمين وفضَّله على جميع البشر كما أن الأماكن التي كان ينزل وحي اللَّه فيها لا شك أنها مَحطُّ الأنظار ومَهْوَى الأفئدة .

وقد شرَّف اللَّه اللغة العربية وكرمها بنزول القرآن بها وهو معجزة المسلمين الخالدة كما لا ننسى ما امتاز به العرب من صفات حميدة سجلها لهم التاريخ من الوفاء والكرم وحفظ حقوق الجار والشجاعة والفصاحة وغير ذلك من الصفات ولكن يجب أن نتفطن لأمر مهم جداً وهو أن العربية والعرب ما كانوا شيئاً يذكر لولا الإسلام فالعربية هي إحدى اللغات في هذه الأرض والعرب هم أحد الأجناس من هذه الأمم فلا مزية لهم إلا بالدين الإسلامي ولنا أن نسأل الذين يتشدقون بأمجاد العرب قبل الإسلام ما هي ألم يعترف فضلاء الصحابة بأنهم كانوا جهالاً وفقراء وقاتلين قبل الإسلام وأن اللَّه رفعهم بالإسلام وأعَزَّهم به .

والآن تريد القومية العربية ارجاع العرب إلى حالتهم تلك السابقة وإبعادهم عن دينهم ومصدر مجدهم الحقيقي فأي جريمة سيرتكبونها بحق العرب وسائر المسلمين لو تم لدعاة القومية ما يهدفون إليه وليت تلك الدعوات إلى القومية الجوفاء كانت دعوة موجهة إلى لم شعث

المسلمين عموماً والعرب خصوصاً في ظل ما يحدق بهم من أخطار تتهددهم على طول تاريخهم وإلى أن يتكاملوا فيما بينهم في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية وإلى أن يكونوا منهم عالماً قوياً ثابت الأقدام كما كان أسلافهم ثم لتكن تسمية هذا المسلك أي ما تكون ما دام الهدف واضح المعالم لأنه إذا كانت كلمة الإسلام تجمعهم سيصبحون قلباً واحداً وهدفاً واحداً ويصبح العربي وغير العربي المسلم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي وكم ضحى العربي بنفسه في سبيل نجاة أخيه المسلم غير العربي وكم ضحى غير العربي عن أخيه العربي المسلم بنفسه في ميادين القتال وكم سجلوا جميعاً أروع الانتصارات وأروع الايثار .

وليتذكر العرب والمسلمون جميعاً تلك المواقف التي سجلها المماليك في رد الصليبيين عن بلاد العرب والمسلمين وليتذكروا صلاح الدين الأيوبي وهو من الأكراد ماذا سجل للمسلمين في إرجاع القدس وبلاد الشام ودحره النصارى وكم كانت من المواقف العظيمة التي خاضها المسلمون من أجناس شتى في آسيا وفي افريقيا وفي أوروبا دفاعاً عن الاسلام والمسلمين فكم كان المسلمون سيخسرون لو كانت الدعوة قومية من أول يوم ؟

الفصل التاسع

هل تحقَّقت السعادة المزعومة في ظل القومية ؟

لقد نادى القوميون وملؤا الدنيا صياحا بأن الدعوة القومية ستحقق لمعتنقيها كل السعادة وأنهم سيعيشون في جنة عالية وعز لا يرام اذا طبقت الشعوب القومية سواء أكانت تلك الشعوب عربية أم غير عربية فالسعادة تنتظر الجميع وانها تجمع ولا تفرق وتؤلف القلوب وتوحد الأحوال الاقتصادية وتحقق القوة على الأعداء أياً كانوا إلى غير ذلك من أنواع المديح والتزكية للقومية والقوميين .

ولكن هل تحققت تلك المزاعم لأي قومية من القوميات عرباً أو عجماً ؟ لقد قال بعضهم إن الناس بطبيعتهم فيهم غرائب لؤم فإن الشخص يبغض الآخرين لأنهم لا يتكلمون بلغته فإذا تكلموا بلغته فإنه يبغضهم لأنهم ليسوا من وطنه فإذا كانوا من وطنه بغضهم لأنهم ليسوا من قبيلته فإذا كانوا من قبيلته بغضهم حسداً على ما عندهم .

والعرب بحد ذاتهم حينما مالوا إلى القومية ووالوا وعادوا من أجل العروبة ماذا كانت نتيجتهم لقد ازدادوا فرقة وفقراً وعداوة فيما بينهم وكاد بعضهم للبعض الآخر بل ودارت بينهم حروب شرسة حين بغى بعضهم على بعض ببركات حب القومية وافتخار كل بقومه فقامت الأحزاب والتكتلات الصغيرة والكبيرة على حمية القومية الجاهلية فازدادت المسافة بينهم وبين الوصول إلى السعادة المنشودة في ظل القومية وليت هؤلاء الهاربون عن طريق

السعادة الحقيقية يرجعون بذاكرتهم إلى تاريخهم المشرق ويتذكرون حين قال رسول سعد بن أبي وقاص لرستم حينما سأله ما الذين أخرجكم علينا فقال له : أمرنا أن نخرج من الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . وفي نهاية اجتماعهم قال له «واعلم أن لكم عندنا ثلاث خصال . إما الإسلام أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون أو القتال» . وهو كلام ما كان يحلم به العرب في يوم من الأيام أن يواجهوا به سادة الفرس الذين كانوا يعتبرون العرب أذل البشر قبل أن يعزهم اللَّه بالإسلام وقبل أن يصبحوا خير أمة أخرجت للناس حينما نبذوا جميع الخرافات الجاهلية وافتخروا بدينهم فوجدوا السعادة الحقيقية فيه ، تراحموا بعد أن كانوا أشد الناس عداءاً فيما بينهم يقهر القوي الضعيف ويستعبد الأغنياء الفقراء تراحموا حتى أصبحوا كالجسد الواحد يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة يقول الشخص منهم للآخر تعال أقاسمك مالي وأهلي فيقول له صاحبه بارك اللَّه في مالك و أهلك دلني على السوق ، تراحموا حتى مدحهم رب العالمين بقوله تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [١] .

ولقد نجوا من الهلاك الذي كان ينتظرهم باستمرارهم على الشرك حيث امتن اللَّه عليهم بذلك فقال تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)** ﴾ [٢] .

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣

وصاروا ينظرون إلى الشرك وأهله بعين الاحتقار والازدراء والرحمة لحال المشركين أن يموتوا على شركهم فكانوا يذهبون الى القباب وإلى الأصنام فيهدمونها ويكسرونها دون خوف أو وجل يا عزى لا عزى لك إني رأيت اللّه قد هانك ، واتجهوا إلى عبادة خالقهم وحده فارتاحت نفوسهم من تشتت الفكر وعبادة الأرباب المتشاكسين والخوف من أصحاب القبور والجن والسحرة والمشعوذين وحققوا التوكل على اللّه فكفاهم اللّه كل ما يخيفهم أو يحزنهم لا تزيدهم الشدائد إلا صلابه : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)** ﴾ [(١)] .

وصار فخرهم بالإسلام وحده بعد أن كان فخرهم بأمجادهم الجاهلية وبآبائهم وقبائلهم وغير ذلك من المفاخر الجاهلية وصار شعارهم :

أبي الإسْلامُ لا أبَ لي سِواهُ * إذا افْتَخَرُوا بقَيْسٍ أوْ تَميمِ**

وصارت مراقبة اللّه تعالى نصب أعينهم في بيعهم وشرائهم وجميع معاملاتهم لا ربا ولا غش ولا فجورولا ظلم ولا سوء خلق .

فهل توجد هذه الأخلاق في القوميات ؟ هيهات هيهات وهل يتصور القوميون أن العودة إلى تلك الحال المظلمة للجاهلية هو الذي سيجمع شمل المسلمين ـ والعرب خصوصاً ـ وأنه سيكون منهم أمة ذات حضارة وسيادة تحت مظلة القومية البالية ؟! .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٣

وأما غير العرب فإن الأتراك أقرب مثال لنكسة القومية لهم حينما فشت فيهم نخوة القومية الجاهلية ماذا كانت النتيجة لقد تفرقوا وفتر نشاطهم في حرب أعداء الإسلام بل وضعفوا واستكانوا وهانوا على الدول الغربية إلى يومنا الحاضر حيث يطلب حكامها الدخول في المنظمة الأوروبية ومع ذلك يتجاهل الغرب مطالبهم في احتقار لا يحتمله الأحرار دون أن يتذكروا ماضيهم في ظل الإسلام وكيف كانوا سادة كثيرة من بلدان العالم وقادتهم يحسب لهم أعداؤهم ألف حساب قبل التفكير في التنغيص عليهم ولو بأدنى اعتداء .

الفصل العاشر

خِـداع القوميُّون

ذهب بعض دعاة القومية إلى إبتكار حيل وتلفيق شبهات كاذبة مفادها أنه لا فرق بين الالتزام بالقومية والالتزام بالدين وأنه لا تعارض بينهما مادام الشخص متمسكاً بدينه وبعروبته أياً كان دينه مسلم أو نصراني إذ اسم العروبة يجمعهم .

ثم زعموا أن النبي ﷺ وحَّد العرب تحت راية العروبة وأوجب على كل مسلم أن يستشعر القومية العربية قبل كل شيء وأن جهاده في نشر الإسلام هو نشر كذلك لسيادة القومية العربية .

ومن أدلتهم الباطلة على هذا الزعم الكاذب قول اللَّه تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ [(١)] ، لأن واجب العروبة يحتم عليهم الوفاء لهذا النبي العربي ومثلها الآيات الأخرى التي فيها التشهير بالمتخلفين من الأعراب عن الجهاد في سبيل اللَّه الذي هو جهاد في سبيل رفع راية العروبة أيضاً !؟

ومما استدلوا به كذلك من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾ [(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** ﴾ [(٣)] ، وقوله تعالى : ﴿ **انا جعلناه قرآناً عربياً** ﴾ [(٤)] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٠

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٢

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٣٧

(٤) سورة الزخرف ، الآية : ٣

وكل هذه الآيات في خيالهم السقيم دعوة إلى تمجيد العربية والعروبة ويجعلون جهاد أولئك الميامين إنما كان لنصرة العروبة لإيمانهم بها ومعنى كلامهم أن انتصار الإسلام هو انتصار للعروبة بل هي هدف من الأهداف المهمة التي كانت في ذهن الرسول ﷺ وأصحابه حسب زعم دعاة القومية العربية المفترين .

واستدلالهم بما تقدم إنما هو من باب أن الغريق بكل حبل يمسك فالنصوص في واد وفهمهم لها في واد آخر وهل يليق وصفهم للرسول ﷺ وأصحابه الكرام بأنهم كانوا يهدفون إلى تقوية العرب ؟ فلماذا حاربوهم إذا كان كلام دعاة القومية صحيحاً .

الفصل الحادي عشر

إبْطال فكرة القومية

إن أول ما يدل على بطلان فكرة القومية وانها شر لا خير فيها أن وراء قيامها اليهود والنصارى وسائر الملاحدة فماذا ننتظر أن تأت به من الخير للبشرية أو للمسلمين بخصوصهم بعد هذه التيارات المنشئة لها .

ألم يكن غرض القوميون هو تفتيت أي مجتمع متماسك والانفراد بكل تجمع لا يتفق وأهدافهم ؟

ألم يتفرق المسلمون بعد دخول القوميات بينهم واعتزاز كل قطر بقوميته ومآثره الجاهلية ؟ وأصبح المسلمون بصفة عامة لا يلوى بعضهم على بعض بعد أن تقطعت الدولة الإسلامية إلى أوصال ممزقة يقاتل بعضهم بعضاً في حروب أهلية تأخذ الأخضر واليابس والقومية تمدهم بكل المبرِّرات لهذا السلوك الذي حذر منه الإسلام ؟

وبالرغم من تلك المناداة الجوفاء التي أطلقها دعاة الفكرة القومية من أن الناس سيعيشون في منتهى السعادة حينما يطبقون تعاليم القومية بحذافيرها وان كل قطر يلتزم بها سيصبح محترماً فكانت النتيجة أن حل بهم الشقاء والذل سواء أكانوا من العرب أو من غيرهم بل لقد شقى بها من كان مهد نشأتها من الدول الأوروبية ونداءات من ينتسبون إلى العرب بخصوصهم إنما هي دلالات على حُمْقهم ورَعُونتهم وإلاَّ فأيٌّ مستند لهم

أفي القرآن الكريم ؟ أم في السنة النبوية ؟ هل وجدوا نصاً فيهما يمجد العروبة أو يدعو إليها ؟ كلا .

نعم ورد في القرآن الكريم ما يفيد نسبة الشخص إلى قومه وهذا معروف فإن لكل شخص قوماً وفهي نسبه بحسب الواقع وهي أمر معروف وبدهي وليس في القرآن الكريم الافتخار بالقومية أو الدعوة إلى التجمع حولها أو جعلها بديلاً عن الدين بل ما ورد في السنة يدل على عكس ذلك حيث وصفها الرسول ﷺ بأنها دعوى جاهلية وأنها خبيثة يجب الانتهاء منها [1] .

ودُعاة القومية تجدهم في تلمسهم لأي أمر يمدحون به القوميات الجاهلية يذكرون بعض الصفات الحميدة من الصدق والكرم والشجاعة والايثار ونحو ذلك ويجعلونها حضارة عريقة لهم ويهولون من أمرها ليحببوا الناس إلى الرجوع إليها . ويكرون كذلك بعض الآثار من العمران أو التحف ثم يقفون أمامها خاشعين ذليلين زاعمين أن أهل العصور المتأخرة لا يمكنهم بحال عمل ذلك أو ما يقاربه وذلك ليملأوا فراغ قلوب من يصغون لكلامهم ممن قصر فهمهم للإسلام .

ومن غرائب الأمور أن ينادي القوميون سواء أكانوا من العرب أو من غيرهم بأن في التمسك بالقومية تحقيق للوحدة والتآلف فهل تمت الوحدة الشاملة التي ينادي بها زعماء القومية العربية أو غيرهم أم أن القومية كانت هي المعول الهدام للوحدة في كل بلد حلت به من بلدان العرب أو من

(١) صحيح البخاري جـ ٤ ص ١٤٦ ـ ١٤٧

غير العرب ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾[(١)] .

لقد ظن دعاة القومية - إن أحسنا بهم الظن - أنها رابطة حقيقية لتوحيد من يتعصبون لهم أياً كانت تلك القومية إما وطنية أو اللغة بعينها أو تاريخاً مشتركاً ولكنها في الحقيقة سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فقد ثبت بتجارب الأمم على مر التاريخ أن الذي يوحد الناس حقيقة ويؤلف بين قلوبهم ويجعلهم كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً إنما هو الالتزام بمنهج اللّه تعالى ودينه القويم وما عدى ذلك فإنه خدع وتضليلات يراد من ورائها مصالح بشرية تزول بزوال تلك المصالح شأن التشريعات والاجتماعات الجاهلية التي أبت شرع اللّه تعالى ورضوا بالتحاكم إلى الطاغوت والاجتماع على ما يمليه عليهم .

وعلى القوميين أن يتفهَّموا مَقاله الناس «الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل» ، أو قولهم «الاعتراف بالحق فضيلة» .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤٦٦

الفصل الثاني عشر

نقض الأسس التي قامت عليها القومية

لم يكن لدعاة القومية أسس خاصة في الدعوة إليها وأنى يجدون ذلك وهم مختلفون فيما بينهم اختلافاً كثيراً فلم يجدوا غير آراء تصوروها لبناء القومية ثم اختلفوا أيضاً فيها ـ شأن الباطل دائماً ـ وقد عرفت فيما سبق أن من القوميين من ذهب إلى أن أساس القومية هو الاتحاد في اللغة ومنهم من قال الاتفاق في التاريخ ومنهم من جعلها الأرض ومنهم من قال هي المصلحة المشتركة بين أفراد الأمة ، ولعل سبب اختلافهم يعود إلى أن هذه الآراء لا تركن إليها النفس تماماً ولا تصل إلى حد القناعة التامة فلهذا كل أدلى بدلوه أو رمى بحجره عله يصيب .

(أ) أما اللُّغَة :

فالقول بأنها رباط قومي كذب ينقضه واقع حياة الناس فقد وقع أن أمماً كثيرة تتكلم لغة واحدة ولكن بينهم من التفاوت بل والعداوة ما لا يخفى وأقرب مثال على ذلك العرب أنفسهم فهم يتكلمون لغة واحدة ولكن كم الفرق بين العربي اليهودي والعربي النصراني والعربي المسلم والعربي المشرك ؟ بل وأين المسلم من غير العرب من غيره أيضاً ممن يتكلم بلغته ؟ ولماذا لم يتحد أمريكا وبريطانيا في قومية واحدة مادامت اللغة الانجليزية تجمعهم ؟

وبالتالي يقال لهم كيف تجمع أهل سويسرا واتحدوا مع أنهم يتكلمون ثلاث لغات دون تمييز بينها [1] وكثير من الأمم على هذ النحو لم يكن للغة أي تأثي في سير حياتهم وانتماءاتهم وإنما هي لإتمام مصالحهم الدنيوية .

(ب) وأما التاريخ :

فإن التاريخ مراحل تمر بها البشرية تشتمل على صعود وانحدار على خير وشر وتقدم وتأخر في جميع نواحي الحياة ويحوي كذلك اختلافات كثيرة أما بالنسبة للمسلمين فإن تاريخهم الحقيقي المشرق إنما يبدأ بظهور الإسلام يحنون إليه خلفاً عن سلف إلا من أفسدت الحضارة الأوروبية فطرته منهم حين يحن إلى الحضارات الجاهلية السابقة ويتباكى عليها ويفتخر بها ويود بجدع الأنف لو عاد عهدها وهي حضارات قديمة عاشها أهلها بخيرها وشرها ولم يعد لها في حياتنا الإسلامية أي أثر وبالتالي تكون المناداة باقامة القومية على تلك الحضارات إما بسبب الجهل المطبق وإما لأغراض أخرى وفي أولها الانفلات من الشريعة الإسلامية وربط المسلمين بالغرب أو بالشرق بعيداً عن كتاب ربهم وسنة نبيهم .

لأن هؤلاء الدعاة قد تشبعوا بثقافات وتاريخ تلك الأمم المعادية للإسلام فلا يعرفون بعد ذلك مسلكاً إلا الانضواء تحت تلك الرايات الجاهلية وكل إناء بما فيه ينضح .

---

(١) انظر حركات ومذاهب في ميزان الإسلام ص ٩٧

وأنىَّ للتاريخ المشترك أن يوجد الألفة الحقيقية بين المختلفين فكرياً وعقدياً فليس وراءه لا ثواب ولا عقاب يرجى بعد الموت فأي مبرر يجعل الإنسان يؤثر غيره على نفسه ولو أدى إلى موته هو ؟

(جـ) أما الأرض :

فقد صادف دعاة القومية في بناء قومياتهم على الأرض المشتركة متاعب وتناقضات جمة وذلك أن الذين يتكلمون لغة واحدة وفوق أرض واحدة ليس بالضرورة أن يكونوا كلهم من جنس واحد وعلى لغة واحدة من البداية إلى النهية في أي أرض فقد تنشأ لغة جديدة في بلد وتنتهي عن بلد لأمور كثيرة اعتقادية أو سياسية إذ لا يمكن لأي أمة أن تدعي أنه لا يوجد لأى شخص بينهم انتماء إلى غيرهم ومن الأمثلة القريبة على ذلك الأمة العربية قبل الإسلام وبعده إذ انه قبل الإسلام كانت الأرض العربية هي شبه الجزيرة ولكن بعد مجيء الإسلام دخلت أمم أخرى في الإسلام وحيث أن الإسلام لا يشعر أحد بأنه غريب عنه وأن الأرض كلها مخلوقة لأجله فقد دخلت تلك الأمم في الإسلام وأحبوه وأحبوا لغته وصارت هي اللغة الأساسية بينهم كمصر والمغرب وغيرهما من البلدان التي أصبحت عربية تعتز بدينها ولغتها فهل يقال أن الأرض هي التي وحدت بينهم وبين سائر اخوانهم العرب المسلمين إن قالوا هذا فقد ظهر كذبهم وإن قالوا إنه الإسلام فقد قالوا بالحقيقة التي تناقض دعواهم صلاحية التجمع القومي على الأرض بدلاً عن الإسلام .

بل كان الجاهليون العرب أفقر منهم لأن هؤلاء ما كنوا ينادون لا بالقومية العربة ولا بالتحزب والتعصب لها وحينما جاء الإسلام لم يذمهم على عدم شعورهم بأنهم على أرض العروبة وإنما أخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم وعزهم وهو الشعور بالفخر بالإسلام وتعاليمه وأن العرب قد جاءهم ما يحفظ وحدتهم في اللغة والأرض والتاريخ وسائر الاتجاهات فكانوا في جهادهم يدعون الناس إلى الدخول في الإسلام لا إلى الإنضمام إلى العربية أو إلى شبه الجزيرة العربية .

ولو أن دعوة الرسول ﷺ كانت موجهة من أول يوم إلى التعصب للعروبة والقومية وما إلى ذلك لسارع كل العرب إلى الالتزام بذلك والترحيب بها بسبب ما كانوا يحسون به من ضعف عام وتشتت وتمزق في الآراء والأفكار والأنظمة .

فكانوا في حاجة إلى أي شخص يتزعمهم على أي نعرة جاهلية ليحققوا به مبادئهم أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . وليحققوا به شيم النفوس حينما توغل في الظلم كما قال شاعرهم :

والظلمُ من شِيَمِ النُّفوسِ فإنْ تَجِدْ * ذَا عِفَّـــةٍ فلِعِـــلَّةٍ لا يَظْلِـمُ**

فكانوا لا ينقصهم إلا الشخصية المؤهلة لتتزعمهم ، لأن الشجاعة موجودة والإحساس بالفوضى في حياتهم موجود وكذا الإحساس بالظلم الفادح بل إن الإحساس ببعدهم عن ربهم كان موجوداً وما عبادتهم للأصنام إلا لتقربهم إلى اللّه زلفى بشفاعتها لهم لشعورهم بالذنوب والتقصير في جنب

اللَّه تعالى وكثير منهم كان يعلم أن شريعة «مَنْ عَزَّ بَزَّ ومَنْ غَلَبَ اسْتَلَبْ» ليست هي الطريق الصحيح وأن ما هم فيه من الذل لغيرهم والفقر الشديد والحروب المستعرة .

وأحْيَاناً على بَكْرٍ أخِينا * إذا مَا لَمْ نَجِدْ إلاَّ أخَانَا**

كانوا يشعرون بأنها أوضاع فاسدة لا يمكن أن تصلحها لا القومية ولا الوطنية ولا سائر النعرات الجاهلية . وإنما يصلحها أمر لا يمكن أن يأتي من قبل الإنسان الظلوم الجهول وحينما عرفوا الإسلام وجدوا الحقيقة التي كانت تنقصهم ولا يعرفون الطريق إليها .

الفصل الثالث عشر

الإسلام والقومية

ذكرنا في البداية أن الإسلام لا يقف في طريق الشخص إذا انتسب لقومه أو لوطنه أو أهله بل أنه يشجع هذا المسلك ويحبذه إذا كان على أساس التواصل وصلة الرحم بل أخبر اللَّه تعالى أن انقسام الناس إلى شعوب وقبائل هو أمر منه عز وجل وأن الحكمة من وراء هذا بيَّنها عزل وجل بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [1] .

وقد نهى الرسول ﷺ أن ينتسب الشخص إلى غير أبيه أو ينتمي إلى غير مواليه [2] ولا يمنع كذلك أن ينتسب الإنسان إلى الوطن الذي يعيش فيه ولا لوم عليه إذا أحبه لا على أساس الفخر الجاهلي وإنما لأنه وطنه أواه فإن تلك الأمور كلها لا حرج فيها وواقع تعيشه البشرية كلها ولا يمنعها الإسلام إلا في حالة واحدة وهي الحالة التي يصبح ولاء الناس ومعاداتهم ومحبته واجتماعهم وافتراقهم كله قائم على دعوى القومية والتعصب لها وتقديمها على الأخوة الإسلامية لأن هذا الوضع منحرف لأنه يصبح تشريعاً جديداً لا تستند فيه مشروعية إلا على الحكم الوضعي البشري لا إلى حكم اللَّه تعالى وما أجمل أن يترك الإنسان كل علاقة خارجة عن الإسلام محاكياً

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٣

(٢) أخرجه البخاري جـ٢ ص ٦٦١ ومسلم جـ ٢ ص ١١٤٧

في ذلك قول سلمان رضي الله عنه حينما سمع بعض الناس يفتخر بنسبه وبقومه فقال عن نفسه :

أبي الإسْلامُ لا أَبَ لي سِواهُ *** إذا افْتَخَرُوا بقَيْسٍ أوْ تَميمِ

وأما حينما يصل التعصب للقومية إلى أن يقدم الشخص ولاءه ومحبته للآخر لأنه من قومه بينما يبتعد عن الآخر من غير قومه حتى وإن كان صاحلاً تقياً فهذا لا يعترف به الإسلام بل تعترف به القومية الجاهلية وما أكثر ما ورد عن سير السلف الصالح رضوان اللّه عليهم من الصحابة ومن بينهم إحسان ما أكثر ما ورد عنهم تقديم أخوة الايمان على أخوة النسب أو الدم ولنا في مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار في أول الإسلام خير شاهد على ذلك فإن قصصهم العطرة وسيرتهم المرضية لا تزال تضيء نوراً وهاجاً وعبيراً فواحاً إلى يومنا هذا تخليداً من اللّه تعالى لهم واكراماً لأوليائه .

وأما القومية العربية التي دعى إليها ساطع الحصري فهي قومية جاهلية مغرضة لها نفس الأهداف التي كانت نصب أعين المتربصين بالإسلام كما أنه هو نفسه أحد أولئك وإن ظهر بمظهر الغيور على مجد العرب كما يزعم فإن العرب لا مجد لهم بغير الإسلام بل هم أمة كأنوا في حمئة الجاهلية كسائر الأمم حتى أنقذهم اللّه بالإسلام ورفع شأنهم به ومن زعم غير هذا فقد جانب الحقيقة وكذب على التاريخ وتشبع بما ليس فه ولا قيمة لأمجاده التي يزعمها قبل الإسلام فإن زعمه هذا هو من جنس مزاعم هذا العصر

المعكوسة التي تسمي الأشياء بغير اسمها فتستحل الحرام وتحرم الحلال بذلك حيث أضحت الخمر مشروبات روحية والرباء فائدة والزنا حرية شخصية وعداوة الآخرين من غير وطنه وطنية والآراء الفاجرة حرية الكلمة واحترام الماديات والعلامات وبعض الأماكن واجب وطني لا يجوز الخروج عليه والمساس به وكأنه جزء من الدين فما الذي يبقى للّه تعالى في قلب اقتنع بترهات القوميين ونسي أن المجد الحقيقي إنما هو في اتباع النور الذي أنزله اللّه .

أما الخدع التي يرددها القوميون بتوافق الإسلام والقومية على أساس التسامح في الإسلام فإنه كذب محض وكذا دعوى أن القومية تتسع لكل الخلافات الدينية واستمع لما يقوله مصطفى الشهابي [(١)] من أن المسلم والنصراني كل واحد يؤدي عبادته في المسجد أو في الكنيسة مادام يجمعهما حب القومية العربية لأن الإسلام سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والنصرانية كذلك تأمر بالمحبة وكذلك سائر الملل والفرق لا لوم على أي واحد منهم مادام يتوجه إلى القومية ويتخذها رباطاً جامعاً لأن القومية قابلة لكل اختلافات الأديان وتذوب في القومية كل الاختلافات الدينية وهؤلاء الدعاة الذين لا يفرقون بين الإسلام وبين غيره من الملل والنحل هم أعداء الدين الإسلامي حقيقة وهم طلائع الاستعمار الشرقي والغربي وهم المفرقون بين الناس والمثيرون للعداوة والبغضاء بين الشعوب المتجاورة والمتعايشة على حُسن المعاملة فيما بينهم مع اختلافهم أحياناً في المعتقدات .

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٣٠ ـ ١٣٣

واستمع أخي القارئ كذلك إلى مزيد من أكاذيب القوميين فيما يزعمه د. علي حسن الخربوطلي [1] من أن النبي ﷺ حاول أن يتحرر عن القومية العربية ويعلن نفسه لجميع البشر ولكنه لم يستطع إذ غلبت عليه القومية العربية وصار يتعصب لها ويدافع عنها . وهذا من أشد الكذب والبهتان فإن النبي ﷺ كان من أشد أعداء الدعوات الجاهلية ومنها القومية والنصوص في هذا أشهر من أن تذكر .

ومن الأمور البدهية أن الإسلام ودعوى القومية لا يتفقان لأن مصدر الإسلام هو اللّه جل وعلا ومصدر القوميات هي الجاهليات وعقول البشر القاصرة كذلك فإن إعراض القومية عن الدين وعدم تحكيمه والرجوع إليه والاستغناء عنه بشعار تلك الجاهليات أمر لا يقره الإسلام ولا يسايره بحال .

كما أن تقديم الأخوة القومية على الأخوة على الدين هو كذلك أمر يرفضه الإسلام . وكذا الموالاة يجب أن تكون بين المسلمين لا أن تكون على أساس قومي ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [2] كذلك فإن الإسلام يدعو إلى التآلف والتراحم والتساوي في الحقوق والواجبات وأن أكرم الناس هو أتقاهم للّه تعالى بينما القومية لا تقوم على هذه المفاهيم المشرقة الجميلة بل تقوم على بغض الآخرين والتعالي عليهم والفخر بالأحساب والأنساب وغيرها من مخازي الجاهلية التي حاربها الإسلام .

---

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٣٠ ـ ١٣٣

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٧١

بل إن القومية إضافة إلى أنها رجوع إلى الجاهلية هي كذلك قدح في كمال الإسلام ورد لما تفضل اللّه تعالى به على هذه الأمة من اكمال الدين ورضاه به واخراجهم بالإسلام من الظلمات إلى النور وإخراج العرب بخصوصهم من حياتهم الجاهلية وخمول ذكرهم بين الأمم بالرغم من كل ذلك وغيره نجد الكثير من الكتاب السفهاء والكاتبات السفيهات يقلدون أعداء الإسلام من اليهود والنصارى في ذم الإسلام والإلحاح في طلب العودة إلى الجاهلية التي كانت قبل الإسلام وإلى العودة إلى حضاراتها العظيمة وقوانينها إلتي هي في غاية العدالة وإلى تاريخها المجيد .. إلى آخر الأكاذيب التي تخيلوها وسجلوها في شكل كتب ونشرات وتمثيليات ومسرحيات وكلها توحي بصراحة إلى أن العرب وكل الأمم كانوا قبل الإسلام على خير عظيم وأنهم كانوا على جانب عظيم من الحضارة والقوة والمنعة ويمجدون ذلك مما يوحي إلى أن الإسلام هو الذي عطل مواصلة تلك الحضارات وأن في الرجوع عنه التقدم والرقي والألفة ضاربين بكل ما عرفه الناس من كتاب اللّه تعالى ومن سنة نبيه ﷺ ومما عرفه العقل والمشافهة عن من سبق من أخبار العرب بخصوصهم قبل الإسلام ضاربين بذلك كله عرض الحائط فمتى يدرك المنخدعون والمخادعون أن الخير كله في هذا الدين الذي أخبر عنه رب العالمين وشهد له بالخير والحق والكمال .

الفصل الرابع عشر

مصادر دعم القومية

لقد انهالت على القوميين مصادر دعم كثيرة من جهات معروفة بالكيد للإسلام وأهله بل والكيد للعربية والعروبة ودعمهم لهم ، ومن أكبر الأدلة على عمالة هؤلاء لهم ، ومن أولئك الداعمين للقومية :

(أ) اليهود :

واليهود كما وصفهم وراء كل جريمة ومؤامرة فقلما تنشأ فكرة ضد البشرية إلا ووقفوا لتقويتا ولا طائفة تتربص بالدين إلا ووقفوا إلى جانبهم وهذا الإجرام منهم هو ما أوصتهم به كتبهم التي يقدسونها وحاخاماتهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون اللّه تعالى .

ولقد حافظ اليهود على تماسكهم وتضامنهم طوال تاريخهم في اعتزاز بجنسهم وقوميتهم وعقائدهم التي ورثها لهم أكابرهم قديماً ، فلم يذوبوا في أي مجتمع مهما امتدت بهم السنوات ومهما كانت أعدادهم ومهما كان تفرقهم وبالاضافة إلى تعصبهم لقوميتهم فهم يتعصبون أيضاً للغتهم العبرية وكان من مكاسب اليهود في انتشار القومية اليهودية والتدين بها هو الحفاظ على أفرادهم من الذوبان في أي مجتمع يكونون فيه وبالتالي فإن في انتشار القومية بين مخالفيهم أيضاً مكسب لهم من حيث تمزق هؤلاء وتشرذمهم وانطواء كل جماعة على قوميتهم وما يتبع ذلك من التنافس بينهم واستعلاء

بعضهم على بعض بحكم شريعة القومية وحينئذ يكونون لقمة سائغة لليهود لينفردوا بمن يشاؤون منهم حتى يكتمل الدور عليهم جميعاً وقد ظهر هذا واضحاً في مكائدهم الكثيرة بالشعوب حكاماً ومحكومين وما فعلوه تجاه الدولة العثمانية بالخصوص حين عملوا على تشجيع قيام القوميات والنعرات الجاهلية أقوى مثال ووصل الأمر حتى إلى قصور الخلفاء أنفسهم في آخر دولتهم فنسي الكثير منهم أن عزتهم إنما هي بالإسلام والتعصب له فاستخذوا أمام الضغوط اليهودية والنصرانية في كثير من المواقف بسبب تأثرهم بمختلف التيارات من ناحية ومن ناحية أخرى لخذلان المسلمين لهم .

وقد أقامت اليهودية العالمية روافد عدَّة لإحياء القوميات في النفوس من ماسونية وعلمانية وجمعيات أخرى وثورات عارمة للشعوب ضد حكامها ودعاوى الحرية والإخاء والمساواة وغيرها من الشعارات فكانت أكبر كارثة حلت بالمسلمين هي سقوط الدولة العثمانية بمؤامرات اليهود حينما ركن إليهم سلاطين هذه الدولة فكانوا كالذي يفقأ عينه بيده في سماحتهم وتساهلهم ضد أهداف اليهود ومطالبهم المتتابعة وما يتبع ذلك من استفحال العلمانية جنباً إلى جنب مع نعرات القومية التركية التي كان يذكي نارها جمعية الاتحاد والترقي التركية اليهودية الماسونية المعتقد أو كما يسمونها «تركيا الفتاة» .

وكل هؤلاء أخذوا يرجعون إلى الوراء بصورة حثيثة لجعل القومية الطورانية هي كل الأمجاد والمعتقدات عليها يلتقون وعليها يفتقرون مدعين أن الإسلام هو الذي أخفت صوتها وحضارتها .

ومن الجدير بالذكر أن جمعية الاتحاد والترقي - أو تركيا الفتاة - ليسوا أتراكاً حقيقيين ولا هم مسلمين أيضاً وإنما وفدوا من عدة أقطار متظاهرين بالإسلام - وهم يهود في جملتهم - كما يذكر الباحثون تظاهروا بالتباكي والحنين إلى القومية الطورانية لجمع الأتراك كلهم عليها . وقد علمت مما سبق أن اليهود قد عملوا على إثارة كل القوميات وضرب بعضها بالبعض الآخر فإنهم حينما أنشأوا حركة الطورانيين كان عليهم أن يثيروا الحركة العربية والاعتزاز بها في مقابل اعتزاز الأتراك بقومياتهم القديمة وأخذت تلك الحركات تشتعل لا تلوى على شيء في الوقت الذي نسي فيه الجميع الرجوع إلى الحق والدين واشتط الأتراك وبدؤا في التعسف واجبار الناس على اعتناق اللغة التركية واحلالها محل كل لغة وهم يعرفون أن النتيجة ستكون فوضى وحمية جاهلية وهو ما حصل بالفعل حيث استطاع اليهود أن يثيروا حمية العرب لعربيتهم لجعلها مصدر إلهامهم بدلاً عن الإسلام والاعتزاز به ليبقى الكاسب الوحيد لهذا التمزق والتفاخر الأجوف هم اليهود ولاشك أن النصارى سينالهم نصيبهم من هذه المكاسب أيضاً فالكل عدو للمسلمين وللإسلام وتعاليمه وهو ما حصل بالفعل ولقد عرف العالم ويلات الحروب التي وقعت بين العرب والأتراك وتدخلات الدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا العدو اللدود للمسلمين قديماً وحديثاً .

(ب) النَّصَارَى :

لقد قام النصارى على مختلف عقائدهم واتجاهاتهم بالمؤامرات المستمرة لتمزيق وحدة المسلمين وابعادهم عن دينهم بكل ما يستطيعون من جد واجتهاد

وكان أشد هؤلاء النصارى ايغالاً في المؤامرات هم نصارى العرب في لبنان وفلسطين وغيرهما من بلاد العرب بدعم مباشر من دول النصارى الكبيرة وكان أكثر تركيزهم يتمثل في استجلاب الشباب العربي إلى الدراسة في الدول النصرانية وفي المحاضرات والمراسلات بينهم وبين ممثلي النصرانية الحاقدة ومجيء المنصرين إلى بلاد العرب مدرسين وكتاباً ووعاظاً وفتحوا المدارس والمستشفيات وجادوا بشتى مطبوعاتهم من المقررات الدراسية إلى الموسوعات فأنشأوا أجيالاً من دعاة القومية من شتى المراحل الدراسية وكانوا من ورائهم دعماً وتوجيهاً وأصبحت تلك الأجيال من دعاة القومية المخلصين لها وكان للجامعة الأمريكية في بيروت حظ الأسد في نشر القومية العربية ولاتزال ولم ينس يهؤلاء الدعاة انشاء الجمعيات والمنظمات تحت هدف إحياء العربية وايقاظ العرب بغض النظر عن الدين وأن الالتفاف على القومية يغني عنه ونشروا المقالات والأشعار يتغنون فيها بماضي العرب ويحضونهم على عداوة كل من ليس عربي وخصوصا الأتراك وكان أبرز القادة في هذا الميدان هم نصارى لبنان وسوريا الذين كانوا يتلقون الدعم السخي من دول النصارى الكبرى أمريكا وبريطانيا وفرنسا تملئهم الغطرسة باحياء القومية العربية واحلالها محل الدين متباكين على حقوق العرب الضائعة ولغتهم المظلومة وحقوقهم المهضومة حسب مزاعم هؤلاء ومن مشاهير هؤلاء الدعاة ناصيف اليازجي اللبناني . وبطرس البستاني اللبناني . وابراهيم بن ناصيف اليازجي . وعبدالرحمن الكواكبي . ونبيه فارس . وكان هؤلاء الزعماء يعرفون أنهم في حاجة ماسة إلى وقوف المسلمين إلى جانبهم في حربهم ـ خصوصاً ـ مع الدولة العثمانية وحيث أنهم على اختلاف في الدين فإن القومية العربية هي القاسم المشترك والموحد بينهم .

(جـ) الحَـرب على الدين :

وهو مصدر هام من مصادر قيام القوميات ومحاولة من جملة المحاولات لتشجيع القومية وقيامها على البعد عن الدين وان أوروبا لم يمكنها التخلص من الجهل والحال الذي هم فيه حسب زعمهم إلا باعلان الحرب على الدين ومن يمثله بدعوى أن الذي جرهم إلى هذا المصير هو الدين والبابوات الذين كانوا يزعمون للناس انهم مفوضين من قبل الرب المسيح ونادى أولئك الهاربون من الدين بأن البديل عنه موجود وهو الرجوع إلى القوميات السابقة وامجادها الغابرة أما الدين فهو طغيان واستبداد واستعلاء بعض البشر على البعض الآخر . ولم تكن الحرب على الدين من قبل النصارى والملاحدة فقط وانما وجد من بعض المغفلين المسلمين الذين تشبعوا بالقومية العربية من يحارب المسلمين بدافع من حرص على استعلاء القومية العربية وهذه هي إحدى المكائد التي نجح فيها أعداء الإسلام والمسلمين في محاربة الدين .

(د) الحركات والمذاهب الهدَّامة الأوربية :

حينما آفاق الأوروبيون ورؤوا ما حل بهم من الغبن الفاحش على أيدي رجال الدين النصراني هالهم الأمر وثاروا كالبركان الهادر في وجه الديانة النصرانية ورجالها الطغاة مستعملين كل ما لديهم من الأسلحة الفكرية وغيرها في ايقاف ذلك الطغيان فقامت حركات وآراء فكرية ومذاهب مختلفة كل يعمل من جهته والمصب واحد هو القضاء على الدين ورجاله وكانوا في ذلك الهياج العارم منطقيين مع الحال الذي أوصلتهم النصرانية وطغاتها إليه

فلجؤوا إلى القومية وإلى غيرها علهم يجدون فرجاً مما هم فيه وكانت تلك المذاهب المختلفة تمثل تياراً عاتياً خارجاً عن أي سلطة وفي الوقت نفسه كانت هذه المذاهب في حاجة لملأ الفراغ الذي خلفه ترك الدين فكانت القومية البديل الجديد في نظرهم إلى أن يتيسر ما هو أحسن منها .

(هـ) العَلْمانيَّة والعَلْمانيُّون :

العلمانية كما هو معروف مذهب هدَّام والعلمانيون كما عرفنا سابقاً هم من أعداء الدين الإسلامي وممن تفانوا في تضليل المسلمين بكل ما أمكنهم من الوسائل عن طريق المنصرين وعن طريق نشر الكتب وعن طريق نشر الاعلام المرئي والمسموع وعن طريق عملاء لهم من عرب النصارى ومن غيرهم ممن تأثر بأفكارهم وارتوى من سمومهم وقد جعلوا المجلات التي يصدرونها من لبنان ومصر وغيرها سلماً إلى قلوب الناس وتهيأتهم للانتقال من التعصب للدين إلى التعصب للقومية العربية وأمجادها.

ولقد كان للعلمانيين ومايزال تأثير قوي بين كثير من طبقات الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاقتصادية وما من نعرة جاهلية تقوم إلا وللعلمانيين فيها يد طولى وقد ذكرناها لما لها من الأهمية والتأثير المتزايد خصوصاً في هذه الأوقات التي انتشرت الفتن الهوجاء فيها سواء في حرب أمريكا وبريطانيا للعراق أو أفغانستان أو غيرهما من البلدان الإسلامية والتي إلى الآن نسمع التهديدات تلو التهديدات للدول التي لا تنصاع إلى السلوك الأمريكي وخصوصاً فيما يتعلق بالمناهج الدراسية بعد أن جرت هذه الأمور

فتناً مختلفة على أيدي أحزاب وحركات ثم اصطلى بنارها من لا ناقة له فيها ولا جمل فكانوا على حد قول أحد الشعراء :

وذَنْبٌ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ *** وَحَلَّ بغَيْرِ جَارِمِهِ العَذَابُ

(و) الإشتراكية والشيوعية :

الإشتراكية أحد المعاول الهدامة لحرب الأديان وقيام الأحزاب المتصارعة على كل شيء . وهدم كل ما يقف في طريق الاشتراكية من الأديان والأخلاق وسائر السلوك الذي لا ينسجم مع هذه الاشتراكية وما من شخص ينادي بالاشتراكية إلا ويقرنها بالقومية وأن لا انفكاك لبعضهما عن البعض الآخر غير أن القومية تعتبر بمثابة التهيئة الأولى للاشتراكية والخادمة لها .

والاشتراكية هي الغذاء لقيام القوميات وانتشار الشيوعية بعد ذلك وكل فتنة ترقق التي قبلها مما يوحي بوقوع أخطار جسيمة ستحل بالمسلمين إن لم يتداركهم اللّه برحمته .

وقد ورد في الحديث أن كل فتنة ترقق التي قبلها ويقصد ﷺ في آخر الزمان وما هو عنا ببعيد نسأل اللّه العلي العظيم اللطف والتوفيق .

(ز) قيام حزب البعث :

كان وراء قيام حزب البعث الاشتراكي النصارى العرب وعلى رأسهم النصراني ميشيل عفلق الذي جعل حب القومية العربية عقيدة راسخة تجمع بين مختلف الناس ومختلف عقائدهم وكانت الاشتراكية أيضاً من

ضمن منابع القومية التي امتزج بها حزب البعث وأخذ زعماء حزب البعث على عواتقهم المناداة بأنه يجب أن تبقى الآرء الفكرية هي القاسم المشترك بين العرب تحت لواء الوحدة الثقافية للأمة العربية ذات التاريخ المشترك واللغة الواحدة تحت بعث جديد يقوده القوميون الاشتراكيون دعاة الاشتراكية التي تبعث على التطور والازدهار وصد كل الحركات التي تعطل الأمة وتؤخر مسيرتها وحينما تمكن هؤلاء البعثيون النصارى من الحكم في لبنان وسوريا كشفوا عن حقيقتهم فإذا هم ينادون بعبادة البعث والعروبة والكفر بما عداهما وفي هذا قال أحد شعرائهم :

آمَنتُ بالبَعْثِ رَبّاً لا شَريكَ له *** وبالعُروبَةِ ديناً ماله ثانِ

وقال آخر :

بِلادَكَ قدِّسْها على كُلِّ مِلَّةٍ *** ومن أجْلِها أفْطِرْ ومن أجْلِها صُمِ

هَبُوني عيداً يَجعلُ العَربَ أُمَّةً *** وسِيروا بجُثْماني على دين بُرْهمِ

سَلامٌ على كُفْرٍ يُوحِّدُ بَيْنَنا *** وأهْلاً وسهلاً بعدَه بجَهنَّمِ

وكان قيام حزب البعث العربي الإشتراكي على دعوى القومية من الأمور البدهية إذا لا يمكن أن تقبل آراءهم المجتمعات العربية الإسلامية ما داموا يقدسون دينهم . فإذا تراخت قبضتهم على دينهم أمكن حينئذ أن تطل عليهم مبادئ القومية وأن تزحزحهم عن التعصب للدين إلى التعصب للقومية شيئاً فشيئاً إلى أن يتم المقصود ونحن اليوم نعيش خيانة هذه الحزب في ظرف هذه الحرب الضروس التي يخوضها الغرب في العراق .

الفصل الخامس عشر

أهم مشاهير دُعاة القومية العربية

●● أبو خلدون ساطع الحصري :

لقد تفانى هذا الشخص في الدعوة إلى القومية العربية بخصوصها وأعاد وأبدى فيها وجعلها دينه ومصدر الهامه عليها يوالي وعليا يعادي ـ لحاجة في نفس يعقوب ـ وغرضه ربط العرب بها بدلا عن ربطهم بدينهم وربطهم كذلك بالغرب قلباً وقالباً ومن الغرائب أن بعض الباحثين يذكر أن لغتة الأصلية الأولى هي التركية وليست العربية فما الذي حمله على هذا التقديس للعربية والتعصب لها ؟

وقد تأثر في دعواه إلي القومية بالقوميين الأوروبيين وحذا حذوهم إلا أنه كان يرى أن القومية ترتكز على أمرين هما وحدة الأمة . ووحدة التاريخ دون ما سواهما خصوصاً الدين الذي تواطئ على إبعاده جميع القوميين ، تنقل في مناصب مختلفة أهمها شغله وزارة التربية وقد وصف بأنه فيلسوف الفكرة القومية العربية ومرجع القوميين العرب وقد جد في دعوته إلى القومية بحذر شديد فكان يساير الحكام والمذاهب المختلفة الملحدة وغير الملحدة مع غمزه في دين الإسلام وتفضيل رباط القومية على رابطة الإسلام وأن الايمان بالقومية العربية يجب أن تكون في حسبان كل عربي وأن تجتمع الكلمة عليها قبل كل شيء ، وأن انضمام الأقوام الذين يتكلمون لغة واحدة وتاريخهم واحد وآمالهم وآلامهم واحدة يجب أن يجعلوا القومية هي الرباط العام بينهم ويجب

أن تقوم دولتهم وثقافتهم عليها . وأنحى باللائمة في تأخر ظهور القومية إلى تمسك الناس بحكامهم ولم يقل بدينهم حذراً منه حسب تعاليم الأديان وكان هؤلاء يعيقون تطلع الشعوب إلى الانضواء تحت راية القومية لئلا يضعف الولاء للحكام حسب زعمه وكان دائما يثير الحماس في نفوس العرب ويبشرهم بأن النصر سيكون في النهاية للقومية وانها ستكون هي الرباط الوحيد بين الشعوب وليس الاسلام الذي يطلب أن تقوم الشعوب بزعمه على التعصب له بعد أن تعقدت الأمور وظهرت النوازع السياسية المختلفة وتغير مفاهيم الناس .

•• مصطفى الشهابي :

كان من النشطاء في الدعوة إلى القومية العربية وكان يسميها عقيدة القومية العربية وأن من يناضل في سبيلها فيصاب يسمى شهيداً عنده وزعم كذلك أن الناس في القديم كانوا يجتمعون على رابطة التدين ولكن حينما ظهرت العقيدة القومية اظهرت تفوقاً كبيراً على رابطة التدين وأن العرب أحسوا حينما تمسكوا بالقومية أنهم سيحققون كل ما يريدونه لشعوبهم في السياسة وفي الاقتصاد وفي جميع مرافق الحياة بسبب وجود جامع اللغة فيما بينهم على مختلف ديارهم مضافاً إليها تاريخهم المشترك الذي يجدون فيه ما كان بين أسلافهم من التكاتف والتفاني وما قدموه من خدمة لبعضهم بعضاً على مر التاريخ وما أدت إليه هذه المواقف من قوة ومنعة وصمود في وجوه أعدائهم من غيرهم بزعمه فانظر كيف يرمي بأنظار الناس إلى التاريخ الجاهلي ويتناسى فضل الإسلام وكان يردد دائماً أن الفرق بين

القومية العربية والإسلام أن القومية أدق وأقوى في الارتباط لأن العقيدة الإسلامية لم تقتصر على ما اقتصرت عليه القومية من شد أزر العرب فقط وإنما كانت شاملة للعرب ولغيرهم ؟!

ويرى أن رباط الإسلام لا يهتم بالعرب ولا يجعل لهم مزية على غيرهم أو احتراماً لحقوقهم خاصة بهم ولا يعطيهم التميز الذي تعطيه لهم القومية العربية وهو تحريض سافر على اقصاء الإسلام عن الحياة .

●● محمد معروف الدواليبي :

من مشاهير دعاة القومية العربية والمغالين في تقديسها وقد زعم أن العرب قبل أن يتنبهوا للقومية العربية كانوا في فراغ مميت وانحطاط شديد وان ظهور دعاة القومية العربية من تباشير الخير العميم ودعى بكل حرارة إلى أن يجند كل عربي نفسه لخدمة القومية وإعلاء شأنها والايمان الراسخ بعقيدة انتشار القومية وانضواء كل العرب تحت رايتها التي سترفرف فوق كل بلد عربي ويستظل بظلها كل عربي وكان يعتقد أن على العرب ألا ينظروا إلى رابطة الدين وانضواء الناس على مختلف لغاتهم تحت لوائه لأن هذه النظرة الشاملة ليست هي القومية العربية الخالصة التي يجب أن تقدم على الروابط العامة لأن رابطة اللغة العربية - من وجهة نظره - هي الأساس قبل الإسلام وبعده وكان العرب قبل الإسلام على مذاهب وأفكار شتى من جاهليين ووثنيين ونصارى ويهود ولم يكن لهم رابط إلا اللغة العربية والتاريخ المشترك وهو يهدف إلى اقصاء فكرة أن الدين الإسلامي يجب أن يكون هو الرابط العام ولكن لا أدري لو سئل هذا السؤال وكيف كان حالهم حينما كنوا

لا تربطهم إلا اللغة والتاريخ المشترك قبل الإسلام لا أدري بماذا سيجيب ؟ وله مبالغات في مدح اللغة واجتماع كل أمة عليها وانها مصدر إلهام ومحبة وتوافق وأن الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها يجب أن يستتيروا بالقومية في جميع مجالات حياتهم ما داموا كلهم يتكلمون اللغة العربية إلى آخر ما عنده من الترهات والهذيان .

•• جمال عبد الناصر :

ومن المشاهير في تقديس القومية رئيس مصر جمال عبد الناصر الذي كانت له صولات وجولات وألقاب فخمة وتزعم في هذا العصر الدعوة إلى القومية العربية وعمل ما في وسعه في سبيل تقويتها وانتشارها بل وجعلها ديناً مقدساً وعقيدة أساسية واستحوذ على كثير من مصادر الاعلام في وقته وسخرها لترديد أفكاره القومية وتمجيد العروبة وانها هي المنقذ الوحيد لإزالة المستعمرين والطريق القويم إلى التقدم ونبذ الرجعية وأن العرب سيعيشون في الجنة التي وعدهم بها الدين سيعيشونها في هذه الدنيا تحت ظل راية القومية العربية ان استقاموا على الالتزام بتقديس القومية والاشتراكية وكانت له صولات وجولات ودعايات هائلة حتى مرغ اللّٰه أنفه تحت رجليه بهزيمته أمام اسرائيل في دقائق معدودة فإذا بهذا الجبار الذي كان يمدح بأنه أبو الأحرار وقامع الرجعية ورائد العروبة .... و ..... و .... بل كان يقال لن ننهزم وناصر فينا ثم انحلت المعركة عنه فإذا به دمية صغيرة وأن فأسه كان من طين ولقى الخزي والهوان وهو ينظر إليه .

•• الخاتمة :

وبعد هذا العرض الموجز للقومية يتضح لنا بجلاء أنها أبعد ما تكون عن الحقيقة وأنها لا يمكن أن تتم عليها المودة والرحمة واجتماع الكلمة وانها جاهلية أوروبية ورثها المتطفلون على الحياة الأوروبية وذهبوا يحاولون تجميل وجهها القبيح ويزخرفون القول فيها لتجتمع عليها الكلمة ولتحل محل الدين وأبلوا في ذلك بلاء لا يحمدون ولا يشكرون عليه وما هي إلا لعبة سياسية ومقصد يُراد من ورائه أهدافاً ومكاسب وقد جربتها أوروبا وتبين لهم أنها تفسد أكثر مما تصلح فنبذوها وقد تلقفها اليهود والنصارى وقدموها في شعارات براقة للعرب ليكملوا بها تفريق الكلمة والابتعاد عن الدين ـ وخصوصاً الإسلام ـ وبعبارة أخرى نقول لو كانت القومية فيها خير وجمع للكلمة لوحدت ـ أقل ما يمكن ـ بين قلوب العرب المتنافرة بل ولو كانت كذلك لكان كل عربي يلهج بذكرها وتمجيدها خصوصاً في أيامنا هذه وهي أيام نحس وحزن على العرب كلهم وهم يواجهون تهديدات الدول الكبرى في اكتساح العراق وغيره من بلدان العالم بقيادة أمريكا وبريطانيا واسرائيل ولو كان ساسة العرب النابهين منهم يعلمون أن في الدعوة إلى القومية ـ العربية ـ فيه أدنى نفع للعرب فضلا عن غيرهم لملأوا الدنيا صياحاً وعويلاً على وجوب التزام القومية والعمل تحت لوائها ولكنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنها بضاعة مزجاة لا تصلح إلا للإستهلاك اليومي .

وكذلك أيضاً الدول الكبرى قد اطمأنوا تماماً ووثقوا من إحكام الفرقة بين العرب وبين غيرهم فلا يرون ضرورة للمناداة باسم القومية العربية فلهذا لم نعد نسمع ذلك التقديس للقومية الذي كان في زمن من قبلنا من

دعاة القومية وآخرهم جمال عبدالناصر بل اسرائيل وأمريكا وسائر الكفار لا يريدون أن تطل دعوة القومية العربية برأسها لأن مصلحتهم تقتضي عدم ذلك في الوقت الحاضر ولأنها قد أتت ثمارها سابقاً حينما قضوا بها على الخلافة الإسلامية في تركيا ممثلة في الحكم العثماني وبذلك يتبين أن كثيراً من دعاة القومية من العرب ومن غيرهم إنما هم ببغاوات يرددون ما يسمعونه حرفياً من مدربيهم رؤساء الكفر والضلال إذ لا يغيرون حتى كلمات العبارات .

●● مراجع لدراسة القومية :

١ ـ «فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام» ـ الشيخ صالح بن عبد اللّه العبود .

٢ ـ «حركات ومذاهب في ميزان الإسلام» الطبعة العاشرة سنة ١٤٠٣ ـ فتحي يكن .

٣ ـ «الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها» ـ جمعة الخولي .

٤ ـ «محمد والقومية العربية» ـ علي حسني خربوطلي .

٥ ـ «مذاهب فكرية معاصرة» ـ محمد قطب .

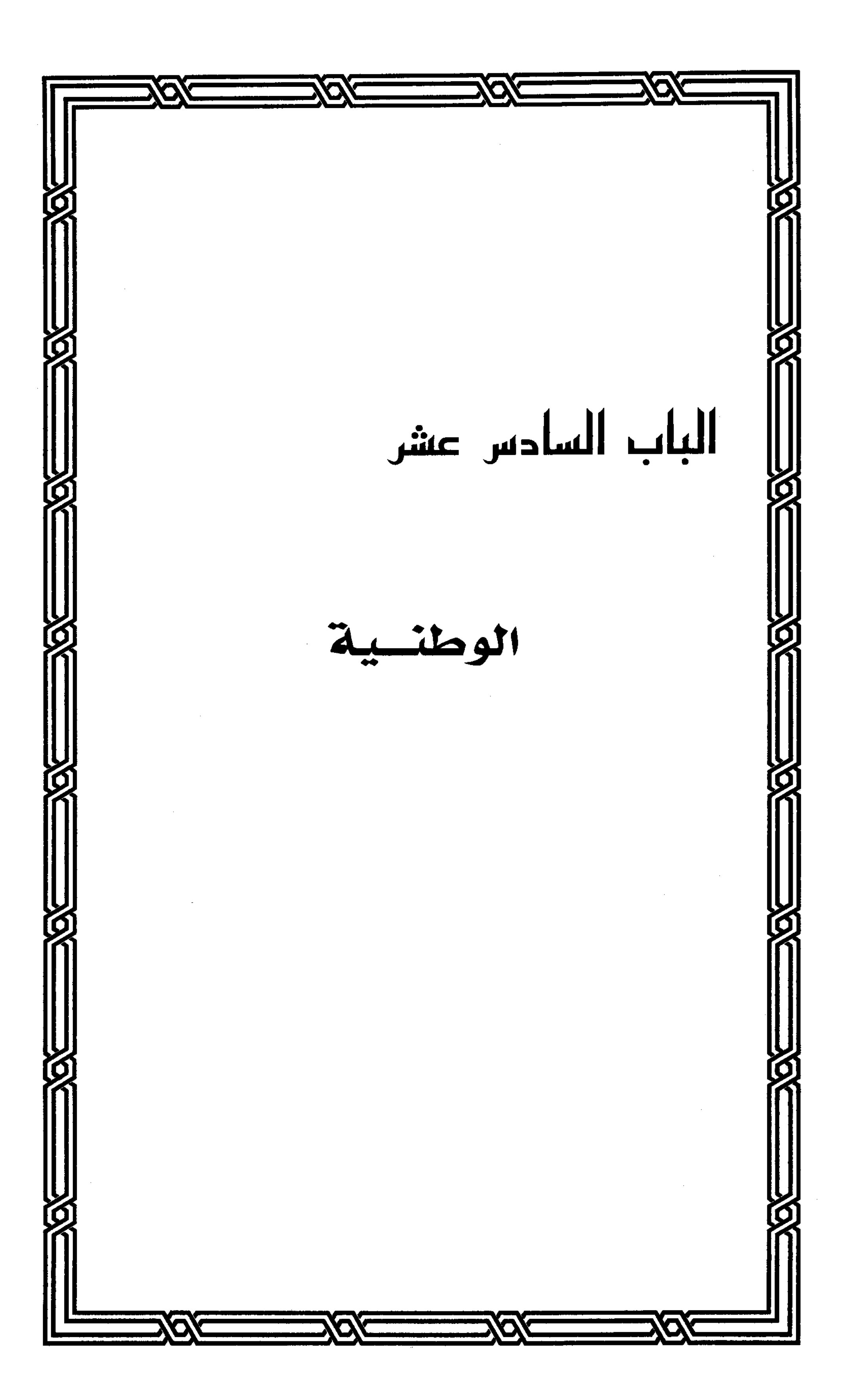
٦ ـ «نقد القومية العربية» ـ الشيخ / عبدالعزيز بن باز .

٧ ـ «القومية في نظر الإسلام» ـ محمد أحمد باشميل .

٨ ـ «الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام» ـ منير محمد نجيب .

٩ ـ «في الشعوبية» ـ إسماعيل العرفي .

١٠ ـ «الشعوبية الجديدة» ـ محمد مصطفى رمضان .



الباب السادس عشر

الوطنــية



الباب السادس عشر

الوَطَنيَّـة

الوطنية هي إحدى النعرات الجاهلية التي لم يرشد إليها الإسلام ولم يهتم لها الصحابة الكرام رضوان اللَّه عليهم ولو كانت خيراً لما سبقهم الأوروبيون والشعوبيُّون إليها وإلى تقديسها والاجتماع عليها بدلاً عن الدين في عصبية عارمة لا تلوى على شيء ولا يستطيع أحد أن يثبت أن اللَّه تعالى حبَّذها في كتابه الكريم أو دعا إليها نبيه العظيم ﷺ فما نشأت إلاَّ من أوروبا ولمبررات كثيرة بالنسبة لهم ثم تلقفها عنهم أناس كانوا على أحوال مختلفة من الثقافة ومن التدين .

إننا نرفض الوطنية التي يُراد بها أن تحل محل الدين أو أن يكون عليها البراء والولاء دون النظر إلى رابطة الدين الحنيف على أن دراستنا لهذا المذهب ستتم من خلال الفصول الآتية :

الفصل الأول : بيان حقيقة الوطنية .

الفصل الثاني : القومية والوطنية .

الفصل الثالث : كيف نشأت دعوى الوطنية .

الفصل الرابع : هل نجحت الوطنية في تأليف القلوب ؟

الفصل الخامس : الإسلام والوطنية .

الفصل السادس : نتائج تقديس الوطنية .

تعقيب على ما سبق .

الفصل الأول

بيان حقيقة الوطنية

•• حقيقة الوطنية

الوطنية دعوة براقة وخدعة كبيرة تستثير في النفوس عاطفة حب الوطن في البدايات الأولى وفي نهايتها يُراد بها الانسلاخ من رابطة الدين والاكتفاء بها في كل وطن له حدود جغرافية وموالاة أهله على حبه بغض النظر عن أي اعتبار .

وهي نسبة إلى الوطن . أي الأرض التي يعيش عليها مجموعة من الناس وقد ظهرت بعد ظهور القومية كرافد من روافد القومية يقصد بها أن يقدس كل إنسان وطنه فقط وأن يتعصب له بالحق والباطل وهي بهذا المفهوم لا يقبلها الإسلام ولا يقرها إلا إذا كان المقصود بها الناحية الطبيعية التي طبع عليها كل كائن حي من حبه لوطنه الذي يعيش فيه فقط فإن الإسلام لا يمنع هذا الإحساس والعاطفة بل يحبذه وكان الصحابة في المدينة يحنون إلى مكة وجبالها وأوديتها وأشجارها حتى قال بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أو غيره من المهاجرين :

ألا لَيتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيلَةً * بِوَادٍ وحَـوْلي أذْخُـرٌ وجَليلُ**

وهَلْ أرِدَنَّ يَوْماً مِياهَ مَجَرَّةٍ * وهَلْ يَبدُوَنَّ لي شَامَةٌ وطفيلُ**

حتى دعا الرسول ﷺ ربه أن يحبب إليهم المدينة كحبهم مكة أو أشد حباً .

والوطنية التي نحن بصدد دراستها هي الوطنية الشريرة التي تريد أن تحل محل الإسلام إلى جانب القومية ومضيفة إليها بُعداً جديداً في التفلت من رابطة الدين والاخوة الإسلامية والاكتفاء بالوطنية وكلتاهما تصب في مجرى واحد وإن اختلفت التسمية .

ذلك أن القومية هي التعصب للقوم ويدخل فيها التعصب للوطن . والوطنية هي التعصب لتلك الأرض ويدخل فيها التعصب للساكنين عليها أيضاً . ومن هنا نجد أن القومية والوطنية يمد بعضها بعضاً لتكونا معاً رافداً من روافد الجاهلية والنفرة عن الدين والالتقاء على حب الوطن ، بغض النظر عن اختلاف ديانة الموجودين عليها ، فالوطنية أم الجميع ، لأن الوطنية توجب أن يتعايش المسلم والنصراني واليهودي والمجوسي وغيرهم على حد سواء . والقارئ الكريم يجد عبارات القوميين تنضح تقديساً وتكريماً للوطن كما قال شاعرهم :

بِلادي هَواها في لِسَاني وفي دَمي * يُمَجِّدُها قَلبي ويَدْعُو لها فَمِ**

وقوله :

بِلادَكَ قدِّسْها على كُلِّ مِلَّةٍ * ومن أجْلِها أفْطِرْ ومن أجْلِها صُمِ**

وقول الآخر :

بِلادِي وإنْ جَارَتْ عَليَّ عَزيزَةٌ * وأهْلي وإنْ ضَنُّوا عَليَّ كِرامُ**

وكأنه لم يسمع قول ابن الوَرْد :

حُبُّكَ الأوْطانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ * فاغْتَرِبْ تَلْقَ عن الأهْلِ بَدَلْ**

وهذه الوطنية هي في حقيقتها دعوة لتجزئة أوطان المسلمين وانطواء كل جزء على نفسه وعدم الاهتمام بغيره من أوطان المسلمين الأخرى .

الفصل الثاني

القومية والوطنية

إن الوطنية دعوة جادة إلى تجمع أبناء الوطن الواحد على حب الوطن والتفاني في خدمته والولاء له بغض النظر عن أي اعتبار آخر فلا ينظر الوطنيون إلى اختلاف أبناء الوطن الواحد في الدين أو في اللّهجات أو اللغات أو اختلاف الألوان بينهم فإن الوطنية تحتوي كل اختلاف يقع بين أبناء الوطن الواحد أما الدعوة إى القومية فهي أشمل وأعم من الدعوة إلى الوطنية بقبولها انضمام أكثر من وطن إليها مع التقاء الجميع كما عرفت سابقاً وكلتاهما من جملة السهام الموجهة إلى وحدة الأمة الإسلامية إن لم يصب هذا أصاب الآخر .

الفصل الثالث

كيف نشأت دعوى الوطنية

نشأت هذه الفكرة في أوروبا كغيرها من الأفكار الأخرى الكثيرة في رد فعل عارم تجاه أوضاعهم التعيسة التي كانت تقسم الناس إلى فريقين فريق هم السادة والقادة وأصحاب الامتياز وفريق آخر هم العمال العبيد الذين يساقون كما تساق البهائم لا قيمة لهم ولا يجمع بين قلوبهم وقلوب الطبقةا لأولى غير الأحقاد والكراهية والرغبة في التمرد بأي ثمن يكون للخلاص من قبضة رجال الدين ورجال الدولة على حد سواء بعد أن التقت مصالح رجال الدين ورجال الحكومة على استعباد الناس وتسخيرهم لخدمتهم وحين وصلت الأمور إلى هذا الحد كان اختراع المبررات للخروج على ذلك الوضع هو التفكير الجاد فاخترعت الدعوة إلى القومية ثم إلى الوطنية ثم إلى الأفكار الأخرى كالحرية والمساواة وحقوق الإنسان .. إلى آخره .

وكان إلى جانب هؤلاء المتربصون بالكنيسة ورجالها وبالحكام الذين يظلمون الناس باسم المسيح كان إلى جانبهم اليهود الذين كانوا محل بغض الاضطهاد الديني النصراني حينما كانت النصرانية قوة متنمرة لكل المخالفين لها .

فكان الأمر يقتضي أن يقف اليهود إلى جانب أولئك بكل ما يستطيعون علها تظهر من وراء تلك الفتن فوائد لليهود وهم يعرفون كيف يستغلون الأوضاع لصالحهم بعد تأجيج الفتن .

ومن الجدير بالذكر أن دعوى الوطنية حين ظهرت في أوروبا ما كان لها وهي دعوى جاهلية أن تؤلف بين قلوب الأوروبيين برغم تلك الأوضاع فقامت الحروب الشرسة بينهم وسفكت دماء لا يعلم عددها إلا اللَّه تعالى وكل تلك الحروب إنما كان يُراد من ورائها السيطرة وبسط النفوذ وهي حروب كثيرة وقعت بين فرنسا والانجليز والإيطاليون وغيرهم في مد وجزر استغرق وقتاً طويلاً وقفت أمامها القومية والوطنية ذليلتان .

لقد جاءت الوطنية على غرار خبث القومية ولم يكن تصدير أوروبا الفكرة الوطنية إلا وسيلة من وسائلهم الكثيرة لغزو العالم كله وخصوصاً العالم الإسلامي وتشتيته وتمزيق وحدته ليسهل عليهم إذلال تلك الشعوب حينما تتقطع فيما بينهم روابط العقيدة وتحل محلها روابط الجاهلية من قومية ووطنية شعوبية ويصبحون فريسة الأفكار الخادعة ويتخلون عن مصدر عزهم وقوتهم في الإسلام وقد عرفوا أن إحلال الوطنية محل الجهاد الإسلامي بخصوصه هو أقرب الطرق إلى تشرذم المسلمين وبالتالي يكون جهاد المسلمين لأعدائهم إنما هو لأجل الوطن لا لشيء آخر . فيتحول الجهاد من كونه لأجل نشر الإسلام إلى حركات وثورات وطنية لا تفرق بين الدين وعدم الدين بل ولا تدعو إلى الدين الإسلامي ولا إلى نشر تعاليمه ولا يقاتلون أعداء الإسلام لأجل الإسلام بل لأجل أن يتركوا لهم بلادهم وأوطانهم لا غير ومن السهل على أعداء الإسلام أن يعدوا المسلمين ويمنوهم بتركهم أوطانهم إذ أن الطلب في هذا أسهل من طلب الإسلام أو الجزية عن يد وهم صاغرون أو القتال كما هو شعار الإسلام فإذا صارت المفاوضات سياسية محضة فالخطب هين والوعود والكذب والاحتيال أمر مشروع عند الكفار ضد الإسلام والمسلمين ولا يصعب عليهم إخلاف الوعود والاعتذارات

بحرارة عندما يتلاعبون بالمواعيد وبين تلك المواعيد واللقاءات المتكررة والمجاملات يسري في عروق الوطنيين ما يسري من الغزو المنظم والانبهار بما عند أعداء الإسلام مما مكنهم اللّه به من العلم بظاهر الحياة الدنيا وزينتها فتقوم صداقات تنمو شيئاً فشيئاً بين الوطنيين ممن يزعمون الإسلام وبين أعداء الإسلام بعد أن أبعد الدين ومبادئه في الجهاد عن الساحة وحلت محله الشعارات الخادعة من القومية والوطنية والإنسانية والتقدمية و ... إلى آخره ومادام الوطنيون لا يغضبون للّه تعالى ولا لدينهم فبإمكان أعداء دينهم أن يقولوا لهم لماذا تغضبون ألأجل الاستقلال ؟ سنجود به عليكم بل وستكونون أنتم خلفنا على شعوبكم وسـيقبل الوطنيون بكل بساطة بخلاف ما لو كان التعصب للدين .

ولهذا فمن الواضح أن دعاة الوطنية وقد اشربوا حبها بدلاً عن الدين وتقديسها بدلاً عن تعاليم الإسلام من الواضح أن هؤلاء غنيمة أعدائهم حيث يرتمون في أحضانهم للاستعانة بهم والركون إليهم في كل شيء سيواجههم حتى ولو كان ذلك ضد أبناء وطنهم الذين يفطنون لما يبيته لهم الوطنيون عباد الكراسي والشهوات وكانت قيادة دعاة الوطنية لشعوبهم كقيادة فرعون الذي قال لأبناء وطنه «ما أريكم إلا ما أرى» قادوهم إلى جعل الوطن هو المقدس أولاً وأخيراً وإلى التعلق بأذيال أهل الشرق الشيوعي أو الغرب النصراني وأماتوا شخصية شعوبهم الإسلامية التي تبعث فيهم النخوة والشهامة والاعتزاز بالإسلام ومعلوم من هذا الكلام انني لا أقصد به ذم الذين جمعوا بين حب الوطن وحب دينهم وتواضعوا للناس . وإنما أقصد أولئك الذين باعوا أنفسهم وأوطانهم ودينهم بثمن بخس وفضلوا المبادئ والنظريات الكافرة وازدروا الدين الحق وسموه رجعيةً وتخلفاً .

الفصل الرابع

هل نجحت الوطنية في تأليف القلوب ؟

إن الوطنية من الشعارات الزائفة وهي أقل وأذل من أن تؤلف بين القلوب حينما تبتعد عن هدى خالقها وتعرض عن دينه القويم وما يجري في البلاد الإسلامية وغيرها من بطش أصحاب الوطن الواحد بعضهم ببعض عند قيام الفتن لهو أقوى شاهد على فشل الالتفاف حول الوطنية وأنها دعوى عنصرية لا تلين لها القلوب ولا تدمع لها العيون .

إن جمع الناس على الوطنية ـ بعيداً عن الدين الإلهي ـ هو ضرب من الخيال الساذج والسراب الكاذب لأن اللّه عز وجل لا يصلح عمل المفسدين وقد أخبر سبحانه وتعالى أن الألفة بين القلوب أمر بعيد المنال إذا لم يوجد العامل الصحيح في ايجاد ذلك وقد امتن اللّه عز وجل على عباده باجتماع كلمتهم على الدين فقد قال تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)** ﴾ [١]

وقال تعالى ممتناً على نبيه الكريم ﷺ بما وصل إليه المؤمنون من تآلف قلوبهم : ﴿ **وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي**

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٣

الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾ [(١)]

وأين هذا التآلف العجيب الذي كان أحدهم يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة والذي جعل الشخص المسلم يقدم نفسه دون أخيه في كل شيء والذي جعلهم كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص أين هذا التآلف من دعوى التآلف على الوطنية القائمة على الجهل والغرور والكبرياء والبغي بغير الحق وتبادل المنافع أليس فاقد الشيء لا يعطيه ؟

إن الوطنية لم تقم على تقوى اللّه تعالى ولا على الخوف منه عزَّ وجلَّ أو الحب فيه وإنما قامت على نزغات الشيطان . والشيطان يهدم ولا يصلح ويفرق القلوب ولا يجمعها فمن أين إذاً يأتي التآلف والمحبة بين أفرادها إنك لا تجني من الشوك العنب .

وإذا كان ما قدمنا دراسته عن القومية يعطي صورة واضحة عن فشلها وبعدها عن أهداف الدين الحنيف الذي يقول للناس : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾ [(٢)]

إذا كان ما قدمنا يدل على خيبة القومية وهي الأصل فما هو الظن بالوطنية وهي المتفرعة عن القومية لا ريب أنهما نبتتان خبيثتان لا تقدمان إلا خبثاً ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [(٣)]

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٦٢ ، ٦٣

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٩٢

(٣) سورة يونس الآية : ٢٥

أرأيتم لو أن الرسول ﷺ ـ وحاشاه ـ تعصَّب لقومه ولوطنه مكة من كان سيوصل الإسلام إلى المدينة النبوية ولو أن الصحابة رضي اللّه عنهم تعصبوا لأوطانهم في الحجاز من كان سيوصل الإسلام من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي بل لو تعصب المسلمون لقومياتهم وأوطانهم فما الذي سيقدمونه للناس إن قدر لهم أن يفتحوا بلدانهم ؟

وانظر في كتاب اللّه عز وجل هل تجد آية خاطب اللّه فيها قوماً أو وطناً أو جنساً على جنس بطريقة التعصب والقومية أو الوطنية أو الاشادة أو تجد في سنة المصطفى ﷺ شيئاً من ذلك ؟ كلا .

بل ستجد قوله اللّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ (١)

وستجد : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (٢)

وستجد : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾ (٣)

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠١ ـ ١٠٢

(٢) سورة الحجرات الآية : ١٣٥

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٩٢

وستجد آيات كثيرة كلها تنادي البشر بأنهم على حد سواء أمام اللّه تعالى وان التفاضل بينهم عند اللّه لا يكون إلا بالتقوى وان التفاخر والتعالي إنما هو من طبيعة الشيطان ومن يتبعه كما ستجد في السنة النبوية مثل هذا المفهوم الحق ـ وقد مر ذكر أحاديث في ذلك ـ واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل .

الفصل الخامس

الإسلام والوطنية

والإسلام وإن كان لا يمنع حب الشخص لوطنه لكنه يوجب ملاحظة أمور لابد أن تكون في حسبان المسلم وأن يلاحظها بدقة فلا يوالي ويعادي من أجل الوطن بل يجعل الولاء أولاً للّه تعالى عليه يوالي وعليه يعادي فلا يقدم محبة الوطن أو أهل الوطن على محبة اللّه تعالى ومحبة من يحبه عز وجل كذلك يجب أن لا يكون حب الوطن ينشأ عن عصبية جاهلية أو على طريقة الجاهلين انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً بمعنى الوقوف إلى جانبه سواء كان على حق أو على باطل بحجة انه أخاه في الوطن بل عليه أن يراعي الأخوة الإسلامية قبل أخوة الوطن فإن أخوة العقيدة أثبت وأنفع من أخوة الوطن على طريقة خاطئة .

وكُلُّ مَحَبَّةٍ في اللّه تَبْقَى * على الحَالَيْنِ من فَرَجٍ وضِيقِ**

وكُلُّ مَحَبَّةٍ فيمَا عَداهُ * فكَالحلفاءِ في لَهَبِ الحَريقِ**

ومما لا مجال للشك فيه أن المسلمين ما ضعفوا وما استكانوا إلا يوم قدموا الوطنية وافتخر كل أهل وطن بوطنهم ولم يهتم بعضهم بالبعض الآخر فكان الجميع لقمة سائغة لأعدائهم فانفردوا بإذلال أهل كل وطن كما هو الوضع الآن وانتشرت مع الأسف دعوات جاهلية صار يرددها الكبير والصغير والمرأة والرجل وهو شعار التضحية في سبيل الوطن أو بذل الدم من أجل تراب الوطن ونحو ذلك من الكلمات التي أثمرت التخاذل حتى عن الدفاع الجاد عن أوطان

المسلمين وأعراضهم ونصرة المظلومين وارجاع الحق لأهله بعد أن ماتت هممهم وغيرتهم وتوزعتهم الأهواء وأثخنت فيهم الدعايات الجاهلية .

إن دعاة الوطنية لم يقفوا بها عند حد فقد قدسوا الوطنية إلى حد العبادة من دون اللّه تعالى وأحلوها محل الدين وصاروا لا يدعون إلا إلى تقديسها ونسيان كل أهل وطن ممن عداهم من أوطان المسلمين الأخرى ونشأ عن تلك الدعوات الفخر والخيلاء والاستكبار بغير الحق والتعالي والغطرسة الكاذبة بل وركن أهل كل وطن على قومهم في وطنهم في كل شيء حتى في الانتصار على الأعداء فقد نسوا أن النصر من عند اللّه تعالى فصاروا يمتدحون بأن الوطن سيمنحهم الشجاعة والنصر والعيش الكريم وأن وطن كل طائفة سيصبح مقبرة للغزاة والطامعين ولكنها جعجعة ولا ترى طحنا وعنترة جوفاء فضحتها الوقائع القائمة .

وقد بلغ من تقديس الأوطان عند دعاة الوطنية الجاهلية أن يطلبوا إلى كل شخص أن يقدس وطنه على كل الملل والأديان وأن يضحي بكل ما لديه لوطنه :

بِلادَكَ قـدِّسْـهـا على كُلِّ مِلَّةٍ * ومن أجلِها أفْطِرْ ومن أجْلِها صُمِ**

بل وقال :

سَلامٌ على كُفْرٍ يُوحِّدُ بَيْنَنا * وأهْلاً وسـهـلاً بعـدَه بجَـهـنَّمِ**

وإذا وصل الإنسان في حب وطنه إلى هذا الحد فماذا سيبقى لحب اللّه وللمحبة في اللّه مادام حب الوطن هو كل شيء في حياة الإنسان عليه يحيا

وعليه يموت وعليه يوالي وعليه يعادي وبه يفاخر وإياه يقدس إلى حد أن الأوطان أصبحت وكأنها أوثان تُعبد من دون اللَّه تعالى وكل صاحب وطن يدعي أن وطنه هو أفضل الأوطان وتربته أفضل تربة وأنه وطن معطاء يكفي من تمسك بحبه كل مكروه ويفتخر برجاله وبعطائهم اللامحدود - هكذا - وفي المقابل لابد وأن يحتقر البلدان الأخرى وجهود الرجال الآخرين من بلدان المسلمين ورجالاته في رد فعل سواء شعر بذلك أم لم يشعر به .

فلا حرج في دين الوطنية أن يفتخر الشخص برجال وطنه ويقدم حبهم على من سواهم حتى وإن كان أولئك غير مسلمين فالوطنية دين الجميع . ومعلوم أن هذه المبالغة لا يقرها الإسلام الذي يدعو أتباعه إلى أن ينصهروا كلهم في بوتقة الإسلام ، ويدعو أتباعه لأن يكونوا في هذه الأرض كأنهم جسم واحد وفي وطن واحد ويوجب على كل مسلم أن يدافع عن كل شبر من أوطان المسلمين وأن يغار عليها حتى لو أدى ذلك إلى قتله فإنه يكون شهيداً مقاتلاً في سبيل اللَّه تعالى فإن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم وقد ذكر بعض العقلاء أنه من ضيق الأفق تقوقع الإنسان في مكان واحد وصبره فيه على كل ما يصيبه من أنواع المكاره حباً لذلك المكان .

قال علي ابن أبي طالب رضي اللَّه عنه فيما ينسب إليه :

إنِّي رَأيتُ وُقُوفَ الْمَاءِ يُفْسِدُهُ * إنْ يَجرِ طَابَ وإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ**

ووطن العاقل هو المكان الذي يتهيئ له فيه عبادة اللَّه تعالى ويقوم بدينه ويصون نفسه وعقيدته من الانحراف آمناً مطمئناً على نفسه ودينه وعرضه .

الفصل السادس

نتــائج تقديس الوطنية

أثمرت الدعوة إلى الوطنية ثماراً خبيثة وبرزت العصبية البغيضة وانتزعت الرحمة بين الناس وحلّ محلها الفخر والخيلاء والكبرياء حيث تعصب كل شعب لوطنه واحتقر ماعداه في صور مخزية مفرقة ومن أقوى الأمثلة على ذلك ما حصل عند الأتراك ـ بفعل دسائس اليهود ضد الدولة الإسلامية العثمانية ـ حيث نفخوا في أذهان الوطنيين الأتراك وجوب العودة إلى الافتخار بوطنيتهم الطورانية التي كانت موجودة قبل الإسلام والعودة إلى تقديس شعار الذئب الأغبر معبودهم قبل الإسلام ونفخوا في الوقت نفسه في أذهان العرب الوطنيين الحنين إلى الاعتزاز بالوطنية العربية وتقديمها على كل شيء بل جعلها إلها كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [1] وقد عبر شاعرهم عن ذلك بقوله :

هَبُوني عيداً يَجعلُ العَربَ أُمَّةً * وسِيروا بجُثْماني على دين بُرْهمِ**

فماذا يُنتظر من الوطنيين حينما تكون الكلمة لهم ؟ غير جعل الوطنية هي الدين ، وهل حقق هؤلاء السفهاء الأشرار كلامهم في حب الوطنية العربية ؟!! ، وماذا فعلوا ضد اليهود في فلسطين وفي غير فلسطين ؟ ، ماذا قدموا غير الصراخ والعويل والنباح والتهديدات الجوفاء لتحرير القدس والأمة العربية ؟ يرددون كلاماً ممجوجاً مكرراً وشعارات أصبحت مهازل

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣

يستحي منها العقلاء على أنه لم يقتصر الضرر فقط على ما تقدم وانما كانت وراء خدعة الوطنية أغراضاً سياسية وثقافية واجتماعية حيث بدأت الدعوة للوطن تفرق بين الولاء للّه تعالى وبين الولاء لغيره تحت شعار «الدين للّه والوطن للجميع» ، وبالغوا في وجوب حب الوطن وانه مشاع بين جميع المواطنن حتى السياسية منها ومن هنا تمت اللعبة على كثير من بلدان المسلمين حيث أصبح المواطن النصراني أو اليهودي أو العلماني أو الشيوعي حتى وان لم يكن من أهل ذلك البلد في الأساس فإن من حقه كمواطن أن يصل إلى أعلى الرتب التي يتمكن من خلالها من التحكم في مصائر أهل تلك الشعوب الإسلامية وهو ما هدف إليه أعداء الإسلام من دعمهم السخي لأولئك الأقليات في تلك البلدان الذين هم في الأساس عملاء لتلك القوى الكفرية العالمية ونجحوا في ذلك وفي نهاية الأمر وهو نتيجة لتمكن أولئك من السلطة أصبح هؤلاء ينادون بأن الوطن والعيش فيه هو في الدرجة الأولى لهم وصاروا ينظرون إلى أهل تلك الأوطان الإسلامية بأنهم غرباء وأحياناً يسمونهم عملاء وبالتالي فمن حقهم أن يضطهدوهم وهو ما تم في بعض ديار المسلمين التي أصبح الحكم فيها لغير المسلمين بل وطرد المسلمين وحوربوا ونفذ المخطط المعادي للإسلام بكل دقة وكأن الشاعر يندب حظهم حينما قال مفتخراً :

يا ضَيْفَنا لَوْ جِئْتَنَا لَوَجَدْتَنَا *** نَحْنُ الضُّيُوفُ وأنْتَ رَبُّ الْمَنْزِلِ

وبهذا يتضح أن دعوى الوطنية وكذا القومية وكذا الإنسانية والأخوة والمساواة وحرية الكلمة وتقبل الرأي والرأي الآخر ما هي إلا لعب سياسية ماكرة ودعوات يُراد من ورائها مكاسب سياسية وعقدية . وفي لبنان

وفلسطين أقوى الشواهد واتضح أن الدعوة إلى كل النعرات الجاهلية لم ينتفع بها إلا أعداء الإسلام من اليهود والنصارى ليندمجوا مع المسلمين تحت هذا الإسم . لأن الغرض من قيامها في الأساس هو لتحقيق هذا الهدف . فلا يبتلى بها مجتمع إلا وأصيب بهذا الداء العضال من تراخي القبضة على الدين ومن تمجيد تراب الوطن وكل ذرة رمل فيه وانه وطن مقدس دون غيره من بلاد الآخرين فاخترعت له طقوس وشعارات واخترعت له أعياد ـ هي غير الأعياد الإسلامية ـ ويتبادل الناس فيها التهاني والتبريكات وتتعطل كثير من المصالح لانشغال الناس بتلك الأعياد بينما الإسلام ليس فيه إلا عيدين عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد صغير هو يوم الجمعة وطلب أقطابها من الناس أن يقدموا دماءهم رخيصة من أجل تراب الوطن بدلاً عن الجهاد في سبيل اللّه تعالى .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل جاءت ثالثة الأثافي وهي كثرة الأماكن المقدسة فمرة يدعون إلى تقديس تراب الوطن كله ومرة يدعون إلى تقديس بعض المدن أو الأماكن التي قد لا يعرف لها ذكر ولا سابقة خير بل أحياناً يدعون إلى تقديس أماكن عرف عنها الشر وربما وصل الحال إلى أن يختلط الأمر على من لا معرفة له بالأماكن المحترمة من غير الأماكن المحترمة والمسلمون يعلمون أن الإسلام لا يدعو أحداً إلى تقديس أي مكان في هذه الدنيا ولا يجد المسلمون بلداً تحن إليها النفوس وتترقرق عنده الدموع إلى مكة المكرمة والمدينة النبوية وليس ذلك لذات المكان أو لترابه وإنما هو لما شرفهما اللّه به من جعلهما أماكن عبادة فاضلة ومن بعثة نبيه محمد ﷺ

وبزوغ فجر الإسلام فيهما ومن ظن أن هذا الاحترام والتقدير إنما هو لترابهما فهو جاهل فقد كانت المدينة تسمي يثرب وكان فيها ما ذكره العلماد عنها من أنها أرض وباء وحرة جرداء حتى شرفها اللَّه تعالى بنزول نبيه فيها ودعاؤه لها بالبركة وأن ينقل حماها إلى الجحفة ويبارك في مدها وصاعها وأن يحببها إليهم كحبهم مكة أو أشد إلى غير ذلك من أخبار هذا البلد الطيب وكذلك مكة فإنها واد غير ذي زرع شرفها اللَّه بالكعبة ولكن في عرف الوطنية ليست العبرة بالصفات وإنما العبرة بذات الأرض وأحياناً تقدس الوطنية الأرض لأن هواءها جميل وأشجارها باسقة ونحو ذلك مما ينظر إليه الشخص القصير النظر الضيق الفكر .

وليت شعري ما الفائدة من تقديس الوطنية إذا كانت ثمارها قطع كل صلة للشخص بما وراء وطنه وبالتالي قطع أواصر المودة بين أوطان المسلمين وأن كون الولاء والبراء قائماً على الوطنية لا على الأخوة الإسلامية وأن يغضب الشخص لوطنه أكثر من غضبه لدينه والتعصب لبني وطنه وتقديسهم سواء كانوا قبل الإسلام أو بعده مقدماً لهم على أواصر الأخوة في الدين بحيث يجب أن يحب الملحد الوطني على الصالح من غير وطنه حسب شريعة الوطنية أليست هذه معاول هدم تفرق ولا تجمع ؟ وتشتت المسلمين وتضعفهم ؟

•• تعقـــيب على ما سبق

وأخيراً فإنه يتضح مما سبق :

١ ـ أن القومية والوطنية بينهما ترابط شديد وان كان مفهومهما في الظاهر مختلفاً ولكن في حقيقتهما تلازم يرتبط بعضه بالبعض الآخر إذ لا تجد من يتصف بأحدهما إلا وهو متصف بالآخر حتماً .

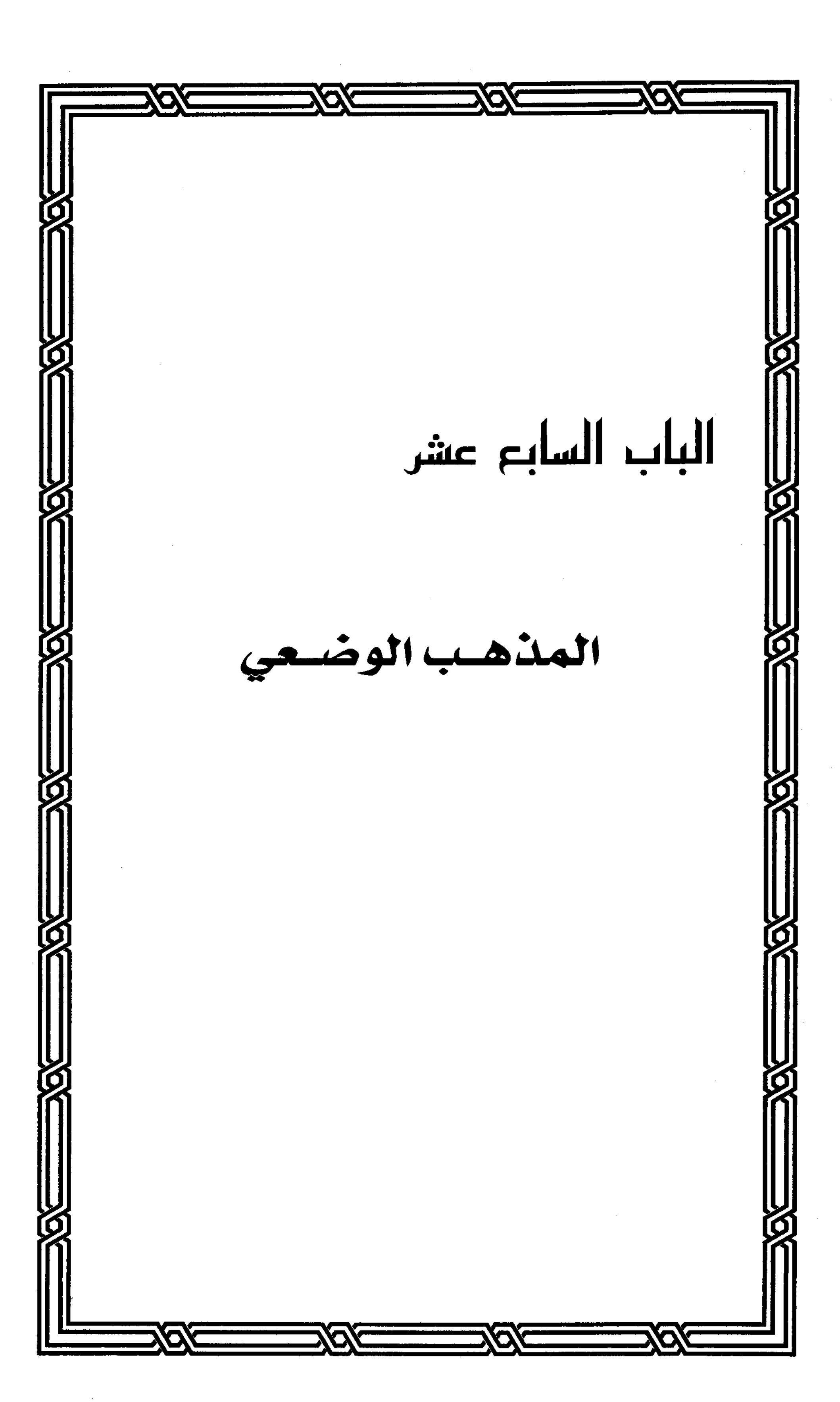
٢ ـ إن الدعوة إلى هاتين النعرتين الجاهليتين قد أراد أصحابهما أن يحلوها محل الدين .

٣ ـ إن الإسلام قد حاربهما حرباً شعواء وبين الأخطار التي تكمن من وراء قيامهما .

٤ ـ إن ظهورهما في بلاد المسلمين ـ على الصورة المستعرة التي هي عليه اليوم ـ إنما كان بدسائس اليهود والنصارى وسائر الدول الغربية الحاقدة .

٥ ـ يجب على كافة الدعاة إلى اللّه تعالى وطلاب العلم أن يجتهدوا في محاربتهما وبيان ما تحملانه من تدمير للإسلام والمسلمين . وبيان أن الإسلام دين كامل إلى يوم القيامة وأن الخير والسعادة للبشرية تكمن في الانضواء تحته وتطبيق تعاليمه ومعرفة ما كان عليه حال العرب قبل الإسلام وكيف تحولوا بعده إلى أن كانوا قادة العالم ووجه الأرض المشرق .





الباب السابع عشر

المذهب الوضعي



الباب السابع عشر

المَذهَب الوَضْعي

وتشمل دراسة هذا المذهب الفصول الآتية :-

الفصل الأول

حقيقة المذهب الوضعي

المذهب الوضعي ويقال له المذهب الواقعي أيضاً أو سيادة الطبيعة والحس وهو مذهب إلحادي محارب للّه تعالى ولكل الأديان لا يؤمن إلا بالمحسوسات وما ينتج عن التجارب وهو بمثابة تهيئة للماركسية فيما بعد إلاَّ أنه كان في إحدى مراحله يؤمن بدور العقل في المعرفة في العصور الوسطى إلى أن جاء عصر التنوير في القرن الثامن عشر فكان له دور واضح أيضاً في المعرفة ولكن انتهى اعتباره في القرن التاسع عشر هو والدين أيضاً إذ لم يعد لهما دور بعد هذا التطور الذي تصوره الوضعيون .

وجاءت بعد ذلك الماركسية لتؤكد نهاية صلاحية الدين والعقل والاعتماد فقط على الطبيعة وإنكار العالم الآخر وسائر المغيبات التي أخبر بها الدين في الحياة الآخرة .

وأحلُّوا الطبيعة هذه محل الإله فهي التي تخلق وتقدر الأمور على حقيقتها واعتبارما جاء خارجاً عنها ما هو إلا وهم وخداع سواء جاء عن طريق العقل

أو غيره مما تثبته الأديان من الوحي الإلهي الذي نتج ـ كما يكذبون ـ عن البيئة والوراثة والحياة الإقتصادية وكان هدف الوضعيين هو مقارعة رجال الدين النصراني وإبطال مقالاتهم في الدين بالدين الوضعي الجديد أو دين الإنسانية .

وقد جاء في الموسوعة العربية الميسرة أن الوضعية مذهب فلسفي يقيم المعرفة على نطاق الخبرة الحسية . وأما ما يتجاوز الخبرة الحسية فمعرفته مستحيلة ... كان «هيوم» رائداً للمذهب الوضعي ، و «أوجست كونت» داعيةً له [(١)] .

وقد بدأ ظهور مذهب الوضعية في شكل قوة ظاهرة مع بداية القرن التاسع عشر على أنقاض عصر التنوير كما يسمونه .

ثم اشتدَّ بعد ذلك وأصبح يُراد به سيادة الفكر المادي أو سيادة الطبيعة والتجربة الإنسانية والواقع الذي هو أساس كل الأمور دون غيره .

وكان «هيوم» الذي تشبع بفكرة الوضعية يجادل لتصحيح مذهبه هذا ويثير شبهات سخيفة لتقوية الإلحاد وإنكار وجود الخالق فأنكر ارتباط الأسباب بمسبباتها على الحقيقة واعتبر أنها فرضية عقلية غير حقيقية بدليل أن الأسباب لا تفعل شيئاً تجاه مسبباتها وسبب ذلك إنكاره قدرة اللَّه تعالى وأنه هو المسبب الحقيقي في إظهار الأمور عند فعل أسبابها إذاأراد اللَّه ذلك وقد تفعل الأسباب ولكن لا ترى المسببات إذا لم يشأ

---

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة جـ م ص ١٩٥٤ وانظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ٤٣ .

اللّه ذلك فليست الأسباب هي الفاعلة بنفسها كما أنكر إرادة الانسان في عمله بل هو يعمل كل ما يعمله آلياً دون إرادة مسبقة وهو إنكار يدل على جهله فإن كل إنسان يحس في نفسه إرادة مسبقة للعمل الذي يريده سواء أكان فيه مصلحة أو مضرة وقد يعمل الشخص العمل الذي فيه مضرة عاجلة لما يرجوه من المصلحة الآجلة فيه فلو لم تكن له إرادة لما أقدم على ذلك .

وله مزاعم كثيرة لا يدل عليها أي دليل لا من العقل ولا من النقل ولا من التجارب وإنما هي فلسفات خيالية [1] .

(١) أنظر كواشف زيوف ص ٤٥٣ - ٤٥٦

الفصل الثاني

زعماء المذهب الوضعي

لهذا المذهب مشاهير كثيرون من الفلاسفة والثائرين المناوئين للدين النصراني في أزمانهم المختلفة المتأخرين منهم ، ومنهم :

- الفيلسوف الإغريقي «بروناجوراس» في القرن الخامس قبل الميلاد .
- الفيلسوف «بايل» في النصف الثاني من القرن السابع عشر وهو فيلسوف فرنسي .
- الفيلسوف «دافيد هيوم» الأسكتلندي .
- الفيلسوف «أوجست كونت» الفرنسي .
- الفيلسوف «لودفيج فيرباخ» الألماني .

وقد اعتبر الفيلسوف الاغريقي «بروناجوراس» المؤسس الأول للبدايات الأولى لهذا المذهب ، وأما «بايل» فقد طور المذهب ، إلاَّ أن المؤسس الحقيقي للفلسفة الوضعية هو «أوجست كونت» ، وأما «لودفيج فيرباخ» فكان عمله كتهيئة للمذهب الماركسي ، ومنهم «سان سيمون» ، و «ريتشارد كونجريف» ، ومن العرب «زكي نجيب محمود»[1] .

---

(١) انظر الموسوعة الميسرة جـ ٢ ص ٨٢١ وانظر الاتجاهات الفكرية وكواشف زيوف .

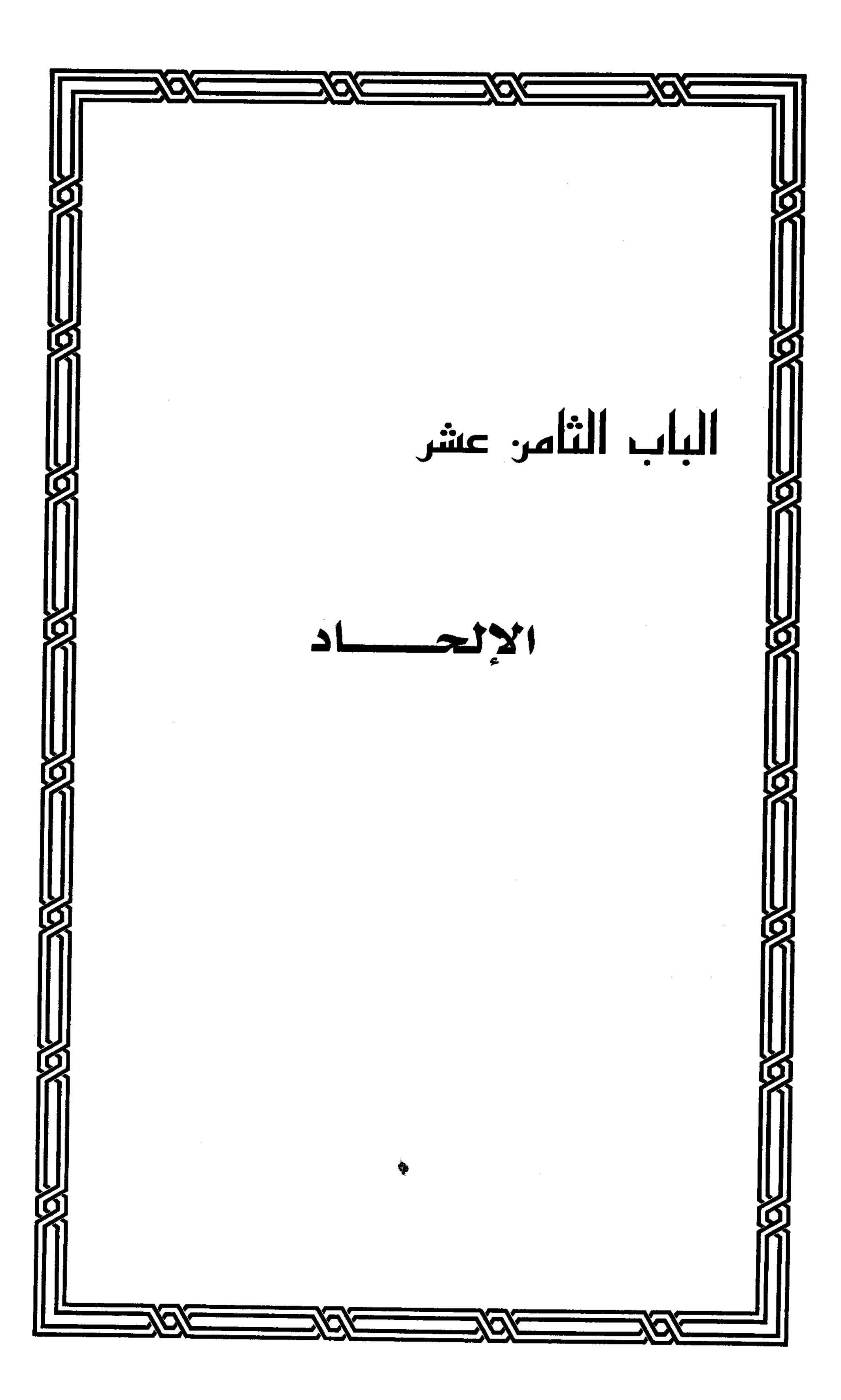
الفصل الثالث

سبب قيام المذهب الوضعي

من أهم الأسباب لقيام هذا المذهب عدم قناعة واضعيه بما كان يقوله الدين النصراني في تعليلاته للأمور والعناد الذي كان يبديه رجال الكنيسة ضد أي معرفة تظهر على يد أي شخص لم يكن من البابوات .

ولا يجوز أن نغفل عن مؤامرات اليهود وتشجيعهم كل ما يمكن أن يلحق الضرر بالجوييم وعقائدهم وسلوكهم فقد تفانوا في خدمة كل الحركات الضالة وقدموا أنواع المساعدات في ذلك وقد ازدهر المذهب الوضعي في فرنسا بطبيعة الحال ومنها انتقل إلى إنجلترا وأمريكا ويمكن أن نعتبره بداية انتقال الإلحاد الشيوعي إلى روسيا .





الباب الثامن عشر

الإلحـــــاد



الباب الثامن عشر

الإلحَـــاد

وتتم دراسة هذا المذهب من خلال الفصول الآتية :

تمهــــــــيد :

الفصل الأول : المراد بالإلحاد .

الفصل الثـــاني : كيف تدرجوا في إظهار الإلحاد .

الفصل الثـــالث : أقسام الإلحاد .

الفصل الرابـــع : أسباب ظهور الإلحاد .

الفصل الخامس : هل يلتقي الاسلام مع الأنظمة الإلحادية .

•• تمهـــيد :

لقد أثرى علماؤنا المكتبات الإسلامية بدراساتهم المستفيضة عن هذه الظاهرة الشاذة من تاريخ البشرية وجاءت كتاباتهم على صور شتى بين مُقلٍّ ومُكثر وأسلوب سهل وأسلوب عميق وعن دراسات شاملة وأخرى مختصة بجوانب دون جوانب وقد يجد بعض القراء صعوبة في لم شَتات هذه الدراسات والخروج منها بفكرة يمكن للذهن أن يمسك بها ويستوعب أهم معالمها إلاَّ بصعوبة ومادام الأمر يقتضي دراسة هذا المذهب الهدام وتكثير الأصوات عليه وتقريب شتات ما وزَّعه العلماء في كتاباتهم نحوه

هنا وهناك أحببت أن يكون جهدي المتواضع متوفراً على تقريب تلك المعلومات المشتتة وجعلها في متناول القارئ الذي قد لا يجد الوقت الكافي للرجوع إلى المصادر الأساسية المطولة أو قد يصعب عليه استخراج ما يهمه معرفته عن هذاالمذهب الفكري الهدام لأي سبب كان ومن هنا أصارح صديقي القارئ بأن الحديث عن الإلحاد والشيوعية واستكمال دراستهما لا يمكن أن يكون كاملاً في هذه العجالة التي يراد بها إعطاء صورة مصغرة ينتفع بها المستعجل إن شاء اللّٰه وفيما يلي الاشارة إلى أهم تلك الجوانب :

الفصل الأول

المراد بالإلحـــاد

المراد بالإلحاد الذي نحن بصدد دراسته . كل فكر يتعلق بإنكار وجود خالق هذا الكون سبحانه وتعالى . سواء أكان عند المتقدمين من الدهرية أو عند من جاء بعدهم من الشيوعيين الماركسيين بمعنى أن وصف الإلحاد يشمل كل من لم يؤمن باللّه تعالى ويزعم أن الكون وُجد بذاته في الأزل نتيجة تفاعلات جاءت عن طريق الصدفة دون تحديد وقت لها واعتقاد أن ما وصل إليه الانسان منذ أن وجد وعلى امتداد التاريخ من أحوال في كل شؤونه إنما وُجد عن طريق التطور لا أن هناك قوة إلهية تدبره وتتصرف فيه .

ولا ريب أن الإلحاد فكرة شيطانية باطلة لا يقبلها عقل ولا منطق غذَّاها اليهود لتحطيم حضارات وأديان العالم كلهم لإقامة حكمهم في الأرض كلها كما دوَّنوه في كتبهم . وقد يسأل سائل فيقول وما مصلحة اليهود من وراء ظهور الإلحاد ؟ ، والجواب هو إضافة إلى ما سبق فإن اليهود يبغضون ديانات العالم كله ، والعالم يبغضون ديانة اليهود فإذا تمكن اليهود من إبعاد الناس عن حضاراتهم ودياناتهم واستبدلوا عن ذلك بالإلحاد فإنه سيسهل حينئذ أن يتقارب اليهود مع غيرهم وسيسهل قيادتهم أيضاً إلى تحقيق المخططات اليهودية التي تنتظر التنفيذ .

ولم يكن أحد من البشر منذ أن أوجدهم اللَّه تعالى مستيقناً حقيقة

إنكار وجود اللَّه تعالى ولم يظهر في شكل مذهب أو دول . وإنما كان ظهوره في شكل نزعات لبعض الأشرار الشواذ إلى أن ظهرت الفلسفة الإلحادية الحديثة المنحرفة على يدي «ماركس» ورفاقه من اليهود الماسون الذين كانوا وراء إشعال هذه الفتنة الإلحادية لمآرب سياسية ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [1] .

وقد علا شأن الإلحاد في عهد «ماركس» وعهد من جاء بعده علواً كبيراً إلى عهد آخر رئيس لما كان يسمى بالإتحاد السوفياتي ، وهو «ميخائيل جورباتشوف» فأراد اللَّه عز وجل أن يظهر كذب الملاحدة فإذا بالشيوعية ـ التي تمثل قمة الإلحاد تموت في عقر دارها ـ وإذا بالشعوب المقهورة تعود إلى الإحتفال والإحتفاء بالأديان وتعلن ما كانت تخفيه من حب اللَّه وأنبيائه ورسله ورجعوا إلى المساجد والكنائس وسائر المعابد مُعلنين رفضهم الفكر المادي الإلحادي وفي بعض تلك الدول التي كانت تعلن الشيوعية والإلحاد شنقوا تماثيل بعض أقطاب الإلحاد الشيوعي تشفياً منهم . مما يدل دلالة صريحة على أن فكرة الإلحاد فكرة طارئة سخيفة لا مكان لها إلاَّ في قلوب فئة من شواذ الناس ماتت نفوسهم وانحرفت فطرهم وكابروا عقولهم ومن الغريب أن يسند الملاحدة إلحادهم إلى العلم ـ وهو كذب مبين ـ كما سيتبين ذلك من خلال هذه الدراسة إن شاء اللَّه تعالى .

---

(١) سورة النمل ، الآية : ١٤

الفصل الثاني

كيف تدرجوا في إظهار الإلحاد ؟

عرفت مما سبق أن الإلحاد لم يكن ظاهرة جماعية على امتداد التاريخ الإنساني وإنما كان نزعات شاذة إلي أن تبنت اليهودية العالمية هذا الفكر لتقضي به على جميع الأديان ليسهل عليهم بعد ذلك استحمار العالم لهم وإقامة دولة اليهود الكبرى العالمية التي يحلمون بإقامتها .

وفي بداية تبنيهم للفكرة كانوا يشجعون أي فكر أو حركة ضد الدين وأهله ـ أي دين كان ـ وينشرون الشعارات البراقة مثل إقامة الحياة السعيدة أو العيش السعيد للبشر في ظل أنظمتهم المزعومة .

والتركيز على ذم أهل الدين وتحقير أمرهم في أعين العامة وخصوصاً علماء الدين حيث ألصقوا بهم شتى التهم لتنفير الناس عنهم وعن مبادئهم ثم تشجيع النظريات المعادية للدين أو لرجال الدين أو الجانحة إلى التفلُّت من عقيدة الايمان باللَّه تعالى وإطلاق الألقاب الفخمة على كل شخص أو فكر يظهر منه ذلك مهما كانت حقارة القائل أو الفكر .

وكذا المناداة باطلاق الحريات للناس ؛ الحريات الشخصية ، حرية الكلمة ، حرية التصرف ، حرية التدين ، حرية الاقتصاد ، حرية الفكر ، ونحو ذلك من الدعايات انطلقوا في طريق واحد يصدق بعضهم بعضاً خصوصاً حينما استولوا على وسائل الإعلام كلها وبواسطة عملائهم المنتشرين في كل مكان وقد توَّج اليهود حربهم للَّه تعالى باقامة الماركسية والالتفاف حولها دعماً ومدحاً وهيئوا لها كل سبل النجاح للوصول إلى

مراكز الحكم والتأثير بالترغيب وبالترهيب فأصبح الإلحاد ظاهرة قوية في شكل جماعات من الناس وفي شكل دول حكمت بالحديد والنار لنشر هذا الإلحاد وقدموا الإلحاد في أثواب براقة وخدع خفية حيث ربطوا كل تقدم أو نجاح للعالم بتنفيذه .

وبحكم تسلط الملاحدة في البلدان التي تمت السيطرة لهم عليها أدخل تعليم الإلحاد قهراً وبالتالي إبعاد تعليم الدين عن كل المجتمعات والحيلولة دون دراسته وإطلاق أيدي الفَسَقه والفُجار للنيل منه ومن القائمين عليه ووصفهم بالرجعية والخونة والمتخلفين وما إلى ذلك من الألقاب الظالمة ، وكذا إطلاق أيديهم لخداع أهل الدين وأن الإلحاد هو الأساس الذي كان عليه البشر إلى أن جاءت الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فغيروا تلك المفاهيم الصحيحة !؟ ، وربطوهم بالخرافات إلى أن أصبح الإلحاد مذهباً فكرياً وتتم بموجبه الموالاة والمعادات وأصبح له أنصار كثيرون بزعامة الاتحاد السوفيتي سابقاً ولايزال له أنصار ودول إلى اليوم .

ومما يجب الاهتمام والتأكيد عليه أن الإلحاد كان أمراً طارئاً على البشرية إذ الثابت أن الايمان باللّه تعالى هو الأساس الذي كان عليه آدم وذريته من بعده منذ أن أهبطه اللّه إلى الأرض إلى أن نبغ قرن الشيطان في مفاهيم أتباعه بعد أن انحرفت أفكارهم ودُنِّست فطرهم .

ولابد من القول أن الإلحاد قد اشتد وكثر أتباعه سواء أكان في الغرب النصراني أو الشرق الشيوعي وهو يمشي بخطى حثيثة وقد تقبله من تقبله من الناس إما لعدم إيمانهم بالدين ، وإما لجهلهم وسخافة أفكارهم ، وإما رغبة في الوصول إلى مآرب سياسية أو إقتصادية أو رغبتهم في التفلُّت عن الدين ، أو غير ذلك مما سنذكره فيما بعد إن شاء اللّه تعالى .

وقد يعترض بعض المدافعين عن الإلحاد الشيوعي الماركسي ويقول : إن الإلحاد لم يكن وليد الشيوعية الماركسية بل إنه قديم في البشرية ظهر قبل ماركس وظهر بعده .

والواقع : أن الإلحاد ظهر في بعض المجتمعات البشرية قديماً ولكن اقتضت حكمة اللَّه تعالى أن يتتابع الرسل مبشرين ومنذرين من عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عهد نبينا محمد ﷺ وقد أخبر اللَّه عن هؤلاء الملاحدة في كتابه الكريم وعلى ألسنة أنبيائه ودحض حُجَجَهم وبيَّن زيفها - وللَّه الحُجَّة البالغة - وكان الإلحاد في الزمن القديم يختلف قوة وضعفاً باختلاف القائمين عليه ، فمنهم من كان إلحاده في إدخال شركاء مع اللَّه تعالى كالوثنيين والمجوس وهم الأكثرية ، ومنهم من كان إلحاده البعد عن اللَّه تماماً والإلتجاء إلى الدهر ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ، ومن هؤلاء الدهرية صنف من مُعطِّلة العرب الذين أنكروا الخالق والبعث والإعادة فيما يذكر الشهرستاني[2] ، ويظهر أنهم قلة من العرب ، وظل الصراع قائماً على أشُدِّه بين أولياء اللَّه الموحدين وأولياء الشيطان إلى أن جاء الإلحاد الحديث على يدي ماركس وأتباعه فإذا به طوفان مبين لا يُبقي ولا يَذر ، قائم على محاربة اللَّه تعالى ورسله والأديان كلها وإنكار وجود خالق الخلق في تنظيم وشمولية ليحل محل كل الأديان بخطط مدروسة .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤

(٢) الملل والنحل (ج ٢) ص ٢١٥

الفصل الثالث

أقسـام الإلحَـاد

ينقسم الإلحاد إلى قسمين هما : الإلحاد القديم ، والإلحاد الحديث . فما حقيقة كل منهما وما الفرق بينهما ؟

عرفنا مما سبق أن الإلحاد كان له وجود في أكثر من مكان في الأرض بعد الإنحراف الذي أصاب البشرية وينبغي أن ندرك أن بين الإلحاد القديم والإلحاد الحديث فرقاً ظاهراً وذلك يتبين من خلال ما يأتي :

١ - إن الإلحاد بمعنى إنكار وجود اللَّه تعالى أصلاً لم يكن ظاهرة منتشرة في القديم وإنما كان شائعاً الشرك مع اللَّه تعالى تحت حجج مختلفة مع اعترافهم بوجود اللَّه تعالى وأنه الخالق المدبر وقد أثبت اللَّه تعالى ذلك في كتابه الكريم فقال عن إقرارهم بخلق اللَّه للكون ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [١] .

وقال تعالى عن إقرارهم بإنزال المطر من عند اللَّه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [٢]

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦١

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٣

وقال تعالى عن إقرارهم بأن الرزق كله من اللّه ، وأن أعضاء الإنسان هي من خلق اللّه ، وأن الحياة والموت بيد اللّه ، وأن التدبير كله للّه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾ [١] ، ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [٢] ، وهكذا يتبين من تلك الآيات البيِّنات أن الإلحاد في الزمن القديم إنما كان في إشراكهم مع اللّه آلهة أخرى من صنعهم يتقربون بها إلى اللّه بزعمهم وهذا هو الشرك في توحيد الربوية الذي لا يدخل الشخص به وحده في الإسلام والإيمان ما لم يضم إليه توحيد الألوهية .

٢ ـ وأما الذين أسندوا كل شيء إلى الدهر فهم قلة قليلة جداً بالنسبة لغيرهم ممن يؤمنون باللّه تعالى وقد أخبر اللّه عنهم في كتابه الكريم .

٣ ـ أما الإلحاد المادي الحديث فقد قام على إنكار وجود اللّه أصلاً وقد زعم أهله أنهم وصلوا إليه عن طريق العلم والبحث المحسوس وعن

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٣١

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ٨٤ ـ ٨٩

طريق التجربة والدراسة وزعموا أن الدين لا يوصل إلى ذلك وسنرد هذه الكذبة وسخافتها ونبين أنه لا تناقض بين العلم والدين وبين الايمان باللّه وأن العلم يدعوا إلى الإيمان بوجود اللّه تعالى في أكمل صوره كما سيأتي دراستة في الشيوعية .

وهكذا يتضح مما سبق أنه مع القول بوجود عبادة المادة في كل زمان وفي كل مكان إلا أن عبادة تلك المادة كانت سطحية بدائية وأن أوروبا حينما أخذت الإلحاد تميزت بتفصيل وتقنين وتنظيم ودراسة هذا الإتجاه المادي الملحد وأحلته محل الدين ومحل الإله بطريقة سافرة مقننة وهي نقلة لم تكن فيما مضى قبلهم .

الفصل الرابع

أسـبـاب ظهـور الإلحـاد

لظهـور الإلحـاد أسبـاب كثيرة كغيره من الظواهـر الأخرى ولاشك أن أكبر الأسباب هو إغواء إبليس لمن اتبعه فقد أقسم على أن يبعد الناس عن ربهم ويغويهم عن اتباع أمره وشرعه عزَّ وجلَّ ثم انضافت إلى ذلك أسباب أخرى هـي من صنع الإنسان كالرغبة الجامعة عند البعض في الانفلات التام عن الدين وأوامره ونواهيه لتحقيق رغباته الشهوانية المختلفة وبعض تلك الأسباب يعود إلى أمور سياسية كحب اليهود السيطرة على العالم . وبعضها يعود إلى طغيان الديانات المحرَّفة وعلى رأسها النصرانية التي هي صورة عن الوثنية حيث جاءت بأفكار لا يقبلها عقل ولا يقرها منطق وفوق ذلك طغيان الرهبان والبابوات الذين وصلوا إلى حد لا يُطاق من إذلال الناس واستعبادهم مما جعلها أغلالاً يتمنى أصحابها الخروج عنها إلى أي وجهة تكون فتلقفهم الملاحدة فأخرجوهم من الرمضاء إلى النار .

وبعض تلك الأسباب يعود إلى ظهور مذاهب فكرية كانت هـي الأخرى كابوساً ثقيلاً جعل الناس يلهَثون إلى التشبث بأي حركة أو فكر كالرأسمالية التي أشعلت في النفوس حب الأنانية والجشع المادي والحقد والبغضاء مما سهل الأمر على الملاحدة للوصول إلى قلوب الناس والتضليل عليهم بأن في النظام الإلحادي الجديد كل ما يتمنوه من السعادة والعيش الرغيد وقد قيل :

يُقضَى على المرء في أيام مِحْنَته ＊＊＊ حتى يَرى حَسناً ما ليسَ بالحَسَنِ

وكان هذا الحال في الوقت الذي عم الجهل باللَّه تعالى وبدينه القويم وكان للأحوال الإقتصادية التي يمر بها الناس نصيب الأسد في تقبل الناس للإلحاد حيث انعدمت في المذهب الرأسمالي ونظام الإقطاع وسيطرة البابوات والأباطرة صفة الرحمة والعطف على الفقراء فازداد الأغنياء غنى وازداد الفقراء فقراً وذلاً .

فاستغل الملاحدة تلك الأوضاع للتأثير على الناس بأن الأمر موكول إلى تصرفات الناس وليس هناك إله مدبر له فازداد نشاط دعاة الإلحاد وأظهروا أنفسهم بمظهر المنقذ للفقراء والساهر على مصالحهم والمهتم بمشاكلهم والمتصدي للقضاء على كل الأنظمة الفاسدة والطبقات المتجبرة وبعد أن قوي أمر الملاحدة واستولوا على الحكم في روسيا وغيرها وجَّهوا مدافعهم وبنادقهم إلى صدر كل من يأبى الدخول في ملتهم فأثخنوا في الأرض وأدخلوا شعوبهم في الإلحاد راغبين وراهبين .

ومما ساعد على انتشار الإلحاد أيضاً ما وصل إليه الملاحدة من اكتشافات علمية هائلة مكنهم اللَّه منها استدراجاً لهم وإقامة للحُجَّة عليهم على ضوء قوله تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)** ﴾ [(١)] ، فكلما تم لهم اكتشاف جديد فسروه على أنه من بركة تركهم للاله وللدين وانطلاقهم أحراراً من ذلك فاغتر بهم كثير من الجهال وظنوا أن ذلك صحيحاً وأن هذه الحياة التي يعيشها العالم اليوم من تقدم مادي وصناعات مختلفة وانفتاح تام

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣

على الشهوات والمتع المختلفة انما هي دليل في نظر من لا يعرفون الدين الصحيح على أن الانسان هو مالك هذا الكون وحده وهو الذي ينظم حياته كما يريد .

ولم يترك دعاة الإلحاد أي فرصة لأتباعهم لالتقاط أنفاسهم ومدارسة أوضاعهم والتفكر الصحيح في خلق هذا الكون وما فيه من العجائب التي تنطق بوجود الخلاَّق العظيم لهذا الكون ، وقد قيل إن أحد الملحدين تحدَّى أي مؤمن باللَّه يناظره فانبرى له أحد المؤمنين واتفقوا على تحديد موعد للمناظرة وحينما جاء وقت المناظرة تأخر المؤمن من الوصول ففرح الملحد وأخذ يصول ويجول ويتحدى وبعد وقت حضر المؤمن بعد أن انكسرت قلوب المؤمنين وملأها الهم والغم فسأله الملحد لماذا تأخرت عن الوصول فقال له إن بيني وبينكم هذا البحر ولم أجد سفينة وبينما أنا كذلك إذ نبتت شجرة في البحر وامتدَّت أغصانها وجذوعها وكبرت ثم تكسرت بعض أجزائها لتصنع منها قارباً حملني إليكم فقال الملحد هذا كلام لا يُعقل فقال له المؤمن إذا كنتم لا تصدقون بوجود قارب صغير بدون مُوجِد فكيف تصدقون بوجود هذا الكون وما فيه دون موجد ؟!! ، ثم قال المؤمن للمُلحد : أنت بلا عقل فقال الملحد : بلِى إن لي عقلاً فقال له المؤمن أين هو منك قال لا أدري . فقال المؤمن : شيء في جسمك تؤمن به ولا تراه ولا تريد أن تؤمن باللَّه حتى تراه فانقطع الملحد .

أما بالنسبة لظهور الإلحاد في ديار المسلمين فإنه يعود كذلك إلى أسباب كثيرة من أهمها حالة الإنبهار بظهور هذه الماديات التي ظهرت

على أيدي غير المؤمنين بالله تعالى وما أصاب قلوب ضُعفاء الايمان من إنبهار تام برونق تلك الحضارة الزائفة الزائلة التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ⁽⁷⁾ ﴾[(١)] ، وانساق المنهزمون المغرمون بتلك الحضارة إلى التصديق بأن لا وجود لأي مدبر للعالم غير العالم نفسه خصوصاً وأن المغلوب دائما يقلِّد الغالب ويحب أن يتظاهر بصفاته ليَجبُر النقص الذي يحس به أمامه . وكان الأحرى بهؤلاء المنهزمين أن يعتزُّوا بدينهم ويضاعفوا الجهد والعمل ليستغنوا عن منَّة الملاحدة عليهم وحينما رأوا ما هم عليه من الضعف والاستخذاء أمام ما تنتجه المصانع الكافرة ألقوا باللوم على الإسلام فعل العاجز المنقطع أو الغريق الذي يمسك بكل حبل وجهلوا أو تجاهلوا أن الإسلام يأمر بالقوة والعمل بما لا يدانيه أي فكر أو مذهب والآيات في كتاب الله تعالى والأحاديث في سُنَّة المصطفى ﷺ على هذا أشهر من أن تُذكر .

وعلى كل حال فقد ظهر الإلحاد بشكله الجديد المدروس المنظم كبديل لكل الأديان وزعماؤه هم البديل الجديد عن الأنبياء والرسل والمتمسكون بالإلحاد هم المتطورون المتقدمون والتاركين له هم الرجعيون المتخلفون وللباطل صولة ثم يضمحل فبعد تلك السنوات العِجاف التي قوى فيها شأن الإلحاد والملحدين ظهرت الحقيقة للعيان واذا بالإلحاد والملحدين ما هم إلا سماسرة اليهودية العالمية وأنهم يهدفون إلى استحمار العالم ومَحو أخلاق الجوييم وتحطيم حضاراتهم وابطال دياناتهم وكشأن كل

(١) سورة الروم ، الآية : ٧

المذاهب الباطلة والأفكار الجاهلية بدأ الموت يدب في جسم هذا الإلحاد البغيض وإذا بالناس يكتشفون زيف أقاويله وأفانين خدعه فبدؤا يهربون منه زرافات ووحدانا وعرف الناس أن الإلحاد هو الذي سبب لهم الشقاء والفقر وتزايد الأحقاد والقلق والاضطراب وأنه هو الذي سهل للمجرمين طرق الاجرام وظهور الفتن والضلال إذ ليس فيه ثواب ولا عقاب في الآخرة ولا رَبٌّ يجازي المجرمين بعذابه والمطيعين بثوابه فما الذي يمنع المجرم من تنفيذ جريمته وما الذي يجعل قلب الغني يشفق على الفقير وما الذي يمنع السارق والغشاش والخائن ومدمن المخدرات ما الذي يمنع هؤلاء من تحقيق رغباتهم . وللقارئ عظة مما يقع في العالم الملحد من أنواع الجرائم والظلم في جو مشحون بالتوترات والهموم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾[(١)]

وإذا كانت المظالم والأنانيات وحب الشهوات وغيرها تحصل بين المؤمنين باللَّه تعالى فما هو الظن بالمجتمعات التي لا تؤمن باللَّه رَبًّا ولا بالإسلام ديناً ولا بمحمد ﷺ رسولاً ، ولا ضَمير حي يُذَكِّرها بما للآخرين من حقوق ما هو الظن بتلك المجتمعات الذين هم كالأنعام أو أضل الذين لا يعيشون في بيئات أسرية متحابة يعرف بعضهم للبعض الآخر ما له من حقوق صلة الرحم وحفظ الأنساب وتقوية المودة فيما بينهم . فأين الأولاد بعد أن ابتلعتهم دور الحضانات الحكومية ، وأين الأزواج بعد أن تفرَّق

---

(١) سوة طه ، الآية : ١٢٤

الجميع في كل اتجاه تلبية لحاجاتهم المعيشية واللَّهو أيضاً ، وأين بقية الأقارب وقد تكفل الإلحاد بمحاربة أي وجود لذلك ، وأين تلاحم المجتمع كله بعد أن تعهد الملاحدة بتفريق المجتمعات وضرب بعضهم بالبعض الآخر عن طريق الجاسوسية الهائلة إلى حد أن أي شخص لا يأمن الآخر بأي حال فأصبحت المجتمعات الإلحادية تعيش فيما بينها كما تعيش قطعان الذئاب أو السمك في البحر وعلى المسلمين أن يأخذوا العظة بغيرهم وأن يَفرُّوا من تلك الأفكار وصداقات زعماء تلك المجتمعات كما يفر الصحيح من المجذوم ، بل وأشد ، وأن يرجعوا إلى اللَّه تعالى ويبتهلوا إليه أن لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً .

الفصل الخامس

هل يلتقي الإسلام مع الأنظمة الإلحادية ؟

لقد زعم بعض الجهال أن بين الإسلام والأنظمة الإلحادية ـ الإشتراكية والشيوعية ـ تطابقاً في أمور كثيرة خصوصاً الإشتراكية حتى تجرَّأ بعضهم فرفع شعار «إشتراكية الإسلام» زاعماً أنه لا تعارض في هذه الإشتراكية التي ألصقوها بالإسلام . وبين الإسلام وتعاليمه المشرقة إما جهلاً وإما خداعاً وتمويهاً ـ وهو الأغلب ـ .

بل وبعضهم ينسبون هذه الإشتراكية الإلحادية إلى الصحابي الجليل أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظلماً ومنكراً من القول وزوراً .

والأدهى أيضاً أنهم أخذوا يتكلَّفون الأدلة التي يزعمون أن الدين والإلحاد الشيوعي بينهما إتفاقات في أشياء كثيرة ، وأن التقارب بينهما في الإمكان ، يحدوهم في ذلك حبهم للإلحاد ورغبتهم في تقريبه إلى المسلمين خديعة ومكراً منهم بأهل الدين ﴿ **وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** ﴾ [1] وسبب ذلك ما وجدوه من التشابه الظاهري في بعض الجزئيات فيما جاء به الدين الإسلامي وفيما جاء به الملاحدة متناسين أنه لا يمكن في بداثة العقول أن يجتمع الليل والنهار في وقت واحد وأن بين الاسلام والإلحاد الشيوعي الماركسي الإشتراكي من البعد أكثر مما بين السماء والأرض بل إن القول بالتقارب بينهما جريمة كبرى وافتراء عظيم فالإسلام له

---

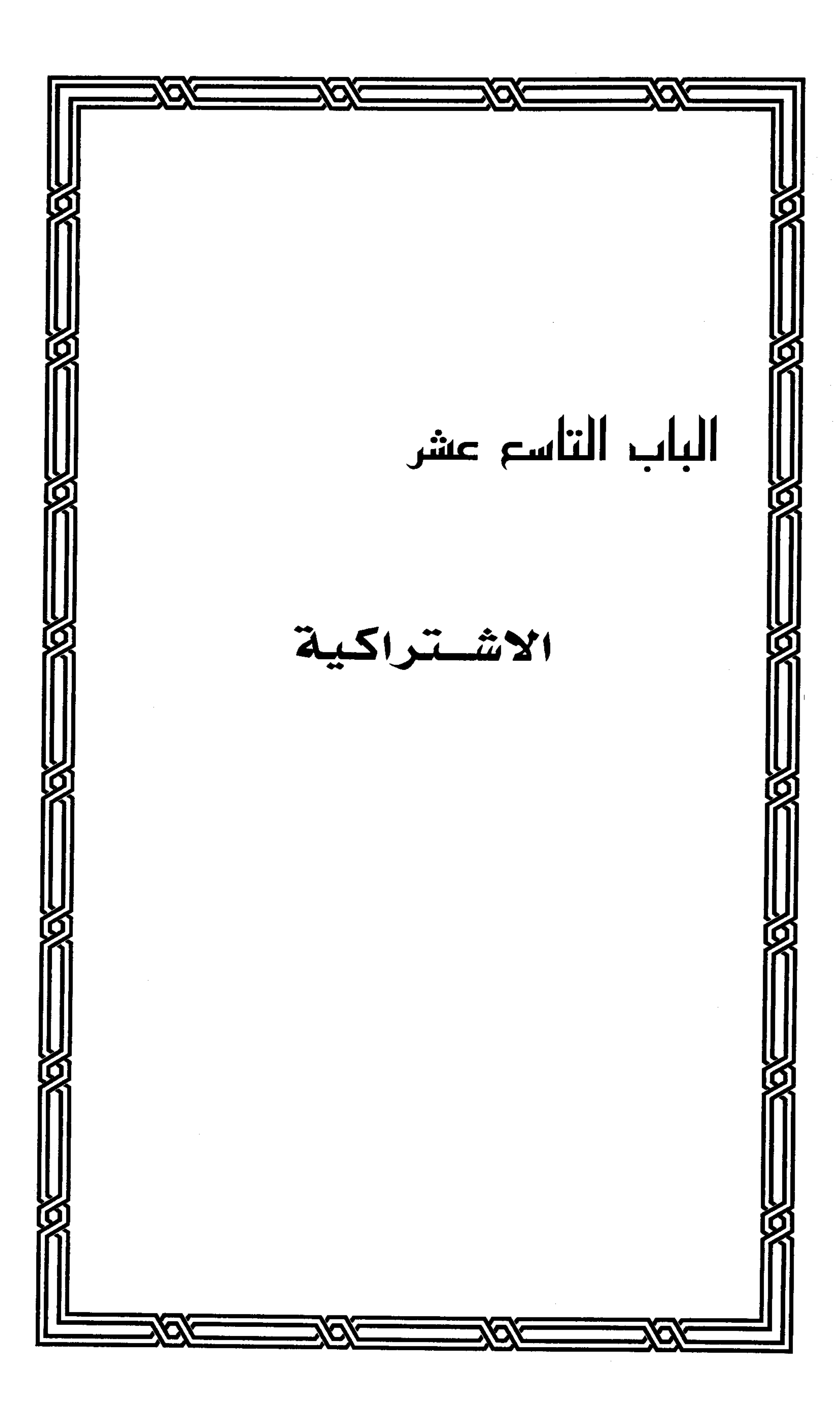
(١) سورة فاطر ، الآية : ٤٣

نظام وعقيدة ومعاملات تختلف تماماً عن النظام الجاهلي الماركسي وغيره في العقيدة وفي السلوك وفي كل شيء وأن ما وُجد من التشابه بين الإسلام والإلحاد ما هو إلاَّ مثل التشابه في الأسماء بين المخلوقات حين يقال رأس الإنسان ورأس الجمل أو الكلب أو الجبل ، أو التشابه بين الأسماء الموجودة في الجنة مما أخبر اللَّه به وبين الأسماء الموجودة في الدنيا ، ثم كيف يتفق دين يؤمن بإله واحد يستحق العبودية وحده لا شريك له ويوجب التحاكم إلى شرعه وحده . ويجعل الناس في درجة واحدة أمام الخالق العظيم لا يتفاضلون عنده إلاَّ بالتقوى كيف يتفق هذا مع دين لا يؤمن بإله واحد بل بآلهة عدَّة يعبد الناس فيه بعضهم بعضاً ويُشَرِّعُ بعضهم للبعض الآخر ، دين يجعل الظلم عدلاً والحاكم رباً .

أليس التوافق مستحيلاً بعد وجود هذا التباين وغيره ؟ بلى إنه من أشد وأعظم المستحيلات علي الإطلاق بل لا ينبغي التفكير في هذا لأنه من وَساوس الشيطان فإنه لا يتفق دين يجعل الإنسان مادة مثله مثل سائر الجمادات لا قيمة له ودين يجعل الإنسان مستخلَفاً في الأرض وكل ما فيها مسخر له وهو أكرم كل الموجودات على ظهر الأرض مميَّز بالعقل والتفكير وعناية اللَّه به ﴿ **فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)** ﴾[1]

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٧٨



الباب التاسع عشر

الاشــتراكية



الباب التاسع عشر

الإشـتراكية

وسوف نتناول دراسة هذا المذهب الهدام من خلال الفصول الآتية مرجئين الردود إلى دراسة الشيوعية :

تمهيد :

الفصل الأول : معنى الإشتراكية .

الفصل الثاني : أقسام الإشتراكية .

الفصل الثالث : متى ظهرت الإشتراكية .

الفصل الرابع : هل الإشتراكية هي الشيوعية .

الفصل الخامس : مزاعم الإشتراكيين ودعاياتهم .

الفصل السادس : قوانين الإشتراكية .

الفصل السابع : خداع الإشتراكيين في زعمهم أن الإشتراكية لا تتعارض مع الإسلام .

الفصل الثامن : كيف غزت الإشتراكية بلدان المسلمين .

الفصل التاسع : دعاة على أبواب جهنم .

•• تمهـــيد :

قامت الإشتراكية في القرن التاسع عشر الميلادي في البداية بسبب النزاع المرير بين العمال وأصحاب العمل في طلب العمال زيادة أجورهم وامتناع أصحاب العمل في الوقت الذي كان أصحاب العمل يستغلون العمال أسوأ استغلال دون رحمة بهم ثم ظهرت الآلات الصناعية الحديثة فإذا بأصحاب العمل يفضلونها على الأيدي العاملة لوفرة إنتاجها وقلة ما تحتاج إليه من العمال لتشغيلها فاستغنى أصحاب العمل عن كثير من العمال فنشأت البطالة ومشاكلها العديدة ومن هنا نشأت فكرة التوجه بالمطالبة بإصلاح هذه الأحوال الإقتصادية المضطربة والحد من التنافس بين الناس في الاستئثار بالمال وجمعه الذي يسبب الصراع بينهم وكان هذا في الوقت الذي أفلس فيه الدين النصراني عن حل أي مشكلة من هذا النوع بل كان عاملاً قوياً في ظهور اللادينية والمذاهب المنحرفة المختلفة التي قامت من أول يوم على محاربة كل الأوضاع السيئة التي كانت قائمة واستبدالها بأنظمة جديدة تكفل للناس حقوقهم وحرية معيشتهم وكان من بين تلك الأفكار ظاهرة القول بالإشتراكية ومحاربة الملكية الفردية وما جاء بعدها من أهوال الشيوعية .

والواقع أن الإشتراكية أقبح مذهب عرفته البشرية وأشدها شراً على الاطلاق فقد ذهب ضحية تطبيقها مئات الملايين قتلاً وجوعاً وتشريداً في أوروبا البعيدة عن أراضي المسلمين وعن عقائدهم وتاريخ حضارتهم أيدتها اليهودية العالمية وبذلت كل ما استطاعته لتأييدها وتقوية نفوذ أتباعها لما عرفوه من عواقبها الوخيمة على الجوييم وتم لهم ذلك وانتشر

هذا الفكر الذي يحمل الخراب والدمار وظل سنوات عديدة في أَوَجٍّ قوته إلى أن أذن اللّه في إذلاله وإذلال أتباعه فخرج عنه الكثير ممن أنعم اللّه عليهم بالعقل والتفكير السليم وداسوه بأقدامهم وتنفسوا الصعداء وها لهم ما كانوا فيه من الغبن الفاحش أيام جثومه على صدورهم وتيقنوا أنه مذهب جهنمي صاغه شياطين الانس والجن بمباركة ابليس اللعين لهم على يد انجز وكارل ماركس ومن جاء بعدهما مثل لينين وستالين إلى أن بدأ عهد جورباتشوف برئاسة ما كان يسمى بالإتحاد السوفيتي ومن الغريب والعجيب والهول الشديد أن بعض البشر ممن هم أشباه القردة والخنازير لايزالون ينادون به ويتبجَّحون بأنهم فرسان الإشتراكية لعنها اللّه ولعنهم وأركسهم في جهنم جميعاً ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ (١)

وإذا كان لأهل أوروبا ظروفهم التي أنتجت الدعوة إلى الإشتراكية في القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده فما بال الدول والشعوب التي تدعي الإسلام وأنه دستورهم ، ما بالهم دخلوا تحت هذا اللواء الأحمر الذي يشير دائماً إلى سفك الدماء وما هي الظروف التي ألجأتهم إلى المناداة بالإشتراكية الماركسية ألم يجدوا في الإسلام ما يسعدهم ؟ بلى ولكنهم ما طبَّقوه إن لم نقل ما عرفوه أساساً .

ويطول عتاب هؤلاء وخصامهم ولكن لا يمكن إغفال فريتهم الكبيرة التي تدل على مدى خبثهم وجهلهم ، تلك الفرية التي ظهرت تنادي بأن الإشتراكية أساسها إسلامي وأنها تسير جنباً إلى جنب مع التعاليم الإسلامية بل وإن

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩

واضع أساسها في الإسلام ـ ليس هو كارل ماركس اليهودي الحاقد ـ بل إنه أبو ذر الغفاري وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد التي سميت عندهم «أم الإشتراكية»[1] .

بل وفي خطاب ألقاه جمال عبد الناصر زعم فيه بكل وقاحة أن النبي محمد ﷺ هو إمام الإشتراكيين[2] . سبحان اللّه ما أعظم حلمه فأين الرسول ﷺ وأين أم المؤمنين خديجة وأين أبو ذر الغفاري وأين الإشتراكية ؟ إنها كذبة تكاد تهد الجبال وخدعة مكشوفة قبيحة أراد أصحابها تحبيب الوجه الكالح للإشتراكية إلى قلوب المسلمين لأنهم أرادوا وقد وقعوا فيها واصطلوا بنارها أن يجروا غيرهم إليها .

وما أشبه حالهم بحال الثعلب الذي قطع ذيله فجاء إلى بقية الثعالب يحبب إليهم أن يقطعوا ذيولهم لينعموا بالخفة والرشاقة !!

---

(١) انظر التضليل الإشتراكي ص ٦٦

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤

الفصل الأول

معنى الإشتراكية

إختلف دعاة الإشتراكية فيما بينهم وافترقوا إلى أحزاب في مفهومهم للإشتراكية وفي المقصود بها ، إلى حد أنه بلغت معانيها المائتين في بريطانيا وحدها [1] .

وهذا يذكرنا بقول الأعرابي حينما سمع أسماء القط الكثيرة فقال : «قبحه اللّه ما أقل نفعه وما أكثر أسمائه» وأقول لك قبل أن أذكر أهم التعريفات لها لا يهولنك كثرة تلك الاختلافات فإن مَصبَّها في النهاية واحد هو الإلحاد والتشريع للبشر من دون اللّه تعالى «تعددت الأسباب والموت واحد» ، وإذا رجعنا بمعنى الإشتراكية إلى ما قبل «كارل ماركس» فإننا نجدها قد ظهرت في أماكن مختلفة في دعوات إلى إلغاء الملكية الفردية وإلى نبذ التقاليد والأعراف وشيوعية الأموال والنساء بين الجميع ويطلق على هذه الإشتراكية إسم الإشتراكية القديمة قبل مرحلة ظهور النظام الرأسمالي الذي يناقض الإشتراكية تماماً في تقديس الملكية الفردية والأنانيات الأخرى التي تميز بها ، بل وقبل ظهور الإسلام بمئات السنين على عهد «أفلاطون» والسير «توماس مور» وقبلهم «مزدك» في فارس وغيرهم الذين استفاد منهم «كارل ماركس» نظريته الشيوعية أو الإشتراكية العلمية الغريبة على الأديان كلها والتي لم يقرها لا الإسلام ولا غيره من الديانات .

---

(١) انظر التضليل الاشتراكي ص ١٢ نقلاً عن «نورمان ماكنزي» في كتابه عن الإشتراكية ص ٧ ـ ٨

فإطلاق الإشتراكية على الإسلام أو على العرب حين يُقال الإشتراكية الإسلامية أو الإشتراكية العربية كذب محض ، لأن الإسلام لم يقر الإشتراكية مع أنها كانت موجودة في صور شتى قبل الإسلام ومع ذلك لم يختر اللّه أن تكون ضمن تعاليم الإسلام لأنها تعاليم جاهلية والإسلام بريئ من الجاهلية وأفكارها سواء ظهرت قبله أم بعده .

وكذلك قولهم الإشتراكية العربية إن هو إلاَّ كذب محض على العربية وعلى العرب الذين ما كانوا يعرفونها أو يتحدثون عنها لا في شعرهم ولا في نثرهم ومفاهيمها كلها غير مفاهيم الإشتراكية ونشأتها ليست في بلادهم فبأي حق تنسب إليهم ؟ لولا إرادة الخداع والتضليل .

وكذلك نسبتها إلى العلم هي نسبة زور وافتراء فقد قامت على التخمينات الماركسية وعلى التنبؤ بأمور كثيرة ظهر أنها كذب ولم تتحقق فنسبتها إلى العلم ظلم للعلم وأي ظلم ؟

والإسلام والعرب والعلم والعقول السليمة كلها لا تعارض البيع والشراء والربح والملكية الفردية التي تحاربها الإشتراكية على أساس أن الربح ينتج عن الملكية الفردية وهي ممنوعة في الإشتراكية فمتى نادى الإسلام أو العرب أو العلم بذلك ؟! وقد أحل اللّه البيع وحرَّم الربا .

الفصل الثاني

أقسام الإشتراكية

الإشتراكية كلمة بغيضة مهما قسمها زعماؤها ومهما تفننوا في خداع الناس في مفاهيمها المختلفة فهي على كل حال مذهب غريب على الناس وعلى أديانهم نشأ في أوروبا إثر أوضاع مختلفة وقد قسم بعض الباحثين الاشتراكية إلى قسمين :

- الإشتراكية الماركسية .
- الإشتراكية الفابية .

والذي نحن بصدد دراسته هو مذهب الإشتراكية الماركسية التي تنتسب إلى «كارل ماركس» والتي هي المقدمة الأولى للشيوعية الحمراء ، أما الفرق بين الإشتراكيتين فيظهر من خلال ما يلي :

- الإشتراكية الماركسية نسبة إلى «كارل ماركس» ، بينما الإشتراكية الفابية نسبة إلى أحد قواد الرومان واسمه «فابيوس» .
- الإشتراكية الماركسية تميل إلى العنف والثورة ، بينما الإشتراكية الفابية تميل إلى الإصلاح وإلى سعادة الناس كما يزعمون وإلى التدرج في التطور ولو أدى ذلك إلى تأخر تطبيق الإشتراكية زمناً طويلاً .
- إن الإشتراكية الماركسية تبطل الملكية الفردية وتحاربها ، بينما الإشتراكية

الفابية تعترف بالملكية العامة ولا تجيز تأميم الأرض دون مقابل وأن الملكية الخاصة يمكن تحويلها إلى ملكية الدولة بالطرق المشروعة .

- خالف الفابيون أراء ماركس في نظرته إلى المجتمعات من أنها قائمة على الصراع الطبقي وقالوا بأن الصراع الطبقي ليس حتمياً ولا ضرورة إليه لقيام حكومة العمال كما هو مذهب ماركس بل إن الدولة عند الفابيين ليس المقصود بها تسلط فئة على أخرى ـ كما يرى ماركس ـ وإنما الدولة عندم هي قوة في صالح الجميع وأن التغيير الثوري العنيف الذي يراه ماركس فاشل في تحقيق السعادة للشعوب [(١)] .

(١) بتصرف عن «التضليل الاشتراكي» ص ١٨ ـ ٢٤

الفصل الثالث

متى ظهرت الإشتراكية ؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن التوجه نحو فكرة الإشتراكية مرَّ بأطوار وفلسفات كثيرة قبل ظهور الدكتور «مردخاي كارل هزيك ماركس» وأنه لا يُعرف على وجه التحديد أول من استعمل لفظ الإشتراكية إلاَّ أنها ظهرت مطبوعة في سنة ١٨٠٣ في إيطاليا ولكن مدلولها يخالف مدلولها الحالي إذ كان يُراد بها في ذلك التاريخ الأفكار التي كانت تدور حول المشاكل الإجتماعية ثم ظهرت التسمية في عام ١٨٣٢ في مجلة تسمى مجلة التعاون [(١)] .

ثم جاء بعد ذلك «ماركس» وعمَّق فكرة الإشتراكية وجادل من أجلها وأظهرها قوية فلم يكن هو المؤسس الحقيقي للفكر المادي وإنما كان لهذا الفكر مقدمات سبقت ظهور ماركس بقرون عديدة [(٢)] .

---

(١) انظر التضليل الماركسي ص ٣٨ - ٣٩ نقلاً عن موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ ص ١٠٣

(٢) موقف الاسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ ص ١٠٥

الفصل الرابع

هل الإشـتراكية هي الشـيوعية ؟

اختلفت وجهات نظر الباحثين - فيما يظهر من كتاباتهم - حول العلاقة بين الإشتراكية والشيوعية وفيما يلي أذكر بين يدي القارئ حاصل ما قيل حول هذه العلاقة .

١ - لا فرق بين الإشتراكية والشيوعية بل هما اسمان لمسمى واحد وعن تعليل التسمية بالإشتراكية بدلاً عن التسمية بالشيوعية يُقال : إن الشيوعية من بعد ماركس اشتهرت بأنها شيوعية «مزدك» [١] ، فنفر منها الناس . ومن هنا صارت كلمة الإشتراكية أقل استنكاراً لهذا جُعلت البذرة الأولى لشجرة الشيوعية الخالصة وإلاَّ فالشيوعية والإشتراكية إسمان لمسمى واحد» [٢] .

٢ - إن الإشتراكية ترمي في النهاية إلى الشيوع وأن الفرق بينهما يكمن في الناحية العلمية ، فالشيوعية ترى أن جميع الثروات الاجتماعية مجموع يستهلك الفرد منه بقدر ما يسد جميع حاجاته وليس فقط

---

(١) نسبة إلى «مزدك» الذي ظهر في فارس أيام حكم الإمبراطور «قباذ» حيث جمع «مزدك» حوله الصعاليك ومن انضم إليه وكون منهم قوة كبيرة بل واعتنق «قباذ» هذه الفكرة وقامت شيوعية الأموال والنساء حتى ما كان الرجل يعرف له أبا أو أوما وأشتد شرها وضررها على الناس حتى أنقذهم اللّه على يدي «أنوشروان» ولد «قباذ» فقتل منهم جموعاً غفيرة إذ كان من أشد أعدائهم وقتل «مزدك» شر قتله .

(٢) انظر «هذه هي الإشتراكية» ص ١٥

بقدر ما يناسب خدماته ، على أن هذا الحق في الإستهلاك يتوقف عند الشيوعيين على واجب الإنتاج والعمل فمن لا يعمل لا يأكل على حد قولهم ، وهي ما يعبر عنها بقولهم «من كُلٍّ طبقاً لكفايته ولكُلٍّ طبقاً لحاجته» أما الإشتراكية فتتفق مع الشيوعية في وجوب إنشاء المجموع العام من الثروات ولكنها تخالفها في طريقة التوزيع فتسمح لكل فرد من الثمرات العامة بما يناسب عمله وجهوده لا بما يناسب حاجته» ولهذا يذهب بعض الباحثين إلى أنه لا فرق بين الشيوعية والإشتراكية إلاَّ في القانون التالي : «من كُلٍّ حَسب طاقَته ولكُلٍّ حَسب عمله (الإشتراكية) ، «من كُلٍّ حَسب طاقته ولكُلٍّ حَسب حاجته» [1] .

٣ ـ إن بين الإشتراكية والشيوعية من جهة وبين الفاشستية من جهة أخرى شبهاً قوياً من حيث أن الإشتراكية والشيوعية ترميان كلتاهما إلى تقوية قبضة الدولة في توجيه الإنتاج والقضاء على حرية الفرد وكذا النظام الفاشستي وكلها صور من صور الديكتاتورية .

٤ ـ إعتبر «لينين» الإشتراكية هي المرحلة التي تسبق الشيوعية مباشرة فهي مقدمة أو تمهيد لها مُعتبراً أن الإشتراكية مرحلة أولى بينما الشيوعية هي المرحلة الأخيرة العليا [2] .

٥ ـ إن الإشتراكية تختلف عن الشيوعية [3] ، ولكن ما معنى هذا التفريق

---

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٩١

(٢) المصدر السابق ص ١٦٥

(٣) انظر «مقدمة في الفكر السياسي» ص ١٨٠

إذا عرفنا أن «ماركس» هو الذي أنشأها وسماها أيضاً الإشتراكية العلمية حتى تتميز عن الإشتراكية الخيالية التي أنشأها «سان سيمون» ، و «لويس» ورفاقهما والتي لم يرتضيها «ماركس» حيث اعتبر إشتراكيته مرحلة حتمية لا تقبل الرفض لأنها نتيجة مضادة للرأسمالية التي تنبأ بأنها ستنتهي وتحل إشتراكيته محلها وأن الدول الكبيرة مثل بريطانيا وغيرها ستعود حتماً إلى الأخذ بإشتراكيته وستموت الأنظمة الرأسمالية فيها فكانت النتيجة على حد قول الشاعر :

زَعمَ الفَرَزْدَقُ أنْ سَيقتُلُ مِرْبَعاً *** أبْشِرْ بطُولِ سَلامَةٍ يا مِرْبَعُ

فقد احتضرت الإشتراكية في الشرق في الوقت الذي انتعشت فيه الرأسمالية في الغرب ، وكذب ظن «ماركس» ورفاقه الأغبياء .

الفصل الخامس

مزاعم الإشتراكيين ودعاياتهم

للإشتراكيين على اختلاف مفاهيمهم للإشتراكية قاسم مشترك يتفقون عليه في مغالطاتهم وخدعهم للناس وتحبيب الإشتراكية إليهم وقد تبدو الأمور التي يدعون إليها أنها فرصة ثمينة لاسعاد البشرية ولكنها سحابة صيف أو فقاقيع منفوخة بالهواء لقد انكشف زيفها واضمحل بريقها بعد التجارب المريرة التي مرت بالبشرية منذ تأسيسها إذ نقلتهم من سيء إلى أسوأ ومن طبقات متآلفة إلى طبقات متصارعة ومن فقر وغنى إلى فقر مدقع ، وخلاصة تلك المزاعم تتمثل فيما يلي :

١ ـ المساواة الإقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز بينهم في القومية أو الجنس أو السن .

٢ ـ محو استغلال الفرد أو الجماعة أو الدولة للفرد .

٣ ـ إلغاء الملكية الفردية للأرض بما عليها وما فيها من كنوز وثروات وجعلها بيد الدولة فقط يسمح بتحقيق العدالة في التوزيع بين الجميع .

٤ ـ منح الحق لكل إنسان أن يستخدم كل وسائل الإنتاج علمية أو فنية .

٥ ـ قيام الدولة الإشتراكية ذاتها لتتحول إدارة الجهود والإنتاج الفردية

إلى إدارة موحدة وتصبح الدولة هي المالكة الوحيدة لجميع الثروات ووسائل الإنتاج وجميع المرافق الإقتصادية الأخرى وتتولى استثمارها [(١)] ، وبالتالي تحصل السعادة المنشودة .

تلك هي أهم الأمور التي تدور حول مفاهيم الإشتراكية وتحبيبها إلى الناس .

أما المساواة الإقتصادية بين جميع الأفراد فقد حقَّقها الإشتراكيون ولكن على الجانب الآخر فقد استطاعوا أن يساووا بين الناس في الفقر ولكنهم لم يستطيعوا أن يساووا بينهم في الغنى لأن الهدم دائماً أسهل من البناء وحال الشعوب السوفياتية بعد انجلاء غمة الإشتراكية عنهم أقوى شاهد على ذلك .

أما محو استغلال الفرد من قبل الأفراد الآخرين أو الجماعة أو الدولة فهي كذبة واضحة حيث أن الدولة استغلت الأفراد من اللحم إلى العظم حتى أصبح الفرد مثله مثل أي قطعة استهلاكية وأي استغلال أقوى من أن الفرد لا يأكل أي وجبة إلاَّ ببطاقة ولا يملك سكناً ولا غيره إلا مع الجماعة بل وقد يُقتَل بكل بساطة أمام زملائه إذا اتضح قصوره في العمل .

وكذا إلغاء الملكية الفردية للأرض نعم حققتها الإشتراكية حتى أصبح الناس كلهم لا يملكون شيئاً وأصبحت الأرض ومن عليها من شجر وبشر ملكاً للدولة وهو ما كان عليه الحال زمن الاقطاع تماماً .

---

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٦٢ نقلا عن المذاهب الاجتماعية الحديثة لـ «محمد عنان» ص ٥١

وأما منح الحق لكل إنسان أن يستخدم كل وسائل الإنتاج علمية أو فنية فنعم ولكن عمله ليس له إنما هو يعمل كما تعمل الآلة بلا كلل ولا ملل لحساب الدولة التي أمَّمت كل شيء وسدت كل باب للملكية الفردية ، ومادام المصب واحد فلا يضر اختلاف المجاري أو على حد ما قاله الخليفة العباسي للسحابة : «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك» .

٦ ـ ومن أكبر مزاعمهم قولهم ان الإشتراكية انما قامت في رد فعل ضد الرأسمالية اثر ظهور الثورة الصناعية التي أسهمت في شقاء العمال والكادحين حيث أدت إلى زيادة ساعات العمل وانخفاض الأجور مما تسبب في الحاق كوارث بالعمال وخيمة وأنه لم يكن لهم مخرج من تلك الأوضاع ولا منقذ غير الانضواء تحت راية الإشتراكية الماركسية ونبذ النظام الرأسمالي الذي لا يرحم الفقراء ولا يعترف بحقوقهم ولكن وضع دعاة الإشتراكية هذا يصدق عليهم المثل القائل «إذا كان بيتك من زجاج لا تراجم الناس» إذ بإمكان أي رأسمالي أن يقول للإشتراكيين ألم تروا حال العمال والكادحين لديكم ومدى البؤس والشقاء الذي حل بهم ؟ إضافة إلى أنكم حولتم العامل من إنسانيته إلى أن جعلتموه قطعة من أدوات الإنتاج لا قيمة له إلا من خلال سلوكه وعمله مع المجموعة .

فظهر أن النظامين معاً جائرين ظالمين لا خير فيهما ولا رحمة حقيقية فيهما على الفقراء .

الفصل السادس

قوانين الإشتراكية

قامت الإشتراكية على مبادئ جاهلية من تصورات الحقد اليهودي لتجعل من قادتها آلهة من دون اللّه تعالى ومن البشر عبيداً لهم ينفذون أحكامهم ويتبعون تشريعاتهم ومن خالف فالحديد والنار على رأسه لا رحمة لديهم ولا إنسانية ومن أهم تلك المبادئ الجاهلية :

١ ـ إظهار الإلحاد وإنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى .

٢ ـ إنكار الأديان وكل ما جاءت به من تشريع .

٣ ـ إشعال الثورات والصراع الطبقي المرير بين جميع الفئات من البشر .

٤ ـ إلغاء الملكية الفردية تماماً وإحلال ملكية الدولة محلها .

٥ ـ محاربة الأسرة وإحلال الإباحية محلها لتفتيت أوصال المجتمعات .

٦ ـ محاربة الحريات الفردية .

٧ ـ الالتزام بنظام التأميم .

٨ ـ قيمة السلعة من قيمة العمل .

٩ ـ فائض القيمة .

١٠ ـ قانون تكدس رأس المال .

وستأتي إن شاء اللّه دراسة هذه الأمور بتوسع عن دراسة الشيوعية .

ومن الملاحظ أن الإشتراكيين قد تراجعوا بالنسبة للملكية الفردية نوعاً ما فقد أخذت بالحافز الفردي بعد إنهيار الإنتاج المؤمَّم ، إما بملكية جزء من إنتاج الفرد لنفسه أو مكافآت خصوصاً في المجالات الزراعية التي يصعب على الدولة مراقبتها بدقة لأن منع الملكية الفردية أمر يَتنافى مع فطرة الإنسان وطموحه فقتلها مستحيل .

والمقصود «بقيمة السلعة من قيمة العمل» أن العمل لا يبذل إلا في شيء له نفع إجتماعي يحدد قيمة تلك السلعة بمعنى أن قيمة العمل والجهد الذي يأخذه هو الذي يحدد قيمة السلعة هبوطاً وارتفاعاً .

ولكن فاتهم أن العمل ليس هو العنصر الوحيد لقيمة السلع إذ أن ندرة الشيء تجعله غالياً كالذهب والماس وكذا الماء حين تشتد الحاجة إليه وغير ذلك من الضروريات التي قد يتضاءل العمل في قيمتها كما أنه قد يبذل العمل القليل في صناعة شيء يفوق في القيمة أضعاف ما يبذل في العمل الكبير .

وأما فائض القيمة فيراد به «الفصل بين الأجر المستحَق عن العمل المبذول وبين ما يحصل عليه العامل من الأجر أو هو الزيادة التي يبتزها صاحب العمل من العامل نتيجة إعطائه أجراً لا يساوي جهده المبذول فإن معدل ما يقدمه العامل من جهد هو أكبر مما يناله من الأجر»[1] ، أو المقصود بها الشيء الزائد عن قيمة السلعة الحقيقية التي هي حق للعامل بينما

(١) النظرية الماركسية في ميزان الاسلام ص ١٤١

يأخذها الرأسمالي كجزء من القيمة وفائضها يذهب له لا للعامل ولكن نظرة ماركس هنا قاصرة وينقصها ما وقع بعد عصره من تشغيل الآلات التي لا يساوي عمل الفرد شيئاً إلى جانبها ، وهل عمل المهندس الفني الذي يدير مجموعة آلات يتساوى مع عامل فلاح بحيث يتساويان في الأجرة أو في قيمة الناتج ؟!! «ففائض القيمة اليوم هو حق الآلة التي تعمل ذاتياً أو أتوماتيكيا وليس حق العامل» وإذا كانت الماركسية تدافع عن فائض القيمة التي يبتزها الرأسمالي صاحب العمل فإن هذا الفائض في المذهب الإشتراكي يذهب تماماً إلى الدولة التي أممت كل شيء فلم يحصل العامل على حقه الفائض لا في الرأسمالية ولا في الإشتراكية غير أن الإشتراكية تخدعه وتمنيه بالكذب فالعامل فيها يكدح ويعمل طويلاً في مقابل ما تعطيه الدولة من المأكل والمشرب والملبس والسكن المتواضع جداً وهو أقل مما يبذله من العمل .

وأما قانون تكدس رأس المال فإنه يريد به حماية العامل في حال إقامة المصانع والمشاريع الكبيرة وسيطرة أصحابه على السوق بحيث تبقى المصانع الصغيرة أو المشاريع الصغيرة غير قادرة على منافسة الكبيرة وبالتالي يخسرها أصحابها فتتكدس الأموال بين فئة الأغنياء من جراء مليكتهم لهذه المصانع وملكيتهم لفائض القيمة ويرد على هذه الفكرة أن المشاريع الصغيرة قد تصل إلى الأماكن النائية التي لا تستطيع المشاريع الكبيرة الوصول إليها ومنافستها فيها .

كما أن الأعمال الصغيرة قد تأخذ شهرة أكثر من الكبيرة من حيث الإتقان والجمال ، ولهذا تجد العمل اليدوي في مجالات كثيرة لايزال ذا قيمة أكبر في المجتمعات وفي أثمان السلع .

كما أن المشروعات الكبيرة ـ في أغلبيتها ـ تأخذ شكل شركات مساهمة قد يسهم فيها مئات بل آلاف ومن ثم يتوزع رأس المال ولا يتكدس[1] . وفوق ذلك كله يقال لهم إن اللّه تعالى ـ وإن لم يؤمنوا به ـ هو الذي قسم الأرزاق ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)** ﴾[2] ، ولهذا تجد أن الفقير والغني كلاهما يأكلان من فضل اللّه وصدق المتنبي حيث قال :

ولَوْ كانت الأرْزاقُ تَجري على الحِجَى * هَلَكْنَ إذاً مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهائِمُ**

وهل كان ماركس يهدف إلى الرحمة بالفقراء ؟ كلا . إنما يهدف إلى تطبيق مبدئه الجهنمي في إثارة الأحقاد والصراع الطبقي والإنتقام المتبادل بين فئات الناس والفتك ببعضهم بعضاً .

(١) بتصرف عن «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» ص ١٩٣
(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٣٢

الفصل السابع

خداع الإشتراكيين في زعمهم أن الإشتراكية لا تتعارض مع الإسلام

يتظاهر كثير من المخادعين الإشتراكيين بأنهم إنما يؤيدون الإشتراكية لأنها تحمل الرحمة للفقراء وكبت الأغنياء ولأنها فوق كل اعتبار لا تتعارض مع الإسلام ولا مع الأديان ولذلك فهي تلتقي مع الإسلام في مبادئ كثيرة «مثل اشتراك الناس في الماء العام وفي الهواء وفي الكلأ النابت في الأراضي العامة ويسمى الكلأ المباح عند الفقهاء ومثل النفقة الواجبة في نظام الأسرة الإسلامي ومثل الزكاة المفروضة في الشريعة الإسلامية لصالح الفقراء والمساكين وبقية الأصناف الثمانية المذكورة في آية الزكاة ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٦٠) ﴾ [(١)] ، ومثل تدخل الدولة لحماية العمال والكادحين في حصولهم على الأجور العادلة دون ظلم ولا شطط ومثل تهيئة فرص العمل لكل قادر عليه ونحو ذلك» [(٢)] .

ونقول بأنه وبغض النظر عن صحة هذه الدعاوى أو كذبها فإن مجرد التوافق في التسمية لا يكون توافقاً في الحقيقة وإلا لكانت كل الإختلافات

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٦٠

(٢) انظر كواشف زيوف ص ٢٤٥

لا قيمة لها لأنه ما من مختلفين في قضية من القضايا إلا وتجد بينهم توافقاً ما . فإقرار الإسلام لتلك الأمور هو غير إقرار الإشتراكية لها وترتيبه لها غير ترتيب الإشتراكية لها ومفهومه غير مفهوم الإشتراكية واشتراك الناس في تلك الأمور في الإسلام هو اشتراك مودة ورحمة وإخاء وتسامح بينما هو في الإشتراكية حق واحد للسبع الكبير ـ الدولة ـ تأخذ منها شبعها ثم تسمح بالباقي للآخرين في مقابل «من لم يحترف لم يعتلف» وفوق كل ما تقدم نقول لمخادعي الإشتراكية من أين جاء مصدر الإسلام ومن أين جاء مصدر الإشتراكية وهل يلتقي التشريع الإلهي والتشريع البشري على حد سواء .

إن الإسلام لا يعترف بأي نظام جاهلي وضعي فكيف يقال إنه يعضده ويوافقه سواء أكان إشتراكياً أو رأسمالياً أو شيوعياً إنه من الكذب والافتراء الفاحش القول بتوافق الإسلام مع هذه الأنظمة الجاهلية وغيرها .

وإذا أسلمنا جدلاً بتوافق الإسلام مع تلك الأنظمة فما هو السبب في قتل الإشتراكيين الشيوعيين للمسلمين في الإتحاد السوفييتي قتلاً لا يتصور العقل أهواله ودماراً لا حد له لقد حاربوا الإسلام حرباً شعواء وهدموا المساجد وحاربوا وجود أي كتاب إسلامي على امتداد البلاد السوفيتية وأصبحت تهمة الشخص بأنه مسلم كافية لإباحة دمه وتدمير منزله حتى تناقص أعداد المسلمين وعدد مدارسهم وعدد مساجدهم تناقصاً مذهلاً فما هو جواب هؤلاء البهائم ـ بل هم أضل ـ ما هو جواب الإشتراكيين عن هذا السلوك ألم تتكشف خدعهم للعالم أجمع وتظهر الحقيقة لكل ذي رأي وعين أن العدواة بين الحق والباطل دائماً على أشدها ؟

ومن الأدلة الواضحة على بُعد الإشتراكية عن الإسلام ما نراه من الفشل الذريع الذي منيت به في ديار المسلمين رغم ما يبذله أقطابها من مغريات جمة لإنعاشها بين المسلمين ذلك أن الإسلام والمسلمين ينفرون منها ويرفضونها جملة وتفصيلاً ، وثانياً أنها لم تنجح إلاَّ في أوساط المتخلفين إقتصادياً وثقافياً ودينياً ، أو متسلط متزلف إلى أقطاب الإشتراكية ، أو كافر حاقد ، أو إباحي مجرم ، أو جاهل بحقيقة الإشتراكية [١] .

وما نسمعه من نجاحها في بعض البلدان العربية فإنما هي دعايات وزوبعات مؤقتة وراءها الحديد والنار ثم انجلت الغُمة عن تلك البلدان فإذا بالإشتراكية وأقطابها في المزابل ولنا في دخولها البلدان ونهايتها فيها وفي دخول الإسلام البلدان المفتوحة وبقائه فيها خير شاهد على مدى الفرق الهائل بينهما .

---

(١) انظر هذه هي الإشتراكية ص ٢٦

الفصل الثامن

كيف غزت الإشتراكية بلدان المسلمين ؟

من المعروف أن الأفكار تنتقل وتتسرب من شخص لآخر ومن أمة لأمة دون أن تحدها حدود . فهي تتغلغل وتتنقل في الوقت الذي يتهيء لها وكما يقال «لكل صائح صدى» مهما كان قبح صوت ذلك الصائح فقد وجدت الإشتراكية القبيحة طريقاً إلى أذان بعض من تقبلها تحت أسباب متعددة وذرائع مختلفة وإغراءت براقة ، والذين تقبلوها إما طلاب دنيا لهم أغراض في الوصول إلى الزعامة أو الثراء ، أو أصحاب حقد شديد على الأغنياء يريدون النيل منهم ، أو جُهَّال ينعقون بما لا يفقهون ويصفقون لما لا يدركون حقيقته ، أو إباحيون لا يريدون أن يحدهم دين أو شرع عن الوصول إلى شهواتهم . وهؤلاء العملاء قد يكونون تحت مسمى الإسلام ومن العرب أو من غيرهم ولكنهم أشد أعداء الإسلام والمسلمين باعوا دينهم وضمائرهم لأقطاب الإشتراكية الماركسية وكونوا من أنفسهم طابورا سرياً وفي الصف الأول في الهجوم علي الدين ومن يمثله من أبناء جلدتهم وبالإضافة إلى أن هؤلاء جواسيس على أمتهم ودينهم فهم كذلك دعاة ترغيب وتحسين لوجه الإشتراكية الكالح يرددون الشعارات تلو الشعارات والمدائح تلو المدائح إما تصريحاً وإما تلميحاً تحت دعاوى كثيرة باطلة . إما دعوى إنصاف الفقراء والمظلومين ، وإما دعوى التحرر ، وإما دعوى التقدم ونبذ الرجعية والجمود والتخلف ولحوق ركب الحضارة الغربية أو الشرقية وما غير ذلك من الشعارات.

البراقة والخطب الرنانة الفارغة بكل ما لديهم من قوة صاحب السلطة بسلطته وصاحب القلم والرأي بقلمه ورأيه وصاحب نشر الفحشاء والسوء بأسلوبه فكم ألصقوا من التهم الشنيعة بشرفاء هم أنظف من الزجاجة وشوَّهوا سمعتهم بما اختلقوه من التهم والألقاب المنفرة ضدهم ، وكم قرَّب الإشتراكيون من صعاليك سفهاء وكم أبعدوا من أولى الحجى حتى صارت كلمة السفهاء وأصحاب الخنى هي المسموعة في وسائل إعلامهم المختلفة من مرئية ومسموعة ومكتوبة وأُبعدت الكلمة الصالحة وجعلوا دون نشرها حجباً كثيرة وأبواباً مغلقة لئلا تفتح القلوب وتزيل غشاوة أبصار من افتتنوا بها .

أما بالنسبة لغزو الإشتراكية البلاد العربية فقد بدأ ظهورها في مصر وسوريا ولبنان في صورة ليست قوية إلى أن تبناها رئيس مصر جمال عبد الناصر الذي طغى وبغى في وقته وتبنى الإشتراكية الماركسية ونشرها بأساليب شيطانية وأحيط بها له من التغطية حيث كاد أن يدعي ما ليس له بحق لولا أن اللّه عاجله بالعقوبة بهزيمته على يد اليهود أولا وموتة الفجاءة ثانيا بعد أن علا اسمه وصار يلقب بأبي الأحرار ورائد الأمة وما إلى ذلك من الأسماء الكاذبة وكان بعضهم يصرح بقوله لن نهزم وناصر بيننا فهزمهم اللّه في حرب سنة ١٩٦٧م شر هزيمة عُرفت في التاريخ الحديث .

إنتعشت الإشتراكية العلمية التي اختارها جمال عبد الناصر طريقاً وقام الكتاب المتزلفون وأطروها مدحاً وجاؤا بخدع لا نظير لها لتحبيبها إلى قلوب المسلمين ومن الملفت للنظر أن دعاة الإشتراكية العربية تاقضوا

مع أنفسهم تناقضاً فاحشاً فبينما هم ينادون بالإشتراكية العلمية إذا بهم يقولون انها ليست الإشتراكية الماركسية وهل هناك إشتراكية غير إشتراكية ماركس التي سماها ـ كذباً وزوراً ـ علمية .

وهؤلاء المغالطون يزعمون أن اشتراكيتهم علمية لكنها ليست هي الماركسية فأي إشتراكية علمية هذه التي ينادون بها ؟

ولو على سبيل الافتراض قبلنا زعمهم أن إشتراكيتهم علمية ولكنها ليست ماركسية أليست هذه الإشتراكية أيضاً التي ينادون بها هي نفسها مبادئ الإشتراكية الماركسية لا تختلف عنها اللّهم إلاَّ في اختيار بعض الألفاظ ليغالطوا بها الناس السذج [1] .

وأما كذبتهم الكبيرة التي يزعمون فيها أن إشتراكيتهم هي نفسها مبادئ الإسلام ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴿٥﴾ ﴾ [2] ، فأين الإسلام وأين مبادئ ماركس وهل يمكن أن يجتمع الليل والنهار في وقت واحد ؟

وما تمسكوا به من أن مبادئ الإشتراكية الماركسية تتوافق مع كثير من مبادئ الإسلام فهو من باب تمسك الغريق أو حجة من لا حجة له ، فما

---

(١) إذا أردت المزيد من الشواهد فاقرأ كتاب «التضليل الاشتراكي للدكتور صلاح الدين المنجد لترى فيه عجبا من بعض الكتاب في مصر في ثنائهم على الإشتراكية والماركسية وأن الدين الإسلامي هو أساسهما ؟!
وكتابه «بلشفة الاسلام واقرأ ما كتبه الدكتور عمر حليق في كتابه «دور الماركسية في الإشتراكية العربية» .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٥

أكثر التشابه بين الآراء المتضادة ومع ذلك لا يصح القول إن هذا التشابه يجعلها متفقة غير مختلفة كما تقدم . وأن أول ما يكذبهم فيما زعموه هو أن الإشتراكية الماركسية تدعو إلى الثورات المتلاحقة والصراع الطبقي بكل شدة بينما الإسلام لا يدعو إلى شيء من ذلك بل يدعو إلى الهدوء والمحبة والعطف والبر والاحسان والصدقات فأين وجه الشبه بينهما ؟

كما يكذبهم كذلك إعتقادهم أن الملكية الخاصة يجب أن لا يبقى لها أي مكان وانما هي الملكية العامة التي تكون بيد الدولة فقط فالإسلام يحترم الملكية الخاصة والملكية العامة وينظم الجميع تحت لا ضرر ولا ضرار فأين وجه الشبه بينهما ؟

كما أن الإشتراكية الماركسية تسلب حريات الناس وتكمم أفواههم وتفرض تعاليمها فرضاً بالحديد والنار بينما الإسلام يحث على الحرية وعلى الجهر بالحق في حدود الشرع والمصلحة العامة فأين وجه الشبه بينهما ؟

وإنك لتندهش حقاً وتعجب أشد العجب من عملاء الماركسية حينما يزعمون أن الإشتراكية متوافقة مع الإسلام ومع فطرة كل شخص وأن الشعوب رضيت بها واعتنقتها ورأت فيها ضالتها المنشودة . قبح اللّه هؤلاء الكذابين الأفاكين أليست الشعوب التي يزعمون أنها تقبلتها تلعنهم ليلاً ونهاراً وأي شخص ارتاح إليها وهو يعلم أنها ستسلبه أرضه ومسكنه ويعيش على بطاقة تصرفها له الدولة يتغدى بها ويتعشى بها ثم يكون

عوداً ضمن الحطب ، ما أشد جُرأة هولاء الكذابين الذين يكذبون على الناس علانية دون حياء أو خجل فلو لم يكن للشعوب إلا تمسكهم بالإسلام لكان كافياً في ردِّها ولعنها كيف وقد انضاف اليهم الفقر الذي يتهدد معتنقيها بين عشية وضحاها ؟

ولهذا تجد تلك الشعوب المسلمية تقول بكل حزم وعزم حينما تسمع أحد عملاء الإشتراكية الماركسية يقول إن الإسلام يؤيد الإشتراكية والإشتراكية تؤيده يقولون له : كذبت وافتريت أيها المخادع .

الفصل التاسع

دعــاة على أبواب جهــنم

جاء في الحديث الذي أخبر فيه النبي ﷺ عن افتراق الأمة إلى فرق وأحزاب أن منهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها وهذا ينطبق على كل دعاة الإفك والضلال .

وإذا كان من أخبر عنهم النبي ﷺ بأن منهم دعاة على أبواب جهنم مع دَعواهم الإسلام فما بالك بالدعاة إذا كانوا من أكابر الملحدين دينهم الإلحاد والكفر بخالق الخلق سبحانه وتعالى ومن أولئك الدعاة على أبواب جهنم دعاة الإشتراكية سواء أكانوا من العرب أو من غيرهم ينتسبون إلى الإسلام أو لا ينتسبون إليه .

أما بالنسبة لدعاة الإشتراكية في البلاد الإسلامية وهم ما بين ملحد ضالّ ، وجاهل غرّ ، فقد عرفت مما سبق أنهم يحاولون بشتى الخدع والإفتراءات تقريب الإشتراكية العلمية الماركسية إلى الإسلام وأن النبي ﷺ وأكابر الصحابة رضوان اللّه عليهم وقد حشروا في زمرتهم أم المؤمنين خديجة والصحابي الجليل أبو ذر الغفاري وعمر وغيرهم كل هؤلاء إشتراكيون بل ومن المؤسسين الأوائل للإشتراكية .

والذي يهمنا الآن هنا ليس هو الرد عليهم في مزاعمهم فهي أقل وأذل من أن يهتم لها ولكن الذي يهم القارئ هو الاطلاع على شبههم وكيفية

دعواتهم لتجيب الإشتراكية إلى الناس وكيف أنهم ركبوا لتحقيق ذلك كل صعب وذلول وجاؤا بأكاذيب وافتراءات على الإسلام وخيرة الناس بعد الأنبياء والمرسلين تقشعر لها الجلود . من نصوص مكذوبة لا قيمة لها أو صحيحة ولكنهم تسلطوا عليها بالتحريض دون مبالاة وكيف لا يكون ذلك منهم وقد قرر لهم رؤساء الإشتراكية الماركسية أن الكذب والخداع والغش ومحو الفضيلة وسائر الأخلاق الذميمة كلها فضائل إذا كانت تؤدي إلى نشر الشيوعية فالغاية عندهم تبرر الوسيلة وقد نبغ كتاب وصحفيون ومدرسون وغيرهم ينادون بتطبيق الإشتراكية التي مرة يصفونها بأنها علمية ومرة بأنها إسلامية وأخرى بأنها عدالة ورحمة وأن الشعوب تتطلع إلى تحقيقها بفارغ الصبر يتمنون بين عشية وضحاها أن تأتي الإشتراكية وتؤمم جميع ممتلكاتهم وتجعلها ملكاً للدولة وتجعلهم حطباً في وقودها ؟!

وللعاقل أن يسأل ولماذا كل هذا الايثار ؟ وكيف وصلت الشعوب في حبهم للحزب الاشتراكي والدولة الإشتراكية إلى حد أنهم ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (١)

ولا أشك أن كل قارئ يعرف أن هذا كله كذب ودجل وتزلف إلى الحكام الاشتراكيين بما يرضيهم دون تأنيب من ضمير أو حياء أو على الأقل الخوف من عقلاء الشعوب أن يلعنوهم وإليك بيان بعض أساليبهم في الدعوة إلى الإشتراكية .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩

١ ـ إذا وجدت مرحلة كان الإشتراكيون فيها أقل عدد من أهل الدين وكانت القوة للدين فلا حرج على الإشتراكي أن يتظاهر بكلمات التدين مع بقائه على العداء الشديد للدين وأهله وقد أوصاهم بذلك كبار رؤسائهم .

٢ ـ أن تتركز جهود دعاة الإشتراكية على محاربة كل الروابط الدينية وخصوصاً الجوانب الروحية والتقليل من شأنها وأن الحياة الصحيحة هي المادة التي أمامك لا غير .

٣ ـ أن يعاد تفسير كل ما قاله الدين بتفسير إشتراكي سواء ما يتعلق منها بالقصص أو المواعظ أو الأحداث بل وتفسير كل شيء في الإشتراكية الماركسية بأنه من الدين أو لا يتعارض مع الدين .

٤ ـ تجنيد بعض رجال الدين أو كلهم وجعلهم في مقدمة دعاة الإشتراكية إذا أمكن ذلك لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها وهؤلاء يجب أن يكونوا على اقتناع بالإشتراكية الشيوعية ولا حرج عليهم أن يجاهروا بعد ذلك بالتدين لأن النفاق فضيلة إذا أريد به تقوية الإشتراكية الماركسية ؟!

٥ ـ إستمرار النداءات بأن الإشتراكية هي التحرر وهي رفع معيشة الشعوب وهي نصرة الفقراء والمظلومين ، وهي النور الذي لا يستغني عنه أحد ... إلى آخر هذه الدعايات الرنَّانة الجوفاء في حقيقتها .

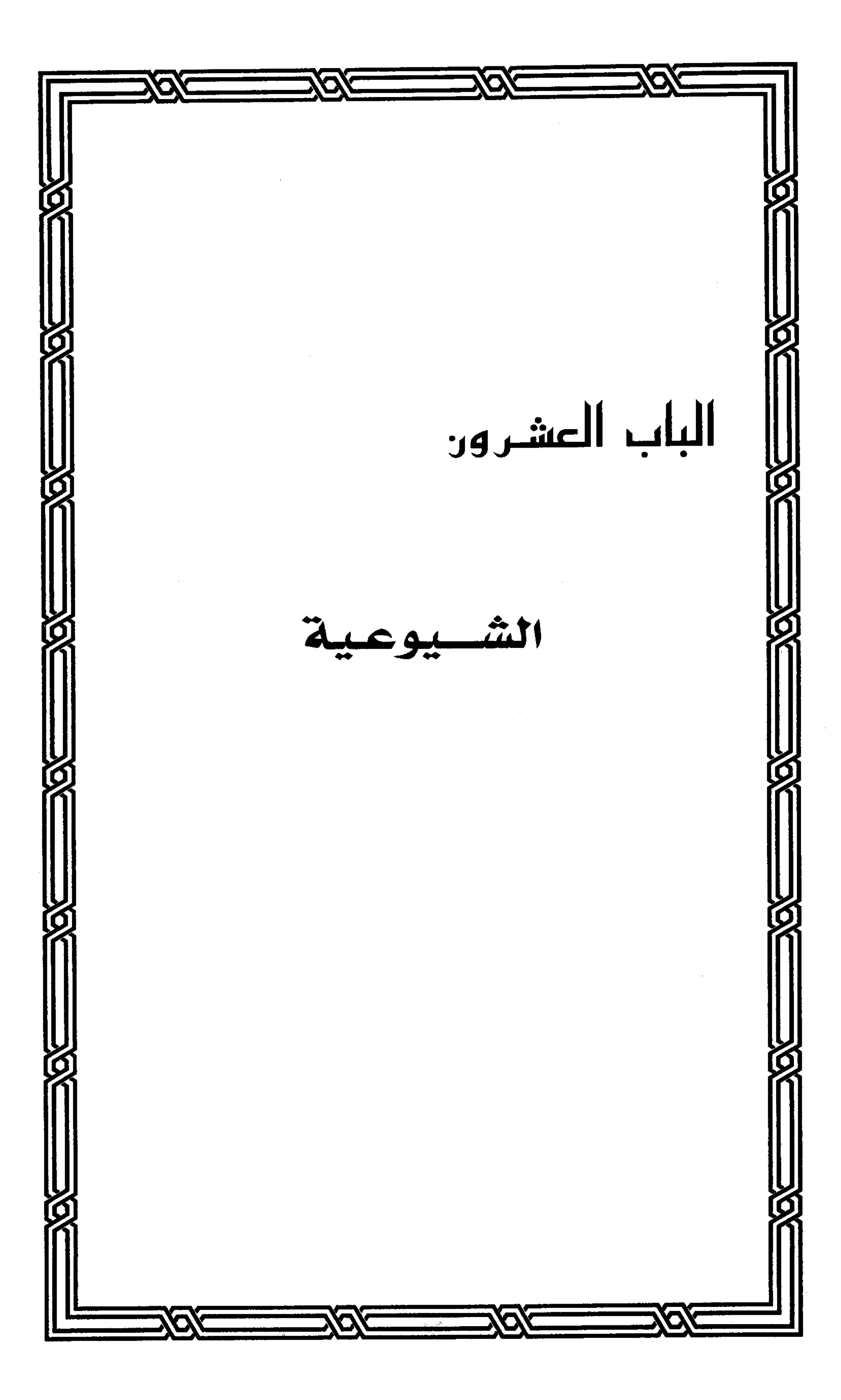
٦ ـ شدة مراقبة أهل الدين وتسجيل كل ما ينفوهون به في المدارس أو في المساجد أو في إجتماعاتهم وتخويفهم من عاقبة أي خطأ يرتكبونه ضد الإشتراكية العلمية وأن عليهم إذا أرادوا الحياة أن يسايروا الركب .

٧ ـ التهجم على الأثرياء وأنهم طبقة مستعبدة وأن الإسلام لا يجيز للشخص أن يمتلك الأموال الكثيرة وغيره جياع والغرض من هذا تصحيح ما تقوم به الإشتراكية من تأميم الأموال دون وجه شرعي ، ومعلوم أن الإسلام لا يمنع أن يكون بعض الناس أثرياء مهما بلغ ثراؤهم ماداموا يؤدون حق اللّه فيه فالفقر والغني كله بتقدير اللّه تعالى .

٨ ـ يجب على الجميع أن يأتو بالتبريكات وبالتبريرات لأي عمل تقوم به الدولة الإشتراكية وأن كل ما تفعله هو الحق والخير وكل ما تعاديه هو الشر والضرر .

٩ ـ ترديد الشعارات التي تخدم الإشتراكية في كل مناسبة وبالتالي ترديد الذم لكل ما يخالفها والقاء النعوت المنفرة لمخالفيها كالرجعية والجمود والتخلف وإرادة إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء إلى غير ذلك من الأكاذيب التي يجيدها خدم الإشتراكية .





الباب العشرون

الشـــيوعية



البـاب العشـرون

الشـــيوعية

تتكون دراستنا لهذا المذهب من فصلين تحت كل منهما مباحث ومطالب ومسائل متعددة .

الفصل الأول : دراسة عن الشيوعية .

الفصل الثـــاني : دراسة عن الأحوال الاقتصادية في الإسلام وفي المذاهب الوضعية .

الفصل الأول

دراسة عن الشيوعية

•• ماذا ندرس عن الشيوعية ؟

الشيوعية مَذهَب هدَّام ، إباحي ، ظالم من أسوأ ما عرفته البشرية من مذاهب وجدت على ظهر الأرض كانت لها صولة وجولة إبان حكم طغاتها في الإتحاد السوفيتي ـ سابقاً ـ وكادت أن تطغى على جميع البلدان لولا أن اللَّه تعالى بخفي لطفه وقوته عاجلهم بالعقوبة قبل فترة ليست بالطويلة في وقت لم يكن أحد يتوقع فيه أن تنتهي وتزول بتلك البساطة على يد آخر حكامهم «جورباتشوف» واللَّه غالب على أمره وقد أراد أقطابها أن تحل محل الديانات

كلها بل محل اللَّه سبحانه وتعالى وكانت آراؤها السخيفة هي السبب في اندحارها وسقوطها سواء ما تعلق منها بالأمور الإقتصادية أو الإجتماعية أو السياسية فلم تجن الشعوب التي نُكبت بها غير الخسران والضياع في الدين والدنيا كما أنه لم ينجح الكيد اليهودي الحاقد في محاربته للعقائد والعقول مثلما نجح في إقامة هذا المذهب الهدَّام .

وسنتناول هذا المذهب بإيجاز ـ نظراً لأنه أوسع المذاهب وأكثرها شمولاً نقتصر على أهم الجوانب التي ينبغي الإلمام بها دون دراسة النواحي التاريخية لعدم الضرورة إلى ذلك من جهة ولعدم تعلق المقرر المطلوب دراسته بها من جهة أخرى ولذلك سندرسها من خلال الأمور الآتية :

تمهيد عام عن الشيوعية :

المبحث الأول : قيام الشيوعية الأولى بقيادة مزدك .

المبحث الثاني : من أكاذيب الشيوعيين .

المبحث الثالث : رد زعم الملاحدة أن البشرية قامت على الشيوعية الأولى .

المبحث الرابع : زعامة الشيوعية الماركسية .

المبحث الخامس : الأسس التي قامت عليها النظرية الشيوعية .

١ ـ المادية .

٢ ـ الجدلية ـ الديالكتيك .

●● تعقيب على ما سبق .

٣ ـ التطور .

الفصل الثـــاني : الاقتصاد في الإسلام وفي المذاهب الوضعية ، وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : قضية الملكية الفردية والجماعية ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الملكية في الاسلام وفيه أمران :

١ ـ حب التملك الفردي فطرة في الانسان .

٢ ـ الملكية الفردية والجماعية في الإسلام .

المطلب الثـــــاني : الملكية في المذاهب الوضعية وفيه أمران :

١ ـ الملكية في الرأسمالية .

٢ ـ الملكية في الشيوعية الماركسية .

المبحث الثـــــاني : رد مزاعم الملاحدة الشيوعيين وفيه مطلبان :

المطلب الأول : رد مزاعمهم في الملكية الفردية .

المطلب الثـــــاني : رد مزاعمهم في نشأة الصراع الطبقي .

المبحث الثـــــالث : إيضاح بعض الجوانب الاقتصادية وتشمل دراسة هذه الجوانب المطالب الآتية :

المطلب الأول : التعريف بعلم الاقتصاد .

المطلب الثـــــاني : مدى أهمية العامل الاقتصادي في حياة الإنسان .

المطلب الثـــــالث : أهمية دراسة الأحوال الاقتصادية .

المطلب الرابـــــع : الغزو الفكري عن طريق الاقتصاد .

المطلب الخـــامس : المال في الإسلام .

المطلب الســـادس : وجود الموارد وندرتها .

المطلب السـابع : مدى صحة تعليل أصحاب النظام الوضعي للمشكلة الاقتصادية .

المطلب الثـامن : تنظيم الإسلام للشؤون المالية وطريقة معالجته لمشكلة الفقر وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : التكافل الاجتماعي العـام في الإسـلام .

المسألة الثـانية : الإتفاقيات في العمل .

المسألة الثـالثة : الكسب المشروع وغير المشروع وفيها :

المسألة الرابعـة : إيجاب الإسلام إخراج جزء من المال .

أولاً : مشروعية الزكاة .

ثانياً : آثار الزكاة على النفس والمجتمع .

المسألة الخامسة : الضرب في الأرض وطلب الكسب .

المسألة السـادسة : الصدقات .

المسألة السـابعة : الوقف .

المسألة الثـامنة : الميراث .

المسألة التاسعة : الوصية .

المسألة العاشرة : الحث على الإيثار .

المسألة الحادية عشر : الهدايا والهبات .

المسألة الثانية عشر : التكافل الأسري .

موارد أخـرى متنوعـة .

١ ـ زكاة الفطر .

٢ - توزيع لحوم الأضاحي .

٣ - توزيع ما يستغني عنه الموسرون .

٤ - الإطعام الواجب على من عجز عن الصوم .

٥ - توزيع لحوم الهدي من قبل الحجاج والمعتمرين .

٦ - التصدق في يوم حصاد الثمار .

٧ - سائر الكفارات .

١ - كفارة الأيمان .

٢ - كفارة الإفطار في نهار رمضان بالجماع عمداً .

٣ - كفارة الظهار .

٤ - كفارة القتل الخطأ .

٥ - كفارة صيد الْمُحْرِم .

٦ - كفارة الوفاء بالنذر .

٨ - وجوب إكرام الضيف .

المسألة الثالثة عشر : التكافل عن طريق العارية .

المسألة الرابعة عشر : رعاية العاجزين والضعفاء .

١ - رعاية الأطفال .

٢ - رعاية أصحاب العاهات .

٣ - رعاية المنحرفين والشواذ .

٤ - رعاية المطلقات والأرامل .

٥ ـ رعاية كبار السن .

٦ ـ رعاية المنكوبين والمكروبين .

المسألة الخامسة عشر : تحـريم التعامل بالمال في بعض الأمور .

تمهـــــيد :

١ ـ تحريم الربا .

٢ ـ تحريم الاحتكار .

٣ ـ تحريم الغش .

٤ ـ تحريم المكاسب الخبيثة كالقمار ونحوه .

٥ ـ إنفـاق المال في بعض الطرق غيـر المشروعة وهي كثيرة .

المبحث الرابـــــع : التكافل في النظـم البشرية :

١ ـ في الرأسمالية .

٢ ـ في الشيوعية .

•• تمهيد عــام عن الشــيوعية :

لقد أصبح اسم الشيوعية اسماً بغيضاً إلى القلوب يوحي بالشؤم ويقترن بمحاربة اللّـه والأديان والأخلاق والرحمة والطمأنينة والعدل ويرمز إلى كل الشرور والاباحية والفوضوية والصراع الطبقي والقضاء على الأسر ومصادرة الأموال العامة والحريات كلها ـ غير الجنسية .

وقد أخذت هذه التسمية من مبدأ شيوعية المال بين الجميع وعدم الملكية الفردية وحصرها في يد الدولة الذين يعيش أعضاؤها في بذخ لا حدود له وقد ذكر في الموسوعة العربية الميسرة [(١)] : «أن الشيوعية مصطلح يصعب تحديد معناه» ، وبعد أن ذكرت تلك الموسوعة أن الشيوعية نظام إجتماعي تكون فيه الملكية في يد المجتمع قالت : «والشيوعية بهذا المعنى قديمة قدم المجتمع نفسه» [(٢)]

وهذا كذب محض فإن هذا التعبير من الدسائس التي احتوت عليها هذه الموسوعة متأثرة بما لفقه زعماء الشيوعية من أن المجتمعات في القديم كانت بدائية وكانت الملكية فيها مشاعة بين الجميع في شكل اكتفاء ذاتي يتقاسم أفراده السلع والخدمات نظراً لظروفهم الخاصة القاسية التي تحتم عليهم ذلك كما هو الحال على الخصوص في المجتمعات التي تعيش على قنص الحيوان ، بزعمهم . [(٣)]

---

(١) وهي موسوعة فيها دس خطير يجب الانتباه له .
(٢) الموسوعة العربية الميسرة جـ ٢ ص ١١١٠
(٣) المصدر السابق ص ١١١١

لقد قامت الشيوعية الماركسية كالمارد الجبار تريد أن تقيم مجداً زائفاً على أنقاض الديانات الإلهية كلها وإحلال الديانات الوضعية البشرية مكانها شعارهم «لا إله والحياة مادة» هدفهم هدم الأديان وإعلاء اليهودية ، ومع أن شعارهم «لا إله» فهو شعار كاذب فقد أحل طغاة الشيوعية أنفسهم محل الإله العظيم وأحلوا تعاليمهم الإلحادية محل الدين وقوانينهم محل الشريعة فقد احتوت الشيوعية على جميع نواحي الحياة من ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية بل وكل ناحية في حياة البشر بدلا عن الإله وعن الأديان وكافة النظم البشرية .

وإذا كانت السمة الظاهرة للناس أن الشيوعية لا شأن لها بأية ناحية غير الناحية الإقتصادية وأن مُهمَّتها خدمة الشعوب لكي تعيش في جنة عالية قطوفها دانية إذا طبَّقوا التعاليم الماركسية الجهنمية التي زعم أقطابها أن البشر سيعيشونها في يومٍ ما وسيحكمون أنفسهم بأنفسهم ، لا عداوة ، ولا فقر ، ولا جهل ... إلخ فإن هذه السمة الظاهرة هي تُرَّهات الشيوعية وخدعها التي نجحت على كثير من البشر فأصبحوا ضحايا خاسرة للشيوعية ومبادئها الجوفاء .

ولقد تظاهرت الشيوعية بذلك لتعمل في الخفاء وبعيداً عن الأنظار لما قامت من أجله من تحقيق أحلام اليهود وليس تحقيق أحلام الفقراء فزعموا للناس أنهم ركبوا كل صعب وذلول للإهتمام بالنواحي الإقتصادية أولاً وأخيراً وأن كل ما يصدر عن هذا الفكر من سلوك وتقنين انما هو تابع لتحقيق هذاالجانب لا غيره وسيتبين إن شاء اللَّه أثناء الرد عليهم

أن هذا الزعم أصبح سراباً كاذباً وهباءً في مهب الريح ويعبرون عن هذه الظاهرة بالمادة ، التي صارت هي المعبود والنظام والتاريخ وأقطاب الشيوعية كما هو معروف كانوا نصارى في الأساس وأغلبهم يهود وقد وصفوا نظريتهم الإلحادية «بالمادية» وجعلوها محور كل شيء في الوجود والتاريخ أقاموه على «التفسير المادي للتاريخ» فكل مظاهرهم إنما هي تابعة لتصورهم المادي كماأن مظاهر الفرويدية كلها متوجهة نحو الجنس وكلتا النظريتين موجهتين بدقة من قبل الماسونية اليهودية للقضاء على كل ما عند الجوييم - كما يسميهم اليهود - ليصبحوا حميراً لشعب اللّه المختار كما تمنيهم بذلك تعاليم التوراة المحرفة والتلمود الجهنمي المملوء حقداً على جميع البشر ما عدا اليهود .

وكان «ماركس» قد تضلع من دراسة الحضارة الإغريقية الرومانية في الوقت الذي كانت فيه تعاليم المسيحية المحرَّفة تتهاوى إلى الحضيض وتُداس تحت أقدام أولئك الذين خرجوا عن طغيانها الذي لا حد له وعن صلاحيات البابوات ورجال الدين التي لا نهاية لها وفي الوقت الذي نشط فيه دهاة الماسونية ومنهم كارل ماركس لتحطيم كل حضارات العالم واقامة هيكل سليمان الذي هو نصب أعين اليهود كلهم .

ظهرت الماركسية لتجعل الإنسان هو مصدر كل سلوك ومعرفة هو الإله المشرع وهو الخالق المبدع وهو كل شيء وليس وراء أي شيء فلا وجود للاله الذي مارس طغاة الكنيسة كل جبروتهم باسمه ولا أديان تضطهد اليهودية واليهود ولا حياة أخرى هي مصدر الخلاص إذا كان الشخص يملك صك

غفران عن البابا ، بل الإنسان هو الإله والدنيا هي غاية الإنسان عليها ليسعد أو يشقى ولا عبرة بما قالته الأديان الالهية من وجود قوةأخرى غير الإنسان أو حياة أخرى غير هذه الحياة ، بل إن ما وراء الطبيعة من المغيبات إن هو إلاَّ سراب يجب أن يختفي أمام الحضارة اللادينية العاتية عالم المحسوسات التي لا تؤمن الشيوعية الملحدة إلا به وحده معللة لوجود هذا الكون ونشأته . ونشأة التدين عند الإنسان بخرافات كاذبة خيالية لا يسندها عقل ولا منطق، الكون تجمع من ذرات والإنسان أصله قرد ... إلخ

ومن العجيب أنهم يسمون هذه التخيلات المفتراة على البشرية التي تنافي ما أكرمهم به اللّه من حفظ ورعاية ومعرفة بأمور دينهم ودنياهم العجيبة ، أنهم يسمونها حقائق ويدافعون عنها كأنهم عايشوها من أول يوم عرفت فيه البشرية ومن كذبهم في هذا فإن نبزه بالرجعية والتخلف أمر جاهز في قواميسهم التيلا تتورع عن هدر أعراض الناس ودماءهم ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [1]

وهو رجم بالغيب وظلم للبشرية وتصديق لأقوال الكذَّابين أمثال «ماركس» ، و «دارون» ، و «فرويد» وغيرهم من أشرار البشر الحاقدين .

وقد ساعد على تعميق الإلحاد الشيوعي تلك النظريات الكثيرة والشُّبَه التي سموها حقائق لمعرفة هذا الكون وقيامه على القوانين التي عُرفت أخيراً مثل قانون الجاذبية الذي أرسى كل شيء في الوجود في مكانه وقانون تجمُّع أجزاء المادة التي انفجر عنها هذا الكون وغير ذلك مما زعموه مؤيداً

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩

لنظريتهم الملحدة فحجبت تلك المفاهيم ـ الخاطئة للشيوعية والنصرانية ـ العقل عن التعلق بموجد لهذا الكون ، وأن مجرد التفكير فيه يعد رجعية ولهذا ـ كما سمعنا ـ أن الروس قتلوا العائدين من سطح القمر في أول رحلة فضائية لأنهم أيقنوا أن لهذا الكون موجداً وما إن أطل القرن التاسع عشر الميلادي إلاَّ وقد ظهر قرن الشيطان وساد القول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل فهي الحاكم المطلق والإله الذي لا يُنازَع وقد تولى كبرها «أوجست كونت» ، و «فرباخ» ، و «ماركس» ، و «انجلا» بدافع قوي من الحقد الشديد على رجال الدين الكنسي الذي يمثل حسب تعليلهم قوة ما وراء الطبيعة من الأمور المغيبة والروحية التي اعتبروها وهماً وخداعاً لا حقيقة له لعدم اندراجها تحت قوة الإحساس والإدراك المباشر وأن الإلتجاء إلى ذلك الغيب إنما نتج عن الوراثة والبيئة والحياة الاجتماعية في تلك الأزمان المختلفة بزعم دعاة الإلحاد .

ولقد ظلت الشيوعية قرابة سبعين عاماً في صولة وجولة قوية مزبدة يحسب لها حسابها إلى أن أذن اللَّه بزوال قوتها بقدرته وحده أذ ما كان أحد يفكر في النيل منها ، فإذا بها يأتيها حتفها بظلفها على يد آخر زعيم لما كان يسمى بالإتحاد السوفيتي وهو «ميخائيل جورباتشوف» وأفل نجمها وجبروتها وثارت الشعوب واقتصُّوا من كل الظالمين .

والآن وبعد أن تبين المصير النهائي للماركسية الشيوعية أقول : إنه من الغريب جداً أن تموت الشيوعية في عقر دارها ـ الإتحاد السوفيتي سابقاً ـ وأن تكتشف الشعوب أن هذا المذهب فاشل باطل لا يجر إلى خير ،

بل إلى الخراب والدمار وإثارة البغضاء وانتشار البطالة والفواحش ، وأن الجنة الأرضية التي وعد بها «كارل ماركس» إن هي إلاَّ سراب خادع وآمال كاذبة وأن تعاليمه إن هي إلا جحيم لا يطاق وتعاسة وشقاء .

وأن الشعوب كانوا يساقون إلى الموت وهم ينظرون طائعين أو مُكرَهين وأن في التخلص من هذا المذهب راحة لا تعدلها راحة وفوزاً لا يعدله فوز فهبت تلك الشعوب المظلومة لتنفض عنها غبار تلك السنين العجاب ثم داسوا مبادئ «ماركس» ونظرياته تحت نعالهم ويتنفسوا الصعداء وبعضهم قام بشنق تماثيل بعض طغاة الشيوعية القدماء وبعض الحكام الحاليين وقالوا : لا رجعة للشيوعية هنا .[1]

أقول من الغريب أن يحصل هذا وأكثر منه في تلك البلدان التي ذاقت مرارة التعاليم الشيوعية وفرحت بانقشاعها عنها ثم تقوم بعض الأحزاب في البلدان العربية الإسلامية بالمناداة باعتمادها كحزب شيوعي شرعي وأين الشرع من تعاليم «ماركس» ثم تقوم بعض الحكومات باعتماد تلك الأحزاب والترخيص لهم بدخول المجالس النيابية والبرلمانية وما إلى ذلك كما سمعته من دولة إسلامية عربية في إذاعتهم المسموعة . إن الأمر يدعو إلى العجب ـ قبح اللَّه تلك الأحزاب وقبح اللَّه من يسمح لهم ـ ﴿ **أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾[2]

---

(١) سمعت من إحدى الإذاعات أن دولة أوروبية أمرت بإخراج تمثال لينين وشنقه أمام الناس ، وقد شنقوا بعض رؤسائهم مثل تيتو وزوجته أمام الناس .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩

ولقد قيل في المثل : «العاقل مَن اتَّعظ بغيره» ، فلماذا لا يتعظ هؤلاء بمن قد ذاق الحياة الشيوعية البائسة وضاق بها ذرعاً أليس لهؤلاء قلوب يعقلون بها وأعين ينظرون بها وآذان يسمعون بها فيكفون عن التعلق بالشيوعية الحمراء وبتقديس زعمائها الذين لا يساوون قيمة نعالهم .

إن الأمر واضح وجلي لولا أن مؤامرة جديدة أيضاً تهدد العالم في ثوب جديد وبأسلوب جديد قد يشعر الناس به وقد لا يشعرون . وما أكثر النكبات التي يدبرها شياطين الإنس والجن للمغلوبين على أمرهم تحت مختلف الشعارات البراقة الخادعة من دعاة الماسونية اليهودية العالمية الحاقدة على الجوييم وما يمتلكونه من حضارات وقيم ومرور الأيام والليالي كفيلة بإيضاح كل ما يبيتون واللّه لهم بالمرصاد .

المبحث الأول

قيام الشيوعية الأولى بقيادة رجل يسمى «مزدك»

قام «مزدك» في أيام ملك فارس المسمى «قباذ بن فيروز بن يزدجرد» كما يذكر المؤرخون بالدعوة إلى شيوعية فوضوية عارمة تأكل الأخضر واليابس وعانى الناس منها الأمرين ، وفي وصف شيوعية «مزدك» وفوضويته يقول ابن الأثير : «واستحل المحارم والمنكرات وسوَّى بين الناس في الأموال والأملاك والنساء والعبيد والإماء حتى لا يكون لأحد على أحد فضل في شيء البتة فكثر اتباعه من السفلة والأغتام [1] ، فصاروا عشرات ألوف فكان مزدك يأخذ امرأة هذا فيسلمها إلى الآخر وكذا في الأموال والعبيد والإماء وغيرها من الضياع والعقار ، فاستولى وعظم شأنه وتبعه الملك «قباذ» فقال يوماً لقباذ اليوم نوبتي من امرأتك أم أنوشروان فأجابه إلى ذلك فقام أنوشروان إليه ونزع خُفَّيه بيده وقبَّل رجليه وشفع إليه حتى لا يتعرَّض لأُمِّه وله حكمه في سائر ملكه فتركها» [2]

ومن حكمة اللَّه تعالى أن صار الملك بعد ذلك إلى أنوشروان فانتقم من المزدكية أشد انتقام . فإن أنوشروان حينما تولى الملك أذن للناس في الدخول عليه وكان من الداخلين «المنذر بن ماء السماء» ، و «مزدك» ، فقال «أنوشروان» : إني كنت تمنيت أُمنيَّتين أرجو أن يكون اللَّه عز وجل

(١) الأغتام : وأحدها : غتم ، وغتمي من لا يفصح في كلامه للعجمة . انظر «مختار الصحاح» ص ٣٦٩

(٢) الكامل لـ «ابن الأثير» ، ج ١ ، ص ٤١٣

قد جمعهما إليَّ فقال «مزدك» : وماهما أيها الملك ، قال تمنيت أن أملك وأستعمل هذا الرجل الشريف ، يعني «المنذر» وأن أقتل هذه الزنادقة فقال «مزدك» : أوتستطيع أن تقتل الناس كلهم ؟ فقال : وإنك ها هنا ياابن الزانية واللّه ما ذهب نتن ريح جوربك من أنفي منذ قبلت رجلك إلى يومي هذا . وأمر به فقُتل وصُلب وقَتل منهم ما بين جازر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة مائة ألف زنديق وصلبهم»[1]

وانتهت هذه الشيوعية وقضي عليها إلى أن تولاها فيما بعد «كارل ماركس» .

---

(١) الكامل لـ «ابن الأثير» ، ج ١ ، ص ٤٣٥

المبحث الثاني

من أكاذيب الشيوعيين

من أكاذيب الشيوعيين أن هذه الشيوعية كانت هي بداية حياة البشر حينما كان كل شيء مشاعاً للجميع وهم شركاء فيه من جنس ومال ... إلخ . وكان دليلهم على هذا التخرص ما زعموه من اكتشافهم بعض القبائل حيث وجدوهم يعيشون عيشة جماعية ، الأرض ملك للجميع والطعام ملك للجميع وحتى النساء والرجال ملك بعضهم لبعض ـ فوضى جنسية عارمة ـ وزعموا أن تلك القبائل تعيش في إفريقيا وآسيا وأستراليا منعزلة تماما عن الناس لا يعرفون الناس ولا يعرفهم الناس وأنهم يعيشون كلهم على قدم المساواة لا فوارق بينهم [(١)] ـ هكذا زعموا ـ وأن هذه الحال هي التي تسعى إليها الشيوعية الأخيرة لتحصل العدالة التامة بين البشر كما يزعمون وليعيش الناس كما كانوا يعيشون في تلك الشيوعية حالة ملائكية في منتهى السعادة رغم أنهم لا يعرفون الناس والناس لا يعرفونهم كما ذكروا وعلى الكل أن يتركوا عقولهم جانباً ويصدقوا هذه الخزعبلات إذا أرادوا التقدم والازدهار الشيوعي فهل ما يقولونه صحيح ؟

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٥٦

المبحث الثالث

رد زعم الملاحدة أن البشرية قامت على الشيوعية الأولى

مما يجب التسليم به أن ما زعمه الملاحدة من أن المجتمع قام على الشيوعية في بداية ما هو إلاَّ افتراض وظنون لا يملكون على صحتها أي دليل صحيح ، بل كل شيء يكذبهم ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥)** ﴾[(١)]

فقد تصوروا في أخيلتهم أن البشر البدائيين أقاموا فيما بينهم شراكة في كل شيء قبل أن يتطوروا ويعرفوا الملكية الفردية رادين بهذا كل ما جاءت بذكره الشرائع وخصوصاً الإسلام وما شهد به التاريخ وما تواتر نقله في كل الأجيال وما شهد به الواقع على مر السنين من أن اللَّه تعالى هو الذي رتَّب حياة الإنسان وطريقة تعامله منذ أن أهبطه اللَّه إلى الأرض وإلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها وأن ما من أمة إلاَّ خلا فيها نذير ، وأن الإنسان هو الإنسان من بدايته إلى نهايته لم يتغير لا في هيئته ولا في طبيعته ولا في حبه للملكية الفردية منذ وجوده على الأرض وما تصوره الملاحدة من انعدام الملكية الفردية وذوبان الشخص في القبيلة إنما كان يَصدُق علي بعض عهود الجاهلية من التعصب الشديد للقبيلة لكن في غير الملكية الفردية مع أن تصور عدم ميل كل شخص إلى الملكية الفردية افتراضي بعيد الوقوع ومحال ، نعم وُجد بين أفراد القبيلة الواحدة تعاون قوي وتعاضُد وشراكة في السرَّاء

(١) سورة الكهف ، الآية : ٥

والضرَّاء وتلاحم بين كل أفراد القبيلة إلى حد أن الفرد لا يتصور وجوده وكيانه وانتماءه وما يأخذه وما يتركه إلاَّ من خلال قبيلته يفعل كل ما تفعله قبيلته ويترك كل ما تتركه دون أن يكون له أي رأي في مخالفة عرف القبيلة ولكن هذا الحال لا يصلح أن يكون دليلاً للملاحدة على شيوعية البشر على الطريقة التي قررها ماركس وأتباعه بل إن إعتقاد أن البشر كانوا بمنزلة البهائم في بدايتهم هو الظلم بعينه والكذب علي البشرية بعينه ورد صريح لكل ما يثبت في الأديان السماوية من تكريم اللّه للبشر ورفعهم عن منزلة الحيوانات البهيمة التي تصورها الملاحدة في تفسيرهم لنشأة البشر وقيام أمورهم على الناحية الإقتصادية والقبلية فقط كما زعموا ثم على فرض المستحيل أن بعض المكتشفين وجدوا قبائل تعيش على الفوضى في كل شيء بما فيها الجنس ألا يصح أن يوصف هؤلاء بأنهم شواذ لا قيمة لهم فاسدي الفطرة وأن وصف البشرية كلهم بتلك الوصمة الشنيعة لأجل ما وجده هؤلاء عند تلك القبائل الهمجية يعتبر تطاولاً على تاريخ البشر ؟ هذا إن صح أنهم وجدوا بشراً بتلك الحال مع أن كذبهم وافتراءهم وارد ذلك أن ما من إنسان يرضى بالفوضى الجنسية في أهله بل إنها حالة لا ترضى بها حتى الحيوانات البهيمية فضلاً عن الإنسان ، فقد أخبر اللّه عز وجل عن فطرة الإنسان وعن الغيرة الموجودة فيه منذ أن وُجد أبناء آدم على هذه الأرض وقتل أحد ابني آدم أخاه . وليت شعري لماذا يحرص الشيوعيون على إشاعة الجنس أكثر من غيره فإن الشيوعيين يحرصون أشد الحرص على إشاعة الجنس بالطريقة المشتركة لعله ترغيباً لمن يتوق إلى ذلك من الشباب والشابات الساقطين

ولظنهم أن الشيوعية ستبني وتنهض بسبب هذه الدعايات الرخيصة ولكنهم فوجؤا باستحقار الناس لهم واستهجانهم لهذا السلوك الشائن فعادوا وزعموا أن شيوعية النساء ليست قاصرة على المذهب الشيوعي وإنما هي قضية شائعة بين كل الطبقات خصوصاً الأغنياء بصور مختلفة ، ولكن هذا الدليل هو واه كبَيت العنكبوت لم يخرجهم أيضاً من استحقار الناس لهم في مناداتهم بالفوضى الجنسية العارمة لأن الباطل لا يستدل له بالباطل وذلك أن استدلالهم بالمنحرفين لا يعطيهم المبرر لدعواهم فهو تبرير باطل بباطل ويكفي أن يقال عن الجميع أنها أوضاع فاسدة جاهلية يجب أن تصحح ولا تستحق أن تكون قدوة أو دليلاً يظلمون به فطر الناس ويخدشون كرامتهم سواء كانوا من الأغنياء أو من الفقراء فهو عمل لا تُقرُّه حتى الحيوانات .

وأما زعم الملاحدة أن الناس في الشيوعية الأولى كانوا يعيشون عيشة متساوية لا فروق بينهم فهو افتراض ينقصه الدليل فمن أين لهم أنهم ما كانوا يشعرون بالفوارق فيما بينهم وأقل ما فيها فوارق في الذكاء ، فوارق في إتقان العمل ، فوارق في القوة الجسدية والنفسية ، وفوارق في الشجاعة ، وفوارق في المال ... إلى آخر الفوارق التي لا يجهلها أي إنسان سليم العقل وحتى الملاحدة لا يجهلونها لولا أنهم يريدون تحبيب الشيوعية إلى الناس وخصوصاً الناس الذين يشعرون بانتقاص المجتمع لحقوقهم أو أنهم مغلوبون على أمرهم ويتمنون أي فرصة لإثبات وجودهم الذي يحلمون به فانتهز الملاحدة وجود هذه الفوارق الحتمية بين الناس للمناداة بالقضاء عليها وأنى لهم أن يطبقوا ذلك فعلاً وهو مخالف لما أراده اللّٰه تعالى في سننه ذلك أن

اللَّه تعالى هو الذي أراد للناس أن يكونوا بهذه الحال منهم الذكي ومنهم البليد ومنهم الغني ومنهم الفقير إلى آخر الصفات المعلومة بالضرورة من أحوال البشر فكيف يقضون على ما أراد اللَّه بقاءه والحاصل أنه لا دليل لهم على كل ما زعموه من تلك المساواة المكذوبة وكذلك زعمهم أن الناس كانوا يعيشون حياة ملائكية في منتهى السعادة إن هو إلاَّ خيال فارغ تكذبه طبيعة البشر منذ وجودهم إلى اليوم إضافة إلى أنه لا دليل لهم إلاَّ محض أخيلتهم المنكوسة وإلاَّ فأيٌّ زمن خلا عن الحرب والتنافس بين القبائل على أمور كثيرة أقلها المرعى والحِمَى والغنائم وما إلى ذلك من الأمور التي لابد من وقوعها ضرورة في كل أجيال البشر .

وأخيراً أخي القارئ الكريم يجب أن تعلم أن الحقائق كلها تدل على أن الشيوعية التي نادى بها «ماركس» ورفاقُه لم تكن ناتجة عن التأثر بالشيوعية الأولى فقط وإنما كانت بدافع منها ومن التخطيط الماسوني اليهودي كما تبين ذلك في دراستنا للماسونية حينما أوعز دهاتها إلى «كارل ماركس» أن ينادي بهذه النظرية الفاشلة لأن تاريخ اليهود يدل على أنهم يستثمرون الأحداث لصالحهم وأنهم قد برعوا في هذا الجانب لا أنهم هم الذين يثيرون الأحداث ابتداء كما يذكر بعض الباحثين مما يعطي لليهود حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي .

المبحث الرابع

زعامة الشيوعية الماركسية

أول زعماء الشيوعية الإلحادية وأشهرم هو «كارل ماركس» الذي تُنسَب إليه العقيدة الماركسية المنتشرة في شتى أنحاء المعمورة ، وُلد «ماركس» في سنة ١٨١٨م ، ومات سنة ١٨٨٣م ، كان على صلة وثيقة بصديقه «إنجلز» الذي صاغ معه البيان الشيوعي المشهور باسم «البيان الشيوعي» سنة ١٨٤٧م ، تنقل ماركس في عدة بلدان من أوروبا ، ألَّفَ كتابه «رأس المال» الذي أصبح المرجع والدستور للشيوعيين اشتمل على عبارات وتسميات كثيرة تدورحول المال وأصحاب المال ووجوب التغيير للمجتمعات رأساً على عقب مثل : البرجوازية ، الرأسمالية ، البروليتاريا ، دكتاتورية البروليتاريا ، المادية الجدلية ، التفسير المادي للتاريخ ، صراع الطبقات ، فائض القيمة ، محاربة الملكية الفردية ، والإقطاع وأعاد وأبدى حولها .

- **ويقصد بالبُرجوازية** : طبقة الأغنياء .
- **ويقصد بالرأسمالية** : النظام الذي يقوم على جمع المال بأية طريقة كانت في الدول الغربية .
- **ويقصد بالبروليتاريا** : طبقة العمال الفقراء أو نظام التملك العام ومنع الطبقات .
- **ويقصد بدكتاتورية البروليتاريا** : أي حكم العمال أو الفقراء حينما يتحقق حلمهم بازاحة طبقة الاغنياء .

ـ **ويقصد بالمادية :** أي أن كل موجود إنما كان سبب وجوده المادة التي نتج عنها بطبيعته وهي سابقة للروح وسائر إحساسات الإنسان بزعمه .

ـ **أما المادية الجدلية :** فيقصد بها تغليب المادة على كل شيء ومنها الأفكار فإن الأفكار كلها ناتجة عن المادة ، لا أن المادة ناتجة عن الأفكار ولهذا فإن التناقض لا يكون بين الأفكار وإنما يكون بين نظامين قائمين يتولد عنهما ثالث كما سيأتي بيانه .

ـ **أما المادية التاريخية :** فالمقصود بها تفسير التاريخ البشري تفسيراً مادياً قائماً على المادة وتأثيرها في مجريات تاريخ البشر وتطورهم وما يقع بينهم من أحداث لا أن هناك إلهاً أو تفكيراً يؤثر على تاريخ البشر دون المادة بزعمه .

ـ **أما فائض القيمة :** فقد تقدم بيانه في دراسة الإشتراكية .

ـ **وأما إلغاء الملكية الفردية :** فالمقصود بها أنه لا يحق لأي فرد أن يملك شيئاً من الموارد بمفرده ، بل لابد أن تكون الملكية عامة على جميع أفراد الشعب وبيد الدولة .

ـ **وأما صراع الطبقات :** فالمقصود به التحريش بين الأغنياء والفقراء والاستئثار بالمال لوصول طبقة البروليتاريا إلى الحكم والسلطة .

ـ **وأما الإقطاع :** فهو النظام الذي كان معترفاً به أيام تسلط الأباطرة

ورجال الدين النصراني على الفقراء واقتطاعهم الأراضي الواسعة وحرمان الفقراء منها ، بل جعلهم عبيداً لأصحاب الإقطاعيات يُباعون مع بقية كائنات الإقطاعية .

ومما يذكره الباحثون عن ماركس أنه كان حادَّ الطباع قلقاً ثائر النفس ضعيف البنية مُتعصِّب لشخصيته لا يسمح لأحد بانتقاده ولا قيمة لأي صديق إذا لم يوافقه في كل شيء يعتقده يستعذب الهجوم على كل مخالفيه ويَسبُّهم بأقبح السباب في حقد يهودي شديد يملأ نفسه وحينما حمل على جميع الأديان لإبطالها فإنما كان يريد كل الأديان ما عدا اليهودية التي يحترمها في قرارة نفسه . ولعل بغضه لجميع الأديان إنما كان بسبب العداء الشديد في زمنه لليهود من جميع الديانات واحتقار الناس لليهود بسبب سلوكهم البغيض تجاه بقية الناس ، ومما لازلت أذكره أنه في إبان قوة المد الشيوعي وظهور الأحزاب الشيوعية في مختلف البلدان كانت بعض الإذاعات العربية تكيل المديح لـ «كارل ماركس» وتصفه للسامعين بأنه كان بَرّاً رَحيماً مُحباً للفُقراء يَعيشُ معهم ويحنو على أوضاعهم كالأب الرحيم بأبنائه . وكانوا يحثون السامعين على شراء كتبه ودراستها وأوصاف أخرى كثيرة ربما كان أكثرها من خيالات أولئك الحُثالات الذين كانوا يظنون أنهم بلغوا القمة في الرقي والتقدمية حينما اعتنقوا مبادئ «ماركس» اليهودي قبحه اللّٰه وقبحهم حينما كانوا يتطاولون على الإسلام ونبي الإسلام بالازدراء والاستهزاء والمقارنات الكاذبة بين حال النظام الإسلامي المتخلف - بزعمهم - وبين حال النظام الماركسي التقدمي العادل ؟!

ولئن كان ماركس قد تظاهر بأنه يدعو لخلاص الفقراء ورفع الظلم عنهم ومساواتهم بالأغنياء ومحاربة الرأسمالية الجشعة فإنه كان للفقراء كالمستجير من الرمضاء بالنار .

فلقد كان مَذهبه المشؤوم نكبة على الفقراء والأغنياء والعمال وكل الطبقات لقد جاء بظلم جديد بدلاً عن الظلم القديم وبطالة جديدة بدلاً عن البطالة القديمة وإذا كان هو نفسه كما يذكر من سيرته كان تعيساً طُفيلياً كما سَمَّته أمُّه يعيش على مال غيره فكيف يمكن أن يسعد الآخرين فإن فاقد الشيء لا يعطيه وسيتبين للقارئ مدى فَداحة الظلم الذي وقع على البلدان التي ابتليت بالشيوعية من خلال هذه الدراسة إن شاء اللّه .

وبعد هلاك «كارل ماركس» تتابع على القيام بأمر الشيوعية جمعيات وأفراد ورؤساء يغذيهم الحقد اليهودي في مؤامرات وثورات وفتن يتلوا بعضها بعضاً على أيدي أشرار خلق اللّه من الثوريين الشيوعيين «كارل ماركس» ، و «فردوخ إنجلز» وغيرهما ممن جاء بعدهما «ستالين» ، و «لينين» إلى «بريجنيف» وقد برز منهم «لينين» ، و «ستالين» ، و «ترتسكي» وقد تزعم «لينين» سنة ١٩٠٣م الثورة الشيوعية العارمة على النظام الرأسمالي إلى أن مات سنة ١٩٢٤م ، ثم نشب صراع بين «ستالين» و «تروتسكي» واستطاع «ستالين» ذلك الجبار العنيد أن يخرج منتصراً بمؤامرة تمت باغتيال «تروتسكي» سنة ١٩٤٠م ، وتم الأمر لـ «ستالين» الذي أقام الشيوعية قوية عنيفة في روسيا والبلدان التي دارت في فلكها وتعززت كذلك بانضمام

الصين إلى الشيوعية الماركسية سنة ١٩٥٠م وقامت الأحزاب وتعددت إلا أن أهم الأحزاب القائمة كانت في البداية تتمثل في حزبين هما حزب البلاشفة ، وحزب المنشفيك .

والبلشفية ، والمنشفية : تعني الأكثرية والأقلية وهما الحزبان الأساسيان في تكوين الإشتراكية الشيوعية في روسيا لقلب نظام الحكم واستلام السلطة وكان حزب البلاشفة بزعامة لينين هم الأكثرية ولهذا قيل لهم بلاشفة أي الأعضاء الغالبية بينما حزب المنشفيك أي الأعضاء الأقلية كانوا أقل من حزب البلاشفة وقد تزعمهم «بليخانوف» وكانوا كلهم على مبادئ «ماركس» ولكنهم كانوا يختلفون في الطريقة التي سيتم بها تغيير روسيا إلى إظهار الشيوعية وتطاحنوا فيما بينهم على الفريسة وقد تم أخيرا على يد «لينين» الاستحواذ على السلطة وانفصلوا عن المنشفيك نهائياً وكونوا الحزب الشيوعي الروسي الذي قضى على عناصر المنشفيك فيما بعد .

وكان الانفصال بين الحزبين قد ظهر في الحرب العالمية الأولى حيث كان البلاشفة ينادون بإحلال السلام وخالفهم المنشفيك وعارضوا التعاون مع الأحزاب البرجوازية وتوالت الأحداث إلى أن جاء «لينين» فأصبح البلاشفة هم الأغلبية التي قضت بعد ذلك على المنشفيك في صراع مرير ومؤامرات ومكائد حاقدة كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .

المبحث الخامس

الأسس التي قامت عليها النظرية الشيوعية

قامت الشيوعية الماركسية من أول أمرها لمناهضة الأديان والأخلاق والثقافات والمعاملات وسائر ما يتصل بالجوييم وإقامة دولة شيوعية عالمية تحت زعامة أقطاب الشيوعية ومن ورائهم الأطماع اليهودية في إقامة الدولة اليهودية الكبرى التي يرتقبها اليهود بفارغ الصبر ممثلة في إعادة بناء هيكل سليمان وتتويج ملكهم الذي يحلمون بأنه سيحكم جميع البشر من اليهود ومن سائر الجوييم .

وما الشيوعية إلا حلقة من جملة الحلقات التي يحيكها اليهود للوصول إلى ما خططه حكماؤهم من تدمير العالم دينياً وثقافياً واقتصادياً .. إلخ ، ولقد أسهمت الشيوعية في كل تلك المؤامرات وكان لها حظ الأسد في تحطيم الجوييم في تصفيات جسدية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً وفي إشاعة الفواحش وسائر المفاسد والشرور حيث فاقوا فيها الشيطان وأراحوه مهمة تحقيق كل تلك الرزايا التي حلت بسائر الأمم في دينهم وفي دنياهم على أيدي الملاحدة ومظاهر الشيوعية الماركسية كثيرة من أبرزها :

١ ـ المادية :

المادية نسبة إلى المادة ، قيل في تعريفها أنها هي الموجود الذي يُدرك بإحدى الحواس مما يخضع لتجربة الإنسان وملاحظاته ، وقد ادعت المادية أنها صنو الواقعية نسبة الى الواقع الذي لا يُنكَر ولا يُكذَّب .[١]

(١) التطور والدين ، ص ٢٣

لقد أصبحت عبادة المادة هي الأساس المشترك لجميع الملاحدة على اختلاف مذاهبهم ابتداء من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين إبان قيام التيارات الفكرية الجامحة في أوربا ضد الكنيسة وضد القائمين عليها واستبدالها بالمادة المهيمنة على كل شيء إذ يزعمون أن الكون وما فيه إنما وُجد من أصل المادة وبنوا عليها إلحادَهم في إنكار وجود اللّٰه تعالى فخرجوا بذلك عن مفهوم هذا التعريف للمادة وتجاوزوه فإن الأمور الغيبية وأمور الدين لا تخضع لتجربة الإنسان ولا تدركها حواسه كما بنوا عليها تفسيرهم التاريخي لحياة الإنسان وتطوراته .

وكان الماديون الشيوعيون قد أقاموا هذه الفكرة في مضادة أي شيء يتعلق بعالم الروح والغيب حيث لا يؤمنون بوجود الروح لأنها تباين المادة التي إذا وجدت في شيء أعطته الحياة ضرورة فالمادة هي كل شيء وجعلوها البديل عن اللّٰه عز وجل بزعم أن مَعاملهم أعطتهم الدليل المادي علي ذلك ولقد كذبوا وتناقضوا وظهر جهلهم وتخبطهم في نظرياتهم المتضاربة المتناقضة ، فالطبيعة عندهم هي قبل كل شيء ولا نهاية لها ومنها انبثق كل مخلوق على وجه الأرض وأنها موجودة بذاتها قبل كل ذات وهي الخالق لكل شيء بقوانينها «وأن العالم في حركة تغيرمستمر ، وأن هذا التغير يأتي عن طريق تناقض الأضداد وكل فكرة تؤدي إلى نقيضها والفكرة ونقيضها تؤديان إلى نتيجة جديدة»[1] كلها ناتجة عن ترابط الأشياء بعضها ببعض ولا يمكن أن يكون أي حادث منفصلاً بنفسه عن الحوادث الأخرى المحيطة

(١) مقدمة في الفكر السياسي ص ١٨٤

به في حركة دائبة يسمونها «الحركة في الطبيعة» أي أن كل موجود إنما هو نتيجة لحركة المادة وتطورها بدءاً وانتهاءاً تنشأ ثم تضمحل أبد الدهر في تطوير يسمونه أيضاً «التطور في الطبيعة» ويتم هذا في حركات سريعة ضرورية وأحياناً تحصل فجأة تنتقل معها الأشياء من البسيط إلى المركب ومن الأدنى إلى الأعلى في تطور متلاحق طول الوقت مما ينتج عنه ما يسمونه «التناقض في الطبيعة» وهذا التناقض هو الذي ينتج عن تطور الحوادث وتفاعلها فيما بينها لينتج من التاقض بين القديم والجديد وبين ما يموت وما يولد وبين ما يفنى وما يتطور مصادر تطورية جديدة مختلفة بمعنى أنه يحدث الشيء حتما ثم يحدث ما يضاده لتأتي النتيجة الحتمية الصحيحة ومن هنا تؤيد الشيوعية التصادم والتضاد بين الأمور لتصل إلى النتيجة من وراء كل تضارب وتصادم [(١)]

وكل ذلك إنما هو هوس فكري وتخبط مقيت ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)** ﴾ [(٢)] ، وكلها افتراضات يريدون من وراءها أن تحل المادة محل الإله سبحانه وتصريفه الأمور حسب مشيئته وقدرته وتلك التعليلات العقيمة لوجود الأمور بعد أن لم تكن إنما هو لصرف الذهن عن قدرة الخالق على الإنشاء والإيجاد وإلاَّ فأيٌّ منطق يقتنع بأن الأمور تتطور لمصلحة الإنسان أو لمضرته من تلقاء نفسها لتنتج أموراً لابد منها بزعمهم لتستقيم الحياة ويبقى الكون .

---

(١) بتصرف عن مذاهب فكرية ص ١٧٥

(٢) سورة النور ، الآية : ٣٩

لقد حاول الماديون وهم ينكرون موجد هذا الكون أن يلفقوا شبهات كثيرة ليدللوا بها على إلحادهم ولكن ما من شبهة من شبههم إلاَّ وهي تصفع وجوههم وتكسر قلوبهم وتقول لهم معاذ اللّه أن أكون دليلاً على عدم وجود الذي أوجدني فما إن يجدوا أدنى شبهة يكتشفونها إلاَّ وطاروا فرحا وزعموا أن كل ما اكتشوفه يدل على عدم وجود موجد حقيقي غير المادة وطبيعة المادة الحتمية بزعمهم .

وكم حمَّلوا هذه المادة التي تعادل في تصرفاتها عند الملاحدة تصرفات خالق الكون عند المؤمنين وكم ظهرت لهم من حقائق حيرتهم في دقة موجدها ولكن قلوبهم التي اشربت حب الكفر والتمرد على طريقة أستاذهم إبليس أبت أن ترجع إلى الحق فمثلاً قانون الجاذبية الذي أوجده اللّه وثبَّت به هذا الكون العلوي والسفلي هوه أكبر من السماء وما فيها من مختلف الأجرام وهو أكبر من الأرض وماعليها حين اكتشفوه قالوا عرفنا الآن أنه لا خالق ولا ممسك لهذاالكون إلاَّ الجاذبية وحين فاجئهم المؤمنون باللّه بهذا السؤال ومن خلق هذه الجاذبية ؟ هل خلقتها السماء لحاجتها إليها لتمسك بأجرامها أن تقع على الأرض ؟ أم أن الأرض خلقتها لحاجتها إليها ليستقر عليها مَنْ فوقها ؟ أم أنها هي بنفسها أدركت حاجة السماء والأرض اليها فأوجدت نفسها ؟ سبحانه اللّه عما يفترون .

وحينما أنكروا وجود اللّه تعالى قيل لهم هذا الكون العجيب المتناسق المحكم الذي لا يطغى بعضه على بعض ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ**

الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [١] من هو هذا القوي القهار الذي جعله بهذه الصفة قالوا المادة وكأنهم هربوا من ذكر اسم اللّه تعالى إلى إسم يوافق هواهم فإذا كانت هذه المادة هي التي أحكمت هذاالكون فهي الإله الحق فلا يبقى أمامهم إلى النطق باسم اللّه الكريم ويتركوا روغان الثعالب والتكلفات الباهتة .

فكل ما قالوه من شبهات تافهة مهما اختلفت أسماؤها فإنما تدل على انقطاعهم وأنهم مثل الغريق الذي يمسك بكل شيء يقع في يده لينجو من الغرق .

وكم خسارة الملاحدة الشيوعيون حينما أنكروا خالق هذا الكون في مقابل التعصب لآراء ذلك اليهودي «ماركس» الثائر النفس الحادّ المزاج المتعصب لقومه اليهود والذي سعى إلى الانتقام من العالم كله بسبب مواقفهم من اليهود الحاقدين على اللّه تعالى وعلى كل البشر لأنهم لم يجعلوهم سادة العالم وحكامه كما وعدهم اللّه بذلك حسب افتراءات واضعي التوراة فآلوا على أنفسهم أن يقفوا جنباً إلى جنب مع الشيطان لاغواء البشر وتحطيم دياناتهم وإفساد أخلاقهم ليتمكنوا من استحمارهم جميعاً في النهاية ولن يتم اللّه بحوله وقوته لهم ذلك واللّه تعالى غيور على دينه فليموتوا بغيظهم وحقدهم وسيزيلهم اللّه هم والمادة التي عبدوها من دونه عزَّ وجلَّ .

---

(١) سورة يس ، الآية : ٤٠

٢ ـ الجدلية «الديالكيتك» :

لقد أصبحت المادة عند الشيوعيين هي كل شيء وليس وراءها شيء وأنها تتطور صعوداً وفق قانون «الجدلية» الديالكيتك» والتاريخ نفسه يسير حسب هذا القانون حتماً بزعمهم .

وتكون هذه المادة وفق ما تقترن به فتسمى المادية الجدلية في الكون إذا كانت تتعلق بتغيرات الكون وأحداثه وإذا كانت تتعلق بسلوك الناس سموها المادية الجدلية في التاريخ .

فالجدلية : في المذهب الماركسي تعتبر بمثابة ركن من أركانه وأنها هي قانون حركة الوجود كله ، ويعود أساس فكرة الجدلية عند «ماركس» إلى تأثره بالفيلسوف «هيجل» ، واسمه «جورج ولهلم فريدريك هيجل» ، وهو ألماني كان يؤمن بوجود إله يصفه بأنه غير متناه أو هو الوجود المطلق أو العقل المطلق ومنه ظهرت الطبيعة، وقد خالفه «ماركس» في مفهوم هذه الجدلية فعكس الأمر تماماً حتى تبجح «ماركس» بأنه قد أوقف آراء «هيجل» على قدميها بعد أن كانت واقفة على رأسها بزعمه بسبب أن «هيجل» كان يرى في جدليته أنها منطلقة من اللّٰه إلى كل الأكوان وأن الفكرة هي الأصل والمادة ناتجة عنها بخلاف جدلية «ماركس» التي تقول أن اللّٰه تعالى هو من اختراع الفكر الإنساني وخيالاته وليس عن حقيقة . وأن الأساس هي المادة والفكر ناتج عنها .[١]

---

(١) سميت جدلية «هيجل» الجدلية المثالية لإيمانه بالإله . وسميت جدلية «ماركس» الجدلية المادية وكلمة «الديالكيتك كلمة يونانية أصلها «دياليغو» أو «أوديالكتيكوس» بمعنى المحاجَّة والنقاش ومجاذبة أطراف الحديث ، ويراد بها في الشيوعية ما يظهر عن تناقضات الأشياء ونتائجها .

وهذه الجدلية تلاحظ دائماً أن هذا الكون دائم التغير والتطور في فعل ورد فعل أشبه ما يكون بحركة المتجادلين وقد أرجع «ماركس» هذا التجادل إلى المادة وتأثيراتها بينما كان «هيجل» يرى أن تلك التغيرات هي للقوة الغيبية المؤثر الحقيقي فيها كما عرفت مما تقدم .

جدلية هيجل :

وقد تصور هيجل ـ حسب خياله ـ أن تلك الحركة في التغيير والتطور في الكون تسير وفق دورات لولبية صاعدة دائماً وكل دورة قسمها إلى ثلاث مراحل هي :

- **المرحلة الأولى** : سماها الطريحة أو أطروحة أو الدعوة ـ أي الأمر .
- **المرحلة الثانية** : سماها النقيضة أوالنفي أو مقابل الدعوى ـ أي ضد ذلك الأمر .
- **المرحلة الثالثة** : سماها الجميعة أو نفي النفي أو جامع الدعوى ـ أي النتيجة .

فمثلاً : البرعم يسميه الطريحة ونقيضة الزهرة ثم تأتي الجميعة التي هي الثمرة وهي أرقى من البرعم والزهرة في تطور متصاعد دائماً وبعضهم يسمي هذه المراحل «الوضع ونقيضه» ومؤتلف الوضع ونفيه وكلها افتراضات خيالية تصورها «هيجل» في تضاد دائم بين الشيء ونقيضه والنتيجة النهائية لهذا النقيض الذي يمشي صاعداً في تطور هو نهاية كل نقيضين . وغاب عنه أنه لا يمكن اجتماع النقيضين في وقت واحد وعلى شيء واحد لأنه مستحيل إلاَّ في خيال الفلاسفة الفارغين .

وما زعمه «هيجل» من أن الأشياء كلها في تطور متصاعد فكر غير صحيح في كل الأمور فإذا صح في بعض الحالات فإنه غير صحيح في كلها .

فمثلا الإنسان وهو حي يسمى حسب نظريته طريحة ثم يأتيه الموت فيسمى نقيضة ثم يتحول إلى تراب فيسمى جميعه فأين التطور التصاعدي في هذا حسب نظرية «هيجل» ؟

أو مثل الغريزة الجنسية هي الطريحة والكبت هو النقيضة والتسامي هو الجميعة أي المحصلة النهائية الحتمية الوقوع لكل من الطريحة والنقيضة ولكن لنفرض أن الأمور لم تسر إلى نهايتها وهي الجميعة بأن حصل معوق للشخص بعد ظهور النقيضة بأن مات أو جُنَّ أو حصل له أي أمر خطير وانتهى فأين التصاعد في هذا وغيره من الأمثلة التي تكذب حتمية التطور التصاعدي في كل شيء .(1)

وهذه الجدلية عند «ماركس» أول ما يظهر منها عدم إيمانه باللّه تعالى وإيمانه بدلاً عنه بالمادية الجدلية وتطورها وأنها هي التي أنشأت الدين والسياسة والقانون والأخلاق ، بل والإنسان نفسه إنما هو من نتاج تلك المادة وفكره أيضاً كذلك بل وجود اللّه تعالى إنما هو من صنع الإنسان المادي وفكره في عقيدة «ماركس» وهو بهذا قد قلب جدلية «هيجل» التي قامت على الإيمان بالغيب الإلهي إلى الإيمان بالمادة وحدها عند «ماركس» ويصح أن نقول أن «ماركس» قد قلب نظرية «هيجل» على رأسها بعد أن كانت على رجليها المعوجتين هي الأخرى .

(1) انظر : «الكيد الأحمر» ، ص ٣٥٤

فحينما تسأل ماركسياً عن سر وجود هذا الكون تجده يجيبك بجواب سخيف تافه فيقول أن الكون قد تطور بنفسه إلى أن أصبح على ما هو عليه اليوم في هذا التناسق البديع . ويجيب عن سريان الحياة في الكون بأنه بعد أن اكتمل وجود الكون تطور تلقائياً إلى أن وُجدت الحياة على ظهر الأرض ومن ضمنها حياة الإنسان الذي وُجد ضمن حركة التطور الديالكتيكي دون أن يكون لهاأي مؤثرخارج عن نطاقها غير التناقضات والتضاد الكامن في المادة ، كما أنه قد احتدم الخلاف جداً بينهم في قضية العقل والفكر والمادة أيهما السابق والمؤثر في الآخر فالمثاليين منهم - أي المؤمنون بالإله الغيبي - ومنهم «هيجل» يرون أن العقل هو الأساس والمتقدم على المادة وما ينتج عنها بينما الماديون - منكروا الخالق - «ماركس» وأتباعه يرون أن لا شيء في الإيجاد سوى المادة وهي المتقدمة والمنشئة حتى للانسان وأفكاره .

- ويتلخص الجدل الماركسي في ثلاثة قوانين :

١ - قانون التغيير من الكم إلى الكيف وهو ما يحدث بطريق المفاجأة كتحول الماء الساخن إلى بخار بزيادة النار عليه .

٢ - قانون صراع الأضداد الذي يأتي من داخل الأشياء من بذرة النقيض التي توجد في داخل كل شيء وليس من الخارج .

٣ - قانون نفي النفي أي كل مرحلة تحدث تنفي سابقتها ثم تنفيها مرحلة تالية وهكذا [١] ، وهما المراحل المشار إليها سابقاً .

(١) بتصرف عن «الفكر المادي في ميزان الإسلام» ، ص ٥٢

●● تعقــيب :

لقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، لقد انجلت الغمة عن الناس وظهر الحق لذي عينين فإذا بالماركسية في العراء في أقبح صورة وأتعس حال وإذا بأكاذيبها وخُزعبلاتها تداس بالأرجل ، لقد راهن الملاحدة أن نظريتهم الإلحادية ستعم الأرض كلها وسيصبح البشر كلهم ملاحدة كافرين بالذي خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم سواهم أشخاصاً في غاية الخصومة لربهم وقاهرهم متنكبين الحق متعالين على الناس محتقرين كل نواميس هذا الكون ومحتقرين كل الشرائع والكتب المنزلة والأنبياء الكرام في جدال بالباطل لا يملكون على كل نظرياتهم أي دليل حقيقي إلاَّ ما زخرفوه من شبهات باطلة ونظريات زائفة لا تثبت أمام الحقائق حتى وإن صوروها على أنها حقائق لا تقبل الجدال وأن كل ما عداها محل شك مستندين إلى ما تم لهم من إكتشافات تجريبية كلها تصرح بعظمة الباري جلَّ وعَلا ولكنهم قلبوا الحقائق وجعلوها أدلة على إلحادهم وكل ماهو للَّه سبحانه وتعالى جعلوه للطبيعة التي عبدوها من دون اللَّه وزعموا أنها تسير الكون في تناسق عجيب محكم وترابط متشابك وكان هذا يكفي دليلا على وجوب الإيمان بوجود خالق مهيمن على كل ذرة في هذا الكون يسيّره على نسق واحد دون اختلاف حسب سننه في الكون ولكن الشيطان حال بينهم وبين التفكير الصحيح فقبلوا هذه الحقيقة وزعموا أن هذا التناسق إنما هو من شأن الطبيعة والمادة التي وصفوها بأنها لا بداية لها ولا نهاية لها حتى لكأن الخلاف بينهم وبين المؤمنين باللَّه تعالى خلافاً لفظياً المؤمنون يسمون هذه الطبيعة إلهاً وهم يسمونها مادية .

قال تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ (١)
وكان يجب أن يسميهم الناس مجانين حينما زعموا أن الكون وُجد بدون موجد وحدث بعد أن لم يكن حادثاً دون مُحدِث له غير ما توهموه من تجمع ذرات هذا الكون وتطورها إلى أن أحدثت هذا العالم والكون وما فيه من أجرام علوية وسفلية وكلها عن طريق الصدفة والارتقاء ولو قلت لأحدهم : إن عموداً كهربائياً وجد بذاته وأصبح يُنير للناس الطريق لضحكوا من قائله ونسبوه إلى الجنون بينما هذه الشمس وهذا القمر وهذه الكواكب وهذه الثمار في الأرض والأنهار والجبال كلها وجدت بدون خالق ؟!

إن الملاحدة يعترفون بعَجزهم التام عن معرفة سر وجود الحياة لأي كائن مهما كان صغر حجمه أو كبر وأنهم لا يستطيعون إرجاع الروح لصاحبها إذا بلغت الحلقوم فأين المادة التي يتشدقون بأنها هي الموجدة لهذا الكون ولماذا لا يتوسلون إليها لإرجاع الروح بعد أن يصبح الجسد مادة هامدة ؟

أما ما يردِّدونه من أن كل الأشياء تحوي تناقضات داخلية مجتمعة في وحدة يسمونها وحدة الأضداد أو وحدة المتناقضات تتصارع فيما بينها ثم ينتج عن ذلك الصراع تطور في صعود دائم لا ينتهي فهو افتراض سخيف إذ لا يوجد إلاَّ في الذهن والذهن قد يتصور أن المستحيلات ممكنة أحياناً ذلك أن اجتماع النقيضين أمر غير ممكن إلاَّ إذا صدقنا بأن الحرارة والبرودة تجتمع في النار أو الحياة والموت يجتمع في الشخص في وقت واحد وليس من هذا ارتفاع الضدين في وقت واحد فإنه ممكن كقول الناس : هذا لا هو أبيض

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

ولا هو أسود ، أي على لون غير هذين اللونين أصفر أو أحمر ، أما أن يقال هذا أبيض وأسود أو ساكن ومتحرك في وقت واحد فهو مستحيل .

لقد غلا الشيوعيون في تقديس المادة وعتوا عتواً كبيراً إلى حد أنه تنطبق عليهم المقالة المشهورة «إذا حُدِّثَ الشخصُ بما لا يُعقَل فصَدَّقَ فلا عَقلَ له» فأيُّ عقل سليم وأي فطرة سليمة تصدق أن المادة الصمَّاء هي الخالقة وهي الرازقة وهي المدبرة لجميع أمور هذا الكون علويه وسفليه ، ظاهره وخفيه مع اعترافهم هم أيضاً بأن تلك المادة لا حياة لها ولا فكر ولا تدبير في البدايات الأولى لها غير ما تخيلوه أنها بعد ذلك تطورت حتى أوصلت هذا الكون على ما هو عليه الآن ثم يقولون هي أزلية لا بداية لها ولكنهم يتوقفون حينما يُقال لهم أنها حادثة ولا يستطيعون الجواب لأنهم متناقضون وإذ أفحمهم العقلاء عن سر وجود هذا الكون قالوا بأن الكون وجد من العدم ولا يبالون بسخف واستحالة هذا القول ، والقول الآخر بأن المادة هي التي تسير العقل وتوجد الفكر لا أن العقل هوالذي يوجد المادة ويكيفها كما يريد مكابرة منهم وجهلاً شنيعاً حيث صار المصنوع صانعاً على حسب مفهومهم فالطائرة هي التي كونت فكرة الإنسان لصناعتها وما الذي يمنعهم من هذا وقد زعموا أن الحياة كلها ظهرت صدفة دون مدبر عليم نتيجة تفاعلات المادة الناتجة عن حركتها الذاتية المستمرة لا أن هناك رباً خالقاً لها وهي مكابرات لعلَّهم أول من استيقن بُطلانها لولا العناد والاستكبار وتنفيذ خطط ماكرة [1] أملتها الأحقاد اليهودية على مر السنين .

---

(١) انظر : «كواشف زيوف» ص ٥١١ ـ ٥١٥

٣ ـ التطور :

هذه الكلمة تتردد على ألسنة كثير من الناس بعضهم يدرك المدلول والمغزى الأساسي لها وبعضهم يعرفها بصورة مجملة ويرددها على هذا المفهوم ، وهي في ظاهرها كلمة جميلة توحي بالتجديد والنشاط والحيوية المطلوبة إلاَّ أنه ينبغي أن ندرك أن كثيراً من أصحاب الأفكار الهدامة قد استغلوها استغلالاً فاحشاً وبنوا عليها آراءهم التي يهدفون من ورائها إلى تغيير المفاهيم السليمة والمعتقدات المستقيمة والحياة الإقتصادية تغييراً جذرياً يتفق مع ما بيَّتوه لقلب الحياة الإجتماعية . وسيتضح ذلك من خلال دراستنا لهذه المادة وحسبنا هنا أن نذكر مفهوم التطور بصورة موجزة وهل التطور الذي يريده الشيوعيون هو تطور حقيقي أم خرافات وهمية تخيلوها لتأييد ما يهدفون إليه من الإلحاد ؟ والتطور بحد ذاته يراد به كما عرَّفه بعضُهم بقوله هو : «الانتقال من مرحلة إلى مرحلة والتغيير من حال إلى حال»[١]

والواقع أنه إما أن يكون التطور في خلق الإنسان وتركيبه ، وإما أن يكون في أصل نشأة الكون وما فيه .

١ ـ فأما التطور بالمفهوم الأول : فهو حق ، وهو ما جاء ذكره في كتاب اللَّه تعالى في بيانه لخلق الإنسان والمراحل التي يمر به في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾[٢] ، أي أوجدكم طوراً بعد

(١) التطور والدين ص ١٣

(٢) سورة نوح ، الآية : ١٤

طور وهو ما فسره اللَّه تعالى بقوله : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)** ﴾[(١)]

هذه هي أهم الأطوار التي يمر بها الإنسان في حياته الجسمية وهي خاصة ببني آدم ، أما آدم فإن هذه التطورات لا تشمله ، فقد خلقه اللَّه بيده من تراب الأرض ثم نفخ فيه الروح فكان بشراً سوياً .

٢ ـ أما التطور بالمفهوم الثاني : (وسيكون موضوع دراستنا) فإنه ينقسم إلى قسمين :

ـ قسم يتعلق بأصل نشأة هذا الكون والمراحل التي مر بها في تطوره إلى أن وصل إلى ما هو عليه .

ـ والقسم الثاني يتعلق بمعرفة أصل نشأة الكائنات الحيَّة والمراحل التي مرت بها في تطورها ، وفي أولها الإنسان وكيف نشأ وكيف تطور في وجوده وفي تفكيره وفي معيشته وفي عبادته حسب تفكير **أصحاب نظرية التطور وفي أولهم «أراسموس دارون» ، وحفيده «جارلس روبرت دارون» ، ومَن جاء بعدهما على هذه الفكرة الباطلة** الخرافية التي أصبح دعوى التطور فيها من أهم خصائص المذهب

(١) سورة المؤمنون ، الآيات : ١٢ ـ ١٦

الشيوعي حيث يقصدون بالتطور أن كل أمر في هذا الوجود يتطور ويتقدم إلى الأمام في خطوات متتابعة إلى ما لا نهاية بزعمهم ويستدلون علي ذلك بما قرروه من أن الإنسان كان مائياً ثم برمائياً ثم برياً ثم عرف الرق ثم الاقطاع ثم الرأسمالية إلى أن عرف الشيوعية الماركسية وسيتطور فيما بعد ـ ولا يغيب عن القارئ ـ وضع الشيوعية اليوم حيث أقر اللَّه عيون أهل الايمان بموتها في عقر دارها وهذا من الأدلة الدالة على كذب أحلام الملاحدة فيما تصوروه عن التطور المزعوم وأبديته وانتشار المذهب الشيوعي تلقائياً ، كما أن هذاالمفهوم الذي قرَّره الملاحدة لتطور الأشياء لم يكن صحيحاً فإنَّ تطور الإنسان لم يقم على المادة ـ كما يريده الملاحدة ـ بل قام الإنسان نفسه وعلى حسب ما تمليه عليه حاجته إلى الأمور أما المادة الصماء فإنها عاجزة عن تطوير نفسها فكيف تعمل لتطوير غيرها .

فوجود المادة لا يُطوِّر أحداً وليس وجودها كافياً لتطور الإنسان ومعلوم أن الماديين ـ وهم جاهدون وجادُّون ـ في محو كل القيم الإنسانية أو أي شيء يؤدي إلى احترام إنسانية الإنسان ، معلوم أنهم يعرفون تلك الحقيقة ولكنهم يتحاشون البوح بها لئلا يؤدي ذلك إلى احترام القيم والمثل والتهذيب **الديني للإنسان بجعل كل الفضائل للمادة خير من جعلها للانسان في ميزان** الملاحدة إذ المادة لا خطر من ورائها ولا يؤدي احترامها إلى فرض القيم الدينية التي يخافونها والتي تذكرهم استبداد الدين النصراني المحرَّف .

إن تطور الإنسان في حياته المادية في معيشته وفي طريقة سكنه وملبسه ومركبه أمر واقع فقد كان الناس يركبون الحمير والجمال والبغال والخيل واليوم أصبحوا يركبون السيارات والطائرات والسفن وغير ذلك من الوسائل التي تطور فيها الناس وهذا التطور بهذا المفهوم أمر حقيقي لا يجهله أحد إلاَّ أنه لم يكن نتيجة لتصادم الحاجات كما أن وجود القيم الإنسانية والأخلاق والدين وسائر الفضائل التي امتاز بها الإنسان عن الحيوانات البهيمية لم تنشأ عن صراع وتناقض ولم يكن فيها الإنسان كالحيوان في المعايير والقيم والسلوك كما قرره الملاحدة حسب ما استخلصوه من نظرية «دارون» ، و «فرويد» .

المبحث السادس

التفسير المادي للتاريخ والأطوار المزعومة له والرد عليها

ومثل وجود هذا الكون وما فيه عن طريق تطور المادة في مفاهيم الملاحدة كذلك أوجدت هذه المادة تاريخ الإنسان على طريقة الجدل المادي الديالكتيكي في تاريخ الإنسان على أساس أن قانون المادية الجدلية هي التي تصنع تاريخ الإنسان دون أي تدخل من الإنسان ، بل إن حياة أي مجتمع هو ثمرة واقعهم المادي وحياتهم العقلية هي إنعكاس هذاالواقع وليست الحياة الإجتماعية ثمرة أفكار سابقة ، بل الحياة الإجتماعية للناس هي التي تحدد إدراكهم فالمادة سابقة للفكر ومُسيِّرة له بزعم الملاحدة وتاريخ الناس كذلك تصنعه المادة المتطورة بغير إرادة جماعية منهم لأن طلب كل فرد تحقيق غايته وما ينشأ أثر ذلك من تباين الإرادات وتأثير تلك الإرادات على العالم الخارجي هو بالضبط ما يشكل التاريخ لكل المجتمعات التي تنشأ وفق أحوالهم المادية والتاريخ ذاته يمر بمراحل هي في مذهب الملاحدة الماركسيين تتمثل فيما يلي :

- المشاعية البدائية .
- الرق .
- الإقطاع .
- الرأسمالية .
- الإشتراكية الممهِّدَة للشيوعية .
- الشيوعية الأخيرة .[١]

(١) انظر كواشف زيوف ص ٥٦٩ ـ ٥٧٨

وهي التي تُلغَى فيها الطبقات كلها كما يدعون وقد ذكر الباحثون أنه من الصعوبة تصور الفضل المادية الجدلية عن المادية التارخية ذلك لأنهم أقاموا دراسة تاريخ البشرية على الأسس المادية وقد استقر في مفاهيم الملاحدة كما عرفت أن المادة هي أساس كل المخلوقات والتي منها الإنسان والفكر وأنها هي التي تحكم أيضاً حياة البشر الإجتماعية وتكيف حياتهم وسلوكهم وجميع معاملاتهم ومشاعرهم . وهي في تطور دائم وما ينتج عنها من سلوك البشر هو أيضاً في تطور دائم تبعاً للأصل وهو الوضع الإقتصادي في تطور دون أن يكون للإنسان فيه أي قدرة .

وحينما ظهر «دارون» بنظريته حول تاريخ الإنسان وأصل نشأته قرر أن تاريخ الإنسان إنما هو إمتداد للكائنات الحية السابقة لوجوده وأنه نتيجة عمل الطبيعة الهوجاء التي تعمل ما تعمل عن خبط عشواء لا عن تخطيط ودقة لتلقي بالإنسان بعد ذلك إلى مصيره عن طريق المادة التي تكيف الإنسان وحياته وتطوره وكل ما يتصل بسلوكه وتاريخه فيها .

والملاحظ أن التفسير المادي للتاريخ لا ينفي القيم والأخلاق التي تصدر عن البشر إلاَّ انه ينفي أن تكون لتلك القيم أو الأخلاق أو سائر السلوك وجود قبل وجود المادة والأوضاع الإقتصادية أو أن تكون تلك القيم والأخلاق لها ثبات دائم أو أنها من اللَّه تعالى بل إن تطور تاريخ المجتمعات البشرية هو قبل كل شيء مرهون بتطور الإنتاج البشري المادي وتاريخ البشر يرتكز أساساً على المصالح المادية التي تربط الناس بعضهم ببعض لا على أساس ديني أو سياسي أو أخلاقي ثابت إذ القيم كلها في مفهومهم سراب لا قيمة لها والغايات تبرر الوسائل على امتداد تاريخ البشر حسب تفسيرهم .

•• مدى صحة الأطوار التي تزعمها الشيوعية :

ما زعمه ماركس من أن تاريخ البشر وما يمرون به في حياتهم من أمور مختلفة إنما هو نتيجة لطريقتهم في الإنتاج إن هو إلاَّ كذب محض فإنَّ حياة الناس ومعايشهم والتغييرات التي يمرون بها لا تتوقف فقط على الإنتاج والواقع خير شاهد على أن الذي يغير المجتمعات قد يكون أشياء كثيرة غير وفرة الإنتاج أو قلته ، فالفِرَق المختلفة وأصحاب المذاهب الوضعية واستعمار الناس بعضهم بعضاً والحروب التي تشتعل بينهم والغِنَى والفقر الذي يمرون به وغير ذلك كلها من العوامل التي تحدث التغيير في المجتمعات ولا سبيل إلى إنكار هذا مما يدل على أن قضية الإنتاج إنما هي جزء من الأجزاء الكثيرة التي تحدث التغيير في المجتمعات وليس المال فقط كما قرره الملاحدة وكذلك ما زعمه الماركسيون من أن تاريخ البشر مر بالمراحل السابقة إلى أن وصل إلى الشيوعية هي في الحقيقة كلها مزاعم فارغة كاذبة وقد ظهر كذبها فإن «ماركس» زعم أن العالم الغربي المتطور سيترك الرأسمالية ويتحول حتماً إلى الاشتراكية الشيوعية فكان العكس هو الصحيح إذ رفض العالم المتطور فكرة الشيوعية وتقبلتها الدول المتخلفة نسبياً كروسياً والصين وقد بدأت تظهر في تلك البلدان العودة إلى الرأسمالية رويداً رويداً خصوصاً بعد أن بدأت الشيوعية تحتضر كما أن ما يتنبؤون به من أحداث ستحصل في المستقبل يدل على تناقضهم لأنهم لا يؤمنون بأي شيء في المستقبل يدل عليه العقل بل يؤمنون بما يدل عليه الواقع المشاهد الذي تفرزه الطبيعة فقط إلى أن ماتت الشيوعية دون أن ينتقل الناس إلى الشيوعية الأخيرة التي زعموا أنها ستقضي على جميع الطبقات فتبين كذب الشيوعية جملة وتفصيلاً .

١ ـ المشاعية البدائية :

أما بالنسبة للمشاعية البدائية التي زعم الملاحدة أن الإنسان نشأ بدائياً كقطيع من الحيوانات ثم أخذ يتطور إلى أن استطاع إنتاج أدوات العمل في تطوره التدريجي البطيء وأنه اكتمل بفضل التعاون الذي قام بين أفراد البشر وأنهم استطاعوا إنتزاع حياتهم من الطبيعة التي كانت تغالبهم ويغالبونها ثم أضافوا إلى هذا الإفتراء افتراءاً آخر وهو أن ذلك التطور قد اكتمل في الناس من غير إرادتهم ووعيهم وأنهم انتصروا على الطبيعة بفضل تعاونهم المشاعي في الزراعة والصناعة وغيرهما إلاَّ أنه حينما انصرف بعض أفراد البشر إلى الإنتاج الفردي لا المشاعي ظهر التناقض بين الملكية الإجتماعية والطابع الفردي لعملية الانتاج فاصطدم هذا الوضع وتناقض مع الرغبة في الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ونتج عن ذلك القضاء على النظام البدائي المشاعي كحتمية طبيعية للتطور المستمر في الحياة قاطعة بذلك خطر سيره ، ثم نشأ بعد ذلك الصراع الطبقي على المصالح المادية فبدأ من هنا تاريخ الصراع الطبقي في المجتمعات نتيجة للتطورات المتلاحقة وحياة الإنسان فاصطدمت بالنظام الرأسمالي الذي يمثل سيادة أصحاب رؤوس الأموال على الفقراء وعلى الأفكار عموماً . ثم نتج عن ذلك أيضاً قيام قضية الرق الآتية .

٢ ـ الـرِّق :

زعم الملاحدة أن قضية الرق نشأت إثر صراع طبقي بين المنتصرين في الحرب والمهزومين من جهة ، وبين أصحاب الأموال الدائنين وبين الفقراء المدينين من جهة أخرى ولأسباب مادية أيضاً إنهار أمر الرق تدريجياً لأنه

لم يعد تجارة رابحة وأيضاً فإن أولئك المنهزمين والفقراء حينما أحسُّوا في فترة من فترات تاريخهم للرق والعبودية التي يعانونها أرادو أن يثأروا لأنفسهم كما هو الحال في بقية الحيوانات الأخرى التي شاركتهم في النشأة الأولى وحصل الصراع الطبقي العنيف بين الفقراء المعوزين والأغنياء انتصر فيها الفقراء وجعلوا الأغنياء في النهاية عبيداً ليبدأ الصراع أيضاً على أشده كأنهم قطعان الثيران المتصارعين وهنا تدخل الدين ليكون أداة روحية لاستعباد الجماهير وإقامة كل الأشكال الراهنة للوضع الإجتماعي بما يعدهم به أن صبروا على ما هم فيه من البلاء والذل ؟!

وازداد النظام الاستعبادي ضراوة وصراعاً فنشأ الإقطاع ، هكذا تعليلهم لنشأة الرق وظهور التدين ونهاية الرق وهذه كلها كما يلاحظ القارئ اللبيب إفتراضات خرقاء وليس لهم أي دليل إلاَّ آراؤهم التي تخيلوها في نشأة الرق والإقطاع وغيرها من التقسيمات التي أحدثوها بأفكارهم الإلحادية ، ولأنهم لا يعلمون أن حكمة اللَّه تعالى اقتضت أن لا يكون الأنبياء من أصحاب الثروة أو الجاه فظنوا والظن أكذب الحديث أن الأنبياء إنما أتوا بما أتوا به محافظة منهم على حفظ أموالهم وتجاراتهم وليبقى الكادحون أرقاء لهم دائماً إن هم صبروا على ما هم فيه ، وأنت تعلم أيها القارئ أن هذه الخدعة لا مكان لها إلاَّ رأس إبليس ومَن اتَّبعَه من الملاحدة أصحاب الخيالات السقيمة .

٣ ـ الإقطـــاع :

علَّل الملاحدة لظهور الإقطاع بأن العالم كانوا على طبقتين هما طبقة كبار الملاك ، وطبقة رجال الدين . وبقية الناس مُسخَّرين مُستعبَدين لهاتين

الطبقتين وحينما ظهرت أدوات الإنتاج المتطورة كالمحراث الحديدي وغيره من الأدوات الجديدة ظهر الإقطاع بشكل قوي وصار المستعبدون تحت رحمة الملاك وأصحاب الجاه يعملون لحسابهم ولا ينالون إلاَّ ما تجود به أيدي أولئك الأثرياء في الوقت الذي كان فيه الأثرياء ورجال الدين قد تمالأوا على إبقاء تلك الطبقة الفقيرة في معزل عن التفكير السليم لحالهم ولكن وبعد وقت أفاق الفلاحون ورأوا ما حلَّ بهم من الغُبن فثاروا ضد تلك الطبقات الثرية والدينية لرفع الظلم الفاحش عنهم ولكن ثورتهم كانت أضعف من إزاحة تلك الطبقات الثرية والدينية لما يأتي :

أولاً : لأنها ثورة غير منظمة .

وثانياً : لحاجة الفقراء الشديدة .

وثالثاً : للقوة المتينة التي كان يتحصَّن بها الأثرياء وأصحاب الدين .

إلاَّ أن تطور الأمور الإقتصادية أخذت تحط من كبرياء أصحاب الثروة من الإقطاعيين لتحل الرأسمالية بدل الإقطاع في حركات تطورية متلاحقة تتمشى مع خيالات واضعي الماركسية ، وبغض النظر عن صحة هذا التعليل أو عدم صحته فإن الإسلام يعتبر تلك الأوضاع كلها باطلة وجاهلية بغيضة ما أنزل اللَّه بها من سلطان ، على افتراض وجود تلك الأحوال على الصورة التي تخيلها «ماركس» وأتباعه ، فلا يجوز رد الحق بالخطأ والتخمين .

٤ ـ الرأسمالية «البرجوازية» :

لقد ظهرت الرأسمالية ـ أو البرجوازية كما يسميها الشيوعيون ـ لعدة عوامل من أهمها :

- إستحواذهم في الأساس على مصادر المال واستقراره في أيديهم .
- إختراع الآلات الحديثة التي حلت محل الأيدي العاملة من طبقات الإقطاع والرق لعدم إنتاجهم بالكثرة التي تنتجها تلك الآلات فصارت حالة الرق متناقضة مع حالة الإقطاع فألغت بدورها حالة الإقطاع التي كانت قائمة على استعباد الكادحين للعمل للإقطاعيين النبلاء وبحث الجميع عن رأس المال .
- إزدياد حجم التجارة في أوروبا بدلاً عن الزراعة .

والملاحظ أن أولئك الذين كانوا يطلبون العمل بأيديهم لم يكن دورهم كافياً لملأ ما تحتاج إليه الحركة الصناعية القوية كما هو الحال بالنسبة للآلات الحديثة ، وهذا أحدث بدوره رد فعل لدى العمال لتحطيم الإقطاع المستند إلى الآلات الحديثة بسبب التناقض مع القوى المنتجة النامية من جهة وحاجة العمال من جهة أخرى إلى العمل والكسب وهذا بدوره قد هيأ الجو لتصاعد قوة الرأسمالية التي تسعى دائماً لزيادة الإنتاج والمكاسب الوفيرة وما نشأ بين أفرادها من تعاون مثمر في شتى المجالات وقد جعلوا استغلال طبقة من الناس لطبقة أخرى هو أساس الحضارة لكي يحصل التناقض الذي يوصل طبقة إلى الاستعلاء على طبقة أخرى فما من شر لطبقة إلاَّ وهو خير لطبقة أخرى وهكذا صراع دائم من أجل البقاء ، كما أن تجمع الشعوب واتحادها إنما يعود حسب تفسيرهم إلي المصالح الإقتصادية التي قامت عليها الرأسمالية غير أن الرأسمالية أصبحت مناقضة لمصالح طبقة البروليتاريا - أي طبقة العمال - فكان لزاماً على هؤلاء العمال أن

يصارعوا طبقة الرأسمالية وأن يطيحوا بها بالطرق الثورية وأن يستبدلوها بالنظام الشيوعي الذي يستوعب تلك التناقضات ويصفيها في مجتمع ليس فيه طبقات يستغل بعضهم بعضاً ، وإنما فيه طبقة واحدة يكون الإنتاج فيها ملكاً مشتركاً بين الدولة ـ خدعة شيوعية بارعة ـ ولكن هذا الصراع لا ينقل الناس مباشرة من الرأسمالية إلى الإشتراكية بل يمر بمراحل تدريجية قبل انتقالهم من الرأسمالية إلى الإشتراكية ثم إلى الشيوعية التي تحقق لهم مبدأ «من كلٍّ حسبَ طاقته ولكُلٍّ حسبَ حاجَته» والتي تتم بجهود ضخمة من العمل المتواصل لزيادة الإنتاج لتتحقق تلك القاعدة «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته» .

وهكذا يتضح بجلاء أن التعليلات الشيوعية كلها قائمة على مجرد خيالات وتصورات ليس لها ما يسندها ، بل هي ضد العقل والمصالح كلها دينية ، ودنيوية ، وأن ما تصوروه عن بداية المجتمع المشاعي وظهور الرق والإقطاع والرأسمالية ثم الإشتراكية الممهِّدَة للشيوعية كل هذه الحلقات افتراضات وتخمينات وأول ما يدل على كذبهم فيها أنهم لا يستطيعون أن يحدِّدوا بداية كل مرحلة وظهور التي تليها تحديداً دقيقاً مع أنه حتى ولو حدَّدوها لا يُقبل منهم لعدم وجود أدلة على ذلك يقبلها العقل .

وقد سلسلوا تلك الأحداث ليصلوا إلى النتيجة التي يهدفون إليها وهي إظهار الشيوعية بمثابة الثمار الشهية اليانعة التي نضجت بعد الجد والاجتهاد وتطور الأحوال من حال إلى حال ولإظهارها كذلك بمظهر المنقذ لتعاسة الإنسانية على مدى تاريخ الحياة البشرية على وجه الأرض ، وكم علت تلك

الأصوات ، وكم أخذت في طريقها من ضحايا قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في أيام «جورباتشوف» الذي تولى رئاسة الإتحاد السوفيتي بعد «يوري أندروبوف» ، و «بريجنيف» وللباطل صَولَة ثم يضمحِلُّ وقد مزَّق اللَّه الإتحاد السوفيتي كل ممزَّق ويتلوه إن شاء اللَّه الرأسمالية الأمريكية وغيرها من مَذاهب الكفر والضلال .

فلا يوجد عند العقلاء أدنى شك في أن تفسير الملاحدة لتاريخ البشر هو ضلالة كبرى من ضلالات الشيوعية وهضم واضح لتاريخ البشرية وطمس للوجه المشرق من تاريخهم في مختلف الأزمنة حينما لا يعترف هذا التفسير بأية قيمة خُلقية ، أو دينية ، أو ثقافية ، أو إجتماعية قبل ظهور عبادة المادة الصمَّاء فهو قائم على النظرة الإقتصادية البحتة فلا قيمة لأي شيء إلاَّ من خلال هذه النظرة الضيقة الباطلة التي لا يعرفون سواها .

إن تاريخ البشر مملوء بالأحداث المختلفة على مر الليالي والأيام بعضها تكون أحداث كبيرة ، وبعضها صغيرة ، وبعضها يكون للمادة تدخل ما فيه ، وبعضها لا تمت إليه المادة بأدنى سبب . ولقد سجل التاريخ أعظم حدث في هذا الوجود في فترة زمنية قصيرة ولاتزال آثارها واضحة قوية وستبقى كذلك إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها . فما هو هذا الحدث ؟ إنه الإسلام بتعاليمه السامية ونظمه العادلة ، فكيف نشأ وما هي الأسباب التي أدت إلى تغييره للمفاهيم التي قبله رأساً على عقب وأي حالة اقتصادية اقتضت ظهوره على تلك الحال ؟

والجواب عند المؤمنين باللّه تعالى لا يحتاج إلى إعمال الفكر ولا إلى الإجتهاد فإن الجواب يأتي تلقائياً أن اللّه هو الذي أنشأه وأظهره في الوقت الذي اقتضته حكمته دون أي صراع مادي ، ولهذا فإن التفسير الإسلامي لتاريخ الإنسان ونشأته في هذا الكون من البدهي أن يختلف اختلافاً جذرياً عن التفسير المادي له عند الملاحدة ذلك أن الإسلام يقرر أن للإنسان مفهومه الخاص به وأنه متميز عن بقية المخلوقات التي تساكنه في هذه الدنيا فهو مفكر وله عقل وتمييز يدبر الأمور ويصرفها وفق مصالحه وإرادته وهو الذي يسير المادة وليس المادة هي التي تسيره وتتصرف فيه ـ كما في المفهوم الشيوعي ـ ففي الإسلام ينبع تاريخ الإنسان من حياته وتفكيره وعمله وتوجهاته وما يتلقاه من التعاليم الإلهية على أيدي رسل اللّه عليهم الصلاة والسلام وليس من المادة .

يبدأ تاريخ الإنسان في الإسلام من خلق اللّه له من طين الأرض ، ثم نفخ الروح فيه ، ثم إهباطه إلى الأرض واستخلافه فيها وقيامه أو عدم قيامه بأوامر اللّه ونواهيه وسلوكه الخيِّر والشرِّير ، وما يسطره الإنسان في صفحات كتابه الذي سيقرؤه يوم القيامة ، وما يتبع ذلك من الحساب والثواب والعقاب . ولاشك أن هذه المفاهيم بعيدة كل البعد عن تاريخه المادي في مفهوم الشيوعية التي تهبط بالإنسان إلى الحضيض ولا تعترف له بتلك المنزلة العالية التي يشابه فيها الملائكة في علو روحه إن أطاع اللّه تعالى واتقاه ، هذا الجانب أغفلته الشيوعية ولم تنظر إليه إلاَّ على أنه حيوان بهيمي لا هَمَّ له إلاَّ بطنه وفرجه ، ولا ذِكرَ لروحه ومزاياه العديدة ، وليس فيها أن اللّه كوَّن الإنسان من جسد وروح وأن كلاً منهما يطالب بحقه

وغذائه المادي والروحي مُطالبة حثيثة ، وليس فيها أنه لا يجوز أن يُغلِّبَ جانب منهما على آخر إلى حد الإهمال كما قرَّرته الشيوعية فهذا التوازن لا يوجد إلاَّ في الإسلام لكي يتم التوازن الحقيقي بينهما ، فإن الإسلام لا يقدِّسُ الجسد وشَهواته الحسِّية فقط ولا يقدِّسُ الروح إلى حد الغُلو فيها وإنما الإسلام يوازن بينهما ويجعلهما شريكين متماسكين لا متصارعين كما هو حال الأنظمة الجاهلية المادية .

ويمكننا القول بأنه إذا كان ظهور الشيوعية كنتيجة مادية قامت بالعُنف والجَبروت فقد رأينا نهايتها المخزية ، بينما الإسلام وقد قام على العقيدة الصحيحة والعدل التام انتصر وتأثر به الناس وأحبُّوه وأحدث في أنفسهم قوة جبارة كانت كامنة ففجَّرها الإسلام وأنار الأرض كلها ولم يقم على العنف ولا الصراع المادي والطبقي لاستناده إلى عناية اللّه تعالى به لأنه حَقٌّ والحَقُّ دائماً هو الباقي وأما الزبد فيذهب جفاءً ، فلو أن الإسلام كان ظهوره بسبب عوامل مادية لانتهى بانتهاء تلك الحال أو لوجب أن تنشأ قوة مثله كلما تكرَّرت تلك الحال التي افترضها الملاحدة لظهور الأنبياء والمرسلين والشرائع التي أتوا بها وهم لا يقولون بذلك ولا يقرُّونه فظهر تناقضهم واضحاً ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)** ﴾ [(١)]

(١) سورة النور الآية : ٤٠

المبحث السابع

التفسير المادي للإنســـان

لقد أفادت النظرية الداروينية الكاذبة أن الإنسان حيوان يعود إلى نسل القردة ثم تطور بفعل المادة إلى أن أصبح إنساناً وجاء الملاحدة فأكملوا خيوط هذه المؤامرة النظرية وزخرفوا فيها القول لإثبات تشويه صورة الإنسان الذي كرمه اللّه تعالى وجعل فيه النبوة والعقل وشرفه بالتكليف فصوروه على أنه حيوان تطور عن جماعة القردة لا فرق بينه وبين بقية المخلوقات ليسهل لليهود في النهاية استحمار البشرية وسوقهم إلى حظيرة اليهود الذين يعتبرون - كل الجوييم - حيوانات خلقت على صور اليهود لتسهيل خدمة أسيادهم اليهود شعب اللّه المختار بزعمهم .

ويذكر الباحثون أن دارون وان كان قد أرجع أصل الإنسان إلى القردة لكنه لم يرجعه إلى المادة الصمَّاء كما قرَّره الملاحدة من بعده فإن الإنسان عند دارون أرفع رتبة منه من رتبته عند الملاحدة الماركسيين وقد جعل مجال الحديث عن الإنسان وسائر الكائنات الحية هو علم الحياة الذي يختلف اختلافاً بيناً عن علم المادة .

ومع هذا الهبوط بالإنسان في نظرية دارون إلاَّ أن الملاحدة لم يكتفوا بذلك بل أضافوا له دفعات إلى الأسفل في الهبوط فاعتبروا فكر الإنسان الذي يميزه عن سائر الحيوانات جعلوه ناتجاً عن المادة المحضة لا قيمه له

عن الجسم المادي نعم إن اللَّه أوجد الإنسان من مادة هذا الكون ولكن حصل له تشريف عظيم أخرجه تماماً عن صفته المادية وهذا التشريف هو نفخ اللَّه فيه الروح فصار عظيماً مشرفاً بهذا ولم يبقى على مادته الترابية هنا يظهر تناقض الملاحدة إذ يزعمون أن الإنسان أفضل المخلوقات بينما يثبتون أنه من المادة فكيف ساغ لهم أن يفاضلوا بين مادة ومادة دون مبرر ؟ وكيف ساغ لهم أن يقولوا إن الإنسان سيد هذا الكون ما دام الإنسان مخلوقاً منه بفعل المادة لقد تضاربت أفكار الملاحدة دون أي اكتراث منهم بذلك .

ويظهر أن القصد الأخير لهم هو الدفع بالجوييم إلى القناعة بحقارة أصلهم وبالتالي فلا يحق لأحد منهم أن يفخر بأنه إنسان مكرَّم بينما اليهود لا يدخلون في تسمية «إنسان» لأن عنصرهم من عنصر اللَّه وأنهم شعبه المختار إلخ أوصاف التلمود لهم ولقد أراد الملاحدة طمس إنسانية الإنسان وإلحاقه بالجمادات أو الحيوانات الدنيا إلاَّ أنهم واجهتهم حقائق تكذبهم علناً وتعلن بوضوح أن الإنسان كائن أسمى مما تصوروه لا فرق بين إنسان وإنسان في المزايا الآتية :

١ ـ الإنسان مفكر بينما لا توجد هذه الصفة في أي مخلوق آخر من الحيوانات .

٢ ـ الإنسان يتكلم ويفصح عما في ضميره بكل فصاحة وهذه الصفة لا توجد إلاَّ في الإنسان .

٣ ـ الإنسان له تقاليد وعادات لا توجد إلاَّ فيه وحده تقاليد وعادات في العشرة وفي سائر السلوك في الكرم والشجاعة والإيثار والحزن والفرح وغير ذلك .

٤ ـ الإنسان ينتج بأفعاله مختلف الأشياء فهو يبني ويهدم ويصنع ويحرث ويتفنن في كل أموره حسب تفكيره واختياره .

٥ ـ الإنسان يتطور ويستفيد من أخطائه ومن تجاربه فيحذر الوقوع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ويقارن بين الأمور .

٦ ـ الإنسان هو سيد كل الحيوانات التي تعايشه في الأرض وقد استخدمها وانتفع بها بكل مهارة وريَّضها على فعل كل ما يريده بطريقة توحي بأن الإنسان كائن متميز عجيب فمن الظلم إلحاقه بما تصوره عنه الملاحدة من أنه من فصيلة القردة ثم تطور .

٧ ـ الإنسان له قدرة عجيبة على كبح جماح نفسه وتهذيب طباعه وكبت غرائزه بصورة لا تقبل أي شك في تميزه .

٨ ـ الإنسان له قدرة على التعلم والتعليم والقراءة والكتابة وهي صفات لا توجد في أي مخلوق في الأرض سواه اللَّهم إلاَّ أن يكون الجن .

٩ ـ الإنسان يستحسن أشياء كثيرة ويستقبح أشياء كثيرة ويسن لنفسه ولغيره قوانين وأنظمة يسير بموجبها وهي صفات خاصة به تدل على سموه وشرفه .

١٠ ـ للإنسان خيال واسع وإدراك قوي يخطط للحاضر وللمستقبل وهذا الخيال الخصب لديه ميزة خاصة به يختار أموراً ويترك أخرى وينظم مساراته للمستقبل وفق ما يريده وكأنه على معرفة مسبقة به [١].

إن كل هذه الصفات وغيرها مما تحلَّى بها الإنسان لهي صفعة في وجوه الملاحدة الذين سلبوه صفاته التي ميَّزه اللَّه بها وشرَّفه بالتكليف والعمل لدنيا ولآخرته وجعله مُستخلفاً في الأرض لإحيائها فهل يصح أن يقال بعد ذلك إن الإنسان مادة مجردة عن أي اعتبار أو أنه حيوان تطور بفعل مرور الزمن أو غير ذلك من نظرياتهم الفاسدة وأنَّى لمادة صمَّاء أن تخلق إنساناً تتوفر فيه تلك الصفات العالية والفضائل الرفيعة والتركيب العجيب ، وأنَّى لفاقد الشيء أن يعطيه فهل يفيق الملاحدة وهل يتركون استهتارهم بهذا الكائن العظيم ؟ ويحترمون روحه وفكره وأصله الذي شرَّفه اللَّه تعالى بخلقه بيده تشريفاً وتكريماً له وأسجد له ملائكته المسَبِّحة بقدسه ؟

---

(١) بتصرف عن «مذاهب فكرية معاصرة» ص ٣١٤

المبحث الثامن

التفسير المادي للقيم الإنسانية

وحينما قرر الملاحدة أن الإنسان مادة أصبح مفهوم القيم من الأمور التي لا قيمة لها إذ المادة لا تتصف بأي قيمة روحية أو نفسية أو خلقية وهذا هو الواقع الذي قرَّروه وأن القيم كلها ليس لها صفة ثابتة وإنما هي إنعكاس للأحوال الإقتصادية فلا حقيقة لها إطلاقا إلاَّ أنه لم يكن بإمكان الملاحدة أن يتجاهلوا وجود هذه القيمة التي يتمثلها الناس قديماً وحديثاً في حياتهم وفي تعاملهم في أمور ظاهرة فاخترع الملاحدة لها تفسيراً يُشوِّهها ويُهَوِّن من مكانتها المرموقة ، بل ويقضى عليها في النهاية قضاءً تاماً .

وهذا التفسير المادي للقيم يتمثل في الأمور الآتية :

١ - تضخيم العامل المادي والإقتصادي وجعله أساس كل شيء في حياة الإنسان وجعلوا الأخلاق والقيم كلها تابعة لحالة الإنسان الإقتصادية ، وتبادله المنافع مع الآخرين وأن الوضع الإقتصادي هو الذي يحدد مشاعر الناس وأفكارهم وعقائدهم وكل قيمهم .

٢ - زعموا أن كل القيم لا ثبات لها أي لم تنشأ عن دين أو توجيه إلهي وإنما هي تابعة لتطور الإنسان في المادة هبوطاً وارتفاعاً ، خيراً وشراً ، وأن كل القيم المعنوية إنما هي انعكاس للوضع الإقتصادي لكل أمة .

٣ ـ جعلوا الدين هو المصدر الفيَّاض للأخلاق والقيم جعلوه محل سخرية واستهزاء وإن كل تلك القيم إنما نشأت عن عوامل إقتصادية لا عن الدين الذي تذكره الكتب السماوية والذي يصوِّرونه كعدو لَدود للقيم الإنسانية .

٤ ـ ونشأ عن ذلك الاستهزاء بالحق والعدل الإلهي الذي أكدت عليه جميع الشرائع الإلهية فزعموا أن ذلك لا حقيقة له إلهية وإنما هو تابع للأحوال الإقتصادية التي أوجدته وهي التي تمليه على الناس في أحوالهم المختلفة من فقر وغِنَى وكثرة وقلة وحب وكراهية .

لقد أرجع الملاحدة الشيوعيون كل القيم إلى حال الناس بالنسبة للمادة فقسموا المجتمع إلى قسمين :

١ ـ المجتمع الزراعي .

٢ ـ المجتمع الصناعي .

ثم زعموا أن الأخلاق والقيم والإيمان بالقدرة الغيبية وتماسك الأسرة والحفاظ على العادات القبلية وما إلى ذلك إنما سادت في المجتمع الزراعي لما يشعرون به من حاجة إلى قوة عليا تنبت لهم البذور في الأرض أو لبعضهم بعضاً خصوصاً وهم يشاهدون الأخطار الطبيعية من حولهم كالصواعق والبراكين وهيجان البحار ونحو ذلك فاحتاجوا إلى التعلق بإله قوي يحميهم وينفعهم . بينما تلك الأمور كلها لا مكان لها في المجتمع الصناعي ، وذلك أن المجتمع الزراعي البدائي في الشيوعية الأول كان بينهم تعاون وفيهم استقرار

وهدوء وسعادة بسبب عدم وجود الملكية الفردية التي ظهرت بعد ذلك بفعل التطور الإقتصادي وزعموا أن الأولاد في هذه المرحلة كانوا يتبعون الأمهات - أي كالحيوانات تماماً - ثم تحول نظام التبعية من الأم إلى الأب باستيلاء الأب على كل السلطة بفعل ظهور الملكية وظهور التحسن في الجوانب الزراعية وتعاون الأسرة جميعاً في القيام بها تابعين لأبيهم الذي سيورث لهم كل ما يملكه بعد موته فتمت الطاعة للأب وعمل الجميع تحت أمره واعتبار تلك الأمور من باب الإحترام الواجب للأب فلم يكن لذلك سبب إلاَّ الرغبة في امتلاك ما تحت يده بعد موته والاستفادة منه في حياته - انظر إلى هذا العقوق - وتناسي العاطفة والحنان المتبادل بين الأسرة .

ثم نتج عن ذلك بفعل التطور نظام الرق الذي سببه في الدرجة الأولى التحسن في الزراعة واكتشاف نزعة الملكية الفردية فمالت الجهات القوية على الضعيفة تستعبدها وتسخرها في العمل لزيادة الإنتاج للأغنياء وسد حاجة الفقراء الضرورية فقط ثم نتج عن ذلك الوضع - حسب التطور - نظام جديد هو نظام الإقطاع ، الذي سببه اكتشاف الآلات التي تفيدهم في حراثة الأرض كالمحراث وغيره فاحتاج الأغنياء إلى الفقراء ليقوموا بحراثة الأرض وجباية محاصيلها لهم فنشأ عن ذلك خلق حب الاستعباد والقهر للغير وحب السيطرة الذي أنتج بدوره نظاماً جديداً وهو ما بدا ظاهراً في النظام الرأسمالي الجشع الذي حول الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية رأسمالية جعلت الفقراء عبيداً وذللتهم للأغنياء ونشأ عن ذلك حب الذلة والمسكنة والاستهانة بالنفس بسبب قوة المادة الإقتصادية عند

كبـار الأغنيـاء واسـتحواذهـم على مـصادر العمل والكسب وهذا لاشك أنه أمـر يغضب طبقـة الفقـراء ويوجد فـيهم حب الرغبة في الانتصـاف ورفع الظلم وثورة كامنة في نفوسهم كمون النار في عود الكبـريت . ثم نتج عن ذلك صراع مـرير فيما بعد لينبثق عنه بعد ذلك العودة إلى الشيوعـية إثر الصـراع بين العمـال وأصحاب رؤوس الأمـوال على ملكيـة الإنتـاج وانتصـار العمـال بقضائهم على طبـقة الرأسمـاليين لتعود الملكية جماعـية كما كانت في البداية هذا حسب تعليل زعماء الشيوعية وقد سبق أن أشرت إلي أن هذه الأفكار كلها خيالات كاذبة تفتقر إلى الدليل وإلى العقل الذي يصدق بها ، إنها إفتراضات تدل على مدى النفسـية الخبيثة لـ «كارل ماركس» وما كان يعـاني منه من ضيق الخُلق والأنانية الشـريرة ومحاربته لكل الفضـائل والسمـو الأخلاقي والرغبة في تدمير الأغنيـاء وليت شعري هل الأولاد لا يحبون أباهم إلاَّ ليرثوه فقط ؟ وهل المال والحصول على المادة كافية لسمو الأخلاق ؟!! أليس الإنسـان يطغى أن رآه استغنى إلاَّ مَنْ وفقه اللَّـه تعالى ، بل أليس من التناقض أن يقال إن المجتمعات الزراعية القديمة كانوا يعيشون في وئام تام وهدوء وأخلاق عـالية بينما يصف المتـأخرون اليوم أنفسهم بأنهم في تقدم شامخ ووعي كامل وحضـارة راقيـة وهم يحملون في صـدورهم قلوباً حاقدة عدونية ولا يلوي أحد على أحد فكان يجب أن يعكس الأمر تماماً على حسب ما قرروه في هذه التناقضات .

المبحث التاسع

حرب الأخلاق والقيم

ما الذي يُنتظَر من ملاحدة حاربوا اللَّه ورسله وداسوا كرامة الإنسان ودنَّسوا كل الفضائل وشوَّهوا تاريخ الإنسان ؟ ما الذي يُنتظَر منهم تجاه الأخلاق والفضائل لقد قام مَذهبهم من أول يوم على عدم الإلتزام بأية فضيلة خلقية مهما كانت بل محاربتها على اعتبار أنها شريعة أخلاقية غير ثابتة لأن كل القيم والأخلاق في عقيدتهم إنما هي نتاج لأوضاع إجتماعية إقتصادية عبر الأزمان لا ثبات لها وأن الأخلاق في أساس نشأتها إنما هي ناتجة عن الطبقية ؛ إما تبريراً لسلطة الطبقة الحاكمة وأصحاب الجاه ، وإما تمردا على العقيدة والوضع القائم ، وإما استجلابا لنفع الطبقات المضطهدة .

ويعود تاريخ الأخلاق وكل العادات الإجتماعية ـ كما قرروه ـ إلى الزمن الذي عاشه البدائيون أو حياتهم في النظام المشاعي البدائي حيث كانوا يرون أن الملكية الفردية غير أخلاقية ولكن بفعل التطور وسهولة الإنتاج أصبحت هذه القضية أمراً لا حرج فيه ولا يتعارض كذلك مع المصلحة العامة التي كانت سائدة في النظام المشاعي البدائي بحكم التطور وحينما جاء نظام الرق ابتكر السادة أخلاقاً جديدة تتمثل في كل تصرفات الطبقات الراقية فهي وحدها الأخلاق التي يجب السير عليها بينما طبقة الأرقاء لا قيمة لأخلاقهم ولا لسلوكهم بل هم ذيول لأسيادهم تابعين لهم بل لم يكن

يتحرك أي ساكن تجاه ظلم هذه الطبقة في النظام الإقطاعي ، وتم هذا كله تحت غطاء الدين الذي وصفه السادة الإقطاعيون والبابوات كأوامر إلهية لا يجوز الخروج عنها والتي هي بمثابة مكابح قوية لجماهير المستضعفين من قبل السادة الإقطاعيين ورجال الدين ثم حدث الصراع المرير بين الإقطاعيين والمستضعفين بعد أن ظهر النظام الرأسمالي الذي نادى بالتحرر من كل القيود الإقطاعية ونبذها ، وما إن انتصر النظام الرأسمالي المنادي بالحرية والمساواة والإنسانية إلاَّ وتكشف الحقيقة من أن العامل الفقير أصبح تبعاً للرأسمالي كما كان الحال في النظام الإقطاعي فإما أن يعمل الفقير تحت رحمة الرأسمالي وإما أن يموت جوعاً ، ولم يعد للإنسان أي قيمة في النظام الرأسمالي إلاَّ من خلال عمله الدؤوب لسيده الرأسمالي تحت تسمية خادعة هي العمل لمصلحة الجميع والتي تصب في النهاية في خزائن أصحاب رؤوس الأموال ، هكذا زعموا فما مدى صحة تلك التعليلات ؟

الواقع أن تلك التعليلات كلها رجم بالغيب لا يملكون عليها أي دليل بل كلها يسوقها الملاحدة لتشويه صورة القيم والأخلاق والدين لكي يصل الناس إلى النتيجة المرادة المستهدفة ألا وهي الوصول إلى تطبيق المبادئ الإشتراكية الشيوعية التي تنظر إلى القيم والأخلاق على أنها أمور زائفة لا قيمة لها ولا يجب على المناضل الشيوعي أن يعيرها أي اهتمام لأن الشيوعي عرف الحقيقة من وراء قيام كل القيم والأخلاق إذ هي تبريرات فاسدة ونفاق خفي على أساس أن الغايات تبرر الوسائل وقد ساندها الدين لابقاء الطبقات الكادحة على ما هم عليه أو للأمور

الأخرى التي تقدم ذكرها بزعم الماركسيين وعلى هذا فإن الشيوعي لا يجب عليه الإلتزام بأي خلق أو دين في سبيل قيام الشيوعية لا حرج عليه أن يكون كذاباً غشاشاً مخادعاً متلوناً فإن الكفاح من أجل الشيوعية يجيز كل ذلك وإذا لم يكن الشيوعي الثوري كذلك فإنه ليس بمناضل ثوري حقيقي ، إنها جناية كبرى ارتكبتها الشيوعية في حق الأخلاق والقيم وخالفوا الفطرة التي جبل عليها البشر على امتداد تاريخهم من حب الخير وبغض الشر وما يتبعهما من صفات وسلوك فاضل .

المبحث العاشر

القضاء على الأسر

يزعم الملاحدة أن نظام الأسرة إنما هو ناشئ عن أوضاع إقتصادية مثله مثل سائر القيم والأخلاق . ولس هناك نظام إلهي بشأنه ، ولهذا فهو قابل للتطور حسب الأحوال الإقتصادية لأن الأسرة في النظام الشيوعي حسب تصوراتهم إنما نشأت عن تطورات متلاحقة حسب تفسيرهم المادي للحياة كانت بدايتها على الأقسام الآتية [١] :

١ ـ أسرة الجيل .

٢ ـ أسرة الشركاء .

٣ ـ الأسرة الزوجية .

٤ ـ الأسرة الوحدانية .

١ ـ أما أسرة الجيل ـ كما تصوروها ـ فيزعمون أن العلاقات الجنسية كانت مباحة بين أبناء الجيل الواحد بين الإخوة والأخوات ومحرَّمة فيما دون ذلك أي بين جيل الآباء وجيل الأبناء ، واستمر في هذه المرحلة تصنيف المجموعات الزوجية تبعاً للأجيال ؛ **الأبناء جيل والآباء جيل والأجداد جيل والأحفاد جيل ، كل جيل لا يتزوج إلاَّ** من جيله ولا يصح التبادل بين الأجيال .

---

(١) أنظر لهذا التقسيم مذاهب معاصرة لمحمد قطب ص ٣٠٢

ثم حدث تطور جديد فحُرِّمت فيه العلاقة الجنسية بين الإخوة والأخوات بطريقة تدريجية أي كان التحريم أولاً بين الإخوة والأخوات من الأم الواحدة ثم شمل التحريم بعذ لك جميع الإخوة والأخوات الأباعد ثم زَعموا أن أسرة الجيل هذه قد انقرضت .

٢ ـ أما أسرة الشركاء فقد كانت العلاقات الجنسية فيها مباحة للجميع في شراكة تامة بحيث أصبح الولد لا يعرف له أباً أكيداً . ومن هذه الأسرة انبثقت أسرة العشيرة .

٣ ـ أما الأسرة الزوجية فقد عرفت بمباشرة الرجل لزوجة واحدة في رباط زوجي ولكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية ظلتا من امتياز الرجل وأما المرأة فتُطالَب أن تكون على إخلاص تام للزوج فإذا زنت عوقبت عقاباً شديداً وعند اختلاف الزوجين يرجع الأولاد إلى أبيهم كما كان الحال في السابق .

٤ ـ أما الأسرة الوحدانية فهي الأسرة التي تقوم على سيطرة الرجل لإنتاج أولاد لا يشك في صحة أبوتهم لكي يحصلوا على إرث مال أبيهم بعد وفاته وفي هذه الأسرة ويكون تسريح الزوجة أو عدمه بيد الرجل فقط وليس برضى الطرفين كما في رباط الزوجية السابق . وكانت الزيجة الوحدانية تقدماً تاريخياً عظيما وزعموا أن الأسرة الوحدانية لم تقم على الأحوال الطبيعية التي كانت الأحوال الجنسية مشاعة بين الجميع ، بل قامت على الأحوال الإقتصادية وانتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة المشاعة .

ولاشك أن القارئ يُدرك تماماً أن هذا التقسيم وهذا التنظيم إن هو إلاَّ محض خيال وافتراء ومن العجيب أنهم يعترفون أن الناس في ذلك الزمن ما كانوا يعرفون الحضارة ولا التقدم ولا القراءة ولا الكتابة فمن أين لهم هذه السجلات التي استقوا منها هذه المعلومات الموغلة في القدم . ومن يصدق مثل هذه الترهات ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)** ﴾[1]

والانسان في مفهومهم مرة يجعلونه بدائياً تافهاً بل حشرة من الحشرات ومرة يجعلونه أساس التطور حينما كان يعيش على نظام كل شيء مشاع ولهذا فهم يريدون أن يرجعوا الناس إلى تلك الحال التي يعبرون عنها بالحال السعيدة للمجتمع البشري والباطل لابد وأن يتناقض أهله فيه .

فالأسرة في ظل الشيوعية كما عبَّر عنها «إنجلز» لا تسعد إلاَّ في حال إلغاء الملكية الخاصة وذوبان الأفراد وكل مصالحهم في المجتمع العام وظهور شيوعية الجميع في الأموال والنساء والأطفال الذين تنتقل العناية بهم من الآباء والأمهات إلى المجتمع كله متمثلاً في الدولة ـ أي إذا سادت الحياة البهيمية ـ .

يقول «إنجلز» : «إن العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لا تعني إلاَّ الأشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخل فيها وهذا سيكون ممكناً بفضل إلغاء الملكية الخاصة وبفضل تربية الأولاد على نفقة المجتمع ونتيجة

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١١١

ذلك يكون أساسا الزواج الراهنان قد أُلغيا فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها ، ولا الأولاد لأهلهم هذه التبعية التي ماتزال موجودة بفضل الملكية الخاصة» .

وقال أيضاً : «فبانتقال وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة لا تبقى الأسرة الفردية هي الوحدة الاقتصادية للمجتمع وينقلب الإقتصاد البيتي الخاص إلى صناعة إجتماعية وتصبح العناية بالاطفال وتربيتهم من الشؤون العامة فيعني المجتمع عناية متساوية بجميع الأطفال سواء أكانوا شرعيين أم طبيعيين وذلك يختفي القلق الذي يستحوذ على قلب الفتاة من جراء العواقب التي هي في زماننا أهم حافز إجتماعي ـ إقتصادي وخلقي ـ يعوقها عن تقديم نفسها بلا حرج لمن تحب أفلن يكون هذا سبباً كافياً لازدياد حرية الوصال الجنسي شيئاً فشيئاً ومن ثم لنشوء رأي عام أكثر تساهلاً فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء»[(١)]

فانظر هذا الكلام الساقط كيف أراد أن يضحي بكل شيء في تغيير حياة البشر ويقلبها رأساً على عقب في سبيل أن يمحي من الأذهان شرف العذارى وعار النساء هذا هو الحل الذي اقترحه المجرم «إنجلز» في قضائه على الشرف والحياة والحشمة عند المرأة وهذا هو مبلغه وأشباهه من العلم وكأن الحياة كلها متوقِّفة على وجود حرية الإتصال الجنسي شيئاً فشيئاً إلى أن يتحول إلى رأي عام أكثر تساهلاً فيه وعندها تتم السعادة ويمحى شيء اسمه العار أو الحياء أو الحشمة ؟!

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥

وإذا كان يحصل هذا في المجتمع المتحرر عن الملكية الفردية فلا يرد عليه ـ في مفاهيم ـ المجتمع الزراعي وتعاون أهله فيما بينهم للضرورة إلى هذا الترابط الأسري لأن ترابط الأسرة في المجتمع الزراعي أمر بدهي يتطلبه الرغبة في إتقان العمل وزيادة الإنتاج الذي يحتاج بدوره إلى تكاتف الأيدي العاملة فهذا يحرث وذاك يحصد وهذا يقوم بعملية الري وذاك بتحسين المزروعات وآخر بتخزينها وهكذا تفرض عليهم هذه الحالة تكاتفاً أسرياً قوياً ولكن حينما جاء المجتمع الصناعي تفكك أمر الأسرة وذلك لعدم الحاجة إلى ذلك التكاتف الذي نشأ في العهد الزراعي .

فإن العمل في الصناعة يقوم على الفردية واستقلال كل شخص بعمله دون اشتراط وجود آخرين إلى جانبه فعمله خاص به وهو مسؤول عنه وحده ويأخذ أجره على العمل وحده كذلك ، وهذا يشمل أيضاً المرأة حينما تعمل .

وبالتالي فالمجتمع هنا يصبح كل فرد فيه حر ليس له علاقة بغيره إن أراد الرجل بقاء صداقته مع زوجته فله ذلك وإن أراد تركها فله بكل يسر والمرأة كذلك لها أن تقطع علاقتها الزوجية في أي وقت شاءت فعملها ووظيفتها وما تملكه من المال يجعلها لا تكترث بأي علاقة دائمة مع أي شخص سواء أكان الزوج أو الأولاد أو الأقارب أو الأجانب عنها وبالتالي فالعلاقات الجنسية الحرة هي السمة البارزة لهذا المجتمع الصناعي ـ أي الإباحية والفجور ـ وهذه هي النتيجة التي يعيشها العالم المادي الملحد حالة من التفكك الأسري والإباحية المطلقة والتمرد على كل شيء ، مجتمع نُزِعَت منه الرحمة وصلة ذَوي القُربى والعاطفة نحو الآخرين والعفة والحياة ولهذا

أصبحوا أحط من الأنعام قال تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾ [١] ، لأن الأنعام يعطف بعضها على بعض أقل شيء في مرحلة الصغر فالدَّابة ترفع حافرها عن ولدها بينما هؤلاء يرمون بأولادهم في المحاضن الحكومية وبعضهم يرمونهم من الأدوار العلوية لبيوتهم أو يحبسونهم في البيوت حتى الموت كما سمعنا وقرأنا في المجلات والنشرات وهي صور لا يطيق العاقل سماعها لبشاعتها وهولها .

والمحسنون منهم يرمون أولادهم في الحضانات الحكومية ولا يفكرون فيهم بعد ذلك وهذا هو ما كان يريده الشيطان الرجيم «كارل ماركس» .

●● تعقـيب :

لقد داس هؤلاء الملاحدة كل القيم إذ لا وجود لها عندهم إلاَّ من خلال ما تمر عليه الظروف الإقتصادية التي هي المؤسس الحقيقي بزعمهم لكل القيم والأخلاق والأسرة والدين وسائر العلاقات كما عرفت سابقاً ، ومن هنا ساغ لهم القول بأن الملكية الجماعية الشيوعية في زمن الشيوعية الأولى البدائية كانت صواباً لأنها كانت هي الوضع الحتمي لذلك الوقت ثم تغيرت بفعل التطور إلى ملكية فردية وكانت كذلك مرحلة مرت ثم نشأ الرق والإقطاع والرأسمالية فكانت كل منها صواباً في وقتها يحصل التناقض الحتمي ومع القول بحتمية وقوع كل مرحلة إلاَّ أنهم يقولون إن كل مرحلة جديدة تجعل السابقة خطأ يجب تركه ومحاربته بعد تجاوزها إلى أن تصل إلى الشيوعية الماركسية فتستقر حينئذ الأوضاع ويدخل الناس في السعادة الشيوعية ؟!

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٤٤

وكذلك سائر القيم من العفة وسيطرة الأب والتدين وترابط الأسرة والتعاون الجماعي كل ذلك كان صواباً في وقته ، ولكن بعد سرعة التطور والوصول إلى الشيوعية الماركسية يجب أن تعتبر تلك القيم كلها باطلة ويجب محاربتها لأنها لم تعد مناسبة للأحوال الإقتصادية للمجتمع الشيوعي الجديد ـ أي بعد تلك التطورات الخيالية ـ التي تصورت في أذهانهم عن نشأة الكون وما فيه وكذا القيم والأخلاق وسائر أنواع السلوك وهكذا وقف الملاحدة ضد الأسرة كما وقفوا ضد الدين إذ الأسرة لا تبعد في الواقع عن التدين ولأن معنى قيام الأسرة منع الفوضوية الجنسية التي ينادي لها الملاحدة وقيام الأسرة يحد من ذلك بطبيعة الحال .

كما أنها كذلك تثير مشاعر الأثرة في الوالدين وتقوي حب التملك من أجل توريث الأولاد ما يملكه الوالدان . ومعنى هذا العودة إلى نشوء الملكية الفردية وهو ما تحاربه الشيوعية بكل ضراوة وتبعاً لبغضهم الملكية الفردية فإنه يجب أن يبغض كل شيء يمت لها بصلة ومن جهة أخرى فإن البديل للأسرة في النظام الشيوعي هو الولاء للدولة والذوبان في النظام والحزب والزعيم والوطن وليس غير ذلك بينما نظام الأسرة يشكل ارتباطاً آخر غير هذا الإرتباط العام الذي لا تسمح الشيوعية إلاَّ به لأن النظام الشيوعي - ومثله النظم المتجبرة ـ تريد أن يكون الشعب كله في طاعة عمياء للحزب وولاء مطلق لهم وجواسيس على بعضهم بعضاً لا يخرج عنهم أحد ونظام الأسرة لا يسمح بتنفيذ هذا كما يريدون فالأسرة لا تسمح بأن يخل بنظامهم الإجتماعي أي أذى وهذا يحد من نشاط الجاسوسية الدقيقة على كل فرد من أفراد المجتمع ، كما أنه يحد من استعباد الدولة للشعب والقضاء على

الأسرة من الضمانات التي يعتمد عليها النظام الشيوعي في تربية الأولاد منذ نعومة أظفارهم على الولاء الكامل للدولة والحزب والزعيم وليس وراء ذلك أي ولاء لأحد .

ومن العجيب أنهم يسمون الجهل والتخبط القائم على غير دليل صحيح يسمونه نظريات علمية أو أبحاثاً علمية ، فترى الكثير من الناس يسارع إلى تقبل تلك النظريات دون أن يكلف نفسه السؤال عن مدى صحة تلك الدعايات وهل هي فعلاً نتجت عن علم حقيقي أم عن تخطيط مدروس للإجهاز على القيم والأخلاق والتدين باسم العلم والتقدم .

إن كل ما جاء به الملاحدة من مزاعم عن بدء الأسر وتكونها وأنها مرت بفترات أولها الشيوعية الأولى ثم بدأت الأسر تتكون بفعل التطور الإقتصادي كما يزعمون أن هو إلاَّ كذب وجرأة على تشويه تاريخ الأمم لا يستندون فيه إلاَّ على ما تخيلوه في أذهانهم المريضة وما يزعمونه أيضاً من وجود تلك الشيوعية في بعض القبائل المتأخرة التي عثر عليها في آسيا وإفريقيا وأستراليا في القرنين السابقين ، إن صدقوا ، ولكن هل انحراف هؤلاء يكفي دليلاً لتلطيخ تاريخ البشرية كله بسبب انحراف جماعة هنا أو هناك ؟

إن تفسير الملاحدة لقيام الأسرة بأنه عن دافع إقتصادي فقط هو قول باطل وقصور واضح مع العلم أن للأوضاع الاقتصادية جانب مهم في حياة الناس ولكن ليس هي كل شيء في حياتهم بل هي أحد العوامل في حياتهم الواسعة الشاملة التي لا يمكن أن تنحصر في جانب واحد وكذلك فإن قيام الأسرة لم يكن سببه فقط الدوافع الجنسية والإقتصادية بل له أسباب كثيرة

تتطلبها فطرة الإنسان وما جبلت عليه من حب الهدوء والألفة وبناء الحياة والأنس بالآخرين وحب التكامل وحب تربية الأطفال التي لا يمكن أن تتكامل تكاملاً صحيحاً جسدياً وعقلياً في غياب الأمهات عن أولادهن وترك الأولاد للمحاضن الجماعية التي هي أشبه ما تكون بتربية قطعان الحيوانات دون شعور بالحب والعطف والراحة النفسية التي يجدها الطفل في حضن أمه .

وما تقدم فإنما هو إشارة إلى أن تكوين الأسرة لم يكن ناتجاً عن النظرة الإقتصادية فقط كما زعم الملاحدة بل لأسباب نفسية كثيرة أرادها اللّه عزو جل وفطر النفوس عليها ومن شذَّ عن هذا السلوك فهو شاذٌّ ولهذا لا يشعر الإنسان بتلك السكينة والطمأنينة التي يجدها في بيته وبين أطفاله مهما وجد من المتع الجنسية عن طريق الحرام ومهما ملك من الأموال كما أنه لن يجد حلاوة ذلك التنظيم الإلهي لتكوين الأسرة وتكافلها فيما بينها وقيام الرجل بواجباته خارج البيت وقيام المرأة بواجباتها داخل البيت وتصريف الأولاد في الأمور التي يطيقونها وما ينشأ عن ذلك من الهدوء والسكينة والتعاون الذي حرم منه أولئك المعاندون للفطرة وللعقل ولأحكام اللّه عزَّ وجلَّ .

لقد نسى أولئك الملاحدة أو تناسوا عمداً أن الذين أقبلوا على الفوضى الجنسية وقطع العلاقات الأسرية نسوا أن هؤلاء يعيشون عيشة ملؤها القلق والاضطراب والأمراض العصبية مع توفر كل ما يطلبونه من المتع الجنسية ومن المال أيضاً وإلاَّ لماذا يبادر أولئك إلى الانتحار المتتابع - وما أكثره في أوروبا - بين الرجال والنساء والأحداث وما أكثر ما يتأوه عُقلاؤهم من أوضاعهم التي تزداد سوءاً كلما ازداد تفكك الأسر وفشت الجرائم تحت تسمياتهم الخادعة (حرية ، مساواة ، ديمقراطية ... إلخ) ما خدعوا به

الناس وأخرجوهم عن فطرهم التي فطرهم اللَّه عليها إلى الشقاء وتأنيب الضمير .

ومثل ذلك التفسير السخيف بقيام الأسر تجده تماماً في تفسيرهم للحفاظ على الأمور الجنسية والقيم والعادات المتعلقة بذلك من العفة وغض النظر وحفظ الفرج بأنها عقبات وأن السبب في كل هذه العقبات أمام شيوعية الجنس إنما يعود الى المجتمع الزراعي حيث أن الرجل يغار على زوجته وابنته بدافع سيطرته وامتلاكه لأمور البيت الإقتصادية فهو المكتسب وهو الذي يتعامل مع الحياة كلها في خارج البيت بينما تكون المرأة حبيسة البيت ليس بيدها أي مصدر إلاَّ عن طريق الرجل وهنا فرض الرجل على المرأة العفة قبل الزواج وبعده وأن تكون له وحده حين يتزوج بها ومن هنا أصبحت العفة فضيلة خلقية وإجتماعية مهمة في مثل هذه المجتمعات ، ولكن حينما ظهر المجتمع الصناعي لم يعد الرجل يفرض على المرأة تلك العادات والأخلاق الجنسية بسبب إنقلاب الأمور الإقتصادية حيث دخلت المرأة ميدان التكسب والعمل والوظيفة وصارت تملك المال الذي حرَّرها من قبضة الرجل فلم يعد يملك مطالبتها بالعفة لا قبل الزواج ولا بعده ولا أن يطالبها بأن تكون له وحده فهي زميلة في العمل وقد تملك من المال أكثر مما يملك ولها حق التصرف بحرية تامة في مالها وفي نفسها دون أي اكترات بالعفة أو الفضيلة فقد تحررت في المجتمع الصناعي لتغير الأحوال الاقتصادية فلم تعد كما كانت في المجتمع الزراعي عالة على الرجل في كل شيء وبهذا التفسير الإلحادي الشيوعي لا يبقى مجال للقول بأن العفة والأخلاق نشئت عن أمر إلهي أو ديني بل عن أمر إقتصادي والقارئ يدرك

تماماً أن هذه الافتراضات إنما هي أكاذيب وخيالات ، فإن أمر الحفاظ على العفة وسائر القيم أمر فطري في الإنسان وفي سائر الحيوانات التي لا تهتم بالأمور الاقتصادية فنرى ذكر الحيوان يغار على أنثاه ويدافع عنها وترى الأنثى تحترم الذكر وتعطف على أولادها سواء أكانت تملك قوتها أو لا تملكه ، وقد أخبر اللَّه عز وجل عن وجود هذه الأمور في نفوس الناس منذ أن أوجدهم ولهذا لا يمكن أن تجد امرأة مستغنية عن الرجل مهما كان مالها ولا الرجل كذلك يستطيع أن يستغني عن المرأة مهما كان ماله ، فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها ، فالسعادة ليست فقط في وجود المال بل قد يكون المال مصدر شقاء لصاحبه ولك أن تسأل ماذا حصل للرجل والمرأة حينما دخلا معترك الحياة وصار كلٌ يحتطب لنفسه من المال ما يستطيع الحصول عليه ، ومباح لكل منهما أن يعاشر من يريد عن طريق الإباحية الجنسية ، أليس كل واحد منهما أحس بأن الحياة في هذا السلوك رخيصة لا تساوي شيئاً فرجعا إلى رباط الزوجية ليجدا فيه الأنس والراحة النفسية التي فقداها عن طريق الإباحية أو المال ؟

وكأن أولئك القُساة القلوب لم يسمعوا بشكاوى من غرَّتهم المدنية وجمع المال ولا أنين تلك المرأة التي منعت نفسها من الزواج وجمعت من المال والشهادات ما أحبت فلمَّا أحست بتجاوزها مرحلة الإنجاب بدأت تبكي وتقول للناس خذوا هذه الشهادة وخذوا أموالي وأعطوني طفلاً يقول لي يا أمي أشعر بالأنس إلى جانبه ، أزيلوا عني آلامي وما أحس به من وحشة هذا المجتمع الذي لا يرحم ولا يحترم إلاَّ الأقوياء فقط ولكن أنَّى لأصحاب الأهواء آذانٌ صاغية تسمع أو قلوبٌ تعقل .

المبحث الحادي عشر

محاربة الدين

يزعم الماديون أن الدين إنما هو انعكاس وَهمي في أذهان البشر نحو قوة خارجية تُسيِّر الكون لا أنه حقيقة منزَّلةٌ من اللَّه كما هو إيمان جميع المؤمنين باللَّه تعالى ، ثم زعموا أن هذا التوهُّم نشأ في أزمنة موغلة في القدم عند البدائيين حيث كانت البداية هي تَوهُّم أن الإنسان له روح تسكن في جسده وتفارقه لحظة الموت ومن هنا اضطروا إلى اصطناع أفكار تتوافق في العلاقة مع هذه الأرواح التي تطوَّر أمرها بعد ذلك إلى توليد الآلهة الأولى وفي غير الأرض ثم نشأ بفعل التولُّد في عقول الناس أن يتطور أمر هذه الآلهة إلى إله واحد كما في الديانات التي تعبد إلهاً واحداً وعلى هذا فإن الدين إنما تولَّد عن نظريات الإنسان المحدودة التي نجمت عن عجزه المطلق أمام الطبيعة العاتية التي كان يخافها ولا يفهمها فتصور أن ذلك إنما نتج عن إرادة سامية عليا فُسِّرَت بعد ذلك بإسنادها إلى الآلهة وقوتها وجَبروتها المطلق والتي أصبحت هذه الآلهة في شكل إله واحد قوي جبار عند الكثير ، ثم زعموا أن هذه المعتقدات في الإله إنما تعود عند الإنسان في الأساس إلى ما قبل التاريخ . وحينما جاء العهد التاريخي وجدها هكذا فالتقطها بغباء دون فهم وقد أرجعوا السبب في ذلك إلى الحالة الإقتصادية التي كان يعيشها الإنسان في عهد ما قبل التاريخ وهو إقتصاد ضعيف وفي صورة بدائية تعتمد على الإشتراك في الصيد والماء والمراعي وتعاون الجميع . هذا في عهد ما قبل

التاريخ وأما حينما نشأ التطور الإقتصادي على نحو أقوى بداية بعهد الرق والإقطاع والكنيسة فقد استغل هؤلاء الوجَهاء هذا الجانب الإلهي لتخدير الكادحين حتى لا يشعروا بالظلم الواقع عليهم وأن عليهم الرضوخ إذا أرادو نعيم الجنة في مقابل عذاب الدنيا بطاعة أولئك ولهذا باركت الكنيسة الرق وأوصت الكنيسة الأرقاء بطاعة أسيادهم وهدَّدتهم بالنار الأبدية إن لم يمتثلوا ، وكان لهذه التعليمات أثر جيد في إنقاذ الحياة الزراعية الضرورية لحياة المجتمع وفي حفظ المجتمع من الفقر ومن اندلاع نار الثورات وفي الوقت الذي اشتدَّ فيه كابوس الإقطاع في أوروبا قويت في المقابل السلطة الدينية للكنيسة ، وليس فقط السلطة الدينية ، بل والفلسفة والأدب والفنون على نفس النهج الذي يريده الإقطاعيون ، ولم تكن الكنيسة وحدها في هذه القوة بل ساندتها قوة السلطة التي كانت هي الأخرى سيدة الإقطاع وحاميته والمستفيد الحقيقي من تخدير الشعوب بالدين ، ولهذا وقف الحكام ورجال الكنيسة ضد كل من تُسوِّل له نفسه الخروج عن قبضتهم بوصفه بالإسم الذي يُبيحون به دمه وهو إطلاق «الهرطقة» عليه .

وما اشتعال الحروب التي خاضها البشر باسم الدين إلاَّ صراعاً طبقياً في حقيقته نجم عن الحالات الإقتصادية فحسب ، وحينما ظهرت الرأسمالية ضعف أمر الدين لتطور الاقتصاد وانتعاشه ولكن البرجوازية أحست بأن نبذها للدين خطر عليها فعادت إلى احتضانه وتسخيره لمصالحها وهذا هو السبب في تعلق البرجوازية بالدين لكي تظل على قوتها الرأسمالية .

هكذا علَّل الملاحدة لنشأة التدين عند الإنسان ، وحينما جاءت الشيوعية في روسيا أعلنت الحرب الضروس علي الدين وأهله باعتبار أنه أفيون الشعوب وأن الدين إنما كان في روسيا وغيرها بسبب الضعف الإقتصادي وعدم وجود حول ولا قوة للطبقة الفقيرة إلاَّ بالاستناد إلى الدين كعزاء بديل لذلك الشقاء والفقر . ولكن بعد مجيء الشيوعية التي هيأت موارد للإنتاج لم يعد الفلاح في حاجة إلى الإلتجاء الى القوة الإلهية ليتسلى بها عن شقائه وعليه حينئذ أن يتخلى عن الإعتقاد بوجود الإله وعن الدين كذلك ليسعد في ظل النظام الشيوعي ؟!

أما المجتمع الزراعي في كان تمسكهم بالدين أمر واضح لوجود المقتضيات الكثيرة لازدهاره في أوساطهم كما تذكر الشيوعية الماركسية في تعليلاتها الخرافية كقولهم : إن الانسان في هذا المجتمع يضع البذور في الأرض ويغذيها ويحوطها بعنايته ولا يملك أكثر من هذا فهو لا يستطيع أن ينبتها كما يريد ولا أن يجعلها تثمر أو لا تثمر وهنا اضطر إلى التعلق بوجود قوة خارجية غيبية ـ الإله ـ وإلى استرضائه والتعلق به لإنجاح زراعته وتحبب اليه بأنواع الطقوس ـ العبادات ـ وهذا بخلاف المجتمع الصناعي فإنه لم يعد الإنسان في حاجة إلى التعلق بتلك القوة الغيبية لأن أمر الصناعة ظاهر يسيطر عليه الشخص ويصرِّفه كما يريد فهو صُنع يده وطَوع أمره بخلاف الجانب الزراعي وهذا هو تعليلهم ومبلغ علمهم لقوة التدين في العهد الزراعي وضعفه في العهد الصناعي ـ كما يزعمون ـ وهو تعليل يدل على سخافتهم وضحالة أفهامهم ، كما أن هذا التفريق بين المجتمع

الزراعي والمجتمع الصناعي إنْ هو إلاَّ محض افتراء سخيف وهضم للإنسان ، بل وإنكار لحق اللَّه على عباده ، ولا يملكون على ذلك أي دليل صحيح ، ثم أليس الإنسان يواجه مشكلات وتعقيدات وأخطاراً في المجتمع الصناعي كما هو في المجتمع الزراعي ، وأن قدرة الإنسان هي نفس القدرة في المجتمعين ، فكيف احتاج إلى اللَّه والتدين في المجتمع الزراعي واستغني عنه في المجتمع الصناعي ، وماذا فعلت الشيوعية في المجتمع الزراعي والصناعي أليس أتباعها الآن يتكففون الغرب الزراعي الصناعي وهم مقرُّون بالخالق عزَّ وجلَّ مما يدل على خسارة الشيوعية دينهم ودنياهم .

•• من الذي غَذَّى اشتداد العَداوة للدين ؟

لقد واجه الدين عَدوَّين لَدودَين ؛ هما المخطط اليهودي ، والمخطط المادي الشيوعي الناتج في البداية عن المخطط اليهودي والمتمم له .

أما المخطط اليهودي فلا شك أن اليهود وهم يريدون استحمار الجوييم يعرفون تماماً أنه لا سبيل لهم إلى استعباد البشر إلاَّ بمَحو دينهم وسلخهم من عقائدهم وأخلاقهم لأن اليهود عرفوا أنه لا سبيل لهم إلى تحقيق مآربهم مادام للبشر دين وأخلاق وتراث يرجعون إليها واليهود أعدى أعداء البشرية على امتداد تاريخهم وحروبهم معهم لا تنقطع ومؤامراتهم ضدهم لا حدَّ لها فهم سُرَّاقُ العَقائد والأخلاق والأموال .

وأما العداء الشيوعي فهو امتداد طبيعي لعداء اليهود مضافاً إليه الحقد على الدين وأهله وعلى سائر البشر الذين لم يستسلموا لطغيانهم وحينما

وقفت الكنيسة في صف الإقطاعيين والرأسماليين ضد النفوذ الشيوعي جاعلين الدين شعاراً لهم في حرب الشيوعية تضاعف حقد الملاحدة على الدين وعلى كل من يمثله واستفاد الملاحدة فوائد كثيرة من وقفة الكنيسة إلى جانب الإستبداديين حيث أغروا الناس بعداوة الدين وأهله .

واشتد حقدهم على نسبة أي حق أو عدل أو خير إلى اللَّه عزَّ وجلَّ فقد سخروا من كل من يعتقد ذلك ورموه بأنواع السباب إذ ليس هناك - في ميزانهم - حق وعدل وخير وتوجيه من اللَّه تعالى . إذ أن كل ما يصدر عن الناس من تصرفات انما هي نتيجة للأحوال الاقتصادية وتغيراتها المتلاحقة دون أن يكون هناك توجيه غيبي يسير الكون أو تظهر الأخلاق عن طريقه . وهم يرتاحون لنسبة الحق والعدل إلى الشيوعية ولكنهما محرَّمان نسبتهما إلى اللَّه تعالى ولكن اللَّه عزَّ وجلَّ مُتم نوره ولو كره الكافرون وقد أذلهم اللَّه تعالى أيما ذل .

ومن الجدير بالذكر أن الملاحدة قد يتظاهرون أحياناً بذكر كلمات الدين والتدين فيظن من لا يعرف أهدافهم أنهم يريدون ذكر الدين والرضى به بينما هم في الواقع في غاية البعد عن هذا الفهم السليم ولهذا يقول المفكر المسلم وحيد الدين خان : «إنه على الرغم من أن كلمة «الدين» موجودة في التفسير الجديد للدين ولكن الدين هنا في صورته الحقيقية والعملية لا يختلف عن الإلحاد الكامل في شي» .

«في ضوضاء هذه الدراسة الإجتماعية والتاريخية المزعومة يضيع أصل الدين في هذا التفسير المستحدث فيصبح الدين مجرد ظاهرة

اجتماعية ويفقد قيمته الحقيقية في توجيه الحياة والمجتمع وهداية الإنسان لما فيه خيره في الدنيا والآخرة»[١]

وتارة يرجع أولئك الملاحدة تفسير الدين حسب خُرافاتهم إلى قابلية الشخص واستعداده الذهني لإدراك شتى الصور التي يتخيلها بعد ذلك ديناً ، كالشاعر الذي يتصور أشياء في خياله اللاشعوري وهذه تسمى نبوة عند بعض كبارهم .

ويرى محرر دائرة معارف العلوم الإجتماعية أنه يمكن تشبيه الدين بالفن من حيث أن الفنان يتمتع بذوق غير عادي في الأمور الفنية فكذلك رجل الدين يتمتع بنظرة قوية وأذن صاغية فيصل بتجاربه إلى معرفة الدين . مع أنهم قد أقروا بأن الدين لا تدخل معرفته تحت التجارب ـ كما تقدم ـ وهم يهدفون من وراء هذا السخف إلى إنكار النبوات الإلهية ويقرر «ت . ر . مايلز» : أن الدين اذا قُصد به ما بعد الطبيعة ، أي القول بأنه وحي من اللّه تعالى فإنه حينئذ يفقد معناه الحقيقي أما إذا أريد بالدين معنى مجازياً بمعنى قوة الذكاء والإلهام فإنه حينئذ يكون معناه مقبولاً لدى الأشخاص الذين يتصفون بقابليتهم للتدين .

ويرى «اليكسيس كاريل» أن التدين إنما يصل إليه الإنسان بجهوده الشخصية وتطلعه إلى ذلك مثله مثل الشخص الذي يريد أن يصبح مصارعاً فيستعد لتقوية بدنه بالرياضة وترويض أعضائه فكذلك المتدين يصل بصقل روحه وتهذيبها إلى التدين الذي يقتنع به .[٢]

---

(١) الدين في مواجهة العلم ، ص ١١١

(٢) انظر الدين في مواجهة العلم ص ١١٣ - ١١٤

وهذا التفسير للدين خرافة وسذاجة وذلك لأنه يعتبر مصدر الدين قوة تخيل البشر وسمو ذكائهم لا أنه من اللّه تعالى أو عن وَحيه إذ لا وجود لذلك في قاموس إلحادهم فكيف يكون الدين من خيال البشر وله هذه المكانة في النفوس منذ أن وجدت البشرية إلى أن تنتهي ؟ ألم تظهر روايات وقصص وكتابات خيالية لاحدود لها ؟ ثم تنتهي في مدة وجيزة ولم يعد أحد يتأثر بها مع أنها أحياناً نابعة من أعماق كبار الشعراء الذين يسميهم الملحدون أنبياء ومن أعماق كبار أصحاب الفكر والأدب ثم كيف تُجمع البشرية على احترام التدين إلى هذا الحد لو كان ما يقوله الملحدون صحيحاً من أن التدين خيالات وفن ؟ ولماذا نجح الأنبياء على طول الأزمنة وبقي ما خلَّفوه حياً في قلوب الناس بينما تموت أفكار البشر وتُنسى ، بل وتُمل على مر الزمان رغم تفنن أصحابها في الفصاحة كذلك يقال لهم لو كان التدين يرجع إلى الذكاء لكان لكل شخص دين يخصه يتوافق مع ذكائه وذوقه لاختلاف الناس في الذكاء وفي الرغبات ولما أمكن التفريق بين من يعمل الخير ومن يعمل الشر لأن الخير والشر يصبحان لا ضابط لهما لاختلاف العقول والأديان من فرد إلى فرد . وهل الواقع يدل على هذا ؟ أم انه يدل على أن الناس يشتركون في دين حتى ينسخه اللّه بغيره كما هو الحال في الأديان المنزَّلة على امتداد تاريخ البشر ؟

كما أن هذا التفسير الإلحادي للدين يجعل كلمة النبوة أو ختم النبوة أمر لا معنى له لأن النبوة إنما هي مجموعة صور خيالية جميلة لا أن هناك إلهاً هو الذي يختار لها الشخص الذي يريده وهو مفهوم شاذ بالنسبة لما

أطبق عليه عامة الناس وهل يصح أن يُلتفت إلى كلام ملحد في آخر الأزمان ويغفل إطباق تلك الملايين التي لا يعلم عددها إلاَّ اللَّه وحده فاتضح أن كل تفسيرات الملاحدة للدين أو استعمالهم لكلمة دين إنما يراد بذلك إما المغالطة أو النفاق ، وإما أن نسميها سذاجة لبعدهم عن معرفة الدين وجهلهم بكل حقائقه فهم لا يفرقون بين الإتجاه الخاص بالدين وبين الإتجاهات الجاهلية التي أفرزتها عقول جاهلة ادَّعت معرفة كل شيء ومن أعجب الأمور أن يسموا الدين الذي أطبقت البشرية على تقبله خيالات ويسمون إلحادهم وخيالاتهم التي يردُّها العقل والواقع يسمونها علمية وأين الثَرَى من الثرياء ؟

إن تفسير الملاحدة للتدين عن الانسان كله كذب وافتراض وهمي خيالي فقد تصوروا في خيالهم أن نشأة الإنسان وظهور التدين عنده ونشأة القيم والأخلاق إنما قامت على المادة وحدها ومن المعلوم بداهة أنه مرت قرون عديدة والبشرية كلهم على التدين وعلى التعلق بإله قادر مهما اختلفت عباداتهم وعقائدهم وعبارتهم فهل يُلغى كل ذلك الإتفاق في تلك القرون السحيقة التي لا يعلمها إلاَّ اللَّه ويؤخذ فيها برأي الملاحدة الشاذِّين هذا ليس بمنطق صحيح أبداً وهل ما تصوروه من تطور الإنسان بسبب المادة يعضده دليل عقلي - إذ لايوجد لهم دليل شرعي - إنه مجرد تحكم أن يقسِّموا البشر إلى مجتمعات بدائية ومجتمعات زراعية ومجتمعات صناعية وأن التدين في كل مرحلة كانت له أسبابه المادية ، إنه تحكم كاذب فمن أين لهم صحته ، وهل شهدوا خلق السموات أو الأرض أو خلق أنفسهم ؟!!

لقد جازف هؤلاء الملاحدة وافترضوا ما لم يحيطوا بعلمه وطرقوا ما لا مجال لهم فيه وكذَّبوا البشر قاطبة . وكذَّبوا الواقع الذي يشهد بتفاهة تفسيرهم للتدين ولكل القيم الإنسانية الثابتة بما فيها التدين الصحيح ومن يصدِّقهم في أن الصفات الثابتة في الإنسان سببها الجوانب الإقتصادية ومن يصدقهم أن الرغبات الجنسية وحب الإنتقام والثأر والإحساس بالرحمة والحزن والفرح والبخل والكرم إنما يعود إلى الناحية المادية فقط دون أن تكون تلك الصفات وغيرها صفات أساسية في فطرة الانسان . تلك الفطرة التي حاربتها الشيوعية اليهودية لكي يسهل عليهم استعباد البشر وإخراج الجوييم عن شريعة اللَّه تعالى إلى شريعتهم الحاقدة على جميع البشر .

نعم إن الانسان حينما يقف عاجزاً عن معرفة سر هذا الكون ويتفكر في خلق اللَّه والأرض والنجوم وسائر الأفلاك وتتابع الليل والنهار والحياة والموت وسائر ما أوجده اللَّه في هذا الكون إذا فعل الإنسان ذلك يجد نفسه عاجزاً عن إدراك كل هذا ، وحينئذ يعرف بفطرته أن هناك موجد عظيم لهذا الكون هو أقوى منه يستحق أن يخضع له وأن يعبده ويرجو ثوابه ويخاف عقابه ، لا أن يعتقد أن المادة خلقته فإن التفكر في كل ذلك يهدي إلى الإعتراف بخالق عظيم قدير حكيم لا شأن للمادة معه بل هي مخلوقة له حدثت بعد أن لم تكن ، وهذا هو ماعترف به الملاحدة في أنفسهم وجحدوه ظاهراً تعصباً لنظرياتهم الفاسدة وقد ذكر اللَّه عز وجل كثيراً من عجائب هذا الكون ورغّب الناس في التفكر فيه واستخلاص العبر فذكر سبحانه : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ**

مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)﴾ [1]

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18)﴾ [2]

ويقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٦٤

(2) سورة النحل، الآيات: ١٠ ـ ١٨

لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾[1]

ويقول تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) ﴾[2]

وهذه الآيات وغيرها تجعل الانسان يقف على حقيقة وجوده ووجود من حوله ووجود هذا الكون كله وما فيه توقفه على مصدر التدين ومستحق العبودية وتشبع فطرته عن كل تساؤلاته حول هذه الحياة وما بعدها في العالم الآخر وتثير في فطرته ما كان كامناً في التوجه إلى خالق هذه الحياة وإلى الرغبة الكامنة في الإلتجاء إليه والخضوع والعبادة له ، وهذه الفطرة هي التي يشعر الإنسان بواسطتها عظمة اللّه والرغبة في الخضوع له والدليل على ذلك أنه لم يَخلُ جيل من الأجيال على امتداد التاريخ من التدين والتوجه إلى اللّه وهذا ما أخبر اللّه عز وجل عنه : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾[3] ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾[4]

(١) سورة الواقعة ، الآيات : ٥٨ ـ ٧٤
(٢) سورة الطور ، الآيات : ٣٥ ـ ٣٧
(٣) سورة فاطر ، الآية : ٢٤
(٤) سورة الاسراء ، الآية : ١٥

وهذا هو الحق ولا اعتبار لكلام الشاذين الساقطين الملاحدة الممسوخين الذين : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1] ، الذين حاربوا الدين النصراني ظانِّين أنه الدين الصحيح ثم غمرتهم النشوة بانتصارهم عليه وما علموا أنهم إنما حاربوا ديناً مزيفاً كاذباً من وضع الطغاة المشركين عُبّاد الصليب وأحبار الشيطان ولهم أن يحاربوا كل الجاهليات ومن ضمنها هذا الدين ولكنهم انحرفوا عن مكان المعركة الحقيقية فحاربوا النور وغيَّروا الحقائق لينفسوا عن غيظهم وحقدهم الشديد على طغاة الكنيسة الذين أذاقوهم ألوان الذل وشر الاستعباد وليحققوا أيضاً ما تطمح إليه اليهودية العالمية ويجب أن يعلم أولئك الأشرار أنه ما من فترة مرت من فترات حياة البشر إلاَّ وكان توحيد اللَّه نوراً وضاءاً لم يخل منه مجتمع في يوم ما من أيام حياة البشر لم يكن للفن ولا للفنانين فيه أي شيء يذكر ولا للفكر أو التجربة أي دخل كما يدَّعون .

وأما مايذكره الملاحدة من أن الاقطاعيين والرأسماليين كانوا يستخدمون الدين كمخدر للجماهير ليرضوا بالذل والظلم عليهم في مقابل أن يعيشوا في جنة اللَّه في الآخرة فهذا أمر قد يكون وقع كذلك . ولكن ما هي العلاقة بين الدين الحق وبين فجور طغاة الكنيسة وجشع الرأسماليين المرابين ، بل كان الأولى أن يوجَّه اللوم إلى أولئك الذين رضوا بهذا الحال ولم يبحثوا عن مخرج لهم أو عن صحة تلك الوعود من أولئك المنتفعين أو أن يخاصموا

---

(١) سورة النمل ، من الآية : ١٤

أولئك الأشرار الجشعين ويصلحوا الأمور لا أن يحاربوا اللّه ورسله وهل يجب أن يلغَى الدين لمجرد استغلال أولئك الأشرار له ، وما هو ذنب الدين إن لم يحكم ولم يستشر بل وضع في قفص الإتهام دون رحمة أو لين ولماذا يحمل تبعة أخطاء الآخرين بل أخطاء أعدائه ، وما هو السر في أن الملاحدة لم يرجعوا إلى الدين حتى بعد أن تبين لهم أن طغاة الكنيسة والرأسماليين والإقطاعيين سلبوا الناس عقولهم وتفكيرهم باسمه وهو منهم بريء .

إن الجواب واضح وهو أن الملاحدة قد بيَّتوا النية لمحاربة الدين ليستغلوا الناس هم أيضاً باسم الإلحاد الذي سمُّوه تقدماً ورفاهية وغير ذلك من الأسماء الكاذبة وقدَّسوه ليحل محل الكنيسة والكل ظالمون ومخادعون .

المبحث الثاني عشر

سبب قيام الحضارة الالحادية على العداء للدين

لقد قامت الحضارة الأوروبية الحديثة على بغض الدين بسبب عنف الكنيسة المتمثل في الدين حسب مفهومهم ، كما تقدم بيان ذلك ، وبدلاً عن التماس الحق أفاق أقطاب الفكر والحضارة الغربية على عداوة دين باطل وخرافات سخيفة وعقول تمثل الدين بزعم طغاة الكنيسة وهم أبعد ما يكونون عنه وعن الرحمة وعن فهم الحياة فهماً صحيحاً . وكان مما شجَّع الملاحدة على إحلال نظرياتهم محل الدين إضافة إلى طغيان رجال الكنيسة تلك الخرافات والتناقضات التي مُلئت بها عقيدة النصارى ـ المحرَّفة ـ وإلى ما زعموه من وصولهم إلى النتائج التي تدل على هذا حسب افتراءاتهم في اكتشافاتهم الحديثة . مثل زعمهم أن مادة العالم أزلية ، أي أن العالم ليس في حاجة إلى إله خلقه وقد كذَّب اللَّه هذا الإفتراء في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، وافتراضهم لا يقبله العقل ولا يقره الواقع وقد ألَّف العلماء من المسلمين ومن غير المسلمين المؤلفات التي لا تحصى في الرد على هذا الزعم . ومما قاله الملاحدة في تعليلهم لنشأة الكون . «إن المادة كانت منتشرة في الفضاء الفسيح ثم أخذت تتجمع على نفسها بفعل قوى التجاذب بين أجزائها، وفيما كانت المادة تتجمع كانت حرارتها ترتفع والضغط داخلها يزداد حتى انصهرت المادة انصهاراً كلياً وأصبح الكون عبارة عن كتلة هائلة من المادة تبلغ حرارتها بلايين الدرجات ويبلغ الضغط فيها ما لا يمكن

تصوره ، عند هذا الحد لم تستطع المادة أن تحافظ على تماسكها فحصل الإنفجار الكوني الهائل وتشتت المادة في الفضاء الفسيح وانخفضت حرارتها بسرعة وبدأت المجرَّات بالتكوُّن ثم نشأت الشموس والأقمار والنجوم والكواكب مع مرور الزمن ونشأ هذا النظام الفلكي المتناسق واستمرت عملية النشوء الذاتي حتى انتهى الأمر إلى ظهور الحياة والإنسان بطريقة ذاتية . كل هذا تم بسبب ذلك الإنفجار» [(١)]

ولاشك أن القارئ يدرك مدى تكلُّف هذا المفهوم وسخافته ، فمن أين لهم هذه المعلومات المفصلة ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُم﴾ .

ثم يقال لهم : كيف وُجدت هذه المادة ومن الذي أوجدها ، ثم كيف نشأ هذ النظام البديع المتناسق الجميل عن طريق ذلك الإنفجار مع أنه لا يمكن أن يُقال بتجمع أجزاء المادة في حال وجود الضغط الشديد إلى أن يكتمل منها وجود هذا الكون ، فكيف لم تنفجر من أول تجمع الضغط ؟!! ومَن الذي منعه من الانفجار وأبقاه مشحوناً بقوته إلى أن انفجر فجأة وبهذا التنظيم البديع ؟!!

إن سلمنا جدلاً ما زعموه من تلك الخرافة وكذلك تجمع المادة من طبيعة واحدة متجانسة ثم تتميز بعض أجزائها عن البعض الآخر تمايز يصل إلى حد التناقض . هذا بعيد فلو وضعت ماءاً في إناء مثلاً فإنه لا يمكن أن ينقسم هذا الماء إلى قسمين قسم منه حار شديد الحرارة وقسم منه بارد شديد البرودة ثلج» .

---

(١) الاسلام والعلم ص ٢٨ - ٢٩

كذلك إفتراضهم أن الكواكب والقمر والشمس وسائر المجرَّات نشأت بهذه البساطة الساذجة إفتراض يأباه العقل والواقع «فلو انفصلت الأرض عن الشمس بنفسها لعادت وارتطمت بها مرة ثانية ولو انفصلت كتلة ما إلى أجرام كثيرة فلا يمكن أن تكتشف الأجرام بنفسها ما هي المسارات التي لا يحصل فيها إرتطام فضلاً عن الوصول إليها»[1]

لأن هذا لابد أن يكون من قوة قاهرة مدبرة والأجرام لا تعرف هذا التقدير العجيب في أحجامها وفي مساراتها بل وفي بقائها أو نهايتها .

﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)** ﴾[2]

فأيهما أحق بالتقديس اللّه رب العالمين ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)** ﴾[3] ، أم المادة الصماء التي لا تملك لنفسها وجوداً وعدماً ، فاتضح أن استناد أهل الإلحاد على نظرياتهم السخيفة في عدائهم للدين إنما هو جهل منهم وعناد أجوف ورغبة جامحة منهم في العلو والسيطرة ونشر أفكارهم الخيالية المستكبرة .

---

(١) انظر الاسلام والعلم ص ٢٨ - ٣١

(٢) سورة يس الآية : ٤٠

(٣) سورة الأعلى الآية : ٢ - ٣

المبحث الثالث عشر

هل يوجد بين الدين والعلم نزاع ؟

ما أصدق هذه العبارة «العلم يدعو للإيمان»[1] ، فكلاهما صديقان لا يفترقان وكل واحد يؤيد الآخر . حتى إذا ظهر قرن الشيطان في أوروبا جعلوهما عدوين لا يجتمعان . ولقد خدع الملاحدة كثيراً من الناس وجعلوهم يتصورون أن بين الدين وبين العلم خصومة وتنافراً شديداً لينفذوا إلى تجهيل الدين وأهله والتنفير منهما على حد سواء ، ولقد كان من المفترض أن لا يرد هذا التساءل في الأذهان لوضوح العلاقة بين ما يدعو إليه الدين من إعمار الأرض والتفكير السليم وعبادة الخالق وبين ما يصل إليه الانسان بتفكيره وتجاربه من المخترعات التي تعود على البشر بالخير والسعادة وبالنفع العام أو الخاص أو قد تعود بالضرر أيضاً إلاَّ أنه حينما فسدت فِطَر كثير من الناس ووُجد أعداء كثيرون للدين حملوا لواء مقاومته والتشكيك في صلاحيته للبشر ، ولم يتوانوا عن إلصاق كل ما يجدونه من التهم ضده بدى واضحاً أن هذا السؤال أصبح أمراً واقعاً ولابد من الإجابة عنه وبيان الحق فيه وإزالة ما علق به من الأوساخ التي خلَّفتها أفكار الملاحدة .

بل ويجب على كل قادر أن يحتسب الجواب عن هذا التساؤل للضرورة الملحة التي وصل إليها حال كثير من المسلمين من تشويش أفكارهم وعمق

---

(١) أحث القارئ الكريم على قراءة كتاب «العلم يدعو للإيمان» تأليف العالم الأمريكي «كريسي موريسون» ، ترجمة الاستاذ : «محمود صالح الفلكي» .

الحيرة في أنفسهم من هذا المد والجزر من قبل المدافعين والمهاجمين فقد انقسم الناس تجاه هذا التساؤل إلى مواقف عديدة فمنهم من جرفه تيار الإلحاد المادي فذهب ينعق بأنه لا يمكن أن يجتمع الدين والعلم في مكان واحد فيجب إزالة الدين من طريق العلم ليكمل العلم دوره في بناء حياة البشر السعيدة ، ومنهم من ذهب إلى أنه يجب أن يبقى أمرالدين ولكن يكون بعيداً عن العلم ويبقى محجوراً عليه الوقوف أمام العلم فلا يقارَن بالتقدم المادي ولا يصح أن يذكر ذلك فيه فالدين في جهة والعلم ومخترعاته في جهة أخرى لعدم تلاقيهما .

ومنهم من وقف حائراً قد حصر صدره لا يدري أي جانب يغلب ولا أي طريق يسلك فهو قابل للإنفجار في كل لحظة وللميل إلى أي جانب وعداوة ما عداه .

ولو وُجد التثقيف الصحيح والتوجيه المخلص لما كان الأمر يستحق أكثر من مجرد التفاتة بسيطة ذلك أن أمر العلاقة بين الدين وبين العلم ومخترعاته التجريبية من السهولة بمكان معرفتها لولا أن الأمر وراءه من بيَّت النيّة لتعميق الهوة بينهما وإشعال نار الحرب والعداوة بين هذين الحميمين قبل أن يفسد الملاحدة ما بينهما من صلات ولن يتم لهم ذلك بأي حال مهما زخرفوا القول فيه .

نعم لا يوجد أي دين صحيح يعارض العلم وما يوصل إليه من مكتشفات نافعة ، أما الإسلام بخصوصه فإنه من أشد أصدقاء العلم والمتعصبين له

وقد بدأ بالحث عليه قبل القول والعمل فقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ (٢)

ومعنى هذا أنه لا نزاع بين العلم وبين الدين في الإسلام وإنما يتصور وجود النزاع بينهما في الأديان الباطلة القائمة على الخرافات وأمزجة أصحاب الجاه كالدين النصراني الذي وقف ضد العلم بكل قسوة وشراسة لأن القائمين عليه كانوا يخافون أن يذهب نفوذهم من قلوب العامة الذين استعبدهم رجال الدين النصراني شر استعباد باسم الدين .

أما الدين الإسلامي فليس فيه شيء من هذا ولهذا سار العلم والدين في اتجاه واحد هو إثبات عظمة اللَّه عز وجل وخلقه لهذا الكون وما فيه ووجوب التفكر فيه والاستفادة من كل تجربة يمر بها الإنسان وقد بدأ العلم مع الإنسان منذ أن خُلق أبو البشر آدم عليه الصلاة والسلام فقد علَّمه اللَّه الأسماء كلها وشرَّفه بالعلم بمعرفتها فبأي دليل بعد هذا يقول ضُلاَّل الملاحدة أن بين الدين والعلم جفاءاً أو نفوراً ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ (٣)

---

(١) سورة محمد ، الآية : ١٩

(٢) سورة العلق ، الآيات : ١ ـ ٥

(٣) سورة الكهف الآية : ٥

إن العلم والدين يلتقيان في أمور كثيرة وكلاهما يسيران في إتجاه واحد ويعزِّزان قوة الانسجام مع القوانين الكونية وكشف حجب الحقائق كما هي وفق طريقين متكاملين طريق يشرعه اللَّه وطريق يجتهد فيه العقل على ضوء الشرع كما أرشده اللَّه تعالى إلى ذلك ، وإذا كان ما ردَّده البعض من وجود التضاد بين العلم والدين بسبب سلوك رجال الدين في النصرانية وطغيانهم وموقف بعض رجال العلم أيضاً من الثورة على كل شيء يتعلق بالدين عن جهل منهم وبغضاء لكل دين فلا يجوز أن يكون هذا الحال سبباً للتحريش بين العلم والدين والتنافر بينهما ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ [١]

لقد نشأ العلم في محض أبيه الدين [٢] ، ولقد مرت بالبشر حضارات تلو حضارات والتمسك بالدين والإلتجاء إلى الإله العظيم خالق هذا الكون هو شعارهم ومصدر إعتقادهم قبل أن توجد موجة الإلحاد الحديث الذي أفرزته المظالم والاستعباد الكنسي للبشر على أيدي رجال الدين الكنسي وغيرهم ممن استغلَّ الدين لاستعباد الآخرين فجاء الرد عارماً لم يفرق بين الثرى والثرياء وغير عابئ بما مضت عليه القرون والأجيال التي لم تجد أي تضاد بين العلم والدين على مدى تلك السنين الطوال قبل ظهور شياطين الماركسية الحاقدة ومما يذكره التاريخ الإسلامي أن رجالاً بلغوا القمة في الإكتشافات العلمية دون أن يحسُّوا بأي تصادم مع الدين ، بل كان الأمر على العكس كانوا يحسُّون أن إكتشافاتهم لم يهتدوا اليها إلاَّ من

(١) سورة الأنعام الآية : ١٥٢

(٢) لا نزاع بين العلم والدين ص ١٣

واقع توفيق اللّـه لهم ومن تمسُّكهم بدينهم ، وكانت سبباً لزيادة يقينهم وإيمانهم باللّـه ، ومن أولئك العلماء ابن النَّفيس مكتشف الدورة الدموية الصُّغرَى ، وجابر بن حيَّان مكتشف الصودا الكيماوية وحامض الكبريتيك بعد تقطيره ، والرازي مكتشف زيت الزاج وعدَّة أمراض ، وابن الهيثم مكتشف علم البصريات ، والفرغاني واضع علم المثلثات ، والكندي مؤلف في البصريات ، والإدريسي مُثبت كَروية الأرض ، ومثله ابن حزم ، وجابر ابن حيان أبو الكيمياء ، وابن البيطار في الصيدلية ، وابن الحفيد العدوي ... وغيرهم ممن لا يمكن حصرهم في هذا المقام [(١)]

إنهم جميعاً كانوا يتعبدون اللّـه بعلمهم ويتقربون إليه به دون أن يشعروا بأي انفصال ، فضلاً عن تصور وجود نزاع بين العلم والدين ، بل كثيراً ما كان بعضهم فقهاء في علوم الدين ورجال علم في الوقت نفسه [(٢)]

ولم يجدوا في بحوثهم ما يشير بأدنى إشارة إلى النزاع بين الدين والعلم كلما اكتشفوا شيئاً جديداً بتجاربهم قالوا اللّـه أكبر : ﴿ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [(٣)] ، مع يقينهم بأن ما خفى عليهم من علوم هذا الكون أمور لا تحصى ولا يعلمها إلاَّ الخلاَّق العليم .

---

(١) انظر لزيادة المعلومات عن هذا الجانب كتاب «موسوعة عباقرة الإسلام في الفيزياء والكيمياء والرياضيات جـ ٤ تأليف د. رحاب خضر عكاري . وكتاب «عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب» تأليف محمد غريب جودة وكتاب «تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه» تأليف عبدالحليم منتصر .

(٢) لا نزاع بين الدين والعلم ص ٢٠

(٣) سرة الأعراف الآية : ٤٣

والذين يقولون : «إن قضية العصر الحديث ضد الدين» تشتمل مقالتهم على جانبين متناقضين في آن واحد. فبينما يرى العقل الحديث من ناحية أن الدين مجموعة عقائد لا يمكن إخضاعها للتجربة العلمية . ولذلك تعتبر العقيدة عملاً شخصياً للأفراد نجد في نفس الوقت . أن جيشاً من مفكري هذا النهج الفكري يدَّعون أن الكشوف العلمية الجديدة قد أبطلت العقائد الدينية» [(١)]

وهذا القول غاية في التناقض إذا ما دام الدين يستحيل إثباته بالعقل أو التجارب العلمية الحديثة ، كما قرروه ، فيقال لهم حينئذ إن رفض الدين يجب أن يكون مستحيلاً أيضاً بهما لأنه فوق مستوى العقل ولا تحيط به التجارب العلمية فكيف تنكرون شيئاً واقعاً تجهلون معرفته بالتجارب التي أثبتم انها عاجزة عن معرفة الدين .

ويُقال لهم : وهل التجارب أيضاً وصلت إلى معرفة كل شيء ؟ كلا ، فمفهومهم هذا يناقضونه بأنفسهم حين يتلمَّسون الأدلة على بطلان الدين ومعارضته للعلم بزعمهم أنهم وصلوا إلى ذلك عن طريق العلم والتجارب الحديثة والسبب في تناقضهم هذا يعود إلى أن هؤلاء الملاحدة «لا يريدون أن يستغل المؤمنون بالدين نفس المقاييس التي استخدمها هؤلاء لرفضه لأنه لو تمكن المؤمنون بالدين من استغلالها استغلالاً طيباً لاضطر المعارضون إلى أن يُسلِّموا على الأقل بأن الدين قائم على أسس معقولة» . [(٢)]

---

(١) الدين في مواجهة العلم ص ١٤

(٢) المصدر السابق ص ١٤

وهؤلاء الملاحدة لم يدرسوا الدين ولا ذكروا ذلك ، وإنما الذي حملهم على نكرانه هو ما شاهدوه في نتائج أبحاثهم في معاملهم من أمور يزعمون أنها تبطل الدين حسب تفسيرهم لها وهو فهم قاصر ومتعمد للإنفلات من الإقرار بالدين .

والذي يريد الباطل ويصرُّ عليه لا يتورع عن التحريف في الأدلة ومغالطة الحقائق خصوصاً حينما يخلوا من رادع الدين والضمير الطيب .

فإنَّ الذين يتصورون وجود نزاع بين العلم وبين الدين إنما يتصورون صورة منحرفة غير حقيقية إذ لم يكن ذلك النزاع الموهوم محل شك في تاريخ الحضارة الاسلامية على امتداد تاريخها المجيد ذلك أن العلم والدين كانا جزءاً لا يتجزء من ثقافة الإنسان منذ وجوده الأول وسيظل كذلك إلى نهاية وجوده في هذه الأرض ومن اعتقد خلاف ذلك فإنَّما يعبر عن جهله الذي لن يجد عليه أي دليل غير بغضه لرجال الدين النصراني وطغيانهم وهو ليس بدليل لأن تحميل الدين وموقفه من العلم خطأ طغاة الكنيسة ظلم صارخ سواء أكان أولئك هم طغاة الكنيسة أو خرافيات بعض البشر فإنه لا تَزر وازرة وِزر أخرى . وقد عرف القارئ أن تاريخ البشر مليء بالأمثلة التي تدل على الإحترام المتبادل بين الدين والعلم سواء أكان ذلك في العالم الإسلامي أو في غيره من أصحاب الديانات المختلفة إلى أن أفاقت أوروبا من سباتها ورأى المفكرون وأصحاب العلوم التجريبية مدى ما تعيشه الشعوب الأوروبية من تجهيل متعمد من قِبل رجال الكنيسة في الوقت الذي كان العلم يشق طريقه وسط ظلمات النصرانية المحرَّفة وظهور صدق نظرياته ومُكتشفاته في مقابل خرافات الكتاب المقدس وتعليلاته ونظرياته المتخلفة .

إن العلم في أشد الحاجة إلى الدين لبقائه علماً نافعاً مفيداً فإذا تخلى عن الدين فإنه يكون علماً شريراً ضَرره أكثر من نفعه فإذا اجتمع العلم والدين كانا طائراً يرفرف بجناحيه في غاية السعادة .

وشهادات العلماء من المسلمين ومن غير المسلمين تؤكد بوضوح أن العلم والايمان جزء لا يتجزأ ولا عبرة بكلام من يريد الدس بينهما أو التفريق بينهما أو جعلهما أو أحدهما قابلاً للإلحاد فإنه كما عرفت لا علاقة بين العلم والإلحاد فإن العلم أمر قائم بنفسه يدل على أمور قد يقبلها الإنسان وقد يحاول مغالطتها والتفلُّت مما تدل عليه . والإلحاد أيضاً أمر حادث عن تصورات خاطئة لم يكن نتيجة لعلم أو لنتيجة بحوث صحيحة بل الحق أن العلم يدعو إلى الإيمان واليقين بوجود رب العالمين كما شهد بذلك كبار علماء الطبيعة أنفسهم . ويبقى الإلحاد أمراً شاذاً لا سند له من العلم ولا دليل عليه من العقل .

المبحث الرابع عشر

إنكار وجود اللَّه تعالى وتقدَّس

لولا حلم اللَّه عزَّ وجلَّ لما استطاع أحد أن يبحث قضية وجود اللَّه تعالى أو عدمها وفي كل شيء له آيه تدل على أنه الواحد فوجوده سبحانه وتعالى يتمثل بوضوح في كل هذا الوجود من أصغر مخلوق إلى أكبره بل الإنسان نفسه من أكبر الأدلة على وجود اللَّه الحكيم الخبير وإلاَّ فأي موجود يستطيع أن يزعم أنه هو الذي أوجد نفسه وعلى الصورة التي أرادها أو قدر لنفسه رزقها وأجلها ومصيرها بعد ذلك .

لقد أقدمت فئة شاذة استهواهم الشيطان وماتت قلوبهم وإن كانوا أحياء يرزقون فذهبوا يعترضون على وجود اللَّه تعالى وهم الملاحدة وقد مهَّد لهم الطريق علماء الكلام الذين وصفوا رَبهم بأنه ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا داخل العالم ولا خارجه ولا يحس ولا يشم ولا يُشار إليه ... إلخ ، ولقد كثرت الردود على الملاحدة وعلى علماء الكلام الباطل في هذه القضية الخطيرة بما لا يكاد يحتاج إلى زيادة .

إنني أتضايق كثيراً من سرد الأدلة على وجود اللَّه تعالى وهو ما أعتقد حصوله في قلب كل إنسان مؤمن باللَّه سليم الفطرة لم تتحرف به شياطين الإنس والجن ، إن اللَّه عزَّ وجلَّ أجلُّ وأعظَم من أن يَحتاج وُجوده إلى شخص من الناس يثبته أو يجادل خصومه لإثبات وجوده .

وفي اعتقادي أن الذي يبحث في إثبات وجود اللَّه تعالى دون حاجة ملحَّة أنه يجب أن يؤدَّب تأديباً بَليغاً ومن ابتُلي بالخَوض في ذلك فعليه أن يستشعر عظمة اللَّه تعالى وأن لا يَخوض في هذه القضية الهائلة إلاَّ بقدر الحاجة . واللَّه المستعان ونعوذ باللَّه من وَساوس الشيطان .

وما دمنا في دراستنا للشيوعية وتكذيب مزاعمها فإنني أحب أن يقف القارئ على الحقائق التالية واللَّبيب تكفيه الاشارة .

●● هل البشر في حاجة إلى أدلة لاثبات وجود اللَّه تعالى ؟

تقدم أنه لا يمكن أن نجد إنساناً سليم العقل والفطرة يعتقد أن اللَّه سبحانه وتعالى يَخفى على عباده فالعقل والكون كله وجميع المخلوقات من نامٍ وجماد ، وساكن ومتحرك ، كلها تدل على وجود اللَّه سبحانه وتعالى وتشهد بقدرته وحكمته ولطفه وعظمته جميع ذرات هذا الكون ولهذا فلسنا في حاجة إلى الإتيان بحشود الأدلة على وجوده فهو أمر فطري . وفي كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه ﷺ ما يشفي ويكفي لمن عنده أدنى شك في وجود المولى عزَّ وجلَّ ، ومن العجيب أن يستدل الملاحدة على إنكار وجود اللَّه تعالى بأدلة هي أقوى الأدلة على وجوده وخلقه لهذا الكون وتدبيره له ، ولعل الذين جرؤا فنفوا وجود اللَّه عزَّ وجلَّ إنما حملهم على هذا ما وجدوه من أوصاف الإله سبحانه في التوراة والأناجيل من أنه شاخ وكبر وينسى ويأكل ويشرب ويمشي ويجلس ويحزن ويندم ويهم بالشيء ثم لا يفعله .

نعم إن مثل هذا الإله من السهل جداً إنكاره خصوصاً إذا أضفنا إليه

الصفات التي وردت له في التلمود من تعلقه ببني اسرائيل وتدليله لهم وغضبه أحياناً عليهم ثم يضرب وجهه ويندم ويبكي ويلعب مع الحوت الكبير ويعقص شعر حواء ... إلى آخر تلك الصفات التي تدل على سقوط المتصف بها فضلاً عن إعتقاد إحترامه .

ولكننا لا نبحث عن هذا الإله ولا عن الإله الذي اعتقدت الشيوعية فيه أنه يحابي الظلَمة أو أنه لا وجود له إلاَّ في أذهان الرجعيين لأنه غير منظور وغير موجود متجاهلين أنه ليس كل موجود حتما يُرى ، كوجود الهواء الذي نحس به ولا نراه ، ووجود العقل في الانسان ، إذ نفرق بين المجنون وبين العاقل ، ووجود الروح إذ نفرق بين الحي والميت وأمثلة لا تُحصى ، إننا نؤمن بإله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إله يعلم السر وأخفى إله خلق فسوى وقدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ، إننا نؤمن بهذا الإله الحق ونكفر ونلعن من يشك في وجوده .

ولقد تيقن كل إنسان أنه لم يخلق نفسه ، وأن فاقد الشيء لا يعطيه فلا المادة ولا الطبيعة خلقت أحداً إذ هي مخلوقة مقهورة ، كما أنه لا يجرؤ أحد على أن يقول أنه يخلق شيئاً ما أو أنه خلق نفسه أو غيره وقد استيقن بهذا حتى أكابر الملاحدة وما جحد من جحد منهم وجود اللّه إلاَّ عناداً واستكباراً وبغضاً للكنيسة ورجالها ولقد صاح المفكرون في أوروبا وشهدوا على النصرانية والإلحاد بالضلال وهذه الشهادة الصادرة على ضلال هذه الطوائف من أهلها لهي أكبر دليل على أن الإلحاد لا استقرار له ولا مكان له وإنما هو زوبعة عارضة ستنتهي إن شاء اللّه تعالى كما انتهت سائر الأفكار الباطلة ومن الذين شهدوا على ذلك :

«رسل تشارلز ارنست» أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرانكفورت بألمانيا حيث قال : «لقد وُضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيَّل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ومع ذلك فإن من ينكر وجود اللّه لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشرة للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجميع الذرات والجزيئات من طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية ، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة فهذا شأنه وحده ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الإعتقاد بوجود اللّه الذي خلق الأشياء ودبَّرها» .

«إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذلك فإنني أؤمن بوجود اللّه إيماناً راسخاً» (١)

ويقول «إيرفنج وليام» الحاصل على الدكتوراه من جامعة أيوا ، وأخصائي وراثة النباتات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجن : «إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها

(١) اللّه يتجلى في عصر العلم ص ٧٧

والتي لا يحصيها عد ، وهي التي تتكون منها جميع المواد كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا ـ بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها ـ كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة» [1]

ويقول «ألبرت ماكومب ونشستر» المتخصص في علم الأحياء : «ولقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة وليس بين مخلوقات اللّه أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون ، أنظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق فهل تستطيع أن تجد له نظيراً في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آله حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار بالآلاف من التفاعلات الكيمائية والطبيعية ويتم ذلك تحت سيطرة البروثو بلازم ، وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية ، فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ، إن اللّه لم يصنعها هكذا وحدها ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل مع الاحتفاظ بكل الخواص والميزات التي تعينها على التمييز بين نبات وآخر إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها اظهاراً لقدرة اللّه» [2]

وهناك عشرات بل مئات الأدلة على خالق هذا الكون ومدبره ، وشهادة هؤلاء العلماء ، كل في مجال تخصصه ، شهادة حق والحق مقبول من أي شخص كان .

---

(١) اللّه يتجلى في عصر العلم ، ص ٥٢

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ – ١٠٦

والملاحدة وهم ينكرون وجود اللّه تعالى ولا يعترفون بأنه هو الخالق المدبر لهذا الكون وما فيه هم أقل وأذل من أن يصلوا إلى قناعة بإنكارهم وهذا إجرام شنيع ولم يكتفوا به بل أضافوا إلى هذا الإجرام زعمهم أن العلم هو الذي دل على هذا ، وأن البديل عن اللّه تعالى هي الطبيعة التي قالوا عنها بأنها هي التي خلقت السموات والأرض والإنسان والنبات وسائر المخلوقات فكيف تم ذلك حسب تعليلهم ؟

قالوا : «إن وجود هذا الكون وما فيه إنما هو نتيجة حركة أجزاء المادة وتجمعها على نسب وكيفيات مخصوصة بوجه الضرورة بدون قصد ولا إدراك . وبسبب تلك الحركة أخذت تتجمع أجزاء المادة المختلفة الأشكال على كيفيات وأوضاع شتى فنتجت تلك المتنوعات» ، هذا هو مبلغهم من العلم ، إن كل شيء وجد بطبيعته عن طريق الصدفة والحركة التطورية دون قصد ولا إدراك على أن هذه الطبيعة التي يزعمون أنها تفعل كل ما تريد نجد أن بعضهم لا يحترمها بل يتعمد الإساءة إليها وإهانتها بأنواع السباب واللمز في إرادتها وقوتها ووفاءها .

وإليك ما قاله وزير خارجية أكبر دول العالم وأقواها في عتابه المرير وتهكمه بالطبيعة حينما لم تحقق لهم آمالهم وما يطلبونه منها فقد قال «كولن باول» ، و «ريتشارد باوتشر» : «إننا ندين تخلف الثلج عن موسم الأعياد راجياً الطبيعة الأم أن تعالج هذه المسألة» إلى أن قال : «لا يمكن لشيء أن يبرر إفساد هذاالحدث الهائل ، إننا ندعو الطبيعة إلى القيام بمبادرة فورية» وقال : «إننا نعتبر استمرار الطبيعة في رفض القيام بواجباتها

حيال الدول المتحضرة عملاً استفزازياً وغير ايجابي لذلك ندعو الطبيعة إلى إتخاذ جميع الإجراءات الضرورية بغية تساقط كمية مناسبة وذات مصداقية من الثلوج» وإذا أردت التعليق على هذا الكلام السخيف المملوء بالكبرياء والعنجهية فاقرأ ما كتبه عبدالرزاق السيد عيد بعنوان : «أمريكا تكشف عن وجهها القبيح وتعلن الحرب على الطبيعة» في مجلة التوحيد [1]

فيا ترى ماذا يقصد بالطبيعة الأم ؟!!! إنه إلحاد وكفر وسخف فما هي الطبيعة الأم التي يتحدث عنها هؤلاء ويقولون إنها هي التي تخلق وتحيي وتميت وترزق من تشاء وتمنع من تشاء ، وتخاطَب بتلك اللَّهجة الحارة المفتقرة إلى الأدب ؟!!! فمن المعروف أن الطبيعة لا تخلو عن :

١ ـ إما ان تكون هي نفس الذوات الموجودة في الكون . من الحيوان والنبات والجماد ، وهذه كما يرى القارئ لا يصح الإستغاثة بها ليتساقط الثلج في موسم الأعياد ليلهو ويلعب بها طغاة اليهود .

٢ ـ وإما أن تكون هي صفات الأشياء الموجودة في العالم من حركة وسكون وحرارة وبرودة وليونة ويبوسة وغير ذلك ، وهذه أيضاً كذلك لا تملك لنفسها وجوداً ولا عدماً .

ومهما كان الجواب فإنه خطأ وجهل شنيع حين يسند إيجاد هذا الكون البديع عن طريق طبيعة لا تعقل ولا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً .

---

(١) مجلة التوحيد ص ٢١ السنة الثلاثون العدد الثاني عشر ذو الحجة ١٤٢٢هـ ، وقد نقل النص المذكور عن جريدة الخليج في عددها الصادر بتاريخ ١٤٢٢/١١/٧هـ نقلاً عن وكالات الأنباء .

فهل يتصور أحد أن من لا يعقل يخلق من يعقل ؟

وهل يستطيع شيء لا إرادة له ولا غاية له أن يخلق كائناً له إرادة وغاية .

إن الإنسان كائن عاقل مدبر وله إرادة وهدف وغاية والطبيعة ليست لها تلك الصفات فهي ناقصة فهل يمكن للناقص أن يوجد الكامل ؟

إن هذا الكون محكم متقن ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

الكواكب محكمة بإتقان ، والبحار لا يطغى بعضها على بعض ، والحيوانات لا تَلدُ إلاَّ نفس الحيوان من جنسها ، والشجرة لا تُنبتُ إلاَّ نفس الشجرة ، وقِسْ على هذا سائر ما تراه في هذا الكون ، فالإنسان هو الإنسان ، والبقرة هي البقرة ، والكبش هو الكبش أينما اتجهت في هذه الأرض مما يدل على أن الخالق واحد فكيف تستطيع الطبيعة أن تدير هذا الكون بهذه الدقة المعجزة التي تشهد آياتها في كل ما حولنا من شؤون الكون والحياة أن لها خالقاً قاهراً ؟!! ، ثم يقال للملاحدة أيضاً : هل لأجزاء المادة إرادة وقصد في تنويع المخلوقات في العالم من نجوم وكواكب ومعادن ونباتات وحيوانات وبشر ؟ كيف يفترض أنسان أن يكون كل هذا وُجد بفعل ذرات الطبيعة الصماء ؟

إن المادة لا عقل لها ولا بصر كي ترتب المخلوقات وتنظم شؤونها ، ولا منطق لها كي تفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه وهذا يعني أن «القول

---

(١) سورة يس ، الآية : ٤٠

بخلق الطبيعة للوجود لا يخرج عن تفسير الماء بالماء فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء والأصناف صنعت نفسها والأشياء أوجدت ذواتها . فهي الحادث والمحدث وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته . وبطلان هذا القول بيِّن» وهو لا يخرج عن أمرين :

١ ـ ما الإدعاء بأن الشيء وُجد بذاته من غير سبب وهذا قول فاسد .

٢ ـ وإما إزدواج الخالق والمخلوق في كائن واحد ، فالسبب عين المسبب ، وهو مستحيل وهو تهافت وتناقض لا يحتاج لشرح .

لو كانت الطبيعة هي الخالق كما يقولون لكانت قوانينها واحدة المريض لابد أن يموت والصحيح لا يمرض والنبات الذي يسقى بماء واحد لا يختلف طعم ثمره لكننا نرى العكس أحياناً نرى المريض يشفى والصحيح يموت بدون مرض أو علة ونرى الزرع والنبات في ساحة واحدة يمتص غذاء في الأرض من تراب واحد ويسقى بماء واحد ولكن الثمر قد يختلف في المذاق والألوان والروائح والمنافع والمضار . فهل هذا كله من صنع الطبيعة الصماء أو المادة العمياء وهل هذا هو العلم الذي يقولون به ؟

إن هذا هو الجهل بعينه وليس بالعلم ثم تأمل قول اللّه تعالى : ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)** ﴾ [(١)]

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٤

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ (٣)

تأمل هذه الآيات ودلالتها إذا أردت أن تخرج من ظلمات الجهل إلى نور

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٣

(٢) سورة الحج ، الآيتين : ٦٥ ، ٦٦

(٣) سورة النمل ، الآيات : ٦٠ ـ ٦٤

العلم واليقين فهذا هو الحق وهذا هو البرهان الذي يجب أن نُطأطأ له الرؤوس والعقول إجلالاً وخضوعاً ، وأين هذه البراهين من تُرَّهات المنحرفين الضالين عُبَّاد المادة .

ومما يجدر بك الاطلاع عليه ما سجله العلماء التجريبيون من الإيمان باللَّه تعالى عن قناعة ويقين من خلال بحوثهم وتجاربهم في إكتشافاتهم العلمية .

وإليك أمثلة رائعة تدين الإلحاد القائم كذباً على ما سموه علماً من واقع ما كتبه بعض العلماء التجريبيين :

جاء في كتاب «اللَّه يتجلى في عصر العلم» ثلاثون مقالة لمجموعة من كبار العلماء الأمريكيين في تخصصات علمية مختلفة في علوم الكون والحياة من كيمياء وفيزياء وتشريح وأحياء ، تذكر كلها أنواعاً من الأدلة العلمية على وجود اللَّه بعد أن أدهشهم ما توصلوا إليه من ملاحظات وما شاهدوه من عجائب خلق اللَّه . لكن يجب قبل أن نسوق شواهد من أقوال هؤلاء العلماء أن نؤكد في البداية أننا لا نسوق هذه الشواهد لحاجتنا إليها فعندنا في كتاب اللَّه ما يكفي ويشفي ولكننا نسوقها لنرغم بها أنوفاً فتنها التقدم العلمي في هذا العصر فظنوا أن العلم يقتضي عدم الإيمان باللَّه تعالى . ولنرد بها على الذين يعزمون أن علماء الطبيعة ـ أو كثيراً منهم ـ مُلحدون لأن الإيمان يجافي العلم ، بزعمهم ، وإليك تلك النماذج الرائعة :

يقول «فرانك ألن» عالم الطبيعة البيولوجية : إذا سلَّمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هناك إحتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال :

١ ـ فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال . وهذا يتعارض مع ما سلَّمنا به من أنه موجود .

٢ ـ وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا مرفوض بداهة .

٣ ـ وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ليس لنشأته بداية وهذا الإحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون باللّه من أزلية الخالق . لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذاً حدث من الأحداث ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظم البديع إلى المصادفة عقلاً ، ولذلك فهذا الإحتمال باطل .

٤ ـ وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه وهو الإحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض . وليس يرد على إثبات هذا الإحتمال ما يبطله عقلاً . فوجب الإعتماد عليه .

وقال «جون كليفلاند كوثران» عالم الكيمياء والرياضيات : تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية . ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية بل وُجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لابد أن يكون مخلوقاً وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان . فإذا كان هذا

العالَم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي متصف بالعلم والحكمة .

وقال «ادوارد لوثر كيسيل» أستاذ الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو : يرى البعض أن الإعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الإعتقاد بوجود إله أزلي ، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هـذا الرأي . فالعلوم تثبت بكل وضـوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية ، فقد أثبت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة [١] ، ولو أن المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمـانة والبعـد عن التحيز الذي ينظرون بـه إلى نتائج بحـوثهم ، ولو أنهم حرَّروا عقولهم من سلطان التـأثر بعواطفهم وانفعالاتهم ، فإنهم يسلِّمون دون شك بوجود اللَّه وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق ، فدراسة العلوم بعقل متفتح تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو اللَّه [٢]

وإذا كان وجود اللَّه تعالى يتجلى بهذا الوضوح فما الذي حمل الملاحدة على إنكاره ؟!! وما هي الشبهات التي تعلقوا بها ؟

•• شبهات الملاحدة في إنكارهم وجود اللَّه تعالَى :

تذكر الجواب بالاضافة إلى ما سبق فيما يلي :

---

(١) من أين له هذا التحديد ؟! ونحن نصدقه في أن للكون بداية لكن لا نعرف تحديدها .

(٢) انظر لتلك النصـوص كتاب «اللَّه يتجلى في عصر العلم» وهذه النصـوص نقلاً عن كتاب «صراع مع الملاحدة حتى العظم» ص ١١٥ ـ ١٢٠ وانظر بقية المقالات في هذا الكتاب .

١ ـ دليل الجاذبية :

من شُبَهِهم على نفي وجود الإله الخالق الحافظ لهذا الكون مازعموه بعد اكتشاف نظام الجاذبية في علم الفلك من أن هذا الكون محفوظ بقانون الجاذبية ومتماسك بسببها لا بقدرة إله خالق ولاشك أن هذا الفهم تافه سخيف إذ يقال لهم هل نظام الجاذبية ينفي وجود إله خالق قادر ، أم أنه على العكس يدل على وجود الإله سبحانه وتعالى الذي خلق الجاذبية ذاتها لتعمل وفق ما أراد وقدَّر لا وفق ما تريد هي ، إذ لا إرادة لها ولا وجود لها من نفسها فهي قد وُجدت بعد أن لم تكن ، وهذا الترتيب العجيب في الكون يفوق كل قدرة ويفوق كل تدبير لقد حيَّر العقول وتضاءلت دون إدراكه الأفهام ، فكيف يُنسَب هذا كله إلى الجاذبية المحدثة المخلوقة ؟ كما أن كثيرا من الملاحدة ـ كما تقدم ـ يعترفون بعجزهم عن الوصول عن طريق الأبحاث والتجابر إلى معرفة أسرار كثير من الحقائق المشاهدة في هذا الكون وهذا الإقرار يلزمهم أن يقرُّوا أيضاً بحقيقة الإله ، بل وحقيقة الدين لأنه يشتمل على كثير من الحقائق التي لا يصل العقل إلى معرفتها لا عن طريق البحث ولا عن طريق التجارب فكيف ساغ لهم الإيمان بأن لبعض الحقائق المشاهدة حقائق باطنية عجز العلم عن معرفتها بينما ينفون وجود الإله وحقيقة الدين بحجة أن الدين قائم على أمور لا تدرك حقيقتها الباطنية عن طريق البحث والتجربة ، هذا تناقض واضح وتفريق بلا مستند .

٢ ـ دليل الإرتقـــاء :

من شُبَهِهم التي استندوا عليها في إلحادهم في اللّه تعالى قضية الارتقاء .

أي إرتقاء المخلوقات وتطورها في خلقها تلقائياً وهذه القضية رغم وضوحها في الدلالة على وجود اللّه تعالى وقدرته ومشيئته ورحمته بخلقه إلاَّ أنهم نظروا لها من جانب آخر بعيد عن الفهم السليم والعقل المستقيم فزعموا أن أنواع الحياة قد وُجدت نتيجة لعمل الإرتقاء لافتراضهم أنه على فرض وجود خالق لهذه الحياة بزعمهم فلا يمكن أن يخلقهم على هذا الترتيب من الصغر إلى الكبر في الإنسان والنبات بل يخلقه دفعة واحدة كل صنف في كمال شكله بدون ترتيب يخضعها لعمل تطوري طويل الأمد حسب زعمهم وأن المخلوقات تطورت بنفسها بفعل المادة وأنها تولَّدت عن بعضها للتشابه بينها وأن بقاءها يعود إلى قدرتها على التكيف مع الظروف التي تحيط بها .

والواقع أنه ما من مؤمن باللّه عزَّ وجلَّ إلاَّ وهو يعلم أن وجود الخلق على هذه الحالة إنما يعود إلى مشيئة اللّه وقدرته ولتنتظم الحياة على سنة واحدة ولن تجد لسنة اللّه تبديلا .

وأن ما يزعمونه من تطور المخلوقات بنفسها بفعل المادة إن هو إلاَّ خرافات سخيفة ولو كان ذلك صحيحاً لأدى التطور إلى أن تصبح الذرَّة جملاً أو فيلاً ضخماً فما الذي يمنعها وقانون التطور يجيز ذلك لها ؟

وقد مرت ملايين السنين ولاتزال الذرة هي الذرة والجمل هو الجمل والإنسان هو الإنسان لم يتطور من قرد إلى إنسان إلاَّ عند «داروين» الملحد الذي أصبحت نظرياته محل سخرية العقلاء من الناس وضحكهم منها وإذا كان الارتقاء بمعنى أن الإنسان والحيوان يكون في أوله صغيراً ثم يكبر شيئاً فشيئاً إلى أن يكتمل فهذا أمر حقيقي مشاهد وهو يدل على قدرة قوية تربيه إلى أن يصل إلى درجة الاكتمال ولا يدل هذا على أنه ليس له إله رحيم مدبر .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على هذا التطور والارتقاء في حياة الانسان والحيوان والنبات ولو كان للطفل المولود أسناناً حادة من أول يوم لما أرضعته أمه ولو ولد شاباً لما وجد ذلك الحنان بينه وبين أمه وأبيه وأهله ولو كانت الشمس تسطع حرارة منذ بزوغها لما وجد لها هذا الحب في استقبالها وفي غروبها كل يوم ولكن الملاحدة قلبوا الأمر فجعلوا ما كان دليلاً واضحاً على قدرة اللّه تعالى ووجوده جعلوه دليلاً على إنكار وجوده لأن قلوبهم غلف وقد طبع اللّه عليها .

وأما ما زعموه من أن الكائنات الحية نشأت عن التولد وأن تكيفها مع الظروف هو الذي أبقاها فإنه يقال لهم إن هناك حقائق مسلَّمة لا يعارضها عقل ولا دين بحال ، بل يؤكدها الدين والعقل بدلالتها على الخالق العظيم ولا يصح أن يقال أنها دليل على صحة نظرية التطور التي يثبتها الملاحدة وهي :

١ ـ الكائنات الأدنى كالنبات وجدت قبل الكائنات الأرقى كما يذكر الباحثون

فالإنسان هو أرقى الكائنات الحية وجد متأخراً بينما النباتات وجدت أولاً فانَّ اللَّه عزَّ وجلَّ خلق السموات والأرض وخلق الأرض وقدر فيها أقواتها وما يحتاج إليه البشر حين يوجدون عليها .

٢ ـ يوجد كثير من أوجه الشبه بين الكائنات الحية كالإنسان والقرد ومع ذلك بقى كل كائن كما هو على طول المدى لم يتحول القرد إلى إنسان ولا الإنسان إلى قرد .

٣ ـ الكائنات الحية تملك قدرة على التكيف مع الظروف «ظهور المناعة لمقاومة الأمراض ، تغير لون الجلد لمقاومة الحرارة وأشعة الشمس ... الخ .[١]

ويقال لهم في توجيه ذلك : إن كل هذه الثوابت لا يعارضها الدين أو العقل وهي من أوضح الأمور على قدرة اللَّه تعالى الذي منحها هذه الصفات فإن ترتيب وجود الكائنات يعود لمشيئة اللَّه تعالى كذلك ولا يلزم من وجود الكائن الأول أن الكائن الذي يليه تولَّد عنه ، فإن الإنسان مع وجوده متأخراً لا يصح أن يقال أنه تولَّد عن النبات الذي سبقه في الوجود ، وإلاَّ لزم التسلسل فإنه يقال لمن يريد إثبات ذلك والنبات أيضاً عن أي شيء تولَّد ؟ فلو قال من اجتماع أجزاء المادة يقال له وأجزاء المادة أيضاً من أي شيء تولَّدت ؟ وهكذا فلا يجد جواباً في النهاية إلاَّ التسليم رغم أنفه شاء أم أبى .

وأما وجود التشابه بين الكائنات الحية فلا يعني هذا أيضاً أن كل كائن

---

(١) «اللَّه يتجلى في عصر العلم» ، ص ٣٨

تولد عن شبهه فلا يصح أن يُقال أن القرد تولَّد عن الإنسان أو الإنسان تولد عن القرد لما بينهما من تشابه لا يمكن هذا إلاَّ في نظرية «دارون» وقد عرفت سخافتها ، بل إن العلم والدين كلاهما يثبتان أن التشابه بين الكائنات الحية مع بعضها البعض أو مع بعضها وأخرى ليست من جنسها إنما هو دليل قاطع على أن مصدرالإيجاد واحد وهو اللَّه تعالى ولو أن الكائنات، كلها تولد بعضها عن بعض لماكان هناك فرق ، في مفاهيم العقلاء بين أن تقول لإنسان أنت قرد أو كلب أو شجرة وبين أن تقول له أنت إنسان أو قمر أو وردة لحصول التولُّد الذي زعمه الملاحدة بنظرياتهم السخيفة إذ مادامت الكائنات كلها تولَّدت عن بعضها البعض فلا يبقى بينهم أي فارق حقيقي .

وأما وجود القدرة للكائنات الحية على التكيف مع الظروف التي تحيط بها فإن العلم والدين يثبتان ذلك ويرجعان السبب الى قوة مدبرة رحيمة هي قوة اللَّه تعالى وقدرته ورحمته فإن تلك القدرة على التكيف إنما هي رحمة من اللَّه تعالى لبقاء ذلك الكائن حياً منتفعاً بذلك التكيف على مقاومة انقراضه إلى الوقت الذي يشاء له موجد تلك القدرة فأي دليل للملاحدة في هذا على عدم وجود اللَّه تعالى الخالق لهذه الكائنات والموجد لها هذه القدرة على التكيف في معيشتها ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)** ﴾ [١]

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤٦

٣ ـ قانون العِلَّة أو المْعلول أو التفسير الميكانيكي للكون :

من المسلَّم به عند العقلاء وكل المؤمنين باللَّه تعالى أن اللَّه تعالى يوجد الأشياءعند وجود أسبابها في أغلب الأمور إلاَّ إذا أراد عدم وجود تلك الأسباب وحينما اكتشف علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن الكون يسيِّره قانون العلة والمعلول طار الفرح بمفكري الملاحدة وظنوا أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة في التدليل على عدم وجود اللَّه تعالى لأن كل الأشياء ناتجة عن علة ومعلول فلا ضرورة حينئذ إلى القول بوجود إله موجد لأن جميع ما يجري في هذا الكون إنما يحدث بسبب علل مادية دون تدخل خارجي غير وجود العلة والمعلول التي تغني عن القول بوجود اللَّه عزَّ وجلَّ وهو ما يسميه بعض الباحثين «التفسير الميكانيكي للكون» ومن الطريف أن العلماء الذين اكتشفوا هذا القانون لم يزعموا أنه بديل عن اللَّه تعالى بل صرَّحوا بأنه سنة اللَّه في الخلق أن يجري الأمور بواسطة أسباب وعلل فقد قال «نيوتن» : «هذا هو أسلوب اللَّه في العمل . فاللَّه يجري مشيئته في الكون بواسطة أسباب وعلل» [١]

ولكن الملاحدة وهم في نشوة فرحهم ببناء مذهبهم الإلحادي جعلوا هذا ضمن أدلتهم على تقوية إلحادهم ونظريتهم إلى الدين بعين البغضاء وأنه بزعمهم ينافي العلم ، وأنى لهم أن يكون هذا الإكتشاف دليلاً على عدم وجود الإله الخالق الذي قدَّر الأسباب وضرب الآجال وفق سننه في هذا الكون التي هي أجلى من الشمس لولا عناد الملاحدة واستكبارهم وقد

(١) الدين في مواجهة العلم ص ٤٢

أشار اللّه تعالى إلى هذا في القرآن الكريم حينما أُمرت مريم بأن تهز النخلة وهي في حالة تمام الإعياء والتعب في وقت الولادة ليفهم الناس أن اللّه تعالى يجري الأمور بأسبابها .

وقد وجد الفلاسفة الملاحدة صفعة أبطلت نشوتهم بهذا الإكتشاف الميكانيكي وذلك حينما عجز العلماء عن الإتيان بتفسير للأسباب الكامنة في بعض القضايا مع وضوح آثارها دون أن يعرفوا وجه العلة والمعلول فيها وعلى سبيل المثال فان الراديوم عنصر مشع وإليكتروناته تتحول إلى حطام تلقائياً بعمل الطبيعة وقد أجرى العلماء تجارب لا حصر لها لكي يصلوا إلى سبب إشعاع الراديوم ولكن كل التجارب إنتهت إلى الإخفاق . ونحن نجهل حتى اليوم سبب تحطُّم إليكترون ما وخروجه عن نظامه النووي في الراديوم وأيضاً فنحن نشاهد المغناطيس وهو يشد نحوه الحديد . وقد أقام العلماء نظريات كثيرة لشرح هذه الظاهرة ولكن أحدهم كتب يعلق على هذه النظريات قائلاً : «إننا لا نعرف لماذا يشد المغناطيس الحديد نحوه ربما لأن اللّه أصدر إلى المغناطيس أمراً بذلك» (١)

ولقد علل العلماء في الماضي لبعض القضايا بتعليل ظنوا أنه صواب فإذا به عند التحقيق تعليل سطحي ، بل لا يعرف الإنسان إلى الآن لماذا ينام حين يستلقي في الليل على سريره ما هو السبب لذلك .

ولقد اعترف الملاحدة بعد طول جدل بأن قانون التعليل ليس حقيقة مطلقة بالمفهوم الذي افترضوه في القرن التاسع عشر ، بل لقد قرَّروا

---

(١) الدين في مواجهة العلم ص ٤٣

أخيرا «أن نظام العالم لا يخضع لقانون العلة والمعلول الناتج عن الصدفة المحضة ، وإنما هناك عقل ذو وعي يدبر شؤون العالم بالإرادة» .

وكان سائداً عند الجهَّال في القرون الأولى أن هناك آلهة مشتركة في تدبير هذا الكون وهي تخضع في النهاية لإله واحد هو أكبرها فقد تغيرت هذه النظرة الشركية إلى ما هو أقبح منها وهو الإلحاد المادي الحديث القائم على القول بالصدفة وطبيعة أجزاء المادة وانتظامها وانفجارها مما لم يقل به المشركون قديماً .

٤ ـ دليـــل المـادة :

ومن أدلتهم على نفي الإله واعتبار الدين خطراً يضاد العلم قولهم أن أساس هذا الكون كان مادة شبه غبار منتشر ثم حدث أن تحرك حركة لم تنته إلاَّ بتكوين هذا الكون وما فيه في إنفجار هائل ، ولكن يقال لهم إن هذا التفسير مضحك سخيف فهل تستطيعون أن تثبتوا من الذي كوَّن ذلك الغبار ومن الذي جمعه ومن كان السبب في تلك الحركة التي جعلت الكون كله يتفجر ويتكون على نحو ما هو عليه ؟

إنهم لا يجدون لهم جواباً غير أن الصدفة هي التي فعلت ذلك وهو إفتراض بدون أساس ناتج عن خيال كاذب وفهم قاصر ، ويقال لهم : إذا كان وجود هذا الكون عن طريق الصدفة أليس من الممكن والحال هكذا أن توجد صدفة أخرى تقضي على هذا الكون كله وتتعطل كل هذه المصالح من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك مما في هذا الكون المترابط المنتظم بصورة

تضمن استمرار الحياة سليمة عن الخراب والتداخل إذ الشمس تجري لمستقر لها والنجوم زينة للسماء والقمر ضياءاً والرياح لواقح والسحب تحمل المطر والليل في وقته والنهار في وقته ، كلها تجري لصالح الإنسان ولبقاء الحياة هذه الدهور التي لا يعرف لها وقت إلاَّ اللَّه تعالى ، بل والإنسان نفسه أعظم آية ، كيف أوجدته الصدفة من العدم وكيف وُجد الإنسان الحي من مادة ليس لها حياة . «إن التفسير الميكانيكي يعجز هنا عن إقرار أن سبباً واحداً خلق الكون . وأن هذا السبب نفسه يقوم بتدبير شؤونه في نفس الوقت ، إن هذا التفسير نقيض وجود إلهين اثنين . فمن ناحية يقدم لنا هذا التفسير نكتة قانون الصدفة لشرح الحركة الأولى التي وقعت في المادة الراكدة ، ولكن هذا التفسير من ناحية أخرى يعجز عن تقديم تفسير مقنع لتسلسل الحركة بواسطة تلك الصدفة نفسها التي وقعت «صدفة» للمرة الأولى لذلك وجب البحث عن إله آخر لشرح هذا الجزء الأخير من التفسير الميكانيكي» (١)

وقد وجدوه بزعمهم في مبدأ التعليل الذي زعموا فيه أن الكون إبتدأ في الوجود إثر حركة المادة وانفجارها الذي سبق ذكره وعرفت سخافته وبطلانه .

وحينما قام الإلحاد ونكران الإله على أساس أن الكون خاضع لتلك القوانين المعنية وأن كل حدث له سبب وأن قوانين الإرتقاء قد تكفلت بإتمام كل موجود وأن الكون كله تكون من مادة حسب سخافاتهم فلا حاجة إلى القول بوجود إله خالق مدبر لهذا الكون ، وبالتالي أخذ عظماء الكفر والإلحاد يتبجَّحون

---

(١) الدين في مواجهة العلم ص ٤٧

بما توصلوا اليه في اكتشافاتهم من تلك القوانين الطبيعية فراحوا يتفنَّون في إطلاق كلمات الإلحاد وأنه بإمكانهم أن يخلقوا الإنسان والكون لو توفرت لهم المواد والتي زعموا أن الكون خُلق منها فقال الفيلسوف الألماني «كانت» : «ائتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف يخلق الكون منها» [(١)]

وقال «هيجل» : «إنني أستطيع خلق الإنسان لو توفر لي الماء والمواد الكيماوية والوقت» . [(٢)]

وقال «نيتشه» : «لقد مات الإله الآن» . [(٣)]

وهكذا زعموا أن العلم أوصلهم إلى أن الكون إنما وُجد من مادة وأنه لا أثر للخالق فيه ، وبالتالي فلا حاجة مع وجود هذه العلوم والإكتشافات إلى القول بالخالق وسبحان العليم الحليم .

وقالوا متعالين : لقد كان الإنسان القديم يعتقد أن خروج الكتكوت من البيضة إنما كان بقدرة إلهية أما اليوم فقد علمنا أن الكتكوت بعد ٢١ يوماً يظهر على منقارة قرن صغير يستعمله في تكسير قشرة البيضة فيخرج منها ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضه . [(٤)]

---

(١) الدين في مواجهة العلم ص ٦٤

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الدين في مواجهة العلم ، ص ٦٦

وقد قال «كرس موريسون» في بيان هذا اللغز (في كتابه المفيد «العلم يدعو إلى الإيمان» ، ص ١٤٧) : «لقد حل إلى الآن لغز أيتهما جاء قبل الآخر الدجاجة أم البيضة ؟ إنه لم يكن هذه ولا تلك بل جاءت قبلهما خلية أولية والبيضة ليست إلاَّ مجرد غذاء للجنين» .

إنهم حين يقفون عند هذا الحد في خلق الكتكوت تفوتهم أمور كثيرة لا يستطيعون الجواب عنها هي أشدُّ من تكسير البيضة ، إذ يُقال لهم : كيف يظهر هذا القرن ؟!! ، ومَن الذي منحه هذا القرن الضروري لخلاصه من البيضة ؟!! ، فإذا قالوا : إنها الطبيعة ، فيمكننا أن نقول لهم : إن هذه الطبيعة التي تقولون بها هي سنة اللَّه تعالى في تكوين خلقه ، ولن تجد لسُنَّة اللَّه تبديلاً ، وأنها هي اللَّه تعالى الخالق المدبِّر ، فيصبح الخلاف في وجود اللَّه بين المؤمنين والملحدين خلافاً لفظياً .

ومهما اكتشف العلماء من إكتشافات ، فإنها تبقى في حاجة إلى بيان القوة المؤثرة الخفية فيها الذي حاد عنها الملاحدة ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)** ﴾ [(١)]

وكلام اللَّه هو الدليل القاطع ، فقد أثبت اللَّه تعالى أن الإنسان مهما كابر عقله ، فإنه يعلم في قرارة نفسه أن الشيء لا يوجد نفسه ، وأن العدم لا يوجد الموجودات المشاهدة المنتظمة في أكمل وأدق نظام ، والمادة التي جُعلت إلهاً في نظرهم هي نفسها مخلوقة مربوبة حتى وإن وصفوها بصفة الإله .

ومن الملفت للنظر أن هذا الإله المختلق ـ المادة ـ لا يصفونه بالحكمة ولا القصد ولا التدبير وهذا ما أكده «دارون» ، و «أنجلز» ، و «ماركس» ومن سار على منهجهم في زعمهم فوضوية المادة على أن هذا الإلحاد الذي قرره «دارون» ، و «ماركس» ، و «إنجلز» لم يكن وليد أفكارهم وإنما أنشأته ظروف كثيرة قبلهم ومنها الحياة الدينية في أوروبا حينما انفصلت

---

(١) سورة النمل ، الآية : ١٤

عن كل شيء يشير إلى الدين الصحيح وحلَّ محله طغيان رجال الدين الكنسي الذي نتج عنه بغض الدين وبغض مصدره وهو ذلك الإله المنحاز الى الطبقات الثرية وإلى رجال الدين والحكام ولا شأن له بالفقراء والمغلوبين على أمرهم .

ومما لا ريب فيه أن هذا المفهوم الباطل للدين والإله أمر لابد أن يولد عنه الإلحاد متى اقتنع الشخص بصحته ، كما أن استغلال الطبقات القوية للفقيرة وإذلالهم باسم ذلك الإله الذي صوَّروه قوة عاتية إلى جانبهم فقط يعذب من أغضبهم ويرضى عن من أرضاهم من شأنه أن يساعد على نشأة الإلحاد أيضاً .

ومن هنا شعر الجميع بوجوب الهرب من وجه هذا الإله المتصف بتلك الصفات إلى إله آخر له كل صفات الإله الأول إلاَّ أنه لا يعترف بالكنيسة ولا يبارك ظلم طغاتها ولا يلزم الناس تجاهه بأي التزام وعُبَّاده أحرار فيما يصنعون بأنفسهم لا سلطان لأحد عليهم إلاَّ الهوى والشهوات لقد استراح من أراد الهرب من إله الكنيسة إلى الإله الجديد المسمَّى «الطبيعة» مادام بينهما هذا الفارق الكبير في السلوك وتفنَّن بعد ذلك هؤلاء الهاربون في إضفاء الصفات على هذا الإله الذي تخيلوه وأحبوه وسمُّوه الطبيعة .

ولكنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه إله وهمي متخيَّل لا حقيقة له إلاَّ من خلال أنه ملاذ وجداني أرحم من إله الكنيسة حتى وإن كان غيبياً وكانوا كلما وقفوا على شيء يدل على الإله العظيم رب العالمين سارعوا إلى تفسيره لصالح هذا الإله المتخيل مخافة أن يقعوا مرة أخرى في قبضة رجال الكنيسة

وصدق عليهم قول اللّه تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ (١) أو قول الشاعر :

كَالْمُسْتَجيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنَّارِ

إن الملاحدة هربوا عن اسم اللّه والإعتراف به إلى اسم آخر أعطوه نفس القدرة ونفس الصفات الإله الحقيقي دون أي مبرر إلاَّ إلهرب من إله الكنيسة دون أن يرجعوا إلى عقولهم وإلى سؤال أنفسهم بصراحة وصدق هل هذا الإله الذي جعلته الكنيسة ستاراً لطغيانها هو فعلاً الإله الحقيقي أم أنه إله مُختَرَع وورقة رابحة في أيدي الطغاة . إنهم لو طلبوا الحقيقة سيجدونها واضحة صريحة وسيجدونها في مكان لا يقل كراهتهم له عن كراهيتهم للكنيسة إنه الإسلام الذي سيبين لهم ، لو أرادوا ، الحق الصحيح الإله الحقيقي الرحيم العادل بين عباده .

---

(١) سورة النمل ، الآية : ١٤

●● تعقـــيب :

إن المؤمنين باللَّه تعالى لا يسندون وجود الخلق إلاَّ إليه وحده فهو الخلاَّق العليم الذي بيده ملكوت كل شيء إذا أراد شيئاً أوجده فوراً بكلمة «كُن» وهذه القدرة لا يملكها إلاَّ هو وحده ، وأما الملاحدة الذين يسندون هـذه القدرة إلى المادة وأن المادة تخلق المادة فهو كلام يدل على جهلهم وعنادهم فإن العقول لا تقبل مثل هذا حتى عقول الملاحدة لا يمكن أن تقتنع به . لأن المادة ذاتها هي أثر من أثار القـدرة الإلهية ولا تخلق شيئاً ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

إن إتقان هذا الكون وترتيبه هـذا الترتيب العجيب والإنسان وكيفية خلقه لا يمكن أن تفعله تلك المادة التي تصوروها والتي هـي باعترافهم لا حكمة ولا تدبير لها .

إنه لمن عجائب الأمور أن يسندوا خَلق الكامل إلى الناقص والقوي إلى الضعيف . المادة صماء ناقصة والإنسان عاقل مفكر وفاقد الشـيء لا يعطيه فإذا لم يوجد لها عقل ولا تفكير ولا حكمة فمن أين لها أن توجد في بعض مخلوقاتها هذه الصفات ، ومن التحكم الباطل قولهم إن المادة تطورت مرة واحدة في وقت من الأوقات فأنشأت هذا الكون . فإنه يقال لهم وما الذي منعها أن تتطور مرة أخرى فتغير وجه هذا الكون وما الذي أوقفها بالنسبة لخلقها الإنسان عند هذا الحد وعند هذه الصفات المشتركة بين جميع الناس فإن قانون التطور ـ على حسب ما قرَّروه ـ لا حدَّ له إذ يمكن للإنسان أن يتطور إلى أن يصبح مثل الجبل فلماذا وقف عند حد معين في جسمه وعمره

وصفاته ومعيشته ، لقد أرادت النظريات الإلحادية أن تقنع الإنسان عن طريق المادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ أنه من صنع الطبيعة وأن وجوده ترتب أولاً على المادة وعليها بنى تاريخه ، ثم كالوا الشبهات لاقناعة إلاَّ أنه لم يقتنع ولن يقتنع وهو على حق في هذا فإن اللَّه تعالى إنما أعطى الإنسان العقل لكي يعرف به ربه وخالقه وقد فطره اللَّه على ذلك ولكن الملاحدة جعلوا همهم الوحيد وشغلهم الشاغل هو نشر الإلحاد وإقصاء الدين بأي ثمن يكون ، وبأي شبهة تقال ، وبأية وسيلة المهم في كل ذلك هو إبعاد أذهان الناس عن خالقهم جلَّ وعَلا وقد تمثلت محاربتهم للَّه عزَّ وجلَّ حتى في التسمية فإن استبدالهم اسم اللَّه باسم الطبيعة ثم باسم المادة الغرض منه إضعاف الرباط النفسي اللاشعوري باسم اللَّه في النفس فلا تحس بعد تسمية اللَّه بالمادة أو الطبيعة أي شوق أو احترام للإله العظيم إذ أن الطبيعة لا تستحق التوقير والإحترام الذي يستحقه اللَّه لو بقى اسمه جلَّ وعَلا .

والواقع أن الملاحدة يهدفون من محاولتهم صرف أذهان الناس عن وجود إله بعد نشر الرذائل بكل صورها ، يهدفون إلى استعباد الناس وجعلهم حميراً يركبونهم ويسوقونهم كما يشاؤن لأن الناس حينئذ سيكونون كالبهائم لا يحسُّون بأية قيمة لهم مثلهم مثل سائر الحشرات التي خلقت لتأكل وتشرب وتتناسل ثم تموت ، ذلك لأن مصدر التكريم للإنسان هو اللَّه عزَّ وجلَّ الذي فضَّله واستخلفه في الأرض وجعله مُكرَّماً سيد البر والبحر فإذا تم إبعاد هذا المفهوم عن الإنسان سهل بعد ذلك أن يتقبل الإهانات بشتى أنواعها بعد أن يفقد آدميته ويرى نفسه بعد ذلك لا فرق بينه وبين الخنازير والكلاب وسائر الحيوانات والحشرات فتموت فيه الهمَّة والشهامة والأنفة وسائر الصفات الجميلة إذ لا فرق بين البهائم وبين الناس إلاَّ سمو الأخلاق والقيام بالتكاليف الشرعية والإحساس بأهميته .

المبحث الخامس عشر

روافـد أخـرى

عبارات استعملها الملاحدة هي بمثابة روافد لإلحادهم وفسَّروها وفق ما تمليه عليهم أهواءهم ؛ كالتقدمية ، والعصرية ، والرجعية ، والتحرُّرية وغيرها من الأسماء الجَوفاء ، وكانت لتلك الأسماء الجديدة أثر ظاهر إبان قوة الشيوعية وفي عهد «بريجنيف» بخصوصه حتى إن الناس كانوا يطلقونها بصفة هستيرية فإن لها في ظاهرها بريقاً جذاباً ولكنها فارغة جوفاء في حقيقتها كانت بمثابة مادة صُنعت للإستهلاك أو الترويج . وكان الذي يتصف بها ينتشي زهوا حتى إذا ماتت الشيوعية إلى غير رجعة ذبلت تلك الأسماء ولم تعد هي العلامة الفارقة بين الإنسان المتطور ، أو العصري ، أو التقدمي ، أو الإنسان المتخلف أو الرجعي أو غير ذلك من الصفات المنفِّرة التي أطلقوها على كل من لم يعتنق شيوعية «كارل ماركس» فما هي تلك الأسماء وما المقصود بها ؟

١ ـ الإنسان التقدمي :

الإنسان التقدمي أو المتطور قيل في تعريفه إنه هو الإنسان المهذَّب في سلوكه ، والواقعي في حكمه ، والصادق في التعبير عنه .[١]

وإذا كان هذا التعريف صحيحاً فإنه لم يقف تفسير التقدمي عند هذا المفهوم فقد أصبح يطلق على نواح مختلفة عند الناس هي أبعد ما تكون

---

(١) التطور والدين ، ص ١٤

عن هذا المفهوم ففي جانب العقائد يطلقون التقدمية على الإنسان الذي ينبذ التدين والتقاليد وانفلت من كل ارتباط بالفضائل الدينية واتخذ الإلحاد مذهباً مثل الأحزاب التي أطلقت على نفسها صفة التقدمية في البلاد العربية وفي غيرها وفي جانب المظاهر صاوا يطلقون على الشخص أنه متقدم حينما يهتم بمظهره الشخصي خصوصاً حينما يقلد الإفرنج في لباسهم وسلوكهم وصار عند الكثير من المغفلين أن البنطلون الضيق ، ورباط العنق «الكرفته» كما يسمونها وجمع المرأة لأنواع المكياجات ولباسها إلى نصف الفخذين وكشفها الرأس وترديد بعض عبارات الغربيين يعتبر تقدماً ، وهي من الأمور التي انعكست الحقائق فيها وقد نجح الغربيون في الإيحاء إلى الرجل والمرأة أنه ليس بينهم وبين التقدم إلاَّ ركوب تلك المسالك ، وليت شعري أي تطور أو تقدم في هذه المظاهر المنفرة القائمة على الفجور وتقليد أعداء الدين ولهذا صارت هذه التسمية ـ تقدُّمي ـ عند العقلاء مُنفِّرة لما علق بها من هذه المفاهيم الخاطئة فأيُّ تقدم في أنواع القصَّات وجميع أنواع المكياجات ومحاكاة الساقطين في الحضارة الغربية ونبذ الحياء والحشمة ومحاربة اللّه ودينه .

٢ ـ الرجعية والجمود :

أما الرجعية فقد قيل في تعريفها : إنها هي الميل في السير إلى الوراء والعزوف عن متابعة الحركة نحو اليقظة التي يتم عندها تكامل إستعدادات الإنسان الطبيعية .

وأما الجمود : فهو الوقوف في الحركة عند مرحلة من مراحل تطور الإنسان في كماله وتمام نمو طاقاته البشرية .[١]

---

(١) التطور والدين ، ص ١٩

هكذا قيل في تعريفهما ولكن ماذا كان يقصد بها أعداء الأديان ؟

لقد اتخذ الملاحدة ومن تبعهم هذا المصطلح نقطة إنطلاق في سبهم للإسلام والمسلمين ولقد قالوا منكَراً من القول وزوراً فالإسلام والمسلمون بريئان من هذا الوصف بل أعداء الإسلام أحق به وسلوكهم وأفكارهم هي عين الرجعية والجمود فإن المتتبع لأقوالهم عن نشأة الإنسان وتطوره لو قارنها بأقوإلهم اليوم عن تمدحهم بالتطور لرأى العجب في تناقضهم وكذلك ما يرمون به المسلمين من الرجعية والجمود يكذبهم حال المسلمين الذين يطبقون الإسلام قولاً وعملاً كيف كانت سعادتهم وسعادة شعوبهم في تطبيقهم لأحكام الشريعة الغرَّاء التي أنزلها اللَّه كاملة شاملة صالحة إلى يوم القيامة لا تحتاج إلى أحد ينقص منها أو يزيد فيها وفي العقوبات المقدرة كحد السرقة والزنا والقتل والقذف وغير ذلك خير شاهد على أن الإسلام شريعة كاملة شاملة متطورة يمتد ظلها إلى يوم القيامة .

وحينما كان الملك فيصل - رحمه اللَّه - ينادي بالتضامن الإسلامي [(١)] ، وعودة المسلمين إلى تحكيم شرع اللَّه عز وجل والتمسك بسنته رماه أعداء

---

(١) قد كانت الدعوة إلى التضامن الإسلامي بمثابة جريمة كبرى عند الثائرين من العرب وغيرهم وكانت أكثر الإذاعات العربية وغيرها تتفكه بالنيل من تلك الدعوة . واليوم وبعد أن ظهرت حقيقة ضعف المسلمين وهوانهم على الأمم بدؤا يتكلمون عن إتحاد المسلمين وتضامنهم وأنه لا قيمة لهم إلاَّ من خلال إثبات وجودهم الإسلامي كما حدث في المؤتمر الذي يُعقد في ماليزيا الآن ، وعسى أن يفيق المسلمون ويراجعوا دينهم بصدق وإخلاص خصوصاً وقد كشَّر النصارى عن أنيابهم على المسلمين وتصريحاتهم بسب الإسلام وحضارته .

الإسلام عن قوس واحدة بالسَبِّ والشتم بالرجعية والتخلف فكان يقول في خطبه المؤثرة : «إن كان التمسك بالإسلام رجعية فنحن نفتخر بأننا رجعيون» ولقد اتضح وللّه الحمد بعد أن انجلت الحقيقة عن زيف الشيوعية والدعوة إلى القومية أو الوطنية أو سائر النعرات الجاهلية أن الإسلام هوالذي سيبقى على امتداد تاريخ البشر ، وأن الميل في السير إلى الوراء والعزوف عن متابعة الحركة التي توصلهم إلى تكامل استعداداتهم الطبيعية هو أخص صفات المذاهب الفكرية الضالة الجامدة بخلاف الإسلام فإنه دين شامل ومتطور بيَّن كل ما يتعلق بوجود الإنسان منذ أن أوجد اللّه آدم إلى خلق ذريته وما يمرون به من المراحل المتطورة في حياتهم منذ استقرار أحدهم نطفة في بطن أمه إلى خروجه إلى الدنيا ثم انتقاله منها إلى أن يصل إلى الجنة أو النار مع بيان كل ما يحتاج إليه في صلاح دينه ودنياه وتعامله مع نفسه ومع الآخرين في أدق تنظيم وأعدله .

٣ - الخرافة والتقاليد :

الخرافة هي الإعتقاد بما لا ينفع ولا يضر ولا يلتئم مع المنطق السليم والواقع الصحيح .(١)

ولكن أصحاب المادة يريدون بالخرافة المعاني الروحية ومبادئ الدين وتعاليمه بعد أن ضربوا بالدين والتعاليم خلف ظهورهم قال أحدهم :

أبَعْثٌ ثُمَّ حَشْــرٌ ثُمَّ نَشْــرُ *** حَديثُ خُرافَةٍ يا أُمَّ عَمرُو

(١) التطور والدين ، ص ٢٢

وظنوا أن ما هم فيه من الإلحاد هو الطريق الصحيح بينما الدين في نظرهم المعكوس هو الخرافة وسموا خرافاتهم في خلق الإنسان وفي وجود هذا الكون علماً مع أنها نظريات أثبت الواقع بُطلانها ولا ينكر أحد أنه يوجد خرافات كثيرة في العالم وأن على العاقل أن يميز فيها بين الخرافات الفعلية والدعايات المغرضة المضللة .

أما التقاليد : فهي جملة العادات التي هي لمجتمع معين وهي إما تقاليد خيِّرة طيبة وإما تقاليد سيئة باطلة ولا تعرف التفرقة بين هذين المسلكين إلاَّ بعرضهما على الشرع الشريف ، فما كان موافقاً للشرع فهو الحق وهو المطلوب ، وما كان مخالفاً للشرع فهي تقاليد جاهلية يجب الحذر منها وما أشد معركة التقاليد وما أوسع انتشارها تموت تقاليد وتحيا أخرى على تعاقب الأجيال ومر الدهور وعلى المسلم أن يكون متزناً في تقبل مختلف التقاليد فكم من تقليد قضى على نور العلم والمعرفة وأفسد الأخلاق والعقائد وكم من حق سُمي خرافة ، كما أنه يجب عليه الانتباه إلى ما يلقيه أعداء الإسلام من الهجوم على الشريعة الإسلامية تحت ما يسمونه محاربة التقاليد البالية تنفيراً للناس عنها كما أنه يجب على المسلم أن يعلم أنه لا مكان في الإسلام للخرافات ولا للتقاليد السيئة الباطلة إذ أن الإسلام إنما جاء لمحاربة كل أنواع الجاهليات والخرافات والتقاليد الباطلة الضارة .

٤ ـ الحرية والكبت :

الحرية هي الإنطلاق في الرأي والاعتقاد في القول وفي الفعل في حدود طاقة الإنسان .(١)

(١) التطور والدين ، ص ٢٦

والكبت : هو الحد من الإنطلاق في الرأي والإعتقاد والقول والفعل والإتصال بالغير .

ـ حقيقتهما عند الماديِّين :

وأما عند أصحاب المادية فالحرية يُراد بها الإنطلاق من كل قيود القيم والمثل والمبادئ التي دعى اليها الدين وهي عودة إلى الحياة البهيمية من أوسع الأبواب ولكن تحت تسمية التطور والتجديد وكذلك الكبت عندهم إنما يُراد به تحطيم كل أنظمة الشريعة والإنفلات عن الآداب والأخلاق التي دعا إليها الدين أما موقف الدين منهما فمما لا ريب فيه أن جميع الأديان ـ وخصوصاً الإسلام ـ قد دعت إلى الحرية وحرَّمت الذلة والخضوع وإحناء الجباه إلاَّ لِمَن خلقها وأوجدها ، وفي كتاب اللَّه تعالى تأكيد شديد على كرامة الإنسان وأن جميع ما في هذا الكون إنما خُلق له ومن أجله قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** (٧٠) ﴾ (١)

أما الحريَّة في الإسلام : فلا يجوز لأحد أن يجهل أن الإسلام بخصوصه دعا إلى الحرية وجعل إليها منافذ عديدة ورغَّب في تحقيقها بما جعل اللَّه من الأجر الجزيل لمن حقَّقها ونهى عن الكبت الذي يكون سببه طغيان القوي ضد الضعيف وتسلط الطغاة على المستضعفين دون وجه شرعي .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠

إن الحرية لها مفهومها الخاص ومجالها الخاص بها في الإسلام كما أن للجاهليات مفهومها ومجالها الخاص بها ، وبين المفهومين مسافات مديدة وفروق عديدة .

فالحرية في الإسلام هي أن تتصرف في كل أمر مشروع لك وليس فيه تعد على حقوق الآخرين ويكون داخلاً ضمن عبوديتك لربِّك وامتثالك لأمره ونهيه ، ومادام الإنسان لم يخرج عن إطار الشريعة الربانية فهو يعيش الحرية بتمامها سواء أكانت تلك الحرية فيما يتعلق بنفسه أو جسمه أو ماله أو عرضه يتصرف فيها في حدود ما شرعه اللَّه له أو كانت فيما يتعلق بغيره في معاملاته الدنيوية ؛ من بيع ، وشراء ، ونصيحة ، ونقد وتوجيه ، وأمر ونهي . أو الدينية ؛ من تعليم ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ... وغير ذلك . أو كانت فيما يتعلق بعقل الإنسان وتفكيره حيث جعل اللَّه للعقل مطلق الحرية في الإرتفاع بصاحبه عن الخضوع والذل لغير ربه وفي وجوب إعمال الفكر فيما يحتوي عليه هذا الكون من بدائع وعجائب ، فالإسلام يمنحه مطلق الحرية في تنظيم بديع فيه سعادة الإنسان أولاً ، ثم سعادة المجتمع الذي يعيش فيه ثانياً سواء أكان ذكراً أم أنثى . والذي خلق الإنسان وسائر الأنعام جعل لكل منها حرية تخصه فإن الأنعام لها مطلق الحرية دون تمييز بين الضار والنافع ، ولكن الإنسان الذي كلفه اللَّه وميَّزه بالعقل له حرية إذا تجاوزها صار كالأنعام فإذا تجاوزها أيضاً صار أضل من الأنعام كما قال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ [(١)]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٩

•• الحريَّة في مفهوم الجاهليات :

أمَّا الحرية في مفهوم الجاهلية قديماً وحديثاً فهي الظلم في القديم كما قال الشاعر :

والظُّلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ * فإنْ تَجِدْ ذَا عِفَّهٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ**

والجنس كما هو حال الأمم التي أعرضت عن الدين ، وكما عبَّر عنه الصينيون في تظاهراتهم المشهورة حينما قالوا : «إنه لا حرية عندنا إلاَّ في الجنس» .

ولقد فهم الكثير من الذين ينادون بشعار الحرية أنها هي أن يعمل الإنسان ما يشاء ، وأن يرتكب من المنكرات ما يلِذُّ له ، وأن يقول كل ما يريد قوله ، وأن لا يكون للمجتمع أي تأثير عليه . إنه يفهمها على أنها الإنفلات من كل القيود ثم الفوضى وإشاعة الفساد والوصول إلى الإلحاد تحت هذه التسمية ولقد ظهرت جحافل من دُعاة الحرية خدعوا الناس وأوْهَموهم أنهم يجب أن يكونوا أحراراً لا قيود عليهم من دين أو مُثُل أو عُرف بل هي الإنطلاق التام . دون أن يفطن هؤلاء المخدوعون بأنها مصيدة يهودية ماسونية أوحوا بها إلى الدهماء من الجوييم كما يسمونهم ليملئوا بها فراغاً في أذهانهم بينما هم يعلمون تماماً أن لا حرية حقيقية سيصل إليها الجوييم وجاء دعاة الإباحية والوجودية والشيوعية بما زاد الطين بلَّة والنار اشتعالاً وملؤا أذهان الشباب والشابات بطنين الحرية الشخصية والحرية الجنسية والحرية الكلامية ... إلخ ، فاذا بتلك الحريات كلها تصب في مصب

واحد هو القضاء على الأديان والعفَّة والشريعة الإسلامية وفتح الباب على مصراعية لدعاة الفجور والفحش باسم الحرية ، ومنع المصلحين من الإصلاح بدعوى عدم التدخل في شؤون الغير أو كبت حريتهم .

جاء في كتاب الحرية في الدول الاشتراكية «أنه لو قام مجتمع من النساء الحريصات على استقلال جنسهن بتكوين جماعة تدعوا أو تمارس بين النساء أنفسهن نظرية التناسل بدون رباط زواج فليس من حق الدولة أن تتدخل في أعمال تلك الجماعة» (١)

وأي مُصلح ينادي بالكف عن المنكرات والإقصار عنها صاحوا به : إنه يريد كبت حريات الناس ، إنه مُتزمِّت ومُتشدِّد ، وما إلى ذلك من الدعايات الباطلة ضده .

وحينما تُعرف الحرية بأنها الإنطلاق في الرأي استغل دعاة الحرية اللادينية هذا المفهوم ونادوا بما يسمونه باحترام الرأي والرأي الآخر . وهم يريدون الإنطلاق في الرأي الذي يؤدي في النهاية إلى إنتكاسة البشرية وفرض آراءهم العلمانية والعقلانية والشعوبية والقومية وكل النعرات الجاهلية ، وكذا تعريف الحرية بأنها الإنطلاق في الإعتقاد في القول وفي الفعل . فإن دعاة تلك الحرية الباطلة لا كابح لجماحهم إنطلقوا في الإعتقاد في القول والفعل إلى الرذائل والآراء السقيمة والنظريات السخيفة بحكم حرية الإعتقاد في القول فملؤا إذاعاتهم وصحفهم ونشراتهم بما يستحي

---

(١) «الحرية في الدول الاشتراكية» ، ص ١٣٥ . نقلاً عن «الإتجاهات الفكرية» ، ص ٨٣

صاحب العقل والذوق أن يقوله أو يفعله دون أي حياء لديهم أو وازع من ضمير ، وصدق عليهم قول المصطفى ﷺ : «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[1]

ولن يجد الإنسان الحرية الصحيحة إلاَّ في عبادة ربِّه والخضوع له وحده لا شريك له كما أنه لا حرية مع عدم طاعة اللَّه تعالى فإن مَنْ لم يَذلّ للَّه أذله اللَّه لغيره .

٥ ـ الإلحــــاد :

ومن الجدير بالذكر أن للملاحدة أسماء كثيرة اخترعوها من واقع عقيدة كل مجموعة مع الأخذ في الإعتبار أن الملاحدة كلهم متفقون علي إعتقاد الإلحاد ولكنهم يختلفون بعد ذلك حسب الآراء والأهواء فتأتي التسمية من ذلك الواقع .

فالماديُّون ، أُخذت تسميتهم من إعتقادهم أن وجود جميع هذا الكون إنما هو تابع لوجود المادة التي ليس وراء وجودها أي وجود مؤثر في الإيجاد .

وقسم منهم يُسمَّون «الطبيعيون» بسبب إعتقادهم بأن التغيرات التي تحصل على المادة إنما تحصل بأسباب ذاتية ترجع إلى طبيعة المادة .

وبعضهم يعتقد أن تلك التغيرات إنما تحصل بالآلية في حركة ذرات المادة فقيل لهم أصحاب المذهب الآلي .

وبعضهم يعتقد أن المادة ترجع إلى ذرات صغيرة جداً متجانسة ، والتغيير

(١) أخرجه البخاري ، ج ١٠ ، ص ٥٢٣ ، «الفتح» .

إنما يرجع فيها إلى شكل التأليف والتركيب بينها ، فسُمُّوا أصحاب المذهب الذري .

وبعضهم لم يعتقد إلاَّ بما يحسه فقط فقيل لهم «حِسِّيُّون» .

وبعضهم يردِّد كلمة الواقع المدرَك بالحِسِّ ، أو الواقع المدرَك ، أو الواقع الملموس ، وأشباه هذه العبارات فقيل لهم «الواقِعيُّون» .

وبعضهم اتخذ اسم «الوضعية» .

وبعضهم زعم أن الأشياء توجد أولاً ثم تصنع الأفكار ماهيتها فسُمُّوا بالوُجوديِّين [(١)]

وهكذا تعددت الأسماء ، والهدف النهائي واحد هو الإلحاد ويبقى الإختلاف بينهم لفظياً لتسهيل مغالطاتهم الناس من وراء كثرة تلك الأسماء ليحتدم الخلاف حولها بين الناس وإشغالهم بها فقبَّحهم اللَّه ما أكثر أسماءَهم وما أقلَّ نفعهم .

(١) بتصرف عن «كواشف زيوف» ، ص ٥١٠

الفصل الثاني

الاقتصاد في الإسلام وفي المذاهب الوضعية

وفي المباحث الآتية :-

المبحث الأول

الملكية في الإسلام

الأمر الأول : حب التملك الفردي فطرة في الإنسان :

حب التملك فطرة في الإنسان «الملكية الفردية» منذ أن أهبطه اللّه إلى الأرض إلى أن يرثها سبحانه وتعالى . وهو أمر معلوم بالضرورة ولم يجرء على خلافه إلاَّ عتاة الملاحدة الذين كابروا الحقائق والأمور الواقعة وقد أصبحت هذه القضية من أهم القضايا التي شغلت أفكار البشر على امتداد

تاريخهم . وهي قضية فطرية في الإنسان . ولا يلام عليها لأن اللَّه عزَّ وجلَّ أرادها لإعمار الأرض . إلاَّ أن صاحبها قد يكون ممدوحاً في تملكه الفردي وقد يكون مذموماً حسب تصرفه في مإله وقد عالجها الإسلام بأحسن نظام وأعدله واعترف بها ولكنه هذَّبها على طريقة لا ضرر ولا ضرار سواء أكانت ملكية فردية أو جماعية .

وهي في النظام الرأسمالي جشع لا حدَّ له وشره شديد .

أما في النظام الشيوعي فلا مكان لها في قاموسهم . وقد اعتبروها مصدر كل الشرور والإختلافات ومنشأ الصراعات بين الناس الفقراء والأغنياء وأن الحل لسعادة الناس هو منع الملكية الفردية بأي حال وجعلها في يد الدولة وحدها متلمسين في ذلك حججاً واهية وشبهات سخيفة يستدلون بها على الأضرار التي تنجم عن إباحة الملكية الفردية كما سيأتي بيانها .

١ ـ كزعمهم أن الناس كانوا يعيشون في الشيوعية الأولى عيشة سعيدة قبل أن يعرفوا الملكية الفردية بزعمهم .

٢ ـ أن الملكية الفردية لم تكن فطرة في الإنسان .

٣ ـ لم ينشأ الصراع الطبقي إلاَّ بعد معرفة الإنسان للزراعة والصناعة .

٤ ـ إن هذا الصراع لا ينتهي إلاَّ بزوال الملكية الفردية .

٥ ـ في الملكية الفردية ينشأ نظام استعباد الطبقات العليا لمن دونها .

وشبه أخرى كلها ساقطة يستدلون بها لمنع الملكية الفردية وكلها تدور حول وجوب سيطرة الدولة على جميع وسائل التملك ونزعها من أيدي أفراد المجتمعات فهل هذه الشبهات حقيقة أم خيال ؟ وهل تحققت السعادة في الأنظمة الجاهلية ومنها الشيوعية حينما منعت الملكية الفردية أم ازداد الأمر سوءاً والطيغان طغياناً وكان حال المجتمعات الشيوعية على حد ما قال أحد الشعراء :

لَقَد طَغَى الغَىُّ على الغَىّ * وأصْبَحَ النَّاسُ كَلاشَيّ**

وأصْبَحَ الْمَيِّتُ في قَبرِهِ * أحْسَنَ أحْوالاً من الحَيّ**

وفيما يلي نوجز بيان قضية الملكية الفردية على ضوء الإسلام . وفي الأنظمة الوضعية .

الأمر الثاني : الملكية الفردية والجماعية في الإسلام

أما الملكية الفردية والجماعية في الإسلام فقد تبين مما مضى أن الإسلام يحترم الملكية بقسميها العامة والفردية وقد نظمها أحسن تنظيم . ولم يوجب أن تكون الأموال في يد الدولة فقط ولا في يد فرد أو طائفة من طوائف المجتمع كما تقرره النظم الجاهلية وانه بخلاف النظام الماركسي الذي يجعل الفرد قطعة لا أهمية لها في جانب الجماعة وبخلاف النظام الرأسمالي الذي يجعل الفرد حراً طليقاً ولو على حساب مصالح الجماعة فانعدم التوازن في غير الإسلام ذلك التوازن الذي يحقق العدالة للجميع كما أن الإسلام لايجيز للدولة أن تأخذ مال أحد إلاَّ بوجه شرعي فقد ضمن حرية الملكية الفردية

ونظمها وجعل مسولية الانتاج قائمة على الأفراد وعلى الدولة التي تمثل المجتمع على حد سواء في ضرورة إنعاش الإقتصاد وتنميته وسد حاجات المجتمع .

كما أن الملكية الفردية في الإسلام لها ضوابط وتقوم على نظام خاص بعيداً عن جشع الرأسمالية وظلم الشيوعية ولها أسس إذا قامت عليها كانت حقاً مشروعاً لا لوم على صاحبها لأن الإسلام يتماشى مع الفطرة التي فطر اللّه عليها الناس ولهذا فهو لم يتجاهل غريزة حب التملك عند الإنسان بل أقرها ونظمها في حدودها المشروعة التي ترتكز على القاعدة الشرعية «لا ضَرَرَ ولا ضِرار» فإذا لم يكن في التملك ضرر على الغير فله أن يملك ما يشاء من المال مصداقاً لقول اللّه تعالى : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)** ﴾ (١)

وهذا النصيب يشمل كل ما يحتاج اليه الإنسان من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وغير ذلك من المباحات المشروعة التي لا تمس مصالح الغير أو الأملاك العامة التي تشرف عليها الدولة وتحوزها للصالح العام في بيت المال من عائدات المال العام الذي يشترك فيه جميع أفراد الأمة على حد سواء مثل ملكية مناجم الذهب والفضة وآبار البترول والأوقاف العامة والأماكن التي تختص بتنميتها البلديات للصالح العام وغير ذلك من الموارد فلا يحق لأحد الاستحواذ على ذلك كما أنه لا يجوز لها الإضرار بالغير فإن كان الضرر لا يزول إلاّ بأخذ جزء

(١) سورة القصص الآية : ٧٧

من مال الشخص للصالح العام فلا حرج على الدولة أن تفعل ذلك إذ المصلحة العامة أولى بالتحقيق من المصلحة الشخصية الخاصة على حساب الآخرين .

ولا يرد على هذا ما عرف عن الإسلام من حرصه على صيانة الملكية الفردية وعنايته الفائقة بالحفاظ عليها فهي باقية على حالها إلاَّ في الحالات النادرة التي يتطلب الأمر الدفع بأخف الضررين .

إن نظام الإسلام يقوم على أساس التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فلا يسمح بطغيان مصلحة على أخرى ما أمكن ذلك ونظرة الإسلام نظرة شاملة تدعو إلى التوفيق بين مختلف المصالح بالعدل وحسن التنظيم وإذا أمكن التوفيق بين المصلحة العامة وبين المصلحة الخاصة فهذا هو المطلوب وأما إذا لم يمكن ذلك فإن الإسلام يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة حتى ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة في سبيل انتفاع الجميع بما فيهم صاحب المصلحة الخاصة نفسه .

ولم يمنع الإسلام أحداً من امتلاك المال بالطرق الشرعية التي أباحها بل حث عليها وأوجب المشي في مناكب الأرض وفضَّل اليد العليا على اليد السفلى وأكد على الغني والفقير إلتزام تقوى اللَّه ومراقبته فيما يملكان من المال لتنبع المراقبة الصحيحة من داخل النفس على سلوك مهذب وبين أن احتباس المال ومصادر التكسب في فئة خاصة من الناس انه سلوك غير مرضي عنه وشرع لذلك قواعد وأنظمة تكفل المصالح وتحقق السعادة للجميع في ظل قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**

جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ [1] ، فالناس كلهم على حد سواء يباح لهم التملك والانتفاع بكل ما في الأرض التي هي ملك الجميع بتمليك اللّه تعالى لهم وكلهم مستخلفون على هذه الخيرات أمناء عليها لمالكها الحقيقي وهو اللّه تعالى يتصرفون فيها في حدود ما أذن لهم به فقط ، فمن تجاوز ذلك فقد عصي اللّه تعالى وتعدى وظلم .

وبهذا يتضح أن الإسلام قد ضمن في تشريعاته حق الملكية العامة . والملكية الفردية وهي التي يراد بها «اختصاص إنسان بشيء يخوله شرعاً الانتفاع والتصرف فيه وحده ابتداءاً إلاَّ لمانع» [2] أصالة أو إنابة ، كما ضمن الإسلام حسن توزيع الثروات وحدود الأرباح والحقوق الأخلاقية في كل ذلك إلاَّ أن الإسلام وهو يبيح الملكية الفردية ـ كما عرفت ـ لم يجعلها فوضى بل نظم طريقة التملك وطريقة الإنفاق وحرم على الغير أخذ أي مال ليس له فيه حق مشروع وسن العقاب على كل من يتعدى على الملكية الخاصة للغير بدون وجه شرعي مادامت تلك الملكية قد قامت من طرق ومكاسب صحيحة فجعل لصاحب المال حرمة مصونة وجعل له حرية التصرف فيه سواء أكان ذلك في حياته أو بعد مماته كالوصية بجزء من ماله لأي عمل خيري ولم يبح أن يتعدى المال الموصى به الثلث حماية لمصلحة الشخص نفسه أولا ، ولبقية ورثته آخراً كما في حديث سعد رضي الله عنه .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٩

(٢) «الملكية في الشريعة الإسلامية» ، للدكتور عبدالسلام العبادي ، ص ١٥٠ نقلا عن «النظام الاقتصادي في الإسلام» ، ص ٨٦

كما نظَّم الإسلام كل طوائف المجتمع تنظيماً يضمن صلاح الفرد والمجتمع ويحفز الجميع على الرغبة والتفاني في العمل وفي الإنتاج فقد جعل الإسلام للدولة نظاماً تلتزمه تجاه أفراد مجتمعها قائم على العدل بين الجميع فلا يجوز أن تطغى سلطة الدولة على مجتمعها دون نظام أو رقابة ولا أن تعيش في الترف والبذخ والشعب في حاجة فإنهم مسؤولون أمام اللَّه تعالى وقد وردت النصوص الكثيرة في الوعيد الشديد لهم إذ جاروا وظلموا أو غشُّوا شُعوبَهم ورعيتهم .

فللدولة في الإسلام السلطة التنفيذية ورعاية مصالح الشعوب والذبّ عنها ، وإبرام العقود وحلها وفرض الرقابة والإشراف على الأوقاف الإسلامية وجباية الأموال على الطريق الشرعي وتوزيعها على المستحقين وغير ذلك من الصلاحيات الكثيرة . وأوجب في المقابل على كل فرد أن يكون مخلصاً للدولة سامعاً مطيعاً في كل ما يأمرون به إلاَّ أن يؤمروا بالكفر الواضح فلا طاعة لهم إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وعلى الناس أن يتصرفوا بالتي هي أحسن وأنجح غير متهورين أو مستهينين بالعواقب .

المطلب الثاني

الملكية في المذاهب الوضعية

وفيه أمران :

الأمر الأول : الملكية في الرأسمالية

أما الملكية في الرأسمالية فهي مربوطة بالوصول إلى الأرباح قبل أي اعتبار ، يقول محمود الخطيب : «يَعتبر أنصار الرأسمالية جهاز الثمن هو المحرك الفعَّال القادر على حل كل ما يتعلق بالمشكلة الإقتصادية» (١)

والرأسمالية كما سبق نسبة إلى رأس المال ، ويُراد بها منح الشخص كامل الحرية في جمع المال وفي إنفاقه بأي طريقة يكون جمعه أو إنفاقه سواء عن طريق الغش ، أو الإحتكار ، أو الربا ، أو التحايل ، ولا قيمة للرحمة والعاطفة الإنسانية أو المثل العليا أو الأخلاق في سبيل الحصول على المال و «كل هذا يؤدي إلى ظلم الأمة ويقوي معول هدمها بيدها لأن الأخلاق زالت والجانب الروحي معدوم مندثر فلم يبق إلاَّ الركض وراء المصلحة الجشعة فأصبح الرأسمالي شرها متكالباً على المال» (٢) ، فالرأسمالي لا يهمه أن يموت المجتمع جوعاً في الوقت الذي يرفع قيمة ما في يده إلى الأضعاف المضاعفة . فينظر المجتمع إليه وهو في غاية الشره نظرة حقد وكراهية ، وهو

---

(١) أي وجود المنتج والسلعة والثمن الحافز للانتاج .
أنظر : «النظام الإقتصادي في الإسلام» ، ص ٢٩
(٢) المصدر السابق ص ٨٠

ينظر إليهم أنهم حاسدين له يتمنون زوال ماله فينشأ عن ذلك إشاعة العداوة والبغضاء وانتزاع الرحمة من قلوب تلك المجتمعات الرأسمالية التي لا هَمَّ لها إلاَّ عبادة المال وجمعه حسب التنافس في الإنتاج وفي الأسواق بحيث يهدف الرأسمالي إلى التحكم لو استطاع في الأسواق الاقتصادية وإبعاد أي مشروع يرى أنه سينافسه ثم طلب الربح بأي وسيلة مهما كانت ظالمة أو معيبة لا يهمه إلاَّ الحصول على المال . وحال المجتمعات الرأسمالية أقوى شاهد .

وفي المجتمعات الرأسمالية حرب على الفقر لكنها لا ترحم الفقير بل تحمله مسؤولية فقره وتنظر إليه بازدراء لأنه لم يَحتلْ لنفسه للخروج من الفقر حيث يُتهَم بعدم الذكاء أو عدم الجد في العمل أو غير ذلك من الأسباب التي لا تشعر بالرحمة تجاهه ولقد عانى المجتمع الرأسمالي من هذه النظرة في بداية تكون المذهب الرأسمالي الأمرين واضطر كل فرد صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى إلى العمل بأي طريق كان للحصول على ما يسد رمقه وإلاَّ إنسحق دون أي صوت يلفت النظر إلى حاله والحكومة لا تتدخل لا في الإنتاج ولا في التوزيع بل كان الحبل على الغارب ، إلاَّ انه ـ وبعد فترة ـ شعر المجتمع الرأسمالي تحت الضغط والعنف والمواجهات الدامية بأن هذا الوضع البغيض لا رحمة فيه وأنه إنما نشأ عن مايشعر به أغلبية المجتمع من الإحباط وعدم المبالاة بهم وجعلهم فريسة الهموم على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم فتطور الفكر الأوروبي إلى تعديل الحال والنظر بعين الجد إلى القضاء على هذا الشعور وبدأوا في تقنين الأنظمة التي تطوروا فيها إلى أن عرفوا ما يشبه نظام التكافل الإجتماعي الذي دعا إليه الإسلام منذ نزول الوحي على رسول اللّه ﷺ حين فرض الزكاة

التي يأخذ فيها العاجز ما يسد حاجته من بيت مال المسلمين دون أن يطالب بمقابل في ذلك ، بينما نظام الغرب رغم ما يدَّعون له من التطور لازال متخلفاً عن الوصول إلى نظام الإسلام في ذلك إذ لا يعطي الشخص فيه في حال عجزه إلاَّ حسب نسبة ما كان يدفعه من الضرائب في حال صحته .

فإنه يطالب الشخص وهو صحيح بمبلغ يدفعه ضريبة من دخله حتى إذا عجز عن العمل أعطى مبلغا حسب ماكان يدفعه قليلاً أو كثيراً فإنه يأخذ نسبته على حسب ما دفع وعيب هذا أن الغني يُدفَع له أكثر لأنه أُخذ منه أكثر والمحتاج يُدفع له أقل منه وهذا الحل لا يفي بحاجة الفقير فقد يكون لهذا الفقيرأسرة كبيرة بينما الغني قد لا توجد له أسرة فليس هناك تكافئ في التوزيع ولا نظر إلى عمق القضية حسب الضرورة ، بل إنهم لم يوجدوا هذه النقلة إلاَّ للتخفيف من مساوئ هذا النظام الذي طعَّموه بما يسمونه التأمينات الإجتماعية والنقابات ... إلخ .

أما الإسلام فإنه لاينظر إلي استحقاق الفقير من بيت المال إلى أنه كان يدفع أو لا يدفع لأنه ينظر إلى إزالة الضرر بغض النظر عن الأسباب فلا ضرر ولا ضرار ، ولأن الفقر قد لا يدوم فقد يصبح الفقير غنياً فيستعفف بعد ذلك عن أخذ ما كان يصل إليه من بيت مال المسلمين وما يُعطاه من المال إنما هو إعانة له إلى أن يغنيه اللَّه من فضله ويستغني عن أخذه بعد ذلك دون مِنَّة عليه من أحد إذ الإسلام دائما يحث الشخص على الإعتماد على اللَّه ثم على عمل يده والاستغناء عن الناس بانتظار ما يجودون به عليه ، ويخبره دائماً أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن المؤمن القوي خير

من المؤمن الضعيف ، وأن من اعتمد على سؤال الناس يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعَة لحم ... وغير ذلك من التوجيهات الإسلامية .

وعلى ضوء ما سبق يمكن تلخيص الأسس التي قام عليها النظام الرأسمالي فيما تقدم بيانه فيما يلي :

١ ـ حرية الملكية الفكرية وحرية التصرف فيها دون تدخل الدولة غير الحماية .

٢ ـ الحرية في ممارسة أي نشاط اقتصادي يريده الفرد إنتاجاً أو استهلاكاً .

٣ ـ تحقيق التوازن التلقائي عن طريق جهاز الثمن الذي هو المرآة التي تعكس رغبات المستهلكين إلى المنتجين .

٤ ـ وجود حافز الربح الذي هو المحرك الأساسي للنشاط الإقتصادي والإقبال على العمل تحقيقاً للربح .

٥ ـ وجود حرية المنافسة الإقتصادية التي تحد من انتشار الاستغلال .

وهذه الأسس وان كانت تبدو للناظر أنها مفيدة وناجحة وتخدم التقدم الإقتصادي إلاَّ أن لها مساوئ كثيرة من أهمها :

١ ـ سوء توزيع الثروة والدخل بين الناس ، فمَن عَزَّ بَزَّ .

٢ ـ ما نادت به من الحريات إنما هي حريات ناقصة والعامل ليس حرا في اختيار عمله ولا في أجره فقد يضطر إلى أن يعمل بأجر أقل حينما

لا يجد عملاً مناسباً وكذلك المستهلك ليس حراً في استهلاكه بل يقيد مستوى دخله وما تسمعه من كثرة المظاهرات في الغرب لتحسين أجر العامل أقوى شاهد .

٣ ـ ظهور البطالة والتقلبات الإقتصادية لعدم التوازن الحقيقي .

٤ ـ وجود الإحتكارات والتي تعمل بشكل معاكس لجهاز الثمن .

٥ ـ ظهور الآثار السلبية للمنافسة في الإسراف والتبذير في الإعلانات وغيرها [(١)]

وعلى العكس من كل ما تقدم نجده في الأنظمة الإشتراكية والشيوعية التي لا تحفل بالفرد ولا بتشجيعه على زيادة الإنتاج السليم لسلبهم إياه حرية التملك وبالتالي إفلاسه الدائم واتكاله على الدولة ولا تسأل عما نشأ من المساوئ جرَّاء هذا السلوك الأحمق .

وكل تلك الإتجاهات لا يقرُّها الإسلام ولا تساير نظامه ، فالمال في الإسلام إنما هو إحدى متع الحياة الدنيا ولا حرج على صاحبه أن يتمتع به كيفما أراد مادام في ذلك في حدود الشرع وتعاليمه وليس المال هو كل شيء ، بل إن هناك حياة هي أسمى من هذه الحياة تنتظر الفقراء والأغنياء وكم من فقير في هذه الدنيا يصبح في تلك الحياة يفوق في ملكه الدنيا بحذافيرها أضعافاً مضاعفة ، كما أن الإسلام يفهم صاحب المال بأن ما بيده من المال ليس هو مالكه الحقيقي وإنما هو مستأمن عليه وسيتركه ويرجع كما

---

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٤٥ ـ ٤٧ «بتصرف» نقلاً عن مذكرات أساسية في المفاهيم والمعلومات الإقتصادية لعبدالحليم نصَّار القوارعة ص ١٩ ـ ٢٧

بدأ حياته الدنيوية فلهذا لا يجوز له أن يتصرف في المال إلاَّ وفق ما شُرع له لا أن يتصرف فيه كما يشرعه هو لنفسه فيترك من يستحق الصدقة من الناس فيتصدق بثروته في غير محلها كأن يجعلها لكلبه مثلاً كما يُفعَل في أوروبا .

والإسلام لا يقر الرأسمالية على مساوئها ولا غير الرأسمالية من المذاهب الوضعية الجاهلية التي لم تقم على الدين الذي ارتضاه اللَّه تعالى وأكمله فقد قامت الحجة على كل انسان خصوصاً في عصرنا الحاضر بانتشار وسائل الإتصالات المختلفة ولا يمكن أن تسعد البشرية مادامت الأنظمة الوضعية هي السائدة ولنا فيمَن طبَّق الشريعة الإسلامية أقوى حافز وأنبل مثال قديماً وحديثاً وللَّه الحُجَّة البالغة .

الأمر الثاني : الملكية في الشيوعية الماركسية

سبق أنه قامت الاشتراكية الشيوعية في إتجاه معاكس عارم ضد الرأسمالية الغربية والديانة النصرانية ، وما تلا ذلك من الأزمات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والقلق العام الذي ساد الدول الغربية الكبرى بفعل المخططات اليهودية ومؤامراتهم المختلفة ولقد كان للإشتراكية صولات وجولات ودعايات قوية ووعود خلاَّبة بأن الناس كما زعموا سيعيشون في سعادة وهناء تشبه الجنة التي وعدت بها الديانات في الآخرة بزعمهم ولكنهم ربطوا الوصول إلى هذه الجنة الدنيوية بتطبيق الشيوعية الحمراء التي جاء بها «كارل ماركس» ومَن تبعه من طغاتهم «لينين» ، و «ستالين» وأضرابهم ، والانضواء تحت راية الثورة الصناعية والعمل للجميع فقام الإقتصاد في المذهب الشيوعي الإشتراكي

على أساس أن الملكية العامة لكل وسائل الإنتاج هي للدولة وحدها والمناداة بالغاء الملكية الفردية ومصادرة كل شيء وجعله باسم الدولة ولكن كثيراً من الدول الشيوعية أدركت انهيارها اقتصادياً وفطنوا إلى أن السبب وراء ذلك هو عدم السماح بالملكية الفردية حيث فترت همم العمال ولم يعد فيها الحافز الكافي لزيادة الإنتاج فاضطرت الحكومات الى السماح بالملكية الفردية في نطاق ضيق ولكن أخذت الأمور تتطور وتتفاقم النقمة على تلك الأوضاع إلى أن أطيح بالماركسية في عقر دارها ـ روسيا ـ وتنفس الناس الصعداء مما جعل الدول التي لازالت متمسكة بالنظام الماركسي تتوجس خيفة وتخفف قبضتها على الشعوب رويداً رويداً . وتبين لجميع الشعوب الغبن الفاحش حين خدعوا الفقراء بما سموه دكتاتورية البروليتاريا التي لا تحقق إلاَّ بقيام الصراع الطبقي والاستيلاء على السلطة ومصادر المال وقد تطلب ذلك قيام الحركات الثورية الدموية في كل مكان استطاعت أن تصل اليه براثين الشيوعية بحجة إقامة حكم البروليتاريا وإسعاد الفقراء ولم يكتفوا بنزع الملكية الفردية بل نزعوا معها كل ما يمت إلى الأخلاق والأسرة تماماً لأن بقاء الأسرة معناه بقاء الملكية الفردية كما تقدمت الإشارة الى هذا .

وقد وجدت الملكية الفردية حرباً شعواء من قبل الملاحدة وحمَّلوها كل أوزار المجتمع البشرية بعد تركهم الشيوعية الأولى التي كان الناس فيها على الملكية الجماعية يعيشون أسعدالأحوال بزعمهم دون صراع طبقي أو أحقاد ، إلى أن عرف الناس الملكية الفردية وما تبعها من تطورات ، إلى أن وصلوا إلى الرأسمالية التي سببت للبشرية أنواع الشقاء والصراعات الطبقية ، إلى

أن ظهرت الشيوعية الثانية لتعيدالناس إلى جنتهم السابقة حسب زعمهم . وقد تناقض الملاحدة هنا فبينما يزعمون أن الرأسمالية والملكية الفردية هي السابقة للإشتراكية لأنها جاءت كمنقذ إذا بهم يزعمون أن الاشتراكية البدائية هي السابقة للرأسمالية .

ومما يجب أن يتنبه له الشخص هو معرفة ما هي الملكية الجماعية التي ينادي بها الشيوعيون وكيفية الرد عليها وأنها وهم خاطئ فإن الملكية الجماعية التي ينادي بها الملاحدة هي سلب كل شيء وجعله في يد الدولة التي هي نائبة للشعب أو نائبة عن طبقة البروليتاريا الكادحة ويزعم هؤلاء أن العدالة تقتضي أن تضع الدولة يدها على كل مرافق الإنتاج وهي بدورها تقوم بتوزيعه بالتساوي بين الناس وبذلك ينتهي استغلال الإنسان لأخيه الإنسان الذي تمارسه الرأسمالية ومن هنا فقد نادوا بالغاء الطبقات والانضواء تحت راية الشيوعية لتخليصهم من نظام الطبقات الذي جاءت به الملكية الفردية وأن على جميع الشعوب أن تناضل الطبقات المالكة المتحكمة في مصالح الشعوب الذين بأيديهم الجاه والسلطة والمال وأن هذا النضال لا ينبغي أن يتوقف إلاَّ بالقضاء التام على هذه الطبقات واستعلاء طبقة البروليتاريا التي ستحكم هي الأخرى حكماً صارماً لا رحمة فيه إلى أن يتحقق لهم ما يريدون من إقامة النظام الشيوعي بدون منازع حيث سيقوم نظام البروليتاريا على الدكتاتورية الشديدة ما دام يوجد أعداء للشيوعية ولهذا يطلقون عليهم «دكتاتورية البروليتاريا» أي حكم الفقراء وهذا الوصف سينتهي أيضاً حينما تتمكن الشيوعية من بسط نفوذها في كل العالم فلا

تبقى تلك الدكتاتورية إذ أن الشعب أصبح حاكماً نفسه بنفسه وكلهم طبقة واحدة هي «البروليتاريا» وقد رأى العالم مدى صحة هذه الأحلام الفارغة حيث أصبحت تعاليم «ماركس» تحت النعال بعد أن أثبتت فشلها الحتمي شأنها شأن كل الأفكار والمعتقدات الباطلة .

وهناك الكثير من المبادئ الماركسية التي تطرقت إلى كل جانب من جوانب الحياة ، والذي يهمنا هو معرفة الفشل الذريع الذي لحق بالإشتراكية في معالجتها هي والشيوعية للحالة الإقتصادية ، وكيف كانت النتيجة التي وصلت إليها النظريتان الجهنميتان فإنهما بعد أن عاشتا في الأرض فساداً طوال سبعين عاماً من قيامهما المشؤوم وأتتا على الأخضر واليابس وقُتل بسببهما ملايين لا يعلم عددهم إلاَّ اللَّه ودُنِّسَت الأخلاق ومُزِّقَت الأسر وعَلا قَرنُ الشيطان (١) ، فأذن اللَّه تعالى في إظهار فشل الشيوعية ذلك الفشل الذريع في سد الحاجات الضرورية لأتباعها من الموارد الزراعية إلى أن أصبحوا يتكففون الغرب الرأسمالي الذين تنبأ لهم «ماركس» بأنهم سيكونون أول من يتقبل الإشتراكية الشيوعية بصدر رحب بزعمه وكان الشيوعيون يصفون الغرب وغيرهم بالتخلف والجمود .

وما أن قويت الثورة الصناعية عندهم حتى فاجأتهم بزيادة العمل وقلة المكاسب وتدني الحياة وتدني الأخلاق وزيادة الفقر وانخفاض المستويات الصحية وسلب الحريات في البلدان الشيوعية وكُمِّمت الأفواه واشتد الحكم

---

(١) لقد انجلت الظلمة عن فشل الشيوعية بعد سبعين عاماً في جميع أنظمتها وداستها أقدام كانت تقدسها وللباطل صولة ثم يضمحل .

بالحديد والنار وأصبح العامل يعمل لصالح الدولة لا لصالحه مقابل كفالة الدولة لطعامه وشرابه ببطاقته الشخصية بما يسد حاجته الضرورية فقط .

وتبين بوضوح تام بعد فوات الأوان أن مناداة الشيوعية بنزع الملكية الفردية وحصرها في الدولة أنه من أحمق الحلول وأبعدها عن مصالح الشعوب فهي تقتل الحوافز المشجعة على العمل والتفاني فيه والإخلاص في القيام به فأي إخلاص سيأتي للعامل الذي لايملك من وراء كده وتعبه غير لقمة العيش والباقي لغيره ولقد أحسَّ الملاحدة هذه الهوه قبل أن تكتسح الشيوعية في مهدها فشددوا قبضتهم على الناحية الصناعية إذ يعرف المقصر في أي قطعة فيعاقبونه عقاباً صارماً قد يؤدي إلى قتله أمام زملائه فانتظمت له الناحية الصناعية نوعاً ما بينما فشلت مراقبتهم في الناحية الزراعية فشلاً ذريعاً لصعوبة مراقبة الفلاحين وظهر هذا واضحاً في البلاد الشيوعية في تخلفها في مجال الزراعة ، بل وفي مجال الصناعة إذ لا مقارنة بين الصناعات الغربية والشيوعية ومن المعلوم أن الملكية الفردية هي نزعة فطرية في كل إنسان لا يمكن أن يتجاهلها ولا يمكن أن يتغلب على فطرته في مقاومتها كي يتركها بطوعه ، ولعل هذا الجانب كان من أهم العوامل التي أسرعت بانهيار الشيوعية رغم قوتها التي ما كان أحد يحلم بأنها ستسقط جثة هامدة في تلك الفترة الوجيزة من صحوة الشعوب الأوروبية الشرقية في ولاية «جورباتشوف» الذي تولى رئاسة الإتحاد السوفيتي بعد «برجينيف» و «يوري أندروبوف» كما تبين كذلك أن التحريش بين الفقراء وأصحاب الأموال إنما هي خدعة لصرف الأنظار عن مقارعة

الشيوعية وضرب الناس بعضهم بالبعض الآخر بزعم أن طبقة البروليتاريا طبقة العمال أو الكادحين طبقة مظلومة يجب أن تأخذ حقها من الأغنياء بالقوة .

فقد دعت الشيوعية إلى تأجيج الصراع الطبقي بين المُلاَّك والفقراء وأوغرت صدور الفقراء على الأغنياء وأقنعتهم بأنه لا يمكن أن يصل الفقراء إلى العيشة الكريمة إلاَّ بالإطاحة بطبقة الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال وسلبهم إياها عن طريق السلاح والقوة ليتم رفع مستوى الفقراء الكادحين ـ البروليتاريا ـ وتم لهم ذلك فبطش الفقراء بأصحاب الأموال وسلبوهم إياها وجاءت الدولة لتستولي على كل مصادر الحياة وتساوي بعد ذلك الأغنياء بالفقراء فلا بقى الأغنياء على غناهم ولا رفعوا الفقراء ، وجنى الجميع بعد ذلك نار الحقد والبغضاء وتبخرت أماني الفقراء وذهبت أدراج الرياح كل ما وعدتهم به الطغمة الحاكمة الماركسية وبقى الجميع في همهم وغمهم إلى أن استطاعوا أن يتنفسوا الصعداء قبل ثلاث سنوات ومرَّغوا أنوف جبابرة الماركسية في الوحل وانتقم اللَّه منهم وهو عزيز ذو انتقام وقد أدرك القارئ انه لا مقارنة بين هذه الجاهلية الحمقاء وبين الإسلام ذلك أن الإسلام ليس فيه صراع طبقي ولا تأليب جماعة ضد جماعة أخرى بل الكل مؤمنون أخوة كالجسد الواحد والرزق بيد اللَّه والعمل مشترك بين الجميع والتنافس المعتدل مطلوب وبهذا عاش الإسلام والمسلمون بخير ولم يعهد في أي حقبة من الزمن أن ثار المسلمون على الإسلام وطالبوا بالغائه وذلك لما عهدوا فيه من الحق .

فتميز المجتمع الإسلامي بالتوادد والتراحم وامتاز بالكرم والقناعة والرضا بما قسم اللّه لكل شخص من الرزق فلا يجد الفقير حقدا على الغني ولا يشعر الغني بأن له الفضل على الفقير فعاش الجميع في سلام كل فرد راض بما أعطاه اللّه ولك أن تقارن بين البلدان التي اقتنعت بالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبين البلدان الكافرة التي لا تؤمن بذلك ، لك أن تقارن بين الجرائم التي تحصل في البلد المسلم الملتزم والبلد الكافر تجد فرقاً هائلاً خيالياً وذلك لخلو الوازع الديني وغلبة حب المال وقسوة القلوب التي لم يدخلها نور الإسلام .

وأما بقية التعاليم الشيوعية التي لا تتعلق بالجانب الإقتصادي فلاحاجة لنا بالتطويل بذكرها وذكر أشنع ما مر بالإنسانية في تاريخها الطويل في النظام الشيوعي الذي لا يبالي بقتل ثلاثة أرباع الشعب ليبقى الربع الأخير صالحاً أي شيوعياً وهو ما طبَّقوه بالفعل في كثير من البلدان وكثيرمن البشر الذين لا يعلمهم إلاَّ اللّه تعالى طبقوه حسب تعاليم «ماركس» ، و «لينين» ، و «ستالين» في أنه لا بأس بقتل ثلاثة أرباع الشعب ليبقى الربع الأخير على الشيوعية الماركسية ونظامها الإلحادي .

المبحث الثاني

رد مزاعم المَلاحدة الشـيوعيين

وفيه مطلبان :

المطلب الأول

رد مزاعمهم في الملكية الفردية :

أما زعمهم أن الملكية الفردية ليست فطرية في الإنسان ، فقد كابروا عقولهم وتعسفوا حين زعموا أنها لم تكن قضية فطرية في النفوس وإنما وجدت بعد أن عرف الإنسان كيفية الزراعة واستجلاب كثرة الدخل للفرد وما تلا الزراعة من قيام الصناعات وزيادة الدخل محتجين على هذا السخف بأن الشيوعيين الأوائل ما كانوا يعرفون الملكية الفردية وكانوا في أسعد حال فإن هذا الدليل رغم مصادمته للواقع وللفطر السليمة رغم ذلك وغيره هو قول بلا علم وتخرُّص بلا دليل ، والإسلام يذكر أن اللّه عزَّ وجلَّ علَّم آدم كل شيء حتى علَّمه كيف يزرع وكيف يحصد فأي زمن كان الناس ـ حسب زعم الملاحدة ـ لا يعرفون الزراعة ولا العمل ؟

وهذا ما أفادته الشريعة الإسلامية بل وسائر الأديان عن طبيعة البشر منذ وجودهم وأقرته ولم تلغه لأن الحياة لا تستقيم بدون النزعة إلى الملكية الفردية وحب التملك سُنَّة الحياة الدنيا فمن خالف هذه السُنَّة وزعم أن الناس لابد أن يكونوا في حال لايملك فيه الشخص أي شيء لنفسه ـ كما

تقضي بذلك التعاليم الشيوعية ـ فلا شك أن مصيره الفشل وهو ما حصل بالفعل حينما أقدم الثوار الشيوعيون الأوائل على تطبيقه فرؤا بأعينهم هبوط أحوالهم الإقتصادية وكساد حركاتهم المعيشية مما جعلهم يضطرون صاغرين إلى الإعتراف بالملكية الفردية ولو في أضيق نطاق لكن له دلالته على وجود نزعة الإنسان في حب التملك الفردي وأن القول بعدم وجود تلك النزعة إنما هو مكابرة وضيق فكري .

فكان من أهم أسباب تراجع أقطاب الشيوعية عن تأميم الملكيات كلها هو ما لاحظوه من تردي الإنتاج الزراعي ومعرفتهم أن سبب ذلك إنما يعود إلى ضعف الحوافز على العمل وعدم تمكن الحكام من دقة معرفة المقصِّر من غيره في المجال الزراعي الذي تصعب مراقبته إلى حد كبير بخلاف المجال الصناعي الذي تم إخضاعه بدقة للملاحظة والمراقبة الصارمة بحيث يعهد لكل شخص بمهمة خاصة في العمل فإذا حصل خلل في أي قطعة من الصناعة عرف صاحبها فورا ونال عقابه الذي لا يعرف الرحمة بخلاف العامل الزراعي الذي أفلت من هذه المراقبة الصارمة فكانت النتيجة أن أخذت الدول الشيوعية تتكفف الدول الغربية القمح والحبوب وزعموا أن ذلك النقص في الجانب الزراعي إنما كان بسبب الآفات الزراعية ، ولكن الحل الذي عالجوا به تلك الآفات يفصح عن السبب الحقيقي حيث سمحوا بعد فوات الأوان باتاحة الملكية الفردية لقسم من المحصول الزراعي يمتلكه المزارع تشجيعاً لزيادة الإنتاج ولنشاط المزارعين وهو دليل واضح على فشل نظام منع الملكية الفردية وأنه أشد الآفات .

المطلب الثاني

رد مزاعمهم في نشأة الصراع الطبقي :

أما زعمهم أن الصراع الطبقي لم يكن له أي سبب غير معرفة الإنسان للزراعة والصناعة فهذا قول بالتخمين وهو أكذب الكذب ولن يجد القائلون به أي دليل لأنهم ادَّعوا شيئاً هو أقدم منهم .

كما أن هذا الأمر ليس هو السبب الوحيد للصراع بين الناس ، وإنما هو واحد من عدة أسباب لا تكاد تحصر . كما أن هذا السبب قد يوجد في بعض المجتمعات وقد لا يوجد فليس هو أمر حتمي كما يدَّعي الملاحدة .

ومن السذاجة والجهل القول بأن الملكية الفردية نشأت عن ظهور الصناعة والزراعة وأنها ليست فطرية في نفوس الناس بل وفي نفوس الحيوانات فإن الملكية الزراعية نفسها لم تقم إلاَّ بسبب النزعة الملكية فردية كانت أو جماعية وإلاَّ لما قامت الزراعة ولما عرف الإنسان طريقه إلى الجمع والإدخار بين مُقل ومُكثر وبخيل وكريم .

وأما زعمهم أن الناس منذ أن تركوا الشيوعية الأولى وهم في صراع طبقي مرير وأن ذلك سيستمر حتى يرجع الناس إلى الشيوعية الأولى وذلك بترك الملكية الفردية وتساوي الناس في كل شيء بزوال الطبقات التي أحدثتها الملكية الفردية وتكدس رؤوس الأموال في فئة دون فئة يقال لهم هل يتحقق ذلك في عالم الواقع ، وهل يمكن أن يتساوى الناس وتزول

الطبقات خصوصاً في ظل النظم الجاهلية ، وهل يمكن أن تتحقق هذه الأحلام البرَّاقة في يوم من الأيام . إنها مجرد أوهام وخيالات لأن الحياة لا تقبلها ولا تنتظم بها .

إن نظام الطبقات واستعلاء بعض الطبقات على البعض الآخر والظلم والحرمان واستعباد القول للضعيف كلها إنما توجدها النظم الجاهلية كما حدث بالفعل على مسار تاريخ البشرية ، فالمجتمع في العهد الهندوسي مقسَّم إلى طبقات هي البراهما والكاشتريا والشودرى وأقسام فرعية أخرى كثيرة .

وفي أوروبا عاش الناس طبقات متفاوتة أشد تفاوت ؛ طبقة تسمى طبقة السادة ، وأخرى تسمى طبقة العبيد وقد تمثلت هذه الأحوال السيئة الجاهلية في عهد الرق .

أما في عهد الإقطاع فكان الناس ثلاث طبقات رئيسة هي طبقة الأشراف أمراء الاقطاع ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة الشعب «المغلوبين على أمرهم» .

أما في عهد الرأسمالية فإن نظام الطبقات على أشده أيضاً . طبقة تسمى طبقة أصحاب رؤوس الأموال وطبقة أخرى تسمى طبقة العمال «ناس في الثُّريَّا وناس في الثَّرَى» وهكذا الحال في عهد الديمقراطية التي تظاهرت بأن الشعب هو صاحب السلطة فقد كان الصحيح هو أن الشعب لايزال هو المستضعف المقهور وصاحب المال هو السيد الحاكم وهي نفس الكذبة التي كان يردِّدها الشيوعيون من أن طبقة البروليتاريا

الكادحة هي التي ستملك وتحكم حينما تطبق الشيوعية وحينما تقضي طبقة البروليتاريا على جميع الطبقات المناؤة لها في صراع ثوري محتدم هذا هو حكم الجاهلية وشريعتها ، ولكن حكم اللّه هو خلاف هذا .

حكم اللّه أن المجتمع سيكون فيه أغنياء وفقراء ملكية فردية وملكية جماعية الأغنياء مؤتَمنون على المال وللفقراء نصيب في ذلك المال ، والكل عبيد للّه تعالى لا طبقات ولا كبرياء يتنقل المال من يد إلى يد ومن شخص إلى آخر وقد يصبح الغني فقيراً وقد يصبح الفقير غنياً حسب تصريف اللّه للأمور ومعنى هذا أن المال في الإسلام ليس منحصراً في طبقة من الناس دون أخرى ولا في فئة من المجتمع بخصوصهم حتى وإن كانت تلك الفئة هم الحكام فإن الإسلام لا يعطي الحاكم حرية التملك كما يهوى بل شأنه شأن غيره غير ما يأخذه في مقابل جلوسه للحكم بين الناس ومن هنا نجد أن حكام الدولة الإسلامية في نشأتها كان الحاكم لا يتمتع بأي امتيازات مالية ولهذا كان الحكام يعتبرون تحمل المسؤولية أمانة عظيمة وخطراً جسيماً لا فوزاً كما يسميه الناس اليوم .

وينبغي التنبيه إلى أنه إذا وُجد نزاع بين المسلمين فإنه لا يكون من أجل اسقاط طبقة لطبقة أخرى أو علو فئة على أخرى وانما يكون ذلك في الغالب من أجل الوصول إلى الحق وإلى دفع الخطأ والخطر عن الناس وهذا أمر طبيعي فلا يجوز أن يفسر على أنه صراع طبقي كما يفسره الملاحدة حسب نظرياتهم المادية .

وقد يكون النزاع أما أمر بمعروف أو نهي عن منكر وليس هو من قبيل الحرب الإقتصادية أو بسبب الملكية الفردية أو الجماعية كما يزعم الملاحدة أو أنه حرب طبقات .

ومن أقوى ما يدل على كذب الملاحدة في زعمهم أن نزع الملكية الفردية ينهي الصراعات ويؤلف القلوب ويساوي بين طبقات المجتمع كلهم فيعيشون عيشة ملائكية من أقوى ما يدل على كذبهم هذه الصراعات التي لا نهاية لها بين مختلف معسكرات الشيوعية . مع أن الملكية الفردية لا وجود لها في دستورهم فلماذا إذن هذه الصراعات وعلى أي شيء ؟ ﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾ [(١)، (٢)]

كما أن زعمهم أن الصراع هذا لا يزول إلاَّ بزوال الملكية الفردية كلام كاذب فإن الصراع باق والملكية الفردية كذلك لن تزول من نفوس الناس والدليل على ذلك أن الصراع لم ينته مع وجود القمع الشديد للملكية الفردية في البلاد الماركسية ، بل إن الصراع لا يمكن أن ينتهي ليس بين الناس فحسب بل والحيوانات كلها .

وقد عاش الناس في ظل النظام الشيوعي حقبة من الزمن وهم ينتظرون تلك الجنة التي وعد بها «ماركس» بعد أن وضعت الحرب الطبقية أوزارها وبعد أن قضى النظام الماركسي على الملكية الفردية بكل وحشية عرفتها البشرية وهم ينتظرون ذلك اليوم الذي يزول فيه الصراع الطبقي بكل

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤٣

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٦٢

أشكإله فلا يبقى صـراع ولا أحقاد ولا حاكم ولاجيش ولا سجـون يعيشون كالخراف الأليفة ولكن ماذا كانت نتيجة هذه السخافة ؟

لقد عاش المجتمع الشيوعي صراعاً طبقياً مريراً سواء أكان على مستوى الأفراد أو على مستوى الدولة إلى أن هدأت عاصفة الشيوعية وكيف لا يحصل صراع بين جماعات قامت في الأساس على الصراع بل وعلى مشروعيته وضروريته لقيام حكم البروليتاريا بزعمهم حتى أصبح الصراع والثورات والقتل والإغتيال من أسس بناء الماركسية دون أن تظهر أدنى إشارة إلى تلك الجنة المزعومة الماركسية ، ومثل هذه الكذبة وقعت أيضاً الكذبة الأخرى وهي القول بأن الناس كلهم سيعيشون حياتهم في مستوى واحد وعلى طبقة واحدة بلا تفاضل بينهم عندما تكتمل الشيوعية وتطبق وفق ما قرره اليهودي «ماركس» عدو الجوييم ـ حسب تسمية اليهود لهم ـ وإذا سألت عن سر بقاء الحكومة في البلاد الشيوعية فإن جوابهم : إن هذه الحكومات القائمة إنما هي حكومات مؤقتة وستنتهي بانتصار الشيوعية على كل الأنظمة المناوءة لها [١]

لأن الناس حينئذ سيعيشون دون مشكلات ولا صراع يتطلب تدخل قوة عليا ولا فقر يسبب المشكلات ولأن الناس حينئذ يكونون على مستوى رفيع في الأخلاق والسلوك الطيب والرقابة الذاتية التي هي أقوى من الرقابة الخارجية ولا ملكية فردية تسبب الخصومات والاستئثار بالمال والرغبة في جمعه .

---

(١) وهذه الفكرة توجد عند الرافضة اذ يعتبرون حكامهم نائبين مؤقتا عن المهدي الذي سيستلم الحكم فور خروجه من السرداب المزعوم .

هكذا زعم الملاحدة ولكن السؤال المهم هو هل ستتحقق هذه الأحلام السخيفة في يوم من الأيام ، أو هل تحققت في يوم من الأيام بالدليل المقنع [1] ، أم أنها خدع كاذبة وتضليل أو أفيون للشعوب المغلوبة على أمرها كما هو الواقع .

إن الإسلام يعتبر الفكر الماركسي في ناحيته الإقتصادية فكراً فاشلاً مخالفاً للعقل والفطرة السليمة وأنه قام على نظريات جاهلية أخطأت الطريق الصحيح للإقتصاد النافع وبدلاً من أن توجه جهود المجتمع لمساعدة بعضهم بعضاً إذا بها تحرِّم الملكية الفردية وتشعل مكامن البغضاء وتثير الصراعات الطبقية بحجة سخيفة وهي لترتفع الطبقة الكادحة بزعمهم ولكي لا تتكدس الأموال في ناحية دون أخرى وعند قوم دون آخرين وكل ذلك ليس هو الحل الصحيح ولا الحل الذي تستقيم به الحياة وتسعد الشعوب به فهو مرفوض جملة وتفصيلا ويعتبره الإسلام تدخلاً فيما لا ينبغي للبشر سلوكه فالناس كلهم عبيدٌ للَّه في الإسلام والمال مال اللَّه والرزق بيد اللَّه يؤتيه من يشاء لا يجره حرص حريص ولا ترده كراهية كاره . فالملكية الفردية حق اقتضته الفطرة والضرورة لصلاح الأحوال وعلى الجميع أن يعضد بعضهم بعضاً بالتي هي أحسن فلا صراع ولا بغي ولا عدوان ، ولم يجعل الإسلام للشخص مطلق الحرية في أموإله ينفقها بإسراف أو يمسكها كما يحلو له ، بل هو محاسب عليها ومسؤول عنها وعليه حقوق فيها يجب أن يؤديها وإذا كان في الأغنياء من طغى وتجبر فهؤلاء لهم ما كسبوا وعليهم ما

(١) هذا رد لقولهم أنها تحققت في عهد الشيوعية الأولى .

اكتسبوا وسينالون جزاءهم ولا يبرر فعلهم محاربة الملكية الفردية أو قيام الصراع الطبقي بين المجتمعات كما أن في أولئك التجار من اتصف بالعطف والتسامح ومساعدة المحتاجين دون منَّة ولا أذى والحكم على طبقة الأغنياء بأنهم احتكاريون وانتهازيون وأنهم هم العقبة الكؤود في طريق غنى الفقراء وارتفاع معيشتهم إن هي إلاَّ خرافات سخيفة وأوهام باطلة وقد دلت التجارب الشيوعية على فشل هذه الفكرة الخاطئة حين أفقرت الأغنياء وأتعست الفقراء وملئت القلوب حقداً وغضباً وأتعست الحالة الإقتصادية ونشبت الصراع الطبقي على أشده دون رحمة ، وفي التاريخ الإسلامي أمثلة مشرقة للمجتمع حينما تصفوا القلوب وتزول البغضاء فقدكان في الصحابة رضوان اللَّه عليهم أغنياء وفيهم فقراء . وكان أحدهم يقول لصاحبه عندي زوجتين أنظر أعجبهما إليك فأطلقها وتتزوجها وعندي من الضياع كذا وكذا أتنازل لك عن نصفها فيقول له الصحابي الفقير المهاجر بارك اللَّه لك في مالك وأهلك دلني على السوق فيذهب ويعمل ويرزقه اللَّه تعالى وكان فيهم من يملك الأموال الكثيرة مثل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ولم ينقم عليه أحد فيها وقد أنفق عثمان رضي الله عنه ألف بعير في سبيل اللَّه وغير ذلك من الأمثلة المشرقة التي قام عليها الإسلام بعيداً عن الصراعات الطبقية البغيضة ، ذلك أن الإسلام يعالج المشكلة القائمة دون النظر إلى أسبابها كما أنه يأتي بالحلول التي لا مضرة فيها على أحد إذ لا ضرر ولا ضرار ، بينما الشيوعية الحمراء عالجت المصائب بمصائب أفدح منها .

دَاوَيْتَ مُـتـؤَداً ودَاوَوا طَفـرَةً ‏ * ‏ وأخَفُّ مِنْ بَعضِ الدَّواءِ الدَّاءُ**

مع إن ما أقدمت عليه الشيوعية في الأحوال الإقتصادية ليس فيه أي دواء ، بل هو الداء بعينه وهو الذل وهو خنق الحريات ، فالسجون مملوءة والجواسيس منتشرون والمجاعة فاشية . إنه سجن كبير وقبضة حديدية فالشعوب غاضبة ولكن الويل لمن تفوَّه بكلمة نقد ، وأين هذا السلوك من حرية الإسلام التي «كان الرجل يقول لمعاوية» : «واللَّه لتَستقيمَنَّ بنا يا معاوية أو لنقوِّمنَّك فيقول بماذا ؟ فيقولون بالخُشُب [1] ، فيقول : إذاً أستقيم» [2]

فأي طاغوت من طواغيت الحكم في النظم الجاهلية يتحمل ما هو أدنى من هذا الكلام ؟

وما زعموه من أن الطبقات القوية هي التي تحكم وتشرع لبقية الطبقات وتستعبدها . هذا صحيح ولكنه لا يوجد إلاَّ في النظم الجاهلية الذين يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللَّه والذين يصبح الظلم عندهم من شيم النفوس ، فإن وجد ذا عفة فلعله لا يظلم كما عبر ذلك أحد الشعراء الجاهليين قديماً ولكن هل هذه هي الحقيقة التي لابد منها أو الخيار الذي لا آخر سواه ؟ كلا . بل هناك عقيدة فيها الحل الصحيح دون المرور بتلك الطرق الظالمة المظلمة إنها العقيدة الإسلامية التي تجعل صاحب المال والفقير أخوة متساوين متضامنين اللَّه رب الجميع وحكمه ينفد في الجميع ، لا فضل لأحد على آخر إلاَّ بالتقوى ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وليس هناك طبقات هم السادة الحاكمون

(١) الخشب (بضم الخاء) : هو السيف الصقيل .

(٢) «سير أعلام النبلاء» جـ٣ ص ١٥٤ .

يعزوه إلى ابن عساكر ١٦ / ٣٦٨ / ب

المالكون وطبقاتهم العبيد المستذلون إلاَّ في النظم الجاهلية التي لا تقيم للإنسان وزناً إلاَّ من خلال ما يملك من المال والجاه فيبدو المال بهذه الصورة هو السبب في الظلم والطغيان بينما الواقع الصحيح هو خلاف ذلك فإن المال والملكية الفردية من الظلم أن يُحمَّلا طغيان المنحرفين «ولا تزر وازرة وزر أخرى» .

إن الذي يطغيه المال وتطغيه الملكية الفردية هو شخص منحرف في الأساس فاسد الطباع سواء كان له مال أو لم يكن له مال ذلك إن المستقيم على الحق القائم بأمر اللَّه لا يطغيه المال وإنما يستعمله في أعمال الخير ووجوه البر المختلفة مراقباً فيه ربه متيقناً أن المال ظِلٌّ زائل وعارية مُستردَّة وأن الدنيا شِدَّة بعد رَخاء ورَخاء بعد شِدَّة .

أما مفهوم المساواة في الأجور في النظام الشيوعي الذي زعمت الماركسية أنه مكفول للجميع فقد حملهم على القول به ما زعموه من أن البشرية كانوا في أصل نشأتهم يعيشون عليه متساوين كلهم في الحقوق بلا ملكية فردية الكل للجميع في المأكل والملبس والمسكن والنساء لا فرق بين شخص وآخر ، حتى جاءت الرأسمالية والملكية الفردية فقلبت تلك الأوضاع التي تريد الشيوعية إرجاعهم إليها مرة أخرى ، وهذا لا يتحقق إلاَّ بوضع الدولة يدها على كل وسائل الإنتاج والعمل ومن ثم يأخذ كل شخص ما يستحقه من قبل الدولة ، وهذه الدعاية جذابة في ظاهرها . ولكن هل تحققت فعلاً في النظام الشيوعي فأعادت إليهم سعادتهم التي كانت في الشيوعية الأولى بزعمهم ؟!! ، وهل ساوت بين العمال فعلاً فلم يعد هناك تمايز بين شخص وآخر وحاكم ومحكوم ؟!! .

لاشك أن الواقع الذي انجلت عنه الشيوعية بعد اندحارها يكذب كل تلك الدعايات ويخبر أن الشيوعية إنما نجحت في مساواة الناس كلهم في الفقر والحاجة وليس في الغنى والسعادة لأنه لا يوجد أي حافز يجده الشخص حتى يبذل أقصى جهده في العمل ليجده مستقراً في يد الدولة التي لا تعطيه إلاَّ بقدر حاجته الضرورية . وما الذي ينفعه أن يقال له إن جهدك وعملك حينما يذهب إلى الدولة إنما هو إسهام منك في تقوية الدولة لتتمكن من إظهار الشيوعية ولتقمع أعداءه إن فكروا في الاعتداء عليها . ما الذي ينفعه حين يقال له إنه بذلك الجهد في العمل مع أنك لا تأخذ إلاَّ ما يكفي حاجتك الضرورية دليل على سلوكك الطيب وأنك غير جشع كالرأسمالي الغربي وأنك مواطن طيب ، وما الذي تنفعه وعود الملاحدة بأنه سيعيش في جنة عالية بعد أن تتمكن الشيوعية من بسط نفوذها على كل الأرض وكيف تقتنع نفسه بهذه الحالة البائسة التي يعيشها في الوقت الذي يرى فيه وجهاء القوم وأصحاب السلطة يعيشون في ترف لا حدَّ له مساكن فاخرة وسيارات فارهة وبساتين نضرة وخدماً وحشماً . وهم يتظاهرون بالدفاع عن الطبقة الكادحة وبنضال الرأسمالية .

إن كل ذلك يدعو الشخص إن كان له عقل إلى القلق والاضطراب والثورة على تلك الأوضاع ومجازاة من كان السبب فيها وهو ما حصل بالفعل في الثورات المتتالية التي تمت في عهد «جورباتشوف» على الشيوعية ونظامها البغيض وإطاحتهم بأولئك الخبثاء والقضاء عليهم بكل شدة في كل البلدان التي تنفست الصعداء من الكابوس الماركسي وهكذا نجد أن زعمهم المساواة في الأجور إنما هو المساواة في الفقر وليس في الأجور .

●● تعقيب :

وفي الختام يتضح لنامما سبقت دراسته أن الأسس التي تقوم عليها الاشتراكية الشيوعية هي :

١ ـ إلغاء الملكية الفردية واستبدإلها بالملكية العامة المتمثلة في الطبقة الحاكمة للوصول إلى إلغاء الصراع الطبقي من المجتمع البشري بإلغاء الباعث عليه وهو الملكية الفردية .

٢ ـ توزيع الناتج على الأفراد كل بحسب مساهمته في الإنتاج وحاجته وهو المبدأ الذي يعبرون عنه بقولهم «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته» .

٣ ـ الاشباع الجماعي للحاجات وليس الربح وهو مبدأ «المساواة في الأجور» .

٤ ـ التخطيط للنمو الإقتصادي . وكفالة الدولة لجميع المواطنين في مقابل تكليف القادرين منهم بالعمل رجالاً ونساءاً .

٥ ـ القضاء على الحرية الفردية .

٦ ـ إلغاء الكثير من العلاقات الإجتماعية المتوارثة ، كالارث والهبة ، بل وإلغاء كافة الطبقات باقامة دكتاتورية البروليتاريا ـ الطبقة الكادحة ـ .

٧ ـ إنكار الدين ومحاربته .

٨ ـ إلغاء الحكومة في المستقبل وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة «حكم الشعب نفسه بنفسه» .

هذه أهم الأسس التي قامت عليها الثورة الإشتراكية الشيوعية ولكن جاءت النتائج في التطبيق الفعلي لتلك الأسس على النحو الآتي بالإضافة إلى ما سبق بيانه :

١ ـ إنعدام الحرية الإقتصادية الفردية .

٢ ـ إنعدام الحافز الفردي .

٣ ـ عدم تجويزهم الملكية الفردية .

٤ ـ حكم الشعوب بالحديد والنار .

٥ ـ فشل مبادئ الإشتراكية فشلاً ذريعاً .

٦ ـ محاربتها للأديان متأثرة بالعداء للدين النصراني .

٧ ـ ظهور الكثير من المفاسد الاجتماعية كالرشوة والغبن واللاأخلاقية كتفشي الرذائل بكل صورها وأشكالها [(١)]

والسر في ذلك أن المذهب الشيوعي ليس قاصراً فقط على الناحية الإقتصادية كما يُذكر عنه . بل هو مذهب شامل لجميع النواحي عقدية كانت أو مادية كما هو حال الشيوعية حقيقة . فمن تصور أن الشيوعية مذهب إقتصادي بحت لا شأن له ببقية الأمور العقدية والتنظيمية فهو مخطئ خدعه زعم الملاحدة هؤلاء أن أصل كل الحياة بأنظمتها ومعتقداتها وجميع شؤون الإنسان إنما كان أصلها المادة وهو زعم كاذب بنوا عليه النظرية الشيوعية التي جعلوا واجهتها الكبيرة التركيز فقط على الناحية

(١) بتصرف عن النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٤٩

الإقتصادية خداعاً للناس ونفاقاً فإن أول ما يبطل هذا الزعم هو أن يُقال لهم : إذا كانت الشيوعية لا شأن لها إلاَّ باصلاح الأمور الإقتصادية فقط فما بال الاضطهاد الديني هو الشاغل الأول لدول الشيوعية ؟!! ، ولماذا كثرت الضحايا التي لا يعلمها إلاَّ اللَّه في سبيل إعلاء العقيدة الشيوعية ؟!! ، فلقد كان الجانب الإقتصادي في الشيوعية هو أقل الجوانب أهمية ، بل لا يكاد يُقارن بما توليه الشيوعية من إهتمام بالجوانب العقدية الفكرية .

المبحث الثالث

إيضاح بعض الجوانب الاقتصادية

وتشمل دراسة هذه الجوانب ما يلي :

المطلب الأول

التعريف بعلم الاقتصاد

لعلماء الإقتصاد عدة تعريفات حسب تأثرهم بالمظاهر الإقتصادية التي عايشوها وبالإتجاهات الفكرية التي يعتقدونها وهي تعريفات كثيرة إلاَّ أن التعريف السليم لعلم الإقتصاد ينبغي أن يشتمل على المفاهيم الأساسية الآتية :

الإقتصاد ذاته وحل المشكلات الإقتصادية ، والإنتاج والتوزيع ، وهو ما اشتمل عليه التعريف الآتي :

«الإقتصاد هو العلم الذي يبحث في كيفية إدارة واستغلال الموارد الاقتصادية النادرة لإنتاج أمثل ما يمكن إنتاجه من السلع والخدمات لاشباع الحاجات الإنسانية ـ من متطلباتها المادية ـ التي تتسم بالوفرة والتنوع في ظل إطار معين من القيم والتقاليد والتطلعات الحضارية للمجتمع .. كما يبحث في الطريقة التي يوزع بها هذا الناتج الإقتصادي بين المشتركين في العملية الإنتاجية بصورة مباشرة «وغير المشتركين بصورة مباشرة» في ظل الاطار الحضاري نفسه»[(١)]

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٣٦

وقد ذكر الاستاذ «محمود إبراهيم الخطيب» أن هذا التعريف هو أفضل التعريفات لعلم الاقتصاد وذلك لشموله جميع قضايا الاقتصاد ، بينما التعريفات الأخرى كانت قاصرة لاهتمامها بجانب دون جانب فإن بعض التعريفات التي ذكرها كانت تركز إما على الثروة المنتجة صناعياً أو زراعياً دون النظر إلى الإنسان واما بالتركيز على الإنسان فقط وكيفية حصوله على المواد الإنتاجية وكيف يستخدمها بطريقة تضمن له الثراء دون الاهتمام بمواد الإنتاج نفسها .[1]

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٣٢ ـ ٣٤

المطلب الثاني

مدى أهمية العامل الاقتصادي في حياة الإنسان

لاشك أن للعوامل الاقتصادية أثر واضح جداً في حياة الناس وفي طريقة معايشهم وتعاملهم فيما بينهم وفي الإسلام أتم بيان لأهمية هذا الجانب والتأكيد على الاهتمام به ، على أن الإسلام وان كان يولي هذا الجانب أهمية فائقة لكنه لا يقر ذلك الغلو الممقوت الذي قرَّره الملاحدة في تقديسهم للجانب الاقتصادي إلى حد أن جعلوه البديل عن اللّه تعالى وإلى حد انه هو المنشئ للقيم والأخلاق والتدين والتاريخ ... إلخ ، فهذا التصور جاهلي قائم على المغالطة للناس في عقائدهم وأخلاقهم وسلوكهم كما عرفت سابقاً وقائم على الاجحاف الظالم بكل القيم الإنسانية والدينية على مر الدهور .

لقد تقرر في كل الكتب التي أنزلها اللّه والشرائع الالهية وأكده العلم الحديث ان المادة حدثت في فترة من الفترات وانها لم تكن موجودة قبل ذلك كما زعم الملاحدة أزلية المادة أو أنه لا أول لها ولا آخر لها .

ولقد أكد علماء الأحياء على أن كل الكائنات الحية ـ فضلاً عن الإنسان ـ تسير على طريقة تخالف فيها المادة غير الحية في النمو وفي الصفات وغير ذلك كما ثبت كذلك أن الإنسان منفرد عن الحيوان حتى في كيانه الحيوي البحت فضلاً عن سائر الصفات التي امتاز بها كالعقل والروح والتفكير وكل

أموره الأخرى فلم يبق للماديين ما يتمسكون به لارجاع الإنسان إلى حفنة المادة المجردة إلا مجرد العناد والمغالطة الباطلة التي سلبوا فيها الإنسان أعز ما يملك من القيم المثلى والخصائص التي ميزه اللَّه بها والتي هي أرفع وأعلى وأعظم من مجرد المادة أن للإنسان قيماً ثابتة أصيلة لم يكن الحال الاقتصادي هو المنشئ لها كما زعم الملاحدة مع ملاحظة تأثير الحال الاقتصادي نسبياً وإنما كان الحال الاقتصادي مسايراً لها وحافزاً لإشباعها الموجود أصلاً قبل الحاجة إلى المادة ، فمثلاً الرغبة الجنسية موجودة في الإنسان ولم يكن سببها الحال الاقتصادي ، وإنما هذا الحال يكون حافزاً للوصول اليها فيصبح مجموع الأمرين الرغبة ووجود المادة يسيران في طريق واحد تلبية لذلك الجانب الهام المسيطر في الإنسان وهو جانب «النفس» الذي أهمله الملاحدة عمداً لاقتصارهم على الإيمان بالمحسوس فقط .

فهذه النفس هي الأصل الذي يفسر به كل شيء عن الإنسان خيراً أو شراً هكذا أرادها اللَّه الحكيم الخبير لها مطالب عديدة وتتشكل في أشكال مختلفة بتدبير اللَّه تعالى لا بتدبير ذلك الإله الجامد المتمثل في المادة التي يدَّعيها الملاحدة .

ولا يشك عاقل سليم الفطرة أن للإنسان صفات أساسية تحدد طبيعته الإنسانية حتى وإن بدا عليه التأثر بالمادة فإن جوهره الروحي لايزال فوق المادة وفوق مشابهة الحيوانات البهيمية مع التفاوت الحاصل بين الناس في هذا الجانب من ناحية التطبيق الفعلي بعد اتفاقهم في الإطار العام للإنسان والتي تفيد أن الخواص الأساسية للجنس البشري لم تتغير منذ

وجود الإنسان على الأرض في نواحي الرغبات والمظاهر وأنه لا يتغير بسبب المادة بل الذي يتغير فيه هو جانب السلوك فمثلاً يتغير فيه نوع العبادة التي يتعبد بها ونوع التشريع الذي ينظم حياته هل هو التشريع والعبادة الجاهلية أم هو التشريع والعبادة الالهية ؟ فهذا هو الذي يحدث فعلاً تغييره في حياة الإنسان سواء أكان غنياً أم فقيراً مزارعاً أم صانعاً أو في أي حالة من الحالات فهذه يغيرها الإنسان فعلاً فالتغيرات المادية والاقتصادية إنما تغير الصورة ولكنها لا تغير الجوهر والحقيقة الثابتة للإنسان .

إن التغيير الشديد يأتي أولاً من داخل النفس فالغضب والثورة في وجه الظلم والرحمة والحب والحزن ليس هو نتيجة حتمية لتغير المادة من طور إلى طور وإنما سبب ذلك هو تلك الصفات الأصيلة في النفس صفة حب العدل والحق والنفرة عن الظلم والظالمين وكذا اللين والشدة وغيرهما هي صفات ميز اللّه بها الإنسان وفطره عليها وليس سبب ذلك ما ذهب إليه الملاحدة في تفسيرهم المادي للتاريخ . والأدلة كثيرة على أصالة الصفات الإنسانية في الإنسان وأن التغير لم يكن سببه المادة فقط كما زعم الملاحدة .

ومن الأدلة على فساد تعليل الملاحدة أن الإنسان حينما يأتي ما يخالف فطرته وإنسانيته يبدو عليه القلق والاضطراب وعلامات التذمر المعبرة عن كراهته لأي وضع يفرض عليه أو لا ينسجم مع رغبته وحال الناس في أوروبا وانفلاتهم في كل اتجاه وانغماسهم في كل رذيلة ـ وهو وضع يخالف فطرة الإنسان وأصالته الأخلاقية ـ لم يقابل ذلك الوضع البهيمي بالترحاب

والانقياد التام ـ حتى وإن كان يبدو أنه مقبول في الظاهر ـ فإن انتشار القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والاضطرابات العصبية وإدمان الخمور والمخدرات واتساع نطاق الجريمة وجنوح الأحداث والشذوذ الجنسي كلها دلائل صارخة على عدم الرضى بتلك الحياة البهيمية المادية فلو كان الإنسان لا قيم له ثابتة ـ كما قرره الملاحدة ـ لكانت تلك الحياة لا تقدم ولا تؤخر من نفسيته بل يعيش في أي ظرف سعيداً مطمئناً كما تعيش البهائم التي لا تهتم إلا بالمادة وليس لها سلوك الإنسان وهذا يدل على أن ما زعمه الملاحدة كما تقدم من أن شدة التدين وسيطرة الأب في الأسرة الزراعية وكذلك الحفاظ على الأعراض والاهتمام بالعفة وتنظيم الحياة الجنسية والتعاون بين أفراد الأسر إنما كان سببه تلك الحال الاقتصادية في المجتمع الزراعي إن هو إلا كذب محض ومغالطة للنفس وسلب لقيمها الرفيعة التي منحها اللّه إياها وما يستدل به الملاحدة من أن الناس في المجتمع الصناعي أصبحوا لا يعيرون الأخلاق والدين والترابط والعفة بالاً بسبب التطور الاقتصادي هو في حقيقته كذب ووضع شاذ غير مرضي عنه ومغالطة وإنما السبب الأكبر في ذلك هو نجاح المخطط الشرير لإشاعة الفاحشة وتهوين الجريمة وسلب الجوييم قيمهم التي يعتزون بها ويفتخرون بإنسانيتهم فيها والدليل هو ما سبق من حنين أصحاب الحياة البهيمية إلى العودة للأخلاق الفاضلة والرغبة في محاربة الجريمة وقد نصح كتابهم وزعماؤهم وحذروا مجتمعاتهم من مغبة تملك الحياة السائبة التي تهوى بهم إلى النهاية السحيقة بسرعة مذهلة ، فلو أن الإنسان لا قيم له لما أحس أولئك بأوضاعهم الشنيعة ولعاشوا دون أي نكير وهذا يدل على كذب الزعم الشيوعي أن الإنسان لا قيم له ولا قيمة لأخلاقه وسلوكه إلا من خلال الأوضاع الاقتصادية والسلوك الناتج عنها .

المطلب الثالث

أهمية دراسة الأحوال الاقتصادية

إن دراسة الأحوال الاقتصادية والتعرف على مشكلاتها ومعرفة حلولها أمر ليس من السهولة كما قد يتصور البعض فهي أفكار وتجارب ودراسات مقارنة وحلول لابد أن تكون حاسمة في مثل هذه القضايا الخطيرة التي هي من الأسس الهامة في تفرق الأمة وفي نشأة النظم المختلفة والمذاهب المتنوعة ولقد كثر الجدل واشتدت الخصومات بين الناس لاختلافهم في مفاهيمهم للاقتصاد وطرق الوصول السليم إليه وكلها متاعب قضد تقف واحدة منها في طريق الباحث فتثنيه عن مواصلة دراسته لهذا الجانب الخطير وقد لا يتصور البعض أن في دراسة الأمور الاقتصادية خدمة جليلة للإسلام وأهله ومن تصور هذه الخدمة وأحس بوجوب النصيحة لإخوانه المسلمين وإجلاء عظمة الإسلام ونظامه البديع في الأمور الاقتصادية ومقارنة ما جاء به الإسلام بما جاءت به الأنظمة الوضعية في هذا الميدان هان عليه الأمر في اقتحام هذه المتاعب وتجرأ على المشاركة والإسهام في تقديم هذه النصيحة مهما قلت تكثيراً للأصوات التي تنادي بوجوب الالتزام بالحلول الاقتصادية على ضوء الشريعة الإسلامية وأن خير البشرية وسعادتهم تكمن في هذا . وبيان أن ما قدمته الحلول الوضعية إن هو إلا سراب . بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وأن من الإجرام إغفال بيان هذا أو ترك المسلمين دون توجيه فرب مُبلَّغ أوعَى من سامع .

فيجب أن تتظافر الجهود وأن تعلو الأصوات التي تنادي بأن الإسلام فيه حلول كل المشكلات الاقتصادية في مواجهة الدعوات المضادة الحاقدة التي تزعم أن الإسلام ليس له أي مشاركة في الجوانب الاقتصادية فهو محصور في المساجد فقط وهي أهم دعوات العلمانيين والملاحدة وقبل الدخول في دراسة هذه الجوانب أحب أن أذكر القارئ الكريم انني لم أكن أتصور حجم خطر المشكلات الاقتصادية على حقيقتها ـ بحكم تخصصي في دراسة العقيدة إلى أن أراد اللَّه تعالى أن نُدعَى أنا وزملائي في الدراسة ـ إلى حضور المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الأول الذي انعقد في مكة المكرمة ودُعينا ـ طلاب المرحلة المنهجية بالدراسات العليا ـ لحضوره للاستماع والاستفادة من أفكار المفكرين الاقتصاديين ولقد اندهشت من خبرة من حضره من المفكرين وما كانوا يطرحونه من مشكلات وحلول في أساليب عجيبة كأنما يتكلم أحدهم عن ظهر قلب وباندفاع أثار في نفسي انطباعاً لن أنساه وكنت أستمع لهم باعجاب لم أعهده في نفسي من قبل ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيري يدور حول ملاحظة هذا الجانب وكيف عالجه الإسلام وأسجل كلمة من هنا وأخرى من هناك لأرجع اليها متى أحببت فجزى اللَّه أعضاء ذلك المؤتمر وجامعة الملك عبد العزيز خيراً على ما قدَّموه وتلك الأمور التي دونتها في شتى الأبحاث هي ما سأقدمه بين يديك في هذه الدراسة مع أنها لم تكن بالأمر الذي كنت أتمناه تماماً لإفادتك ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

أخي القارئ اعلم أن أكبر ما أحرص عليه هو تنبيهك إلى أن لا تستهين

بدراسة هذا الجانب فهو من أخطر الجوانب في حياة البشر وعليه يتوقف مصير شعوب بأكملها خيراً أو شراً كما تقدم وعليك أن تجد في فهمه لدحض حجج أعداء الإسلام وتكذيب ما ينادون به من قصور الإسلام عن معالجة المشكلات الاقتصادية ويستدلون زوراً وكذباً بضعف المسلمين في النواحي التطورية العصرية مع علمهم أنهم هم السبب وراء هذه الحال في العالم الإسلامي باستعمارهم لهم اجتماعياً وفكرياً فترة من الزمن ولايزالون أداة تثبيط وتخذيل للمسلمين وتسلط عليهم إلى يومنا الحاضر لم يتوانوا في كل ما من شأنه الحاق الذل والضعف بالمسلمين ومن سخريات الأمور أن يشنعوا على الإسلام ما جاء به في حل المشكلات الاقتصادية ـ وهو حل ناجح وأثبتت التجارب صلاحيته ـ ثم إذا صادف أن جاؤا بنظرية ناجحة في الجانب الاقتصادي طاروا فرحاً ومجدوا أنفسهم وعقولهم حتى إذا علموا ان الإسلام قد سبقهم اليها وبيَّنها كادوا أن يغصوا بريقهم وبدؤا في تحويرها أو السكوت عنها ظلماً وعدواناً واستكباراً عن الحق وغضاً من شأن رسالة الإسلام الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

ولهذا فقد أغفلوا الجوانب المشرقة للإسلام التي تعتبر نموذجاً للتطور الاقتصادي الناجح سواء منها ما جاء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية أو ما جاء في تطبيقات خلفاء الدولة الإسلامية منذ بزوغ فجرها وتوالي الخلفاء عليها أو ما قام به علماء الإسلام في شتى العصور من بحوث فقهية أثرت الجوانب الاقتصادية في مختلف النواحي بما يجب أن تتضاءل أمامه أفكار ساسة الاقتصاد الوضعي وأن تذوب غطرستهم أمام عظمته .

وينبغي التنويه إلى أن الاهتمام بجانب الاقتصاد لم يكن جديد النشأة كما يرى الكتاب الغربيون ومن سار على طريقتهم فإنه جديد بالنسبة لهم إذ انهم لم يعرفوا هذا الجانب إلا في أواخر القرن الثامن عشر بعد ظهور الثورة الصناعية ولهذا فهم لم يعترفوا بفضل من سبقهم من الأمم الذين عرفت لهم إسهامات في جوانب متعددة من القضايا الاقتصادية التي كانت متصلة بحياتهم المعيشية وان لم تكن دراسة بالمفهوم الاقتصادي الواسع (١) ، كما قرره العلماء فيما بعد .

ولكنهم كانوا قادة خير وبركة على من بعدهم ومصدراً يفيض حكمة ومعرفة كيف وأن الموجه للإنسان منذ نشأته الأولى هو رب العالمين الذي علم آدم كل ما يحتاجه من أمر دينه ودنياه ومن هنا نجد أن الجانب الاقتصادي له أهميته في الإسلام وللإسلام حلوله التي اختص بها ونظرته الشاملة له على ضوء العقيدة الإلهية الشاملة لكل جوانب الحياة الاجتماعية . التي أمر اللّه المسلم باتباعها واجتناب كل ما يضادها من الأنظمة البشرية تلك العقيدة التي ينتج عنها المراقبة الذاتية للمسلم في كل تصرفاته مع نفسه ومع أبناء دينه ومع غيرهم من سائر البشر التي ترتكز على ملاحظة المفاهيم للكون وللحياة وبالتالي موقع الاقتصاد منها . وكذلك ملاحظة التفريق بين المعاملات الصحيحة وغير الصحيحة العقيدة التي تقول للمسلم أن اللّه أجاز لك البيع والشراء لكنه حرم الربا وأجاز الملكية الخاصة الفردية ولكنه جعل لها نظاماً ينسجم مع الملكية العامة إذ ليس فيه تغليب جانب على آخر كما هو الحال في

---

(١) انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٣٤ ـ ٣٥

الأنظمة البشرية من رأسمالية وشيوعية أو غير ذلك مما اخترعه الإنسان من أنظمة ثبت مع مرور الأيام انها أنظمة قاصرة مؤقتة غير صالحة لكل زمان ولا لكل مكان حتى وإن توافقت بعضها مع الشريعة الإسلامية عرضاً فإنها لاتزال جاهلية ولا يبيح هذا التوافق شرعيتها ولا تسميتها باسم الإسلام كما فعل كثير من الجهال الذين وصل بهم الجهل والحمق إلى تسمية بعض النظم الجاهلية باسم الإسلام كتسميتهم الاشتراكية الماركسية باسم الإسلام والتي نسبها بعضهم إلى الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وبرَّأه من أكاذيب الملحدين كقولهم إنه زعيم الاشتراكية الإسلامية محملين مواقفه من المال تأويلات باطلة ومفاهيم خاطئة وهذا يعني أن الإسلام له مفهومه الخاص للمشكلة الاقتصادية وللنظم الوضعية مفاهيمها الخاصة بها وبين النظامين من التباعد والاختلاف مثل ما بين مصدريهما ولا تختلط تلك المفاهيم إلا على الجاهلين . وسيتبين من خلال هذه الدراسة إن شاء اللّه تعالى الفروق الواضحة بين النظام الإلهي في القضايا الاقتصادية وبين تلك الأنظمة الوضعية التي قامت على أفكار من هم محل النقص والقصور وهذه المقارنة إنما تقال إقامة للحجة وإلا فإنه لا مقارنة بين الحق والباطل وبين الجاهلية وبين الإسلام ذلك لأن الإسلام دين كامل شامل لكل جوانب الحياة قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١)

ومن هنا نجد أن الإسلام قد اعتنى بالمشكلات الاقتصادية وأولاها

(١) سورة المائدة الآية : ٣

أهمية بالغة نظراً لأهميتها في حياة الناس وانتظام معايشهم فجاءت تعاليم الإسلام لحلها في غاية الوضوح وفي أسمى ما تتحقق به العدالة والإنصاف والرحمة وتحقيق آمال الأغنياء والفقراء على حد سواء ولا يسمح باستعباد الغني للفقير ولا بإثارة الفقير على الغني ، بل قام على أساس المحبة والقناعة ، ولم يقم على الصراعات الطبقية التي قامت عليها المذاهب الجاهلية كالماركسية والرأسمالية .

ولقد عاش الناس حينما كانوا يهتدون بهديه وينطلقون من تعاليمه في أسعد حال وأهنأ عيش في محبة ومودة يعلم كل فرد انه لا يصل إليه إلا ما قدره اللّه له وأن الدنيا دار ابتلاء ولا يدري الإنسان أيهما خير له في دينه ودنياه وعاقبة أمره أن يكون غنياً أو أن يكون فقيراً فيعلم حينئذ الغني والفقير على حد سواء أنهما في ابتلاء وان اللّه تعالى يعطي كل عبد وفق ما قدره له في سابق علمه ولهذا تجد المسلم دائماً يعيش قرير العين مطمئن النفس منشرح الصدر كما امتاز الإسلام بالحل الشامل لتنظيم الأسرة والمجتمع والأفراد بطريقة تضمن للجميع السعادة والعيش بأمن وسلام ومودة يتمثلون فيه قول اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ (١)

وقال الرسول ﷺ : «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**» (٢)

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٠

(٢) أخرجه البخاري ج ١ ص ١٨٢ ، ومسلم ج ٤ ص ١٩٩٩

وقوله ﷺ : «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» [(١)].

وقوله ﷺ : «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» [(٢)].

وفي رواية : «**لِجَارِهِ**» ، وغير ذلك من النصوص المستفيضة في كتاب اللّه تعاى وفي سنة نبيه ﷺ التي تدعوا إلى الألفة والمحبة وصفاء القلوب والرحمة بين أفراد المجتمع وترك شح النفس والغش في المعاملات وإلى الصدق في البيع والشراء وإلى تحقيق قوله ﷺ : «**لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ**» [(٣)]

وتدعو كذلك إلى التعاون في وجوه الخير وإلى أن يؤدي كل فرد ما عليه من واجبات تجاه الآخرين من أمور تتعلق بالشخص أو بماله . وأوجب الزكاة التي تعود إلى الفقراء بدون أن يشعروا بأي منة لأحد بعينه وما ينشأ عنها من ترابط المجتمع وتواده إضافة إلى ترغيبه في الصدق والاتصاف بالكرم والتنفير عن العودة في الهبة وغير ذلك من السلوك الذي تتحقق به السعادة .

ولاشك أن الفقر هو أكبر المشكلات بين البشر قديماً وحديثاً وهو أيضاً

---

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٩٩٩ ، والبيهقي في سننه ج ٣ ص ٣٥٣

(٢) البخاري ج ١ ص ١٤ ، ومسلم ج ١ ص ٦٧

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٦٦

أعظم الأمور التي ينفذ من خلالها كل صاحب غرض إلى تحقيق غرضه بوسيلة المال ولهذا حينما جاءت الماركسية لم يجد أتباعها أي وسيلة أشد نفوذاً إلى نفوس الناس وإثارة أحقادهم وقلب أوضاعهم كلها من وسيلة إثارة الأمور الاقتصادية فأثاروها بأنواع الدعايات وشتى الأساليب حتى تم لهم قلب الأمور رأساً على عقب في كثير من بقاع الأرض مستغلين لتحقيق أغراضهم الفقر من جانب وجهل الناس بحقيقة الدين وجهلهم كذلك بحقيقة ما يدعو إليه أولئك الملحدون ؟

من جانب آخر فإذا بقرن الشيطان يظهر عالياً وإذا بنداءات الجهال ترتفع وداسوا في طريقهم كل فضيلة ونبذوا كل تنظيم أو دين ورفعوا شعاراتهم الاقتصادية الجاهلة التي اتضح أمرها فيما بعد بأنها كانت سراباً وخيالاً فارغاً ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن جرف تيارهم في طريقه ملايين البشر فأوردهم الهلاك في الدنيا والآخرة وما ذلك إلا بفعل الدعايات أولاً ثم بفعل الحديد والنار ثانياً وليس لجودة تلك التيارات الجهنمية التي لم تفلح في شيء مثل ما نجحت في الفوضى الإباحية .

ومن العجيب أن ينبري دعاة الإلحاد أقزام الشيوعية والوثنية إلى مهاجمة الحلول الاقتصادية الإسلامية لمشكلات الفقر والبطالة وهم لا يعرفونها ولم يدرسوها في كتاب اللّه ولا في سنة نبيه ﷺ ولم يجربوها وإنما يسمعها بعضهم من بعض في صورة مشوهة كاذبة ثم يتناقلونها على حد ما أخبر اللّه تعالى عنهم في كتابه الكريم حيث قال : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ**

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [(١)]

وتبرز في الإسلام جميع الأحكام الاقتصادية مرتبطة بجميع نواحي الحياة :

١ ـ الروحية : التي تمثل علاقة الإنسان بخالقه .

٢ ـ الخلقية السلوكية : التي تمثل الصدق والأمانة والتراحم والوفاء في جميع المعاملات .

٣ ـ الاجتماعية : التي تقوم على مبدأ المساواة والتكافل الاجتماعي .

٤ ـ السياسية : التي تتمثل بالتزام الحاكم بالأصول الشرعية [(٢)]

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٢

(٢) انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٥٨

المطلب الرابع

الغزو الفكري عن طريق الاقتصاد

لقد حارب أعداء الإسلام والمسلمين الدين الإسلام ومعتنقيه بكل ما لديهم من أسلحة في مواجهات فعلية بالجيوش النظامية فعجزوا ويئسوا من الانتصار على المسلمين فاتجهوا إلى حربه بطرق لا تثير الضجيج ولا تلفت الأنظار ، وبالتالي فهي أضمن وسيلة للنجاح وأقل كلفة ومن تلك الطرق الكثيرة غزو المسلمين عن طريق الفكر الاقتصادي تحت أشكال لا حصر لها من مساعدات وهبات وقروض واستثمارات وأيد عاملة في شتى المجالات الاقتصادية فنجحوا نجاحاً ظاهراً حيث كسبوا المال ونشروا أفكارهم في سكون وتؤدة فوقعت أكثر الدول الإسلامية في شراكهم واستعبدوهم عن طريق الحلول الاقتصادية وأغرقوهم بالديون الربوية فزادوهم فقراً على فقرهم وتخلفاً على تخلفهم إلا من أفلت منهم .

إنها مؤامرة رهيبة هائلة تأكل في طريقها الأخضر واليابس فالعامل والمذيع والصحفي والممثل والخطيب والطبيب منهم والسياسي وغير السياسي كل هؤلاء أصبحوا صفاً واحداً للزحف على الإسلام وصهر المسلمين في بوتقة الحضارة الغربية تضافرت جهودهم واتحدت كلمتهم في الوقت الذي أصبح فيه المسلمون فرقاً وأحزاباً لا يلوي بعضهم على بعض وفي الوقت الذي انخدعوا فيه بأن الغرب سيجعل من دولهم أو دويلاتهم محط الأنظار ومَهوَى الأفئدة في الاقتصاد فإذا به لم يحقق لهم شيئاً من هذا اللَّهم إلا في مجالات لا تسمن ولا تغني من جوع كالسياحة والتنقيب عن آثار من عفى عليهم الزمن منذ مئات السنين وكذلك أيضاً في

مجال الفن والموسيقى وغير ذلك من التوافه التي يراد بها صرف أنظار المسلمين عن واقعهم الحزين وإشغالهم بطلب الاقتصاد والغنَى عن طريق تلك التوافه ومن الأدلة الواضحة على هذا ما تسمعه - عزيزي القارئ - من بذل الدول النصرانية المساعدات بسخاء والقروض الوافرة بشرط أن تنفذ في تلك المجالات التي يعدونهم بأنها ستجعل اقتصادهم في القمة في الوقت الذي يتلمض فيه كثير من الشعوب الإسلامية جوعاً وهم في أمس الحاجة إلى لقمة العيش بدلاً عن التنقيب عن آثار تلك الأمم الغابرة ـ من فراعنة وغيرهم ـ والافتخار بما يجدونه من التوافه إما جداراً أو تمثالاً أو نقوداً أو آنية من فخار ثم يأخذون في إسباغ هالة من التعظيم لها لكي يتقبلها أولئك البؤساء ظناً أنهم وصلوا إلى تحقيق آمالهم الاقتصادية العريضة إلى حد أن علماء الآثار يزعمون أحياناً أنهم يجدون جمجمة إنسان تعود إلى أربعة آلاف سنة أو أكثر ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)** ﴾ [(١)]

وهذا يتطلب من جميع المسلمين أن يصححوا أوضاعهم الاقتصادية وأن لا يجعلوا لأعدائهم سبيلاً لإذلالهم لهم وأن يصفوا كل الأفكار العالقة بأذهانهم بأذهان المسلمين من حضارة الغرب وتقدمهم وإكبارهم لهم وأن يعيدوا إليهم ثقتهم بقدرة الإسلام على حل كل المشكلات الاقتصادية بطرقه الحكيمة الواقعية ففيه الخلاص وفي نظامه الخير كله ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وأن يعلموا يقيناً أن أعداء الإسلام لا يزيدونهم إلاَّ خبالاً وخسراناً بل وإذلالاً لهم في سبيل الحصول على غنى خيالي أو كمال وقد قيل في الأمثال «جعجعة ولا ترى طحناً» .

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٠٤

المطلب الخامس

المَال في الإسْلام

يحث الإسلام على العمل والإنتاج وكسب المال الحلال فمهما كانت كثرته إذا كان عن طرق مشروعة ويريد به صاحب الدار الآخرة وإعفاف نفسه ومن يعول عن ذل المسألة قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [١]

وبالمال قوام الحياة وقد قيل : كاد الفقر أن يكون كفراً وهو أعدى أعداء الإنسان ومن زعم أن الإسلام يحث على الفقر ويرغب فيه على أنه زهد يُثاب عليه الإنسان فقد كذب وافترى فإن الرسول ﷺ قال : «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» [٢]

وقال ﷺ : «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» [٣] .

وغير ذلك من النصوص ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه اختار الفقر على الغنى ، وإنما عُرف هذا الهَوَس عند غُلاة الصُّوفية الذين فضَّلوا الفَقْرَ الاختياري على الغِنَى على الطريقة الهُندوسية ، مع أنهم في واقع الأمر كانوا من كبار الأغنياء ووُجد لبعضهم مدخرات ثمينة

(١) سورة القصص الآية : ٧٧

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٥٢

(٣) أخرجه مسلم ج ٢ ص ٧١٧ ، والبخاري في صحيحه ج ٥ ص ٢٣٦٥

بعد موتهم ، لأن حب المال فطرة في الإنسان والإسلام لا يجعل المال هو الغاية التي يجب أن تطلب لذاتها أو أنه هو الطريق الوحيد إلى السعادة بل يجعله وسيلة إلى إصلاح شؤون الحياة إذا كان عن الطريق المشروع وفي نفس الوقت تجد أن الإسلام ينظر إلى المال على أنه قضية محترمة وعلى أنه عارية بيد الذي يملكه وأن المال مالكه ملك للَّه تعالى فلهذا ذكر اللَّه في القرآن الكريم أصحاب الأموال بأن اللَّه جعلهم مستخلفين فيه فلا يحل لهم التصرف فيه إلا وفق ما شرعه اللَّه تعالى ومن هنا حرم الذبح لغير اللَّه والإسراف والتبذير وإنفاق المال فيما حرمه اللَّه وأخبر تعالى انه سيحاسب أصحاب الأموال حساباً شديداً فلو كان ملكاً لهم لما حاسبهم عليه وقد قال تعالى : ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ [1] ، وقال الرسول ﷺ : «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ**» وذَكرَ منها : «**وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ**» ، وإنما ينسب إلى مالكه من البشر لأنه بيده يتصرف فيه وكأنه هو المالك الحقيقي في ظاهر الأمر وهذه قاعدة من قواعد الاقتصاد في الإسلام أن المال للَّه تعالى والبشر مستخلفون فيه ومحاسبون عليه .

(١) سورة النور ، الآية : ٣٣

المطلب السادس

وجـود المـوارد وندرتها

يرى أصحاب النظام الوضعي ـ الرأسمالي ـ أن الإنسان له حاجات كثيرة غير متناهية بينما الموارد التي تسد تلك الحاجات محدودة أو نادرة بالنسبة لكثرة حاجات الإنسان في نظرهم وتبعاً لهذا التفكير ابتدأ الاقتصاديون نشر أفكارهم وأبحاثهم وسياساتهم فعقَّدوا الأمور وأجدوا عاملاً وهمياً كان هو السبب بزعمهم في عدم حياة الإنسان الحياة السعيدة التي يريدها وهو قلة الموار المتاحة له في مقابل حاجاته غير المتناهية .

وقد تأثر بهذه الفكرة كثير من الكتاب حيث أرجعوا سبب المشكلات الاقتصادية إلى قلة الموارد الاقتصادية أو زيادة السكان أو سوء التوزيع أو سوء التعامل الاقتصادي وغير ذلك من التعليلات وقد أورد محمود بن إبراهيم الخطيب خمسة أسباب لظهور المشكلة الاقتصادية بصورة عامة كما يراها الاقتصاديون من غير المسلمين وهي [1] :

١ ـ الندرة النسبية للموادر الاقتصادية لعدم كفايتها بالحاجات أي عدم توفر السلع الاقتصادية لسد الحاجات .

٢ ـ زيادة السكان بصورة أكبر من زيادة الموارد ويسمونه «الانفجار السكاني» .

٣ ـ سوء تزويع الموارد بسبب سوء الأنظمة الوضعية .

---

(١) بتصرف . انظر كتابه «النظام الاقتصادي في الإسلام» ص ٢٨ – ٢٩

٤ ـ ظهور الاحتكارات والبنوك الربوية وهدر كثير من الموارد وحرمان البشرية منها لتستقر في أيدي فئات خاصة من الناس .

وقد ذكر أن الندرة حقيقة موجودة في بعض النواحي وأرجع أسباب ذلك إلى :

١ ـ إلى الإنسان ذاته لعدم إلتزامه بهدى اللّه تعالى .

٢ ـ الابتلاء من اللّه تعالى .

٣ ـ بسبب عدم استخدام الإنسان لكافة طاقاته سواء الذهنية والعقلية .

٤ ـ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان مثال ذلك ما تفعله بعض الدول بالقاء المنتجات الزراعية في البحر وإحراقها كما تفعل الدول الرأسمالية لكي تحافظ على ارتفاع السعر بينما الإسلام لا يقيم نظرته الاقتصادية لا على الوفرة المطلقة ولا على الندرة أيضاً ، وأن تسخير اللّه الكون كله للإنسان لا يعني حصوله على كل شيء بلا جهد أو عمل . فلو كان كل شيء يتصف بالوفرة المطلقة لتكاسل الناس وتقاعسوا عن العمل ولما كانت هناك دوافع للإنسان أن يسعى في الأرض ويعمرها [(١)] ، ولو كانت الأمور قائمة على الندرة المطلقة ليئس الناس واشتدت حاجتهم ولما وجد منهم هذا التفاوت الاقتصادي ولما اتخذ بعضهم بعضا سخريا لكي تستقيم الأمور وتسير الحياة .

---

(١) أنظر «النظام الاقتصادي في الإسلام» ص ٦٥ ـ ٦٦ «بتصرف»

المطلب السابع

مدى صحة تعليل أصحاب النظام الوضعي للمشكلة الاقتصادية

الإسلام وهو صاحب الحل الشامل للقضية الاقتصادية نجده ينظر إلى المشكلة الاقتصادية من جميع جوانبها سواء ما يتعلق منها بموارد الإنتاج أو بتوزيع الموارد أو بقيام المنتجين وكيفية سلوكهم تجاه موارد أرزاقهم المختلفة وإلى الخلق الذي يكونون عليه في تعاملهم وقد أخبر اللَّه عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم أن موارد الرزق متعددة ومتنوعة وأنها تغطي حاجات الإنسان وزيادة أيضاً عن حاجته وأن الأرزاق كلها مقدرة ومتوفرة بحكمة اللَّه وتدبيره قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)** ﴾ (١)

وقال تعالى عن الأرض : ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)** ﴾ (٢)

فالأرزاق كلها مقدرة ومضمونة ووافية بحاجات البشر وأن تعليل الواضعين للنظم الاقتصادية إنما هو دليل على جهلهم بحقيقة الأمر الذي قرره الإسلام وفصَّله على حقيقته وواقعه حيث ذهبوا إلى أن الموارد شحيحة لا تفي بحاجات الناس إلى آخر تعليلاتهم التي تكلفوها فإن الواقع يدل على

(١) سورة هود الآية : ٦

(٢) سورة فصلت الآية : ١٠

أن ندرة بعض الموارد لدى بعض المجتمعات إنما يعود إما إلى قصورهم في استخراج تلك الموارد أو لصارف آخر صرفهم عنها وإلا فقد اقتضت حكمة اللّه عزَّ وجلَّ أن الموارد تكفي لحاجات الناس لا لرغباتهم وشهواتهم التي لا تقف عند حد وهذا يعود إلى مصلحة الإنسان نفسه إذ ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** (٢٧) ﴾ (١)

وقد رتب اللّه عزَّ وجلَّ أن يكون للإنسان دور واضح في استخراج الخيرات والقضاء على مشكلات الحاجة والفقر بالعمل الجاد وحسن التصرف لاستجلاب فوائد مختلف الموارد ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ** ﴾ (٢)

فإذا حصل بعد ذلك فقر وحاجة فربما تكون أبرز أسبابه كسل الإنسان وخموله وعدم البحث وعدم المشي في مناكب الأرض كما قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** (١٥) ﴾ (٣)

أو يكون بعد بذل الأسباب ابتلاءاً من اللّه تعالى وقدر لا مفر منه أما حاجات الإنسان فإن الإسلام لا يمنع من تلبيته تلك الاحتياجات مادامت ضرورية لحياة الإنسان الروحية والجسدية ولا تصل إلى حد

---

(١) سورة الشورى الآية : ٢٧

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥

(٣) سورة الملك الآية : ١٥

الإسراف والتبذير ولا يحد الإسلام إلا من الإكثار في اشباع الرغبات التي لا تقف عند حد كما قال تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)** ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)** ﴾ (٢)

وقال النبي ﷺ : «**لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثاً وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاَّ التُّرابُ**» (٣)

وهكذا فإن الرغبات لا تقف عند حد أو نهاية ولو كانت تقف عند حد لكان الوادي من ذهب رزق لا مزيد عليه ومع ذلك فلو ملكه الإنسان لتمنى آخر ومن لم يفرق بين الحاجات والرغبات تجده دائماً يعيش في قلق وإحساس بالفقر لظنه أن الرغبات التي تجول بخاطره هي حاجات ضرورية فيتلهف على حصولها ويتأسف لعدمه .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام لا يعترف بالفواصل التي وضعها البشر بين الاقتصاد الدنيوي وبين ارتباطه بالنظر إلى الجانب الديني فإن الإسلام يعتبر الجانب الروحي والوازع النفسي هما أقوى دعائم الاقتصاد ذلك أن الاقتصاد الذي يفتقر إلى مراقبة اللّه تعالى في كل التصرفات إنما يقوم

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤

(٢) سورة الفجر الآية : ٢٠

(٣) أخرجه البخاري ج ٥ ص ٣٢٦٤ ، ومسلم ج ٢ ص ٧٢٥

على شفا جرف وما أكثر الشواهد على هذا الاختلال في النظم البشرية وفرق شاسع بين اقتصاد يعتبر من جملة العبادات حينما يراد به وجه اللَّه وبين اقتصاد يقوم على جشع لا حدود له أو اقتصاد مكبل لا يجد النور إليه سبيلاً كما أن الإسلام يعتبر العمل والكسب الحلال والابتعاد عن الظلم والصدق وعدم الغش الخ .. يعتبر الإسلام ذلك كله عبادة يتقرب بها الشخص لخالقه إذا صاحبت ذلك النية الصادقة ومراقبة اللَّه تعالى وهذه المزية في الاقتصاد لا توجد في أي نظام غير الإسلام فإن كل الأنظمة الوضعية إنما تهدف إلى جمع الثروة بأي طريق والغاية تبرر الوسيلة فيها ولا مكان للقيم والأخلاق والرحمة بالآخرين ولا مراعاة لأحوال البؤساء ، إذ لا يوجد في الأنظمة الوضعية أي داع يحث على ذلك ويذكر به فضلاً عن الاشارة إلى الثواب عليه في الدنيا أو في الآخرة عندما ينادون به من الإنسانية وهي كلمة لا توحي بما يرغب عند اللَّه كما أن المراقبة القانونية هي الأخرى أصبحت تابعة لمصالح القائمين عليها ولامنتفعين بها فالرشوة والتحايل للتفلت من عقاب القوانين البشرية التي وضعوها لحماية الاقتصاد بزعمهم أصبحت هي الأخرى ألعوبة في أيدي تلك النخبة التي تعرف من أين تؤكل الكتف ، ففقد النظام الاقتصادي كل المكونات لحمايته وسيره سيراً حسناً فلا وازع من قانون قادر على التصدي للخلل فيه ولا وازع ديني يراقب فيه الشخص مولاه ووقوفه بين يديه عز وجل وهي المزية التي يمتاز بها المسلم في تعامله الاقتصادي حين يراقب اللَّه تعالى كأنه يراه فلا يستحل من المال إلا ما أباحه اللَّه له سواء فطن المتعامل معه إلى ذلك أو لم يفطن وهذا توجيه إسلامي مشرق على أن

الإسلام لم يكتف بالركون إلى هذه المراقبة فقط ـ وإن كانت من أسمى الأمور ـ ولكن الإسلام أضاف إلى هذا وازع السلطان لردع من قلَّت عندهم المراقبة الذاتية فاكتمل بهذا أقوى وأفضل الأنظمة لتحقيق الصالح العام والخاص في الدنيا وفي الآخرة الذي يجعل جميع موارد الرزق أمراً مشاعاً بين الناس مادامت في حدود الشرع وفي حدود «لا ضَرَرَ ولا ضِرار» .

أما أصحاب النظام الوضعي فقد ارتكبوا خطأ استندوا فيه إلى أوهام ظنوها صحيحة وأتصور أن سبب هذا الخطأ عند غير المسلمين يعود إلى عدم إيمانهم باللَّه تعالى وأنه هو الرزَّاق ذو القوة المتين بيده مقاليد كل شيء فذهبوا يعلِّلون للمشكلة الاقتصادية بندرة الموارد ومن الطريف في الأمر أنه قد خرج بعض مفكريهم عن هذا التصور وقرَّروا أن تعليل المشكلة الاقتصادية بندرة الموارد أنه مجرد خيال وخرافة وقد نقل الدكتور «شوقي أحمد»[1] عن بعض مفكريهم «فرنسيس مورلابيه» ، و «جوزيف كولينز» نقولات ترد هذه الفكرة وتشنع على معتنقيها وترد العجز ليس إلى الموارد وإنما إلى الإنسان نفسه وتقصيره وألَّفا في ذلك كتابا سمياه «صناعة الجوع وخُرافة الندرة» أكدا فيه أن «مشكلة ندرة الموارد عن حاجات الإنسان هي مشكلة اصطنعها الإنسان واكتوى بنارها» .

وأن الجوع والحاجة ليس بسبب ندرة الغذاء والأرض وإنما الذي يُلام عليه الإنسان نفسه وذلك ـ كما تقدم ـ بسبب سوء توزيع الثروة إسرافاً

---

(١) انظر كتابه «دروس في الاقتصاد الإسلامي . النظرية الاقتصادية من منظور اسلامي» ص ٦١

وتقتيراً بلا عدل وقلة استخدام خيرات الأرض واستثمارها بفاعلية ورشد إضافة إلى سوء استخدام تلك الموارد واستصلاحها واستغلالها في غير ما خُلقت له بحيث لم توجه إلى إنتاج الأهم فالأهم من الحاجيات ومن الأدلة على ذلك «إن كمية الأسمدة المستخدمة في مروج الولايات المتحدة وملاعب الجولف فيها وساحات مقابرها تعادل كل السماد الذي تستخدمه الهند لإنتاج الغذاء» (١)

كما أن ما تذهب إليه بعض الدول الغنية كالولايات المتحدة من تعمد إنقاص الفائض لهو دليل آخر على بطلان نظرية الندرة وأنها دعوى خيالية أو مغرضة يراد بها أغراضاً شريرة .

وعلى هذا فإن دعوى انتشار الجوع بسبب عجز الموارد كلام باطل بل إن حل مشكلة الجوع فيما يرى بعض الباحثين تكمن في توقف الإنسان عن العمل والكد وتصديق خرافة أن مشكلة الجوع والحاجة أمر ضخم ليس في مقدور الإنسان التغلب عليه (٢) ، أو بسبب ما يطلقون عليه الانفجار السكاني .

وأما القول بأن حاجات الإنسان غير متناهية فهي قول غير مُسلَّم

---

(١) ص ١٢ من كتابهما

(٢) القول بأن الإنسان يمكنه التغلب على الفقر والحاجة بمجرد العمل ليس على اطلاقه بل ينبغي ملاحظة أن العمل أحياناً قد لا يثمر النتيجة المطلوبة لقضاء اللَّه وقدره فالجوع قد يكون من الابتلاء المقصود للَّه تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [سورة البقرة ، الآية (١٥٥)] ، وإنما الأسباب مطلوبة ولكن ليس هي كل شيء .

«فقد ظهرت كتابات وبحوث تفيد أن حاجات الإنسان الأساسية والتي يحتاجها الإنسان فعلاً يمكن تصنيفها بل ويمكن حصرها وقد جرت محاولات متعددة فردية وجماعية لحصر تلك الحاجات وتوصيفها» [(١)]

وقد ذهب الدكتور «شوقي أحمد» إلى أنه ينبغي ملاحظة أمر مهم في قضية حاجات الإنسان وهل هي متناهية أو غير متناهية وهو التفريق بين الحاجات والرغبات ، وأن الحاجات هي ما تتوقف عليها حياة الإنسان حياة لائقة أو شدة معيشته وضنكها وهذا يدل على أن حاجات الإنسان مضبوطة بطبيعة الإنسان وفطرته فهي محصورة ومحدودة .

وأما الرغبات فهي أمر متجدد وغير محدود وقد يتداخل مفهوم الرغبات مع مفهوم الحاجات فمثلا نجد أن الإنسان قد يرغب في شيء ما وهذا الشيء قد يكون أساسياً للإنسان فتكون الرغبة هنا حاجة كما أنه قد يرغب في شيء لا حاجة له إليه أو لا يمثل أي إضافة جديدة له وأن فقده لا يمثل أي حرمان له أو شقاء أو ضنك في معيشته فيسمى رغبة فمثلا لو أن إنساناً احتاج إلى شرب الماء فوجده ولكنه أعرض عنه وطلب المشروبات الصناعية فهذه رغبة وليست حاجة وكذلك لو أن إنساناً احتاج إلى وسيلة انتقال فتحققت له عن طريق سيارة عامة أو خاصة ولكنه أحب أن تكون له سيارة فارهة يملكها ويتنقل بها فتلك رغبة وليست حاجة [(٢)]

وأضيف إلى ذلك لو أن إنساناً شكى الجوع فأعطى خبزة فرفضها

---

(١) النظرية الاقتصادية من منظور اسلامي ص ٦٤

(٢) ص ٦٦ المصدر السابق

إلا أن تكون دسمة وطرية فهي رغبة وليست حاجة وقد قيل شعراً :

الجُوعُ يُطْرَدُ بِالرَّغِيفِ اليَابِسِ * فَعَلامَ تَكْثُرُ حَسْرَتِي ووَسَاوِسِي**

وكل ما تقدم يدلل على أن المشكلة الاقتصادية لا تكمن في ندرة الموارد فقط وإنما تكمن في أغلبها على سوء الإنتاج والتوزيع وأن القول بعدم نهاية الحاجات إنما هو جرى وراء الرغبات التي لا نهاية لها . وأن ما يقال عن ندرة الموارد إن هو إلا وهم إذ الندرة ليس في الموارد وإنما في الإنتاج الذي يعود إلى كد الإنسان وعمله أو تكاسله وتقاعسه كما تقدم .

وقد أمر اللَّه بالضرب في الأرض والعمل والجد في الاكتفاء في جميع الجوانب المعيشية بل والحربية كما قال تعالى ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ (1) ، واللَّه تعالى لم يكلف الإنسان ما لم يكن باستطاعته وهذا يدل على أن الموارد متاحة له إذا جاء بأسبابها .

---

(1) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠

المطلب الثامن

تنظيم الإسلام للشؤون المالية وطريقة معالجته لمشكلة الفقر

وفيه المسـائل الآتية :-

●● تمهـيد :

لقد نظم الإسلام الأمور المالية من واجبة وتطوعية وحلال وحرام وحافظ على الأموال وكيفية التصرف فيها في الحياة وبعد الموت بعد أن ضمن حرية الملكية للمال من قبل كل فرد ذكراً أو أنثى كما ضمن أيضاً بيان أوجه إنفاقه لسعادة الأمة في الدنيا والآخرة كما ضمن أيضاً وجود التكافل الحقيقي بين أفراد المجتمع بصورة صحيحة حينما يلتزمون بنهجه ويحتكمون إليه قولاً وفعلاً وتلتزمه الدولة وتطبقه وتتحمل مسؤولية كفالة كل مواطنيها المحتاجين العاجزين عن الكسب ليتحقق التكافل القائم على حسن التصرف وزيادة المودة بين أفراد الأمة جميعهم فمن تنظيمه البديع للمال :

١ ـ أنه جعل في جزء منه حقاً يحب العمل به ورغب فيه وهي الزكاة التي هي طهرة للنفس وللمال [١] ، وبين تفاصيلها أتم بيان وغيرها من الأنواع التي سنذكرها مما رغَّب فيه الإسلام .

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج ٢ ص ٣٦٢ ، مجمع الزوائد ج ٣ ص ٦٣

٢ ـ وجعل جزءاً منه يحرم التعامل به لما فيه من أضرار بالغير وبالأخلاق والسلوك الطيب وأوكل جوانب أخرى إلى ضمير الشخص ورغبته فيما عند اللّه تعالى .

وقد اعتنى الشرع الشريف باسعاد كل البشر في دنياهم وبفوزهم في أخراهم ومما هو معلوم أن الفقر هو أشد أسباب الهموم والقلق والاضطراب بل هو مفتاح كل الشرور . ولهذا كان للإسلام تجاهه مواقف وحلولاً مفيدة مأمونة العواقب بعضها يقوم بها كل فرد بنفسه وبعضها يقوم بها كل أفراد الأسرة وبعضها يشترك فيها أكثر من جهة من أفراد المجتمع وبعضها تقوم به الدولة تجاه الآخرين وهذه الحلول فيها الأناة والتؤدة وملازمة الصبر والرضى بأمر اللّه بخلاف الحلول البشرية التي قامت على الطيش والعجلة في الحصول على المال بأي طريق وحتى وإن كان وخيم العواقب كثير الرذائل إذ الهدف هو الحصول على المال وهو نصب عين الشخص منهم ومجتمع همه ولتكن النتائج ما تكون على حد ما قاله أحد الشعراء :

إذا هم ألقى بين عينيه همه * ونكب عن ذكر العواقب جانبا**

لهو مجتمع أناني مفكك لا ترابط فيه وما تراه في سلوك الرأسمالية والشيوعية تجاه جمع المال هو أقوى شاهد على ضحالة أفكارهم وقصورها عن الحلول الإسلامية الربانية الصحيحة التي تنظر إلى كل من الغني والفقير نظرة الأم الحنون تجاه أولادها .

انها حلول عادلة لا بغضاء فيها ولا أحقاد ولا إثارة بعض الطبقات على بعض بل لا طبقات في الإسلام وإنما هو مجتمع واحد ويسير على منهج واحد ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وكما اهتم الإسلام بإيجاد طرق الكسب الحلال لسد الحاجات بالمثابرة على الأعمال فإنه اهتم كذلك بتوزيع هذا الكسب أو المال الذي ينتج عن العمل فلم يترك توزيع المال لأمزجة المالكين له دون نظام ولا توجيه بل اعتني ببيان كيفية معالجة المشكلة الاقتصادية كما اهتم بتوزيع المال توزيعاً يضمن المساواة العادلة والتوازن الدقيق بالنظر للاقتصاد العام للمجتمع بحيث لا يطغى جانب على آخر ولئلا يقع المال في يد جماعة دون أخرى فيطغى الأغنياء ويفتتن الفقراء وهذه قاعدة من قواعد الاقتصاد في الإسلام .

فتوزيع المال في الإسلام له ضوابط وجهات مختلفة فهو يوازن بين كل أفراد المجتمع إذ جعل لكل شخص حقاً عليه يؤديه من ماله وحقاً له يأخذه من مال غيره وجوباً وبهذا تتقارب أحوال الناس فلا يبقى شخص في الثريا وآخر في الثرى ومن أجل ذلك نظم الإسلام مصارف المال بأحسن الطرق وأرشد إلى حلول كثيرة فيها الخير والسعادة إذا طبقت في تنظيم بديع عادل كما تلاحظه فيما يلي :

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٣

المسألة الأولى : التكافل الإجتماعي العام في الإسلام

شهد اللَّه تعالى للإسلام بأنه دين كامل شامل لجميع نواحي الحياة ما فرط اللَّه تعالى فيه من شيء وقد أولى الجوانب الاقتصادية والتكافل الاجتماعية أعظم العناية والبيان وقد جاء أعظم التأكيد والإرشاد في كتاب اللَّه الكريم وفي السنة النبوية وفي سلوك الصحابة رضوان اللَّه عليهم ومن تبعهم من علماء المسلمين على أهمية التكافل بين أفراد المجتمع جميعهم وإقامة النظام الاقتصادي الذي يحقق العدالة الاجتماعية التي أولاها الإسلام عنايته الفائقة وهذا التكافل يقوم على أساسين هامين المجتمع كله والدولة التي تمثل ذلك المجتمع وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة تدل على هذا منها قوله تعالى في بيان أخذه الميثاق من بني إسرائيل على القيام بعدة أمور منها الإحسان وإيتاء الزكاة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ (١)

وقال تعالى في بيان أوجه البر ومنها إنفاق المال وإيتاء الزكاة : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

---
(١) سورة البقرة ، الآية : ٨٣

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ (١)

وقال تعالى في بيان فضل الإنفاق في سبيل اللّه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (٢)

وقال تعالى في المنفقين بلا مَنٍّ ولا أذى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) ﴾ (٣)

وقال تعالى في فضل الإحسان وذم البخل ومدح الإنفاق وذم الرياء : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١

(٣) سورة البقرة ، الآيتان : ٢٦٢ ، ٢٦٣

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾[1]

وفي القرآن الكريم آيات عديدة في بيان هذا الاتجاه والترغيب فيه وإثارة مشاعر العطف والإحساس في نفس الشخص تجاه الآخرين والدعوة إلى الكرم والتنفير عن الشح والبخل .

وجاءت السنة النبوية بتأكيد كل تلك المعاني النبيلة التي تؤدي إلى أسمى التكافل بين المسلمين وإلى اقامة أروع نظام اقتصادي ناجح فمن ذلك :

١ ـ قال النبي ﷺ في وجوب إشاعة المحبة بين كل أفراد المسلمين وأن كل مسلم يجب عليه أن يحب لغيره مثل ما يحبه لنفسه قال : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ**»[2]

وقال ﷺ ، وكانوا في سفر : «**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ**» قال أبو سعيد الخدري راوي الحديث فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحد منا في فضل»[3]

---

(١) سورة النساء ، الآيات : ٣٦ ـ ٤٠

(٢) تقدم تخريجه

(٣) أخرجه مسلم ، ج ٣ ص ١٣٥٤

وغير ذلك من النصوص الكثيرة عن النبي ﷺ في توجيه أنظار المسلمين إلى الرحمة وعطف بعضهم على بعض واحتساب الأجر والثواب وتحريم غشهم أو احتكار الخير عنهم أو أذيتهم بأي نوع من الأذى وهو توجيهات لو سار عليها المسلمون لأصبحوا كما كانوا في عهودهم الأولى حيث كان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يأخذها منه .

ومن المعلوم عقلاً أن سعادة المسلمين في عصورهم الأولى إنما كانت بفضل تعاليم الإسلامية الإلهية ثم بتطبيقهم لها حيث أصبحوا كالجسد الوحد وكالبنيان المرصوص يؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خَصاصَة فإنه لا يمكن أن تقوم قائمة لأي نظام لم ينجح في الحلول العادلة بين أفراده ، كما أنه لا يمكن أن تستقر أوضاع أي مجتمع لا يحس بالطمأنينة على مستقبل حياته دون أن يلمس الضمانات الوافية بذلك .

ولهذا بقي الإسلام حيّاً في قلوب أبنائه على مر الدهور والعصور لشموله لكل أنواع التكافل في جميع نواحي التشريع سواء ما يتعلق بحق الفرد أو حق الجماعة أو حق الدولة دون محاباة لأحد .

إن الإسلام دين يهتم بأمور الدنيا كما يهتم بأمور الآخرة فهو لا ينحصر فقط في داخل المسجد كما يزعم العلمانيون وسائر أعداء الإسلام الذين يُصورونه أنه دين جامد ومثبط عن العمل ويدعو إلى الكسل وأن نظامه ليس شاملاً كالقوانين الوضعية التي يمجدونها ويدعون إلى تقديمها على النظام الالهي ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴿٥﴾ ﴾ [1] ، ﴿ **الْيَوْمَ**

(١) سورة الكهف الآية : ٥

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [1] ، ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾** [2]

وسيأتي ان شاء اللّه في خلال هذه الدراسة ما يوضح كل ذلك .

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام له صفة شاملة لا تقف عند جهة أو مجتمع أو شخص وإنما ينظر فيه إلى جميع الأمة على أنها كالجسد الواحد وأن مضرة الفرد كمضرة الجميع ومضرة الجميع كمضرة الفرد يجب أن يحس كل فرد بإحساس الآخرين على حد قوله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾** [3] ، بينما النظم الجاهلية إما أن تنحاز إلى الغني أو إلى الفقير أو إلى المصلحة الذاتية .

٢ ـ الإسلام يدعو إلى تحقيق كل أنواع التكافل سواء أكان بين الإنسان ونفسه أو بينه وبين أفراد أسرته أو جماعته أو بين أمة وأمة فالتكافل لا حد له في الإسلام ولا ينحصر في جهة دون أخرى وهذه المزية لا توجد في النظم الوضعية ذات الاحزاب والاهواء المختلفة .

٣ ـ إن دعوة الإسلام إلى التكافل لم تكن بعد تجارب تعرضت للخطأ أو الصواب ولا عن مشورة أحد وإنما هي توجيه إلهي لتتحقق به سعادة البشر مضمونة النتائج بينما الدعوات الأخرى نشأت إما

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٢

(٣) سورة المائدة الآية : ٢

عن تجارب وإما عن رهبة أو رغبة أو لمصالح أخرى ثم هي قابلة للتغيير في كل حين وفرق كبير بل لا مقارنة بين نظام وضعي وبين نظام صادر عن علاَّم الغيوب غير قابل للتناقض والاضطراب والخلل الذي ملئت به الأنظمة الوضعية لنقص عقول البشر عن إدراك الأمور على حقيقتها .

٤ ـ في التكافل الإسلامي يصل الفقير إلى ما يعطاه من المال دون أي مِنَّة لأحد عليه إذ تعطيه الدولة القائمة من مصاريف بيت المال المشروعة له وخصوصاً الزكاة التي تؤخذ من مال الأغنياء بطريقة عادلة تنفع الفقير ولا تضر الغني في ماله قال ﷺ لمعاذ بن جبل بعد أمره ببيان الزكاة لأهل اليمن قال : «**وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»[1]

وفي الوقت الذي يؤدي فيه الغني زكاة ماله يشعر برضى وسعادة لأنه قدم نوعاً من أنواع العبادة فلا يشعر بالحقد على الفقراء ولا يشعر بأنها ضريبة دون مقابل تؤخذ جبراً عنه بل هو عمل نبيل يُثاب عليه الثواب الجزيل ، وكذلك الحال بالنسبة للفقير تجاه الغني إذ يشعر بأن له في مال الغني نصيب يصل إليه بخلاف الأنظمة الوضعية التي خلت عن هذا المسلك الطيب فقامت على الشره واستعباد الغني للفقير وما ينشأ عن ذلك من الأحقاد والبغضاء بين جميعهم .

٥ ـ الإسلام لم يكتف بفرض ذلك التكافل ضمن تشريعاته الإلزامي

---

(١) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٢٦٨٥ ، ومسلم ج ١ ص ٥١

منها وإنما هو يخاطب ضمير الإنسان وصفة الكرم فيه وترغيبه في الأجر والثواب لتشجيعه على فعل الخير تجاه الآخرين عن رضى واقتناع فيقنعه في داخل نفسه بأن المال كله ومالكه أيضاً هو ملك للّه وأن اللّه تعالى هو الذي يرزق ويخلف الخير بأفضل منه والصدقة بعشر أمثالها ويضاعفها أضعافاً مضاعفة فلهذا نجد أن المسلم يقدم ما يقدم من الخير وهو قرير العين لا يفكر في أخذ مقابل من أحد ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩)﴾ (١) وقد خلت الأنظمة الوضعية من هذه الصفات كلها .

المسألة الثانية : الاتفاقيات في العمل

الإسلام وهو يحث على العمل والضرب في الأرض يعتبر كذلك أكل الرجل من كسب يده من أشرف المكاسب لم يترك الإسلام أمر العمل دون ضوابط بين العاملين وأصحاب العمل تضمن عدم النزاع وعدم انقطاع العمل دون الوصول إلى نهايته لذلك نجد أن الإسلام يأمر قبل إبرام أي اتفاق في العمل رضا جميع الأطراف دون أي تدخل أو ضغط خارج عن رغبتهم في صفقة العمل المراد القيام به والاستفادة منه وأن تكون المدة بين الأطراف كذلك محددة لا شبهة فيها ولا تقبل التأويل وإذا كان العمل يتطلب أن تقوم به جماعة أو فرد فيجب أن تكون الأجرة معلومة متفق عليها وهذه الضمانات كلها كي تنتظم الأمور ولا يحصل الضرر ولا الغرر فينتج عن ذلك التراضي وجودة العمل ومراقبة اللّه

---

(١) سورة الإنسان الآية : ٩

فيه ولهذا فقد وجد أصحاب الأعمال على اختلاف دياناتهم أن المسلم الملتزم أتقى في عمله وأخلص في أداء واجباته ولقد كانت أعمال المسلمين وأفعالهم بمثابة دعوة إلى اللّه تعالى في تعاملهم مع غيرهم وأسلم الكثير من الناس بسبب تلك الأمانة والإتقان الذي اتصف بهما العامل المسلم ، ومن المعلوم لدى جميع العقلاء أن الأجير يستحق أجرته عندما يتقن عمله ويسلمه لمن استأجره حسب الاتفاق بينهما في المدة والجودة والإتقان .

ولهذا فقد حذَّر الإسلام من عدم الوفاء للعامل بأجرة عمله وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال : قال اللّه عز وجل : «**ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيراً فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوَفِّهِ أَجْرَهُ**» (١)

كما حثَّ الإسلام الأجير أن يكون كريم النفس وفيّاً صاحب هِمَّة وخلق فقد أخبر اللّه عن نبيه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه استأجره صاحبه ثماني حجج فإن أتم عشرا فمن عنده فوفَّى بذلك وزاد على الاتفاق فوفَّى العشر كما يذكره أصحاب التفسير» (٢)

كما يجب أن يكون صاحب العمل كذلك على خلق وأمانة فلا يشق على عامله كما قال صاحب موسى له : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** (٢٧) ﴾ (٣) ، وقد كان كذلك .

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٧٩٢

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» ، ج ٣ ، ص ٣٨٦

(٣) سورة القصص الآية : ٢٧

ولا يجوز التحايل لاسقاط أجرة العامل إلا بعذر شرعي واضح فلا يحق له أن يوقفه عن إتمام العمل إلا إذا ترك العامل ذلك أو اتضح أنه لا يحسنه ونحو ذلك فعليه حينئذ أن يعطيه أجر عمله السابق مراعياً في ذلك قول المصطفى ﷺ : «**لا ضَرَرَ ولا ضِرَار**»[(١)] لا على النفس ولا على الغير .

المسألة الثالثة : الكسب المشروع وغير المشروع

أولاً : الكسب المشروع

المسلم مأمور بالتكسب ومأمور أن يسعى لذلك قدر استطاعته وأن الكسب الطيب هو ما جاء في مقابل عمل وجهد جسمي أوفكري من قبل الشخص تجارة أو زراعة أو صناعة تتطلب العمل الجسمي وحده أو العمل الجسمي والفكري معا . كما أنه يلتحق بالكسب الشخصي ما جاء عن طريق غير العمل أوالفكرمما يؤول اليه في النهاية كالارث أو الوصية له و الهبة فإن هذه حتى وآن لم تكن من عمله الشخصي لكنها بعد وصولها إليه تعتبر كسباً وحلالاً مشروعاً ومباحاً له بنص كتاب اللّه تعالى وسنة نبيه ﷺ بخلاف ما لو وصل إليها عن طريق غير شرعي كالسرقة والغصب والنهب والغش ... الخ فإنها لا تعتبر مكاسب صحيحة شرعية لعدم وجود ما يقابل هذا المال من الجهد الشخصي وهو طريق لم يأمر به اللّه لسد الحاجات بل حرَّمه وتوعَّد بالعقاب عليه وجعله من

(٤) المستدرك جـ ٢ ص ٦٦

المكاسب الخبيثة وملكه له ليس يحله له ومن المكاسب المشروعة احياء الأراضي الموات التي لم يسبق أحد إلى امتلاكها قبل المحيي لها إذ تصبح ملكا شرعياً له لورود النصوص بذلك قال عمر رضي الله عنه : «**مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ**»[1] ، بل ويحق تملك الأرض المحتجرة إذا طال عليها الحال دون الاستفادة منها ففي بعض الروايات «**مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ ، وَلَيْسَ لِعِرقِ ظَالِمٍ حَقٌ**»[2]

ويروى عن أبي حنيفة أنه اشترط إذن الحاكم منعا للنزاع الذي ربما ينشأ بين المتنافسين لامتلاكها[3] ، وهو أمر واقع ملموس حينما يتسابق الناس لامتلاك أرض جديدة والذي يظهر والله أعلم أن الأمر يحتاج إلى تفصيل أي إذن الحاكم أو عدم إذنه بحيث ينظر فيه إلى حقيقة الحال من حيث حصول النزاع أو عدم حصوله فإن لم يؤد الإحياء إلى النزاع فهو إحياء صحيح لا يتطلب إذن الحاكم كما تفيده النصوص النبوية . وإن كان الإحياء يؤدي إلى النزاع والفتنة فإن ملكية الأرض تنتقل إلى الحاكم وهو الذي يتصرف فيها حسب المصلحة العامة من توزيعها أو حجرها لمصالح المسلمين لأن الدولة هي المسؤولة أمام اللّه عن توزيع الأموال العامة بما تعود مصلحته على الجماعة بما فيهم القائمون على تلك المصالح .

---

(١) أخرجه البخاري ج ٥ ص ١٨

(٢) انظر فتح الباري جـ ٥ ص ١٨

(٣) انظر «النظام الاقتصادي في الإسلام» ص ٩٦ . نقلاً عن كتاب «الخراج» لأبي يوسف ص ٦٥

ثانياً : الكسب غير المشروع

•• الكسب من وراء السلطة :

يجب التنبيه هنا إلى أن الإسلام ليس فيه تمايز بين الحاكم والمحكوم في حيازة الأموال إلا عن طريقها الشرعي فالكل محاسب ومؤتمن حاكماً أو محكوماً ولهذا فقد حرم الإسلام استغلال السلطة والنفوذ لحيازة الأموال للمنفعة الشخصية واعتبر هذا المسلك باطلاً ويجب إرجاع تلك الأموال الى بيت مال المسلمين العام لأنه ليس من المكاسب المشروعة وقد كان رسول اللّه ﷺ وخلفاؤه من بعده لا يأخذون من الأموال إلا ما يكفي حاجتهم ويرجعون الباقي لصالح المسلمين . بل حرم الرسول ﷺ أخذ الأموال بواسطة السلطةحتى وإن كانت عن طريق الهدايا كما قال في شأن الرجل الذي قال للرسول ﷺ بعد أن رجع من جباية الزكاة : «هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي» . فقال ﷺ : «**أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ**»[1]

---

(١) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٢٥٥٩

المسألة الرابعة

إيجاب الإسلام اخراج جزء من المال «فريضة الزكاة»

وفيها أمران :

الأمر الأول : مشروعية الزكاة

أوجب الإسلام باخراج جزء من المال لا يتضرر به صاحب المال وفي نفس الوقت ينتفع به الفقير ويسد بعض حاجاته ومن ذلك اخراج الزكاة فهناك من الناس من لا يستطيع العمل أو لا يتيسر له فيعاني مشقة الفقر بل وقد لا توجد له أسرة تساعده وتتنبه لحاله ، فإن الإسلام كما هو معروف عنه يهدف إلى جعل المسلمين كلهم أسرة واحدة ولهذا شرع فريضة الزكاة لمساعدة المحتاج ومن لا أسرة له تساعده يأخذها الفقير وكأنها جزء من حقوقه فلا يشعر بمنة المتصدق ولا المتصدق يشعر بإسدائه يداً عند أحد بعينه وهي مورد من موارد الدولة التي تغطي بها حاجات الأفراد بحسبها فهي طهارة للنفس ونماء للمال وفائدة للمحتاج ونوع من أنواع تصريف المال لخدمة المجتمع «**تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِم وَتُردُّ عَلَى فُقَرَائِهِم**»[1] ، ولو طبقت هذه الفريضة بكل جد وإخلاص لما بقى لأعداء الإسلام منة على المسلمين في مساعدتهم بالأطباء بلا حدود «المنصِّرون» ولا للحاقدين على الإسلام الذين يتربصون به وبأهله الدوائر عن طريق زرع المشكلات الاقتصادية في كل الأقطار الإسلامية لأن الفقراء حينئذ سيكون اعتمادهم بعد ربهم على ما في أيديهم من الموارد المتاحة لهم وكذلك على ما يصلهم من إخوانهم الموسرين حتى يُغنيَهم اللّه من فضله .

(١) أخرجه البخاري ج ٢ ص ٥٠٥ ، ومسلم ج ١ ص ٥١

وفريضة الزكاة هذه التي أوجبها اللّه في مال الأغنياء هي قدر معلوم يجب إخراجه عندما يصل المال إلى أن يحتمل إخراج الزكاة منه ويكون قد حال عليه الحول وهو غير محتاج إليه لضرورة وقد ذكر اللّه عزَّ وجلَّ الزكاة في تسع وعشرين آية وقد أخطأ بعض الناس وأطلق عليه تسمية ضريبة ولاشك أن الفرق شاسع بين الضريبة وبين المال الذي يخرج من أجل الزكاة . لأن الزكاة عبادة وعد اللّه عليها بالثواب بخلاف الضريبة فإنها تؤخذ كرهاً ، وهذا المال الذي يؤخذ من الأغنياء يرد على الفقراء والمساكين وأصحاب الديون المعسرين والعتق قديماً وأبناء السبيل والقائمين على جباية الزكاة يأخذها هؤلاء من بيت مال المسلمين بعد أن توضع فيه ومن الطبيعي أنه وإن كان لا يحس صاحب المال بمنته على أحد ولا يشعر الفقير بذل سؤال الغني لكنها في نفس الوقت فيها حث للجميع على العمل والإنتاج فما يأخذ الفقير إنما هو دَفعَة لينشط للكسب والعمل لا لتكون مصدر عيشه دائماً . وهي كذلك تجعل الغني يشعر بأنه قدم لإخوته المحتاجين ما ينفعهم وقد بينت الشريعة تفاصيل هذا الجانب الهام من شعائر الإسلام وفي الفقه الإسلامي تفاصيل لكل مايحتاجه المسلم لمعرفة كل تفاصيل هذه العبادة وقد جاء في القرآن الكريم التهديد الشديد لمن يكنزون الذهب والفضة الزائدة عن حاجتهم ولا يؤدون زكاتها بُخلاً أو جحداً لوجوب الزكاة بينما النظم الجاهلية الرأسمالية لا ترى أي حرج في تكديس الأموال في يد شخص أو شركة مهما كان حال أولئك فإن الرأسمالية لا تنظر إلا إلى كيفية جمع المال بكل طريقة مشروعة أو غير مشروعة الحلال ما حلَّ في أيديهم والحرام ما حُرموا منه كما أن ايجاب الزكاة في الأموال يلاحظ فيه أيضاً جانباً آخر وهو ضمان عدم تكدس الأموال في فئة خاصة كي لا تطغى

فكانت الزكاة تنقيصاً ما من تلك الثروة الكبيرة لتسد حاجة آخرين ولا يتضرر بها الغني وقد أراد الشيوعيون منع هذا الجانب - أي تنقيص المال وعدم حصره في فئة - ولكنهم لم يوفَّقوا للحل العادل إذ منعوا الناس من اكتساب الأموال فأفقروهم بينما هيمن كبار الطبقات على كل الأموال فأصبحت في يد الدولة . أما الإسلام فإنه ينظر إلى مصالح الجميع فهو يبارك للغني أمواله ولكن يأمره بإخراج بعضها عن طيب نفس منه فلا يتضرر الغني ولا الفقير وقد حُرِمَت المذاهب الوضعية من الاهتداء إلى هذا الحل الطيب .

الأمر الثاني : آثار الزكاة على النفس والمجتمع

لا يجهل أي مسلم أن الزكاة ركن من أركان الإسلام وأن لها آثاراً مشرقة على النفس والمجتمع قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ (١)

وقال النبي ﷺ في حديث بعث معاذ إلى اليمن : « ... **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ...**» (٢)

وقال ﷺ في حجة الوداع : «**اتَّقُوا اللَّهَ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُون جَنَّةَ رَبِّكُمْ**» (٣)

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤٣

(٢) تقدم تخريجه

(٣) انظر صحيح ابن خزيمة ج ٤ ص ١٢ ، والمستدرك على الصحيحين ج ١ ص ٥٢

وغير ذلك من الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في الحث عليها وبيان أهميتها في الإسلام وقد أجمع المسلمون كلهم على فرضيتها وكفَّر منكر وجوبها وأنها أحد أركان الإسلام التي ذكرت في حديث جبريل المشهور وقد فرضها اللَّه تعالى لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى نؤمن بذلك عرفنا الحكمة أو لم نعرفها مع اليقين التام أن فيها حِكَماً إلهية عظيمة وقد يبدو أن من حكمتها وجود الحافز لتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المسلمين وفي تخفيف الكثير من المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها البشر في تسابقهم إلى الاستحواذ على المال وجمعه .

كما أن للزكاة آثاراً نفسية عظيمة على المزكي والآخذ معاً فبالإضافة إلى آثارها التي سبقت الإشارة إليها فهي من الناحية الاقتصادية فيها حث لصاحب المال على زيادة الرغبة والنشاط لتنمية أمواله وسد ما حصل من نقص فيها بإخراج الزكاة فهو يشعر من ناحية بهذا النقص ومن ناحية أخرى بالسعادة لأدائة هذا الحق المفروض عليه والرغبة في الثواب فيجتمع له الأمل والعمل معاً وفي الجانب المقابل يشعر الآخذ للزكاة أنه يجب عليه أن ينهض للعمل وأن لا يبقى دائماً في انتظار وصول الزكاة وهذا يحثه على الاستفادة من مال الزكاة في الوجوه التي تعود عليه بالربح وتغنيه عن أخذ الزكاة فإن المسلم يعلم يقيناً أن اليد العليا خير من اليد السفلى فهو دائماً يتشوف إلى الاستغناء عن مد يده لأحد من الناس .

ومن الآثار الظاهرة للزكاة أنها تهدف إلى أن يسير الناس كلهم متقاربين فالفقير يأخذ حاجته التي تغني من في مثل حاله والغني لا يتكدس المال

في يده فلا تنشأ طبقات بعضها في الثرى والأخرى في الثرياء كما هو حال الدول القائمة على النظم الوضعية الشرهة إلى المال حيث يستعبد بعضهم بعضاً وتنشأ بينهم أحقاد وحسد لا يعلم مداه إلا اللّه لشعور الفقراء بالإحباط التام واستعلاء الأغنياء عليهم ويأسهم من الاستفادة مما في أيدي الأغنياء مهما كانت قلته وهذه النزعة لا توجد في النظام الإسلامي للزكاة إذ يشعر الفقير أنه سيصيب من مال الغني بأي طريقة كانت وكأنه مشارك له فتهدأ نفسه وبالتالي لا ينظر إلى صاحب المال بأنه عدو شرس مستكبر عليه وإنما هو تفاوت لحكمة من اللّه تعالى فتقر نفسه ويجد في قلبه حناناً وشفقة تجاه أخيه صاحب المال خصوصاً مع الإيمان والرضى بالقدر فلا تجد إلا القليل من يفكر في السرقة أو الغصب أو النهب إذ ما دام ذلك المال سيأتيه جزء منه مع محافظته على سمعته واحترامه ودينه فلا يجد ضرورة للتفكير السيء إلا من طبع على الشر وهم قليلون بالنسبة لغيرهم وإذا أردت الدليل فتأمل حال الدول الكافرة وما يحدث فيها من السرقات والنهب والغصب على مدار الساعة .

وفي الزكاة كذلك تقوية خزينة الدولة الإسلامية وتنوع نفقاتها على المستحقين . وعلى تأليف قلوب الكثير من الناس وقد ضمن اللّه الزيادة لمن أداها على وجهها الشرعي وهي فوق ذلك كله نوع من أنواع العبادة التي تدل على صدق القائم بها وعلى رغبته فيما عند اللّه إذ لو شاء أن يحتال للإنفلات من إخراجها لأمكنه ذلك بأية حيلة من الحيل التي يفعلها الكثير ممن ضعفت في قلبه مراقبة اللّه تعالى .

وتخرج الزكاة لمن ذكرهم اللّه تعالى في كتابه الكريم بقوله : ﴿ إِنَّمَا

الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ (١)

وقد بين فقهاء المسلمين كل تلك الأقسام والمقدار الذي يصرف لكل منهم بما لا يتسع المقام لذكره هنا .

وهناك موارد أخرى في الإسلام من غير الزكاة تصل بيت المال ويستفيد منها فقراء المسلمين وتلك الموارد هي ما يحتويها بيت مال المسلمين من غير دخل الزكاة وهي موارد كثيرة تنمي خزينة الدولة كي تتمكن من الوفاء بحاجات المواطنين المختلفة ومد يد المساعدة للمحتاجين منهم ومن تلك الموارد خيرات الأرض من معادن على اختلاف أصنافها وكذا جباية أوقاف الدولة العامة وما تملكه عن طريق الغنائم في حال الحرب والفيء وما تفرضه من ضرائب في بعض المصالح وما تخصصه من محميات للصالح العام وغير ذلك من المرافق العامة التي تختص بالإشراف عليها الدولة والتي هي مسؤولة أمام اللّه تعالى عن كل ذلك .

المسألة الخامسة : الضرب في الأرض وطلب الكسب

ويشمل طرق كل وسيلة لايجاد العمل والكسب الحلال الذي ينتج عن جهد وعمل وكد الشخص بجسمه وفكره امتثالاً لقول اللّه تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

(١) سورة التوبة الآية : ٦٠

وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)** ﴾ [(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [(٣)]

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في كتاب اللّه عزَّ وجلَّ التي تحث على العمل وابتغاء طرق الرزق من أبوابه المشروعة فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للمتواكلين : «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لا تُمْطِرُ ذَهَباً وَلا فِضَّةً**» [(٤)]

وللضرب في الأرض طرق كثيرة . مثل طلب الرزق عن طريق التجارة والبيع والشراء أو استصلاح الأراضي للزراعة أو الأعمال التي يقوم بها الشخص لخدمة الغير أو مزاولة الأعمال اليدوية المختلفة من صناعة وخياطة ونجارة وسباكة وأعمال كهربائية وغير ذلك من الأعمال والحرف اليديوية الكثيرة ولقد كان النبي ﷺ والصحابة والتابعون لهم بإحسان لا يأكلون إلا من كدهم ، فقد رعَى النبي ﷺ لأهل مكة على قراريط وكان يأكل من كسبه في الجهاد والصحابة كانوا يستقبلون المهاجرين منهم فيقول أحدهم لصاحبه أعطيك كذا أعطك كذا فيقول له بارك اللّه لك في أهلك

(١) سورة القصص الآية : ٧٧

(٢) سورة المزمل الآية : ٢٠

(٣) سورة الجمعة الآية ١٠

(٤) أنظر المفهوم الإسلامي للتكافل الاجتماعي ص ٤١

ومالك دُلَّني على السوق [1] ، وكان النبي ﷺ يرشـد من يسـأل الناس إلى أن يتوجه إلى العمل ولو بالاحتطاب فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأل ، فسأله النبي ﷺ عما إذا كان يملك شيئاً فأخبره السائل انه لا يملك إلا قدحاً يشربون به فقال له النبي ﷺ جئني به فلما جاء به رفعه الرسول ﷺ وقال : «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَا**» فوصلت قيمته درهمين فباعه وأعطى الرجل درهما وأمره أن يصلح به شأن بيته وأمره أن يأخذ الدرهم الآخر ويشتري به فأساً فيحتطب به ويبيعه ففعل الرجل ذلك فأغناه اللّه فأخبره الرسول ﷺ أن ذلك خير له من أن يتكفف الناس أعطوه أو منعوه [2] ، وأخبر النبي ﷺ أصحابه أن اليد العليا خير من اليد السفلى [3] ، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف [4]

وهو تنبيه من الرسول ﷺ للمسلم أن لا يذل نفسه لسؤال الناس والركون إليهم والإخلاد إلى الكسل والخمول وتفويت المجتمع خدمته والاستفادة منه كعضو عامل في بناء الحياة السعيدة والإسهام في التكافل الاقتصادي ولهذا يقول الناس في أمثالهم «لا تغديني سمكا ولكن علمني كيف أصطاده» فالعمل والاحتيال لطلب الرزق أمر مشروع وتركهما هو الطريق المذموم الذي يؤدي إلى زيادة الفقر وارتفاع نسبة البطالة في المجتمع الذي يتصف بهما .

(١) انظر «الاحاد والمثاني» ج ٣ ص ٣٨٨ ، «رجال حول الرسول» ص ٦٤٣
(٢) مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٤
(٣) تقدم تخريجه .
(٤) السنن الكبرى ج ٦ ص ١٦٠

ويلحق بالاحتطاب كل عمل فيه جهد شخصي للحصول على أي نفع يسد به حاجته كطلب الصيد وبيع الأعلاف والسقاية ورعي البهائم للناس بأجرة أو الحراسة لهم وغير ذلك من وسائل طلب الرزق التي لا تكاد تحصى والتي لا تتطلب من الشخص غير التفكير السليم والعزم بصدق والتوكل على اللّه عز وجل والابتعاد عن المكاسب المنهي عنها كالربا بجميع أنواعه والغش بجميع أنواعه وغيرها من المكاسب التي حرمها اللّه والتي هي في حقيقتها ليست مكاسب وإنما هي خسارات ظهرت في شكل مكاسب يغتر بها ضعاف النفوس .

وكان الكثير من علماء هذه الأمة وأسلافهم يعملون في شتى الحرف يطلبون العلم ويؤلفون فأفادوا الناس في دينهم ودنياهم وأفادوا أنفسهم ومجتمعاتهم وكان الكثير منهم تأتيه الصدقة فيردها لصاحبها ويقول اعطها من هو أفقر مني وكان أحدهم يأكل من عمل يده ولهذا كان يقال لبعضهم وراقاً وبزازاً وزجاجاً وخرازاً وجصاصاً وخواصاً وخياطاً وغير ذلك من الألقاب التي اقترنت بالمهن التي كانوا يزاولونها ويجدون فيها رغم متاعبها متعة وراحة عن استجداء الناس وكان التوكل عندهم هو العمل والجد حتى إذا انحرفت فطر الناس وتغيرت المفاهيم وحلت الخزعبلات في عقول بعض من ينتسب إلى الدين أصبح التواكل بدل التوكل والشعوذة بدل العمل والكسل والخمول زهداً والاتكال على الناس أمراً سائغاً فتفشى الفقر وانتشرت البطالة .

والذي نهدف إليه من هذا البحث هو أن الضرب في الأرض لطلب

الرزق وإعمار الأرض بالعلم والعمل هو أحد الأهداف التي يحث عليها الإسلام لكفاية المجتمع ورفع أحواله الاقتصادية ولهذا فقد حرَّم الإسلام أي كسب غير شرعي فحرم السرقة والغصب والنهب والاحتيال .. الخ .. وحث على التنافس ، وفي الإسلام ليس العمل الفردي هو المسلك الوحيد لرفع الاقتصاد فالإسلام يجعل على الدولة النصيب الأكبر في تشغيل رعاياها وإيجاد الفرص المناسبة للاستفادة منهم في إشغالها كل حسب طاقته واتجاهه والقائم على شؤونهم هو المسؤول الأول عن كل خلل يحصل في النواحي الاقتصادية للدولة وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يتململ على فراشه ويقول : «**وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ لَوْ أَنَّ جَمَلاً هَلَكَ ضَيَاعاً بِشَطِّ الْفُرَاتِ لَخَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهُ عَنْهُ آلَ الْخَطَّابِ**» ، يعني نفسه رضي الله عنه .[1]

ولهذا انتعشت أحوال المسلمين حينما كان التوجه صادقاً من قبل الحكام والمحكومين ويذكر المؤرخون أنه مرت فترات بالمسلمين كان يمشي أحدهم بصدقته في أفريقيا وغيرها فلا يجد من يأخذها وتولى عمر رضي الله عنه القضاء في خلافة أبي بكر فمكث سنة لم يتحاكم إليه أحد[2]

وهي شواهد على ما وصل إليه المسلمون من الجد والتناصح والإيثار ووقوف كل شخص في المكان الذي يستطيع فيه نفع نفسه ونفع غيره .

---

(١) انظر تمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص ١٢٣

(٢) العلل ومعرفة الرجال للامام أحمد ٤٩١/٣ تاريخ الطبري ٣٥١/٢

المسألة السادسة : الصدقات

فالصدقات نوع من أنواع التكافل ومظهر أخلاقي رفيع وتعويد للنفس على الكرم ومحاسن الأخلاق وهي سد لجانب من جوانب الحاجة للغير وينبغي للمسلم أن يتصدق بأي شيء مهما كانت قلته فإن الجود أن تجود بالموجود وعلى الآخذ أن لا يزدريها بل يدعو للمتصدق فإن في هذا تطييباً لنفسه وتشجيعاً له على البذل ويحصل عكس هذا فيما لو أظهر الازدراء لها ولهذا فإن كثيراً من الناس يمنعه الحياء أن يتصدق بالقليل لعدم استطاعته التصدق بالكثير فيفوت على نفسه هذه الصفة الطيبة ، قال المتنبي :

أورق بخير ترجى للنوال فما * ترجى الثمار إذا لم يورق العود**

وقد كان الصحابة رضوان اللَّه عليهم يتصدق أحدهم حسب ما يجده مهما كان قليلاً وكان المنافقون يهزأون ممن يأتي بالقليل فأنزل اللَّه تعالى توبيخاً لهم واستحساناً لما يفعله أولئك الأبرار قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)** ﴾ [١]

وقال تعالى في شأن الصدقات : ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)** ﴾ [٢]

---

(١) سورة التوبة الآية : ٧٩

(٢) سورة المزمل الآية : ٢٠

وفي السنة النبوية أحاديث عن المصطفى ﷺ يحث فيها على الصدقة بأي شيء كان حتى وان كانت تلك الصدقة هي الكلمة الطيبة قال ﷺ : **«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»** (١)

وهذا فضل من اللَّه تعالى وفتح لأبواب الخير أن تكون أبواب الصدقة بهذه السعة حيث رغّب اللَّه تعالى فيها وجعلها على قدر الاستطاعة وأخبر عزَّ وجلَّ عن مضاعفة تلك الصدقات ومالها من النتائج الطيبة على المتصدِّق وعلى المتصدَّق عليه وعلى المال وتلك الموارد وغيرها إذا توفرت فلابد أن تسد حاجة وتدر نفعاً على قسم من المجتمع إلى حين يغنيهم اللَّه من فضله إذ الإسلام لا يقر الشخص على أن يصبح عالة على غيره بل عليه أن يعمل ويكدح فقد يباشر السبب البسيط الذي يجر وراءه المال الوفير ولا ينبغي للمسلم أن ينظر إلى الصدقات إلا على أنها في حال ضرورة ملحة لا أنها مورد يجب أن يركن إليه دائماً ، فالمؤمن يجب أن يبقى عزيز النفس متعففاً عما في أيدي الناس وأن عمله شرف له ونفع لغيره من أفراد المجتمع ليحصل التكاتف وعمران الأرض والانتفاع بما أودعه اللَّه تعالى فيها من موارد الرزق العديدة . (٢)

وقد أولى الإسلام جانب الإنفاق في سبيل اللَّه تعالى اهتماماً ورعاية فائقة ورتَّب عليه الأجر المضاعف والثواب الجزيل ولقد تسابق الصحابة رضوان اللَّه عليهم ومن جاء بعدهم إلى امتثال الأمر فكانوا ينفقون أموالهم

---

(١) سنن الدارمي ج ١ ص ٤٧٨ ، ومجمع الزوائد ج ٣ ص ١٠٥

(٢) انظر كتاب «الضمان الاجتماعي في الإسلام» تأليف محمد أمين الشعراني ط ١ سنة ١٣٩٥هـ .

بكل سخاء في مختلف أوجه الخير فساد التراحم بينهم واختفت صور العنف التي كانت تشاهد في المجتمعات الجاهلية الجشعة ولم يفرض اللَّه تعالى على الشخص في باب الهبات والصدقات - غير الزكاة - أي إلزام وإنما ترك الأمر لضمير المستطيع ورغبته في اكتساب الثواب والثناء الحسن عند اللَّه وعند الناس .

ومعلوم أن الإنسان بصفة عامة شحيح على المال فإذا لم يكن وراء بذله لماله دافع قوي يرغبه في ذلك فإنه لا يمكن أن يسارع إلى ذلك وهذا هو الفارق بين المحسنين في الإسلام وملاك الأموال من غير المسلمين .

فإن غير المسلمين لا يمكن أن يبذل أحدهم أي مال مهما كانت قلته إلا أن يكون له هدف إلى مقابل دنيوي أو يكون في سبيل شهواته ومتعه الدنيوية لأنه لا يؤمن بأنه وراء دفعه لماله الثواب الذي هو خير من المال فلا يجد حافزاً يدفعه إلى الإنفاق كما هو الحال عند المسلم الموقن بذلك .

المسألة السابعة : الوَقْف

ومجال التكافل في الإسلام واسع جداً إذ يشتمل على الترغيب في جميع أنواع الخير ومنه الصدقات الجارية كالوقف وهو عمل خيري إذا كان مما تحصل به فائدة من مساكن أو أراضي زراعية أو حفر آبار ماء أو أي شيء مما تسد به الحاجة وصفته أن يحبس الأصل فلا يُباع ولا يوهب ولا يُرهن ولا يشمله الانتقال بالإرث بعد وفاة الواقف ولا يباح الانتفاع به إلا فيما أوقف من أجله .

وفي الترغيب في الوقف يقول ﷺ : «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[(١)]

ولقد كان السلف السابقون يهتمون بهذا الجانب رغبة في ما عند اللّه ولقد أسهمت الأوقاف في سد حاجات كثيرة . وأفاد منها المحتاجون وكانت عاملاً قوياً في دلالته على التكافل الحقيقي بين المسلمين وهو من الخصائص التي تميز بها الإسلام ونظمها وبين طرقها ويلاحظ أن الإسلام وهو يبيح الوقف ويرغب فيه ضمناً فإنه لا يبيح الوقف الذي ينتج من ورائه الحاق الضرر بالورثة لأنه لا ضرر ولا ضرار بل قال ﷺ لسعد : «**لَئِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ فُقَرَاءَ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[(٢)] ، فلا يعمد الشخص لوقف أمواله إلا إذا لم يكن فيها مضرة على الورثة أو لم يكن له ورثة أصلاً .

المسألة الثامنة : المِـــيراث

•• تحليل الميراث لمن يستحقه :

يعتبر الإسلام أي مصدر فيه فائدة وسداً لحاجة الناس وجاء عن طريق مشروع يعتبره الإسلام مصدر خير وطريقاً مستقيماً . فلا تتوقف مصادر الرزق على عمل الشخص وجهده فقط بل هناك مصادر أخرى قد لا تكون

---

(١) مسند أبو عوانة ج ١ ص ٤٩٥ ، مصباح الزجاجة ج ١ ص ٣٥

(٢) مسند أبو عوانة ج ٣ ص ٤٨٥ ، وسنن البيهقي الكبرى ج ٧ ص ٤٦٧

من عمل الشخص تصبح جزءاً من ماله كالميراث الذي آل إلى الوارث بعد موت مورثه .

فالميراث هو أحد قسمة الأموال وتوزيعها العادل بين أكثر من شخص لتعميم الاستفادة والإسهام في توزيع الموارد لقضاء الحاجات بين مستحقيها ومن ناحية أخرى لئلا يبقى المال حجراً على فئة دون فئة من المستحقين ذكوراً أو اناثاً .

كما ان الإسلام نظر إلى جانب آخر فنظمه وهو حالة ما إذا كان المتوفى صاحب مال ولكنه يريد حرمان بعض الورثة أو كلهم أو أن يجعل ماله من بعده لشخص أو حيوان فهل له مطلق التصرف في ذلك .

أما بالنسبة للإسلام فإنه يمنعه من هذا التصرف الظالم إذ لابد من القسمة العادلة بين الورثة حتى ولو أراد المالك أن يخص أحداً منهم بزيادة فإنها لا تصح ، والوارثون في الإسلام طبقات الأقرب فالأقرب إلى الميت في تنظيم بديع بينته كتب الفقه الإسلامي أتم بيان وأما في المذاهب الوضعية القائمة على الأفكار البشرية القاصرة فإن نظام التوريث قائم على تناقضات وغبن فلو أراد صاحب المال أن يوصي بالمال كله لكلبه لصح ذلك كما نسمعه من أخبارهم وقد سمعنا وقرأنا أن بعضهم يوصي بفندق لكلبه ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾[1]

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٠

فالإسلام ينظر إلى تحقيق عدة مصالح في مال المتوفي فمن ناحية لا يريد أن ينتقل المال كله وكما هو إلى فرد بعينه دون الآخرين ومن ناحية أخرى أن يستفيد أكثر من واحد منه ممن يمتُّ إلى الميت بسبب من أسباب القرابة ممن يحق له الإرث شرعاً ممن ذكرتهم الشريعة الإسلامية كما قال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾[1] ، وقد توعد اللّـه بالعذاب كل من يتعدى الحدود التي فرضها في الميراث كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾[2]

(١) سورة النساء ، الآيتان : ١١ ، ١٢

(٢) سورة النساء الآية : ١٤

وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية وفي كلام علماء الفقه الإسلامي بيان كل ما يتعلق بنظام الإرث الشامل لكل من يستحقه من ذكور أو إناث صغاراً كانوا أم كباراً مع الالتفات إلي الميت صاحب المال نفسه إذ جعل له حداً في التصرف بماله وفي ما يوصي به إن أراد الوصية خلافاً لأنظمة الجاهلية التي لا تعير هذا الجانب أي اهتمام كالاشتراكية التي لا تعترف بحق الإرث مهما كان أو الرأسمالية التي لا تعترف بأي وجه من وجوه الإرث من مال الغير [(١)] ، الأولى نتيجة لمصادرتها جميع حقوق الناس والثانية لشرهها في حب المال والتنافس في جمعه وكما هو حاصل مع الأسف في بعض المجتمعات الإسلامية الجاهلة التي لا ترى إرث المرأة من مال أبيها وهو ظلم فاحش بسبب الأنفة والعصبية الجاهلية . والغرض من ذكر الإرث هنا هو بيان أن الميراث هو مصدر كأحد المصادر التي تمثل جانباً في سد الحاجة كغيره من سائر الموارد التي أتاحها الإسلام لأتباعه وقد قال النبي ﷺ **«لَئِنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ فُقَرَاءَ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»** [(٢)] .

المسألة التاسعة : الْوَصِيَّة

وكذا مشروعية الوصية من المال الثلث فأقل لتوزيعها في جهات خيرية من أقرباء أو غيرهم كما قال تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ**

---

(١) إن بعض المجتمعات عندهم عرف وهو إرث الولد الأكبر لجميع التركه دون غيره من أخواته وأخواته . انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ١١٥

(٢) تقدم تخريجه .

حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) ﴾ [١] ، وهذه الوصية تكون لغير الوارثين كما قال ﷺ : «لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» [٢] ، إذ الغرض منها هو تعميم المال على أكبر قدر ممكن من الناس حتى وإن بعدوا عن نسب الميت وكانت هذه الوصية لغير الوارث الحقيقي معمولاً بها وواجبة التنفيذ وقد نسخ وجوبها فهي مستحبة وفيها إيصال خير الشخص المتوفى إلى من لا يرثه شرعاً بعد وفاته من أقربائه أو غيرهم فيدعون له ويذكرونه بالثناء والترحم ويكون قدوة في هذا العمل الخيري ومشجعاً لغيره عليه فهذه وصية خير ندب إليها الإسلام ورغَّب فيها بخلاف ما لو وصَّى بمحرَّم فإن وصيته باطلة وعليه الاثم كمن يوصي بإقامة حفلات الطرب أو بناء مساكن الدعارة ونحو ذلك من المحرمات وكذلك الوصايا الخُرافية ، كمن يوصي بماله أن يبنى منه قبة على قبره أو على قبر غيره أو ينحت له تمثالاً أو توقد على قبره الشموع ، أو الوصية للقراء على قبره بمال عند كل ختم للقرآن أو الوصية بماله لحيوان من الحيوانات وغير ذلك التي لا تعود بالنفع على المحتاجين أو أجر لصاحبها فيها .

وأمر جل وعلا بالتعاون والتكافل على وجوه الخير وحرم التعاون على الاثم والعدوان كما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾ [٣]

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٠

(٢) البخاري «باب لا وصية لوارث» ج ٣ ص ١٠٠٨

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢

المسألة العاشرة : الحَثُّ على الإيثــار

ومن التكافل في الإسـلام أيضـاً الحث على خُلق الإيثـار الذي حثَّ عليـه اللَّـه تعالى في كتابه الكريم ومدح القائمين به كما قال تعالى في مدح الانصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ (١)

ولقد ضرب رسول اللَّـه ﷺ والأنصار والمهاجرون أروع الأمثال التي لا نظير لها في التاريخ البشري من الإيثار في ساعة العسرة وعند الشدائد (٢) ، والبدء بسد حاجة المحتاج وتقديمه على النفس . وقد سطروا أروع الأمثلة في الإيثار ويكفيهم مدح رب العالمين لهم .

المسألة الحادية عشرة : الهَدايـا والهِبات

ومن التكافل أيضاً الهدايا والهبات . وهي من الأخلاق الرفيعة التي دعا إليها الإسلام كما قال ﷺ : «**تَهَـادُوا تَحَـابُّوا**» (٣)

وكان النبي ﷺ يهدي ويُهدى إليه ويقبل الهدية ويرفض الصدقة وللَّهدايا

---

(١) سورة الحشر الآية : ٩

(٢) اقرأ ما نقله الشيخ عبداللَّه ناصح في كتابه «التكافل الاجتماعي في الإسلام» الفصل السادس بعنوان «اثر التربية الوجدانية في تحقيق الكافل» ص ١٠١ ـ ١٠٧

(٣) الأدب المفرد ج ١ ص ٢٠٨ ، ومسند أبو يعلي ج ١١ ص ٩

والهبات فوائد اجتماعية وسلوكية عديدة وحرم الإسلام الرجوع في الهدية واعتبر العائد فيها كالكلب الذي يقيى ثم يأكل قيئه قال رسول اللّه ﷺ : «**العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**» [(١)] ، تنفيراً عن الرجوع فيهما لأن الرجوع فيهما يبعث على الحقد والعداوة الشديدة ولأن المقصود بها التكرمه ورفع الحاجة عن من كان محتاجاً إليهما فالعودة فيهما إخلال بهذا المسلك وعدم التكافل المطلوب إضافة إلي ما يجده الْمُهْدَى إليه من انكسار قلبه عند رد الهدية والوحشة التي تحصل عنده من الْمُهْدِي وفي الغالب أن الهدايا قد تكون لأشخاص لا تربطهم بالْمُهْدِي إلاَّ الصداقة ولا يكونون ممن تلزمه نفقته والقيام بمصالحه والحديث يذم كل من عاد في هبته لأي شخص تقدم له الهدية سواء أكان قريباً أو بعيداً واللّه أعلم ولا يجوز أن تشتمل الهبة على مضرة الآخرين أو محرم وكذلك الهدية .

المسألة الثانية عشرة : التكافُل الأسَــري

ومن الإرشادات الاقتصادية في الإسلام التكافل الأسري فمن الأمور المعلومة أن المذاهب الوضعية لا تنظر إلى تلاحم الأسر خصوصاً الشيوعية أما الإسلام فإنه يحرص أشد الحرص على تماسك الأسرة فيما بينهم وإشاعة العطف بين كل أفرادها ويدعوهم إلى أن يكمل بعضهم بعضاً بأن يعطف الغني على الفقير وأن لا ينسوا الفضل بينهم وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يكمل بعضه بعضاً ويشده وقد رغَّب في الصدقة على المحتاج

---

(١) رواه البخاري ج ٢ ص ٩٢٥ ، ومسلم ج٣ ص ١٢٤١

القريب وأن أهل البيت أولى بالصدقة وخصوصاً ما يتعلق منها بصلة الرحم فحقها أوجب وآكد وقد جاء في كتاب اللّه تعالى في بيان هذا الجانب قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (٣٦) ﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) ﴾ [٢] ، ووردت في السنة النبوية نصوص كثيرة في الحث على ذلك قال ﷺ : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [٣] ، وقد أكد الإسلام حقَّ الرحم وشدَّد عليه وأن حقَّ الرحم يصل إلى حد أن اللّه يصل من يصلها ويقطع من يقطعها فقد ورد في الحديث : «أَنَّها تَعَلَّقَتْ بِسَاقِ الْعَرْشِ وَقَالَتْ يَا رَبِّ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ فَقَالَ لَهَا : أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ . قَالَتْ : رَضِيتُ . قَالَ : فَذَلِكِ لَكِ» [٤] ، ولاشك أن أي مجتمع يحقق هذا التكافل سيكون مجتمعاً سعيداً لا يشعر فيه الفقير بذل الحاجة ولا الغني بمنة العطاء .

هذا وللتكافل الأسري طرق كثيرة حسب ما يتيسر لهم فإما أن يكونوا

(١) سورة النساء الآية : ٣٦

(٢) سورة الاسراء الآية : ٢٦

(٣) أخرجه البخاري جـ ٥ ص ٢٢٧٣

(٤) صحيح ابن حبان ج ٢ ص ١٨٥ ، والأدب المفرد ج ١ ص ٣٦

شركة فيما بينهم في شكل تجارة أو وقف أو مال مدَّخر يدفع كل فرد منهم قسطاً حسب طاقته ثم ينمي هذا المال قليلاً قليلاً إلى أن يصبح مبلغاً يستطيعون من خلاله مساعدة بعضهم بعضاً كل بقدر حاجته الضرورية وتكون تلك المبالغ بيد أمين منهم يختارونه كلهم له خبرة بالتصرف في تنمية المال من وجوهه الشرعية وعليهم أن يتقبلوا هذا المسلك ولا يسأمون وأن يتذكروا ما يأتي به من فوائد فيما بعد من تأليف قلوبهم وشدة تماسكهم ورفع الحاجة عنهم مهما كان ضئيلاً في البداية وهذا وجه جيد من وجوه حل المعضلات الاقصادية لو طبق بصبر وأناة .

ومن التكافل الأسري أن تجمع الأسرة من كل فرد منهم مبلغاً من المال ثم يعطون المحتاج منهم إما صدقة أو ديناً وهذا بدوره عليه أن يحسن التصرف في ذلك المال فلا يضيعه فيما لا يعود عليه بالفائدة فيصبح عالة على أسرته وغيرهم أو يعطون الفقير منهم أمتعة يبيعها إما بأخذه أجرته منها وإما بغير ذلك من طرق الكسب .

وأبرز مظاهر التكافل الأسري كفالة الزوج لأسرته زوجته أو زوجاته وأولاده ذكوراً أم إناثاً ، فللزوجات النفقة بحكم قوامة الرجل عليهن **﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾** [1] ، وللأولاد أيضاً النفقة ماداموا عاجزين عن التكسب وماداموا تحت رعاية أبيهم ونفقة الرجل على أسرته تكون حسب مقدرته فلا يجوز الإسراف ولا التقتير قال ﷺ : «**ابْدَأ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضُلَ شَيءٌ فَلأَهْلِكَ** ...» الحديث [2]

---

(١) سورة النساء الآية : ٣٤

(٢) رواه مسلم ج ٢ ص ٦٩٢

وهذا التكافل لاشك أن فيه إسهاماً لدفع حاجة المجتمع إذ لو قام كل شخص بكفالة أسرته خير قيام لقل عدد المعوزين والعاطلين ولو تعدى الحال إلى كفالة كل قريب موسر لأقربائه المحتاجين من غير الورثة لكان في هذا العمل إسهاماً مباركاً في سعادة المجتمع ودفع الفاقة عنهم . وفي كتب الفقه إيضاحات كافية لقضية النفقات فلترجع إليها إن أحببت التفاصيل وقد قيل في الأمثال «لو كنس كل شخص أمام باب داره لأصبح الشارع كله نظيفاً» .

المسألة الثالثة عشرة : ومنها موارد أخرى متنوعة

وهذه الموارد قد تبدو قليلة ولكنها تشكل بمجموعها روافد أخرى في سد حاجة الفقراء اهتم الإسلام ببيانها :

١ ـ مثل زكاة الفطر بعد نهاية صوم شهر رمضان .

٢ ـ توزيع لحوم الأضاحي على المحتاجين .

٣ ـ توزيع ما لا يحتاجه الموسرون من الأمتعة التي يستغنون عنها وهي في نفس الوقت تصلح للمحتاجين من ثياب وآنية وغيرها من الأمتعة المختلفة .

٤ ـ ومنها إطعام مسكين في كل يوم في حق الرجل أو المرأة الكبيرين أو المريض الذي لا يرجى بُرؤه إذا عجزوا عن الصوم في نهار رمضان ويلحق بهم أيضاً الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما كما يرى بعض الفقهاء .

٥ ـ ومنها توزيع لحوم الهَدي من قبل الحاج أو المعتمر إبلاً كانت أو بقراً أو غنماً عندما يرتكب محظوراً من محظورات الإحرام أو في حال تمتعه في الحج أو قرانه فإنه يقدم هَدياً بالغ الكعبة [١]

٦ ـ ومنها ما رغب فيه الشارع وأوكله إلى ضمير الشخص من التصدق على المحتاجين الذين يحضرون وقت حصاد الثمار تطييباً لأنفسهم وسداً لحاجتهم كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) ﴾ [٢]

٧ ـ ومنها سائر الكفارات التي جعلها اللّه من ناحية عقوبة للمخالف وتطهيراً له ومن ناحية أخرى فائدة للمحتاجين وإسهاماً في نشر الحياة السعيدة بينهم وتشمل تلك الكفارات :

كفارةالإيمان ، وكفارة الإفطار في نهار شهر رمضان عامداً ، وكفارة الظهار من الزوجة ، وكفارة القتل الخطأ ، وكفارة قتل المحرم الصيد في حال إحرامه عمداً .

---

(١) لقد كانت لحوم الأضاحي في الحج قبل فترة من السنوات تذهب سدى غير ما يؤكل منها وهو قليل بالنسبة لكثرة ما يضحى به ثم فطن المسؤولون إلى الاستفادة منه فأقيمت له المصانع لتعليبه وتوزيعه على الفقراء في مختلف بلدان المسلمين وهو أمر طيب يشكرون عليه .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤١

١ ـ أما كفارة الأيمان :

فقد قدر اللّه فيها إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة فإن لم يستطع الحالف ما تقدم فإن عليه صيام ثلاثة أيام على أن المؤمن مطالب بحفظ لسانه من الحلف وورد النهي الشديد عن الحلف الذي قد يؤدي به إلى الحنث فيلحقه الاثم قال تعالى : ﴿ **وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)** ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠)** ﴾ (٢)

وورد في السنة النبوية الوعيد الشديد لمن يحلف على سلعته ليبيعها وفي اليمين الغموس . وكثرة الحلف يؤدي إلى الاستهانة بحق اللّه والتعود على الكذب . وفي مقدار كفارة اليمين يقول اللّه تعالى : ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)** ﴾ (٣)

ويُخيَّر من حنث في يمينه بين هذه الثلاثة من الأمور السابقة فإن لم يتمكن ينتقل الحكم إلى الصوم لتطهير نفسه ، وفي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فائدة للمحتاجين وإسهام في إشاعة التكافل وسد الحجات وفي

(١) سورة المائدة الآية : ٨٩

(٢) سورة القلم الآية : ١٠

(٣) سورة المائدة الآية : ٨٩

تحرير الرقبة دعوة إلى الترغيب في إشاعة الحرية التي تؤهل الشخص لتحمل كافة أعباء الحياة والإسهام في بناء التكافل العام بين كل أفراد المسلمين في مستوى واحد وفي الترغيب أو فرض تحرير الرقبة في بعض الأمور دليل صريح في أن الإسلام قد نادى بالغاء الرق قبل أن يظهر المتشدقون من دعاة الحرية العصرية ، مع أن حال الرقيق في الإسلام يختلف كما بين المشرق والمغرب عن حاله في العالم الجاهلي وقد عرفت سابقاً ما كان معمولاً به في أوربا وغيرها زمن الاقطاع وسيطرة البابوات في الوقت الذي كان الإسلام يقول : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** (١٠) ﴾ [١] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣) ﴾ [٢] ، وقوله ﷺ : «**لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلا لأحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إلاَّ بِالتَّقْوَى**» [٣] ، وقوله ﷺ : «**كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**» [٤] ... إلى آخر النصوص الكثيرة .

٢ ـ كفارة الإفطار :

وأمَّا كفارة الإفطار في شهر رمضان نهاراً وبالجماع عمداً ففيها الإطعام لستين مسكيناً لمن لم يجد عتق رقبة أو لم يستطع صوم شهرين متتابعين ولاشك أن إطعام ستين مسكيناً فيها مواساة وتكافل بين أفراد

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٠

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣

(٣) أخرجه الامام أحمد في المسند ج ٥ ص ٤١١

(٤) أخرجه أبو داود جـ ٤ ص ٣٣١

المجتمع المسلم وفيها نفع للفقراء والمحتاجين فلو افترضنا أن هذه الكفارة وجبت على عشرة من الناس لكان مجموعها إطعام ستمائة شخص وهو أمر ظاهر في التكافل الاجتماعي ومعلوم أن كفارة الجماع في نهار رمضان ليست علي التخيير وإنما هي على الترتيب عتق رقبة . فصوم . فإطعام . وقد ورد الحديث ببيان ذلك كله «فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : هَلَكْتُ يا رَسُولَ اللَّه . قال ﷺ : «**وَمَا أَهْلَكَكَ؟**» قال : وَقَعتُ على امْرأتي في رَمضَان . قال ﷺ : «**هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً؟**» .قال : لا . قال ﷺ : «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟**» . قال : لا . قال ﷺ : «**فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِيناً؟**» . قال : لا . قال : ثم جلس فأتى النبيُّ ﷺ بعرق فيه تَمرٌ قال : «**تَصَدَّقْ بِهَذَا**» . قال : فهَلْ على أفْقَرَ منَّا ، فمَا بَينَ لابَتَيْها أهْلُ بَيت أَحْوَجَ إليه منَّا . فضَحِكَ النبيُّ ﷺ حتَّى بدَت نَواجذُه وقال ﷺ : «**اذْهَبْ فَأطْعِمْهُ أَهْلَكَ**»[1] ، وقد اشتملت عقوبة هذه الفعلة على نفع الغير ونفع النفس أيضاً .

٣ ـ كفارة الظهار :

وأمَّا كفارة الظِّهار ، وهي قول الزوج لزوجته أنها عليه كظهر أمه ـ أي في التحريم ـ كناية عن تحريم ما أحلَّه اللَّه تعالى ، ففيها إطعام ستين مسكيناً لمن لم يستطيع تحرير رقبة مؤمنة ولم يستطع صيام شهرين متتابعين وكما قدَّمنا في كفارة الجماع في نهار رمضان يُقال مثله في كفارة هذه الخطيئة .

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٢ ص ٧٨١

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ [(١)]

٤ ـ وأما كفارة القتل الخَطأ :

ففيه الدِّيَة حيث تُسلَّم إلى أهل الميت إذا طلبوها فتصبح ملكاً لهم يتصرفون فيها كما يشاؤن وينتفعون بها قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾ [(٢)]

٥ ـ وأما كفارة قتل المُحْرِمِ للصيد عمداً :

فهو بالإضافة إلى أنه نوع من إظهار الأمن العام لكل المخلوقات من قبل المحرم وهو أيضاً نوع من الإحسان إلى الفقراء وسداً لحاجتهم بما يصلهم من لحوم الكفارات أو من الإطعام لهم وهذا إسهام في سد حاجة

(١) سورة المجادلة الآية : ٣ ـ ٤

(٢) سورة النساء الآية : ٩٢

الفقراء يصلهم من مال الأغنياء الذين قد لا يتأثرون بما يقدمونه بينما هو في نفس الوقت فيه نفع لأصحاب الحاجات ومن هنا فإنه لا يجوز للشخص أن يستهين ولو بالشيء القليل من الطعام أو غيره فإن هذا القليل قد يكون كثيراً في نظر آخر محتاج .

٦ ـ النُّذور :

ومن الوسائل الأخرى التي تعزز التكافل الاجتماعي بين أفراد المسلمين النذور التي يجب الوفاء بها بعد إيجابها من ذبائح أو أطعمة أو كسوة أو سكن أو غير ذلك من الوجوه التي تعود بالنفع على المحتاجين وتسد جانباً من حوائجهم قال تعالى في مدح الذين يوفون بنذرهم : ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)** ﴾ [(١)]

ولا يرد على هذا أن النذر غير مرغب فيه وأنه إنما يستخرج به من البخيل إذ أنه بعد إيجاب الشخص على نفسه ذلك يجب الوفاء به حتى وإن كان من الأمور غير المرغب فيها في الأصل ولم يمدح اللّه الموفين به إلا وفيه أجر وثواب وأنه يجب الوفاء به إذا كان نذر طاعة مشروعة .

٧ ـ إكْرام الضَّيف :

ومنها ما شرعه الإسلام من وجوب إكرام الضيف ودفع الحاجة عنه حينما يكون في سفر باستضافته عند أي شخص يأوي إليه في سفره

(١) سورة الإنسان الآية : ٧

حتى يصل إلى بيته وأهله . ولهذا لو طبق الناس هذا المنهج الإلهي لأمن المسافر الحاجة والعوز مهما امتد به السفر . وهذا بخلاف ما في الحضارات الجاهلية التي لا تعرف للضيافة معنى خصوصاً في المجتمعات الرأسمالية التي تجعل الولد أو الوالد يدفع كل منهما للآخر ما أكله من مطعمه ، كما يُقال ، وخصوصا بعد أن كثرت المطاعم والمقاهي والفنادق التي هي عَدوَّة الضيافة حسب مفاهيم الضيافة في القديم .

المسألة الرابعة عشرة : التكافل عن طريق العارية

ومنها التكافل بين المسلمين عن طريق العارية تسهيلاً لانتفاع المحتاج إليها وسداً لحاجته ثم يردُّها كما هي لصاحبها فيحصل الانتفاع بالشيء الواحد لأكثر من جهة وهو خُلقٌ حميد حَثَّ عليه الإسلام ورغَّب فيه وذمَّ الذين يمنعون الماعون في قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)** ﴾[(١)]

المسألة الخامسة عشرة : رعاية العاجزين والضُّعَفاء

ومنها كذلك رعاية الإسلام للعاجزين والضعفاء وحل مشكلاتهم الاقتصادية فلقد أولت التعاليم الإسلامية عناية واهتماماً كبيراً بالعاجزين والضعفاء وإصلاح شؤونهم إلى أن يَقوَى أمرُهم وجعل مسؤولية القيام على مصالحهم في أعناق المجتمع كله حكاماً ومحكومين كل حسب وضعه إذ لو

(١) سورة الماعون الآيات : ٤ ـ ٧

قام هؤلاء كلهم بواجبهم لما بقيت أي مشكلة اقتصادية تهدد حياة البؤساء بهذه الحدة وهؤلاء الفئات من المجتمع هم :

١ ـ الأطفال عموماً .

٢ ـ الأيتام .

٣ ـ اللقطاء .

٤ ـ أصحاب العاهات .

٥ ـ الشواذ والمنحرفين .

٦ ـ المطلقات والأرامل .

٧ ـ الشيوخ والعجزة .

٨ ـ المنكوبين والمكروبين .(١)

٩ ـ الغارمين وأصحاب الديون المعسرين .

١ ـ أما الأطفال فإن رعايتهم والقيام على مصالحهم هي قبل كل شيء تقع على الآباء والأمهات فقد أوجب الإسلام عليهم تربية أبنائهم تربية بدنية ورحية وملاحظة نموهم وسلوكهم وتقييم كل تصرفاتهم والعدل بينهم وتعليمهم العلم النافع وتوجيههم إلي الجد في العمل والرغبة في خدمة أنفسهم ومجتمعاتهم ، وأوجب على الآباء النفقة عليهم مادامو في حاجة إلى آبائهم ، وأوجب على أمهاتهم إرضاعهم ورعايتهم إلى أن يكتفوا بأنفسهم وهذا في حال حياة الآباء .

(١) أنظر التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ٥٩

٢ ـ وأما في حال وفاة الآباء وأبناؤهم لايزالون أطفالاً صغاراً وهم من يطلق عليهم «الأيتام» فقد أوجب الإسلام على الناظر لهم كامل الرعاية والعناية بهم ورغب في الأجر على القيام بتربيتهم إلى أن يتجاوزوا سن الطفولة قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) ﴾ [(١)]

وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) ﴾ [(٢)]

وإذا كان لليتيم مال فقد أوجب الإسلام الحفاظ عليه وعدم التصرف فيه إلا بالتي هي أحسن لتنميته والحفاظ عليه سليماً مصوناً حتى يكبر كما قال تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [(٣)] .

فإذا تصرف فيه الناظر بالغش فإن اللَّه تعالى قد توعده بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴾ [(٤)]

فإذا أحس الناظر أن اليتيم أصبح حسن التصرف في ماله رده عليه امتثالاً لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا

---

(١) سورة الضحى الآية : ٩

(٢) سورة الماعون ، الآيتان : ١ ، ٢

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٢

(٤) سورة النساء الآية : ١٠

أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (٦) ﴾ [١]

وفي السنة النبوية حثٌّ شديد وتأكيد لحق اليتيم عبر عنه المصطفى ﷺ بقوله : «**أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ**» وأشار باصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً» [٢] ، ولا شك أن هذا فضل عظيم وأجر جزيل لمن احتسب كفالة الأيتام .

وعن النبي ﷺ أنه قال : «**مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إلاَّ لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَةً وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» وَفَرَّقَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى**» [٣]

٣ ـ وإذا كان الطفل لا يُعرَف له أب ولا أم وهو ما يسمى باللقيط فقد اهتم به الإسلام وأوجب له من الحقوق مثل غيره من الناس إذ لا ذنب له فيما فعله أبوه وأمه والله تعالى يقول : ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [٤] ، وكفالة اللقيط وتربيته الروحية والبدنية تقع على مسؤولية الدولة ابتداء فإن الحاكم وَليُّ من لا وَليَّ له . ولكن إذا تبرع شخص بكفالته وتربيته فله ذلك ويعتبر فعله صدقة يُثاب عليها وموردا اقتصاديها خيراً واللقيط على العموم يعتبره الإسلام عضواً عاملاً وله أن يقوم بكل ما يقوم

---

(١) سورة النساء الآية : ٦

(٢) البخاري ٥/٢٠٣٢

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ٥ ص ٢٥٠ في مسنده

(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥

به غيره من الأعمال استصلاحاً له ولا يبيح الإسلام تغييره بنسبه أو ازدراءه لذلك تطييباً لخاطره وعلى رجاء أن ينفع اللّه به . هذا بالإضافة إلى وجوب قيام الدولة بإتاحة التعليم لهم والمساعدات الأخرى حين يتعين عليهم تقديمها .

٤ ـ وأما رعاية أصحاب العاهات الذين ابتلاهم اللّه بعاهات قد تضعفهم عن مواصلة أعباء الحياة وخوض معتركها كأن يكون أحدهم أعمى أو أصم أو أبكم أو إصابته ضعف الشيخوخة أو كان به اختلال عقلي أو غير ذلك من الأمراض المزمنة التي لا يستطيع الشخص معها السعي والكسب سواء أكانت عاهات جسدية أو عقلية فهؤلاء تقع مسؤوليتهم على ذويهم أولاً ثم على الدولة ثم على المجتمع كله حيث يجب أن يشعروهم بالرحمة والعطف والعمل على تشغيلهم ما أمكن في حدود استطاعتهم كما يجب أن تتولى الدولة القسط الأكبر من العناية بهم وتعليمهم وفتح الباب لهم لتدريبهم في الأعمال المهنية التي يستطيعونها وهذا هو ما يدعو إليه الإسلام تحت دعوته إلى التراحم وأنواع البر .

٥ ـ أما رعاية المنحرفين والشواذ . فبغض النظر عن أسباب ظاهرة الانحراف والشذوذ فإن المسؤولية عن تربيتهم وإصلاحهم تقع أولاً على أولياء أمورهم ، وثانياً على الدولة ثم على المجتمع كله وتشترك مسؤولية أولياء الأمور والدولة تجاه هؤلاء في حمايتهم من وسائل الشذوذ فيمنعونهم مثلاً من مشاهدة الوسائل المشجعة على الفسق كالأفلام الخليعة والنظر في المجلات الماجنة وسماع الأغاني الفاجرة واقتناء الآلات التي تعمل على هدم الأخلاق وتسهيل الجريمة وما أحرى الجميع بمواجهة الفساد المنتشر

في عصرنا في وسائل الإعلام بشتى صنوفه ـ إلا من رحم اللَّه ـ فقد جدَّ أعداء الإسلام في تمييع شباب المسلمين وإخراجهم عن دينهم وجعلهم أداءة طائعة لمطامعهم يريدونهم أن لا يصلحوا لجهاد ولا يتحركوا لإصلاح . ويجدر بالأب إذا لم يستطع كبح جماح ولده بشتى الوسائل أن يستعين بعد اللَّه بالدولة ويترك العاطفة جانباً فلربما يجد على أيديهم خلاص ابنه خصوصاً الدولة التي يمن اللَّه عليها بحكام مسلمين مخلصين فإن الولد يحسُّ حين تتضافر جهود الأب والدولة على ردعه بأنه شاذ عن الطريق الصحيح وإلاَّ لما وقف كل المجتمع في وجهه بما فيهم مصدر الرحمة عليه وهو الأب وتضاف إلى مسؤولية الدولة عن هذا النشأ أيضاً فتح المجالات التي تستوعبهم ويشغلون فيها بمختلف الأنشطة المفيدة بل وفتح دور للإصلاح والتهذيب على حد قول الشاعر :

قَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِما ＊＊＊ فَلْيَقْسُ أحْياناً عَلى مَنْ يَرْحَمِ

وقد سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى عسَّاته بالليل امرأة من داخل بيتها تتغنى بأبيات شعرية تذكر فيها أنه لولا خوف اللَّه لسهل عليها مقارفة جريمة الزِّنا فسأل عن حالها فتبين له أن زوجها ضمن المجاهدين فأمر بردِّه وحدَّد بعد ذلك وقتا لغياب الزوج عن زوجته ، وقد سمع امرأة تتغزل في رجل فأمر بإحضاره فرآه جميلاً وَسيماً فأمر بحلق رأسه فزادَه ذلك جمالاً فأمره بأن يُذهَب إلى مكان في العراق ليَسكُنَ فيه غيرة منه على حُرم المسلمين وقَطعا لمصادر الفتنة .

وقد كان المصطفى ﷺ راكباً وخلفه ابن عمه الفضل وكان جميلاً فوقفت

امرأة تسأل رسولَ اللَّه ﷺ في أمر الحج وكانت تنظر إلى الفَضل وهو ينظر إليها فحوَّل الرسول ﷺ وجهَه عنها سداً للفتنة ، والأمثلة على هذا كثيرة في التاريخ الإسلامي وهكذا ينبغي عدم استسهال ما ينتج عنه الشر مهما كان صغيراً فقد قيل «ومعظم النار من مستصغر الشرر» فوجب إيقاف الشر قبل استفحاله وفوات الأوان والإسلام دائماً يحث على سد الذرائع واستشعار المسؤولية «**كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**» [1] ، وهي قاعدة دينية اقتصادية من أنجح الوسائل .

٦ ـ وأما رعاية المطلقات والأرامل ، فإن الإسلام لم يترك أمرهم دون بيان ، ولم يترك أمرهم لرحمة أحد وجفائه فقد أوجب للمطلقة الرجعية النفقة والسكنى إلى نهاية عدتها ولها النفقة حتى تضع حملها ـ إن كانت حاملاً ـ ولها النفقة بعد وضعها حملها إذا كانت ترضع ابنها كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا** (١) ﴾ [2] ، وقال تعالَى : ﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ** (٦) **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن**

(١) البخاري ٢/٩٠١ ومسلم ٣/١٤٥٩

(٢) سورة الطلاق الآية : ١

قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾ [١] ، وأما الأرملة وكذا المطلقة التي انتهت عدتها فإن كانتا في حاجة فإن نفقتهما على أقاربهما فإن لم يكن لهما أقارب انتقلت نفقتهما على الدولة التي يجب أن ترعى مثل هؤلاء الضعفاء والمساكين فتفرض للأرملة والبائنة ما يسد حاجتهما إلى أن يتغير حالهما بالزواج أو الموت أو الغنى وحينما كان المسلمون يطبقون مثل هذه الأحكام وحينما كانوا يتسارعون إلى الإنفاق على الضعفاء كانوا على أحسن حال وأكرمه وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

٧ ـ وأما رعاية كبار السن العاجزين عن العمل والكسب فإن الإسلام يجعل مسؤولية إعاشتهم على أقاربهم ثم على الدولة تنفق عليهم من بيت المال تقدمه لهم في أوقات معلومة كما كان الحال في عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة رضوان اللّه عليهم كما يجب على المجتمع كله أن لا ينسى الدعوات في كتاب اللّه وفي سنة نبيه ﷺ بالتصدق والإنفاق على الضعفاء ابتغاء الأجر والثواب وإقامة المجتمع الإسلامي على أسمى السلوك الطيب بحيث لا يشكل هؤلاء مشكلة اقتصادية يواجهونها دون سند من أحد .

٨ ـ ومثل هؤلاء في الرعاية ، المنكوبين والمكروبين من أصحاب الحاجة وهؤلاء لم يتركهم الإسلام وشأنهم يواجهون المعضلات دون أن يلتفت لهم أحد ـ كما هو الحال في الدول الكافرة ـ بل إن الإسلام اهتم بشؤونهم

(١) سورة الطلاق الآية : ٦

ورغَّب في خدمتهم وتسهيل أمورهم إلى حين انفراج الحال عنهم ومن كان معسراً وعليه دين فإن الإسلام يوجب على صاحب الدين أن يُنظِرَه إلى حين انفراج حاله قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [(١)] ، ومن كان في كربة فقد رغَّب الإسلام في الوقوف إلى جانبه ومساندته بل ولو أدى ذلك إلى إيثاره على النفس كما قال تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [(٢)]

وفي السنة النبوية قال رسول اللَّه ﷺ : «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ . وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [(٣)]

ومساعدة هؤلاء لا تقف فقط عند المشكلة الاقتصادية بل تتعداها إلى أمور أخرى كثيرة كالمشورة لهم والتوجع لحالهم ومواساتهم بالنصائح وإدخال السرور عليهم بأي فعل أو قول فيه خير وهذا جزء من التكافل الاجتماعي بين المسلمين الذي رغَّب فيه الإسلام فإن تفريج الكربات عن المنكوب لها طرق كثيرة وقد جعل الإسلام الكلمة الطيبة صدقة كما تقدم بيانه .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٠

(٢) سورة الحشر الآية : ٩

(٣) رواه البخاري ٨٦٢/٢ ، ومسلم ١٩٩٦/٤

●● تعقـــيب :

فأي نظام من النظم البشرية الوضعية يصل إلى هذا الرقي والتلاحم بين أفراده غير الإسلام ، هل في الاشتراكية الظالمة الحاقدة ، أم في الرأسمالية الجشعة المستكبرة ، أم الوثنيات البهيمية . كلا إنه في الإسلام المشرق الذي جاء وصف أتباعه بأنهم كالبنيان المرصوص وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تَداعَى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى .

المسألة الرابعة عشرة :

تحريم التعامل بالمال في بعض الأمور

ومن تنظيم الإسلام للأمور المالية أنه لم يجعل لصاحب المال الحبل على الغارب بل هذَّب التصرفات فيه وقد لا يفطن البعض إلى أن هذا التحريم هو مورد من الموارد التي أرادها الإسلام ومن ذلك :

١ ـ أنه حرَّم الربا الذي هو التسليف بزيادة على رأس المال وقد حرمه اللَّه لكي لا تذهب أموال قوم إلى آخرين دون مقابل فيزداد به الفقراء فقراً والأغنياء ثراءاً على حساب الفقراء وما ينشأ عن ذلك من إثارة للأحقاد والضغائن بين فئات المجتمع وانتزاع الرحمة وقتل كل مشاعر الفضيلة والكرم والأخلاق النبيلة ، والقروض الربوية التي تسمى ـ كذباً وزوراً ـ فوائد إن هي إلاَّ سُحت واستحلال للرِّبا وأكل أموال الناس بالباطل فإذا

اقترض الفقير بسبب حاجته وفقره مبلغاً من المال على افتراض أنه مليون ريال ثم يعيده بزيادة ٢٪ فإذا عجز عن السداد في الوقت المحدد يضاف إليه أيضاً نسبة أخرى لنفرض أنها ٣٪ فإذا عجز أيضاً تضاف نسبة أخرى فمتى يسدد المحتاج المبلغ الأساسي والمبالغ المضافة اليه ومنطق هذا الصنيع يقول كلما افتقر الشخص فإنه يُزاد عليه فقراً هكذا شريعة الرِّبا .

ولهذا كان الربا بمثابة إعلان الحرب على جميع الأمة وأن اللّه تعالى سيحارب أصحاب الرِّبا بما يشاء سبحانه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ [١]

وقال تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [٢]

وقد لعن الرسول ﷺ آكلَ الرِّبا ومُوكله وكاتبَه وشاهدَيه ، والمُرابي يفقد كل معاني النخوة والشهامة والكرم ويستمرئ العيش الرغيد والثراء الفاحش من وراء كدِّ الناس له فيميل إلى الإغراق في الكسل وعدم حب العمل والتفنن في اصطياد من ألجأهم الحال إلى الاستعانة به فيصبح كما قال الشاعر :

والمستجير بعمرو عند كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار**

(١) سورة البقرة الآية : ٢٧٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٧٥

كما أن آخذ المال بالرِّبا يصبح هو الآخر في خطر إذ تقوده رغبته في الثراء الذي يتخيله من وراء أخذ المال بالرِّبا والدين إلى الإفلاس من وراء استثمار ذلك المال إذا لم يوفَّق في تصريفه بطريقة ناجحة فيتحمل بعد ذلك سداد رأس المال وسداد الرِّبا والإفلاس الذي حل به ولم يقتصر ضرر الرِّبا على شخص أو أشخاص معدودين بل قد يشمل ضرره المجتمع والدولة بأجمعها فبينما هي تستحلي أخذ الأموال بالرِّبا إذا بها تُفيق على مبالغ هائلة مُتراكمة يصعب عليها أن تسددها فتلجأ بعد ذلك إلى الذل والخضوع للدول الدائنة أو استجداء من لا يبالي ولا يرحم بل وقد تدخل تلك الدولة تحت حكم الدولة المرابية طوعاً أو كرهاً كما فعلت الدول الاستعمارية في أكثر من بلد حين تدخلت بحجة حماية رعاياها ومصالحها الاقتصادية وأخيراً إلى مشاركة الدولة المدينة في اقتصادها وأخذ الثمرة منه . والغرض هنا هو بيان نظرة الإسلام إلى مصالح البشر من وراء تحريم الرِّبا وقد استفاض علماء الإسلام في بيان شؤون الرِّبا وأضراره والحكمة من تحريمه وبيان نتائج التعامل به وأقسامه المختلفة التي عدَّدها علماء الفقه وبيَّنوا أحكامها على ضوء النصوص من كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ وسنة نبيه ﷺ بما لا يحتمل المقام تفصيله هنا .

فيجب أن يحذر المسلم الحريص على سلامة دينه ودنياه أن ينساق مع دعاة تحليل ما حرمه اللَّه من الرِّبا وغيره أو أن ينظر في شبهاتهم التي هي بمثابة استدراكات على اللَّه عزَّ وجلَّ وإن لم ينطقوا بذلك فإن الرِّبا حرام تحت أي حيلة أو أية تسمية فقد أخبر اللَّه في كتابه

الكريم أن كبار آكلي الرِّبا زعموا أن البيع مثل الرِّبا لا فرق بينهما في ميزانهم الخاطئ وهي مغالطة بينها اللّه بأن الفرق بينهما أن البيع حلال وأن الرِّبا حرام ومنهم من يزعم أن الرِّبا لا يصدق إلى على الزيادة الفاحشة التي يأخذ فيها المرابي أضعاف ما أقرضه وهي شبهة باطلة فإن الرِّبا يصدق حتى ولو كان يسيراً مادام وقد أخذ عن طريقه مع أنهم يعلمون أن الرِّبا يضاعَف فيه الدَّينُ عند عدم السداد ومن الناس من زعم أن الرِّبا في حال الضرورة جائز بالنسبة للمضطر بحكم أن الضَّرورات تُبيح المحظورات وهذا تحايل لاستحلال الرِّبا المحرم فالرِّبا طريقة واضحة والضَّرورات كذلك لها طرق واضحة وضوابط بخلاف الرِّبا . والحاصل أن المسلم يجب أن يبقى بعيداً عن أي شبهة توصله إلى الرِّبا وأن لا ينخدع بزخارف أقوال المرابين مهما اختلقوا لها من شبهات وحيل كاذبة لاستحلال تعاملهم به .

●● تعقيب :

اتضح مما سبق أن الربا محرم بجميع أشكاله وتحت أي مسمى كان وأن أضرار الرِّبا ليست قاصرة على من قبله فقط وإنما تتعدى أضراره إلى كل طبقات المجتمع بما فيهم المرابي نفسه من حيث سخط اللّه على صاحبه وكذا نظرة الناس اليه ونظرته هو نفسه إلى العمل والجد بالإضافة إلى ظهور أضرار اقتصادية عامة وأضرار أخلاقية وأضرار اجتماعية حيث ينشأ عن ذلك استمرار الغني في غناه والفقير في فقره وسوء توزيع وتداول المال بين أفراد المجتمع فتزداد البطالة ويظهر الخلل العام في كل أفراد

المجتمع ، بالإضافة إلى ما يحصل بينهم من العداوة والشحناء وهذه العداوة والخصومات والأحقاد يؤججها ما يشعر به الفقير المحتاج تجاه الغني المرابي المستبد وعدم شعور الفقراء بأي عطف أو إحسان من جانب أصحاب الأموال المرابين بينما يحس الأغنياء بأن الفقراء يحسدونهم ويريدون التنصل مما عليهم من ديون الأغنياء فتفسد الضمائر وتنتكس الأخلاق وقد عرف اليهود هذا الجانب فاهتموا بجمع الأموال وإقراضها الأمميين أو الجوييم ـ كما يسمونهم ـ فيضمنون سلب أموالهم وإضعاف اقتصادهم وهدم أخلاقهم وهو ضمن وسيلة لافساد اقتصاد المجتمعات وتمزيق وحدة قلوبهم .

٢ ـ تحريم الاحتكار :

ومن وسائل الإسلام لحسن التعامل بالمال وتنظيمه للشؤون المالية تحريمه الاحتكار .

ومعناه أن تنعدم بعض الحاجيات الضرورية أو يرتفع سعر تلك الحاجيات وتوجد عند شخص أو أشخاص كمية منها يمكن أن تخفف الغلاء أو تسد بعض الضرورات لو بيعت من المحتاجين بالثمن الذي تستحقه ، فيعمد المحتكرون ويُخفُونها ولا يبيعون شيئاً منها إلا عند شدة الحاجة إليها وبسعر أكثر مما تستحق لإقبال الناس عليها بسبب حاجتهم واضطرارهم إليها فيستغل أولئك حاجة الناس إليها فيرفعون ثمنها ليكسبوا من ورائها الأموال الكثيرة دون أدنى إحساس بالرحمة أو العطف . وهذا الصنيع جائز في الأنظمة الجاهلية الرأسمالية بل ويفتخر أولئك المحتكرون بأنهم أذكياء يحسنون التصرف في تنمية أموالهم ولكن الإسلام يجعل هذا العمل

خطأ وصاحبه يرتكب إثماً مبيناً ويوجب عليه أن يبيعها بثمن مناسب وإلا ألزم رغماً عنه بذلك دفعاً للضرر عن الجماعة ولا يُعطَى منه إلاَّ قيمة السعر المناسب فقط ، قال ﷺ : «**مَنْ احْتَكَرَ فَهْوَ خَاطِئٌ**»[1] ، أي آثم . ولو تصوَّر هذا المحتكر أنه ربما يأتي عليه يوم من الأيام يحتاج هو نفسه إلى سلعة يحتكرها صاحبها لوجد في نفسه من الغيظ ما لا يعلمه إلا اللَّه .

كما ينتج عن الاحتكار أضرار جسيمة تضر بمصالح الناس الاقتصادية العامة إذ تختفي السلع والحاجات الفردية للناس بينما تبقى في أيدي فرد أو أفراد بخصوصهم فترتفع أسعار تلك الحاجيات فوق ما تستحقه من الأثمان وبالتالي ينتج تسابق شديد في المنافسة بين المستهلكين لاختزانها وجمعها من الأسواق فيلاقي الناس من جراء ذلك عَنتاً شديداً ، وللمسلمين عظة بالغة فيما يلاقيه الناس في ظل النظم الوضعية الجائرة التي تجيزه أو على الأقل تتغاضى عنه خصوصاً الأنظمة الوضعية الرأسمالية وكذا الأنظمة الوضعية الماركسية التي تحول فيها الاحتكار من أفراد الناس في النظام الرأسمالي إلى خصوص أفراد الحكام في النظام الماركسي الخبيث .

والإسلام حينما حرَّم الاحتكار واعتبر خطأ يجب الابتعاد عنه لم يشمل ذلك التحريم ما يدخره الإنسان في بيته من قوته وقوت عياله مهما بلغ إذا لم يكن في ذلك إضرار بالمصالح العامة للناس أو ما تختزنه الدولة لأوقات الطوارئ التي تلم بها بشرط أن لا يكون ذلك فيه إضرار بالمصالح العامة أو نقص لحقوقهم الضرورية فقد ورد في من يفعل هذا تهديد

---

(١) رواه مسلم ٣/١٢٢٧

شديد قال ﷺ : «مَنْ احْتَكَرَ سِلْعَةً يُرِيدُ أَنْ يَتَغَالَى بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ وَقَدْ بَرِئَ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّه» الحديث [1]

٣ ـ تحريم الغش :

فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [2]

وقال النبي ﷺ : «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» [3]

والإسلام يجعل كسب المال عن طريق الغش محرماً يجب التنزه عنه وتركه . وذلك لاستمرار صلاح القلوب ودوام الثقة بين الناس وحسن معاملة بعضهم لبعض والحرص على إتقان العمل الطيب وقد قيل : «من عاش بالحيلة مات بالحيرة» فإن الغاشَّ في سلعته أو في عمله يجد من وخز الضمير ومن نفور الناس عنه ما يكدِّر عليه صَفو حياته ثم يُفضي به الحال إلى الإفلاس فلا يأتمنه أحد على عمل ولا يشتري منه أحد سلعته . هذا مع ما ينتظره من العقاب في يوم الدين الذي يرى الإنسان فيه كل ما قدَّم وإن كان مثقال حبة أو مثقال ذرة كما أخبر اللَّه بذلك في كتابه الكريم : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [4]

(١) المستدرك جـ ١٤/٢

(٢) سورة المطففين ، الآيات : ١ ـ ٣

(٣) أخرجه مسلم ٩٩/١

(٤) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

وقد حرم الإسلام كل ما يوصل حيلة الغش وإنجاحها فحرَّم بيع المجهول والحلف على قيمة السلعة أو اختلاس شيء منها قد لا يراه المشتري أو قيام شخص بالزيادة في قيمة سلعة وهو لا يريد شراءها متواطئاً مع البائع لرفع سعرها وكذا ما يفعله أصحاب المواشي من غش المشتري بأن الشَّاة أو النَّاقة أو البقرة تحلب كثيراً فلا يحلبها مدَّة من الزمن ليذهب بها إلى السوق ممتلئة الضروع فيظن المشتري أنها دائماً كذلك فيشتريها فيقع في الغش ومن الغش أيضاً ما يقع في زمننا الحاضر بالنسبة للسيارات حيث يعمد بعضهم إلى إيقاف عددا السرعة مدة من الزمن فإذا جاء المشتري أصلح العداد وأراه أن السيارة نظيفة لم تسر كثيراً لقلة استعمالها وكذا ما يفعل بعض المستأجرين للسيارات حيث يعمدون إلى إيقاف العداد لئلا يتجاوز الكيلو مترات المتفق عليها لزيادة الأجرة وغير ذلك من صور الغش التي لا يعلمها إلا اللَّه تعالى والتي لا يمكن أن تزول إلا بوجود المراقبة الذاتية للَّه تعالى واستشعار الخوف منه عزَّ وجلَّ واللَّه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

٤ ـ تحريم المكاسب التي تأتي دون مقابل حلال كالقمار :

والقمار يراد به نوع من المراهنة على صفة خاصة قد يكسب فيها الشخص مبالغ ضخمة في لحظات وقد يخسرها أو يخسر بعضها في لحظات وقد لا يكسب شيئاً مطلقاً بل يخسر ما معه من المال . وهذا القمار نوع من الغش وهو كسب خبيث يؤدي إلى وقوع العداوة والحرب

في أكثر الأحيان ، إضافة إلى ما يحدثه بصاحبه من الاتكال في رزقه على تلك الطرق الخطرة وترك العمل المثمر الذي ينفعه وينفع غيره من أبناء أمته الذي يضع به لبنة في بناء صرح الإسلام وقد حرَّمه اللَّه تعالى وأخبر أنه رجس من عمل الشيطان وأن الفلاح مُرتَهن بتركه والخسران مُرتَهن بسلوكه قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٩٠) ﴾ [١]، [٢] ، فالقمار رذيلة من تلك الرذائل التي حرمها اللَّه على المؤمنين وإذا أراد الناس إصلاح أموالهم والرقي في عيشتهم والنزاهة في معاملاتهم فليتركوه . ومن ترك شيئاً للَّه عوَّضه اللَّه خيراً منه .

٥ ـ تحريم إنفاق الأموال في غير الطرق المشروعة :

وهي كثيرة ، وقد تجد الشخص يجود بماله من أجلها بسخاء ويحجم عن انفاقه في الطرق المشروعة لأن الطرق غير المشروعة توافق دائماً هَوَى النفوس المبتدعة مثل إنفاق بعضهم على الاحتفال بالموالد البدعية وقد عرف القارئ أن الاحتفال بأعياد المولد تكلفت أموالاً كثيرة خصوصاً إذا كان الاحتفال بعيد أحد الوجهاء وأصحاب النفوذ ومن المؤسف أن تجد بعض الدول الفقيرة يأتون في هذه البدع بأنواع البذخ والإسراف بما لا تفعله أغنى الدول أحياناً وكل ذلك على حسابهم الفقراء وكدحهم في سبيل الظهور بتلك الأبهة الحمقاء .

(١) والميسر في الآية الكريمة : أي القمار

(٢) سورة المائدة الآية : ٩٠

ومثل ذلك إنفاق الأموال الكثيرة في إحياء بعض الأمور الجاهلية كالآثار والتماثيل الموجودة قديماً ، وكذا إنفاق الأموال بسخاء على بناء المقابر وإيقاد الأنوار عليها مباهاة وإضلالاً لأصحاب النفوس الضعيفة ولقد حكى أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصى حينما قرب أجله أن يكفَّن في الثوب القديم وقال : «**إنَّ الحَيَّ أَحْوَجُ إلى الجَديد**»[1]

فأين هذا السلوك من فعل أولئك الحمقى الذين ينفقون أموالهم على رفات موتى لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً .

وكذا إنفاقها تشجيعاً لبعض الألعاب التي لا تعود بالنفع على المحتاجين من الفقراء ، وكذا إنفاقها على شراء بعض الأجهزة وأفلامها الخليعة التي خطط لترويجها أعداء الدين والإنسانية في هوليود من فجار اليهود ليكسبوا أمرين في آن واحد هما كسب المال والآخر القضاء على الأخلاق والعفة والغيرة في وقت واحد . ومن ذلك أيضاً هذا الغرام العارم في النساء للتفنن في متابعة ما يسمونه بالموضة في الثياب وفي إصلاح الشعر وأنواع المكياجات التي لا تخدم إلا البنوك الربوية اليهودية في أكثرها ، ومنها إنفاقه على معاهد ما يسمونه بالفن معهد الموسيقى أو الرقص الشرقي أو الغربي أو تعليم آلات الطرب وأنواع الأغنيات أو حفلات ما يسمونه اختيار ملكة الجمال وهي وصمة عار تجعل الحمير أرقى منهم وأعقل سلوكاً . وكذا إنفاقه في طباعة الكتب الضارة ككتب السحر والإلحاد أو الشعر الماجن إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي لا تُحصَر واللَّه تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم والعاقل من اتعظ بغيره .

---

(١) أنظر صحيح ابن حبان ٣٠٨/٧ موارد الظمآن ٥٣٤/١ الموطأ ٢٢٤/١ المستدرك ٦٧/٣

المبحث الرابع

التكافل في النظم البشرية

وفيه مطلبان :-

المطلب الأول

التكافل في الرأسمالية

١ ـ أما التكافل في النظم البشرية وأهمها الرأسمالية يكفي في وصفها بالنقص أنها من وضع البشر الناقصة عقولهم القاصرة أفهامهم عن إدراك الحق في الأمور المغيبية عنهم .

٢ ـ إن التكافل في النظم البشرية إنما هو قائم على تجارب وآراء هي عُرضَة للتغيير والتبديل باستمرار بسبب ما يظهر من النقص فيها من حين لآخر وهو شأن طبيعة البشر .

٣ ـ إن التكافل في النظم البشرية مقصور على الناحية المادية حيث تضمن المؤسسات لأفرادها في حالة الحاجة أن تقدم لهم مساعدة مادية حسب الأنظمة المقررة لدينهم وليس فيه أي جانب روحي أو أخلاقي عدا ذلك المال .

٤ ـ إن التكافل فيها مقصور على الأفراد أو الجماعات الذين هم ضمن نطاق ذلك التكتل وليس فيه أي نظرة لمن عداهم .

٥ ـ إن التكافل فيها لا يعير الناحية الإنسانية النابعة عن الشعور بالعطف والرحمة تجاه الآخرين أي اهتمام إذ أن الهم كله متوجه إلى جمع المال وادخاره لا إلى الرعاية للمجتمع والوقوف إلى جانبه وما وجد من التكافل عندهم فإنما كان بسبب الضغوط المتوالية من الشعوب على الحكام وبسبب المنافسات السياسية فيما بينهم .

٦ ـ إن تلك النظم السياسية والاجتماعية إنما أقرت نظام التكافل الاجتماعي في مقابل ما أخذته من الشعوب من أنواع الضرائب المختلفة التي تفوق ما يقدمه الشخص لهم مما يأخذه منهم وهذا يفيد أن ما يأخذه الشخص في نظام التكافل الاجتماعي البشري إنما يأخذه في مقابل ما أُخذ منه .

٧ ـ إن نظام التكافل البشري لم يستند إلى ضمير الشخص وعطفه وكرمه إنما يستند إلى القانون الذي يفرض إلتزامه على الجميع بالقوة . ولهذا فإن الشخص مهما يقدم بقوة القانون يقدمه وهو غير راض ولا مؤمل أي ثواب عند اللّه تعالى فلا يقدمه إلا إذا ضاقت عليه الحيل للإفلات من دفعه .

ومن هنا تلاحظ الفرق بين تقبل الشخص لفعل الخير تجاه الآخرين في الإسلام وفي النظم البشرية القاصرة وبالتالي نتائج كل فريق وما يقدمه لخدمة أبناء أمته ودينه والآثار النفسية عند كل فريق سواء أكان مفيداً أو مستفيداً وهذه العيوب تظهر بوضوح في التكافل في النظام الرأسمالي .

المطلب الثاني

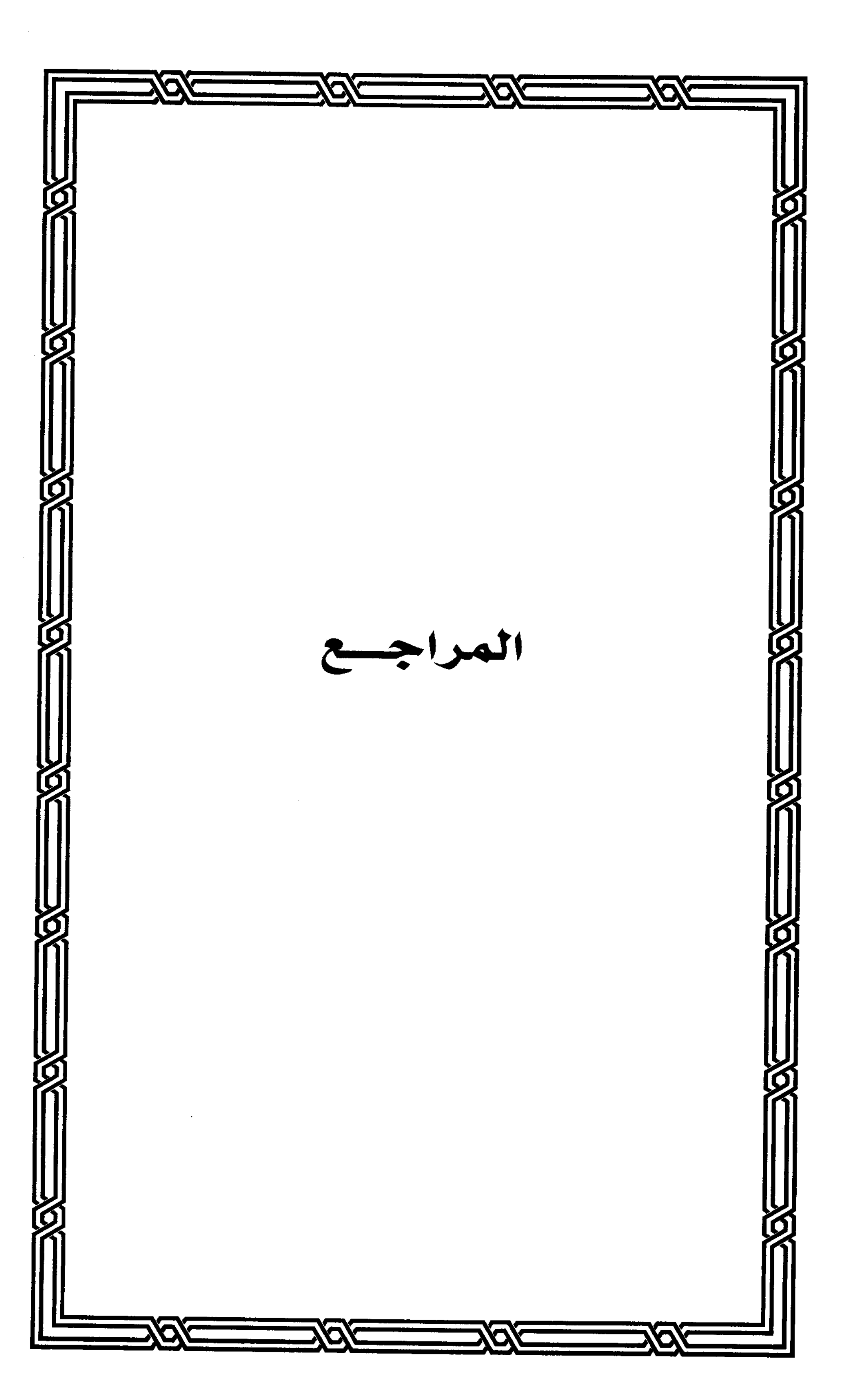
التكافل في النظام الشيوعي

أما التكافل الاجتماعي في النظام الشيوعي القائم بدلاً عن الملكية الفردية فقد قرر الشيوعيون في مذهبهم كما عرفت سابقاً أن على الدولة أن تقوم بكفالة جميع المواطنين وزعموا أن هذا المبدأ أفضل من نظام الرأسمالية من غبن المواطنين حقوهم وتغليب طائفة على أخرى لعدم التزامهم الشيوعية كما هو تعليل الملاحدة أقطاب الاشتراكية الشيوعية .

والكفالة التي يتمدح بها النظام الشيوعي تشمل الطعام والملبس والمسكن والجنس ولكن تحت هذه الضمانات تفاصيل مزعجة أول ما فيها أنها مفروضة فرضاً فالسكن هو أقرب شبهاً بزرائب الحيوانات التي تحشر في الأمكنة الضيقة كما أنه في مقابل هذه الضمانات يتحتم على كل فرد قادر على العمل رجلاً أو امرأة أن يعمل ويجتهد في العمل إذ أن المبدأ المتبع «من لا يحترف لا يعتلف» والدولة هي التي تسير الناس في أعمالهم حسب ما تطلب منهم إذ لا ملكية فردية فالكل يعمل للدولة والإنتاج كله للجميع ـ أي الدولة ـ ولا يعفى من العمل إلا الأطفال وكبار السن العاجزين والمرأة في حالة الولادة والتي يجب عليها أن تعود إلى العمل بعد أن تسلم طفلها لدور الحضانة الجماعية حتى تنتهي من العمل ثم تأخذه من الحضانة لترجعه عند مجيئها للعمل مرة أخرى إلى بيتها أو تسلمه الحضانة دون أن تجد في نفسها أي حرج في

ذلك وما في الدستور الشيوعي من أن الدولة تكفل كل فرد بتقديم الطعام والملابس والسكن فإنما هو في مقابل بيعه نفسه لهم ، ولا يهتم النظام الشيوعي بقضية الجنس والأسرة فقد أباح النظام كل العلاقات الجنسية بلا حدود بل ويفضلون أن يعيش الناس على النظام الشيوعي القديم ـ بما فيه شيوعية النساء ـ إلا أنهم قد أبدوا أخيراً حسب ما يُقال عنهم تراجعاً عن هذا النهج بفضل الدعايات التي قامت ضدهم والأوبئة التي انتشرت بينهم فقبلوا مسألة الزواج والطلاق في صورة ساذجة هي إلى اللَّهو والرياء أقرب منها إلى الجد فقد أنشأوا مكاتب لتسجيل الزواج وأخرى لتسجيل الطلاق دون أن يترتب على ذلك أي شيء فللرجل والمرأة أن يسجل الزواج متى شاء ويفصله متى شاء ولكل شخص أن يعاشر من يريد ، ومن الافتراء الفاحش زعم الملاحدة ومن تبعهم من المخادعين أن مبدأ الكفالة الاجتماعية هو إحدى حسنات الشيوعية الماركسية لنصه في دستوره على أن الدولة هي التي تشرف على توزيع العمل وتوزيع الإنتاج بالتساوي ولا يذكرون أنه وفي مقابل ذلك يكدح الإنسان فيها بكل جهده ليقطف الحكام ثمرة ذلك الجهد وعلى طريقة من «لا يعمل لا يأكل» ، و «من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته» وقد تقدم بحث هذه الفكرة وكيفية تطبيق الحزب الحاكم لها ونتائج ذلك وقد عرفت مما سبق أن الإسلام يكفل كل محتاج من بيت المال الذي يقدم المساعدة للمحتاجين دون أن يطالبهم بالعمل في مقابل ذلك بعجزهم عنه لأنه يعتبر المحتاج شريكاً للغني أو مقاسماً له في جزء من ماله وهي الزكوات والصدقات والتبرعات وغير ذلك ، يأخذ هذا المال وهو عزيز

النفس لا يستذل ولا يُهان من أجل سد حاجته وهذا الأمر مما تميز به الإسلام عن الماركسية التي ترى الذل للفرد أمراً واجباً للحصول على سد حاجته الضرورية وكفرضية العمل على الرجل والمرأة على حد سواء دون لفت النظر إلى حال المرأة وضعفها وكثرة متاعبها .



المراجـــع



قائمة بأسماء بعض المراجع

هذه قائمة بأسماء بعض المراجع ليستفيد منها من أراد التوسع في دراسة المذاهب الفكرية وأن تكون عوناً له بعد اللّه للاطلاع على ما تحمله تلك المذاهب في خضم عبابها من آراء وأفكار ، وتجدر الإشارة إلى أن هذه القائمة تحمل أسماء كتب بعضها وردت في تلك الدراسة وبعضها لم يرد لها إسم وإنما أردت بذكرها إتمام الفائدة للقارئ أسأل اللّه تعالى أن أكون قد وفقت في هذا الاختيار ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾[(١)] .

ومن تلك المراجع ما يلي :

١ ـ مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب .

٢ ـ الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، علي جريشة .

٣ ـ المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ، عبدالرحمن عميرة .

٤ ـ الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية ، محمد عزيز سالم .

٥ ـ أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، صابر طعيمة .

٦ ـ كواشف زيوف ، عبدالرحمن حسن الميدان .

٧ ـ غزو في الصميم ، عبدالرحمن حسن حنبكة الميدان .

٨ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم ، عبد الرحمن حسن الميدان .

(١) سورة الزلزلة ، الآيتين ٧ ، ٨

٩ ـ العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ، محمد حامد الناصر .

١٠ ـ الإسلام الحضارة الغربية ، محمد محمد حسين .

١١ ـ أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ، محمد السيد الوكيل .

١٢ ـ عصر الإلحاد ، محمد تقي الأميني الندوى .

١٣ ـ الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان تغريب ظفر خان .

١٤ ـ الفكر المادي في ميزان الإسلام ، صابر طعيمة .

١٥ ـ الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، محمد جمعة الخولي .

١٦ ـ جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ، جمال سلطان .

١٧ ـ الغرب في مواجهة الإسلام ، مازن المطبقاني .

١٨ ـ حكم الإسلام في الاشتراكية ، عبدالعزيز البدري .

١٩ ـ الشيوعية وليدة الصهيونية ، أحمد عبدالغفور عطار .

٢٠ ـ النظرية الماركسية في ميزان الإسلام ، أمير عبدالعزيز .

٢١ ـ المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ ، وليد نويهض .

٢٢ ـ الديمقراطية في الميزان ، سعيد عبد العظيم .

٢٣ ـ نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي ، محمد العرماني .

٢٤ ـ تهافت العلمانية ، عماد الدين خليل .

٢٥ ـ أجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن الميداني .

٢٦ ـ مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية ، سالم البهنساوي .

٢٧ ـ الإستشراق ، السيد أحمد فرج .

٢٨ ـ التكافل الاجتماعي في الإسلام ، عبد اللّه ناصح علوان .

٢٩ ـ أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، علي جريشة ، ومحمد شريف الزيبق .

٣٠ ـ السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية ، زياد أبو غنيمة .

٣١ ـ بحوث في الاقتصاد الإسلامي ، عبد اللّه سليمان المنيع .

٣٢ ـ التبشير المسيحي في منطقة الخليج ، أحمد فون دنفر .

٣٣ ـ الماسونية منشئة ملك إسرائيل ، محمد علي الزعبي .

٣٤ ـ الصهيونية وخطرها على البشرية ، حمود الرحيلي .

٣٥ ـ الكيد الأحمر ، عبد الرحمن الميداني .

٣٦ ـ الرأسمالية وموقف الإسلام منها ، حمود الرحيلي .

٣٧ ـ الإسلام والعنصرية ، عبد العزيز قارة .

٣٨ ـ العلمانية وثمارها الخبيثة ، عبد اللّه الجبرين .

٣٩ ـ الماسونية وموقف الإسلام منها ، حمود الرحيلي .

٤٠ ـ الماسونية تحت الأضواء ، عبد الجبار الزيدي .

٤١ ـ الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام ، عبد الحكيم حسن العيلي .

٤٢ ـ الديمقراطية في الإسلام ، عباس محمود العقاد .

٤٣ ـ حتمية الحل الإسلامي تأملات في النظام السياسي ، أبو المعاطي أبو الفتوح .

٤٤ ـ مبدأ الشورى في الإسلام مع المقارنة بمبادئ الديمقراطيات الغربية والنظام الماركسي ، يعقوب محمد المليحي .

٤٥ ـ الموسوعة الميسرة ـ ندوة الشباب ، مانع حماد الجهني .

٤٦ ـ الفكر الإسلامي وأثره بالفلسفة الإسلامية ، علي النشار ، وعباس الشربيني .

٤٧ ـ الحياة الإجتماعية في الفكر الإسلامي ، أحمد شلبي .

٤٨ ـ الإسلاميون وسراب الديمقراطية ، عبد الغني الرمال .

٤٩ ـ الماسونية ، محمود الشاذلي .

٥٠ ـ فضائح الكنائس والباباوات والقساوسة والرهبان والراهبات ، مصطفى غزال .

٥١ ـ مدارس الفكر الغربي الإسلامي ، عبد الرزاق قسوم .

٥٢ ـ الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية ، سليمان بسيوني .

٥٣ ـ مصرع الداروينية ، محمد علي يوسف .

٥٤ ـ الإسلام في حضارته ونظمه ، أنور الرفاعي .

٥٥ ـ الضمان الاجتماعي في الإسلام ، محمد الشعراني .

٥٦ ـ روتاري والصهيونية ، حمدي طنطاوي .

٥٧ ـ جدلية التاريخ والحضارة ، محمد عزيز .

٥٨ ـ الفكر المادي ، صابر طعيمة .

٥٩ ـ مفاهيم صابئية مندائية ، ناجية مراني .

٦٠ ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، محمد الصواف .

٦١ ـ العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون ، علي الحلبي .

٦٢ ـ الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين ، صابر طعيمة .

٦٣ ـ فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام ، صالح العبود .

٦٤ ـ شرخ في جدار الروتاري ، أبو اسلام أحمد .

٦٥ ـ الماسونية في المنطقة ٢٤٥ ، أبو اسلام أحمد .

٦٦ ـ الروتاري في قفص الاتهام ، أبو اسلام أحمد .

٦٧ ـ الإسلام في الغرب ، جان بول رو .

٦٨ ـ الإسلام في مواجهة الحركات الفكرية ، جميل المصري .

٦٩ ـ الإسلام يتحدى فلسفات العصر ، يوسف الملا .

٧٠ ـ موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، عبد اللّه المشوخي .

٧١ ـ النظرية الاقتصادية من منظور إسلامي ، شوقي دنيا .

٧٢ ـ الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية ، محمد عزيز .

٧٣ ـ التضليل الاشتراكي ، صلاح الدين المنجد .

٧٤ ـ النكسة والغزو الفكري ، محمد جلال كشك .

٧٥ ـ العلمانية ، محمد قطب .

٧٦ ـ العلمانية وثمارها الخبيثة ، محمد شاكر الشريف .

٧٧ ـ أساليب العلمانيين في تغريب المرأة المسلمة ، بشر بن فهد .

٧٨ ـ تجديد الفكر الإسلامي ، جمال سلطان .

٧٩ ـ التسامح في الإسلام ، شوقي أبو خليل .

٨٠ ـ الماسونية ، محمد صفوة السقا أميني ، وسعدي الوجيب .

٨١ ـ تاريخ الفكر الإجتماعي الوارد والاتجاهات المعاصرة ، محمد علي محمد .

٨٢ ـ الغرب يتراجع عن التعليم المختلط ، بفرلي شو ترجمة وجيه حمد .

٨٣ ـ سيرة الرسول ﷺ في تصورات الغربيين ، جوستاف بفانمو ، ترجمة محمود زقزوق .

٨٤ ـ الغرب في مواجهة الإسلام ، مازن المطبقاني .

٨٥ ـ العلاقات الإجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين ، بدران أبو العينين .

٨٦ ـ الإسلام والعولمة ، سامي الدلال .

٨٧ ـ خطر المربيات غير المسلمات على الطفل المسلم ، خالد الشنتوت .

٨٨ ـ نقد القومية العربية ، عبد العزيز بن باز .

٨٩ ـ الدين في مواجهة العلم ، وحيد الدين خان ترجمة ظفر الإسلام خان .

٩٠ ـ موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ ، أحمد العوايشة .

٩١ ـ العولمة ، يغمة شومان .

٩٢ ـ المستشرقون والإسلام ، عرفان عبد الحميد .

٩٣ ـ من آفاق الإستشراق الأمريكي المعاصر ، مازن المطبقاني .

٩٤ ـ مستقبل الاشتراكية ، كروسلاند .

٩٥ ـ الديمقراطية في العراء ، خالد آل حمزة .

٩٦ ـ الأرض الخاصة بالدولة في الإسلام أرض الصوافي ، عبد المهدي المصري .

٩٧ ـ الشعوبية الجديدة ، محمد مصطفى رمضان .

٩٨ ـ التطور والدين ، أحمد زكي تفاحة .

٩٩ ـ هذا هو الإسلام ، مصطفى السباعي .

١٠٠ ـ العلمانية ، سفر الحوالي .

١٠١ ـ جذور العلمانية ، السيد أحمد فرج .

١٠٢ ـ الهرطقة في الغرب ، رمسيس عوض .

١٠٣ ـ الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ، كرم شلبي .

١٠٤ ـ أصول التنصير في الخليج العربي ، مازن المطبقاني .

١٠٥ ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، عبد الحميد متولي .

١٠٦ ـ الإستشراق والدراسات الإسلامية ، علي النملة .

١٠٧ ـ تنصير المسلمين ، عبد الرزاق ديار بكلي .

١٠٨ ـ التبشر والاستعمار في البلاد العربية ، مصطفى خالدي .

١٠٩ ـ النظرية الماركسية في ميزان الإسلام ، أمير عبد العزيز .

١١٠ ـ في الشعوبية ، إسماعيل العرفي .

١١١ ـ الخطر اليهودي ـ بروتوكولات صهيون ، تعريب محمد خليفة التونسي .

١١٢ ـ تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، محمد الفيومي .

١١٣ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب ، عبد الحليم منتصر .

١١٤ ـ معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية ، مناع القطان .

١١٥ ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، مالك بن نبي .

١١٦ ـ الإسلام والفكر المعاصر ، حلمي مرزوق .

١١٧ ـ الإستشراق ، أحمد فرج .

١١٨ ـ مذابح وجرائم محاكم التفتيش ، محمد علي قطب .

١١٩ ـ قضايا العالم الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد ، أحمد منصور .

١٢٠ ـ أمريكا والإسلام تعايش أم تصادم ، عبد القادر طاش .

١٢١ ـ انحسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والإسلام ، أحمد عبد الغفور عطار .

١٢٢ ـ النظم المالية في الإسلام ، عيسى عبده .

١٢٣ ـ العولمة والدولة والوطن والمجتمع العالمي ، غسان سنو ، وعلي الطراح .

١٢٤ ـ الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام ، منير محمد نجيب .

١٢٥ ـ المرأة العربية المعاصرة إلى أين ؟ ، صلاح الدين جوهر .

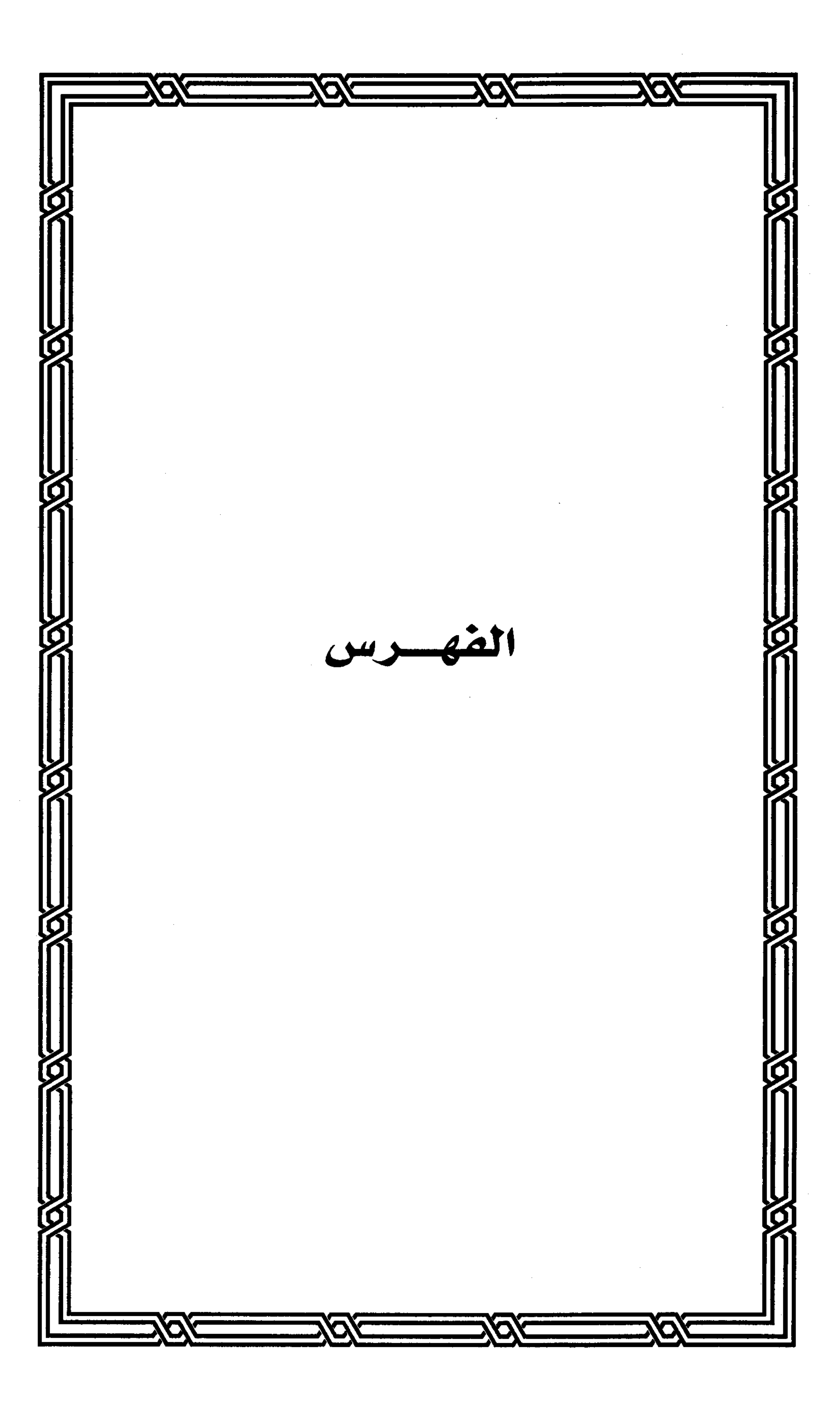
تلك عجالة أسماء كتب أكتفي بذكرها ، ومن الجدير بالذكر أن المراجع المدونة في بيان المذاهب الفكرية كثيرة جداً لا تكاد تحصى إلا بالكلفة ، تزخر بها المكتبات الإسلامية ، وإنما أردت الإشارة العاجلة إلى بعض الكتب التي بحثت في مجالات الفكر الإسلامي أو غيره مكتفياً فيها بذكر إسم الكتاب أو إسم مؤلفه .

أسأل اللّٰه تعالى أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه

وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

المدينة النبوية

١٢/٦/١٤٢٦هـ



الفهـــرس